# دولة بني العباس

## الجزء الأول

الدكتور
شاكر مصطفى

الناشر
وكالة المطبوعات

شاكر مصطفى




الجزء الأول

الناشر
وكالة المطبوعات
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

الطبعة الاولى ـ ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٣

# بين يدي الكتاب

لبعض عصور التاريخ ، كما لبعض الناس او الطير أو الأرضين : حظوظ ومقادير : يخصب بعضها عطاء ونشاط يد وفكر في حين يفتقر غيره فهو الجديب المسوح الملامح . وينال بعضها من الرعاية والبحث مالا تناله اعصر اخرى هي اجدر واحرى ... ويشتهر من هذا العصر او ذاك رجل او بلد او حدث بينما تغمر العتمة او غبار النسيان في عصر ثان رجالا لا اروع وبلادا لا اجمل واحداثاً لا اندر ولا اغرب ... هي التي تصوغ التاريخ .

والعصر العباسي الأول من العصور المحظوظة . لقد كان عصر عطاء وخصب كثير . ولقد بحث ثم بحث منذ القديم . الأنوار التي سلطت على رجاله واحداثه باستمرار تركته ماثل الوجود في الأذهان حتى كأنه ما يزال يتنفس ويعيش . ولعله ليس ، بعد عصر الرسالة والفتوح ، من عصر في التاريخ الاسلامي نال الحظوة التي نالها هذا العصر من الناس . ويبدو انه لهذا السبب بالذات ما يزال ثمة الكثير مما يمكن أن يبحث فيه او يقال عنه . العصور الوافرة الغنى هي في الوقت نفسه العصور التي يمكن أن يتكشف فيها كل يوم جديد ....

ولست إلى الزعم أن هذا الكتاب يأتي بالجديد الذي قد أريد منه او الذي قد يأمله منه الباحثون ولكنه محاولة متواضعة في هذا السبيل. وما كان له ان يعرف اسنان المطبعة لولا الرغبة في ان يلغي كتاباً سابقاً من

مثله صدر قبل خمس عشرة سنةوقد تحولت عن كثير مما جاء فيه من بحث وراي .

وإذا اخذ الكتاب اسم « دولة بني العباس » ثم لم يبحث من التاريخ العباسي كله سوى العصر الأول فلاننا نتناول فيه ، من جهة ، التاريـخ السياسي فحسب . ولاننا من جهةاخرى نفرق ـ اويجب ان نفرق ـ بوضوح بين عهد كانت الكلمة فيه والحكم والسلطان لبني العباس وعهود اخرى تلته ما كان لهم فيها ولا السلطة على حاجب القصر . . . بلى ! هم الخلفاء بالبردة والقضيب والخاتم ولكنهم ليسوا أصحاب الدولة . دولة العباسيين الحقيقية إنما قتلت مع المعتصم . مصرعه كان مصرعها فلم يكن لهم بعدها من دولة ابداً . حتى حين أصابت الخلافة العباسية بعض اليقظة ما بين أواخر القرن السادس واقسام من القرن السابع بعده لم تكن اعمال أولئك الخلفاء الأخيرين اكثر من محاولة استيلاء على إمارة صغيرة حول بغداد في غفلة من المتسلطين الآخرين وعلى الطريقة التي كان فيها أي طامع في تلك العصور يقتطع إمارته اقتطاعاً . . .

وقصة « دولة بني العباس » هي قصة الدولة التي كانت لمدة قرن على الاقل هي دولة الدنيا الأولى . والدولة المسيطرة على مقدرات أكبر عدد من البشر ـ عدا امبراطورية الصين ـ والموجهة لأكبر عدد من الشعوب تحت يدها ومن حولها . دول معدودة على الاصابع فقط هي التي عرفها التاريخ دولا أولى في الأرض وبمثل هذه الهيمنة الواسعة ، فهي حتى في مسيرة التاريخ العام للبشرية مستحقة للمزيد من البحث والدراسة وتقويم الأثر .

على أن هذا الكتاب إنما عني خاصة بنواح ثلاث . السياسة الدينية والعلاقات الخارجية والأثر الاقتصادي في الاحداث . وإنما قصد إلى ذلك قصداً . فالعصر العباسي الأول ما يزال حياً فينا الى اليوم في حياته الدينية . العالم الاسلامي ما يزال الى يوم الناس هذا عالة على ذلك العصر

بالذات في مفهومه عن « الاسلام » . فقه هذا الدين بمذاهبه المشهورة الستة
أو السبعة الباقية إنما تبلور واجتمعت مادته واركانه في ذلك العصر فمنه
يزال هو « الاسلام » وهو فكر الاسلام الرسمي حتى الآن . كان هو المتن
وما كان بعده فانما هو شروح ورقص على الهوامش. ثم إن العلاقات الدولية
تأخذ المزيد من اهتمام ونظر الباحثين الآن لانها صورة الروابط الانسانية
ولأن هذه الروابط ما تنفك تزداد أثراً وشأناً بين البشر . وقد أسهم
العصر العباسي الاول أوضح الاسهام في دفع تلك الروابط والعلاقات ،
ووضع الخطوط الاولى في القانون الدولي . كان من اندر فترات التاريخ
التي فهمت وقادت سياستها على أساس دولي فشعوب الارض كلها
موضع اهتمام بفداد مرتبطة الاهتمام ببغداد . واخيرا فقد طالما اهملت
العناصر المادية في تحليل الاحداث . وبالرغم من نقص الدراسات فقد
حاولنا ان نعطي العامل الاقتصادي دوره . ليست الجيوش وحدها هي
التي تسير على معدتها . كلمة نابليون هذه عمت الشعوب والانسان بعد
ماركس . المعدة بيت الداء كلمة اضحت تنطبق أيضاً على التاريخ .

وإذا اقتصر هذا السفر – رغم سعته – على بحث الجانب السياسي
من العصر العباسي الاول فانما هذا في الواقع هدفه . وإذا أطال احيانا
في بحث الثورات وعدد ما يعدد من الفتن والمشاكل فيه فما ذلك عن رغبة
في إبرازها ولا تقديرا لشأنها في التاريخ – وهي في معظم الاحيان ضئيلة
الشأن والاثر – ولا تشنيعاً على ذلك الماضي الذي انقضى . فما التاريخ
قصيدة هجاء أو مديح ، ولكنها ضرورة استكمال صورة العصر ، هي التي
تملي ، والرغبة في لملمة أطراف الواقع التاريخي الغابر . على أنها دون شك
ليست هي التاريخ ولا هي تاريخ هذا العصر . ولقد نكون أقرب الى الحق
لو قلنا إنها شذوذه وإنها ما نشز عن حياة الناس العادية فيه وخرج على
فعالياتهم الانسانية المنتجة فهدمها هنا وهناك . هي الصورة السلبية لا
الواقع الايجابي ولا الفعالية الانشائية المعطاء . واذا كنا نرفضها كصورة
للحياة العامة في ذلك العصر فما نوردها إذ نورد إلا ليكمل السياق ويصدق
الخبر . وما نثرنا في حناياها من التفاصيل – وما اكثر ما تغص المصادر
الاولى بالتفاصيل – إلا بالمقدار الذي يوضح التيارات الكبرى والملامح العامة

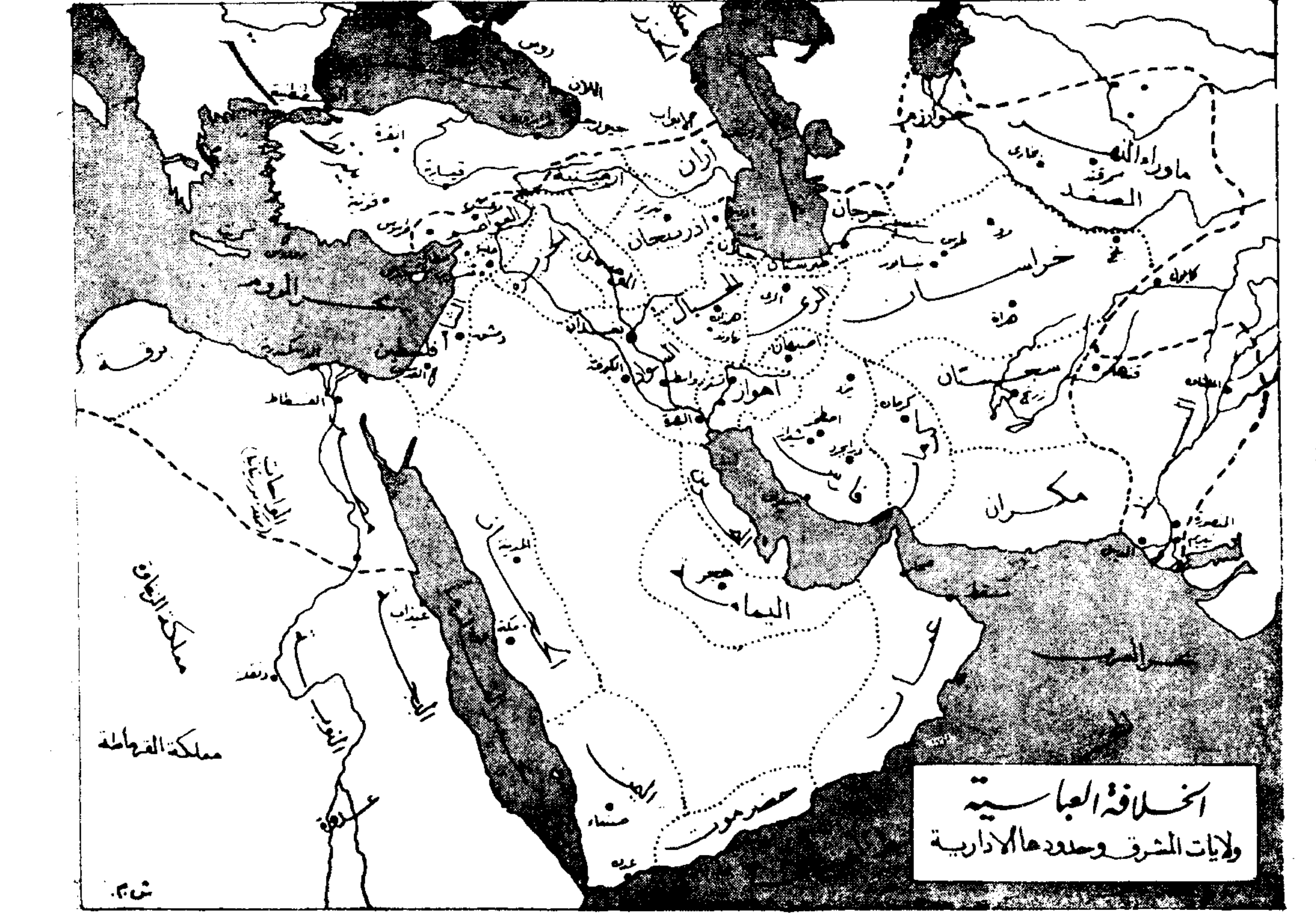
للمصر ، عـارفين أن مقـابل تلك الاحداث الـسوداء ومن ورائها وبالرغم منها كانت ثمة حضارة كبرى تتكون هـي احـدى كبريات الحضارات في التاريخ ، وهي تاريخ هذه الأمة الحقيقي ... ولكن لبحث تلك الحضارة كتابها الآخر المختلف !..

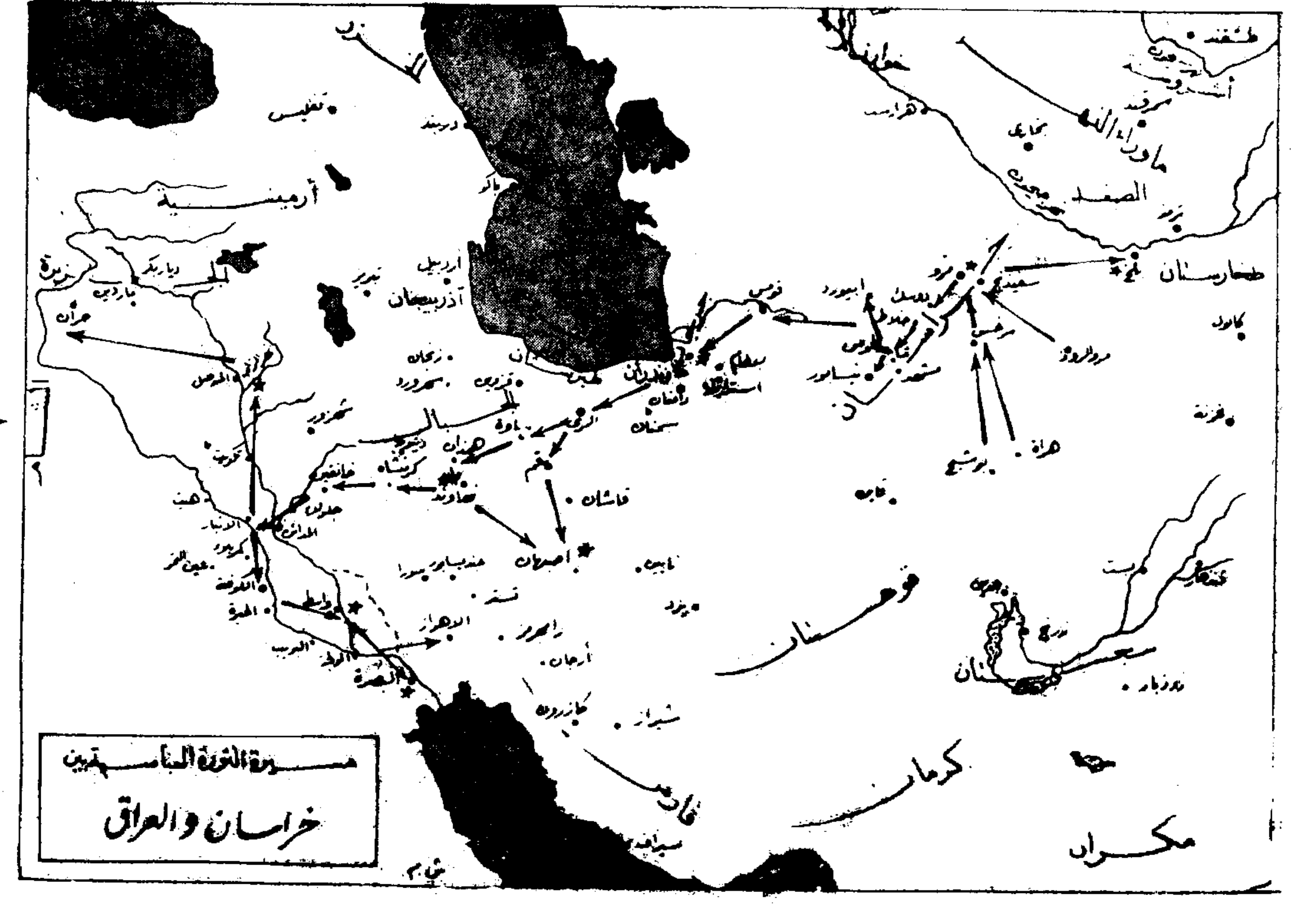
واخيرا فاذا استطاع هذا السفر ان يضيف كلمة جديدة واحـدة الى التاريخ العربي الاسلامي فهي حسبه . ولعله فعل !.

حزيران ١٩٧٣

**د. شاكر مصطفى**




الخلافة العباسية
ولايات المشرق وحدودها الادارية
ش ٣٠
الروم
برقة
مملكة النوبة
مملكة القرامطة
الفسطاط
فلسطين
دمشق
الكوفة
البصرة
اهواز
الجبال
الري
اصبهان
اذربيجان
ارمينية
ازان
جرجان
خراسان
ماوراء النهر
الصغد
سمرقند
بخارى
خوارزم
سجستان
كرمان
فارس
مكران
اليمامة
عمان
حضرموت
اليمن
صنعاء
مكة
المدينة
بحر العرب



خراسان والعراق
مكران
كرمان
فارس
أرمينية
أذربيجان
الجبال
ماوراء النهر
الصغد
طخارستان
تفليس
أردبيل
تبريز
زنجان
قزوين
همذان
كرمنشاه
نهاوند
قم
أصبهان
قاشان
الري
طوس
نيسابور
أبيورد
مرو
سرخس
هراة
بوشنج
مروالروذ
بلخ
كابول
غزنة
بخارى
سمرقند
الموصل
حران
الكوفة
البصرة
واسط
الحيرة
الأنبار
شيراز
كازرون
يزد
الأهواز
تستر

# الفصل الأوّل

## العالم الاسلامي في نهاية العهد الأموي

إذا ذكر العصر العباسي بين عصور الاســلام انداحت في الخواطر صور أشتات فيها من يد الادب وألف ليلة ومن الشعر والخمر وحياة الترهل أكثر ممـا فيها من وقـائع التاريخ • وفيهـا من أجواء الحضارة وخبر العلم والتجارة اكثر مما فيها من معرفة الأحداث ودخائل السياسة • وإذا كان العصر العباسي هو دون شك فترة الأوج في العطاء العربـي الاسلامي فانه كان أيضا على المستوى نفسه في الخصب السياسي • وإذا كنا نعتبر العطاء الحضاري هو الأهم والأبقى في التاريخ فان ذلك العطاء إنما قام على خلفية سياسية عريضة لم تكن أقل منه خصباً وتفاعلا مع حياة الناس •

وبين عصر بني العباس وعصر الرسالة قرن وثلث القرن فقط توالى فيها على قيادة دولة الاسلام بعد الرسول الاعظم الخلفاء الراشـدون فترة لم تزد كثيرا على ربع قرن ثم الأمويون قرابة القرن قبل أن تؤول الامور الى أحفاد العباس فيظلوا في قمة التاريخ الاسلامي وفي عنوانه ٥٠٠ سنة هي أطول مدة عرفتها أسرة في ذلـك التاريخ وفي كثير مـن التواريخ الاخرى •

وإذا كان جيل العصر الراشد هو جيل الاسلام والفتوح وإقامة الدولة فان العصر الاموي عرف أجيال السيادة العربية وتكوين أوسع دولة عربية اسلامية موحدة في التاريخ ، وانتشار العرب على أقطار المشرق والمغرب فاتحين ومتوطنين، ودخول غيرهم معهم في الاسلام عقيدة ونظام حياة ، وتحول اللغة العربية الى لغة عالمية هي في الدين والسياسة والتجارة لغة الدنيا الاولى • ثم جاء بنو العباس فكان ظهورهم تعبيرا عن التطور الجديد الذي طرأ على التاريخ العربي الاسلامي وعلى أجياله وعلى تطلعات تلك الاجيال •

وقد استمر ذلك التطور يتفاعل ويعطي ثمراته ويأخذ أبعاده المميزة مدة قرن أو تزيد هي العصر العباسي الأول قبل أن تطرأ عليه عوامل وعناصر جديدة تضعه على مسار تطور آخر وترسم فيه ملامح عصر مختلف • وبالرغم من أن بني العباس ظلوا عنوان العصور التالية أربعة قرون أخرى واقترن اسمهم باسم بغداد حتى كانت هذه المدينة صورتهم الاخرى وكان سقوطها سقوطهم ، إلا إن القرن الاول من تاريخ بني العباس هو الفترة الوحيدة التي تستحق ان تحمل اسمهم كحكام فعليين، أما بعد ذلك فكانوا العنوان دون المضمون والرمز الديني السني في النفوس دون أبعاد على الارض أو أثر في السياسة والناس • دولة بني العباس الحقيقية هي إذن ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر العباسي الأول • لأنه في الواقع العصر الاول والاخير •

ودراسة ذلك العصر هي في الواقع دراسة للمرحلة الثالثة التي دخلتها دولة العرب والاسلام في التاريخ • وبالرغم من أنها تحمل اسم العباسيين إلا إنها مرحلة متصلة الجذور والاعماق والتطورات بالمرحلة الاموية

السابقة ولم تكن انعطافا في ذلك التاريخ بقدر ما كانت تتمة واستمرارا له • ولهذا فقد يكون الدخول الى العصر العباسي ، أوضح وأعمق إن جاء عن طريق العهد الاموي وعن طريق التعرف الى الارض التي قام عليها ذلك العصر • وإنما وصلت الاسرة العباسية الى الحلول محل الاسرة الاموية المروانية في الخلافة لانها عرفت الاستفادة من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في ذلك العصر وأعطت مطامعها الشعارات الدينية ـ السياسية المناسبة•ولم تعمل أعنف العمل وأقساه وحدها ولكن عمل معها أيضا عدد من الظروف الملائمة • واذا كان فشل الثورات العلوية وقمعها بالشكل الدموي المرعب قد أعان الدعوة العباسية وعلمها الكثير فقد أعينت من جهة أخرى بما كان على أيدي الامويين من الثورات وماقام في مراكزهم بالشام من فتن وما فرقهم هم أنفسهم من نزاع عنيف كثير الدماء •

وهكذا إذن ليس بد في تفسير الظهور العباسي من التعرف الى العالم الاسلامي في نهاية العهد الاموي سواء من حيث اتساعه الجغرافي وتكوينه الديمغرافي أو حيث اتجاهاته الاجتماعية والاقتصادية وتياراته السياسية الدينية • ثم لا بد بعد هذا في تفسير النجاح العباسي من دراسة الحكومة الاموية في الناحيتين المالية والادارية،وفي مشاكل المال والادارة والثورات ومن دراسة بلاد الشام نفسها وما مزقها وجعل الأسرة الاموية فيهاتقف في الفراغ والارض الخواء ومن دراسة تدمير الامويين لانفسهم قبل أن يدمرهم العباسيون •• ولا بد الى هذا وذاك أخيرا من أن نعرف الى أي مدى ساهمت العلاقات الخارجية مع الروم خاصة في التمهيد للنصر العباسي الذي جاء نهاية طبيعية ومنطقية لسلسلة الاحداث والظروف والاعمال التي سبقته •

## ١ ـ اتساع الدولة :

حين لحق صاحب الرسالة (ص) بالرفيق الاعلى لم تكن رقعة البلاد التي تدين له تجاوز شبه جزيرة العرب وينتهي النفوذ الاسلامي شمالا عند خط يمتد بين نهايتي الخليج العربي وخليج العقبة • وبعد موجتين من موجات الفتح (زمن عمر ، وزمن الوليد بن عبد الملك) وقبل أن يمضي على عهد النبوة قرن واحد كان خلفاء الرسول يحكمون أكبر امبراطورية جمعت إلى عهدهم في التاريخ (عدا امبراطورية آتيلا) •

ففي السنين الثلاثين الاولى من القرن الثاني للهجرة كانت حدود الدولة العربية الاسلامية تمتد في الشرق من حوض السند وراء جبال هند كوش وسليمان ، الى هضبة بامير والحوض الاعلى لنهر سيحون• أما أطرافها الشمالية فتنتهي في بوادي تركستان وان كانت ترافق حوض جيحون حتى بحيرة آرال وتمشي مع الشواطيء الجنوبية لبحر الخزر ، ثم الشواطيء الغربية حتى سفوح جبال القفقاس فتسايرها الى الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر الاسود •

وكانت الحدود تتأرجح بعد ذلك في خط كثير الاضطراب والتغير من تلك الزاوية حتى جبال كيليكيا وراء خليج الاسكندرونة مارة بهضاب ارمينيا العالية وبمنابع الفرات •

واذا كان العرب قد أخضعوا قبرص من بحر الروم (الابيض المتوسط) فان باقي الجزر فيه لم تكن حتى ذلك الوقت قد وقعت في قبضتهم أو نفوذهم • وكانت مياه هذا البحر تفصل فيما بين أملاكهم في افريقيا الشمالية

وبين الشواطيء الجنوبية للقارة الاوربية حتى مرسيليا فقط على ساحل فرنسا الجنوبي ، اذ كان المد العربي قد وصل منذ عهد قريب الي تلك المنطقة عابراً اليها عن طريق جبل طارق والاندلس وهضبة قشتالة وجبال البرانس •

ولم يكن العرب مسيطرين على شبه جزيرة ايبريا كلها فقد بقي منها للقوط الزاوية الشمالية الغربية وراء جبال كانتابريك (منطقة آستوريس وغاليسيا) •

أما في شمالي افريقيا فان المحيط الاطلسي والصحراء الافريقية الكبرى أوقفاهم عن التوسع • كما أن نفوذهم في وادي النيل كان ينتهي عند الشلال الأول فأهل النوبة على هدنة وحلف معهم • وهكذا كانت الامبراطورية العربية تضم ثلاث هضاب كبرى : ايران وآسيا العربية وايبريا عدا شمالي افريقيا كله •

ولم يكن في العالم اذ ذاك من امبراطورية تضاهي هذه الامبراطورية العربية الاسلامية • وأكبر الدول الباقية المتمدنة واهمها كانت دولة الروم البيزنطية التي ظلت معتصمة بالقسطنطينية وما حولها في الاناضول من جهة وفي البلقان من جهة أخرى • كما كانت ابرز الدول الاقطاعية في اوروبا الغربية ، دولة الميروفانجيين في فرنسا ، تحت وصاية شارل مارتل • أما في المناطق الممتدة بين شمالي البحر الاسود وقزوين فتقوم مملكة الخزر وأما إلى الشرق منها حتى بحيرة آرال وبلكاش فكانت تتنقل القبائل البدوية التركية التي تشكل بعض الدول • وأما في باقي العالم في الشرق الاقصى فكانت هناك امبراطورية الصين محكومة من اسرة تانغ ، وفي شمالها في منغوليا يسيطر خانات اويغوز ( الغز الترك ) ،

وفيما بين الهند الصينية وسيام والهند كانت تنتشر عدة ممالك وامارات صغـيرة •

وفترة العصر الأموي بعد العصر الراشد هي الفترة الوحيدة فـي التاريخ العربي الاسلامي التي كان فيها مفهوم «البلاد الاسلامية» ينطبق على كل من مفهوم الدولة العربية ومفهوم « الخلافة الأموية » • كانت المفاهيم الثلاثة واحداً في المعنى • ومنذ تسلم العباسيون الامر انفصل مفهوم البلاد الاسلامية عن المفهومـين الآخرين فصار هنـاك بلـدان اسلاميـان : العبـاسي ، والأمـوي الانـدلسي ودولتـان عربيتـان فيهمـا خـلافة عبـاسية يقابلهـا إمـارة أمويـة • ثـم مـا لبثنا بعـد ذلك أن رأينـا أنـه وإن ظـل مفهوم البـلاد الاسلامية ثابتاً فان الدول الاسلامية قد تعددت كما أن مفهومها لم يعد ينطبق على مفهـوم الخلافة إذ ظهرت ثلاث خلافات عباسية وفاطمية وأموية ووراء كل منها ، وضمن إطارها في النفوذ الديني أو السياسي أو في الولاء دول اسلامية متعـددة ••

### ٢ ـ السـكان :

كانت الامبراطورية الاسلامية تضم عناصر شتى من السكان جمع بينها الفتح الاسلامي ، ففي ايبيريا كان سواد السكان مـن العناصـر الايبيرية ومن القوط الغربيين ( الفيزيقوط ) ومن بعض اليهود والفاندال والرومـان •

وفي منطقة الاطلس من شمال افريقيـا وحتى ليبيايسكن البربـر الحاميون يختلط بهم على السواحل بعض الفاندال وبعض الرومان •

وفي مصر كان القبط سكان مصر الاصليون مع مجموعات صغيرة من الرومان وغيرهم في الاسكندرية خاصة ، وفي جنوب مصر : النوبيون وهم من العناصر الحامية ـ الزنجية •

وفي الشام كان العنصر السائد هو الآرامي مع مجموعات من اليهود في الجنوب وبعض العرب اليمانية (الغساسنة) على اطراف البادية حتى دمشق مع جزر محدودة من الروم واليونان في بعض المدن كعسقلان وانطاكية والقدس •

وفي العراق كانت الخلائط القديمة من البابليين والاشوريين والكلدان قد غابت وراء غطاء من العناصر الايرانية ، رقيق • ولكن كان ما يزال واضحاً فيها بعض العناصر الآرامية وتدعى في الشمال السريان وفي الجنوب النبط • كما كان عدد من القبائل العربية يرود اطراف العراق الغربية حتى الجزيرة العليا ومنها قبائل بكر وتغلب• أما في البطائح والأحواز من جنوب العراق فقد تجمعت أعداد كبيرة من الزنج المجلوبين عبيداً للعمل في الأرض وفلاحتها ، ومعظمهم من شرقي افريقيا ، كما كان هناك عناصر من « الزط » انتقلوا إلى البطائح من حوض السند قبل الاسلام وبعده •

وكانت عناصر من الارمن تتوزع بين بحيرة وان وبحر الخزر في ارمينية • وإلى الجنوب منهم . في المناطق الجبلية ، بعض العناصر الكردية حتى حوض الزاب وديالي •

أما هضبة ايران فكانت عناصر الايرانيين والفرس تملؤها حتى اطراف بوادي تركستان حيث تقيم عناصر تركية صفراء ، وحتى الجبال

المطرقة على حوض نهر السند الذي تقيم فيه بعض العناصر الدرافيدية بطوائفها الطبقية الهندوسية •

وتتكلم هذه العناصر لغات مختلفة ، لها غالباً كتابات خاصة :

فالفيزيقوط كانوا قد تبنوا اللغة والكتابة اللاتينيتين (عن الرومان) •

وللبربر لغتهم الخاصة التي لا تكتب • كما ان للقبط كتابتهم (الديموطيقية) ولغتهم القبطية القديمة بجانب اللغة والكتابة اللاتينيتين (لغة الحكام الروم) واللغة والكتابة اليونانيتين (لغة الثقافة) وكانت عناصر الشام والعراق تتكلم وتكتب لهجات متعددة من اللسان الآرامي، اهمها اللغة السريانية والكتابة التابعة لها (والتي تحدرت عنها تحدراً غير مباشر الكتابة العربية) بجانب لغة وكتابة الحكام الروم والثقافة اليونانية • أما في ايران فقد كانت للفرس لغتهم الفارسية للراقية كما كان للهنود اللغة السنسكريتية التي كانت اللغة الاوردية قد بدأت بمزاحمتها • أما الاتراك فلهم لهجات غير مكتوبة •

وعدا الاختلاف في العنصر واللغة فهناك تعدد في اديان هذه المجموعة من الشعوب • فالقسم الغربي من الامبراطورية كان قبل الاسلام يدين بالمسيحية واذا كانت ايبريا الكاثوليكية وشمالي افريقيا الارثوذكسي حديثا العهد بهذه الديانة • وفيهما كثير من الوثنيين ، فقد كان للمسيحية في مصر والشام والعراق مذاهب راقية متعددة اهمها : المونوفيستية (اليعاقبة السريان) والمونوتيليتية ( الروم الارثوذكس ) والنسطورية •

أما بلاد ايران ففيها ديانات ثلاث يتفرع بعضها عن بعض : الزارادشية : وهي الأصل ودين الاكثرية • ثم المانوية : التي كانت

يقظة للزارادشتية في القرن الرابع والمزدكية المشاعية التي ظهرت في القرن السادس الميلادي • عدا جماعات من اليهود ومن النصارى النساطرة •

وعلى هذه المناطق والشعوب ذات اللغات والاديان انساحت منذ قرن واحد ومن قلب الجزيرة العربية عناصر عربية فاتحة تتكلم اللغة العربية وتدين بالاسلام •

وبالرغم من ان الحكم تم لها في هذه الامبراطورية المتعددة الالوان فانها لم تستطع ان تصبغ جميع تلك الرقاع بصبغتها الخاصة الا ببطء وبنجاح متفاوت : نجحت في تعميم الدين الاسلامي اكثر من أي شيء آخر ومع هذا فان اسلام ايران والعراق والشام ومصر استمر يجري تدريجيا حتى القرن الثالث وبين الفتح السياسي والفتح الديني حقبة طويلة الأمد• ولم يستغل المسلمون نفوذهم السياسي لفرض دينهم • بدليل انا لا نسمع عقب الفتوح أي خبر عن إجبار الناس على اعتناق الاسلام ، بينما نسمع بالعكس اخباراً متعددة عن اسلام جموع كثيرة من العراق ومصر وفارس ومن البربر خلال العهد الاموي وفي أواخره ( حتى لقد هددوا مالية الدولة ) ويتبين من هذا ان سواد الناس بقوا حتى اواخر القرن الاول غير مسلمين ، ولا سيما في الشمال والغرب من ايران وفي حوض السند وبين سكان ايبريا وجبال الاطلس وفي جبال وريف الشام ومزارع مصر ، كل ظل على دينه الاول لا يغيره •

ونجحت اللغة العربية اقل من نجاح الدين في الانتشار لانها تحتاج الى تعلم ومران • والمحاولة الكبرى لتعميمها انما تمت على يد عبد الملك في الشام واخيه عبد العزيز في مصر والحجاج واليه في العراق بما عملوا عليه من توجيه الناس اليها بتعريب دواوين الدولة • كما أعانها على

الانتشار ايضا أنها لغة الدين وان لها كتابة (كوفية) وأخرى لينة اشتقها العرب قبيل الاسلام عن الحيرية والنبطية وانتشرت بسرعة بينهم وبين الشعوب المفتوحة . ومع هذا فلا نتصور ان سكان الشام كانوا يفهمون كل شيء على حكامهم الامويين وان لغة التداول في مصر وفارس وبلاد الاطلس كانت غير القبطية والفارسية والبربرية . والخطوة الكبرى التي خطتها اللغة العربية لتحل محل اللغات المحلية كانت في العصر العباسي الاول حين اضحت لغة الثقافة والفكر في الحضارة الاسلامية ، بجانب كونها لغة الدين ولغة السياسة .

اما من الناحية العنصرية فان العرب الذين خرجوا من الجزيرة قد توزعوا مجموعات قبلية صغيرة أو كبيرة انتشرت في خراسان وفارس والعراق وارمينيا والشام ودلتا مصر وفي شمال افريقيا ، كما انتقلت الى الاندلس . وكونت في مختلف هذه المناطق طبقة واضحة من المستوطنين . وإذا كان لها في العراق ومصر مدنها كالكوفة والبصرة وواسط والفسطاط . فانها دخلت في صلب المدن الشامية كدمشق وحلب والقدس وقنسرين ، وفي المدن المغربية والاندلسية كما دخلت في المدن الايرانية والخراسانية كمرو وهمذان ونيسابور . وانتسب بعض العرب أحيانا الى هذه المدن . ولم تكن قوة العرب في هذه المناطق جميعا بأعدادهم — وهي اعداد هزيلة في بعض المناطق — ولكن باعتبارهم أصحاب الحكم والدين . وإذا انتصرت جموعهم في معركة التعريب فانما كان ذلك من الوجهة الثقافية ( اللغوية والدينية ) فقط ، اما عرقيا فقد اندمجت مع غيرها وذابت جزئيا أو كلياً في بعض الاحيان . وإذا استثنينا مركز التجمع العربي والتوطن في العراق والشام خاصة فقد قامت أهم مراكز التوطن العربية على جناحي الامبراطورية في أقصى طرفيها : في المشرق ( خراسان ) وفي المغرب (الاندلس) .

## ٣ ـ الاتجاهات الاجتماعية الاقتصادية :

من الصعب دراسة الاتجاهات الاجتماعية ـ الاقتصادية منفصلةعن الاتجاهات الدينية والسياسية في المجتمع الاسلامي ـ الاموي ، فقد كانت كلها متشابكة مرتبطة ، فلكل صيحة سياسية وجهديني متأثر بشكل أو بآخر بجذر اقتصادي ، ولكل فرقة دينية رأي سياسي مرتبط بمصالح مادية ، كما كان لكل حزب او نحلة أو فكرة مجموعة معينة من الناس تؤيدها وبلد تبنت فيه وأسباب اقتصادية دافعة. ولعل مشكلة (الحكم) كانت نقطة التقاء وافتراق تلك الاتجاهات المختلفة جميعاً .

وإذا نحن نظرنا في تكوين المجتمع الذي ساسه الخلفاء الامويون ميزنا فيه مبدئيا جماعتين : الجماعة المسلمة ، والجماعة غير المسلمة ( أهل الذمة ) .

لكن تمايزاً آخر كان يظهر ضمن الجماعتين ويقسمهما بدورهما الى أكثر من جماعة مما يمكن معه أن نرى في رعايا الدولة الاسلامية عدة طبقات بعضها يتصل تميزه بالدين وبعضها الآخر متصل التميز بالعرق أو بالمال أيضا . وإن لم تكن هذه الطبقات على أي حال طبقات مغلقة . فهناك :

أولا ـ العرب المسلمون ومنهم آل البيت ، والأسرة صاحبة الخلافة والصحابة ، والقواد والولاة وكبار أصحاب الاقطاعات ورجال الدولة وجانب واضح من الرعية هي قبائل العرب .

ثانيا ــ باقي المسلمين من ابناء الشعوب المغلوبة من قوط وبربر وقبط وروم وفرس وترك وهنود • وكان يطلق على هؤلاء أحيانا ولا سيما في منطقة العراق والشام اسم الموالي • كما كان يدخل تحت هذا الاسم أيضا العبيد المعتقون بما يمتون به من رابطة الولاء لأسيادهم السابقين•

ثالثا ــ أهل الذمة وهم النصارى واليهود • كما اعتبر من الذمة أيضا الايرانيون الذين بقوا على دياناتهم ومذاهبهم من زارادشتية ومزدكية ومانوية • وهؤلاء الاخيرون كانوا ينبذون أحيانا ببعض الاسماء التي تحمل معنى الاحتقار • فاذا كان يطلق على نصارى الشام والعراق اسم النبط ، ونصارى مصر اسم القبط ، فان الفرس كانوا عند المنافرة والخصومة يدعون بالاعاجم والحمراء والعلوج •

ويختلف الوضع الاجتماعي الاقتصادي للجماعة العربية عن جماعة الموالي وأهل الذمة اختلافاً متفاوت الدرجة والوظيفة :

فأما **العرب** فقد كانت الفتوح قد نثرتهم ما بين مشارق الدولة الاسلامية الى مغاربها • وقد فرغت الجزيرة العربية أو كادت تفرغ خلال القرن الأول الهجري من كل تلك الزيادات السكانية التي كانت تشكل القوة الديمغرافية الضاغطة في مطالع أيام الفتح • وانتقلت كثير من القبائل العربية بكتلتها العامة الى الأمصار المفتوحة • في عملية انتشار بشرى عربي واسع وبشكل مجموعات مقاتلة ، كانت محطاتها الأولى في جنوب العراق وفي جنوب الشام • وقد اتجهت هذه الجماعات العربية منذ أواخر القرن الأول الهجري الى الاستقرار النهائي والى الحياة الحضرية في المراكز العسكرية التي نزلتها كدور هجرة ( خراسان • الجزيرة وأرمينية • افريقية • الاندلس ) • ومع أنها احتفظت ــ وهذا طبيعي ــ

بالكثير من القيم والمفاهيم والروابط القبلية الا إنها أصبحت ، في الواقع، جزءاً من مجتمعات مستقرة • ومع أنها لم تتحول الى الحرف والمهن إلا . إنها ــ مع احتفاظها بالصفــة العسكرية ــ شكلت طبقة مــن الملاكين والاقطاعيين الزراعيين والتجار • وشاركت في مختلف الفعاليات المدنية والفكرية ، في المناطق التي نزلتها • وإذا انصرفت القبائل الحديثة الهجرة عن الزراعة الى العمل العسكري فإن القبائل السابقة لها واشرافها خاصة قد تنبهوا الى قيمة الأرض وإلى إحياء الموات منها• وقد اعتبر الحكم الاسلامي كافة الأراضي في البلاد المفتوحة ملكاً لبيت المال لا علاقة لهـا بالغنــائم والتخميس وتركت في أيدي من بقي عليها من أصحابها يؤدون عنها ضريبة الخراج • أما ما أعطى للعرب المسلمــين منها بأمر الخلفاء في الفتوح فاعتبر أرضا عشرية •

وقد دمرت الفتوح العربية الاقطاعيات الساسانية والبيزنطية القديمة التي كانت ترتبط بالنبلاء وبالأسر الحاكمة وبالمعابد وردت تلك الملكيات باسم ( الصوافي ) إلى بيت المال أيضاً • ويمنح الخلفــة أو يؤجر تلك الأرضين أو يضمنها لمن يشاء مقابل خراج معين يدفع للدولة • وكان معظم المستأجرين أو الضامنين من العرب• وتحرر أقنان تلك الأراضي الاقطاعية بهذا الشكل فأصبحوا مزارعين لدى الاقطاعي العربي الجديد يدفعون له من الانتاج حصته•ولم يكن ثمة قانون ــ كالقوانين الساسانية والبيزنطيةـ يجبرهم على الارتباط بالأرض لا يفارقونها بل كان ثمة بالعكس مهرب واسع لهم منها عن طريق اعتناق الاسلام •

ويظهر أن السلطات الاسلامية الحاكمة لم تتوسع في تمليك الأراضي الخراجية وفضلت دوماً تأجيرها أو تضمينها ضماناً ، مما أغضب الجماعات العربية المتنفذة التي طمعت دوماً في توسيع اقطاعهــا وفي تملك ذلك

الاقطاع • ولما كانت الثورات منجهة وتحرر اقنان الأرض المزارعين وإسلامهم من جهة أخرى قد سمحت بهجرة زراع الريف بأعداد كبيرة الى المدن وبتفريغ الأراضي من المزارعين فقد اعتمد الكثير من المالكين على العبيد في العمل الزراعي • وقد استخدم الزنج خاصة في جنوب العراق • كما استغل هؤلاء الملاكون مرة ـ في العراق أيضاً ـ ثورة ابن الاشعث لاحراق الديوان وسجلات الأرض فيه وادعوا بملكية الأرض التي تحت ايديهم من الصوافي والأرض الخراجية[1] • وأهمية مثل هذه الحركة تظهر إذا عرفنا أن الأرض المملوكة للعربي المسلم تدفع العشر ، عشر الانتاج بينما تدفع الأرض الخراجية ضريبة لا تقل عن ٢٥٪ وتصل أحياناً الى ٤٠ ـ ٥٠ بالمائة • ولنلاحظ أيضاً أنه إذا كان دخول الشعوب في الاسلام قد أنقص موارد الخزينة من الجزية فإن تحويل الأرض من الخراج والايجار والضمان الى الملكالعشري ـ وهي العملية التي كان يقوم بها المتنفذون العرب بمختلف الوسائل ـ كان ينقص بدوره تلك الموارد من جهة أخرى • وقد عانت السلطات الاموية عواقب ذلك وكان من اسباب انهيارها •

وصورة التوطن العربي في العراق تماثل صورته في الشام وفي خراسان ومصر وافريقية • ولكنا نلاحظ أن التوطن الذي جرى على الجبهات الاسلامية الحربيةالبعيدةعن المركزكخراسان وإفريقيا والاندلس كان اكثر قلقاً ونقمة على السلطة الحاكمة واكثر حرية في العمل من العرب الذين توطنوا في الشام ومصر وحتى في العراق • وإذا كانت خراسان « ••• بها الناس وجمجمة العرب وفرسانها » كما يقول صاحب أخبار

---

(١) الماوردى ـ الاحكام السلطانية ص ١٨٣ .

الدولة العباسية[1] فقد كانت قبائل عربية كاملة بالمقابل تضطرب في افريقية والاندلس • وفي جميع الأحوال كانت الطبقة القديمة من المتوطنين العرب قد فضلت التقاعس عن حياة الحرب والتحول الى حياة الاستقرار والاقطاع الزراعي دون أن تفرط بما هو مقرر لها من « عطاء المقاتلين » • وكان المتوطنون اللاحقون يأتون فيزاحمون السابقين على **هذا العطاء** حتى لقد اضطر الخليفة هشام بن عبد الملك أن يأمر والى خراسان بمنع العطاء عن من يرفض الاشتراك في الحملات العسكرية فيما وراء النهر ويعطيه المقاتلة الجدد مما أثار العرب القدماء وأوجد ضمن الكتلة العربية أحياناً مجموعتين اجتماعيتين ــ عسكريتين متنافستين: مجموعة المستقرين السابقين ومجموعة المقاتلة الجدد •

بل إننا نلاحظ اكثر من هذا أن نوعاً من التقارب والتعاون أساسه التقاء المصالح ، كان يجمع ، أحياناً كثيرة، ما بين الطبقات العليا من العرب والطبقات العليا من الموالى بل ومن الذميين أيضاً من سكان البلاد المفتوحة • وقد وجدت لذلك الفلسفة الاجتماعية الملائمة وقالوا إن الشريف من كل قوم نسيب للشريف من كل قوم • وهكذا ظل الدهاقين في ايران والرؤساء والوجوه في الشام ومصر تحت الحكم الأموي هم وجوه المجتمع ولو أن معظمهم لم يدخل الاسلام • وكانوا جميعاً على وفاق مع ما نستطيع أن نسميه بالارستقراطية العربية وقد تعاونوا معها وعاونوها وخاصة في تأمين الجباية وتنظيم الدواوين والسيطرة على التجارات والحرف •

وتأتي بعد العرب الطبقة الاخرى : طبقة **الموالي** •

---

(١) اخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول ( تحقيق ونشر الدوري ــ المطلبي ، بيروت ١٩٧١ ) ص ٣٨٦ •

وقد كانت في الاصل من الذميين ( الزارادشتيين في المناطق الايرانية المسيحيين في العراق والمناطق المحيطة بالبحر المتوسط ) وقد شهد القرن الأول تناقص اهل الذمة لحساب طبقةالموالى الجديدة التي توسعت اعدادها تدريجياً ولكن بشكل مستمر واسع وحاسم بدخول سكان المدن خاصة في الاسلام وتبنيهم أحياناً اللغة العربية مع لغاتهم السابقة •

ومن الضروري أن نقرر مبدئياً أن جماهير الموالى بصورة عامة بل وأهل الذمة أيضاً كانوا يعيشون الحياة اليومية العادية مع العرب بكل مكانى دون احتقار من جانب ولا عقد من الحقد من الجانب الآخر •وكان الموالي هم بشكل عام أصحاب الحرف والفعاليات الاقتصادية والوظائف والعلم في المدن كما كانوا هم الزراع في الريف • إلا إن ثمة بعض الأخبار والحالات التي كانت تكشف نوعاً من « التعالي » مارسه لسبب أو لآخر بعض العرب ضد الموالي وخاصة من الطبقات الوسطى والدنيا • وكانت هذه الحالات تسمح أحياناً كثيرة بإثارة وبتراكم الاحقاد العنصرية والطبقية والطائفية لدى الموالي كما تمهد لقيام الشعوبية ضد العرب • وكان يزيد هذه الاحقاد مرارة تغلغل مبادىء الاسلام في النفوس وتناقض أعمال بعض العرب مع مبادئه القائمة على المساواة والعدل •

وأسباب التعالي لدى العرب كثيرة : فالعروبة شرف لا يطوله الموالي الذين لم يظهر فيهم الاسلام ولا قاموا بالفتوح وليس لهم الحكم •ولهذا كان بعض العرب يشعرون بأفضليتهم كعنصر مميز رغم التناقض بين المبادىء التي بها يؤمنون ويبشرون والمفاهيم العنصرية والقبلية التي يمارسون •

ولم يتعال العرب على الموالي لجنسياتهم فقط ، ولكن لمهنتهم

أيضاً . فحرفة العرب : السياسة والحرب بينما يشتغل الموالي بالمهن اليدوية ( على الاغلب ) كالزراعة ، والصناعة ، واذا استخدم الموالي في الاعمال الكتابية والجباية فانهم قلما تولوا الوظائف النبيلة كالولاية والقضاء أو قبلوا في الجيش إلا مشاة وأما الفرسان فمن العرب .

وكان التعالي العربي يظهر خاصة ضد الموالي من الارقاء السابقين . وقد أبى العرب مقاسمة الموالي وهؤلاء منهم على الأخص ثمرات البلاد التي يفتحونها معهم فلم يجعلوا لهم « العطاء » أي الرزق الدائم الثابت الذي يعطاه المقاتلة العرب ومنحوهم بعض الغنائم عند الجهاد فأهل الكوفة سخطوا على المختار لهذا كله وقالوا له ( عمدت الى موالينا وهم فيء افاءه الله علينا .... فأعتقنا رقابهم نبتغي الأجر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا ؟ ) ويعلق ( الطبري ) على هذا بانه « لم يكن فيما احدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالي نصيباً في الفيء» [1] .

وشمل الاستعلاء احياناً ولد الاماء فكانوا يسمونه « الهجين لانه معيب » وكان بنو أمية لا يستخلفون بني الاماء[2] ويقولون : «لاتصلح لهم العرب» .

وقد رضي الموالي مكانهم هذا من العرب اول الامر ، بفعل العاطفة

---

(١) الطبري ج ١ ص ٤٣ — ٤٤ ويراجع في هذا الموضوع كتاب (الموالي في العصر الاموي) لمحمد الطيب النجار وكلمة ( مولى في دائرة المعارف الاسلامية ) .

(٢) مثال ذلك نزع بيعة الحكم بن الوليد بن يزيد ، وتردد سليمان بن عبد الملك في عقد الولاية لابنه داوود لانه ابن أمة ... الخ ( انظر مثلا ابن عساكر تاريخ دمشق ( مخطوطة الظاهرية ) ج ٥ ورقة ١١٩ وجه ، و ج ٦ ورقة ١٠ وجه ) .

الدينية والتغلب العربي السياسي ولان معظمهم لم يكن احسن حالا تحت الحكم الساساني والبيزنطي ولعل أقدم محاولة ــ على رأي غولد زيهر ــ في اوساط الموالي لرفض النظرية القائلة بافضلية العرب هي تلك التي جرت زمن معاوية ( وهي محاولة في اسلوب معتدل وتقوم على اساس ديني ) اذ ثار موالي الخوارج برئاسة أبي علي الكوفي مولى بني حارث وقال الثوار : « انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي للرشد فآمنا به » • وان الله بعث نبينا للناس كافة ولم يزوه عن أحد •

على ان الموالي خطوا خلال العهد الاموي خطوات واسعة في طريق التساوي مع العرب • وأهم ما اعتمدوا عليه ان يبرزوا في الناحية العملية والحياة العامة فقد كانت بأيديهم معظم وظائف الدولة الاساسية ومعظم الفعاليات الاقتصادية وان يبرزوا في الناحية العلمية الاسلامية خاصة لتعديل نقصهم الاجتماعي ، حتى كان معظم الفقهاء منهم • يتبين ذلك من الحديث الذي يرويه الدميري ( حياة الحيوان الكبرى ) ( وابن عبد ربه في العقد الفريد يروي حديثاً مماثلاً)[1] وقد جرى بين الخليفة عبد الملك والفقيه الزهري اذ بيّن الزهري للخليفة ان عالم مكة ؛ وعلماء اليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان والبصرة عدا الكوفة كلهم من الموالي• على ان ذلك لم يعطهم عند الامويين الحقوق السياسية • ولهذا السبب كانت جماهير الموالي الواعية لمبادىء التسوية في الاسلام والناقمة من الاستغلال الضرائبي ردءاً وعدة جاهزة لكل حركة من الحركات السياسية والدينية ولكل فتنة • وقد دخلت لذلك في مختلف الاحزاب العربية • وإن لم يتوفر لدى هذه الجماهير أي طموح واضح للقيام بأي ثورة ذاتية أو تنظيمها بغية الاستقلال أو تغيير الاوضاع السياسية •

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٤ •

وأما أهل الذمة أخيراً فكانوا ــ فيما عدا أراضي الجزيرة العربية ــ هم الكثرة العددية الغالبة وبأيديهم الارض والزراعة كما أن بأيديهم المهن والحرف في المدن وطبيعي أنهم كانوا يعتبرون رعايا ذوي وضع خاص، وكانت الجزية هي التعبير عن اختلاف طبقتهم الاجتماعية ضمن الدولة الاسلامية • كما كان ابتعادهم عن العمل السياسي الحزبي ــ الذي كان قاصراً على المسلمين العرب خاصة ثم الموالي ــ هو التعبير الآخر عن ذلك الاختلاف • إلا إنهم كانوا يتابعون حياتهم السابقة للاسلام في حرية كاملة في إطار العهود والمواثيق التي منحت لكثير من جماعاتهم عند الفتح • كما أنهم احتفظوا بتنظيماتهم الدينية فلهم الرؤساء الروحيون ولهم المعابد ولهم ما اعتادوا من طقوس وتقاليد ومواكب وأعياد ، ولهم ما كانوا ينصرفون اليه من فاعليات اقتصادية متعددة ومن «وجاهات» اجتماعية متوارثة من أمثلتها أن برمك جد البرامكة قدم على هشام بن عبدالملك في الشام في موكب من ٤٠٠ من الشاكرية ( الحرس على البغال ) وهو لا يزال على الزارادشتنية • وللذميين الى هذا وذاك نشاطاتهم الفكرية الخاصة ولعل من أمثلتها الواضحة أن فيلسوف الايقونية وأبرز من دافع عنها ضد الأباطرة البزنطيين اللا أيقونيين وهو يوحنا الدمشقي ( فم الذهب ) لم يكن لا في القسطنطنية ولا في بلاد الروم ولكن كان يعيش في دمشق وفلسطين في ظل الامويين ويتمتع بصداقة الخلفاء •

وإذا كان اختلاف الطبقة الاجتماعية للذمة لم يمنعهم من حرية النشاط الاقتصادي والفكري الكاملة فانه لم يمنعهم من التعاون مع الطبقات الحاكمة أوسع التعاون أحيانا وأبرز ماكان يظهر هذا التعاون في طبقاتهم العليا من رؤساء دينيين أو متمولين وملاكين كبار أو أسر أرستقراطية •

وكانت علاقاتهم مع الخلفاء والامراء الامويين علاقات من الصداقة الواشجة ومن التعاون في الادارة والحكم ولعلنا نذكر ها هنا دخول الأخطل بصليبه وخماره على الخليفة ونقائضه مع جرير والفرزدق ونذكر بناء بعض الامراء الكنائس لامهاتهم النصرانيات ( مثل خالد القسري ) ٠

## ٤ ـ التيارات السياسية ـ الدينية :

كان ارتباط الفكر السياسي بالدين ، في تلك الفترة ، أمراً طبيعياً ٠ لذلك كان لكل تيار سياسي منبعه الديني وسنده من القرآن والسنة ٠ وإذا كان الامويون قد حكموا بالقوة والسياسة والعصبية فإنهم ــ وهم في الحكم ــ لم يكونوا في غنى عن دعم خلافتهم بالسند الديني الذي كان يتمثل خاصة في مبدأين :

١ ــ أن الخلافة على أساس « السنة » وبرأي « الجماعة » الاسلامية قد صارت إليهم فهم على هذا وحدهم الحكام الشرعيون ببيعة من الاكثرية المسلمة ٠

٢ ــ أن مايتم على الارض فإنما هو بإرادة الله ٠ لأن الانسان مسير لا مخير ٠ وفلسفة الجبرية كانت تقوم في أساس الفكر الأموي ولو أراد الله غير ما هو كائن لفعل ٠

وقد أورد حمزة الأصفهاني في معرض الدفاع عن العلويين نصاً هاماً يكشف أسس الرأي السياسي الأموي ومعطياته يقول: « ٠٠٠ وصوروهم ( أي صوروا العلويين المناهضين للدولة ) عند أعتام عرب الشام بصورة الخوارج على أئمة العدل ٠ وقرروا عندهم أنهم شقوا العصا وأخرجوا أيديهم من الجماعة وحاولوا انتزاع الامامة من إمام ولي عهد إمام، طامعين في أن يغصبوه على حق موروث جعله من تقدمه أولى به منهم ٠٠٠ حتى

مان عليهم ( على العلويين ) أولئك الاعتام باللعن والافتراء وقالوا لهم : « تبأ لكم من معشر مفارقين للسنة والجماعة ، عاصين لخليفة الله • ثم غبروا قريباً من مائة سنة ( مدة الحكم الأموي ) يحذرون الناس ناحيتهم، يبغضونهم الى النفوس وينهون عن ملابستهم والاختلاط بهم •••»[1]
ولا شك ان هذا الرأي هو الذي كان سائداً في العهد الأموي لا في الشام فحسب ولكن في مختلف الأقطار وخاصة في مصر وافريقيا حيث كان خلفاء بني أمية هم « الأئمة » وأصحاب « السنة والجماعة » و « أولو الأمر » الذين تجب لهم « الطاعة» ويبدو أن الدعايةالأموية وصلت لدرجة الادعاء بأن ثمة « سفيانياً » لا بد آت أو ان « المهدي » المنتظر هو من بني عبد شمس • أو انه عمر بن عبد العزيز •••[2] وذلك في محاولة لسلب المعارضين واحداً من أهم أسلحتهم •

أما التيارات المعارضة فكانت تمثل مجموعات قليلة أو كثيرة من الناس موزعة في بؤر خاصة من المجتمع الاسلامي بالمئات أحياناً وبالألوف أخرى لكنها لا تمثل « الجماعة » • وإن كان لكل منها منطلقه السياسي الديني أيضاً وكان لها من الأنصار من هو على استعداد احياناً كثيرة للموت دونها •

وقد كانت هذه الحركات والتيارات عديدة ويلاحظ انها جميعاً كانت تتشكل في مطلع الأمر من الطبقة الحاكمة (العرب) خلافاً فيما بينهم حول شخص الحاكم ونظام الحكم . وذلك بنتيجة الطريقة التي وصل بها

---

(١) حمزة الاصبهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ، طبعة مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦١ ) ص ١٦٠ ـ ١٦١ •

(٢) روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ( ٥ ـ ١ ص ٢٤٥ ) كما روى الطبري ( ج ٦ ص ٥٦٦ ) شيئا من ذلك .

الامويون الى خلافة المسلمين ، ثم يدخلها الموالي ايماناً بها أو لمآرب أخرى من ورائها • وكان زعماء هذه الحركات يستغلون ـ مع الايمان ـ أوضاع الموالي الاجتماعية وما كان من سوء ادارة الامويين فيهم أحياناً ومن قسوة النظم المالية الجائرة ، لضمهم الى صفوفهم • وقادة « الشعوبية » الاوائل كانوا عامة من العرب الا بعضاً منهم •

والتيارات السياسية ـ الدينية الكبرى التي لعبت بالعهد الاموي وكانت السبب الأهم في اضطراباته هي :

**آ ـ الشيعة :**

أصل معنى اللفظ أنصار ، وقد اطلقت الكلمة أول الأمر على اتباع علي ولكن بعد وفاته • يقول الاشعري : « قيل لهم الشيعة لانهم شايعوا علياً رضوان الله عليه » وقدموه على سائر أصحاب رسول الله « لمزاياه الشخصية أو لاعتقادهم بحقه الوراثي في خلافة المسلمين » ثم أضحت الشيعة « اسماً للحزب الذي يشايع ابناء علي ويقول بالارث في الحكم ، وبحق آل البيت في هذا الارث » •

وقد سقي هذا الرأي بالدماء في موقعة كربلاء • فتحول من رأي سياسي نظري الى عقيدة إيمانية وحدت ما بين الشيعة على اختلاف فرقها وسرعان ما دخلت الى هذه الافكار البسيطة أفكار أخرى لا سيما بعد أن ربطت الحسين بالفرس رابطة المصاهرة • فظهرت في التشيع فرق عديدة يمكن أن نقسمها الى قسمين :

أ ـ فرق المعتدلين : ويقولون ـ حسب ماذكر الشهرستاني ـ ،

والكليني في أصول الكافي ـ ان الامامة بالنص لا بالاختيار وانها في آل على • ومن هؤلاء بصورة خاصة :

الزيديون : ( انصار زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ) وقد برزت فرقتهم في أواخر العهد الاموي • وهم الذين نجد بقاياهم اليوم في اليمن •

ب ـ فرق الغلاة : تعددت فرق الغلاة والمتطرفين من الشيعة في العصر الأموي وكانت أهم منابتهم في البصرة والكوفة• فمنهم أصحاب الجعد بن درهم وأصحاب بيان بن سمعان، وأصحاب المغيرة بن سعيد العجلي• ومنهم الخناقون والرافضة والجناحية والبشيرية والخطابية والعميرية والبزيغية والمفضلية والمعمرية • وقد تعددت الفرق غلواً أو تطرفاً رغم تبرؤ آل البيت من الغلاة • ونفقت بعض الفرق على الناس لاستتارها بالزهد أو ببعض النظريات الفكرية أو بتفسير بعض آي القرآن على نحو خاص • وبنتيجة كل اولئك جاء الغلاة بآراء غريبة في الاسلام •

ويرى بعض المستشرقين ان « هذه الافكار التي نشأت في مبدأ أمرها في البيئات غير العربية انما كانت بقية من عبادة الملوك . التي كانت معروفة لدى الفرس ، بعد أن خالطها بعض العقائد الشرقية » ولعل الاصح ان نقول إن حركة الغلو كانت استمراراً لحركات دينية ظهرت في ايران وانتشرت في العراق قبل الاسلام . كما ان بعضها امتداد للآراء الدينية القديمة من مجوسية وبوذية ومزدكية ومانوية عند أناس أسلموا لاغراض مختلفة فكسوا آراءهم الحقيقية الثوب الاسلامي • وهي تمثل سخط الطبقات الدنيا المثقلة اجتماعياً ومالياً من جهة . ورد فعل الديانات التي غمرها الاسلام من جهة أخرى •

وأول فرق الغلاة : ( السبئية ) اتباع عبد الله بن سبأ ولهذا يطلق

اسم السبئية على كل الغلاة • وهم ــ في رأي سيف بن عمر ــ أصل البلاء في الاسلام • ومنهم تشعبت كما يذكر الشهرستاني أصناف الغلاة•

واول ما قامت عقيدة السبئية على مذهب الوصاية الذي اقتبسه ابن سبأ عن اليهودية ، دينه القديم ، بمعنى ان علياً وصي محمد (ص) وانه خاتم الانبياء بعده • ثم تطورت الفكرة في السبئية الى القول بفكرة تجسد الالوهية • فهم يزعمون ان جزءاً الهياً حل في علي وهـذا الجزء الالهي يتناسخ في الأئمة من بعده • وقد لايظهر ذلك الجزء في العالم دوماً بل يجوز ان يعود إلى مهبطه السماوي ( الغيبة ) حتى يتجسد في شخص آخر ( الرجعة ) ويرى الشهرستاني ان هذه الآراء مأخوذة من المزدكية ، والبرهمية الهندية ، والفلاسفة والصابئة[١] •

وقد كان موطن السبئية : الكوفة وما حولها • وأكثرهم من الموالي وقليلهم من العرب ، وأول ما ظهرت أهميتهم السياسية في حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي ( ٦٤ ــ ٦٧ هـ ) اذ استمال الموالي والسبئية وعرف بعض مبادئها • ولم تمت الحركة بانهيار ثورته بل بقيت في الطبقات الدنيا وسنرى لها انتفاضة أخرى في مطلع العهد العباسي •

وبنتيجة حركة المختار ظهرت الكيسانية ( انصار كيسان وهو اسم المختار )[٢] ومبادئها الاساسية متصلة بالسبئية لكنها تغلو فتنسب الى الأئمة الاحاطة بالعلوم الالهية • وتذهب الى ان محمداً بن الحنيفة قد

---

(١) يرى السبئية ان ابا ملجم لم يقتل علياً ولكنه قتل الشيطان • وان علياً يزور الارض على السحاب والرعد صوته •

(٢) يذكر الاشعري القمي في المقالات والفرق ( ص ٢١ ) أن كيسان مولى لعلي بن أبي طالب وأنه غير المختار بن أبي عبيد الثقفي •

احاط بالعلوم كلها لان اخويه الحسن والحسين عهدا اليه بالاسرار كلها وتعلم التأويل والباطن • وانتهى اعتقادهم الى وجوب انفراد الامام بتأويل الشرع ( ويجمعهم القول بان الدين طاعة رجل) ـ كما ذكر الشهرستاني ـ حتى قال بعضهم ان طاعة الامام تبطل ضرورة التنسك بقواعد الاسلام • وتتفق الكيسانية مع السبئية في القول بالرجعة ولكن الفرق هو اعتبار الامام جزءاً من الاله او رمزا للعلم الالهي •

ومن هذه الكيسانية تفرعت الهاشمية ، القائلون بانتقال الامامة من محمد بن الحنيفة الى ابنه ( ابي هاشم ) عبد الله اذ عهد محمد الى ابنه باسرار العلم • ويذكر الشهرستاني ان الهاشمية قالوا : « ان لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا • والمنتشر في الآفاق من الحكم والاسرار مجتمع في الشخص الانساني وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقاً » • وقد ساعد تطرف الهاشمية هذا على تسرب كثير من الافكار الدينية القديمة اليهم • كما أدخل بينهم كثيراً ممن اسلم لطمع او لخوف دون فهم للدين • اذ وجدوا في التأويل توفيقاً بين عقائدهم الاولى وهذه العقيدة الجديدة •

واذا تورع الأئمة عن قبول ادعاءات المغالين وبرئوا منها او حاربوها فان ابا هاشم كان طموحاً يحاول الاستفادة منها • ويعتقد ( فان فلوتن ) « انه أول من نظم الدعوة وشجع شعور التقديس للامام والآراء المتعلقة بالتأويل » ويذكر ابن عبد ربه انه قام بأمر الشيعة وانهم كانوا يأتونه « ويقوم بأمرهم ويؤدون اليه الخراج » •

وقد ولد الحكم الاموي مع الخصومة الشيعية في مهد واحد وإذا استطاع معاوية ان ينتصر سياسياً على علي ويأخذ لقب الخليفة حتى في

حياته : فان خلفاء معاوية قاوموا بالقوة والدم حركات الشيعة ثورة بعد ثورة • وقد كانت « كربلاء »سنة ٦١ فاتحة السلسلة •

ولعل أهم الحركات الشيعية ، في العهد الاموي من بعد ذلك حركة التوابين سنة ٦٥ هـ للأخذ بثأر الحسين وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي سنة ٦٦ ثم تلك الحركة الثورية التي قام بها زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب سنة ١٢١ أو سنة ١٢٢ • وإذا كانت فترة الهدوء طويلة بين التاريخين فإنما يعود ذلك من جهة إلى اسباب الارهاب والشدة التي أخذ بها الأمويون شيعة آل البيت وإلى تفضيل البارزين من آل علي سبيل الدعوة السرية ( كأبي هاشم بن محمد بن الحنيفة ) أو الهدوء ( كمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ، ثم ابنه جعفر الصادق من بعده) •

وقد ظهرت ثورة زيد بن علي ( وهو أخو محمد الباقر ) في الكوفة زمن هشام بن عبد الملك ويبدو أن زيداً اعتبر نفسه الامام بعد وفاة أخيه ( التي تمت مابين سنة ١١٤ ـ ١١٧ ) ولم يقبل أتباع الباقر بمشايعته كما ان اتباع محمد بن الحنفية كانوا قد انضووا مع الجماعة الهاشمية في الدعوة السرية العباسية ، لذلك لم يلق زيد الكثير من التأييد الشيعي • وحين أرسل هشام بن عبد الملك جيشه بقيادة يوسف بن عمران الثقفي لم يصمد أنصار زيد للمعركة ، فقتل زيد وصلب على باب الكوفة مدة طويلة[١] •

يقول الطبري « ••• ولما قتل زيد عمد رجل من بني أسد الى يحيى ابن زيد فقال له : قتل أبوك وأهل خراسان لكم شيعة فالرأي أن تخرج

---

(١) يذكر ابن الازرق الفارقي في تاريخ ميافارقين ( مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٥٨٠٣ ورقة ٧١ وجه ) أنه « بقي مصلوبا حتى عششت ( العصافير ) في صدره » •

إليها »[1] • وخرج يحيى متخفياً إلى هناك وقد استطاع نصر بن سيار إخراجه من مكمنه وأمنه بأمر الخليفة الوليد بن يزيد وأمر له بمال وهدايا على أن يسير الى الخليفة فلا يقيم بخراسان ولكن يحيى ثار في الطريق فبعث إليه نصر بن سيار من قاتله حتى قتل سنة ١٢٥ •

إلا إن كثرة الدماء وتكرر الفشل وقوة السلطان الأموي زادت كثيراً من حذر العلويين كما زادتهم خبرة مع الزمن في أساليب المقاومة السلبية وفي بث الدعوة السرية وقد استفادوا بمهارة فائقة من شهدائهم، في استدرار العطف على آل البيت المضطهدين ، ومن مساويء الحكم الاموي . في ضم الانصار • ولهذا كان الشيعة أخطر الاحزاب في وجه خلفاء دمشق لأنهم :

آ ـ أثاروا الاستياء العام ضد الامويين في كل أمر وأظهروهم خاصة ككفار يضطهدون آل البيت ( آل محمد ) •

ب ـ اعطوا الحركات السياسية المعارضة للامويين قاعدتها الفكرية الواسعة ووضعوا لها المبادىء النظرية •

جـ ـ أتاحوا للموالي والفرس منهم خاصة ابراز أفكارهم الدينية الاولى في ثوب اسلامي •

د ـ باسمهم وعلى يد أنصارهم صار تهديم العرش الاموي •

---

(١) الطبري ج ٧ ص ١٨٩ ثم ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ ، ٢/١٧٢٣ ثم ١٧٧٠ فما بعد ) •

## ب ـ الخـــوارج :

وهم تلـك الفرقـة التي ظهـرت بـين أنصار عـلي وهـو عائد من صفين ، وخالفته في قبول التحكيم • وسواد هذه الفرقـة ـ كما يلاحظ الباحثون ـ كان من العرب البدو ومن أهل الردة الذين نزلوا الكوفة والبصرة بعد الفتوح الاولى ومن الجماعة التي قتلت عثمان •

ويرى ( نيكلسون ) ان الدافع الاساسي للحركة الخارجية دافـع ديني برغم مايشوبه من المظهر السياسي • والواقع ان نشأة الخـوارج سياسية اقتصادية محضة • وقد كانت حركتهم الأولى نوعـاً من النقمة البدوية على ما استأثر بهالقرشيون من الحكموالغنائم والخراج والثروات بعد الفتح لأنهم فهموا الاسلام على انه التسوية فرفضوا وقاوموا التميز القرشي • وقد ظلت افكارهم سياسية حتى خلافة عبد الملك بن مروان اذ مزجوا بها بعض الابحاث الدينية . وصيحة (لا حكم الا لله) التي كانت صيحتهم الأولى والتي كانت تحمل بالضرورة من المعنى الديني بقدر مـا تحمل من المعنى السياسي والاقتصادي لم يكن لها من مؤدى عند التطبيق في اول الامر ، سوى تحكيم السيف •

ويرى بعض المستشرقين والكتاب ان الخوارج يمثلون الحركـة ( الديموقراطية ) في الاسلام لانهم يعتقدون ان الخلافة حق لكل عربي حر • ومنهم من ادخل على هذه الفكرة بعض التعديل ـ بعد دخـول الموالي في الحركة ـ فاشترط الاسلام والعدل بدل العروبة والحرية • وهم بهذا الشكل ، جماعة اليسار ( وفيهم المعتدل والمتطرف ) . مقابل الشيعة حزب اليمين ( وفيهم بدورهم المعتدل والمتطرف البعيد التطرف )• واذا التقى الشيعة والامويون حول نقطة القبول بمبدأ الوراثة في الحكم فهؤلاء الخوارج خالفوا الطرفين لأنهم جعلوها شورى دائمة في كافـة المسلمين •

ثم انهم اعتقدوا ان العمل جزء من الايمان • فمرتكب الكبيرة ، رغم ايمانه ، كافر.والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من الفروض•• وهكذا صبغ تعصبهم السياسي وجهة نظرهم الدينية ، فتطرفوا في الدين تطرفهم في السياسة . ورموا بالكفر وعاملوا معاملة الكفار ، كل من لا يقول بنظريتهم المتطرفة •

وقد انقسم الخواج فرقاً عديدة تزيد في رأي البغدادي صاحب (الفرق بين الفرق ) على عشرين[1] ولكن الكبرى منها أربع أو خمس وتنسب كل منها إلى اسم صاحبها لانفراده برأيه الخاص • وهي بترتيب التساهل فالغلو :

أ ـ الصفرية وينسبون إلى عبد الله بن صفار التسيمي او زياد بن الأصفر لكن « اكثر المتكلمين ـ في رواية المبرد ـ يرون أنهم الذين اصفرت وجوههم لما نهكتهم العبادة » • وهؤلاء هم جمهرة القعدة الذين لا يرون ضرورة كبرى للقتال •

ب ـ الاباضية أصحاب عبد الله بن إباض المرى وهم لا يكفرون باقي المسلمين ولا يستحلون دماءهم • ( وبقاياهم اليوم في عمان وشمال افريقيا ) •

ج ـ البيهسية أصحاب أبي بيهس الهيصم بن جابر •

د ـ الأزارقة وهم أرومة الخوارج الأساسية ، أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي ويعتبرون اكثر الفرق تشدداً واستحلالاً لدماء باقي المسلمين •

---

(١) انظر البغدادي ـ الفرق بين الفرق ( مطبعة المعارف بمصر ١٩١٠ ) ص ٥٥

وهناك كذلك فرقة النجدات أتباع نجدة بن عطية الحنفي الذين لايرون ضرورة لاقامة إمام للمسلمين ... ولكل فرقة من هذه الفرق فقه خاص ، ولها مباحثها في مسائل القرآن والعلم والاثر والسير لكنها تتفق جميعاً من الناحية السياسية على رفض الحكم الأموي ووجوب الثورة على الظالمين . حتى القعدة منهم يرون أن الاصل هو الخروج لحرب الباطل والمفسدين والجور .

وقد حارب الخوارج الحكم الاموي باندفاع واصرار لا يصدران الاّ عن اصحاب العقائد الراسخة ، حاربوه منذ معاوية حتى مروان بن محمد . واستأثروا بمعظم جهد الحجاج في العراق لان بؤرتهم الكبرى كانت فيما بين حران وجنوبي العراق واطراف ايران الغربية . فلما كسرت شوكتهم مرة بعد مرة أيام عبد الملك بن مروان : بالتشرذم الذي أصابهم يوم « المحنة » أواخر سنة ٦٤ بعد أن انهزموا أمام اهل البصرة إلى الاهواز وانشقوا على ابن الازرق فرقاً ... ثم جاءتهم الضربات المتتالية بقتل نافع بن الازرق سنة ٦٥ وطرد جماعته الى فارس وصحارى كرمان ثم بحروب المهلب بن أبي صفرة وسحق تمرداتهم أيام الحجاج مرة بعد مرة خلال اكثر من خمس عشرة سنة ثم بمقتل نجدة بن عامر من قبل الخوارج انفسهم بعد أن امتد نفوذه مابين البحرين واليمن . ثم بانقسام جماعة قطري بن الفجاءة وسقوطه قتيلا في طبرستان سنة ٧٧ وانهزام شبيب الخارجي الى الاهواز وغرقه في نهر دجيل في تلك السنة نفسها .. كل ذلك جعل الخوارج يتمزقون على الآفاق فرقاً صغيرة توزعتها الارض الاسلامية في فارس وكرمان ومكران وارمينية واذربيجان وسجستان وخراسان ، في عملية نبذ وابتعاد عن المركز ...

وقد خمدت ثوراتهم الى حين بينما كان دعاتهم يبتغون مواطن

جديدة • ونجدهم في نهاية القرن الاول ومطالع الثاني الهجري : في خراسان وكرمان وفي عمان واليمن كما يظهرون أقوياء في افريقيا • ولم تعد القضية بالنسبة إليهم الان هي قضية « الخلافة » والحكم ولكنهم كما لاحظ ( فان فلوتن ) في هذه المرحلة الثانية « نصبوا انفسهم حماة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على المستبدين والطغاة » • واضحى الجهاد بين الامويين والخوارج ( بل بين الامويين وجميع الاحزاب المناوئة لهم اذ ذاك ) جهاداً اجتماعياً دينياً يدور حول عدم الرضا بأي حكومة جائرة • واضحى خوارج هذه الفترة يحاربون بسيف الدين ويقارعون بحجج الاسلام لمبادىء اجتماعية ـ سياسية معينة ويتفقون أحياناً مع بعض العلويين فيبايعونهم بعد ان كان نزاعهم الاصلي نزاعاً يكاد يكون « شخصياً » محضاً ينحصر في شرعية خلافة اشخاص معينين ( علي او معاوية أو أخلافهما ) •

وقد تكاثر الخوارج في عهد مروان الأخير في شمال العراق بخاصة بين قبائل بكر وشيبان • وحين قتل الوليد بن يزيد خرج سعيد بن بحدل الشيباني في مائتي رجل بارض كفر توثا وخرج بسطام البيهسي في عدد من بني ربيعة ، في الجزيرة أيضاً • وقد اقتتل سعيد وبسطام فيما بينهما فقتل بسطام ومضى سعيد الى العراق لاضطراب الأمر ، واقتتال اليمنية والمضرية في الحيرة والكوفة ••• ولكن سعيداً مات بالطاعون وخلفه الضحاك بن قيس الشيباني الذي استطاع سنة ١٢٧ أن يدخل الكوفة رغم اتفاق قيس ويمن عليه مع جند الشام ثم حاصر مدينة واسط وتمكن سنة ١٢٨ من ان يستولي على الموصل ثم اتجه الى الجزيرة فحاصر نصيبين ومعه ١٢٠ ألفاً بين فارس وراجل يغدق عليه الرزق • ونزل بعض قواده على الرقة في وادي الفرات الاوسط • مما اضطر مروان بن محمد أن يأتي إليهم بنفسه • وسقط الضحاك قتيلا في المعركة التي جرت بأرض

كفر توثا سنة ١٢٨ وطاف مروان برأسه في الجزيرة[١] .

وطاردهم مروان بعد ذلك الى الموصل ثم الى جنوب العراق، فلم يرل قواده في اتباعهم حتى دخلوا فارس والاهواز واستطاع شيبان بن عبد العزيز اليشكري الذي خلف الضحاك في الزعامة أن يلحق مع جماعته بالبحرين وعمان فيستقر هناك ...

بينما استقر آخرون بزعامة شيبان بن سلمة ( الصغير ) في سجستان حيث تحالفوا مع عبد الله بن معاوية حفيد جعفر بن ابي طالب وبايعوه فلما هزم وهزموا هناك انصرفوا فبعض الى السند وبعض إلى خراسان .

ولم تهدأ نائبة الخوارج بذلك إذ سرعان ما اضطر مروان لأن يقاتل خارجة أخرى منهم هو أحد زعمائهم المشهورين في التاريخ . أبو حمزة الخارجي[٢] (واسمه المختار بن عوف الازدي السليمي) وأصله من البصرة وكان خطيباً ، شديد التدين شجاع الفتكة . ثار الرجل في حضرموت بعد ان تحالف وبايع لعبد الله بن يحيى ( طالب الحق ) في اليمن في أواخر سنة ١٢٨ ثم سار الى الحجاز سنة ١٣٠ فبسط سلطانه عليه ووصل المدينة فقاتله أهلها ومن فيها في معركة ( قديد ) فهزمهم ودخلها ثلاثة أشهر ( أواسط صفر سنة ١٣٠ وشهري ربيع وبعض من جمادي الاولى ) وتعد خطبته فيها نموذجاً للفكر الخارجي في هذه الفترة الأخيرة من العصر الأموي ..وقد حاول ابو حمزة وأصحابه المسير إلى الشام حتى ارسل عليهم مروان بن محمد قائده : ابن عطية السعدي فرد أبا حمزة في وادي

---

(١) تفصيل خبر الضحاك لدى الطبري ج ٧ ص ٣١٦ - ٣٢٣ و ٣٤٤ - ٣٤٨ ثم ٣٥٠ - ٣٥٣ ( ١٨٩٨/٢ - ١٩٠٨ ، و ١٩٣٨ - ١٩٤٢) ثم ١٩٤٥ - ١٩٤٨ .

(٢) تفصيل حبر ابي حمزة الخارجي ودخوله الحركة الدينية لدى الطبري ٣٧٤/٧ و ٣٩٤- ٤٠٢ ، ( ٢٠٠٨/٢ - ٢٠١٧ ) وانظر نص خطبته الهامة هناك ص ٣٩٥ وما بعد .

القرى وقتله ثم أجلى الخوارج عن المدينة ثم عن مكة ولحق بهم الى اليمن حيث قتل عبد الله بن يحيى عند صنعاء وبعث برأسه وبابنه الى مروان ••

ولم يصف هذا النصر صفاء كاملا للخليفة مروان بن محمد فقد قتل ابن عطية وهو عائد يريد الحج في بضعة نفر من أصحابه • قتله بعض الأعراب ••

وهكذا برغم كل الدماء والجهود التي بذلها الخوارج ، لم يكن لعملهم في النهاية سوى أثر سلبي • اذ لم يستطيعوا أن يقيموا خلافتهم المثالية في مناطق واسعة . ولا لمدى طويل وإن تمركزوا في مناطق الاطراف القصية مثل سجستان وعمان وافريقية ( ما بين طرابلس والمغرب ) • ولكنهم ساعدوا على إضعاف الدولة الاموية من ناحيتين :

آ ـ أضعفوا قواها العسكرية وشغلوها في فترات حاسمة من تاريخها •

ب ـ ساعدوا على تألب الناس ضد الامويين ، ومهدوا بأفكارهم لاثارة الموالي . ولجعل الجماهير اكثر استعداداً لقبول الدعوة العباسية•

## ج ـ المرجئة :

اسم المرجئة جاء من الارجاء أي التأجيل بمعنى أن هذه الفئة ترجيء الحكم على العصاة الى اليوم الآخر • ولعل التسمية إنما ترجع إلى الآية القرآنية الكريمة ( وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم . وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم ) •

ولم يكن المرجئة حزباً كونته حادثة معينة أو عقيدة محددة . ولكنهم جماعة تشكلت تدريجياً خلال الاحداث السياسية في العصر الاموي ، واتخذت موقفاً سلبياً منها في الغالب ، بررته بأفكار دينية .

وليست لدينا نصوص أصيلة تكشف بصورة دقيقه عن عقيدة المرجئة، ولعل أقدم تنفة تتناول الكلام عنهم قطعة شعرية للشاعر ( ثابت قطنة ) نظمها في عهد عبد الملك بن مروان يقول فيها :

نرجي الامور إذا كانت مشبهة · ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهم والمشركون استووا في دينهم قددا
ولا أرى ان ذنبا بالغ احدا م الناس شركا اذا ماوحد الصمدا
لانسفك الدم الا أن يراد بنا سفك الدماء طريقا واحدا جددا
من يتق الله في الدنيا فإن له أجر التقى اذا وافى الحساب غدا
وما قضى الله من امر فليس له رد، ومايقض من شيء يكن رشدا
كل الخوارج مخط في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
اما علي وعثمان فانهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا ، وبعين الله ماشهدا
يجزي علياً وعثماناً بسعيهما ولست ادري بحق اية وردا
الله يعلم ماذا يحضران غداً وكل عبد سيلقى الله منفردا

وهذا النص الثمين يكشف لنا المبادىء الدينية السياسية لهذه الجماعة التي كانت لا تقرن صحة الايمان بالعمل . وفي هذه النقطة بالذات نلمس الخلاف الأساسي بين المرجئة وبين الخوارج . ثم انهم يخالفونهم وأنصارهم في نقطة أخرى هي عدم تكفيرهم الخلفاء الثلاثة : عثمان وعلياً ومعاوية وأنصارهم ، اذ لا يمكن تكفير من آمن بوحدانية الله . والله وحده هو الديان .

والمرجئة بنتيجة هذا الرأي يجهرون بان جميع المسلمين اخوه في الدين • وقد سوى الايمان بينهم • وهـذا هو الوجـه الجتمـاعي لهذه الفئة • إذ أضحـى كـل ما تنشده هـو العودة الـى لمبـدأ الاسلامي في ( التسـوية ) بين الشعوب • فـ ( إنما المؤمنون اخوة ) • والعمل بين المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله •

وأما في الرأي السياسي فإذا جاز لنا أن نعتبر الشعار الذي رفعـه الحارث بن سريج وأصحابه في ثورتهم بخراسان وما وراء النهر مثلاً لرأي كافة المرجئة وأن نعتبر اعمالهم وتصرفاتهم نموذجاً للآراء السياسية التي يؤمنون بها فان هؤلاء طالبوا « بالبيعة للرضا » من المسلمين أي طالبوا بحكم ترضى عنه الأكثرية • وقد ثاروا على الأمويين لأنهم ظلموا وأساؤوا ثم هادنوهم حين وعدوا بالعدل واتباع الكتاب والسنة • فهم إذن يطالـون بمن يرضاه المسلمون عامة لأنفسهم سواء كان من الأمويين أو من آل النبي أو من الناس شرط الحكم الاسلامي ويرون الثـورة بالسلاح على الحاكم الجائر وإن كانوا لايستحلون الدماء إلا بعد الجدل والدعوة والاقناع[1] •

(۱) يروي الطبري (جـ٧ ص١٠٠/٢ـ١٥٧٥ـ٧٦) قصـيدة هامة لنصر بن سيار • والي خراسان والخصم السياسي للمرجئة يقول فيها ضدهم وضد الحارث بن سريج الثائر خاصة :

فامنـح جهادك من لم يرج آخـرة وكن عـدواً لقـوم لا يصلونا !
واقتل مواليـهم منـا وناصرهـم حيناً تكفـرهم . والعنهـم حينـا
والعائبـين علينـا ديننـا وهـم شـر العباد إذا خابرتـهم دينا

وإذا لم نكن ها هنا بحاجة إلى التوسع في أفكار المرجئة فمن المؤسف أن كتاباتهم ، فيما عدا القليل من النتف . قد ضاعت وضاعت معها المواد اللازمة لعمل موازنة كاملة دقيقة بين تعاليمهم وتعاليم الفرق الاخرى المعاصرة لهم أو بين تعاليمهم والتعاليم التي قد يكونون تأثروا بها • وقد شوهت الشائعات ذات الجذور السياسية الكثير من أفكارهم ومواقفهم •

وإذا كان الارجاء قد ظهر بالشام فان آثاره ظهرت في اقصى الشرق، في خراسان • واذا كان كثير من المرجئة قد انضم للحركات المختلفة التي قامت ضد بني أمية ، فان حركة خاصة بالمرجئة قد انبعثت من خراسان يقودها تقي ورع مصلح اسمه الحارث بن سريج ظل ثائراً حتى مات سنة ١٢٨ هـ ولم تنته حركته بموته اذ لم يمض عام واحد حتى ظهرت الثورة العباسية على أعقابها •

وقيمة المرجئة كحزب سياسي ، لم تزد على أن اوضحت للموالي . وخاصة في خراسان ، أن روح الاسلام ومبادئه لاتتفق مع السياسة الأموية •

### د ـ المعتزلة :

وقد كان للمعتزلة والاعتزال دورهم السياسي الديني في العهد الأموي • ولو أن الظاهر العام يعطيهم الطابع الفكري وينأى بهم عن أجواء السياسة •

---

| | |
|---|---|
| والقائلين سبيل الله بغيتنا | لبعد ما نكبوا عما يقولونا ... |
| ارجاؤكم لزكم والشرك في قرن | فأنتم أهل اشراك ومرجونا |
| لا يبعد الله في الاجداث غيركم | إذا كان دينكم بالشرك مقرونا ... |

يروى ابن خلكان[1] أن اسم المعتزلة إنما أطلقه قتادة بن دعامــة السدوسي . الأعمى حين تلمس طريقه إلىحلقة الحسن البصري في مسجد البصرة فوقع على جماعة عمرو بن عبيد يتناقشون في ذات الله وصفاتــه والوعد والوعيد فقام عنهم يقول : انما هؤلاء المعتزلة ! ( اعتزلوا طريق الجماعة من المسلمين ) والمشهور الذي يرويه الشهرستاني[2] أن رجلا سأل الحسن البصري في مرتكب الكبيرة كافر هو أم مؤمن ( فجعله الحسن منافقاً ) واعترض تلميذه واصل بن عطاء وقال إنه غير مؤمن ولا كافر في منزلة بين المنزلتين ولما اختلف مع استاذه اعتزل عنه إلى اسطوانة اخرى في المسجد فقال الحسن : اعتزل عنا واصل فحملوا الاسم .

وإذا أدرك الحسن البصري عهد عمر بن الخطاب فقد اشتهر في عهد عبد الملك بن مروان وهشام ابنه وتوفي سنة ١١٠ هـ . وجذور عدد من الأفكار التي قال بها الحسن البصري وواصل بن عطاء إنما نبتت في دمشق على يد أمثال : غيلان الدمشقي ومعبد الجهني قبله وقد تكلم هؤلاء في القدر ونفوه وبالغ غيلان في ذلك حتى صلبه هشام بن عبد الملك على باب دمشق . ولعل في آرائه ظلا من التأثر بآراء معاصر له دمشقي كان من كبار علماء اللاهوت المسيحي هو يحيى الدمشقي الذي كان من دعاة حرية الارادة فالخير من الله والشر من العبد كما كان ينفي ـ كما نفى المعتزلة ـ الأسماء والصفات عن الله لأنه من المتعذر أن يدرك المحدود ( الانسان ) اللامحدود ( الله ) .

على أن آراء المعتزلة الأخرى تلونت فيما بعد وتركزت أصــول

(١) ابن خلكان ـ وفيات ( طبع احسان عباس ـ بيروت ) ج٤ ص ٨٥ ( ترجمة ٥٤١ ) .

(٢) الشهرستاني ـ الملل والنحل ج١ ص ٤٨ (طبعة البابي ـ ١٩٦١) .

الاعتزال في خمس مسائل : التوحيد ، العدل ، الوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين ، الامر بالمعروف والنهي عن المنكر • وابن حزم يجعل هذه الأصول الخمسة على الشكل التالي : القول بخلق القرآن • نفى رؤية السعداء لله تعالى يوم القيامة • نفى القدر • القول بالمنزلة بين المنزلتين • نفى الصفات •

ويسمى المعتزلة أنفسهم أهل التوحيد أو أهل التوحيد والعدل • لأنهم يعتبرون فكرتهم عن وحدانية الله وعن عدله أسمى أفكارهم وهو منفذ وعده ووعيده لأن الانسان هو خالق عمله ومسؤول عنه • وينفون عن الله الصفات لأنه ليس كمثله شيء ، والجعد بن درهم أول من نفى الصفات ثم أخذ عنه مقالته الجهم بن صفوان وعن طريق هذه الفكرة ظهرت الفكرة الأخرى القائلة بخلق القرآن لأن الله قديم ولا يمكن أن يكون كلامه إلا حادثاً بعده فلا يشاركه القدم وكل حادث مخلوق فالقرآن مخلوق •

وليس يستوي كافة المعتزلة في القول بمختلف هذه الآراء والتبسط في بعضها دون بعض ولذلك فقد تفرقوا طبقات وجماعات نسبت كل جماعة منها إلى رأس منها فهناك الواصلية ( نسبة لواصل بن عطاء ) والنظامية ( أصحاب ابراهيم بن يسار النظام ) والهذيلية ( أتباع أبي الهذيل العلاف ) والخابطية ( أصحاب احمد بن خابط ) والجاحظية ••• وقد عد الشهرستاني منها اثنتي عشرة فرقة •

على أن هذه الفرق في معظمها انما تكونت وتكاملت في العصر

---

(١) ابن حزم ـ الفصل في الملل والنحل ج٢ ص٨٩ .

العباسي الأول وأما في العصر الأموي مابين أواخر القرن الأول ومطالع الثاني فكانت ماتزال على الواصلية الأولى فقط .

ولعل آراء المعتزلةالدينية على الشكل الذي بدأت التكون فيه لم تكن بذات أثر في الصراع السياسي ضد الأمويين ان لم تكن أقرب إلى المسالمة والسلبية فلم يكن المعتزلة فيما يتعلق بالحكم يطلبون اكثر من إمام عادل ولا يشترطون فيه أن يكون من أسرة أو نسب قدسي وقد يبرأون من معاوية ويقبلون الخروج على الامام الجائر ولكن إن توفر للجماعة الثائرة « من القوة والمنعة مايكفي لإزالة الجور ولا يصح الخروج الا مع امام عادل... » وهم في هذا أقرب الى الخوارج منهم الى الفكر العلوي .

ومع ذلك فثمة رأي لبعض المستشرقين ( نيبرغ ) يرى أن المعتزلة أيدوا الحركة العباسية وكانوا وجهها العقائدي أو فكرها الديني[1] ، بدليل انهم ظهروا مع الدعوة العباسية في وقت واحد وكان لهم دعاتهم الدينيون في كل الافاق وأن أول زعمائهم واصل بن عطاء ثم عدداً من زعمائهم الآخرين كانوا قبل انهيار الخلافة الأموية وبعدها ميالين لآل البيت وعلى اتصال بالعلويين وبالعباسيين . يضاف إلى ذلك تلك الصداقة الواشجة التي كانت قائمة بين الخليفة المنصور وعمرو بن عبيد . وقد قاوم العباسيون الزندقة ودافعوا عن الإسلام بأسلحة الفكر الاعتزالي .

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية المختصرة (الطبعة الانكليزية) — مادة المعتزلة ص ٤٢١—٤٢٧ .

H.S. Nyberg , in shorter En . of Islam ( gibb. Kramers - Brill - 1961 )P·P· 421 - 427

ويلخص نيبرغ أفكاره بقوله :

١ ــ ان المعتزلة كانوا مندفعين متحمسين لقضية الخلفاء العباسيين ماعدا فرقة صغيرة منهم •

٢ ــ كان المعتزلة بشكل قطعي ضد الشيعة الغلاة والرافضة •

٣ــ كانوا أيضاً بشكل قطعي ضد الجهمية وإن تأثروا بها بعض التأثر •

٤ ــ كانوا قدريين • وجمعوا إليهم عدداً من الفرق التي كانت تؤمن بالقدر •

٥ ــ كانوا في خصومة جدية مع أهل الحديث الذين كانوا بدورهم يرفضونهم ثم أعلنوا بعد قليل اتهامهم بالهرطقة[١] •

وهذا ما أثر ــ حسب رأيه ــ تأثيراً عميقاً في موقف المعتزلة الديني ( التيولوجي ) وبالتالي في وقوفهم بجانب القضية العباسية • ولكن هذا الرأي كله لا يقوم على اكثر من الافتراض المنطقي الذي لا يجد المؤيدات الكافية في الوقائع التاريخية . لا سيما وان الفكر الاعتزالي كان . في أواخر العهد الأموي في مطالع تكونه ولم يتكون التكون الكامل بعد ولم يكن للرواد المعتزلة الأول من نشاط سياسي وخاصة واصل بن عطاء • وحتى عمرو بن عبيد ظل ــ رغم صداقته للمنصور ــ على مسافة بعيدة منه ومن الاشتراك في الحكم • لايعطيه إلا النصيحة والتقريع أحياناً • وليس يظهر للمعتزلة أي أثر في الدعوة العباسية ثم في الأعمال والسياسة الدينية للعباسيين من بعد ولعل الأصح أن نقول مع الاستاذ جب إن المعتزلة كانت حركة دينية أقدم من الدعوة العباسية ومستقلة عنها وأنها استغلت فيما بعد الخلافة العباسية لتحقيق أهدافها الدينيــة وليس العكس لا سيما إذا تذكرنا المجموعة المتباينة من الأفكار والجماعات الدينية التي استغلها العباسيون

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢٣ ــ ٤٢٤

لنشر دعوتهم السرية في خراسان • ولقد يكون المعتزلة قد رحبوا بوصول العباسيين الى الحكم ــ فيما بعد ــ وانتظروا خيراً من تغيير الخطة الأموية بخطة اكثر ارتباطاً بالاسلام والعقيدة لكن من غير المحتمل أن يكونوا دعاة عباسيين •••

وكل ما قد يكون المعتزلة قد قدموه للحركة العباسية هي أنهم أضافوا إلى جملة المجموعات الدينية المناوئة للأمويين مجموعة دينية تحمل آراء لا ترضى بهم ولا ترضى عن أعمالهم •

## ٥ ـ الحكومة والادارة الأموية :

تعاقب على حكم الامبراطورية الاسلامية بعد الخلفاء الراشدين خلفاء الأسرة الاموية • بدأ عهدهم بمعاوية والفرع السفياني ، ثم تحولت الخلافة . بعد اربع سنوات من وفاة معاوية ، الى الفرع المرواني ، واستمرت فيه حتى سقوط الاسرة • على ان تعاقب الخلفاء الامويين لم يجر على سنة معينة • لقد ادخل معاوية نظام الارث على الخلافة ، ولكن مروان بن الحكم استن سنة اعطاء ولاية العهد إلى اكثر من واحد بعده . فكان لعمله هذا اسوأ الأثر في تفكيك البيت الحاكم اذ كانت العاطفة الابوية. التي دفعته ودفعت خلفاءه لهذا العهد المزدوج، هي نفسها التي
العاطفة الابوية . التي دفعته خلفاءه لهذا العهد المزدوج ، هي نفسها التي
تدفع من يتاح له الملك من اولياء العهد الى ازاحة اخيه من ولاية العهد الثانية واعطائها لابنائه ••• ولم تكن تلك الازاحة تتم دون احقاد ودسائس ودماء . كانت تضعف شيئاً فشيئاً عصبية البيت الحاكم بعضه لبعض وفيسنه امام الناس •

واكبر الشخصيات المروانية : عبد الملك وابناه الوليد وهشام •

وطد الأول الدولة وعربها ؛ وزاد الثاني في رقعتها . اما الثالث فقد ولي الحكم عشرين سنة ( ١٠٥ ــ ١٢٥ هـ / ٧٢٤ ــ ٧٤٤ م ) . ولكن بعد فترة من التقلبات السياسية دامت تسع سنوات وحكم خلالها ثلاثة خلفاء مختلفون في النهج السياسي بعضهم عن بعض ؛ ومختلفون عن اسلافهم واخلافهم أيضاً : سليمان بن عبد الملك وقد نكل باولئك القواد والرجال الذين كانوا السبب في عظمة أخيه الوليد واتساع الدولة . نكل بهم لانهم قيسيون وهو يماني الهوى . ثم عمر بن عبد العزيز الذي اتبع سياسة دينية شديدة الورع والحزم جرت عليه نقمة العناصر المسيطرة من الارستقراطية العربية وغير العربية ، لكنها انقصت موارد الدولة وتسببت مع الثورات من جهة ومع الركود التجاري الذي أصاب شرقي البحر المتوسط خلال النصف الاول من القرن الثامن من جهة أخرى في إيقاع الدولة في عجز مالي لم ينج الأمويون من آثاره وأخيراً جاء يزيد الثاني ابن عبد الملك وكان قيسي الميول فكال الصاع صاعين لجماعة أخيه سليمان ...

وبالرغم من ان هشاماً كان جدياً كثير الدأب والحذر . الا ان العوامل التي هدمت العرش الاموي تبلورت واخذت شكلها الجدي خلال عهده الطويل ؛ واستفادت كذلك من تردده . فلما جاء الوليد الثاني من بعده ( قيسياً ) واغتصب منه الحكم يزيد الثالث ( اليماني ) وجاء اخيراً مروان بن محمد ( القيسي ) . بعد مذبحة اهلية في العائلة المالكة بدمشق . ظهر بوضوح ذلك الصدع الذي يفكك الفئة الحاكمة ويجعلها تقتل بعضها بعضاً . حتى كأن الخليفة في الفترة الاخيرة كان زعيم حزب خاص اكثر منه حاكماً لامبراطورية عظيمة موحدة الاجزاء .

ولم يكن الانقسام مقصوراً على جماعة البلاط في الشام ولكنه

تعداها الى جميع الطبقة الحاكمة من العرب رغم توزعها بين الاندلس وخراسان ، فانقسمت مجموعتين : ( قيس ويمن ) حملتا الحقد عصوراً طويلة بعد ذلك ، وبلغ من تباغضهما ان ظلتا تقتتلان لأتفه الاسباب •فقد قامت الحرب بينهما مثلا في الاندلس بضع سنوات فيما بعد في ورقة عنب ! وقد تحاربتا في دمشق سنتين من اجل بطيخة[1] !! اما في العهد الاموي فبلغ الامر باليمانية في خراسان ان تحالفت مع ابي مسلم الخراساني فدخل بها مرو ــ ولولاها ما استطاع ــ وطرد نصر بن سيار شيخ مضر ( القيسية ) وعامل الامويين • كما ثارت اليمنية في فلسطين بزعامة سليمان بن هشام بن عبد الملك ضد مروان بن محمد في الوقت الذي كانت فيه صيحات الثورة تأخذه من كل جانب •

وهكذا فقدت دولة الامويين قوة ( العصبية ) التي لا يقوم الملك ــ كما يلاحظ ابن خلدون ــ الا بها • وخسر آخر خلفاء بني أمية مروان الثاني بالاضافة الى ذلك ولاء اهل الشام ــ وهم الذين كانوا دوماً ردء الامويين منذ معاوية ــ حين نقل عاصمته من دمشق الى حران شمال الجزيرة •

ومن الطريف ان نسوق ماذكره غرس النعمة بن هلال الصابىء في كتابه ( الهفوات النادرة ) قال : « ••• ولما حاصر عبد الله بن علي ( العباسي ) دمشق لم يقدر عليها حتى وقع الخلف اليمانية والمضرية من أهلها واختلفوا وتلاعنوا في المساجد واقتتلوا بالأيدي والنعال فآل ذاك الى فتحها له • وفي مدة ذلك الخلف نصبوا في الجامع قبلتين :

(١) ابو الفداء ــ المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص١٣ •

هؤلاء ( اليمانيون ) يخطبون لبني هاشم ويصلون وأولئك ( القيسيون ) يخطبون لبني أمية ويصلون ...»[1]

وبالرغم من ان مؤرخي العرب ، ثم مؤرخي الفرنجة ، عنوا بدراسة هذا النزاع القبلي كعامل رئيسي في سقوط الامويين فإن بعضهم الآخر مثل ( فان فلوتن ) يرى انه لم يكن له الا" مكان ثانوي بين تلك العوامل الكثيرة التي انتهت بسقوطهم ، فان ذلك النزاع ، وان ساعد في اللحظة الاخيرة على نجاح الدعوة العباسية، فلم يكن له أثر ما في تلك الحالة الجديدة التي ظهرت عقب قيام تلك الدعوة .

وعلى أي حال فان عوامل اخرى تتعلق بسياسة الامويين العامة كانت تعمل عملها بجانب هذه الاحوال القبلية ولعل أهمها : مشاكل السياسة المالية وفشل السياسة الادارية واضطراب الشام مع أزمة الأسرة الأموية فيه .

### ١ ـ السياسة المالية الأموية ومشاكلها :

لم تكن الضرائب التي فرضت زمن عمر بن الخطاب ، على البلاد المفتوحة بالضرائب الثقيلة إذا قيست بما كانت عليه قبل الفتح . وإذا كان قوامها الاساسي ضريبتين اساسيتين هما : الجزية والخراج فقد كان النظام الضريبي عامة ، في صدر الاسلام متبايناً متنوع الاسس حسب ظروف الفتح والعهود التي اعطيت من منطقة الى اخرى فتارة ضريبة جماعية على بعض المدن ( خراسان ) وتارة الضريبة على الرأس ( العراق . الجزيرة

---

(١) غرس النعمة ـ الهفوات النادرة (تحقيق الأشتر ـ دمشق١٩٦٧) ص ١٠٧ .

مصر ) وتارة تزيد في بلد وتارة تعفى أخرى وتارة نوعية وتارة نقدية وثالثة من النوعين .

وقد بذل الأمويون جهداً كبيراً لتوحيد ذلـك النظام وتنسيقه وتوطيد أسسه وجعله ذا طابع عربي . حاول ذلك معاوية ببعض التدابير الجزئية لكن الذي بدأه فإنما هو عبد الملك بن مروان[1] ( ٦٥ــ٨٦/ ٦٨٥ــ٧٠٥ ) ثم أكمل العمل من بعد ابنه هشام[2] ( ١٠٥ــ١١٥/٧٢٤ــ ٧٣٤ ) في العراق والشام ومصر .

وقد حاول عمر بن عبد العزيز خلال ذلك إعطاء النظام الضريبي أسساً إسلامية . بالغاء الجزية عمن أسلم واعتبار الأرض الخراجيـة

---

(١) من أمثلة التنظيم الضرائبي زمن عبد الملك ما جرى في الجزيرة : كانت جزية أهلها ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً ومثلهما من الخل في العام لكل رجل واعتبر الناس طبقة واحدة واعتبر القسم النقدي مـن الضريبة هو الجزية والقسم العيني ضريبة الارض فبعث عبد الملك الى عامله الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري فأحصى الجماجم واعتبر الناس كلهم عمالا بأيديهم وحسب ما يكسبه العامل في سنة كلها ثم طرح من ذلك نفقته من طعامه والكساء وطرح أيام الاعياد فوجد الذي يتبقى بعد ذلك اربعة دنانير لكل فرد فألزمهم ذلك . وتحولت الضريبة من العين الـى النقد . ( راجع الخراج لابي يوسف ص ٢٣ــ٢٤ )

(٢) من أمثلة ذلك ان عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر كتب الى هشام سنة ١٠٦ بأن أرض مصر تحتمل الزيادة ــ بسبب وفـرة خيرات البلاد ــ فزاد في كل دينار من الضريبة قيراطا (١/٢٤) وفرضت ضريبة على املاك الكنيسة والأساقفة كما فرضت جزية دينار واحد على الرهبان .

ملكاً لبيت المال فالخراج إيجارها ولا يجوز تحويلها الى أرض عشرية •• ولكن الخلفاء من بعده نقضوا تلك الأسس تحت ضغط الحاجة المالية •

ذلك أن موارد الدولة تقلصت بوضوح بعد عبد الملك وابنه الوليد ، لا بسبب الحرب الاقتصادية مع الروم فقط ولكن أيضاً بسبب كثرة الفتن وما تعطله من التجارة والزراعة وتطلبه من النفقات وبسبب كثرة تحويل الاقطاعيين أرضهم من أرض خراجية الى عشرية وبسبب نقص موارد الجزية بعد إقبال الشعوب المفتوحة على الاسلام • وقد قابل الأمويون ذلك بتدابير شديدة وغير شرعية • وبالرغم من أنهم لم يضعوا سياسة منظمة لزيادة الضرائب ـ وإن زادوها في بعض الحالات ـ إلا أنهم تشددوا في الجباية تشدداً ولد الكثير من التذمر بشكل عام من السياسة المالية وظهر ذلك خاصة في بعض المناطق أكثر من غيرها :

**أ ـ فقد اتبع العمال والجباة طرقاً سيئة في الجباية :** لا بسبب إلحاح الخلفاء أحياناً ولكن بسبب جشع العمال أنفسهم حتى لقد ندد بهم عمر بن عبد العزيز وسماهم « عمال السوء » •

ويروي الجهشياري[1] أن عامل مصر قال لسليمان بن عبد الملك : « يا أمير المؤمنين اني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت فان رأيت أن ترفق بها وترفه عنها وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها فافعل ، فانه يستدرك ذلك في العام المقبل » • فأجاب سليمان : « هبلتك أمك • إحلب الدر ، فاذا انقطع فاحلب الدم والنجا » •

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٥١ـ٥٢ •

ويذكر المقريزي[1] أيضاً أن عامل يزيد بن عبد الملك وعامل هشام من بعده قد تشددا على النصارى وزادا في الخراج في مصر • ويروي البلاذري : أن أحد أخوة الحجاج أذاق اليمن شر أنواع الجور فكان يصادر الاملاك والاموال وأثار حنقهم بفرض ضريبة معينة ( وظيفة ) عليهم وذلك عدا العشر الذي قرره الاسلام • وحدوث ذلك في ولاية عربية خالصة أمر له معناه • ولم يكن الحال بالعراق أحسن من هذا • فقد أمر عمر بن عبد العزيز ألا يأخذ العمال ( جباة الخراج ) في جبايتهم من الدراهم ، ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطاً ومعنى هذا أنهم كانوا يتقاضون الناس دراهم ثقيلة الوزن مما يزيد في قيمة الضريبة •

كما كان بعض العمال والجباة ، وخاصة الدهاقين يستعملون العنف والاهانة فيها رمزاً للاذلال والصغار • وأجحفوا في تقدير الخراج أحياناً فكانوا في فارس مثلا ، على ما جاء في طبقات ابن سعد يخرصون ، ( يقدرون ) الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعرها الذي تباع به ويأخذونها فرقاً على ما قدروا لها من قيمة • وقد ذكر (فان فلوتن)[2] طريقة مخجلة لجباية الخراج لم يذكر مرجعه الاصلي فيها • وهي وان لم تكن صحيحة ، إلا أنها قد تكون صدى لاستياء الناس من طريقة الجباية • وفي كتاب الخراج لأبي يوسف ذكر اسلوك بعض الجباة أحياناً سبل التعذيب كالتعريض للشمس المحرقة أو صب الزيت المحمي أو حمل بعض الحجارة أو جرار الماء في الرقاب ! كما كانوا يوقفون الممتنعين عن الدفع على قدم واحدة ساعات طويلة ، ثم يوثقونهم بحيث لا يستطيعون السجود للصلاة • وفي بلاد ما وراء النهر جرى مرة أن

(١) المقريزي : الخطط ج٤ ص٣٩٥ .
(٢) فان فلوتن : السيادة العربية (تعريب حسن ابراهيم) ص ٣٣ .

عمال الخراج ـ على مايذكر الطبري[1] ـ أقاموا الدهاقين في الشمس وخرقوا عليهم ثيابهم ثم ألقوا مناطقهم في أعناقهم • أما في شمالي افريقيا فكان المقصر في الجزية يلزم أحياناً بتسليم نسائه وأبنائه للبيع • وقد أبطل عمر بن عبد العزيز ذلك ، وكتب : أن من كانت عنده لواتية فليخطبها الى أبيها أو فليردها إلى أبيها •

ب ـ **وفرضت في العهد الأموي ضرائب اضافية** كالرسوم على الصناعات والحرف وأجور نقل وخزن نصيب الحكومة من الغلات • وأجور ضرب النقود • وفرض الضرائب على الارض زرعت أم لم تزرع • والضرائب على من يتزوج أو يكتب عرضاه • وأرجعت العادة الضريبية الساسانية التي تسمى « هدايا النوروز والمهرجان » والجهشياري يذكر أن معاوية « طالب أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان ففعلوا فبلغ ذلك عشرة آلاف درهم »[2] • وربما كانت هذه الضرائب الاضافية ـ كما يذكر بندلي جوزي ـ [3] أشد وطأة من الضرائب الاصلية لأنها لم تكن محدودة ولا مستندة الى قاعدة مقبولة وانما تتبع أهواء العمال •

ج ـ **واتخذ العمال ولايتهم للثراء** : يدل على ذلك ما شاع على الألسن إذ ذاك من اطلاق كلمة « آكل ولاية » على منصب الولاية وطالما قدمت الشكايات منذ عهد عمر بن الخطاب ضد مستغلي الولايات • وينقل

---

(١) الطبري ج٧ ص٢٥٦ (٢/١٥٠٩) •
(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص٢٤
(٣) انظر بندلي جوزي ـ من تاريخ الحركات الفكرية ص٤٢ •

البلاذري صدى لذلك قصيدة يتهم صاحبها عدداً من الولاة وحكام الرساتيق والمدن في فارس ، فيقول :

نؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا فأني لهم وفر ولسنا أولي وفر ؟

وقلما كان يعنى الولاة باخفاء أعمالهم فقد اعترف والي خراسان ليزيد بانه قد حصل له عشرين مليوناً من الدراهم فسوغه إياها[1] • وكان بعض الولاة يلتمسون من الخليفة اعفاء من قبلهم من الموظفين من تقديم بيان دقيق عما جمعوه من الاموال •

وبدل أن يتخذ الخلفاء التدابير لمحاسبة الولاة ومنع ظلمهم نجدهم يتبعون الطريقة التي كان لجأ إليها عمر بن الخطاب ـ لأسباب أخرى ـ وهي (المقاسمة)[2] فهم يقاسمون العمال فوائدهم التي جمعوها بتلك الطريقة المعوجة • وهكذا رد معاوية مثلا نصف الثروة التي جمعها الى بيت المال « ليطيب له الباقي »[3] ـ على قوله ـ ومعنى هذا أن بعض الخلفاء رضوا أحياناً بسوء تصرف العمال مع أهل البلاد • عدا أنه دليل على أن بعضهم كان يهمه مصلحة الخزينة المركزية بالدرجة الاولى •

واذا كان عبد الملك قد سن نظاماً دقيقاً للاستخراج «أو التكشيف» أي كشف مال الوالي بعد عزله ، فلم يعدم الولاة والموظفون الصغار

---

(١) الجهشياري ص٢٩ .

(٢) من نافلة القول أن نذكر أن من اتبع طريقة المقاسمة من خلفاء بني أمية كان يسيء تفسير واستغلال فكرة المقاسمة التي اتبعها عمر مع الولاة الذين أثروا في عهده مستغلين مناصبهم في التجارة وقبول الهدايا .

(٣) الطبري ج٥ ص ٣٢٧ (٢/٢٠٢) .

طريقة لتهريب أموالهم بايداعها عند غيرهم • كما اضحت طريقةالاستخراج وسيلة من وسائل الانتقام •

ولم تكن الاموال المختلسة بكميات قليلة • ويكفي مثلا لها ما ذكره الطبري من أن يوسف بن عمر استرد من خالد بن عبد الله القسري أكثر من سبعين مليون درهم وكان راتبه السنوي في ولايته للعراق حوالي عشرين مليوناً •

**د ـ وبالاضافة لكل هذا فقد أخذ الأمويون الجزية ممن لا تجب عليهم،** ففرضوا الجزية على الرهبان مثلا • يقول المقريزي[1] : « مأر ( عبد العزيز بن مروان بن الحكم ) باحصاء الرهبان فأحصوا وأخذت منهم الجزية وهي أول جزية أخذت من الرهبان »• ولعل ماهو أكثر شأناً من هذا أن الجزية أخذت من المغلوبين حتى بعد اسلامهم • كما فعل الحجاج مع الموالي في العراق ، وقد درس فون كريمر ذلك وبين كيف استطاع الحجاج ارغام أولئك الذين كانوا يهربون من دفع الجزية بالاسلام ، على دفع الضريبة التي كانوا يدفعونها في عهدهم الكافر . وكيف أجبر الذين حولوا أرضهم الخراجية الى عشرية على دفع الخراج عنها كما كان من قبل • وكيف تجلت مقاومة الناس له في ذلك بثورة ابن الأشعث ، واحراق الديوان وسجلاته •

ولكي ترد الحكومة جماهير الموالي الى واجبهم نحوها وتسد في وجوههم كل أمل في الهرب من الضرائب ومن العمل الزراعي طردتهم

---

(١) المقريزي : الخطط ج٤ ص٣٩٥ .

من المدن وأرسلتهم الى القرى بعد أن وشمت أسماءهم على أذرعهم ، وقد طبقت هذه السياسة في خراسان كما طبقت في مصر . واذا كان عمر ابن عبد العزيز قد رفعها قائلا :« ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » فان الذين استخلفوا من بعده أعادوها على ما كانت ، وعمموها على افريقيا أيضاً . ويروي الجهشياري[1] أن يزيد بن أسلم والي شمالي افريقيا ليزيد بن عبد الملك أراد اتباع طريقة الحجاج هناك فقتلوه . كما أن أشرس بن عبد الله السلامي أمير خراسان سنة ١١٠ فرض الجزية على المسلمين الجدد في بلاد الصغد فيما وراء النهر بعد أن كان أعلن اعفاءهم فأدى ذلك الى ثورة عارمة لم تنته إلا بمجيء نصر بن سيار سنة ١٢١ .

**هـ ـ واخيرا فقد تلاعب الأمويون بالعطاء :** فأنقصوه أو حرموه مستحقيه . فقد فرض عمر نظاماً خاصاً في العطاء للمسلمين ، ولكن سياسة الامويين لم تتفق مع هذا النظام . فكانوا تارة يغدقون المنح على المعارضين تألفاً لقلوبهم ، (كما فعلوا مع الحسن والحسين مثلا ) . وكانوا تارة أخرى يمنعونها كما فعل هشام والوليد بن يزيد مع أهل الحرمين . أما الموالي فلم يكن لهم من العطاء نصيب . لأنهم لم يكونوا بعد قد أسلموا حين وضع النظام ، ويقال إن معاوية فرض لهم نصيباً زاده من بعده بعض الزيادة عبد الملك ثم سليمان ثم هشام ـ كما في العقد الفريد ـ غير ان هذا على مايظهر لم يكن ثابتاً ولعله غير صحيح بدليل استغراب العرب ونقمتهم على المختار حين فرض للموالي نصيباً من الفيء .. ولقد شكا خراساني مرة الى عمر بن عبد العزيز ان عشرين

---

(١) الجهشياري ص ٥٧ .

ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق !» ويذكرون من أسباب ثورة البربر على هشام بن عبد الملك أنهم كانوا يحاربون بجانب العرب ولا يمنحون العطاء الذي يمنحه هؤلاء .

ولقد كانت مساوىء الوضع المالي متفاوتة الوضوح والشدة حسب الولايات ولعل أقسى وجوهها ما كان في العراق وخراسان .

**فقد اسندت الجباية في العراق الى الدهاقين** « رؤساءالقرى »[1] من الموالي لأنهم أبصر بالجباية وأوفى بالامانة ــ على حد قول عبيد الله ابن زياد ــ وقد سارع هؤلاء الى اعتناق الاسلام فصاروا حلفاء للسادة العرب ، وجمعوا من ذلك ثروات طائلة ابتزوها من العامة .

وبعد أن فرض الحجاج إبقاء ضريبتي الخراج على الارض التي تحولت عشرية بانتقالها للعرب والجزية بعد الاسلام على من يسلم من الناس وضج العرب والموالي جاء عمر بن عبد العزيز فوضع حلا يتفق والاسلام ويحفظ حق الخزينة . إذ أعفى من أسلم من الجزية ، ولكنه اعتبر الخراج إيجاراً للارض الخراجية التي هي ملك مشترك للمسلمين. فمنع تحولها الى أرض عشرية . ولما كان لا يستطيع فرض ذلك بأثر رجعي فقد اعتبر سنة ١٠٠ هـ مطلعاً لهذا التدبير[2] ، وسمى تلك السنة ( سنة المدة ) وكتب بذلك كتاباً قرىء على الناس . وألغى الضرائب الاضافية كهدايا النوروز والمهرجان وضرائب الزواج وأجور البيوت ورسوم العرائض .

---

(١) اليعقوبي : ج٢ ص ٢٩ .

على أن اصلاحات عمر ماتت بموته • وكتب خليفته يزيد الثاني الى عماله : « أما بعد فان عمر كان مغروراً •• فدعوا ما عرفتموه في عهده وأعيدوا الناس الى طبقتهم الاولى أخصبوا أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا • »

**وقد دفعت كثرة الضرائب الملاكين الصغار الى ان يحتموا بالملاكين الكبار من طبقة العرب او من رجال الدولة •** فكانت الارض تسجل باسم الحامي ويدفع مالكها الحقيقي جزءاً من حاصلاته لقاء الحماية من عبث العمال • وهذا هو ( الالجاء ) وقد كثر زمن الحجاج وألجأ عدد كبير من الملاكين أملاكهم لدى مسلمة بن عبدالملك •

ولعل من المشاكل الضرائبية الكبيرة التي لم يحلها العهد الاموي ( ولا العباسي من بعده حتى عهد المعتضد ) هي استيفاء الخراج من الناس في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية ( العراق وايران والجزيرة أحيانا ) اعتباراً من يوم النيروز كل سنة حسب العادة الفارسية السابقة ، أي في مطلع الربيع حين لا يكون الزرع قد استحصد ويضر هذا دوماً بالناس « فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن أوطانهم (هرباً) •• وكثرت شكاياتهم وظلمهم •• » وقد كان الفرس يكبسون السنين فتتعدل « ••• فلما جاء الاسلام عطل ذلك » لما جاء في القرآن من أن « النسيء زيادة في الكفر » • وقد اجتمع الدهاقنة زمن هشام بن عبد الملك الى خالد القسري فشرحوا له هذا وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً فأبى وكتب الى هشام بذلك فقال : اني أخاف أن لا يكون هذا من قول الله تعالى في النسيء ••• » وبقي الامر على حاله[1] •

---

(١) انظر في هذا ما ذكره البيروني ـ الآثار الباقية (طبعة سخاو)

وخلاصة الامر أن النظام المالي في عهد بني أمية كان نظاماً قديماً أضيف اليه أمور اسلامية جديدة وقد حاول الامويون إصلاح القديم والتوفيق بينه وبين المستحدثات الاسلامية ولكن التطبيق السيء والاستغلالي زاد في مساوىء النظام وظلمه • ولم يتنبه الامويون الى ما يجر ذلك عليهم من النقمة ، مع تطور الاحوال أو على الاصح انقلابها • والنقمة هي المرتع الخصب للعمل الثوري •

ولعل أبرز مايكشف عن هذه النقمة ، ماحوته برامج الثورات والأحزاب في أواخر العهد الأموي من اشارات ومطالب ووعود من هذه الناحية المالية : واذا كانت ثورات الخوارج قد استمرت تطالب كما كانت دوما تطالب بالمساواة والعدل فان المرجئة الذين يبدأ فكرهم بالمساواة وترك حساب الظالمين لله طالبو في ثورة الحارث بن سريج بعد سنة ١١٦ في خراسان برفع الجزية عمن يسلم والمساواة في العطاء بين المقاتلة العرب والموالي• ويزيد الثالث ( ابن الوليد بن عبدالملك ) خرج سنة ١٢٦/٧٤٤ على الوليد الثاني وهو يؤكد على العدل وعلى عدم نقل مال بلد الى

---

ص ٣١–٣٢ ولعلنا نضيف هنا أن يحيى بن خالد البرمكي حاول زمن الرشيد تأجيل النوروز ( وبدء جباية الخراج ) شهرين فتكلم أعداؤه فيه وقالوا إنه يتعصب للمجوسية فأضرب عن ذلك حتى كان عهد المتوكل الذي حاول التعديل سنة ٢٣٤ فقتل قبل أن ينفذه ونفذه من بعده المعتضد . وقد قال البحتري في ذلك يمدح المتوكل :

إن يوم النيروز قد عاد إلى العهد الذي كان سنه ازدشير
أنت حولته الى الحالة الاولى وقد كان حائراً يستدير
فافتتحت الخراج فيه فللأمة في ذاك مرفق مذكور
منهم الحمد والثناء ومنك العدل فيهم والنائل المشكور .

آخر قبل أن يكفى أهله وعلى عدم إرهاق دافعي الجزية ارهاقاً يدفعهم الى « مايجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم »[1] وعلى عدم توسع الملكيات الكبيرة . وعلى دفع الاعطيات سنوياً والارزاق كل شهر . وزيد بن علي ثار في الكوفة ١٢٢/٧٤٠ وبايعه الناس على كتاب الله وسنة رسوله وعلى الدفاع عن الضعفاء ورد العطاء الى من سلب منه وتوزيع الفيء بالعدل بين المستحقين وإعادة المقاتلة من المناطق النائية الى بلادهم ...

٢ ـ **السياسة الادارية** : يقول الجاحظ : « دولة بني مروان عربية أعرابية » ولعل هذه الملاحظة تلخص كل سياسة الامويين . وليس هذا النهج بغريب منهم ، فالعرب هم اصحاب الاسلام وجنود الفتح والحكام الأعلون ، ثم انهم لم يكونوا قدتخلصوا بعد مما كان بهم من جاهلية وعصبية . هذا الى ان الامويين لم يصلوا الى الحكم اعتماداً على رأي المسلمين ، او لسابقة لهم في الدين ، فجنحوا الى الناحية التي لهم بها سند ، ولهم فيها مجد سابق ،وهي العصبية العربية .

ولنلاحظ هنا ان الامويين لم يكونوا ، في نظر الجمهور والجماعة، غاصبين معتدين . وتلك الفرق التي سبق ذكرها ، إن حاربتهم ، فالجمهرة الكبرى من المسلمين ـ وهم من يعرفون بالجماعة ـ قبلوا بهم . ومن تاريخ هذه « الجماعة » في الواقع يتألف تاريخ الدولة الاسلامية على الحقيقة . واما ماعداها فطوائف ثائرة محدودة الاثر

---

(١) انظر خطبته بعد مقتل الوليد لدى الطبرى ج٧ص٢٦٨-٢٦٩ ة ( ٢/١٨٣٤ ـ ١٨٣٥ ) .

لم تجمع على واحدة منها كلمة المسلمين ، وان ملك بعضها ملكا واسعاً أوَ ضيقاً في بعض حقب التاريخ .

وقد استنتج المستشرق فانفلوتن[1] من بعض النصوص للشهرستاني ولحمزة الاصفهاني ان الناس كان يعتبرون الامويين « أهل السنة والجماعة » « وأئمة العدل » ، والسواد الاعظم من العرب كان يرى في حزب بني أمية حزب « الدين والنظام » . وترد لدى البلاذري والطبري وغيرهما عبارات تسمى عبد الملك مثلا « امام الاسلام » و « أمين الله » و « جنة الدين » . على أن عامة الناس ، إن كانوا يأخذون عليهم شيئاً ، ففي السياسة العامة فقط وأعمال العمال ، وليس في شرعية الحكم . يقول الطبري في سبب ثورة البربر في افريقيا آخر العهد الاموي : « ... مازالوا من أسمع أهل البلدان وأطوعهم الي زمان هشام بن عبد الملك ... حتى دب اليهم أهل العراق ... واستثاروهم » واضاف « ... أنهم ردوا على أهل الاهواء فقالوا إنا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال ولا نحمل ذلك عليهم ... »[2]

أما الذين كانوا يناقشون شرعية العهد الأموي من أساسه فثلاث فئات كونت مايمكن أن يشبه في العصر الحديث الأحزاب السياسية . ولو شئنا أن نضعها في تصنيف متصل لوجدنا أن الحزب الأموي الحاكم كان يقوم في الوسط بينما تقوم عن يمينه الاحزاب الشيعية ماكان منها معتدلا ثم ماكان في طريق الغلو أما عن يساره فيأتي المتدينون الذين كانوا يرفضون — دون أن يثوروا — أساليب الحكم الاموي واستبداده ثم يأتي المرجئة. وفي أقصى اليسار تقوم الأحزاب الخارجية الثائرة دوماً والتي ترفض الأسرة الاموية أصلا كما ترفض غيرها . وإذا كان رأي

---

(١) فان فلوتن السيادة العربية ص ٧١ و ص ١٤٠ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٥٤ (١/٢٨١٥) .

الشيعة يحصر الخلافة في أسرة واحدة هي آل البيت فالخوارج بالمقابل يبيحونها لكافة المسلمين .

أولا ـ **الخوارج** : وقد انتشرت مبادئهم ( ومبادىء الشيعة كذلك ) وتطورت رغم مقاومة الامويين العسكرية ومجازرهم القاسية فيهم ( وربما بسبب ذلك ) ولملاءمتها أيضاً لتلك الاحوال الاجتماعية الجديدة التي نشأت في الدولة العربية ، في الشرق خاصة ، لاسيما منذ عهد الحجاج ، اذ انفصلت الدعوة الى الاسلام والعمل على نشره ، عن سياسة الامويين المالية والادارية لما بينهما من تعارض . وكان جواب الحكومة الوحيد على شعارات الخوارج الجديدة بطلب العدل والرجوع للدين ، هو اعلان الحرب عليهم جهاراً .

ثانياً ـ **الشيعة** : وقد اضطهدهم الامويون وأعملوا القتل في بعض آل البيت ، كما كانوا أحياناً يغرقونهم بالمال ، لضرورات سياسية . وكانوا ينظرون الى حركاتهم كأعمال تتعلق بسلامة الدولة . بينما كان الشيعة يتلقون الضربات ، ويستغلونها في دعايتهم ، كعمل ضد الدين وضد عترة الرسول وآله .

ثالثاً ـ **المتدينون** : من قراء ومحدثين وفقهاء ، وكانوا ينكرون طريقة الأمويين في استلام الخلافة وسياستهم المخالفة للدين في الناس . ونحن ندين لكتاب الامامة والسياسة[1] ( والمنسوب لابن قتيبة ) بذكر رسالة يقول المؤلف إن الحسن بن علي قد أرسلها لمعاوية وسواء صحت الرسالة أم لم تصح ، فالمهم انها كانت تعبر عن عواطف دينية معينة وعن موقف التقاة من الحكم الاموي : انهم لم يروا فيه امتداداً لحكم النبي واصحابه ، ولكن حكماً قائماً على القوة . وهذه المسألة ـ كما يرى

---

(١) ابن قتيبة الامامة والسياسة ج١ ص ٢٨٤

خدابخش ـ من اعظم مصادر ضعف الامويين • كما انها تفسر المعارضة الدائمة لهم • وقد كتب دي غويا ايضاً : « ••• ويتجلى الموقف بكل وضوح في أحاديث يزيد بن المهلب والحسن البصري ••• اذ حين استولى يزيد على البصرة قال لأهلها : « ايها الناس إنا غضبنا لكم فانظروا لانفسكم رجلا يحكم فيكم بالعدل ويحكم فيكم بالسوية ويقيم فيكم بالكتاب والسنة ويسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين» • وقد قال رجل للحسن البصري : « كأنك راض عن اهل الشام » فقال : « قبح الله أهل الشام وبرحهم • أليسوا الذين أحلوا حرم رسول الله (ص) ثلاثة ايام واباحوه انباطهم واقباطهم لايتناهون عن سيئة ولاانتهاك حرمة ، ثم نصبوا المجانيق يرمون بيت الله » ومن خطبة لأبي حمزة الخارجي سنة ١٣٠ في المدينة « خلوا بيننا وبينهم ( الامويين ) فإن نظفر نعدل في احكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ••• يا أهل المدينة ان تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين » •

ولاشك انه كان لسيرة بعض الخلفاء الامويين الاخيرين أثرها أيضاً في زيادة نقمة المتدينين على البيت الحاكم ، ولكن هؤلاء اكتفوا بالنقد والتهجم ، ولم ينتقلوا كالخوارج والشيعة الى العمل الايجابي • وقد اوجدت اقوالهم مبرراً للناس كي يتقاعسوا عن نصرة الامويين في اللحظات الحاسمة •

اما **الجماهير** العامة من المسلمين ـ وفيها الاعداد الكبيره من الموالي الذين كان العرب انفسهم ، يدلونهم بالامر الواقع تارة وبالدعاية تارات ، الى ماعلى رؤوسهم من جور اجتماعي ومالي ، فتقسمتا لفرق اعداداً كثيرة منهم ، حتى لقد كانت الاهواء السياسية قد توطنت في

المناطق المختلفة ، وعرف لكل صقع لونه المميز • يتبين ذلك من الوصية التي يذكرون ان محمد بن علي قد بعث بها الى صاحبه ابي مسلم الخراساني يقول : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علي ، واما البصرة فعثمانية تدين بالكف واما الجزيرة فحرورية مارقة ، واعراب كأعلاج، واما أهل الشام فلايعرفون غير معاوية وطاعة بني امية ، واما مكة والمدينة فقد غلب عليهما ابو بكر ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الاهواء ••»

وقد بلغ الاستياء في الناس حداً بعيداً عبرت عنه تلك الاعداد الكثيرة من الثورات والفتن في السنين الاخيرة من العهد الاموي •

ففي الاندلس قام مؤنس احد قواد طارق بن زياد سنة ١٢٤ بثورة عمت الولايات الشمالية حيث توجد الجموع الكثير من البربر •فطرد العرب وزحف للاستيلاء على قرطبة • وقد سجل عدة انتصارات قبل ان يهزم عند طليطلة •

وفي شمال افريقيا ثار البربر سنة ١٢٤ بقيادة ميسرة المدغري(وهو خارجي) احتجاجاً على سوء سياسة الامويين فيهم ، فانتهت الثورة بمقتله • على ان البربر ثاروا مرة اخرى سنة ١٢٧ وطردوا عامل الامويين عليهم •

وفي مصر كانت الاضطرابات بين قيس ويمن بلغت أوجها من أجل الولاية حتى لقد تقلب على مصر بين سنتي ١٢٧ و ١٣٢ هـ ستة ولاة • وتلقت مصر مروان بن محمد وهو هارب اليها ، بالفتن والانتقاض ، في كل مكان •

وثار القبط ثورات عديدة منذ سـنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ السنة التي سجلوا فيها أولى ثوراتهم الكبيرة ثم اعقبتها ثورة أكثر عنفـاً رافقتها حملة بيزنطية كبيرة على الدلتا ١٢١/٧٣٩ ثم كانت سنة ١٢٧/٧٤٥ ثورة ثالثة ولكن من القبائل العربية في الدلتا هذه المرة احتجاجاً على فداحـة الضرائب • على أن ثورات القبط استمرت فيما بعد حوالي القرن •

وفي اليمن وحضر موت ثار أبو حمزة الخارجي (ومعه عبيد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق) واستطاع ان يدخل الحجـاز ويحتل مكة والمدينة ثم ارتد عنهما وقتل سنة ١٣٠ هـ •

وفي الشام قام نزاع مقيت على الخلافة . فلما تولاها مروان بن محمد وانتصرت به قيس اجتمع على أهل الشام ضربتان معاً : ركود الحركة التجارية بسبب الحرب الاقتصادية مع الروم . وتوقف تجارة البحر من جهة ، ونقل مركز الخلافة عنهم وما يقطع ذلك من مصالحهم المرتبطة بها من جهة أخرى • فكان من هذا الضيق المضاعف بالاضافة الى العوامل القبلية وغيرها أن ثار ثابت بن نعيم الجذامي (اليماني) في فلسطين فوصل حتى حمص • وثار أهل الغوطة وحاصروا دمشق بعد أن ولوا على انفسهم يزيد بن خالد القسري • وثار سليمان بن هشام في قنسرين وفي حمص وتدمر •• وشغل الخليفة باخماد هـذه الفتن اليمانية في قاعدة ملكه عن غيرها •

وفي العراق ثار أيضاً وأيضاً عبد الله بن معاوية بن جعفر بن ابي طالب وملك الكوفة والحيرة . وانضم اليه وبايعه جموع من بلاد فارس وكرمان والاهواز ، حتى وسليمان بن هشام الثائـر الاموي بالشام • ولكنه لم يستطع ان يصمد للخوارج فانهزم الى فارس • وقتلـه ابو

مسلم الخراساني • وانشق في تلك الاثناء والي العراق عبد الله بن عمر على الخليفة فبعث اليه الخليفة مروان من حاربه حتى ظهر الخوارج •

اما هؤلاء فقد استفادوا من الفوضى فانحدروا من الجزيرةالعليا بعد ان استخلفوا ابن بهدل الشيباني ، ولكنه اصيب بالطاعون قبل انه يتم له الامر في العراق • فقادهم الضحاك بن قيس الشيباني ودان لـه معظم العراق مع اذربيجان وارمينية وشهرزور • وقد قتل الضحاكحول ماردين • وبالرغم من ان شيبان اليشكري الذي ولي أمر الخوارج من بعده قد هزم مروان الا انه انهزم بعد ذلك • وتشتت امر هـذه الفئة الخارجة سنة ١٣٠ هـ بعد وصول يزيد بن هبيرة والياً على العراق •

وفي جنوب العراق ثار كذلك الزنج أكثر من مرة • ولعل ثوراتهم كانت من أولى الثورات الطبقية في التاريخ الاسلامي • كانوا قد جلبوا بأعداد كبيرة للعمل في الأرض الزراعية الصعبة في جنوب العراق •وانما ثاروا نتيجة شروط معيشتهم القاسية • وقد سجل البلاذري خاصة وابن الأثير ثورتهم مرتين :

الأولى : في آخر أيـام مصعب بن الزبير (حوالـي سنة ٧٠ هـ) «إذا اجتمعوا بفرات البصرة ولم يكونوا بالكثير فأفسدواوتناولواالثمار وكثروا • وجمع لهم والي البصرة خالد بن عبد الله جيشاً فلما بلغهمذلك تفرقوا وأخذ بعضهم فقتلهم وصلبهم» •

الثانية : كانت سنة ٧٥ هـ • فقد استغلوا حركة ابن الجارود في البصرة «فاجتمع خلق كثير منهم بالفرات وجعلوا عليهم رجلا اسمه رباح ويلقب شيرزنجي يعني أسد الزنج وقد تلقب أيضا بأمير المؤمنينفأفسدوا فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود أمر زياد بن عمرو وهو على شرطـة

البصرة أن يرسل اليهم جيشاً يقاتلهم ففعل وسير إليهم جيشاً عليه ابنه حفص بن زياد فقاتلهم وقتلوه وهزموا أصحابه ثم أرسل إليهم جيشاً آخر جنده المحاربون من أخماس المدينة فهزم الزنج وقتلهم واستقامت البصرة ...»[1]

ويظهر أن استياء هذه الطبقة الزنجية الزراعية ظل كامناً مستتراً قوياً بدليل أنهم ثاروا ثورة كبيرة في مطالع العصر العباسي . وقد سجل المؤرخ الأزدي[2] في سطر عارض من كتابه تاريخ الموصل . كما سجل البلاذري أيضاً . ثورة «العبيد» في البصرة ١٤١ هـ . وما من شك في أن هذه الثورات الفاشلة كانت إرهاصاً ونماذج سابقة لثورة الزنج التي خربت البصرة فيما بعد ٢٥٥ هـ .

واما في خراسان أخيراً فقد كانت الخصومة على اشدها بين نصر ابن سيار والي الخليفة (القيسي) وبين جديع بن علي الكرماني (اليماني) وزاد في تأرثها : عصبية نصر . وقلة قوته . امام الزعيم اليماني وغيره من الثائرين . (فقد كانت ثورة الحارث بن سريج التي بدأت سنة ١١٦ لم تخمد بعد) . وقد حاول نصر بن سيار استرضاء الحارث واغراءه فلم يفلح . ولئن قتل الحارث سنة ١٢٨ فان مقتله لم ينه الثورة لانها برزت من جديد على يد الداعية العباسي ابي مسلم الخراساني الذي استطاع الاستفادة من الخصومة بين نصر والكرماني . ليوسع الشقة بين فرعي

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٧٥ هـ : ج٤ ص٣٨٨ وانظر تفصيل ذلك لدى البلاذري (انساب الأشراف (مخطوط استامبول) المصور في دار الكتب المصرية برقم ١١٠٣ المجلد ٧ الورقة ١٣و١٤ .

(٢) انظر تاريخ الموصل لابي بكر الازدي ص ١٧٣ .

العرب ، ويكسب اليه الانصار • والواقع انه ليس يعود نصر ابي مسلم والعباسيين ، الى ما اتفق لهم من قوة ، بقدر ما يعود الى ضعف الامويين وتحطم قوتهم بهذه الثورات المتتالية •

### ٣ ـ اضطراب الشام وأزمة الاسرة الاموية :

لم يكن الاضطراب الاجتماعي الاقتصادي في المجتمع الأموي الأخير كافياً لتشكيل أي خطر على العرش الأموي ، ولا كانت التيارات السياسية التي قادها الشيعة أو الخوارج أو أصحاب الأفكار الأخرى بالكافية لهز ذلك العرش فقد استطاع الأمويون دوماً الانتصار عليها • وبالرغم من مشاكل السياسة الادارية والثورات ومساوىء السياسة المالية وما كانت ترهق من الناس فانها لم تكن مرة السبب الأول في التحرك ضد الامويين • تلك الامور كلها كانت تشكل إطار المشكلة • كانت الحواشي المساعدة على الاستياء والنقمة ولم تكن الصميم الذي تنبع منه عناصر تدمير ذلك البيت • وقد كان بامكان بني أمية ان يستمروا طويلا في عرش الخلافة لولا أن ركائز حكمهم في مستقره في الشام من جهة وفي الأسرة الأموية ذاتها من جهة أخرى كانت تمر بأزمة حادة ؛ كانت تتحول التحول الانقلابي في تلك الفترة من أواخر العصر الأموي • وها هنا ، في الواقع ، يجب أن نفتش عن السبب الاساسي في سقوط البيت الاموي •

ولو وضعنا أزمة التحول العنيفة هذه في مكانها من تطور التاريخ الاسلامي لوجدنا أنها كانت الأزمة الرابعة القاسية في مساره • لقد سبقها أولا حركة الردة من قبل ، ثم فتنة عثمان وما تلاها حتى استقر الأمر لمعاوية • ثم كانت الازمة الثالثة منذ عهد يزيد الأول ، يوم برز

صراع أولاد الصحابة خاصة فيما بينهم حتى انتهى الأمر باستقرار الحكم حوالي سنة ٨٥ بيد البيت المرواني بعد السفياني • وغبرت بعد ذلك أربعون سنة مستقرة ظهرت في أواخرها في المجتمع الاسلامي ، وخاصة في الشام ، ظروف وأوضاع جديدة هزت استقراره وأوقعته منذ حوالي سنة ١٢٠ في الأزمة الرابعة التي أطاحت بالأمويين • وإذا عبرت الثورات والاضطرابات ، في تلك الفترة ، وعبر انتشار الاستياء في الناس . عن ظهور تلك الظروف والأوضاع الجديدة في العديد من مناطق الدولة فإن الأزمة أخذت شكلها الحاد الخطر في الشام ، مركز الحكم الأموي • وإذا اتجه بنو العباس بتلك الأزمة في خراسان لمصلحتهم فكانت طريقهم الى الخلافة فيما بعد فإن بني أمية لم ينتبهوا إلى أنها كانت تسير بالمقابل، في الشام، في اتجاه تدمير العرش الأموي، وقد أعجلت العناصر الواعية منهم ، وعلى رأسها مروان بن محمد . قبل أن تستطيع بناء التكوين السياسي الاجتماعي الجديد الكافي لحماية ذلك العرش •

والواقع أن الثورة العباسية على الأمويين إن كانت سوف تنجح عن قريب في إسقاط البيت الأموي فلأنها . في الدرجة الأولى . جاءت متواقتة مع وقوع هذا البيت في أزمته الحادة • ولأنها جاءت وهذا البيت كله ينتقل من طوره القديم الى طور يحاول أن يتلاءم فيه مع الاوضاع الجديدة • وقد فوجيء بالثورة قبل أن يستكمل عناصر الخلاص من تلك الأزمة التي نسميها تجوزاً بالازمة وقد يكون في إعطائها هذا الاسم بعض التشوية لواقعها الانقلابي • انها في الحقيقة عملية تطور جذري ونهضة أخيرة كان البيت الأموي في سبيل القيام بها سواء في الفرع المالك منه أو في عصبيته الحامية أو في نوع تلك العصبية ومكانها الجغرافي • والأزمة

جاءت من أن ذلك البيت وقد تخلى عن التكوينات السياسية التي حملته قرابة القرن لم يكن قد أنشأ بعد كافة تكويناته الجديدة حين تدفق الثوار من خراسان على العراق فكانت معركة الزاب كافية للقضاء عليه .

بدأت تلك الأزمة ــ النهضة حوالي سنة ١٢٠ أي في السنوات الأخيرة من عهد هشام بن عبدالملك . لكنها أخذت أبعادها المدمرة بعده في عهد الوليد ابن يزيد ، ثم يزيد الثالث ولم يكن صراع ابناء البيت الأموي يومذاك سوى مظهر من مظاهرها . فلما جاء مروان بن محمد لم يستطع رغم كفاياته الحربية والادارية وجهده الدائب الصبور أن يوقف العجلة الهاوية على المنحدر فسقط تحتها صريعاً . كانت عوامل الانهيار أقوى من مدى يديه في البناء . وعناصر تلك الأزمة التطورية مشتبكة وقد صبغت بالدماء أحياناً ويمكن أن نجملها في نقاط ست :

١ ــ انتقال مركز الحكم من جنوب الشام ومن دمشق بالذات الى شمالي الشام ثم الى الجزيرة .

٢ ــ سيطرة العصبية القيسية بعد طول تسلط العناصر اليمنية .

٣ ــ تبدل نوعية تلك العصبية : من جماعات مدنية الى جماعات عسكرية .

٤ ــ دبيب الخلافات العقدية بين أبناء البيت الحاكم ما بين جبرية وقدرية واعتزال .

٥ ــ نكبة جنوب الشام بالفتن والدمار من جهة وبالأوبئة من جهة أخرى .

٦ ـ انتقال عرش الخلافة ضمن البيت المرواني نفسه من أولاد عبد الملك بن مروان إلى أولاد أخيه محمد بن مروان •

والملاحظة الأساسية هنا أن ما نسميه في العهد الأموي بالعصبية القبلية بين قيس ويمن كان في الواقع ـ تعبيراً عن آراء سياسية • وكانت هذه العصبية نفسها تتطور لتأخذ شكل ودور الأحزاب السياسية في دولة بني أمية • ولهذا كانت رغم ظاهرها القبلي تتحول من الداخل إلى حزبين سياسيين يشترك فيهما أحياناً بعض اليمانيين مع القيسيين وبالعكس • ولكل حزب مراكزه الجغرافية وعقيدته الدينية ـ الفكرية، وزعامة من البيت الأموي نفسه وتنظيماته العسكرية • وفي أزمةالمخاض لظهور هذين الحزبين بوضوح بين الأمويين في الشام ضربت الثورة العباسية ضربتها • وكانت معركة الزاب عند الموصل كافية لاحتلال الجزيرة والشام وإسقاط العرش الأموي •••

ولعلنا نلقي بعض الأضواء على هذه الأزمة إن بدأنا من جذورها الأولى فقد وصل هشام بن عبد الملك إلى الخلافة بعهد من أخيه يزيد الذي قدمه على ابنه لأنه كان شاباً بينما كان الوليد بن يزيد فتى صغيراً ولكنه في الوقت نفسه جعل ولاية العهد بعد هشام لابنه الوليد • وكان طبيعياً أن يفكر هشام في تحويل الخلافة لابنه مسلمة وفي أبعاد ابن أخيه الوليد عنها ووجد في الحياة اللاهية التي يحياها الوليد مطعناًواضحاً عليه لكن ابنه مسلمة لم يكن في الواقع أحسن حالا من ابن أخيه فتشدد على الاثنين التشدد الذي جعل الوليد يهرب إلى البادية ناقماً منتظراً موت هشام بينما كان رجال الحاشية من امثال ابراهيم ومحمد من بني مخزوم ، وبني القعقاع من عبس يحرضون هشاماً على خلعه ••

وقد فرح الكثيرون من بني أمية بوفاة هشام وولاية الوليد (الثاني) من بعده وهو الشاعر ، المقبل على الحياة ولذاتها . ولكن الوليد أدار ظهره لهم : ترك دمشق ، ليجعل مقره في «الغدف» بالبادية كما فعل من قبله هشام حين جعل مقره في الرصافة . وأنفق الأموال على حاشيته وفي الاعطيات والهبات جزافاً بينما أبعد الامويين . وتشدد في الانتقام من خصومه الذين كانوا يحرضون على خلعه فأثار ضده بني مخزوم وبني عبس ثم باع خالداً بن عبد الله القسري ، عامل العراق لهشام، من خصمه يوسف بن هبيرة فعذبه هذا حتى الموت ... وخالد من سادات اليمنية فلما قتل عمها الاستياء . وهكذا اجتمعت عناصر النقمة على الوليد ثم تراكمت حتى شكلت تياراً اشترك فيه اليمانيون والقيسيون والكلبيون وابناء القسرى وبعض من هضمت حقوقهم من الكتاب وبعض الأمراء من بني أمية ...

واستهتار الوليد ، مع قصر مدته وكثرة الناقمين عليه ، قد شوهت كلها سمعته في التاريخ وتركت للشائعات أن تنهشه نهشاً وتزعم في كثير من الظلم والكذب على الواقع . أنه مزق القرآن وشرب الخمر فوق الكعبة ... وهي شائعات سياسية كان القصد منها تبرير تلك المؤامرة التي حاكها الناقمون جميعاً لقتله .

ولم يكن الأمر بحاجة الى كل ذلك فإن المتدينين لم يكونوا بالراضين عن سيرته . لكن جماعة منهم هم «القدرية» كانوا هم الذين حملوا لواء تدميره . وكان هشام بن عبد الملك قد نفى هؤلاء القدرية خارج البلاد الى « دهلك »[1] فاستبقاهم الوليد هناك وكانوا ـ فيما

(١) هي جزر في البحر الاحمر تقابل مصوع وكان للامويين علاقات واسعة مع تلك المناطق .

يبدو ـ على علاقة واسعة ، من الناحية السياسية ، مع العلويين ويقولون ـ بخلاف الرأي الأموي الجبري ـ بحرية الانسان ومسؤوليته عن أعماله ... وهكذا تراكمت عناصر الثورة على الوليد وتزعمها ابن عمه يزيد بن الوليد (يزيد الثالث أو الناقص) في دمشق فما هي إلا أن وصلت مجموعة من الثائرين الى «الغدف» لاتجاوز الألف حتى انهزمت حامية الوليد فدخل غرفته ووضع المصحف بين يديه وقال : يوم كيوم عثمان ! ... وكان ذلك !

وأعلن يزيد الثالث السير بسيرة عمر بن عبد العزيز . خطبته التي ألقاها لتبرير ثورته وخلافته اكد فيها تعهده بإنفاق خراج الأمصار فيها. وعدم إقامة الابنية والقصور والأخذ بالشورى ... الخ ولكن مصرع الوليد كان أول مصرع لخليفة أموي بعد عثمان . وقد نسي الناس منذ مقتل الامام علي أن الخلفاء يقتلون . كما كانت أول مرة في البيت السفياني تؤخذ فيها الخلافة بالقوة والقهر لا بالعهد والشرعية ، وهذا ما يفسر تردد الناس والولاة والامصار في البيعة ليزيد الثالث الذي ناصرته «القدرية» أوسع المناصرة وكاد يتشكل من حوله الحزب السياسي الأموي ـ اليماني ذو الرأي القدري والمتمركز في دمشق لولا أن المنية فاجأته قبل أن يقضي ستة أشهر في الحكم ... فقضي في السنة نفسها التي قتل فيها الوليد سنة ١٢٦ .

ولقد استخلف يزيد الثالث من بعده أخاه ابراهيم بن الوليد بإشارة القدرية إلا إن بادرة يزيد نفسه في التسلط على الخلافة بالقوة وبقتل الخليفة الشرعي فتحت الباب ليطمع الأمراء الأمويون الآخرون بالعرش . وحين توفي يزيد الثالث كان شيخ بني أمية وأبرز رجالهم هو مروان بن محمد ، المحارب المجرب ذو الخمسة والخمسين عاماً . وكان طبيعياً أن يطمح للخلافة ولكنه أراد على ما يظهر استئصال الطامعين

الشرعيين فيها من أبناء بيت عبد الملك فأعلن البيعة لولـدي الخليفة القتيل : الوليد بن يزيد • وكان الولدان بدمشق أي في قبضة الخليفة الجديد ابراهيم • فكانت بيعة مروان لهما كافية لإلقائهما في السجن ثم تقديمها الى النطع ••• وأعلن مروان بن محمد المطالبة بدم الأخوين القتيلين • بعد أن كان يحارب لخلافتهما ، وكان جيشه يسير من الجزيرة الى الشام فلم يجد بعد هزيمته لقائد جيش ابراهيم من مقاومة تذكر حتى دخل دمشق على ابراهيم ••• ولم يجد صعوبة في أخذ البيعة لنفسه حتى من ابراهيم ، الخليفة القائم ذاته •

على ان خلافـة مروان بن محمـد لـم تنقـل الحـكم مـن بيت عبد الملك بن مروان إلى بيت أخيه محمد فقط ولكنها في الوقت نفسه قلبت مراكز الثقل في الحكم الأموي رأساً على عقب وأعطتها صيغاً وأمكنة وتكوينات جديدة كان من الممكن أن تدعم هذا البيت أحسن الدعم لولا أنها كـانت في أول نشوئها حين انتصر العباسيون في معركة الـزاب :

فقد كانت دمشق قد ضعفت الضعف الواضح بانتقال الخلفاء عنها منذ عهد هشام وبكثرة الأوبئة والطواعين التي أصابتها ، نتيجة لتكاثف السكان فيها ، وبضعف أوضاعها الاقتصادية إثر تحـول طرق التجارة العالمية إلى العراق والجزيرة • ثم جاء مروان فكرس إضعـاف دمشق نهائياً ، بعد طول الاهمال ، بنقل العاصمة منها إلـى الجزيـرة • نقل الدواوين والأموال ومقر الخلافة إلى حران ثم أنشأ في شرقي حران ، في المنطقة المسماة باسم الموصل[1] ، مدينة له • شق فيها الطرق وبنى

---

(١) انظر خبر ذلك في مادة الموصل لدى ياقوت في معجم البلدان .

السور وأقام المسجد الجامع وسكن وأسكن .. ليجعل منهـا عاصمة الدنيـا .

ولم تكن نقلة العاصمة أمراً عادياً فقد كان ذلك يعني التخلي عن أهل الشام أي عن العصبية والمنطقة والمدينة التي كانت ، منذ عهد معاوية الأول ، سند الحكم الأموي . وكلمة أهل الشام كانت دوماً تعني جنوب الشام منذ شمال حمص خاصة حتى العقبة وقـد يشمل أحياناً بعض الأرضين حتى قنسرين . وكتلة السكان العرب في هذا الشام كانت من قبائل كلب اليمانية وعلى هذه القبائل أقام معاوية حكمه ، وعليها أقامه مروان بعد أن كسب بها معركة مرج راهط ، وإليها استند الخلفاء واحداً بعد الآخر حتى أخطأ يزيد الثاني فقضي على المهـالبة ثم جاء مروان فانسحب من المنطقة كلها ليستقر ضمن القبائل القيسية في الجزيرة ويعلن العداء للشام الجنوبي ولمن فيه . ولهذا فإنه حين انهزم قرب الموصل لم يستطع الوقوف في الشام كله وكانت أول محطاته ، بعد الجزيرة ، في مصر !

وقد رافق انتقال مركز الخلافة الى الجزيرة امران هامان بطلهما مروان أيضاً :

الأول : انتقال قطع كبيرة من الجيش الشامي الى الجزيـرة ، لتكون بجانب الخليفة هنالك ولتتابع المعارك التي ظل يقودها اكثر من خمس عشر سنة في ارمينية وما وراء القفقاس حتى أرض الخزر في قلب روسيا وعلى نهر الفولغا . ولم يكن لهذا الانتقال ــ فيما عدا الناحية الاقتصادية ــ أن يترك الأثر الكبير لولا أن مروان المحارب القدير قد حطم التكوين القبلي للجيش واستبدل به تنظيماً آخر يعتمد علـى التجنيد التطوعي

ونظام الكراديس . لم يعد الجيش كتائب قبلية تجاهد في الصيف ثم تعود في الشتاء الى مراكزها ومنازلها بل أضحى فرقاً منظمة ، تعتمد على التدريب وترتبط بقائد يعهد إليه الخليفة بجمعها وتنظيمها وتحمل في النهاية اسمه (كالوضاحية والذكوانية) لا اسم القبيلة . اختفت اسماء القبائل من الجيش وحلت اسماء القواد بدلا منها وحلت الرواتب المنظمة بدل العطاء وأسهم الغنيمة . ومروان بن محمد لم يكن هو الذي أوجد هذا النظام ولكنه هو الذي كرسه وجعله نظامه ... وهذا ما أوجد من حوله في الجزيرة مجتمعاً عسكرياً جديداً قد تكون قاعدته الواسعة قيسية ولكنها تضم أيضاً الكثير من اليمانيين المتطوعين للعمل الحربي . كما انه عطل بهذا الشكل نفسه عمل المجتمع الشامي الجنوبي من الناحية العسكرية وحوله نهائياً إلى مجتمع مدني بعيد عن التأثير في توجيه سياسة الدولة ...

الثاني : تبنى الخليفة مروان وجماعته رأياً دينياً ــ سياسياً مميزاً هو الذي أعطى مروان لقب ( الجعدي ) . فإن هذا المجتمع العسكري ، ذا الزعيم والعاصمة والعصبية ، كان في الوقت نفسه ذا رأي ديني خاص أيضاً هو مذهب الجعد بن درهم . وكان الجعد يقول ــ بين ما يقول ــ بأمرين :

أولهما : الجبرية ، وأن الانسان مسير غير مخير . الله خلق له أفعاله فليس له إلا تنفيذ مشيئة الله .

الثاني : نفي بعض صفات الله كالكلام . فالله لم يكلم موسى تكليماً ولا اتخذ ابراهيم خليلا بالمعنى الذي نفهمه من الكلمتين . وعلى هذا المنطق نفسه فالقرآن مخلوق . لأن كلام الله ليس ذاته وليس بالقديم ولكنه محدث ...

وإذا كان القول بالجبرية هو الرد الأموي الفكـري على الآراء العلوية التي كانت تقول بالاختيار ومسؤولية الانسان عن عمله ، فإن القول بنفي بعض الصفات عن الله كان يتلاءم مع مايجب أن يقول بـه المسلمون في مجتمع كمجتمع الجزيرة يتكون معظمه من النصارى كما يجاور الروم وهؤلاء وأولئك يؤمنون بان السيد المسيح كلمة الله وأنه ذاته ومنازعات الجدل النظري كانت لا بد أن ترافق العلاقات الحربية بين المسلمين وبين هؤلاء ...

وهكذا كان البيت الأموي يتجدد على نحو ما، ويحقق نهضته الخاصة على يدي الخليفة مروان: يتحول الى أبناء محمد بن مروان ويبني مجتمعاً عسكرياً ضمن عصبية جديدة في مستقر جغرافي مختلف وعاصمة مستحدثة وفي إطار أفكار دينية ـ سياسية خاصة ... هاجراً بذلك والى حد كبير المجتمع والعصبية والمكان الجغرافي والعاصمة والى حد ما الأفكار الدينية التي كانت تسانده قرابة القرن ... كان كذلك حين فوجيء بوصول الثوار العباسيين الى الزاب . وكانت الثورة من العنف والمفاجأة بحيث لم يستطع التكوين الجديد أن يصمد لها فسقط مروان رغم كل ما تحلى بـه من صفات الخليفة القوي المحارب الصبور تحت سنابكهـا لأن التكوين الأموي الجديد لم يكن من القوة ولا النضج بحيث يستطيع أن يسند ظهـره .

### ٦ ـ العلاقات الخارجية (الحرب الاقتصادية مع الروم)

بين عوامل سقوط العهد الأموي ثمة وجه سياسي اقتصادي مهمل لا يعيره الباحثون أي التفات رغم شأنه الكبير ، هـو تلـك الحرب الاقتصادية التي كانت قائمة بين الدولة العربية والروم مدة تزيـد على

أربعين سنة ، من أواخر ذلـك العهد • وقـد نجمت عن تلك الحرب الباردة أزمة اقتصادية قاسية في الشام ومصر خاصة لاتقل أثراً عن غيرها من الازمات في تدمير الحكم الأموي •

وبالرغم من أن هذه الناحية تحتاج الى المزيد من الدرس والتعمق إلا إنه ليس من الصعب تسجيل الخطوط العريضة لها[1] • والتي يمكن أن تكون الخلفية المادية للثورة وأحد الاسباب الاقتصادية الاساسية التي عملت على هدم العرش الأموي •

فإن توقف الفتوح قد انقص دون شك من موارد المقاتلين العرب ، ولكنه لم ينقص من موارد الدولة بالشكل الذي يجعلها تهتز وقد عوض الأمويون عن نقص الموارد المختلفة ، بعد موجة الفتوح الأولى بالاصلاح الضرائبي الذي تم زمن عبد الملك وخاصة في الشـام ومصر والجزيرة والعراق (مع الحجاج) ، وكان الدخل العام في مصر وافريقيا وفي الشام خاصة حتى أواخر القرن الثاني من الوفرة بحيث يسمح بحياة اقتصادية مزدهرة على شواطىء البحر الابيض المتوسط قوامها حرية التجارة مع البيزنطيين وعبر أسطولهم وموانئهم في جنوب أوروبا مـا بين ايطاليا والاناضول ، مع أوروبا الوسطى والغربية • وقد كـانت هزيمة « ذات الصواري» البحرية ٦٥٥ قد اسلمت البحر المتوسط وتجارتـه لأيدي العرب • ولم يقاوم البيزنطيون التوغل التجاري العربي لأنهم كانوا أول المستفيدين منه كما أن هذا التوغل ظل على ما يظهر في الأيدي التقليدية

---

(١) درس ارشيبالد لويس جوانب من هذه العلاقات الخارجية في الفصل الثالث «فصل الغزو العربي» من كتابه : « القوى البحـرية والتجارية في البحر الابيض المتوسط » .

للطبقات التجارية المحلية في شواطىء الشام ومصر كما ظل يجري بالنقود البيزنطية ودون أي تدخل أو توجيه من نظـام الحكم في دمشق .

وقد استفادت البلاد الشامية لا من وجود عاصمة الخلافة الاسلامية عندها وتدفق أموال الخراج والغنائم عليها فقط وتركز السلطات والقوى الامبراطورية في الشام ولكن من إلغاء مراكز المكوس القديمة التي كانت تقوم زمن الساسانين والبيزنطيين على الحـدود بين الشـام والعراق والجزيرة أيضاً . وبالمقابل فإن مصر التي طالما قاوم الساسانيون النشاط التجاري المتحرك منها واليها عبر البحر الأحمر أيام البيزنطيين والرومان من قبلهم حتى إنهم احتلوا في أواخر القرن السادس بلاد اليمن لإغلاق ذلك البحر على التجارية الرومية ، مصر هذه انطلقت حرة التبادل [1] في البحرين الأبيض والأحمر على السواء اللذين اتصل أحدهمـا بالآخر في عهد عمر بن الخطاب بخليج أمير المؤمنين . ولقد قال رحالة أوروبي زار الاسكندرية ٧٠٥ م هو (أركولف) ان الاسكندريـة غدت ملتقى تجارة العالم كله تتوافد عليها الاعداد الغفيرة من التجارة لشراء ما بها من البضائع . وهذا الرخاء في وادي النيل في مطالع القرن الثامن جعل الوالي يبعث الى دمشق يسألها أين يضع الموارد التي لم تعد خزائنـه تتسع لها فأمر أن يبنى بها المساجد ! أما ثراء شمال افريقيا والاندلس فتكشف عنه مبالغ الخراج الهائلة التي كان يرسلها ولاة تلك البقاع الى دمشق .

---

(١) لنلاحظ ان الوحدات البحرية العربية في البحر الاحمر ساعدت والي مصر في ثورته سنة ٦٨٤ ضد خليفة دمشق ونقلت هذه الوحدات قوات محاربة الى الحجاز سنة ٦٩٢ (انظر فييت : مصر العربية بالفرنسية) ص٣٩ و ص٤٤

**الحرب الاقتصادية :** وقد حدث في مطالع القرن الثامن تطور أدخل الاضطراب على مسالك التجارة التقليدية وطرقها البحرية والبرية في شرقي المتوسط : فقد حاول الروم البيزنطيون ان يبدلوا بالطرق المارة من بلاد العرب وبحارهم طريقاً آخر شمالياً يمر عبر البحر الأسود إلى بلاد الخزر ثم يتصل بالصين عبر السهوب التركستانية • ووطد الروم صلاتهم حتى المصاهرة مع ملوك الخزر في الوقت الذي حاولوا فيه مرات عديدة استغلال الجماعات المسيحية[1] على الشواطىء الشاميةوالمصرية لإثارة الفتن في البلاد الاسلامية وتقوية الاسطول الرومي لتظل مفاتيح التجارة في أيديهم • وقد شعر عبد الملك بن مروان بكل ذلـك وبأن البيزنطيين يحاولون تدمير الوحدة الاقتصادية والتقليدية للبحر الابيض المتوسط التي أبقى عليها العرب بعد الفتح • وأنهم كما قال المؤرخ بيرين، «في حرب الحياة والموت مع الأمويين يحاولون استخدام كافة مالديهم من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية» ولهذا ولأن الدولة الاسلامية كانت قد بلغت رشدها ونموها المستقر فقد خطا عبـد الملك خطوة تعريب الدواوين ، والسكة ، وفرض الرقابة على بعض بضائع التجارة فمنع تصدير ورق البردي من مصر الى بيزنطة • وبدل شعار الثالوث عليه نصاً توحيدياً عربياً • أدخل عبد الملك بذلك عنصراً جديـداً على حرب العرب للروم هو العنصر الاقتصادي الذي طالما استغله الروم قبل ذلك • وفي الوقت الذي فاوض فيه عبد الملك امبراطور بيزنطة لنقل بعض السكان (المردة) من سواحل الشام الى أرض الروم للخلاص منهم ، لم

---

(١) لم تنفع محاولة معاوية توطين بعض الجماعات من الفرس على الشاطىء الشامي ، في الحد من هذا الاستغلال الذي أخذ أبعادا واسعة زمن ثورة عبد الله بن الزبير ومطالع حكم عبد الملك . وكان « المردة » في لبنان هم راس الحربة في الدسائس الرومية .

تكن الحملات الحربية العادية بين الطرفين لتتوقف • وهكذا اتسعت الحرب بينهما في الميادين فأضحت برية ، بحرية ، سكانية ، اقتصادية •

وبالرغم من أن الامبراطور جستينان الثاني قد دخل القتال سنة ٦٩٣ جواباً على التدابير العربية وخسر ذلك القتال ثم دخل الحرب حين عاد إلى العرش مرة أخرى بغارة بحرية فاشلة على مصر سنة ٧٠٩ إلا إن الحرب الاقتصادية استمرت من بعده ومن بعد عبد الملك على يد ابنه الوليد الذي زاد ففرض الرقابة على حركة التجارة في مصر خاصــة : فالسفن النيلية خاضعة للتفتيش ، ويقتل من قد يوجد عليها من الروم دون اذن مسبق ، وعلى التجار الحصول على جواز يسمح لهم بالسفر الى خارج القطر ولم يضعف من تلك التدابير ــ بل لعله زاد فيها ــ فشل الهجوم العربي الثالث ــ والأخير ــ على القسطنطينية سنة ٧١٧ ــ ٧١٨ •

وقد قابلت بيزنطة التدابير العربية بأشد منها وفرضت نوعاً من الحصار البحري التجاري ضد المسلمين في السواحل التي تخضع لها سواء في ايطاليا أو موانيء اليونان أو قبرص أو شواطيء الاناضول • ولما كانت لا تستطيع فرض الحصار الشامل بسبب حاجتها الى بعض البضائع التي لابد أن تمر عن طريق بلاد العرب كالتوابل فقد خصصت ميناء طرابزون على البحر الأسود ، ثغراً لدخول كافة التجارات العربية الى بيزنطة ، والهدف من ذلك تحويل الثقل التجاري من موانيء مصر والشام الى الداخل البري ، عبر العراق وأرمينية • وربطه بمرفأ آمن من الهجوم العربي وتحت يدها المباشرة يصبح نهاية للتجارة العربيــة معهــا •

ومنذ فشل الهجوم العربي الثالث على بيزنطة سنة ٧١٨ انتشرت القوة

البيزنطية البحرية في البحر الابيض المتوسط وامتلكت عدداً من الجزر المواجهة للشاطىء الأوروبي : جزر الباليار ، سردينية ، كورسيكا ، بعد أن شددت قبضتها على قبرص وكريت فأتمت بذلك امتلاك سلسلة المراكز الأمامية للمراقبة والحصار . وما من شك في أن الثورات والاضطرابات العديدة التي قامت في النصف الأول من القرن الثامن وخاصة بعد مقتل الوليد الثاني ١٢٦/٧٤٤ في افريقيا وفي مصر وفي الشام والعراق وخراسان لم تكن جذورها سياسة أو دينية فحسب ولكنها كانت أيضاً نتيجة الضائقة الاقتصادية المتزايدة بسبب هبوط الحركة التجارية عامة في شرقي المتوسط . والقيود التي فرضها الطرفان . كل من جانبه ، عليها . وقد تمادت هذه الثورات بدورها فتركت آثارها في ايقاف الحركة التجارية الداخلية وتعطيل الانتاج الزراعي .

ولعله من الهام أن نذكر أن آثار هذه الحرب الاقتصادية وصلت حتى الى فرنسا التي عانت بعد سنة ٧١٦ كساداً اقتصادياً واضحاً وانقطع تجار سورية ومصر عن موانئها الجنوبية وتوقفت منذ أواسط القرن ولمدة خمسين عاماً عن ضرب العملة الذهبية واكتفت بالعملة الفضية . وهجر البحر المتوسط عامة بعد أن كان مجاز التجارة الكبير بين الشرق والغرب .

وإذا عدنا إلى الشام مقر الخلافة الأموية وجدنا مما يلفت النظر أن يحاول مروان بن محمد الخلاص من ثورات الشام واضطراباتها بنقل عاصمته الى حران على طريق التجارة الحي بين العراق وطرابزون وأن لا يتحول الخلفاء العباسيون الأوائل ، أثناء بحثهم عن عاصمة

جديدة عن محور خليج البصرة ـ الموصل فتتعدد عواصمهم الأولى قبل أن يستقروا أخيراً في بغداد ثم بعد ذلك في سامراء وكلها مدن تقوم على هذا المحور نفسه •

وهكذا يظهر كأنما كانت نتيجة الحرب الاقتصادية مع الروم هي التي سوف تحدد مصير النظام الأموي • ويظهر كأنما سقطت الخلافة الأموية اقتصادياً قبل سقوطها السياسي بسبب التدهور الاقتصادي ــ التجاري في القطرين الأساسيين اللذين تستند إليهما وهما : الشام ومصر •

**العمليات البحرية :**

ولقد حاول الأمويون المقاومة العنيفة دون شك بعد فشل هجومهم على القسطنطينية سنة ٧١٧ ، فقد كان لديهم أسطول سورية وأسطول مصر ثم أضافوا إليهما بعد سنة ٧٠٤ أسطولاً افريقياً فأغاروا على قبرص سنة ٧٢٦ • وفرضوا عليها الجزية الضخمة ، ثم أغاروا عليها كرة أخرى سنة ٧٤٣ وحملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى • وتعرضت صقلية في سنوات : ٧٢٧ ــ ٧٢٩ ــ ٧٣٠ ــ ٧٣٣ ــ ٧٤٠ ــ ٧٥٢ لغزوات الاسطول الإسلامي • وأغار العرب على سردينيا سنة ٧٣٥ و سنة ٧٥٢ ولم يهزموا إلا مرتين سنة ٧٣٣ و سنة ٧٣٥ ولكن الاسطول البيزنطي الذي كانت قواته تتكون من أسطول مركزي امبراطوري وأربعة أساطيل إقليمية ترابط ثلاثة منها في الحوض الشرقي من المتوسط والباقي في الحوض الغربي ، جمعت قياداته الشرقية ، في عهد ليو الثالث الايسوري ، بيد قائد أسطول جنوب الأناضول ، الذي أعطي لقب القائد العام للاسطول • وقد

استطاع هذا الاسطول ، بعد أن أضحى أضخم بكثير مما يلزم للحاجات الدفاعية في المنطقة ، في عهد قسطنطين الخامس ، أن يضيق الخناق سنة ٧٤٧ على العمارة البحرية العربية التي كانت تزيد على ألف سفينة وأن يطوقها بالنار الاغريقية في شمال قبرص ويمزقها شر ممزق فلم ينج منها سوى ثلاث سفن هاربة .

وإذا كانت هذه المعركة البحرية الفاصلة سنة ٧٤٧ هي الجواب ، بعد مائة عام تقريباً ، على معركة ذات الصواري سنة ٦٥٥ ، وإذا كانت قد أعادت سيطرة الروم على البحر المتوسط ، فانها لحد كبير قد ختمت جولات الصراع في الحرب الاقتصادية مع العرب وأعطت مفاتيحها للروم مدة طويلة بعد ذلك . وإذا كانت بيزنطة قد أيدت نصرها هذا بنصر آخر سنة ٧٥٢ أنهى السفن البحرية العربية تماماً : فإن الامويين كانوا قد زالوا قبل ذلك بسنتين وتولى الأمر من بعدهم العباسيون ، وكان النظام الاموي ، قبل أن يهزم في معركة الزاب السياسية سنة ٧٥٠ قد هزم في المعركة الاقتصادية سنة ٧٤٧ .

**٧ ـ الأمل :**

ان استعراض هذا الوضع كله يفسر لنا سوء الوضع العام للخلافة الاموية ويفسر لنا تلك النظرة السوداء اليائسة التي كان ينظر بها رجال تلك الفترة إلى المستقبل والتي عبر عنها عباس بن الوليد الشاعر في قوله يخاطب الامويين :

اني أعيذكم بالله من فتن
مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سيادتكم
فاستمسكوا بعمود الله وارتدعوا

وترى هذا اللون الاسود مرة أخرى في قصيدة للحارث بن عبد الله الجعدي يقول فيها :

| | |
|---|---|
| أبيت أرعى النجوم مرتفقا | اذا استقلت تجري اوائلها |
| من فتنة أصبحت مجللة | قد عم أهل الصلاة شاملها |
| من بخراسان والعراق ومن | بالشام كل شجاه شاغلها |
| فالناس منها في لون مظلمة | دهماء ملتجة غياطلها |
| والناس في كربة يكاد لها | تنبذ اولادها حواملها |

وقد كانت تعوز الامويين في تلك الفترة — مع تمزقهم الداخلي — القوة المعنوية الضرورية من طموح ناشيء أو مبدأ ديني لقمع تلك الثورة النفسية المتراكمة في النفوس أو لتبديدها أو امتصاصها بعمل ضخم .

وفي مثل هذه الاحوال — في العادة — يترقب الناس معجزة تنقذهم . وهذا ما يفسر لنا شيوع فكرة المهدي المنتظر في تلك الآونة بين الشعوب الاسلامية[1] وظهور أفكار أخرى غيرها قائمة على التنبؤ : كالتنبؤ ببعض الاحداث ( ع بن ع بن ع يقتل م بن م بن م )[2] يعنون عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس يقتل مروان بن محمد بن مروان أو التنبؤ بمصير العالم أو برجعة عيسى بن مريم أو المهدي

(١) هذه الفكرة قديمة جدا ولئن شاع انها اسرائيلية الاصل فهي في الواقع منتشرة بين جميع الشعوب : تظهر في خرافة تيفون وخورس عند قدماء المصريين وفي خرافة ميترا لدى الفرس ، وفي كتب الصين القديمة وفي عقائد الهنود ، ولا تزال آثارها الى اليوم في اسكانديناڤيا والمكسيك ولدينا نحن .

(٢) انظر الطبري ج٧ ص٣٢٠ (٢/١٩٠٣ — ١٩٠٤)

( المخلص ، المسيح ) وهذه الفكرة الاخيرة قد صيغت إذ ذاك على الشكل التالي : سيظهر رجل ذو أعلام سود من المشرق ويزيل عرش بني أمية . وقد يخامرنا الشك في صحة ظهور هذه النبوءة بهذا الشكل في ذلك الوقت . لكنا نلاحظ ان محمد بن علي العباسي قد يكون أشار إليها في وصيته لابي مسلم حين ختمها بقوله : « أما بعد فاني أتفاءل الى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » . ولقد كان هذا التفاؤل في محله لانه بناه على ما يعرفه من الدعوة السرية العباسية .

ولعله من الهام أن نلاحظ أن الحزب الاموي حاول استغلال الفكرة نفسها لمصلحته وقد ادعى الامويون ، في نوع من الدعاية المضادة ، أن « المهدي » المنتظر هو من بني عبد شمس أو أنه عمر بن عبد العزيز أو أنه « أشج بني أمية » . روى ابن سعد في الطبقات الكبرى قول العرزمي : «... سمعت محمد بن علي ( وانظر نسبة القول الى صاحب الدعوة العباسية الذي إن صح النقل عنه فقد قال ما قال سنة ١٠٠ وقبل تنظيم الدعوة ) يقول : « النبي منا والمهدي من بني عبد شمس ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز » قال : « وهذا في خلافة عمر بن عبدالعزيز . كما روى ابن سعد قول أبي يعفور نقلا عن مولى لهند بنت أسماء : « ... قلت لمحمد بن علي : إن الناس يزعمون أن فيكم مهدياً . قال : إن ذاك كذلك . ولكنه من بيت عبد شمس . قال كأنه عنى عمر بن عبد العزيز ..» وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال لمن سأله عن المهدي : « هل رأيت الأشجع عمر بن عبد العزيز ... قال نعم . قال : فهو المهدي ...»[٢] .

---

(١) انظر الطبري ج٦ ص٥٦٦ (٢/١٣٦٢ ـ ٣)
(٢) ابن سعد الطبقات الكبرى ج٥ـ١ ص ٢٤٥

واستغل الامويون فكرة «السفياني» المنتظر ولعلها إشاعة تنبؤية راجت بعد انتقال العرش الاموي إلى المروانيين لكنها في أواخر العهد الاموي وجدت سوقاً رائجة • وقد حاول بعض السفيانيين تجسيد تلك الشائعة ومنهم أبو محمد السفياني ، زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذي ثار أولاً سنة ١٢٦ فحبس في حران وأطلقه مروان بن محمد سنة ١٢٧ ثم « خرج ودعا إلى نفسه فبايعه ألوف وزعموا أنه السفياني •••»[(١)] حين انتصر العباسيون •

على أن الناس عامة كانوا ــ فيما يظهر ــ أكثر ميلاً إلى تصديق النبوءات الاخرى التي تصوغ أمانيهم على شكل يخلصهم من الحكم الاموي • ومع أن الشك يحوم حول قصة من هذا النوع ذكرها الطبري فإنا نذكرها لانها قد تكون في أصلها ، وقبل وضع المعالم الواضحة من الاحداث في سطورها ، صحيحة • يقول : إن بعض اليمانية . بعد عودتهم من مكة تجادلوا مع نصر بن سيار في تدهور الامور واتهم كل طرف الآخر فقال رجل من أهل القرى حول جرو كان معهم : « أيها الامير • حسبك من هذه الامور والولاية • فإنه قد أطل أمر عظيم • سيقوم رجل مجهول النسب يظهر السواد ويدعو إلى دولة تكون • فيغلب على الامر وأنتم تنظرون وتضطربون ••» • فقال نصر : ما أشبه أن يكون لقلة الوفاء واستجراح الناس وسوء ذات البين »[(٢)] •

---

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ( مخطوط الظاهرية ) ج٦ ورقة ١٨٥ وجه ويذكر في العيون والحدائق لمؤلف مجهول ( طبعة دي غوية ج٣ ص١٢٠ ثم ص١٣٨ و ص١٣٩ ) أن أبا محمد هذا كان يحمل لقب السفياني منذ عهد هشام بن عبد الملك ويدعى ذلك .

(٢) الطبري ج٧ ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ ( ٢/ ١٩٣٠ ) .

## الفصل الثاني

# الثورة العباسية

### ١ ـ مقدمات الثورة : ( البؤرة والدعوة ) :

عرف الحكم الاموي نهاية الفاجعة سنة ١٣٢/٧٥٠ • وقد جاءت هذه النهاية شبيهة بالقدر المحتوم نتيجة عدد من العوامل والظروف اشتركت فيها من جهة الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة وما رافقها من مساوىء السياسة المالية والادارية ومن دعاية التيارات السياسية ـ الدينية المناوئة ، ومن التدهور الاقتصادي في الشام ، كما اشترك فيها من جهة أخرى عناصر أخرى بعضها من عمل بني العباس وبعضها من عمل الامويين أنفسهم • وإذا كانت العناصر الاولى عناصر ثانوية مساعدة ، فان الاخيرة كانت هي الاساسية والحاسمة • بل إن تواقت العمل العباسي مع مرور الامويين بالازمة الحادة في الشام ، هو الذي قطع الحبل ببني أمية • فقد عرف الامويون هزات أقسى وأعنف واصطدم حكمهم بثورات أكثر خطراً وقوة من الثورة العباسية سواء في مكانها الجغرافي ، أو في رجالها وأنصارها فتجاوزوها وبقوا في سدة الحكم لانهم كانوا مالكين كل الملك مستقرين أقوى الاستقرار في قاعدتهم الكبرى في الشام • وإذا استطاعت الثورة العباسية أن تنجح حيث فشلت ثورات

ابن الزبير أو ابن الاشعث أو المختار أو الخوارج أو العلويين فإن الاسباب الاساسية إنما تعود إلى ثلاثة عوامل التقت على إنجاح بني العباس وإسقاط بني أمية :

١ ــ أزمة الامويين في الشام وانشغال الاسرة بتمزقها وببناء تكوينها الجديد في الجزيرة • وقد رأينا ملامح الصورة في ذلك وهي صورة يمكن اعتبارها ملامح نهضة أموية لم تكمل ولم يمهلها الوقت لاستكمال عدتها ومداها •

٢ ــ نجاح العباسيين في اختيار وفي كسب المكان الملائم للتحرك الناجح ، وهو خراسان ، فقد عثروا فيه على إقليم واسع ، غني ، بعيد عن متناول بني أمية ، كثير العناصر الناقمة ، نقمة كافية سواء في عمقها أو في سعتها وفي عدد من تتناولهم للقيام بثورة مسلحة ناجحة •

٣ ــ اعتماد بني العباس على دعوة سرية نظمت التنظيم الذكي الدقيق وعمل عليها العمل الدائب أكثر من ربع قرن حتى استطاعت أن تجمع حولها مختلف العناصر الناقمة وتدفعها في اتجاه الثورة ، تحت شعارات غامضة يتصل أهمها بالدفاع عن آل بيت الرسول ( ص ) الذين أصيبوا أمام القوة الاموية بعدد من النكبات والهزائم الدامية •

وإذا كانت أزمة الامويين هي العنصر السلبي في هذه العوامل الثلاثة فإن اختيار خراسان كبؤرة وتنظيم الدعوة كعمل سياسي كانا هما العنصران الايجابيان وكانا هما العمل العباسي الجديد المختلف عن الاعمال والثورات العلوية السابقة • وعند هذين العنصرين نقف بعض التحليل :

ومن الهام أن نوضح ، منذ البدء ، أن ثمة صورة خاطئة أضفاها

بعض المؤرخين العباسيين ، من ذوي الاصل الايراني[1] ، على الحركة العباسية وتناقلها عنهم المؤرخون من بعد • ثم جاء بعض المستشرقين فأعطوها فلسفتها وصورتها العنصرية منذ أواخر القرن الماضي وتابعهم في ذلك أعداد من الباحثين العرب المحدثين وغيرهم • تلك هي الصورة التي تجعل الثورة العباسية على الامويين حركة فارسية ضد العرب • وتفسرها على أنها ثورة الموالي من الفرس ضد الطبقة العربية الحاكمة ، أي أنها حركة عنصرية واجتماعية • ولم تكن الحركة العباسية لا ثورة قومية ايرانية عنصرية ضد العرب ولا تمرداً طبقياً أو وطنياً ضد التمييز الاجتماعي أو التسلط العربي • وإذا كانت جغرافياً خراسانية انطلقت من إقليم إيراني ، وجرفت منها بهذا الشكل عناصر إيرانية عديدة فإنها كانت حركة عربية ــ إسلامية خالصة بمبادئها وزعمائها وأهدافها • وقد قام بها جماعة من العرب كانت تسكن جانباً من جوانب الدولة القصية ( خراسان ) ضد جماعة عربية أخرى حاكمة تمركزت في الشام • واستغل الثوار في سبيل غايتهم أفكاراً دينية ــ سياسية راهنة . واضطرابات سياسية قائمة ، وأزمات اقتصادية كان يعاني منها الحكم الاموي نفسه في الشام ومصر وآلاماً مالية ــ ضرائبية كانت تعاني منها مختلف الاقاليم سواء في المشرق أو المغرب •

والواقع أن الثلث الاول من القرن الثاني الهجري كان فترة أزمات ذات منابت مختلفة ومظاهر متعددة في المجتمع الاسلامي

---

(١) نقرأ مثلا هذا النص لدى حمزة الاصبهاني ( تاريخ سني ملوك الارض ، ص١٦٠ ) «...لما كان ... الذين قاموا بنقل الدولة إليهم ( الى العباسيين ) من بني أمية عجم خراسان باخفائهم جندهم من العرب والاعراب ... » .

الواسع . التطورات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية التي تمت في ذلك المجتمع خلال قرن من الحكم الاسلامي تجاوزت به الاوضاع القائمة منذ أيام الفتوح الاولى ، وخلقت كثيراً من التخلخل في مؤسساته . وقد كانت الثورة العباسية محاولة لحل تلك الازمات ، كما كانت تعبيراً عن الرغبة في الخلاص منها . وكانت عبقرية الدعاة العباسيين أنهم جندوا لتأييد الدعوة جماعات واتجاهات متباينة الاهداف ، رأت كل منها في هذه الثورة على الامويين تحقيقاً لمصالحها الخاصة وحلاً لمشاكلها . أو أنها حسبت ذلك .

ولعل نجاح الحركة العباسية يتضح ، بالاضافة إلى ما رأينا من الصورة العامة لاوضاع الدولة الاموية ، من خلال أمرين :

الاول : سياسي اقتصادي يتعلق بأوضاع خراسان ، بؤرة الثورة .

الثاني : ديني ـ عملي يتعلق بتكوين الدعوة العباسية في الفكر والتنظيم .

## اولاً : اوضاع خراسان ، بؤرة الثورة ( الوجه السياسي ـ الاقتصادي )

وتوجه الاهتمام بين أقاليم الدولة الاسلامية إلى هذا الاقليم في أقصى المشرق : خراسان[1] لأن الثورة العباسية إنما تكونت

---

(١) خصص الباحث الدكتور محمد عبد الحي شعبان الجانب الاكبر من اطروحته سنة ١٩٦٠ (الجذور الاجتماعية والسياسية للثورةالعباسية) للبحث في اوضاع خراسان . كما كتب الدكتور صالح احمد العلي بحثاً

واكتملت سياسياً هناك • وتحليل الاوضاع في ذلك الاقليم يلقي الضوء على العوامل السياسية ـ الاقتصادية التي كونت الثورة وأعطتها مقومات النجاح • وبالرغم من أن تاريخ العراق بالذات ، في العصر الاموي ، كان يرشحه لقيادة الثورة التي تكتسح في يوم من الايام الحكم الاموي إلا أن قربه من الشام ، وكثرة الثورات الفاشلة فيه ، وبالتالي كثرة الشيع والاحزاب وتنبه الامويين الدائم له ، كل ذلك حرمه أن يكون مهد الثورة ونقلها إلى إقليم آخر ، تابع للعراق ، ومتصل به أوثق الاتصال عششت فيه التكوينات الأولى للتمرد ، فلما نضجت كل النضج قدمت ثمارها للعراق فكان هو الاقليم الذي قطف الثمار واستقرت به أسرة الثائرين •

وإذا تحدثنا عن خراسان من الزاوية السياسية الاقتصادية فيجب أن نميز ما بين ثلاثة مجموعات سكانية رئيسية فيها : العرب والايرانيين والترك الموجودين فيما وراء النهر • ولكل منها أوضاعه الناقمة الخاصة :

**العـــرب :**

فحين افتتحت خراسان عقد العرب المسلمون مع مرزبان مرو معاهدة ترك فيهـا للدهاقين والمرازبة ، وهم الطبقة التي كانت لها السيادة ولها ملك الاراضي والضياع الواسعة والحكم السابق ، مهمة تقدير الضرائب وجبايتها • كمـا اشترطت المعاهدة افساح المجـال لاستيطان العرب في ذلك الاقليم • وقد أنشأ الامويون هنالك قواعـد

---

قيماً حول استيطان العرب في خراسان (مجلة كلية الاداب ـ بغداد سنة ١٩٥٩) •

ثابتة لمقاتلة العرب الذين كانوا يفدون من البصرة والكوفة خاصة مع قبائلهم وذراريهم للقتال فيما وراء النهر وقد استقر هؤلاء بعد سنة ٤٥ هـ • / ٦٦٥ خاصة وأخلدوا تدريجياً إلى حياة الاستقرار والتجارة والاستقلال الزراعي بدلاً من العمل العسكري • ولم يستقروا في المدن فقط مثل مرو التي وصفها الطبري بأنها « بيضة خراسان » ولكن في القرى المحيطة بالمدن أيضاً وخاصة حول مرو ، وحول بلخ حين اتخذها أسد بن عبد الله القسري مركزاً له وبنى القرى حولها لجنده • وكانت بعض القرى معروفة بأنها أزدية أو خزاعية أو طائية • وبلغ من اندماج هؤلاء العرب في المحيط الايراني الفارسي أن اتخذوا مع أسمائهم القبلية أنساباً للمدن التي سكنوها • فهذا مروزي ( حازم ابن خزيمة التميمي ) وذاك طوسي ( قحطبة بن شبيب الطائي ، والفضل ابن سليمان التميمي ) وثالث كرماني ( جديع بن علي الأزدي ) أو بلخي أو نيسابوري ••• وتزوجوا الفارسيات وتكلموا اللغة الفارسية ولبسوا الملابس حتى صار من الصعوبة في عصر الجاحظ فيما بعد ( أي في القرن الثالث الهجري ) تمييز العرب المستقرين في خراسان عن سكان القرى الاولين • « ••• وقد نرى ـ كما قال ـ الناس أبناء الاعراب والاعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا نشك أنهم علوج القرى •••» وهذا كله قد يوضح معنى كلمات : « أهل خراسان » و « أهل القرى » التي تستعمل في كتب التاريخ القديمة للدلالة على من نفر للدعوة العباسية فهي إنما كانت تعني العرب من السكان • وليس ثمة دليل على أن السكان الايرانيين أو الموالي هم الذين نفروا للثورة ولا دهاقينهم والمرازبة •

وجموع العرب المقيمين في خراسان لم تكن بالقليلة في العدد ولا الضعيفة في العدة ، وأول ما نزل العرب خراسان كان حين أرسل

زياد بن أبيه أيام معاوية نحواً من خمسة وعشرين ألفاً من البصريين ومثلهم من الكوفيين إليها • وخمسون ألف مقاتل تعني خمسين ألف عائلة تتوطن هناك • ثم انضمت إلى هذه الجموع أقسام من قبائل الأزد كانت تحركت من عمان إلى العراق ثم مشت مع زعيمها المهلب بن أبي صفرة الى خراسان حين ولاه الحجاج ذلك الاقليم • فكان في جيش خراسان يومذاك عشرة آلاف من الأزد ومثلهم من تميم ومثلهم من قيس وتسعة آلاف من بكر وسبعة من عبد القيس ( من ربيعة ) • ولحق بهؤلاء وأولئك جماعات أخرى جديدة في زمن هشام بن عبد الملك وقسمت الدولة في العطاء لهؤلاء كما كانت قسمت لسابقيهم ، وأحياناً على حساب هؤلاء السابقين الذين تقاعسوا عن الحرب فإنما كان عمل الجماعة العربية هناك حماية الحدود من الترك ونشر الاسلام ••

وهكذا تألفت الكتلة العربية في خراسان من مختلف القبائل : ففيها أهل اليمن وفيها من هم من ربيعة وفيها المضريون • ولم يكن ثمة أحزاب سياسية تمزق هذه المجموعة التي كان العمل الاساسي لها هو القتال على جبهة تركستان على أن هذا لا يعني أنه لم يكن بين عناصرها عصبيات وإحن قبلية تضع بعضها ضد بعض وتثير بينها الفتن بسبب المصالح والعطاء والاقطاعات والثارات • كما لا يعني أيضاً أنه لم يكن لديها ما يثيرها ضد الحكم الاموي فالواقع أنه كانت لها أوجاع ومنابع أخرى للشكوى والنقمة عليه • فمن كان من العرب قديم الاستقرار والتوطن تقاعس عن القتال ، فلما حرمه الامويون العطاء زمن هشام نقم عليهم معتقداً أن العطاء حق مكتسب دائم • والمقاتلة الجدد الذين كانوا يفدون لسد حاجة الجبهة التركستانية زاحموا القدماء على عطائهم وأخذوه ولكنهم نقموا على الحكم الاموي

سياسة « التجمير » التي اتبعها فيهم أي إبقاء المقاتلة على الثغور في الشتاء فلا تسرح إلى أهلها في خراسان • وكان يزيد في حفيظة المقاتلين أن الوالي الاموي كان ينقص في عطاء الجند كما يبخسهم حقهم في الفيء والغنائم ويحتجز الكثير منها لدمشق • يضاف إلى هذا أن الدهاقين الفرس المتحالفين مع الحكام كانوا هم الذين يتحكمون في فرض الضرائب وجبايتها من الموالي ومن العرب الذين يستقرون على السنواء •

وهذا ماجعل للنقمة العربية هناك جذورا اقتصادية سياسية كما أوجد تكتلات قبلية جديدة بين العرب لاتستند الى العصبية القبلية القديمة التي اهترأت وملها الناس ولكن الى المصالح الجديدة للقبائل العربية المتوطنة في خراسان • وفي التحليل السياسي الذي ينسب الى محمد بن عبد الله العباسي والذي استعرض فيه أقاليم البلاد الاسلامية ومذاهبها السياسية واختار خراسان أعطى زعيم التنظيم ثلاثة أسباب لاختيار تلك البقعة مهدا للثورة • قال :

« ••• عليكم بخراسان فان هناك :

١ ــ « العدد الكثير والجلد الظاهر ••• وهم جند لهم ابدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب ••• » أي أنهم مقاتلون وكثيرون •

٢ ــ وهناك : « ••• صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد ••• » أي لاأحزاب سابقة ولاتنزق •

٣ ــ وهناك إلى هذا وذاك استياء عام من السلطة تعلنه : « ••• أصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة ••• » •

ومن الواضح أن محمدا بن علي رأس الدعوة انما كان يشير الى العرب في خراسان خاصة ( فهم الجند هناك ) ويرفض غيرهم لأنه « البصرة عثمانية ، والكوفة لآل علي والجزيرة حرورية مارقة والشام لطاعة الامويين ... »

ويبدو أن وحدة الصف العربي في خراسان كانت معروفة فحين ثار الحارث بن سريج سنة ١١٦ وقف بعض أصحابه يقول : « ياأهل خراسان ، إنا كنا بمنزلة بيت واحد وثغرنا واحد ويدنا على عدونا ( الترك ) واحدة ، وقد انكرنا ماصنع صاحبكم[1] » ( يعني والي خراسان عاصم بن عبد الله ) .

على أن عدوى التمزق القبلي مالبثت أن دبت الى هذه الجماعة العربية فانقسمت الى المجموعتين المعروفتين قيس ويمن ، وخاصة في مرو حاضرة خراسان ، وبعد موت الوليد الثاني وماتبعها من الشام .

وحين عين نصر بن سيار واليا على خراسان وتزعم القيسيين كان اليمانيون قد التفوا من حول جديع بن على الازدي ( الكرماني ) الا أن النزاع كا نواهي العصبية من جهة كما أن الناس سرعان ماملوه وضاقوا باستمراره من جهة أخرى لانه لم يعد له من أساس راهن وقد ظهر للعرب هناك من المصالح الجديدة وضرورات التكتل المختلفة ماجعلهم يتجهون نحو تطور قبلي مصلحي جديد ، يقول صاحب كتاب العيون والحدائق : « ... ولما رأى الناس أن شيعة بني مروان قد وقع بينهم الخلاف وبعضهم يقتل بعضا وأن جديعا الكرماني قد قتل الحارث ابن سريج ، وتسلم مرو ، ثم ان نصراً قتل جديعاً ، وان علياً وعثمان

---

(١) الطبري ج٧ ص٩٧ (١٥٧١/٢) .

جديع مـالا الى أبي مسلم وصادقاه وحلفا له دخـل اكثر الناس في طـاعته ... »[1] ويقول صاحب كتـاب ( أخبار الدولة العبـاسية ) :
« ... فطالت الفتنة بين نصر بن سيار وعلي بن الكرماني ومن كان بها من العرب حتى أضجر ذلك كثيرا من أصحابها وجعلت نفوسهم تطلع الى غير ماهم فيه والى أمر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعو اليمـاني من الشيعة اليماني والربعي الربعي والمضري المضري حتى كثر مـن استجاب لهم وكفوا بذلك عن القتال والعصبية ... »[2] ولم تكـن هذه الدعوة بالطبع عفويـة ولكنها كانت بجانب جذورهـا العميقـة المرتبطة بالمصلحة الاقتصادية ، تتيجة عمل النقباء والاثني عشر للدعوة ـ والذين كانوا جميعاً ، غير واحد منهم ، من العرب . وعمل من معهم من نظراء النقباء وباقي الدعاة السبعين وكتلتهم المعروفة كلها عربيـة أيضاً وأيضاً .

وهذا التحول العربي نحو الاتجاه «الشيعي» العـام ، الغامض الزعامة كان التحول الانقلابي الذي خسر معه نصر بن سيار ، والأمويون من ورائه ، قضيتهم لأن مختلف القبائل العربية انسحبت بذلك الـى صفوف الثورة آملة بتغيير جديد . ولم ينفع نصر بن سيار ما أطلقه من الدعاية القوية البليغة لتشويه سمعة الشيعة العباسية ووصفـه إياهـم بالكفار الذين يعبدون الرؤوس والسنانير ، وبالرعاع ، وسقاط العرب وبالموالي والسفهاء والمجوس وبأنهم :

ليسوا الى عرب منا فنعرفهم ولا صميم الموالي إن هم نسبوا

---

(1) العيون والحدائق ص١٨٨ .
(2) أخبار الدولة العباسية ص٢٤٨ .

فالعباسيون واجهوا ذلك بدعاية قوية مماثلة تستند الى أمر عملي وهو أنهم دعوا الى اجتماع بايعوا فيه سليمان الخزاعي شيخ النقباء العباسيين : «•• على كتاب الله وسنة رسوله وإظهار العدل وإنكار الجور ورفع الظلم عن الضعفاء وأخذ الحق من الأقوياء • وقالوا :

لسنا نحابي على الرحمن من أحد   فيما نطالب من مولى ومن عرب !

**الايرانيون :** : إذا كان التذمر السياسي والخلاف القيسي اليماني ومشاكل العطاء قد حولت انظار العرب المستقرين في خراسان ، بفعل الدعوة العباسية ، الى مشكلة الحكم والخلافة فإن الجماهير الايرانية كانت بعيدة في الواقع عن التفكير بهذه المشكلة التي لا تهمها كثيراً • بقدر ما تهمها المشكلة الأقتصادية المالية المتمثلة في الواقع الضرائبي القاسي وسوء الإدارة •

فمنذ الفتح وجدت في خراسان كما وجدت بعد ذلك في ما وراء النهر مثل بخارى وسمرقند ضريبة واحدة مفروضة تدفع نقداً تنفيذاً لمعاهدات الفتح •

وتسمى هذه الضريبة خراجاً أحياناً وجزية أحيانا أخرى مما يدل على تواجد المعنيين والضريبتين فيها هناك • وكان الدهاقين هم المشرفون على فرضها وعلى جبايتها تحت أنظار بعض العمال • ومن هؤلاء في زمن نصر بن سيار : بهرامسيس الذي لقبه نصر بمانح المجوس وذكر أنه « يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم ( أي ضرائبهم ) على المسلمين (منهم) •••» •

وبهذا الشكل اتفقت مصالحهم مع رجال الدولة على حساب الرعية • ورضي الدهاقين ــ كما يقول المستشرق بارتولد ــ في العصور

الاسلامية الأولى في ايران بزوال شأنهم السياسي مقابل الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية التي نالوها في الاسلام[1] . فكان الوضع هناك كما قال شريف أعجمي لعربي : « الشرف نسب . والشريف من كل قوم نسيب للشريف من كل قوم ..» وهكذا لم يبادر الدهاقين الى الدخول في الاسلام فقط ولكن دخلوا مع الولاة المسلمين في حلف مصلحي ودي . وكانوا محل ثقتهم وتعاونهم[2] كما كانوا يساعدون الجيوش الاسلامية العربية ضد الاتراك فيما وراء النهر ويحتفون بكبار العرب ويتملقونهم بالهدايا الثمينة في الأعياد والنوروز والمهرجان[3] .

وكانت ضريبة الخراج تفرض في خراسان وما وراء النهر على الرؤوس لا على مساحة الأرض يقول الطبري : «خراج خراسان على رؤوس الرجال» ويقول اليعقوبي «وخراجهم على رؤوس الرجال يوجبون على كل رجل بالغ جزية ...»[4] . ومن السهل أن نفهم السبب في التفريق بين خراسان وغيرها في معنى الخراج وفي اختلاطه أو توحيده مع الجزية . إذ لو فرض الخراج على الأرض لوقع أكثره على الدهاقين وعلى كبار الملاكين العرب .

وحين نقص الخراج ونقصت بالتالي موارد الدولة بدخول الأعداد

---

(١) بارتولد ــ الحضارة الاسلامية (معرب) ص٦٥

(٢) ومثال ذلك علاقة نصر بن سيار بأمير بخاري تفشادة أو (طوق شيادة) الطبري ج٧ ص١٧٦ (٢/١٦٩٣) .

(٣) الطبري ج٧ ص٥٠٣ و ص٤٠٩ و ص٤٦٣ .

(٤) الطبري ج٧ ص٥٤ (١٥٠٧/٢) . اليعقوبي (هوتسما) ج١ ص٢٠٧

من الموالي في الاسلام ، اعتبر الولاة تلك الضريبة خراجاً لا جزية واستمروا في فرضها . لا لأن إلغاءها يتعارض فقط مع المصلحة المالية للدولة والولاة ولكن أيضاً لإضراره بمصلحة الدهاقين جباة الضرائب وفارضيها على الناس . وقد ظهرت بارقة أمل بالإصلاح الاسلامي الذي فرضه عمر بن عبدالعزيز لكن هذه البارقة انتهت إلى الالغاء السريع ثم جاء أشرس بن عبد الله السلمي «فزاد في وظائف خراسان (أي ضرائبها) واستخف بالدهاقين» فكان ذلك سبباً في نقمة الطرفين على الدولة .

الى أن جاء نصر بن سيار (١٢٥ — ١٣١) فحاول تنظيم الضرائب في خراسان على الوجه العادل إذ قرر اعفاء المسلمين الموالى من «الجزية» ولم يلاق صعوبة مالية في ذلك لأنه وجد مقابل الألوف الثلاثين من الموالي المسلمين الذين أعفاهم ، ثمانين ألف مشرك لم يكن يدفع الجزية. ثم قسم خراسان الى مناطق ضريبية . وفرض على كل منطقة مبلغاً معيناً يجبى على الأرض أيا كان مالكها . أي أنه فصل مفهوم الجزية عن الخراج فألغى الأولى عمن أسلم وفرض الثانية على أصحاب الأرضين[٢] .

---

(١) البلاذري — فتوح البلدان ص٥٢٦ (طبع المنجد) .

(٢) يستلفت النظر أن نصر بن سيار حين قام بهذه الاصلاحات ، خطب إثر عودته من بعض الغزو سنة ١٢١ فكشف عن بعض الامور الهامة المتعلقة بالقضية الضرائبية إذ قال : «الا ان بهرامسيس كان مانح المجوس يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم على المسلمين . الا ان اشبداد بن جريجور كان مانح النصارى . إلا أن عقيبة اليهودي كان مانح اليهود يفعل ذلك . الا اني مانح المسلمين . امنحهم وأدفع عنهم واحمل اثقالهم على المشركين . ألا إنه لا يقبل مني إلا توفى الخراج على ما كتب ورفع ... فأيما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه أو ثقل عليه في خراجه وخفف مثل ذلك على المشركين فليرجع ذلك إلى المنصور بن عمر

وإذا كان طبيعياً أن ترضي هذه الأصلاحات سواد الشعب ولو أنها جاءت متأخرة ، إلا أنها أغضبت الطبقات المتنفذة من الملاكين العرب ومن الدهاقين[1] على السواء وهم الذين كانت لهم معاً ، وباستمرار ، اليد الواسعة في مقاومة المحاولات الاصلاحية الأموية في هذه الناحية • ومن الهام أن نلاحظ في النهاية أن الموالي الايرانيين لم يكونوا جميعاً ناقمين على الحكم الأموي لدرجة الثورة • وإذا وجد فيهم أمثال أبي مسلم ، والداعية العباسي شبل بن طهمان والثائر مع المرجئة أبي الصيداء صالح بن طريف فإن كثرة الموالي وقفوا ، في نيسابور ، بجانب نصر بن سيار وقد قاومت بلخ أعنف المقاومة جنود المسودة • وخاض العباسيون الثائرون قتالا مريراً ضد أهل جرجان الذين بقوا على الولاء الأموي وطردوا جيش قحطبة أول مرة من بلدهم • ولم تتحرك المدن الايرانية الأخرى بجانب الدعوة إن لم تقف ضدها كما جرى في نهاوند •

---

(عامل الخراج) يحوله عن المسلم الى المشرك ...(الطبري ٧ ص ٧١٣/ ٢/١٦٨٨ ـ ١٦٨٩ ) •
وقد يعني هذا أن ضامني الخراج للدولة كانوا ثلاثة وراء عامل الخراج الأساسي الخاص بالمسلمين الموالي وبملاك الاراضي على اختلافهم فواحد للمجوس وآخر للنصارى وثالث لليهود ( وهذا يكشف وجود جاليات من هؤلاء وأولئك هناك ) ويعني كذلك أن بهرامسيس كان يتصرف في الخراج يجمعه ويمنحه ويدفعه ويحوله على المسلمين الموالي وبعض المشركين فنصب نصر بن سيار نفسه « مانحاً » أي حامياً للمسلمين •
ويقصد هنا الموالي دافعي الضرائب ، ولهذا ورد عليه بعد أسبوع واحد من هذا الاعلان ثلاثون الف مسلم يدفعون الجزية فحول جزيتهم على المشركين المعفوين منها والذين انكشف له منهم ثمانون ألفاً •

(١) الطبري ج٧ ص٢٩٦ (٢/١٨٣٤)

**الترك وما وراء النهر :** كانت منطقة مـــا وراء النهر دار حـــرب للمسلمين وممر تجارة • وما يفتح منها أو يدخل في الاسلام من أهلها الترك ، كان يتبع إداريا والي خراسان • وبعد أن فتح قتيبة بن مسلم **هذه المناطق (طخارستان السفلى سنة ٨٦، اقليم بخاري مابين ٨٧ ــ ٩٠)** ( ٧٠٥ ــ ٧٠٨ ) ثم وادي جيحون وبلاد الصغد مابين ٩١ ــ ٩٣/٧٠٩ــ ٧١١ ثم مقاطعات سيحون ما بين (٩٤ ــ ٩٧/٧١٢ ــ ٧١٤ حتى كشغر ) انصرف الحكم الأموي إلى تثبيت النفوذ الاسلامي في تلك البقاع ونشر الاسلام ودفع الهجمات التركية من سهوب تركستان الشرقيـــة وإعادة تسيير قوافل التجارة ، في طرقها القديمة التقليدية ، عبر تلـــك السهوب إلى الصين •

وهنا ، في ما وراء النهر أيضاً • أبقى العرب المسلمون على نفوذ الأمراء المحليين وتعاونوا معهم وعاملـــوا الناس معاملـــة الايرانيين في خراسان ،في إطار معاهدات الفتح•لكن الأمراء كثيراً ما كانوا ينتقضون، لا سيما في فترات خصومة الولاة **فتقع الثورات والحروب والنكبات على** الشعب[1] • كما كانت الحروب مريرة طويلة مع الترك البـــداة وراء الحدود الاسلامية • لإدخالهم في الاسلام وتأمين طرق التجارة من خلال أراضيهـــم •

وقد أراد هشام بن عبد الملك وضع حد للفتن والمآسي في المنطقة

(١) مثال ذلك ثورة أمير فرغانة بعد قتيبة، وثورةبخارى وسمرقند.

فأمر عامله أشرس بن عبد الله السلمي وكان يسمى الكامل لفضله (١٠٩ – ١١١/٧٣٧ – ٧٣٩) أن يعد من أسلم في المنطقة برفع الجزية عنه . « فسارعوا – كما قال البلاذري – إلى الاسلام حتى انكسر الخراج »[١] وكان ذلك بجهود العامل أبي الصيداء صالح ابن طريف وعامل خراجه حسن بن أبي العمرطة فخاف أشرس مغبة ذلك على موارد الدولة لأن « في الخراج قوة المسلمين » كما قال «وتذمر الدهاقين» لأنهم يكرهون نشر دين فيه روح المساواة بينما امتنعوا انفسهم عن دفع الخراج وقالوا لأشرس : «ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً ؟ » . ويذكر الطبري[٢] والبلاذري أن أشرس عاد فأعاد الذي كان . ضيقه أول الأمر فاشترط لرفع الجزية شروطاً وكتب لعامله : « ... بلغني أن أهل السغد وأشباههم لم يسلموا رغبة وإنما دخلوا في الاسلام تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه ...» . ولم يكف هذا التدبير على ما يظهر فعاد الوالي نفسه فبعث عاملا جديدا زوده بتعليمات تقول : «خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه ...» فألح العمال في الجباية واستخفوا بعظماء العجم وسلط (أحدهم) على الدهاقين فأقيموا وخرقت ثيابهم وألقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذوا الجزية ممن أسلم من الضعفاء فكفرت الترك ... »[٣] .

وقابل الناس هذه السياسة الخراجية القاسية بثورة عارمة في البلاد

---

(١) البلاذري – فتوح البلدان ص٥٢٦ (طبعة المنجد) ، الطبري ٧ ص ٥٥ .
(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٤ – ٥٦ ( ١٥٠٧/٢ – ١٥٠٩ ) .
(٣) الطبري ج٧ ص ٥٦ ( ١٥٠٩/٢ – ١٥١٠ ) .

استمرت منذ ۱۱۰ حتى ولاية نصر بن سيار ١٢٥ وهاجر بعضهم خارج سمرقند بينما طلب آخرون معونة الترك البداة • ومن الهام أن نسجل هنا أن زعماء تلك الحركة لم يكونوا مـن الأتراك ولكن من العرب [١] ومنهم أحـد الشعراء المجاهدين هناك : ثابت الازدي المعروف بثـابت قطنة[٢] وقد بعث أشرس الى الثائرين مـن فرق جموعهم ١٠ وذهب الكثير من المسلمين الجدد قتلى • ويحدثنا النرشخي في كتابه أخبار بخاري عن جماعة اعتصموا بالمسجد الجامع من بخارى وأعلنوا بأعلى أصواتهم الشهادتين ومع ذلك سيقوا إلى القتـل أو الاسترقـاق لدى والي خراسان • ثم أطلقهم من بعد الوالي الجديد أسد بن عبد الله بن مروان • هـ

وأما ثابت قطنة فأخذ وسجن ثم خلاه الوالي بكفالة ووجهه في وجه للحرب فخرج عليه الترك واستشهد أنفة من أن « ينظر إليه بنو أميـة مشدوداً مرة أخرى في الحديد » [٣] •

**ثورة الحارث بن سريج :** على أن عوامـل الاستياء والثورة لم تذهب وقد عادت بعد ست سنوات فانفجرت من جديد على يد عربي آخر من المجاهدين ذوي الورع والزهد هو الحارث بن سريج بن ورد ابن سفيان بن مجاشيء • كان الرجل يجاهد ضد الترك ويبدو أنه تأثر

---

(١) يسـجل الطبري (ج٧ ص٥٧) اسماءهم وفيهم ثلاثة من الأزد وواحد من بني تميم وآخر شيباني وثالث ضبي ورابع من بني العنبر .. « خرجوا اليهم لينصروهم » .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٦ ( ١٥٠٩/٢ ــ ١٥١٠ ) وإنما قيل له قطنة لان عينه فقئت فكان يضع عليها قطنة ( البلاذري ص ٥٢٦ ) .

(٣) تفصيل أمره لدى الطبري ج٧ ص٦٠ ــ ٥٩ (١٥١٠/٢ــ١٥١٥).

بعدالة قضيتهم نتيجة اعتقاده مذهب المرجئة فخرج على الحكم الأموي سنة ١١٦ في بلدة صغيرة من ماوراء النهر تدعى «النخذ» أو «أندخوز»• ويلفت النظر في ثورة الحارث ثلاثة أمور :

الاول : أنه سرعان ما اجتمع حول الحارث جمع كثير ، يقال « ستين ألفاً » فيهم العرب ، من الحزبين المتنافرين مضر واليمن وفرسان أزد وتميم على السواء كما أن فيهم عدداً من الدهاقين الفرس والترك[١] (دهقان الجوزجان • وفارياب وملك الطالقان ودهقان مرو) •

الثاني : هو الدعوة التي جعلها شعار الثورة فقد كان يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه والبيعة « للرضا »[٢] أي « من يرضى الناس لأنفسهم» •

الثالث : شعار السواد فقد سود الحارث لباسه • كما يسود العباسيون وسود راياته « وكان يظهر أنه صاحب « الرايات السود »[٣] وجعل شعاره في هتاف أصحابه : يا منصور » •

---

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٩٦ ( ١٥٦٩/٢ ) .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٩٥ وقارن ذلك بتفسير كلمة « الرضا » في الطبري ج ٥ ص ٥٥٣ و ج ٥ ص ٥٤٥ و ج ٦ ص ٢٨٧ ولا ترد هاهنا كلمة ( آل محمد ) .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٩٧ ( ١٥٧٠/٢ ) حيث يقول : « وعلى الحارث ابن سريج يومئذ السواد » ج٧ ص ١٠٠ ( ١٥٧٥/٢ ) حيث يقول : « ... أقبل الحارث الى مرو وقد سود راياته وكان يرى رأي المرجئة ... » . و ج ٧ ص ٣٣١ ( ١٩١٩/٢ ) إذ يقول : « ... وكان الحارث يظهر أنه صاحب الرايات السود .. » و ج ٧ ص ٣٣٣ ( ١٩٢١/٢ ) حيث يقول « ونادوا يا منصور بشعار الحارث » .

فهل كان الحارث عباسيا ؟ وهل كان شعار «الرضا» يخفي وراءه كلمة «من آل محمد» ؟ إن المصادر تنسب الحارث الى المرجئة ولا يبدو أن ثمة علاقة مابين العباسيين والحارث ولكن العناصر الثورية والشعارات التي استعملها الطرفان واحدة لدرجة أن ثورة الحارث يمكن أن تعتبر كالمقدمة والحركة التمهيدية أو التجريبية لثورة أبي مسلم فيما بعد ولم يكن بين نهاية الأولى ومطلع الثانية سوى سنتين (مابين ١٢٦ الى ١٢٨ ) •

تحرك الحارث بقواه من ما وراء النهر فغلب على بلخ والجوزجان والفارياب والطالقان ومرو الروذ ••• واتجه الى عاصمة خراسان مرو (الشاهجان) وقد قال له بعض أصحابه : «مرو بيضة خراسان •وفرسانهم كثير • لو لم يلقوك إلا بعبيدهم لانتصفوا منك • فأقم • فإن أتوك قاتلتهم وإن أقاموا قطعت المادة عنهم» ولكن الحارث رفض هذا الرأي وسار الى مرو • وكادت مفاوضاته مع عاصم بن عبد الله الوالي تنجح ، لولا أن والياً جديداً وصل من الشام هو أسد بن عبد الله القسري ، في جند جديد فاضطر الحارث الى التراجع • تخلى عن البلاد التي فتحها وانسحب الى ماوراء النهر سنة ١١٨ وتابع هناك ثورته ولكن بجانب الترك ضد الحكم الأموي لإقرار حكم اسلامي عادل بدلا منه • «وكان يظهر أنه صاحب الرايات السود» ويمني أصحابه والناس أنهم « سوف يهدمون سور دمشق ويزيلون أمر بني أمية ••» [1] •

وبالرغم من وجود بعض الدهاقين مع ابن سريج ومن دفاعه عن الترك وبجانبهم فقد كانت جمهرة أصحابه فيما يبدو من العرب ، من ربيعة

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٣٣١ ( ١٩١٩/٢ ) •

واليمن حتى لقــد ناشــده نصر بن سيار قائلا : « اذكرك الله في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن سيهلكون فيما بينكم »[١] وقد كان يتحرج من الدماء والقتل لكثرة ما عرفت المنطقة من الدماءفيما يظهر ويفضلأصحابه على ذلك أساليب المناقشة والاقناع والمسالمة . اتبعوا ذلــك في معظم مواقفهم ولعل من ابرزها موقفهم عند حصار ترمذ إذ كان العرب وأهل القرى من أصحابه ينزلون على أبوابها فيبكون ويشــكون جور بني مروان ويسألون أهلها النزول إليهم على أن يسالئوهــم على حرب بني مروان فيأبون ذلك .. حتى قال له بعض أصحابه إن ترمــذ لا تؤخذ بالبكاء ولكن بالسيوف ! ويمكن أن يفسر هذا الموقف «الأخلاقي» في ثورة سياسية دموية كثورة الحارث على ضوء عقيدة الإرجاء التيتمثلها جماعته . وكان جهم بن صفوان ، صاحب المرجئة الجهيمة من رؤوس أصحابه وإذا كان يعزى الى جهم على رواية ابن حزم الاندلسي ـ قوله : « إن الايمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانيــة ...» فهذا القول هــو الذي أوقف الحارث وأصحابه بجانب المسلمين الجدد من الترك يدافعون عنهم . ولعل بعض أفكارهم وأجوائهم يظهر في الكتاب الذي أرسله اصحابالحارث الى الكرماني الثائر يقولون فيه : « ... نوصيكم بتقوى الله وطاعنة وإيثار أئمة الهدى وتحريم ماحرم الله من دمائكم فان الله جعل اجتماعنا كان الى الحارث ابتغاء الوسيلة إلى الله ونصيحته في عباده فعرضنا أنفسنا للحرب ودماءنا للسفك وأموالنا للتلف فصغر ذلك عندنا في جنب مانرجو من ثواب الله ونحن وأنتم إخوان في الدين وأنصــار على العدو ... فاتقوا الله وراجعوا الحق فإنا لانريد سفك الدماء بغير حلها ...» .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

وقد كان لهذا الايمان العميق ، بجانب مساوىء الادارة الأموية ، أثره في طول عهد الثورة واستمرارها • ولم تنته إلا بجهود نصر ابن سيار الذي كان من الحزم والمرونة السياسية بحيث فاوض الحارث وقاتله وداوره وانتهى بأن أخذ له الأمان من الخليفة سنة ١٢٦ خوفاً من أن يتفق مع الكرماني الثائر عليه • وأقبل الحارث «بعد اثنتي عشرة سنة ( من الثورة ) ، والاقامة بأرض الشرك « الى مرو ••• »[١]،(٢٧ جمادى الآخرة ١٢٧) •

وفي مرو طلب نصر بن سيار الى الحارث وأصحابه : أن يملوا على كاتبه ما يرضون من السير والسنن (للعمل) وأن يختاروا من يرضون من العمال لولاية الثغرين : سمرقند وطخارستان • وطلب الحارث وأصحابه حكم الشورى ولم يكن ذلك ممكن التطبيق فبدأ الخلاف• ومن الطريف أن الحارث بن سريج كتب سيرته فكانت تقرأ في طريق مرو والمساجد فأجابه قوم كثير[٢] وذات يوم ضرب بعض غلمان نصر قارئاً من قراء هذه السيرة فقامت الخصومة والقتال بين الجانبين في المدينة واتفق الحارث مع اليمانية وزعيمهم الكرماني الثائر فإذا بنصر يجد نفسه مطروداً من مرو ••• ( الجمعة ٢٦ جمادي الآخرة ١٢٨ ) •

وبعد ثلاثين يوماً كان الحارث بن سريج جثة بغير رأس مصلوبة على باب مرو ••• كانت الخصومة قد مزقت الحلف الذي قام بينه وبين الكرماني • فأعلن اليمانيون القتال ضد الحارث وكان مع مائة من

---

(١) الطبري ج٧ ص ٢٩٤ (١٨٦٨/٢) .
(٢) انظر الطبري ج٧ ص ٣٣٢ (١٩٢٠/٢) .

أصحابه وعدة من بني تميم حين سقط قتيلا في معركة غير متكافئة على باب مرو ، بين الحائط ( السور ) والمدينة [1] .

على أن ثورة الترك في ما وراء النهر كانت بدورها قد خمدت نتيجة التدابير الاصلاحية والأعمال العسكرية التي قام بها نصر بن سيار هناك . والهدوء الذي تمتعت به تركستان في عهده القصير لم يكن كله هدوء الرضى والاطمئنان بدليل أن الأتراك المقهورين سرعان ما تجاوب بعضهم مع الصيحة العباسية وثورة أبي مسلم . ويبدو أن أعداداً منهم قد انضوت في يسر وسرعة تحت راية العباسيين السوداء التي رأوا فيها بعثاً لراية الحارث بن سريج وتحقيقاً لحلمه . وقد قاتلوا في ايران كما قاتلوا تحت قيادة قتيبة الباهلي في العراق .

ولعل هذا الاشتراك في الثورة ، مع ظفر أبي مسلم وتحقيقه للنبؤات القديمة هو الذي أغرى الأتراك بأن يدعوا نسبة أبي مسلم إليهم وبأن يحفظوا له في أغانيهم الشعبية ذكرى البطل القومي كما سمح للباحثين الأتراك المحدثين أن يتحدثوا عن تفسير تركي للثورة العباسية . وهي على أي حال ظلال بعيدة وظنون تفتقر الى الكثير من النصوص والوثائق والدلائل لتصبح في منزلة الحقائق .

وخلاصة الأمر أن كافة خطوط النقمة من عربية وايرانية وتركية

---

(٢) ينقل الطبري ( ج ٧ ص ٣٤٢ ) أبياتا ذكر أن نصر بن سيار قالها في مصرع خصمه الحارث بن سريج ، قال :

يا مدخل الذل على قومه — بعداً وسحقاً لك من هالك
شؤمك أردى مضراً كلها — وغض من قومك بالحارك
ما كانت الأزد وأشياعها — تطمع في عمرو ولا مالك . .

في خراسان جاءت في خدمة الثورة • وحين تحركت قوى الثوار بقيادة قحطبة بن شبيب الطائي من ذلك الاقليم النائي باتجاه الغرب ضد الأمويين كانت كثيرة العدد وقد قدرها صاحب كتاب الإمامة والسياسة «بثلاثين ألفاً من اليمنية والشيعة وفرسان خراسان» ومعظم هذه الجماعات كما قد نلاحظ عربية • أما الموالي من الفرس والترك فكانوا موجودين في الجانبين والذين حاربوا منهم في صفوف العباسيين حارب مثلهم في صفوف الأمويين • ولم يكونوا يعملون بدافع قومي أو طبقي • ولا كان همهم الأول الوصول الى الحكم أو إلى بعضه ولكنهم كانوا يعملون في إطار الولاء العربي والمبادىء الاسلامية في التسوية وبدافع الارتزاق في بعض الأحيان وإن كان الدافع الذي جندهم ضد بني أمية إنما كان الاستياء العام من الجشع الضرائبي والقهر الاداري •

**ثانياً ـ الدعوة العباسية** (١) **( الوجه الديني والعملي ) :**

ويبدا امر هذه الدعوة بما يسمى : **ارث الكيسانية :**

فعهد الدعوة العباسية يرجع الى ما قبل سقوط الاسرة الاموية بثلث قرن • وهي مشتقة في الأصل من الدعوة العلوية•

---

(١) كتب الباحث الدكتور فاروق عمر فوزي فصولاكثيرةهامة حول هذا الموضوع بعضها في أطروحة : الخلافة العباسية وبعضها في عدد من المجلات العلمية بعنوان : «تقويم جديد للدعوة العباسية» ، و «نصوص ساعد اكتشافها على اعادة تقويم الدعوة العباسية » ( الفصل الثاني) ثم في كرة اخرى في كتابة : «طبيعة الدعوة العباسية» (الفصل الثاني) ثم في كتابه «العباسيون الأوائل» وجميعها من نشره بين سنتي ١٩٦٨ و ١٩٧١

اذ يجمع عدد من المصادر الأولى على ان ابا هاشم عبد الله بن محمد بن علي من (الحنفية) بن ابي طالب صاحب الشيعة الهاشمية ، وفد على سليمان بن عبد الملك وخاف الخليفة من طموحه ، فرحب به ولكن دس له في طريق عودته الى الحجاز من سمه . وبعضها يقول إنه مات موته الطبيعي . فلما شعر ابو هاشم بدنو أجله ، عرج في الطريق على الحميمة (وهي بلد في جنوب البحر الميت) وكان عبد الملك بن مروان قد اقطعها لعلي بن عبد الله بن العباس حين وفد هذا ليسكن دمشق ، فأساء الوليد بعد ذلك معاملته لما عرف طموحه للخلافة فانتقل سنة ٩٥ هـ الى الحميمة وبها توفي سنة ١١٨ هـ غير ان ابنه محمدا كان اقوى شخصية في ولد العباس حتى في حياة ابيه . ويقال أن أبا هاشم حين وفد على محمد هذا في سنة ٩٧ أو ٩٨/٧١٥ – ٧١٦ أوصى له بالامانة بعد أن علمه الاسرار والعلوم ودفع اليه كتبه وصرف الشيعة نحوه ، وسلم اليه الدعاة ... أو (الصحيفة الصفراء) ثم توفي سنة ٩٨ هـ[1] .

ويحوم الشك احيانا حول هذه الوصية ولا سيما حين تتساءل عن السبب الذي جعل ابا هاشم العلوي يعطي الامامة لفرع آخر من آل محمد لم يطلب حتى الآن ان يلي الخلافة ؟ ويرى فلهاوزن ان هذه الوصية حسب روايتها ضعيفة . ولابد انها حصلت في وقت سابق لسنة ٩٨ لوجود شهود كثيرين عليها . وربما جاء ابو هاشم الحميمة فتحالف مع العباسيين ثم توفي ولاعقب له ، فعهد الى محمد بن علي بأمر «الهاشمية» وجعلهم ينضمون الى محمد . ولم يظهر في بني العباس طموح سياسي قبل علي بن عبد الله ثم ابنه محمد .

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص وابن خلكان ج١ ص ٤٥٤ .

هذه الوصية هي مايدعى في التاريخ الشيعي بميراث الكيسانية ، واعتبارا من تاريخها تبدأ الدعوة العباسية وهذا يعني على أي حال أن الطموح «العباسي» الى الخلافة ليس بذي جذور تاريخية بعيدة ولكنه يعود في أبعد الوقت الى أواخر القرن الأول الهجري ، وإذا كان محمد ابن علي العباسي هو منظم الدعوة السرية وصاحبها الحقيقي فان إبراهيم من بعده هو مفجر الثورة • وإخوة ابراهيم هم الذين قطفوا الثمار •

**فترة الدعوة السرية التحضيرية :**

بدأت هذه الدعوة بفترة سرية طويلة تمتد بين سنتي ١٠٠ ــ ١٢٨هـ أي منذ محمد بن علي حتى مجيء ابراهيم الامام • وعلى محور جغرافي مثلث يمتد مابين الحميمة في أرض الأردن وبين الكوفة في العراق حتى خراسان في أقصى المشرق الاسلامي •

كان محمد بن علي اول من قام بالامر ــ على ما يذكر الدينوري ــ وبث دعاته في الآفاق ، فهو المنظم الاول للدعوة العباسية ، وقد بقي على مقره في الحميمة •وكان صغر القرية وانعزالها في منطقة جرداء جنوبي الشام ووجودها تحت جناح دمشق ، بجانب الزهد المعروف عن علي بن عبد الله بن العباس ، والد محمد ، ومسالمته للأمويين تشكل كلها ستاراً حسناً للنشاط السياسي السري الذي انصرف إليه محمد • ولم يغادر الرجل قريته ولكنه جعل لنفسه داعية ، كالوكيل العام عنه في الكوفة •

واختيارهذا البلد:الكوفة كمركز لانطلاق الدعوةوللنشاط العباسي الثوري لم يكن اختياراً موفقاً فحسب ولكنه كان يدل في الوقت نفسه

على صدق البصيرة السياسية وحسن التدبير • فهي جغرافيـاً متوسطة الموقع بين الشام والبلاد الشرقية للدولة ، وعلى صلة مباشرة بخراسان• أما من الناحية السياسية فكان التوفيق أوضح وأشد وقد نستطيع أن نكشف في الوقت نفسـه عـن السبب في اختيارهـا عاصمـة أولى للنصر العباسي بعد ذلك إذا تذكرنا الضربة الاقتصادية الساحقـة التي أنزلها بها الحكم الأموري منذ الحجاج • فقد استطاعت هذه المدينة أن تصبح في القرن الأول الهجري مركز صناعة الوشي والخز الرائجة في العالم الاسلامي وصناعة الطيب[1] كما اجتمعت فيها الاقطاعية العربية بأموالها وبما تدره أراضيها من خيرات التمور والحنطة وبما يغدق عليها من العطاء ••• ولعل هذا الغنى الاقتصادي هو الذي جعلها ذات جرأة سياسية ومشاركة طالما أغضبت الأمويين لا سيما مع وجود الميول العلوية والقبلية المناوئة فيها • فسلط عليها الأمويون الحجاج•قال عبد الملك بن عمر الليثي : «بينما نحن بالمسجد الجامع وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه أتانا آت فقال: هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق »[2] • وقد كسر الحجاج شوكة الكوفيين بتخريب ثروتهم الاقتصادية • رأى موالي الشيعة أعواناً لهم في ثورة ابن الأشعث فطرد الموالي جميعاً من المصرين أي طرد اليـد العاملة الخبيرة ، صاحبة المهن ثم ألح عليهـم بالضرائب المرهقـة حتى

---

(١) انظر الجاحظ ـ المحاسن والاضداد (طبعة ليدن) ص٣٤٢ • نالاصبهاني ـ الاغاني ج٢ ص١٧٣ ( ط. الساسي) . ثم انظر الثعالبي لطائف المعارف ( ط • ١٨٦٧ ) ص١٠٤ وابن خلكان ـ الوفيات ( ط • بولاق )

(٢) المبرد ـ الكامل (ط • القاهرة ١٣٣٩) مصر ج ١ ص٢٧١ وانظر ج ١ ص ٢٧٠

وانظر حمدون ـ التذكرة ( ط • القاهرة ١٩٢٧ ) ص ١٠٦ ـ ١٠٧

دمرهم وحتى انحط الخراج نفسه وقال يزيد بن المهلب حين عرضت عليه ولاية العراق بعد الحجاج «لقد أخرب الحجاج العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم صرت مثل الحجاج .. أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون ..»[1] وكان فيها من مساجين الحجاج أكثر من ثمانين ألفاً أخرجوا في يوم واحد زمن سليمان بن عبد الملك . وبالرغم من أن بعض الولاة قد حاولوا بعد ذلك السماح للموالي بالعودة للأمصار ، وكان الحجاج «قد نقش على يد كل انسان اسم قريته وطالت ولايته فتوالد القوم هناك فخبثت لغات أولادهم وفسدت طبائعهم» . ونسوا صنائعهم فلما ارتد المنقوشون رجعوا ــ كما قال المبرد ــ في صورة «الأنباط» ( الفلاحين) الفقراء ...[2] ثم جاء الكوفة بعد ذلك ولاة ساروا فيها سيرة الحجاج مثل يوسف بن عمر الوالي بين سنتي ١٢٠ ــ ١٢٦ والذي جرى على ألسنة الكوفيين تشبيهه بالحجاج[3] فاجتمع هذا وذاك كله على جعل الكوفة مركزاً من أعنف مراكز النقمة على الأمويين ومن أكثرها نشاطاً وفاعلية . ولم يكن للعباسيين أن يجدوا بؤرة أكثر منها مواتاة للعمل الثوري السري وأحسن منها تغطية لدعاة «الإمام» وستراً عليهم في الوقت الذي تعطيهم فيه الكوفة أخصب التربة للعمل .

أما خراسان فسوف نرى عند دراسة أحوالها عن كثب أنها الاقليم الذي كان أحسن البؤر لنمو الثورة واكتمالها لا بسبب بعدها الجغرافي

---

(١) انظر المبرد ــ الكامل (ط . القاهرة ١٣٣٩) ج١ ص٨١

(٢) انظر الجاحظ ــ البيان والتبيين (ط . القاهرة ١٣٣٢) ج٣ ص ١٤٦

(٣) الطبري ج٦ ص ٥٢٣ (١٣٠٦)

عبد المطلب

.... — ابو طالب — عبد الله — العباس — حمزة — ....

ابو طالب
١ علي
محمد (ابن الحنيفة) — ٣ الحسين — ٢ الحسن
ابو هاشم
٤ علي زين العابدين
محمد الباقر — زيد — عمر الاشرف
٦ جعفر الصادق
٧ موسى الكاظم — اسماعيل ٧
٨ علي الرضا
٩ محمد الجواد
١٠ علي الهادي
١١ الحسن العسكري
١٢ محمد المنتظر (المهدي)
محمد
عبيد الله المهدي

٢ الحسن
محمد — الحسن
عبد الله المحض
محمد النفس الزكية — ابراهيم — يحيى — ادريس — موسى

عبد الله
محمد (ﷺ)
فاطمة

العباس
عبد الله
علي — سليط
عبد الله — سليمان — صالح — محمد — داوود — موسى
ابراهيم — السفاح — المنصور
المهدي
ابراهيم — المنصور — الرشيد — الهادي
المعتصم — الامين — المأمون
محمد — المتوكل — الواثق

آل البيت

فحسب ولكن بسبب مشاكلها الكثيرة أيضاً سواء بين المتوطنين العرب فيها من قدامى وجدد أو بين السكان الأصليين من ايرانيين وترك وأهوائهم الدينية أو بين الدولة الأموية نفسها وممالك الترك المجاورة التي لم تكن تفتر معها الحروب ...

ويظهر من إجماع المصادر كاليعقوبي والطبري والدينوري وابن عبد ربه وابن خلكان على أن سنة ١٠٠ هـ . كانت السنة التي بدأ فيها محمد بن علي دعوته . ان خلافة عمر بن عبد العزيز كانت فرصة واسعة لنشاط أعداء الامويين[1] .

ويذكر الطبري ان محمد بن علي أرسل سنة ١٠٠ هـ أبارباح ميسرة النبال . فأوفد هذا ثلاثة من الكوفيين الى خراسان ، وهناك انتخب احد الدعاة سبعين داعية واختار محمد بن علي سنة ١٠٣ أو ١٠٤ من بينهم اثني عشر نقيباً ومثلهم من نظراء النقباء ( أي الوكلاء للنقباء ) ويختص هؤلاء جميعاً بخراسان . فأرسل محمد بن علي اليهم ارشادات مكتوبة ... ولكن جملة شكوك تدور ولاحول هذا الترتيب المصطنع لهذه الأرقام : سنة ١٠٠ ثم ٣ — ١٢ — ٧٠ ثم ان الروايات الاخرى في الطبري نفسه تبين ان الامر لم يتسق بهذا الشكل المنظم ، عدا ان نجاح الدعوة المحدود اذ ذاك يشكك في ضرورة وجود تنظيم كهذا . هذا الى ان الاختلاف كثير في اسماء النقباء الأول . ولعل المؤرخين أطلقوا هذا التنظيم الذي جرى في أواخر أيام الدعوة على الأيام الأولى لها . ولعلنا نستطيع أن نعرف مصدر هذا التنظيم وخطوطه ، مما ذكره صاحب

---

(١) الدوري — العصر العباسي الاول — ص ٢٢ — ٣٢ .

(أخبار الدولة العباسية) فقد تعرف محمد بن علي أول الأمر على الدعاة الكبار للحركة وكتب لهم سجلا ومنهم ميسرة وأبو مسلمة وبكير بن ماهان وحوالي عشرة آخرين • وكانوا جميعاً من قبيلتي بني مسلمة وهمدان • ومع أن مركزهم كان في الكوفة الا انهم اتخذوا فيها جانب الحذر الشديد• وقد ترأس الدعوة أولا مابين سنة ٩٨ـ١٠٠ هـ • أربعة رجال • ولم يمض كبير وقت حتى قرر الإمام عملا بنصيحة بكير بن ماهان نقل مركز نشاط الدعوة إلى خراسان مع بقاء الكوفة نقطة ارتباط بين مرو والحميمة •••

وبكير بن ماهان هو الذي أدخل سليمان بن كثير الخزاعي الدعوة ، خلال زيارة مرّ فيها بخراسان • وحوالي سنة ١١٨ هـ • نظم بكير أو سليمان الدعوة العباسية تنظيماً محكماً وجعل لها اثني عشر نقيباً أربعة منهم من قبائل خزاعة وأربعة من تميم وواحد من كل من قبائل طي وشيبان وبجلة • أما الثاني عشر فمولى لبني حنيفة • وأن يكون احد عشر نقيباً من العرب وإنما يعطي الثورة هويتها الحقيقية [١] ، وإذا كنا لا نعرف الهوية الكاملة لباقي الدعاة السبعين الذين كانوا يلون النقباء

---

(١) لكشف دور العرب الحقيقي والرئيسي في الثورة العباسية يراجع:
- اخبار الدولة العباسية للمؤلف المجهول (نشر الدوري ـ المطلبي بيروت ١٩٧١) .
- تاريخ الموصل لابي زكريا الأزدي (نشر علي حبيبة القاهرة ١٩٦٧)
- انساب الأشراف للبلاذري مخطوط استامبول ( منه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية) كما أن بعض اجزائه مطبول (الأول والرابع وقسم من الخامس) .
- تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول (نشر غرياز نيويج ـ موسكو ١٩٦٧)

فإن من نعرفه منهم يكشف أنهم بدورهم من العرب وفيهم عدد محدود من الموالي •

وقد ألف النقباء الأثنا عشر ما يشبه مجلس الشورى تحت رئاسة سليمان بن كثير الخزاعي • ويظهر أن لقب «نقيب» إنما اتخذ مما ورد في القرآن الكريم عن بني اسرائيل ومجلس شوراهم : «لقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم ، لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » • وقد تم اختيار الاعداد على نحو الرجال السبعين الذين اختارهم موسى من قومه والنقباء الاثنى عشر لهم ، ونحو الرجال السبعين من الأوس والخزرج الذين وافوا الرسول ليلة العقبة من أهل المدينة • فتأثر العباسيون في تنظيم دعوتهم بالناحيتين معاً : « فإن سنتكم سنة بني اسرائيل وسنة النبي»[1] كما قال محمد بن علي في كتابه إليهم •

ويبدو أن مرحلة طويلة من النضال ومن التطورات قد تمت ما بين سنة ١٠٠ وبين ١١٨ التي تكون فيها مجلس النقباء الاثني عشر وأن ثمة تنظيمات عقائدية ومالية وعملية قد تكاملت بالتدرج ما بين عهد ميسرة النبال وعهد سليمان ابن كثير الخزاعي ويذكر الطبري أن دعاة ميسر في خراسان، قبض عليهم سنة ١٠٢ ثم أطلق سراحهم • وفي سنة ١٠٣ انضم بُكَير بن ماهان الى الدعوة ودفع ماله لمحمد بن علي ، وكان كاتباً لامير السند من قبل ، واتفق ان

---

(١) اخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص٢١٥ وانظر ايضاً فان فلوتن ص٩٦ (الطبعة الثانية) .

توفي ميسرة ، فعين محمد بُكيراً محله . وفي سنة ١٠٧ و ١٠٨ نكل والي خراسان بالدعاة . كما ظهر بعضهم سنة ١١٣ فلقوا المصير نفسه .

وهذا مايدل على أن الدعاة كانوا يعملون ويقتلون ويسجنون كما كانوا يرسلون إلى مناطق متعددة من خراسان : إلى نساوأبيورد وبلخ ومرو وآمل وخوارزم . وكان معظمهم من العرب . وهذا هو جانب الفداء والايمان في الدعوة . ومن جهة أخرى فقدكانأتباع الدعوةيدفعون الخمس للإمام كي يقوم بواجبه في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهذا هو جانب التنظيم المالي من الدعوة .كما كان بعض النقباء ينتهز فرصة الحج ليلتقي بالإمام ويحمل إليه الخمس المفروض والهدايا وأخبار الدعوة ومراسلاتها ويحمل منه الكتب والمنشورات التي تنقل تعليماته إلى الاتباع ولدينا عدة نصوص من هذه الكتب ، وهذا هو جانبالتنظيم العملي والعقائدي في الدعوة .

وقد استكمل هذا التنظيم في خراسان بعد الثورة . وكان ابو صالح كامل بن المظفر هو «صاحب السر» وإليه جمع الاموال وقسمتها وعطاء الجند وكتابة الكتب . فأعادوا النظر في التنظيم : واختاروا حرساً موثوقاً يقوم بأمر المراسلات ويحفظ ما يرد على الثورة من المال والغنائم وجعلوا رئاسته لابي اسحق خالد بن عثمان واختاروا أبا نصر مالك بن الهيثم للقيام بأمر العسكر فيحكم بينهم ويطرد المشبوهين منهم ، كهيئة أصحاب الشرط ، وجعلوا نصر بن مالك خليفته . وولوا القاسم بن مجاشع القضاء كما كان اسلم بن صبيح على الرسائل[١]..

---

(١) أخبار الدولة العباسية ( نشر الدوري ) ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠

أما الصلاة فكانت لسليمان بن كثير .

ويبدو أن تنظيم الدعوةسنة١١٨ فياثني عشرنقيباًإنماجاء بعد نكسة انتكستها هذه الدعوة إذا أرسل بكير الى خراسان عمار بن يزيد ليرئس الدعوة فيها وهو من اقدم رجالها العالمين فبدل اسمه الى (خِداش) (ويخطيء فان فلوتن الذي تابع الطبري والمؤرخين المسلمين في تعليل هذا الاسم . على أساس المعنى العربي فقط للكلمة بأن عمار خدش الدين ومزقه فسمي بخداش ولعل من الاصح أن نفتش عن تفسير هذا اللقب في اللغة الفارسية)[1] . واستقر خداش في مرو ، ونجح نجاحاً طيباً . ولكنه زاغ وحاد الى الخرمية (من المزدكيــة) فسمح باشتراكية النساء والمال فقبض عليه والي خراسان وقتله سنة ١١٨ هـ .وتبرأ محمد ابن علي منه بعد مقتله لا قبله ، وأظهر غضبه على شيعته لاتباعهم تعاليم خداش . ثم رضي عنهم بعد مراسلات عدة . وتسلم الدعوة سليمان بن كثير الخزاعي .

وتوفي محمد بن علي سنة ١٢٥ هـ موصيا بالامر لابنــه ابراهيم (الامام) وما من شك في أن محمداً كان عبقريــة في التنظيم والصبر الطويل والإلحاح في متابعة الطموح فلما سلم الدعوة بعد سبع وعشرين من العمل الدائب إلى ابنه أرسل هذا سنة ١٢٦ بُكير بن ماهــان الى

---

(١) قد يكون لقب خداش مشتقاً من خدا الفارسية بمعنى الــه او ملك وصاحب مع اش الضمير الثالث الاضافي ويكون المعنى عند ذلك : سيد الدعوة وصاحبها وملكها . أو قد يكون اللقب مأخوذاً مــن خديش بالياء لا بالألف بمعنى : رب العائلة او الملك وهــو الأقرب . ولا ننس ان خداش قد زعم انه يحيط بالأسرار الإلهية . وقد تلقي هذه الناحية من مبادئه بعض النور على لقبه .

خراسان فجمع الاتباع في مرو فاعترفوا بابراهيم • ودفعوا اليه ماجمعوه من المال باسم الامام • ولكن بُكيراً توفي بدوره سنة ١٢٦ وعين ابراهيم تبعاً لوصيته ابا سلمة حفص بن سليمان الخلال لرئاسة الدعوة سنة ١٢٧ وابو سلمة هذا هو الذي خرج بالدعوة الى طورها العلني •

ولا بد ان نلاحظ على فترة الدعوة السرية ملاحظات عدة :

آ ــ عمل الدعاة خاصة ضمن محور الحميمة ــ الكوفة ــ خراسان وبينما كان رأس المحور والحركة أي الحميمة مختفياً وراء ستار كثيف من الكتمان كانت الكوفة مركز الدعوة السري ومقر الداعية الاول للامام • وكان الدعاة منها حتى زمن خداش • ولكن خراسان كانت هدف الدعاية والبؤرة التي أثمرت فيها الدعوة[1] •

ب ــ كانت الدعوة عربية في زعامتها وأهدافها كما كان معظم الدعاة من العرب المتوطنين في ايران تبعتهم فيها عصبياتهم القبلية • وكانوا جميعاً من العرب المستقرين الذين فقدوا امتيازاتهم فأيدوا الثورة ضد الطبقة العربية التي تحالفت مع الأسرة الحاكمة واحتفظت بالامتيازات وتقاسمتها مع الارستقراطية الايرانية • أما الموالي عامة فمراكزهم ثانوية كما لم يلتحق منهم بالثورة إلا أعداد محدودة •

جـ ــ كان سير الدعوة بطيئاً أول الامر حتى خداش الذي نجح • وبدأنا نسمع عن دخول زعماء العرب المتوطنين وبعض الشيوخ المحليين

---

(١) خطب عبدالله بن علي في أهل الكوفة ، سنة ١٣٢ فقال: «إن لكل أهل بيت مصراً وإنكم مصرنا» ! وذلك بعد إعلان البيعة لأبي العباس في الكوفة .

(الدهاقين) في الدعوة لأول مرة سنة ١١٧ هـ ولا بد ان مجلس الشورى ــ على ما يرجح ولها وزن ــ ان صح وجوده ، قد تكوّن بعد نجاح خداش ثم انحرافه •

أما اساليب الدعوة في هذا الدور فمختلفة :

آ ــ قال محمد بن علي لدعاته ، : «انطلقوا ايها النفر[1] فادعوا الناس في رفق وتستر» ، فكان الدعاة يجوبون خراسان تجاراً في الظاهر، ويراسلون الكوفة ومنها الى الحميمة • او يجتمعون في الحج • ولما كشف أمر بعضهم أوصاهم الامام مرة اخرى بالكتمان والرفق في الدعوة •

ب ــ عني الدعاة بالتبشير في المناطق التي بلغ فيها العداءللامويين غايته : في خراسان وما وراء النهر ، حيث كان التذمر السياسي والمالي والاجتماعي لدى العرب المتوطنين خاصة ، ولدى الموالي يسهل جلب الانصار • على انهم تخيروا هذه المناطق بالذات لغاية اخرى شرحها محمد بن علي في وصيته المعروفة لدعاته ، وسواء صحت الوصية أم لم تصح فما فيها يعرض الواقع قال : «••• عليكم بخراسان» فان هناك :

١ ) العدد الكثير «وهم جند لهم ابدان ••»

٢ ) وهناك صدور سليمة لم تتقسمها الأهواء والأحزاب •

٣ ) وهناك الاستياء والتذمر الشديد •

---

(١) انظر الدوري العصر العباسي الاول ص ٢٤ وما بعدها .

جـ ـ حاول الدعاة جمع كل المقاومة الشيعية في صفوفهم على اختلاف ألوانها • واظهروا غايتهم الاولى وهي قلب الحكم الاموي ، وأخفوا الثانية وهي السعي للخلافة لشخص معين ولـم يظهروا للناس بثوب الطالب للملك ولكن بوشاح الثائر للحق • وعلى هذا فلم يكونوا يدعون لشخص ولكن (للرضا من آل محمد) أياً كان هذا الذي يرضاه المسلمون من آل البيت • (وقد جمعوا بهذا الشعار مابين رأي الشيعة من جهة ورأي المرجئة وبعض الخوارج من جهة أخرى) وكثيرا ما أعلنوا انهم ثاروا ليثأروا لشهداء العلويين • ولم يكن يعرف سر الدعوة الحقيقي الا خاصة الدعاة ، لأن العباسيين شجعوا هذا الوهم ، ابعاداً للشبهات والاضطهاد عنهم ، وايهاماً للعلويين ، الى حد أن (المنصور) بن محمد بن علي بايع في عهد هشام بن عبد الملك ، محمداً ذا النفس الزكية ابن عبد الله المحض بالخلافة لما اجتمع في المدينة عدد من بني هاشم واتفقوا على العمل لكسب الخلافـة لمحمد هـذا ، (إذا صحت روايـة الاجتماع المذكور) •

د ـ اخفى غلاة الدعاة حقيقة عقائدهـم عن المعتدلين ، وتساهل بعضهم في بعض العقائد الاسلامية • فأغروا الاهالي بتقربهم من العقائد العتيقة في البلاد كاشتراكية مزدك ـ كما فعـل خداش ـ أو ببعض الأفكار الزارادشتية ـ كما فعلوا مع بهافريد •

هـ ـ كان لإهمال الولاة الامويين ولتحاسدهم وانشغالهم بمعالجة المشاكل الاخرى ، وللعصبية القبلية بين الحاكمين ، اثرهـا الكبير في نشر الدعوة وفي نجاحها •

## ثالثا ـ الثورة العلنية والحرب

امتدت هذه الفترة بين سنتي ١٢٨ ـ ١٣٢ هـ وهـو دور ابي مسلم الخراساني في توطيد الثورة بخراسان •

ان مشكلة خداش وتوسع الدعوة ، وقلة براعة ابن كثير ونفوذه المحلي ، جعلت الامام يرسل ابـا مسلم الخرسانـي لرئاسة الدعوة هنـاك •

وشخصية هذا الداعية رغم شهرتها غامضة • وقد لحقتها مع الأيام الكثير من الاساطير والخيال الشعبي • وفي أصله اختلاف يعترف بـه المسعودي فيرى انه عربي[1] • بينما يذكر الفخري انه ولد باصفهان • ونشأ بالكوفة • ويقول الدينوري : انه ولـد بمـاه البصرة مما يلي اصفهـان •

ويذكر ابن خلكان أنه من قريةتسمى (سنجرد) أوماخوان قريبة من مرو وكان أبوه يجلب المواشي أحياناً الى الكوفة • ويكتب المسعودي: انه من قرية بسواد الكوفة • أما الطبري فيعين هذه القرية باسمخطرنية، وقد يؤيد هذا الخبر أن هذه القرية كانت لمجموعة فارسـية ، قدمت كثيراً من رجالها للحركات ضد الامويين •

---

(١) ادعى ابو مسلم ان امه كان امة لعمير بـن بطين العجلي باعها وهي حامل بـه . كما ادعى بعد نجاحه انه من نسل سليط بن عبد الله ابن العبـاس .

أما صاحب (أخبار الدولة العباسية) فيذكر بين الروايــات التي يذكرها أن أبا مسلم ولد في بعض قرى أصفهان من أب فارسي وأم أمة واضطر والده ، لضيقه المالي أن يبيع الأمة وهي حــامل بأبي مسلم إلى عيسى العجلي بن معقل أحد الملاكين العرب هناك • فولد الصبي وسمى ابراهيم ونشأ مع أولاد العجلى ، يخدمهم ويجمع لهم ريع مزارعهم في اصبهان والكوفة • وفي هذه المدينة الأخيرة كان يلزم أبا موسى ،عيسى ابن إبراهيم السراج من علماء الشيعة وعنه وعن بعض السجنــاء أخذ التشيع وحين اتصل بابراهيم الامام رسولا إليه أعجبه وسماه الامام : عبد الرحمن وكناه أبا مسلم • وابن خلكان يروي أنه من ولد بزرجمهر ومؤدى هذه الروايات المختلفة إذن أن أبــا مسلم ايرانــي الاصل في الغــالب •

على أن ثمة رأياً ذكــره فامبري في تاريخ بخارى ويستند فيه إلى مخطوط قرأه ــ فيما يقول ــ في آسيا الوسطى يفصل حياة أبي مسلم ، ويذكر أن هذا الرجل تركي الأصل [1] وأن التركمــان يعتبرونه واحداً منهم وقد حباه الله صفات الرسل فأنقذ العقيدة الاسلامية من الفساد • وليس شيء من ذلك بالثابت بعد كما أنه ليس بالثابت ما يرميه به الشاعر أبو دلامة حين يهجوه بأنه كردي الأصل فتلك شطحات شاعر قال فيها :

---

(١) أنظر فامبري ـ تاريخ بخارى ( ترجمة الساداتي ) ص٧٨ ويتبع الراي نفسه الباحثون الاتراك المحدثون في دائرة المعارف الاسلامية (الطبقة التركية) وهي محاولة لإظهار الدور الذي لعبه الاتراك في التاريخ الاسلامي. وقد لا تعني اكثر من اشتراك بعض العناصر التركيــة في جنود الثــورة العباسية .

في دولة المهدي حاولت غــدرة ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد[1]

ولسنا نعرف على الضبط اسم أبي مسلم الأصلي : قــد رأينا في رواية أن اسمه الأول : ابراهيم وكان يكتب على نقوده عبد الرحمن بن مسلم • وابن خلكان يشير إلى ان هذا ليس باسمه الحقيقي • «وقيل إن اسمه عثمان وقد طلب إليه ابراهيم الامام تغييره»[2] ويذكر (صديغي[3]) ان اسمه الاصيل بهزادان ••• ولسنا نعرف سنة ميلاده بالضبط ويقال إنه ولد سنة مائة للهجرة • وهذا يعني أنه بدأ قيــادة الثورة وعمره ثمان وعشرون سنة • ثم انا لا نعرف هل كان مولى أو عبداً ؟ كما لا نعرف متى دخل الدعوة ؟ ولا من الذي قدمه للامام : سليمان بن كثير ام بكير ابن ماهان ؟ وان كان الارجح انه دخلها وهو يعمل في الكوفة أجيراً عند بعض السراجين ( عيسى السراج[4]) وان تاريخه فيها ليس ببعيد فهو لا يعود فيما يروي الطبري[5] إلى أبعد من ١٢٤ حين «اشتراه» بكير بن ماهان لما رأى من اندفاعه للتشيع ولكنه سرعان ما استرعى انظار دعاة الحزب العباسي والامام ابراهيم «بذكاء عقله وفهمه وحسن بصره وجودة ذهنه وحسن منطقه» ويظهر أنه كان جميل الهيئــة وعلى جانب حسن من الثقافة العربية والفارسية ، الى متانة في الاعصاب وذكاء في استغلال الظروف ، فتقدم في زعامة الدعوة[6] •

---

(١) اخبار الدولة العباســية نشر (الــدوري) ص ٣٥٦ ، العيون والحدائق ( نشر دي غوية ) ص ١٨٣

(٢) ابن خلكان ـــ وفيات ج٣ ص ١٤٥

(٣) الدوري ص ٢٨

(٤) فامبري ص ٧٧ ، واخبار الدولة العباسية ص ٢٥٣ و ٢٥٤

(٥) انظر الطبري ج٧ ص ١٩٨ (١٧٢٦/٢)

(٦) انظر الطبري ج٧ ص ٣٤٤ ثم ص ٣٥٣ (١٩٣٧/٢ و ١٩٤٩)

وفي ١٢٨ بعد أن «وقعت العصبية في خراسان (بين قيس ويمن) واضطراب الحبل» طلب سليمان بن كثير رجلا يقود أمر الحركة العباسية فوضع الامام شيوخ الدعوة في طاعة ابي مسلم • وأوصاه الا يخالف الشيخ سليمان بن كثير وزوده بتعليماته •

ويذكر الطبري [1] وابن قتيبة لابراهيم الامام الوصية التي أوصى بها أبا مسلم ، حين ارسله ، على الشكل التالي : «ياعبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت ، فاحتفظ بوصيتي • وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين اظهرهم ، فان الله لايتم امره الا بهم • وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في امرهم • وانظر هذا الحي من مضر (قيس) فانهم العدو القريب الدار • فاقتل من شككت في امره ، ومن كان في امره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء • وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربياً فافعل • فأيما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمهفاقتله•• ولا تخالف هذا الشيخ ـ يعني سليمان بن كثير ـ ولا تقصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني •••» •

ولعل هذه الوصية مزيفة ومستقاة ، في قسم منها ، من واقع اعمال ابي مسلم • ولعلها وضعت بعد ان تم له الظفر ، والقسم الاخير منها (عن قتل العرب) يناقض مطلعها • فاذا صح القسم الاول فلا شك ان القسم الاخير مدسوس او محرف على الاقل • فابراهيم الامام عربي وسليمان بن كثير المشرف على اعمال ابي مسلم خزاعي عربي • وشيوخ الدعوة الآخرون امثال قحطبة الطائي وابي داوود الشيباني هم عرب أيضاً • وإذا كان العيني صاحب (عقد الجمان) يروي ان سبعة ، من

---

(١) الطبري ج٧ ص ٣٤٤ (١٩٣٧/٢)

النقباء الاثني عشر . كانوا عربا فإنه قد ثبت من اسمائهم أن احد عشرا منهم كانوا من العرب[1] • ثم ان ابراهيم يطلب من داعيته ان يصطنع اليمانيين وكلهم عرب . ولولاهم ما انتصر • ويأمره بأن يتألف قلوب ربيعة (العربية) لينجح • هذا الى ان الثورة لم تعلن ضد العرب ولكن ضد الاسرة الحاكمة الاموية • والى ان هذا القسم من الوصية لم يطبق ولم يسمع شيء من مثله • وربما كانت الجملة في الأصل «ألا تدع لسانا مضريا» فحرفها بعض اعداء العباسيين الى «لساناً عربياً» وقد يؤيد رأينا أخيراً . في تهافتها . انها وردت عند الطبري دون اسنادوترد في ابن قتيبة . وهو مرتبك في بعض رواياته عن العباسيين . ولاذكر لها في اليعقوبي او ابن خلكان او المسعودي أو الدينوري . وان كانالاخير يروي ان أبا العباس أوصى ابا مسلم الا يدع بخراسان عربياً لايدخل في امره الا ضرب عنقه • وبين هذا الامر وبين قتل جميع العرب . فرق كبير • ويحق لنا ـ منطقياً ـ ان نرجحهذا الخبر الاخير من الدينوري• واعلنا نضيف أخيراً أن هذه الوصيةسواء كانتزائفة أو صحيحة تكشف في نصها ذاته عن أمر هام جداً هو أن العرب وحدهم بمختلف أحيائهم وعصبياتهم لا الموالى الايرانيين أو الترك أو غيرهم ، هم الذين كانوا

---

(١) هؤلاء الدعاة هم : من خزاعة : سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وزياد بن صالح وطلحة بن رزيق .

ومن تميم : موسى بن كعب وعيسى بن كعب ولاحظ بن قريظ والقاسم بن مجاشع .

ومن طيء : قحطبة بن شبيب .

ومن شيبان : خالد بن ابراهيم .

ومن بجيلة : أسلم بن سلام .

ومن بني حنيفة : مولاهم شبل بن طهمان وهو الوحيد من غير العرب .

موضع اهتمام ابراهيم الامام والدعوة وهم الذين كانـوا مادة الثورة ومركز ثقلها • وعدم ورود إشارة إلى غير العرب يدل على أن من المسلم به أن الثورة العباسية عربية في رجالها . سواء في نظر الإمام ـ في حال صحتها ـ أو في نظر من زيف الوصية إن كانت زائفة •

## ٢ ـ تنظيم الدعوة وموقف نصر بن سيار :

اهتم أبو مسلم اول الامر بتنظيم الدعوة فبعث دعاتـه الى كل نواحي خراسان «يدورون كورة كورة في زي التجار» ثم «ولى على من بايعه في كل كورة رجلا من اهلها» كما ذكر الدينوري • ويؤخذ من ملاحظة المستشرق بارتولد انه استفاد من تجربة خداش فحاول التوفيق بين الاسلام وبين العقائد المحلية لا سيما في عقيدة تناسخ الارواح • كما تسامح مع حركة زارادشيتة الجذور ظهرت في نيسابور على يد رجل يدعى بهافريد قام بايجاد حركة إصلاحية تحت تأثير الاسلام تجمع مابين بعض المبادىء الاسلامية والزارادشتية • ويبدو أن أبا مسلم شجع الرجل ليكسب عطف العامة من الفرس [١] • وقـد كسب بهـذا وبذلـك عدداً كبيراً من الدهاقين والفلاحين على السواء • وقام بجولة في غربي ايران (جمادي الثاني سنة ١٢٩) لتنسيق العمل واستمالة طوائف الشيعة

---

(١) تخلى ابو مسلم حين انتصرت الثورة وشارفت دخول العراق عن بهافريد هذا وقتله (وسنعرض لذلك فيما بعد) . وربما أراد بذلك إرضاء المسلمين والموابذة من الزارادشتيين أو شاء التخلص منه في الوقت الذي كان يتخلص فيه من كافة الشخصيات القويـة والمراكـز ذات النفوذ في خراسان لينفرد بالسلطان فيه .

المبعثرة هناك • وبعث بقحطبة الطائي لابلاغ الامام نتائج عمله واستلام تعليماتـه •

ونجحت طرق ابي مسلم في العمل ؛ «فوافاه في يـوم واحد اهل ستين قرية» كما يقول الطبري ويبالغ الدينـوري في قولـه انه «قد استجاب لدعوته جميع أرض خراسان» على أن هذا يدلنـا على مبلغ انتشار الدعوة التي يرى بارتولد انها جمعت «الارستقراطية» الايرانية تحت رئاسة ابي مسلم . وهي إنما جمعت في الواقع خطأ المجموعةالعربية اليمانيـة خاصة • ولم تقف في وجهـه صعوبة البعـد بين الاصقاع الخراسانية . اذ جعل لاجتماعاته باصحابـه مواعيـد معينة • وجعل سفيذنج . وهي قرية سليمان بن كثير الخزاعي ؛ مركزه الاول للثورة • ولكن الصعوبة الحقيقية كانت في جر كافة الكتل العربية لجانب الدعوة؛ والعمل فيها جنباً لجنب ••• وقد استفاد ابو مسلم من ظرفين مواتيين في هذه الناحية :

اولا ـ كان عدد العـرب قليلاً نسبياً في خراسـان • ويقدرهم (ولها وزن) بمائتي ألف لكنهم كانوا جنداً وكانوا يشتركون جميعاً في النقمة على الحكم الأموي فهم إذن القوة الضاربـة وإذا لم يحصروا انفسهم بالأعمال العسكرية بل امتلكوا الضياع في الارياف واستقروا ؛ واختلطوا بأهل البلاد لحد ما . وصار بعضهم يشعر بشيء مشترك مع الاهالي فقد تناسى معظمهم عصبيته القبلية بسبب ظهور أوضاع جديدة ومصالح خاصة أخذت تحل لديهم محل تلك العلاقة القديمة بينهم • ومع أن هذه الطبقة العربية الحاكمة لم تكن جبهة واحدة : فهناك اليمانيون الثائرون بزعامة الكرماني • وهناك حي ربيعةالمتربص وهناكالقيسيون؛ وكان الحكم في ايديهم . ووالي الخليفة نصر بن سـيار منهم إلا ان

القليل منهم شعروا ، مع نصر الوالي ، بضرورة الدفاع القوي عن الحكم الأموي .

ثانيا ــ لم يكن مقر الخلافة في الشام أو في حران قادرا على معونة نصر بن سيار بأي قوة لكثرة الفتن على الخليفة مروان . فلما ظهر امر ابي مسلم استنجد نصر بمروان فكتب اليه الخليفة «أن احسم هذا الداء الذي ظهر قبلك بما عندك» ولكن الخطر ازداد ايضاً ، فاستنجد نصر ثانية وكتب متعجباً :

أرى بين الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام
فإن لم يطفئها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام ..
أقول من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام ؟
وإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها كلام

فأرسل مروان الى والي العراق يزيد بن هبيرة ان يسارع لنجدة نصر . ولكن هذا لم يفعل . وشغل او تشاغل ــ على رأي المسعودي ــ بدفع فتنة العراق ، أو احتج بقلة ولاء العراقيين على ما يذكر الدينوري . وبقي ابن سيار لوحده في وجه العاصفة .

وكان نصر بن سيار من الكفايات الادارية النادرة وقد نجح كعامل في سمرقند ثم في بلخ قبل أن يعهد إليه الخليفة هشام ١٢١/٧٣٨ بولاية خراسان جميعاً وما وراء النهر فتميز بالحذر والعدل والمرونة وبعد النظر حتى أخضع بدو الترك إخضاعاً تاماً . ونظم الادارة الاقليمية فأعاد عاصمة الاقليم الى مرو ( وقد كان الوالي أسد القسري قد ابعدها شرقاً الى بلخ) وعين الولاة المحليين على مدن خراسان من المضريين واليمانيين

وقام بإصلاح النظام المالي بعد أن أساء الدهاقين والمرازبة تطبيقه واستغلاله وعين لمراقبتهم ولإعادة فرض الضرائب على مستحقيها : منصور بن عمر وأعفى المسلمين من الضرائب الإضافية الثقيلة التي فرضها عليهم الدهاقين ليتألف قلوبهم •• الا إن عوامل الثورة كانت أقوى بكثير من جهوده •

وقد حطمت من قوى نصر دون شك تلك الأزمة التي قامت بينه وبين حكومة دمشق بعد مقتل الوليد الثاني . والتي استغلها جديع بن علي الأزدي الكرماني للثورة مع أصحابه اليمانيين على نصر وسلب الولاية منه • وقد صمد نصر للازمة حتى زالت وثبت مركزه بوصول يزيد الثالث القيسي الميول الى الخلافة كما استطاع ان يقبض على الكرماني ويضعه في السجن سنة ١٢٧ / ٧٤٤ إلا أن هرب هذا الرجل من سجنه سمح له بمعاودة الثورة ولم ينفع في إخمادها خضوع نصر للضغط وتسليمه باعادة العطاء لمن قطع عنه من اليمانية خاصة •

وثار في الوقت نفسه ثائر آخر في خراسان هو الحارث بن سريج المرجىء ضد نصر واتفق مع الكرماني فدخل الاثنان مدينة مرو بينما هرب نصر الى نيسابور . ومع أن الحليفين اقتتلا وسقط الحارث قتيلا على يد حليفه ( رجب سنة ١٢٨ / نيسان سنة ٧٤٦ ) إلا إن نصراً لم يفرح طويلا بخلاصه من أحد خصميه لأنه كان يتهيأ لاسترداد مرو من الكرماني وينتظر مدد الخليفة الذي طلبه حين ورد عليه خبر تجمع (الشيعة) من مرو وضواحيها •••

بدأت المعركة سياسية أول الأمر بين الوالي ابن سيار وابي مسلم• فتعمد الوالي الى جمع الجبهة العربية المتناحرة . عن طريق اثارة النعرة

العربية فيها لعلها تجتمع على حرب النابتة الجديدة التي ظهرت بقيادة أبي مسلم :

| | |
|---|---|
| أبلغ ربيعة في مرو واخوتها | أن يغضبوا قبل الا ّ ينفع الغضب؟ |
| ما بالكم تلقحون الحرب بينكم | كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب |
| وتتركون عدواً قد اظلكم | ممن تأهب ، لا دين ولا حسب |
| ليسوا الى عرب منا فنعرفهم | ولاصميم الموالي ان هم نسبوا |
| قوم يدينون ديناً ماسمعت به | عن الرسول ،ولاجاءت به الكتب |
| فمن يكون سائلا عن اصل دينهم | فان دينهم ان تقتل العرب ! |

ومع أن اللعب على أوتار العصبية القبلية كان نغمة قديمة تجاوزها العرب الخراسانيون بسبب مانجم لديهم من ظروف ومصالح جديدةفقد تجاوب بعضهم معها على ضعف واستطاع بنو بكر ان يصلحوا اولا بين نصر وشيبان بن سلمة الحروري وهو أحد القوى الثائرة التي اتفقت مع قوات الكرماني وكانت تشكل عنصراً من عناصر الاضطراب والخطر في خراسان • ثم تقرب نصر من جديع الكرماني واقترح الالتقاء بـه على أطراف مرو ، فقبل جديع بعد تردد ولكنه اغتيل في ذلك الاجتماع من قبل حاتم بن الحارث بن سريج (ثأراً لأبيه) • هل كان لنصر من يد في هذا الاغتيال ؟ ربما كان ذلك لأن نصراً صلب الرجل بعد قتله ومع هذا فقد اقتدى علي بن جديع الكرماني ( الذي خلف أباه في الزعامة ) بشيبان و « توادعت ــ كما يذكر الطبري[١] وابن خلدون ــ قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن على وضع الحرب ، والاجتماع على

---

(١) الطبري ج٤ ص٣٦٧ (١٩٦٩/٢)

قتال أبي مسلم » وعاد نصر فاحتل مدينة مرو مما اضطر أبامسلم لأن ينسحب الى قرية الماخوان ولان يخندق فيها مع أصحابه الثائرين ولكن هذا الاتفاق لم يكن صميميا صادقا فما عتم ابو مسلم ان صد هجمة صغيرة قاموا بها ضده . وعمد بالمقابل الى تفريقهم بدهائه • ونجحت دبلوماسية أبي مسلم حيث فشلت مناورة نصر •

ولم يكن موقف الخراساني قويا في البدء ـ كما تصوره بعض المصادر كالدينوري وابن قتيبة والطبري ـ بل كان هو الذي يطلب ود بعض العرب • ولم يستطع المقاومة العلنية . بل جعل يكتب الى شيبان بذم اليمانية تارة ومضر اخرى • ويوصي الرسول بكتاب مضر ان يتعرض لليمانية ليقرؤوا ذم مضر ، وللرسول بكتاب اليمانية انيتعرض لمضر ليقرؤوا ذم اليمانية . وقد استراب شيبان من الموقف كله فانسحب بجماعته الى بلدة سرخس واعترف له أبو مسلم بحكم مابين نيسابور وهراة وجباية ضرائبها • وكان ابو مسلم في الوقت نفسه قد أرسل للكرماني يقول : « أما تأنف من مصالحة نصر وقد قتل بالامس اباك وصلبه ؟ • ماكنت احسبك تجتمع مع نصر في مسجد تصليان فيه •• » وكتب الى الأزد يحذرهم مغبة الاتفاق مع نصر واصحابه : « لأن السلطان في مضر وهم عمال مروان وقتلة يحيى بن زيد » • واذا لم يتعرض ابو مسلم لنصر فقد نجح في تفريق اليمانيين والأزد عنه • فمالبث الكرماني ان اجتمع بأبي مسلم فاقتنع بقطع علاقاته مع نصر حين اعترف له بامارة خراسان وصلى وراءه . ومالبث الأزد أن انصرفوا عن حلف مضر •

### ٣ ـ نفير الثوار العلني وشعارات الثورة :

في هذه الفترة فيما يبدو وحين وصل الى نصر جواب الخليفة بان

يخسم الداء بما عنده استطاع نصر بن سيار ان يجند بجانبه اعداداكبيرة من الايرانيين سكان ماوراء النهر والمسمين بالتاجيك وقد حاربوا تحت رايته وبقواعلى الولاء الاموي زمنا طويلا بينما استطاع أبومسلم ـ فيما يظهر أيضا ـ ان يكسب الى جانبه بسهولة بعض العناصر التركية فيما وراء النهر ومن خوارزم وقدحاربت بجانبه تحت الراية السوداء[1] • ويبدو أن هذه المشاركة التركية الاولى الناجحة تركت في الخيال الشعبي التركي أصداء عميقة من الفخر ظهرت فيما بعد في كثير من الاغاني الشعرية الشعبية •

وكانت أواخر سنة ١٢٩ واوائل سنة ١٣٠ هي الفترة الفاصلة في الموقف : اذ ترك ابو مسلم الخصومة تتسلح في مرو . وانسحب الى سفيذنج . وهي قرية بني خزاعة فأمر اتباعه بالحشد • يقول الدينوري : « فانجفل الناس على ابي مسلم من هراة وبوشنج ومرو الروذ . والطالقان ومرو ونسا وابيورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والصغانيان والطخارستان وختلان وكش ونسف فتوافوا جميعاًمسودي الثياب » وفي اليوم المعين ١٥ او ٢٥ رمضان سنة ١٢٩ رفع أبو مسلم

---

(١) انظر فامبري ـ تاريخ بخارى (ترجمة الساداتي) ص ٧٨ ويضيف فامبري (هامش ١ و٢) أنه قرأ في مخطوط يفصل حياة ابي مسلم وجده في آسيا الوسطى أن الجيش الذي هزم به قحطبة الأمويين في الزاب كان في أكثره من الاتراك . وأن أبا مسلم دخل الأغاني الشعبيةالحماسية وغنى الشعراء في مدحه وجعلوه بطلا قومياً كرستم لدى الفرس • وقد أفنى عمره في حرب المشركين من الفرس . وبعض القصص التي تجري حتى اليوم لدى الاوزبك والتركمان تقرنه في الجرأة وعجيب القتال بعلي ابن أبي طالب وما من شك في أن ذلك إنما لحق أبا مسلم بعد ان اشتهر وإلعب الخيال الشعبي في تجاذبه وتضخيمه .

اللواء الاسود ( الظل ) والراية ( السحاب ) اللذين ارسلهما الامام إليه وهو يتلو الآية الكريمة التي كتبت على اللواء « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » . وقد أوجد الكتاب العباسيون فيما بعد تأويلات لاسمى الظل والسحاب أرادوا بها اضفاء بعض المعنى الديني على بني العباس يقول صاحب العيون والحدائق : « ... وتأويل هذين الاسمين الظل والسحاب أن السحاب يطبق الأرض وكذلك دعوة بني العباس وتأويل الظل أن الارض لاتخلو من الظل أبدا فكذلك لاتخلو الارض من خليفة هاشمي أبد الدهر ... »[1]

وفي هذه الفترة من بدء الثورة نظم الثائرون أمورهم في شبه دولة : لها صاحب الجند وصاحب الرسائل وصاحب الشرطة وحرس للقائد الثائر ورجال للمراسلات ولها صاحب المال والاعطيات .وجعلوا لأنفسهم معسكرا واسعا تخيروا له موضعا موافقا لحفر خندق حوله ( من قرية الماخوان )واجتمع اليهم الواردون هناك . فما أهل هلال المحرم من سنة ١٣٠ حتى كان عددهم يزيد على عشرة آلاف ... »[2]

ووجد الثائرون قوة لم يكونوا يحسبون حسابها من قبل فلما بدت لهم استغلوها وهي العبيد الابقون . فاعلنوا قبولهم في الجند الثائر وكثروا حتى صير لهم أبو مسلم موضعا على حدة من خندقه[3] .

ويلفت النظر هنا شعار « السواد » في الثياب وفي الراية . فهل

(١) العيون والحدائق لمؤلف مجهول (طبع دي غوية ١٨٧١) ج٣ ص١٨٦
(٢) أخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص ٢٧٦ — ٢٨٠
(٣) المصدر نفسه ص ٢٨١

اتخذ العباسيون هذا الشعار حدادا على شهداء آل البيت الذين ذهبوا ضحية استبداد الامويين ؟ ام اتخذ لمناقضة البياض شعار الامويين ؟قد يكون الرأي الاول هو الأصح فيما يتعلق بالثياب فقط ( لا الراية )لاسيما وان الروايات التاريخية تؤيد ذلك ـ كما يقول دوساسي ـ وان الملابس السوداء كانت الملابس الرسمية في العهد العباسي اما ان البياض كان شعار الامويين فليس ذلك بثابت • وقد استنتج ( كريسر ) من عبارة وردت في الاغاني عن الوليد انه كان يصلي في ثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة « ان شعار الامويين البياض » وبالرغم من انه رمز النظافة ـ على مايظهر ـ فلدينا من النصوص التاريخية مايدل على ان الامويين لم يقتصروا على الثياب البيض • فقد كانت العمامة شعارهم الرسمي •على انه ـ كما يقول فان فلوين [1] ـ « لايبعد ان يكون الامويون قد اتخذوا البياض شعارا لهم بعد ان قامت الدولة العباسية وبعد ان اتخذ الخلفاء العباسيون السواد شعارهم • وقد ذكر الطبري وابن الاثير حين عرض لثورات الشام ضد أبي العباس أن أهل الشام « بيضوا»[2] مما يوحي بأن البياض قد يكون اتخذ في ذلك الوقت أوقبله شعاراً لبني أميــة •

اما الالوية السود فلم تكن يوما شعار الحداد • فقد كان لواء الحارث بن سريج في ثورته سنة ١١٦ اسود ، وكذلك علم بهلول الخارجي سنة ١١٩ وعلم ابي حمزة الخارجي سنة ١٢٩هـ ولم يكن احد من هؤلاء في حداد على آل البيت • ويرى فلوتن اننا « ربما استبنا السر في اللواء

(١) فان فلوتن ـ السيادة العربية ـ ص ١٢٤ وما بعدها •
(٢) انظر الطبري ج٧ ص ٤٤٤ وص٤٤٦ (٥٣/٣ و٥٦) وانظر ابن الأثير ج٥ ص ٤٣٣ و ٤٣٤ •

الاسود من بيت في قصيدة للكميت الشاعر الشيعي وجهها للحارث بن سريج سنة ١١٧ هـ يقول :

والا فارفعوا الرايات سودا  على أهل الضلالة والتعدي

فالعلاقة هي بين الالوية السود ومحاربة الضلالة والعدوان أي الكفر وتعدي حدود الله • وهذا يبين لنا معنى هذه المسألة التي اشار اليها (هماكر ) وهي ان الالوية المذكورة تمثل لواء الرسول الذي كان يحمله في حروبه مع الكفار . ذلك اللواء الذي اتفقت جميع المصادر على انه كان اسود • ولهذا كانت ألوية الخوارج سوداء لانها تذكرهم بحرب الضلال والجور التي شنت على الكفار في عهد الرسول الذي يعتبرونه المثل الاعلى للكمال • ولعله لهذا ايضا ( ومما يفيد ذكره هنا ) كان لواء علي بن ابي طالب . الذي كان يحمله له ( هذين ) في صفين .اسود•

ويلفت النظر من جهة أخرى بين الشعارات التي رفعها الثائرون في تلك الفترة شعار : ( يامحمد يامنصور) [١] وهو شعار استخدمته الدعوة العباسية بذكاء لاجتذاب اكبر عدد ممكن من عرب خراسان واذا كانت كلمة محمد تشير في الوقت نفسه الى الرسول العربي (ص) ودينه كما قد تشير الى محمد بن علي العباسي ( الذي كان قد مات أو ذاك ) فان صيحة يامنصور صيحة ثورية معروفة وقد طالما رفعت في

---

(١) يذكر الطبري (ج٧ ص٣٦٩) «أن أول من سود (في خراسان) هو أسيد بن عبد الله (في بلدة) نسا ونادى : يا محمد يامنصور . وسود معه مقاتل بن حكيم وابن غزوان وسود أهل أبيورد وأهل مرو الروذ وقرى مرو ...» .

ثورات سابقة كثورة المختار الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث وزيد ابن علي • كما أن لهذه الصيحة رنينها الخاص لدى القبائل اليمانية لانها تذكرها بالمنقذ اليماني القحطاني المنتظر ، وبمنصور اليمن أو منصور حمير • وقد استخدمت في خراسان بالذات ، قبل سنوات معدودة من الثورة العباسية ، من قبل الثوار المرجئة مع الحارث بن سريج •

كانت جموع المسودة ماتزال تمشي الى « صاحب الالوية السود في سفيذنج » وقد سودوا أنصاف الخشب التي كانت معهم وسموها : كافر كوبات ( أي عصا الكفار بني امية )[1] واقبلوا فرسانا وحمارة يسوقون حميرهم ويزجرونها ( هرّ مروان ) يسمونها لمروان بن محمد • وكانوا ــ والكلام هنا للدينوري ــ زهاء مائة الف رجل •

في تلك الفترة ــ على مايظهر ــ شجر خلاف بين ابي مسلم وسليمان ابن كثير ، زعيمي الدعوة ، فانتقل ابو مسلم الى قرية ماخوان تاركا قرية صاحبه • ثم دبر مقتله متخلصا بذلك من كل عقبة في طريقه ليصبح رئيس الدعوة الأوحد •

ولعله من الضروري أن نشير هنا الى أن هذا التدبير من ابي مسلم لم يكن الوحيد من نوعه • فقد سبقه أو أعقبه مقتل رجل آخر شكل خطرا على ابي مسلم هو عبد الله بن معاوية الجعفري رأس الفرقة

---

(١) استعملت هذه العصى الشبيهة بالعمد في ثورة المختار أيضاً (انظر الطبري ج٦ ص٧٦) • وكان أقدم أصحاب المختار هم من الموالي الساكنين في قرية خطرينة بسواد الكوفة ويذكر الطبري (ج٧ ص٣٦٠) أن أبا مسلم هو في الأصل من هذه القرية ذاتها .

الجناحية المتطرفة الغالية • فقد ثار الرجل في الكوفة سنة ١٢٧ والتحق بثورته عدد من الشخصيات العباسية الهامة كابي جعفر عبد الله بن محمد . وأبي العباس عبد الله بن محمد ، وعيسى بن علي ( وهم رؤوس العباسيين فيما بعد ) ولعلهم ظنوا أن بامكانهم استعجال الامر ضد الامويين قبل ثورة أخيهم ابراهيم الامام السرية أو حسبوا انهم لن يصلوا من هذه الى شيء مع وجود ابراهيم على رأسها فالتحقوا بابن معاوية حفيد علي بن ابي طالب وعلى أي حال فقد فشلت الثورة وهرب ابن معاوية الى خراسان حيث اعتقله ابو مسلم • وربما كان ذلك بتعليمات « الامام » ابراهيم بن محمد ،ثم قتله سنة ١٢٩/٧٤٦ لأنه يشكل خطرا على العباسيين بادعائه الامامة وبرفق شعار الثورة العباسية نفسه « الدعوة للرضا من آل البيت ••• » • وانزاح بذلك عن أبي مسلم وعن الثورة ظل خطير •

## ٤ ـ جبهة نصر بن سيار

وبينما كان ابو مسلم يستغل كل لحظة من فترة التربص لزيادة قوته كانت جبهة نصر بن سيار قد تصدعت وكان الكرماني يحاصر مرو عاصمة نصر • ويظهر ، من روايتين للطبري ، ان ابا مسلم اضحى اذذاك من القوة بحيث حاول كل من الطرفين ان يتفق معه • ولكنه تربص حتى دخل الكرماني ( مرو ) على نصر سنة ١٣٠ وعندئذ دخلها مع المسودة وأوقف القتال بين الطرفين ، واصبح سيد الموقف •

وفي ( مرو ) ، بعد هذا النصر المبدئي . اخذ ابو مسلم البيعة على الجند من الهاشمية خاصة • ونصها كما جاء في الطبري : « ابايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه (ص) والطاعة للرضا من آل بيت رسول

الله (ص) وعلى الا تسألوا رزقاً ولاطمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم ، وان كان عدو احدكم تحت قدمه فلاتهيجوه الا بأمر ولاتكم » • وفي هذه البيعة ايضاح لموقف الحركة العباسية اذ ذاك : فهم يعدون بالسير على الكتاب والسنة ويستمرون في كتمان اسم الامام بمعنى انه لم يكن بعد قد عرف . ويؤكدون الطاعة المطلقة ويعاهدون على التجرد في العمل ويجب الا ننكر ماكان يضطرم في جموع المسودة من اندفاع عاطفي • ويذكرون ان صفوة جند ابي مسلم كانت من « الكفية » أو أهل الكف، ويفسرونها بانهم كانوا يكتفون من الرزق بكف ( حفنة ) من القمح او انهم بايعوا على الا يأخذوا مالا وان تؤخذ اموالهم ان احتيج اليها . يبتغون الجنة مقابل ذلك ( أي يكفون عن الدنيا )[1] وقد يكون التفسير الثاني اقرب للصحة لكن في التفسيرين معا معنى الزهد والاخلاص المجرد للحركة •

بدأ النضال المسلح بين القوى العباسية والقوى الاخرى بفتح مرو: اذ ورد أمر الامام باعطاء قيادة الجيوش العباسية لقحطبة بن شبيب الطائي • فكان أول مافعله تصفية الجيب الخطر عنده : شيبان الخارجي لئلا يكون طعنة في ظهره فوجه ابا مسلم الى شيبان . الذي تحصن بسرخس ، بعد سقوط مرو • فطلب منه البيعة للامام فلما أبى هاجمه وانتصر فقتله • وفر باقي الخوارج واكثرهم من بكر . فالتحقوا بنصر في نيسابور وارسل نصر الى الخليفة ينذره بسوء الموقف قائلا : أأيقاظ

---

(١) في كتاب المقريزي : المقفى (مخطوط المكتبة الوطنية في باريس رقم ٢١٤٤ ٨١ الورقة ٨٠ ظهر) يقول : « ... الكفية وهم الذين بايعوا على ان لايأخذوا مالا وان تؤخذ أموالهم ان احتيج إليها ويدخلون الجنة . ويقال إنهم أعطوا كفا من الحنطة فسموا الكفية .. »

أمية أم نيام ؟ فجاء الجواب باحالته في النجدة على يزيد بن هبيرة عامل العراق فاستبان اليأس لنصر لاسيما حين أرسل قواه الاخيرة معابنه ضد الجيش العباسي فهزم وقتل قرب طوس ، فتراجع نصر عندئذ من نيسابور ( آخر شوال سنة ١٣٠هـ ) بشيخوخته المتهدمة التي بلغت به الخامسة والثمانين الى قومس ، بينما كان ابو مسلم يدخل نيسابور ويجعلها مركزه • ولم ينس في الطريق اليها ان يتخلص من منافسة زعماء اليمن ، حلفائه منذ مرو فقتل عليا بن جديع الكرماني زعيم اليمانية ، وقتل أخاه عثمان والي طخارستان مع العديد من انصارهم بعد ان ادى تحالفه معهما غايته المرجوة •

### ٥ ــ موقف الخليفة الاموي :

ويظهر ان خليفة حران ، ( مروان ) لم يأخذ هذه الحركة على انها اكثر من ثورة من تلك الثورات التي تعود اخمادها ، فقد رأيناه لايأبه لقوتها اول الامر ، ولايعاون نصرا حين استنجده • فلما انهزم نصر بعد سحق ابنه تميم في سرخس على يد قحطبة الطائي من جهة والقاسم ابن مجاشع التميمي من جهة أخرى . أمر الخليفة واليه في العراق بارسال جيش من قبله ، فعهد هذا لبعض قواده ( نباتة بن حنظلة الكلابي ) بجيش لم يتعاون مع نصر • ولقيه قحطبة بن شبيب الطائي فتغلب عليه وقتله ( ذي الحجة ١٣٠ / تموز سنة ٧٤٨ ) وفتح جرجان ثم لحق بنصر في قومس • فلم يقف ابن سيار في وجهه الا قليلا . وهرب الى همدان • ولم يحتمل جسمه المتهدم كل ذلك فتوفي شريداً في (ساوه) ربيع الاول سنة ١٣١ تشرين الاول سنة ٧٤٨ وانتهى ، في الواقع ، بموته الحكم الاموي في خراسان •

اما مروان فاستطاع ان يعرف صاحب الحركة القابع في الحميمة ، من كتاب وقع في يده منه ، فأمر عامله على البلقاء بالقبض عليه ، وعلى بعض اصحابه ، وحملهم الى حران ، وعرف الامام ألا انجاة له من قبضة مروان ، فبعث يعهد بالامر الى اخيه الاصغر ابي العباس عبد الله بن محمد ، وقد تحملت العائلة كلها هاربة ، في السر ، من الحميمة الى الكوفة • فاختبأت هناك ( من المحرم أو صفر من سنة ١٣٢ / اب ـ ايلول سنة ٧٤٩ ) لدى رأس من اكبر رؤوس الدعوة في العراق : أبي سلمة الخلال الذي اصبح منذ تلك الفترة صاحب الامر والنهي في الحركة العباسية •

ويروي الجهشياري ان ابا سلمة انكر قدوم عائلة الامام عليه وقال: خاطروا بانفسهم وعجلوا[1] واراد ان يبقيهم خارج المدينة ولكنهم ذكروه بخطر ذلك • فقبل دخولهم البلد على كره منه • وأنزلهم دار الوليد ابن سعد الجمال مولى بني هاشم • وكتم امرهم نحوا من شهرين عن جميع القواد والشيعة من الخوف •

وقد حسب مروان ان الفتنة تنقطع بقتل ابراهيم فدس برأسه ـ كما يقولون ـ في « النورة » (الهباب) حتى مات وقتل باقي أصحابه[2] ولكن الجيوش التي كانت تسير من اجله ، دون ان تعرفه ، بقيت تسير من الشرق « مطلع سراج الدنيا » •

(١) انظر الجهشياري ـ الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨) ص٨٥ •
(٢) يقول ابن الاثير : (ج٥ ص٤٢٢ ـ ٤٢٣) ان ابراهيم توفي اما تحت انقاض البيت الذي انهار عليه ، اودس له السم في الحليب • كما ان الباقين توفوا بالطاعون • ولعل الرواية الاخيرة صحيحة •

## ٦ ـ انتقال الثائرين الى العراق :

سار قحطبة مع ابنه الحسين سنة ١٣١ ﻫ غربا فدخلا بعد جرجان: الري ثم همذان ، ثم حاصرا الحامية الاموية في نهاوند فاحتلا البلدبعد ان هزما ( معركة جابلق ٢٣رجب سنة ١٣١) نجدة بعثها ابن هبيرةلانقاذها بقيادة عامر بن صنبارة أقدر قواده • وبهذا اصبحت الخطوة التالية الى العراق ••• ولكن والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة كان قد تحرك نحوهما وعسكر في ( جلولاء ) على الطريق الجبلية التي تصل ارض الرافدين بهضبة ايران • وقد استطاع قحطبة ان يتجنب الاصطدام به ، وينفذ الى دجلة فيجتازه الى الفرات • فلما لحق به ابن هبيرة كان قد اجتاز النهر الى الضفة الغربية وعسكر في الكوفة ، فعسكر الامويون على الضفة الاخرى ( الشرقية ) تجاهه • وذات ليلة من مطلع سنة ١٣٢ ( ٨ محرم ــ ٢٧آب ٧٤٩ ) استطاع قحطبة ان يقوم بهجمة صغيرةمباغتة، عبر النهر ، انتصر بها على ابن هبيرة عند موقع يقال له ( الفلوجة )وجعله ينسحب الى واسط • ولكن القائد قحطبة لقي حتفه بطريقة مبهمة في الليل بعد ذلك[١] • فتسلم ابنه الحسن القيادة ودخل الكوفة في ١١محرم سنة ١٣٢ ( اثر ثورة قامت فيها بقيادة محمد القسري أخذ فيها البيعة لآل محمد ) • فتلقاه فيها ابو سلمة الخلال الذيخطب في المسجد الجامع فاعلن أن الدولة هي دولة « الكوفة » أي جعلها العاصمة والمركز وزاد

(١) يقال إن عربيا لقيه وهو خارج بفرسه من الماء عابرا الفرات إلى الغرب بعد انتصاره على ابن هبيرة فهاجمه بالسيف ثـأراً لأولاد نصر بن سيار وتركه قتيلا في الماء (انظر الطبري ج٧ ص٤١٢ ــ ٣/٤١٧ ــ ١٢ حتى ١٨ )

من أعطيات الجند فجعلها ٨٠ درهما في الشهر بعد أن كانت ٣٠٠ سنوية. أما الخواص والنقباء فلهم مابين ألف الى الفين ودون ذلك للقوادالصغار.

## ٧ ـ من هو الخليفة ؟

ينقضي بعد هذا التاريخ شهران ونصف الشهر لايتغير خلالهما الموقف العسكري الا في شمال ايران الغربي ، اذ كان مروان الخليفة قد ارسل ابنه عبد الله من العراق الشمالي . وكان قحطبة قد بعث اليه(ابا العون) الازدي فهزم عبدالله بن مروان عند شهرزور. وبهذا أضحى الجناح الشرقي من الدولة كله تقريباً بيد العباسيين . على انالذي تغير خلال هذه الفترة هو قيادة الدعوة . فقد برز فجأة اسم ذلك الكوفي : حفص ابن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال فعرف الناس ، ليس اتسابه للدعوة فقط ، ولكن عرفوا انه ايضا كبير دعاتها ، اذ انفرد بالامر ، وتسلم الرئاسة وتسمى « بوزير آل محمد » وعسكر بالجيش بحمام أعين قرب الكوفة . وفرق ـ على قول الجهشياري ـ « عماله على السهل والجبل ، وصارت الدواوين بحضرته ، والكتب تنفذ منه ،وترد عليه [١] » ويقول « انه أظهر الامامة الهاشمية . ولم يسم الخليفة . وتساءل الناس عن شخص ذلك الامام المجهول وراء هذه الثورة ؟ وعن مقره ؟ ولكن ابا سلمة لم يذكر اسم احد من العباسيين ، ولاكشف عن وجودهم بالكوفة . وشاء انينفرد وحده دون باقي رجال الدعوة بتفسير لغز « الرضا من آل محمد » وتعيين شخصيته من كبار آل البيت » .

وتذكر المصادر المختلفة ان ابا سلمة حاول نقل الخلافة للعلويين

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٨٦

وتتفق في القول إن هذه الفكرة قدراودته ، بعد ان علم بمقتل الامـــام ابراهيم •ولكنها بعد هذا تختلف في تفسير هذه المحاولة • فالمسعودي يرى ان ابا سلمة خاف بعد مقتل ابراهيم الامام « انتقاض الامروفساده فشاء البيعة لعلوي » وفي الفخري انه « سبر احوال بني العباس فعزم على العدول عنهم الى بني علي » أي أنه رأى ان الفرع العباسي من آل محمد ليس فيه من هو قادر على استقطاب ولاء الناس او على الامساك بالامر • والطبري يذكر انه لماالح عليه القواد باظهار أبي العباس اجاب: « ليس هذا وقت خروجه ، لان واسطا لم تفتح بعد » ويقول اليعقوبي انه اخفى بني العباس وآل بيته لانه دبر ان يصير الامر الى آل ابـــي طالب •

ولعل تفسير الامر ان الخلال كان علوي الميل وكل الكوفة ، مثله في ذلك • وقد اراد اهتبال الفرصة لتقوية مركزه في الكوفة ، وتحقيق أمله العلوي ، لاسيما والناس لايعرفون شخص « الرضا » وقد قتـــل الامام وشيكا ، وليس لاخوته الباقين ( أبي العباس وأبي جعفر ) من سابقة أو قوة بارزة ضمن الدعوة ••• فقام بمحاولته •

ويقولون في تفصيل هذه المحاولة[١] : ان الخلال كتب الى ثلاثة من العلويين ليعقد الامر لاحدهم : جعفر بن محمد الصادق حفيدالحسين وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن ، وعمر الاشرف بن علي زيـــن العابدين بن الحـــين فأحرق الاول الكتاب ورفض عمر وقبل عبد الله • ويذكر اليعقوبي انه قال : « انا شيخ كبير وابني محمد ( وهو ذو النفس

---

(١) انظر مثلا الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٨٦

الزكية ) أولى بهذا الامر وارسل الى جماعة بني ابيه وقال بايعوا لابني محمد » •

ولكن البيعة لم تتم لان جعفرا الصادق حذر عبد الله ثم اقنعه قائلا : ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أأنت بعثت ابا مسلم لخراسان ؟ أأنت أمرته بلبس السواد ؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أأنت كنت سبب قدومهم ؟ أو وجهت فيهم ؟ وهل تعرف فيهم أحدا ؟

وما من شك في أن حذر الزعماء العلويين وترددهم بجانب تعددهم وعدم اتفاقهم قد جعل فرصة الخلافة في هذه الفترة تفوتهم • وسمح للفرع العباسي بالبروز كمرشح ممكن وحيد • إذ بينما كانت الحيرة والتردد هما طابع المفاوضة مع العلويين • دبت الريبة في الخراسانية بالكوفة ( وهم جند خراسان والتسمية هنا جغرافية وليست اثنولوجية وتعني خاصة الجند العرب القادمين من ذلك الاقليم ) من تصرفات ابي سلمة وكلموه : « مالك تدعونا ومالنت لنا بامام ؟ » ثم اكتشف بعضهم مخبأ العباسيين ، فاخبر القواد فجاؤوا وعلى رأسهم أبو الجهم — على رواية الجهشياري[1] — الى ابي العباس ومعهم اصحابهم في السلاح وبايعوه ( في ربيع الاول سنة ١٣٢/تشرين الاول سنة ٧٤٩ ) وجابهوا بهذا الشكل ابا سلمة بالامر الواقع فبايع واعتذر •

وأضحى أبو العباس عبد الله بن محمد أول السلسلة الطويلة في خلفاء بني العباس التي استمرت بعد ذلك ولمدة تزيد على ٥٠٠ سنة •

---

(١) انظر تفصيل الامر لدى الجهشياري ص ٨٦ — ٨٧

## ٨ ـ مبادىء الدعـوة :

قامت الدعوة العباسية على مبادىء ثلاثة :

آ ـ المبدأ الديني : وهو جعل الكتاب والسنة قانون جميع المسلمين • فهي تمثل لحدكبير الرغبة العميقة لدى العرب والموالي على السواء في تطبيق الاسلام التطبيق الاكمل •

ب ـ المبدأ السياسي : وهو حق بني هاشم في الخلافة دون تحديد لأي فرع من الهاشميين •

جـ ـ المبدأ الاجتماعي : الذي قد يلخصه قول شاعرهم :

لسنا نحابي على الرحمن من أحد فيما نطالب من مولى وعرب

ويقصدون دمج المسلمين كافة من عرب وغير عرب في مجتمع اسلامي واحد يتساوى افراده في الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية • فالدعوة العباسية لاتمثل نوعا من الحركة القومية أو الشعوبية ضد العرب ولكنها في أبعد الاحوال تمثل اندحار الفكرة القائلة بارتباط الاسلام بجنس مسيطر واحد هو العرب •

وقد استغل الدعاة العباسيون في نشر هذه المبادىء ظروفا ومبادىء وافكارا متباينة :

آ ـ الازمة الاقتصادية الناجمة عن الحرب الاقتصادية مع بيزنطة من جهة وعن تقلص موارد الدولة عامة من جهة أخرى •

ب ـ الضيق العام الناتج عن كثرة الفتن والثروات وتناحر العصبيات في العهد الاموي الاخير • ونستطيع لحدما أن نقول : أن

سقوط الامويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان بقدر ما كان نتيجة اضطراب الحكم في الادارة وفي الاستقرار بالشام •

جـ ــ تذمر العرب في خراسان خاصة والموالي عامة من اوضاعهم الاجتماعية والسياسية •

د ــ النظام المالي المطبق في الدولة واضطرابه وضيق الطبقات المختلفة من العرب والموالي به •

هـ ــ التيارات الدينية القديمة : التي تسرب بعضها الى الاسلام وتساهل به الدعاة : كمبدأ التناسخ والحلول ، ومبادىء المشاعية المزدكية • وسيظهر أثر هذه التيارات الدينية في مطلع العصر العباسي باسم : حركة بهافريد والراوندية والخرمية ••• وغيرها •

هـ ــ الحركة العلوية وعطف الناس على آل البيت المضطهدين • وقد جرفت الدعوة العباسية معها واحتوت الكثير من الاراء المتطرفة التي وإن لم تكن هي القوة المحركة للثورة ولاعقيدة الغالبية العظمى من الثوار الا أنها حركت الحقد ضد الامويين بقوة وظهرت أشكالها المتطرفة في مطلع العصر العباسي باسم الهاشمية والعباسية والراوندية ••

و ــ الافكار « الاسرائيلية » التنبؤية التي كانت تبشر بمجيء منقذ « يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا » او بظهور « صاحب الاعلام السود » من المشرق او مجيء « المهدي » الخ •••

ان مبادىء الدعوة تلك ، ومااستغلته من الاوضاع ، سيكون له نتائجه الايجابية والسلبية معا في العهد العباسي • وسيفسر لنا الكثير من سياسة العباسيين ، ومن الحركات العلوية والفارسية ، ومن الثورات لاسيما في عهودهم الاولى •

## ٣ ـ انهيار خلافة دمشق والقضاء على الامويين

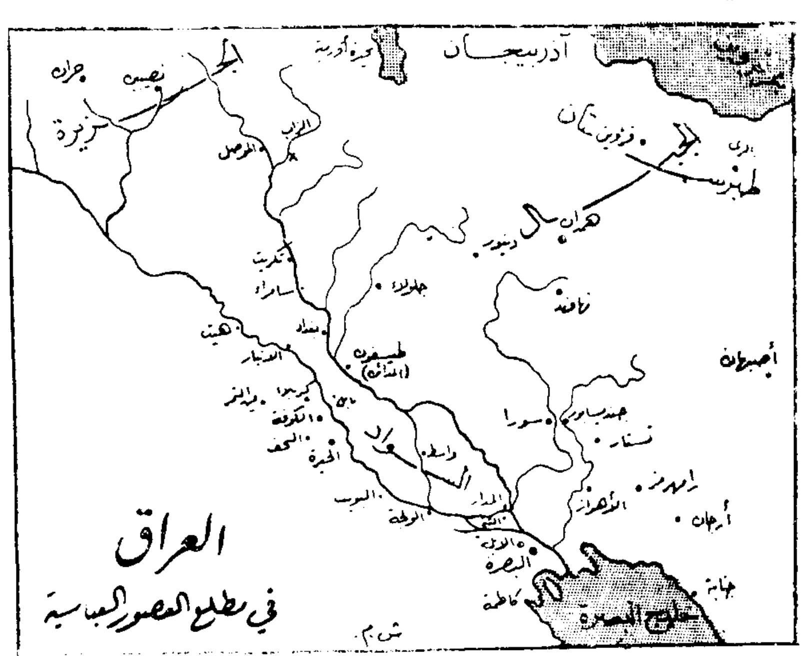
كانت البيعة لابي العباس بدء العمل لا نهايته فقد ألقت على كاهله الشاب اعباء جساما لعل أخفها ضرورة التقرب من اهل الكوفة الذين لم يكونوا موثوقي الولاء ـ كما يقول ابن قتيبة ـ ولاكان هواهم مع بني العباس • ثم ضرورة الاعتماد والحذر في وقت واحد من ابي سلمة الخلال وزير آل محمد ، وهو غير مأمون الاخلاص ••• اما العبء الحقيقي فكان في الوضع العسكري الدقيق الذي كانت غليه الجيوش العباسية •

فدخول العباسيين للعراق من وسطه جعلهم كرأس جسر بين فكي « كماشة » اموية : فشمال العراق والجزيرة والشام ومصر والحجاز كانت لمروان الخليفة • وواسط والبصرة وما حولهما من جنوبي العراق كان لابن هبيرة وجيشه الاموي القوي • ولم يكن مع الثائر العباسي سوى خراسان وماوراءها والطريق الذي يصلها بأواسط العراق دون جنوبي فارس او شمالها الغربي • وقد استطاع ابو العباس رغم هذا الوضع القلق ان يثبت دعائم العرش العباسي •

أولا ـ توجه لضمان النصر على الخليفة الاموي ، وكان مروان قبل تسرب العباسيين للعراق قد بعث بابنه عبد الله في جيش تغلغل في بلاد ايران حتى جنوبي بحر الخزر متجها الى خراسان نفسها ، لكن القائد قحطبة الطائي ارسل اليه جيشا يقوده ابو العون الازدي فهزمه عند شهرزور • وتراجع عبد الله نحو شمالي العراق فاسرع ابوه لنجدته • وعلم ابو العباس ان ابا العون بحاجة الى نجدة أيضا فبعث اليه بحملة

يقودها عمه عبد الله بن علي • ويظهر أنه وعده بولاية العهد من بعده، ان فاز بمروان •

ويلفت النظر بهذه المناسبة ذكاء الزعامة العباسية سواء في عهد محمد بن علي أو ابنه ابراهيم او ابي العباس الابن الثاني • فقد اختاروا للزعامة للقيادة في خراسان خراسانيا هو أبو مسلم رغم أن الثورة عربية العناصر ثم حين اندفع الجيش الثائر الى العراق كان على قيادة عربي هو قحطبة الطائي فلما مات تلاه ابنه فلما كان دور الامويين والشام جعلوا على القيادةعباسيا صحيحا هو عمهم عبد الله بن علي • وسنرى مثل هذا التصرف في حرب المنصور لمحمد النفس الزكية الزعيم العلوي فيمابعد •



ومشى عبد الله العباسي في اربعين الفا متشحين بالسواد حتى خيولهم كأنما هم في موكب جنازة والتقى العباسيون بالجيش الاموي عند قرية الكشاف على نهر الزاب الكبير في شمال العراق[1] • وكان مروان في ١٢٠ الف مقاتل او اثني عشر الفا فقط (حسب روايتي الطبري ولعل الثانية هي الاقرب للصحة ولعلهم حوالي ٢٠ الى ٢٤ ألفا كمارووى البلاذري) فجاز الخليفة النهر على جسر عقده • واستطاع ان يزحزح العباسيين أول الامر ، ولكن عوامل عديدة كانت تعمل في غير مصلحته :

آ ـ عدم تماسك جيشه وفتك العصبية به • يقول الطبري : «وقال مروان لقضاعة انزلوا فقالوا قل لبني سليم فلينزلوا فارسل الى السكاسك ان احملوا فقالوا قل لبني عامر فليحملوا فارسل الى السكون ان احملوا فقالوا قل لغطفان •••»

ب ـ حاول مروان تقوية عزائم جنده بالمال فعرضه عليهم فتركوا الحرب لأخذه فلما ارسل ابنه لصدهم ظنوا أنها الهزيمة فهربوا •

جـ ـ كان جند مروان قد انهك من كثرة الحروب ولم يكن للخليفة من وقت لتنظيمه وإراحته •

د ـ كانت معنويات الجند الاموي ضعيفة بعكس خصومهم •وقد اتفق ان هبط مثلا سرب من الغربان السود على رايات العباسيين في المعركة ، فبان الجزع والقنوط في اصحاب مروان •

وانتهت هذه المعركة التي عرفها التاريخ باسم معركة الزاب ( ١١

---

(١) وردت عن معركة الزاب تفاصيل واسعة هامة في تاريخ الموصل لأبي زكريا الأسدي (طبع علي حبيبة ـ القاهرة ١٩٦٧) ص ١٢٥ ـ ١٣٣

جمادى الآخرة سنة ١٣٢/٢٥ كانون الثاني ٧٥٠) بهزيمة الجند الاموي بعد عشرة أيام من القتال وبختام الخلافة الاموية • وشوهد في نهايتها حصان مروان يجري في الميدان دون صاحبه • الا ان الخليفة المهزوم كان في ذلك الحين في طريقه الى الموصل ، فلما منعه اهلها من دخولها ، توجه الى حران • فلما لم ينجح بجمع جيش جديد ، قبل ان يدركه العباسيون تابع هربه الى حمص فدمشق وطارده الخطر الاسود اليها ، فأتم طريقه الى فلسطين • وبينما كانت الموصل وحران ثم حمص تقدم طاعتها لأبي العباس ، دون قتال ، كان مروان بن محمد يعبر صحراء سينا الى مصر ، حيث دهمه بعض الجندالعباسي بقيادةعامرالمسلى الموصلي ومعونة بعض الاقباط في كنيسة قرية بوصير فقتل وهو يحارب في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ وحز الموصلي رأسه وبعث به هدية لخليفةالكوفة الجديد •

ترى هل دارت بذلك الرأس المقطوع فكرة الاستنجاد بامبراطور بيزنطة قسطنطين ــ كما يقولون ــ او فكرة الاستقلال بافريقياالشمالية؟ لسنا نستطيع الجزم بشيء من هذا ولكن أبا العباس سجد شكرا لله حين وصلته الهدية الدامية[1] •

وقد ذكر ابن عساكر بعضا من أولاد مروان بن محمـــد وأحفاده

---

(١) لعلنا نضيف هنا ان العباسيين لم يقتلوا خليفة أموياً واحدا سنة ١٣٢ وانما قتلوا خليفتين هما : مروان بن محمد واخوه لامـه ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي ولي الخلافة سبعين ليلة سنة ١٢٧ فلما دخل مروان دمشق خلع نفسه ( صفر ١٢٧ ) واختفى وبقي حياً الى سنة ١٣٢ فقتل حينئذ فيمن قتل من بني أمية (انظر ابن عساكر تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج٢ ورقة٢٧٩ ظهر ــ ٢٨٠ وجه . والسيوطي تاريخ الخلفاء ص٢٥٤) .

أسروا حين قتل بمصر وحملوا إلى ابي العباس فظلوا في السجون العباسية حتى أطلقهم منها هارون الرشيد[1] منهم الحكيم بن عبد الله حفيده ، وأبو عثمان ابنه ...

ثانيا ـ وجه ابو العباس قائده الحسن بن قحطبة لحصار يزيد ابن هبيرة في واسط ثم بعث اخاه ابا جعفر للاشراف على الحصار فشدد حضوره ـ كما يذكر الطبري والدينوري ـ من عزائم الجيش . ولكنه لم يفد في فتح المدينة التي استطاعت بمنعة حصونها ومهارة ابن هبيرة فيها ان تقاوم احد عشر شهرا . وقد حاول العباسيون احراق واسط عليه بان يملأوا السفن حطبا ويضرموا فيها النار ويسيروها في النهر ، ولكنها كانت محاولة فاشلة اذ هيأ ابن هبيرة حراقات تجر تلك السفن اللاهبة بالكلاليب ، ويظهر ان هذا القائد الاموي كان يأمل انتفاض البلاد على هؤلاء الثائرين . فلما قتل مروا نبدأت بينه وبين العباسيين معركة سياسية غلب فيها . فاتصل بالعلويين يدعوهم للمطالبة بالخلافة ليفرق صفوف خصومه ، وليكسب عطف اليمانية الموجودين في واسط ، ولكن ابا جعفر عرف هذا منه فكتب الى اليمانية ان « السلطان سلطانكم والدولة دولتكم » ، « وكتب ابو العباس اليهم يطمعهم » وتابع ابو جعفر الحملة فكتب الى اصحاب ابن هبيرة « يستميلهم بالاطماع وينبههم على حظوظهم ويعرفهم انصرام دولة بني امية فاجابوه جميعا وكان زياد بن صالح الحارثي ـ عامل ابن هبيرة على الكوفة وأخص اصحابه عنده ـ أول من أجاب دعوة ابي جعفر » .

---

(٢) انظر ابن عساكر . تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج٥ ورقة ١٠٣ ظهر ، وج١٩ ورقة ٧٣ ظهر

وجدت الدسائس مع طول الحصار ، طريقها الى جيش ابن هبيرة ما بين قيس ويمن ، فتوقف الطرفان عن الحرب • ولم يكن يقاتل مع القائد سوى الصعاليك والفتيان[1] • فطلب الصلح ، وكتب له بالامان بعد طول مفاوضات[2]• وتسلم العباسيون واسط (أواخر سنة ١٣٢) ولكن العهد لم يرع • وقتل ابن هبيرة باشارة ابي مسلم ــ كما يذكر الطبري وابن قتيبة واليعقوبي ــ وكانت دعوى القتل انه اتصل بالعلويين لنقض الدولة العباسية كما يروي ابن أعثم الكوفي • وقد تردد ابو جعفر في قتله وأبقاه في حجرته ، فألح عليه ابو العباس الخليفة وكثرت كتبه بذلك ، حتى نفذ أمره وقتله مع ابنه داوود • وقد استتبع سقوط واسط سقوط البصرة بعدها وجنوب العراق كله • فقد والي الأمويين في البصرة هو سلم بن قتيبة الباهلي وقد اعتصم بها لا يسلمها للوالي العباسي الجديد سفيان بن معاوية المهبلي في انتظار مايكون من أمر ابن هبيرة وكانت قوته في نفوذه القبلي الواسع تعينه فلم يستطع سفيان دخول البصرة بالقوة • فلما استسلم ابن هبيرة ثم قتل انسحب سلم الى الحجاز وسقطت البصرة بدورها •••

وإذ ذاك استطاع أبو العباس ، لأول مرة ، أن يطمئن الى خلافته والى أمن مركزه في العراق بينما كان عمه الاول عبد الله يستصفي له الشام ومصر من الامويين ، وعمه الثاني داوود يأخذ له البيعة في الحجاز ، ومنابر معظم الاقطار الاسلامية تدعو له في نهاية الخطب باسم خليفة المسلمين •

---

(١) انظر الطبري ج٧ ص٤٥٤ (٦٧/٣/٣)

(٢) نجد نص الامان وهو بليغ قوي في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ( المخطوط ورقة ٢٢٣ ظهر ــ ٢٣٤ وجه ) وفي كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

**ثالثاً** ــ رفع اللواء الاسود على دمشق (١٠ رمضان سنة ١٣٢) أي بعد ثلاث سنوات من رفعه في خراسان ، وبعد ستة اشهر من بيعة ابي العباس • وقد اجتمع عليها عبد الله وصالح ولدا علي بن عبد الله بن العباس وعدد آخر من قواد العباسيين •

واعتصم أهل دمشق وراء أسوار المدينة ولكن جبهتهم الداخلية كانت متمزقة بين قيس ويمن لدرجة أنهم أقاموا في الجامع قبلتين وتلاسنوا وتلاعنوا وتضاربوا بالنعال • ودعا عبد الله بن علي اليمانيين في المدينة وأغراهم قائلا : «انكم وإخوتكم م ن ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وانصارنا فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر ••» واستمعوا إليه فسقطت المدينة بعد أن قتل اليمانيون قائدها الوليد بن معاوية وفتحوا الأبواب (١٠ رمضان سنة١٣٢/٢٢نيسان سنة٧٥٠)على أن سقوطها كان بدء مجزرة مرعبة في الامويين بدأت في جوامعها واسواقها وبيوتها ثم انتشرت الى كل مكان به أموي وهدم حائط دمشق واستمر القتل ونبش قبور الامويين خمسة عشر يوماً وتجاوزت المجزرة الحد اللازم لتوطيد الدولة ، لتصبح ثأراً وانتقاماً شخصياً حقوداً : وكان بطل هذه المجازر التي تعددت ازمنتها وامكنتها عبد الله بن علي الذي لقب (بالسفاح)عن جدارة ، ولا نكاد نعرف لها مثيلا في التاريخ غير حرب الوردتين الانكليزية التي استأصلت اسراً برمتها : فقد تعقب عبد الله وبنو العباس معه[1] الامويين في الشام كله وفي الحجاز (بطلها داوود بن علي) ومصر

---

(١) يروون من قول أبي العباس :

بني أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالاول الماضي

ومن قول عمه عبد الصمد :

والعراق والجزيرة ، ونكلوا بهم تنكيلا بلغ احياناً حد المثلة ( كالذي كان على نهر ابي فطرس [1] ، وفي حضرة ابي العباس في العراق) وانتهى الامر الى الطواف برؤوس كبار الأمويين في الشام وإلى نبش الموتى ، وبعثرة ما في القبور . وجلد الجثث[2] ولئن أصدر الخليفة كتاباً بالامان للجميع، فلقد نقض الامان بعد اعطائه . فاستتر من استتر من بني امية ،وهرب من أطاق الفرار وهم قلائل : بعضهم قصد الحبشة وبقي فيهـا حتى خلافة المهدي[3] ، وبعضهم وصل المغرب ومنهم عبدالرحمن بن معاويـة حفيد هشام بن عبد الملك الذي انتقل الى الاندلس فاجتزأها من الدولة. واقام فيها من جديد الخلافة الاموية الثانية .

وبالرغم من تشابه بعض الروايات عـن عمليات القتـل الجماعي للأمويين مما يوحي بالشك فيها ومن وجود ظل للمبالغة أحياناً في بعضها

---

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها اخذي بثأري من بني مروان
ومن آل حرب ليت شيخي شاهد سـفكي دمـاء بني أبي سفيان

ومن قول عمه عبد الله بن علي لبنات مروان بن محمد : لن نستبقي منكم احدا رجلا ولا امرأة . .

(١) يراجع في تفصيل ذلك أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص٤٧-٥٦؛ تاريخ الموصل لابي زكريا الأسدي ص١٣٨-١٣٩ وابن الاثير ج٥ ص ٤٢٩-٤٣٢ والأغاني ج٤ ص٩٢ وما بعدها . وقد حقق فلها وزن موضع أبي فطرس بأنه عند كفر سابا في وادي نهر العوجا (فلها وزن - تاريخ الدولة العربية - مترجم - ص٥٢٤) .

(٢) يروون أن عمرو بن تمام القائد العباسي نبش قبر هشام بن عبد الملك فوجده صحيحاً لم يتلف منه سوى أرنبة انفه فضربه أسواطاً فانتثر ثم صلبه واحرقه بالنار وذراه بالريح . (انظر الأزدي - تاريخ الموصل ص١٣٨ وابن الاثير ٥/٤٣٠) .

(٣) الطبري ج٧ ص ٤٣٨ (٤٦/٣) ابن الاثير ٥/٤٢٧

وحب للتشفي في بعضها الآخر ، ومن وجود بعض الدلائل أحياناً أخرى على تسامح عدد من القواد العباسيين واستخدامهم اللين والرفق مع الأمويين والحركات الاموية أيضا ، ومن أنه لم يكن حتى عبد الله بن علي ولا أبو العباس أو ابو جعفر بالبعيدين عن هذا الرفق ، إلا إن مثل هذه الأعمال تجد تفسيرها فيما ذكره ، في ذلك الوقت نفسه ابن المقفع الذي قال في رسالة الصحابة «... أما مايتخوف المتخوفون من نزواتهم (الأمويين) ... فإنه لم يخرج الملك من قوم الا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم ..»[1] .

فما من شك في ان موقف العباسيين إذن كان في أول الأمر موقف القمع والشدة الدموية ثم مالبثت العواطف أن هدأت مع استقرار الدولة. فتوقف الذبح والقتل . وما من شك أن العباسيين كانوا أحياناً يستخدمون اللين إن وجدوا أن استخدامه لا يضر بالدولة ، وبين هذا وذاك وقعت دون ريب عدد من المذابح الرهيبة إما تشفياً أو إرهاباً كما لجأ العباسيون الى عقوبات أخرى ذكرها ابن المقفع نفسه في رسالة الصحابة يقول : «.. أخذ في أمر أهل الشام على القصاص . وحرموا ، كما كانوا يحرمون الناس ، وجعل فيؤهم الى غيرهم كما كان في غيرهم إليهم . ونحوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يضعه امراؤهم للعامة ...» ثم ينصح ابن المقفع بالرفق فيهم والسلوك معهم في سياسة أخرى .

---

(١) ابن المقفع . رسالة الصحابة (طبعة رسائل البلغاء القاهرة ١٩٦٤)

ولعله من الهام أن نسجل هاهنا ملاحظة أخيرة هي أن هذه القسوة التي استعملها العباسيون ضد الأمويين لم يكن لهـا في تاريخ علاقات هاتين الجماعتين مايبررها • فلم يقتل الأمويون من بني العباس سوى ابراهيم الامام ، بعد الثورة • وإذا كان العباسيون قد استعاروا أحقاد العلويين لتبرير عمليات القتل الجماعي للأمويين فـإن التفسير الحقيقي الوحيد لكل تلك الدماء هو الرغبة في الخلاص من أي منافسـة أموية محتملة على كرسي الخلافة •



# الفصل الثالث

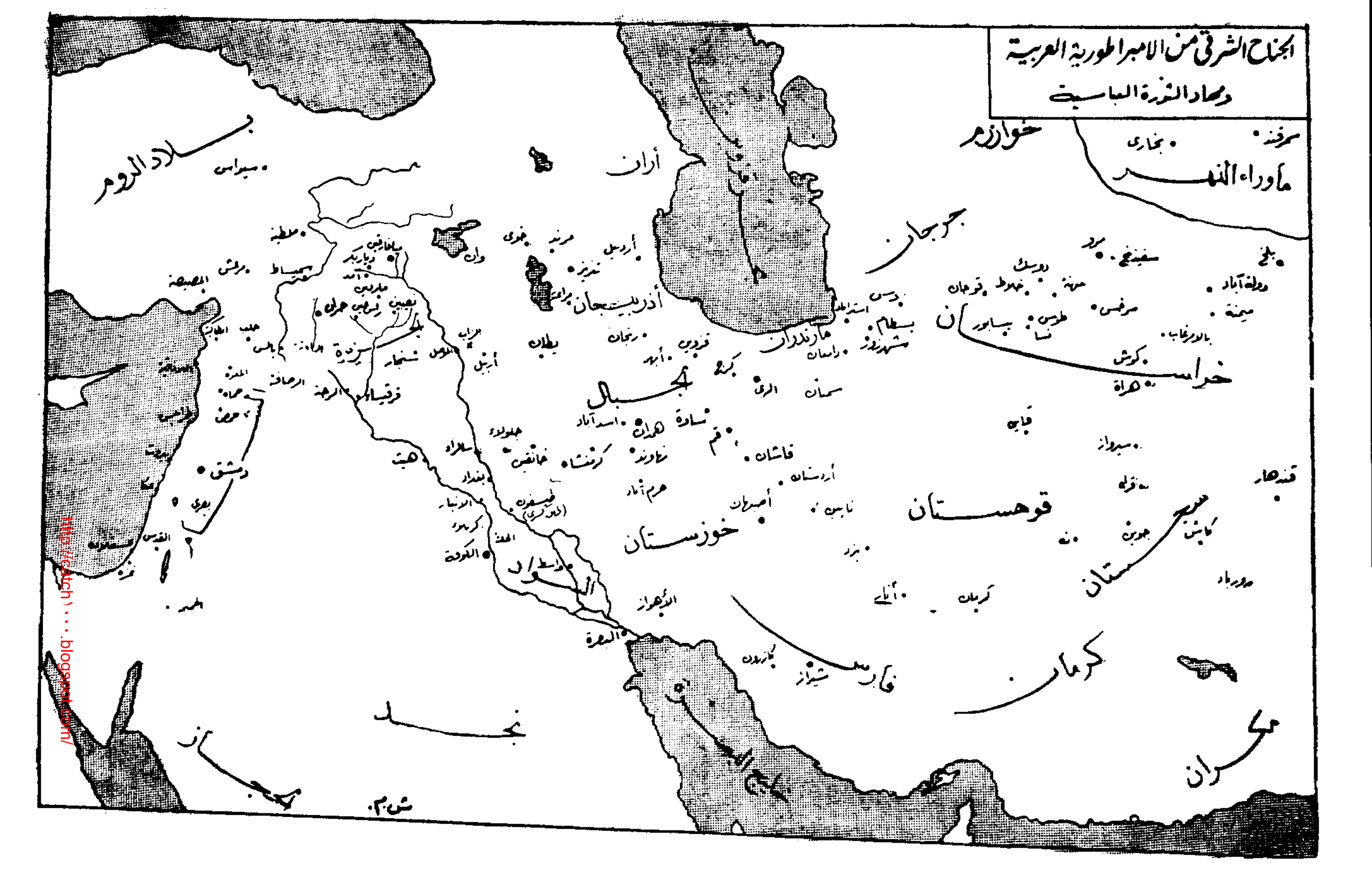
## العباسيون

١٣٢ ــ ٦٥٦ هـ و ٧٥٠ ــ ١٢٥٨ م

استمر زمام الرئاسة العليا في العالم الاسلامي مدة خمسة قرون بيد بني العباس . ويصف صاحب الفخري دولتهم بانها «كانت دولة كثيرة المحاسن ، جمة المكارم ، اسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دارة ، والدنيا عامرة والحرمات مرعية ، والثغور محصنة . وما زالت على ذلك حتى كانت اواخرها فانتشر الجبر واضطرب الامر وانتقلت الدولة ...»

### ١ ــ ميزات الحكم العباسي :

من الضروري أن ننبه منذ البدء ان ما نعنيه من ميزات الحكم العباسي لا يتناول حياة الخلافة العباسية منذ ظهورها سنة ١٣٢ حتى انهيارها على يد التتر سنة ٦٥٦ فذلك مطلب عسير التناول ومن الصعوبة بمكان التقاط ملامح عامة لدولة تطورت اطوارا عديدة خلال خمسة قرون


الجناح الشرقي من الامبراطورية العربية
ومهاد الثورة العباسية
بلاد الروم
خوارزم
ماوراء النهر
سمرقند
بخارى
أران
جرجان
أذربيجان
الجبال
خراسان
قوهستان
خوزستان
سجستان
كرمان
فارس
مكران
نجد
الحجاز
دمشق
الكوفة
البصرة
بغداد
هيت
الموصل
الري
قم
همذان
نهاوند
أصبهان
شيراز
هراة
نيسابور
مرو
بلخ
سيراس
ملطية
تبريز
أردبيل
زنجان
قزوين
قاشان
سمنان
بسطام
الأهواز
يزد

وإن احتفظت على القمة باسم الخليفة العباسي • إنما تنصب هذه الميزات التي نبحث عنها بشكل عام على القرن الأول خاصة من عهدها (١٣٢ ـ ٢٣٢) وإن شئنا التجاوز شملت القرن الثاني التالي له (٢٣٢ ـ ٣٣٤)• أما ما بعد ذلك مما يسمى بالعصر البويهي ثم السلجوقي فله ـ الى حد كبير ـ ميزاته الخاصة •

والقرن الأول من الخلافة العباسية هو وحده عهد الدولة العباسية الخالصة ثم سقط الحكم العباسي بين القواد الاتراك فأضحت هناك : خلافة عباسية لها بشكل متزايد الطابع الديني فقط مقابل «دول» فعلية مأامها علناً أو بشكل موارب قواد الجيش من الأتراك خاصة ، سواء في الأقاليم أو في بغداد نفسها • ولعله من الضروري كما نكون على الموضوعية والدقة أن نحصر الاهتمام بالقرن الأول •

ولعل أول ما نقف عنده في هذا الصدد هو تقييم الثورة العباسية في مسيرة التاريخ الاسلامي •

فمعظم المصادر تصور انتقال الخلافة من بني امية الى بني العباس كما لو كان نهاية عصر بائد وفاتحة عصر جديد ، او أنه انقلاب جذري في كيان الامبراطورية العربية الاسلامية • وكثير من الاوهام تتحدر من هذه الفكرة ، فإذا لم يكن انتقال الحكم من الراشدين الى الأمويين مجرد تغيير في نظام الحكم وكان انقلاباً في تكوين الدولة الاسلامية ومفاهيمها أعطاها أشكال ونظم الدول الأخرى السابقة لها ، معما يقتضيه الاسلام من تعديل فيها فان العصر العباسي الأول ، في واقعه العميق ، ليس اكثر كثيراً من انتقال عرش من اسرة لأخرى ، مع التعديلات التي تقتضيها سنة التطور • فاذا كان التاريخ لا يقبل الانقطاع عامة ، فانه

فيما يتعلق بتلك الفترة ، بين أواخر العهد الاموي واوائل العهد العباسي خاصة ، لم ينقطع • واذا سمي العباسيون حكومتهم «دولة» فهذه التسمية تحتاج الى تحديد ، لانهم لم يخلقوها خلقاً جديداً • وكثير من انظمتهم وتقاليدهم وسياستهم كان استمراراً للعهد الاموي ونضجاً له وتطوراً طبيعياً لمؤسساته وعلومه وتياراته الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية • وما أدخله العباسيون من التعديل على السياسة العامة كان مبعثه الطريقة التي وصلوا بها الى الحكم ، وظروف الدعوة التي سبقت خلافتهم • كما ان ما يبدو من التباين بين عهدهم الأول والعهد الأموي فإنما مرده الى مااقتضاه نقل مقر الخلافة الى العراق ، واتصال الدولة المباشر والمتكاثر مع الموالي الفرس واستخدامهم فيها ، من التغير• ولعل المقارنة بين العهدين تبين لنا ميزات العهد العباسي ومدى شبهه واختلافه مع العصر الاموي :

١ – يقول الجاحظ : «دولة بني العباس اعجمية خراسانية ،ودولة بني مروان عربية اعرابية» ويرى المسعودي انه في زمن بني العباس «سقطت قيادات العرب وزالت رياساتها وذهبت مراتبها» ويقول بيكر : «ان انتصار العباسيين معناه انتصار الفرس على العرب» • ويرى ولهاوزن «ان حكم العرب انتهى بمجيء العباسيين،وان الفارسية انتصرت على العربية تحت ستار الاممية الاسلامية» والخطأ الأساسي في مثل هذه الأحكام عامل الزمن وانتقالها في الحكم من عصر الى عصر • فقد تكون هذه الافكار صحيحة في خطوطها العامة إذا اعتبرنا ما انتهت إليه السياسة العباسية بعد قرن من التطور لكنها دون شك مبالغ فيها وغير صحيحة إذا اعتبرنا النتائج المباشرة للانتصار العباسي على بني أمية • فلم ينته سلطان العرب بخلافة العباسيين ، لان الخلفاء كانوا عرباً هاشميين ، يعتزون بنسبهم ومناقبهم • وتقريبهم الفرس لم يمنعهم من

كيل الضربة تلو الضربة ، لهم ، منذ عهد ابي العباس حتى المأمون والمعتصم ــ على الاقل ــ واذا وصل الفرس الى الوزارة فعدد كبير من القواد والولاة كانوا عرباً ومن اقرباء البيت المالك • وحتى الفرقة الخراسانية في الجيش كانت في معظمها عربا كما كانت هناك فرق أخرى عربية وغير عربيـــة •

هذا الى ان الناس ظلوا ينزعون للفخر بالنسب العربي • ويشتري بعض الموالي النسب شراء • وحتى ابو مسلم نفسه ادعى النسبة العربية وسنبقى الى زمن ابي تمام ( القرن الثالث للهجرة ) نسمع الفخر بالعروبة وتراشق الهجاء بالنسب الفارسي •

وعدا هذا فان اللغة العربية ظلت لغة السياسة والثقافة وازدادت تعمما وانتشاراً وبدأت الترجمة من اللغات الاخرى اليها •

فحكم العرب اذن لم ينته بالعباسيين • ولكن الامتيازات التي كانت لهم على العناصر الاخرى في الدولة زالت • والعصر العربي الخالص في تاريخ الاسلام قد انتهى • والحياة العربيـــة الخالصة للحكـــام آذنت بالانقراض • فكانت دولة العباسيين «اسلامية» أممية ، ليس العـــرب أكثر من عنصر كبير وأساسي وحاكم من عناصرها ، بينما كانت دولة بني امية عربية فقط • وبعض الظروف السياسية كحركة ابي مسلم وثورة المأمون ، هي التي ابرزت الخراسانيين من بين شعوب الدولـــة ولكن الخلفاء لم يختصوا دوماً بهم ، ولا بهم وحدهم •

ونعود الى كلمتي الجاحظ والمسعودي فنجد أن الجاحظ ، الذكي الفؤاد ، المطلع على السياسة العباسية والذي عاصر فترة الأوج من دولة

بني العباس إنما كان يقصد بكلمته عن أعجمية هذه الدولة وخراسانيتها المعنى الجغرافي لا معنى الحكم والسياسة • ولعله إنما أراد ان يقول إن الدولة العباسية إنما قامت بدعم من منطقة أعجمية خراسانية بينما قام الحكم الأموي بدعم من المناطق العربية • وأما المسعودي فما من شك في أنه كان يحكم على دولة بني العباس من خلال عصره وما انتهى إليه الحكم والسياسة العباسيان في مطالع القرن الرابع بعد تطور قرنين على الأقل •

ويمكن القول في النهاية أن الدولة الاسلامية ، تحولت في العهد العباسي إلى دولة قوميات متعددة بعد أن كانت في العصر الأموي واحدة القومية بمعنى أن الجماعة الحاكمة ، أيام الأمويين كانت من العرب في غالبيتها العظمى وتحتها القوميات والشعوب الأخرى أما في العصر العباسي فتحول الحكم (وهو تحول بدأ بالتدريج منذ الأمويين) إلى حكم قوميات متعددة • جمع بينها الاسلام فكان فيه في طبقاته العليا: بجانب العربي الذي لم يخسر مكانته الايراني والتركي كما فيه البربري والأرمني والنبطي والزنجي والسندي ، نفذوا باعتناق الاسلام من طبقة المحكومين الى طبقة الحاكمين وشاركوا ، باعتبارهم مسلمين ، في إقامة وإدارة الحكم الاسلامي وفي الاستفادة من الفرص والآلاء التي يقدمها هذا الحكم • لم تتدهور قيمة العرب كوحدة عرقية وحضارية ـ خلافاً لما قال بعض المؤرخين والمستشرقين ـ أثناء تحول الدولة الاسلامية الى دولة شعوب متعددة ولكن برزت معهم الشعوب الأخرى واختفى بالتدريج التمييز الذي كان ظهر بشكل طبيعي في العهد الأموي بين العرب والموالي وإن بقيت أشكاله ومظاهره الخارجة بقاء القواقع بعض تلاشي المحار •

ومقابل هذا جرى العكس بالنسبة للخليفة فإذا كان في العصر

الأموي على مستوى غير بعيد من أي فرد من أفراد الطبقة الحاكمة العربية فقد ارتفع في العصر العباسي ليأخذ الصفة الدينية ويصبح قمة الارستقراطية المحدودة العدد والإطار التي يمثلها مجموعة آل بيت النبي في أوسع اشكالها أي مجموعة آل هاشم ٠

٢ ـ يقول صاحب الفخري : «ان هذه الدولة (يعني العباسية) ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة او رغبة» ٠ والحق ان العباسيين بحكم الطريق الذي اصطفوه اثناء الدعوة العباسية للوصول الى الخلافة ، اندفعوا في الاخذ بالصبغة الدينية ٠ وتلك الدعوة التي استخدموها لتنفير الناس من الحكم الاموي تطورت في عهدهم ، ووجهت بكثير من الدهاء لكسب ثقة الامة ، وتثبيت حبها لهم ٠

لقد ادعى بنو العباس انهم يريدون احياء السنة وحكم العدل وارجاع الخلافة الحقة ، بدل الملك الذي اقامه الامويون ٠ فارتدى خلفاؤهم البردة (كرمز لسلطتهم الدينية) في المناسبات الخاصة (كالجمع والاعياد) واحاطوا أنفسهم بالفقهاء وحاربوا الزنادقة ٠ وتغيرت نظرية الحكم فبعد ان كان الخليفة الاموي اشبه بشيخ قبيلة يستمد قوته من رضى رؤساء القبائل وزعماء الناس ، اصبحت السلطة عند العباسيين مقدسة ومستمدة من الله ٠ خطب المنصور قائلا : «ايها الناس انما انا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وإرادته ٠ وأعطيه باذنه فارغبوا الى الله وسلوه ان يوفقني للرشاد والصواب وان يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم ٠٠» ويذكر المسعودي من قول احدهم في تعزية المهدي بابيه : « ٠٠ لاعقبي

أجل من خلافة الله على اولياء الله» • فالخليفة اذن خليفة الله • واتخذ خلفاء بني العباس لانفسهم بعد فترة وجيزة لقب الامام • وأخذ الطابع الديني للخلافة يعمق ويظهر ، كلما تسللت السلطات الدنيوية من يدي الخليفة • فكان الخلفاء يجرون على انفسهم الدثار الديني المقدس للتعويض عن السلطة الزمنية التي كانوا يفقدونها تدريجياً بضعفهم ، في العصر الثاني والثالث والرابع • حتى ادعوا ان السلطة ستبقى في ايديهم الى الابد لا تخرج منها حتى يسلموها الى عيسى بن مريم – كما يقول الاربلي – والا" فان نظام العالم سيختل (اذا ذهبت خلافتهم) وتحتجب الشمس ويمتنع القطر !!

ولعل تطور الالقاب فيهم يدلنا على اتجاه السلطة في الخلافة فمن السفاح والمنصور الى المهدي والرشيد الى المتوكل على الله والمستنجد بالله والقائم بامر الله ، نرى من معاني الالقاب كيف كانت الخلافة تضعف ومن دخول : «لفظ الجلالة» كيف كانت تتخذ الصبغة الدينية • ولا شك ان تحول الخلافة العباسية الى نوع من النفوذ الديني كان السبب في العمر الطويل الذي تمتعت به كما كان السبب في احترام الفرس والترك خاصة لها كمقام ديني أعلى •

ولكن هل كان الثوب الديني الفضفاض للخلافة يعني السياسة الدينية أي تحقيق الكتاب والسنة ؟ وهل حققت دولة بني العباس ، في عهدها الاول على الاقل ، آمال اولئك الذين اغرتهم وعود الدعوة « للرضا من آل محمد ؟ » يقول فانفلوتن[1] : « ان ذلك المثل الا على للعدالة والمساواة قد ظل وهما من الاوهام • ولم يكن جور النظام

---

(١) فلوتن ص١٣٢ وما بعدها

العباسي وعسفه منذ قيام الدولة العباسية ، باقل من النظـام الاموي المختل حفزاً للنفوس الى التمسك بعقيدة المهدي والتطلع الـى ظهوره لتخليصها من قسوة النظام الجديد وجوره • ويذكرنـا جشع المنصور والرشيد والمأمون وجور أولاد علي بن عيسى وعبثهم باموال المسلمين ، يزمن الحجاج وهشام ويوسف بن عمر الثقفي •••»

«ولدينا البراهين الكثيرة على فجيعة الناس في هذا العرش الجديد: من ذلك قول شريك الذي ثار في بخارى خلال خلافة السفاح : « ما على هذا اتبعنا آل محمد ، على ان نسفك الدماء ونعمل بغير الحق» • وكذلك الاضطرابات المستمرة في الجزء الشرقي للدولة العباسية (كخروج المقنع) وثورات الخوارج المتوالية وخروج يوسف البرم الذي لم يكن غرضه سوى « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » أضف الى هذا خروج رافع ابن الليث لسوء سياسة علي بن عيسى ••• وهكذا لم يكن ابو العطاء الشاعر هو وحـده الذي نعي على ذلـك النظام فساده بقوله :

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عـدل بني العباس في النار

ولعل الفرق بين العهدين العباسي والاموي هو ان المستفيد من الجور فيهما كان مختلفاً • فلم يكن قوام الجور العباسي ــ على الاقل ــ تسلط عنصر واحد من عناصر الدولة على العناصر الأخرى وهو مـا كان عماد النظام الاداري الاموي ، إذ أن الدين ــ دون الجنس ــ كان المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومـة والرعية لـدى بني العباس ، وانما كان سبب النقمة على العباسيين عدم العدل في حكمهم، بمعنى انه اذا انتصر بالحكم العباسي مبدأ المساواة الدينية فان العدل ــ على أي حال ــ لم ينتصر •

٣ ـ كثيراً ما يذكر الكتاب ان نظم الادارة العباسية كانت مقتبسة عن النظم الفارسية القديمة . والواقع كما قال (ديلافيدا) «ان النظام الاداري الذي جرى عليه العباسيون هو في جوهره نظام الامويين» . فقد استمرت النظم الاموية في الضرائب والادارة المحلية والجيش والدواوين على رسمها ، في العهد العباسي . وتهجمات الشعوبين في مخاصمتهم الطويلة للعرب هي التي طوقت الادارة العباسية بهذا الوهم. ولكنا لو درسنا الانظمة الساسانية ، وما كتبه كريستنسن[1] خاصة عنها (في كتاب ايران تحت الحكم الساساني) لتبين لنا انها كانت ابسط مما كانت عليه عند العباسيين . كما ان كثيراً من الانظمة العباسية لم يعرفها آل ساسان . فلم يكن الفرس مثلا يميزون بين كلمتي «جزية وخراج» ولم يعرفوا نظام الحسبة ولم يعرفوا في نظام البريد وظيفة التجسس على العمال والرعية (الامن العام) بالاضافة الى نقل الاخبار الخ ... وأهم الفوارق بين أسس النظامين العباسي والاموي هي :

آ ـ لم يعد ثمة تفريق بين الشعوب الاسلامية فكان من الضروري ايجاد نظام جديد للمال ، يحل المشكلة التي اوجدها ،منذ العهد الاموي، قانون عمر بن الخطاب باعفاء العرب من دفع الضرائب ، باعتبارهم حماة الاسلام ، وتوزيع العطاء عليهم . وقد أوجد العباسيون هذا النظام الذي لا يفرق بين العرب والفرس ، في خدمة الحكومة ؛ ويفرض للجميع على السواء مرتبات معينة . ولكن النظام القديم بقي قائماً ولم يلغ صراحة .

ب ـ حلت بالتدريج محل الارستقراطية العربية التي كانت تحيط

---

(١) انظر الدوري العصر العباسي الاول ص ٢٤

بالعرش الاموي ، طبقة من الموظفين (بوروقراطية) قسمت درجات يسيطر بعضها على بعض • وكان على رأسها الوزير الـذي وجد منصبه في العهد العباسي ، وظهر لقبه قبل مبايعة أول خليفة من خلفاء بني العباس، تعبيراً عن ضرورة وجود «الادارة المدنية» في الدولة الاسلامية وإثباتاً لوجودها • بعد أن استمر الأمويون منذ الفتوح العربيـة يربطونهـا بالادارة العسكرية • وظهرت بهذا الشكل طبقة الكتاب الذين لعبوا في تسيير الدولة العباسية دوراً يعدل دور ارباب السيوف ، او قد يفوقه ، وكثيراً ماكان الوزراء ينتقون من الكتاب ، ويحمل احدهم لقب «رب السيف والقلم» أو «ذي الرياستين» •••

جـ ـ اعتمد العباسيون على القوة في تنفيذ سياستهم اكثر من الامويين واعتمدوا ـ على رأي ابن الطقطقي ـ على الخدع والدهاء والغدر أكثر من اعتمادهم على القوة والشدة خصوصـاً في أواخـر عهدهم ، وكان ابو العباس (السفاح) أول من اشار الى هذا الاتجاه في خطبته التي افتتح بها عهده • وصار للجلاد مكان معلوم في البلاد بجانب العرش ليزيد في رهبة الخليفة • ويرى (ولهاوزن) ان العباسيين اقتبسوا وظيفة الجلاد من الفرس الذين كان لملوكهم حق الحيـاة والموت على الرعيـة •

٤ ـ لم تتغير الاتجاهات السياسية والدينية للمجموعة الاسلامية في مطلع العصر العباسي • فبقي حزب الشيعة العلويـة قائمـاً واستمر الخوارج في الثورات ، وان اندمج المرجئة مع الايـام «بالجماعـة» • وسننتظر الى ما بعد عهد الرشيد لنرى همود الثورة الخارجية وانهيـار ممثليها ، ولنرى انكماش الحروب القبلية وتقلصها الى الجزيرة العربيـة وسورية ، اي الى الاماكن العربية التي لا نفوذ للموالي فيها • أما حيث

ظهر شأن الموالي (كالعراق مثلا) وذر قرن الشعوبية والتهجم على العرب، فقد اضطر العرب لأن يكونوا جبهة واحدة •

ولم يظهر للامويين من حزب لان العباسيين نكلوا بهم نكالا شديداً حين ظفروا ؛ ولانهم اهملوا امر الشام وشجعوا الفتن فيها .ولأن الامويين اخيراً استطاعوا ان يقيموا لانفسهم منذ سقط ملكهم في دمشق ، دولة اخرى في الاندلس ؛ أي في ابعد قطر عن مقر العباسيين •

اما الحزب الذي استمر قائماً على حدته الاولى يناضل العباسيين فهو الحزب العلوي المخدوع ، وزعماؤه هم ابناء عم الخلفاء الجدد . اذ ظهر بسرعة ان الحلف العباسي ــ العلوي الذي مكنته روح البغض لعدو مشترك ؛ لم يكن بالحلف الذي يدوم طويلا بعد هلاك العدو • وبعد ان كان النضال هاشمياً ــ أموياً أضحى في الزمن العباسي نضالا بين آل هاشم انفسهم أي بين ابناء العمومة • ولم يكن موقف بني العباس أرحم او اقل قسوة من موقف الامويين مع آل علي • وليست (باخمرى) باقل من كربلاء ولاعمل المنصور بهم بأرحم من عمل عبد الملك ؛ وهذا ما يفسر ما يرويه الاغاني من جواب محمد ذي النفس الزكية لعمه الحسن بن الحسن بن علي حين سأله : لم تبكي على بني أمية وانت تريد ببني العباس ما تريد ؟ قال : «والله ياعم لقد كنا نقمنا على بني امية ما نقمنا ؛ فما بنو العباس الا اقل خوفاً لله منهم • وان الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم • ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم ليست لابي جعفر» • واذا كان الامويون قد خمدوا لانهم اجتزأوا لانفسهم جانباً من الامبراطورية العربية في أقصى الغرب ، فكانوا بذلك أول وأبعد المنشقين ، فان الحزب العلوي استطاع من بعدهم ، وبعد ان فقد الامل بزحزحة العباسيين ان يجتزىء جانباً آخر اقرب من الاندلس الى مقر

الدولة ، وهو شمالي افريقيا فأقام العلويون اولا دولـة الادارسة ثم الدولة الفاطمية التي وصلت في الاتساع الى الشام وكادت ذات يوم ، في فتنة البساسيري ، ان تحل محل العباسيين في بغداد •

٥ ـ والعهد العباسي يعد تكملة للعهد الاموي في الحياةالاجتماعية والفكرية : فقد كان العهد الاموي عهد انتقال ظهرت فيـه حضـارة العرب البدوية بجانب حضارات الامم المغلوبة : فالتقت في بلاط الخلفاء وفي طبقات الشعب على السواء عادات العرب البدوية مـع العـادات الاجنبية ، وهكذا استمر وجود الاسواق ـ مثلا كالمربد ـ والتراشق بالشعر الخ ••• في نفس الوقت الذي اخذ فيـه العرب بعض ضروب الغناء والموسيقى عن الفرس • واقتبس البلاط الاموي في مطلع عهده بعض التقاليد البيزنطية كاستعمال الخصيان ومجالس الشراب باكاليل الزهور والريحان ، كالروم ، ولبس الثياب الحريرية ، والملابس الرسمية (الطراز) كما اقتبس في عهده الاول والاخير بعض نظم البلاط الساساني كهدايا النوروز والمهرجان وجلوس الخلفاء خلف ستارة في مجلس الغناء، وشرب الهفتجة (عادة فارسية لشرب الشراب مدة سبعة اسابيع في وقت معين من السنة) • وكذلك كانت القلنسوة الفارسية التي عمت الشرق في العصر العباسي معروفة ويلبسها الناس ، هي والثياب الفارسية ، في العهد الاموي •

وبالاضافة الى هذا فان التيارات الاجتماعية كالشعوبية والزندقة الخ ••• انما ظهرت بوادرها منذ العهد الاموي ، وان برزت واضحة في العهد العباسي الاول •

أما في الحياة الفكرية فليس هناك من يشك في الصلة الواشجة بين

العهدين : فتحت الحكم الاموي ، ومنذ زمن معاوية ، في بعض النواحي، بدأت حركة التأليف : اذ بدأ جمع الشعر الجاهلي وظهرت بوادر حركة تدوين التاريخ ونشأت الدراسات الفقهية .

وترجمت بعض الكتب زمن الامويين . واذا كانت بعض المصادر تذكر الترجمة في عهد معاوية ، فمن الثابت ان خالد بن يزيد كان أول من أمر بترجمة بعض الكتب له عن اليونانية والقبطية . وكتب ذلك الامير بعض الرسائل في الكيمياء . وفي عهد عمر بن عبد العزيز ترجم ماسرجويه بعض الكتب السريانية ، وانتقل مركز الدراسات اليونانية من الاسكندرية الى حران وانطاكية ، فسهل ذلك انتشارها بين المسلمين . وترجم سالم ابن جبلة كاتب هشام ، بعض كتب ارسطو . كما ترجم ابنه جبلة عدة كتب من الفارسية الى العربية ، منها كتاب في تاريخ الفرس منذ بدء ملكهم الى انتهائه ، ترجمه بأمر الخليفة هشام سنة ١١٣هـ وكانت نسخته مصورة ملونة بالأصباغ .

على ان حركة الترجمة هذه التي كانت فردية ومبعثرة في العصر الاموي تنظمت وصارت حكومية رسمية في العصر العباسي . ومبعث ذلك طبيعة التطور واستبحار العمران وما يقضيه .

اما عن التيارات الفكرية فقد بين كريمر[1] ان أهم مذهب فكري في العهد العباسي وهو الاعتزال (او القدرية) قد ظهر ونما ، كمذهب الارجاء ، في دمشق ، اول الأمر . ومسائله الأولى انما ظهرت في العهد الاموي ، وتأثرت لحد ما بأفكار وتعاليم رجال الدين البيزنطيين والكنيسة

---

(١) فون كريمر الحضارة الاسلامية ص ٤٥

الشرقية الاغريقية كما تبدو في كتابات مدرسة دمشق • يقول كريمر :
«••• ونحن نجد في كتابات يوحنا الدمشقي نظرية المعتزلة التي تقول بان الله يجازي الناس ويعاقبهم طبقاً لاعمالهم فقط» • وهي القاعدة الاساسية لفكرة المعتزلة عن الله (فكرة العدل) • ويضيف خدابخش :
«ان معبدا الجهني (٨٠هـ) هو اول من علم في دمشق نظرية حريةالارادة (وكان يقول بها يوحنا الدمشقي) • فأمر الخليفة بقتله ــ كما يذكر الذهبي ــ أو قتله الحجاج • وعلم هذه النظريةغيلان بن يونس(١١٠هـ) فقتله هشام • وكان الخليفة يزيد الثاني قدرياً وقيل ذلك عن مروان الثاني • كما ان واصل بن عطاء الذي ينسب الناس اليه الاعتزال فيالعادة هو أموي العصر أيضاً (٨٠ ــ ١٣١ هـ) •

٦ ــ ويمكن ان نجد بعض المقارنات الاخرى التي تبرز ميزات العصور العباسية :

آ ــ نقل العباسيون العاصمة من الشام الى العراق لتكون على طريق التجارة العالمية بين خليج البصرة والأراضي البيزنطية ليكونواهم اقرب الى انصارهم في خراسان وغير بعيد عن الشام والحجاز ومصر • وتبديل العاصمة بتبدل الاسرة الحاكمة والدول ظاهرة عامة ، لاحظها العلماء في تاريخ الشرق القديم كله ، وفي التاريخ الاسلامي بوجهخاص وقد كان لعمل العباسيين هذا آثاره السياسية والاجتماعية والفكرية ايضاً •

ب ــ لأول مرة ، في العهد العباسي تصبح حدود الخلافة غير حدود الاسلام • اذ لم يصل سلطان العباسيين ابداً الى الاندلس • ووجدت منذ خلافتهم الاولى دولتان اسلاميتان في دار الاسلام •

جـ ـ وأهمل العباسيون عامة الولايات الغربية من الامبراطورية وحصروا همهم في الجزء الشرقي ، فساعد ذلك على انفصال تلك الولايات المبكر عن الدولة ، كما ساعد على ظهور الدول العلوية فيها •

د ـ أدى بعد العراق عن البحر وقلة خطر البيزنطيين البحري على مركز الدولة الى اهمال العباسيين للاسطول • فتقلص النفوذ البحري المسلم في بحر الروم إلا في بعض العهود (الأغالبة والفواطم) •

هـ ـ أثر موقع العراق على الطرق التجارية الهامة في الحضارة العباسية فشجع الخلفاء التجارة وانتبهوا في اختيار موقع بغداد للناحية التجارية حتى أضحى المجتمع العباسي تجارياً زراعياً بعد ان كان زراعياً حربياً في العصر الاموي وحتى أضحى «التاجر» على حد قول متز رمز الحضارة العباسية •

## ٢ ـ أقسام التاريخ العباسي وميزات العصر الاول :

اعتاد الكتاب ان يقسموا تاريخ العباسيين الى فترات اربع :

١ ـ العصر الاول أو العصر الذهبي ( ١٣٢ ـ ٢٣٢هـ ) (٧٥٠ ـ ٨٤٧ م) •

٢ ـ العصر الثاني أو العصر التركي (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ) (٨٤٧ ـ ٩٤٦ م) •

٣ ـ العصر الثالث أو العصر البويهي (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) (٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م) •

٤ ـ العصر الرابع أو العصر السلجوقي (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ) (١٠٥٥ ـ ١٢٥٨ م) •

والخطوط العامة لهذا التقسيم صحيحة غير ان التاريخ العباسي، بعد العصر الذهبي ، لم يكن أكثر من سلسلة اسماء الخلفاء • وقد سقط السلطان الحقيقي للعباسيين منذ مطلع العصر البويهي (خلافة المستكفي بالله ٣٣٣ هـ ــ ٩٤٦ م) • ولا شك أن العصر الوحيد الذي يمكن أن يسمى بحق العصر العباسي ويمكن أن تدعى فيه الدولة بالعباسية ، هو العصر الاول الذي لم يدم أكثرا كثيرا مما دامت دولة الامويين •

وقد دام العصر العباسي الاول قرناً كاملا (ما بين معركة الزاب سنة ١٣٢ وخلافة المتوكل على الله سنة ٢٣٢) وتوالى على عرش الخلافة في هذا العهد تسعة خلفاء هم في الجملة اقوى وألمع من عرف التاريخ العباسي على ذلك العرش :

١ ــ السفاح (١٣٢ ــ ١٣٦ هـ)
٢ ــ المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨ هـ)
٣ ــ المهدي (١٥٨ ــ ١٦٩ هـ)
٤ ــ الهادي (١٦٩ ــ ١٧٠ هـ)
٥ ــ الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣ هـ)
٦ ــ الامين (١٩٣ ــ ١٩٨ هـ)
٧ ــ المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨ هـ)
٨ ــ المعتصم (٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ)
٩ ــ الواثق (٢٢٧ ــ ٢٣٢ هـ)
١٠ ــ المتوكل (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ)

ولسنا هنا بحاجة الى تبيان خطأ دراسة التاريخ الاسلامي ، على الطريقة القديمة . حسب تعاقب الخلفاء في الزمن ، وذكر أعمالهم والثورات عليهم ••• فالأصح دراسة الخلفاء أولا في ميزاتهم الشخصية، ثم دراسة التيارات السياسية والدينية في العصر ، كوحدة متشابكة ، ثم دراسة السياسة الخارجية وتطوراتها في عهودهم • وخطأ هذه الطريقة أقل وينحصر في انه يوجد شيئاً من الانفصال في وحدة ذلك التاريخ ،

وفي انه قد لايبرز العامل الشخصي للخلفاء في توجيهه • وهـذا العامل الشخصي يلعب في التاريخ الحاضر دوراً محدوداً ولكنه كان ركناً من أركان التاريخ القديم ويظهر أثره الواضح في الدولة الاسلامية بنتيجة ظروفها وطراز تنظيمها • ولهذا آثرنا الجمع بين الطريقتين بتقسيم العصر العباسي الاول الى عهود ثلاثة رئيسية :

١ ــ عهد التأسيس (وابرز خلفائه المنصور ونسمي العهد باسمه) ويمتد ستاً وعشرين سنة (١٣٢ ــ ١٥٨ هـ) •

٢ ــ عهد الاستقرار (وأبرز خلفائه الرشيد والمأمون) ويستدستين سنة (١٥٨ ــ ٢١٨ هـ) •

٣ ــ عهد القلق (وأبرز خلفائه المعتصم) وهو قصير ، انتهى بظهور الاتراك على المسرح السياسي سنة ٢٣٢ هـ • ونرجح أن نضم إليه عهد المتوكل الذي قتله الاتراك سنة ٢٤٧ هـ • وسيطروا بعده تماماً على عرش الخلافـة •

على ان هذا التقسيم يجب ألا يشغلنا عن الصفة الرئيسـية التي يتميز بها العصر العباسي الاول ، والتي رافقته من مطلعه الى منتهاه ، وهي أنه كان عصر صراع بين قوى مختلفة متباينة يتكرر نزالها في كل عهـد •

أولا ــ صراع بين عنصري الدولـة في المشرق : العرب والموالي (الفرس الايرانيين) ، واذا كانت الدولة العباسية قد اهملت المغرب ومن فيه حتى استقل ، واتجهت للمشرق ، فان الذين كانـوا يمثلون الموالي

المشارقة في الصراع هم الايرانيون[1]:فالارستقراطية الفارسية(الايرانية) صارعت الخلافة ، في منصب الوزارة ، فصرعت مرة بعد مرة • وعامة الفرس (الايرانيين) قاموا ضد العرب بالحركات الشعوبية وبالثورات الدينية المختلفة الخ ••• وانتهى الصراع بتحول الخلفاء الى عنصر جديد هو الترك منذ عهد المعتصم •

ثانياً ــ صراع بين العرب انفسهم على الحكم : بدأ الصراع بين آل محمد ، اول الأمر وبين الامويين ، وما كاد يغلب الامويون حتى انتقل الصراع الى آل محمد انفسهم بين علويين وعباسيين بل نجم أيضاً بين العباسيين انفسهم بين أولاد محمد بن علي واخوته واولاد اخوته •••

ثالثاً ــ صراع بين الطبقة الحاكمة التي تمركزت في العراق وبغداد وتمتعت بالترف . وبين الطبقات المحكومة التي كانت في الغالب فقيرة مظلومة • واذا كان الخوارج في آخر العصر الاموي قد تحولوا الى الدفاع عن المظلومين بجانب رفضهم لمبدأ الارث في الحكم ، فانهم هم الذين اضطلعوا طول العصر العباسي بقيادة المظلومين واثارتهم في خراسان نفسها وفي الجزيرة والبحرين وفي شمالي افريقيا • وقد استطاعوا ان يمهدوا في هذه البلاد الاخيرة للانفصال عن الدولة العباسية •

رابعاً ــ صراع بين العقيدة الاسلامية والعقائد الاخرى ، ولاسيما العقائد الفارسية القديمة • وقد ظهرت بتأثير ذلك الزندقة • وخرج الاسلام من الصراع ، بفلسفة المعتزلة وبعدد من الافكار الدخيلة المارقة التي تجلت في الراوندية والخرمية والبابكية الخ •••

---

(١) يستعمل العرب في ذلك العصر كلمة فرس وفارس بمعنى ايران وايرانيين . ومن المعلوم ان فارس تعني المنطقة الجنوبية الغربية من هضبة ايران المطلة على الخليج العربي الذي دعاه اليونانيون لهذا السبب بالفارسي .

خامساً ــ صراع بين الحضارات المختلفة ادى الى تمازجها ، ذلك ان العادة في مثل هذه العصــور المتلئة بالفعاليــة والخصب ان ينعكس ذلك في حياتها الفكرية أيضاً ، ولذلك برز في هذا العصر دور الترجمة . وظهرت الاسس الكبرى للحضارة الاسلامية .

وعلى ضوء هذه الصلات العميقة بين أحداث العصر العباسي الاول ومع التذكر الدائم لارتباط آخرها بأولها ودلالة وجوهها المختلفة عــلى حقيقة واحدة خلفها ، يمكن أن ندرس هذا العصر الاول في فترات ثلاثة : فترة المنصور ، وفترة الرشيد والمأمون ، وفترة المعتصم .

## ١ ــ فترة المنصور وتأسيس الدولة ( ١٣٢ ــ ١٥٨ )

### الخلفــاء في عهد المنصــور :

هما اثنان فقط :

١ ــ **أبو العباس** عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب بن هاشم . ربيع الاول ١٣٢ ــ ذو الحجــة ١٣٦ هـ ٧٥٠ ــ ٧٥٤ .

**حياته** : ولد عبد الله عام ١٠٠ او ١٠٣ ( وهو الارجح ) بمعنى انه ولد مع الدعوة العباسية . وأمه ريطة بنت عبيد الله الحارثية . وكان فيما ذكر جعد الشعر ، طويلاً أقنى الانف . حسن الوجه واللحية . قضى عبد الله شبابه في الحميمة بالشام . ولاشك أنه أشرف على تطورات الدعوة العباسية منذ عهد خداش ، على الاقل ، وأسهم في العمل مع أبيه محمد ثم مع اخيه ابراهيم الامام في السنوات الاخيرة الهامة . ولما كان عربي الام فان ابراهيم قد اوصى له قبيل مقتله برئاسة الدعوة . دون اخيهما الآخر ابي جعفر ابن سلامة البربرية . مع ان هذا كان أسن منه .

**البيعة** : ولما وصل الكوفة هارباً بأهله ووصلت الجيوش العباسية اليها . قبل القواد والدعاة به للسبب نفسه وبايعوه بالخلافة البيعة الخاصة وخرج ابو العباس في اليوم التالي ، وهو متوعك ، الى المسجد في ثلة من الجند ، عدتها الفا فارس ( اذ لم يكن — على ماروى ابن قتيبة — واثقاً من تأييد الكوفيين له ) فتلقى من الناس البيعة العامة .

وتضطرب المصادر في تاريخ البيعة هذه . والمرجح انها كانت في ربيع الاول سنة ١٣٢ ( اواسطه او اواخره ) ( تشرين الثاني — كانون الاول ٧٤٩م ) ويقولون بعد ، ان ابا العباس صعد المنبر يوم ذاك وجلس عند درجة دونه . عمه داوود بن علي . فخطب واقفاً على السنة ، وكان الامويون يخطبون جلوساً . فقال :[١] « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام ... واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا ... القوام به والذابين عنه ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ... ووضعنا من الاسلام واهله بالموضع الرفيع اذ قال : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهركم تطهيرا » « قل لاأسألكم عليه من اجر الا المودة في القربى » . فاعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ... تمم الله ذلك منة ومنحة لمحمد (ص) فلما قبضه الله اليه قام بذلك الامر من بعده اصحابه ... ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا واستأثروا بها وظلموا اهلها ، فأملى الله لهم حينا .. فلما آسفوه ، انتقم منهم بايدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا امتنا . وتولى نصرنا ... ليمن بنا على الذين استضعفوا في الارض .. »

---

(١) انظر نص الخطبة كلها في الطبري (الجزء السابع ص ٤٢٥–٤٢٦) القسم ٢٩/٣ — ٣٠ من الطبعة الأوربية .

«يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا . انتم الذين لم يتغيروا ولم يثنكم عن ذلك تحامل اهل الجور عليكم ، حتى ادركتم زماننا واتاكم الله بدولتنا فانتم اسعد الناس بنا واكرمهم علينا وقد زدت في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المبير ...»

ولم يستطع ان يتابع الخطابة لوعكته فأتمها عمه داوود فقال[1]

«... الحمد لله شكراً شكراً ، الذي اهلك عدونا وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد (ص) . ايها الناس ... انما اخرجتنا الانفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا وما كرثنا من اموركم . ولقد كانت اموركم ترمضنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلاهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم . لكم ذمة الله تعالى وذمة رسول الله وذمة العباس ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله» .

«يا اهل الكوفة انا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى اتاح الله لنا شيعتنا من اهل خراسان ... فأحيا بهم حقنا وأظهر بهم دولتنا ... وادالكم على اهل الشام ونقل اليكم السلطان وعز الاسلام.. واعلموا ان هذا الامر (أي الخلافة) فينا وليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم ...»

هكذا وضع ابو العباس وعمه في هاتين الخطبتين ، اللتين يصح اعتبارهما خطبة العرش ، الخطوط الكبرى للقضية التي يعملان لها وللسياسة التي يعد العباسيون بانتهاجها :

---

(١) يراجع نص الخطبة كلها في الطبري (الجزء السابع) ص٤٢٦-٤٢٨ (قسم ٣١/٣ ٣٤ من الطبعة الاوربية) .

١ ــ اكدا شرعية الثورة العباسية فرددا كرات كلمة «حقنــا» وبيّنا مكان العباسيين من الاسلام •

٢ ــ حملا على الظلم الاموي وبيّنا ان الثورة انما كانت على هذا الظلم وانتقاماً للناس •

٣ ــ وعدا بالحكم وفق كتاب الله وسنة نبيه •

٤ ــ تملقا اهل الكوفة بالمديح وبالوعـــد بان تكـــون الكوفة حاضرة العباسيين لكسب عطفهم القلبي[1] واستغل (داوود) ضعينةمحلية هي نقمة العراق على الشام ليثبت ذلك العطف • كما تملق الخراسانيين ولا شك انهم كانوا عدداً كثيراً في المسجد يومذاك •

على ان طيوفاً قوية من الريبة تطيف بهاتين الخطبتين : فالقارىء لهما يحسب ان الامر قد تم نهائياً للعباسيين ، وان السفاح قد أخذ بيعة جميع الاقطار الاسلامية • فالخطأ بان يتحدثان عن «دولة بني العباس» وعن ان « الانتقام » قد تم من أهل الشام وانمروان[2] قد هزم وان الخلافة ستبقى في بني العباس حتى يسلموها لعيسى بن مريم •

والواقع كما سنرى بعد قليل ان ابا العباس لم يكن اذ ذاك اكثر من ثائر . وان بويع بالخلافة من جنده • ولم يكن له الامر من كل العالم الاسلامي فيما سوى الكوفة والطريق المؤدية الى الري وهمذان الى

---

(١) قال داوود بن علي من هذه الخطبة : ... فان لكل أهل بيت مصرا وانكم مصرنا .

(٢) يقول داوود في الخطبة نفسها : «...وأدالنا الله من مروان ... ظن عدو الله ان لن نقدر عليه فنادى حزبه ورمى بمكائده فوجـد أمامه وعن يمينه وشماله ... ما أمات باطله وجعل دائرة السوء تدور به ورد إلينا حقنا وارثنا .. قد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفـه الشيطان . الشاب المكتهل (يقصد ابا العباس ) الخ...»

خراسان • وكان عليه ان يعمل كثيراً قبل ان يدعى ان الامر تم له •

وثمة أمر آخر هو انه لم يكن من مصلحة العباسيين في تلك اللحظات الخطيرة القلقة من الثورة أن يدعوا بمثل هذه الصراحة والقوة ان الحق «حقهم» وانه لن يخرج منهم وانهم هم وحدهم آل البيت المخصوصون برحم رسول الله ، بينما معظم اشياعهم واهل الكوفة انفسهم من العلويين •

والارجح ان هاتين الخطبتين موضوعتان وضعا كاملا او محرفتان تحريفاً كثيراً ، أو انهما بعض الخطب التي القيت بعد مقتل مروان بن محمد وانتهاء الامر الاموي •

**لقب السفاح :**

انهمك ابو العباس بعد البيعة في جمع الامر من الامويين في يده واقتضى ذلك ان تبدأ مجزرة وصلت احياناً حد الوحشية بين العباسيين الظافرين والبيت الحاكم الاموي • وقد رأينا كيف قتل مروان الخليفة وابن هبيرة صاحب العراق وعشرات بعد عشرات من الامويين في كل مكان • وكيف وصل القتل حتى بلاط الخليفة الجديد اذ تناول السيف عنق ابي سلمة الخلال وزير آل محمد نفسه بتدبير من ابي العباس نفسه ••• وقد استفاض لدى المؤرخين انه لهذا السبب لقب بالسفاح بمعنى السفاك • ولكن منحه هذا اللقب يحتاج لبعض المناقشة •

فالذي يظهر ان لقب السفاح لحق متأخراً بابي العباس منذ القرن الرابع الهجري ، اذ لا نجد أثراً لنسبة هذا اللقب اليه في المصادر الاولى كالطبري والجهشياري وابن قتيبة واليعقوبي ، واول مصدر يذكره هو المسعودي ونعرف انه يعتمد احياناً على القصص ولعل الامر

التبس على بعض المؤرخين فخلطوا بين ابي العباس (عبد الله بن محمد) وبين عمه (عبد الله بن علي) الذي كان يدعى بالسفاح للمجازر التي قام بها في الشام حتى اضطر الخليفة للاخذ على يده . يقول ابن قتيبة : «ذكروا أن ابا العباس ولى عمه عبد الله بن علي ـ الذي يقال له السفاح ـ الشام[1]» . ويعدد اليعقوبي اولاد علي بن عبد الله بن العباس فيذكر بينهم «عبد الله الاصغر وهو السفاح[2]» وربما انسحب هذا اللقب . عند المسعودي . على ابي العباس نفسه وأخذه عنه المتأخرون . اذ عز عليهم أن يكون رأس السلسلة العباسية دون لقب كغيره . وأعانهم في هذا انهم وجدوا في خطبته الاولى قوله : «انا السفاح المبيح» ففسروها على انه السفاك . وبعض المحدثين مازال يفسرها على انه كان يتهدد أهل الكوفة الذين لا يبقون على ولاء او انه توعد اعداءه ... والاصح ان تفهم بمعنى الرجل الكثير العطايا والمنح فالجملة التي تسبقها مباشرة تفسرها كذلك . يقول : «وقد زدت في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح . وتسمية الكريم بالسفاح امر قديم في العرب . يقول نيكلسون : «مما يهمنا ملاحظته ان هذا الاسم قد اطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية ويقال ان سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في يوم الكلاب الاول سمي السفاح لانه افرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة» . وقد ذكر السيوطي ان النبي (ص) قال : «يخرج

---

(١) يكرر ابن قتيبة نسبة لقب السفاح لعبد الله بن علي ست مرات .

(٢) لما قام به عبد الله بن علي من السفك بالشام سمي السفاح وفيه يقول الشاعر :

| | |
|---|---|
| وكانت أمية في ملكها | تجول وتظهر طغيانها |
| فلما رأى الله ان قد طغت | ولم تطق الارض عدوانها |
| رماها بسفاح آل الرسول | فجز بكفيه اذقانها |

رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن ، يقال له السفاح فيكون اعطاؤها المال حثياً» وقد لا يكون الحديث صحيحاً ولكنه ـ على كل حال ـ يدلنا على معنى الكلمة في الزمن الذي وضع الحديث فيه ، ويدلنا على نظرة الناس الى ابي العباس السفاح اذ ذاك • هذا الى ان اليعقوبي يذكر ان التقتيل لم يعرف عن ابي السفاح الا قليلا • ويقول المقدسي «كان ابو العباس يكره الدماء» كما ذكر ابن قتيبة انه غضب كثيراً حين قتل عمه عبد الله : العالم الزاهد عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك وأمره الا يقتل أحدا من بني أمية حتى يعلم به امير المؤمنين • ولا شك ان أبا العباس قتل الكثيرين • وبعضهم قتل انتقاماً وتشفياً ، ولكن الضرورة السياسية كانت تقضي ايضاً بذلك • ومثل هذه المقاتل تجري عادة عند كل توطيد دولة • وتكاد تتفق المصادر اخيراً على وصفه بالكرم وصلة ذوي الارحام والسماحة بالاموال بجانب وصفها له بالحلم وحسن الخلق والعقل والحياء وليس يتفق هذا لسفاح •

ولعله من الهام ان نضيف هنا أن المسعودي يعطي أبا العباس لقباً آخر غير السفاح هو المهدي[1] وقد أيدت الكشوف الأثرية هذا اللقب للخليفة العباسي الأول • ووجد الأثريون بمسجد صنعاء نقشاً ورد فيه اسم أبي العباس مقترناً بلقب المهدي • فكأننا أعطى هذا اللقب يومذاك بشكل شعبي أو في اليمن وحدها لإضفاء الصفة التنبؤية عليه باعتباره المهدي الذي ينتظره الناس • وتضارب اللقبين ، على أي حال ، مع عدم ذكر لقب مع اسم أبي العباس لدى المؤرخين المعاصرين له وإلى ما بعده

(١) المسعودي ـ التنبيه والاشراف ص٢٩٢ حيث يقول : « وقد كان لقب أولا بالمهدي » .

بقرنين دليل على أنه استمر على سنة الأمويين ولم يتخذ لنفسه لقباً .

**وفاته :**

بقي السفاح على عرش الخلافة اربع سنين وتسعة أشهر وتفشى الجدري في الأنبار أواخر سنة ١٣٦ فاصيب به الخليفة نفسه ومات به (١٢ ذي الحجة ١٣٦) وهو ابن ثلاث وثلاثين او ست وثلاثين سنة بعدان عهد بالامر الى اخيه ابي جعفر المنصور ومن بعده الى ابن اخيه عيسى ابن موسى .

**٢ ـ المنصور :**

ابو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (١٣٦ـ ١٥٨ هـ) ـ (٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) .

**نشأته :**

ولد كأخيه أبي العباس مع ميلاد الدعوة العباسية سنة ٩٥ أو سنة ١٠١ من أم ولد بربرية تدعى سلامة . ولكنه تربى وسط كبار الرجال من جلة بني هاشم وصحب ـ كما يقول المسعودي ـ أباه وجده فنشأ فصيحا ملما بسير الملوك والأمراء . وقد كان كثير الاسفار والتنقل فخبر الحياة والناس فلما استخلف أخوه لازمه . فكان يرى بقده الاسمر الطويل النحيف قائماً ابدا بجانبه . يحارب اعداءه ويصرف الامر معه وينوب عنه في الحج وقد كان عائدا من المناسك سنة ١٣٦ حين وصله النبأ بوفاة اخيه وانتقال الخلافة اليه .

**ميزاته :**

غضت شهرة المنصور السياسية على صفتة العلمية التي كان يعمل عليها قبل الخلافة وطلب من أجلها علم الكلام وخالط العلماء فقد كان المنصور . في شبابه الأول ، أواخر الدولة الأموية وفي أيام هشام بن عبد

الملك يجول في البلاد ويحضر المناظرات والحلقات الفكرية والدينية في مساجد المدينة والبصرة والكوفة والأهواز والموصل . وتذكر إحدى الروايات أنه عاد مرة من البصرة الى دار والده محمد بن علي في الحميمة بالشام فأخذ يتكلم في القدر ومسائل الكلام فمنعه أبوه من ذلك . ومن المعروف أنه كان على صلة وثيقة حميمة ، قبل الخلافة وبعدها مع عمرو ابن عبيد ، الزعيم المعتزلي في البصرة وكان يحضر حلقاته فيها . كما كان معروفاً علم المنصور بالحديث والأخبار والمغازي . ورغبة فيها هي التي جعلته يطلب إلى محمد بن اسحق وضع السيرة النبوية التي وصفها لتثقيف ابنه المهدي ومن مالك بن أنس وضع الموطأ .

ولدينا خبر ، يأتي في سيرة أبي أيوب المورياني الوزير ، يذكر أن أبا جعفر وفد مع عدد من بني هاشم على عبد الله بن معاوية والي مروان ابن محمد على إصبهان والأهواز وأن عبد الله بن معاوية والي مروان هرب أبو جعفر ببعض المال وكان والي البصرة قد نصب رصداً لهؤلاء الهاربين فوقع في يده وضربه بالسياط اثنين واربعين سوطاً حتى أشفق عليه أبو أيوب المورياني ، كاتب البصرة فشفع له ورمى نفسه عليه يفتديه من السياط حتى كفت عنه . فما زال أبو جعفر يذكر له هذه اليد[1] حتى كانت خلافته فاصطنعه وقربه وجعله وزيره بسبب هذه السابقة . وثمة خبر آخر يقول إن رجال الرصد في بعض البلاد قبضوا عليه وألزموه درهمين وألحوا في دفعهما فلم يستطع ذلك إلا بالجهد فهذا سبب بخله[2] .

---

(١) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص٦٦

(٢) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء (المطبعةالسلفية) ص٢٦٣ نقلا عن ابن عساكر .

أما في الصفات الخلقية فقد عرف المنصور بالحذر واليقظة والدهاء. ويذكرون انه أوصى ان يحفر له مائة قبر وان يدفن في غيرها . وقد وصفه ابن هبيرة بقوله : «ما رأيت رجلا في حرب أو سلم أمكر ولا أشد تيقظاً من المنصور . لقد حاصرني تسعة شهور ومعي فرسان العرب فجهدنا كل الجهد حتى ننال من عسكره شيئاً فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة تيقظه» . واشتهر بالجد يقول الطبري : «لم ير في دار المنصور لهو قط» كما تميز بالبخل والميل للاقتصاد حتى كان يدعى «الدوانيقي» و «ابا الدوانيق» وان كان يعطي الجزيل احياناً[١] . وقد عرف عنه الغدر ويذكر له المؤرخون غدرات ثلاثاً مشهورة (بابن هبيرة. وبعمه عبد الله بن علي وبأبي مسلم) . وكان للمنصور نظام يومي في حياته لا يكاد يحيد عنه : كان ينظر صدر النهار في أمور الدولة فاذا صلى العصر جلس مع أهل بيته . فاذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور . وشاور وزيره ومن حضر من رجال دولته فيما أراد من ذلك . فاذا مضى ثلث الليل انصرف عن سماره وقام الى فراشه فنام الثلث الثاني ثم يقوم من فراشه فيتوضأ ويجلس في محرابه حتى مطلع الفجر فيخرج للصلاة بالناس ثم يعود الى ايوانه لبدء العمل.. وكل هذه الصفات كانت تجعل من المنصور نموذجاً من أبرز النماذج لرجال الدول في الاسلام . عرف له هذه المزايا أحفاده فقلدوه كالرشيد والمأمون وعرفها المؤرخون فأطنبوا في ذكرها وترداد القصص حوله وحولها . وربما لخصها قول المسعودي إنه كان : «محنك السن حازم الرأي قد عركته الدهور ... لا يدخله فتور عند حادثة ... يسوس

(١) أعطى أعمامه في يوم واحد عشرة الاف درهم . وأكرم أهل الحجاز في احدى حجاته حتى كانوا يسمون عامه عام الخصب .

سياسة الملوك ويثب وثوب الاسد العادي ، لا يبالي ان يحرس ملكه بهلاك غيره ...»[1]

وهذه الشدة في السياسة والقسوة في البطش هما في العادة من ميزات مؤسسي الدول . ولم يكن أبو جعفر يقوم بذلك عن طبع دموي أو نشوة بالقوة ولكن عن تخطيط سياسي واضح في ذهنه . يروي السيوطي أن عبد الصمد بن علي قال للمنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو قال : لأن بني مروان لم تبل رممهم . وآل ابي طالب لم تغمد سيوفهم . ونحن بين قوم قد رأونا الأمس سوقة واليوم خلفاء . فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة[2] ...

ولقب المنصور الذي اتخذه لنفسه يتفق اتفاقاً كاملا مع النتائج التي توصل إليها بسياسته . أمضى أولا تسع سنوات من خلافته لا يعرف خلالها إلا بكنيته : أبي جعفر . فلما انتصر على محمد ذي النفس الزكية (الذي تلقب بالمهدي) اختار ابو جعفر لقب : المنصور لأسباب دعائية واضحة هي أنه هو «المنصور» الذي تتحدث عنه الملاحم اليمانية . وهو المنقذ الذي اختاره الله وأن دعوى ذي النفس الزكية بأنه المهدي دعوى باطلة بدليل أن الله هزمه . ولقد أعطى هذا اللقب الآخر عن عمد سياسي لابنه محمد المهدي حين اتخذ لنفسه لقبه الخاص فصار اتخاذ الألقاب منذ ذاك سنة عباسية دائمة .

**وفاته** : امتدت خلافة المنصور اثنتين وعشرين سنة وكان المنصور

---

(١) المسعودي ــ التنبيه والاشراف ص ٢٩٥ــ٢٩٦

(٢) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص٢٦٧

مسعوداً يتسقط الاضباء من كل مكان لشفاء علته ويطلب ترجمة كتبهم • ويظهر انه كان لا يتبع نصائحهم فمات بسعدته . ويقول الطبري في رواية اخرى : «كان بدء وجعه الذي مات فيه حر اصابه من ركوب في الهواجر وكان رجلا محروراً على سنه ثم هاض بطنه ••» وكان في الطريق الى مكة حين وافاه الاجل فلم يبلغها وتوفي لست خلون من ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ •



# الفصل الرّابع

## توطيد الدولة ـ ١

### الثورات المناوئة للعباسيين

اقتضى توطيد الدولة العباسية حوالي خمس عشرة سنة من الجهد اضطلع بأهم أعبائها أبو جعفر المنصور حتى في خلافة أخيه • وقد قضى خلالها على كافة الثورات والحركات الطامعة بالعرش العباسي وسحق كافة الثورات التي تهز الأمن الداخلي • قضى على الأمويين ، وعلى الثائرين من آل محمد ، من عباسيين وعلويين ، وعلى الخوارج كما قضى على ثورات المتمردين من الدعاة العباسيين ومن أصحاب المذاهب الدينية المنحرفة •

ويبدو أن توطيد الحكم العباسي قد اقتضى الكثير من الدماء • ذكر صاحب العيون والحدائق أنه «••• قيل إنه أحصى القتلى الذين قتلهم الدعاة والشيعة بخراسان والعراق والشام وما أمر السفاح بقتله وما تولاه عمه عبد الله بن علي وأهله وأخوه فكانوا ستمائةألف ••»[١] وقد يكون هذا الرقم من قبيل المبالغات ولكنه يدل على أي حال على

---

(١) العيون والحدائق (طبع دي غويه ـ بريل سنة١٨٧١) ص ٢٠١ وقد خصص ابن الاثير فصلا كاملا في تاريخه لمن قتل في عهد أبي العباس (الكامل ج٥ ص١٦١ فما بعدها) كما خصص مثله ابو الفرج الاصبهاني في الاغاني ج٤ ص ٩١ـ٩٤

مبلغ ما دخل في وهم الناس وتقديرهم من كثرة القتلى والمجازر •

ولا شك أن السبب الأساسي في كثرة الدماء هو أن الدولة العباسية واجهت في مطلعها الكثيرِ من المخاطر التي كانت تودي بهاأكثر من مرة • وقدتمثلتهذهالمخاطر في أربعةمشاكل كبرى: المشكلةالأموية• ومشكلة الطامعين من آل محمد : ولها فرعان عباسي وهاشمي•ومشكلة الخوارج • وهدفها جميعاً منازعة صاحب الخلافة على خلافته وقد استطاع المنصور ، بجهوده ويقظته أن يحفظ الدولة الجديدة ويبقيها : عباسية أولا وفي أسرته ثانياً •

### ١ ـ المشكلة الاموية ( ثورات الامويين ) :

شعر الأمويون في الشام متأخرين أنهم فرطوا في خلافتهم تفريط أهل العراق قديماً في علي بن أبي طالب أو ما هو أدهى • وأن الشام حالت اقليماً من الأقاليم الثانوية بعد أن كانت مركز الدنيا ومصب خراجها وأموالها وتجارتها ، ومنزل حكمها بل حالت اقليماً محروماً أيضاً ، مضيقاً عليه في الرزق والحركة • مشبوه الخطى • كما افتقر أهله وخاصة من البيت المالك السابق • يروي التنوخي في ( المستجاد ) « أن هشام بن عبد الملك خلف أحد عشر ابناً • أصاب كلا منهم في الميراث ألف ألف دينار فلم ير واحد منهم قط إلا وهو فقير وقد شوهد أحدهم وهو يوقد في أتون الحمام على ملء بطنه »[١] فعمدوا ، بعد أقل من سنة على قيام العباسيين إلى الثورة « وبيضوا » ( أي لبسوا البياض الشعار الاموي ) سنة ١٣٣/٧٥١ :

---

(١) التنوخي ــ المستجاد من فعلات الأجداد ( طبع محمد كرد علي ــ المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥٠ ) ص ١٨٤

١ ـ بيضوا في البلقاء وحوران والبثينة بزعامة حبيب بن مرة المري وهو من قواد مروان بن محمد وفرسانه وقد وقف لعبد الله بن علي في جنوب الشام فقاتله في مواقع كثيرة خوفاً على نفسه وقومه القيسيين وقد استطاع عبد الله بن علي أن يقنعه بالأمان والصلح[١] لينصرف لحرب الثورة الأخرى •

٢ ـ وثاروا في الشمال بقنسرين بقيادة أبي الورد مجزأة بن الكوثر الكلابي القيسي وهو بدوره من أصحاب وقواد مروان وقد ثار غضباً لأولاد مسلمة بن عبد الملك ـ فيما يقولون ـ وأظهر التبييض وقتل القائد العباسي الذي أصابهم وقتله • وكانت أهل حمص وتدمر وفيها قبائل كلب اليمانية ، فقدم عليه منهم ألوف بقيادة أبي محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذي اتخذ الحمرة شعاراً له فنصب الثائرون أبا محمد هذا خليفة وكان يلقب بالبيطار (لأنه صاحب صيد) وقالوا : هو السفياني[٢] الذي كان يذكر • وقد كان هذا التحالف بين أبي الورد وأبي محمد خطيراً لأنه جمع القيسية واليمنية في حلف واحد في الشام مما يدل على ادراك الطرفين مدى الخطر العباسي على الشام ومدى الخسارة بزوال الخلافة الأموية منه • ومع أن عدة من اجتمع بقيادة أبي الورد كان أربعين ألفا إلا إن عبد الله بن علي استطاع ، مع أخيه عبد الصمد وحميد بن قحطبة الطائي أن يهزم هذه الجماعة في مرج الأحزم[٣]

---

(١) الطبري ٧/٤٤٢-٤٤٣ (٣/٥٢)

(٢) ذكر ابن عساكر ترجمة زياد السفياني (تاريخ دمشق ـ مخطوط الظاهرية ج٦ ورقة ١٨٥ وجه ) •

(٣) لدى ابن العديم انها برج الاجم ويعطي ياقوت تفسير ذلك بأنه موضع قرب الفراديس من نواحي حلب ( راجع ابن العديم زبدة الحلب ١/٥٥ وياقوت معجم البلدان ١/١٣٥) ، ونجد لدى ابن العديم نفسه تفصيل السبب في ثورة أبي الورد •

وثبت أبو الورد في نحو ٥٠٠ من أهل بيته وقومه فقتلوا جميعاً وبينما كان عبد الله بن علي يؤمن قنسرين ويدخلها كان أبو محمد ومن معه من قبائل كلب قد هربوا حتى لحقوا بتدمر ثم بأرض الحجاز وهناك عرف زياد الحارثي عامل المنصور بموضعه فقاتله حتى قتل وأخذ ولدين من أولاده أسرى فأرسلهما الى المنصور مع رأس أبيهما[1] .

٣ ــ وفي دمشق انتقضوا كذلك وبيضوا إذ ماكاد عبد الله بن علي ينسحب شمالا لحرب أبي الورد ويصل حمص حتى بلغه أن دمشق قد ثارت على حاميته التي تركها هناك وهي أربعة آلاف بقيادة ابي غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي وأن زعيم الثورة عثمان بن عبد الأعلى الأزدي هزم أبا غانم وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وانتهب ماكان عبد الله بن علي قد تركه من ثقله ومتاعه مع أولاده في دمشق ، وإن لم يعرض لأهله ومنهم زوجته أم البنين النوفلية وبعض أمهات أولاده ...

على أن هزيمة أبي الورد في الشام فتت في عضد الثورة الدمشقية في انصراف عبد الله بن علي عائداً الى دمشق حتى هرب الثائرون وتفرقوا ، دون حرب . وآمن عبد الله أهل المدينة وجدد أخذ البيعة منهم ...

٤ ــ لكنه ما كاد ينتهي من دمشق حتى سمع بثورة سفياني آخر في حلب . هناك ثار العباس بن محمد حفيد معاوية[2] عقب هزيمة أبي الورد «ولبس الحمرة وخالف» . وسار إليه في وقت واحد : عبد الله ابن علي من دمشق وجيش أرسله أبو جعفر ــ وكان على ولاية الجزيرة

---

(١) الطبري ج٧ ص ٢ ٤٤ ــ ٤٥٤

(٢) ابن العديم ــ زبدة الحلب ج١ ص ٥٦

وأرمينية واذربيجان يومذاك ــ بقيادة مقاتل بن حكيم العكي من الرقة. وقبل أن يصل عبد الله الى حلب كان العكي قد واقع العباس السفياني وهزمه ودخل حلب عنوة وجمع الغنائم وسار بهـا الى أبي جعفر في حـران ...

وقضى عبد الله بن علي الشتاء في دابق ليسير بعد ذلك إلى ثورة أخرى قام بها اسحاق بن مسلم العقيلي في سمياط والجزيرة .

٥ ــ وفي الجزيرة ما كادوا يسمعون بثورة أبي الورد حتى انتقضوا أيضاً وبيضوا وساروا الى حران يحاصرونها على القائد العباسي موسى ابن كعب . «ولم يكن لهم رئيس يجمعهم» فما كاد يصل إليهم إسحق ابن مسلم العقيلي من أرمينية ( حيث هرب حين بلغه هزيمة مروان )حتى ولوه القيادة بينما كانت قبائل ربيعة قد ثارت بدورها في داروماردين بزعامة رئيس لها كان من الخوارج الحرورية يقال له بريكة .

وأرسل ابو العباس أخاه «أبا جعفر فيمن كان معه من الجنودعلى حصار ابن هبيرة في واسط ، فمضى حتى مر بقرقيسيا على الفرات وأهلها مبيضون وقد غلقوا أبوابها دونه . ثم قدم مدينة الرقة (على الفرات أيضا) وهم على ذلك ... فمضى نحو حران ..» .

ولم يستطع أبو جعفر قتال اسحق ومن معه قبل الانتهاء من جماعة ربيعة وقتل بريكة الحروري ولكن الوقائع التي قادها ضد اسحق وأخيه بكار عند الرها لم تنته إلى شيء حاسم . وكتب أبو العباس الى عمه عبد الله بن علي في الشام وكان قد انتهى من ثوراته فاجتمع مع أبي جعفر دون جدوى لأن اسحق كان قد تحصن في سميساط واجتمع إليه ستون ألف مقاتل من كافة أهل الجزيرة ، وامتد الحصار سبعة أشهر لا ينالون منه شيئاً واضطروا لمفاوضته ومكاتبته على الأمان ووثقوا له فيه وأعطوه

العهود وكان يقول : في عنقي بيعة لمروان فأنا لا أدعهـا حتى أعلم أن صاحبها مات أو قتل • فلما أثبتوا له مصرع مروان قبل الصلح ، ثم كان من آثر أصحاب أبي جعفر[1] •

٦ً ــ وثار أبان بن معاوية[2] بن هشام بن عبد الملك في أربعة آلاف من نخبة جند اسحق • ويبدو أنه استطاع رغم هزيمة أصابته أمام حميد ابن قحطبة أن يدخل سميساط ويتحصن بها فسار إليه عبد الله بن علي حتى فتحها عنوة •

٧ً ــ وثار أيضاً وايضاً أموي آخر هو محمد بن سعيد بن عبد العزيز الأموي واتفق في حركته ضد أبي جعفر ، والي الجزيرة ، مع ثائر آخر من الخوارج هو بكر بن حميد الشيباني • وقتل محمد بن سعيد في المعركة التي جرت مع قوات أبي جعفر •

٨ً ــ وثار كذلك أهل الموصل • ومع أن هذا البلد أغلق أبوابه في وجه مروان بن محمد بعد هزيمته في الزاب وأخذ الكثير من أهلـه أجرهم من المال والاقطاع والحبـاء جزاء موقفهـم المناصر للعباسيين إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور الثورة فيهم بعد قليل سنة١٣٣ بسبب خيبة الأمل كما لم يمنع العباسيين ، حين اخمدوهم ، من أن يفعلوا بهم مالا يفعله «المسلمون» من القتل • فقد تولى الموصل يحيى بن محمد بن علي العباسي وشعر أن في أهلها « ميلا الى بني أمية »[3] وكانوا قد رفضوا قبله والياً عباسياً يدعى محمد بن صول هو مـن موالي خثعم ، فنزل يحيى العباسي الموصل في اثنى عشر ألفاً وأقام شهراً لا يظهـر لأهلها

---

(١) الطبري ٧/٤٤٧

(٢) ابن العديم فريدة الحلب ج١ ص٥٦

(٣) انظر لدى ابي زكريا الأزدي ــ تاريخ الموصل ص ١٤٥ و ١٥٠

شيئاً ينكرونه ثم دعا دعوة فقتل منهم اثنى عشر رجلا من الوجوه • فلما نفر أهل الموصل الى السلاح نادى مناديه : « من دخل الجامع فهو آمن بأمان الله ورسوله» فلما اجتمع الناس هناك أقام على أبواب المسجد من قتلهم • ثم قتل النساء الذين يبكون قتلاهم والأطفال ثلاثة أيام وهلك من القتل الذريع[1] أحد عشر ألفا حتى سميت السنة سنة القتل وحتى كانت ذكراها تبكي الشيوخ فيما بعد فيقولون : «من زعم أن هؤلاء مسلمون ؟» • وقد خربت اسواق المدينة في هذه الملحمة وبقيت مهجورة ثلاث سنين وهاجر الكثير من سكان المدينة إلى أذربيجان •

٩ً ـ واستغل هذه الفرص سكان الجبل في لبنان فثاروا بدورهم ١٣٥/٧٥٢ بقيادة المقدم الياس وأغاروا على قرى البقاع ونهبوها • فأرسل والي دمشق رسلا يسعون بالصلح فلما رفض الثائرون جرت معركة في قرية المرج (بالبقاع) قتل فيها الياس • وحين عاد عسكر الشام عاد أصحابه فدفنوه في مكان هناك قرب الجامع (ولعلها هي بلدة قب الياس اليوم )[2] •

---

(١) انظر في المصدر السابق ذاته تفاصيل المذبحة ص١٤٥ ـ ١٥٤ ويقول اليعقوبي ان عدة من قتل هو ١٨ الفا من صلب العرب غير الموالى والعبيد .

(٢) ينقل كردعلي في خطط الشام ( ج١ ص ٧١٩ ـ ١٨٠ ) هذه الحادثة عن ماسماه بتواريخ الموارنة . وإنما ذكرت في تاريخ الطائفة المارونية لاسطفهان الدويهي الذي طبع سنة ١٨٩٠ وقد نقل يوسف الدبس في تاريخ سورية (ج٥ ص٢٩٢/٢٩٣) وناقش مصدرها الاساسي الذي هو تاريخ القلاعي وبين أنها قد لا تكون من أحداث هذه الفترة ولكن من الاحداث المتأخرة في القرن الثاني عشر أو السابقة في عهد عبد الملك بن مروان كما ورد في تاريخ القلاعي .

لكن الثورة لم تهدأ وأقام الثائرون مقدماً عليهم سمعان ابن أخت المقتول فسارت إليه عساكر الشام وكانت الحرب بينهم في قرية الشوير (أو المروج ؟) فانكسر العسكر الشامي وارتد راجعا بينما دام القتال بعد ذلك سنين عديدة .

١٠ ــ ويبدو أن ثورة الجبل اللبناني وجدت بعد ذلك سنداً قوياً من البيزنطيين كما استمدت اسبابها العميقة من ظلم عمال الخراج لأهل القرى الجبلية . ويذكر ابن عساكر أن من الوقائع التي وقعت زمن رياح ابن عثمان الذي ولي إمرة دمشق لصالح بن علي الهاشمي العباسي «أن الروم دخلوا طرابلس ثم ظهر في لبنان رجل من أهل المنيطرة شاب ممتلىء الجسم وذلك في سنة اثنتين او ثلاث وأربعين ومائة وسمي نفسه الملك ولبس التاج وأظهر الصليب واجتمع عليه أنباط جبل لبنان وغيرهم ...»

«ثم استفحل أمرهم فسبوا قرى البقاع فقتلوا المسلمين وأخذوا ما وجدوا .

وكتب بندار (وهذا هو اسم قائد الثورة)[1] الملك الى أهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم ويأمرهم بقتالهم ...» ويبدو أنه هاجم بعلبك ونهب البقاع ولكنه وقع في كمين خسر فيه الثائرون الكثير من القتلى عند أسفل الجبل وطاردتهم القوى العباسية التي أرسلها صالح بن علي الى الجبال وسقط حصن المنيطرة الذي كان مقر الثورة . «وهرب بندار الى بلاد الروم . فكتب صالح بن علي يأمر بإخراج من بقي من الجبل

---

(١) اذا لم يكن الاسم لاتينياً أو يونانياً وكان صفة أطلقت على هذا الرجل فقد تكشف أنه من التجار المحتكرين للمؤن والبضائع فالبندار فارسية الاصل وتعني التاجر الذي يلزم المعادن ويخزن البضائع للغلاء . وكان في الفرس كذلك من يحمل اسم بندار كاسم علم .

وتفريقهم في بلاد الشام وكفورها يعني قراها[1] ... » « وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم إلى قراهم» .

وقد أشار البلاذري[2] الى هذه الحادثة وقال : إن سببها الشكوى من عامل الخراج في بعلبك كما ذكر أن الامام الأوزاعي (وهو في الأصل من مواليد بعلبك ومن ناشئة البقاع وقد استقر في بيروت ) احتج على التدابير التي اتخذها صالح بن علي ضد أهل القرى وكتب إليه رسالة طويلة يقول فيها : «... وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ... فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى أن لاتزر وازرة وزر أخرى وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى عن رسول الله...»

ومع أن هذه الثورات الشامية ـ الجزرية قد انتهت بسرعةوأحياناً بالأمان إلا إنها كانت في الواقع سبباً في زيادة حقد العباسيين على الشام وفي زيادة النكبة والتمادي في تتبع البقية الباقية من الأمويين وقتلهم بكل مكان كما كان بالمقابل سبباً في زيادة بغض أهل الشام للعباسيين. ذكر ابن عساكر أن المنصور قال مرة في مجلسه وهو والي الجزيرة : «يا أهل الشام . احمدو الله الذي رفع عنكم الطاعون في سلطاننا .فأجابه جعونة بن الحارث بن قرة من قبائل قيس : «الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون»[3] فقتله المنصور ...

---

(١) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج٥ ص٣٤١ ( في ترجمة رياح بن عثمان) .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ( طبعةالمنجد) ج١ ص ١٩٢ .

(٣) ابن عساكر ـ ج٣ ص ٣٩٢ ( في ترجمة جعونة بن الحارث ) .

وقد عرف ذلك عن أهل الشام لذلك العهد وسجله ابن المقنع في رسالة الصحابة إذ يقول : «••• أما أهل الشام فإنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة وليس يواخذهم امير المؤمنين بالعداوة ولايطمع منهم في الاستجماع على المودة •••» •

الواقع أن بعض الأخبار والدلائل تشير إلى أن التعصب للأمويين في الشام • وأحياناً في غير الشام أخذ طريقه سرباً في النفوس وعبر عن نفسه تارة في بعض الثورات اللاحقة وتارة في بعض الأعمال الفرْديةوتارة ثالثة في الشعر ورابعة في تأليف الكتب ، وخامسة في تكوين الفرق الدينية السياسية أو في بعض آراء المذاهب ، هذا عدا إقامة إمارة الاندلس •

١ ــ فمن الثورات مثلا ثورات الشامزمنالرشيدسنة١٧٤ثم ١٧٦ ثم ١٨٠ ثم ١٩٠ و ١٩١ وثورة دحية المرواني في مصر (بين سنة ١٦٥ ــ ١٦٩) وثورة حمص السفيانية (بقيادة العميطر علي بن عبد الله حفيد معاوية ١٩٤) الذي كان اصحابه ينادون في الأسواق : قوموا بايعوا مهدي الله ! ) • ثم ثورة سعيد بن خالد السفياني زمن المأمون وثورة أبي حرب المبرقع اليماني زمن المعتصم ••• الخ •

٢ ــ ومن الأعمال الفردية ، أن جماعة في رصافة بغداد كانوا يسقون السويق والسكر والماء البارد ويقولون : اشربوا على حب معاوية ! وصار من عادة السائقين في العراق الترحم على معاوية عند سقاء الناس حتى أمر الخليفة المعتضد بمنعهم من ذلك ومنع القصاص منذكر روايات تخص معاوية • وكان بين « حنابلة العراق غوال مشبهة يفرطون في حب معاوية ويروون في ذلك أخباراً منكرة » وكان فيأصفهان

أيضاً غلو في حب معاوية[1] حتى كانوا يحسبونـه مرسلا ولقـد ذكر المقدس في أحسن التقاسيم عن عابد زاهد هناك أنه حين أخبره عن حقيقة معاوية وأنه ملك أخذ يقول : أنت رافضي[2] !

وبلغ الأمر ببعض الناس أن زيف ألقاباً للخلفاء الأمويين يضاهي بها الألقاب العباسية ويرويها فمعاوية هو (الناحر لحق الله) ويزيد (المستنصر) ومعاوية الثاني (الراجع الى الله) •• وعبد الملك (المؤثر لأمر الله) ••• وعمر بن عبد العزيز (المعصوم بالله) •• الخ •

وقد نقل المسعودي روايتين من هذا النوع وناقشهما وردهما[3].

٣ ــ وأما في الشعر فقد بكى الكثير من الشعراء الامويين كحكام وقتلى وذكروا تارة عهدهم وتارة قتلاهم وتارة فضائلهم • ولئن ذهب معظم هذا الشعر لما تسئل روايته من معنى المعارضة للعباسيين من جهـة والتعصب ضد الشيعة وآل البيت من جهة أخرى فإن آثاره باقية نجدها منثورة ضائعة في تاريخ الموصل للأزدي وفي الطبري وابن قتيبة وثنايا الدواوين ومنها قصائد لبشار بن برد ومنقذ بن عبـد الرحمن الهلالي وابي عطاء السندي (في رثاء ابن هبيرة والي العراق الأموي) وأبي هرمة ومروان بن أبي حفصة القائل :

بنو أمية قومي اعتقوني ‏ ‏ ‏ وكل الناس بعد لهـم عبيد

وابي العباس الأعمى القائل :

خليت المنابر والأسرة منهم ‏ ‏ ‏ فعليهم حتى الممات سـلام

---

(١) المقدسي احسن التقاسيم (طبع ليدن) ص٣٨٩

(٢) المقدسي ــ احسن التقاسيم (طبع ليدن) ص٣٩٩ •

(٣) المسعودي ــ التنبيه والاشراف (طبعة الصاوي ــ القاهرة ١٩٣٨) ص ٢٩٠ــ٢٩١ .

وابن قيس الرقيات القائل :

ما نقموا من بني أمية إلا    أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما    تصلح إلا عليهم العرب !

وقصيدة أبي عبد الله بن عمر العبلي التي يعدد فيها مواقع المذابح :

أشاب المفارق (أو أفاض المدامع) قتلى (كدا)وقتلى بكثوةلم ترمس
وقتلى ( يوج ) وباللابتين ومن يثرب خير ما أنفس
وبالزاب قتلى ملوك ثوت وأخرى بنهر أبي فطرس
أولئك قوم أناخت بهم نوائب من زمن متعس
هم أضرعوني لرب الزمان وهم ألصقوا الرغم بالمعطس
فما أنس لا أنس قتلاهم ولا عاش بعدهم من نسي !

وقوله أيضاً :

فبنو أمية خير من وطىء الثرى شرفاً وأفضل ساسة امراؤها

٤ ــ وأما تأليف الكتب فقد ذكر المسعودي أنه قرأ حين كان في طبرية سنة ٣٢٤ كتاباً لمؤلف أموي مجهول في ٣٠٠ ورقة عنوانه ( البراهين في إمامة الأمويين ونشر ما طوى من فضائلهم )[١] ولخص المسعودي ما فيه في صفحة كاملة وذكر أنه ينتهي الكتاب إلى سنة ٣٢٠ ويذكر خبر قدوم السفياني ورجوع الدولة كما كا نمن مصادر كتاب مروج الذهب للمسعودي • « كتاب التاريخ وأخبار الامويين ومناقبهم وذكر فضائلهم وما أحدثوه من السير في أيامهم من تأليف ابي عبد الرحمن خالد بن هشام الاموي »[٢] وقد ألف ابن أبي العجائز أحمد ابن حميد ( من القرن الرابع نفسه ) كتاباً في تاريخ

---

(١) المسعودي مروج ج١ ص ١٤ــ١٥ (طبعة× ×)

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩١ــ٢٩٢

دمشق وذكر فيـه بني أميـة مـن كان منهم في الغـوطة ومن كان بدمشـق • كما ألـف بعـض أحفاد الأمويين الكتـب في أحسابهم وأنسابهم كأبي الفرج والأصبهاني «حفيد مروان بن محمد» والأبيوردي صاحب كتاب أنساب آل أبي سفيان • وإذا لم نضف إلى ذلك مؤلفات الاندلسيين كابن حزم وابن عذارى فما من شك في أن الكثير من مثل هذه الكتب كان ذا انتشار وتداول محلي وبالتالي فقد ضاع مع الأيام •

وأما في الفرق الدينية والمذاهب فالناتتة والكرامية والحنابلةجميعاً كانوا يصرحوا بقبول الامامين علي ومعاوية معاً أو بافضلية معاويةوتأييد إمامته وكانوا ينتشرون في العراق وفارس واصبهان حتىهمذان والري• ولا نذكر اليزيدية لأنهم ليسـوا ليزيد كمـا يصرحون ويصرح بعض المستشرقين في الأرجح ليزدن والزرادشتيه الأولى •

وإذا كان التعصب الأموي في مطالعه قـد تأثر ببغض العباسيين فلا شك أنه إنما استمر وانتشر جواباً على التعصب العلوي والتشيع •

••• وفي هذا الوقت وجدت اسطورة (السفياني) طريقها معبداً الى نفوس الشاميين ؛ ولئن كانت هذه الفكرة قد اشتقت من الايمان بسبيح أو مهدي منتظر ؛ وكانت شائعة ولها حركاتها منذ اواخر العصر الاموي (ولقد يكون مبتدعها هو خالد بن يزيد بن معاذ كما يفهم من رواية للاغاني) وكان لها أيضاً وجوهها المختلفة ؛ اذ آمـن اليمانيون (بالقحطاني المنتظر) والمضريون (بالتميمي) الخ ••• لئن كان ذلك فان هذه الاسطورة قد استيقظت الآن كرد فعل للاضطهاد العباسي المرعب ؛ في انتظار تجسدها في شخص أحد الامويين • وقد لحقها مع الايام كثير من الحشو والمحالات والآمال بسير «الخيل الشهب والرايات الصفر»

من الاندلس الى الشام والتنبؤ بما سيكون لهـا من الوقائع والزحوف الخ ... وقد استمرت هذه النغمة بالشام أكثر من مائتين وخمسين سنة إذ نجدها ، بعد عدة انتفاضات قد ظهرت سنة ٢٩٤ وحمل السفياني يومذاك الى بغداد[١] ثم تجدها أيضاً سنة ٣٨٥ إذ ظهر في الشام سفياني آخر حمل الى القاهرة فشهر ثم قتل[٢] ... هل تراها انقطعت بعد ذلك ؟ يظهر انها لم تنقطع لأنها كانت قد سجلت في كتب متداولة في الشام بين الأمويين وقد رأى المسعودي بعضها وتتحدث عن «.. ظهور السفيان في الوادي اليابس من أرض الشام في غسان وقضاعة ولخم وجذام وغاراته وحروبه ومسير الأموية من بلاد الاندلس إلى الشام وأنهم أصحاب الخيل الشهب والرايات الصفر ومـا يكون لهم من الوقـائع والحـروب والغارات والزحوف[٣] ...» .

**خامساً ـ انفصال الاندلس :**

ولعل أهم ما نجح بـه الأمويون ضـد العباسيين وانتقموا بـه لأنفسهم وملكهم هو اقتطاع أقصى جزء في غرب المملكة الاسلامية وإقامة إمارة أموية فيه ولم يكن في إمكان العباسيين أن يتنبأوا أن ذلك الذي استطاع الفرار ذات ليلة من انتقامهم في احـدى قرى الفرات : عبد الرحمن بن معاوية ، سيقتطع منهم جزءاً من المملكة الواسعة هو الاندلس ، يبعث فيه الملك الاموي . ولم يكن في مقدورهم ان يرسلوا الجيوش الى اقصى الارض لاستصفائها قبل ان يتم الامر لهم في الذي بايديهم ،

---

(١) ابن الاثير ج٧ ص٥٥٧ وكرد علي يقول (خطط الشام ١/١٧٧) انها انقطعت سنة ٢٩٤

(٢) انظر المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٨٥ و ص٢٧٨

(٣) التنبيه والاشراف للمسعودي (طبع الصاوي ـ القاهرة ١٩٣٨) ص ٢٩٢

لاسيما والمتغلب على الاندلس اذ ذاك : يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري لم يكن والياً اموياً ، ولكن كلمة العرب هناك اتفقت على توليته في انتظار انجلاء الموقف في الشرق •

وهكذا استطاع عبد الرحمن ، في غفلة وانشغال من الاسرة الجديدة ، ان يجمع لنفسه ، رغم التستر والقلة الدائمة من الانصار ، ما كفاه للدخول الى الاندلس سنة ١٣٨ والتغلب بالتدريج عليها •وأفاق المنصور من غمرة الاحداث التي حوله ، على هذا الاموي البعيد الدار، وعرف عجزه عن أخذه بالقوة فلجأ الى الحيلة والدهاء : بعث يستميله بالرسل وطفق يطري عزيمته وسماه «صقر قريش» ولكنه لم يظفر بشيء منه ، كما لم يظفر باثارة القلاقل ضده في بلده ، فقد ذكر المؤرخون[١] ثورة عباسية رفع علمها الاسود : العلاء بن مغيث اليحصبي سنة ١٤٦ ببعض نواحي الاندلس ولكن عبد الرحمن هزمها ، وبعث برأس العلاء وبعض أصحابه ، فألقيت سراً في السوق بالقيروان ، كما حمل منها الى مكة ، اثناء حج المنصور ، فبعثرت هناك ، ومعها العلم الاسود وكتاب كتبه المنصور للعلاء ••• ومنذ ذلك الدرس تيقن المنصور انه ليس بطائل الاندلس بنفسه ، فأخذ يتقرب من ملك الفرنجة ليعينه عليها • أي أضحى موقفه منها جزءا من سياسته الخارجية •

### ٣ ـ الطامعون من آل محمد :

كان المنصور على يقين من انه لاخطر على عرشه من الامويين ،وان لا نصير لهم ، عنده من القوة ما يهدد دولة بني العباس • ولكن الخطر كان من أهله أنفسهم على هذا العرش الجديد : من عشيرته الاقربين بني العباس ، ومن اولاد عمه آل ابي طالب • ولقد استطاع أبو جعفر أن

---

(١) ابن الاثير ج٥ ص ٥٧٥

ينقذ خلافته من الطرفين بالقوة وبالخداع ويحفظ الملك في بنيه خمسة قرون :

**اولا ـ المشكلة العباسية :**

**تمرد عبـد الله بن عـلي :** هو عم ابي العباس وقائده الذي هزم مروان بن محمد • ويظهر ان ابا العباس وعـد من يقضي على مروان بولاية العهد فلم يتقدم لذلك سوى عبد الله • وقد استصفى الشام لابن اخيه وتولاها من قبله • وكان ينتظر ان يؤول الامر اليه ولذلك فوجيء حين وصله خبر البيعة لابي جعفر المنصور ، وهـو في موضع دلوك (شمال حلب) في الطريق الى حرب الروم بناء على تكليف أبي العباس • فنادى : الصلاة جامعة • وخطب في الجند والناس ان الامر لـه وبايعه الذين معه : وكان عامتهم من أهل الشام الذين يتمنون اضطراب الامر العباسي فتبعوه ، كما كان فيهم (١٧) الفـاً من الخراسـانيين الذين لا يعرفون سوى الولاء للقائد • وسار عبد الله بجموعه شرقـاً باتجاه شمال العراق (أو خراسان) لينحدر منها عائداً الى جنوب العراق •

وإذا كان تاريخ عبد الله في خدمة الحركة العباسيةوفي إقامةالدولة، حافلا بالمآثر ويكفيه منه أنه أقامها ووطدها في دار ملك الأسرة السابقة بعد أن أخمد مختلف ثورات الشام فإن ثورتـه لم تكن ضـد الدولة العباسية ولكن ضد شخص الخليفة • كانت شخصية اذن وليست لمبدأ ولا سند لها من دعوة سابقة أو وعد بخير مقبل أو حق مهضوم سوى ما ادعاه عبد الله بن علي نفسه من وعد أبي العباس له بالخلافة من بعده ويمكن بهذا الشكل اعتبارها أول مشكلة من مشاكل ولاية العهد في دولة بني العباس كما قد تعتبر استمراراً وشكلا جديداً لهذه المشكلة القديمة في العهد الأموي •

وتكشف المداولات التي ذكر المؤرخون انها دارت بين أصحاب عبد الله وقواده مدى الاضطراب والتردد الذي سادهم بسبب ثورته المفاجئة • وإذا تبعه بعض جنده من الخراسانية الذين لم يكن يهمهم إلا «الرضا من آل محمد» دون تحديد ولم يكن أبو جعفر الذي استخلف بذي علاقة معهم تفرض عليهم أي عبء معنوي تجاهه ، فإن الخراسانية حذروه من الشقاق وانسحب بعضهم من تأييده ثم غادروه بعد أن قتل بعضهم (كالهيثم بن زياد الخزاعي) وتآمر على بعضهم الآخر (كحميد بن قحطبة الطائي الذي دبر اغتياله في حلب فأحس بالأمر وخرج الى العراق) • ورفض ولاة أذربيجان وأرمينية وسميساط وحران تأييده لا لأنهم غير مرتبطين بنفوذه فحسب ولكن حفاظاً ، مع الآخرين ، على روابطهم مع أبي العباس وأخيه ابراهيم الامام ومع أبيهما محمد وهم أصحاب الدعوة الأساسيون •

وقد عوض عبد الله عن هؤلاء التحاق عدد كبير من أهل الشام به• يذكر البلاذري وابن قتيبة والمدائني أن أغلب القوادوالأشرافوالشيوخ الذين مشوا معه كانوا من الشاميين ، ومن «موالي بني أمية» «وفرسان أهل الشام» ومن «رجال مروان بن محمد» الذين ثاروا من بعده ثم هادنوا عبد الله بن علي • ولعل تنظيم عبد الله لدولته الجديدة يدل على هوية ثورته فإنه قد عين عدداً من زعماء الشام لأعماله : سمى زفر بن عاصم الهبلي لقنسرين والحكم بن صبغان لفلسطين وعثمان بن سراقة الأزدي لدمشق ومنصوراً الكلبي للشرطة كما كان من قواده البارزين بكار بن مسلم العقيلي • وهذا ما جعل ثورة عبد الله بن علي بجانب كونها شخصية ، ثورة محلية ذات طابع شامي سواء في موقعها الجغرافي أو في جندها ، أو في أطماع عدد من رجالها • وما من شك في أن

الشاميين وجدوا في ثورته الأمل في الخلاص من الدولة «الخراسانية» الجديدة وفي أن يستردوا وتسترد الشام معهم مركزها السابق في العهد الأموي • وكان من التناقض الخطر في حركة عبد الله بن علي أنها تستند الى جيش ذي ميول أموية في الغالب لتحقيق مطمح سياسي عباسي •

ويبدو أن أبا العباس وأبا جعفر كلاهما كانا يخشيان عمهما ويتوقعان أن يثور إذا اعطيت الخلافة لغيره • فأبو العباس عند موته كلف عيسى بن موسى (الذي صارت إليه ولاية العهد) أن يبعث وفداً برئاسة أبي غسان يزيد بن زياد حاجب أبي العباس ليخبر عبد الله بوفاة الخليفة واستخلاف أبي جعفر وأخذ البيعة منه • وأبو جعفر — ما كاد بدوره يصل العراق — ولم تكن ثورة عمه قد أعلنت بعد — أمر كذلك جيشاً يقوده صالح بن علي العباسي بالتحرك إلى الشام لأخذ البيعة بالقوة إن لزم الأمر • وكان ما توقعه أبو جعفر • فلم يجد الخليفة في قواده خيراً من أبي مسلم الخراساني يقاتل عمه • وقد أرسله بالرغم من شكه فيه وضيقه منه لأنه كان يخشى أن يتحرك أبو مسلم في خراسان والجيوش العباسية مشغولة في الشام • كما كان يأمل التخلص من أحدهما كما قال وزيره المورياني • « نحن لابي مسلم أشد منا تهمة لعبد الله . الا انا نرجو واحدة » •

والواقع أن أبا جعفر كان يرجو بجانبها واحدة أخرى هي أن يستطيع أبو مسلم اجتذاب الخراسانية الثائرين مع عبد الله بما له عليهم من دالة وصلات سابقة •

ولما كان أبو مسلم نفسه غير راغب في قتال عبد الله فقد قال — على رواية اليعقوبي — : «أمضي الى خراسان وأخلي بين هذين الكبشين فأيهما غلب كتبنا له ، سمعنا وأطعنا ، فرأي انا قد انعمنا عليه ...[1]»

(١) اليعقوبي ج٢ ص٣٦٥ (طبعة بيروت ١٩٦٠)

ولكن كاتبه اقنعه بعكس ذلـك الرأي ، وتأمل ان يضيف الى مجده الحربي ، نصراً على عبد الله العباسي ، وذلـك بالتأثير على من معه من الخراسانية • وقال : «انما عامة جنده ومن معه من أهل خراسان وهم لايعصونني» •

بلغ من اهتمام أبي جعفر بالمعركة أنه أنفق على جيشه ما بين ١٢ الى ١٨ مليون درهم وزاد في أعطيات الجند وخرج فجعل معسكره عند دير الجاثليق على نهر دجلة وألحق بأبي مسلم جيشاً آخر يقوده الحسن بن قحطبة • ووزع الجند في المراكز الاستراتيجية على نهري الفرات ودجلة باتجاه الشام وبعث الى عبد الله قائداً من قواده (محمد ابن صول) يدعي الولاء له ليتجسس عليه ••• وقد قتل عبد الله هذا المتجسس إذ كشف أمـره •

وحين سار أبو مسلم في اتجاه الشام كان عبد الله بن علي قد سار يحاصر حران على صاحبها مقاتل العكي الذي ظـل على الولاء لأبي جعفر وأخذ المدينة بالأمان بعد أربعين يوماً من الحصـار[1] ثم ذهب فتحصن في بلدة نصيبين حين علم بوصول أبي مسلم إليه •

وقد استمرت الحرب بين القائدين خمسة شهـور من مطلع سنة ١٣٧ هـ «وأهل الشام أكثر فرساناً واكمل عدة» كما يقول الطبري ولم يظفر ابو مسلم من عبد الله بغرة أول الامر ، ولا سجل عليه نصراً ، لأنه تحصن في المناطق الجبلية بنصيبين • ولكن سوء تدبير عبد الله أوقعه في النهاية مهزوماً فقد :

---

(١) بعث عبد الله بمقاتل العكي مع ابنيه بالامان الى واليه على الرقة : عثمان بن عبد الاعلى الازدي فقتله . ثم أخرج ابنيه بعد هزيمة عبد الله فقتلهما (الطبري ٧/٤٧٥).

١ ــ أضعف عبد الله جيشه حين استراب بالخراسانيين فقتل آلافاً منهم تبلغ سبعة عشر ألفاً (؟)(١) واستراب بحميد بن قحطبة الطائي فبعث به الى والي حلب لقتله ، فعرف حميد الامر ، وتحول الـى ابي مسلم يعاونه ، ويدل على مواطن الضعف في عبد الله .

٢ ــ خدع ابو مسلم عبـد الله عن مركزه الحصين ، اذ اعلن انه ماجاء الا" والياً على الشام ، وانه لن يقاتل . فخاف الشاميـون على اهلهم وذراريهم فانسحبوا لحمايتها . واضطر عبد الله لمسايرتهم . فلما ترك نصيبين رجع ابو مسلم فتحصن فيها .

٣ ــ كانت المعركة الاخيرة في السابع من جمادى الاخرة سنة ١٣٧ . فمزق ابو مسلم جند عبد الله واضطره للفرار . ومنع ابو مسلم جنده من تعقبه . فمضى عبد الله الى أخيه سليمـان والي البصرة فاختفى عنده وهرب أخوه الآخر عبد الصمـد على الذي كان مسمى لولايـة العهد وولاية الجزيرة فقبض عليه في الرصافة . وألح المنصور على عمه سليمان باظهار عبد الله ، واعطاه الامان(٢) . ويقال انه اخذ من عبد الله البيعة ايضاً ولكنه حبسه لما ظهر . وابقاه في السجن تسـع سنوات(٣) بحجة

---

(١) انظر الطبري ج٧/٤٧٥ (٣/٩٤) وص٤٨١ (٣/١٠٢-١٠٣)

(٢) قصة هذا الأمان معروفة في تاريخ الادب فقد كتبه عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور وتأنق في صوغه وفي إحكام ثغراته حتى لا يكون فيه مجال لنقض . وقد كلف ذلك ابن المقفع حياته لأنه قتل بسببه . ونجد النص الكامل لهذا الأمان خاصة في كتاب ابي بكر الأزدي ــ تاريخ الموصل ص ١٦٧ــ١٧٠

(٣) حاول المنصور قتل عمه بواسطة عيسى بن موسى ولما ألح عليه أخبره عيسى انه قتله . وعند ذلك حرض المنصور اعمامه لأخذ ثأر أخيهم من عيسى كي يتخلص منه بعد ان اعطى منصبه ــ اي ولاية العهد ــ لابنه المهدي فلما ثار الاعمام على عيسى أخرج عبد الله من السجن فاذا هو ما يزال حياً . وفشلت مؤامرة المنصور على الاثنين .

الخوف عليه من الخراسانية • ثم قتله سنة ١٤٧ هـ في ظروف غامضة ويقال إنه جعله في بيت أساسه ملح ثم افاض عليه الماء فانهار عليه •••

ولم يستثمر أبو مسلم نصره في نهب بلاد الشام أو إذلال أهلها ولا ولايتها أملا في العودة لقواعده في خراسان وحين ذهب وفد من الشام الى أبي جعفر معتذراً مستغفراً عن «الفتنة» التي أثارها عبد الله بن علي و«أغرى» بها الشاميين قبل الخليفة اعتذارهم ورد أملاكهم وضياعهم التي كان صادرها • على أن خزائن عبد الله بن علي وما فيها كانت من مشاكل أبي مسلم والخليفة والجند • فقد اعتبرها أبو جعفر من حقه وحده بينما احتوى أبو مسلم عليها • وطالب قادة الجند الخراسانة بأربعة أخماسها باعتبارها غنيمة • وتنازل أبو جعفر عنها لهم وزاد فضاعف لهم الجزاء •

## ثانيا : المشكلة العلوية : محمد نفس الزكية ـ الثورة العلوية :

كانت البيعة لابي العباس مفاجأة غريبة دون شك للغلاة من العلويين ، كما كانت موضع اشمئزاز ونفرة لدى آل علي انفسهم • لان الطامحين منهم اعتبروها خدعة • واذا صح خبر المؤتمر الهاشمي الذي يتحدث الطبري والأزدي ، والاصفهاني والبلاذري وصاحب الفخري[1] انه تم في «ذيل دولة بني أمية» في موقع «الأبواء» قرب مكة سنة ١٢٧/ ٧٤٤ بدعوة من عبد الله المحض ـ على ما تذكر بعض الروايات ـ واتفق فيه على الدعوة السرية ، والبيعة لذي النفس الزكية : محمد بن عبد الله المحض ابن الحسن بن الحسن بن علي وانه قد حضر المجلس «اعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم» ، وفيهم أبو العباس وأخوه أبو جعفر (المنصور) والامام جعفر الصادق •• واذا صح ذلك فبنو العباس خالفوا تلك البيعة الرسمية فيما بينهم وحرموا «الرضا من آل محمد»

(١) الفخري للطقطقي ص ١١٩

حقه • وربما لم يكن حديث المؤتمر صحيحاً بالشكل الذي ورد ولعله انفض دون اتخاذ قرار بالبيعة وهو الارجح ، ولكن ذلك يعني بالنسبة لنا شيئا هاما هو ان ابرز الطالبيين لدى قيام الامر العباسي هو محمد الملقب بالنفس الزكية من آل الحسن • يدل على ذلك ايضاً ان يزيد بن هبيرة كاتبه ، وهو محاصر في واسط ، يحرضه على طلب الامر لنفسه • ومع أن الامام جعفر الصادق لم يكن بأقل شاناً في رجال آل البيت من محمد ذي النفس الزكية إلا إنه فيما يبدو لم يكن بذي مطامح سياسية حتى إنه فيما يذكرون عارض في مؤتمر الأبواء مطامح محمد هذا وتنبأ للعباسيين بالخلافة •

وقد صانع ابو العباس آل علي جميعاً • ولعله كان يشعر بحقهم وبمرارة الخيبة التي منوا بها فسلك معهم سبيل الاكرام ، وخاصة آل الحسن منهم • وبالرغم من ان محمداً النفس الزكية رفض البيعة لابي العباس فقد قدم عبد الله المحض (والد النفس الزكية) على ابي العباس «فبره وآثره ووصله بالصلات الكثيرة ــ كما يقول اليعقوبي ــ وكان اذا بلغه عن محمد بن عبد الله امر يكلم اباه حتى اخذ منه عهداً بالولاء ، قال فيه «لك عهد الله وميثاقه ألا ترى منهما (أي من ولديه محمدواخيه ابراهيم) شيئاً تكرهه ماكان محمد في الدنيا وطفيء امر محمد في خلافة ابي العباس ، فلم يظهر منه شيء[1] •••»

---

(١) قال ابو العباس لعبد الله المحض :

اريد حباءه ويريد قتلي		عذيرك من خليلك من مراد

فأجابه عبد الله :

وكيف يريد ذاك وانت منه		بمنزلة النياط من الفؤاد ؟

انظر اليعقوبي ج٢ ص ٣٦٠

ولعل سياسة أبي العباس مع زعماء العلويين إنما كان سببها ذلك الشك الذي يحيط «بإرث الكيسانية» وبقصة «الوصية» من أبي هاشم الى محمد العباسي ، وعدم تسليم آل أبي طالب بأن ذلك يسقط حقهم الشرعي في الحكم الذي تسلمه ـ دونهم ـ العباسيون . ولعل مؤتمر الأبواء خير دليل على ذلك الشك . لهذا أحل أبو العباس التودد محل البطش وصلة «الرحم» محل «شرعية الوصية» في سياسته مع العلويين ولكن ذلك لم يخمد حركات المتطرفين منهم خاصة وقد عرضت لهم الكثير من فرص التحريض على الثورة في العراق وخراسان نتيجة اتصال عدد من الزعماء أو الثائرين بهم ، بدءاً من أبي سلمة الخلال حتى شريك بن شيخ المهري ، مروراً ببسام بن ابراهيم ثم عبد الجبار الأزدي . من بعد .

على ان وفاة السفاح الوشيكة ، وتحول الخلافة الى اخيه ابي جعفر (المنصور) ، أثارت المشكلة العلوية وحركت آمال محمد من جديد : لا سيما وابوه يشيع عنه انه «المهدي الذي بشر به» كما كان اهل الحرمين يحبونه كل الحب . ولا يخفى ما في ذلك من القوة له ، ومن الخطر على مركز الخليفة الديني ، وهو قد اضحى الى هذا وذاك في حل من العهد الذي قطعه ابوه للخليفة الاول ... وهكذا وصلت الاخبار الى المنصور ان العلويين ، بزعامة محمد يتحركون .

كانت الحركة العلوية في الواقع قد أضحت ـ بعد سحق الأمويين ـ قطب المعارضة للعباسيين وقد نقلت الطوائف الناقمة على هؤلاء ولاءها كاملا إلى الجانب العلوي ـ عدا الشام ـ بالاضافة الى أن فكرة « المهدي » كانت من الجاذبية والاغراء بحيث يجتذب الطبقات الفقيرة وزمر البائسين في كل مكان .

ويظهر ان محمداً انتفع من درس الدعوة العباسية فاراد ان ينهج في دعوته وحركته منهجاً في التكتم والسر والتمهيد بالدعاية • فاختفى عن الأعين وبث الدعاة في الامصار ، من أهله : فارسل ابنه عبد الله الى خراسان ثم الى السند وابنه الحسن الى اليمن وثالث أولاده علياً الى مصر واخاه يحيى الى الري وطبرستان واخاه ادريس الى المغرب (ويظهر ان بعض هؤلاء قد ذهب الى هذه البلاد بعد فشل الثورة) اما اخوه ابراهيم فكان ساعده الاول وقد قام بالدعوة في البصرة •

وعلم المنصور ان في الافق العلوي امراً ، فلم يكن همه الا طلب (محمد النفس الزكية) والمسألة عنه وعما يريد • ودعا بني هاشم رجلا رجلاً يسألهم في خلوة ، عنه • فبعضهم هون أمر محمد ، وبعضهم حذر منه ومن وثوبه «فلما حج المنصور سنة ١٤١ هـ وتخلف محمد واخوه ابراهيم عن المثول بين يديه ، لم يبق لديه شك في نواياهما • فعمل بكل وسيلة على تعقبهما ولكن دون جدوى ، لأن الأمر كان قد جاوز مرحلة التمهيد الى العمل الفعلي • وقبض على أبيها عبد الله المحض وسجنه لانه أبى أن يدله على مقرهما » •

واتخذت مطاردة أبي جعفر لمحمد وابراهيم ابني عبد الله المحض شكل الإلحاح العنيف الذي اضطرهما للهرب من الحجاز اكثر من خمس سنوات (ما بين سنتي ١٤٠ ــ ١٤٥) فإن الطبري يذكر أنهما ، أشفقا حين أخذ أبو جعفر والدهما «فخرجا الى عدن فخافا بها وركبا البحر حتى صارا الى السند فسعى بهما الى عمر بن حفص فخرجا حتى قدما الكوفة وبها أبو جعفر •••» ويروى عن أم ولد لابراهيم قولها : «لا والله ما أقرتنا الأرض منذ خمس سنين • مرة بفارس ومرة بكرمان

ومرة بالحجاز ومرة باليمن ...[1]» ويذكر خبر آخر أن ابراهيم ألم بالشام أيضا خلال هربه السري كما ألم بالموصل وقد عرف الفضل بن صالح بن علي العباسي أمره بعد ان كان هرب الى البصرة فكتب بذلك إلى أبي جعفر الذي «أمر بإذكاء العيون ووضع المراصد والمسالح ..»[2] وكان يسأل عنه حتى المنجمين ليجده[3] ...

وفي أثناء ذلك كان المنصور قد جعل وظيفة والي المدينة التحري عنهما . ولهذا اتهم واليه زيادة بن عبيد الله الحارثي بالتساهل ، وسجنه وصادره سنة ١٤١/٧٥٨ . وعزل الثاني محمداً بن خالد القيسري بعد أن أغدق عليه الأموال لعله يظفر بذي النفس الزكية ، وارسل من بعده رياح بن عثمان بن حيان المري (رمضان كانون الاول ٧٦١) وهو شامي، قيسي ، من تلك القبيلة التي كان منها مسلم بن عقبة المري صاحب واقعة الحرة التي فتكت بالمدينة سنة ٦٤هـ ٦٨٣ الفتك الذريع . فتهدد المدينة بانه «الافعى بن الافعى ... والله لأدعنها بلقعاً» وذكرهم أنه ابن عم مسلم ابن عقبة وسجن ١٣ رجلاً من زعماء الطالبيين وتشدد . فلما تطاول عليه اهل المدينة هددهم المنصور «... لئن لم تنزعوا ليبدلنكم من بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ...» واشتد رياح في تعذيب آل علي ، حتى بلغ بالناس ان حصبوه في المسجد فاستتر عنهم ، وعمد المنصور عدا ذلك الى بث المتجسسة والعيون من التجار ورقيق الاعراب والمدعين بالولاء العلوي في المدينة وظاهرها ، كما أخذ يبعث بالكتب على ألسنة قواده الى محمد ذي النفس الزكية ، يوهمه انهم معه ، ويدعوه فيها

---

(١) الطبري ج٧ ص ٦٢٢ (٣/٢٨٢-٢٨٣)
(٢) المصدر نفسه ص ٦٢٣ (٣/٢٨٣)
(٣) المصدر نفسه ص ٦٢٦ (٣/٢٨٨)

للظهور أو يبعث بها باسم الاقطار الاسلامية ... ولكنه مع كل هذا لم يظفر بمحمد وان ظفر باجباره على تعجل الثورة ، لا سيما حين حج المنصور سنة ١٤٤/٧٦٢ فحمل معه زعماء العلويين المسجونين الى الهاشمية في العراق. وبالرغم من أن الروايات والاساطير تلف بالغموض مصيرهم إلا ان النتيجة منها واحدة وهي أن أبا جعفر أمر بقتل عبد الله ومحمد بن عبد الله العثماني ومحمد بن ابراهيم بن الحسن ، ومات الباقون في السجن، لم يطلق إلا نفراً منهم بعد فشل ثورة ذي النفس الزكية والواقع أن محمداً تألم للنكال الذي نزل بأهله وبخاصة ما شاع من مقتل أبيه[1] وتوهم أن كل الامصار معه فقد خطب بأهل المدينة يوم ثار : «والله ما جئت هذه وفي الارض مصر يعبد الله ، الا وقد أخذت لي فيه البيعة » وأيدت موقفه فتوى الامام مالك بنقض بيعة المنصور (اذ قال لأهل المدينة انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين) وكان محمد قد قرر الثورة مع اخيه ابراهيم في يوم واحد بالمدينة والبصرة . ولكن ظلم رياح بن عثمان لأهله جعله يسبق الموعد ويمشي الى مسجد المدينة في ٢٥٠ رجلا لإعلانها بعد أن هاجم السجن فأطلق من فيه وهاجم دار الحكم فاعتقل رياحاً المري نفسه . أما اخوه فكان اذ ذاك مصابا بالجدري لا يطيق حراكا في البصرة . وقد بين محمد في خطبته الاولى اسباب الثورة بقوله : «... كا نمن امر هذا الطاغية عدو الله ابي جعفر مالم يخف عليكم وان أحق الناس بالقيام بهذا الدين ابناء المهاجرين والانصار ... اللهم انهم قد احلوا حرامك وحرموا حلالك

---

(١) البلاذري والمسعودي يذكر ان اعتقال اقرباء محمد وما شاع عن مقتل أبيه كان السبب في ثورته بينما يذكر الطبري والاصفهاني ان السبب هو اعتقال اخيه موسى الذي فشل في الدلالة على مكمن اخيه محمد لوالي المدينة رياح المري فاعتقله وارسل الى الهاشمية مما اضطر محمدا للظهور واستنقاذه .

وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت ... اللهم فاحصهم عدداً واقتلهم بدداً ...» وهو يتهم كما نرى ابا جعفر (المنصور) بالطغيان وبالخروج عن حدود الله ويعلن حق أهل المدينة من المهاجرين والانصار (ليتألفهم) في الخلافة لاحقه الشخصي فيها ، ويعرف هذه الخلافة بانها «القيام بالدين» ...

أما أبو جعفر فكان يبني بغداد حين وصله خبر الثائر العلوي : فأوقف البناء واتجه لمعالجة الموقف . ويظهر انه لم يكن يريد الحرب ، إما خوفاً من قوة محمد أو لعدم استعداده ، أو لظهور حجة العلويين وميل الناس اليهم وحاجته لان يجد عذراً يبرر حربه لهم .

كما يظهر ان ابا جعفر اهتم بهذه الناحية الاخيرة اهتماماً واضحاً، لا سيما لدى الخراسانيين . فقد خطب فيهم منددا بآل علي مستعرضاً تاريخهم من وجهة نظره . ثم قال في ختام خطبته : «... اني والله ياأهل خراسان ما أتيت من هذا الامر ما اتيت بجهالة . بلغني عنهم بعض السقم والتعرم . وقد دسست لهم رجالاً فقلت : قم يافلان قم يافلان وخذمعك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ، فدسوا اليهم تلك الاموال ، فوالله مابقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم واموالهم ، وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي . فلا يرون اني اتيت ذلك على غير يقين .. وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل باشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب[1]» .

---

(١) المسعودي ج٣ ص٢٢٦

ويظهر انه لهذا السبب آثر المنصور مراسلة محمد النفس الزكية، ومقارعته بالحجة اولا • اذ ان تلك المراسلات (والطبري يذكرها كاملة بنصوصها [1]) لم يكن لها من أثر في موقف الطرفين السياسي ، فكأنما كتبت للدعاية فحسب، وليس لاقناع الخصم• وشأنها ينحصر في احصائها احصاء واضحاً حجج كل من العلويين والعباسيين في حق الخلافة •عدا ايضاحها موقف كل منهما من الآخر اذ ذاك • وخلاصة تلك الرسائل :

١ ــ رسالة من المنصور يتوعد فيها محمداً ثم يعده إن رجع ، بالأمان له ولأهله ومن اتبعه وبمليون درهم •

٢ ــ جواب من محمد يبّين فيه حقه ، ويعيرّ المنصور بهجنته • ويعرض عليه الأمان ايضاً دون ان ينسى تعييره بالغدر •

٣ ــ جواب من المنصور يبين بالحجة الفقهية حق العباسيين،وقيامهم بالعمل للخلافة حين عجز العلويون •

ومن الطريف أن أبا جعفر حين علم بثورة محمد وجد نفسه في حاجة الى استشارة عمه عبد الله بن علي بالرغم من أنه في سجنه • قال : «إن هذا الأحمق لايزال يطلع له الرأي الجيد في الحرب» وسأله فلما احتج بأن المحبوس محبوس الرأي قال أبو جعفر : لو جاءني حتى يضرب بابي ما أخرجتك • وأنا خير لك منه وهو ملك أهل بيتك • وقد ندد عبد الله أمام قادة أبي جعفر ببخله : «إن البخل قد قتله» ولكنه أشار بأن يجثم أبو جعفر فوراً على اكباد أهل الكوفة لأنهم شيعة أهل البيت

---

(١) الطبري ج٧ ص ٥٦٦ فما بعد (٢٠٨/٣ فما بعد) ويذكرها كذلك البلاذري وابو زكريا الأزدي وابن عبد ربه وصاحب العيون والحدائق والمبرد . وينقلها عنهم معظم المؤرخين المتأخرين كابن الأثير وابن الجوزي والذهبي وابن خلدون .

وأنصارهم وأن يحفها بالمسالح (أي النقاط العسكرية) فلا يخرج أحد ولا يردها أحد إلا قطع عنقه • وأضاف أن على أبي جعفر أن يأتي بسلم ابن قتيبة من الري مع جنده وأن يكتب الى أهل الشام ليبعثوا إليه من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد ، وأن يحسن جوائز الجميع ويفرق الأموال لأنها سوف تعوض[1] •• وكانت هي نفسها الخطة التي اتبعها أبو جعفر • إذا استدعى الجند من الري والشام • وأقام بقسم منهم في الكوفة يقوم فيها بالمناورة اليومية وبإيقاد النيران بالليل كي يوهم الناس بكثرة عدده بينما بعث بأربعة آلاف فارس وألفي راجل ــ على قول المسعودي ــ عليهم ابن أخيه وولي عهده (عيسى بن موسى) ثم أردفهم بعد قليل ، بمحمد بن قحطبة في جيش كثيف • وكان اختيار عيسى لهذه المهمة أمراً مبيتاً • فالمنصور أراد ان يتخلص منه • وقال : «لا أبالي أيهما قتل صاحبه» عدا ان الحاجة ماسة لوجود قائد هاشمي على رأس جيش يحارب علوياً كبيراً وفي المدينة •

على أن موقف محمد في المدينة لم يكن بالقوي ، في غير عطف الناس • فلا أخوه ثار في البصرة لتتوزع قوة المنصور بينهما • ولا الحجاز بالبلد الغني فيكفي فيه أصحابه • إذ لا مال فيه ولا سلاح ولا رجال ولا كراع • كما قيل وقتئذ له[2] وقد قطع الخليفة الميرة من الشام ومن مصر عنهم • وحفر محمد خندقاً حول المدينة (اقتداء بالرسول) فكان ذلك خطأ في الاستراتيجية العسكرية لأنه أتم بذلك حصارها الاقتصادي •

---

(١) الطبري ج٧ ص ٥٦٥ (٣/٢٠٦–٢٠٧)

(٢) ــ قيل لمحمد ان يخرج لمصر فرفض وقيل له : ألست تعلم انك في اقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً واضعفها رجالا . ألست تعلم انك تقاتل أشد بلاد الله رجالا واكثرها مالا وسلاحاً ؟

وخطب في أصحابه يخيرهم بين المقام معه أو الانصراف ـ وكانوا على تقدير الطبري ـ مائة الف فتسللوا حتى بقي في شرذمة ليست بالكثرة أغلبها من جهينة وبني شجاع وكاتب عيسى بن موسى بعضهم فتخلوا عنه . وهكذا تجمعت الاسباب لإحباط امر محمد الثائر . وبينما كان بنو غفار ذوي الميول العباسية يسهلون دخول الخراسانية الى المدينة . قامت احدى العباسيات بخدعة لجند محمد[1] فانهزموا عنه في المعركة حتى قتل (١٤ رمضان ١٤٥/٦ كانون الاول ٧٦٢) ... وحمل رأسه الى أبي جعفر في العراق ليطوفه في أسواق الأقاليم ..

وإذا كانت للهزيمة ذيولها في الأوساط العلوية نقمة ويأساً فقد كان لها في المدينة ذيول من نوع آخر غريب . لقد ثارت فيها الطبقات الدنيا من العبيد لا من أجل المعاش ولكن حمية لأسيادهم المهانين ... ذلك أن المدينة وقعت إثر الهزيمة فريسة الاضطراب والفوضى . وزاد في آلامها صفوف الإذلال التي تعرضت لها من مصادرة املاك الثائرين وتعسف السلطة وسوء تصرف الجند الخراساني . وقد تأثرت طبقات الفقراء والعبيد بالاضافة الى التجار بالحصار أولاً ثم بما أعقبه من نهب ومصادرة وعدوان على الناس والأموال . ثم وصل والي المدينة الجديد عبد الله ابن الربيع الحارثي في شوال سنة ١٤٥/كانون الثاني سنة ٧٣٦ فلم يفعل شيئاً لإيقاف جنده عند حدهم مما ملأ الناس تذمراً . فانفجرت الاضطرابات[2] في الأسواق من قبل العبيد السودان خاصة والموالي الذين ثاروا (في ٢٣ ذي

---

(١) دست الى المئذنة من صاح فيها بهزيمة محمد العلوي فتفرق بقية المقاتلين عنه .

(٢) نجد تفاصيل الثورة في الطبري خاصة ج٧ ص ٦٠٩ـ٦١٤ (٣/٢٦٦ ـ ٢٧١)

الحجةسنة١٤٥لأسيادهم العرب ــ وربمابتحريض منهم ــ فقتلوا عددامن من الجند ونهبوا دارين كانا مخزنين لطعام الجند وفي هذا دليل على أن قلة المؤن وتهديد المجاعة كانا من محرضات هؤلاء الفقراء على الثورة ٠ وقد تجمعوا بسرعة بعضهم الى بعض حين نفخوا في الابواق وتزعمهم زعماء منهم ( وثيق ، يعقل الجزار ، رمقه ، مسعر ، أبو النار ،عنقود، أبو قيس ) وأخرجوا المساجين من السجون بينما هرب والي المدينة الى ظاهرها وهم يطاردونه ٠٠٠ كانت آلامهم الاقتصادية والاجتماعية قد أزدوجت مع آلام المدينة وأهلها فثاروا ٠

وشعر كبار أهل المدينة بالخطر فالزمام أفلت منهم لأن السودان «لا نظام لهم بدعوة وإنما أخرجتهم الحمية» وخافوا النكال من أبي جعفر و «اصطلاح البلد وأهله» فتزعم التهدئة جماعة منهم الاصبغ بن سفيان والحكم بن عبد الله والقاضي محمد بن أبي سبرة الذي كان في السجن لميوله العلوية فأخرجه السودان في الحديد فصار يصلي بالناس ٠٠٠ فعادوا بهم الى المسجد ، ثم ذهبوا الى الوالي الهارب فأعادوه٠٠٠ وانتهت الثورة بقطع أيدي أربعة من زعماء السودان المتمردين ٠

بالثورة السابقة لثورة ابراهيم بن عبد الله المحض (التي انتهت بالخلاص من العلويين) : وقد ثار ابراهيم في البصرة في مطلع رمضان سنة ١٤٥ أي بعد شهرين من اعلان أخيه محمد الثورة في المدينة لكن لم ينتفع الأخوان من تواقت الثورتين لأن ابراهيم إنما خرج قبل أسبوعين فقط من مقتل أخيه ومع أن البصرة لم تكن دار ثورة لمثله بسبب مركزها الاقتصادي وموقعها في أقصى جنوب العراق وتنوع السكان والأهواء فيها ، وإيمان غالب أهلها «بالكف» «وعدم القتال» ورفض كل سلطة ، إلا إنها وقفت بجانب ابراهيم بسبب رفضها للعباسيين لا بسبب التشييع

لآل علي • وغلب الرجل على المدينة واستطاع أن يصرف بالحسنى والي البصرة العباسي ( سفيان بن معاوية المهلبي ) ويحتل دار الامارة ويتسلم بيت المال فيوزع ما فيه على أصحابه والطبقات الفقيرة المضطهدة التي كانت عدة لكل ثائر • ٥٠ درهما للفرد • وكان في ديوانه للجند ٤ آلاف بصري وشد ازره الفقهاء والمعتزلة والزيدية وأيده الامام ابو حنيفة وسفيان الثوري وبايعه الناس بعد مصرع أخيه ، وانتشر امره فيما بين البصرة الى واسط حيث كان يكثر الزط والزنج والقبط الفلاحون والمحرومون •• لكن الصدفة لعبت دورها في انقاذ الخليفة ابي جعفر : ذلك انه لم يكن لديه في موقفه الحرج أكثر من الفي رجل فكتب الى عيسى بن موسى ان يترك المدينة ويرجع بالرجال لقتال ابراهيم واستطاع ـ (وهو في جوار الكوفة ـ أن يأخذ هذه المدينة بالشدة والإرهاب قبل أن يصل إليها ابراهيم ففرض فيها الاحكام العرفية • ونظم الجند في ثلاث كتائب تقوم بأعمال الدورية في المدينة وتتناوب الدخول إليها وتوقد النيران الكثيرة في الليل بالمعسكر للإيهام • ومنع الدخول والخروج من الكوفة وأخذ تعهداً من بعض رجالها بالسكينة •• وفي الوقت نفسه أرسل أبو جعفر فاحتل الأهواز بواسطة خازم بن خزيمة وطرد والي ابراهيم عليها • وأتى من الري بسلم بن قتيبة الباهلي وجنوده لاستمالة بني باهلة في البصرة ••

كل ذلك وابراهيم ، بالمقابل متردد بطيء التحرك لا يستجيز لنفسه السير الى الهاشمية ومهاجمة أبي جعفر الذي كان في الواقع تهيء نفسه للهرب واللحاق بابنه في الري ولا مباغتة الكوفة لئلا تقع مجزرة يذهب فيها الابرياء وفضل مواقعه الجيش العباسي نفسه وجهاً لوجه • وقد كان ذلك ، اذ سرعان ما جاء الخبر أن ثورة المدينة قد أخمدت • وعاد عيسى المنتصر في ١٥ ألفاً فلقي ابراهيم سائراً نحو الكوفة في حوالي

عشرة آلاف • وكانت المعركة في باخمري (جنوب الكوفة) وهزم ابراهيم وقتل (٢٤ ذي القعدة سنة ١٤٥/١٣ شباط سنة ٤٦٣) بعد سبعين يوماً من مصرع أخيه • وحين وصل رأسه الى أبي جعفر تنفس الصعداء وقال :

وألقت عصاها واستقرت بها النوى    كما قر عيناً بالاياب المسافر

أما قلق أبي جعفر وحرج مصيره في تلك الأيام العصيبة فلعله يصورها ما رواه الطبري عن «السندي» وصيف أبي جعفر القائم بالمذبة على رأسه قال : «••• لما كشف أمر ابراهيم وغلظ أقام (أبو جعفر) على مصلى نيفاً وخمسين ليلة ينام عليه ويجلس عليه وعليه جبة ملونة قد اتسخ جيبها وما تحت لحيته منها • فما غير الجبة ولا هجر المصلى حتى فتح الله عليه [1] •••» •

وعلى أثر هذه الانتصارات على العلويين اتخذ أبو جعفر لنفسه لقب المنصور : بما يحمل اللقب من مفهوم ديني واسطوري تنبؤي •

### ٣ ـ مشكلة الخوارج :

تلك الخلافات التي جرت خلافاً بين اقرباء وابناء عمومة واخوة، على أمر مقرر فيما بينهم انه لهم • ولكن تلك الفرقة المسلمة (الخوارج) التي ترى ان الخلافة حق لكل مسلم ، كانت ما تزال منبثة بين المسلمين• ولم يكن رأيها في البيت الحاكم الجديد ليختلف عن رأيها في البيت البائد : فكلهم لا يصلح للخلافة ، ولم يختر اختياراً حراً صريحاً ولم يستوف الشروط التي يجب توفرها في الإمام وكلهم يجب الخروج عليه ومقاتلته ، وعزله ان امكن وقتله •

---

(١) الطبري ج٧ ص٦٣٩ (٣٠٦/٣)

على أن المجموعة الخارجية كانت منذ أواخر العهد الأموي قد اختلفت عن عهدها الاول قبل قرن في ثلاثة أمور :

أ ـ كانت كتلة الخوارج من العرب وخاصة البداة فانضاف إليهم قبيل العهد العباسي بعض الايرانيين في فارس وكرمان وسجستان وخراسان وأعداد هائلة واسعة من البربر في افريقية والمغرب •

ب ـ كانت قضيتهم سياسية فقط فأصبحت سياسية اجتماعية • وكانوا يثورون لمشكلة الحكم فصار العدل الاجتماعي ورفض الظلم والدفاع عن الضعفاء من عقائدهم المحركة •

حـ ـ وكانت المواقع الجغرافية التي يتمركزون فيها ، في العهد الأموي هي الاقاليم المركزية ما بين الجزيرة والعراق حتى الاهواز وفارس ثم تحولوا منذ أواخر ذلك العهد الى أقاليم أكثر بعداً عن المركز: الى اذربيجان وسجستان وخراسان وكرمان وعمان واليمن وخاصة الى افريقية • كانت الضربات المتلاحقة نوعاً من القوة النابذة جعلتهم يلجأون إلى المناطق البعيدة عن المتناول القريب للسلطة دون أن يتخلوا بالطبع عن مراكزهم الأولى •

وبالرغم من أن قوة الخوارج كانت قد خضدت منذ العصر الأموي الأخير فإن مجيء العباسيين لم يغير موقفهم من الثورة وقد حاربوا بني العباس في صلابة وجلد لايقلان عما كان منهم في عهد بني أمية • ولم يكن قد مضى على أبي العباس فيالعرش سنة واحدة حين تحرك عليه الخوارج :

**١ ـ في الجزيرة :**

تحرك بريكة بن حميد الشيباني مع قبائل ربيعة ، في الجزيرة ، وهذه القبائل وتلك المنطقة كانت دوماً بؤرة الحركة الخارجية • وقد

انضم الى الثائرين بعض الأمراء الامويين مثل محمد بن سعيد بن عبد العزيز • وامتدت الثورة بين داراوماردين فوجه أبو جعفر ـ وكان والي الجزيرة ـ إليهم مقاتلا العكي فدحر بريكة أولاً فلما تحصن في جبل دارا حاصره حتى لقاه مصرعه •

### ٢ ـ في اذربيجان :

وثار مسافر بن كثير الشيباني أيضاً في اذربيجان وأرمينية ويعرف بمسافر القصاب[١] • وكان الضحاك بن قيس قد عينه عاملا على هذين الاقليمين قبل أن يقتل سنة١٢٨ وتبعه هناك جماعة كثيرةواستولىعلىعدد من المواقع (اردبيل ، البيلقان ، قلعة الكلاب •••) فتولى أبو جعفر ، في ولايته للجزيرة وأرمينية ، أمر قتاله وأرسل اليه بأمر أبي العباس القائد محمد بن صول ، الذي تمكن من هزيمته وقتله • وفر أتباعه إلى مناطق سجستان •

### ٣ ـ في عمان :

وتحرك خوارج عمان الاباضية[٢] وعلى رأسهم الجلندي بن مسعود الأزدي ، الذي أعطى الإمامة وأعلن استقلال منطقته في عاصمته (نزوة) كما تحرك الخوارج الصفرية بزعامة شيبان بن عبد العزيز اليشكري ، في جزيرة ابن كاوان (في الخليج) الذي أعلن أصحابه اختياره

---

(١) البلاذري فتوح البلدان (تحقيق المنجد) ج١ ص٢٤٦

(٢) ـ هم من الاباضية اتباع عبد الله بن إباض وقد توفي زمن عبد الملك وما تزال بقاياهم الى اليوم في زنجبار وحضرموت والمغرب وأما شيبان اليشكري هذا فكان من اتباع الضحاك بن قيس الذي ثار في عهد مروان بن محمد سنة ١٢٧ ثم قتل سنة ١٢٨ وهرب بعض اتباعه وفيهم شيبان الى عمان .

للإمامة أيضاً • فأرسل أبو العباس أحسن قواده خازم بن خزيمة التميمي، سنة ١٣٥ في جيش حمله البحر الى جزيرة ابن كاوان أولاً •ولكن شيبان انهزم أمامه وركب البحر مع أصحابه هاربين الى ساحل عمان لكن الجلندي تلقاهم هناك بالعداء ونصب لهم كمينا فيما يظهر فانتهى الأمر بعد القتال الشديد بمصرع شيبان وأصحابه •••

ووصل خازم بن خزيمة بعد ذلك فنزل الساحل ، عند بقعةصحراوية منه فخرج لهم الجلندي على شاطيء البحر ورفض اعلان الولاء للعباسيين وقاتلهم ثلاثة أيام كانت الحرب فيها سجالاً بين الطرفين حتى أشار بعض أصحاب خازم [1] عليه أن يأمر جنوده فيجعلوا المشاقة على أطرافه الأسنة ويرووها بالنفط ويشعلوا فيها النار ليضرموا بها بيوت الخوارج الخشبية • فلما اشتغل الجلندي وأصحابه بعيالهم وبالحريق، تمكن خازم من وضع السيف فيهم فقتل عشرة آلاف منهم حملت رؤوسهم ، عن طريق البصرة ، الى السفاح •

على أن معركة ( جفار ) هذه وإن أنهت التمرد الخارجي في عمان إلا أنها لم تنه الوجود الخارجي فيها ولا ألغت الإمامة فقد ظل الإباضية هناك على مذهبهم وعلى اختيار إمام منهم فيما بعد • وقبل الولاة العباسيون ذلك وأول وال عباسي على عمان هو الذي دشن سياسة المرونة والاعتراف بالإباضية ونفوذهم في عمان ، فبقوا سادة المنطقة • ولا شك أن السبب الاساسي في ذلك إنما يعود إلى أن طريق التجارة العالمي بين البصرة والهند كان يمر بحراً بخليج عمان وكان العمانيون

---

(١) راجع في تفاصيل ابن الاثير ج٥ ص٤٥١-٤٥٢ والطبري ٤٦٢-٤٦٤ (٣/٧٨-٨٠)

بحارة ممتازين لا بد من ضمان الهدوء في بحرهم لتستقر التجارة ويأمن الطريق •

٤ ــ وما طال العهد بأبي العباس ليرى الثورة الخارجية التي قامت في الجزيرة سنة ١٣٧ بعد سنة من ولاية أخيه ، يقودها ملبّد بن حرملة الشيباني[١] الذي فرض نفوذه ما بين أذربيجان وأرمينية الى تكريت واحتل الموصل وقتل الحاميات العباسية الكثيرة • ولم يستطع قائد المنصور يزيد بن حاتم المهلبي ، أن يمثل دور عمه المهلب بن أبي صفرة فانهزم ، وانهزم من بعده قواد آخرون عديدون ، حتى وصل خازم بن خزيمة في ٨ آلاف مقاتل ولحق بالثائر الخارجي الى ما وراء الموصل في الشمال ، فانتصر وقتل ملبد في مذبحة لم تكن أقل شأناً من وقعة الجلندي ولا مواقع الامويين الاولى •

٥ ــ وتحركت الصفارية في أرمينية مرة أخرى ، فوجه المنصور قائده الحسن بن قحطبة عاملا عليها • واضطر الحسن أمام قــوة الخوارج لطلب المدد من الخليفة • وانتهى بأن انتصر عليهم بعد أن قتل ــ على رواية اليعقوبي ــ في يوم واحد ستة عشر الف انسان • ثم انصرف الى تفليس ، فقتل من كان معه من الاسرى أيضاً •

٦ ــ وقد قامت عدا هذا وذاك ثورات أخرى للخوارج في الموصل خاصة ولكن بأعداد تافهة من مائة أو مائتين ( كثورة عطية بن بعثر التغلبي وثورة حسان بن مجاهد الوادعي سنة ١٤٨/٧٦٥ ) ولكنها كانت تمردات ناقمة صغيرة ذات طابع بدوي تجتمع حــول قائد ناقم حتى إذا قتل تفرقت •

---

(١) تفاصيل ثــورة الملبد لــدى الطبري ج٧ ص٤٩٥ـ٤٩٦ ثم ص ٤٩٨ ــ ٤٩٩

٧ ـ وثار خوارج اليمن على أبي جعفر سنة ١٤٠ وكانوا بقية تلك الجماعة التي قادها قبل عشر سنوات أبو حمزة الخارجي حتى المدينة . وقد سلط عليهم أبو جعفر سنة ١٤١ أحد قادته الاشداء : معن بن زائدة الشيباني وهو من ربيعة مع تعليمات بأخذ الناس بالشدة فبقي هناك سنوات قتل فيها الكثيرين حتى أحفظ اليمانيين ضده . وحين عين أبو جعفر على البحرين واليمامة عقبة بن مسلم الأزدي اليماني أوقع المجازر الرهيبة بقبائل ربيعة فيها ثأراً لليمانيين .

وإذا رضي المنصور عن عمل الاثنين فانما كان ذلك لخطة سياسة اختطها في الخلاص من خوارج اليمن من جهة وتفجير التحالف التقليدي بين اليمن وربيعة من جهة أخرى وإثارة العصبية القبلية والثأر بينهما لئلا يتفق الطرفان عليه . ونجح المنصور بينما دفع الربعي واليماني ثمن أعمالهما فقتل معن في سجستان من قبل بعض اليمانية كما اغتيل عقبة اليماني في بغداد .

٨ ـ في سجستان : وتحرك الخوارج في أواخر عهد المنصور في أصقاع ايران الجنوبية في كرمان وفارس وخاصة في سجستان حيث كسبت هذه الحركات ، في الواقع ، بعض العطف من الموالي الايرانيين الذين وجدوا فيها تعبيراً عن نقمتهم المكبوتة ضد الحكم العباسي . وقد كانت أخطر تلك الثورات الخارجية وأهمها وأطولها عمراً تلك التي عرفتها منطقة سجستان[١] .

فهذه المنطقة الداخلية التي تمتد جغرافياً مابين حوض السند وخراسان كانت قد دخلت في إطار الفتح الإسلامي منذ عهد عثمان .

---

(١) يدخل قسم منها في غرب افغانستان الحالية وقسم في ايران .

وعاهدت • وترك لها الحكم العربي أميرها الذي يبدو أنه كان يلقب رتبيل وترك لها دياناتها • وكانت مناطقها الغربية زارادشتية أما في الشرق الجبلي فيبدو أنها كانت بوذية ولها معابدها وفيها أصنام من ذهب أعينها من ياقوت[1] أما عاصمة الامراء فكانت بلدة زرنج في الاحواض الواطئة وكان الحجاج قد صالح هؤلاء الامراء على أن يدفعوا كل سنة ألف درهم[2] عروضاً لا مالاً • ثم انقطعت هذه الإتاوة منذ عهد يزيد بن عبد الملك فلم يعد رتبيل سجستان يعطي أحداً من عمال بني أمية شيئاً ••

وفي أثناء ذلك كانت بعض الجماعات العربية قد توطنت في المنطقة وكان قسم واضح منها هو من تلك الجماعات الثورية المهزومة في العراق والجزيرة كما كان بعضهم من أهل الشام • وإذا هرب ابن الأشعث الى سجستان وانتحر هناك فان الجماعات الخارجية وجدت فيها مهرباً بعيداً أميناً واستطاعت أن تشكل فيها بؤرة واسعة ما لبثت أن أضحت ناشطة ديناميكية خطرة • ويروى « أن أول من دعا أهل سجستان ( يعني العرب المستوطنين فيها ) الى رأي الخوارج رجل من بني تميم يقال له عاصم أو ابن عاصم » ويبدو أن التوطن العربي كان في المناطق الغربية المنبسطة أكثر منه في المناطق الشرقية

---

(١) يذكر البلاذري ان الفاتحين كسروا صنما من هذا النوع (فتوح البلدان ج٢ ص٤٨٦)

(٢) البلاذري (فتوح ص ٤٩٣) يرد لديه هذا الرقم الذي يبدو انه يمثل الأتاوة الشخصية المفروضة على الملك وحده لا على المنطقة كلها ، فخراجها تجاوز ارقاما من مثلثات الالوف (انظر البلاذري ص ٤٩١ ، وانظر ابن حوقل ص ٣٥٧ ، وانظر اليعقوبي ص ٢٨٦)

الشمالية الجبلية الوعرة ، كما يبدو أن السكان الاصليين هم من تلك المناطق وهم زارادشتيون لم يقبلوا إلا الاقبال القليل على الاسلام مثلهم كمثل أهل خراسان وايران ولكنهم أكثر من هذا لم يبدو أي اهتمام بالمشاغل السياسية التي كانت تشغل رؤوس الخوارج • ولهذا فقد كانوا ـ فيما عدا من يدخل الاسلام منهم على أيدي الخوارج وعلى المذهب نفسه ـ خارج نطاق تلك المعركة التي كان هؤلاء يقودونها منذ العصر الاموي واستمروا عليها في العصر العباسي • ظلت الحركة الخارجية مذهباً غريباً لجماعة غرباء • ولكن أهل سجستان وأميرها كانوا ينظرون بعين الرضى دون شك الى تلك الملاحم والمعارك التي كانت تقوم بين هؤلاء الغرباء وبين خلفاء دولتهم • أو كانوا يتعاونون بالفعل مع تلك الثورات لأنها على الاقل تنتقم للظلم والتعسف الخراجي الذي كان الناس غالباً ما يلقونه من عمال الدولة وتعطيهم الفرصة للتعبير عملياً عن تذمرهم من الحكم الغريب وأصحابه •

ويبدو أن الثورات العديدة في خراسان ثم ما كان على يدي المنصور من الثورات الاخرى قد سمح لسجستان أن تتابع علاقاتها العادية مع الخلافة العباسية الناشئة دون أن تدفع لها الإتاوة « فلم يدفع رتبيل لعمال أبي مسلم » يوم كان صاحب خراسان أي شيء[1] بالرغم من أنه بعث إليهم ثلاثة عمال واحداً بعد الآخر قبل أن يقتل : بعث مالك بن الهيثم من أهل خراسان الذي طلب من سجستان إخراج من فيها من أهل الشام وأذن من يحميهم بالحرب ويبدو أنه أخرج جماعة من القيسية قبل أن يفتديهم الناس منه بألف درهم ثم أخرجوه

(١) البلاذري ـ فتوح ص٤٩٣

من البلد فبعث أبو مسلم عمر بن العباس من أحفاد حاجب بن زرارة فلما قتلوا أخاه حاربهم وحاربوه حتى جاء بدلا عنه أبو النجم عمران ابن اسماعيل •

وكذلك لم يدفع أمير سجستان شيئا من بعد لأبي جعفر المنصور الذي شغل عنه بما كان على يديه من المشاكل الثورية الى سنة ١٤٥ • فلما استقرت له الامور بعد ذلك اتجه الى فرض نفوذه الفعلي في سجستان وعين لها ابراهيم بن حميد المروزي الذي كان من الطبيعي أن يأخذ الناس بالخراج وأن يطالب رتبيل سجستان الذي كان انحاز الى المناطق الشرقية الجبلية بالإتاوة السنوية[1] •

ويظهر أن عودة النفوذ للحكم العباسي كانت ثقيلة سواء على السكان الاصليين والأمير من جهة أو على الجالية العربية ومعظمها قد أشرب الفكر الخارجي فتمخض ذلك عن ثورة خارجية انفجرت سنة ١٥٠ ولم يستطع ولي العهد المهدي أن يقوم حيالها بشيء كثير وطلب النجدات من أبيه • فقد استدعى المنصور على الفور واليه على اليمن : معن بن زائدة الشيباني • الذي كان قد برهن[2] بعنفه الدموي هناك — تسع سنوات — عن سيرة تشبه سيرة الحجاج في الفتك وإقرار النظام •

وتسمية معن لولاية سجستان وهو المعروف بتعصبه القيسي ضد اليمن يدل على أن الجمهرة الواسعة من عرب سجستان كانت يمنية

---

(١) خليفة بن خياط — تاريخ ج٢ ص٤٣٩ ونجد تفصيل الخبر لدى اليعقوبي — البلدان ص ٢٨٥

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٣٧٢

كما يدل على محاولة تألف من بها من الخوارج القيسية الشيبانيين وقد رماهم المنصور بمعن رغم كبر سنه « فقدم سجستان وانصرف المهدي وأقام معن وبعث عماله عليها يجبون الخراج سنة ١٥١ . وكتب – كما يقول البلاذري – إلى رتبيل يأمره بحمل الإتاوة التي كان الحجاج صالح عليها . فبعث بإبل وقباب تركية ورقيق . وزاد من قيمة ذلك للواحد ضعفه فغضب معن[1] ...» وقام للحرب ولعل الطلب نفسه لم يكن أكثر من وسيلة لشن الحرب على امير سجستان الذي أعان أو تعاون مع الخوارج دون الدولة ولم يكن لغضب معن سوي هذا التفسير لأنه أعقبه بقصد منطقة الرخج (في الشرق) وعلى مقدمته يزيد ابن مزيد ( ابن أخيه ) فوجد رتبيل قد خرج منها ومضى الى ذابلستان ليضيف بها . ففتحها وأصاب سبايا كثيرة ... » « وكانت عدة من سبي وأسر زهاء ثلاثين ألفاً » و « وطلب ماوند خليفة رتبيل الأمان على انه يحمله (معن) الى أمير المؤمنين فامنه وبعث به الى بغداد مع خمسة آلاف من مقاتلتهم فأكرمه المنصور وفرض له وقوده[2] ... » بينما « أقام معن لقتال من هناك من الخوارج حتى قتل منهم خلقاً عظيماً وافناهم[3]» وخاف معن « شتاء الجبال وهجومه فعاد الى بست » من البطاح الواطئة حيث بنى لنفسه منزلا ولكن « قوماً من الخوارج أنكروا سيرته ولما رأوا أنهم لا قوة لهم بمحاربته استعملوا الحيلة فاندسوا

---

(١) البلاذري : فتوح ٤٩٣ – ٢٩٤ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٤

(٢) البلاذري فتوح ص ٤٩٤ وقد اسر في هذه الواقعة رجل اسمه زياد الرخجي سيكون لابنه الذي اسر معه مكانته في البلاط العباسي وهو فرج الرخجي ، وقد روى فرج نفسه بعض مشاهد تلك الواقعة الرهيبة.

(٣) اليعقوبي ج٢ ص٣٨٤ وانظر كذلك اليعقوبي في كتاب البلدان ص٢٨٥ .

مع فعلة كانوا يبنون المنزل وأخفوا سيوفهم في حزم القصب وتربصوا أياما حتى دخلوا عليه وهو يتحمم في قبته ففتكوا به[١]» •

ويتنازع دعوى الفتكة هذه ثلاث هجمات : فالمؤلف المجهول صاحب تاريخ سجستان يعزو مقتل معن الى ظلمه وطغيانه الاداري والمالي فأهل سجستان هم الذين دبروا اغتياله • والمؤرخون اليمانيون كالخزرجي يجعلون ذلك ثأرا قبليا يمنيا قام به اثنان من الحضارمة انتقاماً لأهلهما الذين قتلهم معن في اليمن فلحقوه بالثأر الى سجستان • وباقي المؤرخين ومنهم البلاذري واليعقوبي والطبري[٢] ، وهم أقرب المؤرخين لذلك العهد يجعلونها مؤامرة خارجية • وبالرغم من أن الظلم الإرهابي والمالي قد يكون من بعض أسبابها ومن أن الذين نفذوها قد يكونون من اليمن إلا أنها كانت على الأرجح من عمل الخوارج بدليل أن يزيد بن مزيد الذي تسلم الولاية إثر مقتل عمه « تجرد ( لهم ) فقتل من الخوارج خلقاً عظيماً حتى جرت دماؤهم كالنهر •••»[٣] كما قتل أصحاب المؤامرة ومنهم « أبو الغلام الطاقي[٤] فلم ينج منهم أحد •••»

واشتدت وطأة ( يزيد ) على العرب والعجم من أهل سجستان ••• فاحتال بعض العرب فكتب على لسانه كتابا الى المنصور يخبره أن كتب المهدي قد حيرته وأدهشته ويسأله أن يعفيه من معاملته ( أي من التبعية له ) فأغضب ذلك المنصور » كما أغضب المهدي فعزله وأمر بحبسه وبيع

---

(١) البلاذري ـ فتوح ص٤٩٤ ـ واليعقوبي ج٢ ص٣٨٤

(٢) انظر الطبري ج ٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٤ والبلاذري فتوح ص ٤٩٤ . وانظر الخزرجي مخطوط الكفاية والاعلام . وتاريخ سجستان ( ط . طهران ١٣١٤ ) .

(٤) البلاذري ص ٤٩٤

كل شيء من زرنج • ثم إن كلم فيه فأشخص الى بغداد فلم يزل بها مجفواً ••• »[1] •

غير أ نالخوارج لم يرضهم أن يخرج يزيد سالما معافى عنأيديهم فلحقوه بمؤامرة اغتيال أخرى كانت الاولى والاخيرة من نوعها يقوم بها الخوارج في قلب بغداد على الجسر ويظهر أنهم كانوا جماعة كبيرة حين قاموا بها ••• يقول اليعقوبي إن يزيد « كان يركب في موكب ضخم من موالي عمه وعشيرته فلم يظفروا له بغرة حتى صار على الجسر ببغداد فشدوا عليه فترجل فقتل منهم خلقاً عظيماً وضربوه ضربات بالسيوف وكانت وقعة جليلة ••• فلايعلم أن الخوارج دخلت قط بغداد ظاهرا فقتلت أحدا الا ذلك اليوم ••• » ولكن يزيد نجا من القتلوخرج من المعركة ببعض الجراح التي « حركت أمره قليلا » ـ كما يقول البلاذري ـ لدى بلاط بغداد •••

أما خوارج سجستان فقد كان نجاحهم في قتل معن وإبعاد يزيد من العوامل التي شجعتهم على متابعة الحركة الثورية متابعة فعالة • وإذا كانت سجستان قد عرفت بعد ذلك زعيما خارجيا اسمه عامر الشيباني الخارجي ثار مع ألف من أتباعه ثم قتل قبل مضي سنة على ثورته • فا نالتحرك الخارجي هناك سوف يشهد في زمن المهدي والرشيد نشاطاً خطيراً واسعاً وإذا كان عامر الشيباني ، من العرب فسوف يكون الزعماء الخوارج المقبلون في سجستان من الموالي كيوسف البرم مولى ثقيف والحصين مولى ثعلبة وحمزة بن أترك فكأنما ظهرت بهؤلاءوتأيدت المرحلة الثانية للحركة الخارجية التي انتقلت في العهد العباسي من

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٩٤ـ٤٩٥

الاحتكار العربي والشكل البدوي الى النطاق الاسلامي الأوسع وإلى أيدي الموالي سواء في المشرق الاسلامي أوفي افريقيا والمغرب •

ولما كانت ثورات الخوارج لمبدأ يعتبرونه من الفروض الدينية فانه لم يكن لمصارعهم المتكررة الا تأثير محدود على انتشار الفكرة الخارجية وعلى معاودة الثورة • وهكذا نجدهم يعاودون الخروج كالعادة دون ملل • ولكن مصارعهم وفشلهم المتكرر وقلة انصارهم كل ذلك دفعهم بعيدا عن مركز الحكم لعلهم يأمنون اليد القوية للسلطة • وإذا كانت ايران أو عمان أو اليمن أو حتى سجستان ماتزال قريبة الموقع من العراق فقد كا نمن حسن الاختيار والتفكير بالنسبة اليهم إنشاء مراكز لهم وقواعد في أفريقية القصية • وهناك في الواقع قامت أقسى الثورات وأطولها عمراً •

## ٩ ـ خوارج افريقية والمغرب ( الصفرية والاباضية ) :

كانت منطقة افريقية والمغرب قد ظهرت فيها ومنذ العهد الاموي أسرة حاكمة وراثية محلية لحساب الامويين هي أسرة حبيب الفهري • وكان الوالي الاموي أيام انتصار العباسيين في المشرق هو عبد الرحمن ابن حبيب الفهري الذي استقل بالامر في بلاده دون الاعتراف بخليفة العراق • وكانت الدعوة الخارجية منتشرة متفشية بين البربر خاصة في تلك البلاد ، منذ مطالع القرن الثاني الهجري ، وتجد القبول لديهم بسبب مايجدون فيها من التسوية مع العرب من جهة ومن التعبير العملي الثوري عن استيائهم ورفضهم للظلم ولحكام المركز والمشرق من جهة أخر •

وقد وجد الفكر الخارجي هناك ، خلال العهد الاموي الاخير ، تربته الخصبة فاستغلها وانتشر الانتشار الواسع فلما كان الانقلاب

العباسي اغتنم الخوارج الفرصة فوسعوا من قواعدهم هناك وبرز منهم خاصة مجموعتان :

١ ) الصفرية ( أتباع زياد بن الأصفر وكانوا لا يكفرون العقدة ) وقد انتشرت أفكارهم في الاقاليم الغربية من افريقيا ( الجزائر الحالية ) والمغرب وتزعمهم أبو قرة المغيلي اليفرني الذي أعلن نفسه إماماً في تلمسان سنة ١٣٩ ــ ٧٥٧ ــ ٨

٢ ) الاباضية وقد استمالوا الناس في المنطقة الممتدة مابين طرابلس وتونس • وانتخبوا سنة ١٣٩ أيضا أبا الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري إماما آخر • وقد سبقت الصفرية الاباضية في الانتشار هناك كما كانت اكثر اتساعا في المناطق وقد استطاعت سنة ١٤٠ ان تحتل القيروان وأن تبني في السنة التالية سنة ١٤١ ــ ١٤٢ مركزا صفريا جديداً هو مدينة سجلماسة • وبذلك انقطع المغرب ــ لفترة ما ــ عن الخلافة في المشرق وخلص للخوارج الذين عرفوا في تلك الفترة عصرهم الذهبي في افريقيا ••• لاسيما وأنهم استغلوا انصراف العباسيين للشرق ومافي الشرق من فتن كما أنهم نالوا تأييد البربر ثم استكملوا أسباب السيطرة على المغرب كله بمقتل حبيب بن عبدالرحمن بن حبيب الفهري على يد الصفارية سنة ١٤٠ وانقراض الاسرة الفهرية التي كانت تسيطر على ولاية المغرب للامويين ثم لحسابها •

ولكن انقسام الخوارج وتصادم الفرقتين إحداهما مع الاخرى دمر السلطة الخارجية الناشئة فقد سارت الاباضية من طرابلس ضد الصفرية الذين احتلوا القيروان بحجة استنكار ماسفكوا من الدماء وارتكبوا من المعاصي والمنكرات والطغيان • واستطاع أبو الخطاب أن

يهزم الصفرية عند القيروان ويدخلها ( صفر سنة ١٤١ ) ويعين لها والياً من قبله هـو عبد الرحمن بن رستم[1] الفارس .

وسير الخليفة أبو جعفر : محمدا بن الاشعث الخزاعي واليا على افريقيا سنة ١٤٣ في خمسين ألفا ، بعد أن كان بعض قواده قد فشل في دخول هذه المنطقة سنة ١٤٢ فلم يكن حظ ابن الاشعث بأحسن منه لكنه استطاع بالخديعة والتظاهر بالانسحاب أن يباغت جيش أبي الخطاب ويسحقه ( صفر سنة ١٤٤ / نيسان مايس سنة ٧٦١ ) « وظن ابن الأشعث أن مادة الخوارج انقطعت وإذا قد أطل عليه منهم أبو هريرة الزناتي في ستة عشر ألفا فلقيهم ابن الاشعث وقتلهم جميعا ( ربيع الاول سنة ١٤٤ ) وكتب الى أبي جعفر بظفره وبرأس أبي الخطاب ورتب الولاة في الاعمال وبنى سور القيروان ... » وبلغ من الشدة حد الامر بقتل كل من يحمل اسما أمويا ... ولحق ابن الاشعث بالاباضية في المغرب الاوسط وقتل امامهم الجديد ( عبد الله بن حيان لكنه لم يشأ أن يتابع الطريق بعد ذلك ليقضي على الدولة الخارجية الصغيرة التي أقامها عبد الرحمن بن رستم في بلدة ( تاهرت ) ولا على الدويلات الصفرية في طنجة وتلمسان وفي سجلماسة حيث نصب الصفرية لحكم الولاية أبا القاسم بن سمعون بن واسول المكناسي . فاستمر بعد فترة اضطراب قليلة على ولايته تلك حتى سنة ١٦٨ جعل من نفسه سدا بينها وبين الخلافة العباسية لكن نجاح ابن الاشعث لم يدم طويلا فسرعان ماسقط صريع النزاع القبلي بين قيس ويمن داخل جيشه إذ ثار عليه بعض

---

(١) يراجع في تفصيل هذه الحركات : ابن عذاري ـ البيان المغرب بيروت ج١ (ليدن) ج١ ص ٧١ـ٧٢ وص ٧٨ـ٨٥ ، ابن خلدون ج٤ ص ٤٠٩ـ٤١١ ، وابن الاثير ج٥ ص ٣١٣ـ٣٢٠ (حوادث سنة١٢٦)

الجند المضرية وحاصره وطرده من القيروان سنة ١٤٨/٧٦٥ ...

وقد أرسل المنصور بعده الاغلب بن سالم التميمي ( جد الاسرة الاغلبية فيما بعد ) الذي نجح في الولاية لكنه صرع بدوره في نزاع مع جنده سنة ١٥٠/٧٦٦ قبل أن يكمل السنتين ... وقد سمح هذا النزاع للحركة الخارجية أن تظهر من جديد فقد تحرك في هذه المرة الخوارج الصفرية : بقيادة أبي قرة بن دوناس اليفربي الذي نصب للامامة، ومشت معه قبائل زناتة أكبر قبائل البربر وأكثرها تشبعا بالمبدأ الخارجي. وتجمع الاباضية وراء امام من أبرز الائمة المحاربين هو أبو حاتم يعقوب ابن حبيب . واضطربت سياسة المنصور تجاه المغرب حتى إنه عين الحسن ابن حبيب الكندي قائد التمرد ضد الاغلب واليا على أفريقية املا في ان يجد لديه الغناء وفي انتظار العثور على قائد في مستوى المسؤولية وقد وجده في أبي جعفر عمر بن حفص العتلي المهلبي ( من ولد قبيصة بن ابي صفرة ) وكان يعرف « بهزارمرد » وهو لقب فارسي يعني ألف رجل ..

قدم ابن حفص القيروان في صفر سنة ١٥١ في ظرف كان فيه البناء الاقتصادي في افريقيا والمغرب قد اضطرب نتيجة الاضطراب السياسي والقحط فكثرت المجاعات وضروب البؤس والفقر مما جعل تحرك الخوارج عاما . وخرجت جموع البربر من كل فج مرة واحدة فأضحت الحاميات العباسية في أفريقيا أشبه بالجزر المحاصرة ضمن المجموع الثائر ويبدو أن ابن حفص استطاع أول الامر اقرار الهدوء في المنطقة ثلاث سنوات ثم انفجرت الثورة في جميع المغرب وافريقيا : أجمعت كافة القوى الخارجية على التحرك مرة واحدة: أبو قرة ، وابن رستم ، وأبو حاتم وقرى أخرى عديدة تزيد على اثنتي عشرة يذكرون

لها أرقاما هائلة من المقاتلة[1] •

وبينما كان ابن حفص في بلدة طبنة يعمل على إخماد الثورة تجمعت حوله كل القوى وقد استطاع تفريقها عنه بالدسائس والمال ليرجع فيجد عاصمة القيروان محاصرة من قبل أبي حاتم • وقد استمر الحصار ثمانية أشهر حتى وقعت في المجاعة وأكل الناس الدواب والكلاب • وحين سمع ابن حفص أن المنصور بعث نجدة لتخليصه مع يزيد بن حاتم بن قبيصة أنف لموقفه فبادر القتال حتى قتل ( ١٥ ذي الحجة سنة ١٥٤ ) • ودخل أبو حاتم القيروان •

أنفق المنصور على جيش يزيد بن حاتم مايقدر بـ ٦٣ مليون درهم جهز بها ستين ألف مقاتل • وماكاد يزيد يصل الى طرابلس سنة ١٥٥ حتى بادر أبو حاتم الى لقائه مع الاباضية وهزم طلائع الجيش عند جبل نفوسه ثم التقى الجيشان ( ربيع الاول سنة ١٥٥ ) وبالرغم من استماتة ابي حاتم في الدفاع وتحصنه في المناطق الوعرة الا أنه خسر المعركة وخسر معها حياته • وقتل من جيشه حوالي ثلاثين ألفاً وظل العباسيون يقتلون الخوارج في جبل نفوسة قرابة الشهر •••

ثم غدا يزيد الى القيروان فدخلها ( ٢٠ جمادى الاخرة سنة ١٥٥ ) بينما تراجع الخوارج الاباضية بعد سحق ثورة أخرى قاموا بها في طرابلس الى المغرب الاوسط ••• وتعقبهم يزيد في الجبال ويقولونانه

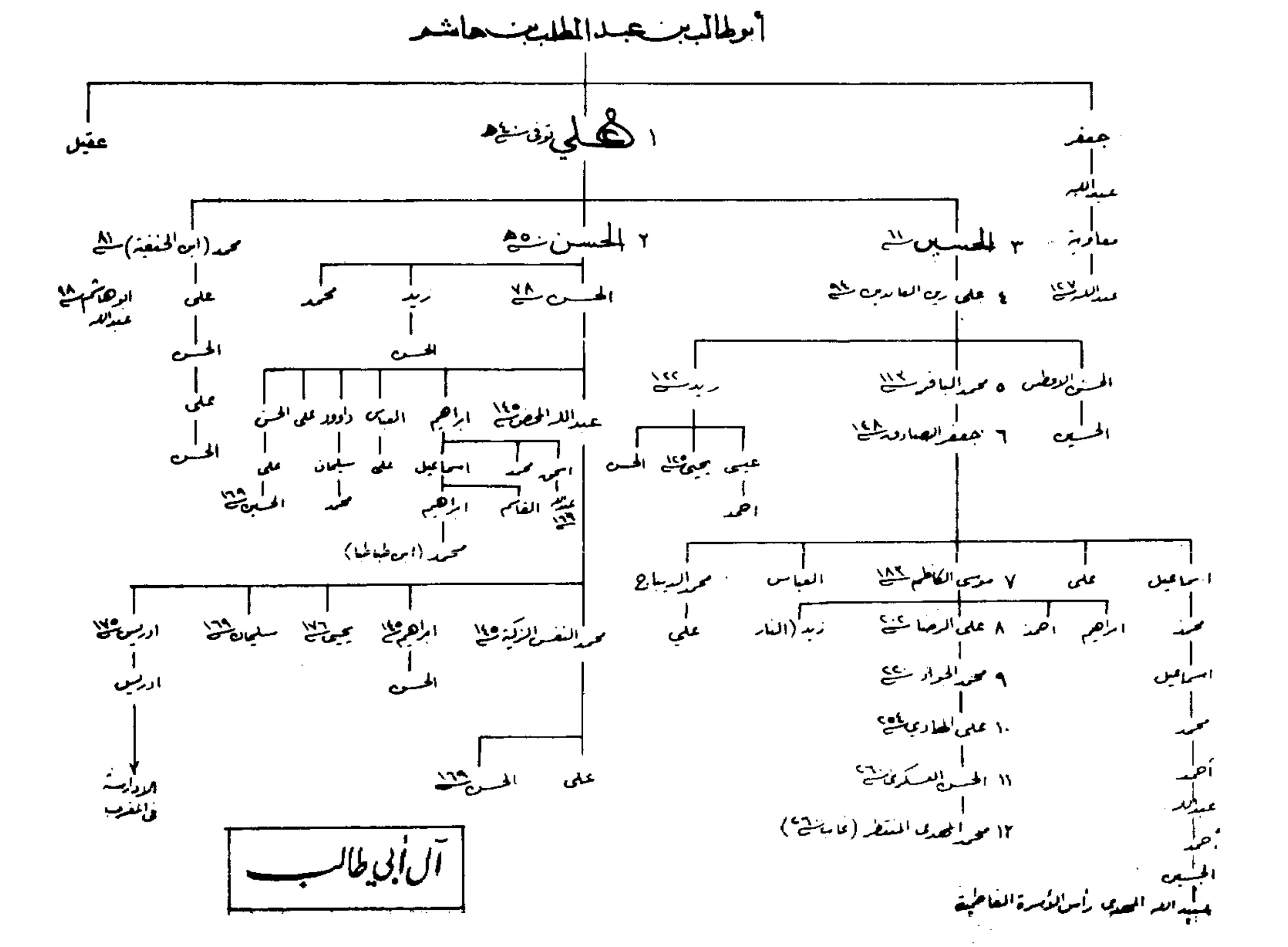
---

(١) ذكر ابن عذاري (البيان المغرب ــ ج١ ص ٩١ ) ان عدد قوات البربر مجتمعة كانت ٣٥٠ الفا و ٤٠ الفاً مع أبي قرة عدا ٣٥ الفاً من الخيل و ١٣٠ الفاً كانت عدة جيش أبي حاتم .. وهي أرقام مبالغ فيها لا تدل على اكثر من وجود الجموع الكثيرة .

كان بين الخوارج وجند المنصور منذ بدأ عمر بن حفص قتالهم إلى نهاية أمرهم نحو من ثلاثث مائة وخمس وسبعين موقعة ....

ولكن يزيد استطاع أن يمنح بعد ذلك منطقة افريقيا والمغرب فترة من الهدوء والاصلاح الداخلي والعمران وتنظيم الحرف والاسواق والازدهار الاقتصادي لم تشهدها منذ أيام حسان بن النعمان وقد استمرت حتى وفاته في رمضان سنة ١٧٠ أيام الرشيد .





أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم
جعفر
عبد الله
معاوية
عبد الله ١٢٧
١ علي توفي سنة ٤٠ هـ
عقيل
٢ الحسن سنة ٥٠ هـ
٣ الحسين سنة ٦١
محمد (ابن الحنفية) سنة ٨١
أبو هاشم عبد الله ٩٨
علي
الحسن
علي
الحسن
الحسن سنة ٧٨
زيد
محمد
الحسن
٤ علي زين العابدين سنة ٩٤
الحسن الأفطس
الحسين
٥ محمد الباقر سنة ١١٤
٦ جعفر الصادق سنة ١٤٨
زيد سنة ١٢٢
عيسى
يحيى سنة ١٢٥
الحسن
أحمد
عبد الله المحض ١٤٥
ابراهيم
العباس
داوود
علي الحسن
أحمد
محمد
اسماعيل
علي
سليمان
علي
محمد
الحسين ١٦٩
القاسم
ابراهيم
محمد (ابن طباطبا)
محمد النفس الزكية ١٤٥
ابراهيم ١٤٥
يحيى ١٧٦
سليمان ١٦٩
ادريس ١٧٥
ادريس
الأدارسة في المغرب
الحسن
علي
الحسن ١٦٩
اسماعيل
علي
٧ موسى الكاظم ١٨٣
العباس
محمد الديباج
ابراهيم
أحمد
٨ علي الرضا ٢٠٣
زيد (النار)
علي
٩ محمد الجواد ٢٢٠
١٠ علي الهادي ٢٥٤
١١ الحسن العسكري ٢٦٠
١٢ محمد المهدي المنتظر (غاب سنة ٢٦٠)
محمد
اسماعيل
محمد
أحمد
عبد الله
أحمد
الحسين
عبيد الله المهدي رأس الأسرة الفاطمية
آل أبي طالب

# الفصل الخامس

## توطيد الدولة ـ ٢

## المشاكل الداخلية

لم تكن هذه المشاكل أخطارا كبيرة تستهدف العرش العباسي مباشرة ومن حيث الاساس ، ولكنها كانت انحرافات في مفهوم الحكم والدين تنجت عن الاشخاص الذين تولوا الدعوة العباسية بجهودهم وتأييدهم وعن الاقاليم التي قامت بها الدعوة ومابها من رواسب دينية واجتماعية واقتصادية وعن الطريقة الواسعة المتسامحة التي سلكها الدعاة العباسيون في العمل وفي جمع الانصار وبمعنى آخر ظهرت من ذيول الدعوة العباسية ، وفي أعقاب الثورة ، وبعد نجاحها مشاكل من انواع ثلاثة : بعضها يتعلق بزعماء الدعوة من الايرانيين خاصة ، وبعضها يتعلق بالشعب الايراني ممن تجند معها أملا في تطورات بعيدة ، أو ممن حركته الثورة لانتظار أو لمحاولة تحقيق تطورات سياسية ودينية واجتماعية ملائمة لآماله فلم يتحقق له ذلك .

ومعظم هذه المشاكل لم يكن هدفه المطالبة بالخلافة ولكنها هددت الامن الداخلي للدولة وكان أصحابها أشخاصا خطرين على شخص الخليفة أو على دين الدولة واستقرارها لاحركات ذات آراء سياسية مناوئة للسيادة العباسية . وكا نمن نتائجها توطيد الادارة العباسية

في مختلف الاقاليم ودعم سلطة الخلافة الجديدة واسلاميتها ومركزيتها وليس إلغاء تيارات سياسية قائمة في المجتمع الاسلامي ضد العرش •

وهذه المشاكل الكثيرة بنوعيها إنما نجمت عن أ ن العباسيين الاثنين اللذين تسلما الثورة جاهزة منتصرة الجيوش في العراق وغيره ونعني أبا العباس والمنصور أرادا أن يجعلا الدولة « عباسية » فقط ، ولهما فقط ، وفاقا للمفهوم الذي فهما به الدعوة والمبادىء • بينما كانت الثورة في دعوتها السرية • ثم في حركتها العلنية قد جرفت معها ولملمت أهواء شتى وأعواناً ذوي نوازع مختلفة وأعطت المجال بانتصارها لنمو كثير من المطامح لدى أعوانها الكبار ولم يكن يعدل غموض شعار ( الرضا من آل محمد ) إلا غموض المبادىء التي يدعو الدعاة لها كالحكم بكتاب الله وسنة نبيه وعدم المحاباة ورفض الجور الاموي •• الخ • كانوا يهدفون قبل قيام الدولة الى جمع كافة العناصر المعارضة للحكم الاموي في جهة واحدة وقد نجحوا في ذلك فلما تم لهم النصر اخذوا يصفون هذه العناصر لمصلحتهم ولان بعضها قد بدأ يعمل ضدهم حين تبين له أنه خدع قبل أن ينتصر العباسيون النصر النهائي كانوا في الواقع قد صفوا عددا من الاعوان الذين عاونوهم في مرحلة من المراحل : من امثال عبد الله بن معاوية الجعفري ، وشيبان الخارجي وبها فريد الفارسي ، والكرماني وأولاده • وإذا كان هؤلاء ليسوا من صلب الثورة ولكن من الروافد التي رفدتها • فان العباسيين لم يترددوا في تصفية أكثر أنصارهم أيا كانوا حين ثاروا يريدون فرض المفهوم « العباسي » الذي كانوا يفهمون واصطدم هذا المفهوم الثائر بالخط العباسي « الرسمي » الذي يرسمه الخليفة الجديد •

## ١ ـ ثورات الدعـاة :

وإذا كانت الثورات ، كالقطط ، تأكل أولادها فقد كان بين الثائرين والضحايا في الوقت نفسه الثلاثة الكبار الذين قامت على اكتافهم الدولة وكان فيهم عدد من الدعاة العريقين في الدعوة « للرضا من آل محمد» وفي الإخلاص للعباسية من أمثال : جهور العجلي ، عبد الجبار الأزدي ، خالد الذهلي بسام بن ابراهيم ، زياد بن صالح • وكان فيهم من ذلك عدد من الانصار العاديين ، وقد خلق هؤلاء وأولئك على السواءمشاكل داخلية مختلفة منها مثلا :

١ ــ منصور بن جمهور : الذي عينه أبو العباس واليا في السنة ١٣٢/٧٥٠ مكافأة له على ترك التولي للامويين في العراق والانحياز للعباسيين • فلما عين أبو مسلم للسند واليا آخر هو المفلس العبدي في نوع من عدم الاكتراث بأمر الخليفة لجأ منصور الى العصيان وقتـل المفلس ورفض أمر أبي مسلم الذي أرسل عليه موسى بن كعب فقضى على جيشه وألجأه الى الهرب والموت عطشاً في الرمال[١] •

٢ ــ شريك بن شيخ المهري[٢] : ولعله كان من قدماء الدعـاة لكنه رفض سياسة العباسيين في الفتك والبطش الدموي وقال : ماعلى هذا بايعنا آل محمد وقام بثورة علوية في بخارى سنة ١٣٣ • انضمـت

---

(١) انظر خليفة بن خياط ـ التاريخ ص٢٣٢ـ ، ٢٥١ـ٢٥٢ ، الدينوري الاخبار الطوال ص٣٧٤ ، الطبري ٤٦٤/٧ (٣ـ٨٠) ، العيون والحدائق ص ٢١١

(٢) العيون والحدائق ص ٢١١ ، الطبري ٥٤٩/٧ (٧٣/٣) ، ابن الاثير ٤٤٨/٥ ، النرشخي ـ تاريخ بخارى ص ٦٢ فما بعد ، اليعقوبي ج٢ ص ٤٢٥ .

اليه فيها كافة العناصر التي خاب أملها في الحكم العباسي في ماوراء النهر وخراسان كما دعمه العلويون وانحاز اليه بعض عمال العباسيين. مما جعل حركته شعبية واسعة القاعدة ( ٣٠ ألفا ) وجعل القضاء عليه صعبا • ولم يخسر شريك المعركة الا حين انفصل عنه أحد قادته من كبار بخارى : قتيبة بن تفشادة وانضم الى القائد العباسي زيادبن صالح الخزاعي • وقد قتل شريك في المعركة وأسر عدد كبير من أصحابه

٣ ـ وقد تولى زياد على الصغد وبخارى مكان شريك ومع أنه كان أحد النظراء السبعين في الدعوة[1] لكنه مالبث أن ثار بدوره على تحكم أبي مسلم في الدولة وثار في بلخ قائلا : «لقد بايعناهم على العدل وإحياء السنن وما أبومسلم الا ظالم جائر يسير سير الجبابرة وانه مخالف قد أفسد قلوب أهل خراسان ••• » ويبدو أن أبا العباس نفسه كان وراء هذه الحركة • لكن عددا من قواد زياد تركوه الى أبي مسلم الذي سار من مرو إلى آمل ثم إلى بخارى لاخماد الثورة • فهرب زياد الى بعض الدهاقنة ( دهقان باركث ) فوثب عليه الدهقان وجاء برأسه الى أبي مسلم[2] •

٤ ـ وأعلن عيسى بن ماهان وهو بدوره من قوادالثورة العباسية وأحد النظراء السبعين سخطه على ماجرى بزياد ومع أنه كان يحارب بسام بن ابراهيم العباسي الاخر الثائر إلا إنه أبلغ الناس أن الخليفة أبا العباس ساخط منكر لما فعل أبو مسلم « وقد تبرأ منه وبعث الي بعهدي

---

(١) أخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص٢١٨ و ص٢٢٠
(٢) الطبري ٤٦٦/٧ (٣/٨١-٨٢)

على خراسان ••• » ولكن أبا مسلم استطاع أن يتخلص بسرعة من عيسى إذ أرسل إلى رئيسه وصديقه أبي داود وخالد بن ابراهيم الربعي الذهلي بستة عشر كتابا وجدها من عيسى بذم أبي داوود ونقده قائلا : « ••• هذه كتب العلج الذي صيرته عدل نفسك فدونك به » وطلب أبو داوود من عيسى أن يقدم عليه ويترك ثورة بسام فلما وصل اعتقله وكشف له الكتب وجلده ثم أسلمه الى جنده فأدخلوه في جوالق وضربوه بالاعمدة حتى مات[1] ••

وقد عظم على الخليفة أبي العباس مقتل عيسى وأرسل إلى ابي مسلم أن يأخذ أبا داوودبعيسى ويقتله فرفض أبو مسلم ذلك وبعث يبسط غدر أبي داوود ويضيف أن ابن ماهان لو ترك لكان منه من إفساد الناس وحملهم على المعصية والخلاف ماكان من زياد بن صالح صاحبه •

٥ ــ تمرد بسام بن ابراهيم : وكان الرجل في الاصل من أكبر أعوان نصر بن سيار ثم انضم للدعوة العباسية وفتح لها سرخس على شيبان الحروري • ثم كان احد قواد قحطبة الطائي في الزحف على العراق ثم قاتل عبد الواحد بن عمر في الأهواز ثم كان احد قواد عبد الله بن علي في احتلال الشام وإخماد ثوراته • وقد كلف عبد الله بعد هزيمة أبي الورد أن يلاحق الخليفة السفياني أبا محمد زياد ( حفيد معاوية ) الذي هرب الى تدمر ، لاجئا إلى مقاومة القبائل الكلبية هناك• ونجح بسام في احتلال المدينة ولكنه اختلف مع عبد الله بن علي أواخر سنة ١٣٢ هـ فأعلن الثورة وخلع أبا العباس ودعا لولد علي بن أبي طالب

---

(١) المصدر نفسه ٤٧٦/٧

لكنه لم يستطع البقاء بين قبائل كلب التي هزمها في تدمر لاسيما حين قل جنده بانفصال عدد كبير من الجند الخراسانية فقطع البادية الى العراق، وبعث أبو العباس إليه بجيش يقوده خازم بن خزيمة فالتقى في ناحية المدائن . فهزم بسام وقتل عامة أصحابه وهرب فاستخفى بالكوفة .

ويبدو أنه بعث الى الامام جعفر الصادق يعرض عليه الخلافة فخشي الامام أن يكون ذلك شركاً منصوبا للايقاع به ، واتصل بأبي العباس يكشف له الامر . ثم دلهم اسماعيل ابن الامام جعفر على مكمنه فقبضوا عليه وقتلوه وقتلوا ابنه معه[1] . هل كان ذلك زهدا في الخلافة من العلويين ؟ أم كان خوفاً من القوة السياسية ؟ أم ان القصة كلها مختلقة لتبرير قتل أحد كبار الدعاة ؟ إن قضيتي بسام وشريك المهري تدلان على الاقل على أن الكثير من الدعاة لم يقبلوا بعد بتفسير كلمة ( الرضا من آل محمد ) على أنها أبو العباس .

٦ ـ ثورة جهور بن مرار العجلي : وهذا بدوره من الدعاة ومن قواد قحطبة الطائي . وقد أرسله أبوجعفر المنصور سنة ١٣٦ فقضى على ثورة سنباذ في خراسان والري وقتل من أصحابه في الهزيمة نحوا من ستين ألفا وسبى ذراريهم ونساءهم قبل أن يقتل سنباذ نفسه وهو هارب دون أن تدوم ثورته أكثر من سبعين يوما .

واستولى جهور على خزائن سنباذ وكان فيها خزائن أبي مسلم الخراساني واعتبرها جهور فيئاً فوزعها على المقاتلين وطالبه أبو جعفر بها لانها من حقه ولان فيها أيضا خزائن عمه عبد الله بن علي وكان ابو مسلم قد احتواها ... واشتد اللجاج من الخليفة على جهور فخاف وخلع

---

(١) الأزدي ـ تاريخ الموصل ص١٤٠ ، ابن الاثير ٥/٤٥٠ (وهو يذكر الثورة سنة ١٣٤)

بيعة المنصور فلما أرسل الخليفة واليا آخر إلى الري قتله جهور وأعلن الثورة • ولم يكن له من أمل كبير في النجاح إذ توجهت نحوه ثلاثة جيوش من ثلاثة اتجاهات : أحدها من خراسان والثاني من الخليفة يقوده محمد بن الاشعث الخزاعي والثالث من شمال العراق يقوده عمر بن حفص المهلبي • ومع أن نخباً من فرسان العجم حاربت مع جهور وقاتلت القتال الشديد إلا أنه هزم بعد أن قتل الكثير من اصحابه ولحق جهور بأذربيجان لعله يجد الحماية لدى واليها يزيد بن حاتم المهلبي ويجد بعد ذلك الوسيلة لاسترضاء الخليفة لكنه أخذ في الطريق وقتله بعض أعوانه(١) •

٧ ــ وعبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي كان من الدعاة والقواد العباسيين في خراسان وقد جعل أبو العباس اليه الشرطة ثم أقره عليها أبو جعفر ثم أعطاه ولاية خراسان سنة ١٤٠/٧٥٧ وهناك اصطدم برؤوس الشيعة العباسية من العرب الذين لم يرضوا إلحاحه في الجباية وعسفه فيها فسجنهم وقتل بعضهم واتهمهم بالميل للعلويين وكان منهم خالد بن كثير ولكنه خشي ثورة الأزدي إن عزله فأراد أن يخفف من قوته أولا بأن طلب منه ارسال بعض النجدات لحرب الروم فاعتذر بأن الثغور مع الترك أشد خطرا وحين عاد المنصور فأبلغه أنه سيرسل اليه القوى لصد الترك عرف ماوراء هذه النجدات فأبلغ الخليفة أنه لا يجد عنده من الميرة مايكفي القادمين و •••

وحين أرسل المنصور ولي عهده المهدي يعاونه حازم بن خزيمة التميمي ضده كان الأزدي قد ثار مدعياً أن المنصور « دعاه لعبادته »ورفع

---

(١) الطبري ج٧ ص ٤٩٥ و ٤٩٧ ( ١٢٠/٣ و ١٢٢ ) •

شعارالعلويين وبعث الى محمد ذي النفس الزكية أو الى أخيــه أن يشخص الى خراسان ليبايعه ولكن أحدا منهما لم يستجب للدعــوة الخطرة فنصب الازدي بعض العلويين واسمه ابراهيم بن عبد الله الحسني خليفــة !.

ووصل خازم بن خزيمة فانحاز اليه بعض أنصار الازدي وأعــانه آخرون عليه فانهزم ثم وقع في الاسر وحمل الى المنصور في هــاشمية الكوفة سنة ١٤٢ فصلب فيها . لم يستجب المنصور لرجائه في أن يذيقه « ميتة شريفة ! »

٨ ــ عيينة بن موسى التميمي : وكان كما كان أبوه موسى من قدماء الدعاة . وقد عين الاب واليا على السند سنة ١٣٣/ ٧٥٠ عقب ثــــورة منصور ثم استدعاه أبو العباس وخلفه ابنه عيينة . ويبدو أنه تعصب على اليمانيين وقتل عددا منهم فلما عزله المنصور سنة ١٤٢/ ٧٥٩ ثــار واعتصم بالبلد لكنه لم يصمد لجيش الخليفة كما لم يصدق معه اتباعــه فتخلوا عنه . وكان هاربا نحو سجستان حين عرف به بعض اليمانيــة فبلغوا ثأرهم منه في كمين أقاموه له .

## ٢ ــ مصارع زعماء الدولة :

وإذا كانت هذه الانتفاضات محدودة الاثر ومحصورة في المشرق، وخاصة في خراسان ويدعى معظمها السخط على أبي مسلم لا على الدولة وقد انتهت كلها بقطع رؤوس أصحابها « ولم يكن لأبي مسلم ــ كمــا قال صاحب العيون والحدائق ــ فيها تدبير ولا كثرة جنود بل مجرد السعادة والاقبال وابتداء دولة مسعودة وانتثار حبل دولة قد ولت سعادتهــا

فلايفيدالسعي في اصلاحها ... »[1] فقد كان أخطر منها بكثير تلـك المشاكل التي كان موضعها في عاصمة الدولة ومقرها وكان أصحابهـا هم أصحاب اليد العليا في قيام الدولة وتدبيرها وأصحاب السلطـان الاقوى والاقدم فيها .

والواقع أنه لايكاد يذكر قيام الدولة العباسية دونأن تذكرأسماء كل من سليمان بن كثير الخزاعي وأبي سلمة الخلال ، وأبي مسـلم الخراساني . ولكن هؤلاء أنفسهم إنما قتلوا جميعا بسيف العباسيين أنفسهم . ويعلل صاحب ( الفخري ) الاسباب قائلا : « ... وكأنالمخترع للدولة يكون عنده من الدالة والتبسط ماتأنف من احتماله نفوس الملوك وكلما زاد تبسطه زادت الانفة عندهم حتى يوقعوا به ...[2] » ولكـن هذا السبب الشخصي على وجاهته لايكفي لتعليل تلك الفتكة التـي تكررت في عهود كافة خلفاء العصر الاول تقريبا .

١ ـ فأما سليمان بن كثير الخزاعي فقد كان نقيب النقباء العباسيين حين زحفت الثورة الى العراق فإنه كان هناك في حصنه المكـين ... ولكن تعيين أبي مسلم لتلك الولاية أعاد الحزازات القديمة بين الطرفين منذ أيام الدعوة يوم كان أبو مسلم تبعاً للخزاعي .

وقدكان أبومسلم قد قص جناحا هاما من أجنحة الخزاعي حين أزال من الوجود أحد أقربائه الهامين وهو ختنه : أبوجعفر لاهز ابـن قريظ التميمي[3] . وقد كان الرجل أحد النقباء الاثنى عشر من الدعوة،

---

(١) العيون والحدائق ص ٢١١

(٢) ابن طباطبا ـ الفخري .

(٣) يسميه صاحب إخبار الدولة العباسية لاهز بن قريظ انظر ص ٢١٧، ٢٢٠، ٢٥٥، ٢٧٣ .. الخ ويسميه الطبري لاهزا أيضاً وإن كانت بعض المراجع تجعله باسم لاحظ .

أخذ فيها بوساطة الخزاعي مكان أبي المغيرة خالد بن كثير • وكان لاهز أحد ثلاثة اختاروا أبا مسلم نفسه للدعوة حين كان يعمل عند أبي موسى السراج وقد اتهمه أبو مسلم بأنه اتصل بنصر بن سيار وأشار عليه بالهرب أو ترك له فرصة الهرب حين طوقه ابو مسلم وكاد يقبض عليه • وقد يكون ذلك صحيحا • وشهد عليه فيه خالد بين كثير إياه فقال له أبو مسلم : يالاهز أتدغل في الدين ؟ وضرب عنقه[1] •

ولم يطب سليمان بن كثير نفسا بولاية أبي مسلم ويذكر عنه أنه قال مرة : اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العنقود واسقني دمه ••• » وقد انتظر حتى وصل أبو جعفر خراسان فاتصل به ويبدو أنه شكا له تسلط أبي مسلم وقال : « إنما كنا نحب تمام أمركم وقد تم بحمد الله ونعمته فاذا شئتم قلبناها عليه » • ووصل الخبر الى أبي مسلم فاستدعى سليمان بن كثير وقال : أتحفظ قول الامام : من اتهمته فاقتله ؟ قال نعم ! قال : فاني قد اتهمتك وأمر بضرب عنقه • وانصرف المنصور الى أخيه ابي العباس يقول : لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله ! والله ماتصنع إلا ماأراد[2] » •

وتغطية للقتل يبدو أن أبا مسلم اتهم سليمان بن كثير بالاتصال بعبيد الله بن الحسن الاعرج العلوي ليقلب معه الدولة علوية• وهو زعم يكذبه ماضي سليمان العباسي الطويل وان يكن ممكن الوقوع •

وقد ألحق أبومسلم بسليمان : ابنه محمدا بن سليمان • اتهمه بالخداشية ، والقول بالمبادىء الزارادشتية المغايرة للدين وأنه بال على

---

(١) انظر الطبري ج٧ ص٣٨٤-٣٨٤ (٢/١٩٩٤-١٩٩٥)

(٢) انظر ابن قتيبة الامامة والسياسة ص ٢٣٨-٢٤٠ ؛ الطبري ٧/٤٥٠ (٦١/٣)

كتاب الامام فقتله • فكان أول قتيل في الدولة العباسية بتهمة الزندقة • وإذا لم يكن قتله بشيء كثير فقد كان قتل أبيه مع مكانته في الدعوة دون استشارة الخليفة ودون علم أبي جعفر ، أخي الخليفة الموجود في خراسان يحمل الكثير من الاعتداد والتحدي للخلافة وحين كتب أبو مسلم بذلك إلى أبي العباس بلغ من استياء الخليفة وغيظه المكتوم أنه لم يجبه بشيء •

٢ ــ وأما أبوسلمة الخلال الذي قضى في خدمة الدعوة العباسية أكثر من ثلاثين سنة فقد صرعته أولا علويته ، ذلك ان أبا العباس لم ينس له تلك البادرة في تحويل الخلافة الى العلويين • كما صرعه في الوقت نفسه ، إدلاله بمنصبه ( كوزير لآل محمد ) الذي لم يكن يدين به لابي العباس • يقول ابن قتيبة[1] : « كان ابو سلمة يظهر الادلال والقدرة على أمير المؤمنين » ويذكر الدينوري انه كان ينفذ الامور « من غير مؤامرة » ( أي دون مشاورة ) •

واذا كان هذا نتيجة طبيعية لظروف تلك الفترة ، فإنه كان بادرة خطرة في الدولة الجديدة ، صدمت أبا العباس وأوحشته • ولكنه تردد كثيراً في الطريقة التي ينقذ بها « اوتوقراطيته » في الحكم ، لأنه خشي أن يكون أبو مسلم الخراساني درءاً لأبي سلمة • فاختار أن يكون أبو مسلم في جانبه وأن يقتله ، إن أمكن ، بيده •

وتتفق المصادر ( كالطبري واليعقوبي والفخري والجهشياري وابن قتيبة ) على ان صاحب فكرة القتل هو ابو العباس ، وإن أبا مسلم كان

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣١

المنفذ لها . غير ان الدينوري[1] والمسعودي[2] ينفردان بتبرئة الخليفة ووضع المسؤولية على عاتق أبي مسلم ، حسداً منه لأبي سلمة على مركزه كوزير للدولة . ولعل الأرجح هي رواية المصادر الاولى التي تضيف إن أبا مسلم بعث من عنده بمن قتل أبا سلمة : « وجه مرار بن أنس الضبي فلقيه ليلاً فأنزله عن دابته ثم ضرب عنقه ... » ولم يكن قد مضى على وزارته ونفوذه إلا قرابة أربعة أشهر .

وما من شك في أن أبا العباس كان ذكي التدبير حين عهد الى أبي مسلم بتصفية صاحبه فانه أبعد عن نفسه التهمة بدم الرجل الذي خدمهم السنين الطوال وطمأن في الوقت نفسه أبا مسلم ، لئلا يخشى لنفسه المصير ذاته .

وأعلن للناس أن الخوارج هم الذين قتلوا الرجل وكان تعليق أبي مسلم على قتله : « إن حفصاً كان غاشاً لله ورسوله والأئمة فالعنوه » وأما عبد الله بن علي فقال : « كلب أصابه قدر فطاح ... » ! وعلق على ذلك الشعراء تعليقات ذات معنى . إذ قال أحدهم :

إن الوزير وزير آل محمد      أودى فمن يشناك كان وزيرا

وقال آخر :

ويح من كان مذ ثلاثين عاماً      يبتغي حتف نفسه غير آل !!

٧ ــ وأما ابو مسلم الخراساني فلم يكن بأقل خطراً وادلالاً من أبي سلمة وكان الخراسانيون أو بعضهم يتعلقون به ، لا كوالٍ وقائد

---

(١) الدينوري ــ الاخبار الطوال ص ٣٦٨
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٣

فحسب ، ولكن كشخصية دينية أيضاً . فكان من الصعب جداً إزالة شبحه الطاغي على العرش . وقد عاد ابو جعفر المنصور سنة ١٣٣ هـ من خراسان فقال لأخيه « لست بخليفة مادام أبو مسلم حياً . فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ، ومثله لا يؤمن غدره ونكثه » . ولم يكن نفوذه مقصوراً على الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حبه ، واتباع أوامره ، وايثار طاعته ــ على قول الدينوري ــ ولكنه كان ماثل النفوذ في العاصمة ( الهاشمية ) أيضاً رغم بعده . وكان ابو العباس لا يقطع أمراً دون رأيه ــ كما قال ابن قتيبة ــ الذي قد يكون في قوله بعض المبالغة ، وكان ابو الجهم بن عطية الباهلي عينا للخراساني ، عند الخليفة يكتب اليه بكل خبر .

ولم تكن علاقة أبي مسلم بأبي العباس أو بأخيه أبي جعفر بالعلاقة الطبيعية التي تكون بين خليفة وكبير رجاله بل كان فيها من الاعتداد والتحدي الشيء الكثير . وقد أوغر الخراساني صدر الخليفة وأخيه في أمور كثيرة :

فما كان بالهين عليهما قتل سليمان بن كثير الخزاعي دون معرفتهما ولئن هان كما هان قبله قتل الكثير من الدعاة الكبار على يد أبي مسلم فما كان بالهين أن يريا الى القسم الشرقي من الدولة العباسية يتصرف فيه أبو مسلم كما يشاء دون الرجوع إليهما بل وضد إرادة الخليفة أيضاً : يعين أبو العباس والياً في السند مثلاً ( ابن جمهور ) فيطرده أبو مسلم ويعين بديلا عنه ( المفلس ) ويسمى أبو العباس عمر عيسى بن علي لولاية فارس فيرسل أبو مسلم والياً آخر عليها هو محمد بن الأشعث مع تعليمات بقتل عيسى . وإذا لم ينفذها ابن الأشعث تحرجاً من قتل عم الخليفة فإنه طرد عيسى على أي حال وأخذ عليه العهد واليمين « بألا يعلو منبراً ولا يتقلد سيفاً إلا في جهاد ... » .

ولا شك ان مقتل ابي سلمة دونما ضجة ، قد شجع أبا العباس على التفكير جدياً في أمر أبي مسلم • ولكنه كان يخشاه ولما « ثقلت وطأته ــ كما قال الجهشياري[1] ــ على أبي العباس وكثر خلافه إيـاه ورده لأمر استنصح الخليفة خالدا البرمكي فأشار عليه بأمر فيه إضعاف لجيش الخراساني ، وقد تم ذلك ، وسر له ابو العباس » • ثم شاء أن يضعفه بالثورة فاستعمل زياد بن صالح والي بلاد ما وراء النهر ، للقيام ضده • وأمره ، ا ن رأى فرصة ، ان يثب على أبي مسلم فيقتله • ولكن الثورة سنة ١٣٥ هـ ( ٧٥٢ ــ ٧٥٣ م ) فشلت بسرعـة ، رغم الكتاب الذي يحمله زياد من الخليفة ، بتوليته على خراسان• ثم حاول ابوالعباس إثبات الوجود والنفوذ العباسي في خراسان بإرسال أخيه أبي جعفر إليها يزورها ويطلع عن كثب على الامور فحيا ابو مسلم مقدمه بقتل سليمان ابن كثير وعاد أبو جعفر مملوءاً رعباً وتحذيراً • ثم مر ابو مسلم بالعراق حاجا ، قبيل وفاة السفاح بأسابيع ، فحرض أبو جعفر أخاه على قتله ، ولكنه لا يزال يخشاه فرفض وكل ما فعله أنه أمر أبا مسلم ألا يأتـي الهاشمية في أكثر من ألف رجل وكان معه ثمانية آلاف ففعل •

وآل الأمر سريعاً الى أبي جعفر المنصور وله هذا الرأي في أبي مسلم ، فكان طبيعياً أن يبدأ عهده بحل مشكلته • وقد وضع كل دهائه وحذره في ذلك • ولا شك ان تصرفات أبي مسلم أمام أبي جعفر ، قبيل الخلافة وبعدها ، قد عجلت فيوقوع الأزمة ، وملأت الخليفة الحذر ، بالحقد والخوف على سلطنته •

وكانت علاقات الاثنين الاخيرة في فترة الحج ترشحهما للاصطدام

---

(١) الجهشياري ص ٩٣

المباشر • فقد كان أبو العباس قد عين أبا جعفر لإمارة الحج مما أغضب أبا مسلم وجعله يتحدى أبا جعفر طول الطريق • وإنما كان حج أبي مسلم في الاصل سياسياً وليس دينياً تماماً وكان يريد إثبات وجوده في مقر الخلافة في العراق وفي مكة ، مهبط الاسلام وفي موسم الحج وأن « يصلي بالناس » كما يقول الطبري في الكعبة ، مقابل إثبات الوجود الذي حاوله أبو العباس حين أرسل أخاه الى خراسان • ولهذا لم يأبه أبو مسلم لأبي جعفر فكان يتقدمه بموكبه وينيف عليه في البذخ والهبات والاعمال • ثم توفي السفاح والرجلان في طريق العودة فأبطأ أبو مسلم أياماً ــ فيما يقولون ــ في البيعة لأبي جعفر • كما يقولون إنه في الكوفة حرض عيسى بن موسى ، ولي العهد الاخر ، على الثورة وأخذ الخلافة ولكن عيسى رفض المغامرة •• ولقد هم أبو جعفر بأبي مسلم وهما بعد في الطريق • وكاد يبعث من يقتله ( وهو عطية بن عبد الرحمن ) ولكن أصحابه أقنعوه بالتريث ليروا ما يكون من أمر بيعة الناس أجمعين •

وكان الرأي صواباً إذ اتفق في تلك الفترة أن ثار عبد الله بن علي عم المنصور . فاغتنمها الخليفة فرصة يضرب بها الخطرين القائمين عليه أحدهما بالآخر ، فيبعد الخراساني عن أنصاره في خراسان ويرمي به عمه . لا يبالي أيهما قتل صاحبه ؟ وما كاد الاثنان يصلان العراق حتى استدعى أبو جعفر أبا مسلم وكلفه السفر الى الشام لقمع ثورة عمه عبد الله • ومع أن أبا مسلم لم يكن في نيته الدخول في هذه الخصومة إلا إنه وجدها فرصة لزيادة نفوذه وللبعد عن أبي جعفر فقبل ولم ينس الخليفة أن يبعث مع أبي مسلم بعدد من القواد الآخرين منهم الحسن بن قحطبة ، يراقب بأعماله • فكتب هذا إلى الخليفة كتاباً ملأه تصميماً على قتله : « ••• إني قد ارتبت بأبي مسلم منذ قدمت عليه • انه يأتيه

الكتاب من أمير المؤمنين فيقرؤه ثم يلوي شدقه !... » وانتصر أبو مسلم على الثائرين في الشام وبعث الخليفة بمن يحصي غنائم أبي مسلم من عبد الله بن علي ، فغضب الخراساني وقال : « أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال ؟ » وهم برسول الخليفة ، لولا أن منعه أصحابه ، وأن ادعى الرسول قدومه للتهنئة !

ويظهر ان أبا مسلم « عزم على الخلاف » إثر ذلك ، فانه قرر العودة الى خراسان عن طريق الزاب وحلوان في أعالي العراق دون أن يعود الى الهاشمية ويرى أبا جعفر الخليفة . وقد كتب الحسن بن قحطبة الى أبي جعفر يقول : « يا أمير المؤمنين إن الشيطان الذي كان ينفخ في رأس عبد الله ( ابن علي ) قد انتقل إلى رأس أبي مسلم » .

وكان أول خلاف علني ، بين الاثنين رفض ابي مسلم إطاعة أمر أبي جعفر بالبقاء بالشام والياً عليها وعلى مصر . قال : هو يولينيالشام ومصر ، وخراسان لي ؟ وكتب اليه : « ... انه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ... فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت .. حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ... فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها ، نقضت ما أبرمت من عهدك ، ضناً بنفسي[1] » ورأى المنصور أن يقابل هذا التحدي والتهديد بالحيلة ، اذ لا قوة تنفع . فبعث اليه برسالة عتاب قاسية لينة معاً حملها صديقه عيسى بن موسى ، يقول فيها : « ... فهمت

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٨٣ ( ١٠٤/٣ ) .

كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم . فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك ... وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك ... » ووجه أبو جعفر اليه جرير بن زيد البجلي « وكان داهية عصره » ليسترضيه ويزين له زيارة أبي جعفر ، ويهدده ان خالف، أن يحاربه الخليفة بنفسه . وكتب في الوقت نفسه إلى أبي داود خالد الذهلي ( والي خراسان في غياب أبي مسلم ) بالامارة على خراسان وأطمعه ، فبعث أبو داوود ينذر الخراساني ، ألا يرجع إلا بإذن الخليفة ... وحرض الخليفة عدداً من كبار العباسيين والقادة أن يكتبوا له بالطاعة والنصح بعدم التمرد ...

ونجح المنصور بالمناورة السياسية في سوق طريدته إلى قصره ، بحفاوة كبيرة . بعد أن كاد يفلت وبعد أن خرج المنصور من الانبار فأقبل حتى نزل المدائن ليعترضه على الطريق دون حلوان ...

ويروي الطبري[1] قصة طويلة عن حوار رفيقي الدعوة العباسية ، حين اجتمعا ، وعن التهم التي وجهها المنصور لابي مسلم وخلاصتها في روايات مختلف المؤرخين :

١ ــ عدم تحيته حين زار أبا العباس في الهاشمية وذكره باسمه لا بكنيته في بعض الرسائل .

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٨٩ ــ ٤٩٢ ( ١١٢/٣ ــ ١١٦ ) .

٢ ــ تقديم اسمه على اسم الخليفة في الرسائل •

٣ ــ تقدمه على أبي جعفر في طريق الحج وعدم انتظاره •

٤ ــ تأخره في بيعة أبي جعفر •

٥ ــ تحريض عيسى بن موسى على التمرد وطلب الخلافة •

٦ ــ تدخله في شؤون أبي العباس •

٧ ــ قتل سليمان بن كثير الخزاعي دون استشارة الامام • وقتل أفلح بن مالك الفزاري الداعية الآخر • وقتل ٦٠٠ ألف من المسلمين صبراً •••

٨ ــ أخذه بعض متاع وجواري عبد الله بن علي لنفسه •

٩ ــ خطبته لأمينة بنت علي وادعاؤه النسب لسليط بن عبد الله ابن العباس •

١٠ ــ مراوغته ومحاولتــه الخروج لخراسان رغم استدعــاء الخليفة له •

وقد يكون المؤرخون قد أضافوا وتبسطوا وسطروا ما توهموه من الاتهامات والأجوبة بين أبي جعفر وأبي مسلم وإنما ساقوا كل ذلــك تبريراً وتعليلاً للنهاية المأسوية التي انتهى إليها أبو مسلم الذي وجــد لكل اتهام جواباً • ويقول الطبري : ان المنصور صفق في نهاية الحديث فأطبق أربعة من جنوده الاشداء بالسيوف على أبي مسلم ( ٢٥ شعبان ١٣٧ هـ ) ورمى المنصور برأسه وببدر المال معه ، إلى أصحابه ، فتفرقوا •• وخطب المنصور بتلك المناسبة يبرر هذا العمل بقوله · « ••• انه من نازعنا هذ االقميص أجزرناه خبي هذا الغمد ، وان أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على انه من نكث بنا فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بنا هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » • بهذه الكلمات ، وبمصرع أبي مسلم قبلها وبالجواب

الذي أجابه أبو جعفر استرحام أبي مسلم حين قال : استبقني لأعدائك فأجابه وأي عدو أعدى لي منك ؟ حدد الخليفة أبو جعفر مفهوم الدولة الجديدة الأوتوقراطي للسلطة وموقفها الحاسم من أصدقائها وأعدائها على السواء إما مس أحدهم سلطانها المطلق •

ولقد كان مصرع أبي مسلم موضوع بحث توقف عنده عدد كبير من المؤرخين وبالرغم من أن مؤرخينا القدامى جمعوا أسباب مصرعه في تلك التهم العشر التي وجهها إليه أبو جعفر وبعضهم كالذهبي ومؤرخي الفرق أضاف إليها اسبابا دينيـة إلا إن الباحثين المحـدثين ، وخاصة المستشرقين أصرّوا على محاولة تقصي السبب الحقيقي لمصرع «صاحب الدولة العباسية» • فبعضهم بحث عنده عن الأفكار الدخيلة على الاسلام (بروكلمان : بارتولد) وبعضهم حاول كشف ميوله العلويـة (بلوشيه) وبعضهم أعاده الى حجمه الحقيقي وإنه إنما تضخم اسمه ودوره فيما بعد (جيب ، كاهن) لكنه ما من شك في إن مقتله كان لسبب سياسي واضح يتعلق بما أضحى يشكله من الخطر على الاوتوقراطية العباسية الناشئة ومع أن مقتل أبي مسلم قد مر دون مضاعفات آنية حادة وقـد «باعـه أصحابه بالدراهم» كما قالوا هم أنفسهم حين قبلوا أموال أبي جعفر إلا إن ملحمة أبي مسلم تركت في أذهان الناس في خراسان وتركستان على السواء دوياً أخذ مع الأيام الصيـغ الاسطوريـة ونسجت حول اسمه القصص الخيالية وأصبح البطل القومي الشعبي في خراسان ولدى الترك أيضاً الذين ادعوه لأنفسهم • وبينما كان عدد من الثوار في ايران يرفع شعار الثأر لأبي مسلم كمبرر للثورة على العباسيين كان أبو مسلم يغلغل في ضمير الناس ويتبناه الشيعة المتطرفون والفرس المتذمرون وتستغل اسمه ثورات الفرس فيما بعد من المقنع الى سنباذ الى استاذسيز ••• الى الرزامية والخرمية •

وكان لمصرع أبي مسلم ذيول تناولت أصدقاءه وقد قتل بعضهم من أمثـال :

ـ أبي الجهم الباهلي وهو أحد نظراء النقباء وقادة الجيش الى العراق • اتهمه أبو جعفر بمراسلة الخراساني وموافقته على الاستياء من السياسة العباسية فدبر مقتله بالسم • سقاه إياه في سويق اللوز كما يـروون •

ـ ابي داوود خالد بن ابراهيم الربعي الذهلي : وقد كان الرجل أحد النقباء الاثني عشر ومن أعوان أبي مسلم الكبار وقد عهد إليه بولاية خراسان عند سفره الى الحج وأقره أبو جعفر عليها ليفصله عن أبي مسلم ويمنعه من العود الى خراسان •

على أن خالداً الذهلي لم يكن يتوقع ـ فيما يظهر ـ قتل أبي مسلم • فلما علم بذلك « أنكره وذكر المنصور ذكراً قبيحاً ونسبه الى القدر ••• وكتب أبو جعفر يأمره بالقدوم إليه فرفض • قال : « ••• ما يقربني عليه إلا لمسألتي عن أمور أبي مسلم وأمواله ثم قتلي بعد ذلك ••• يا أبا جعفر غر غيري ! » • كان خالد يعرف ما قدمت يداه من قبل حين قتل عيسى بن ماهان وأغضب أبا العباس فأمر أبا مسلم بقتله ولكن الخراساني حماه •••

وعمد أبو جعفر الى التآمر فطلب الى أبي عصام صاحب شرطة خالد في خراسان أن يغتاله • وأثار أبو عصام بعض الاضطراب والفوضى حول قصر الإمارة تمهيداً لمؤامرته وأطل خالد من شرفة القصر ليعرف الأمر ويبدو أن كثيراً من جنده أطل معه فوقعت الشرفة ••• ومات الرجل !

... وصار أبو عصام والي خراسان !

### ٣ ـ مشكلة عامة الايرانيين :

واجهت العباسيين أيضاً أيضا ، ومع كل المشاكل التي واجهتهم في مطلع عهدهم الأول مشاكل من نوع آخر ديني هذه المرة قامت في المواطن والمواقع التي انطلقت منها ثورتهم أي في ايران وخاصة في شمالها الشرقي خراسان . وكثرة هذه الحركات وإبكارها في الظهور وشدة بعدها عن الإسلام كل ذلك مما يحتاج الى التفسير وتدخل في هذا التفسير عناصر عدة كانت الأساس في تلك المشكلة وهي ترجع الى جذور سياسية دينية واقتصادية واجتماعية ونفسية .

فما من شك في أن الاسلام انتشر بين الايرانيين في العهد الاموي انتشاراً بطيئاً ولم يرافق انتشاره فهم عميق له ولا كان ـ حتى نهاية ذلك العهد ـ قد استطاع استئصال جذور الديانات الأولى وفروعها هناك بين زارادشتية ومانوية ومزدكية ، من نفوس عامة الايرانيين بل وخاصتهم من المرازبة والموابذة والدهاقين ، وما من شك بالمقابل في أن نجاح الدعوة العباسية في الوصول الى الخلافة بعد انطلاقها الأول من أرض ايران ووجود جماعات ايرانية في قيادتها وفي رجالها قد أثار في الايرانيين آمالا عديدة متنوعة كان العباسيون بعيدين جداً عن تحقيقها ولعل أهمها الآمال في استعادة المكانة السياسية القديمة التي زادت بعد الفتح العربي ولعلها حلمت بزوال الحكم العربي كله وبزوال الاسلام أيضاً وإذا كانت الدعوة العباسية قد بشرت بالمبادىء الاسلامية الخالصة من تسوية وعدل ورفض للظلم إلا إنها استغلت التشيع أيضاً وتبنته وقد وجد بعض دعاتها وأنصارها فيه مجالا لدس الرسوبات الدينية

القديمة لديهم والاقتباس منها (كما فعل خداش ثم بها فريد) بغيةاستقطاب العامة عن طريق المنزع الديني بعد استقطابهم عن طريق رفض الظلم الاجتماعي وقد تواءمت النظرية الشيعية في حق آل البيت مع نظرية الحق الإلهي المقدس القديمة في التراث الفارسي كما خطر دون شك لبعض الايرانيين أن يصلوا الى بعض المركز السياسي في الدولة الجديدة وموقف أبي سلمة وأبي مسلم بعد الثورة دليل واضح على ذلك • لكن الأمور لم تسر تماماً على مايشتهي الايرانيون • فقد نجحت الثورة وبويع أبو العباس ثم أبو جعفر من بعده بالخلافة ووصل عرب خراسان الثائرون الى المناصب ولكن قتل أبو سلمة ثم أبو مسلم كما قتل الكثيرون من الدعاة العباسيين من عرب وغيرهم وسرعان ما تبين الايرانيون أن شيئاً لم يتغير لا على مستوى الحكم — الذي لم يصبح لآل علي — ولا على مستوى السياسة العامةالتي استمرت مركزية دموية كالأمويين ولا على مستوى السياسة المالية التي استمرت بعيدة عن التسوية والعدل ولا تختلف في الجشع المالي عن الدولة السابقة •

وبالرغم من ان العناصر الايرانية لم تكن هي الأساس في الثورة العباسية وكانت عنصراً إضافياً فيها إلا إن الايرانيين شعروا بسرعة أنهم لم يجزوا بمقدار آمالهم التي ثارت في نفوسهم من جهة ولا — على الأقل — بمقدار ما أسهموا وقدموا من عون في تلك الثورة من جهة أخرى •

وإذا كان انتصار الدعوة قد جاء بالبيت العباسي إلى الحكم فإنه قتل أبا مسلم — وهو شاب في السابعة والثلاثين ، مع انه اكبر الرؤوس الإيرانية في الدعوة وأهمها وهذا ما انعكس يأساً في جماهير الايرانيين ودفعها لأن تنظر — مع الأيام الى أبي مسلم باعتباره رئيساً دينياً ؛ أو

قوميا ، وأحياناً إماماً وأحيانا أخرى خليفة لزارادشت • أما في ذلك الوقت المبكر فكل ما تبين لتلك الجماهير بوضوح هو أن مفهوم الدعوة العباسية لديها وآمالها فيها كانت مختلفة تماماً عن غرض آل محمد العباسيين منها وأعقب الآمال العريضة موجة واسعة من اليأس والنقمة تجلت في اندفاع الايرانيين عامة وراء كل ثائر ، لا سيما وأن الكثير منهم وخاصة في تلك المدن التي قاومت الثورة العباسية ظلوا يحتفظون ببعض عواطف الولاء للأمويين أيضاً[1] •

وهكذا فإن هذا اليأس من العباسيين هو نفسه الذي دفع العناصر الناقمة من الايرانيين في مجاري مختلفة من الثورة والتمرد سواء كانت سياسية أو دينية •••

- فبعضهم وقد رأيناه - انضم الى حركات بعض دعاة العباسية الذي انقلبوا عليها مثل جهور العجلي • وعبد الجبار الأزدي ورافع بن الليث •
- وبعضهم انضم الى الحركات العلوية في خراسان والديلم •
- وبعضهم أيد الخوارج في سجستان وخراسان وفارس وكرمان•
- وبعض أخيراً كان أكثر تطرفاً وجذرية لسبب رقة اسلامه أوغلبة

---

(١) ظل هذا الولاء في مثل بلدة اصفهان حتى أواسط القرن الرابع ويبدو أن لوجود مجموعة أموية في تلك المدينة أثره في تلك العاطفة التي سجل وجودها المقدسي البشاري لدى الزهاد والعباد في اصبهان (المقدسي - احسن التقاسيم ص٣٨٩) ولعلنا نذكر أن أبا الفرج الاصبهاني (من القرن الرابع) صاحب الاغاني المعروف هو حفيد مروان بن محمد . كما أن الشاعر الابيوردي كان من السلالة الأموية وظل يؤلف في انساب الأمويين في القرن الخامس الهجري .

الأفكار الزارادشتية أو رواسبها عليه فالتحق بالحركات المتطرفة •

ولا شك أن التذمر هو الذي كان يجمع بين الايرانيين وبين هذه الحركات وليس الايمان بها •

وتلك الأعداد الواسعة التي التحقت بدعاة العباسية أو بالخوارج أو بالعلويين أو بالثورات الدينيـة المنحرفة لم تكن كلهـا مؤمنة بما ناصرته من المبادىء بقدر ما كانت تجد فيها متنفساً لنقمتهـا ويأسها الكامن • وهذا هو السبب في أن موقف الايرانيين عامة من الحكم العباسي في الفترة الأولى كان يتسم بثلاثة اتجاهات : اتجاه يحاول التعاون مع الحكم العربي ولكنه كان يقمع باستمرار (كما جرى للبرامكة) واتجاه يهاجم هذا الحكم فكرياً وثقافياً فيما يسمى بالحركة الشعوبية واتجـاه يثور أو يلتحق بكل ثورة •

وضمن خط الثورة نفسه وجدت ألوان مـن المتمردين الايرانيين يمتدون مابين من يريد حمل العباسيين على تأكيد عباسيتهم إلى من يريد نصر العلويين إلى من يريد نصر الخوارج ورأيهم في التسوية ودفع الظلم عن المضطهدين إلى من يريد نسف أسس الدين الاسلامي نفسه بعضاً أو كلا بثورة دينية مناهضة ذات عقيدة جديدة • وضمن هذا الإطار الأخير تميزت الحركات الدينية الايرانية بثلاثة أمور :

ـ الأول أنها كانت تبشر بفكرة «مهدي» منتظر وزعيم منقذ وذلك لمعادلة اليأس العام وإرضائه •

ـ الثاني محاولة التوفيق بين بعض الأفكار الزارادشتية القديمة وبعض العقائد الاسلامية في ايجاد تكوين عقائدي جديد وهذا ما أوجد مضاعفات غريبة من العقائد البعيدة عن الاسلام •

ـ الثالث ارتباطها على الأغلب ـ كما يقول براون ـ من ثورة سنباذ واستاذسيز الى بابك الخرمي ـ بذكرى ابي مسلم الذي جعلته تلك الحركات رمزاً وضخمت ذكراه مع الأيام وأدخلته في الملاحم والنبؤات والأساطير الشعبية كشخصية بطولية خارقة • وحين ظهر الشعور القومي الايراني في القرن الرابع صار يمثل ذلك الشعور ولهذا فقد لاحظ مؤرخونا القدماء ، كالبيروني والمقريزي وابن الجوزي وغيرهم أن تلك الحركات الفارسية كانت ذات هدف مزدوج هو هدم الاسلام وازالة الحكم العربي ، فكل تلك الفرق تعمل على محاربة الاسلام بالحيلة وبادعاء الايمان به • وبعضها أخذ ينتظر رجعة ابي مسلم ليملأ الارض عدلا ، ويعيد دولة المجوس ، ويستولي على الارض كلها ، ويزيل ملك العرب وغيرهم •

على أنه من الضروري ، قبل استعراض الحركات الدينيةاللاإسلامية في ايران أن نسجل ثلاث ملاحظات :

الأولى : ان اثر الدعاية المسلمية ظل مقصوراً على بعض نواحي ايران ، وعلى بعض الطبقات فقط وقد تنكب عنها ورفضها الايرانيون المسلمون • وكان هذا من أهم العوامل الداعية الى فشل حركاتها في العصر العباسي الاول •

الثانية : أن المواقف اليائسة والثورات التي كنا ذكرناها ، إن وجدت جغرافياً في ايران فإنها لم تكن مواقف خاصة بالايرانيين وحدهم فقد شاركهم في تلك المواقف والثورات عناصر من العرب الذينيسكنون ايران كما شاركهم أيضاً فيها الرعايا الآخرون في الشام ومصر وافريقية بدليل ما قامت لديهم من ثورات في تلك الفترة نفسها • على أن مشاركة

العناصر العربية في الثورات بإيران ضد العباسيين لم تصل درجة المشاركة في الثورات الدينية التي كانت خاصة بإيران والايرانيين وهذا يعني أنها كان تستقي أيضاً من ينابيع أخرى غير النقمة واليأس من عدل العباسيين. ويعني في لاإسلاميتها يمكن أن تعتبر نوعاً من الوعي القومي الايراني الذي استفاد أيضاً من ذلك الحلف الذي سبق العهد العباسي وجمع بين الجماهير العربية وبعض الجماهير الايرانية على مقاومة الظلم الأموي والذي ظل يعمل على تغذية الثورات الأخرى غير الدينية ضد العباسيين الأوائل وقد تطورت هذه الأنواع من النقمة الدينية والثورة الاجتماعية والسياسية ، مع الأيام لتصبح فيما بعد حركات محلية فارسية انفصالية.

الثالثة : أن الحركات الدينية الانحرافية بدأت في الواقع قبل إعلان الثورة العباسية بسنوات كثيرة . ظهرت ثورتها الأولى على يد خداش سنة١١٦ ثم ظهرت حركتها الثانية على يد بهافريد سنة١٢٩ فهي إذن حركة مستقلة عن الدعوة العباسية لحد كبير وسابقة لها في الجذور وقد استغلت الدعوة لجمع الأنصار من عامة الفرس ثم آنست في نفسها من القوة ما سمح لها بالظهور العلني قبلها ومنفردة عنها مرتين مستغلة موجة الاضطراب العام في خراسان للتعبير عن بعض الآمال الكامنة في نفوس الشعب الايراني الباقي على الزارادشتية أو الذي مايزال في نفسه شيء كثير أو قليل منها .

ويمكن ان نصنف تلك الحركات حسب تباعدها عن العقائد الاسلامية في ثلاثة أقسام :

**١ ـ الراوندية :**

كان أهل خراسان ــ على حد قول محمد بن علي العباسي ــ قلوباً

فارغة وصدوراً سليمة لم تتقسمها الاهواء ولم تتوزعها النحل • ولهذا فان التشيع الذي عرفته لآل محمد لم يكن تشيعاً علوياً ولكنه كان تشيعاً على الطريقة التي شاء دعاة العباسيين تلقينها للناس ، أي تشيعاً لبني العباس • ولهذا السبب لانكاد نجد في كل الحركات الفارسية التي ندرسها غير طيف ضئيل من التشيع العلوي •

وتنسب الراوندية الى قرية رواند قرب نيسابور ، وهي فرق عديدة تتضارب فيها أقوال المؤرخين العرب : فيطلق بعضهم احياناً اسم الراوندية على كل الفرق ، ويطلق الآخرون الاسم على بعض منها • وهي عباسية العقيدة • ويظهر أنها نشأت في خراسان قبل مجيء ابي مسلم ، بتأثير بعض الافكار الشيعية ــ الحلولية (المأخوذة عن السبئية والكيسانية حسب رأي فلوتن) فقد زعم احد الراوندية ــ على رواية المدائني في الطبري[1] ــ ان الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن ابي طالب ثم في الأئمة ، في واحد بعد واحد ، الى ابراهيم بن محمد ، وانهم آلهة ••• وربما دخلت في الراوندية بعض الافكار المزدكية ، كاشتراكية النساء •

ويبدو أن الحركة الراوندية لم تكن مقصورة على ايران فقد ظهر جانب منها في بلاد الشام فإن ابن العديم يذكر أنه «ظهر في سنة احدى واربعين ومائة قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب وحران وكانوا يقولون قولا عظيماً • وزعموا أنهم بمنزلة الملائكة وصعدوا تلا بحلب، فيما قالوا ، ولبسوا ثياباً من حرير •وطاروا منه فتكدوا (ولعها فنكسوا)

---

(١) الطبري ج ٦ ص ١٤٧

وهلكوا ...[1]» ولعل هذه الجماعة كانت من الخراسانية التي وردت الشام مع عبد الله بن علي أو مع أبي مسلم ثم توطنت ، مع عقائدها ، فيــه .

وقد درس الاستاذ الدوري[2] ، معتمدا على دراسة الاستاذ (صديغي) مشكلة الراوندية درساً وافياً خرج منه بتقسيمها الى مجموعتين :

الاولى : مجموعة تعتقد بانتقال الامامة من ابي هاشم الى محمد بن علي بالوصاية ، ولعلهم من أوائل من انضم الى الدعوة العباسية .وقد انقسموا بعد وفاة ابي العباس ثلاث فرق :

آ ــ فرقة تعتقد بامامة ابي جعفر ومن بعده المهدي .

ب ــ فرقة انشأها عبد الله الراوندي تعتبر ابا جعفر الامام القادر القدير ، وهو إله . ونبيه هو ابو مسلم الذي حلت به روح آدم . فلما قتل أبو مسلم عند أبي جعفر ، على يد عثمان بن نهيك وأربعة آخرين من الحرس ، زعم الراوندية أن روح آدم حلت في عثمان ...

وقد ثارت هذه الفرقة ضد المنصور «ربها الذي يطعمها ويسقيها» اذ جاء[3] بعضها من خراسان الى هاشمية الكوفة ( حوالي٦٠٠شخص

---

(١) ابن العديم ــ زبدة الحلب (تحقيق الدهان ــ دمشــق ١٩٥١) ج ١ ص ٥٩ ــ ٦٠

(٢) الدوري ص ٨٤ وما بعدها .

(٣) يذكر الدينوري انهم جاؤا طلباً لثأر ابي مسلم ولكن هذا الرأي

في رواية الطبري) فسكنوا فيهـا وجعلوا يطوفـون بقصر المنصور . ويقولون : هذا قصر ربنا ! وصعدوا الى قصر الخضراء ، واخذوايلقون انفسهم منه كأنهم يطيرون ••• فتضايق المنصور منهم ، فحبس مائتين من زعمائهم • فثار الباقون واخرجوا اصحابهم وهجموا على القصر يريدون قتله وكادوا يقتلونه لعدم وجود الحرس الكافي ، لولا ان انقذه معن بن زائدة الشيباني ! وكان ذلك أحد الاسباب في البحث عن بناء عاصمة جديدة •

ويلاحظ ان المنصور قد تسامح معهم ، كما تسامح الدعاة من قبل في عقائد الايرانيين ، لجمع اكبر عدد من الانصار حولهم ، فلما جهروا بآرائهم أوقفهم • يدل على ذلك قوله لأبي بكر الهذيلي اذ دخل عليه قائلا : انهم ببابك يقولون : هذا رب العزة ! هذا الذي يطعمنا ويسقينا• فأجابه المنصور : «يا هذيلي ! يدخلهم الله النار في طاعتنا ويقتلهم ، أحب اليّ من ان يدخلهم الجنة بمعصيتنا» • ويلاحظ ان هذا الموقف ، أي الاستفادة من ـ الافكار المتطرفة ، ثم محاربتها ، موقف ظهر مثلـه في دعوة الفاطميين كما أنه نموذج من نماذج السياسة المكيافيلية التي عرف بها المنصـور •

جـ ـ فرقة نقلت الامامة من ابي العباس الـى ابي مسلم وهي فئتـان : فئة اختلط بها بعض الخرمية ، وتسمى (المسلمية) وتعتقد ان

---

بعيد لانهم قلائل ولأن ثمة فترة طويلة بين مقتله وثورتهم ثم كيف يثأرون من الههم اذا هو قتل نبيه ويرى دوزي انهم جاؤوا لتقديم الطاعة للمنصور، فلما سجن زعماءهم فقد الوهيته في نظرهم وفقد بالتالي حكمه ، لان فكرة شرعية الحكم متصلة عند الفرس بفكرة الالوهية .

ابا مسلم لم يمت ، وأنه في رأي بعضهم نبي ، ارسله زارادشت ، وفي رأي الاخرين حلّ فيه جزء الهي ، فهو فوق الملائكة • وفئة تعتقدموت ابي مسلم ولكنها تنسب إليه المعجزات والخوارق • وهم (الرزامية) اتباع رزام •

الثانية : مجموعة تتبع أبا هريرة الراوندي تعتقد ان الرسولأوصى بالامامة لعمه العباس[1] ثم ورثها عنه أولاده • وهي ، على ما يظهر من معتقدها ، احدث من المجموعة الاولى وتسمى (العباسية) • وقد تطرفت في تقديس ابي مسلم ، ونقلت الرياسة الدينية اليه • ولعل ذلك عن طريق ادعائه بانه من نسل سليط بن عبد الله العباسي •

ويعطيها المؤرخون المسلمون اسماء شتى ، حسب اسماء أو أو صفات دعاتها • فهي تارة خداشية مزدكية او مسلمية ، وتارة محمرة او مبيضة وتدعى أيضاً البركوكية والفاطمية (نسبة لفاطمة ابنة ابيمسلم) كما أخذوا يدعونها ، بعد عصر المنصور ، بالمقنعية والبابكية والرزامية الخ ••• وكل هذه الفرق ، في رأي المؤرخين المسلمين ، تطوراتلمبادىء مزدك • يتفق في وصفها بهذا ابن النديم والشهرستاني والبيروني وابن الجوزي على السواء •

وقد جاء اسم الخرمية في رأي بعض الباحثين من خرم (اسم احدى بلاد ميديا) أو من كلمة (خرم) الفارسية ومعناها (لذيذ) يقول فانفلوتن «فاذا ما تكلمنا عن (خرم ـ دينيا) فنعني ان هؤلاء كانوا لا يعرفوندينا

---

(١) انظر الرازي ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (طبعة القاهرة ١٩٣٨) ص ٦٣

غير اللذة • واذا ما جعل للنساء عندهم مكانة ارقى مما في البلادالشرقية الاخرى ، فانما ذلك بقصد الاستمتاع» لكن كتاب سياسة نامه لنظام الملك (١٠٩٢) يرى أن خرم هو اسم زوجة مزدك • هربت بعد مقتله مع اثنين من اتباعه من المدائن الى الرّي واستمرت تبشر بمبادىءزوجها •

ومن المؤلفين القدماء من جعل اسم الفرقة مشتقاً من الكلمة الفارسية «خرم» بمعنى مقبول على أساس أن اتباعها يعدون كل مقبول جائزاً شرعاً • ولعل الأرجح أن هذا الاسم مشتق من خرم وهي ناحية بأردبيل ، ولعل الفرقة قد نشأت فيها[1] •

والمطهر بن طاهر المقدسي في البدء والتاريخ ، يقول وقد لقي جماعة من الخرمية في منازلهم : «هم فرق وأصناف غير أنهم يجمعون على القول» :

أ ـ بالرجعة • ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم •

ب ـ ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم واديانهم يحصلون على روح واحد • وأن الوحي لا ينقطع أبداً •

حـ ـ وكل ذي دين مصيب عندهم اذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب • و لايرون تهجينه والتخطي إليه بالمكروه مالم يرم كيد ملتهم وخسف مذهبهم •

ء ـ ويتجنبون الدماء جداً إلا عند راية الخلاف •

هـ ـ ويعظمون أمر أبي مسلم ويلعنون أبا جعفر على قتله •

---

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة خرم (ج٨ ص ٢٩٩ـ٣٠١ من الترجمة العربية) •

ـ ويكثرون الصلاة على مهدي بن فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم .

ـ ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام ورسل يدورون بينهم ويسمونهم فريشتكان .

ـ ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمور والأشربة .

ـ وأصل دينهم القول بالنور والظلمة .

ومن شاهدنا منهم في ديارهم ماسبذان ومهرجان قذق فإنا وجدناهم في غاية التحري للنظافة والطهارة والتقرب الى الناس بالملاطفة وتقديم الصنيعة ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن .

وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع مالم يعد على أحد بالضرر» . ويضيف الاصطخري الى هذا أنهم في قراهم ومساجدهم يقرؤون القرآن غير أنه يقال إنهم لا يدينون في الباطن بشيء إلا الإباحة ...» .

توطنت هذه المبادىء كما يشير الطبري في شمال وغرب ايران . ويوضح ابن النديم المنطقة الجغرافية للخرمية بقوله : «وهم بنواحي الجبال فيما بين اذربيجان وارمينية وبلاد الديلم وهمدان ودينور منتشرون . وفيما بين أصفهان وبلاد الاهواز ...»[1] عششت الخرمية هناك حتى مجيء أبي مسلم وكان أكثرهم كما يقول المسعودي في القرى والضياع . وكانت هذه هي العناصر التي نجح أبو مسلم في ضمها أو

---

(١) ابن النديم ـ الفهرست ص ٣٤٢

ضم ولائها لبني العباس عن طريق شخصه .

ولم يكن في مبادىء الخرمية قبل ظهور أبي مسلم شيء يتعلق به وإنما كانت ديناً سلوكياً مشاعياً أقرب إلى الحياة المائعة إلى المعنى السياسي . ثم دخل عليها ، بعد ظهوره ، عنصر جديد حين أخذ هذا الرجل مكانة دينية خاصة جاءته دون شك من مكانتة السياسية التي كسبها ببروزه المفاجيء السريع بعد قرن من توالي الحكام العرب في المنطقة الايرانية . وقد تعلق الخرمية به تعلقاً يتراوح بين التقديس والنبوة والتألية . ولا شك ـ كما يقول صديغي ـ إن الخرمية جميعاً اعتبروه كرئيس ديني . وها هنا في الواقع مجال سؤال كبير يتعلق بنوع ومدى وسبب العلاقة الدينية بين أبي مسلم ـ وهو فيما نعرف مسلم وعباسي الهوى ـ وبين الخرمية المزدكية ...

ويظهر ان ابا مسلم كان يعرف نفوذه الديني القوي هذا ، ويرضى عنه ويعتد به ، تجاه الخلفاء الجدد من العباسيين ، فلما قتل نبعت الحركات المختلفة من مقتله . ومن هذه الحركات :

**آ ـ ثورة سنباذ :**

يقول المسعودي : « ... لما نمى مقتل أبي مسلم الى خراسان وغيرها من الجبال ، اضطربت الخرمية[1] ...» وثار سنباذ (أوشنفاذ أوسنفاذ ويسميه صديغي سنباد) في خراسان . يقول الطبري

---

(١) المسعودي ج٣ ص ٢٢٠ (ج٣ ص ٣٠٦ من طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) .

« كمـا خروجه غضباً لمقتل ابي مسلم فيما قيل وطلبا لثـأره »[1] •
«وأخبر اتباعه ان ابا مسلم لم يمت وانه تلا اسم الله الاعظـم ، قبل أن يقتل فصار حمامة بيضاء وطار •••»

وسنباذ قروي من (أهن) احدى قرى نيسابور كان أحـد قواد جيش أبي مسلم ومن المقربين إليه وقد بدأ حركته في هذه المدينة ، فالتف حوله عدد من الخرمية والمزدكية والغلاة • واجابه كثير مـن طبرستان والجبال (شمال غرب ايران) وكانوا حتى ذلك الوقت مجوساً ويستظهر (صديغي) من هذا ان في الثورة روحاً قومية ، وجدت رمزهـا في ابي مسلم • يدلنا على هذا تبشير سنباد بين اتباعه بنهاية السلطـان العربي واعلانه انه سيذهب الى الحجاز ويهدم الكعبة ! ويبدو أن عدد أتباعه الذي بلغ ٩٠ ألفاً حسب بعض المصادر ومعظمهم من الخرمية أهل الجبال قد أغراه بهذا التحدي كما أغراه بأن يأخذ لنفسه لقب فيروز أصبهبذ أي القائد المنتصر •

وتسلط سنباذ على مابين نيسابور وقومس والري حتى همدان ، فيما لا يزيد عن شهرين وحاول رشوة اصبهبذ طبرستان وضمه الى صفه فأرسل إليه بعض خزائن أبي مسلم التي استولى عليها عند فتح الري (وكان ابو مسلم قد تركها هناك حين سار الى الحج) ولكن هذه المحاولة لم تفده كما لم تفده انتصاراته الأولية لأنه هزم امام الآلاف العشرة من الجنود الذين أرسلهم المنصور ضده بقيادة جهور بن مراد العجلي • وقتل ممن معه ــ على رواية المسعودي ــ ستون الفاً وسبيت ذراريهم ونساؤهم ثم قتل هو بدوره بين طبرستان وقومس • وحول المنصور

(١) الطبري ج٧ ص ٤٩٥ (٣/١١٩ ــ ١٢٠) •

اصبهبذة طبرستان الى ولد هرمز بن الفرخان وتوّجه • ويلفت النظر في هذه الحركة أمور عدة :

١ ) سرعة انتشار امر سنباذ ولم تدم حركته اكثر من سبعين يوماً• وهذا يعني أن جذورها الأولية كانت جاهزة قائمة منذ زمن طويل •

٢ ) كثرة اتباعه الذين بلغوا في تقدير (صديغي) تسعين أو مائة الف • ولعل في هذه الأرقام بعض المبالغة ولكنها تدل على أي حال على ماتوهم الناس من العدد الهائل لاتباع سنباذ •

٣ ) ولاء الخراسانيين لابـي مسلم ولاء سيستمر واضحـاً في الحركات المقبلة • وسوف يتضخم كثيراً مع الايام •

٤ ) ضخامة عدد المتذمرين مـن حكم العباسيين ، وهو بعد في أولـه •

٥ ) أن سنباذ كان «خرمياً» أو على الأقل لم يكن صحيح الاسلام والطبري ينسبه إلى المجوسية كما أن عامة أنصاره كانـوا من الخرمية يأضاً • وتنسبه بعض المصادر إلى المزدكية • فهل كان على الاسلام ثم ارتد ؟ أم أن ابا مسلم كان يجند ويحمي الانصار ــ أيا كانت عقائدهم سواء كانوا مسلمين أم مجوساً ؟

٦ ) أنه اعلن بصراحة بين شعاراته شعار إزالة الحكم العربي والاسلام وهدم الكعبة مع أنه كان قد ثار للأخذ بثأر أبي مسلم • وهي شعارات سياسية ــ دينية معاً تكشف بعض الاعماق الفكرية التي كان يستندإليها أبو مسلم نفسه ••

٧ ) أن الشعارات الأخرى التي أعلنها كانت تحوي بعض الأفكار المزدكية والزرادشتية بجانب بعض الأفكار الاسلامية التي تبنتها فيما بعد فرق الغلاة من الشيعة • وقد طلب الـى أنصاره التوجه إلـى الشمس بالصلاة بدل الكعبة • وهذا يعني أن مصرع أبي مسلم أوجد نوعاً من

الردة الدينية أيضاً بجانب ما أثار من مشاكل سياسية وثورية •

٨ ) سرعة انهيار الحركة • ويبدو أن تلونها باللون المجوسي الواضح واجتماع العرب المسلمين المستقرين في الجبال بقيادة عمر بن العلاء ضدها وتأييد الموالي من الفرس المسلمين للسلطة العباسية هو الذي هزم الحركة •

لكن فشل سنباذ زاد في مرارة اليأس عند الخراسانيين فبينما نراهم ينضمون بسرعة بعد فترة قليلة الى جهور بن مراد العجلي نفسه حين ثار نجد أن «السنباذية» سوف تغلغل بين العامة وتبقى ضمن العقائد المحلية في الري وقزوين حتى مابعد القرن الخامس الهجري •

**ب ـ ثورة اسحق الترك :**

هو ، من دعاة أبي مسلم الذين هربوا عند مقتله الى ما وراء النهر (ولهذا دعي بالترك حسب قول ابن النديم • وبعضهم ينسبه الى ولد يحيى بن زيد بن علي وبعضهم يجعله أمياً من أهل ما وراء النهر) • ثار اسحق لمقتل مولاه وادعى ان ابا مسلم حي سجين في جبال الري ، وسيخرج في وقت معين • ويذكر ابن النديم[1] أدعاءه انه نبي أنقذه زارادشت الحي الذي لايموت والذي سوف يخرج ليقيم هذا الدين ••• واجتمع اليه (المبيضة) انصار ابي مسلم • ولئن قبض والي خراسان ابو داوود خالد الذهلي عليه وقتله سنة ١٤٠ ، فان شيعته التي تسمت بالمسلمية استمرت في الخفاء • ويذكر ابن النديم وجودها في عصره (القر الرابع) ولكن في الخفاء في قرية خرنباد حول بلخ وتسمى

---

(١) ابن النديم الفهرست ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥

بالمسلمية الحرمدينية كما يذكر المستشرق بارتولد ان بعضها كان يعيش في قرى بلخ في القرن الثاني عشر (السادس الهجري) • وربما استطعنا في تقييم أخير للحركات التي نجمت عن مقتل ابي مسلم أن نسجل هذه الملاحظات :

أولا ــ أنه أوجد ردود فعل دينية ــ سياسية معاً ، وكانت هذه الردود مباشرة مما يدل على عمق تأثر الايرانيين بشخصيـــة أبي مسلم وأعمالـــه •

ثانياً ــ أن هذه الردود ظهرت في مناطق عدة من خراسان منذالري الى بلخ إلى نيسابور ثم الى ما وراء النهر حيثتعيش أيضا شعوبتركية• مما يدل على سعة نفوذه في الرقعة الجغرافية •

ثالثاً ــ أن ردود الفعل هذه ظهرت بأشكال عديدة حسب المذاهب المجوسية فبينما تظهر كما قال صديغي علاقة ابي مسلم بمزدك فيحركة سنباذ ترتبط علاقته بزارادشت في حركة اسحق التـــرك والرزامية • وكانت الحركات دوماً ثورية دينية وسياسية •

رابعاً ــ أنصار كافة الحركات ، بعد فشلها ، كانوا يتحولون الى جمهور مستعد لتأييد كل ثورة فأتباع سنباذ انحازوا الى جهور العجلي وجماعة اسحق الترك انضموا إلى عبد الجبـــار الازدي في تمرده على العباسيين بقيادة زعيمهم الجديد براز • وفي هذا دلالـــة على القطيعة الكاملة التي سرعان ما قامت بين البيت العباسي الذي استقر في العراق وبين الاقليم الذي احتضن ثورتـــه وأيدها وأوصلهـــا الـــى النصر : خراسان •

## ٣ ـ الحركات المارقة :

وهي التي كشفت عن علاقتها الصريحة بالعقائد القديمة • وإنما جرأها على الظهور النصر الذي شارك الفرس مع غيرهم في إحرازه ضد العرش الأموي • ونعد من هذه الحركات :

آ ـ ثورة بهافريد (بهأفريد): وقد ظهر في نيسابور منذ سنة ١٢٩ قبل خلافة أبي العباس يدعى النبوة ـ كما قالوا ـ وأنه خليفة زارادشت (صدق زارادشت) •

ويبدو أن الرجل كان على شيء من الثقافة والايمان ببعض المبادىء الأخلاقية وله بعض الاطلاع على مبادىء الاسلام بجانب الزارادشتية وقد أفاد من التطواف في الآفاق مابين ما وراء النهر الى الصين قبل أن يقر في نفسه وضع عقيدة جديدة باسمه • ويروي البيروني: أن بهافريد عاد من الصين بعد غياب سبع سنين «وحمل من طرفها مع نفسه قميصاً أخضر يسع مطوياً قبضة الانسان دقة ونعومة وصعد الى ناووس ليلا ثم نزل منها بالغداة وبصر به رجل حراث يكرب أرضاً له فأخبره أنه كان في السماء مذ غاب عنهم وأن الجنة والنار عرضتا عليه وأوحى الله إليه وألبسه ذلك القميص وأنزله الى الأرض في تلك الساعة • فصدقه الحراث وأخبر الناس بأنه شاهده وهو ينزل من السماء [١] •••»

ويتفق البيروني مع ابن النديم وغيره في أن دعوة (به آفريد) قد

(١) البيروني ـ الآثار الباقية ص ٢١٠

لاقت رواجاً واسعاً في الناس « واستجاب له خلق كثير[1] » من المجوس ولعل السبب في ذلك أن الرجل حين رأى دخول الزارادشتيين المتتابع في الاسلام أراد أن يقطع الطريق على هذا التطور الديني بنقل محاسن ما يراه الناس في العقيدة الاسلامية الى الزارادشتية نفسها وتطوير تلك العقيدة في الاتجاه الأسلامي •

وهكذا أدخل بهافريد تعديلات أساسية على المجوسية تأثر فيها بوضوح بالروح الاسلامية وبشيء من البوذية فأمر أصحابه بترك شرب الخمر أو أكل الميتة أو نكاح الأمهات والأخوات والبنات وبنات الأخ كما فرض عليهم سبع صلوات في اليوم ، كل صلاة لأمر • وأولها في توحيد الله وجعل التوجه أثناء الصلاة الى الشمس حيثما استدارت بدل التوجيه الى الكعبة • وهذا التحول المجوسي إلى التوحيد هوتحول هام فقد كانت الزارادشتية قد تحولت إلى العقيدة الثنوية • ولعل مبدأ الرجعة (الذي اقتبسه بهافريد عن الشيعة الغلاة) كان هأم مبادئه فقدظل أتباعه قروناً من بعده ينتظرون عودته •

وقد استغل بهافريد فرصة الاضطراب والفوضى التي وقعت بها خراسان إثر اعلان الثورة العباسية لنشر دعوتـه وأفكاره ، في منطقة نيسابور التي ظهر فيها وجبال باذغيس حيث كانت الزارادشتية ما تزال مستقرة بين السكان وقد تقبل عامة المجوس هذه التعديلات الجديدة على الديانة القديمة واتبعوها لأنها في الوقت الذي تربطهم فيـه مع دين الحكام لا تقطع صلتهم مع دين الآباء الذين مضى على توطده فيهم ثلاثة

---

(1) ابن النديم ـ الفهرست ص ٣٤٤

عشر قرناً على الأقل حتى ذلك الوقت • ولا بد من الاشارة الى أن في تاريخ المجوسـية الزارادشتية محاولتين أخريين من هـذا النوع قامتا لتجديدها إحداهما قام بها ماني في القـرن الثالث الميلادي فأوجد بها المانوية موفقاً فيها بين الزارادشتية والمسيحية التي انتشرت وانتصرت في تلك الفترة ، والثانية قام بها مزدك في القرن السادس محاولا حل مشاكل الظلم الاجتماعي برد أمره الى أمرين : المال والمرأة وضرورة حل ذلك الظلم باباحة هذين المصدرين من مصادر البلاء ! ولهذا لم يكن غريباً أن يظهر (بهافريد) في محاولة جديدة ثالثة لتطوير المجوسـية على أساس مبادىء الاسلام الآخذة مع هذه المحاولة التوفيقية التي ترضى قناعاتهم الأولى • وقد صاغ بها بهافريد أفكاره في كتاب كتبـه بالفارسية وزعم أنه وحي يوحى •••

ويبدو أن بهـافريد وجه همه لبعض الاصلاحـات العمرانيـة والاجتماعية ففرض على اتباعه دفع سبع أموالهم وكسب أعمالهم ( مقابل الزكاة الاسلامية أو مقابل خمس الغنائم) لتعمير الطرق وإصلاح القناطر كما منع أن تتجاوز المهور ٤٠٠ درهم ، وأمر باطـلاق الشعور والجمم ومنع الزمزمة عند الطعام كما حرم ذبح الأنعام الا ما هرم منها ولعل السبب في ذلك ضرورة استخدامهـا في العمـل الزراعي والحرث • فالزارادشتية تحث على العمل وكسب الرزق والانتاج والزراعة والرعي• فشق الأرض بالمحراث خير عندهم من تقديم ألف قربان للآلهة وعشرة آلاف دعاء وهذا ما يكشف الجذر الاقتصادي وطابع الثورة الفلاحية في الحركة التي لا تشك أنها هددت بذلك طبقات الكهنة المجوسية المتحالفة مع الاقطاعية الايرانيـة ودعت الطرفين للتعاون معـاً على مكافحته واستعداء الحكم الاسلامي ضدها •

ومقارنة أفكار بهافريد بالزارادشتية الأولى تكشف أن الرجل حاول إعادتها لحد ما الى مبادئها الأولى في التوحيد فقد كانت في الأصل موحدة تحارب الشرك والاصنام كما تؤمن بالبعث والحساب والجنة والنار والصراط في اليوم الآخر وهذا التشابه هو الذي استغله بهافريد فأضاف إليه بعض المبادىء الاسلامية لإقامة عقيدته •

وهذا بالضبط ما أثار عليه كهان المجوسية المحافظين أكثر مما أثار المسلمين لأنه «خالف المجوس في أكثر الشرائع» بحركته الملحدة ، لهذا اجتمع الهرابذة والموابذة الى أبي مسلم حين قدم نيسابور وشكوا إليه بهافريد الذي «أفسد دين الاسلام ودينهم» • ويذكر البيروني أن أبا مسلم بعث عبد الله بن شعبة إليه من الجبال « فحمله إليه فقتله ، ومن ظفر به من أتباعه» بينما يذكر ابن النديم أنه قبل العودة للاسلام أولا وسود ثم استمر في «كهانته» فقتل سنة١٣٧ ويذكر الشهرستاني أن قتله كان على باب الجامع في نيسابور وأن الذي سلمه هو موبذ المجوس[١] •

على أن البهافريدية لم تمت بموت صاحبها • فقد قامت في باذغيس سنة ١٥٠/٧٦٧م ، في عهد المنصور نفسه ، بزعامة رجل يدعى أشناس • كما يشير ابن النديم الى وجودها في القرن الرابع الهجري • ويشير البيروني إلى أن البهافريدية استمروا بعد زعيمهم «يعادون المجوس عداوة شديدة ويزعمون أنه صعد السماء على برذون وسينزل إليهم كما صعد وينتقم من أعدائه •••» •

---

(١) انظر الشهرستاني ــ الملل والنحل (ط . الكيلاني ــ القاهرة ١٩٦١) ج١ ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩

## ثورة استاذسيز :

قامت هذه الثورة ، في خراسان سنة١٥٠هـ •وقدتجمعت فيها على ما يبدو من اتساعها ـ كافة الطبقات الحاقدة هناك على العباسيين ، كما انعكست فيها ـ على ما يبدو من عنفها ـ كل عقابيل الآمال الفاشلةالتي عقدها الخراسانيون على العباسيين فخابت ، وكل المرارة التي أصابتهم بانهزام ثوراتهم المحلية المتتالية • كانت نوعاً من المحاولة الأخيرة للتعبير عن رفض العرش العباسي لدى اولئك الذين ساهموا في إقامته ورجوا من وراء تلك المساهمة مكاناً من المكان في الدولة الجديدة •

واستاذسيز الذي تزعم الثورة كان على ما يظهر أميراً على بعض الجيوش الخراسانية فخرج بها ـ كما يقول السيوطي ـ عن الطاعة • وسرعان ما استطاع الاستيلاء على مدن خراسان واحدة بعد الأخرى وبعد أن احتل هراة ومنطقة سجستان اتجه الى مرو الروز عاصمة خراسان «وعظم الخطب واستفحل الشر وعظم على المنصور الأمر ••• وبلغ ضريبة الجيش الخراساني ثلاثمائة الف مقاتل ما بين فارس وراجل فعمل معهم أجشم المروزي (قائد مرو) مصافاً (فلم يستطع الوقوف لهم) فقتل أجشم واستبيح عسكره •••» • في الوقت الذي كان فيه يزيد بن منصور والي خراسان ( وخال الخليفة المهدي بن المنصور ) يهرب من بست عاصمة سجستان بعد معارك قاسية إلى نيسابور ••

وقد ظهر هناك قائد يساعد استاذسيز اسمه الحريش فراد فيإرباك الموقف العباسي كله في المشرق •

وبالرغم من أن المصادر تتهم استاذسيز بادعاء النبوة ويذكر

الشهرستاني أن السيسانية تحمل مبادىء بهافريد ذاتها وأن الاثنين فرقة مجوسية واحدة فكأن ثورة الثاني استمرار لحركة الاول إلا إن هذا الاتهام لا يسانده في الواقع إلا ظاهرة وجود الاعداد الهائلة من المجوس مع أستاذسيز . من خراسان وسجستان على السواء . ولكن شكل الحركة السياسي يشكك في هويتها الدينية وقد يحمل على الظن ـ مع عدم وجود أي فكرة دينية مجوسية جديدة يعلنها أستاذسيز ـ أن الاتهام الديني بالنبوة لم يكن إلا تبريراً عباسياً دعائياً . وما كانت الحركة ، في هذه المرة على الأقل سوى ثورة سياسية ضد المنهج العباسي في الحكم، هذا المنهج الذي لم يخفف من الظلم الأموي السابق شيئاً بل لعَله زاد من وطأته على الفقراء والفلاحين والمستضعفين بعد أن كانت الدعوة العباسية نفسها قد فتحت عيونهم على آفاق وآمال جديدة .

وقد اختار المنصور لمقاومة هذه الثورة الشاملة ابنه المهدي أرسله مع الجيش فعسكر في الري ثم أتبعه بأعرق قواده : خازم بن خزيمة التميمي الخراساني . لكن المعارك الأولى مع جماعة استاذسيز كانت خاسرة بسبب تضارب القيادات وتوزع الجيوش . وطلب خازم من المهدي أن يعهد إليه بالأمر كله ويجمع في يديه قيادة الجيوش كلها ففعل ولما لم ينفع ذلك في تحطيم الثورة طلب المهدي نجدة القوى في طخارستان . وعسكر خازم وخندق في مكان حصين قرب نيسابور واستطاع في حركة انسحاب مخادعة أن يعاود الكرة على جموع استاذسيز والحريش معه ويهزمه في موقعة دامية عنيفة بلغ عدد قتلاها فيما تذكر المصادر سبعين ألفاً وعدد الأسرى أربعة عشر ألفاً ضربت أعناقهم أيضاً ...

وهرب استاذسيز في الجبال مع أعداد من جنده فلحقه خازم وحاصره مدة حتى استسلم فأرسل في القيود الحديدية الى بغداد حيث

قتل بينما عفا المهدي عن ثلاثين ألفا من جنـده الذين استسلموا معه . وهدأت خراسان كما استطاع جيش يقوده عبيد الله بن العلاء أن يدخل (بست) عاصمة سجستان سنة١٥١ ويعيدها إلى الطاعة العباسية. وعاد المهدي تلك السنة إلى بغداد ليستقبل فيها الاستقبال الحافل .

حـ ـ المقنع والمقنعية (١٥٩ ـ ١٦٣/٧٧٦ ـ ٧٧٩)

وبالرغم من أن هذه الحركة قد قامت بعد وفاة المنصور بسنة واحدة واستمرت في عهد ابنه المهدي فإنها في الواقع خاتمة تلك الحركات «الملحدة» أو «المسلمية» التي قامت في نسق متصل في خراسان مدة تقارب نصف قرن (ما بين حركة خداش ١١٦ ونهاية المقنع ١٦٣)

وصاحب الحركة المقنعية هو هاشم بن حكيم[١] (وقيل حكيم أو عطاء) وهو قصار من مرو وأصله من قرية حولها يسمونها (كازه) أو (كاوه كيمردان) . كان أبوه أحد القواد في خراسان أيام المنصور ويبدو أنه حصل بعض العلوم «وتعلم الشعبذة والنيرنجات والطلسمات ... وكان في غاية الذكاء ... وصار بارعاً للغاية في السحر ...» وقد عمل هاشم هذا في قيادات خراسان أيام أبي مسلم ثم صار «وزيراً» أي كاتباً للوالي عبد الجبار الأزدي وأسر معه حين أسروأخذ الى بغداد ثم أطلق فعاد الى مرو ثم ادعى الألوهية لا النبوة . وقد لقب بالمقنع لتبرقعه بالحرير الأخضر أو لاتخاذه وجهاً من ذهب[٢] زعم في تعليله أن ....

---

(١) البغدادي ـ الفرق بين الفرق ص ٢٤٤ والنرشخي ـ تاريخ بخاري ص ٩٤ .
(٢) النرشخي ص ٩٤ وابن الأثير ٦ ص٣٨ والفخري ص ١٣٢ .

الناس لايستطيعون تحمل نوره فلهذا اتخذه كي لايحترقوا بينما يقول المؤرخون المسلمون انه كان اعور أصلع مشوه الخلق «في غاية القبح» فأخفى بذلك وجهه الشائه .

وتقوم عقيدة المقنع على فكرة الحلول والتناسخ «فالله ـ كما يروي له النرشخي والفخري[1] ـ خلق آدم فتحول في صورته . ثم في صورة نوح وهلم جرا (أي الى ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد) ثم الى ابي مسلم الخراساني ثم الى هاشم . وهاشم في دعواه هو المقنع» وهكذا ادعى الالوهية وانه تجسد اذ ليس لاحد ان ينظر اليه قبل التجسد» ولكنه ـ على مايذكر البيروني[2] ـ لم يظهر ذلك لجميع اتباعه وكان يكتب لأتباعه : «اعلموا أن الملك لي ولي العزة والربوبية ولا إله غيري[3] ـ»

ويذكر القزويني في آثار البلاد وابن خلكان ان آية المقنع (قمرا) اظهره للناس فكانوا يرونه من مسافة شهر من محله وبقي ذكره في الناس والاشعار والقزويني فسر ذلك القمر بانه «ماكان الا بطريق الهندسة ، وانعكاس شعاع القمر على طاس كبير مملوء بالزئبق في قعر بئر[4]» وقد ذكر النرشخي أنه استخدم انعكاس الشمس في المرايا على أتباعه حين ألحوا في رؤيته .

وقد تعددت لدى المؤرخين مبادىء المقنع وتنوع ما يحمل عليه من

---

(١) البيروني ص ٢١١ وابن الأثير .
(٢) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ج/١/ص ١٣٢ .
(٣) النرشخي ـ تاريخ بخاري ص ٩٥ ـ
(٤) البغدادي الفرق بين الفرق ص ٢٤٣ .

الأفكار وخلاصة ما يذكرون :

أ ــ أنه ادعى الالوهية • وقد أجمعوا على ذلك •

ب ــ أنه قال بالحلول والتناسخ فقد حل الله في سلسلة الانبياء إلى محمد ثم بأبي مسلم ثم المقنع •

حـ ــ أنه قال بالرجعة وأنه سيعود إلى الأرض لنشر العدل •

ء ــ أوصل أبا مسلم لدرجة الألوهية (كما فعلت الرزامية) •

هـ ــ اسقط كافة الفرائض عن أتباعه وألغى الحلال والحرام •

و ــ أعلن التعاليم المزدكية من إباحة للمال والمرأة وطبقها بين أتباعه •

ز ــ رفض السلطة العباسية وتحالف مع الترك ضدها • وأباح لاتباعه ولهم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم •

وهكذا فقد جمع المقنع عددا من المبادىء في حركته • واستعراضها يكشف أن المقنع كان «رزامياً» (من الفرقة التي تمادت في تقديس ابي مسلم حتى احلت فيه روح الاله بطريق التناسخ) وإذا نظرنا في الذي يذكره النرشخي وابن الاثير والبيروني والشهرستاني من اجتماع «المبيضة» (وهم من جماعة ابي مسلم) حوله ، ثبت لنا اتصال الحركة بدعوة ابي مسلم الخراساني وإن ظلت هذه الجماعة تعمل منفصلة عنه على ما يظهر • على أنا نلاحظ فيها الى هذا وجها دينيا مزدكياً (خرمياً) من جهة وآخر سياسياً قومياً (فارسياً) من جهة أخرى •

فبمادىء خرم المزدكية في المشاعية ظهرت لدى المقنع الذي اباح لاتباعه ــ كما يقول البيروني ــ «الاموال والفروج وشرع لهم جميع ماأتى به مزدك» • والبغدادي يقول إنه «اباح لاتباعه المحرمات وحرم عليهم القول بالتحريم واسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات» •

ثم أن الرزامية نقلت الامامة من العباسيين الى الزعيم الفارسي ابي مسلم فهي بذلك لاتعترف بامامة العباسيين أو بسلطتهم واذا كان هـذا يفسر التفاف (المبيضة) حولها فانه يبين في الوقت نفسه أن في الحركة جذوراً سياسية أيضاً لا سيما واننا نجد جميع العناصر الساخطة على العباسيين(لاسباب مختلفة) تجتمع اليها : فامير بخارى (بخاراخدات) يؤيد الثورة (ولهذا قتل بعدها) وخاقان الترك يساعد المقنع (كما ذكر ابن الاثير) والاتراك «الخلجية» كانوا معه واهل الصغد • فهي إذن حركة مثلثة الأقطاب فيها وجه العلاقة مع الحركات المسلمية ولكن فيهاأيضا إثبات الزارادشتية ـ المزدكية ورفض الاسلام ، مع إقامة الجبهةالايرانية ـ التركية ضد الحكم العباسي العربي ولعل فيها لذلك وجهاً رابعاً يعقد نوعاً من الصلة عن طريق مبادىء الرجعة والحلول بينها وبين بعض الأفكار الشيعية الغالية •

وقد انتشرت حركة المقنع من خراسان الى ما وراء النهر : فعبرت جيحون الى نواحي كش ونسف • وجعل صاحبها مركزه في بلدة (نرشخ) قرب بخاري • ويبدو أن هذه الحركة مرت بثلاثة أطوار : فقد ثار في البدء جماعة المقنع نفسه إثر انتشار تعاليمه • وكان مختفياً في هذه الفترة في مرو بينما كان دعاته يجوبون أنحاء خراسان في الدعوة له فأضلوا كثيراً من الناس حسب ماكرر النرشخي في القول وكان أكثر مالقيت الدعوة من التجاوب في قرى بخارى وقرى السغد • ثم دخلت حركته مرحلتها الثانية حين وجد فيها المبيضة أصحاب أبي مسلم في خراسان وما وراء النهر مجالا لتحقيق ثورتهم فانضموا إليها ووحدوا جهودهم معها ثم كانت المرحلة الثالثة حين انضم الترك الى الحركة لا عن ايمان بالمقنع وتعاليمه والتحاق بثورته ولكن كعنصر ثالث يريد الاستفادة من الحركة في دفع الحكم العربي ـ الاسلامي إلى الوراء : وفي هذه المرحلة

الثالثة انتقل المقنع من مرو وخراسان إلى ما وراء النهر وجعل لنفسه قلعة جبلية حصينة عند نرشخ اسمها سيام أو بسباب : اتخذها مقراً وسكناً يحج إليـه الناس •

وقد تعاون المبيضة مع المقنعية مع الترك في تحالف سياسي عسكري عقائدي فأرهقوا القوات العباسية في المنطقة جميعها بالمعارك والهجمات وقطع الطرق على القوافل ونهب القرى وسبي المسلمين وابنائهم «حتى اشتد البلاء على المسلمين» شـدة كبيرة[1] • ويبـدو أن بعض العرب المتوطنين مالأوا المقنع وانضموا الى الايرانيين والترك في دعمه ويذكر النرشخي اسم عبد الله بن عمرو الذي أيد المقنع وزوجه ابنته !

وعجز والي خراسان حميد بن قحطبة الطائي عن ضبط الأمر بل عجز رغم الحاميات التي نصبها لمراقبة شواطيء نهـر جيحون عن منع المقنع من العبور الى ما وراء النهر وارتبكت الأمور في خراسان وبخارى نفسها ببعض الأحداث والمضاعفات التي أطالت من أجل الثورة المقنعية• فبالرغم من أن القائد الذي عينه المهدي لما وراء النهر : جبريل بن يحيى استطاع بعد أربعة أشهر من القتال حول بخارى أن ينتصر ويجبر المقنعية والمبيضة على الانكماش الى قواعدهم إلا إن ثورة محلية قامت عليه في تلك المدينة هي ثورة يوسف البرم الخارجي سنة ١٦٠ فأجبرته على التوقف ومع أنها أخمدت بسرعة إلا إن ولاية خراسان ـ الأم اضطربت بدورها إذ توفي واليها حميد بن قحطبة فتلاه ابنه عبـد الله الذي لم يلبث أن استبدل به أبو عون عبد الملك الازدي ثم عين بدلا عنه وال رابع هو

---

(١) انظر تفاصيل هـذه الأحداث لدى النرشخي ـ تاريخ بخاري ص ٩٤ ـ ١٠٤ •

معاذ بن مسلم سنة ١٦١ مما أربك العمليات الحربية ضد الثائرين .

وقد جمع معاذ أقصى مـا يستطيع من آلـة الحرب ومن أعداد المحاربين (٧٥ ألفاً)[1] في بخارى وقصد السغد وسمرقند وخاض مـع المبيضة ومع الترك حروباً دامت مدة عامين ، ربح بعضها وخسر بعضها الآخر ثم يئس من النصر النهائي واختلف مع القائـد سعيد الحرشي أمير هراة فطلب إعفاءه وتولى المسيب بن زهير الضبي أميراً على خراسان في مرو سنة ٧٧٩/١٦٣ فجاء بخارى ليتولى بنفسه قيادة المعارك .. التي نصب لقيادتها سعيد الحرشي نفسه كما أرسل حاكم بخارى الجنيد بن خالد الى الثوار في خوارزم ... وإذا كانت حركة المقنـع تكشف عن انتشار الفقر والجهل بين الطبقات القروية في خراسان وما وراء النهر وكان انضمام المبيضة إليها دليلا على تأصل المجوسية هناك ووجود جموع كبيرة ما تزال عليها في تلك المناطق كما تحقـد على انتشـار الاسلام والمسلمين فمما لا شك فيه أن انضمام الترك بدورهم وبهذا العنف ، الى الحركـة إنما هو يقظة لتلك المعارك القديمـة التي خاضوها ضد التوغل العربي الاسلامي في ما وراء النهر في أواخر العهـد الأموي والتي استطاع نصر بن سيار في النهاية تهدئتها . وهي تعود الآن ، بعد ثلاثين سنة في تتمة جديدة ذات ثوب ديني رقيق جعلته ستاراً أو استغلت مناسبته لمعاودة النضال للهدف القـديم : رفض التوغل الاسلامي في في المنطقة .

ولا شك أن السلطات العباسية المركزيـة قدرت ، بعـد تمادي

---

(١) يذكر النرشخي (تاريخ بخاري ص١٠٠) أنه جمـع ٥٧٠ الفاً ولعلها ٧٥ ألفاً .

الثورة ، مدى أخطارها ومعناها الحقيقي لدرجةأن الخليفة المهدي نفسه انتقل الى خراسان لمراقبة الموقف .

وقد استطاع الحرشي في النهاية حصار المقنع حيث اعتصم في قلعة سيام وطال الحصار أربعة عشر شهراً فيما يظهر[1] والمقنع صامد في حصنه الذي كان يحيط به من دونه قلعة واسعة اجتمع فيها من انصار المقنع حوالي ثلاثون ألفاً . فلما ضيق سعيد الحرشي عليه وأتى بجلود الجواميس ليملأها تراباً ويجعل منها جسراً على الخندق «فتح قائد (المقنع) الباب وخرج طائعاً واعتنق الاسلام واستولى المسلمون على القلعة» أما المقنع فلم يبق معه سوى ألفين من الرجال وحين عرف أنه لا يمكنه الاحتفاظ بالحصن الداخلي طويلا قام بعملية انتحار جماعية من نوادر ما يحدث في التاريخ (جرى مثلها عند حصار قرطاجة في نهاية الحروب البونية مثلا) . ويذكرون أنه سقى نساءه وأهله بعض الشراب المسموم فلما تهاووا أمواتاً قتل غلامه الأخير وكان قد أحمى التنور ثلاثة أيام وأذاب فيه النحاس والقطران فألقى بنفسه أخيراً في النار الموقدة ! كان ذلك على الأرجح سنة ١٦٣[2] .

وهذه الخاتمة الانتحارية التي اختارها المقنع لحياته وإن كان

---

(١) ذكر النرشخي (تاريخ بخاري ص ١٠٣) أن الحصار دام ١٤ سنة وهو خطأ واضح ولعله كان يريد أن يقول ١٤ شهرا كما نرجح أو لعل الناسخ الفارسي للكتاب الأصلي اخطأ فوضع كلمة سنة بدل كلمة شهر .

(٢) يذكر النرشخي أن نهاية المقنع كانت ١٦٧ واما البيروني فيجعلها ١٦٩ ثم يذكر النرشخي نفسه والبغدادي أن حصاره استمر ١٤ سنة ويبدو أن ذلك من خطأ المؤرخين .

القصد منها أن لا يظفر العباسيون به أو بأهله وهو يعرف مصيره بين أيديهم ، إلا إنها سمحت لمبادئه أن تستمر من بعده ولأتباعه أن لا يفقدوا الأمل بعودته • فإحراق نفسه في اللحظة الأخيرة «زاد في افتتان من بقي من أصحابه» فزعموا أنه صعد الى السماء • ويقولون إنه وعد بالعودة في شكل رجل أشمط على برذون أشهب بعد عدد معين من السنين فهم ينتظرونه • ولدى المقدسي والبغدادي والبيروني وابن العبري إشارات متعددة تدل على وجود المقنعية في مواضع مختلفة مما وراء النهر حتى القرن السابع الهجري (١٣م • ) وأنهم متخفون ويظهرون الاسلام •

## ٤ ـ مشكلة طبرستان •••

هذه المنطقة الجبلية الصعبة في شمال ايران •على الأطراف الجنوبية من بحر الخزر شكلت بالنسبة للمنصور والخلفاء من بعده مشكلة ايرانية من نوع آخر • اشتبك فيها عامل الاستقلال المحلي المتمثل في أسرة حاكمة قائمة مع العامل الديني المتمثل في مذهب الخرمية الحرة وطبرستان إحدى البؤر الرئيسة لهذا المذهب • وقد كانت منذ الفتح العربي والعهد الأموي تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي والديني تحت حكم أسرتها الحاكمة •

وكانت علاقة اصبهبذ طبرستان بالعرب إنما تنظمها خاصة معاهدة أردبيل التي عقدها معه حذيفة بن اليمان سنة ٢٢هـ/٦٢٤ أيام الفتوح وتتضمن تحديد الخراج السنوي للعرب والحرية الدينية والسياسية للطبريين وقد حددت هذه المعاهدة زمن سليمان بن عبد الملك • ولم يكن ذلك بالأمر الجديد على طبرستان فقد اعتاد ملوكها شراء استقلالهم الذاتي من الساسانيين بجزية سنوية •

وحين قامت الثورة العباسية قبل الاصبهبذ دفع الجزية السنوية هذه للعباسيين لما سار جيشهم الى العراق • وقد توسط خالد البرمكي في ذلك • وأول أزمة بين الاصبهبذ والدولة الجديدة إنما كانت حين والى أهل طبرستان ثورة سنباذ (اثر مقتل أبي مسلم) وحين أنفذ سنباذ بعض خزائن أبي مسلم الى الاصبهبذ • ويروي لنا ابن اصفنديار[1] في تاريخ طبرستان والطبري كلا هي قصة انتهاء الاستقلال السياسي لهذه المنطقة إثر تلك الأزمة التي لم تكن سوى المبرر الظاهري لأطماع المنصور • فإن خليفة بغداد كان يعلم شأن خراسان وأهلها في قيام العباسيين ودعمهم والطريق بين خراسان وبغداد تمر باستمرار في منطقة الجبال على أطراف طبرستان • وقد جعل المنصور إقامة ابنه المهدي في الري في تلك الأطراف مدة طويلة (١٤٠ ــ ١٥١) خوفاً من أي تحالف محتمل بين ثوار خراسان المتعددين ودولة الاصبهبذ •

وطبيعي أن يفكر المنصور في الخلاص من هذا «الجيب» غير المسلم الذي يشكل بالنسبة إليه خطراً محتمل الوقوع دوماً على خط المواصلات السياسي ــ العسكري الحيوي للخلافة وكما كان طبيعياً أن يفكر أيضاً بتحويل هذه المنطقة الى دولة الاسلام بسبب موقعها الاستراتيجي بين خراسان وارمينية وبسبب غنى الموارد فيها وطبيعي أخيراً أن يجد

---

(١) انظر ابن اصفنديار ( بهاء الدين محمد بن الحسن البوشيخي المتوفى سنة ٦٢٥ ) ــ تاريخي طبرستان ( جزءان تحقيق ونشر عباس اقبال ــ طهران ١٣٢٠ / ١٩٤٢ ) الصفحات ١١٩ ــ ١٣١ من الجزء الاول. والمؤرخ الطبري وهو بدوره من هذه المنطقة روى ذلك ، انظر الطبري ج ٧ ص ٥١٠ ــ ٥١١ ، ( ٣/١٣٦ ــ ١٣٧ ) ثم ٥١٢ ــ ٥١٣ ( ٣ / ١٣٩ ــ ١٤٠ ) . وقد حاولنا التوفيق المنطقي بين روايتي الطرفين .

أمام نفسه المبرر الكافي لهذا الفتح وهو المبرر الديني وضرورة تحويل طبرستان الى الدين الاسلامي في إطار خطة العباسيين الواسعة لإسلام شعب خراسان وما وراء النهر بعد تلك الثورات المارقة التي نبتت فيهم •

وبالرغم من أن الطبري يبرر غزو طبرستان بأنه «لما ظفر المهدي بعبد الجبار ( الأزدي ) بغير تعب ولامباشرة قتال • كره المنصور أن تتبطل تلك النفقات التي أنفق على المهدي (وعلى تجهيز جيشه) فكتب إليه أن يغزو طبرستان» إلا إن هذا المبرر لا يكفي بل يكشف بالعكس أنه كان من خطة المنصور ، حين جهز هذا الجيش أن تكون ضربته التالية بعد عبد الجبار وثورته للأصبهبذ الذي كشف عن استقلالية ذاتية واضحة ، وعداء مستور لخليفة بغداد لا سيما حين طلب منه المنصور خزائن أبي مسلم مرة بعد مرة دون جدوى ورأى ما رأى من دعمه للثورات المارقة •

وطلب المهدي إلى أبيه أن لايلحف في طلب الخزائن لئلا يلجأ الاصبهبذ الى الثورة والانفصال النهائي وأن يحاول خديعته لأن البلاد كثيرة القلاع وعرة الجبال لا تحتل بالقوة • وقد نفذت الخطة في إحكام بارع : أرسل المنصور الى الاصبهبذ ببعض الهدايا ومعها تاج ملكي • فكان جواب الاصبهبذ على ذلك تنفيذ المعاهدات مع المسلمين بإرسال الجزية السنوية ثم أرسل المنصور الى ابنه المهدي أن يطلب من الاصبهبذ الذي كان إذ ذاك يحارب جاره المصمغان ( ملك دنباوند على الشاطىء الجنوبي الغربي من بحر قزوين) • السماح لجيوش المسلمين بعبور الطريق الشمالي المؤدي عبر طبرستان إلى خراسان بحجة ان أعداد المقاتلة كثيرة ولا بد من سرعة مسيرها • ووافق الاصبهبذ على الطلب

البريء . لكن ما إن دخلت قوات أبي الخصيب مرزوق ، مولى المنصور، وخازم بن خزيمة إلى طبرستان حتى بدأت الاحتلال .

ولم تكن قصة الاحتلال بايرمر السهل فما إن أحس الاصبهبذ توغل الجيوش في بلاده بدلا من طريق خراسان حتى أوقف الحرب مع المصمغان الذي كان من بعد النظر السياسي بحيث تحالف معه ضد الجيش الاسلامي قائلا : متى صاروا إليك صاروا إلي ! وطالت الحرب . فأوفد المنصور جيشاً آخر يقوده عمر بن العلاء[1] «أعلم الناس ببلاد طبرستان » فاحتل بعض المدن والقلاع والح في القتال وكثر القتل وصار الاصبهبذ الى قلعته : قلعة الطاق الحصينة وطلبت الأمان على أن يسلم مافي القلعة من ذخائره .. وكتب المهدي بذلك الى أبيه فبعث أبو جعفر بوفد من عنده أحصى مافي الحصن وانصرف . ويبدو أن الاصبهبذ هادن الجيش العباسي بعد أن انهار حليفه المصمغان وأسر مع عائلته في الحرب[2] وقتل . فأقره المهدي على مكانه وقلعته «فهذا فتح طبرستان الأول» سنة ١٤١/٧٥٩ .

وفي السنة التالية ١٤٢ نقض الاصبهبذ العهد مع المسلمين وقتل من كان ببلاده منهم فتوجه إليه قواد العباسيين مقاتلين فأقاموا على حصنه محاصرين له ولمن معه حتى طال القتال والمقام . ولجأ القواد العرب

---

(١) كان لدى المنصور اخ للمصمغان اسمه ابرويز وهو الذي أشار عليه بارسال عمر بن العلاء الذي يقول بشار فيه للخليفة :

إذا ايقظتك حروب العدا      فنبه لها عمراً ثم نم

( الطبري ٧/٥١٠ ) .

(٢) أخذت بنات المصمغان إلى القصر العباسي فكان منهن أمهات أولاد ... ( الطبري ٧/٥١١ ) .

الى الحيلة : اقترح أبو الخصيب أن تحلق لحيته ورأسه ويطرد فيلجأ إلى الاصبهبذ ويتدبر فتح القلعة • ويذكر الطبري تفصيل الحيلةالناجحة التي استطاع بها أبو الخصيب أن يصبح آمر البـاب الحجري الضخم للقلعة •••

ويبدو أن الاصبهبذ غادر قلعته الى جيلان في التماس النجدات والمعونة وفي تلك الاثناء رمى أبو الخصيب إلى أصحابه بنشابة حدد لهم فيها موعد فتح الباب ••• وسقطت القلعة ومعها البلاد كلها سنة١٤٣أما الاصبهبذ فحين علم سقوط معقله : قلعة الطاق مص خاتماً له فيه سم وقتل نفسه[١] •••

وتسلم ابو الخصيب حكم طبرستان في خطة واضحة لنشر الاسلام فيها وبناء المساجد • ولكن مهمته لم تكن بدورها سهلة لأن الاضطرابات استمرت ضده ، وضد من جاء بعده فلم يكن السلطان العباسي قائماً فيما وراء جدران المدن حيث تقيم الحاميات العسكرية • وقامت الصعوبات في وجه انتشار الدين لأن الناس كانوا شديدي التعلق بدياناتهم الأولى تعلقهم بأمرائهم الأولين • بل لجأ بعضهم الى التشرد في الجبال متوحشين• وخاصة شعب المصمغان • يقول الطبري : «••• ولمـا فات المصمغان تحوز أهل ذلك الجبل فصاروا حوزية لأنهم توحشوا كما تتوحش حمر الوحش»[٢] ذلك أن الأفكار الدينية المزدكية الخرمية التي كـانت

---

(١) يذكر الطبري ما كان من أمر عائلة الاصبهبذ التي دخلت بدورها بلاط العباسيين • ومنهن مشكلة أم ابراهيم بن المهدي • وهي بنت خوناذان قهرمان المصمغان ، وباكند أخت الاصبهبذ الأصم وابنتها البحترية أم منصور بن المهدي ( الطبري ٥١٣/٧ ) •

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥١١ ( ١٣٧/٣ ) •

مستقرة في طبرستان وفي الجبال الغربية الشمالية من ايـران ، وجدت نوعاً من اليقظة الدينية بدخول أفكار الفرق «المسلمية» ( لأبي مسلم ) عليها • كما وجد السكان في هذه العقيدة الخرمية المجددة والتي تسمى أحياناً بالمحمرة نوعاً من أسلحـة المقاومة للتسلط العباسي الاسلامي • ولهذا كان أهل طبرستان ظهراً لكل ثائر خرمي : مثل سنباذ وبهافريد واستاذسيز والمقنع في حركاتهم المختلفة •



# الفصل السادس

## تنظيم الدولة

تلك البوائق والفتوق على خطرها لم تستأثر بكل جهد ابي العباس والمنصور . فقد قابلها أيضاً . جهد ايجابي لتنظيم الدولة • ولئن بقيت الخطوط الكبرى للنظام الاداري الاموي قائمة في العهد العباسي ، لا سيما في مطلعه . فقد ابتكر المنصور خاصة كثيراً من التقاليد والقواعد في الادارة العباسية • يقول صاحب الفخري[1] انه «أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد واقام الناموس واخترع اشياء ••» ويمكن أن نعتبر عهده نهاية دور البناء والتأسيس ــ وهو الدور الاول ــ وقد تقررت بصورة تقريبية سعة الدولة العباسية ، وشأن الاقطار التي تتألف منها بعضها بالنسبة لبعض ، كما رسمت خطوط السياسة العباسية العامة • ووضع مبدأ اعتماد الخلفاء على القوة والدهاء في توطيد الدولة • واصبح للخلافة معنى ديني كما أضحت سلطة الخليفة مطلقة • ويمكن أن ندرس مناحي التنظيم العباسي في :

**آ ــ ولاية العهد :**

كان بالامكان أن ندرج هذه المشكلة في إطار مشاكل الطامعين في

(١) الفخري ص ١١٥

العرش من آل محمد فقد كانت في الواقع نزاعاً في قمة البيت العباسي على الخلافة ولكن المنصور هو الذي فجر هذه المشكلة تنفيذا منه لمخطط اقتنع به في تنظيم الدولة ويتصل بتوارث العرش على أساس رأسي لا أفقي ولا أسري (مشيخي) •

فقهد عهد أبو العباس بالخلافة إليه عهدا دون نظام مسبق بعد ان كان وعد عمه عبد الله بن علي بها ، وجعل في الوقت نفسه لأبي جعفر ولي عهد يتلوه هو ابن اخيه : عيسى بن موسى وبالرغم من أن أبا العباس مشى في نقل الخلافة الى أخيه على أساس عرضاني أفقي إلا أنه مفهومه لوراثة العرش إنما كان على أساس أسري بدليل أنه وعد عمه من جهة وعهد فعليا الى ابن أخيه من جهة أخرى • فلما جاء أبو جعفر أراد : أن يحفظ العرش أولا في أولاد أبيه دون باقي الاسرة ، أي أن يلغي المفهوم الاسري ثم أ نيحفظها في أولاده هو دون باقي أولاد إخوته أي أن يلغي المفهوم الافقي العرضاني في التوارث •

فأما المفهوم الاسري فكان قائما في نفوس الكثيرين من بني العباس ويمكن أ ننعد منهم ثلاثة على الاقل هم :

أولا : عبد الله بن علي الذي ثار وحارب الحرب العنيفة للوصول الى ماكان يراه حقا له في الخلافة • ولكنه هزم وانتهى رغم الامان المحكم والايمان الموثقة الى القتل •

ثانيا : صالح بن علي بن عبد الله العباسي ، وهو شقيق عبد الله السابق • « وكان يتولى لابي جعفر قنسرين والعواصم • فبلغه كثرة عدده ومواليه • فخافه • فكتب إليه في القدوم عليه فكتب إنه شديد

العلة فلم يقبل ذلك • وكان قد سل ، فصار الى بغداد فلما رآه أبو جعفر صرفه ولم يأمر له بصلة ولا بر ••• فلما صار الى عانات من كور الفرات مات ••• وكان نظير أبي جعفر في السن •• »[1]

ثالثاً : اسحق بن الفضل بن عبد الرحمن من نسل الحارث بن عبد المطلب • وكان يرى أن الخلافة تجوز في صالحي بني هاشم جميعاً وكان يكثر في قوله للاكبر من بني عبد المطلب ••• » • وقد سجنه المنصور في المطبق واستمر سجنه في عهد المهدي باستمرار السعاية فيه بذلك[2] وإن أنكر اسحق هذا القول كله أمام المهدي ثم أطلق من السجن • على أ نالمفهوم الأسري ( المشيخي ) لم يكن مرشحا للبقاء مع دولة بدأت تأخذ بالنظم الفارسية ، وقد حكمت نتيجة الحرب مع عبد الله بن علي بإقصاء هذا المفهوم الاسري نهائياً منذ هزم عبد الله وسجن ثم قتل • وأما المفهوم الثاني فكأنه أقسى مراساً لأنه يتصل في الواقع باثنين :

١ ) محمد بن أبي العباس الخليفة الاول •

٢ ) عيسى بن موسى ، ابن أخ الخليفتين معاً والذي نص عهدأبي العباس لأبي جعفر على جعله وليا للعهد •

وقد كان أمر الاول هينا لانه لم يكن يطلب الخلافة مع وجود عمه فيها • ولكن أبا جعفر أراد التاكد من إقصائه حتى عن المطالبة بها فيما بعد وعن التفكير في جمع الانصار لها وعن تقبل الناس أنفسهم

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٣

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ١٥٥ ــ ١٥٦ ثم ١٦٢ ثم ١٩١ ( ٣/٥٠٧ ــ ٥٠٨ ؛ ٥١٦ ، ٥٤٩ ــ ٥٥٠ •

لفكرة خلافته • وكان سبيله الى ذلك سهلا بارعاً في وقت معاً • إذوجه بمحمد بن أبي العباس واليا على البصرة « ووجه معه ••• بالزنادقة والمجان فكان فيهم حماد عجرد • فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون • » ويعلق الطبري على الخبر بقوله : « وإنما أراد بذلك أ ن يبغضه الى الناس »[1] وقد عرف بالناس بالفعل ذلك وعرفوا قصة عشقه لاحدى بنات عمه وركوبه الى المربد يطمع أن تكون هناك في بعض المناظر ••• فهان عليهم » •

أما المشكلة الصعبة فكانت مشكلة عيسى الذي كانت ولايته للعهد لاتتصل بارادة أبي جعفر وتعدل في شرعيتها خلافة أبي جعفر نفسه • ثم إنه كا نأحد القواد البارزين بل كان اليد اليمنى لابي جعفر في كثير من الازمات وقد أخمد له عددا من الثورات أهمها وآخرها ثورة محمد ذي النفس الزكية ثم أخيه ابراهيم •

وكان لابي جعفر ستة أولاد من الذكور اكبرهم : محمد (المهدي) وجعفر[2] وهما من أم موسى أروى بنت منصور الحميري وقد عني أبو جعفر بهذين الاثنين فأعطى الاول ولاية خراسان ، وهو بعد شاب صغير ، وضم اليه أبا عبيد الله معاوية يدبر أمره وخازم بن خزيمة القائد المعروف لقيادة الجيش • كما أعطى جعفرا ولاية الموصل •وجعل للاخوين المربين من كبار العلماء يعلمونهما أيام العرب وأخبارها والشعر مع الدين وعلوم العربية •

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٨٦ ( ٣/٤٢٢ ) .
(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ١٠٢ ( ٣/٤٤٢ ) وجعفر كان يلقب بالأكبر لدى المؤرخين لا لانه هو الأكبر سناً ولكن لأن لأبي جعفر ابناً آخر سمي بجعفر الأصغر وامه أم ولد كردية . وكان يقال له ابن الكردية .

ولم يكد المنصور يفرغ من ثورة ذي النفس الزكية وأخيه حتى أخذ يمهد للخلاص من عيسى بن موسى ولتحويل ولاية العهد لابنه محمد • بالدعاية وتوجيه الانظار أولا إذ اصطنع بعض الشعراء ينشدونه مديح محمد ويلمحون الى ضرورة توليته ليصبح ذلك نوعا من المطلب الشعبي • وهكذا : دس رجال الحاشية الى أبي نخيلة الشاعر الراجز فأنشده •

أنت الذي ولاك رب المسجد أحسن ولي عهدها بالاسعد
عيسى فزحلقها الى محمد[1]

وبعث المنصور الى مطيع بن إياس الشاعر المحدث فوضع على لسان النبي حديثاً يحدث أن « المهدي منا آل البيت واسمه كاسمي »[2] وبعث الى الولاة أن يتحدثوا بذلك فتحدثوا ••• ثم أعطى المنصور ابنه لقب المهدي سنة ١٤٦ تمهيدا للخطوة التالية في إقناع عيسى بالتنازل له •

ولم يكن عيسى بالغافل عن ذلك ولقد كان يرفض بحث الامر كله• وينكشف موقفه من أنه بعث لابي نخيلة وهو في الطريق الى الري لقبض جائزته من المهدي فظفر به فلم يقتله فقط ولكن كشط جلد وجهه • ثم صرح الامر بين الطرفين سنة ١٤٧ حين فاتح أبو جعفر عيسى بذلك وكان يجلسه دوما على يمينه فقال عيسى : فكيف بالايمان والمواثيق ؟ ليس الى ذلك سبيل ياأمير المؤمنين ! •• فبدأ أبو جعفر عند ذلك في مرحلة ثانية من التدابير التي تهدف الى تحطيم أعصاب عيسى والغض من

(١) انظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق ( تهذيب بدران ) ج ٢ ص ٣٢١
(٢) الأغاني ج ٢١ ص ٢

مكاتته فكان يأذ نللمهدي قبله أويؤخر إذنه أو يأذن لغيره قبله « ٠٠٠ ثم صار الى أغلظ من ذلك فكان (عيسى) يكون في المجلس ٠٠٠فيسمع الحفر في أصل الحائط فيخاف أ نيخر عليه وينظر الى الخشبة من سقف المجلس قد حفر عن أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب علىقلنسوته وثيابه ٠٠٠ » ثم كان إذا شكا ذلك الى المنصور قال له : ياابن أخي إني والله أخاف عليك وعلى نفسي فانهم قد اشربت نفوسهم حب ذلك الفتى ( يعني المهدي ) فلوقدمته بين يديك ٠٠ » ثم انتهى الامر الى أن دس المنصور لعيسى بعض مايتلفه مما دبره وجراه عليه طبيبه بختيشوع ٠٠٠ حتى اعتل عيسى وتمعط شعره ثم بعث الى ابنهيهدده٠ وكلم الابن أباه إشفاقا ولكن عيسى أبى التنازل مع كل ذلك ٠ وأخيراء وبعد الاهانات والتآمر الذي وصل حتى محاولة القتل انقطع عيسى في الكوفة فبدأ بينه وبين المنصور تبادل الرسائل ٠

ونستطيع أن نرى الحجج التي تلمسها المنصور لاقناع عيسى ابن موسى بالتنازل عن ولاية العهد في الكتاب الذي أرسله اليه ،اول مأأرسل سنة ١٤٧ يراوده عن تلك الولاية يقول :

١ ــ إنه لم ينقذ آل بيت العباس من الظلم ومن «أهل بيت اللعنة» أي الامويين الا ظهور أنصار يطلبون بثأرهم ويحبونهم الحب الخالص ٠ وقد أحب هؤلاء الانصار الان محمدا المهدي وقد « ٠٠٠ نشأ هذاالغلام فقذف الله في قلوب أنصار الدين الذين ابتعثهم لنا مثل ابتدائه لنا في أول أمرنا وأشرب قلوبهممودته ٠ وقسم فيصدورهممحبته فصاروالايذكرون إلا فضله ولا ينوهون إلا باسمه ولا يعرفون إلا حقه ٠٠٠ »

٢ ــ أ نمن حق هؤلاء الأنصار أن تستجاب رغباتهم « أمير المؤمنين لايمنع مما اجتمعت عليه العامة ولايجد مناصا عن خلاص مادعوا إليه ، وكان أشد الناس على أمير المؤمنين في ذلك الاقرب فالاقرب من

خاصته وثقاته من حرسه وشرطه فلم يجد أمير المؤمنين بدا من استصلاحهم ومتابعتهم ••• »

٣ ــ ثم إن هذا الامر شيء إلهي « ••• فلما رأى امير المؤمنين ماقذف الله في قلوبهم من مودته ( مودة المهدي ) وأجرى على ألسنتهم من ذكره ومعرفتهم إياه بعلاماته واسمه ودعاء العامة الى طاعته أيقنت نفس أمير المؤمنين أن ذلك أمر تولاه الله وصنعه لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ولامؤامرة ولامذاكرة للذي رأى أمير المؤمنين من اجتماع الكلمة وتتابع العامة ••• »

٤ ــ واخيرا فان المهدي هو « المهدي » الموعود حقا و « •••أمير المؤمنين وأهل بيته أحق من سارع الى ذلك وحرص عليه ورغب فيه وعرّف فضله ورجا بركته وصدق الرواية فيه وحمد الله إذ جعل من ذريته مثل ماسألت الانبياء قبله • إذ قال الرجل الصالح : « فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » فوهب الله لامير المؤمنين وليا ثم جعله تقيا مباركا مهديا وللنبي صلى الله عليه وسلم سميا وسلب من انتحل هذا الاسم ودعا الى تلك الشبهة التي تحير فيها أهل تلك النية وافتتن بها أهل تلك الشقوة فانتزع ذلك منهم وجعل دائرة السوء عليهم وأقر الحق قراره وأعلى للمهدي مناره ••• »

٥ ــ ولهذا كله « ••• أحب أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأي رعيته وكنت في نفسه بمنزلة ولده ••• ويرى لك ، إذابلغكمن حال ابن عمك ماترى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداء ذلك من

(١) الطبري ج ٨ ص ٩ ــ ١٤ ( ٣ / ٣٣١ ــ ٣٣٨ ) .

قبلك . ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم أنك أسرع الى ماأحبوا مما عليه رأيهم في صلاحهم ، منهم الى ذلك من أنفسهم ... »

ولم يكن بامكان هذه الرقى والتهاويل أن تؤثر في عيسى بن موسى لدرجة التسليم بحق يعتقده لنفسه ولهذا اقتصر جوابه على الكتاب الخليفي بقوله إن عهده هو بدوره من الله ولايجوز نقضه :

١ ــ فكتاب الخليفة إعلان بأنه أجمع « على خلاف الحق وركوب الاثم في قطيعة الرحم ونقض ماأخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء ... متابعة للشيطان في هواه ، ومن كابر الله صرعه ... »

٢ ــ « إن الذي أسس عليه البناء ... من الخليفة الماضي عهد لي من الله وأمر نحن فيه سواء ليس لاحد من المسلمين فيه رخصة دون أحد فان وجب وفاء فيه فما الاول بأحق به من الاخر ... فاقبل العاقبة وارض من الله بما صنع »(١)

وتوالت المجاورة والمفاوضة بين المنصور وعيسى بن موسى دون طائل ... وأخيرا ، وبعد الاضطهاد المرير دبر المنصور مؤامرة أوهم فيها عيسى بانه سوف يذبح ولدا من أولاده بحضوره ... وهي قصة يقولون إن الابن نفسه دبرها لينقذ أباه من العناد ومن تضييق الخليفة عليه ... فلما شهد عيسى بالحبل يشد على عنق ابنه استسلم وقال : « والله ياأمير المؤمنين ماظننت أن الامر يبلغ منك هذا كله فمر بالكف

---

(١) انظر الرسالة وجوابها لدى الطبري ج ٨ ص ١٤ ــ ٩١ (٣/٣٣٨ ــ ٣٤٤) .

عنه فانا لم أكن لارجع الى أهلي وقد قتل بسبب هذا الامر عبد من عبيدي فكيف بابني ... وهذه يدي بالبيعة للمهدي[1] ... » ! وقيل أيضا ان خالد بن برمك مضى اليه بجماعة وقد أمره المنصور بقتله إن رفض التنازل فلما أصر على الرفض أشهد الجماعة عليه زورا بخلع نفسه ليحقن دمه ... وتمت بذلك البيعة للمهدي[2] أما عيسى فقد منحه المنصور مقابل ذلك المال والضياع وولاية العهد الثانية بعد المهدي فكان بعض أهل الكوفة إذا رأوا موكبه يقولون : هذا الذي كان غدا فصار بعد غد ... » ! ونجح المنصور بذلك في وضع اللبنة الاولى في نظام ولاية العهد الرأسي على أن اقرار هذا النظام لم يكن في يده ولكن في يد ابنه وأحفاده من بعده . ولقد ترك لابنه المهدي حين أعطاه ولاية العهد بذور المشكلة نفسها بقبول بقاء عيسى وليا ثانيا للعهد . فكأنه في الواقع أجل المشكلة ولم يحلها ولعله كان يرغب في أن يحلها الزمن بموت عيسى نفسه .

### ب ـ الوزارة :

ظهرت الوزارة لاول مرة في تاريخ الاسلام ، قبل استخلاف ابي العباس السفاح بشهرين تقريبا . ولم يكن للعباسيين يد في ظهورها لأن ابا سلمة الخلال أول رجل تقلدها ، منح لقبها لنفسه ، أو منحه اياها الدعاة[3] ، باسم ( وزير آل محمد ) تقليداً للطريقة الساسانية القديمة

---

(١) انظر القصة لدى الطبري ج ٨ ص ١٣ ـ ١٤ ( ٣/٣٣٧ ـ ٣٣٨ )
(٢) انظر تفصيل ذلك لدى الطبري ج ٨ ص ١٩ ـ ٢٠ ( ٣/٣٤٥ ـ ٣٤٦ ) .
(٣) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٨٤

في الحكم ، اذ رأى هو أواصحابه ، انه يدبر الامور جميعاً دون صاحب الدعوة . ونتج عن هذه النشأة العفوية ان نظام الوزارة وسلطات الوزير لم تكن مركزة ، ولا واضحة الحدود . ويجب ان ننتظر حتى نهاية العصر العباسي الاول لنرى تكامل ذلك بالتدريج . وعلى حساب دماء الوزراء أنفسهم .

ويجدر بنا أ ن نذكر هنا ان وظيفة الوزراء الاول ( كأبي سلمة وغيره ) كانت كوظيفة الكاتب لدى الامويين . وان منصب الخلال لم يكن اكثر من تطور طبيعي لمنصب سلفه عبد الحميد الكاتب ، صاحب مروان بن محمد مع زيادة الاسم . يؤيد هذا قول الجهشياري : « ... وعسكر أبو سلمة بحمام أعين ( من أحياء الكوفة ) فأقام بها وفرق عماله وصارت الدواوين في حضرته ، والكتب تنفذ منه وترد اليه ... »[1] وقول المسعودي : « استخارت بنو العباس تسمية الكاتب وزيرا لوجود الآية ( واجعل لي وزيرا من اهلي ) » . ثم الوزير استمر « صاحب القلم » دوما ورئيس دواوين الدولة ، وبقي ينتقي ممن يجيدون الكتابة . وعلى هذا فالعهد العباسي لم يحدث تغييراً إدارياً جوهرياً بالوزارة ولكن اسم ( الوزارة ) واشتراك الفرس في السلطان عن طريقها ، وظهور الوزراء الاقوياء كآل برمك أدى كله الى ثبوت هذا النظام الجديد في الادارة العباسية .

وبعد مقتل ابي سلمة حل خالد بن برمك ـ وكان على ديواني الجند والمال ـ محل الوزير كما ذكر الجهشياري . وكان يعمل ـ على قول الفخري أيضا ـ عمل الوزير ولايسمى وزيراً « اذ كان يتجنب

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٦

التسمية » تطيراً مما جرى على ابي سلمــة •

ولعل قيمة الوزارة في الدولة العباسية الناشئة تظهر لنا من موقف المنصور منها حين استخلف • اذ يظهر أنها لم تكن قد اصبحت بعـــد شيئاً ، فا ناهتمام ابي جعفر بملكه وحذره الدائم أدى الى مركزيةشديدة في الادارة كانت استمرارا للشكل التقليدي في الحكم الخلافي المركزي الذي وطده الامويون بعد الراشدين كما كانت تطويرا له في اتجاهالحكم المطلق وترك كافة مظاهر حكم « المشيخة » البدوي الذي كان مايزال يلاحق الامويين • فكان الخليفة المنصور يشرف بنفسه على كل شيء •• يقول صاحب الفخري « ••• فلم تكن الوزارة في ايامه طائلة ،لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته • ، وكانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراءوكانوا لايزالون على وجل منه وخوف فلايظهر لهم ابهة ولارونـق •••»[١] ويظهر انه استغنى عن الوزارة في سنيه الاخيرة فالمسعودي يذكر انـه بعد ان استوزر وزيرين او ثلاثة ( هم ابان بن عطية الباهلي وابو ايوب المورياني الخوزي وابو الفضل الربيع بن يونس ) استكتب ابان بـن صدقة الى ان مات[٢] •

وثمة شك في أن يكون أبان الباهلي قد ولي وزارة المنصور أمـا أبو أيوب المورياني فهو الوزير البارز • وأصله من موريان بعض قرى الاهواز وكا نخفيف الظل عالما بالعلوم كلها من طب ونجوم وحســاب وكيمياء حتى السحر • إلا الفقه فقد كانت بضاعته منه قليلة • ولكنـه

---

(١) الفخري ص ١٢٧ .
(٢) صاحب الفخري يجعل الربيع بن يونس وزير المنصور حتـى موت المنصـور .

بلغ من الحظوة لدى المنصور أن ظن الناس أنه سحره[1] ... وكان عبد الملك بن حميد على كتابة المنصور وديوانه فلما اعتل تسلم أبو أيوب هذه الاعمال ثم سماه المنصور للوزارة ... وشفعه بكل شيء واستشاره في الامور حتى في قتل ابي مسلم الخراساني ....

وتبسط أبو أيوب في استخدام أهله واستغلال المنصب له ولاصحابه حتى وقع في شر أعماله ونقل للمنصور من أعماله مايكفي لتدميره . وكان رأس السعاة فيه منافس له من الحاشية هو الربيع بن يونس ... وعاش أبو أيوب فترة من الرعب قبل أن ينكب ... حبسه المنصور وأخاه وبني أخيه وطالبهم بما لايطيقون من الاموال وعذبهم حتى نال منهم ثم قتل أبا أيوب وبني أخيه جميعا سنة ١٥٤ .

ثم استوزر المنصور الربيع بن يونس وهو في الاصل لقيط اوابن أمة نشأ في حجر يونس بن أبي فروة وانتسب اليه ثم كان في خمسين وصيفا أهدوا للمنصور وكان من خدمه ثم ارتقت به الحال مع الذكاء والولاء إلى أن أصبح حاجب الخليفة فلما نكب المورياني أرسل اليه حلة الوزارة ... فكان مثال الموظف الخادم ... حتى الموت ، موت المنصور فانهم يذكرون أنه أقامه بعد أن مات في الفساطيط وكأنه حي حتى أخذ البيعة لابنه المهدي من جميع الناس وفي مقدمتهم عيسى بن موسى

---

(١) المسعودي — مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٢ . والجهشياري — الوزراء والكتاب ص ٦٥ ويقال أيضا إن سبب حظوته انه كان قد خلص ابا جعفر من الضرب بالسياط في البصرة من قبل عامل مروان بن محمد عليها في أواخر العهد الأموي . وكان ابو جعفر متهماً بالهرب ببعض أموال العامل باصبهان ( الجشياري ص ٦٦ ) .

ولي العهـد • بل زيف وصيته بتجديد البيعة قرأها قبل ذلك عـلى الناس حتى استقام الامر للمهدي •

### جـ ـ الولاية :

قد يكون من المبالغة والاخطاء الشائعة القول : بان دولة بنـي العباس قامت على اكتاف الفرس • فالواقع انهم ساهموا بها فقط •ولم يكونوا كل شيء فيها • فأبو العباس مثلاً لم يعدل عن العرب الـى الفرس ، في ولاية امور الدولة ، الا في أمرين : استيزار ابي سـلمـة وليس له في وزارته يد ، وقدقتله فيما بعد ، وتولية ابي مسلم لخراسان، ولكنه استراب منه ، فجفاه وابقاه حيث هو ، في خراسان • ولولا انه رهبه لقتله • واما الذين استعملهم على الاقطار الاسلامية فكانوا جيمعاً من أقربائه ، ومن قواده العرب • استعمل اخاه ابا جعفر ، واعمامـه : داوود وعبد الله وسليمان واسماعيل ويحيى ، وقواده ابا العون والحسن ابن قحطبة الطائي وموسى بن كعب التميمي ويزيد بن أسيدالسلمي الخ• وقد كانت هذه القاعدة من الامور المقررة لدرجة أن الموصل حين عين لولايتها محمد بن صول أحدموالي أبي العباس ثارت ثورة كلفتهـا أحد عشر ألف قتيل وخراب عدة سنوات • فالخطـة الامويـة اذن في الاعتمادعلى العرب ، ظلت متبعة • والمؤرخون المسلمون يعرفـون ذلك اذ ذكروا أن أول من استعمل مواليه في الاعمال ، وقدمهم : هـو ابو جعفر المنصور ، الخليفة الثاني •

والحق ان هذا الاتجاه يتعلق بطريقة المنصور الادارية المركزية، اكثر مما يتعلق بتطور الاحوال والظروف ، أو بالرغبة عن العرب فقد كان يرى اختيار من كان أكثر طواعية لإرادته وأقل أطماعاً سواء كـان

من الاقرباء أو من العرب أو الموالي كما كان تقييمه للشخص المناسب على أساس الكفاية والاخلاص له • ومن هنا اعتمد على بعض الموالي • ولعلنا نستطيع فهم هذه الطريقة من حديث للمنصور رواه الطبري[1] قال : « •• ماكان أحوجني ان يكون على بابي اربعة نفر ، لايكون على بابي أعف منهم •• هم أركان الملك : فقاض لاتأخذه في الحق لومة لائم، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، وصاحب خراج يستقصي ولايظلم الرعية ، فاني عن ظلمه غني ، والرابع ••• ( ثم عض اصبعه السبابة ثلاث مرات في كل مرة يقول : آه ) صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة » • لهذه المركزية القوية والحذر الشديد ، سمح المنصور لنفسه ان يعين للولايات العرب والموالي على السواء ، لأنه كان يعنى باختيارهم ، عنايته بعد ذلك ، بمراقبتهم ، ومحاسبتهم ، وتحديد سلطانهم •

فأما اختيارهم فكان بعضهم من اهل بيته : ( اسماعيل بن علي في فارس ، وسليمان بن علي في البصرة ، وعيسى بن موسى في الكوفة ، وصالح بن علي في قنسرين والعواصم ، والعباس بن محمد في الجزيرة وجعفر بن سليمان في المدينة ) وكان بعض عماله عرباً ( ومن أشهرهم يزيد بن حاتم المهلبي والي افريقيا ، ومعن بن زائدة الشيباني والي اليمن ، وخازم بن خزيمة والي ارمينية ، والحسن بن قحطبة الطائي ، والمسيب بن زهير الضبي الخ ••• ) كما انه لم يتردد في استخدام الموالي الذين يأمن لهم • يقول السيوطي: « والمنصور اول من استعمل مواليه على الاعمال وقدمهم ( فمنهم مرزوق ابو الخصيب، وعمارة بن

(١) الطبري ج ٧ ص ٣١٣

حمزة ، وواضح ، وغزوان ) واليعقوبي[1] يذكرهم جميعاً بأسمائهم •

واما مراقبة العمال فعهد بها إلى عمال البريد • وكان يطلب إليهم أن يكتبوا اليه يومياً « بسعر القمح والحبوب والأدم ، وبسعر كل مأكول وبكل مايقضي به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي ، وبما يرد بيت المال من المال ، وكل حدث » وصار ارتباط عمال البريد به مباشرة • وقد لاحظ نولدكه ان المهدي ، ( ولي العهد ) كان خاضعاً لرقابتهم ، حين عين والياً على غربي ايران • وهذا يعني أن المنصور كان أول من نظم جهاز الاستخبارات في الدولة •

وأما محاسبة الولاة فكانت شديدة حتى ثقل عليهم « تفقده الاعمال ومراعاته لها • » بلغه عن والي البحرين انه يخرج للصيد فعزله ، قائلا : « ماهذه العدة التي اعددتها للنكاية في الوحش ؟ انا انما استكفيناك امور المسلمين ولم نستكفك امور الوحش » وراقب جباة الضرائب كي لا يستأثروا بأموال الدولة • وصادر « العمال المتلاعبين » لاستخراج ما اختلسوه من اموال الدولة ، كما فعل بخالد بن برمك ، بعد ان ولاه اقليم فارس ، إذ « ألزمه ــ كما يقول الجهشياري ــ ثلاثة آلاف درهم » •

واما تحديد سلطان الولاة فيظهر من رقابة عمال البريد عليهم ، ومن فصل القضاء عنهم ايضاً • « فقد كان اول (؟) من ولى القضاة الامصار من قبله » على مايقول اليعقوبي[2] • وكان تعيينهم قبل ذلك بيد

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ١١٧ •

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٣

الولاة في الغالب[1] .

ولم يدخل المنصور أي تعديل يذكر على التقسيم الاداري الاموي في الامبراطورية . فقد ظلت الدولة على ماهي عليه ، سوى ماكان من خسارتها للاندلس . واقاليم الدولة لم يكن يحكم كلاً منها وال واحد ، وقديحكم الوالي الواحد عدة أقاليم . واما تلك الاقاليم ، اذ ذاك ،فهي:

١ ـ جزيرة العرب وتشمل الحجاز ( ومركزه المدينة ) واليمن (صنعاء ) وعمان وهجر .

٢ ـ العراق ويشمل الكوفة والبصرة وواسط ( وبغداد )وحلوان و( سامراء ) حتى جنوبي الموصل .

٣ ـ الجزيرة ( العراق الشمالي ) وفيه ديار ربيعة (مركزهاالموصل وديار مضر (الرقة) وديار بكر ( آمد ) .

٤ ـ الشام وتضم خمس مقاطعات : قنسرين ( وعاصمتها حلب ) ومعها انطاكية والاسكندرونة ثم حمص وتشمل مابين تدمر الى سواحل اللاذقية ، ثم دمشق ومعها الساحل ، من طرابلس الى صيدا ، ثم الاردن ومركزه طبرية ، ومعه صور وعكا وبيسان ، ثم فلسطين ومركزهاالرملة وفيها يافا والقدس وغزة وقيسارية واريحا وعمان والشراة حتى تبوك.

---

(١) نشير هنا الى أن ابن المقفع كتب للمنصور تقريرا في كيفية سياسة الدولة نعرفه اليوم باسم ( رسالة الصحابة ) أي اصحاب الخليفة . وقد استعرض له فيه أهم الاقاليم واحداً بعد آخر ، ومرافق الدولة . وبين الوسائل التي يجب انتهاجها لتنظيم الحكم وحسن سير الامور . وهذا التقرير نافذة نطل منها على حاجات ذلك العصر ونفسية سكانه ورغباتهم .

٥ ـ مصر وهي مصر الحالية والواحات وقد تضم اليها برقة • وقصبة الاقليم الفسطاط ثم أضحت القطائع •

٦ ـ افريقيا وتشمل مابين طرابلس الى مراكش وقصبتها القيروان وكانت تشمل الاندلس في العهد الاموي •

٧ ـ ماوراء النهر ( شمال شرقي نهر جيحون ) وفيه فرغانةوفاراب والشاش واشر وسنه والصغد وبخارى •

٨ ـ خراسان وهي ايران الشرقية الشمالية الآن مع قسم من افغانستان وقصبتها مرو •

٩ ـ الديلم وهو في شمال غرب ايران ويشمل قومس وجرجان وطبرستان •

١٠ ـ ارمينية وتشمل ارمينية واذربيجان وتفليس •

١١ ـ الجبال وهي ايران الغربية الوسطى وتشمل الري وهمدان واصفهان •

١٢ ـ البصرة اوخوزستان ( ويعرف اليوم بعربستان ) وهو الى الشمال الشرقي من خليج البصرة •

١٣ ـ فارس وهو الاقليم الذي يلي خليج البصرة الى الشرق• ومن مدنه شيراز واصطخر •

١٤ ـ كرمان وهي في شرقي فارس وجنوبي ايران •

١٥ ـ السند وتشمل مكران بشرقي ايران وبعض جهات افغانستان مع بلوجستان وحوض السند •

**د ـ الموقف المالي :**

جبى ابو العباس ملكه الجديد على الطرق الاموية نفسها ، وعهد بديوان الخراج الى واحد من كبار رجال الدعوة الفرس : خالد بن برمك

فلم يدخل على جباية الضرائب تعديلا يذكر • ولكنه ادخل على الدواوين طريقة جديدة ، فبعد أ نكانت الأمور تسجل في الدروج ( أي الصحف المدرجة ) اتخذ خالد دفاتر الدواوين من الجلد • وسيجعل حفيده جعفر ، في زمن الرشيد ، هذه الدفاتر من الكاغد (الورق) •

ولم يكن للمال في نظر ابي العباس من قيمة • فكان يجود به على اقربائه وقواده وعلى الشعراء ، وهو في هذا خليفة اموي ، لحد كبير ، ولكن اخاه المنصور كان يختلف عنه في ذلك ، إذ كان ( المال ) احد الاركان الاساسية في سياسته العامة • فكان يجمعه من كل وجه ،حتى لقد فكر مرة في بيع قراطيس الدولة ومكاتباتها ، لأنها كانت كثيرة في خزائنه • فقال لصاحب المصلى عنده : « ••• بعها وا نلم تعط بكل طومار الا ّ دانقاً ، فان تحصيل ثمنه اصلح منه ! » وكان يقتّر في انفاق المال حتى ليحاسب على الدانق والحبة • ويصادر ماقد يهبه ابنه من الهبات • خطب في الناس يوم عرفات سنة ١٥٠ ﻫ فقال : « ايها الناس انما انا سلطان الله في ارضه وخازنه على فيئة اعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه باذنه ، قد جعلني الله عليه قفلا ، اذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم ، وقسم فيئكم وارزاقكم ، فتحني ، واذا شاء ان يقفلني أقفلني ، فارغبوا الى الله ايها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف » ولم يكن هذا الامساك في المنصور عن شح طبيعي ، ولكنه كان يعرف شأن المال في دعم الدولة • يقول المسعودي[1] : « ••• كان يعطي الجزيل والخطير ماكان عطاؤه حزما ، ويمنع الحقير اليسير ماكان اعطاؤه تضييعاً ••• » الا ّ انه « كا نالمنع عليه اغلب » كما يذكر صاحب

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣١٨

الفخري • وقداوصى بمثل هذه السياسة ابنه المهدي قال له : « انك لاتزال عزيزاً مادام بيت مالك عامرا » وبالرغم من كل ماانفق المنصور في بناء بغداد والرصافة وفي القضاء على الثورات ، فقد ترك في بيت المال لدى وفاته ستمائة الف ألف درهم واربعة عشر الف الف من الدنانير •

جمع هذا المال بالتقتير خلال حكمه ، وكان لايقبل من دافعي الضريبة الا" النقود الجيدة يقول ابن الاثير[1] « وكانت الهبيريةوالخلدية واليوسفية أجمل نقود بني أمية ، ولم يكن المنصور يقبل في الخراج غيرها » •

وسوف نعرض فيما بعد لسياسة العباسيين المالية في عهد المنصور وخلفائه حتى آخر العصر العباسي الاول ونكتفي بأن نذكر هنا أن المنصور في السياسة المالية قدادخل اصلاحا هاما • يرويه الماوردي • فإن الخراج في السواد كان يؤخذ نقدا وعلى مساحة الارض سواء زرعت ام تركت بورا ــ حسب نظام عمر بن الخطاب ــ وقدرخصت الاسعار حتى لم يعد نتاج الارض يفي بخراجها ، فوضع المنصور نظام المقاسمة• وهو ان تدفع الارض جزءاً من محصولها • وقد توفي قبل ان ينجز هذا الاصلاح ، فأتمه ابنه المهدي •

### هـ ــ الجيش :

كان الجيش الذي قاد الثورة العباسية الى النصر مكوناً بصورة

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٥٣

أساسية من العرب لامن الاعاجم ، في قواده وجنده ، على السواء .وكان هذا الجيش يدعى ( بالخراسانية ) جغرافياً نسبة الى الموضع الذي تجمع به لاللكثرة النسبية التي وجدت فيه من الايرانيين فقد كانت هذه الكثرة في الواقع ، من العرب . وبالرغم من ان ابا العباس اعتمد على بعض الموالي وزاد في مدحهم واكرامهم ، كما اتبع المنصور من بعده السنة نفسها ، وأوصى بها ابنه المهدي ، بالرغم من ذلك ، فان خراسان بسبب وضعها الجغرافي ، في أقصى الجانب الشرقي من الامبراطورية ، ولعدم انسجام سكانها ، عنصرياً ودينياً مع الحكم العباسي ، لم تستطع ان تلعب ، في خلافة العباسيين الدور ، الذي لعبته الشام المتوسطة المنسجمة، بالنسبة للامويين وكانت بالعكس احدى مراكز الضعف العباسي والثورات الخطـرة .

لذلك وبسبب التجمع العربي سرعان ما اصبح العـراق ، دون خراسان ، موئل بني العباس . كما ظهرت في الجيش الفرق الاخرى ، غير الخراسانية ، من العرب . وقد ساعد على بروزها حذر المنصور الشديد ، وخوفه من ان يتفق الجيش عليه . فما زال بجنده يستغل العصبية القبلية لتفريقهم حتى قسمهم الى فرق اربع متنافرة : المضرية والربعية واليمنية والخراسانية . وجعل للجيش معسكرين احدهما ببغداد ، والثاني تجاهها ، على الطرف الشرقي من دجلة ، في الرصافة لابنه المهدي . وقال الذي نصحه بهذه التفرقة للجند : « حتى يكونوا أحزاباً يخاف احدها ا نيحدث حدثاً فيضربه الخليفة بالحزب الآخر » على ان المنصور كان لاينى يتفقد جنده ويستعرضه بين آونة واخرى . وآخر استعراض له كان سنة ١٥٧هـ .

وليس لدينا شيء من المعلومات ، عن عدد رجال هذه الفرق ولا

عن مكانتها . واذا جاز لنا ان نفترض انها كانت متساوية العدد ،فذلك يعني ان غالبية الجيش العباسي الأول كانت عربية . وهي نقطة هامة من نقاط البحث في تركيب الدولة الاول .

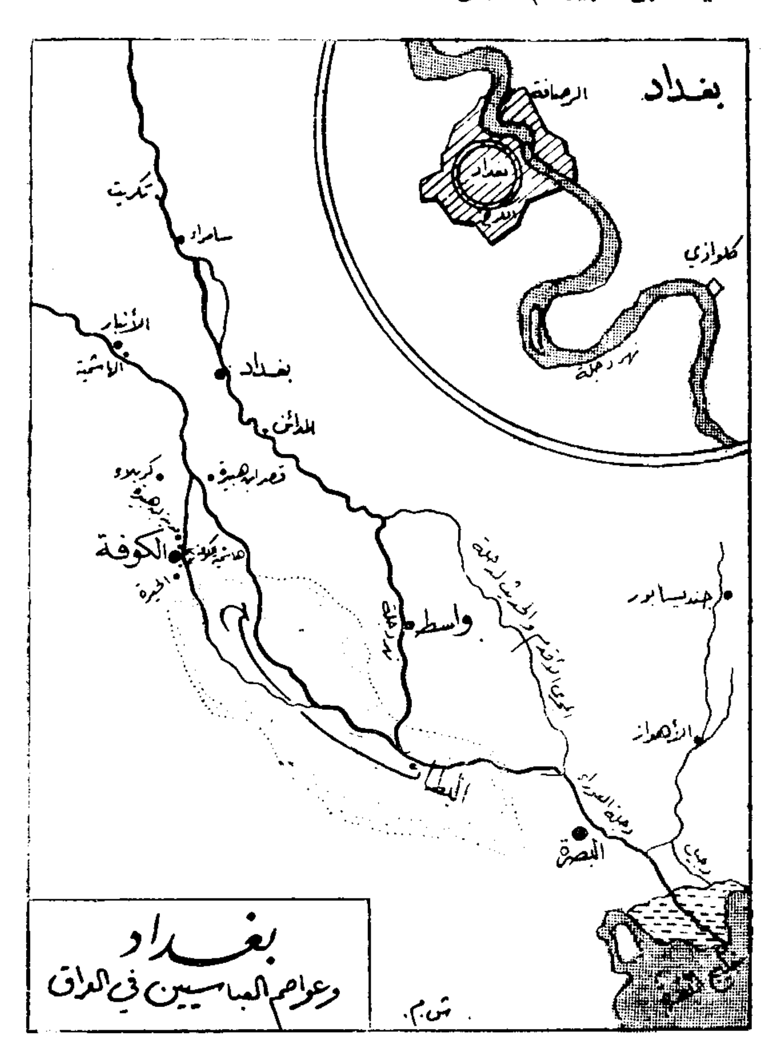
**و ـ العاصمة :**

كان من تمام اعمال تأسيس الدولة وتنظيمها ، أن يستقر البيت المالك الجديد في عاصمة معينة . ولم تكن دمشق تصلح لذلك فهي اموية ، وقريبة من الروم ، وبعيدة عن خراسان . كما لم تكن المدينة جديرة بذلك ، اذ لارجال فيها ولاسلاح ولاكراع ولاغنى ... ومصر بعيدة عن المشرق ، كما ان خراسان متطرفة ، فالعراق أحسن منزل لاسيما وان طرق التجارة العالمية كانت في ذلك الوقت قد تكاثفت فيه . ولكن على الخلفاء الجدد ان يتخيروا مكانهم منه .

لقدبويع ابو العباس في الكوفة . ولكنه بدل مقر حكمه مرات عديدة . فقد كان يعرف ان اهل الكوفة لآل علي . وشعر منذ ايامه الاولى بأن هواهم في غير جانبه . فانتقل اول الامر الى الهاشمية سنة ١٣٢هـ قرب الكوفة ثم أبدل بها الحيرة ثم عدل عنها الى الانبار سنة١٣٤ ومكانها على بعد عشرة فراسخ الى الغرب من بغداد . وهي في الاصل من بناء ملوك الفرس. ويظهر أ نأبا العباس استطاب البلد الجديد . يقول الدينوري « انه ابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسهوجموعه وقسمها خططاً بين اصحابه من اهل خراسان وبنى لنفسه في وسطها قصراً عالياً ... واقام بتلك المدينة طول خلافته . وهذه هي الهاشمية ـ على قول اليعقوبي ـ وجدير بالملاحظة أنها بنيت تقريباً على المخطط نفسه الذي بني به العرب البصرة والكوفة والقطائع والقيروان وواسطاً،

وهو مخطط يشبه المعسكر • وهذا مايلقي على الهاشمية صبغةعسكرية•

ويظهر ان المنصور لم ترق له هاشمية الانبار هذه ، فمكث اول الامر في هاشمية الكوفة ( بين الحيرة والكوفة أو في شمالي الكوفة عند مدينة ابن هبيرة ) وبنى بها قصراً له • ولكنه سرعان ماتبين انها



ليست بعاصمة ، او مقر دولة : فلا هي منيعة ، كما ثبت له في فتنة الراوندية، « يوم الهاشمية » إذ كاد يقتل فيها ، ولا هي حسنة المناخ لان سافيات الصحراء تصفعها وحميات البطائح في جنوبها ، وليس فيها من شيعة العباسيين وعصبيتهم الا العدد النزر . هذا عدا جوارها القريب للكوفة، موئل العلويين ، ومجمع « اهل الشقاق والنفاق ، والاغراق في الفتن » ... « فوالله ماهي بحرب فأحاربها ولا هي بسلم فأسالمها فرّق الله بيني وبينها » كما روى المسعودي عن المنصور في إحدى خطبه .

وهكذا امر المنصور بالتفتيش عن موضع يقيم فيه مقر ملكه . وكان انسب الاقطار الاسلامية لهذا المقر : العراق ، لقربه من خراسان من جهة ، وتوسطه بينها وبين الشام والحجاز ومصر من جهة أخرى . وخرج المنصور بنفسه يرتاد المواضع التي تذكر له ويبت في امرها ، حتى نزل بموضع :

**بغداد** : وهي قرية فارسية او آرامية قديمة يرد أول ذكر لها في التاريخ الاسلامي في غارة قام بها المثنى سنة ١٣هـ على سوقها . ورجع منه بغنائم كثيرة . وقد قدر لهذا الموضع الذي لم يكن فيه اذ ذاك الا دير للنساطرة ، ان يمنح ارضه واسمه ، للمدينة التي اصبحت فيما بعد رمز الحضارة الاسلامية ، وأعظم عاصمة للاسلام .

وقد اختار المنصور هذا الموقع لأسباب عديدة أوردها المؤرخون العرب في كثير من القصص . واذا غلب على هذه القصص طابع الوضع، فانها على كل حال توضح الميزات التي رآها الناس فيما بعد ، وتفسر ازدهارها السريع وبقاءها الى اليوم .

فهي اولا تتوسط العراق : « فانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وانت قريب من البر والبحر والجبل » وهي إلى ذلك تقوم في منطقة زراعية واسعة « بين أربعة طساسيج ... فتكون بين نخل وماء • فإن اجدب طسوج وتأخرت عمارته كان في الآخر فرج » ثم إنها على الطرق التجارية الهامة : « ... مشرعة الدنيا • كل مايأتي في دجلة من واسط والبصرة ... والاهواز وفارس وعمان والبحرين فإليها يرقى • وكذلك مايأتي من الموصل وديار ربيعة واذربيجان وارمينية ... ومايأتي من الرقة والشام والثغر ومصر والمغرب ... فيها يحط وينزل » وهي الى هذا وذاك سهلة التموين : « ... تجيك الميرة في السفن والقوافل من مصر والشام وتجيك الآلات من الصين في البحر ومن الروم » عدا انها « حصينة الموقع » « ... وانت بين انهار لا يصل اليها عدوك » وطيبة المناخ « قليلة البق[1] » • فهي اذن ذات ميزات اقتصادية عسكرية صحية هامة •

وتقرر بناء المدينة في هذا الموضع • وأعطاها المنصور اسم « دار السلام » غير ان الناس أعطوها أسماء اخرى وبقي الاسم الاول للمناسبات الرسمية • سموها « المدورة » لاستدارتها و « الروحاء » لطيب هوائها و « الزوراء » لازورارها عن القبلة ــ على حد قول المؤرخين ــ وقد استنتج ( لوسترانج ) من تفضيل الفرس لهذا الاسم ، انه من الممكن ان يكون إحياء لاسم فارسي قديم لذلك الموضع • ولعل هذا صحيح • فان صاحب الفخري يؤيد ذلك بقوله « وكان موضعها

---

(١) انظر النص لدى ابن طباطبا الطقطقي ( الفخري ــ طبعة صادر ــ ص ١٦٢ ) وهو ينسبه إلى بعض عقلاء النصارى الذي نبه المنصور إلى فضيلة مكان بغداد .

يسمى الزوراء قديماً » وقد يكون السبب في هذا الاسم أيضاً ازورار أبواب المدينة نفسها فانها لسبب دفاعي لم تكن مداخلها مستقيمة ولكنها مزورة على ان الاسم الذي درج على كل لسان هو « بغداد » . وقد أتعب المؤرخون المسلمون اذهانهم في تصيد معنى الكلمة وكلهم على انها فارسية مؤلفة من مقطعين ( باغ ) وتعني اما بستان او اسم لصنم او اسم لملك الصين و ( داد ) وهو اما اسم لرجل ، او بمعنى هبة أو عطية ، فيكون المعنى على الجملة عطية داد او بستان داذويه الخ ... و ( لوسترانج ) يرى « ان الاشتقاق الصحيح للكلمة جاء من الكلمتين الفارسيتين القديمتين ( بغ ) أي الله و ( داد ) أي تأسيس فالمعنى أسسها الله .

وقد ظهر لبعض الباحثين الحديثين العارفين باللغة السريانية رأي قد يلقي ضوءا آخر على الاسم يقول : إن اللفظ آرامي الاصل مبنى ومعنى وهو مؤلف من (ب) المقتضبة من كلمة بيت ( وكثيرا مايقع هذا كما في بعقوبة وباعذرا وباجرمي الخ ... ) ومن ( كدادا ) ومعناها غنم فمعنى اللفظ سوق الغنم ، لان الموضع سوق قديمة جداً . وقد وجد اسم قريب منه ( بكدود ) في وثيقة قانونية من عهد حمورابي ( القرن ١٨ ق.م ) وفي حجر من أحجار الحدود الكشية وفي بعض آثار الاشوريين ( القرن ١٢ ق.م ) ويؤيد هذا ان البقعة نزلها الآراميون قديما في حركة هجرتهم الاولى الى بلاد الشام كما تدل اسماء عدة اماكن حول بغداد كالكرخ ، والشماسية والحيرة . وقد يفيد ان نذكر أن في الذي يرويه المسعودي ، مايفيد أن اصل الاسم آرامي . والطبري يذكر انه كان على الطرف الشرقي من دجلة ( تجاه بغداد ) قرية ودير كبير كانت تسمى « سوق البقر » .

وضع مخطط المدينة على نهج مستحدث في بناء المدن الاسلامية، لاحظه مؤرخو العرب : إذ بنيت على شكل دائرة يتوسطها قصر الخليفة ومسجده ، ويحيط بها قصور القواد ورجال الدولة ؛ ثم تقوم الاسوار في سورين أحدهما ضخم ( قاعدته خمسون ذراعاً وقمته عشرون ) والثاني يليه من الداخل ويسكن بينهما الرعية ، ثم سور ثالث خارجي تقوم أمامه الخنادق . ويرى الاثر الفارسي واضحاً في هذا المخطط . ولعل المنصور تأثر بهندسة العواصم الآسيوية القديمة كمدينة ( أقباتان ) /همذان/ عاصمة الميديين ، التي كان محل الملك فيها في الوسط ، ويسكن رعاياها بين أسوارها السبعة المتتالية . ومدينة ميافارقين التي بنيت في القرن الخامس الميلادي[1] وكانت في استدارة سورها المثلث تشبه تمام الشبه بغداد . ومثلها في ذلك آمد وكلتاهما من مدن الجزيرة البارزة في الاسلام . أما فصل الرعية عن الخليفة في بغداد ؛ وضخامة القصر في الوسط ، وحصر السكان بين السورين فقد يشير الى التأثير الفارسي. والى ترفع صاحب السلطة ونفوذه المطلق ، وهذا يتعارض ـ كما لاحظ الدكتور الدوري ـ مع الديمقراطية الاسلامية من جهة ؛ ويختلف عن الارستقراطية الاموية من جهة أخرى ولكنه على أي حال يتوافق مع عقلية المنصور ومركزيته في السلطة .

وأما مساحة دائرة المدينة الاولى ، فقد اختلف في تحديدها المؤرخون ويورد الخطيب البغدادي ست روايات تعطي مساحات تتفاوت فيها المساحة مابين ثلاثة كيلومترات مربعة واثني عشر ونصف . وقد

---

(١) انظر وصف ميافارقين لدى الازرق الفارقي ـ تاريخ ميافارقين ( مخطوط المتحف البريطاني ) ورقة ٧ وجه حتى ١٢ ظهر . وقد نقل هذا الوصف ياقوت في معجم البلدان .

قسم المنصور بغداد المدورة إلى أربعة أقسام أو أرباض أناط الاشراف على البناء في كل ربض بثلاثة رجال : قائدومولى ومهندس • أمـــا الاشراف العام على البناء فعهد به الى الحجاج بن أرطأة ، والامام أبي حنيفة النعمان ، من ذوي العدالة والفقه والامامة والمعرفة بالهندسة والبناء • ولم يشرع المنصور بالبناء حتى تكامل لديه من الفعلة وأهــل المهن آلاف كثيرة ، وحتى جمع المال اللازم للمشروع واشترى الارضين من أصحابها بعد المساومة وأقطعها أهل بيته وقواده وصحابته وجنـــده وكتابـــه •

وبعد أن وافق المنصور على المخطط رسم على الارض • ومر الخليفة بالشوارع والامكنة فأعجته ويقال انه بات في الموضع فارتاح اليه ثم امر بصب النفط على الخطوط وإشعاله ليلا ليشرف على رونقها • وأمر باحضار المهندسين والبنائين من الشام والعراق وبلاد الديلم وبدأ ضرب اللبن وطبخ الآجر[1] •• وكا نعدد العاملين مائة الف • بدأ بناء المدينة سنة ١٤٥ ، ولعل العمل توقف فجأة ، حين وصل خبر قيـــام محمد ذي النفس الزكية ، بالثورة في الحجاز • فلما انتصر المنصـــور عاد الى بناء المدينة سنة ١٤٦هـ وكان يشرف على الصغيرة والكبـــيرة فيها ، ويحاسب العمال على الدانق والحبة • بينما كانت القطائع التي منحها لاهله وقواده ، تبنى بدورها من قبلهم • فما أتت سنة ١٤٩هـ حتى كانت المدينة قد تمت بناء • وجعل لها خنـــدق يليه ســـور مضاعف ،

---

(١) يروى ان المنصور قرر هدم طاق كسرى في المدائن واستعمال حجارته في بناء مدينته . لكن خالد بن يحيى البرمكي اشار عليه الا يفعل ولكنه اتهمه بفارسيته وبدأ فعلا ثم توقف لتكاليف ذلك . ( انظر الفخري لابن طباطبا ) ( طبعة صادر ـ بيروت ١٩٦٦ ) ص ١٥٧

بينهما « فصيل » مرصوف لايسكن . للاسوار أربعة أبواب مضاعفة من الحديد وعليها الابراج العظام ، وقد نقل المنصور خمسة منها من مدينة الحجاج : واسط . وقد تفردت هذه الأبواب بظاهرة معمارية هامة هي الازورار فكان الداخل من الباب الخارجي لا يدخل مباشرة الى المدينة ولكنه يعطف الى اليسار في دهليز أزج يفضي الى الباب التالي ولعل السبب في ذلك عسكري دفاعي ، ولم يعرف ذلك لمدينة قبل بغداد ، أما في وسط المدينة فقام (قصر الذهب) للمنصور يعلو قبته تمثال فارس برمح ، والمسجد الجامع ملاصق للقصر من شماله الشرقي ، وهناك دار لصاحب الحرس وأخرى لصاحب الشرطة وذلك ضمن رحبة واسعة دعيت بالرحبة العظمى هي قلب المدينة يفضي إليها دهليز عظيم عليه بابان من الحديد .. وتكلف حوالي خمسة ملايين درهم ، مع رخص الاسعار . ولا شك أن البناء كان رائعا فقد وصف الجاحظ بغداد ، بعد قليل من عهد المنصور ، بقوله : « لم أر مدينة قط أرفع سمكا ولا أجود استدارة ولا أوسع أبوابا من الزوراء . وهي مدينة أبي جعفر المنصور . كأنما صبت في قالب وكأنما أفرغت افراغا » .

وسرعان ما ازدحمت المدينة بالوافدين اليها من علماء ، وشعراء ، وقواد وتجار ، وباعة صغار ، وصناع ، حتى ضاقت بهم . فأمر المنصور سنة ١٥٧ بتخطيط الاسواق في الكرخ ، جنوب المدينة ، وشق الانهر فيها ، ونقل الباعة اليها ، وجمعهم حسب مهنهم . فتيسر له بذلك توسيع شوارع مدينته ، والعناية بنظافتها .

وقد وصل بغداد ، بعد انتهاء بنائها ، ولي العهد المهدي ، في جيش خراسان . ولكن أباه كان قد بنى له قصراً ومعسكراً في الرصافة ،

على الضفة الشرقية من دجلة ، تجاه بغداد ، فنزل فيه • وقد تخير المنصور ذلك الموضع عامداً اذ « يصير ذلك بلداً وهذا بلداً فان فسد عليك ــ كما قال له الناصحون ــ أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب » • وما عتمت الرصافة أن توسعت توسع بغداد وأضحت تضاهيها وتكملها في الرونق والقصور وكثرة الخلق قبل أن تندمج نهائياً فيها •



# الفصل السابع

# العلاقات الخارجية

## السياسة الخارجية : سياسة تأمين الحدود والاتجاه القاري

كانت الدولة التي تربع في قمتها العباسيون الآن ، الدولة العظمى الاولى ، في عالم القرون الوسطى ، واتساع رقعتها جعلها على تماس مباشر ، في الحدود والصلات ، مع كل الدول القوية إذ ذاك ، إلا دولة الفرنجة الكارولنجيين فقد قام بينهم وبينها في الاندلس دولة الامويين الجديدة ، التي انكمشت عن العالم الاسلامي كله الى تلك الرقعة الجزرية المحدودة . وكان من الطبيعي ، من جهة أخرى ، في عصر كالعصر العباسي الاول ، كله حركة ونشاط وفعالية ، أن يصيب السياسة الخارجية جانب من النشاط ، سواء في الاعمال الحربية ، أو في العلاقات الدبلوماسية . وبالرغم من ان الفترة الاولى من هذا العصر ، نعني فترة التأسيس ، كانت كثيرة المشاكل الداخلية ، فان مشاكل الحدود والجهاد لم تنقطع . وقد جهد المنصور خاصة لتأمين تلك الحدود أكثر مما فكر بالهجرم . ولهذا فانه من الصعب أن نسمي علاقات الدولة العباسية بما جاورها من البلاد ، في المشرق خاصة ، بسياسة خارجية أو بعلاقات خارجية ولعل الأصح أن تسمى سياسة تأمين الحدود لأن الاعتماد فيها إنما كان على القوى العسكرية والحصون لا على العلاقات الدبلوماسية والرسل والوفود . ولعل

العلاقات الخارجية الوحيدة التي عقدها المنصور انما كانت تلك العلاقات المحتملة مع الصين من جهة ومع مملكة الفرنجة من جهة أخرى •

على أن الملاحظة الاساسية هنا هي أن انتقال الخلافة من بيت الى بيت ومن عاصمة الى أخرى إذا لم يكن في كافة النواحي الداخلية والادارية والاقتصادية والثقافية سوى استمرار للعهد الاموي الا انه فيما يتعلق بالسياسة الخارجية بالذات كان انتقالا بالدولة الاسلامية من عالم الى عالم ومن سياسة الى أخرى مختلفة • لقد نجم عن مسيرة الخلافة نحو المشرق واستقرارها في العراق وانقطاع الاندلس عنه ثم انقطاع المغرب بعد قليل ، وسيطرة الروم على المتوسط إثر هزيمة الامويين أمامهم أن أخذت الدولة الاسلامية العباسية الطابع القاري لا البحري وانتقلت من عالم البحر المتوسط الى عالم آسيوي يختلف عنه في كل ناحية • ولم يعد للعباسيين من يد في الاعمال التي تمت في هذا البحر بعد ذلك فصقلية إنما فتحها بنو الأغلب ، وكريت جماعة الربض الاندلسيون • وصارت شواطىء المتوسط بالنسبة للعباسيين أشبه بالحدود والنهايات التي ينبغي حمايتها منها بالثغور ومراكز الانطلاق الى السيادة على ذلك البحر وما وراءه •

وهكذا لم يستفد المسلمون في المشرق من وجودهم على شواطىء المتوسط الشرقية والجنوبية ويجب الانتظار في هذه الناحية حتى تظهر الدول شبه المستقلة في افريقيا وفي مصر لتظهر القوة البحرية العربية (ما بين الأغالبة ـ والطولونيين حتى الفاطميين ) وليعود النفوذ الاسلامي ـ ولكن تحت رايات أخرى غير الرايات العباسية ـ الى مكانه من ذلك البحر •

ولما كانت معظم الجبهات العباسية برية لذلك يمكن أن نقسم البحث في ذلك حسب الجهات الى ثلاث : المشرق وبيزنطة والبحر المتوسط الغربي •

**١ ـ جبهة المشرق ( الهند الصين المحيط الهندي تركستان )**

كان اهتمام المنصور متجهاً نحو الشرق أكثر منه نحو الغرب ، والى الهند والترك وايران أكثر منه الى جبهة الروم والاندلس وافريقية• ولعل الشاعر السيد الحميري قد عبر عن شيء من ذلك حين أنشده :

أعطاكم الله ملكاً لا زوال له
حتى يقاد إليكم صاحب الصين •••
وصاحب الهند مأخوذاً برمته
وصاحب الترك محبوساً على هون[١]

ولم يأبه الشاعر كثيراً بذكر الروم أو افريقية • والواقع أن الدولة العباسية بدأت اتجاهها القاري الآسيوي وارتبطت بالشرق منذ ربطت نفسها بخراسان وأهل خراسان وأصبح هذا الاتجاه سياسة مقررة دائمة وطدتها أعمال المنصور والمهدي والرشيد ثم خاصة المأمون فكأنما كان ظهور الدولة العباسية إحياء للدولة الساسانية وسياستها العامة •

وكانت تقوم الى الشرق والى الشمال من الدولة أيام العباسيين

---

(١)الاصبهاني ـ الاغاني ج٧ ص ٢٦٠

الاولين مجموعتان من الدول :

أ ــ مجموعة من الدول الكبيرة ولكنها بعيدة المواقع ولا تتصل الاتصال المباشر بخلفاء بغداد مثل ممالك الهند (مملكة قنوج في شمال الهند، ومملكة أسرة راشتراكوتا في الدكن ومملكة سرنديب ) وامبراطورية الصين، ومملكة الاتراك الشرقيين (الأويغور) في منغوليا • ومملكة الخزر في جنوب روسيا •

ب ــ مجموعة من الدول أو الشعوب الصغيرة المحيطة بالأرض العباسية سواء في الهند ( كشمير ــ دهلي ــ الـزط ــ قندهار ــ الملتان ــ الميد ) أوفي تركستان ( مثل بلاد الصغد وسجستان والتبت وفرغانة وأشروسنة ) أو في شمال أرمينية (مثل دولة الصنارية واللان والسرير والابخاز والكاسكية وكشك ) وهذه الدول هي أشبه بما يسمى بالدول الحاجزة أو دول «الصدام» •

وبديهي أن يحيط الغموض وتقل المعلومات حول علاقات العباسيين مع المجموعة الاولى من الدول خاصة • على أننا نستطيع أن تتبين أحيانا بعض الملامح من خلال العتمة ومن خلال العلاقة مع الدول الصغرى والثورات والعمليات الحربية على مناطق الحدود •

**اولا** : فأما في الهند فقد كان الثغر هناك في حوض السند قد وقع منذ سنة ١٣٠ في يد منصور بن جمهور الكلبي الثائر على السلطان الأموي • ويبدو أن أبا العباس سكت عن منصور أو قبل ولايته ولكن أبا مسلم بعث الى السند بعبد الرحمن بن أبي مسلم العبدي وقد مر معنا كيف فشل في طرد منصور ولقي حتفه حتى إذا وفد موسى بن كعب التميمي استطاع النصر حتى ألجأه منصوراً الى الصحراء يموت

فيها عطشاً • وهرب جماعته وأهله الى بلاد الخزر[1] وأقام موسى ينشر الاسلام فيبني المساجد ومن ذلك مسجد المنصورة كما يوطد السلطان العباسي بالهجوم على الامارات الهندية المجاورة وتجديد بناء المدن ــ الحصون هناك •

كانت تلك طليعة النفوذ العباسي في المنطقة الذي اضطرب حين عادكعب إلى العراق مخلفاً ابنه عيينة مكانه ، فقد خالف عليه قوم من اليمن فقتل عامتهم فأظهروا العصيان وبعث أبو جعفر بعمر بن حفص بن أبي صفرة العتكي المعروف بهزارمرد فتسلم البلاد سنة ١٤٢ رغم مقاومة عيينة التي أدت الى طرده ثم مقتله[2] •

وإذا كانت هذه الاعمال تدخل في إطار توطيد الدولة أيام المنصور فقد اتصلت بها أيضا شؤون العلاقات الخارجية في هذه المنطقة • فان عمر بن حفص[3] الذي أقام عشر سنوات في تلك البقاع اهتم بنشر الاسلام وحماية الحدود دون التوسع وقد حاول محاولة للاتفاق

---

(١) انظر الطبري ج٧ ص ٤٦٤ (٣/٨٠) ابن الاثير ج٥ ص٤٥٣
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٣٧٣
(٣) يجعل البلاذري ولاية عمر بن حفص بعد هشام التغلبي وقد اتبعنا الطبري واليعقوبي في جعل عمر هو السابق لان الطبري يحدد تاريخ بدء ونهاية الولاية .(انظر البلاذري ــ فتوح ص ٥٤٤ــ اليعقوبي ج٢ ص٣٧٣ ــ الطبري ج٧ ص ٣/٥١٢ــ) علما أن اليعقوبي يذكر ان ولايته كانت سنتين بينما يجعلها الطبري حسب التواريخ قرابة عشرة اعوام . وكان من الممكن التوفيق بين هذه الروايات جميعا بافتراض عودة عمر بن حفص مرة ثانية الى ولاية السند ، بعد هشام ، لمدة سنتين أيضا بعد سنواته العشر الاولى . لولا ان عمر ولي افريقية منذ سنة ١٥١ وقتل في القيروان سنة ١٥٤ . فخبر السنتين عند اليعقوبي خاطىء .

مع بعض الامارات الهندية ضد آل العباس • ذكروا أنه كان يتشيع لآل علي فأوفد محمد ذو النفس الزكية (ويعرف أيضاً بالأشتر) ابن عبد الله الى بلاد السند مستتراً في زي تاجر خيل مع جماعة • وكان يعرف ميول ابن حفص فكشف له عن أمره وطلب البيعة لأبيه محمد فبايعه وهيأ لنفسه الملابس البيض كما ينقض بيعة المنصور ولكنه فوجيء قبل يوم من إعلان الأمر بحراقة تصل من البصرة وعليها كتاب من زوجته تبلغه فيه مقتل ذي النفس الزكية ••

واقترح ابن حفص على العلوي أن يجعله مع جماعته الزيدية عند ملك من ملوك السند ( المجاورين ) عظيم المملكة كثير التبع وهو على شركة أشد الناس تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وقد بلغت عدة هؤلاء اللاجئين السياسيين ٤٠٠ زيدي « من أهل البصائر » •• وبلغ المنصور ذلك فيما بعد شيء من ذلك فكتب الى ابن حفص أن يغزو الامير الهندوكي فلما تردد طويلا سأله المنصور عن موضوع عبد الله العلوي • ويذكر الطبري أن أحد رجال عمر افتداه بنفسه وادعى أنه المسؤول أمام المنصور عن الامر فقتل وأما عمر بن حفص فأعطي ولاية افريقية سنة ١٥١ •

وتولى السند بدلا عنه هشام بن عمرو التغلبي فكان عمله هجوميا بعكس ابن حفص : هاجم كشمير فافتتحها وأصاب سبايا ورقيقاً كثيراً[2] وغزا اقليم الكجرات واستولى على مدينة ( بروج ) ميناء بحر العرب وكان بها جالية إسلامية كبيرة •

---

(١) انظر الطبري ج٨ ص ٣٣–٣٥(٣/٣٦١–٣٦٣) •
(٢) البلاذري – فتوح ٥٤٣ – اليعقوبي ج٢ ص٣٧٣

وقيل لهشام : إن المنصورة لا تحملك • والملتان بلاد واسعة ومنها معرى • فسار إليها واستخلف على المنصورة أخاه بسطام بن عمرو •• وخرج صاحب الملتان في خلق ليرده فكانت وقعة عظيمة وانهزم صاحب الملتان ونزل هشام المدينة وسبى سبياً كثيراً فخضع له أقليم الملتان كله •

ووجه أسطولا من البوارج بقيادة عمرو بن جمل الى بلدة ناربد (جنوبي شبه جزيرة راجكوت) •« ثم عمل السفن وحملها على نهر السند حتى القندهار ففتحها • وسبى وهدم المعبد وبنى موضعه مسجداً •• » ويبدو أنه في احدى هذه الحملات ورغم مايعزى الى هشام بدوره من ميول علوية قتل عبد الله العلوي اللاجيء وبعض اتباعه• قتله السفيح أخو هشام في بعض المعارك وبعث برأسه الى المنصور • ولعل الامارة التي كان لجأ اليها إذن هي كشمير ••

وقدم هشام التغلبي على المنصور بما لم يقدم به أحد من السند لكنه لم يقم بالعراق إلا قليلا حتى مات فولى المنصور معبد بن الخليل التميمي ••

**ثانيا** : وأما الصين فقد كان اتصال الدولة العربية الاسلامية بها يجري عن طريقين :

أولهما بحري جنوبي ، عبر المحيط الهندي ثم مضيق سنغافورة وهو رغم بعده كان يعتبر طريق الاتصال المباشر بالصين •

والثاني بري شمالي عبر بلاد الترك ثم ممر زنجاريا ، وبالرغم من

ان طريق البحر كان أرخص كلفة وأقل مشقة وتعرضاً لتهديد القوى المتغلبة على مداه الطويل فان طريق البر لم يكن أقل شأناً ولا حركة ونقلا للبضائع من طريق البحر • على أن الأهواء السياسية والنزاع الاقتصادي الحربي المستمر منذ العهد الفارسي اليوناني ، في الشرق الاوسط ، كانت تلعب دورها في تنشيط أو إضعاف أحد الطريقين أو تحويلهما باستمرار •

وعلاقة الدولة العربية الاسلامية بالصين أكثر غموضاً من علاقاتها مع الهند ذلك أن المصادر العربية لم تبد أي اهتمام بذكر شيء عن هذه العلاقات التي نكاد ــ لولا شواهد الصلات التجارية الواشجة ــ لا نجد أي خبر يتعلق بها • ولكن ذلك لا يعني أنها لم تكن قائمة أو كثيرة النشاط • وإن كان البعد الجغرافي قد جعل بالضرورةالعلاقات التجارية أقوى وأوسع بكثير من العلاقة السياسية • وإذا سكتت المصادر العربية عن هذه العلاقة فان ثمة في المصادر الصينية ما يشير الى قيامها بين خلفاء الاسلام ومعاصريهم ، أباطرة الصين من أسرة تانغ (أوتعنغ) الذين امتد حكمهم ما بين سنة ٦١٨ حتى سنة ٩٠٧ أي مما قبل الهجرة بخمس سنوات حتى أواسط العصر العباسي الثاني • وثمة ما يشير الى أن العلاقات بدأت ، عن الطريق البري ، منذ خلافة عثمان بن عفان • وقد تكرر وضوحا لعلاقة في زمن الامويين في ظل عهد الوليد وهشام خاصة •

أما في مطالع العصر العباسي فيبدو أن الطريق البحري كان قد أضحى مألوفاً للناس فقد رووا أن المنصور حين بنى بغداد قال في تفضيل موضعها وميزاته : : « ••• وهذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء •

يأتينا منها كل مافي البحر ...»[1] والرواية وإن تكن في شـكلها العام موضوعة لبيان ميزات بغداد إلا أنها على أي حال تعبر عن حقيقة يقر بها الناس في ذلك الوقت وهي انه ما دامت دجلة موصولة بالبحر فليس بين بغداد والصين شيء والرحلة بينهما مفتوحة على المصراعين .

والواقع أن العرب المسلمين نشطوا كثيراً في الحركة التجارية البحرية في المحيط الهندي ثم بحر الصين منذ القرن الثاني الهجري ( الثامن ) خاصة ويبدو أن أعداداً كبيرة وصلت منهم الى ميناء كاتتون ( خانفو ) الصيني في ذلك القرن . يذكر مؤرخ صيني من تلك الفترة ( بين سنة ٧١٣ و سنة ٧٤٢ ) « أن برابرة الغرب دخلوا المملكة الوسطى جماعات كالطوفان جاءت من مسافة تبعد ألف فرسخ على الاقل وأتت أكثر من مائة مملكة تحمل معها كتبها المقدسة ... كأنها فريضة ، فأخذت هذه الكتب ووضعت في بهو القصر الامبراطوري المخصص لترجمات الكتب المقدسة ... »[2] وتذكر المصادر الصينية أيضاً ــ وهي لم تكن تفرق تماماً ــ يومذاك بين العرب والفرس ولا تذكر شيئاً عن العرب أنه كان للفرس ( البوسيه Po-ss e ) قرية أو مستعمرة كبيرة جداً في جزيرة هاينان عام ٧٤٨/١٣٠هـ . وقد ورد ذكرهم في هذه السنة نفسها الى جانب البراهميين وسكان الملايو أصحاباً لسفن على النهر عند كاتتون ...[3] . ويسجل تاريخ كوانغ

---

(١) الطبري ج٧ ص ٦١٤ (٣/٢٧٢)

(٢) توماس ارنولد ــ الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية) ص ٣٣٤

(٣) جورج . فضلو حوراني ــ العرب والملاحة في المحيط الهندي ( الترجمة العربية) ص١٩٢ــ١٩٣

تونغ قدوم أوائل الوافدين منهم على النحو التالي : « ... في عهد دولة تانغ وفد علي كاتتون عدد كبير من الغرباء من مملكة أنام وكمبوديا . ومدينا ( وتعني المدينة يثرب ) وبعض بلاد أخرى . وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله وليس لهم في معابدهم تمثال أو صنم ولا صورة . وكانت مملكة مدينا ( أي مملكة الاسلام ) قريبة من مملكة الهند وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة بوذا . وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأيديهم طعاماً نجساً ويطلق عليهم الآن اسم ( هوى هوى ) . ولما استأذنوا الامبراطور وحصلوا منه على إذن بالاقامة في كاتتون بنوا دوراً جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي كان في بلادنا . وكانت لهم ثروة عظيمة ودانوا بالطاعة لرئيس انتخبوه بأنفسهم ...»[1] .

ويبدو أن هذه الجماعة التجارية المتكاثرة من جهة واصطدام القوى العربية الاسلامية في ما وراء النهر مع القوى الصينية ـ كما سوف نرى ـ من جهة أخرى هي التي أدت الى إقامة علاقة سياسية عسكرية بين الصين والدولة العباسية الناشئة في أواسط القرن الثامن الميلادي ( بين ١٣٢ ـ ١٤٠هـ ) . فقد كان الصينيون يسيطرون على طريق التجارة البري عبر بلاد تركستان ويعتبرون هذه البلاد منطقة نفوذ مباشر لهم . فلما توغلت الجيوش العربية الاسلامية هناك في بلاد

---

(١) توماس ارنولد ـ المصدر نفسه ٣٣٤و٣٣٢ وقد نقل النص بدوره عن الجزء الاول من كتاب :

D. De Thiersant, Le Mohamétisme en Chine, (Paris 1878 ) Vol. I. PP 153 et 19-20

الترك وتدخل امبراطور الصين لحمايته بعضهم هزم جيشه هزيمة قوية ( أواخر سنة ١٣٣ هـ / تموز ٧٥١ م ) • قتل فيها الالوف وأسر الالوف من الصينيين • ولم ينجم عن تلك المعركة انسحاب السيطرة الصينية من تلك المنطقة كلها فحسب ولكن نجم عنها أيضاً اقامة تعاون سياسي عسكري بين الخليفة المنصور والصين • فقد قامت ثورة داخلية سنة ٧٥٤ في الصين أدت الى أن يطرد أحد الغاصبين وهو الثائر التركي الرهيب آن لوشان An – Lu – Shan الامبراطور عن عرشه • والى أن يتنازل عن العرش لابنه سو ـ تسونغ سنة ٧٥٦ فطلب هذا الابن النجدة من الخليفة العباسي المنصور فأجابه بارسال قوة عسكرية نجح بمساعدتها في استرجاع عاصمتيه ( سي ـ نغان ـ فو ) و ( هو ـ نان ـ فو ) من أيدي الثوار ...[1] •

ولسنا ندري بالضبط متى تحركت تلك القوة الاسلامية الى الصين ؟ وعن أي طريق ذهبت ـ ولعله الطريق البري الشمالي ـ ولا عدد هذه القوة وقائدها • فان المصادر العربية الاسلامية تصمت عن ذلك كله ، رغم أهميته ورغم أنه يشكل انعطافاً وتطوراً هاماً جداً في اتساع نفوذ وسمعة الدولة الاسلامية عبر كل الدنيا المعروفة آنذاك • وهذا ما يشكك في صحة الخبر ، وقد يدفع الى الظن بأن قصة المعونة العسكرية العباسية قد لا تكون في الاصل سوى تطوع بعض التجار العرب أو المرتزقة أو القرصان من مختلف العناصر التي تنتمي في

---

(١) انظر توماس ارنولد ـ الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية ـ الطبعة الثانية ١٩٥٧) ص٣٣٣ وانظر كذلك بدر الدين حي الصيني ـ العلاقات بين العرب والصين (القاهرة ١٩٥٠) ص ٣٦ ، ٤٦ . وجورج فضلو حوراني ـ العرب والملاحة ص ١٩٣ و ص ٢٠٠

الاساس للدولة العباسية كالفرس والنساطرة واليهود وغيرهم لدعم قضية الامبراطور الابن في وجه الثائرين • ولعل هؤلاء المتطوعين قد تدخلوا أو أن التجار العرب المسلمين مولوهم وجندوهم أملا في بعض الامتيازات والحقوق التجارية التي نالوها بالفعل فيما بعد •

وعلى أي حال فان بقية القصة ترجح هذا الافتراض • فالمصادر الصينية تذكر ان قوة النجدة العباسية لم ترجع الى بلادها بل بقيت في الصين وتزوج أفرادها هناك واستقروا •• والروايات التي تذكر هذا الاستقرار تعلله بسبب واضح التهافت • بعضها يقول إنهم عادوا بالفعل الى بلاد الاسلام ولكنهم أخرجوا منها لأكلهم من لحم الخنزير في الصين • وبعضها يذكر انهم أشفقوا أن يعودوا لانهم خافوا الاتهام بهذه الكبيرة فعدلوا عن الرجوع وهم على أهبة السفر • وحين حاول حاكم كانتون إجبارهم على الرحيل انضموا الى اخوانهم في الدين وسلبوا المتاجر الهامة في المدينة • فأنقذ الحاكم نفسه بالالتجاء الى سورها • ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن حصل من الامبراطور على إذن لهذه الجيوش العربية بأن تقيم في هذه البلاد وخصصوا لهم أراض ودوراً في مدن مختلفة حيث استقروا وتزوجوا من نساء البلاد[١] ••

وقد يكون هذا الخبر السابق هو نفسه الخبر الذي ذكر فيه المؤرخ الصيني صاحب ( تاريخ أسرة تانغ ) في أخبار سنة ٧٥٨ م وسنة ١٤٠ هـ : « ••• أن العرب Ta-shi والفرس Po-sse قد نهبوا

---

(١) توماس ارنولد ــ الدعوة الى الاسلام ص ٣٣٣( نقلا عن المصدر السابق نفسه ص ٧٠ـ٧١)

مدينة كوانغ ـ شو ( كانتون ) وأحرقوها معاً ثم عادوا أدراجهم في البحر . » وكان فيها جموع كثيرة من هؤلاء الاجانب[1] ...

وقد يكون من التناقض أن نرى المنصور يقدم المعونة العسكرية لامبراطور الصين البعيد ، وهو في الوقت بالذات أحوج الناس اليها لقمع الثورات عليه وتوطيد الدولة له ، ومن التناقض أيضاً أن يعمل على توطيد علاقاته السياسية مع الامبراطور الصيني بهدف كسب حياده في منطقة تركستان على الاقل بينما تجرؤ بعض الجماعات التجارية أو القراصنة المسلمين على هدم العلاقات الاقتصادية القوية التي كانت قد بدأت في التوطد بين بحر البصرة وبحر الصين وتنهب مرفأ الاتصال بين البلدين .

ولعل الارجح أن تلك الجماعات التي دعمت الامبراطور عسكريا أو نهبت كانتون كانت تعمل لحسابها ولتأمين مصالحها الخاصة في تلك الاقطار النائية . وقد تكون قد قامت بالتطوع والدعم بعلم المنصور وتأييده وأعطت متطوعيها هذا الاسم ليكون له الوقع والقبول وغرضها الحصول على الامتيازات فلما منعت نالتها بالقوة واستقرت بينما انسحب بعضها ، أو انسحبت القوى الاسلامية التي استجلبتها من الموانىء الاخرى لدعمها ..

وعلى أي حال فان السياسة الصينية قد مالت بعد إخماد ثورة آن ـ لويشان إلى الانكماش على الذات وإذا لم تعد تتدخل في شؤون

---

(١) حوراني ـ العرب والملاحة ص ١٩٣

تركستان وتركتها بكاملها للنفوذ العباسي الاسلامي فانها بالمقابل أغلقت ميناء كانتون[1] نهائياً في وجه التجار الاجانب ، ومنهم العرب والفرس وغيرهم ، وقد ظلت موانئ الصين محرمة عليهم بعد ذلك أكثر من ثلث قرن ..

وفي هذه الفترة على ما يظهر ضعفت حركة المراكب التجارية الاسلامية في الرحلات البعيدة أو غلت تكاليفها ويبدو أن هـذا الضعف والغلاء قد جرأ عمليات القرصنة التي زادت بشكل ملحوظ أيام المنصور مابين سنتي ١٤٠ حتى ١٥٣ في بحر البصرة والبحر الهندي ...

**ثالثاً** : وأخبار النشـاط العباسي البحري في المحيط الهندي شحيحة جـداً :

وبالرغم من شح الاخبار لا سيما فيما يتعلق بالنشاط العسكري وبأمن الطرق البحرية التجارية عبر الخليج العربي ( وكان يدعى بحر البصرة ) وما وراءه الى الهند وشرقي افريقيا والى الصين ، فـان المعلومات القليلة التي وفرها لنا خليفة بن خياط المؤرخ البصري الذي عاش جانباً من العصر العباسي الاول ، في نهايته ، تكشف أن الاسطول العباسي كان ضعيفاً للدرجة التي كان فيها قرصان البحر يضربون ضرباتهم حتى في البصرة نفسها . وتتكرر هذه الاخبار في تاريخه خاصة مابين سنتي ١٤١ ــ ١٥٣ في عهد المنصور . وتنسب القرصنـة في بحر البصرة في هذه الفترة الى شعب أو جماعة تعرف بالميذ وهم

---

(١) حوراني ــ العرب والملاحة ص٢٠٠

قوم من حوض السند ، في غربه ، ومركزهم في بلدة سزست أو سرشت يقول البلاذري[1] : « وأهلها الميذ الذين يقطعون البحر ويبدو أنهم اشتهروا بذلك واتخذوه عملا دائماً خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين حتى أضحت « مغزى أهل البصرة » وموضع عدائها وهجومها الدائم . يقول ابن خياط : في سنة ١٤١ « أن أبا جعفر ولى محمد بن أبي عيينة ( بن المهلب بن أبي صفرة ) البحر . فنزل مدينة قيس ، جزيرة في البحر ( ولعلها جزيرة قيشم على مدخل الخليج العربي ) فأتته مراكب الميذ فلم يخرج اليهم وخرج ابنه فقتل في جماعة من المسلمين. وخلى ابن أبي عيينة المدينة فخربها العدو فهي خراب الى اليوم...»[2] ولعل تلك المدينة لم تكن أكثر من مركز من المراكز التجارية لأهل البصرة على طريق الهند .

ـ وفي سنة ١٤٨ يبدو أن الميذ قد اجترأوا ، مع ضعف القوة

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ج٣ (طبعة المنجد) ص٥٣٩ ، ويقول المسعودي ( في التنبيه والاشراف ص ٤٩ ) وفي نهر مهران بالسند «جنس يقال لهم الميد وهم خلق عظيم حرب لأهل المنصورة (في السند) ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها كالشواني في بحر الروم ..» ويقول ابن خرداذبة (ص٦٢) «الميد لصوص ...» وفي البلاذري قصة سفينة كانت تحمل بعض الجواري هدية للحجاج فهاجمتها بوارج الميد فأخذوها بما فيها ..

ويقترن اسم الميد وقصة القرصنة باسم جنس هندي آخرهم الكرك . ويقول ابن خرداذبة (ص٥٦) انهم من بلاد السند . وكانوا يعملون أيضاً بالقرصنة وقد هاجموا كما سوف نرى مدينة جدة في البحر الاحمر مما اضطر المنصور لارسال حملة تأديبية ضدهم وقد ذكر ذلك الطبري .

(٢) خليفة بن خياط ـ التاريخ (طبعة العمري ـ بغداد) ج٢ ص٤٤٦ والذهبي ج٦ ص ٥

العباسية في وجههم ، على الصعود من الخليج العربي حتى أعاليه • ونسمع لاول مرة أنه قد « دخل الميذ من البحر فأتوا دجلة البصرة » أي شط العرب[1] •

ــ ويتكرر الهجوم القرصني نفسه في السنة التالية ١٤٩ ويضاف إليه في رواية ابن خياط خبر هام آخر لعله يتعلق بأبي جعفر المنصور نفسه وبرحلة بحرية تفقدية أجراها في الخليج العربي ولم تذكرها المصادر التاريخية كما لم تلمح أي واحدة منها اليها ولا الى تنائجها • يقول : « إن العدو ــ وهكذا يسمي ابن خياط الميذ ــ لقي أبا جعفر بخارك ( وهي جزيرة في وسط الخليج العربي ولعلها جزيرة البحرين أو فيلكه ) فأصيب هو وأهل مركبه[2] فان صح فهم النص على أنه يتعلق بأبي جعفر فان للأمر معناه البعيد ••

ــ ولكن الميذ استمروا بعد ذلك في جرأتهم على البصرة « فدخلوا سنة ١٥١ دجلة البصرة » ولكنهم في هذه المرة ــ على ما يبدو ــ لم يفاجئوا أهلها كما جرى في المرات السابقة فقد لقوا المقاومة العنيفة « تلقاهم ( بها ) أبو عبيدة السعدي •• »[3] •

ــ ثم وصلوا في السنة التالية سنة ١٥٣ الى أن دخلوا بعض

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٢

(٢) المصدر ذاته ص٤٥٣ والنص المنشور يضع الاسم : ابا جيفر وليس لهذه القراءة من مبرر أو سند ولعل الاصح قراءتها كما قرانا : ابا جعفر .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٤

الانهار الفرعية في شط العرب • متوغلين أكثر فأكثر فيه • يقول ابن خياط : « دخل الميذ نهر الامير ( هل هو نهر قارون ؟ ) بدجلة البصرة فقتلوا وسبوا » ولعلهم اختاروا النهر الفرعي لئلا يصطدموا بقوى البصرة نفسها كما جرى في السنة السالفة • ويروي ابن خياط شهادة شاهد عيان يقول : « حدثني نضلة أنه شهدهم يوم نهر الايسر وقاتلهم وجماعة معه حتى صاروا الى بوارجهم واستنقذوا مافي أيديهم •• »[1]

وانقطاع أخبار هذه القرصنات الجريئة بعد سنة ١٥٣ قد يعني ، مع الخبر الآخر الذي يروي مجيء المنصور الى البصرة وتوجيه أسطول لغزو القراصنة الكرك ، الذين يهاجمون جدة في البحر الاحمر ، أن عناية خاصة قد بذلت لاقامة قوى بحرية ترافق الاساطيل التجارية وتقطع دابر القرصنة في الخليج • وإخراج القراصنة الميذ منه الى عرض المحيط الهندى • وقد يدل على ذلك أن المهدي ــ كما سوف نرى ــ سيرسل حملة بحرية الى السند لتأديب القراصنة فيها بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي •

**رابعا :** وأما مجموعة الدول الأخرى الصغيرة المطوقة للدولة الاسلامية في آسيا الوسطى ، وهي المعروفة لدى المؤرخين ببلاد ما وراء النهر ( وقد يشار اليها قديماً في نوع من التعميم والتوسع باسم خراسان وتسمى حديثاً تركستان ) فالواقع أنها أنواع ثلاثة من الدول التركية أو التركية ــ الايرانية • فبعضها فتح بالقوة ودخل في إطار الحكم الاسلامي وأبقى المسلمون ، بموجب المعاهدات ، على عقائده وعلى حكامه

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٥

المحليين يتوارثون فيه الحكم مثل الصغد واشروسنة • (ومثلهاسجستان أيضا وطبرستان ) • ومنها ممالك لم تفتح ولكنها تحت النفوذ العربي الاسلامي بسبب الجوار والعلاقة التجارية مثل الشاش وفرغانة والختل، وباميان وطخارستان وكابول ومنها مجموعة ثالثة أبعد في المواقع وأكثر إيغالاً في السهوب التركية والجبال العالية ، كالتيبت ، والخرلخية ( القرلوق ) والتغزغز والقرخانيين والأويغور وهي تشكل مع الدول السابقة لها مجموعة الدول الحاجزة في البر بين امبراطورية الصين ودولة الاسلام • ويجب أن نضيف إليها فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود دولة الخزر •

وعامة شعوب هذه الدول ليست على الاسلام فما كان منها في دائرة الحضارة الايرانيةفهوزارادشتي وأحيانا مانوي كالسغدوالأويغوز وما كان منها خارج تلك الدائرة ولا سيما في سهوب الترك فبعض على البوذية والاغلب وثني الديانات •

وقد كانت امبراطورية الصين تعتبر آسيا الوسطى جميعاً حتى أطراف الدولة الساسانية منطقة تابعة لها تسيطر فيها إلى أبعد ما تستطيع من المسافات على الطرق التجارية العالمية الممتدة عبر آسيا الوسطىمابين الشرق الاقصى والغرب الاوروبيوهي الطرق التي نشطها كل النشاط جوستنيان ( في القرن ٦ ) فكان نفوذ المسلمين الى ما وراء النهر ، منذ العهد الاموي ( فيالقرن السابع ) مثار قلق للصين التي كانت تتدخل في شؤون المنطقة في كل فرصة • وقد اغتنم الصينيون فرصة النزاع الاموي ـ العباسي فمارسوا استعادة نفوذهم من جديد لا سيما وأن

الترك بصورة عامة كانوا لا يعتبرون أنفسهم طرفاً في ذلك النزاع الذي شغل السلطة الاسلامية عنهم • وما كاد الامر يستتب للعباسيين حتى حاول أبو مسلم الذي تسلم خراسان بعد نصر بن سيار أن يجدد بسط السلطان الاسلامي على المناطق التركية الشرقية فاصطدم هناك بالنفوذ الصيني الذي يتقدم حتى استطاع الصينيون سنة ١٣٠/٧٤٨ الاستيلاء على مدينة ( سوياب ) وتخريبها ••

وقد برز هذا الاصطدام في حادثة بلاد الشاش • ذلك أن إخشيد فرغانه اختلف مع ملك الشاش « فاستنجد الإخشيد بملك الصين الذي أنجده ــ فيما تقول المصادر العربية ــ بمائة ألف مقاتل حاصروا ملك الشاش الذي نزل على حكم الصين فلم يتعرض له ولأصحابه بما يسوءهم •• » • لكن الصينيين ــ فيما يبدو ــ تآمروا على هذا الملك فقتلوه بعد ذلك فاستنجد ابنه بالقوى الاسلامية في خراسان ( أواخر سنة ١٣٣/ربيع سنة ٧٥١ ) وحرضها ضد التدخل الصيني • وتكشف استجابة المسلمين السريعة لهذه النجدة مدى شعورهم بالخطر الصيني السياسي والاقتصادي فقد توجه زياد بن صالح الخزاعي فوراً فاشتبك مع الجيش الصيني في معركة على نهر طراز ( ذي الحجة سنة ١٣٣/تموز سنة ٧٥١ ) كانت من المعارك الفاصلة في التاريخ لان القائد الصيني ( كاو ــ هسين ــ تشي ) قتل وقتل معه ــ حسب قول المقدسي وابن الاثير ما بين ٤٥ الى خمسين ألفا كما أسر عشرون الى ٢٥ ألفا • وهرب الباقون الى الصين • والمصادر الصينية تجعل عدة الجيش كله لا تجاوز ثلاثين ألفا [١] • وما كان لهذه المعركة أن تذكر لولا أنها قررت مصير ما وراء النهر حضارياً خاصة وسياسياً فقد نجم عنها :

---

(١) انظر المقدسي ـ البدء والتاريخ وابن الاثير ج٥ ص ٤٤٩

أ ـ انسحاب النفوذ الصيني السياسي ، وانسحاب الحضارة الصينية نهائياً من المنطقة الى ماوراء مرزنجاريا وتركها لسيطرة الاسلام السياسي أولاً وللحضارة الاسلامية ديناً وفكراً وفناً وتقاليد بعد ذلك إلى اليوم وقد حدث أن بعث أمير اشروسنة إلى الصين يستعديها على العرب سنة ١٣٤ / ٧٣٥ فرفضت تلبية النداء •

ب ـ ابعاد الصين عن المعركة الدائرة بين العرب والاتراك (الشرقيين والغربيين على السواء) وانقطاع التعاون السياسي ـ العسكري الاقتصادي القديم بينهم وبين الامبراطورية الصينية وانتقال هذا التعاون بأنواعه من شرقي تركستان الى غربها أي أن الاتراك غيروا بعد تلك المعركة قطب الاتجاه والتأثر وبات عليهم أن يلقوا النفوذ الاسلامي وحدهم وبالاعتماد على جهودهم ومواردهم وحدها مما نجم عنه تمزقهم واصطناع العرب لبعضهم ومحاربتهم لبعضهم الآخر مدة طويلة قبل أن يصبوا أخيراً في الحضارة الاسلامية •

جـ ـ تسليم الصين للمسلمين بالسيطرة نهائياً على طرق التجارة العالمية المارة في آسيا الوسطى ، وهي الطرق التي كانت دوماً وراء تدخل الصين في أمور الاتراك وسوف تصبح هذه الطرق بعد الآن بمختلف شعبها ودروبها بأيدي المسلمين •

ولم يكن هذا الكسب العربي الاسلامي بانسحاب الصين هو الكسب الوحيد ولكن كسباً آخر لا يقل عنه أهمية حضارية قد تحقق

(١) انظر Barthold Histoire des Turcs d'Asie Central.
ولا شك أن في الرواية العربية بعض المبالغة الواضحة .

في تلك المعركة • فقد كان بين الاسرى الصينيين فيها من كان يعرف سر صناعة الورق • وكانت من قبل احتكاراً صينياً خاصاً • وكما فضح البيزنطيون أيام جوستنيان سر صناعة الحرير من قبل كشف العرب الآن صناعة الورق وأقاموا في سمرقند عدة مصانع ثم ما لبثت هذه الصناعة أن انتقلت إلى بغداد في أواخر القرن الثاني (زمن الرشيد) ومنها عرفت في الشام ومصر والاندلس • وقدم العرب بذلك للفكر أحسن اداة تعمل على حفظه ونشره الواسع الرخيص •

على أن هزيمة الجيش الصيني لم تكن هي السبب الوحيد في الانسحاب الصيني الشامل من المنطقة فقد ترافقت تلك الهزيمة مع احداث أخرى جعلت ذلك الانسحاب نهائيا ودائما : هي تلك الثورة الداخلية في الصين سنة ٧٥٤ التي أدت الى استنجاد الامبراطور الصيني بالمنصور أو بالجالية العربية الاسلامية عنده حتى أعانته على النصر ضد الثائرين•
وربما كان لهذا التعاون ـ المباشر أو غير المباشر ـ أثره دون شك في إقامة صفحة جديدة من العلاقات الطيبة بين الاسرتين يدعمها ازدياد في التبادل التجاري وتأمين للمصالح الاقتصادية المتبادلة • وقد ساعد على بقاء هذا التعاون والمسالمة من بعد ضعف كل من أسرتي تانغ وبني العباس في القرن الثالث ( التاسع الميلادي ) •

ويبدو أن وفوداً وسفراء قدجرى تبادلهم في الزيارة بين بلاطي

---

(١) انظر كتاب توماس ارنولد ـ الدعوة الى الاسلام ( الترجمة العربية ـ الطبعة الثانية ١٩٥٧) ص٣٣٣ وانظر كذلك بدر الدين حي الصيني ـ العلاقات بين العرب والصين (القاهرة ١٩٥٠) ص ٣٦ ، ٤٦

العباسيين والصين لان المصادر الصينية تتحدث عن وفود أرسلها (هان ـ مي ـ مو ـ ميني ) أي أمير المؤمنين ( أبو لوبا ) أي أبو العباس وأبو شافو أي أبو جعفر ...

ومن جهة اخرى لم يكن انسحاب الصين هو التطور الوحيد الذي جرى على الجبهة التركية في مطالع العهد العباسي فالواقع أن تطورات هامة كانت تجري في المنطقة التركية كلها في الوقت الذي كان العباسيون يزيحون فيه الامويين ويغيرون مركز الخلافة من الشام الى العراق. مطلع التطورات التركية إنما كان حين استطاع نصر بن سيار في ولايته بسمرقند ثم في خراسان أن يقضي على دولة الشركس ( الترك الغربيين ) سنة ١٣١/٧٣٩ فقد سمح انهيارهم لشعوب القارلوق ( الخرلخ ) التي كانت تعيش في شرقهم وتكون دولة تجارية هناك أن تنساح على أراضيهم وأن تفرض نفوذها عليهم سنة ١٤٨/٧٦٦ في عهد المنصور . بينما كانت منطقة منغوليا ، الخلفية البعيدة ، تنتقل بدورها حوالي سنة ١٢٧/٧٤٥ ولمدة قرن بعد ذلك من حكم الاغز ( الترك ) الى حكم شعب تركي آخر هو الاويغور ...

على أن سياسة العباسيين مع الترك لم تختلف كثيراً عن سياسة الامويين من قبل . ولا عن سياستهم كذلك في السند كانت سياسة هؤلاء قائمة على ثلاثة أسس :

أ ـ استخدام القوة لتوطيد النفوذ السياسي والتوسع الاقليمي. وهو ما يمكن أن نسميه بسياسة العصا الغليظة . وقد بذلوا في ذلك الكثير .

ب ـ توطين الجند العرب مع أهلهم وذراريهم وقبائلهم في المواقع المتقدمة أولاً فأولاً • ثم القفز من المنطقة المضمونة الى المنطقة التي تليها •

جـ ـ نشر الاسلام كوسيلة سياسية لفرض سلطان « الخلافة » في آسيا الوسطى الجديد الوحيد في السياسة العباسية في هذه الاصقاع تأكيد العباسيين أكثر من الامويين على محور نشر الاسلام • لقد تنبه له الامويون واستخدمه بعض ولاتهم استخداماً واضحاً[1] •

ولكن العباسيين جعلوا هذه الناحية الثالثة ، ولا سيما بعد غياب الخلفاء الاوائل ، الوسيلة الاولى بامتياز وتوسعوا في استخدام الدين كطريق للسيطرة السياسية بينما تناقص بوضوح أثر الوسيلة الثانية : وسيلة التوطين بسبب تناقص الاعتماد على العنصر العربي تناقصا مطرداً •

ولم تكن قد مضت سنة واحدة على قيام الخلافة العباسية حتى بدأت ملامح هذه السياسة المزدوجة الوسيلة ، تظهر واضحة في التطبيق العملي الذي كان يهتم بثلاثة أمور :

أ ـ أن يترافق التوسع الديني مع التوسع الاقليمي ويوطد نشر الدين في كل بقعة الحكم الاسلامي فيها •

ب ـ أن تتحول الدول المحلية « المعاهدة » الى مقاطعات اسلامية تحت الحكم المركزي المباشر للخليفة •

جـ ـ أن تتحول دول الجوار الى دولة معاهدة ليكون بالامكان تحويلها بدورها الى مقاطعات اسلامية وفرض النفوذ على ما وراءها •

---

(١) انظر لدى النرشخي ـ تاريخ بخارى (ص ٧٤) كيف كان قتيبة ابن مسلم يقيم منادياً كل جمعة بأن من حضر الصلاة اعطاه درهمين .

وهكذا نجد أنه في سنة ١٣٣/٧٥١ قام قائد من قواد أبي مسلم الخراساني بعمليات عسكرية على الجبهة التركية يمكن أن نعتبرها تأديبية أو انتقامية . ولعل السبب فيها هو تردد ملوك هذه البقاع في دعم الثورة العباسية ومحاولتهم استغلال الفوضى السياسية ضمن الدولة الاسلامية للتحكم في الطرق التجارية . فقد توجه أبو داوود خالد بن ابراهيم من منطقة الوخش الى الختل ( وهي المشرفة على ممر زنجاريا التجاري العسكري شمال هضبة بامير ) فدخلها ولم يمتنع عليه حنش بن السبل[١] ملكها ، وأتاه ناس من دهاقين الختل فتحصنوا معه ( مما يدل على أن في الامر خلافا داخليا بين شعب الختل ) فلما ألح أبو داوود على حنش خرج من الحصن ليلا ومعه دهاقينه وشاكريته حتى انتهوا الى أرض فرغانة ثم خرج منها في أرض الترك حتى وقع الى ملك الصين . وأخذ ابو داوود من ظفر به منهم ... الى بلخ والى أبي مسلم»[٣] وامتد النفوذ الاسلامي الى مشارف هضبة بامير .

وفي السنة التالية سنة ١٣٤ عاد أبو داوود نفسه « فغزا أهل كش فقتل الإخريد ( الاخشيد ) ملكها وهو سامع مطيع قدم عليه قبل ذلك بلخ ... وأخذ أبو داوود من الاخريد وأصحابه حين قتلهم من الاواني الصينية المنقوشة المذهبة التي لم ير مثلها ومن السروج الصينية ومتاع الصين كله من الديباج وغيره ومن طرف الصين شيئاً كثيراً . فحمله ابو داوود أجمع الى أبي مسلم بسمرقند . وقتل أبو داوود دهقان كش

(١) يسميه ابن الاثير ( حسب النص المطبوع ج ٥ ص ٤٤٩ ) حبيش ابن الشبل .

(٢) انظر الطبري ج ٧ ص ٤٦٠ ( ٣/٧٤ ) .

في عدة من دهاقينها . واستحيا طاران أخا الاخريد . وملكه على كش ... » ثم يضيف الطبري الى ذلك قوله : « وانصرف أبو مسلم الى مرو بعد أن قتل في أهل الصغد وأهل بخارى وأمر ببناء حائط سمرقند . واستخلف زياد بن صالح (الخزاعي) على الصغد ..»[1] .

وقد ضعفت المقاومة التركية كثيرا بعد تخلي الصين عنها في مطالع عهد أبي جعفر المنصور ولهذا لا يسجل عهده مثلا سوى مشكلة فرغانة ويبدو أن ملكها فنران بن افراكفون ، اعتدى على القوافل التجارية أو رفض دفع الاموال للمنصور أو قاوم التوسع الاسلامي فتوجه اليه الليث ابن طريف مولى المهدي (وكان وليا للعهد) وحاصره في عاصمته كشغر فحاربه محاربة شديدة حتى ألجأه الى طلب الصلح فصالحه على مال كثير . وأوفد ملك فرغانة رجلا من أصحابه يقال له باتيجور الى بغداد، وربما كان إيفاده لتسوية الامور أو نوعاً من الرهينة . يقول اليعقوبي: « ... فعرض عليه الاسلام فأبى فلم يزل محبوساً الى أيام المهدي وقال: لا أخون الملك الذي وجهني .. »[2] ويسجل الطبري كذلك غزو حميد ابن قحطبة الطائي لملك كابول سنة ١٥٢[3] ولعلها حركة من نوع الحركة السابقة .

على ان الحركات التركية اذا كانت قد خدمت كحركات سياسية عسكرية على الحدود فان تلك الشعوب لم تلغ عداءها للحكم العباسي الاسلامي ولكن دفعته الى الحلف والى الهدوء فقط في انتظار مناسبة

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٧
(٢) الطبري ج ٨ ص ٤١ ( ٣/٣٦٩ ) .

ينكشف فيها من جديد • والواقع أننا نجد المناطق التركية في ما وراء النهر ردءا وعونا لمختلف الثورات التي ماجت بها خراسان في عهد المنصور ضد الحكم العباسي والاسلامي • أي أن القوة الاسلامية حولت المقاومة التركية من الشكل السافر الى الشكل المستتر ومن شكل الكتل المقاومة الى المقاومة الشعوبية • وهي أول الخطوات نحو ذوبان المقاومة •

## ٢ ـ جبهة الشمال والشمال الغربي ( الخزر والروم )

وهي كذلك قطاعان : قطاع عليه الخزر وقطاع عليه الروم •

### أولا ـ العلاقات مع الخزر :

فيما وراء جبال القفقاس (القبق) بين بحر قزوين والبحر الاسود وعلى الأحواض السفلى لأنهار الفولغا ، والدون والدينيبر كانت تقوم دولة الخزر • وهي شعوب تركية الأصل برز اسمها بوضوح قبل الفتح الاسلامي بسنوات معدودة إذ كانت الحليف الأقوى للروم فيانتصارهم على الساسانيين الفرس ٦٢٧ م • وقد كانت عاصمة الخزر في السهوب وراء القفقاس ثم انتقلت منذ مطلع القرن الثامن الميلادي الى مدينة إيتل على مصب نهر الفولغا (قرب استراخان الحالية) • وكانت تقوم بينالخزر وبين الاراضي التي افتتحها العرب من أرمينية واذربيجان عدد من الشعوب الصغيرة على أطراف جبال القفقاس الجنوبية تخضع تارة للمسلمين وأخرى للخزر حسب الظروف ومعظمها على المسيحية مثل اللان والسرير وجرزان والصنارية وكشك والكرج والكاسكية [١]

(١) يطلق الجغرافيون العرب على معظم هذه الشعوب اسم : اللكز .

والابخاز كما كان هناك بعض المجموعات من الروس والصقالبة وحين تقدم الفتح العربي الى تلك المناطق استخلص من الخزر تلك الاراضي الموجودة في جنوب القفقاس ، والتي كان الخزر قد أخذوها في السابق من الفرس[1] .

وكان المورد الرئيسي الذي تقوم عليه هـذه الدولـة إنما هو التجارة والأعشار عليها فقد ظلت تسيطر على الطرق النشيطة منذ عهد جوستنيان ما بين الشرق الأقصى والبحر الأسود وبيزنطة من جهة ومابين أرض الخلافة العربية والشمال السلافي والاوروبي من جهة أخرى . ويحمل ملك الخزر لقب خاقان أما قائد الجيش فانه لقب بك أي أمير والسلطة قسمة بين الاثنين فشؤون الدين والدولة للأول لكن السلطـة الفعلية للثاني . وكان ثمة تسعة من الحكام المسلمين والنصارى واليهود والوثنيين يقضون بين أهل الحاجات .

وقد كان جوار الخزر وتعاملهم مع كل من بيزنطة والعرب وتقاطع الطرق التجارية المختلفة عبر بلادهم من أسباب انتشار الديانتين المسيحية ثم الاسلامية وبين هذا وذاك اليهودية أيضا فيما بينهم . وجاء وقت في القرن الثالث الهجري وجد فيه في ايتيل العاصمة عشرة آلاف مسلم لهم ٣١ مسجداً . وكانت الشعوب الصغيرة بينهـم وبين العرب على المسيحية مثل اللان والسرير أو على اليهودية مثل سمندر . أو علـى الاسلام مثل دربند (الداغستان) أو على المانوية الزارادشتية أحيانا . على أن خاقان الخزر خوفا من التأثر بأحد النفوذين البيزنطي أو الاسلامي

---

(١) انتهت مملكة الخزر على يد الروس سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م وفي ذلك الوقت انتشـر فيهم الاسـلام بنتيجة حروب مأمون بن محمد أمير خوارزم لهم ايضاً .

ـ على ما يظهر ـ اعتنق الديانة اليهودية مع مجموعة من رجال الطبقة الحاكمة الغنية[١] وأول الخانات المتهودين هو بولان الذي تهود سنة ٧٤٠ أي قبل الخلافة العباسية بعشر سنوات ويبدو أن هذا الخاقان هو الذي حاصر المنصور وحاربه • ثم انتشرت اليهودية بين الخزر بالتدريج حتى القرن العاشر والمسعودي يجعل بدء التهود في زمن الرشيد •

وقد قام حلف تجاري ـ سياسي قبيل قيام العباسيين بين الخزر والروم ودعمه الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس (٧٤١ـ٧٧٥) بزواجه من أميرة خزرية ثم بتحول العرش من بعده الى ابنه ليو الرابع (٧٧٥ ـ ٧٨٠) الذي لقب بالخزري نسبة لأمه • وهذا ما يفسر فيما يظهر تلك الحملات العنيفة التي قام بها مروان بن محمد الأموي أيام ولايته هناك على جبهة ارمينية والقفقاس والتي أسر فيها المسلمون حوالي عشرين ألف أهل بيت ووصلت جيوش الأمويين حتى نهر الدون • وهرب ملك الخزر ثم بعث يطلب الصلح والدخول في الاسلام فأقره مروان على

---

(١) يذكر اليهود أسباباً أخرى لتهود الخزر ذكرتها الموسوعة اليهودية العالمية منها قصة الفيلسوف موسى بن ميمون الذي يزعم أن الخاقان جمع ( بناء على تعليمات ابن ميمون لليهود ) بين شيخ المسلمين وقسيس النصارى وحبر اليهود عنده وقال انه سوف يؤمن بمن يجتمع الثلاثة على الايمان به من الرسل . فلما وجد أنهم مجمعون على الايمان بموسى قال : نؤمن إذن بموسى ! ومنها أيضا أن الخزر أسلموا فلما وجدوا أن الاسلام يحرمهم الخمر وهم لا يستطيعون تركها بسبب بلادهم أتى اليهود : ديانتنا هي مثل الاسلام ولكنا نبيح الخمر فتهود الخزر لذلك . ولعل السبب السياسي هو الأصح وهو الذي عليه المؤرخ الروسي المعاصر فرنادسكي . ومما يذكر أن يهود روسيا كافة ويهود نيويورك ونصف يهود اسرائيل هم نسل هؤلاء اليهود الخزر .

ملكه . كما قرر أنواع الهدنات والجزي والاموال السنوية على مختلف البلدان هناك [1] .

ولكن انهيار الأمويين بعد ذلك فتح المجال لحركات الخزر الانتقامية ولاسترداد الكثير مما خسروا . وقد تولى ابو جعفر (المنصور) ولاية الجزيرة واذربيجان وأرمينية لأخيه أبي العباس فلما صارت الخلافة إليه أقر أعوانه الذين كان أرسلهم من قبله إلى اذربيجان وأرمينية ولاة عليها وهما : يزيد بن حاتم المهلبي ويزيد بن أسيد السلمى . ويبدو أن المنصور لم يصرف انتباها كثيرا لهذا الثغر الواسع أول الأمر واكتفى بعملية توطين القبائل العربية التي قام بها المهلبي إذ «نقل اليمانية من البصرة إليها وكان أول من نقلهم» إلى تلك الاصقاع واعطاهم الحصون . «وانزل الرواد بن المثنى تبريز الى البذ وأنزل المر بن علي الطائي زيز وانزل ... الهمداني الميانج وفرق قبائل اليمن فلم يكن باذربيجان من نزار أحد إلا الصفر بن الليث العتبي وابن عمه البعيث بن حلبس ...» [2] .

على أن الخزر مالبثوا أن تحركوا ضد الجبهة الاسلامية . وتصاعدت هجماتهم وربما كان ذلك نتيجة احتكار المسلمين التجارة الصينية اثر الوفاق الذي قام بين المنصور وامبراطور الصين وتحول قوافل التجارة الى المرور بأراضي خراسان بدل المسير من شمال بحر الخزر . وكتب يزيد السلمي الى المنصور يكشف الأخطار المتكاثرة على الجبهة فاقترح المنصور عليه اقتراحاً تعلمه دون شك من تاريخ المنطقة فإن كسرى أنو

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧١

شروان كان قد كف عن حدوده هجمات الخزر بعملية زواج سياسي تزوج بها ابنة ملك الخزر وزوجه من فتاة زعم أنها ابنته [1] ... ثم بنى بينه وبين أرض الخزر سورا بعيد المدى عرضه ٣٠٠ ذراع وعليه أبواب الحديد يحرسها مائة فارس ! وهكذا كتب المنصور الى يزيد يقول : «إن بلاد ارمينية لا تستقيم ولا تصلح إلا بمصاهرة الخزر والرأي عندي أن تصاهر القوم حتى تستقيم البلاد وإلا فاني خايف عليك وعلى جميع عمالك من الخزر فإنهم إذا أرادوا واجتمعوا غلبوا . فانظر ولا تخالف أمرى واجتهد في مصاهرة الخزر والسلام ...» [2] .

ونفذ يزيد الاقتراح وتزوج من ابنة خاقان على صداق مائة ألف درهم . ولكنها ماتت بعد ثلاث سنوات ومات معها ابنها وهي في النفاس . ويربط ليفوند المؤرخ الأرمني مابين وفاة هذه الأميرة وبين غزوة الخزر التي ثارت بشكل عنيف قوي سنة١٤٥/٧٦٢ على بلاد الكرج وارمينية [3] ... وقد يكون ذلك صحيحاً لكن الدوافع الأقوى كانت دون شك الدوافع الاقتصادية لأن عنف الهجمة وسعتها لا تتناسبان مع موت أميرة في ولادتها أو حتى قتلها !

---

(١) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٣٢

(٢) يتوسع ابن اعثم الكوفي في كتابه الفتوح فميا يجملة البلاذري من اخبار هذه العلاقة مع الخزر . انظر ابن اعثم مخطوط الفتوح ( مكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٥٦ ) الورقة ٢٤١ حتى ٢٤٣ وجه من المجلد الثاني وهو الوحيد الباقي هناك . وهو يبدأ بذكر خروج المختار الثقفي وينتهي بآخر خلافة المعتصم .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة الخزر ( ج ٨ ص ٣٠٦ من الترجمة العربية ) .

وأقبل رأس طرخان[1] في خلق عظيم قدر عدده بأكثر من مائة ألف مقاتل • فانهزم أمامه عمال يزيد السلمى تاركين للسبي والفتن من المسلمين وأهل الذمة خلقاً كثيرا ولم يكن لدى يزيد نفسه اكثر من سبعة آلاف فارس • فاستنجد بالمنصور فأرسل إليه لحماية ما سماه «بالثغر الأعظم» عشرة آلاف مقاتل من أهل الشام ثم وجه جبريل بن يحيى البجلي ـ على ما يبدو ـ في عشرين ألفا مـن أهل الشام والجزيرة والموصل فواقعهم الخزر فقتل خلق من المسلمين وانهزم جبريل ويزيد معه حتى أتيا بلدة خرس في أرمينية بعد ان دخل الخزر تفليس ثم توالت النجدات فوصل ١٠ آلاف مع محند بن الحسن وعشرة آخرون مع حميد الطائي وعشرون ألفا من أهل الجزيرة والشام مع يزيد بن مزيد الشيباني وخمسة آلاف مع حرب بن عبد الله الراوندي من الموصل • وبهذا الشكل استطاعت الجبهة أن تتوازن رغم أن المعركة الهامة في أرض شروان لم تكن رابحة وقد انهزم المسلمون بعدها الى بلدة بردعة بعد أن قتل فيها الراوندي • ويبدو أن المعارك استمرت حتى سنة ١٤٧/٧٦٤[2] وتوقفت حدة الهجوم الخزري دون معركة فاصلة •

وانتهز المنصور المناسبة لينظم هذا «الثغر الأعظم» ويحميه • وجد

---

(١) كذلك يسمى لدى اليعقوبي ( ج ٢ ص ٣٧١ ) واسمه في المخطوط الأصلي حليس والطبري يسميه استرخان الخوارزمي ( ج ٨ ص ٧ ؛ ٣٢٨/٣ ) • وله تسمية أخرى رج طرخان (انظر دائرة المعارف الاسلامية).

(٢) يذكر ابن اعثم أن المعارك كانت سنة ١٤٥ ويذكر المؤرخون انها كانت سنة ١٤٧ وليس ثمة من تعارض بين التاريخين لإمكان استمرار الحرب أكثر من سنة واحدة . اما حرب الراوندي الذي قتل فهو الذي تنسب اليه محلة الحربية في بغداد ( الطبري ج ٨ ص ٧ ) .

أن سياسة التوطين العربي وحدها لاتكفي فأضاف إليها ما اعتاد تنظيمه في الثغور الأخرى تجاه الروم أو السند أو الترك :

١ ) بناء المدن الحصون : «أخرج سبعة آلاف من أهل السجون وبعث فجمع من كل بلد خلقا عظيماً ووجه بهم وبفعلة وبنائين فبنى مدينة كمخ ومدينة المحمدية ومدينة باب واق وعدة مدن أخرى مثل أرجيل الكبرى وأرجيل الصغرى اللتين بناهما يزيد بن أسيد السلمى • وأنزلهما أهل فلسطين ، جعلها ردءاً للمسلمين وقلاع دفاع بدلا من الساساني •

ب ) أقام نظام الأجناد في تلك الحصون ورتب فيها المقاتلةالمستقرين من أهل النجدة من العراق والجزيرة والشام وأجرى عليهم الأرزاقالتي كان بنو أميه يجرونها من قبل • وأقام بالقلاع والحصون سكاناً تقوى بهم المدن وتنمو •

حـ ) وتابع الى هذا وذاك إرسال مجموعات قبلية جديدة أسكنها في أرمينية واصطنع من الأرمن جماعات تعين العرب المسلمين وتكون عيوناً لهم وأعواناً في المنطقة •

وأضاف أبو جعفر المنصور إلى هذه التدابير توجيه العنايةالخاصة لولاية أرمينية المتاخمة للحدود •

وقد كانت هذه الولاية مأهولة بالأرمن النصارى الذين كانوا دوماً على علاقة عادية مع الروم ولهم امراؤهم الحاكمون في المنطقة ويحملون لقب بطريق ورؤساؤهم الروحيون الذين يحملون لقب كاثوليكوس • وكان ثمة أسرتان من الأمراء تتنازعان الزعامة : بغراتوني، ومامیكونيان ، وقد اصطنع مروان بن محمد ، حين كان والياً على الجزيرة وأرمينية ، الأمير آشوط من الاسرة الاولى فنصبه والياً محلياً :

بطريقاً مما آثار حسد الأمراء من الأسرة الثانيـة وأبرزهـم موشائيل وسمباط . وكان مروان يجري على الجيش الأرمني كل سنة مائة ألف دينـار[1] .

وحين انهار الحكم الأموي اتفق أمراء الماميكونيان على الثورة فلما عارضهم الأمير آشوط[2] قبضوا عليه وسملوا عينيه سنة ٧٥٠/١٣٢ هـ إنتقاما لما لقوه من النفي في عهد مروان ... ولأن أحد إخوتهم قتل على يديه ...

وطال اضطراب أرمينية بين الخوارج وبقايا الامويين وتسلط الأمراء المحليين مدة السنوات الأولى من الحكم العباسي حتى أرسل المنصور إليهم يزيد بن أسيد السلمى فصاهر الخزر ودوخ الأرمـن حتى أدوا الخراج وجبي الرسوم على النفط والملح في أرض شروان (باكو) وبني مدينتي أرحبيل ثم استدعى سنة ٧٧٠ فجاء من بعده بكار بن مسلم العقيلي مدة سنة واحدة ثم اختار المنصور الحسن بن قحطبة الطائي سنة ٧٧١ وهو

---

(١) انظر التاريخ العام للمؤرخ الإرمنـي فارطان ( مـن القرن ٣١ الميلادي ) الترجمة الفرنسية بعنوان الحكم العربي في أرمينية ( ترجمـة مويلدرمائز - باريس ١٩٢٧ ) ص ١٠٦ .

La Domination Arabe en Armenie, ( extrait de l'His. Uni. de Vardan ) par J. Muyldermans Paris, 1927 .

(٢) اشوط هذا هو جد ملوك ارمينية وجورجيا فيما بعد . واللقب الذي اخذه من مروان هو لقب Patrice بطريق وقد توفي سنة ٧٦١ (في عهد المنصور ) وابنه سمباط هو جد ملوك ارمينية بينما ابنه فاساك هو جد ملوك جورجيا .

(٣) انظر غيفوند - Ghévond - تاريخ الحروب والفتوح العربية في ارمينية ( بالفرنسية باريس سنة ١٨٥٦ ) ص ٤٨

من ابرز قواده فأرسله مع ٥٠ ألفا من أهل خراسان والشام والعراق[1].
ويبدو أن الخزر كانوا قد ارتحلوا حين وجدوا تكاثر القوى الاسلامية
فلم يجد الحسن منهم من يقاتله لكنه ماكاد يوزع حكم البلاد بين أولاده
الثلاثة : قحطبة وابراهيم ومحمد حتى فوجيء بالثورة الأرمينية عليه
ولا شك أن هذه الثورة كانت أحد ذيول الهجوم الخزري ونتيجةالفتكة
القاسية التي حطمت سمعة الحكم العربي في المنطقة وقد تكون الخزر
وراءها في التحريض والتسليح لكنا لا نملك الأدلة على ذلك . وكل
ما يمكن تأكيده هو أن عدم انتصار العرب في معركة حاسمة وثقل الخراج
وقسوة العمال الذين تذكرهم التواريخ الأرمينية بالكره . كل ذلكحرض
فيما يظهر الجماعة الأرمينية على الثورة . وتزعم الحركة أمراء أسرة
ماميكونيان في منطقة محمد بن الحسن وانضم اليهم أيضا امراء اسرة
بغرتوني والمصادر العربية تسمى الثائرين باسم الأرمن الصنارية وقد
قادهم موشائيلماميكونيان الذي أعلنالامتناع عندفعالخراج سنة٧٧١
وقتل مائتين من العمال ثم قتل في معركة أخرى أربعة آلاف ...
وانتشرت الثورة بشكل أرعب الحسن بن قحطبة وأشعره أنه «ليس لديهم
قوة .. فكتب الى أبي جعفر بخبرهم وكثرتهم» طالباً النجدات وقد زاد
في قوة الأرمن أن راهباً «خدع ــ كما يقول مؤرخ أرمني قديم ــ
موشائيل فكان يقص عليه النبوات والخرافات الكاذبة ويقول : إنأيام
اسماعيل أي العرب (المسلمين) قد انتهت ...» وأرسل المنصور على
الفور عامر بن اسماعيل الحارثي الجرجاني وعيسى بن موسى والفضل

(١) انظر البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ ؛ اليعقوبي
ج ٢ ص ٣٧٢ . وكان الارمن يسمون الوالي العربي ( اوستيكان ) .

ابن دينار ومقاتل بن صالح في حوالي ثلاثين ألفاً من المقاتلة[1] وبالرغم من أن مؤرخي الأرمن يجعلون الجيش الأرمني خمسة آلاف فقط فالذي يبدو من ضخامة الامدادات الاسلامية ، ومن أرقام القتلى الأرمن الذين بلغوا فيما يذكر اليعقوبي ، ستة عشر ألف إنسان في يوم واحد . يوم الهزيمة ، أن عدد الثائرين الأرمن كان لا يقل عن عدد الجيش الاسلامي. وقد التقى الطرفان في معركة قرب جبل آرارات سنة ٧٧٢ قادها عامر بن اسماعيل وعرفت في التاريخ الأرمني باسم معركة بغريفاند Bagrevand[2] سحقت فيها الارستقراطية الأرمنية وقتل ــ حسب الرواية الأرمنية ــ ثلاثة آلاف قتيل كان من بينهم موشائيل وسمباط ابن آشوط زعيما الاسرتين الكبريين .

وقد أخذت الثورة والهزيمة الشكل الديني لا بسبب الأفكار التنبؤية التي كانت تقودها ولما اشترك فيها من الرهبان ورجال الدين ولكن لأن النجدات التي وصلت من العراق وجدت الأسلحة مخزونة في الكنائس . وقد نجم عن ذلك نهب لمحتويات هذه الكنائس من جهة وإمعان في قمع الثوار بمختلف الانحاء من جهة أخرى يقول اليعقوبي : «... ثم انصرف (عامر) الى تفليس فقتل من كان معه من الأسرى ووجه في طلب الصنارية حيث كانوا ... » .

---

(١) هذا هو الرقم الذي يذكره قارطان في تاريخه السابق الذكر ص ١٠٨ كما يذكره في الوقت نفسه ابن اعثم الكوفي في كتابه الفتوح ج٢ ورقة ٢٤٣ وجه .

(٢) التواريخ الارمنية تعطى هذا التاريخ للمعركة التي تلت تعيين الحسن بن قحطبة سنة ٧٧١ ( سنة ١٥٤ ) لأرمينية . وفي كتاب الفتوح لابن اعثم أنها كانت سنة ١٤٨ هـ أي سنة ٧٦٥ـ٦

«ثم استقامت الأمور» على قول البلاذري وولى المنصور واضحاً مولاه على أرمينية فلم يزل عليها وعلى اذربيجان خلافة أبي جعفر كلها ! ...» ...

**ثانياً ـ قطاع الجبهة البيزنطية ( الروم )**

النزاع على هذه الجبهة قديم يرجع الى عهد الحروب الفارسية ـ اليونانية . وقد كتب الأمويون فصلا منه وورثه العباسيون الآن ليكتبوا فصولا أخرى . ولم تكن الحدود المشتركة بين البيزنطيين والدولة الاسلامية ، ولا فريضة الجهاد ضد الكفار ، أو طمع بيزنطة باسترجاع الشام . هي التي تؤرث وحدها هذا النزاع وتثيره ولكن وراء كل ذلك، منذ العهود القديمة ، عاملا اقتصادياً ناتجاً عن طمع كل من يسيطر على قسم من هذه المنطقة . بالاشراف على الطرق التجارية كلها بين الشرق والغرب . فقد كان ثمة طريقان بين الهند والصين وآسيا الوسطى من جهة وبين اوروبا الشرقية من جهة أخرى : احدهما بري يمر بايران والقفقاس . والآخر بحري في الجنوب يمر بالبصرة (وبغداد) والموصل وينفذ ، اما من الشاطيء السوري بحراً . أو عبر الاناضول براً ، الى القسطنطينية التي ظلت مركزاً للاسواق التجارية في اوروبا الشرقية ، طوال العصور الوسطى تقريباً . فلما حل المسلمون محل الامبراطورية الساسانية في السيطرة على القسم الاكبر من هذين الطريقين بالاضافة الى احتلالهم الشام ، واضحت التجارة العابرة تمر بأراضيهم وتدفع للخليفة المكوث والضرائب ، ورثوا عن آل ساسان ذلك النزاع بينهم وبين البيزنطيين ، وقد قام به الامويون مدة قرن . وكان على العباسيين حمل عبئه الآن .

على انا نلاحظ ان هدف هـذا النـزاع ، في أعين المسلمين على الاقل ، قد تغير في العهد العباسي ، عنه في العهد الاموي • فقد اضحت فكرة فتح القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطيـة الآن من قبل المسلمين ، أو استرداد الشام من قبل البيزنطيين ، مجرد حلم او رغبـة بعيدة ، لا هدفاً تحشد له القوى وتنطلق الجيوش • واذا لم يظهر هذا التغير واضحاً في عهد تأسيس الدولة العباسية والمنصور ، فانه سيتضح تدريجياً خلال العهود التالية من بني العباس : فقـد غدت الحرب مع البيزنطيين تقليداً سياسياً يرثه الخلفاء بعضهـم عن بعض ويزيلون عن كاهلهم فيه فريضة «الجهاد» المحتومة على خليفة المسلمين ضدالكفار، عدا انها تمرين للجنود على الاعمال العسكرية ، ومجـال لإشغالهم ، ولتأمين الغنائم اللازمة •

وربما كان السبب في هذا التغير فشل محاولات الامويين الثلاث في فتح القسطنطينية ، وبعد العاصمة الجديـدة عن الخطر البيزنطي ، واهتمام العباسيين بالبر القاري ، والمناطق الشرقية ، واهمالهـم البحر المتوسط والغرب ، بينمـا لايفتح القسطنطينية الا من يمتلك القوتين البرية والبحرية معاً •

وهكذا اخذت حروب العباسيين مع الروم ، شكل غزوات منظمة فصلية : منها الصوائف ومنها الشواتي ، كما تنظمت مناطـق الحرب فامتـدت بين ملطيـة عند منـابع الفرات وطرسوس ، بشمال خليج الاسكندرونة في سلسلة من الحصون سميت بالثغور ،وانقسمت قسمين: ثغور الجزيرة في الشمال الشرقي للشام ، وثغـور الشـام في الشمال الغربي ، وعرفت منطقة الحدود كلها باسم «العواصم» لان المسلمين كانوا يعتصمون بها • وكان ملك الثغور والعواصم الامامية يتنقل فترة بعد

اخرى ، بين يدي الروم والمسلمين ، فيتموج ، تبعاً لذلك ، خط الحدود بينهما تموجاً مطرداً .

وواضح ان مثل هذا التنظيم الثابت ليس الغرض منه الهجوم والنفوذ الي ما وراءه . واذا لم نكن نستطيع وصف اعمال العباسيين الاوائل على الجبهة البيزنطية بأنها أعمال دفاعية ـ كما يصفها بعض الكتاب ـ بسبب قوة العباسيين ، واذا كان غرضها ـ على ما يظهر منها ـ تأمين الحدود والسيطرة عليها ، فمن الواضح ان الحروب في العصور العباسية التالية كانت كذلك .

كان التاج الامبراطوري في بيزنطة قد انتقل منذ سنة ٧١٧ الى الاسرة الإيسورية اللايقونية . وقد عاصر فترة الانتقال العنيفة بين الامويين والعباسيين من تلك الأسرة ، الامبراطور قسطنطين الخامس . (٧٤١ ـ ٧٧٥) ولكن مشاغله الداخلية في توطيد اللايقونية ، والخطر البلغاري على حدوده . منعاه من ان يستفيد كثيراً من الاضطراب الداخلي في المملكة الاسلامية . ومع هذا فقد استغل انشغال مروان بن محمد عنه ، وعن الاهتمام بالبحر خاصة ، فاستولى على جزيرة قبرص سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) واستطاع الامبراطور في السنة الثانية من الخلافة العباسية أن يتخطى غزوة محدودة من غزوات الصائفة يذكر الطبري أنها قامت بقيادة سعيد بن عبد الله وراء الدروب[1] ، (سنة ١٣٣ ، ٧٥٠ م) وان يفتح ملطية . أهم حصون الحدود ، ويخربها ، كما فتح قواده الارمن (بولي) و (كوش) عدداً من الحصون الاخرى ، ونقلوا سكانها الى

---

(١) الطبري ـ حوادث سنة ١٣٣ ج٧ ص٤٦٠.(٧٤/٣)

بيزنطة ، ووصلوا الى ارضروم بفتحهم وتخريبهم واجلائهم السكان الى داخل الاراضي الرومية • وبالرغم من مشاغل أبي العباس الداخلية فقد اضطر أن يأمر عمه عبد الله بن علي بالمسير ضد الروم • وتجهز الجيش وكان عبد الله في (دلوك) شمال حلب في الطريق الى القتال حين وصله نبأ وفاة أبي العباس واستخلاف المنصور • فأعلن الثورة ثم خسرها • ولكن مشروع القتال ضد الروم ألقي بذلك على المنصور الذي أخذ على عاتقه حماية هذه الحدود • ويظهر لنا اهتمامه البالغ بها في سلسلة من الأعمال: فقد أطلق جيوشه بقيادة عمه صالح بن علي سنة ١٣٨ فكانت أول غزوة ضد الروم منذ غزوة الغمر بن يزيد سنة ١٢٥[1] وكان مع الصائفة عمتان من عمات المنصور وفاء لنذر نذره بالجهاد إن زال الأمويون • فقد استرجع المسلمون ملطية أولا سنة ١٣٩ هـ (سنة ٧٥٧م) وجمع صالح بن علي لها الصناع من كل بلد لبناء سورها ، فتم ذلك في ستة أشهر • وأنزل فيها المقاتلة وأقطعهم المزارع • ويبدو أن القصد من كل ذلك لم يكن الهجوم ولكن الدفاع وإزالة آثار حملة الامبراطور سنة ١٣٣ فقد تم في تلك السنة ١٣٩ اول فداء بين الروم والمنصور استنقذ فيه اسرى المسلمين • غير أن الجبهة لم تهدأ بعد ذلك[2] على ما يظهر ولعل أهم أحداثها أن المنصور استغل انشغال قسطنطين الخامس بحرب البلغار ، فدحر قائده الارمني (بول) وقتله وأسر العرب اثنين واربعين

---

(١) انظر اليعقوبي ـ تاريخ ج٢ ص٩٩ ، ١٢٤

(٢) يذكر البلاذري ( فتوح ص ١٩٥ ـ ٩٦ و ص٢٠٧ ) غزوة صائفة سنة ١٤٠ قادها الحسن بن قحطبة ومعه عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ( ابن اخي المنصور ) كما يذكر اليعقوبي ( ج١ ص١٢٤ ) غزوتين للصائفة في سنتي ١٤٢ و١٤٣ قادهما العباس بن محمد وغزوة ثالثة قادها حميد بن قحطبة سنة ١٤٥ .

من قواده سنة ١٤٢/٧٦٠ م فلم يجر فداؤهم حتى سنة ٧٦٦ م وحصنوا سميساط بعد ان نقلوا اهلها الى فلسطين ، لانهم كانوا يتآمرون مع البيزنطيين • وفعلوا مثل ذلك بمرعش وأهلها سنة٧٦٩ • وكان ذلك ضمن خطة سياسية عسكرية منظمة أراد بها المسلمون تأمين الثغور البرية والبحرية على السواء على الحدود مع الروم •• وهكذا ـ كما يذكر البلاذري ـ «تتبع المنصور حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج الى البناء منها» • وفعل مثل ذلك بمدن الثغور ومنها المصيصة التي بنى سورها بعد أن شعثته الزلازل وأقيم فيها مسجدجامع وأعيد اسكان أهلها وسميت بالمعمورة سنة١٤٠ • وتوج المنصور عمله على ما يظهر سنة ١٥٥ هـ ٧٧٣ م ببناء مدينة الرافقة على الفرات • شيدها على طراز بغداد ورتب فيها الجند من الخراسانية ، لتكون مركزه العسكري الخلفي ونقطة التجمع والانطلاق ، كلما غزا الحدود • وقد اجتمع سكان المكان على المنصور يحتجون قائلين : «تعطل علينا اسواقنا وتذهب بمعايشنا وتضيق منازلنا (الطبري) ولكنه أصغى ، عوضاً عنهم ، الى الضرورات الاستراتيجية •

ويبدو أن المنصور بعد أن اهتم بالغزوات ذات الصبغة الدفاعية وبتحصين الثغور في الفترة الأولى من علاقاته مع الروم تحول بعد سنة١٥٢ الى سياسة الهجوم • فأول عملية هجومية واسعة تتحدث عنها المصادر إنما كانت سنة ١٥٣/٧٧٠ حين غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجوري «••• فسار الى حصن للروم ليلا وأهله نيام فسبى وأسر من كان فيه من المقاتلة ثم صار الى اللاذقية المحترقة (وهي مدينة في الأناضول) ففتحها وسبى منها ستة آلاف رأس من السبي سوى الرجال البالغين [١] ••• » •

(١) الطبري ج٨ ص ٤٣ (٣/٣٨١) •

ورأى امبراطور بيزنطة تحول العرب الى الهجوم ، بعد تحصينهم للحدود ، وهو مشغول بحرب شديدة قاسية مع ملك البلغار تيلتزثم خلفه تيليريغ ، فقدم سنة ١٥٥/٧٧٢ مقترحات للسلم . ولكن المنصوررفضها وأرسل سنة ٧٧٥ حملة بريةوبحرية علىبلدة سيس توافق ظفرهامعمقتل الامبراطور البيزنطي تلك السنة وتولي ابنه ليو الرابع بدلا منه (٧٧٥ ـ ٧٨٠) ومع وفاة المنصور نفسه وتولي ابنه المهدي ! الذي تسلم مع الخلافة وصية ابيه التي يقول فيها : «.. وليكن أهم أمورك إليك أن تحفظ أطرافك وتسد ثغورك ... وارغب إلى الله في الجهاد والمحاماةعن دينك واهلاك عدوك ..» .

ويظهر ان البيزنطيين لم يكونوا يكتفون بالنضال العسكري على الحدود ، بل كانوا يمدون يد الدسائس والمساعدة الى نصارى جبل لبنان ، ويغزون الساحل السوري لتقويتهم ، فقد دخل الروم طرابلس مرة زمن المنصور . وظهر ـ كما رأينا من قبل ـ رجل من أهل المنيطرة سنة ٢ ـ ١٥٣ هـ هو (بندار) و«سمى نفسه الملك . ولبس التاج وأظهر الصليب واجتمع إليه انباط جبل لبنان واستفحل أمره» كما يقول ابن عساكر فلما انهزم فر إلى ملك الروم ... وتلا هربه إجلاء ، بعض أهل لبنان .

### ٣ ـ جبهة الغرب :

وهي بدورها كذلك قطاعان : إحدهما في الاندلس والآخر في أوروبا الغربية مع الفرنجة ، ولا بد كي يفهم القطاعان من دراسةالوضع السياسي في افريقية والمغرب .

فقد حكمت علاقة العباسيين الأوائل بالجناح الغربي البعيد من بلاد الاسلام ، العوامل الجغرافية بالدرجة الأولى • فإن المساحات الشاسعة مع كثرة الثورات والمخاطر في المشرق وعدم وجود أي ركيزة للأسرة العباسية الجديدة فيما بين افريقيا الى الاندلس لعدم اهتمام الدعاة العباسيين بغير خراسان ، كل ذلك جعل من تلك الأقاليم الممتدة فيما وراء ليبيا مناطق متروكة لمصيرها سواء أثناء الثورة والصراع مع الأمويين أم أثناء العمل على توطيد الدولة وإخماد الثورات العديدة • وسرعان ما كلف ذلك كله العباسيين غالياً إذ تراجعت حدود دولتهم عن كافة تلك الأقاليم وإذا كانوا قد استطاعوا استعادة افريقيا من الخوارج بالقوة وبسبب من تناحر الجماعات الخارجية نفسها فإنهم كادوا يفقدون أيضاً منطقة المغرب في وقت مبكر جداً على يد بني حبيب الفهري لولا تناحر هؤلاء أيضاً فيما بينهم أما الاندلس فمع أنها تأخرت في الانفصال عن العباسيين بضع سنوات إلا انها حين انفصلت كان انفصالها نهائياً •

وإذا كان ابو جعفر المنصور قد نجح بعد أبي العباس في كافة الأمور التي باشرها لتوطيد الدولة وتنظيمها وإقامتها بالسياسة والقوة والتنظيم : فأخمد كافة الثورات عليه ، وقتل كافة أعدائه • ووطد النفوذ العباسي من أقصى التركستان حتى اليمن ومصر وبرقة ثم انتصر في افريقيا إلا إنه خسر المعركة مع الفهريين في المغرب ولم يربح المنطقة إلا حين تناحروا وكان ربحاً مؤقتاً مع ذلك • كما خسر الجولات التي قاوم بها انفصال الاندلس ومن هنا في الواقع تنكشف الأسس الأولى لسياسته في الغرب •

**أولا :** فأما **المغرب** فقد كانت ثورات الخوارج والبربر في افريقيا تعزله

وتعزل الأندلس معه عن المشرق كما أن أيام أبي جعفر التي كانت ــ كما قال ابن طباطبا الطقطقي « ... ذات فتوق وأحداث» حتى إنه «لم يشرب ريقاً حلواً من ذلك ...»[1] لم تسمح لأبي جعفر بالانصراف بكليته الى امور المغرب والأندلس وبهذا الشكل كان مصير هذا الجناح من العالم الاسلامي مرتبطاً بصراع القوى الداخلية فيه .

وقد كانت أسرة الفهري وهي سلالة عقبة بن نافع هي الأسرة البارزة في أواخر العهد الأموي ، في تلك البقاع . زعيمها عبد الرحمن ابن حبيب كان بين أولئك الزعماء الذين كانوا ثاروا في الأندلس وثارت بهم في حركة البربر سنة ١٢٢/٧٤٠ بينما كان الخوارج في الوقت نفسه ثائرين في افريقية فلما أخمدهم فيها حنظلة بن صفوان طلب إليه أهل الاندلس أن يرسل إليهم والياً ينشر السلام هناك . فأرسل أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي[2] سنة١٢٥ وقد نجح الحسام بفضل عصبيته الشامية وسنه في اعادة سلطان الخلافة الأموية الى الأندلس . وأخرج منها إلى افريقيا عدداً من زعماء الفتن من بينهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي استقر في تونس . فلما اضطرب أمر الخلافة الأموية في الشام بين سنة ١٢٥و١٢٧ بمقاتل الخلفاء وخلعهم انتهز ابن حبيب الفرصة وأخرج والي المغرب حنظلة بن صفوان نفسه من القيروان سنة١٢٧ وبدأ العمل ليكون المغرب مملكة له ولبنيه ... ولكن نجاح عبد الرحمن مع اضطراب أمر بني امية في المشرق سمح لكثير من الطامعين بتقليده والانفراد

(١) ابن طباطبا ــ الفخري ( طبعة صادر بيروت ١٩٦٦ ) ص ١٦٧ و ص ٣٠ .
(٢) انظر أخبار مجموعة للمؤلف المجهول ص ٤٥ .

بحكم ما تحت أيديهم • وقامت الثـورات في تونس وطرابلس وباجه وأوراس • من العرب والبربر ومن الخوارج وأهل الجماعةعلى السواء• على أن أخطر الجماعات وأشدهـا كانت الخوارج (الاباضيـة خاصة والصفرية) • وقد اصطدم عبد الرحمن بن حبيب بالإباضية في طرابلس وخاصة سنة ١٣١ـ١٣٢ وانتصر عليهم وعاد الى القيروان ويبدو أنه في تلك الفترة أنفذ ، بناء على طلب أهل الأندلس ، قريبه (أو ابنه) يوسف بن عبد الرحمن الفهري والياً عليها من قبله باسم بني أمية ، كما أنه غزا عبر البحر جزر صقلية وسردينية وأخذ منهما الجزية سنة١٣٥ هـ بينما كان المغرب الأوسط والأقصى بيد الخوارج الصفرية •

أما أحداث المشرق وانقلاب الخلافة إلى العباسيين فلم يكن لهـا إلا أضعف الأثر على عبد الرحمن بن حبيب الذي اعترف اسمياً بخلافة أبي العباس أول الامر ثم ما لبث أن تنكر الطرفان أحدهما للآخر وكان العباسيون يعدون حملة بحرية برية في الاسكندرية ضد المغرب حين توفي أبو العباس سنة ١٣٦ فانفض أمر الحملة بسبب ثورة عبد الله بن علي ضد ابن أخيه أبي جعفر •

وأجاب عبد الرحمن على هذا التنكر العباسي باصطناع الأمـراء الامويين الهاربين بدمائهم الى المغرب واستقبالهم وانزالهم المنزل الحسن والزواج منهم التماساً لنوع من الشرعية في الحكم فلما أنس منهم بدورهم العمل على الوصول الى الحكم فتك بهم[1] ( قتل ولدي الوليد بن يزيد

---

(١) انظر ابن عذارى ـ البيان المغرب ج١ ص٦١ : ابن الأثـير حوادث سنة ١٢٦ .

كما كاد يقتل عبد الرحمن بن معاوية الداخل لولا هربه ) وعاد في سبيل دعم حكمه بالشرعية فاتصل بأبي جعفر ( المنصور ) وبايعه • فلما حاول أبو جعفر ممارسة نوع من السلطة على عبد الرحمن وكاتبه أخذ منه البيعة الشكلية فلما طالبه أبو جعفر بالأموال . وكان يدقق في جمعها من الولاة : كانت القطيعة لان عبد الرحمن كتب اليه يقول : « ان افريقيا قد أصبحت اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبي منها ••• » . فلما تهدده أبو جعفر قرر القطيعة مع العباسيين وترجم عبد الرحمن موقفه الحاد في خطبة الجمعة إذ صعد المنبر فقال : « ••• اني ظننت أن هذا الخائن ( المنصور ) يدعو الى الحق ويقوم به حتى تبين لي خلاف ما بعثته عليه من إقامة العدل • واني الآن قد خلعته كما نعلي هذا ••• » •

كان ذلك سنة ١٣٧ أي في السنة التي انتقل فيها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ( الداخل ) تحت إلحاح أقاربه خفية الى الاندلس •

ولم يمكث عبد الرحمن بن حبيب في الإمارة بعد ذلك سوى أشهر معدودة إذ قتل في أواخر سنة ١٣٧ هـ • بيد أخيه ومساعده الاساسي الياس بن حبيب ويبدو أن الذي صرعه هو تفكيره في إقامة ملك خاص له في الاندلس والمغرب وفي جعل ابن حبيب ولياً لعهده • ويبدو أن شقيقه الياس ، وكان ينزل منه منزلة ابي جعفر من أبي العباس ، أراد أن يكون له العهد بعد أخيه على سنة أبي العباس فلما رأى الامور تسير الى ابن أخيه حبيب فتك بعبد الرحمن ••• ويبدو كذلك أن الدسائس الاموية والعباسية معاً قد اجتمعت على التفرقة بين الأخوين • فبينما كانت امرأة إلياس ، الاميرة الاموية ( بنت الوليد بن يزيد التي قتل عبد الرحمن أخويها ) تحرض زوجها كان زعماء المؤامرة متفقين على البيعة لأبي جعفر في المشرق !

ولكن نجاح الشطر الاول من المؤامرة وهوالتخلص من عبدالرحمن لم يتبعه نجاح الشطر الثاني إذ قام حبيب بن عبد الرحمن ليثأر لأبيه من عمه الياس وسرعان ما انهار الفهريون بعد ذلك في المعارك الاهلية التي قامت بينهم كما حطمهم في الوقت نفسه اصطدامهم بالخوارج الذين عاودوا الثورة في افريقيا والمغرب من جهة أخرى •

وإذا انتصر حبيب على عمه إلياس وحمل رأسه ورؤوس أتباعه على الرماح وهم وجوه العرب في الاقليم كله ودخل بها القيروان سنة ١٣٧ فان الأمر لم يدم له هناك أكثر من عام لأنه قتل بدوره سنة ١٣٨ ( مطلع ٧٥٥ ) على يد أنصار الياس والخوارج المتحالفين معهم ••

ودخل المغرب كله إثر ذلك في دوامة الثورات التي عرف فيها الخوارج عصرهم الذهبي إذ انفردوا بالسيطرة على تلك البقاع مابين سنتي ١٤٠ ــ ١٥٥ وكانت حدود خلافة ابي جعفر المنصور في هذه الفترة لا تجاوز عملياً حدود مصر الغربية في منطقة برقة • وإن ظل يحاول دون انقطا عمد نفوذه وراءها • حاول ذلك خمس مرات ، قبل أن ينجح في الأخيرة :

ــ سنة ١٤٢ بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلي ( الذي انهزم في سرت) ثم ابي الاحوص عمر بن الاحوص العجلى ، وقد انهزم الاثنان في منطقة سرت الواحد بعد الآخر أمام الخوارج من جماعة أبي الخطاب المعافري الإباضي •

ــ وسنة ١٤٣ بقيادة محمد بن الاشعث الخزاعي الذي سقط صريع النزاع القبلي سنة ١٤٨ رغم نجاحه في الولاية •

ـ وسنة ١٤٩ بقيادة الاغلب بن سالم التميمي (جدالأغالبة) الذي صرع في نزاع مع جنده سنة ١٥٠

ـ وسنة ١٥١ بقيادة عمر بن حفص العتكي المهلبي (هزار مرد) الذي قتل سنة ١٥٤

ـ وسنة ١٥٥ بقيادة يزيد بن حاتم بن قبيصة الذي أقر النفوذ العباسي في افريقيا والمغرب حتى سنة ١٧٠ •

ومع أن المنصور نجح أخيرا ولكن هذا النفوذ لم يكن بذي جذور في المنطقة فسرعان ما تحول إلى علاقة واهية ما لبثت أن انقطعت بين بغداد وبين الأسر التي تسلطت على افريقية والمغرب بعد ذلك •

**ثانيا : اما الاندلس** : فلم يكن انقطاعه عن الدولة الاسلامية الموحدة فجائياً إثر سقوط الامويين في المشرق ولكنه تم بالتدريج خلال سنوات، فحين تهاوت الدولة الاموية في المشرق كانت الاندلس تحت حكم يوسف الفهري واليها القيسي • وكان أمره بيدي الصميل بن حاتم المولى الاموي ؛ الكريم الداهية الذي كان قد بدأ التصرف في الحكم منذ أيام الوالي السابق ثوابة بن سلامة اليماني سنة ١٢٧ وقد توفي ثوابة فعمل الصميل على وصول يوسف بن عبد الرحمن الفهري للولاية ، ومكن للقيسيين أ نيحكموا الاندلس ، مع أنهم أقل كثيراً من اليمنيين ما بين سنتي ١٢٨ ـ ١٣٨ هـ •

خلال هذه الفترة كان العباسيون قد أخذوا الخلافة في المشرق ولكن الاندلس . لم تأبه كثيراً أو لم تتأثر كثيراً لأحداث المشرق كما أن الحكام الجدد هناك لم يعيروها أي التفات واكتفوا بذكر اسم

الخليفة العباسي في خطبة الجمعة وقد مرت عليها في هذه الفترة سنوات عجاف ، من المحل المتصل • وسنوات من النزاع الدموي دمر فيه القيسيون زعماء اليمنيين في المعارك حتى لقد قتل الصميل صبراً من زعمائهم الأسرى حوالي السبعين أمام المسجد الجامع في قرطبة [1]•••

ولم تكن هاتان العصبيتان وحدهما في الاندلس فقد كان بجانبهما عصبيتان أخريان الاولى : عصبية البربر الذين كانوا في الغالب أحلافاً لليمانية وعصبية الموالي ، موالي الامويين وكانوا يقفون بجانب القيسية بزعامة الصميل • وهم يكونون كتلة الجند الاموي •

وقد حاولت القوى المناوئه للفهري أن تتحرك في الاندلس في ثورة قادها الحباب بن رواحة الزهري سنة ١٣٦ وأيدته فيها اليمانية كما أيده فيها ثائر آخر هو عامر بن عمرو العبدري قائد الجهاد ضد الاسبان واتفق الجميع على الدعوة للعباسيين وحاصروا الصميل في سرقسطة مركز ولايته •• ولم تكن الحركة عباسية ولكنها إنما اتخذت هذا الشعار كيداً بالوالي يوسف الفهري وصاحبه ••

وفي هذه الفترة كان عبد الرحمن بن معاوية ( الداخل ) يبث رسائله ودعاته لموالي الامويين في الاندلس ، من الجند • وقد أعان هؤلاء الصميل على فك الحصار عنه وظلوا يفاوضونه سنة كاملة لعله يرضى بمديد العون لعبد الرحمن بن معاوية ••• **ولكن الصميل وجد** في وصول هذا الامير الاموي الى الاندلس ما يهدد نفوذه فأنذر الدعاة

---

(١) انظر أخبار مجموعة للمؤلف المجهول ص ٥٩ وابن الاثير ٥/٣٧٥ .

أن أول سيف سوف يشهر ضد عبد الرحمن إن نزل أرض الانــدلس سيـكون سيفه !...

واضطر الوالي للتوجه الى الحزب الآخر ، اليماني « الذين وغرت صــدورهم يتمنون شيئا يجدون به ســبيلا الــى طلب ثأرهم مــن القيسية ...[1] » وهكذا استدعى عبد الرحمن الى الاندلس فنزلهــا في ميناء صغير بين المرية ومالقة في ربيــع الاول سنة ١٣٨ / ١٤ آب ( اغسـطس ) سنة ٧٥٥[2] وبعد تسعة اشهر ( في ذي الحجة ) أي في نهاية العام نفسه أنهى عبد الرحمن الداخل حكم يوسف الفهري في الاندلس ، في معركة المصارة وهزم الفهري والصميل تاركين في الميدان ولديهما بين القتلى الكثيرين . وكانت كتلة جيشه من اليمانية وموالي الامويين ... وبعض المنشقين على الفهري من القيسيين أيضاً .

ودخل عبد الرحمن قرطبة وتلقى البيعة في جامعها كأمير للاندلس ولكن الدعاء بقي للخليفة ابي جعفر عشرة أشهر أيضا بعد ذلك . ولم ينفع القيسيين والفهري والصميل ثورة حاولوا بها احتلال قرطبة فقــد حاصرهم عبــد الرحمن واضطرهم للاستسلام . وتم توقيع الصلح في كتاب حضره زعماء الامويين والقيسيين وقاضي قرطبة وزعماء الجندفي ٢ ربيع الاول سنة ١٣٩ / ٤ آب سنة ٧٥٦ أي بعد سنة واحدة من نزول عبد الرحمن بأرض الاندلس ... أما قطع الخطبة لابي جعفر فقد تريث به عبد الرحمن حتى هدده بعض أعضاء الاسرة الامويــة بالانتحار إن

---

(١) المصدر السابــق ص ٧٤ .
(٢) انظر ابن الابار الحلة السيراء ( طبع مؤنس ) ج ١ ص ٣٥ .

لم يفعل[1] ولعله كان يتردد امام إمكان اقتطاع قسم من العالم الاسلامي وشق أرض الخلافة إلى قسمين ••• فان ذلك كان يجري لاول مرة في تاريخ الاسلام •

ولم يستطع ابو جعفر ـ وافريقية مع المغرب خارج يده وليس تحت يده اسطول بحري ـ أن يصل بيده الاندلس • ولقد علم بقطع عبدالرحمن الداخل لخطبته ولكنه لم يحرك ساكناً، في انتظار القيام بتدبير ناجع ضده • فما ان انتهى من ثورة محمد ذي النفس الزكية سنة ١٤٦ وتلقب بالمنصور حتى وجد الفرصة السانحة في ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي • وكان أحد وجوه مدينة باجه وقد تبعه في ثورته خلق كثير شكلوا خطراً كبيراً على عبد الرحمن الداخل بعد سبع سنوات من الحكم ويبدو أن العلاء كان على اتصال بمحمد بن الاشعث والى المنصور على افريقيا كما أخذ منه الاموال والوعد بالولاية واللواء الاسود الذي رفعه ••• ويقول ابن القوطية إن المنصور كتب إليه : « إن كان فيك محمل لمناهضة عبد الرحمن وإلا فابعث من يعينك[2] » •

وقد حاصر عبد الرحمن الثائرين في حصن منيع ( حصن قرمونة ) فامتنع عليه شهرين وأدرك أن المعركة معركة مصير فجمع ٧٠٠ من جنده المخلصين ثم أوقد ناراً عظيمة عند باب الحصن فألقى الجميع بجفان سيوفهم وهاجموا جند العلاء في حركة مباغتة أربكتهم فانهزموا •••

---

(١) انظر المقري ـ نفح الطيب ، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩ ، ج١ ص٥٩ .

(٢) ابن القوطية ـ تاريخ افتتاح الاندلس ( طبعة بيروت ١٩٥٨ المصورة عن مجريط ١٨٦٨ ، ص ٥٧ .

ودارت الدائرة عليهم وكثر القتلى حتى ليذكر أحد المؤرخين أنهم كانوا سبعة آلاف كان من بينهم العلاء نفسه[١] .

ويقول المؤرخون ان عبد الرحمن اختار عددا من الرؤوس فجعل في كل رأس رقعة باسم صاحبه ووضعها في جواليق ومعها اللواء الاسود وسجل المنصور للعلاء . ثم دس من رماها في سوق القيروان ..[٢]وقيل إن بعض الرؤوس رميت في مكة أثناء حج المنصور ...

وكانت هذه هي المحاولة الاولى والاخيرة لاسترداد الاندلس من قبل العباسيين الذين لم ينالوا منها إلا الذكر بالاسم على المنابر فترة قصيرة عابرة . وهذا الموقف الجغرافي ـ التاريخي معاً هو الذي يفسر علاقة العباسيين بالفرنجة .

**ثالثا : الفرنجة** : ففي غرب أوروبا كانت تقوم دولة الكارولنجيين، الدولة التي كان أسسها على أنقاض الحكم الميروفنجي : شارل مارتل صاحب معركة بلاط الشهداء . وكان عداؤها للحكم الاسلامي الاموي في الاندلس متصلا بجذرين أحدهما ديني والآخر دفاعي ضد الغزوات الاسلامية لجنوب فرنسا ولم يكن ممكناً أن تقوم بينها وبين الدولة الاموية إلا علاقات العداء رغم الصلات التجارية المتصلة ما بين الثغور الاسلامية والموانيء في جنوب فرنسا خاصة . فما إن قامت الدولة العباسية وتبين الكارولنجيون انقسام البلاد الاسلامية وإمكان الاستفادة

---

(٣) لسان الدين بن الخطيب ـ اعمال الاعلام ( طبعة بروفنسال ـ بيروت ) ج١ ص ٩ .

(٤) ابن عذاري ـ البيان المغرب ج٢ ص ٧٩ . المؤلف المجهول ـ اخبار مجموعة ص ١٠٣ ـ وانظر ابن القوطية ـ افتتاح ص ٥٧ .

من عداء المنصور لعبد الرحمن الداخل المتسلط على الاندلس حتى بادروا لاستغلال الفرصة في محاولة للتخفيف من ضغط هذا الوالي الطامح على الاراضي الفرنجية واراضي مملكة ليون المسيحية في شمال اسبانيا ولعل للتجار اليهود المعروفين بالرادانية والذين كانوا يترددون بين الموانيء الاسلامية والفرنجية يداً في نسج تلك الصلات الواهية بين خلافة المشرق والفرنجة • فقد نفض المنصور يده من الاندلس بعد فشل صاحبه اليحصبي ولعله رضي بعد ذلك باستخدام الضغط السياسي الخارجي ضد صاحبه عبدالرحمن الذي كان يعجب به ويسميه صقر قريش بقدرما كان يحتقد لانه سجل هزيمة المنصور الوحيدة في تاريخه السياسي • وتذكر بعض المصادر اخباراً . لا نعرف مدى دقتها ، عن علاقات اتصلت بين ملك الفرنجة ( بيبين ) القصير رأس الاسرة الكارولنجية والمنصور • فيذكرون ان الملك الفرنجي بعث سنة ٧٦٥ ( سنة ١٤٧ هـ ) بوفد الى الخليفة العباسي . أعاده المنصور مصحوبا بسفراء من عنده ، وبهدايا نفيسة • فوصلت بلاد الفرنجة بعد سنوات ثلاث • ومر الوفد العباسي في البحر الى مرسيلية ثم قضى الشتاء في متز باللورين • وأقام في قصر سلس بضفاف اللوار . ثم عادوا الى الشرق ، في البحر عن طريق مرسيلية ويعلق المؤرخ ميور على هذه الوفود والمفاوضات بانها لم تؤد الى شيء، سوى ما ولدته في نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده • وبذلك لم يحاول اظهار عدائه الحربي للخليفة العباسي• ولعل الأصح ان ينظر لهذه العلاقات على وجه آخر • فعبد الرحمن لم يكن في حالة تمكنه من الهجوم الحربي على العباسيين • ونظرة الى مواقع الدول الكبرى حول البحر المتوسط في ذلك الحين ( دولتي المسلمين : العباسية والاموية في شرق وجنوب وغرب البحر الابيض المتوسط . ودولتي المسيحيين : في شماله الشرقي وشماله الغربي )

تفسر لنا سر ذلك التعاطف بين الفرنجة والمنصور ، الذي كان يقابله تعاطف مماثل بين أمراء الاندلس وأباطرة بيزنطة . يقول رينو : « وبينما كان ملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين باتوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر ، كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيين الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمي الاندلس » . ذلك ان مصلحة العباسيين اتفقت ، بالتقابل والعمل المتبادل ، مع مصالح الفرنجة . فأصحاب الاندلس هم أعداء الفرنجة الاقربون واعداء العباسيين الاقربين ، ومنافسي الفرنجة الابعدين . واذا تذكرنا تلك المنافسة القوية التي قامت بين قسطنطين الخامس وبين ( بيبين ) للفوز بالسلطة السياسية في العالم المسيحي ، والتي كسبها بيبين في النهاية ، إذ جر البابا الى جانبه ، فباركه وبارك عمله ، بينما انتهت الكنيسة البيزنطية ، أثر ذلك ، الى الانفصال عن الكرسي البابوي ، وانتهى النفوذ البيزنطي الى الزوال عن ايطاليا ، اذا تذكرنا ذلك اتضحت لنا أسرار تلك المفاوضات العباسية ـ الفرنجية وما دار فيها من أمور .

ومن الضروري أن يضاف هنا أن العباسيين ربما انساقوا الى هذه العلاقة مع الفرنجة بالدافع الاقتصادي في محاولة لعقد الصلات التجارية المباشرة : بين الموانىء العربية الاسلامية في مصر وافريقيا وبين جنوب فرنسا دون وساطة البيزنطيين ... إن طبيعة تلك الصلات القائمة على الوفود والهدايا توحي بذلك لا سيما إن تذكرنا أن أعضاء هذه الوفود كانوا شخصيات مغمورة لا تتناسب مع كبر المهمة السياسية التي تعطى لهم . ولعلهم كانوا هم أنفسهم من التجار الذين يتمسحون بالقوى الحاكمة في البلدين لادعاء القيمة والاستفادة من السمعة والحماية .

ولعل المهم في هذا كله ان المنصور بتقربه من الفرنجة وضع تقليداً

سياسياً هاماً سار عليه الخلفاء من بعده ولاسيما في عهده حفيده الرشيد.

* * *

عند نهاية هذا العهد ، عهد المنصور والتأسيس كانت دولة بني العباس قد ثبتت أقدامها على أرض المملكة الاسلامية فأزالت الطامعين بالعرش ، وأخمدت الحركات الشاذة ، وبنت لنفسها عاصمة ، ووضعت نظاما للادارة كما رسمت حدودها الخاصة وحمت تلك الحدود ، ومهدت السبيل بذلك كله لعصر الاستقرار المقبل .



# الفصل الثامن

## عصر الرشيد والاستقرار - الخلفاء

( ١٥٨ ــ ٢١٨ / ٧٧٥ ــ ٨٣٣ )

دام هذا العصر ستين سنة كانت فترة الأوج ، لا في الخلافة العباسية فحسب ، ولكن في التاريخ الاسلامي كله . فقد كانت دولة بني العباس الدولة الكبرى والاولى في العالم من الوجهة السياسية . تنتشر على أطرافها الدول الاخرى : فدول صغرى هندية فيما وراء حوض السند ، وامبراطورية الصين المصابة بالفوضى والحروب الاهلية ، تحت أسرة تانغ في الشرق الاقصى . وخانات الخزر في شمالي قزوين . والامبراطورية البيزنطية بعدهم على العدوة بين آسيا واوروبا . ثم تأتي في غرب أوروبا بين المانيا وايطاليا وفرنسا امبراطورية شارلمان . ثم امارة الاندلس الاموية . وفي الجنوب مملكة الحبش بينما دولة الخليفة في قلب هذا العالم كله .

وأما من الناحيةالاجتماعية فقد اختلطت عناصر الدولة بعضهابيعض فظهرت الألوان المتباينة من النزعات الاجتماعية ، التي تجمع في صعيد

واحد ، منتهى الجد الى متطرف اللهو ، والتقي الزهد الى أبشع الزندقة، وأبلغ التعصب مع أجمل التسامح ، وأعظم الغنى والبذخ إلى أشأم الفقر والاملاق ، ولعل وجود التطرف في جانب من الحياة كان شرطاً ونتيجة ، في وقت واحد ، للتطرف في الجانب الآخر • وهذا من صفات العصور الممتلئة الخصبة •

وتكوّن الفكر الاسلامي واكتملت أسباب نضجه في هذا العصر بنتيجة تمازج الثقافات ، وترجمتها جميعاً الى لغة واحدة • واذا كان من الانقلابات الهامة أن تصبح اللغة العربية لغة العلم ، بجانب كونها لغة الدين ، والسياسة والتجارة والأدب ، فانه لمما يستلفت النظر أيضاً أن تمتلىء هذه الفترة بشخصيات ما اجتمعت ، في كثرتها وتنوع نبوغها ، في عصر إسلامي آخر : فالفقه الاسلامي وضعه في ذلك الحين الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل • وفي القضاء ظهر أبو يوسف والشيباني وفي اللغة الاصمعي والفراء والكسائي والخليل بن أحمد وفي الأدب المبرد والجاحظ وفي الشعر أبو نواس وأبو العتاهية ومروان بن ابي حفصة والعباس بن الاحنف وفي الغناء ابراهيم بن المهدي ( أخو الرشيد ) وابراهيم الموصلي وابنه اسحق ، وفي الضرب والزمر : زلزل وبرصوما ، وفي العلم والفلسفة والطب والفلك آل بختيشوع وأولاد شاكر وحنين بن اسحق والمأمون الخليفة وابن ماسويه وابن البطريق وغيرهم ••• ولا شك ان هذا الجمع الحافل من الاسماء اللامعة يعبر عن يقظة فكرية ــ كما قال فيليب حتي ــ تعد من النهضات الهامة في تاريخ التقدم الفكري في العالم كله •

وقد تجمعت كل روعة فترة الاستقرار هذه في عهد الرشيد الذي يمكن أن يعتبر ممثلاً لها وتعتبر سيرته ، بنتيجة ذلك ، كما قال فيليبي ــ

« مكملة للميراث الفكري الذي خلقته الانسانية » • ويمكن ان يقارن عصره بعصر أوغسطس في الرومان ، أو بركليس في اليونان أو لويس الرابع عشر في فرنسا أو فكتوريا في انكلترا • وقد نقلت قصص ألف ليلة وليلة صورة الرشيد وعصره الى أذهان العالم ، حتى أصبح الرشيد لدى الغربيين يمثل ــ كما قال فيليبي أيضاً ــ نواحي الجلال والعظمة في الامبراطورية العربية ، ويمثل كل ما هو عظيم وجميل في تاريخ الاسلام ولففت بغداد والشرق والحضارة الاسلامية من وراء تلك الصورة بكثير من السحر والاسطورة • وليس تقدير المؤرخين من العرب للرشيد بأقل من هذا • فقد سميت أيامه « أيام العروس » ووصفها السيوطي « انها كلها أيام خير ، كأنها في حسنها أعراس » كما يذكر الفخري : ان دولته كانت من احسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة ••• وقال البغدادي : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد أو هزل « وزراؤه البرامكة وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن ابي حفصة ونديمه عم أبيه العباس بن محمد وحاجبه الفضل بن الربيع ومغنيه ابراهيم الموصلي وضاربه زلزل وزامره برصوما وزوجته أم جعفر الخ ••• »

على انا نلاحظ ان حصالة كل تلك الحضارة قد تجمعت من العالم الاسلامي كله في العراق ومن العراق كله في بغداد نفسها التي وصفت من المعاصرين عن جدارة بأنها « سرة الدنيا » ونلاحظ الى هذا أيضاً ان هذا العصر الباذخ قد حمل بين طياته ، وبين الاسباب التي أدت الى روعته ، بذور العوامل التي ستعمل على هدمه وتنذر بمطالع الانهيار المقبل •

**الخلفـــاء :**

توالى في هذه الفترة من التاريـــخ العباســـي ( ١٥٨ ــ ٢١٨ ) هـ خمسة خلفاء هم : المهدي وابناه الهادي والرشيد ثم ولدا الاخيـــر : الامين والمأمون •

**المهدي محمد بن عبد الله ابي جعفر بن محمد**
**( ١٥٨ ــ ٢٣ المحرم ١٦٩ هـ ) = ( ٧٧٥ ــ ٧٨٥ م )**

نشأته : ولد في الحميمة ( من اروى بنت منصور بـــن عبد الله الحميري ) سنة ١٣٦هـ • وكان عمره عشر سنوات ، حين صارت الخلافة لأبيه ابي جعفر[١] • ويظهر من مجموع تصرفات الوالد والولد مـــع بعضهما ، ان رابطة قوية من الحب كانت تربطهما ــ فقد تعهد المنصور ابنه ، مبكراً ، بالثقافة والتربية الحربية والاداريـــة ، ليكون جديراً بالمنصب الذي سيصير اليه : عهد به الى المفضل الضبي فنشأ على ثقافة عربية واسعة ، ومعرفة بالشعر وقرضه ، ورواية لأخبار العرب وامثالها • وطلب من ابن اسحق فكتب لتثقيفه السيرة النبوية وبعث به . وهـــو مايزال غض العود ، في الخامسة عشرة ، في صحبة قائد من اشهر قواده : خازم بن خزيمة لمهمات صعبة متتالية : إخماد ثورة عبد الرحمن بـــن عبد الجبار الازدي والي خراسان ، ثم الاصبهبذ الوالي الثائر بطبرستان ، ثم استاذ سيز ، مدعي النبوة في خراسان • وحالف التوفيق خازماً في

(١) كان لابي جعفر أولاد آخرون هم : جعفر الذي لقب بالأكبر لأنه توفي في حياة أبيه فسمى ولداً آخر من أولاده بجعفر (ابن الكردية) فعرف بالأصغر . وكان لجعفر الأكبر عدة أولاد لعبوا دورهم زمن الرشيد منهم زبيدة زوج هارون الرشيد .

في هذه المهمات التي كانت دروسا حربية قاسية للمهدي • ثم زوجه أبوه من ابنة عمه : ربطة بنت أبي العباس ورأى أن وجه خراسان خطر قلق وأن ابنه استطاب المقام في الري فولاه أخيرا خراسان والجبال بين سنة ١٤٨ ــ ١٥١ هـ فلما عاد بعد ذلك الى بغداد بجيشه الخراساني سنة ١٥١ هـ بنى له أبوه معسكراً على الضفة الشرقية من دجلة ، تجاه بغداد ( الرصافة ) فاستقر ثم أرسله سنة ١٥٣ هـ أميراً للحج بدلاً عنه • كما أرسله سنة ١٥٥/٧٧٢ على الفرات الى بلدة الرقة فبنى عندها معسكراً ضخماً هو مدينة الرافقة قضى سنة في بنائها •

وقد بويع المهدي البيعة الخاصة في مكة • والبيعة العامة في بغداد حيث كان مقيماً عند وفاة أبيه وذلك في ( ذي الحجة ١٥٨ ، تشرين الأول سنة ٧٥٧ ) •

ميزاته : يذكر عن المهدي أنه كان معتدل القامة ، اسمر حسن الوجه جعد الشعر • وتتفق المصادر على وصفه بالكرم ولين الجانب ، كما تصفه بحسن العفو والحلم • وقد كان لهذا أثره الواضح في عهده ، لأن اخلاقه الخاصة انعكست في سياسته العامة فجعلته ــ كما قال المسعودي ــ « محبباً الى الخاص والعام » •

لقبه : كان ابو جعفر هو الذي اختار لقب المهدي لابنه ويظهر أنه اختاره له في الوقت الذي اختار لنفسه لقب المنصور أي سنة ١٤٦ بعد هزيمة محمد ذي النفس الزكية يدل على ذلك أن لقب المهدي ظهر على سكة ضربت في الري سنة ١٤٦ كما ظهر على سكة أخرى من الباب وثالثة ضربت سنة ١٥٢ في أران ، والمهدي مايزال والياً للعهد ثم ورد اللقب له في نص تشييد بتاريخ المحرم سنة ١٥٥ على قطعة من الرخام

في عسقلان وفي طراز قطعة نسيج بتاريخ سنة ١٥٩ في مصر . وفي قطع أثرية أخرى في بخارى ومكة وغيرها[1] . فاللقب ثابت له وإن كان اتخذه أبو العباس ، أو الخلفاء ، أو أعطى له أول الأمر .

ويبدو أن المنصور وحاشيته كانوا يشيعون ثم يعودون فيؤمنون بما أشاعوا من أن المهدي هو مهدي الله الموعود حقاً وصدقاً . وإنا لنجد ذلك واضحاً في كتاب المنصور الى عيسى بن موسى يراوده عن ولاية العهد سنة ١٤٧ اذ يقول : « ... ولم يجد أمير المؤمنين بدأ من متابعتهم ( الخاصة والثقات ) وأمير المؤمنين أحق من سارع إلى ذلك وحرص عليه وعرف فضله ورجا بركته وصدق الرواية فيه وحمد الله إذ جعل في ذريته مثل ما سألت الأنبياء قبله إذ قال العبد الصالح : « فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً . » فوهب الله لأمير المؤمنين ولياً ثم جعله تقياً مباركاً مهدياً وللنبي ( صلى الله عليه وسلم ) سمياً وسلب من انتحل هذا الاسم ودعا الى تلك الشبهة التي تحير فيها أهل تلك النية وافتتن بها أهل تلك الشقوة فانتزع ذلك منهم وجعل دائرة السوء عليهم ... وأعلن للمهدي مناره وللدين أنصاره[2] »

سياسته العامة : ترك المنصور لابنه وصية سياسية قرأها يوم البيعة قال فيها ، بعد ان حذره طويلاً من عذاب الآخرة والحساب :

« ... وليتسع انصافك وينبسط عدلك . وواس بين الرعية في الاحتكام واطلب بجهدك رضا الرحمن ، وأهل الدين فليكونوا أعضادك . وأعط حظ المسلمين من اموالهم ، ووفر لهم فيئهم ، وتابع اعطياتك عليهم وعجل

---

(١) انظر مراجع ذلك لدى حسن الباشا ـ الالقاب الاسلامية ص ٥١٤ ـ ٥١٥

(٢) الطبري ج٨ ص١٦ (٣/٣٤٠-٣٤١) .

بنفقاتهم إليهم سنة سنة وشهراً شهراً . وعليك بعمارة البلاد ، بتخفيف الخراج ، واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة ، وليكن أهم امورك إليك تحفظ اطرافك وسد ثغورك و ... وارغب الى الله عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه ... وابذل في ذلك مهجتك ...وتفقد جيوشك ليلك ونهارك ، واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك ... »

وقد اتبع المهدي روح هذه الوصية في سياسته للدولة . على أنا نلاحظ انها لاتتفق مع سياسة المنصور العامة فهل هي مزيفة عليها ؟ أم هل أدرك ذلك الخليفة القوي تغير العهد وضرورة التطور في السياسة ؟ أم كان يفهم ابنه وطباع ابنه بهذا العمق ؟ لانكاد نشك في أن المهدي استفاد من الوصية . ولكنها لم تكن العامل الحاسم في توجيه سياسته. فالذي رسم خطوط السياسة العامة له ، هي أخلاقه الخاصة من جهة ، وظروف عصره من جهة أخرى . وهذا سبب نجاحه وحب الرعية له . فقد كانت الدولة استقرت بعد ثورة واحتاجت الى اللين ، بعد طول الشدة كما بدأت تظهر في تلك الفترة آثار التمازج الثقافي والاجتماعي بين ثقافات وعناصر الدولة المختلفة ، وطلائع الميزات التي تميز الحضارة الاسلامية . لهذا جاء عهد المهدي عهداً انتقالياً ، وسطاً ، بين عهد ابيه الشديد قبله ، وعهد ولديه الرضي من بعده ، .كانت أبرز الميزات في سياسته :

١) سياسة [illegible] ي اليعقوبي[١] ان المنصور وهو خارج [illegible] كت الناس ثلاثة أصناف [illegible] أمنك ، ومسجوناً لايرجو [illegible] هية ولاتمدد لهم

(١) اليعقوبي ج٢ ص ١٩٥

كل المد ... » وسواء صحت الوصية أم لم تصح فانهـا تعبر عـن حقيقة واقعة . فقد بدأ المهدي ، بعد عهد المنصور الشديد ، سياسـة الانفتاح والفرج على الناس جميعاً سواء منهم الأقربون أو من كانوا موضع الريبة والعداء وصل أولاً أهله ومواليه فقرر لكل واحد من أهل بيته ستة آلاف درهم في السنة . وحاول استرضاء العلويين فأخرج من كان في السجن منهم « وأمر لهم بجوائز وصلات وارزاق دارة » على قول اليعقوبي واستخدم عدداً كبيراً من الزيديـة .

وحاول كذلك استرضاء بعض الامويين ويذكر الطبري ان المهدي « لما وجه الرشيد الى الصائفة سنة ١٦٣ خرج يشيعه فلما حادى قصر مسلمة ( بن عبد الملك ) قرب الفرات في شمال الشام ) قال له بعض مرافقيه العباسيين: يا امير المؤمنين. إن لمسلمة في أعناقنا منة . كان محمد ابن علي مربه فأعطاه أربعة آلاف دينار وقال : يا ابن عم . هذان ألفان لدينك وألفان لمعونتك فإذا نفذت فلا تحتشمنا » فقال المهدي :أحضروا من هاهنا من ولد مسلمة ومواليه فأمر لهم بعشرين ألف دينار وأمر أن تجرى عليهم الأرزاق ثم قال لمحدثه : هل كافأنا مسلمة وقضينا حقه ؟[1]

ويروي له المسعودي قصة أروع من هذه يوم لجأت مزنة امرأة مروان بن محمد الى الخيزران وهي في الأطمار البالية . وأحسنـت اليها الخيزران فلما علم المهدي بالامر بكى واستدعاها ورحب بها ورفع منزلتها فوق أحسن نساء القصر . ثم تفاوض معها أخبار [illegible] الناس والدولة وتنقلها فما تركت ( مزنة ) لأحد في المجلس [illegible] . [illegible] المهدي : يابنت عم لاشيء أصون لك من حجابي وكو[illegible]

(١) الطبري ج٨ ص ١٤٤ (٣/٤٩٥)

في قصري . لك مالهن وعليك ماعليهن ... ثم أقطعها مثل مالهن من الاقطاع وأخدمها وأجازها . فأقامت في قصره الى أن قبض المهدي وأيام الهادي وصدرا من أيام الرشيد وماتت في خلافته لايفرق بينها وبين نساء بني هاشم . فلما قبضت جزع الرشيد والحرم جزعاً شديداً ...[1]

واسترضى المهدي عامة الناس باطلاق المسجونين كافة « إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد أو من كان لأحد قبله مظلمة أو حق » وأضاف الى ذلك أنه كسا ووصل كل من أطلقه .

وترضى بعض الأقطار الاسلامية المنكوبة : فقد حج سنة ١٦٠ هـ فوزع على أهل الحجاز ثلاثين مليون درهم ونصف مليون دينار ومائة وخمسين ألف ثوب ــ على روايات الطبري ــ وأرجع جرايات الحبوب إليهم من مصر وكان قطعها المنصور لدن ثار محمد ذو النفس الزكية . واصطفى لنفسه خمسمائة رجل من الأنصار فأجرى عليهم الأرزاق الواسعة وجعلهم حرسه الخاص[2] ( تأكيدا للتقرب وللموازنة مع العرب الخراسانيين في الدولة ) وأكرم سنة ١٦٤هـ عامة أولاد المهاجرين والأنصار وفرق فيهم ثلاثة ملايين درهم . وأراد تهدئة الشام فزار دمشق والقدس وحاول التوفيق بين قبائل البادية الشامية ووزع المال فيهم .

ولاشك أن ماتركه المنصور في بيت المال هو الذي أعان المهدي

---

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج٣ ص ٣٢٣ــ٣٢٥
(٢) الطبري ج٨ ص١٣٣ (٤٨٣/٣)

على هذه السياسة « الكريمة » و « بسط يده في الإعطاء فأذهب جميع ماخلفه المنصور سوى ماجباه في أيامه » .

٢ ) العدل : وأول مابدأ فيه بنفسه إذ أنه نظر في « دفتر القبض » حيث كان يسجل المنصور ماأخذه من أموال الناس بالمصادرة فــرد الأموال لأصحابها وصاحب الفخري يعزو ذلك إلى وصية والده إذ قال : « يابني إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه الجباية والمصادرة وكتبت عليه أسماء أصحابه فإذا وليت أنت فأعده إلى أربابه ليدعو لك الناس ويحبوك ! » .

وعني المهدي بأمر المظالم فكان يجلس لها بنفسه ويشرك القضاة معه عند النظر فيها ويقول : لو لم يكن ردي للمظالم الاحياء منهم لكفى» واتخذ بيتاً له شباك حديد تطرح فيه القصص ( رقــاع الشكايات ) وتجمع بعد ذلك لئلا يكون ثمة مجال لإخفاء الشكاية أو تأخيرها . وبهذه الواسطة حمى الرعية من تعدي الولاة وجورهم ( ومن جــوره هو أيضاً ) وخاصة في قضايا الضرائب والاراضي .

٣ ) احترام الدين : كسب منصب الخلافة زمن المهدي ظلاً دينياً واضحاً فقد كان الخليفة يقرب رجال الدين والفقهاء ويتأثر لــدى تلاوة القرآن وقد أمر بتوسعة المسجد الحرام حتى توسطته الكعبة بعد أن كانت في جانب منه ، وحمل إليه الأساطين من مصر ( غير أنه محا اسـم الوليد ابن عبد الملك من حائط الحرم وكتب اسمه بدلا منه ) ووسع مسجد الرسول في المدينة والمشروعان إنما بدأ بهما في الواقع أبوه المنصور قبله وقدأفتى له أبو حنيفة بمصادرة الدور حول الكعبة لتوسعتها كما وسع مسجد البصرة بما يتناسب مع تكاثر السكان فيها ونمو شأنها التجاري إذ ذاك .

هذا إلى أنه قام بأعمال اجتماعية كثيرة ذات طابع ديني فوضع « دور المرضى وأجرى على العميان والمجذومين والضعفى وأهل السجون في جميع الآفاق » وبنى المحطات والبرك على طريق الحج العراقي من القادسية الى مكة • يقول الطبري : « ••• وأمر المهدي سنة ١٦١ ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي بناها أبو العباس ••• وترك منازل أبي جعفر على حالها وأمر باتخاذ المصانع في كل منها • وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع ••• »(١)

وقد اتفق أن تفشت الزندقة في الناس في زمنه لعوامل مختلفة حتى أضحت نوعا من « التظرف » و « المودة » فكافحها المهدي مكافحة تميز بها عهده • يقول صاحب الفخري : « كان شديدا على أهل الإلحاد والزندقة لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم» « وقد جد في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم » وعين موظفاً خاصاً باسم « صاحب الزنادقة » لمطاردتهم كما أمر بتأليف الكتب للرد عليهم • وقد كان خارجا في حملة ابنه الرشيد لغزو الروم سنة ١٦٣ فلم يمنعه ذلك من أن يبعث وهو في حلب بعبد الجبار المحتسب « لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة فقتل جماعة منهم وصلبهم وأتى بكتب من كتبهم فقطعت بالسكاكين •• »(٢) وقد كان من ضحايا هذه المكافحة الواسعة عدد من الشخصيات المعروفة ولاسيما في الميدان الادبي كابن المقفع وبشار بن برد •••

وفاته : قضى المهدي عشر سنوات على عرش الخلافة واحتضر سنة ١٦٨هـ وعمره ثلاث واربعون سنة • يقال إنه مات في بعض صيده للظباء

---

(١) الطبري ج٨ ص١٣٦ (٣/٤٨٦)
(٢) نفسه ص ١٤٨ (٣/٤٩٩)

أو لأكله بعض الطعام المسموم وهو في ماسبذان في طريقه إلى بلاد فارس لرد ابنه ( الهادي ) إلى طاعته !

## الهادي موسى بن محمد بن عبد الله

( ١٦٩ ـ ١٧٠ هـ ) = ( ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م )

نشأته : ولد الأخوان موسى ثم هارون لأبيهما المهدي في الري سنة ١٤٥ وسنة ١٤٨ من أم ولد جرشية ( وجرش صقع في اليمن ) اسمها الخيزران بنت عطاء أخذها من بيت حاكم طبرستان الثائر ... ويقال إنها كانت مملوكة لرجل من بني ثقيف باعها في مكة واستحسنها المنصور فاشتراها ووهبها لابنه المهدي فولدت له قبل سنتين من ولايته للعهد ابنه الاول موسى ثم هارون سنة ١٤٦ . وكان ذلك في الري ، مقر ولي العهد اثناء ولاية تلك الاصقاع .

ونشأ الاثنان في محيط مترف فظهر أثر ذلك في ثقافتهما وأخلاقهما، وقد صارت الخلافة الى موسى[1] وهو بجرجان يخمد ثورة هناك . وقد كان أبوه قد عينه لولاية المشرق كله من قبل فأخذ له البيعة

---

(١) ولدت ريطة بنت ابي العباس من زوجها المهدي ولداً اسمه علي . عرف فيما بعد بعلي بن ريطة . ولكنه كان الابن الثالث للمهدي فتقدم عليه موسى وهارون . وقد تزوج المهدي كذلك حين حج سنة ١٦٠ من رقية بنت عمرو العثمانية . ولعله كان زواجاً سياسياً قصد منه تآلف قلوب الانصار في المدينة . وكان مع المهدي في حجه هذا ابنه هارون في رعاية مربيه أبان بن صدقة الذي كان في الاصل كاتباً لأبي أيوب المورياني وزير المنصور . وقد نقل أبان بعد ذلك لخدمة موسى الهادي وجعل مكانه بجانب هرون : يحيى بن خالد البرمكي .

أخوه في بغداد • وكان موسى « طويلاً جسيماً أبيض الشعر أفوه »
وتشترك كثير من المصادر بوصفه بالجرأة الشرسة وقسوة القلب •يقول
المسعودي « كان ••• أشد الناس بدناً وأجرأهم مقدماً في تسرع وجبرية
ينسب بهما إلى الهوج » كما عرف عنه الكرم المسرف : فقد تحدى مرة
أخاه هارون فأجابه جواباً مؤدباً يمتلىء بالعاطفة فأمر له بألف ألف
دينار وخمسمائة ألف متى وصل الخراج • ومنح ابن دأب ثلاثين
ألف دينار على أبيات أنشدها له فاستحسنها • وأعطى سلماً الخاسر
ثلاثمائة ألف درهم في قصيدة أعجبه منها هذا البيت :

لولا هداكم وفضل أولكم لم تدر ماأصل دينها العرب !

وأكرم ابراهيم الموصلي بخمسين ألف دينار في ثلاثة أبيات أطربته •
وقال اسحق بن ابراهيم : « والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان
دورنا بالذهب ! »

سياسته العامة : كانت في وصية المهدي لابنه أن يتبع سياسته في
تصيد الزنادقة والتنكيل بهم فتابع الهادي عهد أبيه في ذلك • وقتل جماعة
كبيرة منهم وقد شارك أباه بغضه للخوارج • ولكنه خالفه في موقفه من
الأمويين فقد كان يبغضهم وتهدأ نفسه إن ذكر قصص الفتك بهم كما
خالفه في موقفه من العلويين • يقول اليعقوبي إنه « جد في طلب الطالبين
وأخافهم خوفاً شديداً وقطع ماكان المهدي يجري لهم من الارزاق والاعطية»
وتطرفه هذا أثار عليه الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن • وإذا
استطاع الهادي أن ينكل به وبجماعة من أنصاره في واقعة ( فخ ) وهي
أخت كربلاء وباخمرى فإنه من هذه الواقعة خرجت دولة الأدارسة
التي اجتزأت المغرب الاقصى من الدولة العباسية •

الوفاة : لم تدم خلافة الهادي اكثر من سنة وقرابة شهرين تتقد

توفي وشيكاً في بغداد ( أو في الحديثة قرب الموصل ) وظروف هـذه الوفاة غريبة وإذا كانت إحدى الروايات تنسبها لقرحة في معدته فان الروايات الأخيرة تتهم بها أمه الخيزران ... فقد كانت كثيرة الدالة في الدولة زمن أبيه والأشهر الأولى من زمنه ... فتضايق الهادي منها وكان شديد الغيرة على النساء وقال لها يوماً : « ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ لئن بلغني أنه وفد ببابك أحد من خاصتي أو قوادي أو من خدمي لاضربن عنقه ! » « لاتخرجي مـن خفر الكفاءة إلى بداءة التبذل فليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملـك » . ويقال إن الخيزران احتملت هـذه الاهانة على مضض فلما كان أمر ولاية العهـد وخافت على إبنها الثاني هارون وكان « أحب إليها من الدنيا بجميـع مافيها » قررت الفتك به ولعله كان مريضاً كما يفهم من رواية الجهشياري فأوعزت لجواريها بخنقه وهو نائم ! والقصة التي يرويها يحيى البرمكي عن ليلة الحادثة تؤيد اشتراك الخيزران في الأمر ( ربيع الأول سنـة ١٧٠ ) وهو « ليلة مات بها ــ كما يقولون ــ خليفة وجلس خليفة وولد خليفة » ( المأمون ) .

## الرشيد هارون بن محمد بن عبد الله

( ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ ــ ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ ﻫ )

( ١٤ ايلول ٧٨٦ ــ ٢٤ آذار ٨٠٨ م )

نشأته : ولد الرشيد ، مع مولد بغداد سنة ١٤٦ﻫ ومن عجـب أن بقي الاسمان متلازمين دوماً في الاذهان يعضد أحدهما شهرة الآخر، منذ ذلك الوقت الى الآن . ولسنا نعرف الا القليل عن نشأة الرشيـد الاولى . التي كانت في الري وأوضح مافيها أن هارون نشأ مع أولاد

يحيى بن خالد البرمكي الذي كان على ديوان المهدي هناك وهما الفضل وجعفر كما رضع من أمهاتها • وحين عاد مع أبيه وأمه الى بغداد منذ سنة ١٥١ اختير لتربيته كبار العلماء كالشأن في غيره ••• غير أن هارون يظهر لاول مرة سنة ١٦٣هـ وهو في قرابة الثامنة عشرة قائداً لحملة تسير ضد البيزنطيين وتفتح بعض القلاع على الحدود • وكان المهدي قدبالغ في الحشد لهذه الحملة حتى زادت على تسعين ألف مقاتل كما بالغ في الانفاق على تجهيزها وإعدادها ••• وإذا لم تكن لهارون من تلك القيادة سوى المظهر الاسمي في الغالب فإنها على كل حال تدل على ماأصابه من مران عسكري ودربة مدنية كان لابد من توفرهما في افراد البيت الحاكم ونجد أباه المهدي إثر ذلك يزوجه من ابنة عمه زبيدة[1] ثم يعاود إرساله فجأة الى جبهة الروم في مائة الف مقاتل إثر هزيمة هزمها هناك أحد قواد الدولة ( عبد الكبير بن عبد الحميد ) ويرسل معه اكبر قواد الدولة يزيد بن مزيد الشيباني • ونجحت الحملة حتى أشرفت على البوسفور ويعود هرون بالنصر ليلقبه أبوه بالرشيد ويعقد له بتأثير من الخيزران ولاية العهد بعد اخيه موسى سنة ١٦٦ •

---

(١) ولدت زبيدة سنة ١٤٩ في حديثة دجلة (قرية جنوبي الموصل) وتوفي أبوها جعفر الاكبر بن المنصور سنة ١٥٢ فكفلها جدها وهو الذي سماها زبيدة لبياضها وقد تزوجت من الرشيد سنة ١٥٦ وولدت له الامين سنة ١٧٠ وتزوج الرشيد غيرها أمة العزيز أم ولده علي • وأربعاً أخريات غير هاتين . وكان له من أبناء الجواري عشر أبناء منهم أبو اسحق المعتصم ، عدا البنات (انظر الطبري٨/٢٢٨) و ص٣٥٩(٣/٧٥٧) وقد ذكر الشابشتي في الديارات ( طبع كوركيس عواد ـ بغداد ١٩٦٦ ص ١٥٧) أن « اسم زبيدة أمة العزيز وزبيدة لقب وكان أبو جعفر يرقصها وهي صغيرة وكانت سمينة ويقول : ما أنت إلا زبيدة فمضى عليها هذا الاسم» فهي إذن أمة العزيز الأولى وام علي هي الثانية وتحملان اسماً واحداً .

ويستخلف الهادي سنة ١٦٩ فيعيش الرشيد تلك السنة خائفاً يترقب استياء أخيه منه ثم يشغر العرش فجأة فيستلمه هارون وهو ابن اربع وعشرين سنة •

شخصيته : ليس يسيرا أن نقرر نصيب الخيال في الصورة التي يعرفها الناس وتحفظها الكتب للرشيد ونصيب الحقيقة فقد امتزجت في اخباره روعة الخيال بحقائق التاريخ ومبالغة الاقاصيص فاجتمع له من الصفات المتباعدة ماندر أن يجتمع في شخص واحد •

فهو حيناً الخليفة الذي ينهمك في المجون ويشرب النبيذ وترقص في حضرته مائة من الجواري مرة واحدة في احسن هيئة ويبذل في جارية واحدة مائة الف درهم ويطرب للموسيقى والغناء منذ فتوته الاولى ويتعرض في ذلك لغضب ابيه الطروب أيضاً . وله جمعت الاصوات المائة التي قام على اساسها ابو الفرج الاصبهاني كتابه ( الاغاني ) •• وهو حيناً آخر الخليفة الورع الذي تسقط الموعظة دمعه والذي كان يصلي في اليوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا « وكان يحج سنة ويغزو أخرى » فهو بين حاج وجهاد مدة خلافته حتى ليقول له الشاعر ابو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أمر يرده      فبالحرمين أو أقصى الثغور ••

ويتخذ قلنسوة كتب عليها : « غاز حاج » ••• ويبلغ به التقى أن يحج ماشياً فيكون أول من يفعل ذلك من الخلفاء • وأن يحج معه مائةمن الفقهاء وابنائهم وأن يتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم•

ثم هو تارة الخليفة اللاهي المسرف في اللهو حتى ليقضي وقته

(١) الطبري ج٨ ص٢٢١ (٣/٧٠٩ـ٧١٠)

بين جارية ودن ، المنصرف عن تدبير الملك حتى ليحسد البرامكة على من اجتمع ببابهم من اصحاب الحاجات ، وهو تارة أخرى الخليفة الحازم اليقظ الذي يعس في الليل متنكرا يتفقد احوال رعاياه والخليفة الذي يشتكي إليه أحد أعوانه وهم في بعض الدروب مايلقون من عنت ومشقة وثلج والرعية نائمة فيجيبه الرشيد : اسكت ! على الرعية المنام وعلينا القيام !

وهو مرة العطوف المتلاف للمال الكثير الصفح والرحمة المتواضع حتى ليصب بنفسه الماء على يد ضيفه ابي معاوية الضرير ، وهو مرة أخرى السفاك العنيف الحديد القلب حتى ليستحل دم اقرب المقربين دون خلجة ضمير والتياه الذي لايحتمل أن يرى يدا تعلو يده في الدولة أو تنتقص من سلطته المطلقة .

وقد يكون الرشيد هذا كله معاً وقد يكون يمثل بذلك عصره بما فيه من متناقضات وتطرف . والذي يظهر من وراء هذه الصفات أن عاطفة الرشيد المرهفة كانت تسيطر على تصرفاته ، وأنه كان انفعالي الطباع وسرعة تأثره بالموعظة أو باللحن أو بالغضب أو بالثقة هي التي كانت تلون نفسه لونا بعد لون . على أن المصادر تكاد تتفق على أنه كان صحيح التدين ، كريم الكف ، قائماً بواجبات منصبه كخليفة للمسلمين عليه الجهاد والامامة ، متمتعاً بما يجلبه ذلك المنصب من نعم ومن اتصال بالشعراء والعلماء والخاصة والرعية وكانت كل ناحية في حياته متممة للأخرى « فمتاع الجسد جزء من حياته يعدل كثرة الحج » ومع لهوه كان يجد الوقت الكافي للجهاد ولتفقد حال الناس ولتشجيع العلوم والفنون والترجمة .

وإذا كانت صفات الرشيد هذه نتيجة لطبيعته وتربيته وللعصر الذي عاش فيه فهي قد عادت فأثرت بدورها في ذلك العصر وكثير من اعمال الرشيد السياسية إنما تفسرها تلك الصفات .

ومن الواضح أنه اذا كان العصر الحديث قد حرم الشخصيات التاريخية من أن يكون لها الأثر الأول في توجيه التاريخ والاحداث فعصور التاريخ السابقة كانت تترك لهم المجال الواسع . واذا كانوا في الواقع ابناء الظروف المادية والروحية التي مهدت لهم وأوجدتهم فإنهم كانوا بدورهم يعودون فيؤثرون بتلك الظروف ويوجهونها . وهكذا تمثلت حيوية الدولة العباسية وتمثل مزيجها الاجتماعي والديني الذي لم يكن قد حان له بعد أن يصبح مركباً منسجماً — في الرشيدوأبرزه . فهو صورة للعصر والتطرف وهو سبب ونتيجة له في وقت واحد .

ولعل صورته تكون كاملة إذا نحن جعلناها مزيجاً من صفاته الشخصية ( وابرزها الانفعالية السريعة ) ومن واجبات المنصب الذي تولاه ( كخليفة وإمام ) ومن ظروف العصر والبيئة الكثيرة الخلائط التي وجد فيها ( في العراق اذ ذاك ) .

سياسته العامة : أعلن يوسف بن القاسم بيعة الرشيد على العالم الاسلامي بكتاب قال فيه بعد أن بين مكان العباسيين من بيت النبوة والدين « .. وهو ( أي الرشيد ) يعدكم من نفسه بالرأفة عليكم والرحمة بكم من الجائرة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت المال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من اعطياتكم وحاملا باقي ذلك للذب عن حريمكم ومالعله أن يحدث في النواحي والاقطار من العصاة المارقين ... فاحمدوا الله وجددوا له شكراً يوجب لكم المزيد في احسانه اليكم بما جدد لكم من رأي امير المؤمنين ...ايده الله بطاعته ! » .

هكذا يبدأ الرشيد عهده بتوزيع المال : اعطيات اضافية للجند ؛ ويؤكد على سلطته المطلقة ويعد بالرأفة وبحفظ الأمن وبالدفاع عن الحدود ثم يسمع الناس بعد ايام أن البرامكة قد اصبحوا سادة الدولة بتكليف من الخليفة الذي قال ليحيى البرمكي : « يا أبت ! قد قلدتك امر الرعية وأخرجته من عنقي اليك • فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت ••• فإني غير ناظر معك في شيء » : ولكن هذا التقليد المطلق لم يحرم الخليفة من ممارسة التأثير على سير الدولة تأثيراً يختلف شدة وضعفا حسب الظروف . ويذكر الطبري ويؤيده المؤرخون إن الرشيد « كان يقتفي آثار المنصور الا في بذل المال فانه لم ير خليفة قط قبله أعطى منه للمال » وقد يكون ذلك صحيحا في بعض نواحي السياسة وفي بعض الاحايين ولكنه خالف سياسة جده كثيراً في بعض النواحي الاخرى • واهم الاسس في سياسته العامة :

**١ ـ التقيد بالدين :** فقد كان الرشيد ينظر الى الدين نظرة آل البيت اليه كأساس للدولة ، ويعمل على أن يتجسم فيه ذلك ، وما الحج والصدقات والجهاد والصلوات التي تدوم الليل كله سوى وجوه وتطبيقات لتلك النزعة كما كان منها اعماله في عمارة طريق الحج وكسوة الكعبة ••• إلخ وقد اضاف الرشيد اليها ، في آخر ايامه شيئا من عدم التسامح مع أهل الذمة إذ أمرهم أن يلتزموا زيا معينا في اللباس يميزهم وأن لاترتفع بيوتهم عن بيوت المسلمين وهدم بعض الكنائس ولعله تأثر في هذا بالموقف الخارجي مع البيزنطيين •

**٢ ـ التمسك بالسلطة المطلقة :** يقول فيلبي : « إن هرون إلاطاغية بمولده وتربيته والظروف المحيطة به ، فهو وارث فلسفة سياسية اتحدت

فيها على وجه غريب ظاهرتان متناقضتان : الأولى ديمقراطية فتية نبتت في جزيرة العرب ، والثانية تقليد خائر يتمثل في الملكية الفارسية المطلقة ..»

ولعلنا لانحتاج لمثل هذا التعقيد ، في تفسير سياسة الرشيد . فقد كان كغيره من الخلفاء ومن الملوك القدماء في فارس وغيرها في التمتع بالسلطة المطلقة . ولكن طبع الرشيد الحساس ومزاجه الحاد جعلاغيرته على سلطته أبرز وأعنف ، وتصرفاته أكثر حدة وقوة ، كما في نكبة البرامكة.

**٣ ـ عدم التدقيق في محاسبة العمال أو أمر البلاط :** وقد خالف الرشيد في هذا ركناً من أهم أركان سياسة المنصور ، فانتهى ذلك به إلى مشاكل عديدة ، منها ثورة خراسان على واليهم الجائر علي بن عيسى ، ومنها انقطاع الشمال الافريقي عنه ، وظهور دولة الأغالبة ثم دولة الأدارسة . وإهماله لأمر البلاط ، هو الذي سمح للحريم بالتدخل في أمور الدولة ، كما أنه أدى لتكوين حزبين سياسيين في الحاشية: عربي وفارسي ، سيتزعمان الحرب الأخوية بين ولديه الامين والمأمون.

**٤ ـ الصبر السياسي والتخطيط الهادىء :** ويبدو أنه اكتسب هذه الصفات خلال السنوات الاولى لحكمه ومن خلال التفكير في مقامه السياسي الديني . ولعل أبرز الادلة على طريقة السياسة الصابرة المخططة عملية الخلاص من البرامكة وابعادهم عن السلطان في الدولة مرة بعد مرة قبل الخلاص النهائي منهم وعملية ولاية العهد الثلاثية وتوثيقها بين الاخوة وتعليقها في الكعبة لتأخذ الصبغة الدينية ، وإذاعتها في الناس لتكتسب الصفة الشعبية العامة .

وعملية القضاء على جيش خراسان البرمكي • وجعل الغزو والحج عملين دوريين ••• وإذا نجحت مخططاته كلها عدا مايتعلق بمنع الخلاف بين ولديه فلأنه مات فلم يستطع السيطرة على الظروف التي جدت بعد موته وجعلت ذلك الخلاف محتوماً ••• ومامن شك في أنه استخدم ونجح في استخدام كافة الاساليب والوسائل : العصا الغليظة والدين والمال والسيف والمكر والكتمان والتجسس والتهديد لجعل مخططاته السياسية كاملة النجاح •

وفاته : أخفى هرون علته بالسرطان ، إلا عن طبيبه ، واحتمل ألمه في مثل جلد الراوقيين ــ كما يقول فيلبي ــ وكان شاخصاً لنجدة قائده هرثمة فيما وراء النهر حين اشتدت به علته في مدينة طوس ، ومات فيها ودفن (صفر سنة ١٩٣ ) قريباً من البلد الذي ولد فيه دونأن يجاوز كثيراً السادسة والأربعين !

## الامين محمد بن هارون

(١٩٣ ــ ١٩٨ هـ) (٨٠٨ ــ ٨٣٣ م)

## المامون عبد الله بن هارون

(١٩٨ ــ ٢١٨ هـ) (٨١٣ ــ ٨٣٣ م)

أخوان • ولد أولهما محمد بعد أخيه عبد الله بسنة أشهر • وكان عبد الله قد ولد ليلة استخلف الرشيد من إحدى جواريه ( مراجل ) الفارسية • وأما والدة محمد فزبيدة حفيدة أبي جعفر المنصور •

وقد نشأ الولدان بين أيدي الترف ، إذن ، وتحت رقابة الخليفة وزوجه • وعني الخليفة الرشيد خاصة بتربيتهما دون غيرهما من أولاده، فاختار لهما في الأدب والعلم أكبر رجال عصره :فكان الاصمعيوالكسائي

وقطرب النحوي وحماد عجرد لتأديب محمد ، وكان أبو محمد الزيدي والحسن اللؤلؤي لعبد الله . واختار لهما أعظم رجال الدولة ليتمرسا بالحكم فكان محمد في وصاية الفضل بن يحيى البرمكي وعبد الله عند جعفر بن يحيى .

وقد بكرت المنازعات تطوف بالأخوين ، إذ كان البلاط العباسي قد بدأ يشهد مولد حزبين واضحين متنافسين ، لعلهما برزا من زوجتي الرشيد الوالدتين ومن وجود كتلتين من الرجال حول الخليفة : كتلة هاشمية عربية ، وأخرى برمكية فارسية .

وقد أرادت الكتلة الهاشمية ، وعلى رأسها زبيدة ، أن تسجل نصرا سياسياً تعتبره من حقها . ضد الكتلة الأخرى ، بإعلان ولاية العهد لمحمد الأمين ( الهاشمي أماً وأباً ) ، فعقد الرشيد الولاية له سنة ١٧٥ وعمر الأمين خمس سنوات . ولم تستطع الكتلة الفارسية أن تصل إلى نصر مماثل إلا في سنة ١٨٣ ، حين جعل الرشيد للمأمون وعمره ثلاث عشرة سنة ، ولاية العهد الثانية بعد أخيه . ثم جعل الولاية الثالثة لابنه القاسم ولقبه المؤتمن سنة ١٨٦ .

ويظهر أن الأمر قدحز في نفوس الحزب العربي وبلغ من خطره أن اضطر الرشيد في تلك السنة ١٨٦ ، أن يستوثق من كل أخ لأخيه في الكعبة نفسها ، حيث علق العهد بالتوليات . وزاد على ذلك بأن جعل لكل منهم ، مايحكمه ومايتدرب به على الإدارة والحكم . فكان الأمين وكيل أبيه في بغداد حين غيابه ، بعد أن كان من قبل صاحب الجناح الغربي من الدولة . وكان للمأمون ولاية خراسان وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور . وإذا كان اختيار بغداد للامين أمراً طبيعياً ، فإن اختيار

خراسان للمأمون ــ وهو ابن الفارسية ــ كان في الغالب نتيجة بعض المساعي الفارسية في البلاط العباسي •

**أخلاق وسياسة الأمين :** تأثرت سياسة الأمين لحد كبير بأخلاقه الشخصية وتصرفات حاشيته • على أن الصورة التي تروى عن تلك الأخلاق في معظم الكتب التاريخية ، صورة مشوهة في الغالب ، وقد لعبت الدعاية ، التي نستطيع أن ندعوها بالمأمونية أو الفارسية ، دوراً كبيراً في تشويه سمعة الأمين • ولو راجعنا ماكتبه الطبري[1] عنه ،لرأينا عجباً من الاخبار التي لاتصدر إلا عن مأفون ، أو من به لوثة :يذكرون من قصص فساده وخلقه المائع ، مثلاً أنه كان يصطاد السمك وبغداد محاصرة من جيوش أخيه ، وجاءه من يخبره أن المدينة استسلمت فأجاب: ويلك ! دعني فإن كوثر ( خادمه ) قد صادسمكتين وماإصطدت غير واحدة !![2] •

ويذكرون أنه بعث ليلة تولى الخلافة ، في طلب الملهين من كل ناحية، وأنه في اليوم التالي لبيعته أمر ببناء ميدان حول قصر الخلافة ( قصر ابي جعفر ) للصوالجة واللعب وأنه تسبب في معركة من أجل خادم جميل تركي ، وأنه قاد بنفسه في ليلة أنس جوقة من مائة جارية[3] عدا ماذكروا من أخبار الحراقات التي ابتناها في دجلة على أشكال الحيوان وأخبار المتنزهات والفسق النواسي وغيره ••• ويمكن أن نلخص تحامل المصادر

---

(١) ينقل بعض هذه الاخبار صاحب عصر المأمون (ج١ ص٢٠٠ وما بعدها) .

(٢) هذه هي رواية المسعودي (مروج ٢/٣٠١-٣٠٢)والطبري يروي مثلها (ج٨ ص٣٩٥-٨٠٣/٣) ولكنه يذكر انها كانت حين وصل خبر هزيمة جيشه امام أخيه .

(٣) انظر الأغاني ج١٦ ص١٣٣

التاريخية عليه في الكلمة التي لخص بها ابن الاثير أمره إذ قال : « لم نجد له ما نستحسنه فنذكره ! » • ويظهر أن أسباباً عديدة تدعو للشك في هذا الذي يروى • وأن أخلاق الأمين لم تكن من السوء بذلك الدرك، وإنما جاءت سمعته المشوهة من :

**١ ـ الدعاية المأمونية :** ويمكن أن يعرف مقدار التلفيق في بعض أخبارها ، من عرض تلك الأخبار على النقد التاريخي • فهم يذكرون مثلاً من رأي الرشيد في ولديه • ماورواه المسعودي ، من أنه قبل العهد للمأمون قال الرشيد عنه : « إني أرضى سيرته وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته » • وقال عن محمد الأمين : « فيه مافيه من الانقياد لهواه والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والإماء في رأيه » • وكان عمر الأخوين أقل من ١٣ و١٢ سنة فقط !! •

ويذكرون كلمة مثلها للرشيد في ابنه الأمين قبل العهد له ولم يكن عمره آنذاك أكثر من خمس سنوات !

ويذكرون تأييداً لذلك ، حلماً منظم الرواية يقولون فيه : إن زبيدة رأت فيه ، فيما يرى النائم ، أربعة من الملائك يحفون بسرير ابنها وهو طفل ويقول أولهم : « ملك قصير العمر ، ضيق الصدر ، عظيم الكبر ، واهي الأمر ، كثير الوزر ، شديد الغدر » • ويقول الثاني : « ملك قصاف ، مبذر متلاف ، قليل الانصاف ، كثير الاتلاف » ويقول الثالث : « ملك ضخم ، قليل الحلم ، كثير الأثم ، قطوع للرحم » • ويقول الرابع : « ملك غدار ، كثير العثار ، سريع الدمار[1] » ••• الخ • ويشبه أن يكون هذا الحلم بما فيه من صفات مسجوعة ، ملخصاً لرأي المصادر المختلفة في الأمين ، حبكها مؤلف متأخر العصر •

---

(١) يراجع في الاخبار الطوال للدينوري

**٢ ـ المبالغة في أعمال الأمين :** فليس غريباً على خليفة يأتي بعد الرشيد أن يمازج حياته شيء من اللهو ، وشيء من السرف في اللهو أيضاً . ولقد كان الأمين يلهو كأبيه ، فبالغوا في ذكر لهوه ليبرروا مصرعه على أيدي جنود أخيه .

وليس غريباً على الأمين أن يكون كريم اليد كغيره من الخلفاء العديدين ، إلا أن خسارته لقضيته جعلت من كرمه نقيصة من النقائص ، ولو نجح لكان ذلك فضيلة وعد من أسباب نجاحه . وكان طبيعياً الى هذا وذاك ، أن يستمع الأمين لحاشيته ، كغيره ، فلما انهزم اعتبر ذلك منقصة له ، وحملت عليه أخطاء حاشيته كلها .

**٣ ـ أخلاق الأمين نفسه :** فقد كان ميالاً للاستفادة من ترف الخلافة والقصص في ذلك عديدة ملونة . وكان قليل الحزم السياسي ، لايفهم الواسطة التي تبررها الغاية . فقد كان ولدا أخيه المأمون ، عند الثورة واللجاج في العنف ، عنده في بغداد فرفض أن يقبض عليهما ويتخذهما رهائن لديه . ولقد ثار عليه الحسين بن علي بن عيسى ابن ماهان وخلعه فعفا[1] عنه وجعله قائداً له حتى فتكت به الحاشية فيما بعد ولو كان ذلك للمنصور لفتك به هو نفسه فوراً . وكان لايحسن اختيار حاشيته ، حتى لقد انفضوا من حوله عند الشدة . كما كان يؤمن بالنجوم ، اكثر قليلاً من غيره ، وبكلمة واحدة كان غير ذي دربة في السياسة عامة أو على الأصح غير مهيأ للسياسة المكيافيلية التي استخدمها أخوه المأمون أذكى الاستخدام ضده .

وقد خذله الناس لانه لم يعرف كيف يستغل نقاط القوة في موضعه ضد اخيه فظهر كأنه خذل دون سبب ..

(١) الطبري ج٨ ص٤٢٩-٤٣١ (٨٤٧/٣-٨٥١)

وهكذا اذن لم يكن الامين بحيث وضعه المؤرخون من الفساد والبله • وخصومه قالوا عنه انه « مخذول » ولم يقولوا إنه «ضعيف» ولو نشرنا جميع اخباره في صعيد واحد لتبين لنا وجه آخر للأمين قلما اتنبه له المؤرخون مع وجوده بين ايديهم • نقرأ مثلاً في وصيته لعلي ابن عيسى بن ماهان حين سار بالجيش الى خراسان ما يلي :

« •• امنع جندك من العبث بالرعية • والغارة على اهل القرى • وقطع الشجر • وانتهاك النساء ، وولّ الري يحيى بن علي• واضمم اليه جنداً كثيفاً ، ومره ليدفع الى الجند ارزاقهم مما يجيء من خراجها ، وولّ كل كورة ترحل عنها رجلاً من اصحابك • ومن خرج اليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولاتعاقب اخاً بأخيه ، وضع عن اهل خراسان ربع الخراج ، ولاتؤمن احداً رماك بسهم ، أو بأصحابك برمح[1] •• »

ولدينا بعض الاخبار التي تذكر سهر الأمين الليل في إدارة الدولة وحزن بغداد عليه حين قتل كما أن في بعض مارثى به من الشعر دليلا على بعض صفاته — برغم مافي الشعر من الكذب الحلال في العادة — :

قالت لبابة بنت علي بن المهدي فيه :

ابكيك لا للنعيم والانس بل للمعالي والرمح والترس

وقال الحسين بن الضحاك :

ياخير أسرته — وإن زعموا —
إنـــي عليـــك لمثبت أســف
هتكــوا بحرمتك التي هتكت
حــرم الرسول ودونها السجف

(1) الطبري ج٨ ص٤٠٦ (٨١٩/٣)

وقال :

سنندب بعـدك الدنيـا جواراً
وتندب بعدك الدين المصونـا
هو الجبل الـذي هوت المعالي
لهـدته وريـع الصالحـونا

ومثل هذا الشعر جدير أن يكون من أقذع الهجاء لـو صح مايذكرونه عن الأمين من البله والتهتك والاهمال للدولة .

ومن هذا نستطيع أن نلخص الأمين في نقطتين :

الأولى : ميل الى اللهو انتج بعض الاهمال لمشاكل الدولة ممـا سمح للحاشية بالتدخل ، وسمح للحريم ، كزبيدة ، أن يكون لهـن رأي ونفـوذ في دست الحـكم .

الثانية : فشل في اختيار الأعوان خاصة . لاحظه المأمون نفسـه فذكره في كلمة أطلقها ليغسل يده من دم أخيه ويبرىء ساحته أمام التاريخ إذ قال :

« أما إنه أول من يؤخذ بدمه (دم الأمين) يوم القيامة ثلاثة : الفضل بن الربيع وبكر بن المعتمر . والسندي بن شاهك . هم والله ثأر أخي وعندهم دمه » .

وهذا الهرب من الجريمة ، رغم مافيه من محاولة التبرئة ، يستند الى واقع الأمر فأبرز رجال الأمين هم الفضل بين الربيع الذي اختبـأ في الأزمة الاخيرة . والحسين بن علي بن عيسى الماهاني الذي ثار على الأمين في بغداد ثم قبض عليه وسجن والعباس بن عيسى بن موسى الذي

بايع المأمون سراً وصار عيناً له على الأمين ، يقول شاعر معاصر :

أضــاع الخلافــة غش الوزير
وفسق الامــام وجهــل المشير
ففضــل وزيــر وبــكر مشير
يريــدان مافيــه حتف الأمــير

وقد وضع الأمين ثمن ذلك دمه • فقتله جند طاهر بن الحسين على نهــر دجــلة !

**سياسة المأمـون :** تجمع المصادر التاريخية على امتداح المأمون منذ طفولته ووصفه بالذكاء الخارق • وتشبيهه بالمنصور في الدهــاء والتدبير مع العلم أن ثمة الكثير من الاشارات التي تؤكد أن المأمــون كان مكروهاً من الناس ولاسيما في بغداد وأنه كان يجد الرقاع بشتمهفي الطريق أو يسمعها بنفسه ولعله ظل منكسراً منذ علقت به جريمة قتل أخيه •

ويمكن أن نجمل الخطوط السياسية الكبرى في عهده بنقاط أربع كان لها أثر كبير ، لافي عهد المأمون فحسب ولكن في التاريخ الاســلامي كله :

١ــالسياسة الغائية ( المكيافيلية ) فقد استخدم كل وسيلةللوصول الى غرضه•بصرف النظر عن « اخلاقية » تلك الوسيلة •حارب بالدعاية التي مايزال جناحها الأسود يلاحق الأمين في مصادر التاريخ الى اليوم • واستغل أخلاق أخيه ليرفع من مكانته هو عند الناس • وحالف العلويين حين احتاجهم ثم لماأضحوا عبئاً عليه ، عند انتقاله الى بغداد ، تخلصمنهم

وسمم ( علياً الرضى ) احد ائمة العلويين وهو في الطريق بعدأن كانجعل له ولاية العهد من قبل • واستخدم بني سهل حتى اخذ الخلافة ثم نكبهم نكبة اعادت الى الاذهان بعض صور النكبة البرمكية • واستفاد من خؤولته في أهل خراسان حتى صار الى بغداد فلما تمكن بها لم يعد يسأل عنهم !! ولعل أهم مااصطنعه من الوسائل : التجسس والاستخبار على الناس بجهاز كامل واسع من المخبرين يقول ابن ظافر الازدي المؤرخ: « جعل المأمون برسم الأخبار ألف عجوز ببغداد وسبع مائة عجوز فما كان يخفى عنه شيء من أمور الناس ظاهراً وباطناً • وكان لاينام كل ليلة حتى يقف على جميعها ••• »[1]

٢ ــ مزج الدين بالدولة مزجاً لعله اقتبس فكرته عن بيزنطة في تلك الأحيان بالذات حين كانت المشكلة اللاأيقونية على أشدها أوعن المثل الساساني بتنظيم الزارادشتية في ظل الأكاسرة فقد أعلن المأمون تبني الدولة رسميا للمبدأ الاعتزالي في ( خلق القرآن ) وفرض هذا المبدأ على الناس بالقوة وحملهم عليه مرغمين وعقد له مجالس الجدل • حتى لقد أضيف ذلك القول الى الشهادة بالوحدانية ( لا إله إلا الله صاحب القرآن المخلوق !! ) وعزل من لايقول بذلك من القضاة وأهين • ولأول مرة يتدخل خليفة المسلمين في أمر العقيدة هذا التدخل الاساسي العنيف ولأول مرة يصدر أمر من أمير المؤمنين باعتناق فكرة معينة واعتبارها مذهب الدولة الرسمي الذي يعاقب مخالفوه • وقد كان الخليفة قبله يشرف على تطبيق أحكام الدين واعلاء كلمته فأصبح المأمون فقيه الدولة الرسمي !

---

(١) انظر ابن ظافر الازدي ــ الدول المنقطعة ( مخطوط المتحف البريطاني ) ورقة ١١٧ ظهر .

٣ ـ افساح المجال للفرس أول الأمر ثم اهمالهم في الدولة : فقد كانت ام المأمون فارسية • ونشأ الفتى ليرى نفسه وسط حزب فارسي في البلاط الخلافي ، ثم كان مقر عمله في خراسان حتى استخلف ومعظم من كان في حاشيته كان من الفرس وأبرزهم الفضل بن سهل الذي بلغ من أثره أ ناعتبر المؤرخون الخلاف بين ولدي الرشيد خلافاً بين الفضلين ( ابن الربيع وابن سهل )واعتبروا نصر المأمون نصراً للفرس على العرب •ولكن المأمون لم يحقق للفرس ( او لبعض الطامحين منهم على الاقل )غايتهمفي النهاية فتحول بعد سنوات من خلافته عن خراسان كلها وعن الفرس جميعاً فانتقل الى العراق وأهمل الخراسانيين فكانذلك خاتمة عهد التعاون بين اهلخراسانوالعباسيين • كما كانت نكبته لبني سهل الذين كانوا يمثلون الأرستقراطية الفارسية نهاية اتفاق تلك الأرستقراطية مع الخلافة العباسية وبدء اتفاقها مع الجماهير الفارسية ضدها لا سيما بعد أن يئست هذه الجماهير من الرفاه العباسي المأمول • وبهذا الشكل بدأت تنشأ الإمارات شبه المستقلة في إيران ( كالطاهرية والصفارية والسامانية ) وبلغت الحركة الانفصالية أوجها بظهور البويهيين ثم دخولهم بغداد سنة ٣٣٤هـ والسيطرة بالعكس على الكرسي الخلافي كله وماضم !

٤ ـ تألف القلوب بالعفو والعطاء : وهو مذهب في السياسة عرف عن المأمون وسجله له المؤرخون • يقول اليعقوبي : « وكان أكرم الناس عفواً وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال وأبذلهم للعطايا •• » ثم يعدد من عفوه سبع عشرة حادثة يستحق صاحب كل واحدة منها لدى أمثال المنصور القتل ولكنها قوبلت من المأمون بالعفو : كالذي كان من العفو عن ابراهيم المهدي وقد بقي خليفة سنتين ، وعن نعيم بن حازم الذي حاربه سنين وعن سهل بن سلامة المطوعي الذي كان يدعوالناس

لخلعه وعن مهدي بن علوان الخارجي الذي حاربه وعن دعبل الشاعر الذي هجاه وعن عدد من العلويين الثائرين وعدد من المتسلطين في الاقاليم ... كما عدد اليعقوبي أخبار جوده بالمال لدرجة إفراغ بيت المال وذكر أنه أمر في يوم واحد لثلاثة نفر بألف ألف دينار وخمس مائة ألف دينار لكل واحد خمس مائة ألف دينار ثم جاءه بعده ذلك مال خراسان وكان على عزم أن يستقرض عشرة ملايين درهم من التجار ، وكان هذا المال ثلاثين مليون درهم فركب ليراها ولم يعد من رؤيتها الا وقد فرقها جميعا وهو راكب ... ثم عاد[1] وأعطى مرة عامله ابن عباد على الهند ستة ملايين درهم كان عاد بها اليه .

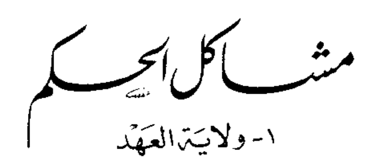
٥ — العناية بالعلم والعلماء : فقد كان للمأمون ولعه الشخصي بالامور العلمية الفلسفية وكان يعقد مجالس المناظرة في حضرته ويبعث في طلب العلماء الاعلام لحضورها حتى من بيزنطة ، وكان يتصيد الكتب النادرة ويدفع فيها المبالغ الطائلة ويجعل بعضها شرطاً من شروط الهدنة مع الروم كما اقام ( دار الحكمة ) فجمع فيه مكتبة ضخمة هائلة وجهازاً كبيراً للترجمة من مختلف اللغات الى اللغة العربية ، حشد له حوالي سبعين مترجماً . ولقد أدى هذا العمل الى ظهور عصر الترجمة الثاني ، في تاريخ الفكر الاسلامي أو الى التعجيل في ظهوره على الاقل كما مزج الثقافات المختلفة مزجاً قوياً وأغنى اللغة العربية بتراث فكري واسع وعجل كثيراً في ظهور ما نسميه بالثقافة الاسلامية .

وفاته : بالرغم من أن المأمون كان عالما ولم يكن محاربا إلا أنه قضى له أن يتوفى وهو في الطريق الى عمل حربي . فقد حم في بعض دروب الروم وتوفي فدفن بطرطوس سنة ٢١٨هـ .

---

(١) انظر اليعقوبي — مشاكلة الناس لزمانهم ( تحقيق وليم ميلورد — بيروت سنة ١٩٦٢ ) ص ٢٨—٣٠ وانظر كذلك الطبري ج٨ ص٦٥٢— ٦٥٣ (٣/١١٤٣—١١٤٤)

# الفصل التاسع



## ١- ولاية العهد

برزت في فترة الاستقرار هذه من العصر العباسي الاول ، مشاكل الحكم إلى المرتبة الاولى • فأصبحت أهم قضايا الدولة • ولعل أبرزها: مشكلة ولاية العهد ومشكلة الاسر الوزارية الايرانية • وكان لدسائس رجال البلاط في الحالين وتناحرهم اكبر الدور في تلك المشاكل •

**ولايــة العهــــد :**

المهدي وولاية العهد : إذا كانت المشكلة السياسية الاولى في العهود الاسلامية هي مشكلة الخلافة فان أبرز مظهر من مظاهرها عدم وضع نظام ثابت لولاية العهد • وإذا كان من العرف الملكي المتبع والمقبول أن يلي الابن الأكبر أباه في الحكم فان من غلطات الخلفاء ، منذ العهد الاموي ، أنهم كانوا ينساقون مع العواطف الابوية فيعهدون بالولاية الى ولدين أو أكثر من أولادهم بالتتابع مما يوجد بذور الحقد في الاسرة لأن الابن الذي يصل الحكم دوماً يفضل ابنه على اخيه • وإذا لم يفعل

ذلك أبو العباس فقد فعله أبو جعفر واستطاع إزاحة عيسى بن موسى ( المعين من قبل أبي العباس معه لولاية عهده ) لمصلحة ابنه محمدالمهدي على أن يكون عيسى من بعده .

وواجه المهدي منذ الايام الاولى لخلافته مشكلة إزاحة عيسى مرة أخرى لمصلحة ابنه الفتى موسى ( الهادي ) وتكررت مرة أخرى قصة عيسى مع المنصور بحذافيرها .

كان عيسى ليلة وفاة المنصور قد تمنع عن مبايعة المهدي . «فاقبل القواد الذين حضروا يقربون ويتباعدون ... فنهض علي بن عيسى بن ماهان فاستل سيفه ثم جاء إليه فقال : والله لتبايعن أولأضربن عنقك . فلما رأى عيسى ذلك بايع وبايع الناس بعده ... »[1] ولعل هذا كان السبب في استعجال المهدي بازاحة عيسى نهائيا عن ولاية العهد .فتحرك وتحرك معه بعض بني هاشم وشيعتهم من خراسان في ذلك ... بعد أن رسم لهم المنصور الطريق بالدعاية المبدئية للامر . ويقرع الخبر اسماع عيسى فيتهيأ للرفض والمقاومة وجمع الأنصار ويبدو أنه كان في بني هاشم من يؤيده وقد تلكأ بعضهم في بيعة المهدي لولا أن الربيع الذي كان يعرف دخائل نفوسهم جمعهم ساعة موت المنصور فأوهمهم أنه حي وأن لديه وصية منه قرأها عليهم وأخذ البيعة منهم للمهدي أولا ثم كشف لهم عن موت الخليفة بعد ذلك[2] ....

على أن المهدي لم يمهل عيسى وأسرع في مفاتحته بالتنازل وهو

---

(١) انظر الطبري ج٨ ص١١٢ (٣/٤٥٥)
(٢) الطبري ج٨ ص١١١ (٣/٤٥٤)

في ضيعة له بالرحبة على الفرات • وكان طبيعياً أن يأتي الجواب بالرفض• فدعاه المهدي أن يأتي بغداد فلم يفعل مخافة الغدر به •وترددت المفاوضة والرسل بين الطرفين وكتب المهدي كما يقول الطبري الى عيسى يقول: «•••إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى•••استحللت منك بمعصيتك مايستحل من العاصي وإن أجبتني عوضتك منها ماهو أجدى عليك وأعجل نفعاً •••»[1] وعرض عليه مبلغ عشرة آلاف درهم ويقال عشرين وقطائع كثيرة ••

وطالت المفاوضة دون طائل • واستقر عيسى في الكوفة فأرسل إليه المهدي عمه العباس بن محمد يقنعه فلما أصر على الرفض أرسل إليه بقائده أبي هريرة محمد بن فروخ الازدي يأتي به طوعاً أو كرهاً ، ومعه ألف رجل من أصحابه من ذوي البصيرة في التشيع ( لبني العباس ) وجعل مع كل رجل منهم طبلا ••• فدخل الكوفة ليلا في وجه الصبح وضرب أصحابه بطبولهم جميعا ( في وقت واحد ) فراع ذلك موسى روعاً شديداً ثم دخل عليه أبو هريرة فأمره بالشخوص فاشتكى العلة فلم يقبل ذلك منه وأشخصه من ساعته الى مدينة السلام ••• »

وفي السادس من محرم سنة ١٦٠ وصل قصر الخليفة واستقبله ولكنه لم يكلمه في الأمر وتركه للحرب النفسية والتهديد والشتائم يشنها عليه أنصار المهدي أياماً متتالية[2] حتى هدد بالقتل والاهانة فارتضى الخلع في ٢٦ محرم وخطب بذلك في المسجد الجامع وكتب العهد بالتنازل

(١) الطبري ج٨ ص١٢١ ــ ١٢٣ (٣/٤٦٧ــ٤٦٩)
(٢) انظر الطبري ج٨ ص١٢٤ــ١٢٨ (٣/٤٧١ــ٦) وقد ذكر الطبري نص وثيقة التنازل أيضاً .

في صفر سنة ١٦٠ وعاد بالمال لينزوي في قصره بالكوفة ••• وأعلنت البيعة بولاية العهد لموسى الهادي وكتب إلى الآفاق يأخذ البيعة له •••

وقد لام الكثيرون عيسى على موقفه الـذي باع فيه حقه وقال شاعرهم :

كره الموت أبـو موسى وقـد
كان في المـوت نجـاء وكـرم
خلـع الملـك وأضحى ملبسـاً
ثوب لوم ماترى منه القدم •••

والحقيقة أنعيسى كان في حوالي الستين من العمر ولم يكـن له مع شباب المهدي وقوة سطوته ومظاهرة الناس والقوى له من أمل كبير في أن يخلعه بعده من الخلافة إلا بصدفة يختصر فيها المدي اختصارا ولهذا آثر العافية مرغماً ••• ولقد توفي فعلا في خلافة المهدي سنة ١٦٧ فلم يشهد خلافة الهادي من بعده •

ولقد أخطأ المهدي بعد ذلك خطيئة بعض الخلفاء غيره فخضـع لتأثير زوجته الخيزران ولعواطف الابوة معا ولدسائس الحاشية فعقد ولاية العهد الثانية بعد ابنه موسى لابنه هارون في رجب سنة ١٦٦/ شباط ٧٨٣ • وقد لعب الدور في هذه التسمية أمه الخيزران ويحيى ابن خالد البرمكي و ••• النصر الذي انتصره هارون على الروم تلك السنة • وقد لقبه أبوه في حفل ولاية العهد بالمسجد الجامع أمام أمراء بني هاشم وقواد الدولة ورجالها بالرشيد ! •

ويبدو بوضوح أن النصر الذي حققته الخيزران وحزبها بايصـال

الرشيد إلى ولاية العهد الثانية لم يكن المطمح الوحيد الذي يرجونه فما كادوا ينتهون من هذه الخطوة حتى بدأوا يهيئون للخطوة التالية :تقديمه على أخيه ولي العهد الاول ويبدو أن المهدي نفسه لم يكن يمانع في هذه الفكرة أو أنه على الأقل كان يرى قوة الجماعة المؤيدة لهارون فيسايرها بينما كان موسى الهادي ، في جرجان يحارب بعض الثائرين فيها .وبالرغم من أن حزبه كان يضم عددا من أمراء بني العباس ( عبد الملك بن صالح موسى بن عيسى ، العباس بن محمد ) كما يضم بعض كبار الدولة ( ابان بن صدقة ، الفضل بن الربيع ، علي بن عيسى بن ماهان ) وبعض كبار القواد ( يزيد بن مزيد الشيباني ، محمد بن فروج الازدي ، عبد الله بن علاثة ، عبد الله بن خازم ) إلا إن غيابه عن العاصمة كان يترك المجال واسعاً لحزب هارون .

وخطى المهدي خطوته الاولى في هذا السبيل مع أنه كان يعلم من تجربته الخاصة ماذا تعني تلك الخطوة فانه سمع مرة خطأ بأن أباه المنصور يفكر بنقل الخلافة الى ابنه الآخر جعفر ( المعروف بالاصغر ) فارسل الى أبيه يقول : « والله إن فعلت ذلك لاقتلنه وقال المنصور : لقد سمعت خطأ ونحن أشفق على جعفر من أن نعرضه لك[1] ... » وأرسل المهدي الى ابنه بجرجان « بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة ويقدم الرشيد فلم يفعل ... فبعث إليه المهدي بعض الموالي فامتنع عليه موسى من القدوم وضرب الرسول ... »[2] ولم يجد المهدي بدا من الخروج بنفسه لاقناع ابنه بما يريد ... ولم يكن قد جاوز بغداد بعيدا حين ... مات

(١) الطبري ج٨ ص ٦٨-٦٩(٣/٤٠٠)
(٢) الطبري ج٨ ص١٦٨(٣/٥٢٣)

فجأة كان قد عسكر في ماسبذان قرب النهروان وتمت عليه دون شك هناك المؤامرة « البلاطية » من حزب الهادي • ولايصرح المؤرخون بهذه المؤامرة ولكن اختلافهم في تعليل موته المفاجىء يكشف الريبة التي لايصرحون بها ، وتخبط الروايات ناجم دون شك عن تعمد الرواة الاوائل لهذا الحادث اضاعة آثار المؤامرة • فتارة أن المهدي طرد ظبياً في الصيد فسقط عن فرسه وهو يطارده وتارة أنه مات في كمثراة مسمومة وأخرى من لوزينج مسموم ••• ويبدو أن الرواية الاخيرة كانت الاكثر شيوعا بين الناس لان الجهشياري يذكر في بعض الحديث : « أن المهدي أكل من اللوزينج المسموم المشهور خبره فمات من وقته • ويقال من الكمثرى •••»[1] •

وليس طبيعيا أن تظل أسباب موت خليفة الناس في ذلك الوقت مجهولة لولا أن مصالح معينة لمن جاؤوا بعده كانت تقضي ببقائها مجهولة وقد أشارت المصادر إلى مخاوف بعض هذه الجماعات كما ذكرت حدوث الشغب والاحراق لأبواب بعض الكبراء في بغداد[2] ••• ولكن الاموال التي وزعت غطت على كل شيء ••• ويلاحظ أن مؤلف كتاب الامامة والسياسة يتهم الهادي بصراحة أنه « دس على أبيه بعض الجواري المتمكنات منه فسمته » وأن المهدي أحس بمؤامرة ابنه الهادي[3] •

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٦٨

(٢) انظر الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري ج٢ ص٢٩٠ و ٢٩١

(٣) انظر الطبري ج٨ ص١٨٧ـ١٨٨ (٣/٥٤٥ـ٥٤٧)

ويبدو أن هذه الجريمة المطموسة المعالم لم تكن الوحيدة التي تسببت فيها مشكلة ولاية العهد فان الهادي نفسه كان ضحية الجريمة التالية ... المطموسة المعالم بدورها أيضاً : فالذي يظهر من الاحداث أن حزب الرشيد وعلى رأسه يحيى بن خالد البرمكي أراد فوراالتصرف بحكمة والاحتياط والحيلولة دون حرب أهلية تمزق الدولة بعد أنفشل مشروع نقل ولاية العهد **بالقوة الى الرشيد** .

وبعد أن سجل الحزب الآخر نصره بمصرع المهدي نفسه ،لاسيما وان ماكان يسعىاليهالرشيد قد حصل فعلا الان . فهو ولي العهدالفعلي والأول للخليفة الجديد الهادي . وهكذا فيما يبدو وطد الرشيد الأمور لأخيه في بغداد وأخذله البيعة من الناس وبعثإليه بشعائر الخلافة مع البيعة ... فلما عاد الهادي من جرجان بعد ١٨ يوماً الى عاصمته كان يحيى بن خالد البرمكي أول من قدم له آيات الولاء والخضوع والبيعة.

**الهادي وولاية العهد :** وخلافة الهادي القصيرة تميزت فيما يتعلق بولاية العهد بامرين :

الاول إزاحته لنفوذ أمه الخيزران وضغطه الشديد على حزبها وتدخله في الدولة .

الثاني : محاولة التخلص من ولاية عهد أخيه وتحويلها ، كالعادة ، الى ابنه جعفر .

وعادت المشكلة من جديد حين استشار الهادي أصحابه في عزل أخيه وتقديم ابنه جعفر وكان لايزيد في العمر على ثماني سنوات . ومع أن بعض الحاشية من أمثال يزيد بن مزيد الشيباني ومحمد بن فروخ الازدي وعلي بن عيسى بن ماهان وافقوا على ذلك وبرروه بأن يحيى

ابن خالد متسلط على الرشيد وأن الملك لا يصلح إن انتقل اليه **وهذا** **بجانبه**[1] إلا أن آخرين لم ينصحوا الهادي بذلك وابرزهم الفضل بن الربيع صاحب الهادي المقرب اليه وابراهيم بن ذكوان الحراني من رجاله البارزين الذين أغضبوا أباه المهدي من أجله • وكان الفضل يحب الرشيدويتودد الى زوجه زبيدة لفضل جدها المنصور عليه وعلى أبيه الربيع بن يونس كما كان ابراهيم الحراني يميل الى يحيى البرمكي وقد عين له بعض أنصاره ( اسماعيل بن صبيح ) على زمام الشام فكان ينقل أخبار الهادي وجماعته الى البرمكي[2] •••

ولكن الهادي صمم على خطوته وطلب من أخيه هارون التنازل طوعا مع الوعد بالخير الجزيل ، على العادة الدائمة وعزم هارون على إجابته فمنعه يحيى بن خالد وقال : « إنها الخلافة ولعل ماتقدر أنه يبقى لك ( من المال والاقطاع ) لايبقى ••• ولم يزل به حتى ثبته »[3] •••

وسمع الهادي بذلك فاستدعى البرمكي وأكرمه بالاقطاع والمال « ثم ناظره في خلع هارون فقال له : ياأمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد لهم ولو تركت الامر في بيعة أخيك بحاله وبويع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال له : صدقت ونصحت[4] ••• »

على أن الهادي إن كان اقتنع عقلا فانه لم يقتنع عاطفة « ••• ولم

---

(١) انظر اليعقوبي ـ ج ٢ ص ٤٩٠
(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٦٨
(٣) المصدر ذاته ص ١٦٩ والطبري ج ٨ ص ٢٠٨ ( ٥٧٣/٣ ) •
(٤) الجهشياري ص ١٧٠ والطبري ص ٢٠٩

تطب نفسه فدعا بيحيى فحبسه ... » ثم خلاه ودعا اليه وسأله رأيه فقال يحيى : « ... أرأيت إن كان ما تعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هارون هل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ قال لا : قال فدع هذا الامر حتى يبلغ جعفر . فاذا بلغنا الله ذلك فعلى أن آخذ بيد هارون حتى يبايعه عفواً ... والله يا أمير المؤمنين إن فعلت هذا وحدث ما نعوذ منه وثب على هذا الامر أكابر أهلك . وخرج الامر من ولد أبيك. والله لو لم يعقد المهدي لهارون لوجب أن تعقده له ليكون في بني أبيك..»[1]

ولكن هذه الحجج كلها لم يكن من شأنها إلا تأجيل المشكلة لا حلها وصرح الهادي عن موقفه وأطلق لحاشيته حرية التعبير عن موقفها المعادي للرشيد حين أمر بأن لا يسار أمام موكبه بحربة . على العادة في مواكب أولياء العهود . وكان ذلك ايذاناً بمرحلة الاضطهاد العلني تعرض لها الرشيد فكان « شيعة الهادي يتكلمون في أمره ويتنقصونه في مجلس الجماعة ويقولون : لا نرضى به ... حتى اجتنبه الناس وتركوه فلم يكن أحد يجترىء أن يسلم عليه ولا يقربه »[2] ومع أن الهادي شغل عن أخيه بثورة الحسين بن علي بن الحسن سنة ١٦٩ إلا أن انتصاره السريع عليها في موقعة فخ أعاده إلى الاهتمام بأمر ولاية العهد بشكل جدي حاسم وعزم بتحريض « جماعة من مواليه وقواده » على خلع الرشيد أجابه الى الخلع أو لم يجبه . واشتد غضبه منه وضيق عليه .. وقال يحيى ( البرمكي ) لهارون : « استأذنه في الخروج للصيد فاذا خرجت فاستبعد وادافع الايام ... » وهكذا كان فلما انكر الهادي غيابه جعل يكتب إليه فيتعلل حتى تفاقم الامر وأظهر شتمه وبسط مواليه

---

(١) المصادر ذاتها ص ١٧١ وص ٢١٠ .
(٢) الطبري ج٨ ص٢٠٧ (٣/٥٧٢) .

وقواده ألسنتهم فيه • وخافت الخيزران على ابنها الرشيد وقد بعث يشكو إليها تصرف أخيه معه ، وكانت قد خاصمت الهادي لا تكلمه حياتها فبعثت الى يحيى البرمكي تقول : « الله الله في ابني لا تقتله ودعه يجيب أخاه الى ما يسأله ويريده منه فبقاؤه أحب إلي من الدنيا بجميع ما فيها فصاح بها •• وما أنت وهذا • إن يكن ما تقولين فاني وولدي وأهلي سنقتل قبله !•• فان اتهمت عليه فلست متهماً على نفسي ولا عليهم ••• » •

وكان الهادي ، في الواقع ، قليل الحظ من الرجال الناصحين المتمرسين بالعمل السياسي • لأن أبان بن صدقة مربيه ورجله ووزيره الاول مات في جرجان قبل خلافته ، والربيع بن يونس وزير المنصور والمهدي مات بعد أشهر معدودة من خلافته وعبيد الله زياد بن أبي ليلى مات كذلك ••• ثم يفاجأ الناس بعد ذلك بخبر موت الهادي وهو بعد في الثالثة والعشرين من العمر بينما كان جو الازمة بينه وبين أخيه قد بلغ الذروة !••

وتفاصيل الامر تتلخص في أن الهادي : خلع أخاه الرشيد أولاً عن ولاية غرب الدولة الاسلامية وعين لها القائد محمداً بن فروخ الازدي فسار بجيوشه عن طريق الشام على الفور ثم استدعى يحيى البرمكي فاشتد في تأنيبه وشتمه قائلا : ترضى هارون للخلافة ونفسك للوزارة ؟ «والله لآتين على نفسك ونفسه قبل ذاك»[1] ثم أمر بحبسه في موضع لا يكاد يمد فيه رجليه وشفع به ابراهيم الحراني فنقل الى سجن آخر • وسمعت الخيزران بالخبر وخشيت عواقب العصيان على الرشيد فاستدعته

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٩٠

الى بغداد • فلقي أخاه • وعرف أنه معزول عن العهد حين خرج مع ابن أخيه جعفر في موكب فلما قاربا قنطرة النهر وتقدم لاجتيازه انتهره قائد الموكب أبو عصمة وقال : مكانك حتى يجوز ولي العهد [1] •

ولم يمض كبير وقت بعد ذلك حتى أمر به الهادي فسجن في سجن خاص يشرف عليه سجان المنصور والمهدي القديم: سلامة الابرش ومنعت عنه الزيارة • وبايع الجماعة لجعفر بن الهادي في بغداد •

وفي ذلك الوقت فيما يقولون وبينما كان الهادي يبحث مع حاشيته في قتل يحيى البرمكي والرشيد[2] ، دخل بيته فلم يخرج ! ويقولون انه مرض ثلاثة أيام فمات •

ولكنهم في الوقت نفسه يعطون ذلك الحادث الشكل التنبؤي إذ يذكرون أن حلماً رآه المهدي كان يتنبأبقصر عهدالهادي أو أن المنجمين قالوه • ويعزون الى يحيى بن خالد البرمكي أنه قال للرشيد حين نصحه بالغياب عن بغداد للصيد : « ••• واعلم ان مدة موسى قصيرة على ما أوجبته قضية المولد » [3] •

كما يذكرون أن الخيزران حين سمعت بمرض الهادي أرسلت الى يحيى البرمكي في سجنه تقول : « إن الرجل صائر الى ما به فاستعد لما ينبغي ••• »[4] • ويقول ابن الاثير إن الخيزران أرسلت الى يحيى

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٣٢ ( ٦٠٢/٣ ) •
(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٢٢٠ (٦٠٠/٣) •
(٣) المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥ ( طبعة محي الدين عبد الحميد ) وانظر ابن الاثير ج ٦ ص ٩٧ — ٩٨
(٤) الطبري ج ٨ ص ٢١٢ ( ٥٧٨/٣) •

تأمره بالاستعداد فأحضر يحيى كتابا فكتبوا الكتب من الرشيد الى العمال بوفاة الهادي وأنه قد ولاهم ما كان وما يكون فلما مات الهادي سيرت الكتب !.. »[1] . ويضيف ابن الاثير والطبري إنه « لما مات الهادي قالت الخيزران : قد كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة ( إذ ولد في تلك الليلة المأمون ) ... [2] » . ولما مات الهادي كان أول من استدعته الخيزران من السجن يحيى بن خالد البرمكي . روى هو نفسه الامر قال : « ... حبست وقد أيقنت من الموت . فأنا مفكر في ليلتي ما يجيئني الغمض حتى سمعت صوت القفل فقدرت ... أن موسى ( الهادي ) دعاني ليقتلني فاذا بخادم يقول لي : السيدة تريدك . فأتيت الخيزران فقالت لي : ان هذا الرجل قد مات . ونحن نساء فادخل فأصلح من أمره فدخلت .. وإذا بأمة العزيز تبكي عند رأسه وهو ميت فغمضته وانطلقت الى ( قصر ) الخلد أريد الرشيد ... » [3] .

وهذه الاخبار كلها قرائن على أن شيئا ما قد كان في القصر . ولكن خلافة الرشيد ثم عصر الرشيد الطويل المتألق قد غطى على حقيقته ... ويكشف الطبري جانبا مما كان إذ يقول : « قال بعضهم : كانت وفاته من قرحة كانت في جوفه وقال آخرون كانت وفاته من قبل جوار لأمه الخيزران كانت امرتهن بقتله لاسباب نذكر بعضها ... ( منها ) أن الهادي نابذ أمه ونافرها ... » . ومنعها التدخل في أمور الدولة . يقول الطبري : « وحدثني بعض الهاشميين أن سبب موت الهادي كان أنه لما

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٩٩

(٢) انظر المصدر السابق وانظر الطبري ج ٨ ص ٢١٢ (٣/٥٧٩) .

(٣) الجهشياري ص ١٧٥

جد في خلع هارون والبيعة لابنه جعفر وخافت الخيزران على هارون منه دست إليه من جواريها لما مرض من قتله بالغم والجلوس على وجهه • ووجهت الى يحيى بن خالد أن الرجل قد توفى فاجدد في أمرك ولا تقصر •••»[1] •

وبمقتل الهادي رد حزب الخيزران بسرعة على الضربة التي وجهها اليه حزب الهادي يوم مصرع المهدي ، وقد كان الرد من السرعة والمفاجأة بحيث لم يترك لحزب الهادي مجال التفكير في موقف آخر سوى التسليم، ولا شك أن الجريمتين اللتين توالتا في سنتين متواليتين ١٦٩ و ١٧٠ وذهبتا بخليفتين من خلفاء البيت العباسي كانتا أول الوهن في الدولة العباسية وطلائع المصارع التي سوف تذهب مع رؤوس الخلفاء بهيبة الخلافة ونفوذها وتفتح باب الجرأة على ذلك المقام الاول • ولقد كان بامكان هذين الحادثين أن يهزا الدولة العباسية هزة عنيفة لولا أنها كانت في تلك الفترة في أوج قوتها ولو لا أن مدبري المؤامرتين من الحزبين المتصارعين تحلوا بالكثير من الحكمة ومن التكتم •

**الرشيد وولاية العهد :** وتولى الرشيد الخلافة وامتدت خلافته ولكنه بدوره أيضا لم يتعظ في أمر ولاية العهد بنفسه وأبيه وارتكب الغلطة ذاتها بتولية ابنائه الثلاثة : الامين ثم المأمون ثم القاسم أحدهم بعد الآخر لولاية العهد بالتتالي ، ولم يكن القاسم مشكلة لانه لم يكن بذي حزب قوي واضح بعد أن خضدت شوكة حاميه عبد الملك بن

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ( ٣/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠ ) •
(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٤٣٩ ثم ص ٤٤٥

صالح في السجن فترة طويلة حتى من عليه الامين بالافراج وقد استطاع الامين حين استخلف أن يتخلص تخلصا هينا من القاسم • أما محاولته التخلص من أخيه المأمون والبيعة لابنه موسى الناطق بالحق فقد كلفته عرشه وحياته معاً وكانت من أكبر الهزات التي تناولت العرش العباسي كما كانت واحدة من اكبر مشاكل ولاية العهد في التاريخ الاسلامي •

**خلاف الأمين والمأمون :** وعوامل الخلاف الذي دام خمس سنوات بين الاخوين ترجع في التحليل الاخير إلى :

١ ـ ظروفهما من جهة •

٢ ـ تدبيرهما أحدهما تجاه الآخر من جهة أخرى :

**أولا ـ** كانت الظروف التي وجد فيها الاخوان تهيء للخلاف بينها فقد كان صغر ولدي الرشيد ( محمد وعبد الله ) أول أيام خلافته سبباً في طمع بعض بني العباس بولاية العهد والطبري يذكر ذلك بصراحة[١] بقوله : « وكانت جماعة بني العباس قد مدوا أعناقهم إلى الخلافة لأنه لم يكن له ولي عهد » فجعل الرشيد يفكر في الأمر واستطاعت جماعة بني هاشم أن تؤثر عليه حسب رواية الأربلي[٢] الذي يقول على لسان الرشيد « ولو لا أم جعفر وميل بني هاشم اليه ( إلى الأمين ) لقدمت عبد الله عليه » ويؤيد ذلك المسعودي[٣] الذي ذكر ان سبب البيعة للأمين أن بني هاشم « مائلون إلى محمد بأهوائهم » •

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٥٣ ( الطبعة الحسينية ) .
(٢) الأربلي الدر المسبوك ص ٨٧
(٣) المسعودي ج ٣ ص ٢٧١

فعقد الرشيد لابنه هذا « وله يومئذ خمس سنين » وانكر عليه ذلك بعض بني العباس حسب رواية الطبري لصغر سن الأمين •

ثم عقد الرشيد سنة ١٨٣ لابنه الثاني المأمون بولاية العهد الثانية بتأثير جعفر بن يحيى البرمكي كما يروي الطبري في كلمة على لسان الأمين : « إن رأي الرشيد ( في بيعة المأمون ) كان غلطة شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره واستماله برقاه » ولا علاقة لأخلاق الأمين بهذه البيعة إذ كان من صغر العمر ( ١٣ سنة ) بحيث لا يعرف خيره من شره ولا ميوعته من حزمه • ولعل الأصح أن ينسب عزم الرشيد هذا الى رغبته في حفظ الخلافة في سلالته دون باقي بني العباس •

ثم عقد الرشيد للأخ الثالث القاسم ( المؤتمن ) سنة ١٨٦ هـ وبتأثير عبد الملك بن صالح العباسي الذي كتب للرشيد ـ وكان القاسم في حجره يربيه ـ :

| | |
|---|---|
| يا أيها الملك الذي | لو كان نجماً كان سعدا |
| اعقد لقاسم بيعة | واقدح له في الملك زندا |
| الله فرد واحد | فاجعل ولاة العهد فردا[1] |

« فكان ذلك أول ما حض الرشيد على البيعة للقاسم » ، كما يقول الطبري • أما الدوافع الحقيقية فقد تكون ناجمة عن ظهور حزب من بني

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٧٦ ( ٣/٦٥٢ ) ولنلاحظ أن اليعقوبي يجعل تولية القاسم للعهد سنة ١٨٩ وهو أمر لا يتفق مع نصوص العهد الذي كتبه الامين على نفسه في الكعبة ولا مع صاحب فكرة التولية عبد الملك ابن صالح الذ يسجن منذ سنة ١٨٧ ( انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٥ و ١٢٥

العباس لا يميل لا الى الامين ولا الى المأمون ويخشى عواقب الصراع بينهمـــا .

وعلى أي حال فقد خطرت للرشيد ، تحت ضغط الصراع التحزبي في البلاط دون شك ، خاطرة ذكية ظنها الضمان الكافي لإقرار عهـــده من بعده وإحلال السلام والتعاون بين الإخوة وتأكيد تعاقبهم أو على الاقل تعاقب الأمين والمأمون على الخلافة وإلجام كل جموح قد يركبه أحد الحزبين من ورائهما . فقد انتهز مناسبة حجه سنة ١٨٦ فاصطحب الولدين معاً ، مع جمع من قواده ووزرائه وقضاته وبني هاشم . وهناك في مكة استكتب كل واحد منهما بخطه عهداً صيغ بشكل كتاب مرفوع إلى أبيه الخليفة يشترط على نفسه الوفاء بالعهد لاخيه الآخر والتعاون معه . ونص كتاب الامين على أن للمأمون إن أفضت إليه الخلافة أن يبقى أو يخلع أخاه القاسم كما يشاء .

ثم أمر الرشيد فقرىء الكتابان على الاخوين في المسجد الحرام وشهد عليهما من حضر من رجال الدولة ثم قرىء الكتابان على أهـــل ذلك الموسم كافة ليشهدوا عليه . ثم كتب الرشيد بذلك كله إلى الامصار يأمر العمال أن يعلنوه للناس . ويثبتوه في الديوان فأخذت البيعة كمـــا قال اليعقوبي «على الناس كلهم حتى أهل الاسواق »[1] .. أما الكتابان الاصليان فقد أمر بتعليقهما في الكعبة ، في عهدة حجابها .. أتراه ، في هذا التوثيق كله ، كان يشك في قرارة نفسه في إمكان تنفيذ هذه العهود،

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤١٥

**والنقد** الداخلي لنصوص الكتابين كما أوردهما الطبري[1] تكشف أن بعض التعديل والإضافة على الأقل قد دخل عليهما وأنهما في شكلهما الموجود متحيزان للمأمون التحيز الواضح ، ويستبين الزيف الداخل عليهما في عدد من النقاط التي إنما نبتت مشاكلها وظهرت بعد موت الرشيد ومنها :

أ ـ اصرار الكتابين على منح المأمون فقط ـ دون الامين ـ التأكيدات والضمانات بجميع حقوقه في ولاية العهد وفي خراسان وفي الاموال والحاشية .

ب ـ إصرارهما أيضا على منح المأمون في خراسان الاستقلال الكامل الذي يقطعها انقطاعاً تاماً عن الدولة وهذا ما لا يمكن أن يقرره الرشيد .

جـ ـ اعطاء العذر الشرعي للمأمون في أخذ الخلافة فورا إن انتقصه أخوه الامين قليلا أو كثيرا مما اعطاه الرشيد .

د ـ التأكيد أكثر من مرة على أن المأمون يفي للامين « ما وفى له أخوه » فان انتقصه شيئا فلا وفاء .

هـ ـ أدخل على الكتابين تحديد ولاية خراسان والكور التي أضيفت اليها ليكون ذلك تسديدا للمشكلة التي قامت فيما بعد بين الاخوين على سلخ بعض الكور المضافة الى تلك الولاية .

و ـ ذكر في كتاب المأمون عهد « قرماسين » وهذا العهد إنما كان سنة ١٨٩ .

---

(١) في الطبري ج ٨ ص ٢٧٧ ـ ٢٨٦ ( ٣/٦٥٤ ـ ٦٦٦ ) نجد نصوص هذه العهود وكتاب الرشيد الى الآفاق . وانظر ج ٨ ص ٢٨٦ فيما يتعلق بعهد قرماسين وتجديد البيعة سنة ١٨٩ .

ز ـ ذكرت في كتاب الامين بيعة القاسم وجعل للمأمون أن ينفذها أو يلغيها بينما لم يذكر من ذلك شيء في كتاب المأمون الذي قال إن للامين « إن أراد أن يعين من يشاء من ولده العهد والخلافة بعدي » !! فكأن الفقرة المتعلقة بالقاسم إنما أدخلت لايجاد العذر الشرعي للمأمون لأنه لم يجعل القاسم خليفة بعده .

وعلى أي حال فقد علق بعض المؤرخين على العهد المثلث وقسمة الدولة بتخطئة الرشيد كابن الاثير . وإذا كان هؤلاء إنما يحكمون بعد أن سجل التاريخ ما جرى من القتال الأخوي فان آراء المعاصرين أنفسهم انقسمت ـ على ما يظهر ـ بشأن خطوة الرشيد هذه وقد شعر بعضهم بأخطار ذلك يقول الطبري : « ولما قسم الارض بين أولاده الثلاثة قال بعض العامة : قد أحكم أمر الملك . وقال بعضهم : بل ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية ... » وقال شاعر من شعر طويل :

| | |
|---|---|
| رأى الملك المهذب شر رأي | بقسمته الخلافة والعبادا |
| أراد بها ليقطع عن بنيه | خلافهم ويبتذلوا الودادا |
| فقد غرس العداوة غير آلٍ | وأورث شمل إلفتهم بدادا |
| فويل للرعية عن قليل | لقد أهدى لها الكرب الشدادا |
| ستجري من دمائهم بحور | زواخر لا يرون لها نفادا |

وزادت غلطة الرشيد سوءاً بتقسيمه امبراطوريته بين أولاده فجعل للمأمون شرق البلاد منذ همدان . وللمؤتمن الثغور والجزيرة . وللامين

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٧٦ ( ٣/٦٥٣ ) .

العراق والحجاز والشام ومصر ••• وفصل بين سلطاني الامين والمأمون في مناطقهما كل الفصل بشكل يصعب معه ارتباطهما إذ لم يدع لاحدهما مطلقاً من علاقة مع الآخر •

والطبري[1] يذكر من نصوص العهد مثلاً قوله : ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه ( عن المأمون ) قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون ••• ولا يولي عليها أحداً ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بنداراً ولا محاسباً ولا عاملاً ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير حزراً ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره ••• ومثل هذه الوثيقة يمكن أن تعتبر جزءاً من قصة انقسام الامبراطوريةالعباسية• ولو أنها طبقت بحذافيرها لكانت نواة لقيام دولتين عباسيتين ! وقد لاحظ ذلك المعاصرون وعبر عنه الأمين بقوله : « لا يجتمع فحلان في أجمة » • إن الرشيد نفسه قد وضع أول خطوط النضال الاخوي الذي أراق دم ابنه الأمين •

ثم ان الأمين والمأمون كلاهما وجدا منذ يفعا حزبين جاهزين لهما: فالهاشميون والعرب سعوا لخلافة الامين وعلقوا الآمال عليه • وكان لهم تأثيرهم في الدولة حتى اعترف بذلك الرشيد حين ولاه • واعترف الفضل ابن سهل ، حين حذر المأمون منهم وهو ما يزال في بغداد قبل وفاة الرشيد فقال له : « ••• سله أن يشخصك معه ( مع الرشيد ) فانه

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٢٨

عليل • وغير مأمون إن يحدث عليه حادث ، أن يثب عليك أخوك فيخلعك وأمه زبيدة وأخواله من هاشم[1] » • والفرس ( وعلى رأسهم الفضل بن سهل ) اعتبروا المأمون ابن اختهم• والفضل حين جعل يشد من عزيمته كان يقول له : « إنك بين أخوالك •• اصبر وأنا أضمن لك الخلافة[2]» •

وقد انقاد الاخوان لدسائس الحاشية فقاد المعركة السياسية وراء الامين الفضل بن الربيع ، وقادها من خلف المأمون الفضل بن سهل • فحاشية الامين دفعته لنقض العهد ( يشهد بذلك اليعقوبي والجهشياري والطبري والفخري في نصوص واضحة ) ولكن يظهر ان فكرة النقض كانت قائمة ، من قبل ، في نفس الامين ( ذكروا انه حلف بالوفاء في الكعبة وهو ينوي الغدر وانه قال لا يجتمع فحلان في أجمة ••• وانه حين بلغه قرب وفاة والده أرسل كتباً سرية ليرد الجيش الى بغداد مع ان الرشيد أوصى به للمأمون ••• ولم يكن لاحد من حاشيته وزن كبير إذ ذاك • وبالمقابل طمع الفضل بن سهل لصاحبه بالخلافة وليس دون ذلك[3] • وكثيراً ما شدد عزيمة المأمون ونصحه بالعناد وألف حوله الانصار وأجاب وفود الامين بدلا منه •

ثانيا ـ تدبير الأخوين بعضهما لبعض أوصل لدرجة الحرب الاخوية :

استند الامين فيعمله الى أن بغداد العاصمة فييده وانالكتلةالعربية تعمل بجانبه والى ان جيوش الدولة تأتمر بأمره ولقب الخلافة لهوسلطتها المطلقة تمنحه أن يتصرف كما يشاء • بينما استند المأمون الى خراسان

(١) المسعودي ج ٣ ص ٢٧١
(٢) الجهشياري ص ٢٨٠

والى العهد القانوني الذي منحه إياه الرشيد والي جيش خراساني فقط •
وكان ظاهراً منذ البدء ان زمام الموقف بيد الامين ــ ولعل هذا كان سبباً في اهماله أخذ أخيه بالحزم ــ غير أن المأمون وأصحابه عدلوا الكفة بالعمل المنظم الدقيق وبالدعاية الواسعة •

ومن المناسب أن نسجل هنا أن الامين ، في محاولة خلع أخيه المأمون لم يأت بجديد في السياسة العباسية • ولكنه اتبع السنة التي استنها المنصور ثم اتبعها الخلفاء التي توالوا بعده حتى الامين •
أبو جعفر هو الذي حول الخلافة لابنه المهدي وطرد عنها ابن أخيه عيسى بن موسى بالرغم وبالتهديد والوعيد•والمهدي حولها لابنه الهادي وزاد فعهد لاخيه الرشيد معه طارداً عنها عيسى نفسه • ولم يكن سوى يوم أو بعض يوم بين الهادي وبين قتل أخيه الرشيد وإعلان البيعة لابنه جعفر لولا أن العمر انقطع به ••• والرشيد نفسه أعطى الخلافة لابنه ثم لابنه الثاني ثم للثالث وألقى بالسجن ذلك الذي فكر فيها من أقربائه: عبد الملك بن صالح • وسوء حظ أو تدبير الامين هو الذي جعله يفشل فيما نجح فيه السابقون له •

وبالمقابل ويبدو من عدد من القرائن أن المأمون لم يكن بعيداً عن التفكير ومنذ وقت مبكر جداً في الوصول الى الخلافة وفي انتزاعها من أخيه • فإنه مقابل تفكير هذا الأخ في خلعه عن ولاية العهد ألغى أسمه عن الطراز والنقود وقطع عنه البريد منذ ١٩٤ كما تسمى في الوقت نفسه بالإمام ليتوازي معه في اللقب بل يذكر صاحب العيون والحدائق أن المأمون «تسمى ١٩٥ أميرالمؤمنين وانقطع ذكر الامين من جميع أعمال خراسان •••»[1] ثم ما كاد جيش المأمون ١٩٦ يسجل نصراً على جيش

---

(٢) العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٣٢٣

الأمين حتى زحف المنتصرون على الفور الى بغـداد فحاصروها • ولم يحاول المأمون ــ وقد امتد الحصار سنتين ــ أن يفاوض أخاه أو يقيم صلحاً يؤكد فيه حقه في ولاية العهـد لأن الخلافـة كانت قد أضحت مطمعه • وطال الحصار فلم يفكر المأمون في أنه إنما يحارب صاحب البيعة الشرعية وأنه هو نفسه لاحق له في الخلافة مع وجود الأمين فحربه اذن غير شرعية • وحين استسلم الأمين لجيش المأمون ماكان لقادة هذا الجيش أن يقتلوه لولا أن تعليمات المأمون إليهم كانت تقضي بذلك • ولعلنـا نذكر أن قائد جيش الأمين كان يحمل معه ، عند مسيره الى خراسان قيداً من الفضة لتقييد المأمون بينما لم يقدم قائد المأمون غير السيف للأمين في بغداد • وهكذا فإن المأمون بدلا من ولاية العهد أخذ الخلافة نفسها وروح أخيه •

وقد شوهت الدعاية المأمونية سمعة الأمين في عهده ثم لدى المؤرخين من بعد بينما أشادت بقابليات المأمون منذ صغره وبحزمه ونسكه ••• «ذكروا للرشيد قوله عنه : أتعرف فيه حزم المنصور ونسك المهدي ، وجرأة الهادي ولو شاء أن انسبه في الرابعة لي لفعلت» ولا شك أن خلافة المأمون الطويلة وسمعته العلمية الرائعة قد انعكست على ماضيـه قبل الخلافة وزادت في تألقه وفي تعصب العلماء له ، بينما ظل الأمين المهزوم سيء السمعة يسميه التاريخ (بالفاسق) و (المخلوع) ، • ويتهم بشتى التهم • فلا يجد مع قصر عهده ومطاعن أخلاقه وهزيمته في النهاية ، من يدفع تحيف الدعاية له • وهذه الدعاية لعبت دورها خلال فترة النزاع نفسها حتى ــ كما يقول الجهشياري[1] ــ «سارت الركبان في الآفاق

(1) الجهشياري ص ٢٩٢

بغدر محمد وبحسن سيرة المأمون فاستوحش الناس منه وانحرفوا عنه وسكنوا إلى المأمون ومالوا إليه» .

مر النزاع بين الأخوين ، ككل نزاع غيره ، في طورين : طور دبلوماسي سلمي حاول به الأمين الوصول إلى ما يريد بالسياسة والمراسلة وقابله المأمون بالمطاولة . ثم جاء دور السيف بينهما بعد ذلك .

**الطور الدبلوماسي السلمي :**

(يفصله الطبري[1] تفصيلا واسعاً) ودراسته تعطينا فكرة عن الجو السياسي ومناوراته في ذلك العصر ، وقد قاد العملية الدبلوماسية والسياسية لدى الأخوين وزيراهما : الفضل بن الربيع لدى الأمين والفضل بن سهل لدى المأمون لدرجة أن بعض الكتاب اعتبر المعركة الأخوية معركة بين الفضلين . وقد وردت اخبار ومراسلات الاخوين في الطبري دون ترتيب تاريخي ، ولعلنا إذا اعتمدنا على محتوياتها وعلى شيء من المنطق ، نستطيع أن نعطيها ذلك الترتيب المتسلسل ، وأن نلخص هذا الطور بالنقاط التالية :

١ ــ حاول الأمين أن يأخذ الحيطة ويركز كل القوى بيديه حين عرف علة أبيه في طوس . وهكذا بعث من يأتيه بأخباره وبكتب ظاهرة يسأل فيها عن صحة الخليفة ، وأخرى باطنة إلى القوم والعسكر بالعودة إلى بغداد ، ومحاولة الأمين تجريد أخيه من القوة ، هذا الشكل لم يخف على الرشيد نفسه ، الذي جدد البيعة للمأمون ، وأوصى له بالجيش .

---

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٧٤ ــ ٣٨٤ ( ٣/٧٧٦ ــ ٧٩١ ) وكذلك ص ٣٩٤ ــ ٤٠٥ ( ٣/٨٠٣ ــ ٨١٧ ) .

ولكن الرشيد توفي ، ووجود الفضل بن الربيع في القوات العباسية كان كافياً لاعادتها إلى بغداد دون أن تعرج على المأمون[1] الذي عقد مجلساً لبحث الأمر ، ولكن الفضل بن سهل حذر المأمون من ملاحقتها لئلا تقبض عليه وتقدمه هدية لمحمد ، وقد بعث وراءها برسولين عوملا من الفضل ابن الربيع أسوأ المعاملة ... فأكد ذلك للمأمون ضرورة بقائه في مرو ... منذ الأيام الأولى .

٢ ـ حاول المأمون بالمقابل توطيد مركزه ، وذلك باسترضاء الخراسانيين ليكونوا معه فكرم القواد والملوك (الارستقراطية) والفقهاء وتألف الشعب بالعدل وبتخفيض ربع الخراج ، حتى سر بذلك الناس وقالوا حسب رواية الطبري[2] : «ابن اختنا وابن عم رسول الله» . ومن جهة أخرى حافظ المأمون ... ولكن وفي السنة الاولى من حكم الأمين فقط بالطبع على مظاهر الولاء لأخيه و«تواترت كتب المأمون إلى محمد بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان[3].» !

٣ ـ بدأ الأمين مشروعه ببسط نفوذه أولا على أخويه ثم عزلهما من ولاية العهد أو تقديم ابنه عليهما . بدأ بالقاسم فعزله عن الجزيرة سنة ١٩٣ هـ ثم عن الولاية جميعاً سنة ١٩٤ هـ وولى مكانه خزيمة بن خازم ثم استقدمه لبغداد[4] ثم عزله من العهد في السنة نفسها . وقد تم ذلك دون ضجة أو كبير عناء لقلة انصار القاسم الذي لحق بأخيه المأمون في

(١) الجهشياري ص ٢٧٧
(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٧٢ و ٤١١ ( ٣/٧٧٤ و ٨٢٥ ) .
(٣) الطبري ج٨ ص ٣٧٣ ( ٣/٧٧٥ ) .
(٤) الطبري ج٨ ص ٣٧٤ (٣/٧٧٦) .

خراسان ١٩٧ فولاه على جرجان[١] ... لكن المأمون أدرك منذ سمع بعزل القاسم ، كنه المشروع فقطع البريد عن أخيه محمد ومحا اسمه عن الطراز إيذاناً له بعدم الموافقة ، أو على الأقل بالاستنكار وضرب الدنانير والنقود بخراسان « وأمر ألا يثبت فيها اسم محمد »[٢] الأمين .

٤ ـ ظهرت للأمين ضرورة إضعاف أخيه والحد من نفوذه وكاد يطلب منه بعض أرض ولايته ولكن القاسم بن صبيح نصح الأمين ألا يفعل لئلا يتأكد لدى المأمون سوء الظن ويأخذ من ذلك حذره «ولكن تكتب إليه حاجتك إليه وشوقك إلى قربه ... ومشورته[٣]» «فإذا قدم عليك وفرقت بينه وبين جنده ظفرت به وصار رهناً في يديك[٤]» . وأرسل الأمين وفداً بهذه الرسالة فأكرمه المأمون وحار ماذا يجيب أخاه ولكن الفضل بن سهل شد من عزيمته ونصحه بتقوية الجيش وبالاعتذار عن المسير . ودبج للاعتذار رسالة جاء فيها «إن الامام الرشيد ولاني هذه الأرض على حين كلب من عدوها ... ومتى زلت عنها لم آمن انتقاض الأمور فيها وغلبة أعدائها عليها بما يصل ضرره إلى أمير المؤمنين حيث هو فرأى امير المؤمنين أن لا ينقض ما ابرمه الامام الرشيد» .

٥ ـ عاد الأمين إلى رأيه الأول فطلب ان يتجافى له المأمون عن بعض كور خراسان وان يرسل إليه العمال من قبله وان يقيم عامل بريد لديه . فاضطرب المأمون وعقد مجلس شورى قرر له أن يوافق . إلا إن

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٣٩ ثم ص ٤٤٥

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٨٩ (٣/٧٩٥) .

(٣) الجهشياري ص ٢٩١

(٤) الدينوري ص ١٣١

**الفضل بن سهل** رأى الرفض قائلا : «**هل تتقون بكفه (كف الأمين)** بعد إعطائه ذلك وألا يتجاوز بالطلب ؟ إنه يطلب ماليس له بحق»وكان الرفض وكتب المأمون يقول لأخيه : «لو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التي أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة ، وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال ، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يجب من لم أطرافه مايوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عناية ويستصلحه ببذل كثير من ماله. فكيف بمسألة ما أوجبه الحق والعهد ؟ ..» الخ !

٦ ــ عاد الامين فأكد الطلب مع وفد اوصاه بنشر بذور الخلاف على المأمون في خراسان وكتب إليه إن الرشيد أضاف إلى خراسان «كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها فالحق أن تكون مردودة في أهلها ... وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدي لنا علم مانعني به من طرفك .. فاثن على همتك أثن عن مطالبتك» . ولكن الوفد احيط به منذ وصل حدود ارض المأمون فلم يدعه الفضل بن سهل يقابل احداً غير المأمون . وسماه أمام الوفد (بالامام) ومنعه ان يناقشه وكلف المأمون الوفد بتأدية رسالة الى الامين يقول فيها : «لا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك . وانا مذعن بطاعتك وارضى حكم الحق في امرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك ... وقال : أعلموه أني لا أزال على طاعته حتى يضطرني بترك الحق الواجب إلى مخالفته ...» .

٧ ــ بعث الأمين بكتاب غضوب ملأه بالتهديد قال : «.. بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك معترضاً لحراق نار لا قبل لك بها ... وان

كان قد تقدم مني متقدم فليس بخارج عن مواضع نفعك .. فاعلمني رأيك» . فاجاب المأمون : «... أولى به (بالامين) ان يدير الحق في امره ثم يأخذ بـه ويعطي من نفسه . واما ماوعد من بر طاعته واوعد من الوطأة بمخالفته فهل أحد فارق الحق في فعله فأبقى للمتبين موضع ثقه بقوله ؟» .

٨ ـ أوفد الامين ـ حين صّرح الخلاف ـ وفداً سياسياً من ثلاثة رجال عليه العباس بن موسى بن عيسى يطلب الى المأمون تقديم موسى ابن الأمين بين يديه ويذكر له أن جد العباس (عيسى بن موسى) قد تنازل عن ولاية العهد مرتين . ولكن الفضل بن سهل استطاع ان يمنع النقاش في الامر قائلا : «اسكت ! لقد كان جدك بين يديهم أسيراً وهذا بين أخواله وشيعته[1] واستطاع فوق هذا ان يمني بالوعود رئيس الوفد ويأخذ منه البيعة للمأمون ويجعل منه عيناً لـه في بلاط الأمين !» «يكتب إلينا (أي إلى الفضل بن سهل) بالأخبار ويشير علينا بالرأي[2]»
٩ ـ رأى الأمين أخيراً وضع اخيه امام الأمر الواقع فأوقف الدعاء للمأمون واعلن بيعة ابنه موسى الناطق بالحق بدلا منه وضرب لذلك دراهم ودنانير تذكارية .

منذ هذه اللحظة ينتقل النزاع الى طوره الثاني المسلح . على انه من الضروري ان نلاحظ ان النزاع الدبلوماسي بقي قائماً خلال الحرب الاخوية . فالمأمون يلقب نفسه حتى قبل أن يخلع ولاية العهد ، بالامام لا بالخليفة . فإن الجماعة الاسلامية لم تعتـد حتى تلك الفترة ظهور

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٧٦ (٣/٧٧٨)
(٢) المصدر ذاتـه .

خليفتين في وقت معاً (عدا سنة الثورة العباسـية ١٣٢) ويتريث المأمون بالخلع أشهراً متخوفاً من ذلك ثم يجهر بالخلع[1] سنة ١٩٦ هـ حين انتصر جيشه على جيش علي بن عيسى قائد أخيه • (وتلك أول مرة يتخذ فيها العباسيون لقب الامام ولعل المأمون رأى فيه توكيداً للسلطة الدينية التي يحتاجها في نضاله) • ويرسـل الى اعيـان العسكر في بغداد من يستميلهم ويكتب اليه بموقف بغداد منه • كما يكتب المأمون الى قائد اخيه علي بن عيسى بن ماهان بأن الامين حل عقدة انت شددتها (لأن علياً هو الذي أخذ البيعةللمأمون في ولايةالعهد) ويخطب فيالخراسانيين يمنيهم بوعود هي أكثر مما منا هم به اسلافه يوم الدعوة العباسية • يقول : «أيها الناس إني جعلت لله على نفسي ،إن استرعاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ولا أسفك دماً عمداً لا تحله حدوده ولا آخذ لأحد مالا ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي ••• جعلت كله لله عهداً مؤكداً وميثاقاً مشدداً ••• فإن غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلا وللنكـال متعرضاً[2] •••» ولهذا العهد شأنه في المستقبل اذ أن فشل المأمون في تحقيقه سيقطع آخر صلة بين خراسان والعباسيين •

ويظهر من تصرفات المأمون حتى في نهاية الامر انه لم يكن واثقاً من النجاح ولقد حاول الهرب حين شغب عليه الجند بمرو • بينما يظهر من تصرفات الأمين واصحابه انهم كانوا واثقين من الظفـر ، حتى ان

---

(٣) جرى أحيانا أن أعلن بعض الخوارج نفسـه اميراً للمؤمنين ولكن جمهرة المسلمين لم تنظر الى مثل تلك المحاولات نظرة جدية . كما أعلن ادريس بن ادريس العلوى نفسه خليفة في اقصى المغرب ولكن في رقعة ضيقة معزولة هناك ولم يعترف به .

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٣٨

زبيدة ارسلت القيود الفضية لتكبيل المأمون واعطت التعليمات لقائدها بكيفية معاملته معاملة تليق بابن ملك • ولم يلجأ الأمين الى الدس على أخيه لدى قواده الا" حين حاصروا بغداد وحينذاك فقط كتب الى طاهر ابن الحسين يقول : « ما قام لنا قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف » ويعلق طاهر على ذلك «ماهذا كتاب مضعوف ولكنه كتاب مخذول !» •

## طور النزاع المسلح :

وهو مفصل في الكتب ويمكن تلخيص مراحل الحرب وأطوارها فيمــا يأتي :

كان الأمين بالطبع هو الذي ســوف يتخذ خطــوة اللجوء إلى السلاح لحل الخلاف باعتباره الخليفة والرجــل الأقوى ولأن المأمون معتصم منه بولايته البعيدة ولهذا : سير قائده على بن عيسى بن ماهان الى خراسان وعقد له عليها • وحشد في الجيش طاقته كلها (مطلع ربيع الآخر سنة١٩٥) وأعطى الجند مالا عظيماً بعد أن عقد مجلساً عاماً قرأ فيه في مسجد الجامع على الناس نقض أمر أخيه لعصيانه •

وحمل على بن عيسى قيداً من الفضة لتقييد المأمون أمــا وصية الأمين له فكانت سياسية حازمة : اكرم من خرج إليك من قواد خراسان وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ولا تبق على أحــد يشهر عليك سيفاً أو يرمي عسكرك بسهم • ولا تدع عبد الله (المأمون) يقيم إلا ثلاثاً من يوم أن تصل إليه حتى تشخصه إلى[1] • فإذا اشخصته فليكن معأوثق أصحابك عندك •••

---

(١) الطبري ج٨ ص ٤٠٦ (٣/٨١٩)

وقد اشترك في الجيش عناصر عربية قوية من كبار القواد واجتازوا الطريق الى همذان ومنها الى الرى • ولم ينتظر علي بن عيسى ورود النجدات له من جنوب إيران واشتبك عند الري في معركة مع قائد جيش المأمون : طاهر بن الحسين (شوال ١٩٥) • وحاول طاهر المراوغة وتكرار قصة صفين إذ علق عهد البيعة على الرماح ونادى على بن عيسى : ألست أنت الذي أخذ البيعة من الناس لعبد الله (المأمون)؟[١] • ثم جاءت المعركة بنتيجة غير منتظرة إذ هزم جيش الأمين وقتل علي بن عيسى فما وصلت الانباء إلى المأمون حتى قعد للتهنئة ثم أعلن بعد أشهر خلع أخيه الأمين ودعا لنفسه بالخلافة في خراسان • وتحول الجيش المدافع إلى جيش مهاجم يسير في منطقة الجبال باتجاه العراق •••وفي هاتين المبادرتين السريعتين إلى إدعاء الخلافة والهجوم العسكري على بغداد بعد اتخاذ لقب الامام دليل على أن المأمون وحزبه كانا يبيتان مشروع الخلافة من قبل وما كان موقفهما السلبي قبل ذلك سوى مرحلة تكتيكية • فما ان سنحت الفرصة لتحقيق المشروع حتى بادرا بأسرع مما ينتظر إلى استغلالها أوسع الاستغلال •

وإذا كان في معركة ابن عيسى وطاهر بعض الشبه من معركة ابن هبيرة وقحطبة الطائي في الثورة العباسية فإن الفرق كبير بين الجيش الزاحف الآن ومعظم عناصره إيرانية فارسية وذلك الجيش الثائر الذي كانت معظم عناصره عربية خالصة وإذا كان ثمة من تأثير فارسي في التاريخ العباسي فيمكن أن نعد هذه المسيرة باسم المأمون هي نقطته الانقلابية الهامة •

---

(١) الطبري ج٨ ص ٣٩٣ (٣/ ٨٠١)

وعلى اي حال فإن هده المسيرة الثانيه من خراسان والتي جاءت بعد حوالي خمس وستين سنة من المسيرة الأولى كانت هي الحركة الايرانية الحقيقية التي ادخلت العنصر الفارسي أو حاولت إدخاله ، في طلب الحكم العباسي وإن انقلب المأمون نفسه عليها فيما بعد .

ووصل جيش المأمون الى همذان ثم حلوان ـ على الطريق ذاتها التي كان قد سار عليها قحطبة من قبل . وانتقلت الحرب من الهجوم على مداخل خراسان الى الدفاع عن مداخل العراق من ناحية الجبال ..
وجمع الأمين آخر قواه لصد جيش طاهر بن عيسى جند عشرين ألفا من العرب بقيادة أحمد بن مزيد وعشرين ألفاً من الأبناء بقيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي . ولكن الجيشين وصلا خانقين ثم اختلفا وعادا دون لقاء طاهر[1] الذي سلم ما بيده من البلاد لقائد جديد بعثه المأمون هو هرثمة بن أعين وانحدر الى الأهـواز ليدخل العراق من الجنوب . فانتصر هناك على محمد بن يزيد المهلبي وأنفذ العمال الى البحرين وعمان واليمن ومكة والمدينة وعبر البلاد الى واسط بينما كان هرثمة بن أعين يدخل العراق عن طريق حلوان ويضع الحصار على بغداد بعد أن هزم ٤٠٠ لواء عقدها الأمين لجيش يقابله دونها . وعلى بغداد وافاه جيش طاهر .

ولم يكن تقدم هذه الجيوش سهلا فيما يظهر لأنها قضت في ذلك معظم سنة ١٩٦ . ولم يكن حصار بغداد هيناً ولا كان الدفاع عنها ضعيفاً فقد قضى المحاصرون في ذلك سنة ١٩٧ أيضاً . وحفرت الخنادق وبنيت الحيطان وهدمت الدور بالمجانيق والعرادات ، وسمحت الحرب

---

(١) الطبري ج٨ ص ٤٢٣ (٨٤٠/٣)

للعيارين بفرصة ذهبية لممارسة اللصوصية والفوضى وتتالت المعارك على الأبواب والمواقع .. حتى انتهى الأمر أخيراً باستسلام بغداد . بعد أن فقدت الأمن والمؤونة والقوى واستأمن قائد الامين الأساسي خزيمة بن خازم للجيش المحاصر . أما الأمين فلقي مصرعه (٤ صفر ١٩٨) وهو في طريقه للاستئمان عند هرثمة بن أعين .. فقد دبر طاهر مقتله . وفي هذه المؤامرة كاد هرثمة نفسه يغرق في دجلة ! وبينما نصب رأس الأمين على باب الأنبار طارت الرسل إلى المأمون بالفتح ، فلم يدر هو وأصحابه رغم الفرح به ، كيف يصوغون الاعتذار أمام الناس عن مقتل الأمين[1] ! يقول الطبري : «... لما بعث طاهر (بن الحسين) برأس محمد (الأمين) الى المأمون بكى ذو الريا ستين (الفضل بن سهل) وقال : سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ! أمرناه أن يبعث به أسيراً فبعث به عقيراً .وقال له المأمون : قد مضى ما مضى فأحتل في الاعتذار منه . فكتب الناس فأطالوا وجاء أحمد بن يوسف بشبر من قرطاس فيه : أما بعد فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة لمفارقته عصم الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ... فلا طاعة لأحد في معصية الله ... وقد قتل الله المخلوع ! ..» .

وباعتبار نكث العهد معصية دينية عاقبها الله ، انتهى الفصل الأخير من الدعاية المأمونية ضد الأمين ومن أمر الأمين نفسه !

---

(١) يعقد الطبري صفحات طويلة لتفصيل المعارك في بغداد وللقصائد التي قيلت في ندبها وتصوير حالها السيئة .(ج٨ ص ٤٢٨ ـ ٥٠٨) ، (٣/ ٨٤٦ ـ ٩٥٠) .

(٢) الطبري ج٨ ص ٥٠٧

على أننا نلاحظ حول تلك الحرب الأخوية الملاحظات التالية :

١ ــ مبالغة الكتاب في تقليل جيش المأمون جعلوه (٣٨٠٠) امام جيش الأمين الذي ذكروا أنه كان ٤٠ الفاً •

٢ ــ ضعف معنويات جيش الأمين • ومن آيات ذلك ان علي بن عيسى لم يكن يقيم وزناً لطاهر بن الحسين ، واحمد بن مزيد الذي رجع دون قتال • ثم كثرة الدخلاء على الجند فيــه من الزناقيل واللصوص والشطار •

٣ ــ افسد الأمين جنده بكثرة العطاء دون ان يتأكد من ولائهم وقد شغبوا بعد مقتل عيسى قائدهم فزاد في عطائهم •

٤ ــ قيام الاضطرابات في العاصمة بغداد نفسها وكان المفروض أن تكون العاصمة بعد كل شيء حصن الأمين وموئله •

٥ ــ خطأ الأمين في تولية علي بن عيسى لحرب الخراسانيين وهو عدوهم منذ زمن الرشيد •

٦ ــ كان المأمون بالمقابل موفقاً في القواد وقد قال الأمين: «•••وهل كان المأمون لو اجتهد بنفسه وتولــى الامر برأيــه بالغ عشر ما بلغه طاهر •••» كما أنه كان متجانس الجيش • وجنده يدافع عن وعود يمني نفسه بهــا •

٧ ــ انتقضت قبيل حصار بغداد وخلالــه ، بعض الأقطار على الأمين • فقد خشي عاملا البصرة والكوفة (وهما منصــور بن المهدي والعباس بن موسى الهادي) أن تعدو خيل طاهر بن الحسين عليهما بعد أن دخلت من الأهواز الى واسط فبايعا المأمون • وكتب بالبيعة صاحب الموصل ( المطــلب بن عبد الله ) وجمع داوود بن عيسى بن موسى عامــل مكة والمدينة الناس وأهــل الشــرف والفقهــاء فذكرهم عهد

الرشيد واحراق الأمين له وأنه غدر فبايعوا المأمون وذهب داوود الى مرو فعاد منها بخمس مائة ألف درهم ••• ووجه طاهر بن الحسين من بغداد يزيد بن جرير القسري على اليمن عاملا فاستطاع أخذ البيعة للمأمون ••• وقد أثر ذلك كله في خذلان الأمين العسكري عدا المعنوي •

٨ ـ فشلت قبل أن تتحرك محاولة شامية لانقاذ الأمين فقد كتب إليه عبد الملك بن صالح سنة ١٩٦هـ وكان قد أخرجه من السجن سنة ١٩٣ : «إن أهل الشام مسارعون الى طاعتي فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له جنداً تعظم نكايتهم في عدوه في كلام طويل ••» وكان الوعد حينما أطلقه الأمين من السجن أن يقوم بالمناصحة والولاء «فولاه الأمين الشام واستحثه فلما قدم عبد الملك الرقة آرسل كتبه ورسله الى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة فلم يبق من يرجى ويذكر بأسه إلا سارع فوعد الناس ومناهم فقدموا عليه رئيس بعد رئيس وفوج بعد فوج فأجازهم وخلع على كل من قصده وأجازه ثم •• اختلف جماعة من الجند (الخراساني والشامي) فأعان كل فريق صاحبه وتضاربوا بالسيوف ونشبت الحرب وتفاقم الأمر فنادى الناس : الهرب أهون من العطب والموت خير من الذل • النفير النفير قبل أن ينقطع الشمل • وكان عبد الملك مريضاً • فمات في تلك الأيام •••[1]» وفشلت النجدة التي كان من الممكن أن تغير في مصائر الحرب والخلافة لو أنها تمت •

---

(١) انظر العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٣٢٨ وانظر الطبري ج٨ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٦ (٣/٨٤١ـ٨٤٥) فلديه تفاصيل كثيرة حول فشل هذه النجدة ....

٩ ـ أتت الحرب الاخوية على بغداد التي حوصرت عامين وخرب قسم كبير منها أو احرق وقتل اهلها وترك لنا الشعراء صورة جهمة لكل ذلك (١) .

١٠ ـ يبدو أن النزاع الأخوي لم يقتصر على الأخوين وحدهما ولا على مناطقهما في خراسان والعراق ويذكر اليعقوبي حين يعرض لوفاة عبد الملك بن صالح العباسي سنة١٩٩ في الرقة ، اضطراب الناس وتحزبهم وحربهم بعضهم لبعض في الجزيرة والعواصم والثغور . يقول : «واضطرب البلد بعد وفاته . وتغلب كل رئيس قوم عليهم . وصار الناس حزبين : حزب يظاهر بمحمد وحزب يظاهر بالمأمون . فلم يبق بلد إلا وبه قوم يتحاربون . لا سلطان يمنعهم ولا يدفعهم(٢) » .

١١ ـ قد نستطيع تلخيص حرب الأخوين ونتائجها بكلمة كلود كاهن الذي قال : « ... إن جيش (المأمون) لم يجد مشقة كبرى في عقد عرى التفاهم مع الأوساط الايرانية في بغداد بينما عجز الأمين عن إخماد المنازعات القبلية بين العرب الذين استنجد بهم . فوقع في ضيق شديد وحوصر في بغداد مما اضطره الى توزيع السلاح على العامة الذين أبدوا ضروباً من الشجاعة اليائسة التي بقيت دون جدوى .. واستولت خراسان مرة ثانية على مقاليد الأمور وكان هذا الانتصار أعمق أثراً منه في المرة السابقة لأنه تحقق على حساب النصف العربي من السكان ولم يتم بمؤازرتهم الجزئية ...»(٣)

---

(١) جمع صاحب عصر المأمون اطراف تلك الصورة في القسم الاخير من كتابه ،ونجدها لدى الطبري في أحداث ١٩٦ ، ١٩٧ و١٩٨ .

(٢) اليعقوبي ح٣ ص ١٦٩

(٣) كلود كاهن ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ( الترجمة العربية، بدر الدين القاسم ـ بيروت ١٩٧٢) المجلد الأول ص ١٠٨

١٢ ــ أدى اعتماد الأمين على عنــاصر «العامــة» في بغداد الى تكتيلها وشعورها بقوتها ولهذا فإنها سوف تظهر خلال العهود المقبلةولمدة قرون كجماعة مسلحة وذات تأثير مباشر في الأحداث المختلفة ولا سيما عند الأزمات • وسينجم عن وجودها ــ وهو وجــود يرجع في أسبابه وجذوره الى المستوى المعاشي الواطيء الذي تعيشه والى فقد فرص العمل والى التفاوت الطبقي المالي خاصة ــ الكثير من المآسي والنكبات في بغــداد •

١٣ ــ قتل الأمين في النهاية وهزم الحزب الاميني ولما كان أغلبه من العرب فقد أدى ذلك الى اختلال التوازن بين القوى العربية والايرانية في الدولة زمن المأمون الذي أخذ الناس عليه نظره فقط «لعجم خراسان» ••• مما مهد للجوء المعتصم من بعده الى عنصر جديد هــو العنصر التركــي •

وبعد هل انتهت بانتهاء الخلاف الاخوي مشكلة ولاية العهد ؟ لقد حاول المأمون محاولة غريبة في ذلك اذ حـّول ، لفترة قصيرة، ولاية العهد الى العلويين ممثلين في شخص علي الرضا العلوي (الامــام الثامن للشيعة الاثنى عشريــة) ولبس المأمون الخضرة بدل السواد كما يقولون وأشخص اليه ذلك الامام من المدينة الى مرو وقربه وزوجــه ابنته (رمضان سنة ٢٠١ هـ) (آذار سنة ٨١٨ م) •

واذا كان الرأي الشائع ان نصر المأمون نصر فارسي وكان يتضمن تأييد العلويين فان المستشرق غبريلي ينقض ذلك من ناحيتين :فالتشيع كان اذ ذاك عربياً ثم ان النزعة الفارسية لم تكن سياسة المأمون لكن سياسة الفضل بن سهل وقد قتل فيما بعد ••• فالمسألة اذن تحتاج الى تحقيق وهي لم تبحث بعد •

والطبري يعلل ذلك قائلا : «إنه (أي المأمون) نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد احداً هو أفضل ولا أروع ولا أعلم منه» ـ ولعله أخذ التعليل من المنشور الذي أصدره المأمون لتفسير ذلك • لكن فضائل الرضا لا تكفي لتفسير هذه الخطوة السياسية الهامة • ويظهر ان الفضل ابن سهل ووجود المأمون في خراسان هما اللذان اتهيا بالمأمون الى هذا العمل • ويوافق الفخري واليعقوبي والجهشياري على تدخل الفضل في الامر وقد شاع ذلك في بغداد آنئذ • كما يظهر أن للخراسانيين يداً فيه ويظهر ذلك من احتفائهم العظيم بالرضا ومن سلطته الكبرى فيهم ، ولعل ذلك إنما كان ليأسهم من بني العباس وبدء ميلهم الى العلويين •

وملاحظة أخرى حول طريقة المأمون في إعطاء ولاية العهد للرضا بشكل يكاد يكون اجبارياً قوله : (لا بد من قبولك ذلك ، فإني لا أجد محيصاً عنه) ، تدل على اضطراره لهذه الخطوة ، فهل شعر بضعف مركزه حتى في خراسان بعد ان خسر تأييد العباسيين له فاراد استغلال الميول الشيعية الناشئة هناك ؟ والتي تفشت بعد يأس خراسان من العباسيين ؟ أم أن الفضل بن سهل أراد تحويل الخلافة إلى علي تمهيداً لتحويلها ملكاً كسروياً ، كما اتهم في وجهه أمام المأمون إذ ذاك ؟ قد يكون في هذا شيء من الصواب ولعل الأقرب منه الى الواقع أن المأمون رأى تلك الثورات العلوية التي ملأت اليمن والحجاز والعراق ، وعرف انحراف أهله من بني العباس عنه فأراد اجتذاب العلويين إليه باختيار واحد منهم فتهدأ ثورتهم ! ••

ويجب أن نفتش عن تفسير هذا «الانقلاب العلوي» في تفكير المأمون ، في تلك الصلة الفكرية القوية التي كانت قائمة منذ حوالي القرن مابين الشيعة الزيدية وبين مذهب المعتزلة من جهة وبينها وبين جماهير

الفقهاء في العالم الاسلامي من جهة أخرى . فإذا كان الكثير من الفقهاء المشهورين وأتباعهم قد عرفوا بميول علوية معتدلة ووصف بعضهم بالزيدية مثل مالك بن أنس وأبي حنيفة وسفيان الثوري والأعمش ومحمد بن هرمز وابن غيلان ... الخ . فإن الزيدية كانت تبنى فكرها الفلسفي الفقهي على أساس الاعتزال وكانت نظرية الزيدية والمعتزلة في الإمامة متطابقة وهي تعطيها لأجدر الناس بها دون اعتبار الفرع النبوي الذي ينتسب إليه . ولاشك أن المأمون الذي وجد نفسه خارج النظرية العباسية ووجد انكماش الجماعة العباسية كلها عنه أراد أن يثبت حقه في الخلافة عن طريق تبني الفكر الاعتزالي ـ الزيدي ـ الذي يبرر إمامته ويوجد بين مختلف الاتجاهات الاسلامية وقد أراد تأكيد ذلك بإعطاء ولاية العهد لأبرز أبناء البيت العلوي في ذلك الوقت كبرهان على حق الامامة للأفضل وعلى ضرورة توحيد الاتجاهات الاسلامية . واختار لهذه العملية السياسية ـ الدينية «علياً الرضى» مع أنه ليس من الزيدية ولكن من الفرع الجعفري . ولنلاحظ أن المأمون ظل على اصطناع الخضرة بدل السواد حتى بعد وصوله إلى بغداد بأشهر كما أنه ظل على الجدل بفضل علي زمناً طويلا بعد ذلك وظلت المنابر تعلن بأمره أن علياً خير الخلق بعد الرسول .

أما ان الأمر كان مناورة سياسية من المأمون لتهديد بغداد ومن بها من العباسيين ليعودوا الى القبول به تمهيداً لانتقاله اليهم فيظهر أن ذلك بعيد الاحتمال إذ كان للبيعة العلوية وقع الصاعقة في بغداد ... فزادت فيها الفوضى والنقمة على الوالي الحسن بن سهل وعلى الوزير البعيد الفضل (أخيه) وبايع الناس ابراهيم بن المهدي ! .. ولم يعلم المأمون بما

جرى ، وإنما علمه متأخراً من الرضا نفسه • إذ صرح له بما كان يجري ويكتم عنه ، فقرر المأمون سوء خطة ابن سهل وضرورة العودة عنها والاعتماد على بغداد والعباسيين ، ولا بأس في سبيل ذلك ، من التضحية بالرضا وبالفضل ، فتخلص من الرضا بعد قليل بالسم وتخلص معه من الفضل نفسه بينما كان في الطريق إلى عشيرته من العباسيين في بغداد ، أول سنة ٢٠٣ هـ •

وهكذا لم تحسم مع المأمون مشكلة ولاية العهد • وبالرغم من أنه خلع أخاه القاسم من بعده إلا أنه لم يعين أحداً بعده • ظل على ذلك خمس عشرة سنة ، حتى كان مرضه الأخير فعهد بالأمر إلى أخيه محمد ابي اسحق المعتصم متجاوزاً في ذلك ابنه العباس رغم حب الجند له • وترك المأمون لأخيه وصية ضمنها خلاصة تجاربه السياسية[1] يطلب فيها إليه: متابعة القول بخلق القرآن والاهتمام بجمهور الرعية «الرعية الرعية ، العوام العوام ، فإن الملك بهم والترفيه عنهم ، والتعجيل بالرجوع إلى العراق ، والاهتمام بالثغور والعواصم والجد في محاربة الخرمية •••• وان لا يستوزر أحداً وأن يرفق بالعلويين «فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تفضلها في كل سنة عند محلها» •



(١) الطبري ج٨ ص ٦٤٧ ـ ٦٥٠ (٣/١١٣٦ ـ ١١٤٠)

# الفصل العاشر

## مشاكل الحكم ـ ٢

## الـــوزارة

### آ ـ وزارة المهدي والهادي :

إن استقرار عهد المهدي بعد المنصور جعلـه يترك شيئاً فشيئاً شؤون الدولة لمن سمي (بالوزير) ، وابن الطقطقي يقول : «وفي أيامه ظهرت أبهة الوزارة ... بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاويـة بن يسار ، ففوض إليه المهدي تدبير المملكة» ، ومن هذا الوقت تبدأ مكانة الوزراء بالظهور في العهد العباسي ، ويأخذ تسرب السلطة إليهم ومنازعة الخلفاء لهم على حدود تلك السلطة شكل نكبات يذهب بعضهم ضحيتها . وغالباً ما كان تعيين الوزراء يأتي بنتيجة مقدرة كتابية أو إدارية لامكافأة على خدمة أو نفوذ كما كانت نكباتهم ترجع إلى بعض الدسائس والحذر، لا إلى عجز أو انحراف ، وظلت مؤسسـة الوزارة مقلقلة الوضع تتبع هوى الخليفة في التعيين والعزل والالغاء . وقد استأثر بحث الوزارة باهتمام المؤلفين منذ ظهرت الوزارة وألفت فيه الكتب مـن الأقدمين

والمحدثين[1] على السواء • بسبب ما أصاب هـذه المؤسسة وأصحابها الوزراء من النكبات والاضطراب في التاريخ الاسلامي • بدأت الوزارة العباسية قبل ظهور الخلافة العباسية ذاتهـا وكان نصيب أول وزير لها القتل كما كان ذلك نصيب الثاني ونجا الثالث (الربيع بن يونس) الى حين فقد توفي المنصور قبل أن ينكب أو يصاب بسوء وقـد نحـاه موت المنصور بشكل آلي •

واستوزر المهدي أبا عبيد الله معاوية بن يسار ،ويسميه الجهشياري أبا عبيد الله عبيد الله بن عمران ، ثم قتل ابنه على أنه زنديق وصرفه[2]• ويبدو أن للدسائس في البلاط أثراً في صرفه وفي مقتل ابنه سنة ١٦٣ وقد كان كمـا يذكر الطقطقي «كاتب الدنيا وأوحـد الناس حذقاً وعلماً وخبرة •••» •

وجعلت الوزارة من بعده ليعقوب بن داوود حتى غلب على كل شيء في الدولة ، وحتى قال بشار بن برد : « الخليفة يعقوب بن داوود!» ثم نكب يعقوب سنة ١٦٦ هـ ونكب أهله بحجة ميله للعلويين فسجن في المطبق حتى اطلقه الرشيد منه سنة ١٨٧ هـ وقد ذهب بصره • ثم تلاه في

---

(١) من أهم الكتب القديمة الباقية في هذا الموضوع كتـاب الوزراء والكتاب للجهشياري ، وكتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبـا الطقطقي . وكتاب تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابىء عدا عدد من الكتب الأخرى التي ما تزال مخطوطة . وأما من الكتب الحديثة فهناك كتاب سورديل عن الوزارة في العهد العباسي (بالفرنسية) وكتاب الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية لتوفيق سلطـان اليوزبكي (بغـداد) وكتاب الوزراء العباسيون لمحمد احمد برانق (القاهرة) .

(٢) يتحدث الفخري باسهاب ص ١٣٤ عن الدسائس التي أدت إلـى صرفه وصاحبها هو الربيع بن يونس .

الوزارة الفيض بن ابي صالح شيرويه حتى نهايـة خلافة المهدي وكان الفيض نصرانياً في الأصل ومن المشهورين بالعلم والأدب والكرم الواسع وقد انتهت وزارته بموت المهدي سنة١٦٩ ومات بعدذلك بأربع سنوات .

ووزر للهادي رغم قصر عهده ابو الفضل الربيع بن يونس (وزير المنصور من قبل) فقد كان هو الذي أخذ البيعة للهـادي في بغداد ثم صرف عن الوزارة[١] وأعطيت لإبراهيم بن ذكوان الحراني . ولكن عهد الهادي ذهب بسرعة فذهب معه ابراهيم أيضاً ...

## ب ـ وزارة الرشيد وقضية البرامكة

ماكادت الخلافة تؤول الى الرشيد حتى استدعى كاتبه يحيى بن خالد بن برمك وعهد إليه بالأمر كله قائلا : «يا أبه ! أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الرعيـة وأخرجته من عنقي إليك فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت وأسقط من رأيت فإني غير ناظر معك في شيء ...»[٢] يقول ابن الطقطقي : «وظهرت دولة بني برمك حينئذ» .

و(برمك) أو برموك ليس باسم ولكنه لقب لكبير سدنـة معبد النوبهار في بلخ . يقول المسعودي : وكان الموكل بسدنتـه (النوبهار) يدعى البرموك وهو سمة عامة لكل سدنته ومن أجل ذلك سميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت[٣] ويفهم من

---

(١) مات الربيع بن يونس في تلك السنة ١٦٩ وصلى عله الرشيد وهو ولي عهد وقيل إنه مات مسموماً بيد الهادي (حسب رواية المسعودي وابن خلكان) .

(٢) الجهشياري ـ الوزراء الكتاب ص ١٧٧

(٣) المسعودي ج٢ ص ٤٤٣ .

بعض المؤرخين (كالمسعودي وابن خلكان) ان النوبهاربيت زرادشتي كبير للنار والأرجح انه معبد بوذي كما يتضح من أقوال ابن الفقيه والقزويني ومما يذكره ياقوت الحموي أيضاً إذ يقول الأول : «انه لعبادة الأصنام» ويقول الثاني : «كان فيها (بلخ) النوبهار وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام ...» وليس في معابد النار أصنام ويضيف القزويني قوله : «.. وملوك الهند والصين يأتون اليه» وهم البوذيون في الغالب إذ لامجوس هنالك[1] . واثبات بوذية البيت البرمكي دون مجوسيته له شأنه الكبير في دراسة النكبة البرمكية .

**الجد :** أول من اتصل اسمه بالاسلام والتاريخ الاسلامي من البرامكة هو برمك نفسه . وقد نقل ابن العديم في بغية الطلب خبراً عن اسحق البلخي الشاعر أنه رأى برمك قدم على هشام بن عبد الملك في خمسمائة شاكري فأكرمه وأعلى منزلته وأعجب به ثم أسلم فكان جليل القدر عظيم الموقع منه[2] . ويروي ابن ظافر الازدي خبراً آخر مشابهاً يقول فيه : إن برمك كان كاتباً ظريفاً أديباً قد تبحر في أخبار ملوك الفرس وعلمائهم ونظر في علوم الاسلام وأنه صحب خواص عبد الملك بن مروان حتى اتصل به فحسن موقعه عنده ورزق الأولاد والعدد والغنى ...»[3] .

---

(١) ويتابعهم في ذلك بعض المستشرقين مثل براون (في تاريخ الادب الافرنسي) ونيكولسن (في الادب العربي) .

وتراجع مادة (برمك) في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) ذكر ذلك ابن العديم مرتين في كتابه المخطوط بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث ٢٩٢٥) ج٣ ورقة ٢١ ظهر وج٤ ورقة وهو ينقل الخبرين عن كتاب إلى حفص عمرو بن الأزرق الكرماني : أخبار البرامكة .

(٣) ابن ظافر ــ الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة ١١٢ وجه .

ويبدو ان هذه المنزلة هي التي سمحت لابن برمك واسمه خالد ان يكون من الوجهاء البارزين في خراسان ثم أن يدخل في الدعوة العباسية السرية ويصبح داعية لمحمد بن علي العباسي ثم لابنه ابراهيم الامام • ويظهر أنه على كفاية في الادارة فكان يقسم الغنائم في جيش قطحبة وقد نظم الخراج بخراسان[1] ثم ولي لابي العباس ديوان الخراج والجند • وقام له بعد مقتل الخلال مقام الوزير ثم كان والياً في عهد المنصور على فارس ثم على الري وطبرستان واحتفظ بمكانته زمن المهدي ولئن غضب عليه فقد استطاعت الخيزران رده الى منزلته عنده فعهد اليه بتربيةهارون ابنه سنة ١٦١ هـ وقلده كتابته عند قيادة الصائفة سنة ١٦٣ حتى توفي خالد سنة ١٦٥ (٧٨١ — ٧٨٢ م) •

**الاب : يحيى :**

وقد عنى أبوه بتربيته وكان كاتباً لدى هارون منذ تولى المغرب (أي كل ما يلي الفرات الى الغرب ، من المملكة العباسية) وأقره الهادي على مكانه عند الرشيد وقد لعب يحيى دوره في عدم نقل ولاية العهد عن هارون • ويظهر أنه كان على تعاون في ذلك العهـد مع ام الخليفة : الخيزران فلما صارت الخلافة إلى الرشيد استدعى يحيى وقال لـه : «يا أبت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك امر الرعية وأخرجته من عنقي اليك فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واسقط من رأيت فاني غير ناظر معك في شـيء[2]» وكانت الدواوين كلها اليه عدا الخاتم فضم اليه في السنة التالية سنة ١٧١ هـ «هو أول من

---

(١) الجهشياري ص ٨٧ •

(٢) الطبري ج٨ ص ٢٣٣ (٣/٦٠٣) وابن خلكان ج٢ ص ٤٤٣ :

أمر من الوزراء» على قول الجهشياري[1] وكانت الكتب تنفذ باسم الخليفة فأصبحت تنفذ باسمه وكان من سداد الرأي والتدبير والسيرة بحيث تمكن مع ابنيه الفضل وجعفر من قيادة الامبراطورية العباسية سبع عشرة سنة (١٧٠ ــ ١٨٧ م) ــ (٧٨٦ ــ ٨٠٣ هـ) •

**الولـدان :**

اكبرهما هو الفضل وكان أخا الرشيد بالرضاع ، ودراسة سيرته تظهر بعض الجفوة والجد في طباعه • وكان يسمى «الوزير الصغير» لسلوكه هذا ولما كان يقوم به من دور عملي في الدولة : فلقد أخمد ثورة يحيى بن عبد الله المحض دون دمـاء وتولى للرشيد سنة (١٧٦ هـ ــ ٧٩٢ م) الجبال وطبرستان وارمينية ثم تولى خراسان (١٧٨ ــ ٩) فسار فيها سيرة حسنة في الخراج وزيادة رواتب الجند وأنشأ فرقة خراسانية من خمسمائة الف دعاها (العباسية) • وحفر قنـاة ببلخ وبنى المساجد والرباطات ••• كل هذا بسنة واحدة عدا ما كان من انسه وملذاته التي عاتبه عليها ابوه •

والفضل هو الذي ربى الأمين وأخذ له البيعة في خراسان بولاية العهد • وإذا تابعنا الطبري[2] والجهشياري[3] قلنا أن الفضل قد لعب دوراً رئيسياً في دفع الرشيد لمبايعة ابنه محمد الأمين • ولا نلاحظ له فيما عدا هذا الأمر أي نشاط في مشاكل البلاط الخاصة • فقد كان رجل

---

(١) الجهشياري ص ١٧٧ :
(٢) الطبري ج٨ ص ٢٤٠ (٣/٦١١)
(٣) الجهشياري ص ١٩٣ •

دولة وأما جعفر الأخ الثاني فأصغر من الفضل وقد لعب دوره في البلاط لا في الأعمال الرسمية كأخيه . كان من البلغاء حتى أصبحت توقيعاته على رقاع المظالم نماذج للكتاب وكان من الظرف والتأنق بحيث اختص بمنادمة الرشيد دوماً وملازمته فلم يفارقه إلا سنة ١٨٠ هـ التي ذهب فيها لتهدئة الشام . وقد عين لبعض الولايات للمغرب سنة ١٧٦ ولخراسان سنة ١٨٠ فلم يذهب اليها بل أرسل من ينوب عنه في الحكم(٩) وكان بحكم قربه من الخليفة واسع النفوذ حتى كان يدعوه بأخيه ولا يقدم عليه أحداً . ونعرف دالته على الرشيد من قصته مع عبد الملك بن صالح العباسي ، التي يرويها الجهشياري ويدهش لها ويرويها صاحب الفخري . وفيها إن عبد الملك زار جعفر البرمكي فجأة فوجده على شراب قد لبس الثياب المعصفرة كالذي جرت به عادة القوم إذ ذاك عند الشراب ، فاضطرب جعفر فقال عبد الملك : لا عليك . هاتوا لنا من هذه الثياب ! وارفقوا بنا فمالنا بهذا عادة ! فعلم جعفر أن له حاجة فتلطف به حتى بسطها فقال : إن في قلب أمير المؤمنين هنة فتسأله الرضى عني ، فقال جعفر ، قد رضي عنك أمير المؤمنين ، قال : وعلي أربعة آلاف درهم تقضى عني قال : إنها لعندي حاضرة لكن أجعلها من مال أمير المؤمنين قال وابني ابراهيم أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخليفة قال : قد زوجه أمير المؤمنين غالية (ابنته) قال : وأحب أن يخفق لواء على رأسه ، قال : «قد ولاه مصر» . وإذا كان من الأمور ذات المعنى الواضح أن يقصد عبد الملك إلى جعفر في هذه الأمور الخطيرة ولا سيما في مسألة الزواج بابنة الرشيد ، فمما يبرز بوضوح مكانة جعفر ، أن الرشيد أقر في اليوم التالي وعوده وأنفذها !

---

(٩) الطبري ج٨ ص ٢٦٦ (٣/٦٤٤)

ولقد بلغ من قرب جعفر إلى الرشيد أن نقل ديوان الخاتم إليه من اخيه ، وأشركه معه في النظر بالمظالم وحول دار الضرب اليــه ، وهو أمر لم يتنازل عنه الخلفاء من قبل لأحد[1] وأمر بكتابة اسمه على الدراهم والدنانير وجعل له ديوان البريد وديوان الطراز ... كما عهد اليه بتربية ابنه المأمون وكان سبب العهد اليه بعد اخيــه الأمين ، حتى لقد خاف يحيى ابو جعفر على ابنه مغبة هذه الصداقة الشخصية الزائدة فتقدم الى الرشيد أن يخفف عنه كما نصح إلى جعفر بأن ينهنه من اندفاعه !

وكان للفضل وجعفر اخوان آخران توليا بعض القيادات والاعمال هما : محمد وموسى ولكنهما لم يكونا بالواضحين في السياسة العباسية وإن كان لأعمالها بعض الأثر ، من قريب أو بعيد ، في النكبة البرمكية .

**مكانة العائلـة :**

ويظهر ان مكانة هذه العائلة لا ترجع فقط الى براعتها وسابقتها في خدمة العباسيين والاخلاص لهم ولكن ايضاً الى عمل امرأة ذات نفوذ كبير في البلاط هي الخيزران ام الرشيد ففي الطبري والجهشياري[1] اشارات واضحة الى ان يحيى البرمكي كان لايصدر الا عن رأيها فلما توفيت سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ ــ ٧٩٠ م) خسر البرامكة بهــا حليفهم لدى الرشيد . ولعله مما يبين مكانة الخيزران وتوضح بعض غوامض المشكلة البرمكية ان هارون الرشيد حول ديوان الخاتم بعد وفاتها من البرامكة الى عدوهم الفضل بن الربيع وذكر لــه ان امه كانت تمنعــه من هذا فيطيعها . ويروي الطبري أنه أعطاه خاتم الخلافة يوم موت الخيزران

---

(١) المقريزي شذور العقود في ذكر النقود ص ١١ .

(١) الطبري ج٨ ص ٢٣٢ وص٢٣٤ (٣/٦٠٠ و ٦٠٤)

عند قبرها وقال : «وحق المهدي •• ! ني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية غير ما تمنعني أمي فأطيع أمرها[١] فخـذ الخاتم من جعفـر (البرمكي) •••» •

**اسباب النكبـة :**

ينبغي قبل البحث التنبيه الى نقاط أربع :

أنه لم يكشف الرشيد أبداً عن سبب النكبة ويروي اليعقوبي أنه قال : «لو علمت يميني بالسبب الذي له فعلت هذا لقطعتها[٢] •••» •

٢ ـ يختلف المؤرخون في اسباب النكبة ويسجلون ذلك الاختلاف كلما بحثوا الأمر منذ عهد اليعقوبي والطبري إلى عهـد المسعودي ثم إلى عهد أبي الفداء ومن جاء بعده وتكتم الرشيد بعد النكبة وسكوت البلاد هو الذي سمح للشائعات ان تدخل في درج الحقائق وللحقائق ان تشتبه بالشائعات •

٣ ـ من العسير أن يخرج الباحث برأي نهائي في موضوع النكبة البرمكية بالاعتماد على المصادر وحدها فإنها تتعصب للبرامكة أو عليهم ولئن كان أغلب المصادر في جانبهم وما يرد ضدهم لا يتعـدى النتف المبعثرة فإن لهذه النتف دلالتها الهامة • ومرد ذلك التعصب للبرامكة الـــى :

آ ـ تعصب الاعاجم من الكتاب والمؤرخين لهم وكثير من المصادر من تأليفهم •

ب ـ تعصب الكتاب لهم (كسهل بن هارون) لأن البرامكة كتاب في الاصل ومن مؤسسي هذه الطبقة •

---

(٢) الطبري ج٨ ص ٢٣٨ (٣/٦٠٩)

(٣) اليعقوبي ج٢ ص ٤٢٢

جـ ـ كرم البرامكة الواسع الذي غطى على كثير من مساوئهم .
د ـ العطف الذي اثارته فظاعة الفتك بهم .

٤ ـ لم تكن نكبة البرامكة مفاجئة ، كما يظهر من بعض الاخبار أو يعتقد بعض المؤرخين ، فنسيجها قد بدأ منذ وفاة الخيزران سنة ١٧٣هـ أو على الاقل منذ سنة ١٧٩ حين بدا للرشيد أن للبرامكة سياسة خاصة يتابعونها ويبنون من أجلها الركائز في خراسان . وثمة سلسلة من أعمال الرشيد تشهد بذلك وتدل على انه كان يراقبهم مراقبة شديدة : فهو قد عين الفضل بن الربيع عدوهم على خاتمه أول الامر ثم صرف سنة ١٧٩ محمداً بن خالد بن برمك عن حجابته واعطاها للفضل وولى في السنة التالية علي بن عيسى بن ماهان رغم معارضة يحيى على خراسان وهو عدو البرامكة وخراسان ما هي في الولايات العباسية ورفع جعفر عن الحرس الخلافي وعين له هرثمة بن أعين احد كبار قواده[1] . وسخط الرشيد اخيراً على الفضل بن يحيى سنة ١٨٣ «فشخص هذا الى الرقة ـ كما يقول الجهشياري[2] ـ ومعه امه .. فرضي عنه ... ولم يرد اليه شيئاً من أعماله» . واتهم موسى بن يحيى عند الرشيد بمكاتبة أهل خراسان للوثوب بالخلافة فأمر بسجنه سنة ١٨٦ هـ ثم اطلقه بعد توسط ام الفضل وبعد وعد من يحيى بضمان ابنه .

ولدينا بعض الأخبار التي تؤكد ما نقرره من ان الامر مبيت قديم: ففي العقد الفريد[3] قصة يرويها عن اسحق بن علي بن عبد الله بن العباس يذكر فيها الرشيد شكه بالبرامكة لقريبه ثم يقول «كان قتلهم بعد ست

---

(١) الجهشياري ص ٢٠٧ .
(٢) الجهشياري ص ٢٢٧ .
(٣) العقد الفريد ج٣ ص ٢٦٣ .

سنوات من ذلك اليوم» وفي اليعقوبي[1] رواية مماثلة عن ابن صبيح اسماعيل الكاتب سمع بها الرشيد يتهدد البرامكة ... ثم «حال الحول وحول ثان ثم ثالث فلما كان رأس الحول الرابع قتلهم» ويروي الجهشياري[2] للسندي بن شاهك صاحب الشرطة أن الرشيد أسر اليه ان يستعد للقبض على البرامكة قبل سنة من تنفيذ العقوبة .

ويحلو لبعض المؤرخين أن يفسروا النكبة على أنها ثورة عاطفية ولكن اصرار الرشيد عليها منذ سنة ١٨٧ هـ حتى وفاته سنة ١٩٣ هـ لا يدع مجالا لمثل هذا الفرض . فان البرامكة لم يقتلوا جميعاً في لحظة واحدة وقد بقي منهم ومن أنصارهم عدد في السجون فلو كان الأمر من نزوات النفس العابرة لكان في السنوات الست التي تلت النكبةما يهدىء تلك النزوات .

والاسباب التى ذكرها المؤرخون للنكبة ، تتلخص فيما يلي :

**١ ـ قصة العباسة[1] :**

يذكرون أن الرشيد لم يكن يصبر عن منادمة جعفر ولا عن منادمة أخته العباسة فعقد له عليها ليحضرا مجلسه على ألا يدخل بها ولكنه فعل واستولدها ولداً فغضب الرشيد ونكب العائلة . ذكر القصة ابن الأثير في مطلع الاسباب وذكرها الطبري في آخرها كما ذكرها الاتليدي في في كتاب واضح الاسطورة والاضطراب والبعد عن الدقة سماه (إعلام الناس في ما وقع للبرامكة مع بني العباس) واقتبسها زيدان من المحدثين

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٢٢

(٢) الجهشياري ص ٢٣٦

(٣) الطبري ج٨ ص ٢٩٤ ، ابن الاثير ج٦ ص ١٧٥

في قصة (العباسة اخت الرشيد) والاب أنطون اليسوعي (الرشيد والبرامكة) وقد راجت القصة بين الناس لصيغتها العاطفية كما ضحى زيدان واليسوعي بالامانة التاريخية في سبيل التسلية وقبلها بعض المؤرخين (كالمدور وخدابخش) بشكلها الاسطوري ويمكن لنا أن نرجح أن هذه القصة موضوعة لأسباب عديدة :

آ ـ يروي الجهشياري[1] ان عبد الله بن خاقان سأل مسروراً الكبير (منفذ الاعدام في جعفر) في خلافة المتوكل عن سبب إيقاع الرشيد بالبرامكة فاجاب مسرور «كأنك تريد ماتقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة ••• لا والله مالشيء من هذا أصل ••• ولكنه من ملل موالينا وحسدهم» •

ب ـ هناك عدد من المؤرخين كالدينوري وبعضهم من الموثوق بهم وبمعرفتهم أخبار العراق وقربهم من عهد الرشيد كاليعقوبي لا يذكرونها والجهشياري بدوره يردها وابن كثير يقول : «ومن العلماء من انكر ذلك» •

ج ـ يفهم من ابن قتيبة[2] ان العباسة كانت متزوجة يقول : «••أما العباسة فزوجها هرون : محمد بن سليمان فمات عنها زوجها فزوجها من ابراهيم بن صالح بن علي» واذن فقصة زواجها الاسمى من جعفر وما أولدها من الولد الخ ••• غير ممكنة •

د ـ يتصدى ابن خلدون لنبذ القصة منطقياً في مقدمته ويذكر : ما يجب ان يكون للعباسة من العفاف «لقرب عهدها بالبداوة وسذاجة

---

(١) الجهشياري ص ٢٥٤ .
(٢) كتاب المعارف ص ١٦٦ .

الدين البعيدة عن عوائد الترف ومواقع الفحش • فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها ؟ ••• أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم ؟ وكيف يسوغ الرشيد أن يصهر الى موالي الاعاجم على بعد همته وعظم آبائه ••» •

ويضيف ابن خلدون أنه : «لو قاس المنصف هذا الامر على ملك من ملوك زمانه لاستبعده فكيف بالعباسة والرشيد ؟ »ولعله مما يؤيد هذا الرأي انه كان من حجج المنصور في قتله ابي مسلم طلبه الزواج من عمة المنصور • فمن البعيد أن يزوج الرشيد أخته من جعفر !

هـ ـ ليس من المعقول ان يكتم البلاط امر علاقة بلغت مبلغ ولادة البنين بين العباسة وجعفر دون أن تفتضح ، وفي البلاط أعداء كثيرون للبرامكة على رأسهم زبيدة وحزبها والفضل بن الربيع ومن حوله •

د ـ ويمكن ان نضيف أخيراً أن شمول النكبة لجميع البرامكة ومن والاهم سنين طويلة ينفي ان يكون سببها أمراً شخصياً ومتعلقاً بشخص جعفر وحده •

## ٢ ـ السبب الديني :

يتهم عدد من المؤرخين البرامكة بالزندقة ومنهم البغدادي فيذكر أن الباطنية(من المجوس) لما لم يستطيعوا اظهار عبادة النار زينوا للمسلمين اتخاذ المجامر للبخور في المساجد «وكان البرامكة قد زينوا للرشيد ان يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود ابدا فعلم الرشيد انهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة وان تصير الكعبة بيت نار فكان ذلك أحد أسباب القبض على البرامكة» • وابن النديم يقول • «آن البرامكة بأسرها ـ عدا محمد بن خالد بن برمك ـ كانت زنادقة» وقد

ظهرت من البرامكة أعمال تتهمهم بعض التهمة في ذلك ومنها تقريبهم لبني سهل وهم مجوس وتقديم الفضل بن سهل وكان مجوسياً اذ ذاك الى المأمون .

ولعل هذا السبب واضح التهافت ، فلو كان البرامكة يبطنون الكفر ، لاستطاع الناس أن يأخذوا عليهم ـ وقد امتدت أيامهم نصف قرن ـ أكثر من هذه الاتهامات الغامضة . ولكانوا أيضا تبنوا بعض الأفكار الدينية أو السياسية ليغطوا عقائدهم المجوسية . وإنما أتى البرامكة في هذه الناحية من الحسد ، ولنذكر انهم كما رأينا من قبل لم يكونوا في الغالب مجوساً . كما أن الاتهام بالزندقة والمجوسية في العصر العباسي الأول كان حجة سياسية طالما أشهرت في وجه كل أعجمي يتهم في أمره . ولنلاحظ أن الجهشياري حين نفى ، على لسان مسرور الخادم قصة المباسة نفى في الوقت نفسه قصة المجامر المتخذة للبخور في الكعبة قائلا عن الأمرين : لا والله مالشيء من هذا أصل !

### ٣ ـ السبب المالي :

يقول ابن خلدون «... إنما نكب البرامكة ماكان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه[١]» . ويقول الجهشياري [٢] : «... وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه من المال للحوادث ، سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله ، وأنه طلب من جعفر عشرة آلاف درهم ،فقال:

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ١٥
(٢) الجهشياري ص ٢٤٣ وص ٢٤٩

«لا توجد عندنا دراهم» . مع أن وارد الدولة السنوي كان يبلغ في ذلك العهد (٥٣٠) مليون درهم ونيف حسب قول الجهشياري نفسه . وهو يروي مرة أخرى ان الرشيد طلب مرة من يحيى مليون درهم فلم يجب طلبه ، وكان قد ورد من فارس ستة ملايين درهم ، ثم أخذ يحيى منها مليونا ونصف المليون وفرقها في عماله ...»[1] .

وملك البرامكة عدا هذا كثيراً من الضياع «وحاز جعفر — على قول الدميري — ضياع الدنيا لنفسه ، فكان الرشيد لا يمر بضيعة ولا بستان ، إلاّ قيل هذا لجعفر ...» وبنى قصراً كلفه عشرين مليون درهم[2] . ويروي الجهشياري أن يحيى البرمكي شاور بعض أصحابه حين رأى تغير الرشيد عليه فقال له : «ان أمير المؤمنين قد أحب جمع المال وكثر ولده فأحب أن يعقد لهم الضياع ، وقد كثر على أصحابك عنده.. فلو نظرت إلى ما في أيديهم ... فجعلتها لولد أمير المؤمنين وتقربت بها إليه ، رجوت لك السلامة» فلم يرض يحيى بذلك .

وقد شعر الرشيد بتسلطهم المالي وغناهم ، فهو يقول لمسرور : «قد نهبوا أموالي وذهبوا بخزائني» ويروي الاتليدي له قوله : «أغنيناهم وأفقروا أولادنا ، ولم تكن لأحد من أولادنا ضيعة من ضيعة البرامكة» وقد «ضرب الرشيد يحيى مائتي سوط ليقر له بما أخفاه من الأموال[3]»

ويمكن أن نكوّن فكرة تقريبية على مال البرامكة من :

---

(١) الجهشياري ص ١٤٩ و ص ٢٤٣
(٢) الطبري ج٨ ص ٢٩١ (٣/٦٧٣)
(٣) الجهشياري ص ٢٤٤

آ ــ واردهم السنوي الذي بلغ (في رواية ابن عبد ربه وابن قتيبة) عشرين مليون درهم •

ب ــ مقدار ما قبضه الرشيد من أموالهم وقد بلغ ثلاثين مليوناً وستمائة وستين الف درهم (في بعض الروايات) • هذا عدا ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم وهي ثروتهم الحقيقية لانهم كانوا ينفقون المال ــ على ما يقول الجهشياري ــ ولا يدخرونه •

جـ ــ عطايا البرامكة وأخبارها كثيرة : وقد بلغ بعض عطاياهم أربعة ملايين درهم[1] • وأحياناً عشرة ملايين درهم ، كما في قصة منصور بن زياد التي رواها الجهشياري • وقد قلد جعفر الخلفاء في العطاء فضرب دنانير خاصة للصلات : وجد في خزانته في صرة الف دينار قيمة كل دينار مائة دينار ودينار ، وفي بركة له أربعة آلاف دينار من هذا النوع وكان قد أمر ان تضرب له دنانير قيمة كل منها ثلاثمائة دينار[2] •

وهذا السبب كما يظهر ، كان عاملاً من العوامل الرئيسية في النكبة ولكنه لا يمكن أن يقوم وحده لتفسيرها •

**٤ ــ السبب الشخصي :**

يذكر المؤرخون كثيراً من القصص كأسباب للنكبة ، كقصة غناء الجارية له بيتين من الشعر :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد        وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة        إنما العاجز من لا يستبد

(١) يمكن أن نرى نتفاً من أخبار العطايا الجزيلة في الجهشياري ص ١٩٢ وص ٢٢٢ والطبري ج ٨ ص ٢٩١ والبغدادي ج ٧ ص ١٥٢
(٢) البغدادي ج٧ ص ١٥٦

وأكدت في غناء الشطر الأخير ورجعته ، حتى قام الرشيد من ساعته فأمر بنكبة البرامكة[1] . وثمة قصة شراء إحدى الجواري بمال كثير جداً فأراد جعفر أن يظهر للرشيد إنكاره ذلك ، فجعل المال كومة كبيرة في طريق الخليفة في القصر ليرى ضخامة المبلغ فيحجم فأكنها الرشيد له . وقد لا يكون لمثل هذه الأمور الشخصية اكثر من قيمة وقتية حددت يوم الفتك ولكنها لم تكن سببه ، وبلغت بتراكم الاسباب لدى الرشيد حد التصميم ولكنها لم تكن السبب الدافع ولا الوحيد ولا يمكن ان تتهم الرشيد بانحطاط التقدير السياسي الى هذا الدرك ، على انا نعد من جملة الاسباب الشخصية امر الوشاية والدس . ويظهر انه كان لهذا الامر شأنه الاول في تدبير النكبة : فقد كانت علاقة الرشيد بجعفر خاصة ، قائمة على الصداقة والعاطفة وهي عرضة ــ في مثل طباع الرشيد الحساسة ــ للتأثر والانقلاب وقد أحس بذلك يحيى الاب فقال يوماً للرشيد «والله إني أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن ان ترجع العاقبة في ذلك علي منك . فلو اعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم اعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي وآمن لك علي» .

وقد دخل الخصوم على البرامكة من ناحية الدين والدولة على السواء واستغلوا كل الاتهامات الآلية والسياسية والدينية والاخطاء الادارية لتضخيم خطرهم وتشويه اعمالهم واثار صدر الرشيد عليهم : وعلى رأس هؤلاء الاخصام زبيدة زوج الرشيد التي كانت تكره البرامكة (وكانوا هم بدورهم يضايقونها) وتشكوهم للرشيد (حتى ابلغ ذلك مرة ليحيى نفسه) ويقال انها حملت الضغينة عليهم منذ أكد جعفر البيعة في

---

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٢٦ (٣/١٢٣٣)

الكعبة للمأمون على الامين (والمسعودي يعتبرها احد اسباب النكبة) ثم نذكر من الاخصام الفضل بن الربيع وهو حاجب الرشيد وابن خلكان يذكر اثر سعايته في نكبتهم وهو الذي اعلم الرشيد باطلاق سراح يحيى ابن عبد الله العلوي في السجن بأمرهم ، ونذكر أيضاً علي بن موسى واتهامه لموسى بن يحيى بالتآمر مع الخراسانيين على الرشيد مما ادى لسجنه ، كما كان يتبرع الكثيرون (رغبة أو حسداً) للدس على البرامكة ونسمع في بعض الاخبار بأمر قصائد تصل الرشيد ضدهم وعظات تلقى عليه ليوقفهم عند حدهم ، كموعظة محمد بن الليث له في انهم لا يغنونه من الله وقد جعلهم بينه وبين الله الخ …

ويظهر ان اثر هذه الوشايات قوي كل القوة بعد تنكر الرشيد لامور البرامكة وثبات الريبة منهم في نفسه ، ويمكننا ان نطلع على ذلك من روايتين رواهما الجهشياري[1] وابن الطقطقي هما ان الرشيد كان في اوائل حكمه جالساً على شرفة قصر الخلد فسمع صيحة عظيمة عرف انها خارجة عن المتظلمين الذين اجتمعوا حول يحيى بن خالد فقال : «بارك الله عليه واحسن جزاءه فقد خفف عني وحمل الثقل دوني وناب منابي» ، وسمع الرشيد الضجة نفسها من المكان نفسه بعد سنين عديدة فقال : «فعل الله بيحيي وفعل ، استبد بالامر دوني وامضاها على غير رأيي وعمل بما احبه دون محبتي» .

**٥ ـ السبب السياسي :**

ولعله ابو الاسباب جميعاً وعقدتها ويمكن ان نبحثه من وجهات ثلاث :

---

(١) الجهشياري ص ٢٤٥ :

آ ـ في التشيع :

وللمستشرق بارتولد رأي ملخصه ان المذهب الشيعي انتشر في ايران بين الطبقات العامة لأنها وجدت فيه وسيلة لمقاومة الامويين السنة وان الارستقراطية الفارسية اتفقت موقتاً مع العامة واجتمعت تحت راية ابي مسلم «وهو احد رؤساء الشيعة» وحاربوا الأمويين ولما بلغوا الغاية تباينت المنافع فقتل ابو مسلم وقام انصاره ضد العباسيين وقد ثابر البرامكة ممثلو الطبقة الارستقراطية على العمل لصالح الخلفاء العباسيين حتى صاروا ضحية رد الفعل الديني في أواخر خلافة هارون الرشيد[1] «وفي هذا الرأي خطأ وتناقض فالنزاع بين الأمين والعباسيين لم يرتد يوماً ما صبغة نزاع سني ـ شيعي . وبلاد ايران لم تعرف التشيع العلوي حتى اواسط العصر العباسي الاول وانما كانت الدعوة الاولى فيها عباسية لا شيعية ونرى من ناحية اخرى اننا لو سلمنا بصحة الرأي وبان الارستقراطية عادت بعد اتفاقها الموقت مع العامة الى تأييد البيت الحاكم فان ذلك لا ينتج عنه أن البرامكة يمكن أن يكونوا شيعة . ولا يمكن ان نعتبر نكبتهم نتيجة رد فعل ديني من الرشيد ضد التشيع ولم نعرف عن الرشيد التسامح مع العلويين في أول عهد لنعتبر النكبة البرمكية رد فعل منه ضدهم في اواخر أيامه . ولقد يكون للبرامكة ميول علوية ولكن الفرق كبير بين وجود الميول وبين وصفهم بالتشيع . على انه ليس بالبعيد أن يكون لهذه الميول العلوية أثرها في تهيئة مقاتل البرامكة في خاطر الرشيد[2] .

ب ـ في العامل القومي :

يوصم البرامكة دوماً بالميل مع فارسيتهم ويشتبك مع هذه الوصمة

---

(١) بارتولد ـ الحضارة الاسلامية ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) للدكتور احمد فريد الرفاعي في عصر المأمون رأى بان البرامكة كانوا معتزلة ولاندري مصدره في هذا ولا مبلغ ذلك في تفسير النكبة .

دوماً الاتهام الديني بالمجوسية واذا كانت هذه التهمة بعيدة فالتعصب للفرس ــ على ما يظهر ــ امر محتمل الوقوع • فالمنصور يتهم خالداً البرمكي وهو يحاوره في هدم ايوان كسرى بالميل مع اعجميته • وقد كان البرامكة يبغضون العرب ويحاولون اقصاءهم عن مناصب الدولة فهم كما ذكر ابن النديم يكرهون محمد بن الليث لميله على العجم ويسعون لدى الرشيد للايقاع بيزيد بن مزيد الشيباني ولاتهامه بالتراخي في حرب الخوارج من بني شيبان ••• كما يذكر البيروني ان الفرس اجتمعت لخالد تسأله تأخير النوروز (الانقلاب الصيفي وموعد جباية الخراج) نحوا من شهرين ليتفق موعد الجباية مع نضج الزرع كما كان عليه الامر زمن بني ساسان فعزم يحيى فتكلم اعداؤه فيه واتهموه بالتعصب للفارسية (المجوسية) فأضرب عن ذلك • كما أنهم حين استحكم لهم الأمر نظموا جيشاً في خراسان من نصف مليون جندي عمل الرشيد طويلا ــ بواسطة علي بن عيسى بن ماهان ــ على ضرب قواعده وتشتيته •

ويظهر انه كان للبرامكة يد في تكتيل مايشبه الحزب الفارسي في الدولة فقابله العرب بتكتل آخر تزعمته زبيدة زوج الرشيد • ومن نتيجة تزاحم هاتين الكتلتين كان النزاع الاخوي بين الامين والمأمون ويلاحظ ان بعض الخصام البرامكة (كعلي بن عيسى بن ماهان) ينضمون الى الكتلة العربية نكاية بهم ولاسقاطهم •

### جـ ـ في ادارة الدولة :

وها هو المجال الرئيسي لبحث سر النكبة : فالمؤرخون يجمعون على أن البرامكة استبدوا بالدولة (يذكر ذلك الطبري واليعقوبي

والجهشياري والمسعودي ...) وانهم «غلبوا الرشيد على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في شؤون ملكه» «وقد يكون في هذا بعض المبالغة ولكنه يستند الى اساس واقعي من النفوذ البرمكي»، ويعزو اليعقوبي نكبتهم الى ذلك بقوله : «قيل ان جعفرا والفضل ظهر منهما من الادلال مالا تحمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك» ويرى رأيه ابن العماد في شذرات الذهب واليافعي في مرآة الجنان ..

ولعل ابن خلدون كان من أنفذ المؤرخين نظراً في الأمر حين أجمل أسباب النكبة في أربعة أمور واضحة :

١ً ــ استبداد البرامكة بأمر الدولة وعلو اسمهم على اسم الخليفة .

٢ً ــ استيلاؤهم على الضياع والمال .

٣ً ــ اصطناع الأقارب والمحاسيب في الوظائف .

٤ً ــ سعاية الحساد بهم عند الخليفة .

ويلفت النظر عند ابن خلدون كلامه عن استئثارهم بالمناصب وقوله إنهم «عمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة حجابة وسيف وقلم ...» وقد لا يكون لهذه الأمور قيمتها وقد تكون تلك الدالة من جمع المال وتعيين الأقارب أمراً عادياً لولا أنها أضحت في النهاية مجالاً للدس عليهم من الحساد من جهة ومجالاً لارتياب الرشيد في أمرهم وولائهم الشخصي له من جهة أخرى والسير الحقيقي للنكبة يجب أن يبحث عنه في هده

النقطة بالذات التي أدت ـ في فترات من قصر النظر السياسي ـ إلى الغرور البرمكي والى أن يتصرف البرامكة تصرفات سياسية خطيرة في الدولة تجاوزوا حدودهم فيها ولا شك أن الرشيد رآها تعبر عن ميول معينة خطرة على سلامة دولته فلم يحتملها . وعند هذه التصرفات الخطرة إذن نقف قللا بالتحليل لانها السبب المنطقي الوحيد الذي يكشف النكبة البرمكية .

د ـ تهديد **خلافة الرشيد** : يبدو أن الرشيد بعد مرور سنوات على تسليمه أمور خلافته التسليم المطلق للبرامكة بدأ يشعر بخطر بعض تصرفاتهم عليه . ويبدو أن انتباهه إلى تلك التصرفات ـ ولا شك أن لرجال الحاشية من أعداء البرامكة يداً في إثارة هذا الانتباه ـ إنما بدأ بالذات سنة ١٧٩ ، كما يبدو أخيرا أن الأسباب قد تراكمت لديه سنوات عديدة بعد ذلك حتى أفضت إلى النكبة سنة ١٨٧ ، وترفدنا في هذا المجال قصة تذكر أنه أخذ عليهم «أربعة عشر أمراً» يروى الجهشياري ذلك نقلاً عن مسرور الخادم ، جلاد الرشيد ويروي بعض تلك الامور في قصة أتى فيها الخليفة بيحيى بن خالد البرمكي من السجن فندد به وهو يعددها ومنها[1] :

أولاً : أن يحيى البرمكي حمل الى يحيى بن عبد الله المحض وهو ثائر بالديلم مائتي ألف دينار وقد أقر بذلك وبأنه إنما أراد أن تقوى شوكة العلوي فيتوجه الفضل بن يحيى لقتاله فينتصر عليه فيكون

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٢٤٢ ـ ٤٣

أحظى عند الرشيد . وقد تم ذلك بالفعل وسقط العلوي في السجن[1] .

ثانيا : أن البرمكي أنفذ مع غلامه رياح إلى ثائر علوي آخر هارب مختف بالبصرة هو أحمد بن عيسى بن زيد سبعين ألف دينار .

ثالثا : أن عائلة الرشيد طلبت وهو بالبصرة ، ألف ألف درهم من يحيي البرمكي وقد ورد عليه من خراسان ستة آلاف ألف درهم فرفض ثم أخذ هو منها ألف ألف وخمسمائة ألف ففرقها في عماله . واضطر الرشيد أن يقترضها منهم بواسطة يونس بعض رجاله .

وإذا لم تأت القصة ببقية الامور فلعلنا نستطيع أن نقدر بعض هذه البقية في النقاط التالية : ويرجع أقدمها الى سنة ١٧٩ وهي :

رابعا : مشكلة جيش خراسان وخراسان : ولعلها النواة التي تكونت وتراكمت من حولها باقي الاسباب فقد عين الرشيد الفضل بن يحيي سنة ١٧٨ والياً على الجانب الشرقي من الدولة فشخص الىخراسان وأقام فيها عاماً وبعض العام . ولم تكن تصرفاته كوال تختلف عن تصرفات أمثاله من الولاة المطلق اليد والسلطة ولكنه قام بعمل خطير لا شك أن حاشية الرشيد العربية استطاعت أن تكشف له أبعاده السياسية وتجعله ركيزة الشكوك : ذلك أن الفضل جند جيشاً عظيماً من ٥٠٠ ألف جندي من العجم ــ وهو رقم خطير لم يجتمع من قبل جيش في عدده وقد يكون فيه بعض المبالغة ــ وسماهم العباسية ودون أسماء جنده في سجلات

(٢) كان ذلك سنة ١٧٦ أي قبل النكبة بزمن طويل وفي وقت كان فيه الرشيد مسلماً بكل شيء للبرامكة لكن هذا لا يمنع من أن يكون الرشيد ، بعد انتباهه لتآمر هؤلاء وتقريره نكبتهم قد عاد بذاكرته الى مثل هذه الحادثة فحلل معناها وضمها الى أخطاء وزرائه وعدها دليلا على تآمرهم .

خاصة وأجرى عليهم الارزاق الدائمة «وجعل ولاءهم لهم» أي للعباسيين، فلما قدم بغداد ، قدم في عشرين ألفاً منهم سموا في بغداد الكرمينية وخلف الباقي بخراسان على اسمائهم ودفاترهم[1] . كما خلف على الولاية أخاه موسى بن يحيى الذي قيل عنه إنه «أحد الفرسان الشجعان» وأنه مغامر « يفعل ما لا يجد » ![2] وأقيم للفرقة الكرمينية في بغداد معسكر في الرصافة وجعلوا حرساً للرشيد !

ولا شك أن أعداء البرامكة ـ وفي الحاشية والبلاط منهم الكثير ـ استطاعوا أن يؤكدوا للرشيد أنه أصبح الآن الأسير المطوق كل التطويق من البرامكة وهذا ما يفسر تحركه البطيء والثابت في الوقت نفسه للخلاص من هذا الخطر : وقد أخذت سياسة المطاولة والتدبر البطيء بعض الوقت منه : عزل أولا الفضل بن يحيى عن خراسان سنة ١٧٩ وأبقاه على ولايتي طبرستان والرويان ثم عزله عنهما سنة ١٨٠ وعن الري وعين مكانه أخاه جعفراً سنة ١٨٠ /٧٩٦ بعد أن أخذ الخاتم منه وحوله الى أبيه يحيى ..

ولم يسمح الرشيد لجعفر بالمسير الى خراسان لأنه وإنما عينه لتبرير عزل أخيه فلم تمض عشرون يوماً على التعيين[3] حتى عزله عنها أيضاً وجعله رئيساً للحرس ثم عزل جعفراً أيضا عن الحرس وجعله لهرثمة بن

---

(١) الطبري ج٨ ص٢٥٧ (٣/٦٣١) وانظر العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص٢٩٦

(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص١٩٨ والطبري ج٨ ص٢٩٣ (٣/٦٧٥)

(٣) الطبري ج٨ ص٢٦٦ (٣/٦٤٤)

أعين ... وبرر الرشيد عزل جعفر عن خراسان بأن أعطاها لواحد من كبار الامراء العباسيين : عيسى بن جعفر ( أخي زبيدة زوج الرشيد ) . ولم يستطع البرمكي أن يقول شيئا في ذلك لمكان عيسى من الأسرة المالكة ، ثم لم تمض أشهر حتى عزل الرشيد عيسى بن جعفر وأعطى ولاية خراسان الى علي بن عيسى بن ماهان وهو من أكبر أعداء البرامكة .

وسار ابن ماهان إلى خراسان مسرعاً فكان أول ما فعله أن قطع أرزاق الجند العباسية في خراسان فانحل أمرهم . واضطهد أنصار البرامكة من الدهاقين والطراخنة وقسا عليهم بالمصادرة والقتل حتى « قتل وجوه أهل خراسان وملوكها وطراختها »[1] وتنقل ما بين الري ومرو وسمرقند يجمع الأموال الطائلة ، بغية الافقار في الغالب . بدليل أن الوفود الخراسانية جاءت تشكوه إلى الرشيد وأن البرامكة اتهموه عنده أنه «قد أجمع على الخلاف»[2] و «حمل عليه» فاستدعاه الرشيد سنة ١٨٣ فجاءه وقد حمل مالاً عظيماً .. روى الجهشياري أنه كان ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير وفيها عشرة آلاف درهم .. إلا أنه لم يعزل .. وبقي على الولاية يحكمها ، ذلك أن الرشيد عرف في تلك السنة ١٨٣ أموراً أخرى أضيفت إلى الأولى .

خامساً : وصل ضغط الحزب الفارسي ـ البرمكي في سنة ١٨٢ـ ١٨٣ إلى أوجه لإعطاء ولاية العهد الثانية للمأمون . وقد شهد الرشيد حماسة جعفر البرمكي وتحريكه كل القوى لهذه القضية

(١) الجهشياري ـ الوزراء ص ٢٢٨
(٢) الطبري ج٨ ص٠ ٧٢ (٣/٦٤٨ـ٩)

وبالرغم من أنه قبلها وأقرها وقبل معها إعطاء المأمون ولاية خراسان إلا إنه أبقى على تلك الولاية علي بن عيسى بن ماهان باسم المأمون[1] • ولا شك أنه إنما قصد إلى متابعة سياسته المرسومة في إفقار الجهابذة والدهاقين هناك وتدمير القواعد التي بناها البرامكة لأنفسهم في المنطقة •

سادساً : في تلك الفترة نفسها : اتصل الرشيد — عن طريق الفضل بن الربيع زعيم الحزب العربي — أن جعفراً قد أطلق يحيى بن عبد الله المحض من السجن دون معرفته • وقد أتى الخليفة بجعفر وسأله فاعترف له جعفر بالأمر • فقال الرشيد : « نعم ما فعلت • ما عدوت ما كان في نفسي » فلما ذهب جعفر قال الرشيد : « قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك ! »[2] •

ويعقب الطبري على هذه الرواية بقول أبي محمد الزيدي راويها « — وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم — من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله فلا تصدقه ... »[3] •

---

(١) الطبري — المصدر ذاته وابن الاثير ١٦٣/٦

(٢) الطبري ج٨ ص ٢٨٩ (٦٦٩/٣—٦٧٠)

(٣) تكاد تجمع المصادر كالمسعودي ( مروج ٣٥٢/٣ ) وأبي الفرج الاصبهاني (مقاتل الطالبين ص٤٧٢) واليعقوبي (١٤٠/٣) وابن الحنبلي (شذرات ٣٣٧/٢) أن يحيى بن عبد الله قتل في السجن وتحدد بعض المصادر موعد ذلك بعد سنة ١٧٦ بقليل وفي هذا ما ينفي قصة اطلاق سراحه وأثرها في نكبة البرامكة . إلا ان تكون قضية مقتله في السجن (وهي مختلفة الروايات) إنما كانت من قبيل التغطية على هربه . وأن تكون

سابعاً : وعلم الرشيد في تلك الفترة من سنة ١٨٣ وما بعدها بأمر آخر من النوع نفسه : فقد كان قد دفع إلى الفضل بن يحيى بالإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق وأراد منه أن يتناوله بالعقوبة ــ وكان ذلك دون شك عن تخطيط سياسي يقصد الى تشويه موقف البرامكة أمام العلويين لا سيما وقد كان الرشيد « قد صرف الفضل بن يحيى عن الأعمال التي كان يتقلدها ــ أولاً بأول ــ كما قال الجهشياري ــ[1] فلم يفعل الفضل . وبلغ الرشيد أن الإمام عنده في رفاهية وسعة . وكان الرشيد في الرقة فأرسل إلى السندي بن شاهك صاحب شرطة بغداد أن يجلد الفضل ويحتفظ لديه بالإمام وقال بحضور يحيى البرمكي الأب:أيها الناس إن الفضل قدعصاني وخالف طاعتي فرأيت أن ألعنه .. » .

واضطر الفضل أن يشخص إلى الرقة ومعه أمه زبيدة بنت منير ( مرضعة الرشيد ) يسترضيه : « فرضي عنه وأقره مع الأمين لحضانته » ولكنه « لم يرد إليه شيئاً من أعماله »[2] بعد ذلك .

ثامناً : سجن الرشيد عبد الله بن الحسن العلوي المعروف بالأفطس عند جعفر بن يحيى فضيق عليه تضييقاً جعل عبد الله يكتب إلى الرشيد كتاباً فيه اللوم والسباب فطلب الرشيد من جعفر أن يرفه عنه ولا يلجئه إلى مثل هذا الكلام ولكن جعفراً قتله وبعث برأسه

---

معرفة الرشيد بالهرب إنما جاءت متأخرة سنوات عن تاريخ هربه الحقيقي .. وأن يكون يحيى قد ظل متخفياً لا يظهر لاسيما بعد نكبة البرامكة حتى توفي .. وهو ليس بغريب في ذلك العصر .

(١) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص٢٢٧

(٢) المصدر ذاته

إلى الرشيد ! ولعله ظن في ذلك القربى وإثبات الولاء فارتاع الرشيد وبهت . وعاتب جعفراً ووبخه[1] ... ولكن بعد أن دمر جعفر علاقة الرشيد بكثير من العلويين . ذلك أن الرشيد كان يتحرج دوماً من أن يتهم بدم أي علوي كما يظهر ذلك من إشهاده الشهود على شحوب يحيى بن عبد الله المحض ، وموت موسى الكاظم الموت الطبيعي[2] .

تاسعاً : ووصل الرشيد أيضاً في تلك الفترة ذاتها من سنة ١٨٣ وما بعدها من ابن ماهان صاحب خراسان أن التهمة التي توجه إليه إنما هي تغطية لأعمال البرامكة أنفسهم في تلك المنطقة فإن موسى بن يحيى البرمكي كان يكاتب أهل خراسان ـ وهم يطيعونه ويحبونه ـ ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة ، فأقر ذلك في نفس الرشيد وشعر موسى ـ كما يبدو ـ بالأمر ، فتوارى فترة عن الأنظار . وادعى البرامكة أنه ركبه دين وأنه اختفى من غرمائه ، فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له .. ويبدو أن والده يحيى أقنعه بالاستسلام وانتهز مناسبة عودة الرشيد من الحج مع وليي عهده سنة ١٨٦ فوافاه موسى في الحيرة فأمر به فسجن عند العباس بن موسى في الكوفة ثم تشفعت أمه في أمره على أن يضمنه أبوه .. فأطلقه[3] .

وهذه الأمور كلها جعلت الرشيد يقصر من حبال البرامكة ويتربص الفرص السانحة لموقف حاسم يسحب به من أيديهم كل

---

(١) ابو الفرج الاصبهاني مقاتل الطالبيين ص ٣٢٨

(٢) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٤١٤ والبغدادي ـ تاريخ بغداد ج١٣ ص ٣٠ و ج١٤ ص ١١٠ والطبري ج٨ ص ٦٢٠ .

(٣) ابن الاثير ج٦ ص١٧٧ والطبري ج٨ ص٢٩٣ (٣/٦٧٥ـ٦٧٦)

السلطات التي كان أعطاهم إياها . وقد كان تسليمه كافة أمور الدولة لهم في السنوات العشر أو الاثنتى عشرة الأولى هي التي تحرج موقفه في سحبها كلها الآن منهم . وتروى بعض القصص أنه كان حائراً يستخير الله . ويروون عن مسرور خادمه أنه فاجأه وهو متعلق بأستار الكعبة سنة ١٨٢ يقول : اللهم إني استخيرك في قتل جعفر .. فتوارى الخادم رعباً أن يراه [١] .

ولم يكن موقف الرشيد المتزايد في البرودة وفي التباعد بالود ليخفى على يحيى بن خالد البرمكي الأب ، ونجد في المصادر أنه يطلب أكثر من مرة الاذن له بالمقام في مكة وجدة [٢] .. كما نجد بين الأخبار أنه كان بدوره يستنجد الله في الكعبة [٣] .. وأنه عرف تغير الرشيد عليه وعلى أولاده فذهب يستشير المقربين ماذا يفعل . [٤] وأنه كان دائم الخوف من انقلاب الرشيدعلى الأسرة [٥] . ويبدو في الوقت نفسه أن جفاء الرشيد مع البرامكة لم يبق سراً في الفترة الأخيرة كعهدهم وكان الناس فيما يبدو يتحدثون في نكبة البرامكة قبل أن تحدث ويروي الطبري أن « الناس قالوا في البرامكة فأكثروا وكان ذلك أول ما ظهر في تغير حالهم » [٦] كما يروي أبو الفرج الأصبهاني أن إسحق الموصلي دخل على الرشيد فسأله : إيه يا إسحاق . بماذا يتحدث الناس

---

(١) الجاحظ ــ كتاب التاج في اخلاق الملوك ص ٦٦

(٢) الطبري ج٨ ص٣٦٨ و ص٢٧٤ وص

(٣) الطبري ج٨ ص ٢٩٢ (٣/٦٧٤ و ٦٧٥) والجهشياري ص٢٢٢

(٤) الجهشياري ــ الوزراء ص ٢٢٧ .

(٥) الطبريج٨ ص٢٩٣ وصوص٢٩٢ والجهشياري ص٢٢٤ــ٢٢٦

(٦) المصدر نفسه ص٢٨٨ (٣/٦٦٩) .

قال : يتحدثون بأنك ستقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة فصاح الرشيد بوجهه : ويلك • وما أنت وذاك ؟ فسكت إسحق ولم يحر جواباً[1] •••

وجاءت أخيراً القشة التي قصمت ظهر البعير في مشكلة خطيرة أخيرة هي :

عاشراً : مشكلة عبد الملك بن صالح بن علي العباس • فقد عاد الرشيد من الحج سنة ١٨٦ ، بعد أن علق عهد ولديه في الكعبة ورأى بعينه أن جعفر بن يحيى يمسك بالأمين ويطلب إليه أن يقول ثلاث مرات عن أخيه المأمون : خذلني الله إن خذلته[2] •• ولكنه علم فيما يظهر وهو في طريق العودة أن جعفراً متفق مع عبد الملك بن صالح العباسي على تحويل الخلافة إليه ••

لا تذكر أي من المصادر هذا الأمر بهذه الصراحة ولكن القرائن تؤدي إلى مثل هذه التهمة :

أ ــ فإن عبد الملك بن صالح أبرز وجوه الأسرة العباسية يومذاك كان من أشد خصوم البرامكة من قبل ولكنه أضحى في تلك الفترة من أصدقائهم المقربين •

ب ــ ما كاد الرشيد ينتهي من قتل وسجن ومصادرة البرامكة حتى أعلن أنه كشف تآمر عبد الملك عليه في سنة ١٨٧ نفسها • وتذكر المصادر أن الذي تطوع وكشف الأمر للرشيد هما اثنان : عبد الرحمن

---

(١) الاصبهاني ــ الاغاني ( ط . بولاق ) ج٥ ص١١٤
(٢) الجهشياري ص ٢٢٢

ابن عبد الملك نفسه ، وقمامة كاتب عبد الملك[1] وهو أمر مستغرب لو لم يشعر هذان الاثنان بأن نكبة البرامكة القاسية سوف تلحق بهما أيضاً وإلا فما الذي يدفعهما لكشف التآمر •

جـ ـ ما كاد الرشيد يقبض على عبد الملك حتى بعث إلى يحيى البرمكي في السجن يطلب منه معلوماته عن المؤامرة ويتهدده بقتل ابنه الثاني الفضل ، وهو سجين معه إن لم يدل بما يعرف[2] •

د ـ وأخيراً لم يكن الرشيد قد وصل عاصمة ملكه بغداد حين أمر بقتل جعفر والتمثيل به : أتى برأسه إليه وقطع جثته نصفين وصلبها على الجسرين في بغداد ثم أمر بعد ذلك بسنوات بإحراقها ! بينما اكتفى بسجن أبيه وإخوته ومصادرة أملاك الأسرة وأصحابها • ثم ماكاد يعلن تآمر عبد الملك العباسي حتى تشدد أقسى التشدد مع البرامكة ثم رفض أي التماس للعفو عنهم حتى من أمهاته المرضعات ومن أقرب الناس إليه وكان يقول : « لو وثقت بصفاء نيتهم لأعدتهم الى حالهم ولكنهم قوم كفروا النعمة وأرادوا الشر بي • ومن أراد بي ذلك فلا غفران له ••» أو يقول « عظيم ذنبكم أمات خواطر العفو عنكم •• »[3] ومات يحيى وابنه الفضل في السجن •

وهذه السرعة من ايقاع النكبة والرشيد ما يزال في الطريق إلى

---

(١) الطبري ج٨ ص٣٠٢-٣٠٣ (٣/٦٨٩-٦٩٠)
(٢) الطبري ج٨ ص ٣٣٠ (٣/٦٩٣)
(٣) انظر ابن خلكان ( طبعة بولاق ) ج٢ ص٣٦٥ وابن قتيبة ـ المعارف ص١٣٥ ـ وقد مات يحيى بن خالد في السجن سنة ١٩٠ في بلدة الرقة وعمره سبعون سنة .

بغداد[1] وتلك القسوة الشديدة التي رافقت تنفيذها ليس يبررها إلا أن يكون الأمر يتعلق بسلامة الرشيد نفسه وملكه ومما لا يمكن معه الإمهال والمهادنة ، ويبدو أن الرشيد فضل على طريقته من المداورة الهادئة أن يفتك أولاً بجعفر وأهلــه وهم الأبعدون فلما انتهى منــه التفت إلى الجناح الثاني من المؤامرة أي إلى الأقربين وادعى أن ابن عبد الملك وكاتبه قد تطوعا لكشف تآمر عبد الملك عليه وذلك كي لا يحتج أنصار البرامكة والعباسيين المتآمرون معاً ضده لو فتك بالطرفين في وقت معاً .. ولهذا ترك الرشيد مقتل جعفر ونكبة أهله بدون تبرير واضح . وإذا لم يعلن فيما بعد ارتباط المتآمرين عليه أحدهما مع الآخر فلأنه كره أن يعرف الناس أن أقرب المقربين إليه عائلياً ووظيفة يكرهان معاً بقاءه ويتآمران معاً عليه .

وتروي المصادر أن الرشيد أتى بعبد الملك إليه فندد به وأخذ بشهادة ابنه وكاتبه ضده واتهمه بأنه ليس لصالح العباسي ولكنه لمروان الجعدي[2] ثم سجنه وهو يقول : أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك ..

فهل كان بإمكان عبد الملك أن يتآمر وحده للوصول إلى الخلافة

---

(١) يذكرون أنه عاد من الحج الى الحيرة فأقام أياماً ثم شخص بالسفن الى الانبار فنزل بناحيتها عند العمر ومن هناك أمر بما أمر في البرامكة (الطبري ج٨ ص٩٢٥)

(٢) كانت أم عبد الملك جارية لمروان بن محمد آخر خلفاء الامويين أخذها صالح بن عبد الله فولدت له عبد الملك وقيل انها كانت حاملا به من قبل مروان . فلما عيره الرشيد بذلك قال : ما ابالي أي الفحلين غلب عليّ (الطبري ج٨ ص٣٠٥-٣/٦٩٢) .

لو لم يكن قد اتفق مسبقاً مع أقوى الجماعات المسيطرة على الدولة وليس من جماعة يومذاك تعدل في قوتها البرامكة وأنصارهم ومواليهم وصنائعهم الذين كانوا يشكلون دولة أخرى في دولة الرشيد كما قال أبو الفرج الأصبهاني[1] وبالمقابل فإن انصراف الرشيد عن البرامكة بعد إذلالهم السابق وظهور ذلك في تصرفاته كان سبباً كافياً لإغراء جعفر البرمكي بقبول الاتفاق مع عبد الملك العباسي ضده . صورة الأخوة التي كانت موجودة بين الرشيد وجعفر قبل سنة ١٨٠ لم تعد موجودة ولا كانت هي نفسها بعد سنة ١٨٣ .. ولم يكن أي تحرك برمكي ممكناً ضد الرشيد إن لم يجد البرامكة شخصية عباسية بديلة عنه وقد وجدوها في عبد الملك وطموحه . وقد سجن عبد الملك أسوأ السجن أولاً ثم ترفق الرشيد بقرابته فجعله في سجن يليق بمثله لدى الفضل بن الربيع ولكنه لم يطلقه حتى جاء الأمين . ثم مات عبد الملك في الرقة سنة ١٩٩ في خلافة المأمون .

حادي عشر : وثمة أمر هام يلفت النظر في تصرفات الرشيد بعد سنة ١٨٠ لم يعره الباحثون أي التفات رغم اتصاله بالقضية البرمكية هو رغبته في الخلاص من بغداد ، هذه العاصمة التي ارتبط اسمها به واسمه بها على الدهر . لقد جرب الرشيد الخروج منها إلى مقر جديد مرتين ثم هرب منها في النهاية حتى آخر حياته ، وهذا أمر يجب أن يكون له معناه السياسي ومكانه من القصة البرمكية .

يحدثنا ابن الأثير أن الرشيد سار سنة ١٨١ الى الحيرة وابتنى بها

---

(١) أبو الفرج الاصبهاني ـ الاغاني ج٤ ص ٣٩

المنازل فأقطع أصحابه القطائع فثار بهم أهل الكوفة وأساؤوا مجاورته ( ولعل ذلك لميولهم العلوية ) فعاد إلى بغداد[١] .. ومن الصعب أن نفسر محاولة الرشيد الهرب من بغداد التي أصبحت مجمع الدنيا في عهده إن لم تتذكر أنه في تلك الفترة بالذات بدأ يرتاب بالبرامكة .. وما من شك في أنه كان يصطنع الحذر منهم ويخشى أعوانهم بدليل أنه حين عزم على الفتك بهم وكان عائداً من الحج لم يدخل العاصمة ولكنه انحاز إلى الأنبار ثم فتك بجعفر هناك . ولكنه عرف بعد ذلك أن بغداد لن تكون له دار قرار لما قد يكون فيها من أعوان البرامكة الكثر فأخذ يفكر جدياً في الخلاص منها وتبلور تفكيره في مشروع مدينة جديدة يبنيها بجوارها ، ويحدثنا عنها الطبري قائلا : إن الرشيد كان ـ كما يقول ـ إذا ضجر من بغداد يتنزه في القاطول . وقد بنى هناك مدينة بقيت آثارها (موجودة) وبقي سورها قائماً إلى عهد المعتصم[٢] .. ويكشف الطبري سبب البناء بقوله : « وقد كان خاف من الجند ما خاف المعتصم » . وإذا كان اختيار المكان بقرب بغداد ناجماً عن حاجة الرشيد إلى البقاء قريباً من دواوينه ورجاله وحاشيته ، فيبدو أنه ، خلال البناء ، عاود التفكير في أن قرب القاطول من بغداد لم يعطه الأمن الذي يريد . وهكذا قرر الابتعاد النهائي عن بغداد . « فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج الرشيد إلى الرقة سنة ١٨٩ فأقام بها وبقيت مدينة القاطول ـ على حد قول الطبري ـ لم تستتم .. » .

واتخذ الرشيد بعد ذلك طريقة عدم الاستقرار ، رغم علته

---

(١) ابن الاثير ج٦ ص ١٥٢ـ١٥٣
(٢) الطبري ج٩ ص١٧ (٣/١١٨٠)

السرطانية التي كانت تهد كيانه • فكان في قلقه الواسع هارباً باستمرار من علته ومن بغداد فتارة في مكة وتارة على جبهة الروم وتارة في طريق خراسان فإذا شاء الراحة أقام في الرقة ، وإذا اضطره الطريق إلى العبور ببغداد ألم بها إلماماً سريعاً فلم يقف • كان كما قال الطبري « يطوي بغداد » فلا ينزلها فلما سئل أجاب جواباً يكشف بوضوح مخاوفه التي يريد تطمينها : « إنها لوطني ووطن آبائي ودار مملكة بني العباس• وما رأى أحد من آبائي سوءاً ولا نكبة منها • ولا سيء بها إلى أحد منهم قط • ولنعم الدار هي •• ولكني أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق ( يقصد الشام ) •• مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ••»[1] واتخذ الرشيد الرقة « وطناً » والتنقل طريقة حتى مات في الطريق إلى خراسان !

ولعلنا بعد كل هذا نستطيع أن نلخص الأمر البرمكي كله بكلمة أوردها الأربلي في التبر المسبوك إذ يقول : « قيل أرادت البرامكة افساد الملك فقتلهم الرشيد لذلك » ويظهر الأثر العميق لهذه الأسباب في نفس الرشيد من أنه أعلن ألا أمان لمن يؤوي أحداً من البرامكة غير محمد بن خالد وولده وحشمه لأنه «عرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة » وهذا يدل على أن جريمة جعفر خاصة ومعه يحيى والفضل كانت في نظر الرشيد عامة تتعلق بسلامة الدولة ولم يسلم منها إلا من لم يكن على علاقة بأعمال الدولة كمحمد بن خالد البرمكي •

وهكذا فإن الحادثة البرمكية كانت النهاية الدموية الفاجعة لصراع

---

(١) الطبري ج٨ ص ٣١٧ (٣/٧٠٦)

خفي متبادل بين الرشيد والأسرة التي سلطها على الحكم دام ثماني سنوات (١٧٩ ـ ١٨٧) والأسباب الرئيسية في نكبة البرامكة هي على ما رأينا تعود إلى :

١ ـ غموض الحدود بين سلطة الوزراء وسلطة الخلفاء لحداثة مؤسسة الوزارة .

٢ ـ تباين مصلحة الخلفاء العباسيين مع ميول وزرائهم الفرس .

٣ ـ استرابة الرشيد بصدق ولاء البرامكة لخلافته استرابة بلغت حد الشعور بالخطر .

وقد زاد في وضوح هذه النواحي وشايات الحساد وادلال البرامكة بمكانتهم وطبيعة الرشيد الحساسة . واستمر توضحها ونضوج الفكرة في النكبة لدى الخليفة سنوات طويلة كان خلالها يضربهم ضربات محدودة غايتها الحد من سلطانهم حتى كانت المؤامرة من جهة وهي مجهولة الحدود . وكانت الفتكة الكبرى من جهة أخرى وهي موجودة التفاصيل في جميع المصادر ( ولا سيما في الطبري ) ولم تكن تلك النكبة بدعاً في علاقات العباسيين بوزرائهم ولا في علاقات الكثير من الملوك المطلقين مع كبار موظفيهم وإنما كانت حلقة من سلسلة بدأت بأبي سلمة الخلال ووصلت بعد البرامكة إلى بني سهل في عهد المأمون ، وإن كان اتساع دائرة النفوذ البرمكي وعمقه هما اللذان جعلا النكبة واسعة عميقة عنيفة الأثر ، فاجعة الدماء .

على أنه من الضروري أن نلاحظ أن بعض المؤرخين القدامى ( كالجهشياري[1] وابن خلكان ) وبعض المحدثين أيضاً ، يروون ان

(١) الجهشياري ص٢٥٨ ص٢٦٥ وابن خلكان ج٢ ص٢٤٦

الانحلال سرى في الامبراطورية العباسية بعد البرامكة ، والواقع هو ما قاله ( بارتولد ) من أن سقوطهم لم يؤثر في الدولة كثيراً لا سيما وأن فترة نشاط الرشيد الحربية خاصة ، كانت من بعدهم . وإذا أدى سقوطهم إلى شيء فإلى زيادة الخصومة بين العرب والفرس لفترة محدودة فقط .

**جـ ـ الوزراة بعد البرامكة :**

صارت الوزارة بعد البرامكة إلى الفضل بن الربيع فبقي عليها حتى نهاية عهد الأمين ، وكانت له يد في تأريث الخلاف بينه وبين أخيه ، ثم توارى عن الأنظار قبيل انهيار أمر الأمين ..

والفضل هو ابن الربيع بن يونس وزير المنصور . والربيع في الأصل مدخول النسب وكان من خدم المنصور ثم ارتفعت به الحال حتى أضحى وزير الدولة ثم كان ابنه الفضل من كبارها .. ويحلو لبعض المؤرخين أن يرى في هذه النشأة المتواضعة للربيع وابنه نوعاً من مركب النقص[1] شوه الاثنين وملأهما حقداً على الناس ورغبة في الدس والتآمر . وقد انصب حقد الفضل خاصة على البرامكة الذين لم يكن بإمكانه أن يبلغ شأوهم ما داموا في مجدهم وفي وداد الرشيد ، وما داموا من الأرومة الايرانية العريقة وما داموا أخيراً بذلك الكرم الواسع والشرف من الدولة .. وكما دس الربيع من قبل على أبي أيوب المورياني لدى المنصور وعلى أبي عبيد الله معاوية لدى المهدي

---

(١) بحث ذلك الدكتور احمد شلبي في فصل طويل من كتابه التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ـ الجزء الثالث ص٣٢٦ـ٣٧٨

كذلك دس ابنه الفضل على البرامكة .. وكما نجح الأب نجح الابن .. ولقد يكون لعقدة النقص لدى الربيع ( الأب ) دورها ولكنها بعيدة عن الابن الذي نشأ في العز . على أنه من التعسف في الحالين أن نعزو نكبات الوزراء منذ المورياني حتى البرامكة . ثم صراع الأخوين الأمين والمأمون لمجرد الدسائس ، ولاشباع عقدة النقص عند الربيع وابنه الفضل .. فلذلك عوامل عديدة أخرى . وإلا فما الذي يفسر نكبة بني سهل من بعد ولم يكن وراء تلك النكبة لا الربيع ولا الفضل ؟

ولم يكن الفضل بن الربيع بمثل كرم البرامكة واتساع نفوذهم وكثرة أنصارهم ولا كان من السياسيين الذين يخشى خطرهم ولكنه كان الموظف الداهية الأمين وقد انحاز للحزب العربي في البلاط وتزعمه وعمل له قبل نكبة البرامكة وبعدها وتابع السياسة نفسها في زمن الأمين لأنه إنما كان أبرز شخصيات حزب الأمين وقد قاد المعركة بعد ذلك ضد المأمون في مهارة بارعة لا تقل عن مهارة منافسه وسميه الفضل بن سهل لولا أن انهزام جيش الأمين أفقده التفوق العسكري فخسر القضية . ولعله اعتقد أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون وهو مما لم يبق عليه — كما قال ابن تغري بردي[1] — فآثر السلامة واستتر . ثم ظهر حين بايعت بغداد لابراهيم بن المهدي بالخلافة فلما اضطرب أمره بدوره عاد إلى الاستتار . ويقال إن طاهر بن الحسين ، قائد المأمون أدخله عليه من بعد فرضي عنه لكنه ظل دون عمل حتى مات سنة ٢٠٨ عن ثمان وستين سنة .

---

(١) ابن تغري بردي — النجوم ج٢ ص ١٣٨ والجهشياري ص ٢٣٧ وابن خلكان ج٤ ص٣٩

أما المأمـون فاستوزر بني سهل ، يقـول ابـن الطقطقي[1] :
« وكانت دولتهم في جبـين الدهر غرة •• وكانت مختصرة لـدولة البرامكة وهم صنائع البرامكة » وتتكرر في بني سهل قصة الخلال أو بني برمك إياها :

فالفضل بن سهل أول وزراء المأمون كان في الأصل على المجوسية وأسلم على يدي المأمون سنة ١٩٠ وكان البرامكة هم الذين اختاروه للكتابة عنده • وهو الذي سعى إليه بالخلافة وكافأه المأمون على ذلك بأن سماه ( ذا الرياستين ) أي رياسة الحرب ورياسة التدبـير[2] ( أو السيف والقلم ) ووقع له في كتاب يسميه اليعقوبي[3] ( كتاب الشرط والحياء ) على ما يظهر « •• وقد جعلت لك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به من العمل لله ولنبيه والقيام بصلاح دولة أنت ولي بقيامها ••»[4] •

ولكن الفضل « استولى على المأمون » حسب اصطلاح صاحب الفخري وقطع الأخبار عنه وعاقب من حاول إخباره بخبر ليصـرف بذلك الأمور حسب سياسته الفارسية ولم يتورع عن تشويه الأخبار للمأمون فأعلن له ثورة بغداد وبيعتها لابراهيم بن المهدي على أن البغداديين « صيروا ابراهيم أميراً يقوم بأمرهم » لا خليفة • وعـين أخاه الحسن على العراق وما يليه ـ دون طاهـر بن الحسين القائد

---

(١) الفخري ص ١٦٤
(٢) الجهشـياري ص ٣٠٥
(٣) اليعقوبي ج١ ص ٧١٩
(٤) الجهشـياري ص٢٧٨

العسكري ــ ليتم له التمكن من زمام السلطة .

ونستطيع أن تتبين سياسة الفضل الفارسية في أمور عدة :

آ ــ ادخال المراسم والتقاليد الساسانية على البلاط العباسي ويقولون إنه : كان يجلس على كرسي مجنح ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون ويعلق الجهشياري[1] بأن هذه العادة كانت لبعض وزراء الأكاسرة . ولعل الجناحين جناحا آهورا مزدا إله الخير الزراداشتي .

ب ــ ذهب هرثمة بن أعين ضحية لأطماع الفضل في السجن لأنه قدم إلى خراسان واجترأ على نصيحة المأمون وأخبره بأعمال الفضل قائلاً « قدمت هذا المجوسي على أوليائك وأنصارك » ونفى نعيم بن خازم لأنه بيّن للمأمون أن الفضل يريد أن يزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي ( وقت بيعة الرضا ) ثم يحتال عليهم فيغير الملك كسروياً ولهذا عدل عن البياض لبسة علي وولده ، إلى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس[2] .

جـ ــ أبقى الفضل على المأمون في مرو بخراسان ليبقى مقر الملك بين الفرس .

وأخيراً تنبه المأمون لسياسة الفضل ويتفق المؤرخون أن علي الرضا هو الذي أعلم المأمون بحال الدولة ونبهه إلى سياسة الفضل الشعوبية فقرر النقلة إلى بغداد ( سنة ٢٠٢/٨١٧) ولم يكن هذا انتقالاً عادياً ،

---

(١) الجهشياري ص ٣١٦
(٢) الجهشياري ص ٣١٣ وابن الاثير ـ الكامل ج٦ ص ١١

ولكنه انقلاب سياسي : فيه هجر للسياسة التي تمثلها مرو والفضل ، وعودة إلى السياسة العباسية التقليدية • وقد اقتضى هذا الانقلاب التخلص من الوزير ابن سهل ومن ولي العهد علي الرضا ومن الخضرة[1] ! وهكذا •• مات الاثنان خلال الطريق إلى بغداد ( قتل الأول في سرخس[2] من قبل بعض الخدم • ومات الثاني بشكل مفاجيء في قرية النوقان قرب طوس أول سنة ٢٠٣ ) وبعد وصول المأمون إلى عاصمة آبائه بأيام تتراوح بين الأسبوع والشهر رجع عن الخضرة إلى السواد •

على أن علاقة المأمون ببني سهل لم تنته بمقتل الفضل فإن المأمون ( المكيافيلي ) ترضى العائلة باستيزار الحسن بن سهل أخي الفضل والزواج من ابنته بوران ( في عرس حافل ) زينت بذكر ما كان من بذخه صدور الكتب ، واعتل الحسن بعد فترة وجيزة أو تمارض ، والفخري[3] يذكر أنها « سوداء أصابته جزعاً على أخيه » ولزم منزله فاستكتب بعده المأمون الكتاب مدة ويظهر من حديث للوزير الجديد بعد الحسن وهو أحمد بن أبي خالد الأحول إلى الخليفة ان عزل الحسن بن سهل لم يكن لسبب مرضي ولكن لأمر أراده المأمون فالوزير أحمد الأحول يقول كما في المسعودي[4] : « ياأمير المؤمنين اعفني من التسمي بالوزارة وطالبني بالواجب فيها » • ويقول كما في الفخري : « •• اجعل بيني وبين الناس منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني بها

---

(١) الدوري ــ العصر العباسي الاول ص ٢١٤
(٢) الطبري ج٨ ص٥٦٥ (٣/١٠٢٧)
(٣) الفخري ص ١٦٨
(٤) المسعودي التنبيه والاشراف ص ٣٠٤ ٢

عدوي في بعد الغايات إلا الآفات »[1] .

وتوفي أحمد الأحول فتلاه على الوزارة أحمد بن يوسف بن القاسم من الموالي وكان كاتباً من خيرة الكتاب وأجودهم خطاً ، وقد مات ببعض تدبير المأمون لبادرة بدرت منه . فأعقبه القاضي يحيى بن أكثم ( ولعله اتخذه مستشاراً له ) فكان له تدبير المملكة ورئاسة القضاء معاً وقلما اجتمع ذلك لغيره ثم جاء الوزارة أبو عباد ثابت بن يحيى الرازي ثم أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد ولم تكن لهؤلاء من قيمة في الوزارة ولم يكونوا يزيدون في المنزلة عن الكتاب العاديين المحدودي الكفاية كما يتبين ذلك من اختيارهم وسيرتهم ولعلهم استوزروا لأنهم كانوا كذلك في نظر المأمون ، الذي نصح أخاه من بعده ألا يستوزر أحداً ( على طريقة المنصور ) .



(۱) الفخري ص ١٦٨

# الفصل الحادي عشر

## السياسة الداخلية

ليس الهدف في هذا الفصل أن نبحث في التكوين الاداري للدولة وفي نظام الجيش كجهاز عسكري ولا في الحياة الاقتصادية ـ المالية للمجتمع العباسي في القرن الثاني الهجري ، فلذلك محله من البحث الحضاري لهذا العصر ولكنه محاولة لتحديد الخطوط العامة لسياسة العباسيين الأوائل ومواقفهم وتصرفاتهم في الامور الادارية والمالية وفي تطور قواهم العسكرية ، ولطريقتهم في فهم المشاكل التي واجهتهم وفي حلها . إنه إذن دراسة لطرائق الحكم لدى الخلفاء الأوائل من بني العباس وليس بدراسة للمجتمع الذي عرفهم ولا لطبيعة وتكوين الاجهزة التي استعانوا بها .

ولعله من الضروري أن نلاحظ منذ البدء أن الخطوط والملامح العامة التي سوف نرسم لسياسة هؤلاء العباسيين قد لا تنطبق أحياناً الا على بغداد أو منطقة العراق أي على الاقليم الذي يقع مباشرة تحت تصرف الخليفة . وأما أقاليم الدولة الاخرى فقد كانت تخضع للسياسات نفسها في الغالب ولكن بمقدار فهم الولاة العباسيين لتلك السياسات وتطبيقهم لها ، وبمقدار ما هو معروف من ولاء تلك الاقاليم أو عدم الولاء للاسرة الحاكمة . وهكذا لم يكن الموقف الاداري ولا العسكري ولا المالي واحداً في الحجاز أو الشام أو خراسان كما لم تكن السياسة

العباسية أحياناً كثيرة هي نفسها في سجستان أو في مصر أو في الجزيرة وغالبا ما نجد أن صورة الحكم العباسي المعروفة إنما تتصل بالعراق فقط دون باقي انحاء الدولة الاسلامية •

وإذا كان لكل حكم أسسه التي يقوم عليها فللحكومة العباسية بدورها أسسها في سياستها الداخلية • وفي رأي بعض المستشرقين أن الحكم العباسي إنما قام على ثلاثة أركان : الدين والجيش والكتّاب • وفي هذا الرأي الكثير من الصواب ،لأن الدين كسياسة ومبدأ عمل كان قوام عرش بني العباس كما كان الروح الحية الكامنة وراء صمود البيت العباسي وبقائه خمسة قرون طويلة • أما الجيش كقوة مادية تنفيذية فقد ارتبطت به قوة وضعفاً أمجاد الدولة العباسية وانحطاطها بينما كان النظام الاداري الذي أداره الكتاب وأقاموا به الحكم والجباية المالية هو العمود الفقري للحكم العباسي كله •

على أنا نستطيع التمييز بين هذه الاركان الثلاثة في الوظيفة والدور وخاصة في العصر العباسي الاول • فان الدين كان لدى الخلفاء الأوائل هو السند المعنوي ومبرر النظام ومنطلق السياسة وأساس التشريع لكن الترجمة العملية لذلك لم تكن اكثر من إمامة الصلاة والخطبة على المنبر والقضاء في الناس عن طريق الجهاز القضائي • ولم يكن للخلفاء على هذا الجهاز ـ فيما عدا سلطة التعيين ـ إلا أضعف النفوذ في الاحكام • وكثيراً ماينعدم ذلك النفوذ • بينما كانت المقومات الفعلية للحكم العباسي إنما تتمثل عملياً في ما كان يعبر عنه في تلك العصور بكلمتي السيف والقلم أي في المؤسستين اللتين يشرف عليهما القواد العسكريون رمز القوة والسلطة من جهة والوزير مع الكتاب أسياد الدواوين والجباية المالية من جهة أخرى • وتشترك المؤسستان ـ ومعهما الجهاز القضائي

أيضا ـ في القمة بالخضوع لإرادة الخليفة الذي كان يمثل مع السلطة الدنيوية الآمرة السلطة الدينية المعنوية في الوقت نفسه .

وإذا كان مفهوم الحكم والإدارة في تلك العصور يشمل بصورة خاصة تصريف الامور والمشاكل وإقامة العدل والقضاء بين الناس وجباية الاموال واقرار الامن والنظام والدفاع ، فلعلنا قبل أن ندرس كل ناحية من هذه النواحي منفردة نعطي صورة إجمالية عن السياسة الداخلية العباسية في مبادئها وشكلها النظري المثالي كما في واقعها التنفيذي ، وفي تطورها العام ما بين مطلع العصر العباسي الاول ونهايته . ولدينا لحسن الحظ في هذا السبيل تقريران هامان كتب الاول ابن المقفع في أوائل العصر حوالي سنة ١٤٠ ـ ١٤٣ للخليفة المنصور وتحت ظله وكتب الثاني طاهر بن الحسين سنة ٢٠٦ في عهد المأمون اذان العصر لابنه عبد الله بن طاهر حين توجه لولاية أخطر وأهم الولايات العباسية : خراسان [١] .

فأما التقرير الذي كتبه ابن المقفع فيحمل اسم : « رسالة الصحابة » وكلمة الصحابة استعملت في العصر العباسي الاول وحتى عهد الرشيد

---

(١) يمكن ان نقرأ النص الكامل لرسالة الصحابة التي كتبها إبن المقفع في كتاب محمد كرد علي ـ رسائل البلغاء ( انظر طبعة البابي ـ القاهرة سنة ١٩١٣ ص ١٢٠ ـ ١٣٠ ) كما نجد في كتاب يوسف ابو حلقة ـ ابن المقفع ، الادب الصغير ... طبع مكتبة البيان ـ بيروت سنة ١٩٦٠ ص ١٤٩ ـ ١٨٣ ) أما رسالة طاهر بن الحسين فنجدها في مظان كثيرة منها الطبري ج ٨ ص ٥٨٢ ـ ٥٩٣ ( ١٠٤٦/٣ ـ ١٠٦١ ) وكان من أسباب انتشارها ونقلها في مختلف المصادر بلاغتها وقد اعتبرت من النصوص الادبية .

بمعنى الحاشية ورجال البلاط اصحاب الخليفة ثم استبدل بها كلمة الخاصة لئلا تلتبس مع صحابة الرسول . ورسالة الصحابة نقد واقعي عملي للسياسة القائمة ولطرق الاصلاح الواجب اتباعها . وأما رسالة طاهر فأخذت شكل الوصية التي ترسم صورة الحاكم «المثالي» في نظر ذلك العصر . وإذا كانت الرسالتان تحيطان بالعصر في مبدئه ومنتهاه فهما تحيطان به في الوقت نفسه واقعاً ومثلاً أعلى .

**رسالة الصحابة :**

بدأ ابن المقفع رسالته بامتداح رغبة أمير المؤمنين في استماع النصيحة :

أ ــ ذكر **موضع الشكوى قبله** : فوال لا يهمه الاصلاح وإن أهمه لم يكن له رأي وإن وجد الرأي لم يتوفر له العزم والحزم «وأعوان ، ليسوا على الخير بأعوان » « وأمة إن أخذت بالشدة حميت وإن أخذت باللين طفت » .

ب ــ ثم تناول أمر **الجند** من أهل خراسان فامتدحهم أحسن المديح : قوة وطاعة ، وناقش قضية هذه الطاعة ثم نصح أمير المؤمنين «لصلاح هذا الجند أن لا يولي أحداً منهم شيئاً من الخراج فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ... وداعية الى ذلة وحقرية » كما نصحه أن يحسن اختيار القادة منهم وأن « يتعهد أدبهم » وثقافتهم « في تعلم الكتاب والسنة » . وأن ينظم دفع رواتبهم و « يوقت لهم وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو ما بدا له ... فينقطع الاستبطاء والشكوى » وأخيراً أن يعمل أمير المؤمنين على « أن لا يخفى عليه شيء من أخبار الجند وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والاطراف وأن يحتقر في ذلك النفقة» .

ج ـ ثم ذكر أمير المؤمنين بأهل المصرين : **البصرة والكوفة** « لأنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس الى أن يكونوا شيعته وحقيبته » و « في أهل العراق من الفقه والعفاف والالباب والالسنة شيء لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة نصفه ولا مثل نصفه ... » وقد أزرى بأهل العراق أن ولاته فيما مضى كانوا أشرار الولاة وأن أعوانهم من أهل « أمصارهم كانوا كذلك ... » .

د ـ وعرض ابن المقفع بعد ذلك الى مشكلة **القضاء** واختلاف الاحكام بين بلد وآخر وما ينجم عن ذلك من فوضى وضياع حقوق وبعد أن حلل ذلك نصح بتوحيد الاحكام وأن يكتب أمير المؤمنين بذلك كتاباً جامعاً يكون هو الأساس فيها .

هـ ـ ثم عطف على ذكر **أهل الشام** وأن على أمير المؤمنين أن « لا يؤاخذهم بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة . فمن الرأي في أمرهم أن يختص أمير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ... »

د ـ وينتقل بعد ذلك الى التذكير بامر **صحابة الخليفة** « وقد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملاً قبيحاً مفرط القبح داعياً للاشرار طارداً للاخيار ... » بينما « لصحابة أمير المؤمنين مزية وفضل ، وهي مكرمة سنية حرية أن تكون شرفا لاهلها وحقيقة أن تصان وتحظر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال أو له خاصة بقرابة أو بلاء أو يكون شرفه ورأيه وعمله أهلاً لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته أو صاحب نجدة يعرف بها يجمع مع نجدته حسباً وعفافاً فيرفع من الجند الى الصحابة أو رجل فقيه مصلح

أو شريف لا يفسد نفسه ... » .

هـ - وبعد أن يذكر ابن المقفع ببعض **أهل بيت الخليفة** يتناول أمر الارض والخراج والسياسة المالية فأوضح الفوضى في كل ذلك وبين الخطر الجسيم في أن لا يكون « للعمال أمر ينتهون اليه ويحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على أهل هذه الارض أو تلك .. فسيرة العمال فيهم احدى اثنتين إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد ... وإما صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيغرم من عمر ، ويسلم من أخرب ، مع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مرارا ... فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والارضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك وإثبات الاصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة ( ضريبة ) قد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للارض وحسم لابواب الخيانة وغشم العمال . وهذا رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر ... » .

و - ويعطف ابن المقفع في القسم الأخير من رسالته على أمر جزيرة العرب من **الحجاز واليمن واليمامة** وينصح بأن تسخو نفس أمير المؤمنين عن أموالها من الصدقات وغيرها وأن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته ... » .

ز - ثم يذكر أن « ما بالناس من الحاجة الى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم الى أقواتهم التي يعيشون بها . وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء الى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ويبصرون الخطأ ويعظون عن

الجهل ويمنعون عن البدع ويحذرون من الفتن ••• وفي كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة اذا صنعوا لذلك وتلطف بهم وأعينوا على ••• معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ••• » • « وحاجة الخواص الى الامام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة الى خواصهم وأعظم من ذلك ••• » •

هذه خلاصة لرسالة الصحابة • وهي وإن تكن غير وافية إلا إنها تلقي ضوءاً هاماً على عدد كبير من أمور الادارة والسياسة الداخلية العباسية • إنها تكشف على الاقل ، أن أهم أركان تلك السياسة وهي أمور القضاء ، والخراج ، والحاشية ، كانت فوضى فلا بد من وضع نظام لها • وحتى الجند الخراسانية وهم قوام الدولة كان لهم ما يشكون منه وما يهدد طاعتهم بالتزعزع •

وابن المقفع ، صاحب الرسالة ، إنما صدر فيها عن فكر سياسي واقعي ورأي تجريبي عملي وليس عن تفكير ديني أو معطيات نظرية • حاول أن تكون تقريراً شاملا لوجوه النقص والآلام في الدولة مع المقترحات الكافية ، في نظره للاصلاح • ولم يهتم كثيرا بربط الادارة وما يجب لها بمبادىء الاسلام والدين لانه هو نفسه لم يكن أسلم الا منذ عهد قريب جدا من تاريخ الرسالة كما لم يكن الفكر الديني من همومه ولكنه حرص على أن يعطي من خلاصة ثقافته الفارسية ، ومن واسع علمه بالتاريخ الفارسي ولسياسة الفرس ما ظن أنه يصلح أمور الدنيا للناس وللخليفة على السواء • ولعل محاولته إنما كانت تطعيم أنظمة الدولة الاسلامية في أمور الجند والقضاء والصحابة والخراج وإدارة الولايات بنظم الفرس وتجاربهم في الادارة والسياسة • وقد كان التيار الثقافي الذي يمثله ابن المقفع أحد الروافد الاساسية التي لونت الحضارة الاسلامية في العهد العباسي •

ولقد أخذ المنصور ، في الواقع ، بالكثير من الآراء التي عبر عنها ابن المقفع • ولقد لا يكون ذلك نتيجة لرسالة الصحابة بقدر ما كان نتيجة للحاجة الواقعية في الدولة الجديدة لانظمة وحلول تتفق مع تطور الدولة وتعقد أمورها وإدارتها •

وأما رسالة **طاهر بن الحسين** لابنه عبد الله وهي ما يدعوه الطبري بالوصية فهي تقرير من نوع آخر كتب والدولة العباسية قد استقرت ووضعت نظمها ومضت أمور خلفائها على مايشتهون وأخذت طابعها الديني فلم يكن الهدف من الرسالة تحليل الواقع السياسي في الدولة وان كان غير بعيد عنه ولكن رسم المثل الاعلى للحاكم العباسي المسلم • هي تصوير لما يجب أن يكون وليس لما هو كائن • ولذلك فاللهجة فيها مختلفة ولكن المواضيع والرأي ليست على كثير من الاختلاف ، والنقاط الاساسية فيها تتناول :

أ ـ **تطبيق الدين** : تبدأ الرسالة بقول الأب لابنه : « عليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك ••• والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ••• والقيام بحقه وحدوده فيهم والدفع عن حريمهم والحقن لدمائهم والامن لسبيلهم وادخال الراحة عليهم في معايشهم ••• وأول ما تلزم به نفسك •• المواظبة على •• الصلوات الخمس والجماعة بمواقيتها • واتباع سنن الرسول وآثار السلف وأثر الفقه وأهله والدين وحملته ••• » •

« وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها ••• واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز » •

« ولا تنهض أحداً من الناس ما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة ، فان ايقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مأثم ... واجعل من شأنك حسن الظن باصحابك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة، وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع فان الله جعل الدين حرزا وعزاً فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ... واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله وأقص أهل النميمة ، لان الكذب رأس المآثم »

ب ــ **العدل والقضاء** : يقول صاحب الرسالة : « واجتنب سوء الاوهام والظلم ... وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل سياستهم ... واملك نفسك عند الغضب وإياك أن تقول إني مسلط أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع فيك الى نقض الرأي ... واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة الى احد أسرع منها الى أصحاب السلطان ... » .

« ... واعلم ان القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الامور لأنه ميزان الله الذي تعتدل به الاحوال في الارض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ... ويقوم الدين وتجرى السنن والشرائع .

جـ ــ **السياسة المالية** : « ... واعلم أن الاموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المؤونة ( التكاليف ) عنهم ربت ونمت ... فليكن كنز أموالك تفريق.

الاموال في عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ... واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الانسان ربه ... » .

« ... وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ولاهله سعة ومنعة ولعدوه كبتاً وغيظاً ولاهل الكفر من معاهدتهم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ولا ترفعن منه شيئا عن شريف لشرفه وعن غني لغناه ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال ولا تكلفن أمراً فيه شطط» .

**د ـ الجند** : « ... وتفقد أمر الجند في دواوينهم ومكاتبهم وأدرر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معايشهم ليذهب الله بذلك فاقتهم ويقدم لك أمرهم ويزيد به قلوبهم في طاعتك ... » .

**هـ ـ السياسة الادارية** : « ... واعلم أنك جعلت بولايتك **خازناً وحافظاً وراعياً** ... » .

ومتى « .... أعنت على الصلاح درت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناصيتك وظهر الخصب في كورك فكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة باقامة العطاء فيهم من نفسك ... » .

**و ـ صاحب البريد** : ... واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله ... » .

ز ـ **الحاشية** : « ••• وانظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم ثم استيقن صفاء طويتهم فاستخلصهم وأحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مؤنتهم ••• » • « ••• واكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ••• » •

ح ـ **الخدمات الاجتماعية** : « •••• وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين •• واجر للاضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن في الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم وقواماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم ••• » •

ط ـ **الموظفون** : « واستعمل على ( رعيتك ) في كور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة ••• » •

« ••• وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك ، فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك ••• ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك فما كان موافقا للحزم فأمضه ، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسألة عنه » •

هذه هي رسالة طاهر بن الحسين واذا كان الفرق ما بين رسالته ورسالة ابن المقفع هو الفرق ما بين الواقع السياسي والمثل الاعلى فهو في الوقت نفسه الفرق ما بين السياسة الداخلية في مطلع العصر العباسي وفي نهايته كما أنه الفرق ما بين الحاجات الادارية والدولة في طريق التوطيد وبين

هذه الحاجات نفسها والدولة قد استقرت ورسخت هيبتها وقبولها في قلوب الناس .. غير أننا نستطيع أن نلاحظ تأكيد طاهر بن الحسين على الدور الديني للحاكم من جهة والكلمات القليلة التي خصصها للجند من جهة اخرى مقابل ابن المقفع الذي لم ير في الحاكم الا السلطة السياسية وحدها فلم يشر الى دوره الديني بينما أكد بالمقابل ووضع في مطلع الرسالة دور الجند كما سمى الرسالة برسالة الصحابة لان الدولةالعباسية كانت وهي ابنة ثمان أو عشر سنوات سنة ١٤٠ ـ ١٤٢ تفتش عن الاعوان الأكفياء وعن الرجال الذين يساندون الخليفة الجديد في شؤون الحكم بكل مكان في الدولة المترامية الاطراف الفائرة بالثورات والاطماع .

واذا كانت الروح الطبقية في النظر الى الناس على أن فيهم أهل بيت الخليفة والاشراف والصحابة والاغنياء وفيهم العامة والفقراء ... الخ هي حد مشترك بين الرسالتين يعكس الواقع الطبقي للعملية الادارية العباسية فليس أقل من ذلك أهمية ما تكشف عنه الرسالتان وتشتركان فيه من تحديد عناصر السياسة الداخلية للدولة في أربع نقاط : سياسه الناس وأمر القضاء والاموال والجند . وعلى هذا الاساس فاننا اذن نستطيع أن ندرس السياسة العباسية الداخلية لا في تكوين أجهزتها ولكن في ممارستها العملية في النقاط التالية :

أ ـ ادارة الدولة وتشمل العملية الادارية في المركز والولايات كما يرتبط بها أمر القضاء والقضاة في الوقت نفسه .

ب ـ الاموال والسياسة الضرائبية للخلفاء .

ج ـ المؤسسة العسكرية ( الجيش ) ودورها الاداري والسياسي في الأمن والنظام .

ويلخص هذه النقاط قول طاهر بن الحسين في رسالة لابنه : « إنك جعلت في ولايتك خازناً وحافظاً وراعيا » •

## ١ ــ السياسة الادارية

في الوقت الذي كانت تطرح فيه على العصر العباسي الاول الكثير من مسائل ومشاكل الفكر والـدين والتطور الاجتمـاعي والتحـول الاقتصادي كانت مسائل ومشاكل موازية تطرح على العباسيين الاوائـل في نواحي السياسة والادارة • وتضطرهم الى ايجاد الحلول لها عن طريق تنظيم وتوسيع وتعميق أجهزة الحكومة والادارة والقضاء • وما من شك في أن تاريخ الادارة العربية الاسلامية يحتفظ لعمر بن الخطاب ، مـن الخلفـاء الراشدين ، ولمعاوية ثم عبـد الملك بن مروان خاصة ، مـن الخلفاء الامويين بمكانتهم الخاصة • إلا إن معالم النظام الحضـاري الاسلامي الذي يمكن أن يدعى « بالكلاسيكي » إنما برزت وتوطدت في العصر العباسي الاول ثم الثاني من بعده • ولئن رسمت الخطوط العريضة للمؤسسات الادارية والقضائية الاسلامية منذ أواسط العصر الاموي حتى أواخره فانها لم تعرف الكمال والاستقرار والثبات الا في العصر العباسي •

كان الحكم الاموي ــ رغم طابعه الملكي الوراثي ــ أقرب الى الحكم القبلي • يشرف فيه الخليفة من علٍ على الامور الكبرى • وللولاة القسط الوافر من الاستقلال الاداري في ولاياتهم على مـا يشتهون • ولقد كان ثمة جهاز مركزي ولكنه كان محدود الاتصال والسلطة علـى الولاة « أما الحكم العباسي فقد اتجه اتجاهاً حثيثاً نحو مزيد من المركزية

والرقابة وبالنتيجة نحو مزيد من التعقيد أيضا »[1] وتميز في هذه النواحي الثلاث عن طريقة الحكم الاموي كما تميز في ناحية رابعة هي مزج الدين بالدولة بشكل لا يتجه الى تطبيق الدين بقدر ما يهدف الى استغلاله السياسي ، وجعله نظاما سياسيا •

وقد نستطيع أن نرى ملامح الادارة العباسية الاولى بمركزيتها ورقابتها وتعقيدها وجوها الديني اذا نحن استعرضنا القوى الاساسية التي كانت توجه وتنفذ تلك الادارة وهي أربع :

أ ــ رئاسة الدولة ( الخليفة ) والحاشية والبلاط •
ب ــ الدواوين والكتاب ( جهاز الادارة الاختصاصي ) •
جـ ــ القضاء والقضاة ( التشريع واقامة الحقوق ) •
د ــ الولاة •

**١ ــ رئاسة الدولة (الخليفة) والبلاط والحاشية (الصحابة والخاصة):**

اذا تجاوزنا الخليفة العباسي الاول ( أبا العباس ) الذي لم يكن في مفهومه للخلافة وفي ممارستها بمختلف عن الخلفاء الامويين ولم يطل عهده ليطور لنفسه مفهوماً خاصاً حولها ، فان الذي أوجد التطور الاساسي في مفهوم « الخلافة » الاسلامية بعد معاوية هو المنصور • لقد أدخل عليها فكرة الاختيار الالهي التي حاول أواخر الامويين اضفاءها على أنفسهم • فلم يكن فقط وريث الخلافة المشيخية ، خلافة الصحابة ،

---

(١) راجع ما كتبه حول هذه النقطة كلود ــ كاهن في كتابه تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ( الترجمة العربية ج١ ص ١١٧ ) •

التي أوجدها الخلفاء الراشدون ولا الخلافة الملكية الوراثية التي أوجدها الإمويون ، ولكنه كان أيضا وريث صاحب الرسالة نفسه من جهة بمقتضى الشرع كما كان الرجل الذي اختاره الاله لقيادة الامة من جهة أخرى ولهذا « نصره » على الآخرين كافة فهو « المنصور » . ومصدر قوتـه مزدوج يجمع بين النسب النبوي والاختيار الالهي . ومن هذا وذاك أخذت السلطة العباسية الرداء الديني بالاضافة الى الرداء الدنيوي . كانت أوتوقراطية دينية . كل السلطات فيها مجموعة في يد الخليفة الذي يعتبر الرقيب والامين على تنفيذ أحكام الدين بجانب تسيير أمور الدنيا .

ولم يكن ثمة يمين يحلفها الخليفة ، على طريقة الاباطرة البزنطيين ، ولاعرف العباسيون الثورات لازاحتهم عن العرش ( إلا من قبل بـعض آل البيت أنفسهم كالفاطميين ) وإن عرفوا الكثير من الثورات لاغتصاب جزء من الحكم منهم في بعض الاقاليم . وكان الناس هم الذين يقسمون اليمين على الولاء لهم فيما يسمى بالبيعة من خاصة وعـامة . فالرعيـة مسؤولة أمام الخليفة العباسي أما هو فمسؤول أمام الله . وثمة فـرق كبير بين موقف الخليفة الراشد المسؤول امام الرعية مسؤولية مبـاشرة حتى عن العدل في ثوب يرتديه وبين الخليفة العباسي الذي انتهى ـ بعد الاموي ـ بأن لا يكون مسؤولا حتى عن مثل نكبة البرامكة أو هبة مائة مليون درهم في عمل ارتضاه ...

وقد كانت « الخلافة » منذ العصر الاموي قد تحولت الى سلطة اوتوقراطية ولكن العباسيين منذ المنصور خاصة زادوا في صفتها هذه فجعلوها أوتوقراطية مطلقة . واذا كان الولاة في العهد الاموي يتمتعون بقدر واسع جداً من الاستقلال فان المنصور قد وضع للخلافة العباسية

بالعكس تقاليد المركزية المتشددة ، وجعل نظام الرقابة عنده على مستوى الأهمية والسعة التي كان عليها نظام الادارة نفسه ، حتى لم تعد « الوزارة في عهد طائلة » كما قالوا . وازدياد المركزية مع اتساع الدولة كانا يقتضيان نشوء نظام بورقراطي متزايد التعقيد وهو ما كان بالفعل مما اضطر الخلفاء لزيادة الدواوين في العدد وفي الاختصاص والتسلسل .

وأضاف المنصور الى هذا وذاك احتجاب الخليفة عن الناس : تمثل ذلك في مظاهر عديدة منها بناء قصر الخلد وضرب الاسوار المغلقة من حوله ، ومنها اصطناع « الوزراء » وجعلهم نوعاً من الوسطاء في إبلاغ الناس إرادة الخليفة والتعهد بتنفيذها ، ومنها أتخاذ الالقاب .

ولم يكن ثمة في العصر العباسي الاول من ألقاب سوى اللقبين اللذين يحملها الخليفة وولي العهد . كان الخليفة ( وابنه ) هما الوحيدان اللذان يحق لهما التمتع باللقب كأنما أضحيا في الاعتبار العام ، أعلى من أن يذكرا باسميهما المجردين على ما كان عليه الامر في العهد الاموي .

وبينما كان للخليفة الاموي بلاط على جانب قليل أو كثير من البساطة لا يفصله عن الرعية أو على الاقل عن اشراف العرب أي حاجز احتجب الخليفة العباسي تماماً وصار الوصول اليه من الصعوبة بحيث أضحى الحاجب من أعظم شخصيات الدولة .

ونمت الى هذا كله باطراد الصفة التيوقراطية في سلطة الخليفة العباسي . تعمد المنصور واولاده من بعده ذلك جواباً وتحدياً لادعاءات العلويين من جهة ولاطماع الامويين من جهة أخرى وتجاوبا مع حاجات العصر الذي ازدادت فيه أعداد المسلمين من الامم الاخرى زيادة كبيرة .

وقد تمثل هذا التطور كله في « بغداد » التي أفرغ المنصور في شكل بنائها ــ وإن لم يرد ــ مفهومه كله في الخلافة والادارة فقد صممت المدينة المدورة « دار السلام » لتكون مقر العرش العباسي فجعلت مدورة دون جهات واضحة ، لان الخليفة ليس لجهة • وجعلت لها أربعة ابواب: باب باتجاه خراسان مصدر قوة الدولة يقابله باب آخر باتجاه الحجاز مصدر سلطة العباسيين وباب باتجاه الشام مصدر قلق الدولة يقابله باب باتجاه البصرة والسواد مصدر القوة الاقتصادية والمال • وجعلت هذه الابواب مزورة فلا يجب ان يكون الدخول الى الخليفة ومدينته ميسورا لكل طارق • وأقيمت للمدينة الاسوار المضاعفة بأبواب الحديد لتكون فاصلاً بين صاحب السلطة والناس ، وحماية كافية له ثم يأتي حاجز سكني من أنصار الخليفة ورجاله الذين أقطعهم القطائع فهم سياجه البشري وبطانته وتقوم في مركز المدينة ، ومركز الدائرة الرحبة العظمى لا ينفذ إليها إلا من خلال دهليز ينتهي ببابين من الحديد وفي وسط الرحبة قصر الخلافة ( قصر الخلد أو باب الذهب ) ذو القبة الخضراء يستقل به الخليفة مع حرمه وآل بيته ، وليس على مقربة منه الا دار الحرس وسقيفة لصاحب الشرطة ومنازل أولاد المنصور الاصاغر والدواوين : للرسائل والخراج والخاتم والجند وخزانة السلاح وبيت المال ••• والمسجد الجامع ••• كان ذلك قريب الشبه بالمدينة الملكية الصينية • ولم يكن لاحد أن يدخل الرحبة العظمى وهو راكب ولو كان من عمومة المنصور[1] • ثم ضاق المنصور بوجود أسواق الناس في بغداد فطرد هذه

---

(١) انظر الخطيب البغدادي ــ تاريخ بغداد ج١ ص ٧٨ وانظر الطبري

الأسواق خارج الاسوار ! كانت بغداد اذن الصورة المادية لفكر المنصور الاداري وتصوره للدولة • واذا كان هذا الانسحاب والاحتجاب عن حياة الناس العامة قد أعطى الخليفة العباسي صورة ملوك الشرق القدماء كالاكاسرة مثلا فانه جعل لظهور الخليفة بموكبه الباذخ في الاعياد وصلاة الجمعة وفي المسير للجهاد وفي المناسبات العامة نوعا من الهالة القدسية ، ينسجم مع النسب النبوي ومع صفة الاشراف على تنفيذ أوامر الله •

ولا شك أن المنصور بمفهومه الاداري الملكي المختلف عن المفهوم الاموي ( الديمقراطي ) قد صدم الرأي العام فيعصرهوأثار انتقاد الاتقياء والمؤمنين بالبساطة الحكومية وبمثال الشيخين وقد استوقف أحدهم المنصور في الكعبة فقال له : لقد استرعاك الله أمر عباده فأغفلت أمورهم وجعلت بينهم وبينك حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديدوحراسا معهم السلاح[1] •••» كما لم تخف أهداف المنصور من هذا البناء المركزي الحصين على معاصريه ولم تخف بخاصة على أعدائه العلويين الذين أنحوا عليه بالتهجم المرير وبالاتهام حتى درجة التكفير • فقد خطب محمد ( النفس الزكية ) في الناس يوم الثورة بالمدينة قتال : « أما بعد : أيها الناس فانه كان من أمر هذه الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام • وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الاعلى ••[2] »

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٨ ( ٣/٣٧٧ ) •
(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٥٨ (٣/١٩٧) •

وثمة على أي حال فرق كبير جداً بين مفهوم المدينة الذي بنيت على أساسه بغداد بظروف بنائها وبأسوارها ومركزها المغلق • وبين المفهوم المنفتح الذي بنيت على أساسه سامراء بامتدادها وقصورها الباذخة وشوارعها الضخمة وظروف ذلك البناء المختلفة •

وقد نفذ المنصور فكره الاداري في الحزم المعروف عن مؤسسي الدول فلما جاء من بعده المهدي تراخت القبضة الادارية الحديدية التي عرفت عن أبيه ،وتسامح المهدي مع الناس ومع نفسه،وإذا كان المنصور قد ضرب بالطنبور رأس الضارب عليه حين سمع الدندنة في القصر فإن الخوارج كانوا يرددون صدى مايقوله الناس حين كتبوا الى المهدي يندّدون بسيرته ويأخذون عليه عدم إقامة الحدود واتخاذه الإماء والتنوق في البناء وإدمان الصيد والغناء ، ويضيف أحدهم ، وهو عبد السلام اليشكري :

« ••• وقد زادني غيظاً أنك تسميت بالمهدي وأبعد من سماك ••• ففي أي دين يسعك وفي أي كتاب إذ تعدو وظيفة ، أو تنقص مساحة ، أو تصطفي بستاناً أو تبذخ في مركب ، أو ترمي به في النزهة ، أو تفاوض عن جند أو تحبس عطاء أو تنسى من غزا أو تعاقب بالسوط ، سافكاً الدم ••• أيها الطاغية ••• » [1] ونرى المآخذ نفسها تؤخذ من قبل هؤلاء الخوارج على الرشيد ، ويكتب اليه حمزة بن أترك : « •• وقد فقد المسلمون عطاياهم وأرزاقهم وصدقاتهم بعد الخليفتين فصارت تؤخذ من غير موضعها وتصرف الى غير أهلها ••• » هذا الى مايتعاطى عمال

---

(١) انظر الرسالة كاملة في المصدر الوحيد الذي ذكرها وهو خليفة ابن خياط ـ التاريخ ( طبعة العمري ) ج ٢ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٧

السلطان « من سفك الدماء وإباحة الأموال وركوب الفواحش وما لم يحله الله لعباده ...»[1] وإذا كانت بعض التواريخ قد ظلمت الأمين في سيرته اللاهية اللامبالية فليس ثمة دخان دون نار وإذا كانت سيرة المأمون « الرسمية » تجعله أنموذج الخليفة السياسي العالم الواعي فإن صورته في عصره لدى الناس لم تكن كذلك أبداً . وثمة إشارات كثيرة تكشف نظرة الناس السيئة إليه ومؤاخذته بدم أخيه وبالظلم كما تكشف بالمقابل خوفه من الناس ونظام التجسس الذي أقامه وقد اكتمل سوء الموقف ضده حين أخذ الناس آخر عهده بمذهب الاعتزال .

على ان شكاوى الناس من الخلفاء ظلت مجرد كلام في الهواء ولئن حولها الخوارج إلى قتال فقد كان قتالاً فاشلا لم تؤثر إلا في بعض الفترات أو بعض النواحي على مسيرة الادارة العباسية والتأثير المؤقت فقط .

فقد كانت أعمال المنصور وجهوده لإقرار النظام العباسي كافية لكي يستمر هذا النظام قائماً من بعده فترة تقارب القرن هي العهد الذهبي للادارة العباسية . ولم تسر هذه الادارة بأزمة من الأزمات الحادة إلا في تلك السنوات التي رافقت حرب الأخوين الأمين والمأمون وخاصة تلك التي اعقبت مقتل الأمين سنة ١٩٨ وامتدت حتى ما بعد وصول المأمون إلى بغداد سنة ٢٠٣ بقليل .

تلك السنوات الخمس كانت الفترة المظلمة القلقة في تاريخ الادارة

---

(١) انظر رسالة الرشيد وجواب حمزة بن اترك كاملين في كتاب تاريخي سيستان ( بالفارسية ) لمؤلف مجهول ( طهران سنة ١٣١٤ ) ص ١٦٢ ــ ١٦٨

العباسية . ذلك أن غياب السلطة المركزية ، الغياب المطلق ، **فكك** النظام الاداري كله وبلغ من تمزيق الدولة الحد الذي أقام في كل بلد وأحياناً في كل قبيلة أو جماعة متغلباً يدعو لنفسه أو لبعض المتنفذين أو بعض آل البيت . ويعطينا اليعقوبي صورة كاملة مرعبة لذلك التفكك الفسيفسائي يقول : « ... وفي سنة ١٩٨ وجه المأمون الحسن بن سهل إلى العراق عاملاً عليها وعلى غيرها من البلد . وقد كان وثب الأصفر المعروف بأبي السرايا واسمه السري ابن منصور الشيباني **بالكوفة** ومعه محمد بن ابراهيم العلوي ... ثم توفي محمد فأقام ابو السرايا مكانه محمد بن محمد بن زيد . وأخذ **البصرة** العباس بن محمد بن موسى الجعفري ... وقدم معه زيد بن موسى بن جعفر ... وأخذ **واسط** محمد بن الحسن المعروف بالسلق وأخذ **اليمن** ابراهيم بن موسى ابن جعفر . وأخذ الحجاز محمد بن جعفر . وتغلب على **نصيبين** وماوالاها احمد بن عمر بن الخطاب الربعي . **وبالموصل** السيد بن أنس وبميافارقين موسى بن المبارك اليشكري **وبارمينية** عبدالملك بن الجحاف السلمي ومحمد بن عتاب **وباذربيجان** محمد بن الرواد الأزدي ويزيد بن بلال اليمني . ومحمد بن حميد الهمداني وعثمان بن أفكل وعلي بن مر الطائي . **وبالجبل** أبو دلف العجلي ومرة بن أبي الرديني وعلي بن البهلول ومحمد بن زهرة وسنان وزيد بن ... **وبالسلسة وعين جساس** وناحيتها بسطام بن السلس الربعي . **وبكفرتوثا وراس عين** حبيب بن الجهم **وبكيسوم** وماوالاها من ديار مضر نصر بن شبث النصري . وكان أصعب القوم شوكة ... **وبقورس** وماوالاها من كور العواصم العباس بن زفر الهلالي . **وبالحيار** وما والاها من **كورقنسرين** عثمان بن تمامة العبسي **وبالحاضر الذي الى جانب** حلب منيع التنوخي ... ( وحاربهم

يعقوب بن صالح الهاشمي حتى خرب الحاضر وألصقه بالارض وكان فيه عشرون ألف مقاتل ) **وكان بمعرة النعمان وتل منس وما والاها من اقليم حمص** الحواري بن حنطان التنوخي . **وبحماه** وما والاها حراق البهراني **وبشيزر** وما والاها بنو بسطام . وبمدينة **حمص** بنو السمط **وبالمصيصةواذنةدما** والاها من الثغور الشامية ثابت بن نصر الخزاعي (وكان عاملاً للأمين فلما كان من أمره ما كان تغلب على البلد ) **وأقام بدمشق والاردن وفلسطين** جماعة من سائر القبائل . وبمصر السري بن الحكم بقصبة **الفسطاط** والصعيد (اي الدلتاوتنيس) عبد العزيز الجردي **وبالحوفين** القيسية واليمانية .

وغلبت لخم وبنو مدلج على **الاسكندرية** ورئيس لخم رجل يقال له احمد ابن رحيم اللخمي . ثم غلب الاندلسيون ( جماعة الربض الذين قدموا في اربعة آلاف مركب بقيادة ابي عبد الله الصوفي ) . وكان **ببرقة** مسلم بن نصر الأعور الأنباري ... »[1] .

وهكذا كان الجزء الوحيد من الدولة الباقي على النظام العباسي هو خراسان وايران حيث كان يستقر المأمون . وكان على هذا الخليفة أن يعاود من جديد جهود المنصور لالغاءهذه الزعامات والتسلطات المحلية وإقرار النظام العباسي المركزي بدلاً منها . وحتى خراسان لم تسلم للمأمون إذ خرج بها بعد مغادرة المأمون لها ثائر خطر هو منصوربن عبد الله بن يوسف البرم . وحتى بغداد التي فتحت وقتل خليفتها وثب بعض اهلها (أهل الحربية) كما وثب الابناء وبعض الجند بقيادة محمد بن أبي خالد بالحسن بن سهل حتى أخرجوه من بغداد ... وبرغم مقتل ابن أبي خالد عند واسط فإن الابناء وقواد الحربية اجتمعوا فبايعوا لابراهيم

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦

ابن المهدي ( وهو المعروف بابن شكلة ) في مطالع سنة ٢٠٢ ودعي لـه بالخلافة وسمي بالمرضى ... ونزل بالرصافه وصلى بالناس وعقد الالوية وكتب بالولايات واستقامت له الامور ...[١] » .

ولكن هل استقامت فعلا ؟ الواقع انها استقامت متأخرة في سنة ٢٠٦ حين « ولى المأمون قائده عبد الله بن طاهر الجزيرة والشام ومصر والمغرب وصير إليه جميع أعمالها وأمره بمحاربة المتغلبين بها . فنفـذ عبد الله في سنة ٢٠٦ بعـد نفوذ أبيه الى خراسان بشهرين فصار الى الرقة فواقع نصر بن شبث النصري المتغلب بكيسوم وما والاها من ناحية الجزيرة . وكتب الى سائر المتغلبين في النواحي من الجزيرة والشامات . وأنفذ اليهم الرسل في المعاون . فكتب القوم جميعا أنهم في الطاعـة . وسألوه أن يكتب لهم الامانات فقبل ذلك منهم [٢] » .

« ووجه المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني الى مصر ومعه عمر بن فرج الرخجي في جيش وأمرهما أن يتكاتفا على النظر فاذا فتحا البلاد نظر ... الرخجي في أمر الخراج وكان الى خالد المعاون والصلاة » .. ثم قدما مصر وعلى بن عبد العزيز الجروي متغلب بأسفل الارض .. فكتب اليهما أنه في السمع والطاعة ... » .

ولكنه زاغ منهما بعد ذلك ولا سيما حين انهزما أمام عبيد الله بن السري وأسر خالد ثم اطلق بالسراح الجميل الى العراق بينماذهب الرخجي الى الحج بمكة ... ثم لم تسقط مصر بيد المأمون حتى أرسل لها عبد الله بن

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١
(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٦ و ص ٤٥٧

طاهر نفسه [1] فحارب وانتصر في صفر سنة ٢١١ •

وجرى الامر نفسه في اليمن وكان أحمد بن محمد العمري ( من ولد عمر بن الخطاب ) قد وثب بقسم من اليمن فلما استنزله منها بالامان ابو الرازي محمد بن الحميد والي اليمن ثم مكر به صار بعض اليمن للمأمون أما القسم الآخر الذي غلب عليه ابراهيم بن جعفر الحميري فكان في منطقة الجبال الوعرة وقد استطاع الحميري أن يكمن لابي الرازي فيها فيقتله مع أصحابه ثم يخرب مدينة السلطان ( زبيد ) سنة ٢١٢ هـ •

وهذا كله يعني أن الادارة العباسية استمرت بعد سنوات الاضطراب الخمس سنة ( ١٩٨ ــ ٢٠٣ ) ما لايقل عن ثماني أو تسع سنوات أخرى حتى عادت آليتها الى المسير المنتظم القديم وعاد للسلطة المركزية نفوذها في أنحاء الدولة ولكن بعد أن زرعت فيها بذور التفكك المقبل •

وننتقل من رئيس الدولة وعمله الاداري الى البلاط حوله فنجد فيه : ولي العهد والصحابة • ولم يكن لولي العهد من دور إداري • بلى ! كان يتمرس على الادارة بأن يعطى بعض الولايات • وكان ــ ولا سيما في الفترات الاولى ــ يذهب الى تلك الولاية ، وهي في الغالب خراسان ولكنه عند ذلك يصبح واحدا من الولاة وليس الموجه لسياسة الدولة كلها • ومنذ عهد المنصور أضحى ولي العهد نوعا من « الخليفة الصغير » في الشكليات والمراسم دون السلطات والنفوذ • كان يخرج في موكب خاص به ويمشي صاحب الشرطة بين يديه « بالحربة » ثم تعقد الموكب مع الايام وازدادت المراسم حتى إذا كان عهد المتوكل نجد أن تلك المراسم أضحت

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٦٠

معقدة منظمة • يروى الطبري[1] أن المتوكل عقد لكل واحد من أولاده الثلاثة لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل وضم إلى كل واحد منهما من العمل : افريقية والمغرب حتى العراق لابنه محمد المنتصر وكور خراسان وفارس مع بيوت المال ودور الضرب لابنه المعتز وأجناد الشام لابنه المؤيد ••• ونستخلص من كتاب المنتصر في عزل أخويه هذين أنه كان من الرسم أن يعلن اسم ولي العهد في الخطبة، وأن يجعل له ديوان وتضم اليه الكتبة ويعطى الاقطاع اللازم ويكتب اسمه على الاعلام والمطارد وتوسم دواب الشاكرية ( الحرس ) والرابطة باسمه[2] ولكن الاثر الاداري لاولياء العهود لم يكن ليزيد عن أثر أي وال من الولاة مع كل ذلك •

علي أن الجديد في الادارةالعباسية هو ظهور « مجلس » استشاري من كبار الرجال في مختلف الامصار يختار أعضاؤه اختيارا ليكونوا بجانب الخليفة على الدوام ، يحضرون القصر كل يوم فيدخلون على مراتبهم مجلس الخليفة ، فيشهدون لقاءه مع الناس ويستشيرهم في الرأي ويكتبون له بما يرون من الامور ويسامرونه أحيانا ويحضرون بجانبه في المناسبات الرسمية من عرض للجيش أو بيعة لولي عهد أو تهنئة أو عزاء ، كما ينتقى منهم أحيانا بعض الرجال لبعض المهام من قيادة وسفارة وولاية • هذا المجلس الذي قد يبلغ أعضاؤه عدة مئات كان يدعى « بالصحابة » ويبدو أنه تقليد عربي قبلي قديم نما في زمن الامويين فكان يحضر مجالس خلفائهم وولاتهم وجوه العرب ثم نظم ذلك العباسيون الاوائل تنظيما أوفى وأوسع • يروي الطبري قول معن بن زائدة :

---

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٧٦ ( ٣/١٣٩٥ ـ ١٣٩٦ ) .
(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٥٠ ( ٣/١٤٩٤ ) .

« ••• كنا في الصحابة سبعمائة رجل فكنا ندخل على المنصور كل يــوم فقلت للربيع ( بن يونس ) : اجعلني في آخر من يدخل فقال : لست بأشرفهم فتكون في أولهم ولا بأخسهم نسبا فتكون في آخــرهم وإن مرتبتك لتشبه نسبك[1] ••• » هؤلاء هم الحاشية الرسمية • وكان لها من الخليفة الجراية المعلومة المتفاوتــة من الرزق (الراتب) والمعونة ( المؤن والعدد للقتال ) ولها في توجيه الادارة الاثر المتفاوت أيضا حسب افرادها وقيمهم وحسب الخلفاء •

ويبدو أن أول ما ظهر هذا المجلس من الصحابة إنما كان حــول الخليفة الاول أبي العباس بسبب حاجته وحاجة الدولة الجديدة الــى الاعوان والخبراء • كما يبدو أن الصحابة الاوائل هؤلاء كانوا يجمعون أو يقبلون في مجلس الخليفة دون تدقيق في الاختيار بســبب طبيعــة مرحلة التأسيس التي كانت تجتازها الدولة • وقد سمحت الفترة الاولى، للوزراء والكتاب بسبب الفوضى والسرعة ، أن يدخلوا في صحابــة الخليفة أناسا لا ينظر الناس اليهم نظرة تقدير مـــا جعــل الطبقــات الارستقراطية تحجم عن الترحيب بصحبة الخليفة • وقد أشار ابن المقفع في رسالة الصحابة الى آلام الناس ونقدهم الشديد لهذا الوضع قال[2]:
« ••• ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر اصحابه فان من أولى أمر الوالي بالتثبت والتخير أمر أصحابه الذين هم فناؤه وزينة مجلسه وألسنة رعيته

---

(١) الطبري ج٨ ص ٦٤ ( ٣/٣٩٣ ــ ٣٩٤ ) .
(٢) انظر في رسالة الصحابة لدى محمد كرد علي ــ رسائل البلغاء ( طبعة البابي ــ القاهرة سنة ١٩١٣ ) ص ١٢٧ ــ ١٢٨ وانظرها لدى يوسف ابو حلقة في كتاب ( ابن المقفع ــ الادب الكبير ) ــ طبعة بيروت ١٩٦٠ ص ١٧٢ ــ ١٧٤ .

والاعوان على رأيه ومواضع كرامته والخاصة من عامته فان أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة امير المؤمنين ( المنصور ) عملا قبيحا مفرط القبح ، مفسدا للحسب والادب والسياسة ، داعيا للاشرار طاردا للاخيار . فصارت صحبة الخليفة أمرا سخيفا فطمع فيه الاوغاد وتزهد اليه من كان يرغب فيما دونه ... »
ثم يروي ابن المقفع أنه كان في ناس من وجوه أهل البصرة دعاهم أبو العباس « فأبوا أن يأتوه فمنهم من تغيب فلم يقدم ومنهم من هرب بعد قدومه اختيارا للمعصية على سوء الموضع لا يعتذرون في ذلك الا بضياع المكتب ( أي ما يكتبون ) والدعوة ( أي الاذن على الخليفة ) والمدخل ( الدخول عليه ) يقولون : هذه منزلة كان من هو أشرف من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر من أمراء ولاتنا اليوم ولكنها كانت مكرمة وحسباً . إذ الناس ينظرون ويسأل عنهم فأما اليوم ونحن نرى فلانا وفلانا ينفر بأسمائهم على غير قديم سلف ولا بلاء حدث فمن يرغب فيما ها هنا يا أمير المؤمنين ؟» .

لا يصلح القوم فوضى لاسراة لهم ... ولا سراة اذا جهالهم سادوا

« وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم :
أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول : ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي الى أدب ذي نباهة ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في أهل مصره قد غبر عامة دهره صانعا يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غنا إلا إنه مكنه من الامر صاغ ( مال ) فانتهى الى حيث أحب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والانصار وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب. ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيرهم من سروات قريش ويخرج له من المعونة على نحو ذلك .. » .

« وأما المظلمة التي دخلت في ذلك فعظيمة قد خصت قريشا وعمت كثيرا من الناس وأدخلت على الاحساب والمروءات محنة شديدة وضياعا كثيرا فان في اذن الخليفة في المدخل عليه والمجلس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكماً عظيما على الناس في أنسابهم وأخطارهم ... وليس ذلك كخواص المعروف ... يختص بها المولى من أحب ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضى فيه للماضين من أهل السوابق والباقين من أهل المآثر وأهل البلاد والغناء بالعدل ... ولصحابة أمير المؤمنين ـ اكرمه الله ـ مزية وفضل وهي مكرمة سنية حرية أن تكون شرفا لاهلها وحسبا لاعقابهم وحقيقة أن تصان وتحظر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال ( قرابة ، شرف ، رأي ، حديث ، مشورة ، نجدة ، حسب ، عفاف ، فقه )ثم تكون تلك الصحابة المخلصة على منازلها ومداخلها لا يكون للكاتب فيها أمر في رفع رزق ولا وضعه ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخره ... »

في هذه الصورة النادرة صور ابن المقفع واقع الامر في تكوين مجلس الصحابة وذوره زمن ابي العباس وفي مطالع عهد المنصور ، ويبدو من أخبار هذه الصحابة أن أمر تعيينها وضمها الى الخليفة كان يخضع للاختيار الحروكان يعمل فيه الوزراء وكبار الكتاب والولاة بجانب الخلفاء: فصالح بن علي العباسي سار من مصر عائدا ومع عدة من أهلها صحابة لامير المؤمنين[1] وابو عبيد الله وزير المهدي نظر الى أربعة رجال من قبائل شتى من أهل الادب والعلم فضمهم الى المهدي فكانوا في صحابته[2]

---

(١) المقريزي ـ الخطط ( طبعة بيرت ) ج٢ ص ٧٥ .
(٢) الطبري ج٨ ص ١٣٧ ( ٤٨٧/٣ ـ ٤٨٨ ) .

وأعجب الرشيد بفصاحة عبد الواحد بن بشر النصري الذي اعتذر لديه عن أهل دمشق القيسيين ، فأثبته في صحابته[1] ...

ويبدو من جهة أخرى أن هذه الصحابة لم تكن من العرب وحدهم وكان فيها الموالي أيضا كما لم تكن تختار لاحسابها أو غناها فقط ولكن يراعى في اختيارها عدد من الصفات وقد اعطى ابن المقفع الصورة المثالية لهذا الاختيار بقوله : « ... ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال أو رجل له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاء أو رجل يكون شرفه ورأيه وعمله أهلا لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته أو صاحب نجدة يعرف بها ويستعد لها يجمع مع نجدته حسبا وعفافا فيرفع من الجند الى الصحابة أو رجل فقيه مصلح يوضع بين أظهر الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه أو رجل شريف لا يفسد نفسه أو غيرها ... » وهذا يعني أن إطار الاختيار كان يدور حول هذه الصفات ففيه القواد وفيه الفقهاء وفيه أقرباء الخليفة كما فيه الاشراف العرب وغيرهم وأصحاب الرأي والمتحدثون ... ويظهر أنه كان يراعى فيهم التوزيع الجغرافي فمنهم من هو من خراسان كما ان منهم من أهل الشام ومن مصر ومن الحجاز ومن البصرة والجزيرة وقد ورد في كتاب القاضي أحمد بن عبيد الله العنبري الى المهدي يوم استخلص قوله : « ... فان رأى أمير المؤمنين أن يكون بحضرته قوم منتخبون من أهل الامصار أهل صدق وعلم بالسنة ، أو لو حنكة وعقول وورع لما يرد عليه من أمور الناس وأحكامهم وما يرفع اليه من مظالمهم فليفعل فان امير المؤمنين وإن كان الله أنعم عليه بما أفاد من العلم بكتابة رد عليه أمور هذه الامة أهل شرقها وغربها

---

(١) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ( تهذيب بدران ) ج ٧ ص ١٧٧

وقاصيها ودانيها فيشغله بعضها عن بعض ، ففي ذلك عون صــدق على ما هو فيه ان شاء الله ... [1] » .

ولم يحفظ لنا المؤرخون إلا أسماء القليل من هذه المئات العديــدة من صحابة الخلفاء فمن صحابة أبي العباس ذكروا مثلا فراس بن جعــدة المخزومي ، وابا بكر الهذلي وعبد الله بن شبرمة وابراهيم بن جبلــة الكندي وخالد بن صفوان . كما عرضت الصحابة على ابن المقفع وغيره . ومن صحابة أبي جعفر نعرف معن بن زائدة الشيباني وابن ابي الكرام الجعفري والحجاج بن أرطاة النخعي وجعفر بن حنظلة البهراني واسحق ابن مسلم العقيلي ، والشرقي بن القطامي وعثمان بن عمارة وعبد الله ابن الربيع المداني وسلم بن قتيبة الباهلي ونصر بن مالك الخزاعي وتمامة ابن الوليد العبسي ... واذا كان العدد الاكبر من هؤلاء الصحابة عربا فقد كان ذلك نتيجة تكوين الجماعة المناصرة للدولة ولان كثرة المسلمين كانت ماتزال من العرب . وإنما كان اختيارهم في الاصل لا لعروبتهم ولكن لانهم « أهل الامصار » .

ويظهر ان التنافس ومحاولة السيطرة على رأي الخليفة وتنــازع النفوذ كانت على أشدها في البلاط العباسي ولا سيما بين العــرب والموالي . أو بين هاتين الكتلتين وبين الجهاز التنفيذي الذي يرئسه الوزير . وهذا ما أثر تأثيرا سيئا على كتلة الصحابة وعلى نموها كمجلس ذي نفوذ وسمح للوزراء بأن يهدموا ذلك النفوذ بالتــدريج يروي الطبري أن أبا عبيد الله الوزير « لما رأى غلبــة الموالي على المهدي وخلوتهم به نظر الى أربعة رجال من قبائل شتى ( عربية ) من أهل الادب

(1) انظر وكيع ـ أخبار القضاة ج ٢ ص ١٠٧ ( طبعة القاهرة ١٩٤٧ )

والعلم فضمهم الى المهدي فكانوا في صحابته فلم يكونوا يدعون الموالي يخلون به ... » . وكانت الغلبة في النهاية للوزراء لا سيما حين تسلم أمر الخلافة كافة خالد بن برمك في عهد الرشيد . فتقلص ظل الصحابة وتقلص معه نفوذهم السياسي والاداري في الدولة .

ومن الهام أن نلاحظ أن الصحابة لم يكونوا يعملون أو يشيرون ويقررون « كمجلس » ولكن كأفراد بارزين . لم تكن لجماعتهم صفة « المؤسسة الاستشارية » وإن كانوا مجموعة من الافراد جاهزة للمشورة والولاية والنجدة وحسن توجيه الادارة . طبيعة الحكم الاوتوقراطي المطلق الذي وطده المنصور لم يسمح لهذه الجماعة بالنمو والتوطد والتحول الى كيان رسمي منظم بقي بابها مفتوحا دون عدد محدد او نظام معروف أو مدة معينة . وبقيت قيمتها مرتبطة بوزن أفرادها ومدى تقديرهم الشخصي لدى الخليفة او كبار موظفي الدولة ( من وزير وكاتب وحاجب ) ... وبدلا من النمو والتوطد اتجهت جماعة الصحابة شيئا فشيئا في الاسم والاختصاص والدور السياسي نحو الاضمحلال في عهد الخلفاء التالين : تحول اسمها منذ عهد المهدي الى « الخاصة » ولعل لارتفاع قيمة صحابة الرسول واختصاصهم المتزايد بهذه التسمية أثرا في حملهم الاسم الآخر . واستقرت الدولة في القبول العام للناس فاستغنى الخلفاء عن البحث في وجهاء الامة عن أعوان يستقدمونهم الى البلاط مادام الناس يقدمون من أنفسهم عليهم ويطلبون الزلفى اليهم . ولئن بقي التقليد المنصوري بتعيين رجال « الخاصة » في البلاط وفي منحهم الارزاق والمعونة الا إن دورهم السياسي والاداري تضاءل كل التضاؤل فأضحى الدخول في « الخاصة » مجرد تشريف ينعم به الخليفة على من يرتضيه من طبيب أو كبير أو قائد أو

شريف من الاشراف ، ويشكل بهم « الارستقراطية » الرسمية في الدولة.

ويبدو من الاخبار التاريخية أن مجلس الصحابة لم يكن للخلفاء فقط ولكنه كان لاولياء العهود : تربية لهم من جهة وتهيئة للمجلس كي يمنو ويتوطد مع الخليفة المقبل من جهة اخرى شرع في ذلك الخليفة المنصور أيضا فحين أرسل ابنه المهدي على خراسان سنة ١٤٦ جعل له حاشية من الصحابة يعينونه على الولاية ويوجهونه[١] وحين ورد المهدي من خراسان سنة ١٥١ توافد أهل بيته من كان منهم بالشام والكوفة والبصرة وغيرها للتهنئة بمقدمه فأجازهم المنصور وكساهم « وجعل لابنه المهدي صحابة منهم وأجرى لكل رجل منهم خمسمائة درهم ..»[٢] ولكن دور الصحابة لدى ولي العهد كان في الغالب دور المربين والمدربين على المسؤولية المقبلة .

ونجد من جهة اخرى أن بعض الوزراء كانوا يصطنعون لانفسهم صحابة معينة أيضا وكانوا ينظمونها أحيانا . ولعل أول من بدأ ذلك هو يعقوب بن داوود حين أضحى المتنفذ الاول في الدولة فقد روى الطبري أنه « ضم اليه ( سنة ١٦١ ) من متفقهة البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام عددا كثيرا وجعل رئيس البصريين والقائم بأمرهم اسماعيل بن علية الاسدي ومحمد بن ميمون العنبري وجعل رئيس أهل الكوفة وأهل الشام عبد الاعلى بن موسى الحلبي[٣] ... » على أن هذه الصحابة الوزيرية أخذت طابع الاصطناع والارتزاق في عهد البرامكة ثم اقتصرت

---

(١) اليعقوبي تاريخ ج٢ ص ٤٥٦ .
(٢) انظر الطبري ج٨ ص ٣٧ ( ٣/٣٦٤ ) .
(٣) الطبري ج ٨ ص ١٣٦ ( ٣/٤٨٦ – ٤٨٧ ) .

في ما يظهر على جمهور الكتاب ورجال الدواوين فكانوا همرجال الوزير وصحابته بعد ذلك •

ب ـ **الكتاب والدواوين** : الجهاز الاداري العباسي كان سلسلة بورقراطية متصلة من الموظفين تبدأ من القمة بالوزير وتنتهي بصغار المحررين ويمكن أن يشملها جميعا اسم : الكتابة • والوزارة ذاتها انما هي بنت الكتابة • من كان يسمى في أواخر العهد الاموي كاتبا صار في مطلع العهد العباسي يسمى وزيرا وهو ليس اكثر من رئيس الكتّاب • وليس من قبيل الصدفة أن أولئك الذين اختارهم العباسيون الاوائل للوزارة كانوا في كافتهم من طبقة الكتاب فاقصى أمنيات هذه الطبقة منصب الوزارة • وقد ذكر ان عمرو بن مسعدة وقع على ورقة رفعت الى جعفر ابن يحيى البرمكي فأعجب بالتوقيع وضرب بيده على ظهر عمرو قائلا : أي وزير في جلدك ! وهكذا فان وجد لدى العباسيين وزراء فانه لم توجد لديهم « وزارة » بمعنى أنه لم توجد لديهم مؤسسة سياسية ـ ادارية تناط بها طائفة من الاعمال فتديرها ادارة مستقلة (١) •

تضخمت فقط أعمال رئيس الديوان وكبرت مكانته فصار يسمى بالوزير • وإذا كان هذا يفسر مصارع الوزراء المتتالين الذين كانوا ينتقلون ـ في لحظة تسامح من الخليفة ـ من وظيفة الكاتب المنفذ الى

---

(٤) إنما كان تعدد الوزراء بتعدد الاعمال من نظام الاندلسيين « فقد قسموا خطة الوزارة اصنافا وافردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا وللترسل وزيرا وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا وللنظر في احوال اهل الثغور وزيرا » انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٢ ص ٢٠٦ •

وظيفة الآمر الناهي فانه يكشف في الوقت نفسه أن هذا الانتقال الذي قام به أمثال يعقوب بن داوود ثم خالد بن برمك وابنه جعفر ثم قام به الفضل بن سهل كان الشذوذ عن القاعدة وأن عمل الوزير — في نظر الخلفاء في صدر العصر العباسي على الاقل — ليس الوزارة ولكن الكتابة ورئاسة الدواوين ، لم تصبح لهم خطة السيف مع خطة العلم أي سلطة تصريف الامور السياسية والادارية والمالية والعسكرية الا في عهد متأخر من ذلك العصر حين بدأت الوزارة تصبح ، عن طريق الممارسة الواقعية ، مؤسسة مستقلة مميزة ».

والكتابة هو اسم عمل الموظفين في الدولة العباسية . والكتاب هم السكرتيرون والموظفون في شتى دواوين الحكومة وأعمالها . ومن الملاحظ أن كتاب الدولة العباسية ، لا في العصر الاول فحسب ولكن بعده أيضا ، كانوا من حيث الاصل ايرانيين ، ومن حيث الثقافة مشبعين بالثقافة الفارسية ، ومن حيث الدين غير عميقي الايمان بالاسلام أو غير مسلمين ، ولم يكن ذلك بالغريب ولكنه كان نتيجة الظروف السياسية والجغرافية التي أحاطت بقيام الدولة العباسية . فاذا كانت غالبية الكتاب لدى الامويين في البلاط المركزي بالشام من سكان الشام القدامى ومن النصارى فان كتاب العراق وايران كانوا حتى في العهد الاموي من الايرانيين . وقد ورثتهم الدولة العباسية حين نشأت في العراق وزاد اعتمادها عليهم دون الشاميين ما دام مركز ثقلها السياسي انما هو في خراسان وايران . ولنلاحظ أن ارتباط الاسرة العباسية بخراسان هو الذي أدى الى ظهور «الوسطاء» بينها وبين الايرانيين من امثال أبي مسلم الخرساني والبرامكة ثم آل سهل كما كان السبب في زحف الكتاب الايرانيين خاصة الى وظائف الدولة .

ومنذ العهد الاموي كانت قد بدأت بين هؤلاء الكتاب روح جماعية تدفعهم الى الشعور بانهم يكونون جماعة خاصة أو وحدة وظيفية واذا تجلت هذه الروح مثلا في نصيحة عبد الحميد الكاتب « لمعشر الكتاب » فانها قد تطورت ، في العهد العباسي ، حتى حولتهم الى طبقة بورقراطية شبه مغلقة شبيهة بطبقة المثقفين الصينيين •

تضافرت على هذا التطور عوامل شتى : فاذا كان هؤلاء الكتاب من الناحية الاجتماعية مجموعة من الايرانيين المستعربين من أهل العراق أو ايران فقد حاولوا أن يتمسكوا بوظائفهم ويرفعوا من شأنها ويضعوا لها المؤهلات والتقاليد ، كما تؤمن لهم تلك الوظائف من حياة مترفة ونفوذ اجتماعي كبير واذا كانوا ثقافيا يمثلون تيار الثقافة الفارسية فقد سعوا الى تقريبها ونشرها بين الناس وطبع الدولة العباسية العربية بطابعها الاداري ــ السياسي واذا كانوا في الدين جديدي الدخول في الاسلام فقد ظلوا بصورة عامة أميل الى الزندقة كما كان فيهم الكثير من الثنوية أو من اهل الذمة المحافظين على دياناتهم •

وقد أضيف الى ذلك عوامل أخرى زادت في وضوح الطابع الطبقي لدى الكتاب وفي علو منزلتهم ونفوذهم ذلك أن عددهم ازداد في العصر العباسي الأول « مع اتساع الاجهزة الادارية وازداد في الوقت نفسه التعقيد التقني المتعلق بأعمالهم وتضافرت مصلحة الدولة مع الحاجة الى التأهيل التقني ( المهني ) فاتجه هؤلاء الكتاب الى حصر وظائفهم في سلالاتهم أو في أقربائهم بعد أن كانوا في الأصل ينتقون من بين موالي العائلات الكبيرة ••• »[1] •

---

(١) كلود كاهن ــ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، الترجمة العربية ، ص ١٢١ •

وزاد في قيمة الكتاب وفي تشكيلهم طبقة متنفذة أنهم كانوا جهازاً إداريا مستمراً واختصاصيا بتغيير الخلفاء دوماً وبتعرض الوزراء للعزل والنكبات وهم باقون على آلة الادارة الواسعة يديرونها على طرائقهم بالاضافة الى أن الخلفاء من بني العباس اسرعوا وتوسعوا في استخدام الكتاب في الوقت الذي كان فيه نفوذ الوزراء يتعاظم • ووجد هؤلاء الخلفاء ضالتهم لتنظيم الدولة وضبطها ومركزيتها في النماذج الادارية والتنظيمية التي نقلها لهم هؤلاء الكتاب عن الفرس وعن آداب البلاط الساساني فاصطنعوهم اصطناع محتاج لخبرتهم ، راض بهذه الخبرة مقدر لأصحابها مميز لهم في المكانة والرزق والنفوذ جزاء مابيدهم من « صناعة » الادارة والسياسة والحكم •

وقد وضع الكتاب منذ ذلك العصر أسس التأهيل المهني لصناعتهم في شكل معلومات وتقاليد ومفاهيم ثقافية محددة وكتبوا في ذلك الكتب التعليمية من أمثال : أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر وكتاب ( الكتاب ) لابن درستويه وغيرها • وينكشف في هذه الكتب ماكان يطلب من ابن « الصناعة » معرفته والالمام به من لغة وإملاء ونحو وتاريخ وجغرافيا ومسالك وبيان وشعر وفقه ومن معلومات عملية تمتد من بري القلم الى تقسيم الإرث أو مساحة الأرض أو صيغة العقود أو معرفة البريد والمنارات ومطارات الحمام الزاجل • ويحدثنا الجاحظ عن ثقافة الكتاب هازئاً منها قائلاً : « ••• والناشيء فيهم إذا ••• صارت الدواة أمامه وحفظ من الكلام فتيقه ومن العلم ملحه ومن برز جمهر أمثاله ومن أزدشير عهده ومن عبد الحميد رسائله ومن ابن المقفع أدبه وصير كتاب نردك معدن علمه ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته توهم أنه الفاروق الاكبر في التدبير وابن عباس في العلم بالتأويل ••• والنظام في الكلاميات والأصمعي في اللغات •••

إلخ » ومهما كان تقديرنا لهذه الثقافة السطحية المتنوعة ذات الدائرة الواسعة والعمق المحدود فإن قيمتها العملية بالنسبة للكتاب كانت كبيرة كما انها وضعت أسس الثقافة « الكلاسيكية » الأدبية في التاريخ العربي ومنحتها طابعها الموسوعي ٠

وكانت نتيجة نفوذ الكتاب من جهة ووضعهم الثقافي من جهة أخرى أن اشتهروا بالكبر وبقلة الدين ٠ وهاتان الصفتان كانتا محور الرسالة التي كتبها الجاحظ « في ذم أخلاق الكتاب » وهي تعكس الكثير من حملة الجو الديني الثقافي والاجتماعي ضد الكتاب في ذلك العصر من التهجم والنقد وقد يكون في بعضه وجه للحق ٠

فاما في موقفهم الاسلامي ٠ فقد حلل الجاحظ هذه الناحية الدينية بقوله « ٠٠٠ يكون اول بدو الكاتب الطعن على القرآن في تأليفه ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ٠٠٠ فان استرجح أحد أصحاب الرسول (ص) فقل عند ذكرهم شدقه وإن نعت له الحسن (البصري) استثقله ٠ وإن وصف له الشعبي استحمقه ٠٠ ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة أزدشير بابكان وتدبير انوشروان ٠٠٠ فإن حذر العيون رجع بحكم القرآن الى المنسوخ وبذكر السنن إلى المعقول لايرتضي من الكتب إلا المنطق ٠٠٠» ويضيف الجاحظ « ٠٠٠ هذا هو المشهور من أفعالهم والمتصوف من أخلاقهم ومن الدليل على ذلك أنه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ولا التفقه في الدين شعاره ولا الحفظ للسنن والآثار عماده فإن وجد الواحد منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ٠٠٠ وإن آثر الفرد منهم السعي في طلب الحديث ٠٠٠ وكتب المتفقهين استثقله أقرانه وقضوا عليه بالادبار في معيشته وللحرفة في صنلعته حين حاول ما ليس

من طبعه ... »[1].

ويسجل المستشرق جب ها هنا ملاحظة هامة تعلق على هذا الأمر يقول فيها : « إن اصطناع الدولة العباسية لطبقة الكتاب بصفاتها هذه وانتحالها — عن طريقهم — للتقاليد الملكية الفارسية وللمنحى الاداري — السياسي الفارسي بشكل متزايد . قد استتبع صراعاً بين المثل العليا الأخلاقية والاجتماعية في المجتمع العباسي دار اكثره في ما قد نسميه معركة الكتب . وتسمى حركة بث الصبغة الفارسية باسم الشعوبية وجرى الناس على أن يعتبروها تياراً من رد الفعل ظهر بين الفرس ضد السادة العرب إلا إن هذا التفسير غاية في الضيق فقد كان أصحاب هذه الحركة هم طبقة الكتاب العاملين في الدواوين وكان نفوذهم قد ازداد زيادة بالغة في ظل الدولة العباسية ... وقد عثر أولئك الكتاب منذ آخر الدولة الأموية على النماذج التي يحتذونها في أدب البلاط الساساني. فأهمية الحركة الشعوبية إذن تكمن في أنها تمثل جهود طبقة الكتاب ليفرضوا — وهم يتحاشون الاصطدام جهاراً بالنظام الديني — سيطرة تقاليد البلاط الفارسي . ليس هذا وحسب بل لكي يبعثوا البناء الاجتماعي الفارسي القديم بكل مايحويه من مراتب طبقية متمايزة ولكي يحلوا روح الثقافة الفارسية محل ماخلفته التقاليد العربية من مؤثرات في المجتمع المدني الجديد المتطور بسرعة في العراق ... » عن طريق ترجمة كتب فارسية تلقى ذيوعاً ورواجاً بين الناس .

ومن هنا نشأ التصادم بين طبقة الكتاب وطبقة الفقهاء التي لجأ بعض رجالها — كالمعتزلة — الى الفلسفة الاغريقية للوقوف في وجه التيار

---

(١) الجاحظ — آثار الجاحظ ( طبع ابو النصر — بيروت ) ص ٥٤—٥٥

الفارسي • وظهر الانقسام بين النظام السياسي والنظام الديني وبالرغم من ان النظام الأخير هو الذي انتصر إلا إن عناصر رئيسية عديدة من المؤثرات الساسانية كانت في النهاية قد ادمجت في آداب العلوم الانسانية العربية وفي التقاليد السياسية الاسلامية[1] •

وأما في الجو الاجتماعي فبالرغم من أن بعض الكتاب كانوا زهرة المجتمع الادبي وكانت لهم شهرتهم الأدبية فإن الناس ـ وهم في طبعهم أعداء من حكموا ـ كانوا يجعلونهم هدفاً للنقد ويكرهون منهم خاصة الكبر ويأخذون عليهم « الترفع » وروح الطبقة • وهذا ما جعل الحديث في مساوئهم كثيراً وجعل الوجه المذموم من سيرهم مجال ذكر وتسجيل يذكر الجاحظ مثلاً • أنهم « يضربون بالكاتب فيما بينهم المثل ويحكسون له بالبصيرة في الأدب ( والعلم والنبل ) ••• ولعله عمر بن فرج في السفه والمباهتة وابراهيم بن العباس في الشره والرقاعة ونجاح بن سلمة في الطيش والسخافة واحمد بن الخصيب في اللؤم والجهالة وآل وهب في النهم والنذالة ويحيى بن خاقان في الذل والفاقة وموسى بن عبد الملك في الرخم والبلادة وابن المدبر في الخب والمكابرة والفضل بن مروان في الفدامة القصوى •••»[2] وهؤلاء هم مشاهير الكتاب في عصره • ويستعرض الجاحظ في موضع آخر تاريخ الكتاب منذ نشأوا وخاصة في العهد العباسي فيقول : « ••• كتب لبني العباس ابن المقفع فأغرى بهم عبد الله بن علي ••• ثم كتب لهم يونس ابن أبي فروة وكان زنديقاً•• واستكتب الرشيد ( يزد ابعادان ) على ديوان الخراج وكان ثنوياً • ثم

---

(١) انظر جب ـ دراسات في حضارة الاسلام ص ١٥ــ١٨
(٢) آثار الجاحظ ص ٥٧

لم ينوهوا بـذكر كاتب حتى ولي المأمون تقدم معه ابـن أبي العباس الطوسي فبه انتشرت السعاية في العراق • واستكتب أبا عبـاد وكان سخيفاً جداً ثم كتب له رجاء بن أبي الضحاك ، وكان أظلمهم وأغشمهم واستخلف حفصويه على ديوان الخراج وكان ركيكاً لسعايته ثم كتب له ابن يزدان وكان أشقاهم حتى هلك وكتب له عمرو بن مسـعدة فكان رسائليا فقط واسترجح المأمون ــ وهو بخراسان ــ على غير بلوى ••• ابراهيم بن اسماعيل ••• وكان شعوبياً ويتهم بالثنوية وأحمد بن يوسف وكان مأفوناً ••• »[1] إلخ ومع كل أولئك فهؤلاء هم الذين كانوا قوام الادارة العباسية في عصرها الذهبي •

مارس الكتاب أعمالهم ونفوذهم وأثرهم من خلال أجهزة الادارة التي عرفت باسم الدواوين • ويتضح تكامل العمل الديواني في العملية البوروقراطية والورقيـات ، وفي ظهور أسلوب خاص في المـراسلات الادارية ، وفي وجود « سجلات » تسجل فيها المراسلات والمعاملات ونظام « للأرشيف » يحفظ الوثائق الرسمية ، وقد استكمل الديوان العباسي هذه الملامح كافة فقد ساعد انتشار صناعة الورق منذ عصر الرشيـد على توطد صفة الدواوين البوروقراطية ووجد أسلوب في المراسلة عرف منذ ذلك الوقت بالانشاء كما كان للدواوين سجلات وأرشيف يرجـع إليه عند الحاجة وفيه جرائد بارتفاع الخراج وسجلات بمساحة الارضين ومقادير الضرائب محفوظة سنة بعد سنة •

يذكر البلاذري فيما يتعلق ببعض وثائق فتح النوبة وادعاء النوبيين أن البقط ليس مفروضاً عليهم كل سنة قوله : « ••• ولم يوجـد لهذه

---

(١) آثار الجاحظ ص ٦٠ـ٦١

الدعوى ثبت في دواوين الحضرة (بغداد) ووجد في الديوان بمصر »[1]
ويذكر المقريزي أن امير مصر عبد الله بن طاهر سأل رجلاً من حاشيته
عن بعض أمور النوبة فأجابه « .. فوجه الأمير الى الديوان بظاهر المسجد
الجامع بمصر فاستخرج منه خبر النوبة فوجده كما ذكرت فسره ذلك »[2].

ومن جهة أخرى فقد توسع الجهاز الاداري الحكومي تدريجياً
وتعقدت معاملاته في العصر العباسي وكانت الادارة تزداد بورقراطية
مع ازدياد أوتوقراطية الخلفاء واتجاههم المتمادي نحو المركزية ومن هنا
نشأت الحاجة الى زيادة عدد الدواوين وتعدد انواعها وأعمالها حتى صار
لكل شأن اداري ديوان تقريباً . وحتى نستطيع القول إن الهيكل الاداري
الكلاسيكي في الحضارة الاسلامية إنما توطد في ذلك العصر . المؤسسات
الادارية التي كانت تتسم بالنقص او الانقطاع عن غيرها أو بعدم الاستقرار
أو بغموض الوظيفة في العهد الأموي أعطاها العصر العباسي الأول أبعادها
الكاملة تحت ضغط الحاجة من جهة وبنتيجة اتساع الخبرات وتخصيصها،
من خلال طبقة الكتاب ، من جهة أخرى .

ومن الصعب جداً تقديم جدول إحصائي كامل بكافة الدواين التي
عرفتها الادارة العباسية . لم يسجل المؤرخون «ولادة» الكثير منها ونعثر
على أسماء بعضها بالصدفة : لدى تعيين مشرف عليها او إلغائها أو اتصال
حادث بها أو ترجمة عامل من عمالها . وإذا كانت الدواوين الرئيسية
سواء في مركز الخلافة أو في الولايات ثلاثة تتفق مع أركان الادارة الثلاثة
وعلى رأس كل منها كاتب يرئسها وهي :

---

(١) البلاذري ــ فتوح البلدان ( ط. المنجد ) ص ٢٨١
(٢) المقريزي ــ الخطط ( ط. بيروت ) ج ١ ص ٣٥٤

١ ــ ديوان الرسائل للمراسلات الإدارية والسياسية •
٢ ــ وديوان الخراج للشؤون المالية والضرائبية ويسمى أحياناً ديوان الخراج الأعظم(١) •

٣ ــ وديوان الجند لتنظيم المؤسسة العسكرية وأمور الجيش •
فإن ثمة ديواناً رابعاً أساسياً عمله الرقابة على إدارة الدولة كلها هو ديوان البريد يرئسه صاحب البريد • أما القضاء فقد ظل إدارة متروكة للقضاة أنفسهم في كل مصر بما في ذلك بغداد نفسها في قسميها الشرقي والغربي حتى أحدث منصب قاضي القضاة لأبي يوسف زمن الرشيد لتوحيد الاحكام لا الدواوين القضائية •

على أنه وجد بجانب الدواوين الأربعة الاساسية أعداد أخرى من الدواوين أوجدتها الحاجات لشتى الشؤون ويمكن أن نجملها في مجموعات ثلاث تبعاً لوظيفتها وطبيعة عملها :

١ ــ دواوين عملها تدبير شؤون البلاط والخليفة مثل ديوان الحوائج وديوان الأحشام ( الحشم والخدم ) وديوان التوقيع والتتبع على العمال وديوان الخاتم وديوان الرقيق وديوان الخزائن (خزائن السلاح والثياب ) وديوان الغلمان والموالي الذي استحدثه المعتصم ومطبخ العامة ••• وديوان السر الذي تقلده للمنصور أبان بن صدقة وللرشيد اسماعيل بن صبيح(٢) وديوان الضياع لاقطاعات الخلافة •

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٨
(٢) انظر الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ٢٦٦ وص ١٢٤ وانظر كذلك بالنسبة لذكر الدواوين الأخرى خليفة بن خياط ــ التاريخ ج٢ ص٤٦٦، ٤٦٧ وغيرها واليعقوبي ج٢ ص٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩ والطبري ٩ ص٢١٤ وغيرها .

٢ ـ دواوين ومؤسسات لتأمين العدالة والأمن للنـاس وأهمها ديوان المظالم ( ويشبه محكمة الاستئناف أو التمييز والنقض والابرام ) وأعمال صاحب الشرطة والمحتسب وصاحب الأحداث وصاحب المعونة وصاحب المناصب •

٣ ـ دواوين مساعدة للشؤون المالية مثل ديوان الصوافي أو صوافي الأرض وأحوازها ( وقد أوجده الرشيد ) وديوان الجوالى لما يجمع من الجزية ، وديوان الصدقات لتوزيع مال الزكاة على المستحقـين وديوان المصادرات الذي أوجده المنصور وسجل به اسماء من صادرهم ومقدار ما صادر وديوان المستغلات وأخيراً ديوان الاستخراج الذي ظهر في نهاية العصر العباسي الأول لمحاسبة العمال والولاة المتهمين بالرشوة •

وقد نجم عن ازدياد المركزية زمن العباسيين وتعقد أمور الدولـة وتكاثرها وضرورة تنظيمها التنظيم المناسب أن اقيمت في العاصمة بغداد دواوين للأقاليم المختلفة فهناك ديوان خراسان وديوان الشام وديـوان مصر ••• إلخ تحتفظ بنسخ الوثائق الرسمية والرسائل المتبادلة مع ولاة تلك الأقاليم وتضبط شؤونها • وأقيم بجانب ديوان الخراج المـركزي دواوين لخراج الأقاليم أيضاً : فخراج الشام له ديوان وخراج الكوفة له مثله وخراج الجزيرة كذلك وهكذا ••• وبجانب ديوان الجند المركزي كانت هناك ايضاً دواوين لجنود الأقاليم : ديوان جند خراسان وديوان جند الشام وديوان جند مصر (المغاربة)[1] ••• وهذا التوازي بين المركز

---

(١) لعلنا نوضح هنا أن كلمة الديوان مفردة كانت تستعمل للدلالة على ديوان الرسائل ومقر السجلات التي تحفظ فيها البيانات الخاصة بنواحي الادارة فان اريد الاشارة الى غير ذلك أضيفت كلمة : الجند أو المال ( أو الخراج ) أو الضياع أو غيرها ، كما يجب أن نوضح ان ديوان الخراج أو المال ليس يعني بيت المال . فديوان المال او الخراج يعني

والاقاليم أوجد الكثير من البورقراطية الادارية في المركز ، واستدعى بالنسبة للناحية الحساسة من هذه الدواوين وهي دواوين الخراج والمال وجود مشرفين عليها يجمعون أمرها وينسقون مابينها • ظهرت هـذه الحاجة زمن المهدي الذي عين عمر بن بزيع على الدواوين كافة « فلما جمعت له الدواوين تفكر فاذا هو لايضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة •» •• وكان أول من عمل ذلك ••• وولى كل ديوان رجلاً فكان واليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صبيح وعلى زمام خراج العراق النعمان بن عثمان ولم يكن لبني امية دواوين أزمة » ويبدو أن الحاجة ازدادت بعد ذلك الى وجودديوان يكون بدوره زماماً لهذه الأزمة فولى المهدي سنة ١٦٨ علي بن يقطين ديوان زمـام الأزمة على عمر بن بزيع»[1] الذي ضعف شأنه • وقد تقلد هذا الديوان بعد ذلك بقليل الربيع بن يونس وأقره فيه الخليفة الهـادي حتى مات سنة ١٦٩ فتولاه من بعده ابراهيم بن زكوان الحراني •• وهذا يعني أن التسلسل البورقراطي الهرمي قد استكمل في هذه الفترة أسبابه وأركانه•

ويبدو أن هذه الدواوين ظلت نشيطة فعالة حتى مابعد عهد المعتصم ثم تناقص نشاطها وقلت جدواها باضمحلال الروابط المركزية وبـدء

---

بتسجيل الخراج وجرائده وسجلات الضرائب ومقاديرها وكان يدعى في العصر العباسي الاول ديوان الزمام ، أما بيت المـال فهو خزانة مال الدولة وما يجتمع لها من نقد أو محاصيل بعد الجباية .

(١) ذكر الطبري خبر ديوان الازمة مرتين (أنظـر ج٨ص ١٤٢–٣/ ٤٩٣ و ص١٦٧–٣/٥٢٢ ) والخبر الثاني لايوضح الاول فقط ولكن يصدق الخبر الذي أورده الجهشياري ( الوزراء والكتاب ص١٦٦و١٦٧ ) والذي يوضح فيه الفرق مابين ديوان الأزمة وديوان زمام الأزمة ويضيف مصححا خطأ غيره : « واحسـب أن من ذكر أن المهدي أول من أحدث الازمة إنمـا أراد ازمة على الأزمة . . . »

انقطاع الاقاليم حتى إذا جاء المعتضد ( ٢٧٩ ـ ٢٨٩/٨٩٢ ـ ٩٠٢ ) كانت قد تقلصت اعمالها فضم الخليفة دواوين الولايات كلها في ديوان واحد سمي ديوان الدار وله ثلاثة فروع : ديوان المشرق وديوان المغرب وديوان السواد . ووضعت أزمة الدواوين كلها في يد رئيس واحد ..

وليست لدينا معلومات واضحة عن أعداد العاملين في الدواوين العباسية على اختلافها . وإذا كان من الراجح أن يكون عدد العاملين في دواوين الخراج اكبر واكثر من العاملين في دواوين الرسائل كما كان نو عمل أصحاب الرسائل يعتمد على البلاغة وحسن الخط بينما يعتمد عمل اصحاب الخراج على الحساب ومعرفة الزراعة وحدود المعاملات .

وقد ألبس العباسيون الأوائل موظفي الدواوين ملابس خاصة بهم، ضمن إطار التقليد الذي نقلوه عن الفرس ، وجعلوا به لكل طبقة من الناس ملابسها التي تعرف بها فللوزراء لباس الوزارة وللقضاة الطيلسان وللجند الزي المعروف للجند ( وقد حدده المنصور ) وصورة الكاتب الديواني صورها الجاحظ في معرض النقد لكبرياء الكتاب فقال : «يتوهم الواحد منهم أنه اذا عرض جبته وطول ذيله وعقص على خده صدغه وحذف شاربه على وجهه أنه المتبوع لا التابع ...»[١] وقد ذكر الجهشياري في صدد ملابس الكتاب أنه « كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة . فإذا وصل الرجل الى الملك عرف بلبسه صناعته والطبقة التي هو فيها...»[٢]

وأما أرزاق الكتاب في العصر العباسي الأول فلم تكن فيما يبدو

---

(١) آثار الجاحظ (طبعة ابو النصر ـ بيروت) ص٥٤ .
(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص٣ .

بالكبيرة رغم نفوذهم الكبير كماكانت متفاوتة لابين كبار الكتاب وصغارهم فقط ولكن بين ديـوان وآخر أيضاً • واكثر الدواوين رواتب كانت الدواوين التي تتعامل بأمور المال والخراج • وكان التفاوت فيما يظهر كبيراً جداً •

ذكر الجاحظ أن « صاحب ديوان الرسائل ينال العشر من رزق صاحب الخراج ويرزق المحرر الجزء الأول من رزق صاحب النسخ من ديوان الخراج ••»[1] ويبدو أن رواتب الكتاب في الـدواوين كانت تتراوح مابين عشرة دراهم حتى ٣٠ درهماً لصغار الكتاب في الشهر وتصل الى ٣٣٠ درهماً لكبارهم ورواتب الصغار التي يعدل مابين ثلث درهم الى درهم في اليوم تتمشى مع الأجور التي دفعها المنصور لمعلمي البناء والعمال في بناء بغداد • ويروي الطبري في هذا الصدد قوله : « كـان أرزاق الكتاب والعمال أيام أبي جعفر ( للرؤساء ) ثلاث مائة درهم فلما كانت كذلك لم تزل على حالها الى أيام المأمون • فكان أول من سن زيادة الارزاق الفضل بن سهل فأما في أيام بني أمية وبني العباس فلم تزل الارزاق من الثلاثمائة الى مادونها •••»[2] •

وعلى أن هذه الرواتب لم تكن مصدر الرزق الوحيد للكتاب • وكانت الهدايا والمنح من الرؤساء أو من الناس تشكل أحياناً عند بعضهم أرقاماً كبيرة • ذكر ابن العديم أن أحمد بن نهيك كاتب عبد الله بن طاهر رافقه حين ولي غرب الدولة من قبل المأمون • وحين كانا في دمشق قدم أحمد لعبد الله بطريق الخطأ ، بدلاً من بعض الاوراق التي طلبها كشفاً

---

(١) آثار الجاحظ ص ٦٢ •

(٢) الطبـري ج ٨ ص٩٥ ـ ٩٦ (٣/٤٣٤ ـ ٤٣٥) وانظـر أيضـاً الجهشياري ص ١٢٦ •

بالهدايا التي تلقاها من الناس أثناء السفر فإذا هي سبعون ألف دينار •
واضطرب ابن نهيك حين اكتشف خطأه ولكن ابن طاهر استدعاه وسمح
له بها بحجة أن عليه نفقات كثيرة وأعطاه فوقها مائة ألف درهم ...[1]

على أن الكتاب توسعوا في نهب الرزق بكل سبيل بعد ذلك ولا
سيما في زمن المعتصم والواثق وتكشف الأرقام المرعبة من الأموال التي
صادرها الخليفة الواثق من الكتاب في سامراء سنة ٢٢٩ عن مدى تفشي
الفساد المالي في هذه الطبقة • يذكرون أنه أخذ من سليمان بن وهب
( كاتب ايتاخ ) ٤٠٠ ألف دينار ومن أحمد بن الخصيب وكاتبه ألف ألف
دينار ومن أحمد بن اسرائيل ٨٠ ألف دينار ومن نجاح ٦٠ ألفاً ومن أبي
الوزير ١٤٠ ألفاً •• وهي أرقام ليست عادية في مستوى من المعيشة
يكفي فيه ديناران في الشهر للعيش الحسن وغريب وجودها لدى جماعة
راتبها الشهري الرسمي لا يزيد عن ٣٠٠ الى ٤٠٠ درهم ( ١٥ — ٢٠
ديناراً» •

وكانت الدواوين حتى أيام المهدي تعمل كافة أيام الأسبوع إلا يوم
الجمعة فهو للصلاة والعبادة ثم « اتصل بالمهدي أن أبا الوزير ( عمر بن
مطرف وكان يتقلد ديوان الخراج ) احتجم يوم الخميس في ديوانه
فأمر أن يجعل يوم الخميس للكتاب يستريحون فيه وينظرون في أمورهم
ولا يحضرون الدواوين ويوم الجمعة للصلاة والعبادة • فلم يزل الأمر
جارياً على ذلك الى أن كتب الفضل بن مروان للمعتصم • فأزال ذلك
الرسم وأخذ الكتاب بحضور يوم الخميس ...»[2] •

---

(١) ابن العديم ــ بغية الطلب ( مخطوط احمد الثالث ) ج٢ورقة
٩٥ ظهر •
(٢) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ١٦٦ •

ولعلنا نشير هنا إلى أن الكتاب والدواوين لم تكن خاصة بالدولة فقط وكان من الكتاب جماعة تلتحق بحاشية كبار الموظفين والقواد • وبرغم عملهم الشخصي لهؤلاء فإنهم بحكم الاختصاص الكتابي كانوا يلحقون بطبقة الكتاب لأنهم في الأصل منها على أن كثرتهم في هذه الحالة إنما كانت من أهل الذمة • وقد ظهرت هذه الجماعة خاصة في الأقسام الأخيرة من العصر العباسي أيام المعتصم والواثق والمتوكل • ونجد مثلاً للقائد إيتاخ الخزري كاتبين هما سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني • « وكان سليمان على أعمال السلطان وقدامه على ضياع إيتاخ خاصة»[1] وكان للقائد بغا كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصراني • ثم صار الرجل كاتب ضياع العباس بن المستعين[2] • وكان لأم الخليفة المستعين كاتب يدعى سلمة بن سعيد النصراني[3] وهؤلاء الكتاب الافراديون كانوا بدورهم اجزاء بشكل أو بآخر في الجهاز الاداري الواسع لبني العباس •

ونقف من الدواوين خاصة عند ديوان البريد الذي عض المنصور سبابته وهو يذكره دلالة على شأنه الاداري الخطير فقد كان نقل الرسائل أهون مهمات هذا الديوان الذي هو ميراث بيزنطي ساساني مع مايتعلق به من عمال ومنازل ودواب وطرق وقد اقتبسه معاوية أول من اقتبس في الاسلام واستخدمه الأمويون أحياناً في نقل الفسيفساء من بلاد الروم ثم انقطع في مطالع الدولة العباسية بعض الانقطاع ويظهر أن المنصور هو

---

(١) الطبري ج٩ ص١٦٩ (١٣٨٦/٣) •
(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ (١٤٣٨/٣) وج ٩ ص ٢٦٣ (١٥١٣/٣)
(٣) الطبري ج٩ ص ٢٦٣ (١٥١٣/٣) •

الذي أعاده[1] لا بسبب الحاجة الى نقل الرسائل فقط ولكن تطبيقاً لمبدأ المركزية في الادارة وإحكام القبضة الخليفية على الاطـراف من جهـة وتنفيذاً للمبدأ الآخر الذي يقض مضاجع المنصور دوماً في الرقابة الدائمة على الولاة والعمال وعلى من قد تحدثه نفسه بالثورة • ويمكن أن نعرف مهمة صاحب البريد من خلال عهد بولاية بريد ورد لدى بعض المؤلفين يقول : إن على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع •• ويتتبع ذلك تتبعاً شافياً وينهيه على حقه وصدقه • وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمـال والاختلال ومايجري في أمور الرعية فيما يعاملونه من الانصاف والرفق والجور والعسف فيكتب به مشروحاً وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم ••• وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق ••• ويكتب بذلك على حقه وصدقه وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهـم من يراعيه •• ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته • وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط ( أي الكتب ) في عمله ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها ، ويوعز الى المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم والى الموقعين بإثبات المواقيت وضبطها حتى

---

(١) يذكر القلقشندي (صبح الأعشى ج ١٤ ص٣٦٧ ومابعدها) أنه « ملك السـفاح ثم المنصور ثم المهدي والبريد لا يشد له سرج ولا تلجم له دابة » ثم إن المهدي رتب بريدا يأتيه بأخبار ابنه هارون في غزوة للروم فلما ملك الرشيد ذكر حسن صنيع ابيه في ذلك البريد وحسن له يحيى ابن خالد البرمكي اجراء البريد فأمره بذلك . . . « فرتب البريد على ماكان عليه أيام بني أمية وجعل البغال في المراكز . . . » ويظهر أن مايذكره القلقشندي غير دقيق وفي بعضه غير صحيح فثمة أخبار لدى الطبري وغيره عن حركة البريد زمن المنصور والهادي .

لا يتأخر أحد منهم عن الاوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها ٠وأن يفرد لكل مايكتب فيه من اصناف الأخبار كتباً بأعيانها فيفرد لأخبار القضاة وعمال المعاون والاحداث ٠٠٠ والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً ليجري كل كتاب في موضعه ٠٠»[١] ٠

ونصح أبو يوسف في كتاب الخراج ، الخليفة الرشيد أن يكتب إليه صاحب البريد بكل مايحدث وأن يتوعد الخليفة عمال البريد على ستر الأخبار عنه ويحذر ميلهم مع العمال على الرعية كما أوصى بأن يدر الرزق لهم من بيت المال « ومتى لم يكن أصحاب البرد والأخبار في النواحي ثقات عدولاً فلا ينبغي ان يقبل منهم خبر في قاض ولا وال ٠٠٠»[٢] ٠

فنحن إذن أمام نظام رقابة إدارية واسع دقيق يشمل اختصاص صاحبه رقابة الولاة والعمال على الخراج والقضاة ودار الضرب وديوان الصدقة والأحداث والشرطة والحياة الاقتصادية ٠٠٠ وكل ذلك على وجه السرعة والدقة والصدق ٠ فكأن صاحب البريد هو عين الادارة المركزية في الاقاليم :

ذكر الطبري أن ولاة البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول وبكل مايقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث وكانوا إذا صلوا المغرب يكتبون

---

(١) ذكر ذلك قدامة بن جعفر في كتاب الخراج وصنعة الكتابة (هو مخطوط ) وقد اوردنا النص نقلا عن آدم متز ـ الحضارة الاسلامية ـ الترجمة العربية ج ١ ص ١٠٠ ٠

(٢) أبو يوسف ـ كتاب الخراج ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ٠

إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة ، فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الاسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء منها عن حاله كتب الى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة ... وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه بذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه ...»[1] واستخدم العباسيون الدواب ( من بغال وخيل ) لحمل البريد ولم نسمع عن خبر استخدامهم لوسيلة أسرع إلا مرة واحدة حين استخدم الحمام الزاجل لنقل أنباء الحرب مع بابك الخرمي وهزيمته الى الخليفة المعتصم سنة ٨٣٧[2] .

ولم يكن الامر مع ذلك متروكاً في هذا كله لصاحب البريد وحده فإن المنصور قد استخدم في تسقط الاخبار التجار والمسافرين أيضاً يتجسسون له ولم يقصر عن ذلك الخلفاء الآخرون ويذكر ابن ظافر الأزدي في كتابه الدول المنقطعة . أن المأمون « جعل برسم الاخبار ألف عجوز ببغداد وسبعمائة عجوز فما كان يخفى عنه شيء من امور الناس ظاهراً وباطناً وكان لا ينام كل ليلة حتى يقف على جميعها ...»[3] .

وكان طبيعياً أن يضطرب هذا الجهاز أو يقوى ويضعف تبعاً لأحوال السلطة في المركز فقد قوي وتوطد زمن المنصور والمهدي والرشيد ثم اضطرب في نهاية عهده بسبب انشغاله بحروب الروم وبالثورات وعدم استقراره في المركز يذكر الجهشياري «أن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد (والأصح في آخرها) كانت مهملة وأن مسروراً

---

(١) الطبري ٨ ص٩٦ (٣/٤٣٥) .

(٢) انظر المسعودي ـ مروج الذهب (طبعة بلا) ج ٤ ص ٣٥٤ .

(٣) ابن ظافر ـ الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة ١١٧ ظهر .

الخادم كان يتقلد البريد والخرائط • ويخلفه عليه ثابت الخادم» ويضيف ـ حسب رواية ثابت هذا : «أن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفض[1] •••» • وقد انتظم الأمر في السنوات الأولى من عهد الأمين حتى كانت الرسائل والهدايا تذهب وتجيء بينه وبين أخيه في خراسان ثم اضطرب البريد وانقطع تماماً إثر مقتل الأمين • وتقطعت أوصال الدولة وروابطها مع الادارة المركزية سنوات عديدة قبل أن يعاود المأمون ربطها به في بغداد ••

وتبقى في النهاية ملاحظة أخيرة هي أن جهاز البريد كان يستخدم أحياناً لبعض التحركات المستعجلة • فالمنصور استخدمه لاستقدام نجدات الجند من الشام • روى الطبري أنه : «لما ظهر محمد (النفس الزكية ) شاور أبو جعفر شيخاً من أهل الشام ذا رأي فقال : وجه إلى البصرة أربعة آلاف من جند الشام ••• قال : ومن لي بهم ؟ قال ( الشيخ ) اكتب الى عاملك عليها يحمل إليك في كل يوم عشرة على البريد • قال فكتب بذلك أبو جعفر[2] ••» وهو رأي كان طبقه الأمويون يروي الطبري أيضاً أنه حين قتل الترك باللان (شمال جورجيا) الجراح الحكمي سنة ١١٢ نصح سعيد بن عمرو الحرشي الخليفة أن يبعثه على ٤٠ دابة من دواب البريد ثم يبعث إليه كل يوم ٤٠ دابة عليها ٤٠ رجلا حتى يوافيه أمراء الأجناد[3] •••» على أن الجهشياري يروي خبراً ذا معنى في هذا الصدد هو أن موسى الهادي حين بويع بالخلافة وكان بجرجان «ركب دواب البريد» رغبة في سرعة الوصول الى بغداد واستلام العرش المضطرب ثم يضيف «ولا يعلم خليفة ركبها غيره[4] •••» •

---

(١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٦٥ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٦٢٩ (٣/٢٩٢) .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٧٠ (٢/١٥٣١) .

(٤) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ١٦٧ .

## حـ ـ الـولاة

### توزيع السلطـة :

الصورة التقليدية للوالـي في الادارة الاسلاميـة تجعله نوعـاً من الخليفة المصغر وهي صورة قد تنطبق على بعض العهود والظروف ولكنها بعيدة عن واقع الولاية في العصر العباسـي الأول أو على الأقل لا تنطبق إلا على حالات خاصـة من الـولاة المطلقين الذين استبدوا بولاياتهم لأسباب شتى ، أما الولايـة على النمط الذي أقـره المنصور والذي ينسجم مع ادارته المركزية فكانت السلطات فيها موزعة بين ثلاث قوى لايرتبط بعضها ببعض ولكن تستمد كل منها شرعيتها وقوتها من الخليفة نفسه • وترجع في النتيجة إليه • فهناك دوماً :

ـ الوالي وكانت له امرة الجيش وكثيراً مـا يكون من قواده في الأصل وله مع القيادة الصلاة أي إمامة النـاس في الجـامع كما يتبعه صاحب الشرطة وصاحب المعونة وإليه أمر تعيينهما وله أحياناً حق ضرب النقـود •

ـ العامل (عامل الخراج) وهو الذي يتولى الشـؤون المالية في الاقليم : له تنظيمها وتقبيلها (منح الالتـزام) وجبايتها وإرسـال حصة الخلافة منها بعد استيفاء حاجة الاقليم •

ـ القاضي ويأتي تعيينه بدوره من بغداد •

فالسلطة في الولاية مثلثة الرأس يرئسها الوالي ولكن تنفصل فيها السلطة العسكرية عن المالية وتنفصل الاثنتـان بدورهمـا عن السلطة القضائية • على أن هذا لم يكن يمنع الخليفة أحيانـاً كثيرة من الجمع لبعض ولاته بين منصبي الوالي وعامل الخراج لكن الولاة لم يتولوا أمر القضاء أبداً وندر جداً ان ترك لهم الخلفاء أمر تعيين القضاة • وهذه التجزئة

في السلطة كانت بالنسبة للمنصور وخلفائه من ضرورات السياسة والادارة • ونقرأ في كتاب الولاة والقضاة للكندي باستمرار أن الخليفة ولى فلاناً على الصلاة بمصر وفلاناً على الخراج أو ولى فلاناً صلاتها وخراجها ونجد مثل ذلك لدى الطبري واليعقوبي اللذين يعددان في نهاية كل سنة أو في نهاية عهود الخلفاء ولا تهم وعمالهم[1] وإذا كانت تطلب في القاضي الكفاية الفقهية وفي عامل الخراج الكفاية المالية فلم يكن يطلب من الوالي أكثر من الكفاية الادارية لا سيما إذا اجتمعت إليها القدرة الحربية •

**الولاء هو الاساس :**

لم يكن ولاة العصر العباسي الأول ،بصورة عامة يختارون ولا سيما في الفترات الأولى على أساس القومية ، أو المال• أو النفوذ الشخصي ، أو الأقليم • الأساس الوحيد لاختيارهم كان هو الولاء للخليفة • وفي إحصاء مبدئي لأسماء مائة وال ممن جاء بين مطلع الدولة العباسية وعهد المأمون نجد أن النصف منهم من العرب وفيهم كثرة واضحة من أبناء البيت العباسي نفسه ، والنصف الأخر من الموالي وبعضهم من الأتراك أو من الأرمن • وهم مزيج من العناصر القبلية والاقليمية والاجتماعية المتباينة فيهم بنو هاشم وفيهم الخدم والأرقاء المعتقون ، وفيهم من هم من اليمن أو من قيس ومن هم من صميم العجم أو أمراء الترك وفيهم الكثير من الخراسانية كما فيهم من أهل الشام ومصر واليمن والعراق وفيهم أصحاب الثروات الطائلة ومن هم من البورجوازية التجارية • وتلك

---

(١) انظر على سبيل المثال لدى الكندي ـ الولاة والقضاة . الصفحات: ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ... الخ .

المجموعة التي جمعها المنصور من حوله حين بنى بغداد وأقطعهـا فيها القطائع والتي التقى فيها أصناف الناس من بني هاشم والموالي والعرب وأهل خراسان وزعماء القبائل إنما ترمز في الواقع إلى تلك الأخلاط من أنصار العباسيين التي كان ينتقي منها الخلفاء الأعوان دون تقيد بجماعة أو قبيل سوى مدى الاخلاص للخليفة الجديد .

ونستطيع أن نجد قوائم شبه كاملـة للولاة في مختلف الأمصار فولاة سجستان مثلا نجدهم خاصة لدى اليعقوبي في (البلدان) وولاة خراسان في تاريخ الرسل والأنبياء لحمزة الاصبهاني . وولاة مصر لدى الكندي في كتاب الولاة والقضاة وولاة البصرة والكوفـة والمدينةلدى الطبري وخليفة بن خياط . ولدى اليعقوبي في التاريخ هـذا الى ولاة الجزيرة والشام واليمن وعمان وفارس والسند وطبرستان وأرمينيـة واذربيجان . الخ .

ويجتمع لنا من ذلك حصيلة واسعة مـن الاسماء لا يخفى فيها الطابع الطبقي الذي يميزها . فهي دوماً من الطبقات الارستقراطية سواء من العرب أو من الايرانيين أو من الترك والارمن . كان التعاون العباسي طبقيا واضحاً يتجه الى الطبقات العليا من المجتمع وقد عبر يحيى البرمكي عن ذلك في قوله لولده : «لابد لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف وإياكم وسفلة الناس فإن النعمة على الأشراف أبقى والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر[1] ...» حتى من يدعون «بالموالي» ممن استخدمهم العباسيون كانوا ، بسبب اتصالهم بالخليفة وبآل البيت

---

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٥٤٥ وانظر العيـون والحدائـق لمؤلف مجهول ص ٣٥١ .

العباسي وبالولاء الذي تميزوا به ،قد انتقلوا الى الطبقات الارستقراطية ومحوا الأصول الوضيعة التي جاؤوا منها •

وإذا كان وصول العباسيين إلى الحكم قد أوجد سلماً جديداً للنبالة والارستقراطية فإنه لم يلغ السلالم القديمة : فقد أضاف آل البيت العباسي الى رأس القائمة وميز الارستقراطية الخراسانية (من عربية كآل قحطبة وإيرانية كالبرامكة) ولكنه تقبل الارستقراطيةالعربية كما كانت حتى التي كانت على العداء له وأرستقراطية الشعوبالأخرى من ترك وأرمن ونوبة وبربر فتعاون معها ومن هؤلاء وأولئك كان الولاة وكبار رجال الدولة العباسية الذين يمكن أن نستعرضهم في عدة زمر :

وقد اعتمد العباسيون الأوائل خاصة على اعضاء البيت العباسي الذين أصابتهم ، بعد قيام الدولة ، فورة من الحماسة جعلتهم كلهم سياسيين وقواداً وجندتهم في خدمة الخلفاء منهم • ثم خفت الحماس بالتدريج بعد ذلك • ولعل آخر الأسماء اللامعة قبل نهاية القرن الثاني كان اسم عبد الملك بن صالح الذي قضى سنواته الأخيرة في سجن الرشيد قبل أن يطلقه الأمين ليموت وشيكاً في الشام ••• وفي تلكالفترة سنة ٢٠٠ بالضبط جرى إحصاء لولد العباس فبلغوا ٣٣ ألفاً مابين ذكر وأنثى[١] • وهو عدد كان له وزنه في البلاط وفي قضايا ولاية العهد ولكنه كان معدوم الأثر الاداري فإنا لانجد إلا واحداً منهم على ولاية إذ ذاك • كان التطور السياسي ـ الاداري للدولة قد أقصاهم • وبعد أن كان أكثر ما يتولى الولاة من بني العباس الولايات الخطرة كالشام والبصرة والثغور أو المناطق المقدسة تحولوا الى حاشية للخليفة حتىإذا

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٧٩

حاول بعضهم كعبد الوهاب حفيد ابراهيم الامام أي حركة ذات معنى سياسي سحق .

واعتمد العباسيون العرب ، وقسم حسن منهم (وهم اليمانية خاصة) اعتبر الدولة العباسية دولته . هكذا ردد المنصور لهم كي ينسحبوا من جند ابن هبيرة : «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم» وهكذا أيضاً خاطبهم عبد الله بن علي عند أبواب دمشق ليفتحوها له . على أن باقي الجماعات العربية سرعان ما التفت حول الدولة بعد قيامها ومنحها الخلفاء العباسيون الرعاية والنفوذ واختاروا منها الكثير من رجال الادارة ، وقواد الفرق . وكثيراً ما رأينا الخلفاء كالرشيد يرمون بقواد العرب في مناطق الثورات الخارجية وكثيراً ما كانوا يستخدمون الولاء القبلي (من جيش وقواد) في خدمة الولاء العباسي . وبالرغم من أن المأمون كشف أوراقه السياسية لذلك العربي الذي سأله : لم لاينظر الى عرب الشام كما ينظر الى عجم خراسان إلا إن جوابه كان يدل ــ رغم ما يحوي من تباعد عن العرب ــ على اضطرار المأمون سياسياً لمصانعة الجماعة العربية واصطناعها ولو بالمال .

وأما أهل خراسان فقد كانوا الحزب السياسي العسكري الذي حمل بني العباس فترة تقارب القرن الكامل ظل هذا المصطلح : الخراسانية يعني مركز الثقل السياسي للدولة منذ نشأتها : كانت فرقة الصدام في الثورة العباسية ثم كانت اليد الحديدية للخلفاء في البطش بالثورات والقيام بالحروب في كل مكان والمساندة في الأزمات الخطرة . وقد استخدم المنصور ، رغم قتله أبا مسلم ، كما استعمل المهدي والرشيد كثيراً من الولاة والقواد من أهل خراسان ورعوا رأيهم في أمور ولاية

العهد ، وتعيين القضاة و .. ثم لما كانت الفتنة بين الامين والمأمون استعاد الخراسانية من جديد تأثيرهم في الدولة بانتصار المأمون ودفعوا إليها بمجموعة جديدة من رجال الادارة والجيش . أكدوا فيه نهائياً التأثير الخراساني في الدولة قبل أن يزيحه العنصر التركي الوافد مع المعتصم ...

وأما الموالي فقد سجل معظم المؤرخين القدامى ظاهرة زحفهم الي مناصب الدولة وإدارة الولايات منذ عهد المنصور على أننا يجب الا نذهب مع كلمة الموالي إلى المعنى المطلق لها ولكن معنى محددتماماً هو .. «موالي الخلفاء العباسيين» خاصة . فهم إذن جماعة بأعيانهافيها العبيد السابقون وفيها من ارتبطوا بالبيت العباسي برابطة الولاء من كل جنس ولأي سبب . وقد برز أمر هذه العلاقة القانونية الاجتماعيةالتي يدعونها «بالولاء» بروزاً كبيراً على يد العباسيين الأوائل بسبب حاجتهم الى جماعات تجعل الولاء لهم وللنظام العباسي فوق كل ولاء قومي أو ديني أو اجتماعي أو اقليمي . وتكون في الوقت نفسه أدوات طيعة متواضعة في أيدي الخلفاء .

ويروي الطبري في هذا الصدد حديثا له معناه جرى بين عبد الصمد ابن علي والمهدي إذ قال له : يا أمير المؤمنين إنا أهل بيت أشربت قلوبنا حب موالينا وتقديمهم وانك قد صنعت من ذلك ما أفرطت . قد وليتهم أمورك كلها وخصصتهم في ليلك ونهارك ولا آمن تغيير قلوب جندك وقوادك من أهل خراسان . قال : يا أبا محمد إن الموالي يستحقون ذلك وليس أحد يجتمع لي فيه أن أجلس للعامة فأدعو به فأرفعه حتى تحك ركبته ركبتي ثم يقوم من ذلك المجلس فأستكفيه سياسة دابتي فيكفيها لا يرفع نفسه عن ذلك إلا موالي هؤلاء . فإنهم لايتعاظمهم ذلك ولو

أردت هذا من غير هم لقال : ابن دولتك والمتقدم في دعوتك وابن من سبق الي بيعتك لا أدفعه عن ذلك ..»[1] .

وقد أخذ هؤلاء الموالي العباسيون ، مكانة سياسية خاصة رأوا فيها أنفسهم في دولة بني العباس أرفع منزلة من العرب والعجم معاً .وقد عبر الجاحظ عنها — على لسانهم — بقوله : «الولاء لحمة كلحمة النسب . وحليف القوم منهم لأن السنة قد نقلت الموالي إلى العرب في كثير من المعاني لأنهم عرب في المدعى وفي العاقلة وفي الوراثة .. فلنا النسب الذي يصوبه العربي ولنا الاصل الذي يفتخر بهم الأعجمي .. فقد شاركنا العربي في فخره والخراساني في مجده والبنوي في فضله. ثم تفردنا بما لم يشاركونا فيه ولا سبقونا إليه ... (لأن) شرف المولى راجع إلينا[2] ...» .

وقد ذكر المؤرخون والكتاب القدامى كاليعقوبي والجاحظ أن المنصور كان أول من اصطنع مواليه وقدمهم وعهد إليهم بالادارة والقيادة وزاد المسعودي أنه فضلهم على العرب ومنذ ذلك الوقت سقطت قيادات هؤلاء وذهبت مكانتهم . وفي هذا الرأي الأخير الكثير من المجازفة أما اعتماد المنصور على مواليه لا على الموالي الفرس عامة — فكان أمراً واقعاً ورثه عنه المهدي وغالى في الغلو الكبير فكان ولاته على أرمينية واذربيجان ومصر وهمدان والري ودنباوند وقومس منهم احياناً كثيرة كما أعطاهم العديد من المناصب الهامة كديوان البريد وديوان الزمام والنيابة

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٧٥ (٣/ ٥٣١) .

(٢) انظر رسالة الجاحظ في مناقب الترك وعامة جند الخلافة في رسائل الجاحظ (ط . دار النهضة — بيروت) ص ٢٧ — ٢٩

عنه في بغداد (أعطاها للربيع بن يونس مولاه) وبالرغم من وجود جماعات من أصل فارسي بين هؤلاء الموالي إلا إن اصطناعهم في الدولة لم يكن نتيجة التأثير الفارسي لأنه لاعلاقة لهم به ولكن نتيجة «الولاء» المباشر للخليفة . وقد ظلت هذه الرابطة واضحة الأثر في الادارة العباسية زمن الرشيد الذي استخدم مواليه كأبيه . والمأمون الذي جاءه مرة بعض الأقباط يطلب أن يكون مولاه ... غير أن عناصر جديدة في البلاط زاحمت موالي الخلفاء في أيام الرشيد على مكانتهم هي طبقة الخدم ... وقد عهد الرشيد إلى بعضهم ببعض الادارات .

ويجب أن نضيف أخيراً أن العباسيين الأوائل قبلوا على مناطق الحدود ولاء أو على الأقل طاعة الحكام المحليين التقليديين ومنحوهم الحكم الذاتي فأقروهم في حكم أقاليمهم ، على النهج الذي اعتادوا ، واحتفظوا لهم بدياناتهم وبلغاتهم وألقابهم بل وجنودهم ونظامهم السياسي على أن يقبلوا عامل الخراج الذي يجمع الضريبة السنوية المتفق عليها . طبق ذلك في منطقة أرمينية وجورجيا مع البقارطة ، وفي طبرستان والاصبهبذ فيها من آل المازيار ومع ملوك الترك من الصعد والختل والغزوالشاش وفرغانة ومع أمراء سجستان الرتابيل وأمراء السند ، ومع جماعات البجة وملوك النوبة . كان هؤلاء يشكلون ولا سيما على القوس الممتدة ما بين دلتا نهر السند والزاوية الشرقية من البحر الأسود من مناطق شبه الظل العباسي تفصل ما بين المناطق العباسية الخالصة وبين المناطق غير المسلمة وراءها . وبهذا الشكل دخل في قائمة الولاة العباسيين سلالات من الأمراء المحليين غير المسلمين لا يد لبني العباس لا في تعيينهم لأنهم وراثيون ولا في توجيه انظمتهم تقليدية وقائمة ولكنهم ضمن الإطار السياسي للدولة العباسية .

## التقسيم الاداري وجهاز الادارة

لم يغير العباسيون إلا أقل التغيير ، وبسبب بعض الضرورات في الأقسام والحدود الادارية للولايات التي ورثوها عن الامويين والموروثة بدورها عن البزنطيين والساسانيين • كانت حدود الأقاليم الجغرافية تتطابق لحد كبير في دولتهم مع حدود الاقاليم الادارية •

والتعديلات الوحيدة التي طرأت جرت أولا في عهد أبي العباس الخليفة العباسي الأول ، وقد تناولت بلاد الشام التي كانت بسبب كونها مركز الأمويين مقسمة إلى أجناد لا ولايات فجعلت ولايات ثلاثة في فلسطين ودمشق وقنسرين ، وإن احتفظت باسم الاجناد • كما تناولت فصل ارمينية واذربيجان عن الجزيرة لأسباب عسكرية دفاعية وأخيراً أجرى الرشيد تعديلا تناول الثغور والعواصم •

وفيما عدا ذلك فقد ظل النظام الاداري العباسي يعتمد كالنظام الأموي من قبل :

١ ) أسلوب الادارة المبسطة •

٢ ) واعتبار المدينة أساس التنظيم الاداري •

ولم يسر العباسيون بالتقسيم الاداري أي خطوة نحو التعقيد أو نحو إعادة التنظيم • لم يجدوا الحاجة إلى ذلك • واستمروا يقبلون المفهوم الاداري المبسط أو الأفقي الذي يميل الى الاقسام الادارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وجمع الخراج • أما النظام التسلسلي العمودي الذي كان يقسم الوحدة الادارية أو الولاية الى أجزاء ويقسم كل جزء بدوره إلى أجزاء صغرى ويربط الجميع بموظفين يرتبطون على الأساس نفسه بنظام هرمي ــ على الطريقة الرومانية ــ فهو مفهوم لم يستعمله العباسيون ولا المسلمون بصورة عامة •

وهكذا فمصر مقسومة الى كور • وحوض دجلة والفرات كان حوالي ١٥ كورة • وتتألف الكورة من مدينة هي القصبة أو المصر يتبعها مدن أو بلدان تكثر أو تقل ولكل مدينة أو بلد إقليمه (ريفه) أو زمامه• وهكذا فالوالي المركزي يتبعه عمال الكور وهؤلاء يتبعهم عمال المدن المسؤولون عن المدينة واقليمها • وتأخذ الكورة في ايران وفي والعراق أحياناً التسمية الفارسية : الطسوج أو الرستاق ( وهو اكبر من الطسوج )

وهكذا يبدو كأن الكورة ( أو الرستاق ) هي الوحدة الادارية الاساسية في الدولة • وقد كان للمدينة في المناطق الايرانية من حرية الادارة والتصرف ما يجعلها تدير شؤون نفسها بنفسها إلى حد كبير لا سيما مع وجود المحتسب فيها والشرطة الخاصة وجهاز فرض الضريبة وتوزيعها . وهذا ما كان يجعلها أشبه بالمدن الحرة في أوروبا الوسيطة• وبعض هذه المدن كان يتسع مع ضواحيه وأريافه ليصبح أشبه بالإمارة الصغيرة وهذا ما كان عليه مثلاً وضع بلخ ( ومساحتها تزيد على عشر فراسخ ) ولها الأسوار لحمايتها . وأوضاع سمرقند وهراة وبخارى وخوارزم ونيسابور والري وهمدان وغيرها من مدن المشرق الاسلامي•

وقد نجم عن هذا التبسيط الاداري أن عدد الموظفين في الادارة العباسية ( والاسلامية عامة ) لم يكن يزيد على خمس العدد في الادارة الرومانية المماثلة •

فأما **دواوين الولاية** وجهاز الادارة في الكور : فكانت نسخة مصغرة من دواوين مركز الخلافة وكتابها وجهازها فلكل ولاية ديوان للرسائل برئاسة كاتب الوالي • وديوان للخراج ويتسلمه كاتب الخراج

للعامل وديوان للجند ، وهناك القاضي وصاحب بيت المـال وصاحب الشرطة وصاحب المعونة وصاحب البريد . وتتكرر الصورة نفسها على مقياس أصغر في الكور ولنضرب مثلاً على ذلك ولاية سجستان فقد ذكر ابن حوقل أن ارتفاعها ( أي مبلغ خراجها ) كان مع (منطقة) الرخج عن جميع أعمالها وجباياتها وقوانين أدائها مائة ألف دينار ومن الورق ثلاثمائة ألف درهم ولكل ناحية منها قاض وصاحب خبر وبريد وصاحب بريد وكاتب سلة يعرف بالبندار يطالب بالخراج ووجوه الأموال الواجبة للسلطان واكثرها لصاحب خراسان»[1] .

ومثل آخر من الجزيرة يرويه المؤرخ ميشيل السرياني نقلاً عن ديونيسيوس التلمحري (المتوفى سنة ٢٢٩/٨٤٣) والذي يشكو في آخر كتابه من كثرة عدد العمال في الجزيرة « لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل » ففي مدينة الرقة على الفرات ، ( وكانت موئل الرشيد ) كان ثمة قاض وكاتب سلة يعرف بالبندار يطالب بالخراج ووجوه الأموال وصاحب جند وصاحب بريـد ينهي اخبار الولايـة للخليفة ومتول للضياع السلطانية وصاحب معونة[2] ...

ونضيف هاهنا أن بغداد حين انتقل منها مركز الخلافة الى سامراء عرفت وضعاً إدارياً خاصاً ظهر فيه منصب جديد لم يعرف لغيرها هو : خلافة أمير المؤمنين بمدينة السلام وقد تولى هذا المنصب سنة ٢٣٧ محمد ابن عبد الله بن طاهر وتولى معه الشرطة والجزية وأعمال السواد[3] .

---

(١) ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٣٥٦

(٢) نقل هذا المثال آدم متز ـ الحضارة الاسلامية (ترجمة أبي ريدة) ص ٩٨ ، ١٠٢

(٣) الطبري ج٩ ص١٨٨ (٣/١٤١٠)

**تطور الادارة العباسية للولايات :** أخذ هذا التطور عدداً من الاتجاهات كانت تنتهي كلها بالتمهيد لتفكك الدولة :

١ ـ فقد عمد الخلفاء . منذ مطالع الدولة ، الى العهدة للوالي الواحد بأكثر من ولاية . وإذا كان هذا من باب الضبط وإحكام القبضة على الحكم في السنوات الأولى ( كما في حالة أبي مسلم وأبي جعفر زمن أبي العباس ) فإنه فتح الباب لتسلطات الولاة فيما بعد ولتوسيع نفوذهم على حساب الادارة المركزية وبدلاً من أن يتجه الخلفاء ، في الوقت نفسه ، الى توطيد الفصل بين سلطات الولاية اتجهوا بالعكس الى الغائه مما ادى لظهور الوالي المطلق اليد في الجند والمال والادارة وإذا كانت حالات جمع السلطات هي الغالبة فجمع الولايات كان اكثر ما يكون في ما بين ولايات الجزيرة وأرمينية واذربيجان . أو ما بين خراسان وسجستان وما وراء النهر وكانت هذه الولايات الأخيرة كثيراً ما تعتبر وحدة إدارية تعطى لوال واحد في الغالب وحتى عهد الرشيد ولي العهد . ولكن الأمر اختلف منذ أيام المهدي الذي أطلق مرة يد الوزير يعقوب بن داوود في كل شيء الدرجة التي أنشد فيها الشاعر :

بني أميـة هبـوا طـال نـومكم　　إن الخليفة يعقوب بن داوود

ثم عين ابنه الهادي للاقاليم الشرقية كلها في الدولـة يساعده عليها يزيد بن المنصور وأبان بن صدقة وعين بعد قليل ابنه هارون على الاقاليم الغربية يساعده في أمرها يحيى بن خالد البرمكي ... ولم يكن بالخطير كثيراً أن يتقاسم أولياء العهود حكم الدولة لكن التصرف الخطير كان حين استخلف الرشيد فأطلق يد يحيى البرمكي واولاده فيما وراء بابه مدة زادت على خمس عشرة سنة في الوقت الذي تقلصت فيه الرقابة المركزية على الولاة التقلص الكبير . ولم يتكشف المأمون عن شخصية

اداري كبير بالرغم من محاولاته تقليد المنصور ولذلك فإنه لم يستطع معالجة الازمة الادارية الكبرى التي وقعت فيها الدولة أثناء خصومته مع أخيه إلا بتفويض وزيره الفضل بن سهل بالامر كله ثم باعطاء عبد الله بن طاهر حكم نصف الدولة الغربي مما بعد العراق ثم تخويل آل طاهر حكم خراسان وما وراءها ... وأضحت قسمة الدولة بعد ذلك بين القواد الكبار تدبيراً ادارياً عادياً ، فلم يجد الناس كبير أمر ، في أن يعطي الواثق حين توليه الخلافة الى قائديه أشناس وإيتاخ حكم الدولة من بابه الى آخر المغرب للاول ومن كور دجلة حتى فارس والسند الى الثاني ...

وكان ذلك يعني ان الدولة لم تعد لبني العباس .

٢ ـ الظاهرة الثانية مشتقة من الاولى وهي الانابة في الولاية .

أضحت التسمية للولاية منذ عهد الرشيد لا تلزم صاحبها بالسفر الى ولايته ومباشرة الحكم. صارت تشريفاً لا تكليفاً ومنحة من الرزق لا خدمة للدولة . أصحاب الدالة من أفراد البيت العباسي أو من البرامكة أو وجوه العرب أو كبار الموظفين هم الذين ابتدعوا أن يدير الوالي ولايته دون أن يغادر بغداد ، ورضي الخلفاء أن يمنحوا الولايات لمن يختارون من رجالهم يديرونها باسمهم ولحسابهم . وحتى وحين وصل الأمر أن يلي بعض الخدم المناصب الرفيعة كانوا ينيبون . ذكر الجهشياري «أن مسروراً الخادم كان يتقلد البريد والخرائط ويخلفه عليها ثابت الخادم !»[1] فكانت النتيجة أن توفي الرشيد ولديهم أربعة آلاف خريطة (رسالة) لم تفض ! ..

ومست ظاهرة الإنابة الخلفاء أنفسهم . فقد ذكر الجهشياري أيضاً أنه كان للرشيد خادم يقال له سعيد الخفقاني وكان خادماً جايلا .

(١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٦٥ .

وكان من خاصته بالرشيد ومحله منه أنه أمر العمال أن يقبلوا كتبه وينفذوا أمره في مائة ألف درهم ..»[1] .

واستمرت هذه الظاهرة مقبولة في الجو الاداري العباسي تتكرر باستمرار ومن ذلك أنه لما ولي أشناس وايتاخ حكم جناحي الدولة للخليفة الواثق أنابا عنهما الولاة . ومن ذلك أيضا أن المتوكل عهد الي بعض خواصه أن يولي عمال الخراج والضياع والبريد والمعاون والقضاة في جميع الدنيا ...»[2] . وكانت النتيجة هي تراخي القبضة المركزية تراخياً كبيراً على الاقاليم ونسف الأساس الاداري الذي وضعه المنصور لهذه الدولة .

٣ ــ غياب الادارة المدنية : إذا كان طبيعياً أن يكون الولاة في أوائل الدولة من القواد العسكريين فان بني العباس الأوائل أعطوا إدارتهم حين استقروا الصبغة المدنية . واستعراض اسماء الولاة الذين سماهم المنصور والمهدي والرشيد يكشف أن معظمهم من وجوه الدولة . وأن نسبة القواد العسكريين فيهم محدودة . غير أن الاعتماد على آل البيت العباسي وعلى العرب وعلى موالي الخلفاء وكبار الخراسانيين بدأ يقل بوضوح بعد الفتنة الأخوية بينما ازداد بالمقابل الطابع العسكري في الولاة وكثر فيهم القواد . والنقلة بين سلكي الجند والإدارة وإن كانت معروفة دوماً في كل العهود والدول إلا إنها خلقت مع كثرة الثورات وضعف الجهاز المركزي في بغداد وسامراء ، سلطات إدارية في الاقاليم مرشحة للانفصال .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٦

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٩

وما كادت الصيغة التقليدية للجيش العباسي تغيب ويسيطر فيه الجانب التركي مع المعتصم حتى تكرست الادارة العسكرية بسيطرة القواد الترك على الخلافة نفسها .

٤ ــ ضعف الرقابة المركزية : فإن انشغال الدولة حتى عن فض خرائط البريد لم يكن إلا أحد مظاهر الاهمال الاداري المتمادي للأقاليم وهو الاهمال الذي كان يقابله من الجهة الأخرى تزايد السلطات المطلقة للولاة وضعفت بين هذا وذاك أجهزة الرقابة والمحاسبة حتى لقد كانت تغيب أحياناً كثيرة . فكان سوء الادارة أو حسنها إنما يتصلان بشخص الوالي وقلما كان الولاة ممن يعفون عن أموال الناس أو دماءهم أو يرعون الحقوق وما من شك في أن بعض الولاة كانوا يتحرجون من تجاوز حدود الله والناس . فحين تولى علي سليمان العباسي مصر «أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ــ كما يقول الكندي ــ ومنع الملاهي والخمور وهدم الكنائس المحدثة بمصر ...» وحين تولى عبد الرحمن ابن أبي الزناد خراج المدينة أخذ يستعين «بأهل الخير والورع والحديث» وحين عهد الرشيد الى الفضل البرمكي بولاية خراسان «أزال ــ على مايقول الجهشياري سيرة الجور» وعمل على بناء الحياض والمساجد . [illegible] البقايا (من الضرائب) وزيادة العطاء ...[1] على أن هذه السير [illegible] سجلت لبروزها كأعمال حسنة . وكان الغالب في سير الولاة : الإ[illegible] الخراج وجمع الأموال والأخذ بالإرهاب والدماء . وعدم رعاية [illegible] الحقوق فكان نتيجة كل أولئك :

(١) الجهشياري [illegible] ص ٢٢٨

ـ قيام الثورات وقد عرف منها العصر العباسي الكثير ولا سيما في مناطق خراسان وسجستان ومناطق أرمينية والجزيرة وفي الشام ومصر واليمن •

ـ ثراء الولاة الفاحش الذي قد يتبعه نكبة الوالي ومصادرته • ومن الأمثلة ذات المعنى مصادرة الرشيد لعلي بن عيسى والي خراسان الذي بلغت أمواله ثمانين مليون درهم ! خلال عشر سنوات من الولاية بالعسف • ومنها أيضاً قصة علي بن هشام الذي قتله المأمون وكتب في المنشور المتعلق بهأنه أعطاه من المنحما بلغ مجموعه خمسين ألف ألف درهم ولم يكفه ذلك «فمد يده الى الخيانة» ثم استقال أمير المؤمنين فأقاله وولاه الجبل وأذربيجان وكور أرمينية ومحاربة الخرمية على ألا يعود لما كان منه فعاود اكثر ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه وأساء السيرة وعسف الرعية وسفك الدماء المحرمة»[١] •

٥ ـ عدم فعالية الادارة العباسية في أطراف الدولة : فإذا كان العباسيون قد ورثوا الدولة الاسلامية كلها عن الأمويين فقد تسلموها منقوصة منذ اليوم الأول (بضياع الاندلس) ثم انقطع عنهم المغرب في أيام المنصور والمهدي (لحساب الخوارج) ثم أضاعوا أيام الرشيد مناطق السند في الشرق ومنطقة افريقية في الغرب لمصلحة الولاة الموجودين فيها • وظهرت خاصة دولة الأغالبة ضمن جلد الدولة العباسية • ثم مالبثت خراسان أن وجدت طريقها في الحكم الذاتي أيام المأمون نفسه على يد آل طاهر ••• وهكذا كان ضعف الادارة المركزية يتماشى طرداً مع انقطاع الاطراف وظهور الدول المنقطعة • ذلك أن الإدارة العباسية

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٢٨ (٣/١١٠٨) •

كانت في عهد التأسيس مشغولة بمركز الدولة وما حوله وأما بعد ذلك فلم تكن فعالية الجهاز الاداري فيها تصل الى بعض المناطق النائية أو تهتم بها . وقد قامت دولة خارجية في سجستان سنين طويلة دون أن يتمكن الرشيد ثم المأمون من إلغائها وانقطعت افريقية فلم تجد بغداد طريقاً سوى التسليم بالأمر الواقع وأسس البقارطة الأرمن دولتهم في أرمينية وملوك طبرستان فاعترفت لهما بغداد بالحكم الذاتي ... فلما انشلت القوة المركزية بتسلط الجند الاتراك على البلاط العباسي كان هذا هو الطريق الذي سلكته الكثير من الاقاليم للانفصال ... وإلغاء دولة بني العباس وإن ظلت العمامة والبردة والقضيب للرأس الرمزي الباقي بعد الدولة باسم الخليفة العباسي .

**ء ـ القضاء والقضاة**

عناية العباسيين بالقضاء والقضاة مشتقة من سياستهم الدينية ومن حرصهم على دعم المظهر الديني لخلافتهم . ولما لم يكن للخلفاء في الاسلام ـ كما لأباطرة الرومان وغيرهم ـ سلطة التشريع لأنه إلهي ، علوي ، سابق للدولة ولا كانت لهم حتى سلطة تفسير النصوص الدينية التي اضطلع بها الفقهاء (والفقه عملية تعمق في النص لا إبداع من خارجه) لهذا كان أقصى ما يستطيع الخلفاء العباسيون عمله في هذا المجال هو المزيد من الاشراف على التطبيق والتنفيذ أي على القضاء .

وقد كان الجهاز القضائي الاسلامي موجوداً قبل بني العباس ، منذ عمر بن الخطاب . وكان مستقلا عن الجهاز الاداري أيضاً . لذلك كان كل ما يمكن المنصور عمله هو تعيين القضاة في الأقاليم المختلفة بعد أن كان هذا الأمر متروكاً في العهد الأموي للولاة . وقد سجل المؤرخون للمنصور هذه الأولية التي كان يقصد منها الى إحكام المركزية وتوطيدها

من جهة والي مراقبة كفايات الولاة من جهة ثانية وإلى توحيد الأحكام بين القضاة من جهة ثالثة • وإذا كان الهدفان الأول والثاني لهما الطابع السياسي ـ الاداري فإن الهدف الثالث كان من مشاكل الدولةالكبرى التي تشغل بال الناس طويلا في تلك الفترة • وقد أشار إليها ابن المقفع في رسالة الصحابة إذ بعث الى الخليفة يقول : «••• ومما ينظر أمير المؤمنين فيه ••• اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ من اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة • ويكون مثل هذا الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها مايحرم في ناحية أخرى • غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم يقضي به قضاةجائز أمرهم وحكمهم مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا لج به العجب بما في أيديهم • والاستخفاف عن سواهم • أما من يدعى السنة فيجعل ماليس سنة سنة حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير نية (ويحتج بأن الخليفة فلانا فعل كذا) • فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب ويرفع معها مايحتج به كل قوم من سنة أو قياس ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ••• وينهي عن القضاء بخلافه• وكتب بذلك كتاباً جامعاً • لرجونا أن يجعل الله هذه الاحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صائباً ••• برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخر الدهر •••»[1]

---

(١) ابن المقفع رسالة الصحابة ـ لدى محمد كرد علي رسائل البلغاء (طبعة البابي سنة ١٩١٣) ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ولدى يوسف ابو حلقة ـ الادب الصغير (ط ٠بيروت) ص ١٦٦ ـ ١٦٨ •

أراد ابن المقفع أن ينتهي الناس من تضارب اجتهادات الفقهاء مع تعقد الحياة وكثرة المجتهدين وتشقيق الآراء بمنح الخليفة سلطات امبراطور رومي أو ملك ساساني وجعله هو القاضي الأكبر الذي يقنن ويجمع الأحكام ويعدلها ويصدرها في كتاب واحد جامع يكون أشبه بمجموعة جوستينيان أو غيرها وتتجدد من امام لاخر • ويبدو أن المنصور أخذ بهذا الرأي من ابن المقفع أو غيره فإن المصادر تذكر أنه طلب من الامام مالك بن أنس أن يضع له كتاباً في الفقه يجعله دستوراً للناس وقال له : «واقصد الي أواسط الأمور وما اجتمع عليه الائمة والصحابة لتحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ••» لكن هذا الطلب لم ينفذ من قبل مالك • والموطأ والمدونة إنما جمعهما تلاميذه من كلامه ولم يكتبا على أي حال وفي النية أن يكون سجل تشريع للدولة ولكن مدونة أحاديث نبوية •

ومن جهة أخرى فإن المنصور كان يعلم أنه ـ ولو كان الخليفة ـ فليس باستطاعته أن يحمل الناس في الفقه والتشريع على رأي واحد يأخذهم به في تلك الفترة التي كان الفقه فيها في مطالع تكونه وكان الفقهاء المشهورون في الاسلام (أبو حنيفة • مالك • الليث• الأوزاعي• الحسن البصري• الشعبي •••) في أوج عطائهم الفكري كما كان الحديث النبوي في مرحلة التدوين والتثبيت • لذلك كان قصارى ما يستطيعه المنصور تعيين القضاة من عنده ، ومراقبة أحكامهم عن طريق صاحب البريد ومناقشتهم في تلك الأحكام لئلا يكون فيها ما يمس الدولة من الناحية السياسية كفتوى مالك مثلا للناس يوم ثورة محمد النفس الزكية بتحللهم من بيعة المنصور «لأنكم إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين» أو فتوى الأوزاعي ورسالته بعدم جواز ترحيل اهل الجبل في لبنان عن قراهم بسبب ثوراتهم • وقد حاول المنصور أن يستقطب

معونة جماهير الفقهاء وهم أهل القضاء ــ فهو يساير مالك بن أنس ويحاور عمرو بن عبيد • ويسترضي ابن أبي ذئب ويسميه خير أهــل الحجاز ويعرض على الليث بن سعد إمارة مصر فلمــا رفضهــا جعل أمير مصر وقاضيها وعمالها من تحت أوامره فإذا رابه من أحد منهم أمر كاتب فيه الخليفة فيعزله • ويراود أبا حنيفــة على تولي القضاء فيأبى ثم يأبى لدرجة إغضاب المنصور ومجازاته على الرفض بأن يعمل مراقباً في بناء بغــداد ! • وقد أبى قبول القضاء مثله من الخليفة الإمام الأوزاعي ، وأبى التعاون معه سفيان الثوري وابن أبي ذئب • كما أبي سفيان نفسه المسير مع المهدي الى بغداد ليعينه على أن يسير بالناس سيرة الشيخين ولما أصر عليه في تولي القضاء اضطر سفيان إلى الهرب فلما ألقي القبض عليه أمر المهدي بعدم قتله ولكن بكتابة عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه في حكم ولكنه توارى عن الانظار بعد ذلك •••

وهذا الحرص على استرضاء أهل الفقه وهذا الاصرار على كبار الفقهاء في تولي القضاء يكشف عن القيمة السياسية والدينية التي كان يعقدها خلفاء بني العباس الأوائل على هذه الخدمة الحكومية في تصريف الحقوق بين الناس ويكشف عن رغبتهم في جعل القضاء مؤسسة رسمية ناجحة وعن إدراكهم القوة التي يمثلها الفقهاء والقضاة في الحياة العامة وفي مسيرة الادارة •

وقد مشى الرشيد على خطى والــده وجــده في التقرب للفقهاء والقضاة فتقرب الــى الليث بن سعد وترضــى الشيباني واصطنع أبا البختري وأبا يوسف ثم مشى خطوة اخرى تجاوز فيها موقف أسلافه فأوجد في القضاء ما يشبه صاحب «الأزمــة» في الدواوين • جمع أمور

القضاء في الدولة كلها في يد واحدة وجعل للقضاة في الدولة رأساً واحدة : في شخص قاضي القضاة .

ولقد يكون في انشاء هذه المنصب ظل من الشبه أو التقليد للمنصب الذي كان يحمل الاسم نفسه بالضبط (موبذ موبذان) في العهد الساساني ـ الزارادشتي . ولكنه إنما وجد في عهد الرشيد بنتيجة حاجات الدولة وتعقد الادارة فيها وضرورة توحيد جهاز القضاة في إشراف واحد وأهم من ذلك كله توحيد الاحكام في مذهب فقهي واحد تتبناه الدولة ويصبح هو المذهب الرسمي المتبع . ويبدو أن شخصية أبي يوسف وشخصية تلميذه الشيباني بعدما كان لأبي حنيفة من وزن ضخم في العراق جعلت الرشيد بعد أن يختار ابا يوسف لقضاء بغداد يختار من خلاله مذهب أبي حنيفة مذهباً للدولة . وكان الرجل من أبرز تلاميذه . وهكذا مالبث أن سماه الرشيد : قاضي القضاة وطلب منه وضع كتاب الخراج والاشراف على اختيار القضاة وصحة الأحكام حسب المذهب الحنفي . ولم يكن المنصب يعني أكثر من هذا. فلم يكن لأبي يوسف من اختصاص قضائي يفوق ماكان لسائر القضاة. فهم جميعاً متساوون في حقهم وفي قدرتهم على إصدار الاحكام طبق الشرع ولا ينقض قاضي القضاة حكمهم إلا بالاتفاق مع الخليفة . ولكنه يشرف على اختيار الهيئة القضائية وعلى مراقبة الكفاية الفقهية لدى القضاة .

ولم يعزز المنصب الجديد مكانة القضاء والقضاة إلا من الناحية الادارية فإن مكانته الدينية كانت سابقة وظلت لاحقة خلال العصور . أما اختيار أبي يوسف له فقد عزز فقط المذهب الحنفي كمذهب رسمي لما يتمتع به الرجل من مكانة فقهية كبرى .

لكنه مع ذلك لم يفرض هذا المذهب على الناس لأن الشام كانت تحكم على مذهب الأوزاعي فلم تدافع • ومصر ظلت على مذهب الليث ابن سعد والحجاز على مذهب مالك • وقد اتفق مرة أن أمضى اسماعيل ابن اليسع الكندي الأحكام في مصر على مذهب أبي حنيفة فلم يرض به أهلها وطلب الليث من المهدي عزله قائلا : إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله بين أظهرنا ! فاضطر المهدي للعزل !

وهكذ فان تحول المذهب الحنفي الى مذهب رسمي لم يكن له من نتيجة مباشرة سوى توحيد مذهب القضاة في العراق وايران خاصة ، واضطرار القضاة الآخرين لرعاية هذا المذهب في الأقاليم الأخرى •حتى وصف قضاة الرشيد عامة بأنهم عثمانية إلصاقاً لهم بالمذهب الرسمي الحنفي •

وكان هذا أول تدخل إداري عباسي في شكل الأقضية والأحكام عامة وفي توجيهها وكان هذا من الأسباب التي اكدت لأصحاب الورع من الفقهاء صحة موقفهم السلبي من الدولة وضرورة الاصرار على رفض منصب القضاء لئلا يحول بينهم وبين قول الرأي الديني الذي يرون أي عائق • واحتالوا في الهرب من المنصب حيلا شتى حتى لقد تهرب الشعبي منه بلبس المعصفر ولعب الشطرنج لكي يقال إنه من أهل اللهو فلا يصلح للقضاء ! والذين قبلوا منهم العمل القضائي رفضوا بدورهم الانحناء لرغبات الخلفاء واهوائهم • وإذا استشار المنصور الفقهاء في عقد الأمان الذي عقده لعمه عبد الله بن علي فلم يجدوا فيه منفذاً للنقض فإن الرشيد طلب إلى قضاته مثل ذلك في الأمان الذي كتبه ليحيى بن عبد الله المحض ورفض القضاة ايجاد المخرج لنقضه وتعرض القاضي الشيباني ، تلميذ أبي يوسف وكبير القضاة لغضب الرشيد في ذلك وللإقصاء لا سيما حين أفتى أبو البختري بجواز النقض

من **أوجه مختلفة** فقال الرشيد : أنت أعلم بذلـك ! ومزق الأمان ! ..
لكن أمثال هذه المواقف السياسية القضائية العنيفة كان قليلاً جداً وندر
أن تدخلت السلطات الادارية في سلطة القضاء التي ظلت بصورة عامة
مستقلة مصونة المكانة ، وكان أصحابها يستقيلون احيانـاً إن رفضت
تلك السلطات إنفاذ أحكامهم كالذي كان من قاضي مصر في أوائل العهد
العباسي خير بن نعيم إذ حكم بالسجن على جندي من أهـل خراسان
فلما أمر والي مصر أبـو عون الأزدي بإطلاقه استقال القاضي[1] ...

وتوالى على منصب قاضي القضاة بعد أبي يوسف تلميذه محمد
ابن الحسن الشيباني صاحب (السير الكبير) ثم شغر المنصب فترة طويلة
قبل أن يعين له المأمون قاضيه يحيى بن اكثم . أما في الامصار والمدن
والبلدان الهامة فقد كان منصب القاضي من الشأن بحيث كان يسجل
اسم القاضي مع اسم الوالي في التواريخ ووجدت كتب مثل كتاب الولاة
والقضاة للكندي (القـرن ٣) للحديث عن ولاة وقضـاة مصر . كما
وجدت كتب عن القضاة وحدهم مثل أخبار القضاة لوكيـع (القرن ٣)
الذي سجل فيه اسماء واحكام القضاة في الأمصار الكبرى . وسجل
المؤرخون كابن خياط واليعقوبي منذ ذلك العصر أسماءهـم في أعقاب
الكلام عن الخلفاء وعهودهم . وبلغ من اهتمام أصحاب كتب التراجم
ورجال الفقه والمذاهب بالقضاة في كل بلد ومصر أن أضحى لدينا من
ذلك قوائم كاملة أحياناً بعد قوائم مما يدل على القيمـة الكبرى لهذه
المؤسسة الاجتماعية السياسية في تاريخ الحضارة الاسلامية .

وقد اصطنع العباسـيون الاوائل لباسـاً خاصاً للقضـاء هو

---

(١) الكندي ـ الولاة القضاة ص ٣٥٦

الطيلسان . وجعلوا للقاضي موكبه الرسمي زيادة في الهيبة . وقد بعث والي البصرة يحيى بن قارب مع القاضي عمر بن حبيب العدوي قائداً في مائة (جندي) . فكان إذا جلس للقضاء قام الجند عن يمينه وشماله سماطين فلم يكن قاض أهيب منه ...»[1]

ومكان القاضي إنما كان في المسجد الجامع وقد يقضي في أي مكان شاء . وقد سجلوا على بعض قضاة مصر أنه اختصم عنده بعض الذمة فأدخلهم الجامع وكان أول من فعل ذلك . وإذا كان لكل مدينة ومصر قاضيه فقاض في الرقة وقاض في الفسطاط وقاض في نيسابور فقد كان لبغداد وحدها قاضيان أحدهما في الجانب الغربي والثاني في الجانب الشرقي (في الرصافة) وموسى الهادي هو أول من فرق القضاء في جانبي بغداد»[2] وقد تسلم المنصب الثاني «أبو معشر يوسف بن أبي يوسف : وحين كان أبو يوسف يسافر مع الرشيد كان ابنه يقضي بمدينة السلام» في الجانبين[3] . وقد كان ثمة قضاة يجمعون ما بين عدة مدن : فأبو الحسن محمد ابن الامام الشافعي ولي قضاء قنسرين والعواصم . كما كان ثمة قضاة للجند يكونون مع العسكر للفصل في الخصومات .

وأما رواتب القضاة فيبدو أنها كانت مرتفعة وقد ذكر مؤرخ متأخر أن أحد قضاة مصر في العصر العباسي الأول كان يتقاضى أربعة آلاف درهم في الشهر[4] وهو مبلغ قد يكون فيه بعض الشطط ولقد يكون

---

(١) انظر وكيع ـ اخبار القضاة (طبع القاهرة سنة ١٩٥٠) ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٥٤

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٥٦

(٤) السيوطي

راتب قاض بعينه ولكنه ليس مقياس رواتب الأخرين التي قد لاتزيد عن العشر منه •

ويبدو من جهة أخرى أن عناية العباسيين الأوائل باختيار القضاة ـ وهم موظفون اختصاصيون ـ وبمراقبة أحكامهم كانت تعدل أو تزيد على عنايتهم باختيار رجال الادارة • وثمة أخبار كثيرة في المصادر تذكر سؤال الرشيد للوفود التي تأتيه من البلاد عن القضاة عندهم وتحريه لسيرتهم فإذا شكوا شيئاً استشارهم في من يعين لهم من القضاة أو قبل من يقترحونه بأنفسهم لهذا المنصب[1] • ويذكر أحياناً مثل ذلك عن المأمون • على أن القضاء كمؤسسة أصابها ما أصاب باقي أجهزة الادارة في الدولة من الاهمال والفساد فيما بعد وضغطت عليها المؤسسات العسكرية والادارية حتى أفقدتها الكثير من استقلالها • ولا تستكمل صورة القضاء العباسي إلا بثلاث مؤسسات أخرى تتعلق به :

### ١ ـ الشهود :

وهم جماعة من وجهاء البلد معروفون بالعدالة وحسن السيرة مهمتهم مساعدة القاضي في بعض أعماله وأهمها : التثبت من مواضيع الشكاوي والنظر في صحة الاجراءات القضائية فكأن دورهم هو دور التحقيق الأولي والشهادة بعد ذلك عند القاضي بما عرفوا من الأمور على ضماناتهم وابداء الرأي كهيئة «المحلفين» • كان ظهور هذه الجماعة ضرورياً في مجتمع لم تكن الكتابة ولم تكن بالتالي العقود الخطية شائعة فيه وليس للقاضي في زحمة العمل من الوقت ما يكفي للتحقق من كل أمر • بالإضافة الى أن قيمة الشهادة الشفهية في تلك العصور كانت أعلى بكثير من الشهادة المكتوبة •

---

(١) انظر وكيع ـ أخبار القضاة ج ٢ ص ١٤٣ و ص ١٤٥

وبالرغم من أن وجود الكتاب العدول والشهود العدول سابق للعصر العباسي إلا إن توطد جماعة الشهود كهيئة رسمية ، بجانب القاضي وظهور دورها القضائي والاداري إنما كان في العصر العباسي الأول وقد اشتق منها جماعة أخرى عرفت فيما بعد باسم «الشروطيين» مهمتهم كتابة العقود ، تحت اشراف القاضي ، بين الناس •

**٢ ـ الحسبة :**

وهي وظيفة « مدنية » نشأت بسبب حاجة المدن الاسلامية إلى العناية بأمورها العامة في أسواقها وبنائها ومرافقها العمومية وفي جماعاتها الحرفية ، وخدماتها الاجتماعية وضمان العدل والأمن لها في عمليات التجارة والتعامل ورعاية الصحة العامة والآداب العامة ••• وهذه الأمور هي في الأصل من واجب كل مسلم والاشراف عليها من واجب « السلطان » الذي عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر •

وقد ظهرت وظيفة المحتسب مبكرة في الاسلام ومهما يكن من الاختلاف في أصل نشأتها فقد جاء العصر العباسي وهي مؤسسة قائمة موجودة وثمة أخبار مبعثرة عن محتسب عزل أو عين أو كان في وفد •• ولا شك أن الحسبة كانت تحل الكثير من المشاكل اليومية قبل أن تصل الى ميدان القضاء •

**٣ ـ المظالم :**

وهي مؤسسة قضائية ثالثة يعود الفضل في تكاملها إلى العباسيين الأوائل • وسماع المظالم ، وهو نوع من استئناف الاحكام أو عرض الظلامات على السلطة العليا ، وهي الأمير ، المسؤول عن إقامة العدل ، وأول ما كان ذلك بشهادة اليعقوبي والماوردي ، في العهد الأموي • «فإن عبد الملك بن مروان هو أول من أفرد للظلامات

يوماً يتصفح فيه قضايا المتظلمين وتبعه في ذلك عمر بن عبد العزيز ثم كان المهدي أول من جرى على هذه السنة (من خلفاء بني العباس) فكان يجلس بنفسه للمظالم ويحيط جلوسه بهالة من الهيبة قوامها من يجمعه حوله من الفقهاء لمثل هذا المجلس • وقد ذكروا أن المهدي كان يطلب جلوسهم معه ويقول : «لو لم يكن ردي للمظالم إلا حياء منهم لكفى••» وقد تبعه في ذلك ابنه الهادي فجلس لها وتبعه الرشيد والمأمون •وآخر من جلس لها هو الخليفة المهتدي الذي استخلف ما بين سنتي (٢٥٥ ـ ٢٥٦/٨٦٩/٨٧٠) •

وسلطة المظالم ، التي كان لها ديوانها المستقل كانت تتناول الطبقات كافة بما فيهم الولاة والقضاة أنفسهم كما تتناول الخلفاء وقد ذكرت القصص العديدة عن انتصاف بعض المتظلمين من كبار رجال الدولة ومن بعض الخلفاء كالمهدي والرشيد عن طريق المظالم [١] التي كانت نوعاً من صمام الأمان القضائي والاداري في الوقت الذي تشكل فيه السلطة القضائية العليا المنفصلة عن القضاء •

**٢ ـ السياسة المالية**

**أ ـ النظام المالي** : لعله من الضروري قبل عرض هذه السياسة أن نمهد لها بعض الملاحظات المبدئية : وهي تتناول بصورة خاصةالنظام المالي نفسه :

١ ـ ان نظام الضرائب الاسلامي إنما يستند في أساسه إلى تمييز المكلفين تبعاً لجماعتهم الدينية • فعلى المسلمين تكاليف وضرائب (كالصدقة والزكاة والعشر على الأرض) لا تجب على أهل الذمة الذين

---

(١) انظر الماوردي ـ الاحكام السلطانية (طبعة البابي ـ القاهرة ١٩٦٦) ص ٧٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٧

يدفعون بالمقابل الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض • ثم تطور ذلك النظام فأضيفت إليه انـواع شتى مـن الضرائب شملت الجميع كضرائب الأسواق ومكوس التجارة • كمـا تحولت ضريبـة الخراج فارتبطت بالأرض بدلا من ارتباطها بمالكها وبدين هذا المالك أي لم تعد تسقط أو تتغير بإسلامه • والسبب في ذلك أن الأرض اعتبرت المصدر الأساسي للضرائب التي تقيم أود الدولة كما كانت ضرائبها أكثر الموارد المالية انتظاماً وثباتاً •

٢ ـ لم تكن الضرائب الاسلامية ، ومنـذ مطلعها الأول في عهد الفتوح ثم العهد الأموي مجرد إتاوات اجمالية ثابتة الكمية تجبى من الأقطار حسب الاتفاق معها • فان هذه الفكرة التي نشرها المستشرق ولها وزن وحاول آخرون من أمثال بيكر وكايتاني وغروهمان وبل أن يدللوا عليها بالحجج المختلفة وأن يقولوا إن العرب أخـذوا الضرائب البيزنطية والساسانية نفسها وأعطوها الأسماء القديمة ذاتها ولم يكن لديهم فرق بين الجزية والخراج هذه النظرية كلها قد نقضت الآن من واقع أوراق البردي والوثائق المالية التي وجـدت ودرست وبينت أن النظام الضريبي الاسلامي كان مكونـاً من عدد من الأنظمة الضريبية المختلفة باختلاف الاقاليم وتراثها ومعاهدات الصلح معها وأن هذه النظم كانت تحوي ، منذ بدء الدولة أنواعاً عديدة من الضرائب ، التي فرضها العرب وهي ثابتة الأسماء وإن اختلفت كمياتها من إقليم إلى آخر[1] •

(١) فرض العرب مثلا الجزية على الرؤوس في مصر ولم تكن موجودة فيها في العهد البيزنطي الأخير . وأعادوا فرضها في عهد عبـد الملك على الجزيرة بعد أن قاموا بإحصاء دقيق فيها أما في المناطق الساسانية فكانت موجودة من قبل . وحددوا العشر على الأرض التي ألت للعرب الفاتحين وجعلوا الخراج على الأرض الباقية لأصحابها وهو مـا لـم يكن معروفاً قبلهـم .

فيما عدا بعض المناطق على أطراف الدولـة التي احتفظت باستقلالها الذاتي وبحكامها الاصليين وقبل منها العرب مبلغـاً سنوياً معيناً حددته معاهدات الصلح •

٣ ــ وقد ثبت ، بجانب هذا أيضاً أنه كان لدى الدولة الاسلامية، منذ عهد الراشدين جهاز ضريبي بيروقراطي تكامل في العهد الأموي ثم ورثه العباسيون فزادوه دقة وكانت له خطة عمل دقيقة منظمة وسجلات ودفاتر وجرائد وإيصالات عند الدفع بقي لنا منهـا الكثير على أوراق البردي في مصر وعلى قطع الفخار • كما كان هذا الجهاز مرتبطاً بمركزية شديدة مع العاصمـة (دمشق ثم بغـداد) التي تشرف على كل صغيرة وكبيرة في أمور الضرائب • وقد برز في التدقيق بذلك في العهد الأموي عبد الملك ثم ابنه هشام[١] كما عمل عليه أيام العباسيين المنصور خاصة ثم يحيى البرمكي للهادي ثم للرشيد •

وقد استخدم الخلفاء في هذا الجهاز الضريبي وفي مختلف العهود أولئك العمال المحليين الذي كانوا يعملون من قبل لـدى البيزنطيين والساسانيين ولكن تحت الاشراف المباشر للعمال المسلمين الذين يرسلهم الخليفة نفسه أحياناً مع الوالي •

٤ ــ تمتعت بعض المدن بميزات خاصة (كالقدس والحيرة)وكانت مبالغ الجزية تختلف بين سكان المدن والريف كما كانت ضريبة الخراج تختلف بين الريف القريب من المدينة والريف البعيد عنهـا • وكانت الضريبة في المدن نقدية وفي الريف نقدية وعينية أو عينيـة فقط • ولم تكن الجزية والخراج هي الضرائب الوحيدة فالذي يبدو من الأوراق البردية في مصر أنه كان ثمة بجانبها ضريبـة قمح • وضريبـة لنفقات

---

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٢٠٣ (٢/١٧٣٢ ــ ٣٣)

الموظفين المحليين وثالثة لتغطية نفقات الاعباء الرسمية للدولة من ضيافة وكسوة • وقد كانت تقديرات الضرائب على أي حال تسجل في قوائم (أو جرائد أو سجلات) وترسل الى عاصمة الاقليم لتدقيقها قبل فرضها وجبايتها • وكان ثمة باستمرار سواء في السواد أو في مصر • وفي الشام أو الجزيرة أو خراسان آبقون من الفلاحين أهل الريف خاصة (ويسمون أحياناً النبط في السواد والشام) يهربون من الضريبة إلى المدن لانهم متى تركوا الأرض لم يعد ثمة من يفرض عليهم تكاليف الضريبة وقد عاني من هذه المشكلة الأمويون والعباسيون الأوائل على السواء •

٥ ـ كانت سجلات الضرائب ، ومدوناتها المختلفة ، تسجل باللغة المحلية والعربية معاً اعتباراً من أيام عبد الملك • والوثائق البردية التي وجدت في مصر ، وجدت مكتوبة باللغة اليونانية وبالقبطية وبالعربية ولكن العربية استأثرت وحدها بالوثائق الرسمية منذ أواخر القرن الثاني الهجري أي منذ ظهور الورق واستعماله الواسع •

٦ ـ إذا حدد عمر بن عبد العزيز أو نصر بن سيار أو غيرهما المصطلحات الضريبية بوضوح حين فرق الأول ما بين الأرض الخراجية والعشرية وفرق الثاني ما بين ضريبة الأرض (الخراج) والرأس (الجزية) فإن السبب في هذا الايضاح لا يرجع إلى غموض مفهومها في الدولة ولكن اختلاف النظام الضريبي حسب الاقاليم المختلفة وهو اختلاف سببه وراثة النظم القديمة السابقة للإسلام من جهة وشروط الصلح من جهة أخرى وشيوع بعض المصطلحات في منطقة دون أخرى من جهة ثالثة • وقد أثبتت الوثائق البردية والفخارية في مصر أن ضريبة الأرض (الخراج) كانت تسمى بالاسم اليوناني Demosion وكانت مختلفة عن

ضريبة الرأس (الجزية) المسماة : Diagraphon أو Andrismos وقد استعمل عمال الخراج في مصر كلمة Demosions بالجمع (أي الخراجات) للدلالة على مجموع الضرائب المتوجبة كما استعملت أحيانــاً في كتب الأموال والخراج كلمتا : «جزية على أرضهم» أو «خراج على رؤوسهم» بسبب شيوع كلمة خراج في الولايات الاسلامية الشرقيــة حتى صار معنى الكلمة فيها تعني أحياناً الضريبة بشكل عام وشيوع كلمة جزية في الولايات الغربية وخاصة مصر حتى صارت هذه الكلمة علماً على كل الضرائب[1] وقد كتب ابن قيم الجوزية (في القرن الثامن) تعريفاً يكشف ذلك إذ قال : الخراج «هو جزية الأرض كما أن الجزية خراج الرقاب وهما حقان على رقاب الكفار وأرضهم للمسلمين ...»[2]

٧ ــ كان الخراج مبالغ وعروضاً عينية يحددها الانتاج أما الجزية فكانت مبلغاً محدداً وعلى الرجال فقط ولا تضرب على النساء والرهبان ولا الفقراء والعجزة ولا الصبيان إلا من جرت عليهم الموســى ورغم ورود اسماء نساء في ايصالات الضرائب اليونانية أو القبطية أو العربية إلا إن ضريبة الجزية (الرأس) لم تكن ضمن هذه الضرائب أبداً بل لقد وجد نص يقول : «لما نمي الى علمنا أن مينا جعل النساء وريثاته فقد محونا اسماءهن من قوائم الضريبــة»[3] • ولم تكن ضريبــة الجزية

---

(٢) ابن قيم الجوزية ــ احكام أهل الذمة (تحقيق صبحي الصالح ــ حورت بالفارسية إلى هراك او حراك . وقد استعادها العرب من اللغــة الإدارية الدارجة قبلهم .

(٢) ابن قيم الجوزية ــ احكام أهل الذمة ( تحقيق صبحي الصالح ــ دمشق ١٩٦٣) ج ١ ص ١٠٠

(٣) انظر فوزي فهيم جاد الله ــ مقدمــة كتاب الجزيــة والاسلام (الترجمة العربية) ص ١٨ نقلا عن البرديات القبطية .

متساوية الكمية في مختلف الأقاليم ولا في مختلف العهود وكانت تتدرج حسب دخل الفرد فإذا أسلم أعفي منها • وقد ذكر ساويرس ابن المقفع المؤرخ القبطي المصري أن الخليفة العباسي الأول أعلن أن «كل من يصير على دينه (أي دين الخليفة) ويصلي كصلاته يكون بغير جزية ••• فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكر كثير من الاغنياء والفقراء دين المسيح»[١] • وهذا الإجراء الحالي ــ الديني الذي لا شك أنه كان إجراء عاماً في الدولة • كان جواباً سياسياً على تدابير الأمويين المالية التي كانت لا تعفي من أسلم في بعض الاقاليم من الجزية خوفاً على موارد الدولة من النقصان •

٨ ــ وأخيراً فقد استمر العباسيون بصورة عامة سواء في النظام الضريبي أو في جهاز الجباية وطرائقها على الأسس نفسها التي سار عليها الأمويون من قبل فكان للسواد نظام من الضرائب يختلف عن مثيله في الجزيرة أو في خراسان أو في مصر أو الشام • وإن جرى تعديل ضريبي في اقليم فليس يعني ذلك بالضرورة أن ذلك التعديل كان عاماً في أقاليم الدولة بل العكس هو الصحيح بمعنى أنه كان في الغالب محلياً لكل اقليم حسب ظروفه وآلامه ومشاكله وأهواء ولاته •

**ب ــ السياسة المالية العباسية :** كانت الآمال التي أطلقها العباسيون بثورتهم وبوصولهم الى الحكم أعرض وأوسع من أن يتناسوها أو يغضوا الطرف عن تحقيق جانب منها وخاصة ما تعلق منها بالعلاقة المالية ما بين الحكام والمحكومين • وإذا لم يتح الوقت لأبي العباس كي يعني بذلك فإنه كان في الواقع من مهام أخيه المنصور وفي رسالة الصحابة التي كتبها ابن المقفع للمنصور والتي يمكن اعتبارها وثيقة إدارية من

---

(٤) ساويرس ابن المقفع ــ سير الآباء البطاركة (تحقيق vetts : طبعة باريس ١٩٠٧) ص ١٨٩ ــ ١٩٠

وثائق العصر يقول صاحبها في وجوب تنظيم الخراج : «... إن أصول الوظائف (الضرائب) على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم . وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها (ضرائبها) مراراً فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض» وهكذا : «فليس للعمال أمر ينتهون إليه ولا يحاسبون عليه . فسيرة العمال احدى اثنتين : إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيغرم من أعمر ويسلم من أخرب ... فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه في التوظيف (نظام الضرائب) على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للأرض وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال ...[1] وهذا رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأي قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ولم نره من أحد قبله من تخير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم ...»[1] .

والواقع أن مشكلة الخراج وتنظيمه وضبطه كانت من أهم المشاكل التي تواجه المنصور مؤسس هذه الدولة الجديدة بعد اضطراب

---

(١) انظر الرسالة كلها في رسائل البلغاء ـ محمد كرد علي «طبعة البابي الحلبي سنة ١٩١٣» وهذا النص في الصفحة ١٢٩ ـ ١٣٠ وانظرها ايضاً في جمهرة رسائل العرب الذي نشره أحمد زكي صفوت ج ٣ ص٢٥ وما بعدها . (طبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٥٦ ـ ١٩٣٧) وهي منشورة في ضحى الاسلام ج ١ ص ٢١٠ فما بعد) .

الأوضاع الاقتصادية والسياسية وانقلاب الدولة أسرة وأنصاراً ومكاناً.
وكانت المشكلة ذات شقين : جهاز الجباية الخراجية من جهة وضبط كميات مال الخراج من جهة أخرى .

جعل المنصور أولاً ديوان الخراج في مكان قرب قصره في بغداد ثم جعل له سجلات يرجع إليها في تقدير قيمة الخراج ومع أنه كان يختار له أكثر رجاله كفاية إلا إنه أخضعه لإشرافه المباشر حتى «لم يعد للوزارة في عهده رونق ولا قيمة » كما قالوا . وكان نموذجه الأعلى في رجل الخراج العامل الذي «يستقصي ولا يظلم» . وقد أمر عمال الخراج ألا يقبلوا من الدراهم الا الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية [١] كما استحدث كيلا جديداً لجباية الخراج عرف بالقفيز الهاشمي وعني كل العناية بمراقبة عمال الخراج ومحاسبتهم المحاسبة الدقيقة الدائمة . وخلال ذلك أخذ المنصور أيضاً بضبط مبالغ الخراج وأمواله فقد أمر ــ كما يروى الجهشياري ــ بتعديل السواد [٢] وقلد ذلك حماداً التركي كما أرسل سنة ١٤٠ أو سنة ١٤١ عمالا إلى كور الشام ليميزوا أنواع الأراضي ويعدلوا مقدار الضريبة عليها كما أمر بمنع تحويل الاراضي الخراجية إلى عشرية فيها وهكذا عدلت أراضي حمص وبعلبك ثم الغوطة ... [٣]

وكان المنصور كذلك يرعى الأسعار التي غلت في مطالع عهده

---

(١) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٥٧٦
(٢) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ١٣٤
(٣) يروي ذلك ابن عساكر في ترجمة اسماعيل بن عياش الذي كلف بهذا التعديل وقد نقله عنه ابن العديم في ترجمة هذا الرجل (انظر بغية الطلب مخطوط احمد الثالث ج ٣ الورقة ١٣٩ ظهر يقول : «وبعثه ابو جعفر المنصور الى دمشق فعدل ارضها الخراجية» وقد نقل نص ابن عساكر أيضاً فون كريمر وفلها وزن وغيرهم .

كما يتبين من بعض الإشارات في رسالة الصحابة وبعض أخبار الطبري عن خرسان سنة ١٤١ فكان «ولاة البريد في الآفاق كلهـا يكتبون الى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول ... وبما يرد الى بيت المال ... فاذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء منها عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة التي نقلت ذلك عن سعره . فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف إلى ذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله ...»[1] ونجحت سياسة المنصور فإنا نسمع الجهشياري يروي أن قد «رخصت الاسعار في أيام ابي جعفر »[2] ويروي الخطيب البغدادي خبرا عن رجل من عصر المنصور يقول إن الكبش كان بدرهم والحمل بأربعة دوانق والثمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية ارطال بدرهم . والرجل يعمل بالروزجاز في السور كل يوم بخمس حبات !!». « وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم »[3] .

وتنظيم أمر الخراج من جهة مع رعاية الأسعار ورخصها من جهة أخرى إذا أضفنا إليها ما عرف عن حرص المنصور المالي وشدته فيه هو الذي سمح له أن يترك في خزانة الدولة لابنه المهدي ٦٠٠ مليون درهم، وأربعة عسر مليون دينار ( =٢١٠ ملايين درهم )[4]كما سمح له أن يقول لابنه المهدي : إني تركت لك من المال ما لو انقطع عنك الخراج عشر

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٩٦ (٣/٤٣٥)
(٢) الجهشياري ص ١١٧
(٣) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠ و ص ٤٣
(٤) انظر ماري بن سليمان ــ اخبار بطاركة كرسي المشرق (طبع روما ١٨٩٩) ص ٧٠

سنوات لكفالك • على أن هذا المال كله مع وارد الدولة السنوي أيضاً ذهب في السنوات العشر التي قضاها المهدي على العرش • وكان وزيره أبو عبيد الله يشير عليه عبثاً بالاقتصاد فلما وزر له يعقوب بن داوودزين له ما يهوي حتى أشرفت الخزانة على الافلاس • ذلك أن طريقته كانت أن يربط الناس به عن طريق الدرهم والدينار حتى أضحى كما قال المسعودي «محبباً إلى الخاص والعام» •

وقد ذكر بعض مؤرخي النساطرة أن المهدي حين عقد له الأمر «••• ترك خراج سنة على الناس ورد ضياعهم عليهم وعاملهم في أموالهم بخلاف سيرة أبيه» •

ويقول المسعودي «••• وبسط ( المهدي ) يده في الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور ••• سوى ما جباه في أيامه • فلما تفرغت بيوت المال أتى أبو حارثة الهندي خازن بيت أمواله فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ ؟ قال ففرق المهدي عشرين خادماً في جباية الأموال فوردت الأموال بعد أيام قلائل وحينئذ قال لخازنه : كنت تظن أن الأموال لاتأتينا اذا احتجنا إليها ؟ فقال ابو حارثه إن الحادثة إذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه في استخراج الأموال وحملها ••» [1] •

غير أن رخص الأسعار أدى إلى الظلم الضرائبي القاسي لأن ثبات قيمة الضريبة مع الرخص كان يستهلك القسم الأكبر من انتاج الأرض ولهذا عمد المهدي إلى إصلاح ضرائبي جذري ألغى فيه نظام المساحة والضريبة الثابتة النقدية الذي كان متبعاً منذ عهد الفتوح بل منذ العهد الساساني في السواد واستبدل به نظام المقاسمة • على الانتاج والضريبة

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ١٧٧ و ص ١٧٥

النسبية العينية ويبدو أن الناس سألوا المنصــور في آخر خلافته ذلك فأجابهم ثم لم يتح لــه تطبيق هذا النظام في عهد المهدي [1] ولعل ذلك كان حوالي سنة ١٦٠ فصار يؤخذ كما يقول الماوردي «... النصف على الأراضـــي التي تسقى سيحاً . والثلث على الأراضي التي تسقى بالدوالي (النواعير على الدواب) والربع على تلك التي تسقى بالدواليب (باليد) ولا شيء عليهم سوى ذلك ...» أي أن الأراضي غير المزروعة معفاة من الضريبة أما الثمار فبقيت على نظام المساحة . مع مراعاة قرب الأرض من الأسواق ولكن هــل طبــق ذلـك على غير السواد في العراق ؟

لقد أيد أبو يوسف قاضي الرشيد في كتاب الخراج نظام المقاسمة بالأدلة الفقهية وهذا لا يعني أن النظام قد عمم على الاقاليم الاسلامية الأخرى بل إن ثمة ما يدل على بقاء نظام المساحة القديــم في كثير من المقاطعات الايرانية وفي بلاد الشام ومصر حيث ظلت كميــات الخراج ثابتة وكان على الفدان في مصر ديناران كل سنة وقد كشف الأزدي في تاريخ الموصل أن يحيى بن خالد البرمكي قد أعاد خراج الموصل الى المساحة : كسر الخراج سنة ١٧٥ وكان يؤخذ العشر من البرية والربع من المرج فاستدعى بعض أهل الموصل الى بغداد بسبب ذلك فاحتجوا بوجود الخوارج فدعاهم إلى فرض ضريبــة ثابته فرفضوا [2] ولكن

---

(١) ذكر الماوردي (الاحكام السلطانية ص ١٦٨) أن المنصور هوالذي بدل إلى نظام المقاسمة بينما يعزو ابن الطقطقي (ص ١٦٤) ذلك الى المهدي ويبدو ان البلاذري كان ادق من الاثنين (في فتــوح البلدان ص٣٣٣) حين أوضح انها طلبت من المنصور ونفذها المهدي .

(٢) الأزدي ـ تاريخ الموصل ص ٢٧٦

البرمكي ألزمهم ذلك . وعمل حساب الجريب من البذور والانتاج من الحنطة والشعير وقوم هـذا وذاك : وكان جريب القمح بثلاثين درهماً والشعير بعشرين فألزمهم الربع على أساس المساحة[1] .

**حـ ـ طرق الجباية والانفاق** : ولعل أهم من ذلك أن أساليب الجباية بقيت على حالها القديم منذ العهد الساساني والبيزنطي في مختلف الأقاليم وإذا نقمها الناس على الأمويين فإنها لم تتغير في شيء زمن العباسيين وظلت على ما كانت عليه من أساليب التعذيب والارهاق والسوط . وقد حاول المهدي الاصلاح إذ يذكرون أنه أمر بمنع تعذيب الناس في جباية الخراج و«كتب الى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج» وكانوا «يعذبون بصنوف من العذاب من السباع والزنانير والسنانير»[2] .

على أن هذا الأمر بدوره لم ينفذ فيما يبدو كل التنفيذ فإنا نجد القاضي أبا يوسف يندد ، في عهد الرشيد ببعض عمال الخراج وأنهم «ليسوا بأبرار ولا صالحين ... يأخذون الخراج بالعسف والظلم والتعدي» كما يلزمون أهل الخراج (دافعي الضرائب) برزق العمال (الجباة) وإنزالهم وطعامهم ويأخذون منهم ثمن صحف وقراطيس وأجور الكيالين ومؤونتهم ويقتطعون من الدراهم طائفة » ويقال : «هذا رواجها وصرفها» ويدعون عليهم «بنقيصة فتؤخذ منهم ...» وبجانب هذا الظلم في الاداء المالي كان ثمة ظلم في المعاملة الانسانية «وقد يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنع من الصلاة وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام..»

---

(١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ١٤٢ .

(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٤٢

«ويطلقون لهم الحجارة في الاعناق ...» ولا يبالي المتقبل (أي الضامن والملتزم) هلاكهم «لعله أن يستفضل بعدما يتقبل به فضلا كثيراً ..»[1]

كما أن نظام المقاسمة في السواد لم يسلم في نهاية عهد المهدي من التعديل ويبدو أنه زيد فيه العشر أيضاً فأضحى ٦٠٪ بدلا من ٥٠ بسبب كثرة نفقات الخليفة كما أن المهدي أوجد ضريبة على الأسواق في بغداد وأمر بجبايتها وجعل عليها الأجرة وجعل سعيد الحرشي لذلك فكان أول ما جبيت أسواق بغداد ..»[2] وتدل الاشارات لدى المؤرخين أن هذه الضريبة عممت على ولايات الدولة أو طبقت على الأقل في مصر أيضاً وفي خراسان .

على أن الولاة كانوا في الواقع يتصرفون في أمر خراج الأقاليم وجباية الأسواق وعشر التجارة كما يرون فحين قلد المهدي خالد بن برمك ولاية فارس أناب عنه ابنه يحيى فاتخذ تدبيرين للتخفيف عن الناس إذ «قسط الخراج على أهلها (من جهة) ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلا ...»[3] بينما نجد بالمقابل أن موسى بن صعب الموصلي حين ولي صلاة وخراج مصر سنة ١٦٧ من قبل المهدي «شدد ... في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل (يضمن ويلتزم) به وارتشى في الاحكام وجعل خرجاً على الأسواق وعلى الدواب فكرهه الجند ونابذوه ...[4]» فكانت نتيجة ذلك الثورة

---

(١) انظر كتاب أبي يوسف : كتاب الخراج (المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٥٢) ص ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٩ و ١١١ .
(٢) اليعقوبي ـ ج٢ ص ٣٩٩
(٣) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٥١
(٤) المقريزي ـ الخطط ج١ ص ١٠٣

ومقتله في تلك السنة نفسها ...

وقد ذكر ساويرس ابن المقفع بدوره أن موسى بن مصعب ،عامل الخراج في مصر «ضاعف (سنة ١٦٧) ماكان يؤخذ من الخراج عن كل فدان ثم فرض الخراج على أهل الأسواق وعلى الدواب» فقامت الثورة في غرب الدلتا بشكل عنيف وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

لو يعلم المهدي ماذا الـذي ... يفعـــله مـوسى وأيـوب
بأرض مصر حين حلا بهـا ... لم ينتهم في النصح يعقوب..[1]

ويعقوب هو ابن داوود الوزير . وطبيعة النظام المالي (الموروث بدوره عن الروم والساسانيين) كانت تميل عامة إلى الزيادة الدائمة في أعباء دافعي الضرائب كما كانت تعطي فرصاً استثنائية للعمال الثانويين في ابتزاز الأموال . وهذا ما كان يدفع الكثير من صغار الفلاحين الى الهرب من أرضهم تخلصاً من الاعباء جرى ذلك في السواد وفي الجزيرة وفي مصر حيث تحفظ بعض أوراق البردى اسماء الآبقين . على أنه كان لبعض الملاكين الصغار طرقهم في الهرب من عسف الحياة ، أو في تقليل قيمة الخراج ومن ذلك الإلجاء أي الاحتماء باسم متنفذ كبير أو تسجيل الأرض باسمه . وقد ظهر مثل ذلك منذ العهد الأموي ويظهر أنه زاد في العصر العباسي يروي الجهشياري أن رجلا من الأهواز جـاء الى أبي أيوب المورياني وهو وزير (لدى المنصور) فقال : ان ضيعتي بالأهواز قد حمل علي فيها العمال فإن رأى الوزير أن يعيرني اسمه أجعله عليها وأحمل إليه في كل سنة مائة الف درهم فأعطاه اسمه وحال الحول فأحضر الرجل المال ودخل على أبي أيوب وهو لا يعرفه وأعلمه أنه قـد انتفع

---

(١) انظر ساويـرس ـ سير الاباء البطاركـة ص ١٥٥ و ص ١٦٣ ، والكندي الولاة والقضاة ص ١٢٥

باسمه وأنه قد حمل المال ..[1]» وإذا كان هـذا يعني أن الإلجاء كان عملية مجدية مربحة للطرفين فإنه كان يعني أن اقطاعات المتنفذين لم تكن تدفع الخراج ... وهي دون شك إقطاعات واسعة لا في السواد فحسب ولكن في كل ولاية . وقد كان الالجاء بدوره سبباً في توسع الاقطاعية الكبيرة فيما بعد لأن بعض من كانوا يلجئون الأرضين كانوا يستولون عليهـا .

ويبدو أن الخراج كثيراً ما كان «يكسر» أيضاً أي يتملص أهله من دفعه ولدينا أخبار عن كسره في الموصل زمن الرشيد ، وفي مصر ، وفي السواد . و«كانت العمال إذ ذاك تكتب الى الخلفـاء» مباشرة بذلك باعتبار الخراج ملكاً لبيت مال المسلمين . وكان يجري مـن اجل ذلك انتداب مندوب خاص يرسله الخليفة للاستيفاء وقد يرسلون من أجل ذلك الجيوش والقوات العسكرية . وقد أرسل الرشيد مثلا عمر بن مهران إلى مصر حين كسر الخراج فيها سنة ١٧٦ «فاستوفى جميع مال مصر وانصرف» ويعلق صاحب العيون والحدائق على ذلك بقوله : «ولا يعلم أحد استوفى جميع مال مصر سواه» .

وكان الخراج لا يدفع كله دفعة واحدة عند الاستفتاح (أي بدء السنة الخراجية في النيروز) ولكن يدفع منجماً[2] على (اقساط) نجوم ثلاثة . أو على الأقل هذا ماكان يجري في مصر . وكان الجباة أو الولاة يتقاضونه في بعض الأحيان دفعـة واحدة ممـا يثير الكثير من التظلم والاحتجاج ...

وبالرغم من أن الأساس في الخراج هو الجباية المباشرة لكن يبدو

---

(١) الجهشياري ــ الوزراء ص ١١٨
(٢) انظر العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٢٩٥ و ص ٢٩٦

أن العباسيين اعتمدوا شيئاً فشيئاً نظام التقبل (أي الضمان) في جبايته حتى أصبح التقبل منذ نهاية عصر الرشيد النظام الوحيد السائد • فإذا كان أبو جعفر يكتب سنة ١٤١ الى نوفل بن الفرات عامل خراج مصر أن يعرض علي محمد بن الأشعث ضمان ذلك الخراج فإن ضمنه يشهد عليه ويعود هو الى الخليفة وإلا بقي في عمله فلم يقبل ابن الاشعث[١] فإن أخبار القرن الثالث لا تتحدث فيما يتعلق بالخراج إلا عن الضمان والضامنين • وقد رفع محفوظ بن سليمان إلى الرشيد أن يضمن لـه خراج مصر عن آخره بغير سوط ولا عصا» فولاه الرشيد الخراج[٢] ومع أن القاضي أبا يوسف قد حمل في كتابه على نظام التقبل لما يؤدي إليه من ظلم الفلاحين فإنه بقي النظام السائـد لأنـه أخف مؤونة على الحكومة وأثبت دخلا •• وكان متولي الخراج في كل أقليم يجلس — قبيل موعد جباية الخراج — فيتبارى المتقبلون في المزايدة على الكور عنده صفقة صفقة •••

وإذا فاق الهادي أباه في إنفاق المال فلأن موارد الدولة كانت — على ما يظهر — تسمح بذلك وحين جاء الرشيد لم يدخل على السياسة المالية من جديد سوى أنه فيسنة ١٧٢ «وضع عن أهـل السـواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف •••»[٣] ثم أراد تنظيم الخراج على أساس شرعي اسلامي منظم فسأل قاضية أبا يوسف أن «يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جبايته الخراج والعشور والصدقات والجوالي وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به • وإنما أراد بذلك رفع الظلم

---

(١) المقريزي الخطط ج ١ ص ٣٠٦

(٢) المقريزي ج ١ ص ٣٠٩

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٣٦ (٦٠٧/٣)

عن رعيته والصلاح لأمرهم» كما قال ابو يوسف في مقدمة الكتاب الذي يمكن أن يعتبر وثيقة مالية بجانب كونه وثيقة فقهية هامة • فإنه بين واقع السياسة المالية ونظامها الواجب أي ما هو كائن منها وما يجب أن يكون• وبالرغم من أنه وافق على نظام المقاسمة إلا إنه اقترح تعديله بما ينصف الناس : فبدلا من النصف على الأراضي المسقية سيحاً طلب جعل الضريبة ٢/٥ وعلى المسقية بالدوالي ٣/١٠ بدلا من الثلث وعلى غلال الصيف (ولعلها سقي الدواليب) الربع وعلى الأثمار الثلث[1] •

ولكن هذه المقترحات لم تنفذ فيما يظهر واستمرت الجباية الضريبية على الطريقة القديمة وربما حاول بعض الولاة التخفيف عن المكلفين بإعفائهم من الضريبة المتراكمة عن السنوات السالفة فإن الفضل بن يحيى مثلا حين توجه الى خراسان سنة ١٧٨ «أزال سيرة الجور ••• وأحرق دفاتر البقايا»[2] •

ويذكر البلاذري «أن ضياعاً رفضت في خلافة الرشيد وتركها أهلها فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها فدعا قوماً من مزارعيها واكرتها إلى الرجوع إليها على أن يخفف عنهم من خراجهم ولين معاملتهم فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف وجاء قوم منهم بعد فردت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه فهم أصحاب الردود ••• وبفلسطين فروز ـــ كما يقول ـــ بسجلات من الخلفاء مفردة من خراج العامة وبها التخفيف والردود ••• »[3] •

وخفض البرامكة خراج ثغر قزوين ليتمكن أهله من احتمال

---

(١) انظر كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٥٠

(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٩١

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ١٧١

ما يغرمونه للجهاد والغزو[1] غير أن القاعدة السائدة كانت حتى أواسط عهد الرشيد هي المبالغة في استخراج أموال الخراج ذكـر اليعقوبي أن الرشيد سنة ١٨٤ «أخذ العمال والتناة والدهـاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبلين (الملتزمين) وكان عليهم أموال مجتمعة فولى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم ... فطالبهم بصنوف من العـذاب ...» ولكن الرشيد ــ فيما يذكرون ــ اعتل تلك السنة علـة شديدة أشفى منها فدخل إليه الفضيل بن عياض فرأى الناس يعذبون في الخراج فقال: ارفعوا عنهم فإني سمعت أن رسول الله يقول من عذب الناس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة . فأمر برفع العذاب عن الناس فارتفع العذاب من تلك السنة (سنة ١٨٤) ...»[2]

وربما كانت قصة العذاب ورفعه هذه إنما تتعلق بالسواد في العراق فقط أما حال الأقاليم فكان دون شك مشابهاً في العذاب لا في منعه على الأغلب ولعل مثال مصر من ابرز الأمثلة على ذلك . وإنما عرفناه لأن أخبارها حفظت أكثر من غيرها :

فإنا نجد أن هذا البلد الذي يبلغ خراجه السنوي قرابـة ثلاثة ملايين دينار قد ثار ثلاث مرات في عهد الرشيد . خرج سنة ١٧٨ على اسحق بن سليمان بن علي لأنه «زاد على المزارعين في الخـراج زيادة أجحفت بهم فهزموا جيشه»[3] وإذا بعث الرشيد هرثمـة بن أعين في جيش عظيم فجبى خراج مصر كله فان أهل مصر عادوا فانتقضوا بعد ذلك سنة ١٨٦ إذ «خرجوا على الليث بن الفضل البيوردي لأنـه بعث

(١) أبو يوسف ــ كتاب الخراج ص ٣

(٢) اليعقوبي ج٣ ص ٤١٥

(٣) المقريزي ــ الخطط ج ١ ص ٨٠ و ص ٣٠٩

بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم فانتقصوا من القصبة أصابع[١] وتظلم الناس فلم يضع منهم فحدثت موقعة عنيفة بينه وبينهم ولم يقدر عليهم إذ منعوا الخراج فذهب إلى الرشيد وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف (وهم عرب القيسية واليمانية والدلتا الغربية) إلا بجيش يبعث معه ...» وتعهد محفوظ بن سليم بجباية خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا[٢]» فأرسله . ثم عاد الناس فانتقضوا كرة ثالثة في ولاية الحسين بن جميل سنة ١٩١ وامتنعوا من أداء الخراج فبعث الرشيد إليهم بقوة عسكرية مع يحيى بن معاذ ثم استدرج الوالي زعماء العرب الثائرين فقيدهم وسار بهم الى العراق ...

وهكذا فيما يبدو وصلت جباية الخراج زمن الرشيد حدودها العضوي ولم يبلغ رقم واردات الدولة ـ على ما يظهر ـ في أي عهد من العهود ما بلغه في عهد الرشيد من الارتفاع . وبالرغم من أن الانفاق الواسع دون حساب كان سياسة كل من الرشيد والبرامكة على السواء فإن الدولة في الواقع لم تشك العجز المالي . بسبب ضخامة الموارد التي بلغت اكثر من ٥٣٠ مليون درهم في السنة . ومن أمثلة هذا الانفاق أن يحيى البرمكي انفق في حفر بعض الأنهر عشرين مليون درهم[٣] وفرق في الناس نصف مليون درهم باسم ولده الصغير ابراهيم ووزع ابنه الفضل في خراسان عشرة ملايين درهم . ونال مروان بن أبي حفصة الشاعر في جولة مديح ببغداد سبع مائة ألف درهم[٤] . وبني جعفر بن

---

(١) المصدر نفسه
(٢) المصدر نفسه
(٣) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٧٧
(٤) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٩١

يحيى قصراً فأنفق فيه عشرين مليون درهم وقضي ديناً على عبد الملك ابن صالح بمليون درهم ... وحين نكبهم الرشيد «قبض من سائر أموالهم ثلاثون ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعون ألفاً . الى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم والدقيق والجليل من مواهبهم ...»[1] .

وبالمقابل فإن الرشيد بعد كل ما أنفق ووهب في حياته ترك ثروة هائلة يروي الطبري أنه مات وفي بيت المال «٩٠٠ ألف ألف ونيف»[2] من الدراهم . ولا شك أن عملية الانفاق الواسع قد نجم عنها ازدهار واسع في بغداد والعراق بصورة خاصة . وهو الازدهار الذي جعل «دولة الرشيد ــ على قول ابن الطقطقي ــ من أحسن الدول واكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً» ولكن هذا كله كان دون شك على حساب الجماهير الواسعة الكادحة التي كانت تعمل لتأدية خراج الدولة وتصبه من أنحاء العالم الاسلامي في بغداد وتكدس الثروات في يد الفئة الحاكمة خاصة . ولعل من أمثلة ذلك أن غلة الخيزران ــ ام الهادي والرشيد ــ التي ماتت سنة ١٧٣ كانت مائة ألف ألف وستين ألف (ألف) درهم» . وأن والي البصرة محمد بن سليمان بن علي مات في العام نفسه عن غلة كانت تبلغ «مائة ألف درهم في اليوم» . فلما قبض الرشيد أمواله كانت نيفاً وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ... وبلغت أموال علي بن عيسى التي صودرت بعد حكم دام حوالي عشر سنوات في خراسان : ثمانية ألف ألف درهم . وقد روى أن خزاته حملت على ١٥٠٠ بعير حين أرسلت الى الرشيد وهو بجرجان وكان هذا الوالي نفسه قد قدم بعد سنتين من ولايته على الرشيد ببغداد ومعه من المال

---

(١) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ج ٣ ص ٢٦١
(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٦٤ (٣/٧٦٤)

ـ كما يروي الجهشياري ـ ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير وفيها عشرة آلاف ألف درهم[1] •

وكان الرشيد يقتفي آثار المنصور ويطلب العمل بها إلا في بذل المال فإنه لم ير خليفة قبله أعطى منه للمال[2] وكان الغالب عليه عدم محاسبة الوزراء أو العمال أو القواد • ترك للبرامكة أن يستولوا على مايشاؤون ويتصرفوا كما يحبون بأموال الدولة سبع عشرة سنة ولم يأبه بشكوى خراسان من علي بن عيسى حتى قامت عليه الثورة ويروون أن الرشيد توفي وعنده أربعة آلاف خريطة (كتاب مالي) لم تفض •••

ومقابل هذا كله ، ومقابل هذه الأموال المتجمعة المكدسة نجد ، في بغداد العاصمة ، ارتفاع الأسعار وضيق أسباب المعيشة بالفقراء • وقد سجل ذلك الشعراء • يقول ابو العتاهة :

| | |
|---|---|
| من مبلغ عني الامام | نصائحاً متوالية : |
| اني أرى الأسعار | أسعار الرعية غالية |
| وأرى المكاسب نزرة | وأرى الضرورة فاشية |
| وأرى اليتامى والأرامل | في البيوت الخالية |
| من مصيبات جوع | تمسي وتصبح طاوية |
| يشكون مجهدة بأصوات | ضعاف عالية ! |

ويقول الشاعر الآخر :

بغداد دار لأهل المال طيبة
وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها
كأنني مصحف في بيت زنديق !

---

(١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٢٨
(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٤٧ (٧٤١/٣) •

ويقول ثالث عن بغداد :

تصلح للموسر لا لامرىء
يبيت في فقر وإفـلاس

لوحلها قارون رب الغنى
أصبح في هم ووسواس !

ونجد تجمع أعداد كبيرة من الفقراء والزواقيل والعـراة وباعة الطرق والطرارين والزعار والشطار والعيارين في بغداد ـ وهـم نتاج ذلك التكـدس غير الطبيعي للثروة في أيد قليلة ودليـل على التفاوت الاقتصادي الشديد بين الطبقات وقد ألفوا في فتنة الأمين وحصار بغداد كتلة تصل أحياناً إلى اكثر من مائة ألف يقاتلون بالمقاليع وبدروع من الخوص والخيش وينهبون الدور فإذا أحرق منزل نهبوا خشبه وإنقتل ذو مكانة مسحوا عن الأرض بيته ... إن سوء الوضع المعيشي جعل من هؤلاء ثورة قيد الانفجار باستمرار منذ الآن وخلال القرون التالية . ضد الطبقات المالية الموسرة وخاصة التجار والمتمولين وأصحاب الاقطاع ورجال الطبقة الحاكمة .

**د ـ الموارد العامة للدولة :** وقد حفظ لنا الجهشياري وثيقة هامة جداً عن موارد الدولة في عهد الرشيد أيام وزارة يحيى البرمكي كتبها بعض كتابه بتفصيل جبايات الأقاليم وأقسامها ويتبين منها أن الخراج كان على قسمين : قسم مالي بالدراهم والدنانير وقسم عيني ويدفع على شكل أمتعة وعروض مما يتميز به كل اقليم من الانتاج .فإذا تركنا جانبا

المواد العينية وهي كميات كبيرة بدورها فإن مبالغ الجباية المالية الشتوية كانت حسب القائمة التالية[1] :

| | | |
|---|---|---|
| منطقة السواد | ٠٠٠ ٥٨٠ ٩٥ | درهم عدا الامتعة والمنتجات العينية في المناطق كافة |
| منطقة كسكروكور دجلة | ٠٠٠ ٤٠٠ ٣٢ | درهم |
| منطقة حلوان والأهواز | ٠٠٠ ٨٠٠ ٢٩ | درهم |
| فارس وكرمان ومكران | ٠٠٠ ٦٠٠ ٣١ | درهم |
| السندوما يليها | ٠٠٠ ٥٠٠ ١١ | درهم |
| سجستان | ٠٠٠ ٦٠٠ ٠٤ | درهم |
| خراسان | ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٨ | درهم |
| جرجان وقومس | ٠٠٠ ٥٠٠ ١٣ | درهم |

---

(١) اوجزنا القائمة بجمع مبالغها الى بعض وقد درس محمد ضياء الدين الريس هذه القائمة مع القائمة الاخرى التي أوردها ابن خلدون (ونقلها عنه عدد من الباحثين كالخضري وزيدان وحتي) ونسبها الى عصر المأمون وبين انها هي نفسها قائمة الجهشياري . ثم صحح الأرقام فيها بعد دراسة مستفيضة . وقد اتبعنا في القائمة التي نقدمها تصحيحاته (راجع كتاب الخراج والنظم الإسلامية ـ (طبع القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٦١) ص ٥٠٤ حتى ص ٥٢٠)

اما قائمة الجهشياري الأصلية فهي في كتاب الوزراء والكتاب ما بين ص ٢٨١ فما بعد .

| | |
|---|---|
| طبرستان والرويان ودبناوند | ٠٦ ٣٠٠ ٠٠٠ درهم |
| الـــري | ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم |
| اصفهان وهمذان | ٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم |
| ماه البصرة والكوفة | ٢٠ ٧٠٠ ٠٠٠ درهم |
| شهزور وما يليها | ٠٦ ٧٠٠ ٠٠٠ درهم (هي في الأصل ٢٤ مليون . والتصحيح عن ابن خلدون . |
| الموصل وما يليها | ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم |
| الجزيرة والفرات | ٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم |
| اذربيجـــان | ٠٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم |
| موقان . الكرج . جيلان . أرمينية | ١٣ ٣٠٠٠ ٠٠٠ درهم |
| قنسرين والعواصم | ٤٩٠ ٠٠٠ دينار ذهبي |
| حمص | ٣٢٠ ٠٠٠ دينار ذهبي |
| دمشق | ٤٢٠ ٠٠٠ دينار ذهبي |
| الاردن | ٠٩٦ ٠٠٠ دينار ذهبي |
| فلسطين | ٣٢٠ ٠٠٠ دينار ذهبي |
| مصر (عداتينس ودمياط والاشمونين) | ٢ ٩٢٠ ٠٠٠ دينار ذهبي (هي في الأصل ٩ر١ مليون) . |
| اليمن | ٨٧٠ ٠٠٠ دينار ذهبي |
| الحجـــاز | ٣٠٠ ٠٠٠ دينار ذهبي |
| برقـــة | ١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم |
| افريقيـــة | ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم |

وإذا عرفنا أن سعر الدينار في ذلك الوقت هو ٢٢ درهماً (أو ١٥ درهماً كما يرجح بعض الباحثين) كان مجموع الخراج السنوي :

من الدراهم ٠٠٠ ٧٨٠ ٤٠٤
(عن الدنانير بسعر ٢٢ درهما للدينار) ٠٠٠ ٥٣٢ ١٢٥ (أو ٨٥،٥٩٠٠٠٠
فمجموع خراج الدولة إذن في ——————— درهم بسعر ١٥ )
عصر الرشيد هو بين : ٠٠٠ ٣١٢ ٥٣٠ درهم أو
٤٩٠٣٧٠٠٠٠ درهم

هذا دون حساب اثمان الأمتعة والعروض وفيها الحلل النجرانية والسكر والزبيب وماء الورد والعسل والتمر والفيلة والثياب والقرنفل والبخور والفضة والبراذين والرمان والشمع والعسل والرقيق والبزاة والبغال • وبعضها بأرقام كبيرة فمن زبيب الشام ٣٠٠ ألف رطل ومن عسل همذان ٢٠ ألف رطل ومثل ذلك من الموصل • ومن رمان قومس ٤٠ ألف رمانة ومن ثياب خراسان ٢٧ ألف ثوب ومن ماء الورد في فارس ٣٠ ألف قارورة ومن سفرجلها والرمان ٢٥٠ ألفاً ! وهذه البضائع في مجموعها لا تشكل رقماً هاماً وقد لا تزيد في الثمن عن ١٠ الى ٢٠ مليون درهم ويمكن اعتبارها نوعاً من هدايا الأقاليم ، فرضت عليها ليشارك الحاكم في معرفة انتاج ذلك الاقليم عن قرب •

ويمكن أن نضيف على هذه القائمة بعض الملاحظات :

١ ــ أن الخراج كان يقدر ويدفع بنوعي العملة المعروفين :الدرهم والدينار تبعاً لمنطقتي التعامل الفضي (في المشرق) والذهبي (في الشام ومصر واليمن) في الدولة العباسية لأن الدولة كانت ثنائية المعدن ونظامها النقدي مزدوج • والدرهم وزن من الفضة يعادل ٧/١٠ من وزن الدينار

أي يعادل قرابة ٣ غرامات (بالضبط ٢٫٩٧٥غ) ويقسم الدرهم الى ستة دوانق ويقسم الدائق الى قيراطين • والقيراط الى طسوجين والطسوج الى حبتين والحبة إلى فلسين • والفلس أصغر وحدات النقد •

وأما الدينار ــ فهو وزن من الذهب يسمى مثقالا ويعادل ٤٫٢٥ غراماً ويقسم بدوره إلى ستة دوانق ذهبية كما انه يساوي ٧٢ حبة (وزن حبة الذهب ٠٫٠٥٩ غرام) والدانق الذهبي ١٢ حبة •

ولعلنا نستطيع أن نعرف قيمة هذه النقود الشرائية إذا ذكرنا أن الكبش في أواخر عهد المنصور كان بدرهم وأن الزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن بضعف ثمن الزيت والتمر ستون رطلا بدرهم • ولعلنا نستطيع أن نعرف السوية المعاشية إذا عرفنا مثلا أن أجر الأستاذ من البنائين الذين عملوا حسب رواية الطبري في بناء بغداد كانت قيراطاً في اليوم وأن أجر الروزكاري (أي الفاعل العادي) كان بين الحبتين الى ثلاث حبات[1] وذكر ان المنصور استكثر أن يدفع أجر يوم وبعض اليوم لرئيس البنائين خمسة دراهم يدخل فيها ثمن الآجر والجص الذي استعمله في بناء طاق شبيه بالبيت فما زال ينقصه حتى أعطاه أربعة !

٢ ــ أن قائمة الجهشياري للخراج لا تمثل بالطبع موارد الدولة العباسية كافة • فإذا كانت كلمة خراج تعني بصورة أساسية الضريبة

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٦٥٥ (٣/٣٢٧) ويذكر الخطيب البغدادي الخبر ذاته بشكل مماثل ويقول (ج١ ص ٧٠) إن الأستاذ من الصناع كان يعمل يومه بقيراط إلى خمس حبات والروزجاري يعمل بحبتين الى ثلاث حبات ...» ويقول الطبري في خبر عن عيسى بن المنصور انه وجد في أوراق أبيه أن مبلغ ما انفق على بناء بغداد وجامعها وقصر الذهب والاسواق والفصلان والخنادق وقبابها وأبوابها (٤٫٨٣٣٠٠٠) درهم ومبلغها من الفلوس مليار و ٢٣ الف فلس !

على الأرض الباقية في أيدي أصحابها الأولين ، وكانت كلمة جزية (وهي في الأصل ضريبة الرؤوس أو خراج الرؤوس وتسمى أحياناً الجوالي) تدخل أحياناً كثيرة ضمن مصطلح الخراج لدى الفقهاء وكتاب الدواوين وكانت ضريبتها مندمجة في الغالب معها فهناك عدا ذلك أموال الأعشار وهي تحمل معنيين : وتشمل عشر الأراضي التي كانت في الأصل للعرب المسلمين أو أعطيت لهم عند الفتح كما تعني عشور التجارة التي تجبى في الموانىء وفي مداخل المدن على البضائع التجارية . وإذا كانت هذه الأعشار تدخل بدورها أحياناً ضمن اصطلاح الخراج الواسع فإن هناك إلى هذا وذاك : أموال الصدقات (الزكاة) التي حدد الشرع نسبتها ومصرفها . وهناك أخماس الغنائم (من الأسرى ، والسبي والارضين والأموال والعقارات) وهناك الفيء (من الأرض والعقار الذي يتركه العدو بسبب الفتح) وهناك المستغلات أي ما تدره (الصوافي) أملاك الدولة التي تؤجر للمستغلين وهناك الهدايا السنوية كهدايا النوروز وهناك موارد الركاز والمعادن الخبيئة المستخرجة والمواريث كما أن هناك أخيراً ما تدفعه بعض الدول المجاورة (من الهند . والترك والخزر ومن الروم أيضاً) من أتاوات وجزية سنوية للدولة . وإن كانت هذه الموارد الأخيرة إنما تكثر وتقل أو تنقطع حسب مشاكل الدولة على الحدود وحسب قوتها فإنها كانت موجودة في عصر الرشيد والأمين[1] .

---

(١) روي الطبري ان الناس غزوا في زمن محمد الأمين على أن يرد عليهم الخمس فرد عليهم فاصاب الرجل ستة دنانير (٨ ص ٥٢٤) فإذا كان عدد المقاتلين خمسين الفاً فمبلغ القيمة مليون ونصف مليون دينار في غزوة واحـدة .

٣ ـ يلاحظ في القائمة ذلك الارتفاع الكبير في رقم خراج السواد: إنه يكاد يعدل وحده خمس خراج الدولة كلها • ولا شك أن السبب في ذلك يعود إلى عدد من العوامل :

الأول : توفر الاسباب الكافية لاستغلال الأرض وإحياء مواتها سواء من حيث المال الذي كان ينصب من أنحاء الدولـة على العراق ويغني أهله بعد أن أصبح مركز الخلافة أو من حيث الايدي العاملة من الفلاحة والزراعة إذ توسع الاقطاعيون في استخدام الآلاف المؤلفة من الزنج في العمل الزراعي ••• كالآلات المملوكة ، لا سيما بعد أن هرب الفلاحون (النبـط) من معظمها وتجمعوا في المدن •

الثاني : توسع النشاط التجاري بشكل لم يعرفه تاريخ المنطقة من قبل حتى أضحت طريق العالم وأصبحت البصرة كما يقولون «مشرعة الدنيا» وهذا ما زاد في الثروات بشكل واضح كمـا زاد في استثمارها وفي مردودها الانتاجي •

الثالث : تكاثر السكان في العراق فقد اجتذبت الخلافة واستقطبت بغداد والبصرة والكوفة رجال الدنيا في الفكر والادارة والأدب والعمل والتجارة والقيادة مما جعل الحياة الاقتصادية تبلغ حدهـا الاقصى في النشـــاط •

الرابع : ولا يقل عن غيره من العوامل شأنا هو عنايـة الخلفاء بأعمال الري في السواد • لقد ذكر أبو يوسف ضرورة سهر السلطـان على صيانة السدود وسد البثوق • ولم يكن خلفاء بغداد بعيدين عن تبني هذه السياسة لما يلمسون من آثارهـا المباشرة في ثـروة الدولة والخراج • وقد عمـل المنصور على تنظيـم جداول الري والترع في السواد من مياه الفرات ودجلة ومد قناة دجيل (من مياه دجلة) كما فتح

**قناة أخرى** من كرخايا الذي يأخذ ماءه من الفرات ووصلهما بمدينة بغداد في عقود محكمة من حجر الكلس والآجر . فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ في الشوارع والدروب والارباض ولا ينقطع صيفاً ولا شتاء . وأنفق المهدي بدوره اموالا طائلة في حفر نهر الصلة قرب البصرة . وحفر الرشيد عدداً من الأنهار في العراق منها نهر القاطول ونهر أبي الجيل وأنفق عليه عشرين مليون درهم ...

٤ ـ يكشف رقم القائمة بصورة خاصة مدى ثروة الأرض الزراعية في الدولة ومقدار انتاجها كما يعبر عن قوة أجهزة الجباية ومدى ارتباطها بالسلطة المركزية ومدى سيطرة هذه السلطة عليها . ولعل بالإمكان على أساس أرقام القائمة تكوين فكرة تقديرية عن عدد السكان في ذلك العهد . في كل اقليم تجعل مجموعهم لا يزيد عن ٣٥ إلى ٤٠ مليون نسمة[١] .

٥ ـ يمكن تقدير الدخل العام لمجموعة الشعوب الداخلة في إطار الدولة العباسية بمبلغ لا يقل من الزراعة وحدها عن ضعف مواردالدولة من الخراج أ ي بحوالي ألف مليون درهم باعتبار أن نظام المقاسمة كان يعطي السلطات نصف الانتاج الزراعي وإذا كان ثمة أراض تدفع أقل من ذلك فهناك عمليات التهرب من الخراج وهناك ما يختلسه العمال الجباة فيما بين اخذ الضريبة من المكلف وما بين إيصالها إلى الخزانة المركزية ... ولعلنا نستطيع أن نضيف الى مبلغ الألف مليون درهم

---

(١) هذا الرقم تقديري على اي حال وقد يكون فيه الكثير من الخطأ ولكنه نتيجة حساب معقد ادخلنا فيه عدداً من العوامل المتعلقة بعدد المكلفين وعدد العائلات الوسطى ومقدار النفقة اليومية ونسبة الضريبة إليها وأجر العامل اليومي وغير ذلك .

مقدار نصفها أيضاً لمقابلة الدخل العام في التجارة وفي الأعمال الصناعية والحرفية والتعدينية •

٦ ـ ذكر آدم متز أن الأسرة العادية في عهد الرشيد كان في مكنتها أن تعيش في دخل لايتجاوز ٣٠٠ درهم في السنة • وأن الأسرة التي كان دخلها نحواً من ٧٠٠ دينار في السنة كانت تعتبر أسرة ثرية اقرب إلى الطبقة الممتازة منها الى الوسطى وإذا صح الرقمان فإنهما قد يدلان على مستوى المعيشة الذي استطاع الخلفاء العباسيون تأمينه للرعية ذلك العصر •

**هـ ـ بدء الانهيار المالي :** غير أن هذه القمة في جباية الخراج ومركزيته وانصبابه في بغداد والعراق لم تدم طويلا : وقد عاد الخط البياني للجباية فانحسر بعد عهد الرشيد مباشرة كما أن مركزيته بدورها قد ضعفت باضطراب الولايات وبظهور الولاة المسيطرين في الأقاليم الذين ما لبثوا أن انقطعوا في ولاياتهم مقابل مبلغ مقطوع يؤدونه سنوياً لخزانة الخلافة •

وقد بدأ هذا كله أيام فتنة الأمين والمأمون •

وأول ما كان من الأمر ذهاب المأمون بخراج خراسان والكور التي أضيفت إليها وهو اكثر من أربعين مليون درهم ثم تبارى الأخوان في تألف قلوب الناس بالانفاق في التجهز للحرب • وبينما أمر الأمين للجند يوم خلافته برزق أربعة وعشرين شهراً أعطى المأمون للجند رزق اثني عشر شهراً عدا ما أعطي للناس من المال وخفض خراج خراسان بمقدار الربع • وحين سير الأمين جيشه بقيادة على بن عيسى بن ماهان ضد أخيه أمر له من صلب ماله بثلاثة ملايين درهم وحين انتصر المأمون جعل لوزيره الفضل بن سهل عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم أيضاً ! •••

ثم انخفضت الموارد لدى الأخوين على السواء فبينما : «تفرق ماكان في يد (الأمين) من الأموال» لا سيما مع اسرافه الذي بلغ حد انفاق ثلاثة ملايين درهم في بناء حراقة بنهر دجلة وقل مالـه حتى انه عند حصار بغداد «... أمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم» لينفق منها على «أصحابه وفي نفقاتـه ـ كما يقول الطبري ـ» نجد بالمقابل أن جيش المأمون الحاصر لبغـداد وصل الى الحالة نفسها ولم يبق بيد قائـده طاهـر بن الحسين مال للجند «فضاق به أمره ... ووثب الجند به مطالبين بالأرزاق فأحرقـوا بابي الأنبار والبستان وشهروا السلاح ..» حتى «أقرضه رجـل من بغداد عشرين ألف دينار فأمر طاهر للجند برزق أربعة أشهر فرضوا ...» . صحيح أن المأمون أعطي من جاءه برأس الأمين ألف ألف درهم ولكنه حين جاء بغداد سنة ٢٠٤ لم يكن معه إلا خمسون ألف درهم ![1] على أن بغداد نفسها كانت قد دمرت وخربت أحياؤها وانقطع ذلك السيل من الذهب الذي كان يردها من افريقيا ومصر والشـام واليمن والجزيرة بسبب انقطاع هذه الأقاليم وثوراتها المحلية فلم يعد بعد ذلك قط وإلا في جانب منه ...

وقد بلغ من فقر الخلافة ببغداد أن هذا البلد حين بايع ابراهيم بن المهدي لهذا المنصب مطلع سنة ٢٠٢ لم يجد الخليفة الجديد في خزائنه ما وعد به الجند من أرزاق ستة أشهر فشغبوا عليه فأعطى كل رجل منهم مائتي درهم وكانوا حوالي مائة ألف أو أكثر قليلا فلما نفد المال حول

---

(١) انظر في هذه الاخبـار كلهـا الطبري ج ٨ ص ٤٤٦ (٨٦٩/٣) وص ٤٩٦ (٩٣٤/٣) ص ٤٨٨ (٩٢٥/٣) وص ٥٧٥ (١٠٣٨/٣)

بعضهم على السواد لأخذ قيمة ماله حنطة وشعيراً فخرجوا في قبض ذلك ولم يمروا بشيء إلا انتهبوه ! [1] •

أما أشد ما أصاب النظام الاداري المالي فهو إحراق الدواوين [2] وسجلاتها خلال الفتنة سنة ١٩٧ فإن ذلك مع فتن الأقاليم قد شل الآلة المالية العباسية تمام الشلل • فلم تعاود هذه الآلة عملها إلا حين وصل المأمون بغداد وبدأ تنظيم أمر الخراج من جديد سنة ٢٠٤ «وهي ـ كما قال قدامة بن جعفر ـ الكاتب المعاصر ـ أول سنة يوجد حسابها بالدواوين» •

أراد المأمون أن يتألف قلوب أهل السواد الذين حل بين أظهرهم فأمر في سنة ٢٠٤ نفسها «بمقاسمة أهل السواد على الخمسين وكانوا يقاسمون على النصف» [3] وكان وهو في الطريق الى بغداد سنة ٢٠٣ قد أسقط عن أهل الري ألفي ألف درهم من الوظيفة [4] (الخراج السنوي) واتخذ القفيز الملجم ( وهو عشر مكاكيك ) كيلا مرسلا لأنه على مايبدو أصغر من القفيز الهاشمي الذي كان أمر به المنصور في الكيل الخراجي •

غير أن هذه السياسة المأمونية كانت تتصل بأقطار معينة وبظروف معينة أيضاً لأن نجد بالمقابل أن المأمون حين توطدت خلافته عاد الى السيرة القديمة والى التشدد في جباية الخراج ولدينا من ذلك مثال : أهل قم من بلاد الجبل الذين «استكثروا ما عليهم من الخراج» وكان

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٥٧ (٣/١٠١٦)
(٢) قدامه بن جعفر ـ نبذة من كتاب الخراج (نشر دي غوية ـ ليدن. سنة ١٨٨٩) ص ٢٣٧ وقد صحح الناشر تاريخ الاحراق من سنة ١٨٣ إلى سنة ١٩٧
(٣) الطبري ج ٨ ص ٥٧٦ (٣/١٠٣٩)
(٤) المصدر نفسه ص ٥٦٨ (٣/١٠٣٠)

خراجهم ألفي ألف درهم فأرادوا المأمون أن يخفف عنهم كما خفف عن أهل الري ... فلم يجبهم إلى ماسألوا فامتنعوا من أداء الخراج سنة ٢١٠ فوجه إليهم المأمون جيوشاً فحاربهم «وهدم سورقم وجباها سبعة آلاف ألف درهم بعد أن كانوا يتظلمون منه ألفي ألف درهم»[1] .

والمثال الآخر في مصر : فإن هذا البلد استمر على سيرته في الثورة على الظلم الخراجي التي عرفها في عصر المهدي والرشيد . فقد ثار سنة ٢١٤ على ظلم والي الخراج صالح بن شيرازاد . (نائب أبي اسحق شقيق المأمون وهو المعتصم) الذي ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم وقد هزموا عدداً من الجيوش وقتلوا بعض القواد حتى جاء أبو اسحق بنفسه من بغداد فحاربهم وأسر بعض وجوههم فرحل بها الى العراق..[2] ولكن «أسفل الأرض — كما قال المقريزي — (أي الدلتا) انتقض بأسره : عرب البلاد وقبطها سنة ٢١٦ وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم..»[3] وبالرغم من أن الافشين عاد من برقة فأوقع مع الوالي عيسى بن منصور الرافقي بالثائرين إلا إن المأمون لم يجد مناصاً من زيارة مصر بنفسه فلما لمس الظلم الخراجي أمر بحل لواء عيسى الرافقي الوالي وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد ...» ...

ولكن هذا كله لم يمنع من إخماد الثورة نفسها وتنظيم الخراج

(١) الطبري ج ٨ ص ٦١٤ (٣/١٠٩٢ — ١٠٩٣)
(٢) المقريزي — الخطط ج ١ ص ٨١ و ص ٣١١
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٨١

تنظيماً واسعاً ــ على ما يظهر ــ زادت به مقاديره أيـام المأمون حوالي ٥٠٪ عما كانت عليه زمن الرشيد فإن المقريزي يذكر : أن خراج مصر «بلغ في أيام المأمون على حكم الانصاف في الجباية أربعة آلاف آلاف دينار ومائتي الف وسبعمة وخمسين ألف دينار» بمعدل دينارين عن كل فـدان[١] .

وبرغم هذه السياسة المالية المتشددة فإن مبلغ الخراج العام قد نقص على ما يظهر فإنا نجد مثلا أن السند التي كانت تعطي الدولةقرابة ١٢ مليون درهم في السنة تولاها سنة ٢٠٥ داوود بن يزيد المهلبي على أن يعطي كل سنة ألف ألف درهم فقط ثم عصى وخالف ولم يحمل إلى المأمون شيئاً من الخراج . كما أن الفتن في مصر وفي اليمن وفي الجزيرة وفي الشام وانقطاع المغرب على أيدي الأدارسة وافريقيـة على أيدي الأغالبة انقطاعاً تاماً كان من شأنـه دون شـك أن ينزل بالموارد المالية للدولة نزولا كبيراً . في الوقت الذي لم يكن فيه المأمون بأقل اسرافاً في الانفاق من أبيه وأخيه . كانت نفقاته اليومية في القصر ــ ستة آلاف دينار ــ كما يروي ابن الطقطقي[٢] فيكون في السنة ٢١٦٠٠٠٠ دينار أي اكثر من ٤٧ر٥ مليون درهم . وقصة عرس بوران مشهورة بما كان فيه من بنادق المسك والرقاع بالضياع والعقار والبدر بعشرات ألوف الدنانير وشموع العنبر والحصير المنسوج بالذهب وحصى الياقوت . وبالرغم من أن المأمون في سنواته الأخيرة قد واجه إفلاس الخزانة فإنه ظل على الاسراف يروون أن المأمون حين كان في دمشق «كان قد قل

---

(١) المقريزي الخطط ج ١ ص ٨١ وص ٩٩ وانظر كذلك الكندي ــ الولاة والقضاة ص ١٨٥

(٢) ابن الطقطقي ــ الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٧

المال عنده حتى ضاق» «وكان أمر في يوم واحد لثلاثة نفر بألف ألف وخمس مائة الف دينار . فجمع أصحابه وقال : ... استقرضوا لنا من التجار عشرة آلاف ألف درهم ...» ورفض ما قدمه له رجال الحاشية[1] وشكا قلة المال الى أخيه أبي اسحق (المعتصم) فقال له : يا أمير المؤمنين كأنك بالمال قد وافاك بعد جمعه ... وكان حمل إليه ثلاثون ألف ألف من خراج ما يتولاه له ... فلما ورد عليه ذلك المال». خرج المأمون وأصحابه حتى أصحروا ووقفوا ينظرونه «وقد حليت أباعره وألبست الاحلاس الموشاة والجلال المصبغة وقلدت العهن وجعلت البدر بالحرير الصيني الأحمر والأخضر والأصفر وأبديت رؤوسها ..» فقال المأمون لقاضيه المرافق له : ينصرف اصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين إلى منازلهم وننصرف بهذه الأموال قد ملكناها دونهم ؟ إنا إذن للئام» ثم دعا (المأمون) بكاتبه فقال وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها ولآل فلان بمثلها ... قال راوي الرواية : فوالله إن زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب ثم قال : ادفع الباقي إلى المعلى (قائده) يعطي جندنا ! ...[2].

ويبدو أن المأمون كان يشتري رضى الناس بالمال وقد عبر عن ذلك في الشام نفسه في تلك الفترة إذ تعرض له رجل من أهل الشام يقول: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فقال : اكثرت علي يا أخا أهل الشام والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد[3] ...

---

(١) اليعقوبي مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٩

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧ والطبري ج٨ ص ٦٥٢ ــ ٣ (٣/١١٤٣/٢ ١١٤٤).

(٣) الطبري ج ٨ ص ٦٥٢ (٣/١١٤٢)

على أن هذه السياسةوإن سمحت للمأمون بالوصول إلى الخلافة والاستقرار فيها إلا إن عهده من الوجهة المالية كان عصر خسران مالي متماد وإذا دفعت الدولة غالياً ثمن وصوله إلى الخلافة فقد كلفها المأمون غالياً فيما بعد في محاولاته جمع القلوب حوله . والوجه الآخر للقضية لا يعني أن المال قد توفر لجماهير الناس وبقي لهم ولكن يعني أن أموال الخراج لم تعد تجبى من الآفاق تصب كلها في خزانة مركزية واحدة . بل تفرقت في معظمها على خزائن المتسلطين الذين ظهـروا في الأقاليم المختلفة وكان هذا ، في الواقع بـدء الانفصال والتفكك السياسي في الدولـة .

ولعل فقر الخزينة زاد أيضاً مع كثـرة الحروب ضـد الروم في السنوات الأخيرة من عهد المأمون مما دعا إلى اتخاذ بعض الاجراءات المالية التعسفية سنة ٢١٧ ومن بينها مثلا جباية ضريبة الخراج كلها يوم الاستحقاق (الاستفتاح) .وقد كانت تجبى من قبل على هون خلال السنة. وقد احتج على ذلك أهل الموصل وخرجوا إلى لقـاء المأمون بالرقـة وقالوا : إنهم شرطوا للرشيد أن يؤدوا «خراج سنة في سنة» واستخرج الشرط فلما وجد المأمون صحة ذلك قبله منهم[١] ... ولكن هل كان لدى الأقاليم الأخرى مثل هذا الشرط ؟

ولعل من تلك الإجراءات أيضاً ما أمر بالقيام به في الشام حين وصل دمشق سنة ٢١٦ من «تعديل» الأراضي أي إعادة مساحتها وإعادة فرض ضرائب الخراج عليها وبالرغم من أن مشكلة الأرض الخراجية وظلم ضرائبها والتعسف

---

(١) ابن عساكر ــ تاريخ دمشق (التهذيب) ج ٤ ص ١٠٧ ــ ١٠٨ وابن عساكر يخطىء في تاريخ وصول المأمون الى دمشق فيجعله سنة ٢١٤ والصحيح أنه كان سنة ٢١٦ لأن المأمون غادر بغداد سنة ٢١٥ .

في جمعها كانت بين الأسباب الأساسية في ثورات الشام إلا إن المأمون لم يقصد إلى ذلك بقدر ما قصد إلى ايجاد موارد أخصب للخزانة • وهكذا استقدم أولا بعض رؤساء أهل الجزيرة والموصل والرقة فقدم جماعة من بينهم حرب بن محمد بن علي الموصلي الطائي وسفيان بن عبد الملك الخولاني ولكنهم استعفوه فاجتلب لتعديل الشام مساحي العراق والاهوازوأقام بدمشق تلك السنة حتى أقر التعديل قبل أن يمضي الى مصر •

ولعل من الاجراءات المتأخرة التي تمت أيضاً فيما بعد ، في عهد المتوكل أو بعده بقليل أن الخلافة جعلت الأساس في دفع الخراج الذهب بدل الفضة • أي أنها حسب الدراسة التي نشرها المستشرق كريمر «استخدمت عوضاً عن الأساس الفضي أساساً ذهبياً في القرن التاسع • وبعد أن كانت الضرائب (من خراج وجزية وعشر ومكس ••• الخ) تحصل من الأقاليم الشرقية بالدراهم الفضية (باعتبار أن الدولة ثنائية المعدن) تحول الحساب بالدينار الذهبي • ولم يحل الدرهم محل الدينار (مرة أخرى) إلا بعد ذلك ••»[1] ولهذا معناه الواضح فإن سعر الصرف الذي كان في مطلع العصر العباسي بحوالي ١٢ درهماً لكل دينار وصار في عهد الرشيد ١٥ درهماً للدينار صار في أواخر القرن الثالث ومطلع الرابع ٢٢ درهماً وهذا ما جعل نسبة خراج الدولة في المناطق الفضية (الشرقية) الدافعة بالدرهم يصبح قرابة النصف في القيمة بالنسبة للمناطق الذهبية (الغربية) الدافعة بالدينار ••• وهذا وجه من وجوه زيادة الخراج على الناس ••• وهم لا يشعرون !

وإذا كان الاضطراب المالي هو في العادة من النذر والاسباب الأولى في القلق السياسي لكل نظام حكم فقد عبر هذا الاضطراب عن نفسه وكشف عن نتائجه في عصر المعتصم ومن بعده • •

---

(١) فازيليف ـ العرب والروم ص ١٨

## ٣ ـ المؤسسة العسكرية العباسية (الجيش)

يلاحظ المستشرق غرونباوم أن الحضارة الاسلامية ـ رغم الطابع العسكري للدولة ـ كانت حضارة مدنية • والنماذج الانسانيـة التي اجتذبت معظم طاقة الاسلام الخلاقة لم تكن نماذج عسكريـة ولكن نماذج العالم والأديب والتاجر وكان المدني فيها يتقدم دوماً على الجندي في تركيب الطبقات الاجتماعي • ورغم تولي الجند ـ كطائفة ـ حكم الدولة وظيفة مدنية • والخليفة أو الأمير ليس بقائـد عسكري إلا عند الملمات ...[1] وصواب الملاحظة لا يعني أن الجهاد وعملية الدفاع والنماذج العسكرية الرائعة لم تكن في أركان الحضـارة الاسلامية وفي أساس تكوينها أو أن المؤسسة العسكرية ليست في الدور الحضاري بمنزلة المؤسسات الأخرى •

وإذا تجاوزنا أيام الفتوح والأيام الأموية فإن أساس قيـام دولة بني العباس يعود إلى نجاح هذه الاسرة في تكوين جماعة عسكرية لها وتحمل مع المبادىء الأسرة نفسها إلى العرش • لقد جاءت الى الحكم ومعها قوتها العسكرية الجاهزة المعتمدة على إقليم واسـع غني الموارد كثير السكان أعمى الولاء •

وقد كان الجيش العربي ، منذ العهد الأموي قد باعدت المسافات الجغرافية من جهة والزمانية من جهة أخرى بينه وبين قبائله ودخلت عليه لأساليب في القتال جديدة فقط ولكن كذلك عناصر مقاتلـة جديدة من أبناء البلاد المفتوحة (بربـر • ايرانيين) ومصالح جديدة • وجاءت

---

(١) انظر غرونباوم : حضارة الاسلام (ترجمة عبد العزيز جاويد ـ القاهرة الألف كتاب) ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥

الحركة العباسية فاختارت خراسان ، وأهل خراسان جنداً لهـا فكان نجاحها كافياً لتحويل هذه المنطقة إلـى خزان عسكري استمر يعطي الدولة العباسية قرابة القرن حاجتها الأساسية من الجنـد • كان «أهل خراسان» منذ قيام الدولة على الأقل حتى نجاح المأمـون في دخول بغداد هم المصطلح الذي يعني العمود الفقري للجيش العباسي والقوة العسكرية والسياسية لبني العباس •

ومع ذلـك فإن العباسيين اضطروا ، منذ الأيـام الأولى لتوطيد الحكم وإخماد الثورات الى الاعتماد على جماعات عسكرية أخرى • جندوها لقضيتهم من العرب • وهكذا بدأت الدولة العباسـية ولديها جيشان :

الأول ــ جيش جغرافي الولاء جديد التكوين حققت بـه الثورة ومع أن الكثرة الواضحة فيه كانت في البدء وفي أيام الثورة • عربية إلا إن اسمه كان «خراسانياً» ، وتكوينه كان يزداد يوماً بعد يوم اصطباغاً بالصبغة الايرانية سواء في العدد أو في الولاء • وكان هذا هو الجيش النظامي الوحيد ، والدائم ، والمركزي والمحترف وله الديوان والرواتب• ويتبع هذا الجيش مجموعات من المرتزقة • أو من المطوعة للجهاد من كل جنس •

الثاني ــ جيش قبلي عربي تقليدي التحق بالأول فيما بعد أعداده كبيرة ولكنه كان استمراراً للجيوش الأموية العربيـة التي كانت تقوم بالفتوح وبالحروب عند الحاجة • ولها الأعطيات التقليدية وحصصها من الغنائم وتقودها الارستقراطية العربية ذات الاصل البدوي والمستقرة في الأمصـار •

على أننا لو انتقلنا مرة واحدة إلى نهايـة العصر العباسي الأول

لوجدنا الأمر مختلفاً جداً . فقد كان هناك جيش من خمس فرق .وقد جاء في كلمة للجاحظ كتبها في عهد المعتصم : «إن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام : خراساني وتركي ومولى وعربي وبنوي ..»[1] وفي حديث بين المازيار والأفشين أثناء المقابلة التي جرت لهما أمام المتوكل وهما في أسره سنة ٢٢٥ يقول المازيار إن شقيق الأفشين كتب لهم يحثهم على الثورة قائلا ان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري (أي الجيش الخراساني) ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة (جيش مصر) والأتراك[2] ... وهذا وذاك يعنيان أن تحولات جذرية وخطيرة أصابت المؤسسة العسكرية العباسية ما بين عهد أبي العباس سنة ١٣٢ وعهد المتوكل بعد قرن منه سنة ٢٣٢ ـ ٢٤٧ والخطوط الأساسية لهذه التحولات نجملها في النقاط التالية :

**١ ـ في تكوين الجيش :**

تطور تكوين الجيش خلال العصر العباسي الأول ماراً بثلاثة أطوار: كان قبلياً في كتلته الكبرى أول الأمر ثم تحول لتصبح كتلته العامة من المرتزقة ومحترفي الجندية ثم انتهى بأن أصبحت الكتلة المسيطرة فيه ، في خاتمة الفترة . من المماليك وانا لنلاحظ ذلك من خلال سيرة مختلف الفرق المكونة للجيش :

**الخراسانية :**

الخراسانية : الواقع أن الأسرة العباسية وصلت العراق وأعلنت

---

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٠٩ (٣/١٣١١ ـ ١٣١٢)

(١) رسائل الجاحظ (دار النهضة بيروت) ص ٢١ (في رسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة) .

خلافتها على أكتاف الجيش الخراساني كان قوتها الضاربة الصلبة ، وكان جيشاً مختلط التكوين ، العناصر العربية فيه هي الغالبة ولكنه كان يحوي عناصر ايرانية كثيرة ، وما لبث هذا الجيش بسبب انتصاراته من جهة وحاجة الدولة الناشئة إليه من جهة أخرى وبسبب ولاء قياداته للأسرة الجديدة من جهة ثالثة أن أصبح جيشاً دائماً ، ولما كانت إقامة الأسرة في العراق فقد أضحى هو الجيش المركزي حولها ، ولم تمض فترة من الوقت حتى اضطر الخلفاء الأوائل لتنظيم هذا الجيش : جعلوا له الديوان ، وأجروا عليه الرواتب المنظمة أي تحول الى جيش نظامي مرتزق ، وقد حافظ ابو العباس ثم المنصور والمهدي على وحدة هذا الجيش ، ككتلة عسكرية جغرافية واحدة ، فإنه منذ مطالع تكوينه لم يسجل على الاساس القبلي ولكن على أساس المدن والقرى الخراسانية ، حتى قواده كانوا يحملون في ذيل نسبهم العربي النسبة الجغرافية واسم البلد الذي ينتمون إليه من مروزي . وكرماني . وبلخي . وطوسي ،

وتفكيك الرابطة القبلية فيما بين أفراد هذه المجموعة المحاربة كان إقراراً بأمر واقع هو أن هذه الجماعة العربية قد اصطبغت . مع الاقامة الطويلة . في خراسان بالصبغة الايرانية وتوطنت واتخذت الزوجات والتقاليد الفارسية والولاء للأرض . فعودتها الى العراق كانت غربة أخرى ، وقد استفاد العباسيون من ذلك التفكك القبلي ومن هذه الغربة معاً فربطوا ولاء هذه الجماعة ربطا كاملا بهم فكان الخراسانية كما قال ابن المقفع في وصفهم «جنداً لم يدرك مثلهم في الأسلام .... أهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وكف عن الفساد وذل للولاة فهذا حال لانعلمها توجد عند أحد غيرهم ...»[1] .

---

(١) انظر ابن المقفع رسالة الصحابة (في رسائل البلغاء لمحمد كردعلي ـ طبعة البابي سنة ١٩١٣) ص ١٢١

ونستشف من خلال رسالة الصحابة لابن المقفع أن تنظيم هذه الجماعة وتحويلها الى جيش مركزي محترف دائم مر ببعض المراحل وأنه تم بعد سنة ١٤٠ ــ ١٤٣ كما نستخلص منها ، بعض أحوال الخراسانية في عهدهم الأول ومنها ، أن الخلفاء استخدموا بعضهم في جباية الخراج وأن الكثير من قادتهم لم يكونوا من الأكفياء ولكن ارتباطهم بالدعوة هو الذي رفعهم وأن أرزاقهم لم تكن منظمة المواعيد ولا كان لهم ديوان منظم فكانوا يشتكون • وكانوا جهالاً أو محدودي الثقافة والعلم بالدين مسرفين الاسراف الواسع بسبب كثرة ما تغدقة عليهم الدولة • ولعل ما هو أهم من هذا وذلك أنهم كانوا يناقشون مشكلة الولاء والطاعة أو أن بعضهم على الأقل كان يناقشها ويتساءل : عن المدى الذي يجب أن يقف عنده في طاعة بني العباس ؟ والسبب هو «أن في ذلك القوم أخلاطاً من رأس مفرط غال ، وتابع متحير شاك» فلا مبدأ يجمعهم وولاؤهم معرض للاهتزاز وفيهم من يقول أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق • ومن يقول إن الله جعل ما سوى ذلك من الأمر والتدبير الى الرأي وجعل الرأي الى ولاة الأمر وليس للناس في ذلك الأمر شيء ! فكأن العباسيين كانوا ، في نوع من الدعاية المنظمة ضمن هذه المجموعة العسكرية ، يعملون على تلقينها ضرورة الطاعة الكاملة على أساس ديني ومنطقي •• وقد نصح ابن المقفع للمنصور في أمرهم : [1] بأمور :

أول ما نصح به ضرورة إيجاد «عقيدة» معينة ثابتة تجمع أفكار

---

(١) في النصوص التالية انظر ابن المقفع ــ رسالة الصحابة (المصدر السابق) ص ١٢١ ــ ١٢٤ (وانظر كتاب أبي حلقة عن ابن المقفع ص ١٥٤ ــ ١٦٣ ) •

الجماعة الخراسانية . فإن فيها بلبلة في الرأي قـد يضيع معهـا الولاء العباسي .

«.. ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه والراكب أشد وجلاً. فلو أن أمير المؤمنين كتب أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب أن يعملوا فيه ويكفوا عنه . يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دهماءهم لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً . فإن كثرة المتكلمين من قواد أمير المؤمنين إنما عامة كلامهم فيما يأمره الآمر ويزعم الزاعم ..» .

وينصحه «... لصلاح هذا الجندالا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج فإن ولاية الخراج مفسـدة للمقاتلة لأنهم ... إذا كانوا جلاباً للدراهم والدنانير اجترأوا عليها وإذا وقعوا في الخيانـة صار أمرهم مدخولاً : نصيحتهم وطاعتهم . فإن حيل بينهم وبين (ذلك) أخرجتهم الحمية ... مع أن ولاية الخراج داعية الى ذلـة وحقرية وهوان وإنما المقاتل منزله الكرامة واللطف ..» .

ـ تقدير الأكفيـاء «أن منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم فلو التمسوا واصطنعوا كانوا عدة وقوة وكان صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة» .

ـ تثقيفهـم : «... ومن ذلك تعهد أدبهم في تعلم الكتاب والسنة والأمانة والعصمة وأن يظهر فيهم القصد والتواضع ... حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عمن يكتنزه بخلاً أو ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالاة بالنساء والمراتب ..» .

ـ تنظيـم الرواتب : «ومن ذلك أمر أرزاقهم وأن يوقت لهم أمير المؤمنين وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا لـه . وأن

يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من إقامة دواونيهم وجمل أسمائهم ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه • فينقطع الاستياء والشكوى ••• وإن الكلمة الواحدة تخرج من أحدهم في ذلك أهل أن تستعظم وإن باب ذلك جدير أن يحسم • مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم •••» •

**- مراقبة الجند :** «••• ومن جماع الأمر وقوامه أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف • وأن يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح فإن ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة» •

وعلى أي حال فقد أخذ الجيش الخراساني كامل مظاهر الجيش النظامي خلال عهد المنصور : صار له الديوان والرواتب المحددة الجيدة تدفع في أوقاتها وله القواد المحترفون وله الملابس الخاصة التي وضعها الخليفة كزي للجند مما جعل «الجندية» حرفة ممتازة في خراسان يقبل عليها ابناء العرب والايرانيون على السواء ويقبلون فيها • وزاد في توسع هذه الفرقة ما منحها الخلفاء من نفوذ سياسي في الدولة • فإنهم في الوقت الذي كانوا فيه يعتزون بها ويرهبون بها الأعداء كانوا يصبحون أسرى لها ، ولما قد تريد من الاتجاه السياسي • إن اسم «أهل خراسان» ورضى أهل خراسان وما يقولونه أو ما يكون عليه موقفهم كان الهاجس الأساسي في الأزمات السياسية التي كان يمر بها البيت العباسي كأزمات ولاية العهد • بل إن عم المهدي جاء مرة يحذره مغبة تقديمه الموالي لأن يغضب أهل خراسان ! الذين اتخذوا لأنفسهم عدداً من الاسماء تكشف دالتهم ومكانتهم فهم «الشيعة» وهم «أنصارالدولة» وهم «القواد» و «أهل الدعوة» ••• الخ •

وحين بنيت بغداد أقطع المنصور القطائع فيها ومن حولها لرؤساء الخراسانية من أمثال حميد بن قحطبة الطائي الطوسي وعبد الملك بن يزيد العتكي الجرجاني والفضل بن سليمان الطوسي وعبد الجبار الأزدي ... وحرب بن عبد الله البلخي الراوندي • كما جعل معسكراتهم حول المدينة وكان هذا كافياً كي يتوطن هؤلاء حيث أقاموا فلم يمض كبير وقت حتى خرج منهم «الابناء» الذين ورثوا عنهم الولاء العباسي ، وبغداد ، وحرفة الجندية • وصارت كلمة «الأبناء» منذ عهد الرشيد وما بعده علماً على الجيل الثاني والثالث والرابع من نسل الخراسانية في العراق والذين صاروا بدورهم فرقة من الجيش العباسي• يفخر أحدهم كما ــ قال الجاحظ ــ بقوله : «أنا أصلي خراسان وهو مخرج الدولة ... وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة وفيها بقية رجال الدعوة وأبناء الشيعة وهي خراسانالعراق وبيت الخلافة ..»و«البنوي خراساني وإن نسب الأبناء نسب أبائهم وإن حسن صنيع الآباء هو حسب الأبناء ..»(١) •

على ان خراسان ظلت خلال ذلك ترسل الجنود المرتزقة الىبغداد وإذا انفصل «الأبناء» في فرقة خاصة فإن اسم الفرقة «الخراسانية» و «أهل خراسان» لم يغب من فرق الجيش وكانت الفرقة تتجدد بمن يأتيها من خراسان متوسلين بسابق الولاء والرابطة • وفي إطار هذه الوسيلة استطاع الفضل بن يحيى البرمكي أن يؤسس في خراسان سنة ١٧٩ ــ ١٨٠ أيام الرشيد جيشاً باسم «العباسية» عدته نصف مليون جندي ... وصل منهم بغداد عشرون ألفاً جعلوا حرس الخليفة • وإذا

---

(١) الجاحظ ــ رسائل الجاحظ (طبع دار النهضة الحديثة ــ بيروت) رسالة في مناقب الترك ص ٢٩ وص ٢٣

كان ارتياب الرشيد بأغراض البرامكة وبالهدف من هـذا الجيش قد دفعه الى سحقه عن يد واليه علي بن عيسى بن ماهان فإن «الخراسانية» ظلت أبرز فرق الجيش العباسي النظامي • ولقد لاتكون كلها مؤلفةمن عناصر ايرانية ولقد يكون فيها الكثير من الترك والعرب والديلم ولكنها كانت فرقة معروفة البلاء على جبهة الروم وغيرها • وجرت فيها التقاليد العسكرية وتكاملت فرقة الحرب ، كما خضعت ، عن طريـق الديوان والرواتب المنظمة ، للتنظيم والمراقبة الدقيقة والتدريب العسكري وقد أفرد قدامة بن جعفر في كتابه الخراج مبحثاً خاصاً . ضمن مباحث الجند والادارة والخراج . يوضح فيه تفاصيل مراقبة هوية الجنـد وفحص أسلحتهم ودوابهم وعتادهم •••

وقد ترك لنا الجاحظ صورة طريفة للهيئة التي كان عليهـا الجند الخراساني في عهده و «بالأجسام والمناكب العظـام والجباه العراض والسواعد الطوال ••• واللحى والشوارب المفتربـة • والتجافيف • والأعداد المعففة •والقلانس الشاشية•والخيون الشهرية •والكافركوبات (عصا الكفار) • والطبرزينات في الأكف • والخناجـر في الأرساط • وحسن الجلسة على الخيل •••»[1] •

بهذا كله كانت الفرقة الخراسانية فرقة مميزة في الجيش وإذا كان الكثير من هذا التميز قد زايلها مابين نهاية عهد الرشيد والمأمون • غير انها استطاعت أن تجدد نفوذها وشبابها في المسيرة الثانية من خراسانإلى العراق التي دمرت عرش الأمين وأتت بالمأمون خليفة الى بغداد •وبالرغم من ان بين المسيرة الأولى سنة ١٢٩ ـ ١٣٢ وبين المسيرة الثانيةسنة ١٩٥

---

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦

ـ ١٩٦ حوالي ثلثي القرن إلا إن النتائج كانت لحد ما متشابهة بالنسبة للجيش الخراساني الذي أصابه إثر النجاح الغرور والتخلخل واختلط بعناصر شتى التصقت به مما دعا إلى إعادة تنظيمه • وقد حفظ لنا الجاحظ قصة ذلك التنظيم بعد أن حلل الأحوال التي تردى بها ذلك الجيش فقال : «••• كان حميد بن عبد الحميد عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهيج ••• رفع الى المأمون يذكر أن في الجند دغلا كثيراً ممن دخل فيه بسبب تلك الحروب في أيام الأجناد وهم قوم من غير أهل خراسان ممن تشبه بهم وادعى إليهم من الأعراب والدعاة وممن لا يستحق الديوان • وقوم من أهل خراسان صارت لهم الخواص الشيعة لم يكن لهم من الغناء ما يستحقون به مثلها • وذكر أن بيت المال لا يحمل ذلك • وسأل المأمون أن يوليه تصنيف الجند • ولم يكن مذهب حميد في ذلك التوفير على المأمون ولا الشفقة على بيت مال المسلمين ولكنه تعصب على أبناء أهل خراسان واضطغن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل مع ولده محمد بن أبي خالد وغيرهم • وما كانوا قد انتحوه به من تلك الوقائع والهزائم وما ذهب له من الأموال بذلك السبب • فولاه المأمون التصنيف وأمر للجند برزق شهرين • فولى حميد العطاء والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب • وعرف محمود ما عنى فتحامل على الناس واستعمل فيهم الأحقاد والإحن وخفض الارزاق وأسقط الخواص وبعث في الكور وأنحى على أهل الشرف والبيوتات حسداً لهم ••• فقصد لهم بالمكروه والتعنت فامتنعت طائفة من الناس من التقدم الى العطاء وتركوا اسماءهم • وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان • فسقط بذلك السبب بشر كثير • ثم إن المأمون أمر بنماء اعطياتهم واكتسب محمود بن عبد الكريم المذمة

وصار ملعنة في محال بغداد ومجالسها وطرقها ..»[1] .

غير أنه لا هذا التنظيم ولا معاودة المسيرةقبل ذلك الى بغداد ولا سابق السمعة العسكرية استطاعت كلها إن تعود بالزمان القهقرى وتجعل الخراسانية هي الفرقة العسكرية الأولى لبني العباس . ذلك أن فرقاً أخرى ناشئة قد زاحمتها من جهة وأن منطقة خراسان قد بدأت تأخذ طريقها الذاتي في الاستقلال عن المركز على يد آل طاهر ، من جهة أخرى، وبدأت لهذا السبب تستوعب فائض القوى العسكرية فيها محلياً وفي إنشاء الدول الاقليمية المتتالية التي نشأت في تلك الإصقاع ...

وعلى أي حال فقد جاء العصر العباسي الأول الى نهايتة والفرقة الخراسانية واحدة من فرق الجيش الأساسية . وقد ولدت فرقة أخرى بغدادية . تفرعت عنها هي الأبناء . وكلتا الفرقتين جند نظامي ، مرتزق محترف للجندية . وتابع للمركز في بغداد .

**العرب** برغم أن القوة الضاربة العباسية كانت خراسانية (بالمعنى الجغرافي للكلمة) فإن الثورة العباسية وبالتالي دولة بني العباس لم تنجح وتتوطد إلا بالجيوش العربية ، القبلية التكوين التي التحقت بها . والأحداث الفاصلة التي مكنت للعباسيين في العرش إنما قامت بالدور الحاسم فيها مقاتلة القبائل العربية كان ذلك مثلا في الكوفة والبصرة والموصل ودمشق وغيرها . ويبدو أن الجيش العباسي الأول ظل فترة من الوقت ما بين عهد أبي العباس والسنوات الأولى من عهد أبي جعفر يشكل مجموعة عسكرية واحدة حتى كانت فتنة الروانديةواستبان لأبي جعفر أنه مكشوف الجانب فلا موئل من المدن له ولا الجند بالآلة

---

(١) آثار الجاحظ ص ٦٣ ـ ٦٤ (طبع عمر ابو النصر ـ بيروت) من رسالة في ذم اخلاق الكتاب .

الطيعة في يده • وقد دخل عليه شيخ كبير من المقدمين في بني العباس فقال له ابو جعفر ــ حسب رواية الطبري ــ : أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ قد خفت أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا • فما ترى ؟ قال الشيخ : عندي في هذا رأي ! ومضى فدس غلاما من غلمانه يسأله وهو داخل دار الخلافة بين أصحاب المراتب (من القواد ورجال الدولة) أي الحيين أشرف : اليمن أم مضر ؟ فلما فعل قال الشيخ : مضر لأن منهم رسول الله وفيها كتاب الله وفيها بيت الله ومنها خليفة الله ••• فامتعضت اليمن وآذوا الشيخ فثارت مضر قائلة • أينعل هذا بشيخنا ؟ ونفر الحيان وافترق الجند : فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة وربيعة فرقة ! وقال الشيخ لأبي جعفر : قد فرقت جندك وجعلتهم أحزابا • يخاف كل حزب منهم أن يحدث حدثاً فتضربه بالحزب الاخر • وقد بقيت عليك في التدبير بقية ••• هي أن تعبر بابنك فتنزله في الجانب الاخر قصرا وتحول من جيشك معه قوما فيصير هذا بلدا وهذا بلدا • فإن فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب وإن فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية •••»[1] •

وإذا كانت القصة تكشف عناصر الجيش العباسي الأول فإنها تكشف أنه في كتلته الكبرى كان عربيا . ومن مختلف القبائل وأنه بعد فترات الحماسة الأولى التي دمجته بعضه مع بعض قد عاد بسرعة الى تكوينه القبلي المألوف في العهد الأموي ما عدا الخراسانية الذين كانوا قد تناسوا عصبياتهم القبلية وحولوها عصبية اقليمية • وقد كرر المنصور هذه العملية : فرق تسد حين كسر الحلف القديم القائم بن ربيعة واليمن

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٧ ــ ٣٩ (٣/٣٦٥ ــ ٣٦٧)

بإطلاق يد معن بن زائدة الشيباني (القيسي) في أهل اليمن وهو وال عليهم • فإن المجازر التي قام بها هناك أجاب عليها عقبة بن سلم الهنائي (اليمني) والى اليمامة والبحرين الذي أخذ الثأر هناك من ربيعة (قبيلة الشيباني) • وارتاح المنصور الى النتيجة التي تمنع قوى الطرفين من أن يكون لهما ولاء غير الولاء العباسي !

وهذا يعني أن قوة الجيش العباسي الأول كانت في معظمها عربية وقد يدل على ذلك أيضاً أن القطائع التي أقطعها أبو جعفر في بغداد للجند كان القسم الأكبر منها لقواد ورجال من العرب •

وهذا يعني أن قوة الجيش العباسي الأول كانت في الأول دوراً محدداً مختلفاً عن دورها في العهد الأموي • لقد اقتصر الخلفاء في استخدامها على جبهات الغزو الخارجي • وكانوا يرسلونها الى جبهة الروم أو أرمينية خاصة . على الطريقة التقليدية للتوطن وحماية الحدود • وقلما كانوا يرسلونها لأعمال الأمن الداخلي مثل إخماد الثورة الخارجية في سجستان مثلا أو حرب الخوارج في الجزيرة • ولما كانت أعمال الفتح محدودة أو معطلة في العهد العباسي فإن هذه الجماعات القبلية أخذت تجد نفسها دون عمل وبالتالي دون عطاء ومغانم فتحولت تدريجيا إلى جنود يتطوعون للعمل مع القواد العرب الذين يعهد إليهم بالتجنيد أو ببعض المهمات العسكرية • وبينما كانت تتضاءل فيهم الروح القبلية كانت فرق التجنيد الارتزاقي تجتذبهم وتسوغهم كمقاتلة في تكوين عسكري جديد : أصبحوا يجندون على أساس أقاليمهم ومدنهم لا قبائلهم • وصرنا نقرأ مثلا لدى الطبري . ومنذ وقت مبكر سنة ١٤١ أو سنة ١٤٣ «أن الجنود من أهل خراسان معسكرون على أذنة مع مسلمة البجلي ومن أهل الشام مع مالك الباهلي • وأن المنصور استدعى

عند ثورة محمد النفس الزكية أربعة آلاف من جند الشام وأن الحسن ابن قحطبة الطائي غزا سنة ١٦٢ بلاد الروم في أهـل خراسـان وأهل الموصل والشام وأمداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز .. الخ ..

ولقد كان بعض القادة من ذوي النفوذ القبلي أمثـال معن بن زائدة الشيباني ويزيد بن مزيد الشيباني ، وعقبة بـن مسلم الهنائي وخازم بن خزيمة التميمي يصطحبون معهم للغزو الخارجي خاصة بعضاً من قبائلهم مع الجيش النظامي وكان هؤلاء الأعراب يعودون بعدالغزو إلى قبائلهم أو يتوطنون على الجبهات الأمامية لكنهم مع ذلك لم يكونوا يعتبرون من القوى العسكرية ولا كانـوا من التـأثير بحيث يعودون بالجيش إلـى التكوين القبلي القديـم . وكانت السلطـات ترضى باستخدامهم لامتصاصهم كقوى فائضة في القبائل ، قابلة للقيام بأي عمل ثوري أو تخريبي ولمعونة الجيش في العدد وفي اعمال التغطية والحركة السريعة .

وهكذا ظهر نظام المقاتلة والأرزاق في العرب بدل نظـام التطوع والعطاء . ولم نعد نسمع فيما بعد عصر الرشيد عن «عطاء» يعطى لغير الهاشميين والعلويين وبعض «الأنصـار» أي للأرستقراطيـة الدينية العربية أما عامة العرب فقد صار لها عند التجنيد «رزق» محـدد كما للخراسانية ... أي أن النظام القبلي القديم قد ألغي من نفسه . ولئن بقيت منه بقية تعمل على الجهـاد في الحـدود فقـد كانت الحكومة تتجاهلهم تجاهلا متزايداً لا سيما وأنها إنما كانت ترسلهم . مع قوادهم للتوطن في عملية أبعاد غير مقصود ! وهكذا أوقف العباسـيون نهائياً نفوذ العرب في الجند . وفي الحرب والغنائم بتحويلهم الى فرقة من جملة الفرق العسكرية .

وقد انتعش نفوذهم بعض الانتعاش أيام فتنة الأخوين الأمين والمأمون وجاءتهم الفرصة لاسترداد النفوذ في الدولة حين جعل الأمين اعتماده على الكتلة العسكرية ـ السياسية العربية مقابل اعتماد أخيه على الكتلة الخراسانية • غير أن هزيمة الأمين كانت بمثابة الضربة الفاصلة • وحين صار المأمون في بغداد كان ذلك يعني أن القوى العسكرية العربية ـ رغم أنها أضحت قوى نظامية ـ لم يعد لها مكان على الأقل في البلاط العباسي •

ويتبين موقف المأمون من هذه القوى في الخبر الذي يروي أن عربياً جاءه في الشام يقول : يا أمير المؤمنين انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان فأجابه إنك ظلمتني وفند له مواقف القبائل العربية المختلفة وتألفه قلوب بعضها بالمال ••• وانصرافها جميعاً عنه ثم طرد الرجل !

والواقع أن القوة العسكرية العربية في عصر المأمون وما بعده ماكانت لتبقى واضحة في الجيش لولا أنها إنما كانت تجمع وتمثل القوى المحاربة الموجودة لدى الكتلة العربية من السكان وهي كتلة تشكل أكثر من نصف الدولة ولهذا فإنا نظل نرى وجودها واضحاً في الأقاليم العربية كالشام ومصر والجزيرة • ولو أن دورها في العاصمة كان الضئيل الضئيل • وقد أنهى المعتصم هذا الدور حين أمر بإسقاط اسماء العرب من الديوان ووقف العطاء عنهم لعدم خضوعهم لنظام التجنيد ووضع بذلك النقطة الأخيرة في النظام الذي كان وضعه عمر والذي كان قد تعطل مفعوله العسكري منذ زمن طويل • ولكنه في الوقت نفسه أوقف رسمياً كل تطوع من أصل عربي في الجيش العباسي • «وإذا لم ينجم عن ذلك القضاء على كل قوة مسلحة عربية فقد نجم عنه الانقطاع بين القوى المركزية العباسية وبين المتطوعين للجهاد على الحدود والذين

يعيشون على الغارات وتتجاهلهم الحكومة تجاهلا متزايداً وهم بالمقابل يتجاهلون وجودها .. وبعد أن كان نفر كبير من العرب يشكلون الجيش الفاتح ... فقد عادوا بعد ذلك الى حال البداوة والبؤس !»[1] .

**الموالي**: ونقصد موالي الخلفاء العباسيين . تلك المجموعة المتعددة العناصر التي جمعها الخلفاء وبنو العباس من حولهم خولا واعوانا وأقاموا معها . لاجتذاب اخلاصها . رابطة «ولاء الاصطناع» . ولو أن بعضها كان من عبيدهم السابقين وبعض من متفرقة الناس من عرب وعجم . ولم يكن لهؤلاء . أول الأمر من دور عسكري أو علاقة بالجيش . وحين يذكر المؤرخون اصطناع الخلفاء (أو المنصور والمهدي بالذات) لمواليهم فإنما كانوا يعنون ما أعطوهم اياه من أعمال إدارية في البلاط أو في الولايات .

غير أن هؤلاء الموالي مالبثوا أن وجدوا طريقهم الى الجيش وصرنا نرى على رؤوس بعض الحملات فلاناً «مولى أمير المؤمنين» يظهر ذلك منذ عهد المهدي . الذي أرسل العباس بن محمد حتى انقره سنة ١٥٩ وعلى مقدمته الحسن الوصيف من الموالي ... ولم يجعل للعباس على الحسن ولايته في عزل أو غيره كما يقول الطبري وأرسل الربيع بن يونس مع ابنه الرشيد سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ في غزوات ناجحة ضد الروم . ويبدو من هذه الأخبار أن اعداد الموالي كانت قد تكاثرت التكاثر الواسع حتى أضحى من الممكن تشكيل فرقة عباسية منها وقد أقيمت تلك الفرقة بالفعل بشكل نظامي وبرز فيها بعض الموالي كقواد ناجحين مثل هرثمة بن أعين وغيره ولعل تكاثر عدد الموالي هو الذي

---

(١) كاهن ــ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ٢٤٠ (الترجمة العربية) .

دفع الخلفاء الى استخدامهم في الجندية • كان العمل العسكري **هو** الوحيد الذي يمكن أن يستوعبه الفائض منهم • ويجند اخلاصهم لمصلحة الدولة والأسرة الحاكمة • واستمرت هذه الفرقة العسكرية قائمة حتى ما بعد العصر العباسي الأول لأنها كانت تغذى باستمرار بأعداد غير منقطعة من «موالي» الخلفاء وعبيدهم السابقين •

**الترك :** دخل الترك الجيش العباسي ، والخلافة العباسية من باب «الموالي» «والولاء» هم بدورهم جزء من الموالي ولكنه جزء تضخم في الناحية العسكرية حتى ابتلع الدولة نفسها •

دخل الأتراك بغداد عبيداً للخلفاء فأصبحوا بالعتق موالي لهم ونجد بدء ظهورهم في قيادات الجيش منذ زمن الرشيد : فأبو سليم فرج الخادم التركي هو الذي بنى طرسوس للرشيد وحصنها ، ومسرور الخادم رافق هرثمة بن اعين الى الروم سنة ١٩١ • وكان ثمة حرس تركي لدى الرشيد كما كان ثمة حرس تركي لدى المأمون • وقد كان يرشح الترك للعمل العسكري في الجيش العباسي عوامل كثيرة منها جمال القامات • والشجاعة الساذجة «وأن التركي يرمي الوحش والطير والناس وقد ملأ فروج دابته مقبلا ومدبراً ويمنة ويسره وصعداً وسفلا ويرمي بعشرة أسهم قبل أن يفوق الخارجي سهماً واحداً ••» والترك «هم علموا الفرسان حمل قوسين وثلاثة قسي من الأوتار على حسب ذلك ••» ولهم «الصبر على الجنب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السرى» وعلى الركوب «ولو حصلت مدة عمر التركي وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته اكثر من جلوسه على الأرض •••» وأخيراً فالتركي «ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ولا على ملك ولا على خراج ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة ولا على حمية ولا على عداوة ولا على

وطن ومنع دار ولا مال وإنما يقاتل على السلب ... والخيار في يده ...»[1] • لقد وضع الجاحظ رسالة من رسائله في مناقب الترك ذكر فيها الكثير من مثل هذا الحديث •

ولم يكن هذا كله بالكافي في الواقع لكي يبرز الترك كقوة كبرى ضمن الجيش العباسي لولا أن ظروف البحث عن عصبية جديدة ليست بالايرانية ولا العربية هي التي دفعت المعتصم لاختيار هذه العصبية العسكرية المتاحة من بين موالي الخلفاء بالإضافة إلى أن الترك هم أرومة أمه وأن بلادهم كثيرة السكان . وقيد الغزو المستمر ومورد أساسي من موارد الرقيق وهكذا نشأت بسرعة ونمت الفرقة التركية التي ما لبثت أن أصبحت دون الفرق الأخرى سيدة الجيش العباسي وأضحى قوادها سادة البلاط والخلفاء معاً • وتجنيد الترك إنما كان يجري عبر عبوديتهم • كانوا يأتون عبيداً ثم يعتقون ليكونوا جنوداً مضموني الولاء للخليفة الذي أعتق رقابهم • فهم في الواقع أول جيش مملوكي في الاسلام •

وإذا بدأ العصر العباسي وكتلة الجيش العباسي عربية ذات تنظيم قبلي تطوعي فقد انتهى وللدولة جيش نظامي دائم محترف مرتزق مركزي والعناصر المسيطرة فيه هي العناصر التركية •

٢ ـ **في عناصر الجيش** : كانت الجندية في مطلع العهد العباسي قد كفت منذ زمن عن أن تكون امتيازاً عربياً • وقد دخل مع العرب في العمل العسكري أعداد كبيرة من الموالي ، مسلمي الشعوب المختلفة • وما ذكرنا في الفقرات السابقة من سيرة الجيش العباسي لم يكشف في

---

(١) رسائل الجاحظ (طبع بيروت ـ دار النهضة) ص ٣٩ • ٤٠ ، ٤٢ (رسالة في مناقب الترك) .

الواقع عن عناصر الجيش العباسي كافة • ولكن عن الكتل الكبرى فيه وعن تطور الجماعات المسيطرة وانتقال النفوذ في الجيش من أيدي العرب إلى أيدي الايرانيين ثم إلى أيدي الترك في مسيرة متصلة نحو الشرق وأعماق آسيا •

كان الجيش العباسي خليطاً دوماً ولكن الخليطة الثلاثية الماضية كانت هي المسيطرة •

وقد غلب كل عنصر منها العناصر الأخرى فترة تعدل ثلث قرن • وخلال ذلك كله كانت ثمة عناصر أخرى تلعب دورها الواسع أو الضيق في المؤسسة العسكرية وتلون الجيش العباسي بألوانها المرقشة وإن لم تتح لها السيطرة فيه •

وإذا حوى جيش الثورة العباسية مجموعة محاربة من العبيد الآبقين أفرد لهم أبو مسلم جانباً خاصاً من معسكره قرب مرو فمنذ زمن مبكر من العهد العباسي أيضا يمر معنا وجود فرقة من الزنج ضمن الجيش الذي ساقه أبو العباس لإخماد ثورة الموصل سنة ١٣٣ وكانت عدتها أربعة آلاف فلما أطلقت يدها في القتل والنهب أوقفت وقتل عدد كبير من أفرادها[١] • كما يمر معنا وجود جماعة من السودان لم يكن حول أبي جعفر غيرهم حين أعلن محمد النفس الزكية ثورته[٢] ويعدون حوالي ١٥٠٠ رجل •

ونلتقط الاشارات العابرة في المصادر فنجد أن مجموعات من مختلف العناصر كانت تعمل في آلة الحرب العباسية • وإذا تجاوزنا العناصر المعروفة من عرب وايرانيين وترك ، قرأنا ، في إحدى القصائد

---

(١) ابو زكريا الازدي ـ تاريخ الموصل ص ١٥٣ •
(٢) الطبري ج ٧ ص ٦٣٩ (٣/٣٠٥)

التي ندبت خط بغداد وتدميرها أيام الفتنة الأخوية بين الأمين والمأمون ورواها الطبري :

أيــن الجراديــة الصقالب والاحبش تعدو هدلا مشافرها
ينصدع الجند عن مواكبها تعدو بها سرباً ضوامرهـا
بالسند والهند والصقالب والنوبة شيبت بها برابرها
طيراً أبابيل أرسلت عبثـاً يقدم سودانها أحامرها ..[1]

وهكذا نجد في جند الخلافة عناصر صقلبيــة (روس) وأحباشاً وهنوداً ومجموعات من السند والنوبة والبربر والســودان ... وكان ثمة أيضاً جماعات من الخزر . وقد أقطعهم المعتصم قطيعة في سامراء حين بناها[2] وهناك كذلك مجموعة المغاربة أي الجنود المرتزقة من مغرب الدولة في مصر . وهم من أهل الحرف[3] ولقد يكونــون في جمهرتهم من العرب ولكن فيهم دون شك عناصر من الاقباط الذين تحولوا إلى الاسلام .

ومن الهام أن نسجل هنا أن هذه العناصر قــد تكون هي نفسها جمهرة «موالي الخلفاء» من العبيد السابقين الذين كانــوا يستخدمون حرساً ورديفاً في القتال . غير أن اسم «موالي الخلفاء» أوسع شمولاً إذ أنه يضم أيضاً مجموعات من الأحرار الايرانيين وغيرهم الذين كانوا يلتصقون ببيت الخلافة . وهذا كله يعني أن الجيش العباسي الذي بدأ

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ (٣/٨٧٥)
(٢) اليعقوبي ج ـ البلدان ص ٣٦٢
(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ٩ وانظر الطبري ج ٩ ص ١٠٩ (٣/١٣١١ ـ ١٣١٢) .

في مطلع الدولة وحيد العنصر تقريباً مع وجود جماعة محدودة من العناصر الايرانية ، تحول في نهاية العصر العباسي الأول جيشاً إسلامياً يضم بين أفراده جماعات من مختلف العناصر المكونة للعالـم الاسلامـي ومن العناصر المحيطة به أيضاً •

**٣ ـ في أعداد الجيش :** بالرغم من فقد كل إحصاء ثابت ومن إمكان الشك في الأرقام التي تقدمها المصادر القديمة عن اعداد الجيـوش فإن الأرقام التي يسكن التقاطها قد تعطي فكرة عن أعداد القوى العسكرية العباسية •

ولقد يكون من المنطقي الشك في الرقم الذي يعطيـه الدينوري لعدد «المسـودة» الذين حملوا رايـة السواد مـن المشرق ووصلوا بها العراق يوم الثورة العباسية • يقول إنهم زهاء مائة ألف رجـل • وهي مبالغة تريد تضخيم دور الخراسانية في الدولة • لكن الأعداد الأخرى أكثر تواضعاً • وهي كثيرة جداً نقتطف منها بعض النماذج :

ـ في مطلع أيام الدولة : حين وصل الخبر بثورة ابراهيم بن عبد الله المحض في البصرة «ماكان في عسكر أبي جعفر كثير أحد ••• ما هم إلا سودان وناس يسير •••» وذلك أنه كان فرق جنده في القتال • يروون أنه قال يومها : «والله ما أدري كيف أصنع ؟ والله مافي عسكري إلا ألفا رجل • فرقت جندي فمع المهدي بالري ثلاثون ألفاً • ومع محمد بن الاشعث بأفريقية أربعون ألفاً والباقون مع عيسى بن موسى (وهم أربعة آلاف) والله لئن سلمت من هـذه لايفارق عسكري ثلاثـون ألفاً •••»[1] •

(١) انظـر الطبري ج ٧ ص ٦٣٧ ـ ٦٣٨ (٣/٣٠٤ ـ ٣٠٥) وانظر أيضاً ج ٧ ص ٥٧٧ و ج ٧ ص ٦٣٩ (٣/٣٠٥)

ـ في أواسط العصر العباسي الأول : تحرك هارون (الرشيد) بأمر أبيه المهدي في حملتين ضد الروم سنة ١٦٣ ثم سنة ١٦٥ كان عدد من حارب معه في الحملة الثانية (الكبرى) التي حشدت لها حشود غير عادية حوالي مائة ألف يروي الطبري أنه كان معه من المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً ٠» وهو رقم ضخم لأن أكبر الحملات قبل ذلك لم تكن تزيد أعدادها عن ثلث هذا العدد كحملة الحسن بن قحطبة سنة ١٦٢ التي كانت «ثلاثين ألف مرتزق سوى المطوعة» ٠

ـ وبعد ذلك في سنة ١٩٠ خرج الرشيد لحرب نقفور امبراطور بيزنطة يقول الطبري : «٠٠٠ وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم» وغزا هرقلة «ودخلها فيما قيل في ١٣٥ ألف مرتزق سوى الاتباع والمطوعة ومن لا ديوان له ٠٠٠» ٠

ـ وفي يوم عمورية سنة ٢٢٣ ، يروون أنه «نودي في الأمصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين» «وسار المعتصم من الثغور الشامية ٠٠ ودخل الناس من سائر الدروب فلم يكن يحصى الناس العدد ولا يضبطون كثرة فمن مكثر ومقلل ٠ فالمكثر يقول خمسمائة ألف والمقلل مائتي ألف ٠٠٠ وتجهز جهازاً لم يتجهز مثله قبله خليفة من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ٠٠٠»[1] ٠

ـ وبعد ذلك بعشر سنوات تقريباً كانت مشكلة أذربيجان وارمينية ويذكرون أن المتوكل وجه زيرك التركي في ٢٠٠ ألف فارس الى تلك البقاع ٠٠٠»[2] ٠٠

(١) الطبري ج ٨
(٢) الطبري ج ٩ ص ١٦٥

- بلغ عدد الجند في عرض عسكري أيام الخليفة المقتدر أمام الرسل البيزنطيين نحو ١٦٠ ألفاً من الفرسان والمشاة ... هذه الأرقام على علاتها تسمح برسم فكرة عن أعداد القوى العسكرية كما تشير إلى أن هذه القوى تضاعفت في العدد مرتين أو نحوهما ما بين مطلع العصر العباسي الأول ونهايته ولم يكن ذلك ناجماً عن ازدياد الأعباء العسكرية على الدولة أو حاجة الفتح الحربي أو ضرورات الدفاع ولكنه في الغالب نتيجة أمور أخرى منها : تزايد سكان الدولة من جهة وتحول الجندية الى مهنة رابحة من جهة أخرى . وسيطرة الجيش على الدولة من جهة ثالثة ويبدو أن التزايد الواسع إنما كان في المجموعتين الخراسانية والتركية خاصة ، ثم في الموالي بينما كان عدد الابناء بالضرورة محدوداً وتقلصت مجموعة العرب لا سيما بعد إسقاط اسمائها من الديوان وحرمانها من التجنيد النظامي . وإذا كانت أعداد الفرق التركية كبيرة وكانت الثقل العسكري الأساسي فإن الجاحظ كتب في عصر المعتصم على لسان الخراسانية يقول : «... ونحن اكثر مادة واكثر عدداً وعدة ولو أن يأجوج ومأجوج كاثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد.. ولو أن خيول الارض ، وفرسان جميع الاطراف جمعوا في حلبة لكنا أكثر في العيون وأهول في الصدور . ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لا يحملها غيرنا علمت أننا لم نخلق إلا لقلب الدول وطاعة الخلفاء وتأييد السلطان ...»[1] .

**٤ - في تنظيم الفرق والقواد وتنظيم الجيش :**

قسم العباسيون الأوائل قواهم العسكرية على أساسين : عنصري واقليمي . وهكذا كانت فرق الجيش زمن المنصور واحدة خراسانية

---

(١) رسائل الجاحظ (طبعة دار النهضة - بيروت) ص ٢٦ (رسالة في مناقب الترك) .

(على أساس الاقليم) وثلاث عربية (على أساس القوم) ولما كانت الكتلة العربية ضخمة فقد انتظم الجنود العرب على أساس انتمائهم القبلي : مضر وربيعة واليمن . وعلى نهج الفرقة الخراسانيـة ظهـر في الجيش العباسي جند أهل الشام . وجند الموصل وجند أهل الكوفة والمغاربة (جند مصر) ... والمثاغرون أي جند الثغور المستقرون فيها تجاه جبهة الروم أو جبهة الترك . وبعض هؤلاء من الجند النظـامي الذيـن لهم الديوان والفروض (الرواتب) وبعض من المتطوعين احتساباً أمـا على الأساس العنصري فوجدت بجانب الفرق العربية (التي أخذت بسرعة في الاضمحلال وفي ترك مكانها القبلي للفرق العربية النظاميـة الاقليمية) فرق عنصرية أخرى منها الترك ، ومنها الأبناء ومنها كذلك الموالي(باعتبار أن الولاء نسب) كما وجدت فرق صغرى أو ثانوية مـن الزنج والخزر والصقالبة وغيرهم ...

ويبدو أن من الضروري الاشارة إلى أن هذه الفرق العنصرية لم تكن خالصة للعنصر الذي تحمل اسمه فكمـا كان في الفرق الخراسانية كثير من الدخيل بل ومن الأعراب كذلك كان في الفرق التركية وغيرها وكانت التسمية للكثرة الغالبة .

وبجانب هذه الفرق وتلك كانت ثمـة مجموعة ثالثـة من الفرق العباسية ولكنها متحولة التكوين باستمرار وتحمل من الاسماء ما ينبيء عن مهامها : وأبرزها المطوعة . وهم عنـاصر شتى من الناس والأجناد الذين ينطوعون للجهاد حسبة لوجه الله سواء للتكفير عن ذنوب سابقة أو تقرباً الى الله . ونجدهم خاصة على مناطق الثغور حيث القتال ضد الكفار كما نجدهم في مثل الحرب ضد بابك الخزمي . وينقل ابن العديم كلمة في هؤلاء تقول : «واكثر هؤلاء المطوعة من أهل الجبل وخراسان.

معهم غلظ الأعجمية وسوء أدب الصوفية ...»[1] لكن فيهم أيضاً الكثير من أهل الشام والعراق والحجاز .

وهناك مجموعة «المرابطة» وهم كالمثاغرين في الثغور ولكنهم يسكنون الرباطات ويعملون في الجهاد . وهناك مجموعات ذات تشكيل عسكري عارض غير دائم : كالطالعة والبعوث . فالطالعة رابطة فصلية تأتي الثغر من المدن الخلفية الاهلة فترابط فيه للدفاع مدة الصيف ثم تعود الى قواعدها الخلفية في الشتاء . وأما البعوث فهي ما يفرض على بعض الامصار تجنيده وإرساله نجدة للثغور المهددة أو تنفيذاً لبعض المهام الكبرى ، وفي الطواريء ، كالذي فرضه المأمون مرة على أجناد الشام من تقديم أربعة آلاف رجل لدعم الجبهة ضد الروم ... ويفرض لهؤلاء المبعوثين فرض في العادة أمر المأمون مثلا أن يجري على الفارس منهم مائة درهم وللراجل أربعون . وفرض ما يشبه ذلك على مصر والجزيرة . وهناك أخيراً الشاكرية (الكلمة الفارسية جاكر = حارس) وهم مجموعات الحرس التي كانت ترافق الأمراء وتتضخم أعدادها أو تتقلص حسب قيمة من ترافق .

وأما **قيادة الجيش** فقد كانت تعتبر دوماً لأمير المؤمنين بحكم كونه «الأمير» فليس ثمة إذن من قائد عام ولكن ثمة قواد للفرق المختلفة . وإذا استثنينا الخليفة الفاطمي العزيز فلسنا نعرف خلفاء في التاريخ الاسلامي كانوا يخرجون بأنفسهم لقيادة الجيوش والقتال والجهاد سوى خلفاء العصر العباسي الأول . خرج بعض أولياء العهود كالذي كان من يزيد ابن معاوية والرشيد في عهد والديهما . أما من الخلفاء فقد تفرد العباسيون

(١) انظر ابن العديم ـ بغية الطلب (مخطوط احمد الثالث) ج ٦ ورقة ١١ ظهر وهو ينقل النص عن ابن زولاق في سيرة خمارويه .

الأوائل بجانب الخروج للحج بالخروج للجهاد ومباشرتـه بأنفسهم • خرج المهدي والرشيد والمأمون والمعتصم على الأقل وكلهم عرفوا جبهة الروم • وحاول الرشيد منهم أن يرأس حملة تأديبية داخلية ولكنه توفى اثناءها في طوس •

أما **قواد الجيش** العباسي فقـد كانت كثرتهـم في مطلع العصر العباسي من العرب وكان منهم زعماء قبليون وقد ظللنا نسمع عن أمثال هؤلاء حتى عهد الرشيد والمأمون (من أمثال معن بن زائدة الشيباني وابن بيهس الكلابي) غير أن هذا النوع القبلي تقلص ثم انقرض مع تقلص وانقراض فرقه وحل محله القائد المحترف ، كالجندي المحترف • وقواد الجيش العباسي في العصر الأول أعداد واسعة نستطيع أن نعـد منها عشرات بعد عشرات • وقد كان بعضهم — كما في الولاة — من آل البيت الحاكم (كعبد الله بن علي • وعيسى بن موسى • وعبد الملك بن صالح) وبعض من الارستقراطية العربية (كالشيباني وقحطبة الطائي) وبعض من موالي الخلفاء (كهرثمة بن أعين) وبعض من الايرانيين (مثـل علي بن عيسى بن ماهان • وطاهر بن الحسين والأفشين) • والكثرة الواضحة منهم في السنوات العشرين الأخيرة مـن العصر كانت من الترك (مثل إيتاخ • زيرك • بغا • اوتامش ، شاهك) • وهؤلاء وأمثالهم هم الذين لعبوا أسوأ الأدوار في انهيار الدولة العباسية •

وقد كان معظم هؤلاء القواد العباسيين لايجد فرقته جاهزة ولكن عليه أن يشكلها بنفسه • تفرض له الفروض (أي الأموال) اللازمة للعدد الذي يحدد له وعليه أن يجند الفرقة ويقودها • ولما كان التجنيد بهذا الشكل شخصياً فقد كان موت القائد في الغالب سبباً في تفرق أصحابه ودخولهم في تشكيلات عسكرية أخرى لقواد آخرين • وكانت صناعة

«القائد» العسكري مربحة • ومع أن حالة الأفشين شاذة فإنهـا تعطينا فكرة عما يتقاضاه القواد مثلا في حالات الحرب فقد كان المعتصم يجزيه في مقامه بإزاء بابك سوى الأرزاق والأنزال والمعاون في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم • ومنحه يوم انتصر عشرين مليون درهم يفرق نصفها في عسكره •••

ويجب أن نضيف الى جماعة القواد عدداً من الأمراء المحليين في ايران وبلاد الترك كانوا يأتون بجنودهم لينضموا الى الجيش العباسي ومن هؤلاء مثلا ملك دنباوند واسمه أبرويـز بن المصمغان الذي كان خالف أخاه والتحق بالمنصور مستأمناً فأكرمه وأجرى عليه رزقـاً فلما كان «يوم الراوندية أتى المنصور فقاتل معه»[1] ومنهم أيضاً ماوند صاحب سجستان • طلب الأمان من معن بن زائدة ••• فبعث به الى بغداد مع خمسة آلاف من مقاتلتهم فأكرمه المنصور وفرض له وقوده •••»[2] ويجري هؤلاء مجرى قواد المجموعات القبلية عند العرب • ونجد منهم في تاريخ الجيش العباسي جماعة : منها بعض أمراء طبرستان ومنها كذلك الأفشين نفسه •

وهكذا تحولت قيادات الجيش العباسي من أيدي العرب بالتدريج لتصبح اسلامية يستطيع أن يصل إليها أي جندي في الجيش لأن المناصب العسكرية العليا كانت مفتوحة أمام الجنسيات كافة !

وأما **تنظيم الجيش** فنشير فيه فقط الى أمرين :

الأول : أن نظـام الكراديس الذي فكك بـه مروان بن محمد التشكيل القبلي للجيش الأموي . كان الأساس الذي بني عليـه تنظيم الجيش العباسي النظامي فيما بعد • وهكذا اندثرت بالتدريـج آخر

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٠٦

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان (ط . المنجد) ص ٤٩٤

مظاهر القوة البدوية في الدولة الاسلامية لتحل محلها أسس التنظيم العسكري الحضري • وإن بقيت ملامح التنظيم الأول حتى أواخر العصر العباسي الأول •

الثاني : أن «العيارين» وهم الجموع الشعبية البروليتارية التي دافعت بجانب الأمين عن بغداد وزادت أعدادها الى عشرات الألوف نظمت نفسها تنظيماً عجيباً • ذكر المسعودي[1] بأنه كان هناك الأمير وتحته عشرة قواد وجنده عشرة آلاف ويليه القائد وتحته عشرة نقباء وجنده ألف ثم النقيب وتحته عشرة عرفاء وجنده مائة ثم العريف أخيراً وتحته عشرة من الجنود تقريباً •

ولنا أن نتصور أن هذا التنظيم لم يكن من ابتكار العيارين وأنه كان تقليداً لما كانوا يعرفون من تنظيم الجيش النظامي • الذي سكتت المصادر عنه ، فليس لدينا حوله سوى بعض الإشارات العابرة وقد نستطيع أن نفترض أنه هو نفسه التنظيم في القوى العسكريةالعباسية أو شيء غير بعيد عنه •

### ٥ ـ من العطاء الى الرزق

••• وتطورت أيضاً العلاقة المالية ما بين الدولة والجند في العصر العباسي الأول • كان معظم الجيش في البدء عربيا قبلياً وهذا يعني أنه كان على نظام العطاء التقليدي • غير أن الخراسانية كانوا ـ على مايبدو ـ مجندين على أساس الرزق أي الرواتب المحددة شهرياً • ويبدو أيضاً أن الخلافة العباسية تأخرت في تنظيم هذا الرزق فهو مضطرب المواعيد وإن كانت في الوقت نفسه تغدق على جندها الخراسانية الكثير • وقد أشار ابن المقفع في رسالة الصحابة الى ضرورة توقيت وقت معروف كل ثلاثة أو أربعة أشهر لقبض أرزاقهم وأن ينظموا في ديوان كما أشار أهم

(١) انظر المسعودي ـ مروج (ط . القاهرة ١٩٤٨) ج ٣ ص ٤١١

من هذا إلى « كثرة المال الذي يخرج لهم » وأنه إذا كان الخرج رائجاً الآن فإنه قد ينقص ومن الحكمة إنقاص الرزق بالنسبة التي ينقصها الخراج • بالإضافة إلى أمر آخر وهو أن يخلي أمير المؤمنين شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً وبعضه علفاً ويعطوه بأعيانه[1] ••• انصافاً لبيت المال •» •

وإذا كنا لا ندري إن كان المنصور قد أنقص الارزاق للخراسانية فعلا أو اتبع النصيحة فأعطاهم بعض الرزق طعاماً وعلفاً ولكن من المؤكد أنه نظم مواعيد الأرزاق ولعله أجرى بعض الفرق القبلية العربية على أساس الرزق أيضاً فقد تضاءلت الأعطيات وانكمش أصحابها خلال العصر العباسي حتى اقتصر العطاء على الهاشميين (من علويين وعباسيين) وانقطع عن عامة العرب وأخيراً أسقط المعتصم اسماء العرب من الديوان فأزال بذلك العطاء رسمياً • أما الرزق للمرتزقة فكان مختلفاً : كان متوسطه للجندي ، في عهد أبي العباس ، ٩٦٠ درهماً في السنة (٨٠درهماً في الشهر) بجانب الأرزاق الأخرى ونصيبه في الغنائم • وكان الفارس ينال ضعف ذلك • ولا ننس أن أبا العباس «زاد في الاعطيات» منذ اليوم الأول لخلافته « وأعلن ذلك في خطبته الأولى » وكسب بذلك لقبه : السفاح •

وقد حافظ المنصور والمهدي على المستوى العالي لأرزاق الجند : الأول لضمان ولاء الجند مع كثرة الثورات والحروب والثاني تألفاً لقلبه وكرماً عليه ثم انخفض رزق الجندي في أواخر عهد الرشيد إلى ٦٠ درهماً فقط (= ٦ أضعاف عامل البناء في بغداد) • ويبدو أن كثرةالجند

(١) ابن المقفع ــ رسالة الصحابة (ضمن رسائل البلغاء لمحمد كرد علي) ص ١٢٤ . (كتاب أبو حلقة : الآدب الصغير ص ١٦٠)

رغبة الأجناس المختلفة في الرفاه الذي يناله الجنود مع رخص الأسعار هي الاسباب في ذلـك التخفيض الذي تكرر مرة أخرى زمن المأمون فأضحى راتب الجندي ٢٠ درهماً فقط في الشهر • وللفارس أربعون • ولعل تدفق الترك بأعداد واسعة وبمستوى منخفض من المعيشـة إلى التجند أثر في هذا التخفيض الثاني لكن السبب الرئيسي إنمـا كان في أرتفاع قيمة الدينار بالنسبة للدرهم فقد كان الجند يتناولون ارزاقهم ذهباً على حساب أن الدينار يساوي عشرة دراهـم غير أن سعر الدينار ارتفع منذ عهد الرشيد حتى المأمون الى ٢٠ و ٢٢ درهماً •

وكانت هذه الأرزاق تزاد للجنود في أيام المحن كما تزاد للمستقرين في جبهات القتال فإن المأمون مثلا فرض على جند الشام أربعـة آلاف رجل سنة ٢١٨ وأمر أن يجري على الفارس منهم مائة درهـم وعلى الراجل أربعون • وحين أسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة أنزلهم بها «على زيادة عشرة دنانير في عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار سوى الجعل الذي تتجاعله القبائل بينها •••» والرشيد حين بنى طرسوس سنة ١٧١ انتدب إليها خمسة آلاف من خراسان والمصيصة وانطاكية «على زيادة عشرة دنانير لكل رجل في أصل عطائـه •••» وتكررت الزيادة نفسها عند بناء أذنـه سـنة ١٩٤ وهكذا ••• ولعل ضخامة هذه الأرقام لا تظهر في الشـكـل الفـردي ولكن في مجموع النفقات : ولعلنا نأخذ فكرة عن ضخامتها إن ذكرنا أن حملة الرشيد على الروم سنة ١٦٥ كلفت الدولة ١٩٥ ألف دينار و ٢١٫٥ مليـون درهم حسب رواية الطبري • وقد وجه المعتصم مع إيتاخ سنة ٢٢٢ الى الأفشين ثلاثين مليون درهم عطاء للجند والنفقات في قتال بابك ! •••

٦ ـ **في طرق القتال وهدفه :** منذ أواخـر العصر الأموي كانت

طريقة القتال العربي البدوي قد تجاوزها العصر ولم تعد كافيةللتجاوب مع الحاجات الجديدة . كانت تكاليفها زهيدة والتفوق التقني فيها يعتمد على سرعة الحركة كما أنها تقوم على الشجاعة الفردية ولا تعرف السلاح الثقيل ولا حرب الحصار ، وتجهل من الناحية التعبوية تنظيم رماة السهام ... بينما كانت أساليب القتال في تلك الفترة (القرن الثاني الهجري) تتطور في اوروبا وقلب آسيا وتظهر فيها الخيالة الثقيلة وكان الخراسانيون والترك ، قد ورثوا عن الجدود البراعة في استخدام الفرسان من رماة السهام ، ولغم المواقع الحصينة وقذفها بالمجانيق واستعمال النفاطات ... وهي أمور تقنية سمحت للخراسانية ثم للترك بالثبات في صلب الجيش العباسي على حساب التكوينات العربيةالبدوية التي انسحبت تدريجياً منه . يضاف إلى هذا أن هذه الأساليب القتالية لا يمكن تلقينها إلا لجيش محترف . كالخراساني والتركي . وهكذا رافق تطور التكوين في الجيش العباسي والتحول إلى الاحتراف والنظامية تطور مماثل في تقنية القتال : أمكن معه لهذا الجيش أن يستعمل قاذفات السهام التي أشار إليها الجاحظ وهي أقل مرونة من القوس لكنها أقوى أثراً (هي كالرشاش بالنسبة للبندقية) ولعلها من ابتكار الترك المحاربين في ما وراء النهر . في تلك الفترات . كما تحسنت لديه وسائل المنجنيق في قذف الأبراج المحصنة ووسائل استخدام النفط[1] ... ونقب الحصون وإحكام الحصار ...

وإذا كان المؤرخ أومان يقول : «كان ثمة أمران يجعلان المشارقة

(١) انظر كاهن ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية (الترجمةالعربية) ص ٢٤٠ ـ ٢٤١

في القرن العاشر (الثالث الهجري) عدواً خطراً (على بيزنطة) : عددهم الكبير وقدرتهم الفائقة على التحرك ..» فإن الامبراطور البزنطي ليو الحكيم (٨٨٦ ــ ٩١٢) كان يتكلم عن تجربة حين قال في الكتاب المنسوب إليه : «بين كل الأمم المتبربرة هؤلاء المشارقة هم أصحاب أحسن الآراء وأحكم الخطط في تحركاتهم الحربية» . ويصف تعبئتهم بأنها على شكل مربع طويل يصعب اختراقه . ومن هنا تستعوا بأعظم مزايا الدفاع في التحرك والقتال ...» ويقول امبراطور آخر هو قسطنطين «لقد كانوا من القوة والميل إلى الحرب بحيث لو أن ألفاً منهم احتلوا موضعاً لأصبح من المستحيل إزاحتهم عنه ..» .

وأما في أهداف القتال العباسي أخيراً فالتطور الهام والأساسي في هذه الناحية هو أن الجيش تحول من جيش للجهاد أولا ثم للأمن في العهد الأموي إلى جيش للأمن أولا ثم للجهاد . وهذا التبدل في الترتيب له أثره الكبير ومعناه . فقد كانت مهمة المؤسسة العسكرية العباسية هي في الدرجة الأولى إبقاء الدولة : داخلياً بخنق الثورات ودعم العرش وخارجياً بحسن الدفاع وحفظ الرقعة الأرضية بعكس ما كان في العهد الأموي فقد كانت مهمة الجند أيامه هي عملية التوسع والانسياح السطحي الجغرافي ثم إقرار الأمن الداخلي وسحق الثورات . وليس من الصعب أن نلاحظ أن أعمال العباسيين العسكرية على الحدود كانت كلها دفاعية حتى عند الهجوم بينما انصرفت طاقات الجيش وجهوده بصورة أساسية لإخماد الثورات وإقرار الأسرة العباسية في الخلافة .

# الفصل الثاني عشر

## المشاكل والحركات السياسية

يمكن أن نقسم المشاكل الداخلية في هذه الفترة، (بين سنة ١٥٨ـــ٢١٨هـ) وملأت الكتب أحيانا بالأخبار وكانت قصصا عن الدماء المراقة والجثث دينية ، على أن نقرر سلفاً أن الحركات السياسية كانت تحمل أحياناً الطابع الديني كما كانت الحركات الدينية تحمل عناصر سياسية واضحة .

ولعل من الضروري جدا قبل بحث هذه الحركات أو تلـــك سواء في هذا الفصل أوفي الفصول السابقة أو اللاحقة أن نلح في ايضاح نقطة جوهرية هامة في هذا الباب كله هي أننا ونحن نبحث الثـــورات والفتن المختلفة لانعتبرها ـــ ولايمكن أن نعتبرها ـــ هي تاريخ هـــذا العصر .

إن هذه الثورات والفتن وإن طغت على السطح السياسي للأحداث وملأت الكتب أحيانا بالأخبار وكانت قصصا عن الدماء المراقة والجثث بالآلاف والرؤوس المقطوعة والاجساد المصلوبة أو التي اهترأت في السجون ليست هي أبدا الصورة الحقيقية والواقعية للتاريخ العباسي وللعصر . لقد كانت بالعكس هي الصورة السلبية له وهي نقـــاط الشذوذ ولحظات الازمات بالنسبة لبعض العقائد أو لبعض الأقـــاليـــم

أو لبعض السياسيين • والمؤرخون حين سجلوها ( وحين نسجلهـا نحن بدورنا بعدهم ) فانما كانوا يشيرون اليها كأحداث غريبة • وأما الجماهير الواسعة التي كانت تعيش حياتها بشكل هادىء رخي • وتبدع الاداب والفنون وتعمل في الصناعات ، وتخدم الحياة ، أو تعمل على بناءصروح الفكر والثقافة والكتب أو تسير قوافل التجارة ومراكبها في البر والبحر هذه الجماهير التي كانت تشكل الكتلة الكبرى والرئيسية من الرعيـة وتعيد بأيديها وجهودها ماتخربه الأعمال السياسية والفتن من بنـاء وأسوار وزرع وشجر وماتقطع من صريق أو تمزق من ارحام أو خبرات أو إنتاج فلم يكن المؤرخون في الواقع يجدون حاجة للحديث عنها • وهكذا فان صورة هذه الفتن والثورات تصدق في تصوير العصـر العباسي ( وغيره أيضاً ) بمقدار ماتصدق أخبار وإحصاءات الجرائـم والسرقات والمظاهرات التي تنشرها الصحف في تصوير حياة المجتمـع الحالي الذي نعيش • ومن الضلال الكبير أن تفهم على أنها أكثر مـن الصورة السلبية المحدودة لواقع ايجابي أوسع منها بكثير وأرحب منها بكثير وأشد منها انشاء وألقاً وجدارة بالعناية والتذكر • ويكفي أن نذكر أنه مقابل هذه الاحداث السوداء كان ثمة حضارة كبرى تبني وتتكـون بايدي الجماهير الاخرى الواسعة التي كانت تشكل الاكثرية العاملة ••

ولعله من المفيد هنا أن نضيف أن كافة الامبراطوريات والممالـك الكبرى في التاريخ عرفت من الاحداث والفتن والثورات مثل ماعرفت الدولة الاسلامية ولعل بعضها عرف أكثر منها بكثير أيضاً وأمثلة التاريخ الروماني والبيزنطي والصيني والساساني . بل وامبراطوريات العصـر الحديث أكثر من أن تحصى عند المقارنة في هذا المجال الخصيب •

## الحركات السياسية :

لايكاد يختلف الموقف السياسي الداخلي كثيراً في فترة الاستقرار، وعصر الرشيد عن الفترة السابقة المنصورية بل ولا عن العهد الاموي : فانا نجد دوماً ـ بجانب أطماع بعض أبناء البيت المالك ـ حركات العلويين ، والخوارج والثورات المحلية الخاصة تظهر لدوافعها المعروفة وتموت بالقوة العباسية • غير انا نلاحظ في هذا العهد ، وهو فترة الاوج في التاريخ الاسلامي انه كان أيضاً مطلع الانهيار وكان يحمل في ذاته أوائل وبذور التجزؤ المقبل •

أصحاب هذه الحركات هم إما عباسيون وعلويون وخوارج من جهة أو ثوار في الأقاليم المختلفة من جهة أخرى وإذا كان الأوائل أصحاب مبادىء ومطامح يثورون من أجلها فانحركات الاقاليم إنماكانت في معظمها ذات جذور اقتصادية خاصة تتعلق بظلم العمال يضاف اليها ـ حسب اختلاف الاقطار ـ بعض العناصر الدينية أو القومية أو القبلية الأخرى •

### ١ ـ الطامعون العباسيون :

بالرغم مما قد يبدو من التناقض بين كلمتي «الاستقرار العباسي» والطامعين من آل العباس فقد عرف الخلفاء العباسيون وهم في فترة الأوج محاولات عباسية للخلاص منهم وتحويل الخلافة من فرع الى آخر أو من شخص الى آخر فيهم وإذا نحن لم نعتبر مشكلة الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون ، من هذا النوع من المشاكل (مع أنها في واقعها منها) فإننا نستطيع أن نعد من هذا الباب محاولات ثلاثاً على الأقل :

أ ـ محاولة عبد الملك بن صالح : فقد غبرت منذ نزاع المنصور وعبد الله بن علي سنوات طويلة تزيد على نصف القرن استطاع أولاد المنصور وأحفاده خلالها أن يحتكروا عرش الخلافة فلا ضامع ينازعهم هذا الحق أو يقض مضجعهم في الأسرة العباسية . وأول مفاجأة في هذا الباب تفاجئنا سنة ١٨٧ عقب نكبة البرامكة إذ يلقي الرشيد في السجن بأبرز شخصية في البيت العباسي كله يومذاك : عبد الملك بن صالح بن علي العباسي وعدد أفراد هذا البيت كان يومذاك ـ حسب الاحصاء الذي تم سنة ٢٠٠ ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأنثى[١] وكان لرجاله جميعاً الرواتب اللازمة كما كان للبارزين منهم مراكزهم من الدولة . وآل صالح بن علي استقروا في حلب وكانت لهم إقطاعاتهم الواسعة فيها ولهم مكانتهم التي استمرت عدة قرون منذ ولي تلك المنطقة صالح بن علي وضرب النقود باسمه فيها[٢] . (١٣٧ ـ ١٥٢ هـ) وبعد أن تولى ابنه الفضل الولاية فترة أعطاها المنصور لغيره حتى إذا جاء الرشيد اعطاها لعبد الملك بن صالح سنة ١٧٥ فترة قصيرة ثم أعاده إليها بعد سنة ١٨٢ سنوات .. ويوصف الرجل بالفصاحة . والنصوص الباقية المنسوبة إليه تجعله في سوية البلغاء البارزين . وعلى أي حال فإن الرشيد ماكاد ينفض يديه من دم جعفر البرمكي ويحبس أهله حتى كشف للناس عن تآمر عبد الملك بن صالح عليه .

ذكروا أن عبد الرحمن بن عبد الملك نفسه وأن كاتبه ومولاه

---

(١) الطبري ج٨ ص٥٤٥ (٣/١٠٠٠)

(٢) ذكر ابن العديم هذه الاسرة اكثر من مرة في موسوعته بغية الطلب المخطوطة كما ذكر في بعض اخبارهم في زبدة الحلب وانظر فيما يتعلق بولاية صالح وضرب النقود ج١ ص ٥٩ فما بعد .

قمامة رفعا للرشيد أن عبد الملك «يؤهل نفسه للخلافة وأنه يراسل رؤساء القبائل والعشائر في الشام والجزيرة» • ويبدو أن هذا الاتهام ـ إن صح ـ متصل بنكبة البرامكة أنفسهم فإن عبد الملك يعلم قبل غيره أن الوصول إلى الخلافة لا يقوم بتأييد أهل الشام والجزيرة وحدهم ولا بد خاصة من تأييد خراساني فهناك سند البيت العباسي • وهذا التأييد إنما كان يملك أمره في ذلك الوقت ـ وعن طريق الصلات مع دهاقين خراسان ـ آل برمك •

وجاء الرشيد بعبد الملك يندد به فأنكر واستعمل بلاغتة فقال الرشيد أتضع لي من لسانك وترفع لي من جنانك ! وجاءه بابنه وكاتبه يشهدان عليه • فلما أصر على الانكار قال الرشيد : أما أمرك فقد وضح ولكني لا أعجل حتى اعلم الذي يرضي الله فيك ! ثم أعاده إليه في مجلس تحقيق آخر أنهاه الرشيد بقوله : أما والله لولا الابقاء على بني هاشم لضربت عنقك • واتهمه بأنه ليس لصالح ولكنه ابن مروان بن محمد الجعدي من احدى جواريه وحقق بشأنه مع يحيى البرمكي السجين أيضاً وأخيراً أرسله الى السجن • والشفاعة الوحيدة التي قبلها فيه أنه أخرجه من سجن المطبق فجعله في سجن الفضل بن الربيع «فلم يزل سجيناً حتى توفي الرشيد • فأطلقه الأمين وعقد له على الشام»[1] بعد أن عاهده عبد الملك أن يجندله الأجناد ويدعمه ضد أخيه المأمون ولكن الموت أعجله سنة ١٩٦ وقد سئل حين أطلق عن التهمة فأنكرها أيضاً وقال : «والله إن الملك لشيء ما نويته •• ولو أردته لكان أسرع الي من السيل الى الحدور • وإني لمأخوذ بما لم أجن ••• ولكنه حين رآني للملك قمنا

---

(١) انظر الطبري ج٨ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٧ ، ٣/٦٨٨ ـ ٦٩٤ ) واليعقوبي ج٢ ص ٤٢٤ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩ .

وللخلافة خطراً ••• ورأى لي يدا تنالها إذا مدت ••• عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها ••• فإن كان (الرشيد) إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي فليس ذلك بذنب فأتوب منه وإن زعم أنه لا صرف لعقابه إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم والحزم •• فلا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا • ولو أردتها لأعجلته عن التفكير ولما كان من الخطاب إلا اليسير ومن بذل المجهود إلا القليل ••» •

ب ـ خلافة ابراهيم بن المهدي : والرجل من ولد المهـدي ومن اخوة الرشيد أمه أم ولد من طبرستان تدعى شكلة • ومع أنه كان أسود شديد السواد ، وبنصف وجهه شامة وسمج المنظر وكانوا يدعونه عنقوداً لهذا السبب إلا إنه كان محبباً إلى الناس وخاصة الفنانين كما كان من المغنين المعروفين •

وقصة خلافته التي دامت سنتين في بغداد • يجب أن تسلكه في عداد خلفاء بني العباس • وما كان ابراهيم ليفكر بالخلافة لولا أن بغداد التي دمرت في الحرب الأخوية بين الأمين والمأمون ظلت على القلق والاضطراب منذ مقتل الأمين سنة ١٩٨ وحين وصلها الحسن بن سهل سنة ١٩٩ والياً على العراق وما وراءه الى أقصى المغرب لم يستطع دخول المدينة بسبب رفضها له بالقوة واستمر الاضطراب حتى تكلم بنو هاشم والقواد فيها وقالوا : نصير بعضنا خليفة ونخلع المأمون ! وفاوضوا أحد أحفاد المنصور (محمد بن صالح) فرفض وأرادوا منصور بن المهدي على الخلافة فخشي مغبة هذه المبادرة وأبى ذلك عليهم فلم يزالوا به حتى صيروه أميراً سنة ٢٠١ ولكن خليفة للمأمون ببغداد والعراق • وقالوا : لا نرضى بالمجوسي بن المجوسي

(الحسن بن سهل) ونطرده حتى يرجع الى خراسان ... اما منصور فقال: أنا خليفة امير المؤمنين حتى يقدم أو يولي من أحب ! .. وأما جند هذه الحركة فكانوا من جماعات الابناء وأهل بغداد والمطوعة والشطارين والعيارين الذين بلغت عدتهم ١٢٥ ألفاً بين فارس وراجل[1] يقودهم محمد بن أبي خالد . وقد قتل في المعارك مع الحسن بن سهل تلك السنة سنة ٢٠١ فخلفة على القيادة ابنه عيسى ...

في تلك الغمرة وصل كتاب من الفضل بن سهل الى أخيه الحسن بانقلاب المأمون الى الاتجاه العلوي وأنه ترك السواد الى الخضرة وأنه جعل ولاية العهد من بعده للامام علي بن موسى الكاظم وسماه الرضى من آل محمد !

وتلقت بغداد أسوأ التلقي هذا الخبر . ومع أن عيسى بن ابي خالد كان قد اتفق مع الحسن بن سهل ووعد أهل بغداد بتعجيل رزق شهر إليهم والباقي متى أدركت الغلة إلا أنهم اختلفوا الاختلاف الكبير بعضهم قبل البيعة وبعضهم رفض وأنكر . وظن بعضهم أنها دسيس من الفضل ابن سهل وأما بنو العباس فغضبوا ــ وكان طبيعياً أن يغضبوا ــ «واجتمع بعضهم الى بعض وتكلموا فيه وقالوا : نولي بعضنا . وكان المتكلم في هذا والمختلف والمتقلد له (الاخوان) ابراهيم ومنصور ابنا المهدي»[2] .

كان ذلك في الأيام الأخيرة من سنة ٢٠١ واتفق العباسيون على

---

(١) الطبري ج٨ ص ٥٥٠ (١٠٠٨/٣) وانظر كذلك اليعقوبي ج٢ ص٤٥٠.
(٢) الطبري ج٨ ص ٥٥٥ .

مبايعة ابراهيم بن المهدي بالخلافة ومن بعده ابن أخيه اسحق بن موسى ابن المهدي . وبايع البغداديون على الفور وخلعوا المأمون في أول المحرم من سنة ٢٠٢ وأخذ الجند أرزاقهم ٢٠٠ درهم لكل رجل !

«وتلقب ابراهيم بالمرضى وصلى بالناس وكتب بالولايات وعقد الألوية . وأطاعه الأبناء (الجند) وأهل الحربية وما والاها إلا من كان في طاعة المأمون»[1] . ثم غلب ابراهيم على الكوفة ولكن جيشه هزم أمام الحسن بن سهل المتحصن في واسط ...

وبلغ الخبر المأمون ، وكان الفضل بن سهل فيما يقولون يكتم عنه الأنباء كلها فاضطرب وقرر المسير الى بغداد يستقر فيها بدلا من مرو المنعزلـة .

ولكن المسيرة طالت كثيراً . بدأت مرحلتها الأولى الى سرخس حيث قتل (في مطالع شعبان سنة ٢٠٢) الفضل بن سهل الوزير .وتحرك الموكب من هذه المدينة يوم عيد الفطر الى طوس حيث مات ولي العهد علي الرضى (صفر سنة ٢٠٣) وكتب المأمون إثر ذلـك الى أهل بغداد يعلمهم موت علي ويسألهم الدخول في طاعته فأجابوه «بأغلظ ما يكتب به الى أحد» وتحرك المأمون بعد ذلك الى جرجان ثم الرى ... بينما كانت جماعته ـــ على ما يبدو ـــ تشتري له الناس في بغداد فقد تآمر عيسى ابن ابي خالد مع قائد جماعة المأمون عند بغداد وأخذ عدد من بني هاشم ومن القواد يتسللون إليه وبعضهم يعرض القبض على ابراهيم الخليفة

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٥١ . ويقول السيوطي ( تاريخ الخلفاء ص٣٠٧) إنه لقب بالمبارك .

نفسه . وأسقط في يد ابراهيم فاختفى (أواخر ذي الحجة سنة ٢٠٣) بعد خلافة دامت سنتين إلا أياماً ...

كان المأمون إذ ذاك في الري فاتجه الى بغداد ودخلها (في صفر سنة ٢٠٤) ! وبعد سبع سنوات ظفر بابراهيم بن المهدي متنكراً في ثياب امرأة فعفا عنه مع أن أصحابه جميعاً أشاروا بقتله[١] ...

**جـ ـ حركة ابن عائشة :**

وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام . ويبدو أن بغداد والعباسيين لم يرضوا بالمأمون حتى بعد مرور سنوات على إقامته ببغداد ولهذا نجد هذا العباسي الاصيل يسعى لاعادة الخلافة الى ابراهيم المهدي . مع فريق من موالي العباسيين وقد وشى بهم أحد الوشاة إلى المأمون ( صفر سنة ٢١٠ ) فوقعوا في قبضته بينما كانوا على وشك تنفيذ مؤامرة للاطاحة به . وفيهم خليط من الجماعات التي كانت تضمهم بغداد مثل مالك النفري من السواد ومحمد بن ابراهيم الافريقي وفرج البغواري وكانوا قد « دونوا الدواوين وأثبتوا أسماء الرجال وسموا العمال »[٢] . وفي السجن ثاروا وأيدهم المساجين وسدوا باب السجن مما اضطر المأمون حين سمع بذلك إلى أن يخرج بنفسه إلى البلد وإلى السجن . ويبدو أن المؤامرة كانت مدبرة بحيث تبدأ بحريق واضطراب في بغداد . فان ابن طيفور يذكر أن ابن عائشة وأصحابه كانوا قد دسوا

---

(١) الطبري ج٨ ص٦٠٤ ـ ٦٠٦ ( ٣/١٠٧٦ ـ ١٠٨١ ) ، اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٨ .
(٢) الطبري ج٨ ص ٦٠٢ ـ ٦٠٤ ( ٣/١٠٧٣ ـ ١٠٧٦ ) ، اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٩ .

من أحرق سوق العطارين والصيارفة والصفارين والفرائين وأصحاب الرامدار ... وقبل ذلك أوبعده أحرقوا أصحاب الحطب في البغيين .. ويذكر المؤلف نفسه ، أن المأمون استنفر أخاه المعتصم وجميع القواد في الليل، وأوقف الجند بمئات الشموع على أبواب بغداد وهم على ظهور دوابهم وقد فوقوا قسيهم ( أي في وضع الاستعداد للقتال ) فان تحرك شيء أتوا عليه ...»[1] وقد رأى المأمون رجلا يلقب بكلب الجنة وقد جعل لحافه ترسا وتسلح بحطبة للقتال فشكره وأمر له بعشرين ألف درهم .

وأشاع أنصار المأمون أ ن ابــن عائشة وأصحابه تنصروا « ... وشدوا الزنانير ووضعوا الصلبان في أعناقهم ... » وذلك لتبرير العقوبة الفورية التي أوقعها بهم المأمون إذ ذهب الى السجن فضرب أعناق جماعة منهم وصلبهم أياما . وفيهم ابن عائشة الذي قيل إنه « شتم المأمــون في وجهه » تلك الليلة .

٢ ــ **العلويون** : أهم مايسجل للعلويين في هذه الفترة ويوضح في الوقت نفسه موقفهم تجاه العباسيين أن كلمة آل البيت أضحت مصطلحا شائعا ولكنه يحمل معاني مختلفة يمكن تلخيصها بأنها تضم بيوتات أربعا تشكل أربع دوائر متداخلة وبعضها اكبر من بعض : الدائرة الاولى الفاطمية تضم أولاد فاطمة فقط وهم بدورهم فرعان : بيت الحسن وبيت الحسين وهي أضيق الحلقات والمفاهيم . الثانية : العلوية وهي أوسع من الاولى لانها تضم العلويين أي كافة البيوت من نسل علي بن أبي طالب .

الثالثة : الطالبية وهي أشد سعة وتضم الطالبيين جميعاً من نسل

---

(١) انظر ابن طيفور ــ تاريخ بغداد ص ٩٧ ــ ٩٨ و ص ٩٩ .

أبي طالب ومنهم آل عقيل وال جعفر •

الرابعة : وهي أوسع الدوائر ويمكن أن ندعوها بالهاشمية أحيانا لانها تضم العباسيين خاصة في آل البيت وتضم معهم باقي الأسر من آل عبد المطلب بن هاشم •

وكان الشقاق والتزاحم بين هذه المفاهيم يعكس الاطماع المختلفة لأبناء هذه البيوتات الشريفة • في الميدان السياسي • وكثيراً ماكان أبناء الدوائر الأضيق ينفون أبناء الدوائر الاوسع عن القربى المباشرة بالرسول وبالتالي عن منابع الشرعية في الحكم وقد أدى ذلك إلى حقد بعضهم على بعض أحياناً وعمل بعضهم ضد بعض حتى درجة الوشاية للسلطات أو القتال •

وقد أدى هذا التوزع مع تكاثر الابناء والعدد في آل البيت وتشابك الاهواء السياسية والدينية المختلفة ضمن المجتمع الاسلامي الى ظهور الفرق المختلفة التي تنتسب الى آل النبي بشكل أو بآخر • والى تضارب الصلات بين هذه الفرق وتعقد العقائد التي يحملها أشياعها مع الزمن وهكذا صارت الفرق الطالبية خاصة ـ إذا تركنا جانبا الجماعة الهاشمية العباسية الحاكمة ـ مجموعة واسعة تضم أشتاتا من الآراء تمتد بين أقصى الغلو والباطنية وبين التشيع المعتدل الذي لايزيد عن احترام آل البيت •

على أننا نكتفي هنا بالاهتمام بالفرق والتحركات التي عبرت عن مطمح سياسي أو أثرت في مسيرة الدولة العباسية • وفي هذا المجال نلاحظ :

آ ـ ان البيت الذي استأثر بأكثر الحركات في هذه الفترة إنما كان البيت الفاطمي دون باقي الجماعات الأخرى بل استأثر بها خاصة الفرع الحسني من الفاطميين دون الفرع الحسيني أيضا • وبمعنى آخر قام بهامن تسموا بالفرقة الزيدية دون الفرقة الاخرى التي عرفت بالامامية[1] والواقع أن الزعماء من آل الحسن هم الذين قادوا وحدهم تقريبا الطموح السياسي لآل البيت في العصر العباسي الاول فكان من ذلك ثورات عديدة فاشلة وتكوين دولة علوية في أقصى المغرب بينما اكتفى الحسينيون بالطموح العلمي فكان من ذلك انشاء الفرقة الامامية ( المعروفة بالاثني عشرية ) والمذهب الفقهي المعروف بالجعفري • وقد تأخر الحسينيون في تبني الافكار والاطماع السياسية الى أواخر القرن الثالث الهجري حين ظهرت منهم الحركة القرمطية الباطنية في المشرق ثم ظهرت بعد ذلك الحركة الفاطمية في المغرب •

ب ـ بالرغم من أن العلويين ( الحسنيين ) نجحوا لاول مرة في التاريخ الاسلامي في اجتزاء قسم من الدولة العباسية • بعيد عن بغداد كل البعد ، فأقاموا فيه دولتهم الاولى ( الادريسية ) في عهد الرشيد فان الخارجين والمطالبين بالخلافة منهم كانوا رغم كثرتهم يفشلون لانهم غالبا ماكانوا يخرجون في عدد قليل من الانصار ودون تهيئة حكيمة للثورة فينتهي الامر بمقاتلهم أو بسقوطهم سجناء أو طرداء •

---

(١) بالرغم من ان زيد بن علي زين العابدين هو من نسل الحسين فان اولاد عمه آل الحسن هم الذين تبنوا الافكار السياسية التي قال بها في اواخر العهد الاموي واهمها ان الامامة محصورة في من يثور لها من ابناء الحسن والحسين . وان الثورة واجبة على الامام الظالم . ولاقامة الحق وإزالة البغي . ولهذا دعى الحسنيون بالزيديين بينما اخذ الحسينيون اسم الامامية لقولهم بتسلسل الامامة في الائمة الاثنى عشر .

جـ ـ أدى النشاط السياسي العنيف الذي عاشته الدولة العباسية في عصرها اولا الى ظهور الجدل النظري الكلامي بين العلويين والعباسيين فاذا كانت حرب آل هاشم للامويين حربا لا يختلف عندها في افضلية اهل البيت عامة على بني أمية فقد احتاج الطالبيون الآن لمنافسة ابناء عمهم المباشرين منافسة نظرية بجانب الجهاد العسكري الحربي • واقتضى ذلك ترتيب الحجج الشرعية لأفضليتهم والدعاية الدقيقة ـ لاسيما في الشعر ـ لرأيهم وحقهم • فكان من ذلك ركام من الشعر والنثر انتجته قرائح الموالين لهم آنئذ في الفقه وعلم الكلام والشعر • ومن أشهر شعرائهم اذ ذاك السيد الحميري ( الكيساني ) اسماعيل بن محمد ( ١٧٣ هـ )وقد اسرف في ذم السنيين والصحابة حتى نبذ شعره • ثم دعبل بن علي الخزاعي الذي هجا خلفاء بني العباس وولاتهم وكبار دولتهم هجاء حفظت بعض كتب التاريخ والادب شيئا قليلا منه •

وظهر بالمقابل لدى العباسيين من يبين شرعية حكمهم إسلاميا بالاستناد الى الفقه الاسلامي كما ظهر من يصوغ شعرا لهم يسير على الالسن ويؤيد حقهم مثل : مروان بن أبي حفصه وغيره •

د ـ وبالمقابل فقد أدى فشل معظم الحركات العلوية مع بعض الاسباب الاخرى ( كدخول الافكار غير الاسلامية في التشيع وتنافس افراد العلويين حول الامامة ) الى دخول التشيع منذ نهاية عصر المأمون في طور سري ظهرت منه عقائد غريبة تغلغلت فيها الفلسفة وترسبات الاديان المختلفة الاولى ، كما تسربت هي بدورها بين الطبقات العامة فاستخدمت هذه الطبقات غرضا ووسيلة لعدة حركات مقبلة •

على ضوء هذه الملاحظات العامة ندرس بالمقابل تطور السياسة العباسية تجاه العلويين بفرعيهم الحسيني والحسني أو الامامي والزيدي[1]

أولا الحسينيون : ( الامامية ) رسم كل من عبد الله المحض زعيم آل الحسن وجعفر الصادق كبير الحسينيين منذ مطالع العصر العباسي الطريق السياسي لهذين الفرعين من آل البيت فاذا كان الاول ذا مطامع سياسية جعل يصبها ويحولها الى ابنه محمد ( النفس الزكية ) ويرجو له أن يكون « المهدي » المنتظر فان جعفرا الصادق قد اتجه الى العلم وسالم العباسيين فتقبلهم وتقبلوه • وقد استمر الخط الذي رسمه هذان الزعيمان هو خط الفرعين حتى آخر العصر العباسي الاول : للاولين الثورة وللاخرين العلم •

كان جعفر الصادق يهتم بالعلم والفقه على سنة ابيه محمد الباقر وجده زين العابدين في الشغل بالدين والبعد عن السياسة[2] وقد وجه اهتمامه مثلهما الى « إمامة » الجماعة الشيعية التي قادها ٢٨ سنة والى بناء تكوينها الفكري • وإذا عاصر الصادق ثورات الشيعة الزيدية ومصارعها أيام الامويين فقد اتخذ التقية مبدأ وكان يسمى الثائرين « بالغصاب » لأنه لايرى حمل السلاح ضد الحاكمين وهكذا رفض

---

(١) بهذين الاسمين كان يعرف الفرعان في العصر العباسي الاول • يروي الطبري أن جماعة كانوا في مجلس المامون « ... فتناظروا في التشيع فنصر محمد بن أبي العباس الامامة ونصر علي بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما ... » انظر الطبري ج٨ ص ٥٧٧ ( ٣/١٠٣٩ – ١٠٤٠ ) •

(٢) انظر سبط ابن الجوزي – تذكرة الخواص ص ١٩٢ الذي يقول إنه شغل بالعبادة عن طلب الرئاسة والاصبهاني حلية الاولياء ج٣ ص١٩٢ الذي يقول إن الصادق «آثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع»

محاولات أولئك الذين عرضوا عليه الخلافة في مطلع العهد العباسي وكان على صلات طيبة مع ابي جعفر المنصور الذي سماه هو نفسه بالصادق وكان يظهر له الاحترام والتبجيل الشديدين مصانعة وسياسة، ويراقبه في الوقت نفسه [1] فلما سمع أن بعض الغلاة كابي الخطاب الاسدي قد التفوا حوله ويبشرون باسمه واسم ابنه اسماعيل استدعاه المنصور مع ابنه الى العراق[2] وقتل أحد انصارهما ( بسام بن عبد الله الصرفي ) . كما قتل الكثيرين من اتباع الصادق مثل المعلى بن جنيس الذي أخذ الصادق علنا ثأره من صاحب الشرطة الذي قتله ومثل أولئك الذين قتلوا حين قمع والى المنصور ثورة ابي الخطاب في البصرة سنة١٣٨ واذا استطاع الصادق أن يحافظ على مكانته وحياده رغم أنه وجد في فترة من أصعب وأدق الفترات التاريخية فقد تابع موسى الكاظم خطة أبيه بعد وفاته سنة ١٤٨ فكان للعلم وللمسالمة السياسية ومع ذلك فقد سجن مرتين ثم أعفى حياته في المرة الثالثة بسجن الرشيد سنة ١٨٤: كان سجنه الاول بامر المهدي نوعا من السجن الاحترازي : ويبدو انه دعابه من المدينة فأنزله منزلا إجباريا لدى بعض رجال حاشيته الربيع ابن يونس وتلا المهدي ذات يوم وهو في الصلاة :« فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم » فاستدعى موسى الكاظم وقال : قد خفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لي أنك لاتخرج علي .

---

(١) انظر ابن طولون ـ الائمة الاثنى عشر ص ٨٥ .

(٢) انظر كتاب اثبات الوصية المنسوب للمسعودي ص ١٥٣ ( طبع المكتبة المرتضوية ـ النجف ) .

(٣) انظر الكليني ـ الكافي ج٨ ص٣٦ ـ ٣٧ ( الروضة من الكافي ـ مكتبة الصدوق طهران ١٣٨١ ) حيث يروي قصة حديث بين المنصور والصادق .

قال نعم : فوثق وخلاه[1] » وسجن في زمن الرشيد مرتين : أطلقـه في المرة الاولى بعد أن رأى في منامه عبدا حبشياً يهدده أن ينحره بحربـة إن لم يطلقه فأخرجه واعطاه ثلاثين ألف درهم[2] ثم سجن في المـرة الثانية بسبب وشاية ـ فيما يذكرون ـ وصلت الخليفة عنه : قالوا إن يحيى بن خالد البرمكي أغرى علي بن اسماعيل بن الصادق بالمال وكان على علم بأخبار موسى الكاظم فذكر للرشيد أن الاموال تحمل اليـه من المشرق والمغرب وأن له بيوت اموال وانه اشترى ضيعة بثلاثين الف دينار وسماها اليسيرة ... وذكر حساده أيضا أن الناس يعتقدون امامة الكاظم ويحملون اليه خمس أموالهم وأنه عازم على الخروج[3] ... ولكن المصادر الامامية تذكر اسبابا أخرى فتقول : إن الرشيد حين حج سنة ١٨٣ وقف أمام قبر الرسول في موكب بني هاشم والمهاجرين والانصار فقال : السلام عليك يارسول الله يابن عم » مفتخرا بنسبه فتقدم موسى فقال : السلام عليك يارسول الله ياأبت ... فتغير لون الرشيد[4] . أو تقول ان محمد بن اسماعيل بن الصادق كان يكتب لعمـه موسى ويعرف اسراره فقال للرشيد : إن في الارض خليفتين يجبي اليهما الخراج فقال الرشيد ويلك ! أنا ومن ؟ قال : موسى بن جعفر وكشف أمره فقبض

---

(١) الطبري ج٨ ص ١٧٧ ( ٣/٥٣٣ ) والمصادر الامامية تجعـل القصة مع الهادي ( انظر بن عنبة ـ عمدة الطالب ص ١٦٩ )

(٢) المسعودي يذكر القصة . مروج الذهب ج٣ ص ٣٥ ـ ٣٥٧ .

(٣) انظر الاصبهاني ـ مقاتل الطالبيين ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ وابن طباطبا الفخري ص ١٩٦ .

(٤) انظر المفيد ـ الفصول المختارة من العيون والمحاسن ج ١ ص١٥ والطبري ـ اعلام الورى باعلام الهدى ص ٢٩٧ .

الرشيد عليه وكان سبب هلاكه[1] • أو تقول إن الرشيد اراد ارجاع « فدك » ( وهي إقطاع الرسول لابنته فاطمة) الى موسى الكاظم فكان موسى يأبى ذلك ولما ألح عليه الرشيد قال : أقبلها بحدودها قال الرشيد وماحدودها ؟ قال : عدن وسمرقند وافريقيا وسيف البحر مما يلي الخزر ••• فغضب الرشيد وقال : فلم يبق لنا شيء فتحول الى مجلسي وعزم على قتله[2] •

ولم نذكر هذه الاخبار الا لاعطاء فكرة عما كان يجول فيأفكار العلويين عامة من الناحية السياسية ولكننا نرجح أنها أخبار موضوعة عامة في نطاق الجدل السياسي ــ الفقهي والارجح من خلال سيرة الكاظم وآبائه أنه لم يكن ليجبه الرشيد بالتفاخر ولاليواجهه بكشف المطمع السياسي وقد لاتكون قصة الوشاية من قبل ولدي اسماعيل بن الصادق وقصة البرمكي والاغراء بالمال أكثر من روايات وضعتللحط من قدر هؤلاء ولكن يبقى مع كل أولئك أمر هام رئيسي هو قصة « الخمس » الذي كان يجبى من أنصارهؤلاء الائمة فلاشك أن هذه الجباية بالذات كانت سبب الريبة والشكوك والسجن •

فالذي يظهر أن الامام الصادق نظم فيما نظم أمر الفرقةالامامية جمع هذا الخمس للائمة وكانت الاخبار التي تترشح لابي جعفر عن هذه الجباية هي التي تثير قلقه فكان يطمئن من الامام جعفر ويتوثقمن ولائه بين فترة وأخرى • ويبدو أن المهدي عرف بالامر على شكل

---

(١) ابن عنبه ــ عمدة الطالب ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ •
(٢) ابن شهراشوب ــ مناقب آل ابي طالب ج٤ ص ٣٢٠ ــ ٣٢١ ، وانظر سبط ابن الجوزي ــ تذكرة الخواص ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠ •

أوضح فخشي أن تكون هذه الاموال التي تجمع مطلع حركة انتقاض فسجن موسى حتى توثق منه فأطلقه . أما الرشيد فقد كان يقتر من عطائه لآل البيت . ذكروا أنه أعطاه مرة مائتي دينار بينما أعطى غيره خمسة آلاف وعلل ذلك قائلا لو أعطيته ماأمنت ان يضرب وجهي غدا بمائة ألف سيف ولهذا فقد كانت الجباية التي ترد من أنصار الامام بمختلف أنحاء الدولة الاسلامية جديرة بان تقلق الرشيد وتثير الريبة والشك عنده وتدفعه للحجر على الكاظم الذي يترأس عمليا منظمة دينية . له فيها الامامة ومن الممكن أ نتتحول في أي لحظة الى منظمة سياسية وقد حمل الكاظم أولا من المدينة فسجن بالبصرة لدى واليها عيسى بن جعفر بن المنصور الذي كتب الى الرشيد يسأله الاذن باطلاقه ويبدو أن الرشيد خاف تساهل هذا الوالي فنقل الكاظم الى بغداد لكن الرجل مالبث أن توفي في سجنه الثاني سنة ١٨٤ فأخرجه السندي ابن شاهك ودعا ثمانين من القواد والكتاب الهاشمين والقضاة والطالبين وكشف عن وجهه وأشهدهم انه ليس به أثر اغتيال قبل دفنه . ولئن كان هذا التصرف نفسه يؤكد الشكوك التي يثيرها الامامية حول قتله [1] لا موته فانه من المحتمل جداً أن يكون الموت طبيعيا وان تكون تلك الشهادة عملية احتراس دعوى امامية قد تتحول الى حركة سياسية لامبرر لها .

أما الذي تولى الامامة بعد الكاظم فانه علي الرضا . وقصته مع

---

(١) الدوري ـ العصر العباسي الاول ص ١٤٢ والمسعودي ( مروج ٣ ص ٣٦٥ ) يذكر انه مات مسموماً وتجمع المصادر الامامية على موته بالسم . انظر المفيد ـ الارشاد ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ و الصدوق ـ الامالي ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .
١

المأمون سبق أن عرضنا لها في مشكلة ولاية العهد • وقد انتهى الرضا بدوره الى الموت في ظروف غامضة سنة ٢٠٣ ولكن المأمون الذي كان علويا في نزعته الفكرية النظرية رعى محمدا الجواد ابن الامام الكاظم وكان عمره ست سنوات عند موت ابيه ثمزوجه من ابنته•ولكنه احتضر وهو في ريعان الصبا سنة ٢٢٠ ليخلفه ابنه الامام الهادي علي بن محمد الذي عاصر الخلفاء حتى عهد المعتز •••

على أنه من الضروري أن نذكر للامامية ، في العصر العباسي الاول ثلاثة أمور إن لم يكن لاولهما من نتائج سياسية هامة سوى تسجيل بعض الثورات السياسية فقد كان للثاني والثالث نتائجهما الخطيرة الواسعة الأبعاد في التاريخ الاسلامي كله حتى اليوم :

فأما الأول فهو أن الجماعة الحسينية الإمامية لم تنهج كلها ، في الواقع ، المنهج السلمى وقد لجأ بعضها إلي الثورة المسلحة وثمة اكثر من خبر عن خروج بعض زعمائها : ففي زمن المهدي ظهرت بعض فرق الغلاة التي سميت بالحسينية أتباع الحسين بن أبي المنصور[1] وقدمزقها المهدي حين ثارت وقبض على زعيمها فقتله • وفي عهد الرشيد خرج أحمد ابن عيسى بن زيد الحسيني فحبسه الرشيد بالرافقة ( على الفرات ) سنة ١٨٨ فهرب الى البصرة وأخذ يكاتب الشيعة ويدعوهم الى نفسه فبث الرشيد عليه العيون وجعل لمن يجيء به الأموال فلم يظفر به وظفر بصاحبه والمدبر لأمره وكان في التسعين من عمره ويسمى بحاضر فلم يدله على موضعه فقتله وصلبه • وطفىء أمر أحمد بن عيسى ولم يعرف خبره بعد

---

(١) وتدعى هذه الفرقة بالخناقين وقد انشأها أبو المنصور العجلي في العهد الأموي وقتل بها . وفي مذهبهم خنق مخالفيهم وقد صور الجاحظ (في الحيوان ج ٢ ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ و٢٧١ وج٦ ص ٣٩ ــ طبعة هارون) نشاط هؤلاء وعملهم .

ذلك[1] كما استغل بعض آل الحسين فترة الفوضى العامة التي أعقبت مقتل الأمين في الدولة فظهر منهم ثلاثة ثوار على الأقل : زيد (النار) بن موسى الكاظم في البصرة وأخوه ابراهيم في اليمن ومحمد الديباج في مكة • وسوف نعرض فيما بعد لهذه الثورات الثلاث باعتبارها ذيولا لقضية أخرى • ويكفي هنا أن نشير إلى أنها كانت مع تلك التحركات الحسينية الأخرى حركات محدودة العدد ومحدودة الأثر في وقت معاً •

وأما الثاني : فهو انقسام الفرقة الامامية ، ومنذ عهد جعفر الصادق الى طائفتين :

فرقة تسوق الإمامة لابنه الكبير اسماعيل رغم أن أباه حرمه ورغم أنه توفي في حياة أبيه ( وهم الاسماعيلية )[2] فهو الامام السابع عندهم (أو ابنه محمد هو السابع) وتعرف هذه الفرقة بالسبعية أيضاً • وقد لعب الدور الأهم في وجودها الأول أبو الخطاب الأسدي بالاتفاق مع اسماعيل •

وفرقة أخرى تسوق الامامة لموسى الكاظم ، الأخ الأصغر لاسماعيل ، وهم جمهرة الإمامية وبعض منهم حول الإمامة الى محمد الأخ الثالث المعروف بالديباج ويعرف هؤلاء بالسمطية[3] •

وبعضهم يسوقها الى الأخ الرابع عبد الله الملقب بالأبطح (وإن لم يطل أمد إمامته) • وإذا نتجت عن هذه التفرعات مضاعفات كثيرة

---

(۱) اليعقوبي ج ۲ ص ۳۷۰

(۲) ويدعون أيضاً المباركية نسبة الى المبارك مولى اسماعيل بن جعفر وسوف يدعون في المستقبل باسم الفاطمية أيضاً . وهم بالطبع غير الفرقة الاسماعيلية المعروفة اليوم .

(۳) نسبة الى رئيس لهم أيضاً يقال له يحيى بن ابي السميط .

انتهت بظهور كثير من الفرق الصغرى حول الإمامية التي اصبح اسمها فيما بعد الامامية الاثنى عشرية • فإن المضاعفات التي نجمت عن الفرق الاسماعيلية السبعية كانت أكثر خطراً وتعقيداً وأهم في الدور السياسي إذ أنها اصطنعت المذهب الباطني وخرج منها فرقة بعد فرقة الجماعة القرمطية والفاطمية والحاكمية (الدرزية) والاسماعيلية الصباحية ••• وقد لعبت هذه الفرق اكثر من دور خطير في تاريخ الاسلام كما أن بعضها ما يزال قائماً الى اليوم •

وأما الثالث فهو بلورة المذهب الإمامي وتكوينه في العصر العباسي الأول • وإذا كانت علاقات العباسيين بآل الحسن عدائية في الغالب فإنها على الأقل لم تكن على العداء مع آل الحسين والإمامية مما مكن هذه الفرقة أن تتكون بهدوء مستفيدة من علم الامام جعفر الغزير من جهة ومن الأخطاء السياسية التي ترتكبها الفرق العلوية الأخرى وهكذا ظهر « مذهب آل البيت » القائل بالامامة والعصمة والتقية كمبادىء سياسية بجانب المذاهب السنية الأخرى وأصبح أحد المذاهب الخمسة أو الستة الكبرى في الاسلام حتى اليوم •

ثانياً : حركات آل الحسن (الزيدية) : كانت علاقاتهم مع العباسيين قد وصلت أسوأ اطوارها عقب هزيمة محمد النفس الزكية وما سبقها وما تلاها من المآسي • لقد تصيد المنصور كبارهم قبل الثورة ومنهم ثلاثة من إخوة عبد الله المحض معه «•• فلم يزالوا في الحبس حتى ماتوا وقد قيل إنهم وجدوا مسمرين في الحيطان •••» وسحق رجالهم عند الثورة سواء في المدينة أو في البصرة • يقول المسعودي إنه «قتل مع (ابراهيم بن عبد الله) من الزيدية من شيعته أربع مائة وقيل خمس مائة

رجل ..»[1] ويقول ابن الساعي : « .. ابتلى الله تعالى المنصور بأذية آل الحسن السبط .. فقضوا بين مقتول ومسموم ..»[2] وهرب بعض دعاة الزيدية الى اليمين فأقاموا فيها أسس الحركات والدول التي سوف تظهر هنالك فيما بعد وسنعرض لها عند بحث حركات اليمن ...

وقد تنفس آل الحسن الصعداء عند موت أبي جعفر . وزال الكابوس عنهم حين أعلن المهدي سياسته في اللين والرحمة العامةوحسبوا أن عهد التراحم والمسالمة الذي مر مروراً عابراً لسنوات معدودة زمن أبي العباس السفاح قد عاد كرة أخرى حين حاول المهدي استرضاءهم «فأخرج من كان منهم في السجن ، وأمر لهم على قول اليعقوبي ــ بجوائز وصلات وأرزاق دارة ...»[3] ثم أعاد إليهم قطائعهم التي صادرها أبوه وألغى الحصار الاقتصادي عن الحجاز ووزع عليهم أثناء حجه ، وعلى كبار أهل الحجاز ، المبالغ الطائلة . (٣٠ مليون درهم ونصف مليون دينار) وأمن الحسن بن ابراهيم حفيد عبد الله المحض حين استأمن إليه وأقطعه مالاً من الصوافي بالحجاز وأحسن جائزته وصلته[4] كما ساعد استيزاره ليعقوب بن داوود على زيادة التفاهم معهم لما عرف من ميوله الزيدية . فإن المهدي كان يقول : «لو وجدت رجلا من الزيدية له معرفة بآل الحسن وبعيسى بن زيد (بن علي زين العابدين ) فأجتلبه الى على طريق الفقه فيدخل بيني وبينهم فدل على يعقوب بن داوود» فجعله من خاصته ثم « مازال أمره يعلو حتى استوزره وفوض إليه أمر الخلافة .

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٨

(٢) ابن الساعي ــ مختصر اخبار الخلفاء ص ١٨ (منسوب الى ابن الساعي ــ المطبعة الاميرية ــ القاهرة سنة ١٣٩٠) .

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٤

(٤) الطبري ج ٨ ص ١٣٣ (٣) سنة ٤٨٣) .

فأرسل (يعقوب) الى الزيدية فأتى بهم من كل أوب وولاهم من أمـور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس ... »[1]

.. ولكن هذا العهد الرخي لم يدم طويلا لأن السعايات أقبلت تقنع المهدي أن المشرق والمغرب في يد يعقوب وأصحابه وقد كاتبهم وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا في يوم واحد فيأخذوا الدنيا لاسحق بن الفضل ... »[2] ونكب يعقوب وعزل أصحابه عن الولايات ولكنه لم ينكب الزيدية معه ... ولقد يكون استراب بهم كما استراب بالامام موسى الكاظم ولكنه لم يشعر بحركة لهم إلا مرة واحدة إذ قدم على بن العباس بن الحسن الى بغداد فدعا سراً لنفسه وتبعه بعض الزيدية ولكن امره كشف للمهدي فحبسه فلم يزل في السجن حتى استوهبه من المهدي الحسين بن علي بن الحسن فوهبه له ويذكر الاصبهاني الذي يروي الخبر أنه دس له حين أطلقه سماً «فلم يزل ينتقض عليه حتى قدم المدينة فتفسخ لحمه وتباينت اعضاؤه فمات»[3] .

وإذا كانت سياسة المهدي مع العلويين على الرحمة والوفاق بصورة عامة فان الهادي قلب هذه السياسة الى عكسها فجد «في طلب الطالبيين واخافهم خوفاً شديداً وقطع ما كان المهدي يجري لهم من الارزاق والاعطيات وكتب الى الآفاق في طلبهم وحملهم ... »[4] !

ولم يكن هذا الموقف القاسي نتيجة لفشل سياسة المهدي اللينة مع العلويين بقدر ما كان يرجع الى عنف الهادي وتعصبه المتطرف . فخرج

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٥٦ (٣/٥٠٨)
(٢) الطبري ٨ ص ١٥٧ (٣/٥٠٩)
(٣) الاصبهاني ـ مقاتل الطالبيين ص ٤٠٣
(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٤

العلويون ضده في المدينة : تزعم الحركة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب آخر سنة ١٦٩ في موسم الحج .

ويبدو أن الرجل دفع دفعاً إلى الخروج إذ « .. عزم الشيعة وغيرهم إليه وكانوا له مذهب جميل وكمال مجد وقالوا له أنت رجل أهل بيتك وقد ترى ما أنت وأهلك وشيعتك فيه من الخوف والمكروه فقال :وانني وأهل بيتي لانجدناصرين فننتصر فبايعه خلق كثيرممن حضرالموسم..»[١] على الثورة واللحاق به متى أعلنها . ولا شك أن الحسين كان متأثراً كل التأثر بسياسة والي المدينة للهادي : عمر بن عبد العزيز العمري ( حفيد ابن الخطاب ) الذي أفرط في التحامل على الطالبيين حتى أخذ كلا منهم بكفالة قريبه ونسيبه وبإثبات وجوده اليومي في البلد . كما عامل بعضهم معاملة سيئة مهينة اندفاعاً مع أهواء الخليفة[٢] . كما لا شك من جهة أخرى أن الحسين كان «تواعد» مع بعض أصحابه «على الخروج بمنى أو بمكة في الموسم كما كان قد كاتب قوماً من أهل الكوفة من شيعته» فجاؤوه « وبايعوه » «وكمنوا» في بعض الدور ..[٣] ينتظرون. فلما بايعه الخلق الكثير في الموسم بمكة اتفق معهم على كلمة السر :«من رأى الجمل الأحمر ؟» وعاد الى المدينة فخرج بأصحابه ونادى بالكلمة « فما وافاه إلا أقل من خمس مائة»[٤] أما من كان في الموسم من الشيعة العباسية ومن الجند وممن لحق بهم عند سماع نبأ الثورة بأمر الهادي

---

(١) اليعقوبي المصدر نفسه

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٩٢ - ١٩٣ (٣/٥٥٢ - ٥٥٣) وهو يذكر ان والي المدينة أوقع الحق على بعض العلويين في شرب الخمر والمصادر الميالة للتشيع كالاصفهاني واليعقوبي تنفي ذلك .

(٣) المصدر ذاته ص ١٩٣ (٣/٥٥٣ - ٥٥٤)

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ والاصبهاني يجعلهم ٣٠٠ فقط .

**فكانوا في تقدير** المسعودي عدة جيوش في أربعة آلاف فارس[1] وأراد الحسين الثائر أن ... يتحول من المدينة الى مكة بعد ايام من خروجه وكان معه من اخوة محمد ذي النفس الزكية ادريس ويحيى (ولدا عبد الله المحض) فلاقاهم الجيش العباسي عند (فخ) قرب مكة يوم التروية (٨ ذي الحجة سنة ١٦٩/١١ حزيران سنة ٧٨٦ ) وكانت موقعة خاسرة لا تقل قسوة عن باخمرى وكربلاء قتل فيها الحسين الثائر وأصحابه وجماعة من أهله وتعطى بعض المصادر .. للهادي صورة يزيد وبكائه حين ورد عليه رأس الحسين ويقول المسعودي إنه قال : اتيتموني مستبشرين كأنكم جئتم برأس رجل من الترك أو الديلم . إنه من عترة رسول الله. إن أقل جزائكم عندي ألا أثيبكم . ولم تكن تلك الواقعة بالمهمة في حد ذاتها ، لولا النكال الذي كان بها . ولولا انها قضت على أثر سياسةاللين التي اتبعها المهدي [2] . ولولا أنها أخذت شأنها الكبير في النتائج التي ترتبت عليها :

١ ــ فقد فر منها ادريس بن عبد الله المحض (خال الحسين الثائر) الى مصر ومنها الى المغرب الاقصى فجمع لنفسه بعض الاشياع وفشا امره وتسمى بالخلافة (سنة ١٧٢ هـ ــ سنة ٧٨٨ م) **وهي أول مرة يظهر** فيها خليفتان معاً في الاسلام[3] ولم يستطع الرشيد ان يبعث اليه في مراكش بجيش يقضي عليه ، فيقال إنه استعمل له بمشورة يحيى البرمكي ، رجلا يدس له السم . وتم له مصرعه سنة ١٧٧ هـ غير أن

---

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٦

(٢) انظر التفاصيل الواسعة لدى الطبري ج٨ ص ١٩٣ ــ ٢٠٢ (٣/٥٥٣ ــ ٥٦٧)

(٣) وكان الخوارج يسمون من يختارون بالإمام لا الخليفة .

أشياعه انتظروا ولادة جنين له من احدى إمائه ، فسموه ادريس واقاموا له الدولة التي عرفت بدولة (الادارسة) والمستقلة عن الدولة العباسية وسوف نبحثها فيما بعد ويكفي أن نشير هنا إلى أنهـا كانت اول دول العلويين • وثاني جزء من البلاد الاسلامية ينشق عن سلطـة العباسيين وبغداد ، نظرياً وعملياً •

٢ ــ وفر من موقعة فخ أيضاً اخ ثان لادريس هو يحيى بن عبد الله دخل بلاد الديلم يدعو لنفسه • وبالرغم من ان الرشيد بدأ عهده بازالة أثر سياسة اخيه القاسية ، فبذل الامان للطالبيين وأخرج الخمس لبني هاشم ، ورفع الحجز عمن كان منهم في بغداد سنة ١٧١ هـ وسيرهم الـى المدينة (عدا العباس بن الحسن بن عبد الله) وبرغم ما يروي الفضل بن الربيع من ميول الرشيد العلوية ، والتي يظهر انها لـم تكن تتجاوزحدود العطف على الاقارب ، فان هارون اضطرب لما علم بخروج يحيى في الديلم سنة ١٧٦ هـ وادعائه الامامة ، واجتماع الانصـار اليـه من الامصار والكور • هذا الى بعد البلاد ومناعتها • فندب الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين الف رجل له • ورفده بأعظم القواد بعد ان ولاه ، جميع كور المشرق وخراسان ، وامره بقصد يحيى والجد به ، وبذل لـه الامان والصلة ان قبل ذلك[1] !••

واتبع الفضل طريقة الاقناع والمفاوضة مع يحيى • ولعلها كانت منه سياسة من جهة ، وميلا الى العلويين من جهة اخرى • ودس الى صاحب

---

(١) الاصبهاني ــ مقاتل الطالبيين ص ٤٧٠ . وانظر الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ١٩٠

الديلم من استماله بمليون درهم علــى قول الطبري [١] ، فانحرف عن يحيى • فلما رأى العلوي «تفرق أصحابه وسوء رأيهم فيــه ، وكثرة خلافهم عليه [٢] » أجاب الفضل الى الصلح • واشترط ان يكتب الرشيد الامان بخطه ، ويشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم • ورسي الرشيد أن يكتب الامان على مارسم يحيى • وجعل منه نسختين أرسل احداهما بتوقيعه وخاتمة الى يحيى[٣] • فقدم هذا على الرشيد فســـّر به «واجازه بجوائز سنية» وبالغ في اكرام الفضل البرمكي ووضع يحيى تحت اشرافه وفي كنفه •

على أن يحيى أحس بــأن « في نفس الرشيد الحيلــة عليه [٤] » فاستطاع ان يؤثر على الفضل ليطلقه • فسافر الى الحجاز ثم علم الخليفة بالأمر وجاءه من يوسوس له ان يحيى يدعو لنفسه فأمر بحمله الى بغداد وسجنه في سرداب [٥] •• وكان يناظره بين حين وآخر • ثــم احضــر الفقهــاء ليجدوا لــه مخرجاً من الأمان المكتوب له • فلم يجرؤ أن يفتي بذلك ســوى ابي البختري القاضي ، فحمله الرشــيد مسؤولية الفتوى • وختمت حياة يحيى بشكل غامض في السجن ، بعد الفتوى بحوالي شهر [٦] •

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٤٣/ (٦١٤/٣) والمسـعودي (ج٣ ص ٣٥٢ يذكر انه «باعه» بمائة مليون ولعله خطا النسخ .
(٢) مقاتل الطالبيين ص ٤٧٠
(٣) المصدر نفسه وانظر الطبري ج٨ ص ٢٤٣
(٤) الاصبهاني ــ مقاتل الطالبيين ص ٤٧١
(٥) المصدر نفسه ص ٤٧٢
(٦) الطبري ج٨ ص ٢٥٠ (٣/٦٢٣ ــ ٦٢٤) . والاصبهاني ــمقاتل الطالبيين ص٤٧٢ . واليعقوبي يقول إنه مات جوعاً بينما يذكر المسعودي انه قد بنى عليه ركن بالحصى والحجارة وهو حي .. (مرو ج٣/٣٥٢) .

وإذا تذكرنا موقف الرشيد من موسى الكاظم الذي أنهى حياته في السجن ومن أحمد بن عيسى بن زيد الذي هرب من السجن ثم اختفى أثره أمكننا القول إن الرشيد كان لا يزال على الرعاية والعلاقة الطيبة مع العلويين ما داموا مسالمين لا يعبرون عن رأي طموح سياسي فإن تنبه منهم الى طيف من ذلك تحول كغيره الى رجل دولة يريد الحفاظ على دولته بأي ثمن ودون أي اعتبار لقرابة أو حرمة ولم يتردد عن استخدام السجن والغدر والمطاردة .

ولم يظهر للعلويين من أثر واضح زمن الأمين والفتنة . أما المأمون فيتفق المؤرخون : كالطبري واليعقوبي والمسعودي والذهبي ، على وصفه بالتشيع . ويذكرون له أنه أمر سنة ٢١١ هـ بأن يقال : «خير الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم على ...» وأنه جادل الفقهاء في فضل علي وكاد يأمر بلعن معاوية على المنابر .. ثم أمسك . وأنه رد (فدك) إلى آل فاطمة ، (وكان أبو بكر الخليفة الأول قد استردها منها بعد وفاة والدها الرسول الذي كان أقطعها إياها وقال : سمعت رسول الله يقول : «الأنبياء لا يورثون») . وربما كان هذا الميل العلوي في المأمون نتيجة اتصاله ببني سهل ، ولكن المأمون لم يكن في الواقع شيعياً إلاّ في الميل العاطفي الديني ، على حد قول المستشرق غبريللي ، الذي درس علاقة المأمون بالعلويين درساً وافياً خلص منه إلى هذه النتيجة . وربما كان الأصح أن نقول أن تشيعة إنما كان على أساس المنطق الفكري الاعتزالي وقد تطور هذا الميل لديه أول الامر وبتأثير الفضل بن سهل والظروف السياسية إلى درجة مبايعة أحد العلويين (علي الرضا) بولاية العهد ... على أن العلويين قبل هذه البيعة كانوا قد استغلوا الفوضى الشاملة بسبب الحرب الأخوية فاشعلوا العراق والحجاز واليمن بالثورة ووقعت هذه البلاد موقتاً في سلطانهم على اختلاف في المتزعمين لها .

ويرجع سبب سيطرتهم السريعة إلى عوامل عدة :

آ ـ بقاء المأمون في مرو بسبب خوفه من أهل بغداد وسياسة الفضل بن سهل لابقائه فيها • فبقي بعيداً لا يعلم بما يجري في قلب البلاد ليعالجه •

ب ـ سخط العناصر العربية على سياسة الفضل الفارسية•وسخط العباسيين خاصة على المأمون •

ج ـ الفوضى الشاملة التي نتجت عن حصار بغداد ، ومقتل الأمين ورفع يد طاهر بن الحسين العسكرية وتعيين الحسن بن سهل •

د ـ طموح العلويين وسنوح الفرصة المناسبة لطعن العباسيين •

هـ ـ ويمكن أن نضيف أخيراً ضجر الناس من الخصومة الأخوية ورجاءهم الخلاص من ذلك الوضع السيء •

مهد كل ذلك لانتشار الثورات التي ظهرت أخطرها في العراق سنة ١٩٩هـ/٨١٥ م على يد أبي السرايا (السري بن منصور الشيباني) • ويختلف تصوير هذا الرجل لدى المؤرخين فهو عند الطبري مشاغب مغامر ، وعند الاصفهاني (في مقاتل الطالبين) بطل شيعي وعند غبريللي: «فارس عربي من الطراز القديم[١]» ويقال إن السبب المباشر في خروجه أنه كان من رجال هرثمة بن أعين فمطله بأرزاقه وأخره بها فمضى الى الكوفة غاضباً ثائراً [٢] •

وقد اتخذ أبو السرايا بجانبه شخصية علوية يدعو لها هي ابن طباطبا (واسمه :محمد بن ابراهيم بن أسماعيل من الفرع العلوي الحسني) الذي ظهر في الكوفة وانضمت إليه كل القوى العلوية التي كانت

---

(١) انظر الدوري ـ العصر العباسي الاول ص ٢٠٦

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٥٢٩ (١/٩٨٧)

بالعراق • ويؤكد غبريللي أن ثورته وثورة صاحبه أبي السرايـا عربية عراقية صرفة • وإن التشيع كان حتى ذلك الوقت عربي الصبغة وكان هدف الثورة تحطيم بني العباس ، والصبغة الفارسية التي أغرقوا فيهـا (أيام المأمون خاصة) •

وأعلن ابن طباطبا برنامج الثورة فيدعوته الناس إلى « كتاب الله وسنة نبيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسيرة بحكم الكتاب••»

ولكن المأمون استطاع أن يقاوم هـذه الحركة عـن طريقين :

آ ــ سلبياً بنصب علي الرضا لولاية العهد والمجيء به من المدينة إلى مرو ومبايعته (في ٧ رمضان سنة ٢٠١) ونشر المأمون منشوراً على الناس يسترضيهم فيه وتظهر فيه مسحة الدعاية لصاحبه العلوي ، وحب تألف القلوب العلوية يقول فيه : «أنه بعد استخارته الله تعالى واجهاده نفسه في حقه وبلاده ••• اختار من البيتين العلوي والعبـاسي علي بن موسى بن جعفر ( الرضا ) لمـا رأى من فضله البـارع وعلمـه الناصع وورعه الظاهر وتحليه من الدنيا وتسلمه من الناس» • فلما قتل أبـو السرايا (ومن قبله ابن طباطبا) تخلص المأمون من علي الرضا بدوره اذ لم يعد له لزوم في سياسته ولا مكان في خططه •

ب ــ ايجابياً إذ نصب المأمون لقيادة جيشه قائده الكبير هرثمـة ابن أعين ووجهه إلى الكوفة • وأعين المأمون على أبي السرايا بعدد من العوامل: فإن ابن طباطبا العلوي توفي فجأة (ويقال إن أبا السرايا سمه لانه علم أن لا أمر له معه[1]) ثم أن أهل الكوفة تخاذلوا في نصرة الثائر وتخلى اشرافهم عنه وتهاونوا مع هرثمة لا سيما حين «أقام أبو السرايـا غلاماً أمرد حدثاً من العلويين مكان ابن طباطبا ( هو محمد بن محمد حفيد

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٢٩ (٣/٩٧٨)

زيد بن علي) فكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولى من رأى ويعزل من أحب ...» ويضرب الدراهم بالكوفة بينما انتشر الطالبيون في البلاد[1] وهزم أبو السرايا عدداً من الجيوش التي أرسلها الحسن بن سهل ضده فاضطر ابن سهل الى أن يعهد الى هرثمة بن أعين «أعظم القواد بحربه رغم مغاضبته له ، لا سيما حين أضحى جنوب العراق كله حتى مشارف بغداد بيد أبي السرايا الذي وجه اثنين من العلويين أخذ أحدهما المدينة دون حرب بينما هرب الوالي العباسي (داوود بن عيسى ابن موسى ) وهرب بعده موالي بني العباس[2] من مكة فتركوها للعلوي الثاني الذي وصلها في آخر موسم الحج وهو الحسين بن الحسن الافطس .

لكن هرثمة كان في تلك الأثناء قد تصدى لأبي السرايا وهزم رجاله أكثر من مرة حتى ألجأه إلى الكوفة حيث انتهب العلويون دور العباسيين ودور مواليهم وأموالهم وطردوهم أقبح الطرد[3] ولكنها كانت نوعاً من الانتقام المتأخر حين شعروا بميل الكفة ضدهم حين خسروا واسط والبصرة تكاد تسقط وهرثمة قادم في إثرهم إلى الكوفة ولم يمض من مطالع سنة ٢٠٠ سوى اسبوعين ونيفاً حين هرب أبو السرايا ومن معه من الطالبيين من الكوفة وكانوا على الطريق إلى الأهواز حين التقوا

(١) المصدر نفسه ٨ ص ٥٢٠ (٣/٩٧٨)
(٢) يذكر الطبري (ج٨ ص٥٣٢) ان بعض عبيد وموالي العباسيين حاولوا تحريض داوود بن عيسى الوالي على المقاومة والدفاع عن ملك اهله فرفض وقال : اي ملك لي والله لقد اقمت معهم حتى شيخت فما ولوني ولاية حتى كبرت سني ... إنما هذا الملك لك ولاشباهك» .
(٣) الطبري ج ٨ ص٥٣١ (٣/٩٨١)

بالحسن بن علي الباذ عيسى المعروف بالمأموني فقاتلوه فهزمهم وجرح أبو السرايا في المعركة جراحات شديدة وهرب مع جماعته شمالا يريدون الجزيرة وبلدة رأس العين منزل أبي السرايا . ولكنهم أخذوا في الطريق وجيء بهم إلى الفضل بن سهل بينما كانت البصرة تسقط في يد الجيش العباسي وأسر زيد بن موسى العلوي فيها وكان يسمى زيد النار لكثرة ما حرق من دور بني العباس واتباعهم في البصرة وما حرق من المسودة الذين كانوا يقعون بيده[1] ...

وانتهى امر ابي السرايا بالقتل والصلب بعد ان دامت حركته (منذ جمادى الاخرة سنة ١٩٩ الى ذي القعدة سنة ٢٠١ هـ) أما محمد بن محمد العلوي فقد عفا ابن سهل عنه قائلا : لعن الله من غرر بك ! ولكن موقف العلويين من المأمون لم يصف نهائياً ولا انتهى الى وفاق . فبالرغم من انه غطى على سياسته الغائية بمعاملة العلويين بالرفق ، فان بعض آل علي كانوا يدبرون الأمر للخلاص منه وقد خرج عليه عدد منهم :

١ ـ محمد الديباج ابن جعفر الصادق في مكة وإنما كانت حركته أحد ذيول حركة أبي السرايا . فإن العلوي الذي دخل باسمه مكة وهو الحسين بن الحسن الأفطس جلس في مطلع سنة ٢٠٠ فنزع «كسوة الظلمة» العباسيين عن الكعبة وكساها ثوبي قزرقيق كتب عليهما : «مما أمر به الأصفر بن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد ... » وأقبل الحسين مع جماعته على دور بني العباس ومواليهم وأموالهم بالمصادرة والعقوبة حتى أقاموا «داراً للعذاب» فلما بلغهم مصرع أبي السرايا وطرد الطالبيين من الكوفة والبصرة جاؤوا الى محمد الديباج وكان شيخاً

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٣٥ (٣/٩٨٦) .

وادعاً محبباً إلى الناس ، يروي العلم عن أبيه ويظهر السمت والزهد فحملوه على أن يتسمى بإمرة المؤمنين ويؤكد الطبري أن الرجل أبى التورط السياسي فما زالوا به ومازال به ابنه علي حتى قبل . وبايعوه .. وقد انقضت الأشهر القليلة التي قضاها على ذلك أسوأ الانقضاء بسبب سوء سيرة ابنه واصحابه من الناس حتى جاء الجيش العباسي من اليمن وعليه اسحق بن موسى بن عيسى العباسي وانتهى الصدام بأن طلب محمد الديباج وجماعته الأمان على أن يخرجوا حيث شاؤوا .. وخرج الرجل فلقي من العنت والعدوان والعذاب بعد ذلك الكثير وفقد في بعض المعارك عينه ثم طلب الأمان من الوالي العباسي فدخل إثر ذلك الى مكة وصعد المنبر فخلع نفسه وجدد البيعة للمأمون وعليه قباء أسود وقلنسوة سوداء ولكن ... دون سيف ! وذكر أنه إنما قبل البيعة لأنه سمع أن المأمون توفي ! ثم خرج به عيسى بن يزيد الجلودي إلى العراق ثم لحق بالمأمون في خراسان فعفا عنه[1] .

ب ـ عبد الرحمن بن أحمد (بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب) في اليمن سنة ٢٠٧ «وكان السبب في خروجه ـ على ما روى الطبري ـ أن العمال باليمن أساؤوا السيرة» فبايع الناس عبد الرحمن. وقد وجه اليه المأمون بجيش كثيف مع القائد دينار بن عبد الله ومعه كتاب بالأمان . واختار عبد الرحمن كتاب الأمان فجاء بهم دينار الى المأمون في بغداد ويبدو أن اللقاء بـه لم يرض المأمون أو تطاول في الحديث

---

(١) انظر في تفصيل حركة محمد الديباج : الطبري ج٨ ص ٥٣٦ـ ٥٤٠ (٣/٩٨٨ ـ ٩٩٥)

«فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد ...»[1] .

حـ ـ القاسم بن اسماعيل بن ابراهيم (بن الحسن بن الحسن بن علي) . وقد استتر في مصر زهاء عشر سنين ثم بايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان والديلم وكاتبه أهل البصرة والاهواز فعاد إلى الحجاز ومنها إلى تهامة ، واختفى في اليمن حين طلبه المأمون . ولم ينته أمره حتى زمن المعتصم سنة ٢٢٠ هـ .

وربما كان يلخص رأي المأمون وموقفه من القضية العلوية قوله لبعض العلويين حين أراد الاعتذار عن حركاتهم السابقة : كف واستمع مني : أولنا وأولكم ما تعلمون وآخرنا وآخركم ماترون وتناسوا مابين هذين ...»[2] .

### ٣ ـ الخوارج :

تنتهي في هذه الفترة (١٥٨ ـ ٢١٨ هـ) قصة الخوارج بعد أن دامت قرناً ونصف القرن فيسجلون في عصر الرشيد أواخر انتفاضاتهم الدموية . وتنشي عقيدتهم إلى التوطن والهدوء في بعض الاقطار النائية عن مركز الدولة أو الجبلية العسرة ذلك أن الظروف السياسية والاجتماعية للدولة الاسلامية كانت قد تجاوزت الآراء الخارجية وجعلتها متخلفة عن زمانها وغير ذات موضوع :

آ ـ فأما خوارج افريقية والمغرب فيدخل أمرهم في بحث حركات الأقاليم لما نجم عنها عن استقلال تلك الاقطار .

ب ـ وأما خوارج عمان . أصحاب الجلندي فقد كانت الضربة

(١) الطبري ج٨ ص ٥٩٣ (٣/١٠٦٢)

التي نزلت بهم أيام ابي العباس من القسوة بحيث أخلدوا بعدها إلى الهدوء أربعين سنة وإن لم يتخلوا عن المذهب الخارجي . يقول البلاذري : «... ولم تزل عمان مستقيمة الأمر يؤدي أهلها صدقات أموالها ويؤخذ ممن بها من الذمة جزية رؤوسهم حتى كانت خلافة الرشيد . فولاها عيسى بن جعفر بن سليمان (بن علي بن عبد الله بن العباس) فخرج إليها بأهل البصرة فجعلوا يفجرون ويسلبون ويظهرون المعازف فبلغ ذلك أهل عمان . وجلهم شراة (خوارج) فحاربوه ومنعوه من دخولها . ثم قدروا عليه فقتلوه وصلبوه . وامتنعوا على السلطان ولم يعطوه طاعة وولوا أمرهم رجلا منهم ...»[1] .

كانت هذه الثورة التي تمت سنة ١٧٥/٧٩١ احدى أخطر الثورات التي تمت في العهد العباسي وذلك بسبب النتائج البعيدة التي ترتبت عليها . فإنها رغم قرب عمان من العراق لم تكن ثورة عادية ينتهي امرها بإخمادها وقتل زعيمها ولكنها كانت ثورة شعبية كاملة أقنعت الرشيد أن لا أمل للحكم العباسي فيها . وبالرغم من أن خوارج عمان قد أقاموا لأنفسهم «إماماً» منهم ينافس خليفة بغداد فإن الرشيد لم يحاول زحزحة هذا الإمام أو حربه بعد أن بايعه الناس . وهكذا كان محمد بن عفان هو الإمام الأول ثم تلاه سنة ١٨٥ إمام آخر هو الوارث بن كعب ، وثالث سنة ١٩٢ هو غسان بن عبد الله ... وكل ذلك في عهد الرشيد . ويستمر الأمر في يد غسان حتى يليه في عهد المأمون سنة ٢٠٨ عبد الملك ابن حميد ثم المهني بن جعفر سنة ٢٢٨ وينعم أئمة عمان بالاستقلال على هذا النحو ما يزيد على مائة سنة حتى يفتك بهم العباسيون سنة ٢٩٠ هـ (٨٩٣ م) في عهد الخليفة المعتضد فيقتلوا امامهم حسن بن سعيد ويرسلوا

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان (ط . المنجد) ج١ ص ٩٣

برأسه الى بغداد . ولكن ذلك لم يكن يعني ــ على ما يظهر ــ تبعية عمان لبني العباس لانا لانلبث ان نرى اماماً جديداً يظهر في عمان هو : الحواري بن مطرف سنة ٢٩٢ ويبقى الحكم في يد هؤلاء الأئمة (وينشرون مذهبهم الخارجي في زنجبار بشرقي افريقيا) حتى سنة ١١٩٣ هـ ، أي يبقى فيهم زهاء عشرة قرون إلى ان يزيلهم عنه جماعة «الاسياد» واولهم حميد بن سعيد وما يزال الحكم في أحفاده هناك إلى اليوم .

ج ــ وأما خوارج الجزيرة فقد أخرجهم علي المهدي والرشيد خاصة تلك النزعة الخارجية المتأصلة فيهم منذ العهد الأموي ، وظلم الولاة الذي قال فيه شاعرهم :

أنا الوليد بن طريف الشاري ظلمكم أخرجني من داري

وأخيراً ما يأخذونه على الخلفاء من مجافاة للدين وعمل بمالا يتفق مع أوامره ومع الواجب نحو الجماعة الاسلامية . وقد تعددت حركاتهم في هذه الفترة حتى لنعد منها خلال حوالي عشرين سنة (١٦٠ ــ ١٨٠) ما يزيد على عشر ثورات ، أخذ بعضها برقاب بعض ومن تلك الثورات :

ــ خروج عبد السلام بن هاشم اليشكري في أرض الجزيرة سنة ١٦٠/٧٧٦ وقد اشتدت شوكته ما بين الموصل وحلب وكثر اتباعه للدرجة التي استطاع معها أن يقود الثورة في هذه المنطقة الواسعة المطلة على مركز الخلافة والمسيطرة على طرق التجارة مدة سنتين وأن يهزم عدداً من قواد المهدي واحداً بعد الآخر . وقد حاول المهدي محاورته . كتب إليه كتاباً يسأله فيه : «إني قد عجبت من إحداثك وبغيك حيث أسألك ما نقمت إذ حكمت (أي صرت خارجياً) . تكلمت بكلمة حق تريد بها

ما الله مخزيك به ... ( ولعل اليشكري كان يطالب بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه ) ... فأقسم لأغزينك أجنادا مطيعة ... يفضون جمعك ويهتكون بناك ... فاعمل لنفسك أو دع ... » ويحفظ عن خليفة بن خياط نص جواب اليشكري الذي يقول فيه : « من عبد السلام بن هاشم الى محمد بن عبد الله (ولا يخاطبه بالخلافة) : سلام على من اتبع الهدى ، واجتنب الغي ، وقام بالحق ، فلا الهدى ابتغيت ولا الغي اجتنبت ولا بالحق قمت .. أتاني كتابك تعجب عما نقمت إذ حكمت فلست بتاركك في عمياء مما أنت مع أنك إنما خدعت عن هذا نفسك وقد علمت أني إنما ... حكمت حين تركت الأمة تائهةلا حدودها أقمت ولا حقوقها أديت . وشغلت بإمائك ... وبنائك ... والصيد فإذا انثنيت من صيدك تغذيت وغنيت فيمين الله ما أفحش هذا ممن يدعى خلافة الله وأنت إذا خطبت كذبت وإذا عاهدت نكثت .. خدعك يعقوب ابن داوود أخاً آخيت .. ففي أي دين يسعك وفي أي كتاب إذ تعدو وظيفة ، أو تنقص مساحة ، أو تصطفي بستانا ، أو تبذخ في مركب ، أو ترمي به في النزهة ، أو تفاوض في جند ، أو تحبس عطاء ، او تنسى من غزا ، أو تعاقب بالسوط سافكاً الدم أيها الطاغية ... » ونحن نقرأ في الرسالة المآخذ التي كان يأخذها الخوارج على سياسة المهدي وإدارته . لكن الطريف الذي يلفت النظر هو ما يكشفه كتاب المهدي إلى اليشكري من أن العباسيين في حربهم للخوارج كانوا ينصبون أنفسهم محامين عن علي بن أبي طالب ومن أنهم كانوا يعتبرون الخروج عليهم خروجا على طاعة الله . يقول المهدي في كتابه : «... تكلمت بكلمة حق تريد بها ما الله مخزيك به وسائلك عنه مع مناوأتك خليفتة ونزعك يدك من طاعته . وشتمك أبا الحسن علي بن أبي طالب ووقوعك فيه وتنقصك إياه فقد

أتاك حديث صادق عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقوله : من كنت مولاه فعلي مولاه «فكنت المكذب بذلك والحائد عنه ..» وهما مبدآن أساسيان للعباسيين الأوائل ندر أن نجدهما مجتمعين في وثيقة كهذه الوثيقة .

وقد ندب المهدي لقتال اليشكري ألف فارس أعطى كلا منهم ألف درهم معونة ووجههم لنجدة جند الجزيرة وقائدها شبيب بن واج المروررروزي الذي واقع في النهاية عبد السلام فهزمه ثم لحق به الى مقره في قنسرين فقاتله عليها وقتله سنة ١٦٢[١] .

— خروج ياسين التميمي سنة ١٦٨ وقد هزم عسكر الموصل وغلب على أكثر ديار ربيعة الجزيرة قبل أن يجتمع عليه أثنان من خيار قادة المهدي : ابو هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن اعين فيقتل في معركة معهما ويهزم أصحابه[٢] .

— خروج حمزة بن مالك الخزاعي سنة ١٦٩ الذي كرر قصة سابقيه في منطقة الموصل قبل أن يقتل اغتيالا[٣] .

— ثورة الصحصح الخارجي سنة ١٧١ زمن الرشيد وهي نسخة أخرى من الثورات السابقة الفاشلة التي تنتصر أولا ثم تموت وقد حاربه

---

(١) انظر ابن الأثير ج٦ ص ٤٨ وص٥٧ وانظر خليفة بن خياط — التاريخ ج ٢ ص ٤٧٥ (طبعة العمري — بغداد) .
(٢) المصدر نفسه ٦ ص ٧٨
(٣) المصدر نفسه ٦ ص ٩٥

أبو هريرة ثم عزل عن الجزيرة بسببه ولكن بعد أن قتل الخارجي[١] .

– ثورة الفضل الخارجي سنة ١٧٦ الذي ظهر بنواحي نصيبين وجبى الأموال منها وسار الى آمد وأرزن ودارا وخلاط فجباها جميعاً وهزم عسكر الموصل عند الموصل ، على الزاب ولكنه .. قتل في النهاية[٢] .

– ولعل أخطر الثورات وأهمها كانت ثورة الوليد بن طريف الشاري الذي خرج سنة ١٧٨ وجعل مركزه في مدينة نصيبين بعد ان فتك بها وبعامل الرشيد فيها . وهزم عدة جيوش للخليفة في ارمينية واذربيجان وجعل يتجه إلى الجنوب مهدداً السواد . وندب له الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني (ابن اخي معن بن زائدة صاحب الراوندية ومن قبيلة الوليد نفسها) . فاتبع معهم سياسة المخاتلة والمطاولة . ولكن البرامكة وسوسوا الى الرشيد انه يتهاون مع بني عمه فأمره بالجد في القتال ... وقتل الوليد سنة ١٧٩ هـ في مبارزة فرديةمع يزيدفتضعضع شمل اصحابه من بعده . وبالرغم من ان اخته ليلى(وهي شاعرةومحاربة) تولت القيادة بعده غير ان مقاومتها كانت قصيرة . وقد استطاع يزيد ان يردها الى الهدوء بأن أخجلها في الميدان .

– ومن أواخر الثورات تلك الثورة التي اعقبت هزيمةالوليدوقد قام بها في عدة مئاته خراشة بن شنيان سنة ١٨٠ ويفصل خليفة بن خياط

---

(١) ابن الاثير ٦ ص ١١٢
(٢) المصدر نفسه ٦ ص ١٣٣

المؤرخ في خبر خراشة الذي لا يعدو أن يكون خبر مغامر شجاع انتهى نهاية اصحابه[1] على يد مسلم بن بكار العقيلي •

وسيرة هذه الثورات المختلفة تكشف عن تشابه كامل إذ تبدأ عنيفة قوية ثم تمتد على مناطق متعددة وتجبى الأموال في محاولة لايجاد نظام حكم خارجي أعدل وتهزم عدداً من الجيوش العباسية قبل أن تتكاثر عليها هذه الجيوش فتقتل زعيمها وبعض أصحابه فيؤدي ذلك إلى قتلها بدورها • وهذا التشابه قد يوحي باحتفاظ الخوارج حتى بعد مرور قرن وربع أو نصف القرن على ظهورهم الأول بالسذاجة الثورية وبالاخلاص الديني العنيف اللذين ما انفكا من ميزة الحركات الخارجية • على أن تكرر هذه الثورات دون انقطاع إنما كان دليلا وتعبيراً عن الاستياء المتمادي والنظرة الحاقدة العدائية التي كان ينظر بها عرب الجزيرة خاصة للحكم العباسي • أما السكان الاصليون ومعظمهم من الذميين واليعاقبة والأرمن فإنهم وإن كانوا ناقمين فإنا لا نجد لهم ظلا في هذه الحركات الخارجية بل كانوا بدورهم من ضحايا تلك الثورات •

على أن الظروف العامة من سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية كانت تتغير في الشرق العربي منذ مطالع القرن الثالث الهجري ، ولهذا تهمد حدة الثورات الخارجية في الجزيرة بعد الوليد بن طريف فلا نكاد نسمع إلا النادر من حركاتها وأخبارها سنة ١٨٠ ثم سنة ١٨٤ ثم ثورة سيف بن بكير سنة ١٩٠ ثم ابنه شروان بن سيف سنة ١٩١ ـ ١٩٢ ثم ثورة خارجية أخرى سنة ٢٠٢ ثم تموت الأخبار بعد ثورة بلال الشاري سنة

---

(١) خليفة بن خياط التاريخ ج٢ ص٤٨٨ ـ ٤٩٠

٢١٤ فلا نسمع للخوارج من حسيس في الجزيرة لأن هموماً ومشاكل أخرى كانت تجذب اهتمام أهلها .

ء - خوارج خراسان كانت الثورة الخارجية التي اجتازت إلى خراسان منذ العهد الأموي وعششت خاصة في سجستان أي في المنطقة الجنوبية منها ما تزال ناشطة فعالة حتى عصر الرشيد . كانت الظروف العامة للمنطقة تسمح لها بالبقاء والنشاط . ولعل أخطر حركاتها :

- ثورة يوسف بن ابراهيم البرم : وأصل الرجل من موالي ثقيف في بخارى ويبدو أنه كان على جانب حسن من التقوى والاخلاص الحار للمعتقد الديني . وإذا كان ثمة شك حول انتمائه السياسي جعل الطبري يسكت مرة عن هذا الانتماء ويروي مرة أخرى إنه عند بعض المسلمين كافر[1] ويحكي ابن الأثير إنه «قيل إنه كان حرورياً» إلا إن جرأة الرجل وشعاراته وأعماله والمكان الذي ظهر فيه مع بعض القرائن الأخرى ترجح كلها أنه حروري خارجي . فقد دعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنكر على المهدي الحال التي هو بها وسيرته التي يسير عليها مما يذكرنا بالدعوة التي نادى بها في الوقت نفسه عبد السلام اليشكري في الجزيرة وقد ثار الاثنان في سنة واحدة سنة ١٦٠ واتفقا لا في الأمر بالمعروف فقط ولكن في نقد سيرة المهدي أيضاً واجتمع البشر الكثير حول يوسف البرم ومن بينهم بعض الفقهاء كابي معاذ الفاريابي . بدأت الثورة في بوشنج وعليها مصعب بن زريق (جد طاهر بن الحسين) فهرب منه وعند ذلك تغلب على بلدان أخرى في المنطقة منها مروالروز والطالقان

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٢٤ وص ٣٧١

والجوزجان وفشا أمره للدرجة التي جعلت المهدي يرسل عليه قائده المشهور يزيد بن مزيد الشيباني • وفي المعركة التحم الرجلان حتى صارا إلى المصارعة الجسدية وانتصر يزيد • قيل إنه رفع علماً أحمر وأمن من يصير تحته فصار إليه كل أصحاب يوسف[1] وأسر يوسف مع بعض أصحابه فوجه بهم يزيد الى بغداد • وفي النهروان ــ حيث كانت أول هزائم الخوارج الأولين : وضع يوسف على بعير وقد حول وجهه الى ذنبه وأصحابه مثله فأدخلوهم الرصافة على تلك الحال ويذكر اليعقوبي أن يوسف حين ادخل على المهدي كلمه بكلام غليظ فشتمه المهدي وقال: لبئس ما أدبك أهلك • وانتهى الرجل بأن قطعت يداه ورجلاه ثم قتل مع أصحابه وصلبوا على الجسر قرب عسكر المهدي[2] •

ــ خروج الحصين بن الرقاد مولى قيس بن ثعلبة سنة ١٧٩ وهو من أهل أوق ثار فيها وهزم جيش والي سجستان عثمان بن عمارة واستطاع الاستيلاء على باذغيس وبوشنج وهراة ، واضطر الرشيد أن يأمر واليه على خراسان الغطريف بن عطاء (وهو خال الرشيد) بملاقاته فسير إليه جيشاً من اثنى عشر ألفاً لقيهم الحصين في ست مائة نفر فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ثم سار في خراسان متمرداً قرابة السنة قبل أن يقتل سنة ١٧٧[3] •

ــ وما كادت ثورة الحصين تنتهي حتى ورثتها أخرى في المنطقة

---

(١) انظر ابن الأثير ج٦ ص٤٣ والطبري ج٨ ص ١٢٤ (٣/٤٧٠)
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٣٩٧
(٣) انظر ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٤ وثمة بعض المصادر كالشهرستاني في الملل والنحل (ص ١٣٠) تسمي هذا الرجل بالحسين بن الرقاد .

نفسها وثائر آخر على النهج نفسه ..

ولكن الثورة كانت في هذه المرة من أطول ما عرف التاريخ العباسي من الثورات الخارجية كما كان الثائر من أعند ما لقي العباسيون من المناوئين ويعرفه المؤرخون باسم حمزة ثم يختلفون في اسم ابيه فهو تارة أترك وأخرى أدرك وثالثة عبد الله بن الازرق[1] . ولا يعني هذا الاختلاف أنه نكرة في زعماء الخوارج أو مذهبهم فإنه أحد الرؤوس ذات الرأي والفقه في الفكر الخارجي .

يتفرع مذهب حمزة من مذهب العجاردة (أصحاب عبد الكريم بن عجرد) وهو يقول بأن القدر خيره وشره من العبد . وبأن قتال السلطان الجائر واجب كما أن من الواجب حده مع من رضى بحكمه ... وكان لا يكفر القعدة بين الخوارج ولكن يكفر من يخالفه في الرأي ويضعهم جميعاً في زمرة المشركين ويستحيل على هذا الأساس قتلهم وإحراق أموالهم وعقر دوابهم بل ويقتل الأسرى منهم . وإذا سمحت له ثورته التي استمرت ثلث قرن تقريبا أن ينشيء ويوطد مذهب «الحمزية» الذي نسب إليه فإنه لم يسلم من مخالفة بعض الخوارج في المنطقة له فقد أنكر

---

(١) يسميه الطبري (ج٨ ص ٢٦١) ويتابعه ابن الأثير (ج٦ ص١٤٧) باسم حمزة بن اترك السجستاني ويسميه البغدادي في الفرق بين الفرق (ص ٥٨) حمزة بن اكرك ولكنا نجد الاسم لدى الشهرستاني (في الملل والنحل ص ١٢٩) ابن ادرك . وهو كذلك لدى المسعودي في مروج الذهب وابن ظافر الأزدي (في الدول المنقطعة ـ مخطوط المتحف البريطاني ورقة ١١١ وجه) ابن ادرك الشاري واما صاحب تاريخي سيستان (ط . طهران ١٣١٤ ـ ص١٥٦) فيسميه حمزة بن عبد الله بن الأزرق الشاري .

رأيه في القدر زميله خلف الخارجي فبرىء كل منهما من صاحبه وانحاز خلف الى كرمان ومكران بينما أعلن حمزة جواز قيام إمامين للمؤمنين في عصر واحد ما لم تجتمع الكلمة ولم تقهر الاعداء ...[1]» .

ويظهر أن حمزة كان تلميذاً للحصين (أو الحسين) بن الرقاد[2] صاحب الثورة السابقة فلما قتل أستاذه قام بها سنة ١٧٩/٧٩٥ وانتشر أمره ما بين بوشنج وهراة[3] فخرج إليه عمرويه بن يزيد الأزدي ، صاحب هراة في ستة آلاف فهزمه حمزة وقتل من أصحابه جماعةوبينما مات عمرويه في الزحام ... أعلن حمزة نفسه أميراً للمؤمنين سنة ١٨١ وقد كتب إليه الرشيد ، على طريقة المهدي يدعوه الى الانضمام للجماعة ويندد بخروجه ويهدد ويعد فأجابه حمزة بجواب عنيف على الطريقة الخارجية أنهاه بالشعار الخارجي «لاحكم إلا لله يفصل بالحق وهو خير الفاصلين» . ولما ولي علي بن عيسى خراسان تأخر حتى بعث إليه ابنه الحسين في عشرة آلاف فلم يستطع الابن أن يفعل شيئا بل لم يحارب حمزة الذي سيطر فيما يبدو على المنطقة وقطع طرق التجارة ما بين شمال الهند وافغانستان وخراسان . فسير علي بن عيسى ولده الثاني عيسى وبالرغم من أنه انهزم بدوره فقد أعاد أبوه تجهزه وإرساله لا سيما حين استفحل الخطر واستطاع حمزة العبث بعدد من مواقع المنطقة منها باذغيس سنة ١٨٥ والانتقال منها الى نيسابور . وأدركه عيسى هناك

---

(١) انظر الشهرستاني ــ الملل والنحل ج١ ص ١٢٩ ــ ١٣٠ والبغدادي ــ الفرق بين الفرق ص ٥٨ والأشعري مقالات الاسلاميين (ط. محمد محي الدين عبد الحميد) ج١ ص ٩٤ .

(٢) الشهرستاني ــ الملل والنحل ص ١٣٠

(٣) الطبري ج٨ ص٢٦١ (٦٣٨/٣) وابن الأثير ج٦ ص١٤٧

ودارت الدائرة على حمزة الذي فقد ــ فيما يقولون ــ عشرة آلاف من اتباعه وبقي في اربعين رجلا فقصد صحراء قوهستان هربا ••• بينما وزع عيسى أصحابه إلى أوق وجوين وسار بنفسه حتى بلغ كابل وزابلستان والقندهار (من الهند) فقتل من بها من الخوارج وقصد القرى التي كان أهلها يعينون حمزة فأحرقها وقتل من فيها حتى وصل إلى زرنج فقتل ثلاثين ألفاً فيها •••[1] •

كان غرض عيسى أن يدمر القواعد التي يستند إليها حمزة لترفضه المنطقة ويظهر أن قاعدة عمله كانت في زرنج التي نكبت بمذبحة مروعة وخلف عيسى عليها رجلا اسمه عبد الله بن العباس النسفي فجبى منها الأموال التي فرضت عليها لإفقارها وسار عنها • وكان على حمزة أن يثبت وجوده الدفاعي فخرج لعبد الله ولمن معه من الصغد (وكانت جمهرة جيشه على ما يظهر منهم) عند بلدة أسفنديار فصبر له عبدالله في القتال حتى انهزم حمزة بعد أن جرح في وجهه وقتل كثير من اصحابه واختفى في الكروم •••

ثم عمد حمزة بعد ذلك إلى بعض الاعمال التخريبية الانتقامية ومنها قتل معلم كتاب مع ثلاثين من تلاميذه وبلغ الخبر الى طاهر بن الحسين الذي كان قد تسلم حكم بوشنج فأجاب على ذلك بعمل انتقامي أشد وأقسى إذ «أتى قرية فيها قعد الخوارج وهم الذين لا يقاتلون ولا ديوان لهم فقتلهم طاهر وأخذ أموالهم • وكان يشد الرجل منهم في شجرتين ثم يجمعهما ثم يرسلهما فتأخذ كل شجرة نصفه • فكتب القعد

---

(١) ابن الأثير ج٦ ص ١٥٠ ــ ١٥١ (حوادث سنة ١٨١) والطبري ج ٨ ص ٢٧٣ (٣ سنة ٦٥٠ .

الي حمزة بالكف ... فوعدهم وأمن الناس مدة[1]» ...

على أن حمزة عاد فاسترد مكانته وقوته في المنطقة تدريجياً وبعد تلك الضربة الساحقة التي أصابته سنة ١٧٩ كان عليه أن ينتظر اكثر من اثنتي عشرة سنة ليستطيع الظهور من جديد سنة ١٩٢ وقد انتهز فرصة انشغال الدولة بثورة رافع بن الليث في ما وراء النهر وانصراف القوى العسكرية العباسية إليها فاستعاد السيطرة لا على المنطقة التي كان فيها ولكن تقدم نحو خراسان . يقول ابن الأثير : «... وحصر هرثمة (بن أعين) رافع بن الليث بسمرقند وضايقه واستقدم طاهر بن الحسين فحضر عنده فخلت خراسان لحمزة الخارجي حتى دخلها وصار يقتل ويجمع الأموال . ويحملها إليه عمال هراة وسجستان» ويبدو أن حمزة كان يأمل أن يعمل على إقامة دولة خارجية في تلك البقاع لأنه على ما يظهر من تصرفاته كان يقيم نوعاً من النظام والجباية ولا يأبه كثيراً لوجود المأمون ولي العهد الثاني والياً على المنطقة ...

وقد أرسل إليه المأمون بجيش من عشرين ألفاً يقوده عبد الرحمن النيسابوري استطاع بعد القتال المرير أن يصد هجوم حمزة وتوسعه وأن يرده بعد أن قتل خلقاً من أصحابه نحو الجنوب حتى بلغ هراة سنة ١٩٤ ثم كتب المأمون فرد الجيش إليه[2] ... ولعل السبب في هذا

---

(١) ابن الأثير ج٦ ص ١٥١ وانظر في أخبار الثورة كلها وغيرها كتاب المؤلف المجهول : تاريخي سيستان (ط . طهران سنة ١٣١٤) ص ١٥٦ فما بعد حتى ص ١٧٠ ــ بالفارسية .

(٢) ابن الأثير ج٦ ص ٢٠٩

الارتداد هو أن المأمون شعر أن ولايته كلها في خطر بعد مكاشفةالأمين له بنزعه عن ولاية العهد وقدر أنه أكثر حاجة للجيش في الدفــاع ضد جيش أخيه القادم عليه منه إلى إخماد ثورة هذا الثائر ...

وبالرغم من أن سجستان قد فك ارتباطها الإداري[1] بالمركز منذ عهد الأمين ثم المأمون وربطت بخراسان فقد استمر حمزةوالخوارج هم المتغلبون على سجستان حتى سنة ٢١٣/٨٢٧ حين هــزم حمزة أمام جيش المأمون . وبعض المصادر تقول إنه قتل في المعركة وبعضها تقول إنه غرق في واد بكرمان[2] .

ولم يكن بامكانه ، بعد أن أسس نوعا من الدولة الخارجية ،وقاد ضد العباسيين حركة من اطول الحركات الثورية الانفصالية ، ان يحول حكمه الى الشكل الوراثي لأن المبدأ الخارجي لا يقول بذلك ولأن مقاومة إسلامية كانت قد بدأت ضده ضمن البلاد ذات اتجاه سني عباسي . ويبدو أن العباسيين هم الذين غذوا هذه المقاومة التي أخذت بمحاربة الخوارج محلياً وبأسلحتهم . ولكن مذهبه الخارجي ظل يعرف باسمه من بعده وظهرت له في سجستان فروع منها الأطرافية والمحمدية .

لكن الحماسة للمذهب الخارجي انحسرت تدريجياً بعد ذلك حتى

---

(١) اليعقوبي ــ البلدان (طبعة دي غويا سنة ١٨٩٢ مــع كتاب ابن رستة) ص ٢٦٨

(٢) البغدادي ــ الفرق بــين الفرق ص ٥٨ واما الفرق فيذكره ابن ظافر الأزدي في الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني رقم ٣٦٨٥ ج٥) الورقة ١١١ وجه .

صاروا يلجؤون الى الحصون وصار الناس يتطوعون «حسبة لله» لقتالهم ويؤلفون الجماعات العسكرية لذلك • ومن أواخر رؤساء هؤلاء الخوارج (في اواسط القرن الثالث) عمار بن ياسر الذي قتل في معركة مع جماعته من المطوعة اجتمعوا حول رجل «يظهر الحسبة في الغزو وقتال الخوارج» هو درهم بن نصر • وكان بين رجال درهم هذا أربعة إخوة عرفهم التاريخ باسم آل الصفار هم الذين أسسوا الدولة الصفارية[1] في سجستان •

وما من شك في أن ما عجزت عنه الدولة العباسية من محو الخوارج إنما قامت به وفي نجاح واضح الدول المحلية المنقطعة التي ظهرت في ايران أمثال الصفارية والطاهرية وما تلاهما حتى لم يعد للمذهب الخارجي من وجود في تلك البقاع وهو بالضبط ما جرى في المغرب العربي حيث تكفلت الدولتان الأغلبية والادريسية وما تلاهما بالمهمة ذاتها •

**٤ ـ حركات الاقاليم :**

كانت عوامل مختلفة تلتهب ببعض أقطار الدولة العباسية فتدفعها، في تلك الفترات ، الى الثورة • وقد ترتب على بعض تلك الحركات نتائج خطيرة إذ كانت سبباً في بدء تجزؤ الدولة وهي في أوج قوتها •

**آ ـ في افريقية :**

كان المنصور قد حسم أمر ولاية افريقية والمغرب (تونس وما يليها

---

(١) انظر ابن حوقل ـ صورة الارض ص ٣٥٣

من الشمال الافريقي) وأمر من بها من ثائرة الخوارج والبربر بتعيين قائده القدير يزيد بن حاتم المهلبي الذي استقامت افريقية على يديه فلم يعد المؤرخون يسجلون ما اعتادوا تسجيله من أخبار المعارك والحروب والفتن في عهده الذي استمر حتى وفاته سنة ١٧٠ وقد سجلوا بالعكس الأعمال الانشائية التي سمح له الأمن والسلام أن يقوم بها • فقد اهتم بأسواق القيروان ونشاطها التجاري وتنظيمها حتى قال النويري : «إنه هو الذي حضرها» وجعلها حاضرة • وعني بالزراعة كما عني بالحياة الأدبية والدينية • فاجتمع إليه الشعراء والفقهاء • وفي عهده انتشرت آراء مالك ومذهبه في افريقية •

وقد كان ممكناً أن ينشأ في تلك البقعة أسرة مهلبية شبه مستقلة وبدأت هذه الاسرة الظهور بالفعل لولا أن الظروف أوجدت بدلا منها الأسرة الأغلبية • فإن داوود بن يزيد المهلبي لم يبق في الحكم سوى تسعة أشهر بعد وفاة أبيه سنة ١٧٠ ثم أعطى الرشيد الولاية لعمه روح ابن حاتم ولكنه بالرغم من ضبطه البلاد وقمعه تمرد الخوارج الاباضية لم يطل به العمر فتوفي سنة ١٧٤ وبايع الجند ابنه قبيصة • ولكن صاحب البريد الذي كان قد كتب إلى الرشيد بشيخوخة روح وأخذ موافقته على تعيين نصر بن حبيب المهلبي بديلا له إن توفي، مشى مع أحد القواد إلى نصر وأبلغاه عهد الرشيد ونصباه بدلاً من قبيصة[1] وعمل الجند وأمر بغداد كلاهما يعنيان أن ثمة نوعاً من الاعتراف العام الرسمي والشعبي بأن الولاية قد أصبحت لبني المهلب •

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج١ ص ٨٥ . والنويري — نهاية الارب (مخطوط) الجزء ٢١ الورقة ٩٩ وجه .

على أن عهد المهلبيين الذي دام حتى الآن عشرين سنة ونيفاً لم يدم أكثر من ثلاث سنوات أخرى لأنهم دمروا أنفسهم : فقد سعى الفضل بن روح المهلبي لدى الرشيد حتى عهد إليه بالولاية فوصل إفريقية في مطالع سنة ١٧٧ ولكنه ما لبث إلا سنة وبعض السنة حتى اصطدم بثورة الجند عليه من تونس لأنه عهد بهم إلى ابن أخيه «وكان غير ذي تجربة ولا سياسة للجمهور»[١] كما كانوا هم بدورهم ميالين إلى نصر بن حبيب فاختاروا زعيماً لهم هو عبد الله بن الجارود وأكدوا له البيعة والمواثيق وطردوا ابن أخ الفضل . وأجابهم الفضل على ذلك بإرسال وال آخر من أهل بيته مع عدد من القواد والجند فاعترضهم بعض عسكر تونس في الطريق وقتلوا القائد الجديد وأسروا كبار أصحابه .

ويظهر أن ابن الجارود لم يكن يريد الوصول إلى مثل هذه المواجهة المباشرة ولكن أحد قواده وهو محمد بن يزيد الفارسي كان رأسها المدبر وقد كاتب القواد المختلفين في القيروان ووعدهم بالمناصب فأعطوا الثوار تأييدهم وهكذا سار ابن الجارود في العسكر إلى القيروان ففتحت له أبوابها فأخرج منها الفضل بالأمان ولكن القواد عادوا فردوا الفضل وهو في أول الطريق إلى المشرق ثم اعتقلوه وتناظروا في أمره فحسم بعضهم الجدل بقتله ( شعبان سنة ١٧٨ تشرين الثاني سنة ٧٩٤ ) وانتهت بمقتله أسرة المهلب في إفريقية لأن

---

(١) ابن عذارى ـ البيان المغرب ج١ ص ٨٦ ، وانظر ابن الأثير (حوادث سنة ١٧٧) ج ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ولديه تفصيلات واسعة حول ثورة ابن الجارود .

ابن الجارود طرد منها كافة المهلبيين الآخرين ..

وعرفت إفريقية بعد ذلك فترة اضطراب دامت سبعة أشهر قتل خلالها الفارسي بمؤامرة من ابن الجارود نفسه وخرج ابن الجارود وخصمه العلاء بن سعيد قائد البربر كلاهما من إفريقية إلى المشرق بينما وصل القائد هرثمة بن أعين ، والياً على البلاد من قبل الرشيد [١] في مطالع سنة ١٧٩/٧٩٥ . وهدأت الأحوال واستطاع هرثمة أن يقوم ببعض أعمال التحصين الدفاعي ومنها بناء سور لمدينة طرابلس من ناحية البحر وبناء القصر الكبير المعروف بالمنستير[٢] ، وهو الرباط المعروف قرب سوسة والذي سوف يصبح فيما بعد أشهر رباطات الساحل الافريقي . وهذا يعني أنه كان يشعر بتهديد الاسطول البيزنطي المرابط في صقلية .

ويظهر أن هرثمة شعر بالانقطاع البعيد عن مركز الخلافة مع « سوء الطاعة »[٣] في الناس فاستعفى من الولاية ولما يقض فيها سوى سنتين ونيفاً وغادر إفريقية ( رمضان سنة ١٨١/تشرين الاول سنة ٧٩٧ ) بعد أن حل محله محمد بن مقاتل العكي ، شقيق الرشيد بالرضاع[٤] . غير أنه لم يكد يمضي ثلاث سنوات حتى ثار عليه الجند مرات بسبب سوء سيرته فيهم وفي الناس ، ومن ذلك أنه اقتطع

---

(١) انظر ابن عذاري – ج ١ ص ٨٨ وان الأثير ٦ ص ١٣٦ والنويري – نهاية الأرب الورقة ١٠٢ وجه . وقد اكرم الرشيد العلاء بالحباء والهدايا بينما مات ابن الجارود في مصر بعد قليل .

(٢) ابن عذارى ج١ ص ٨٩

(٣) ابن عذارى ج١ ص ٨٩

(٤) ابن الأثير ج٦ ص ١٥٤

أرزاقهم وضرب وسجن أحد الزهاد المشهورين في إفريقية ( البهلول ابن راشد ) لأنه وعظه وسفه تصرفاته وخاصة منها إمداد بعض الروم في صقلية بالسلاح . وكادت تتكرر مع العكي مأساة الفضل المهلبي إذ ثار عليه جند تونس تمام التميمي وطردوه سنة ١٨٣ وبينما كان في الطريق إلى المشرق تدخل قائد آخر فرده إلى القيروان . وهذا القائد هو إبراهيم بن الأغلب التميمي الذي سيبدأ به تاريخ جديد للمنطقة وتبدأ باسمه أسرة حاكمة ودولة شبه مستقلة فيها .

كان قائد الثوار تمام أضعف من ابن الأغلب الذي كان يقود البربر ولذلك استطاع أن يدخل القيروان دون قتال وأن يرد العكى الذي صارت النساء من كوى المنازل يعيرنه بأنه يدين لابن الأغلب بملك افريقية[1] و « ثقل ذلك على أهل البلد » مما شجع تماماً على معاودة الثورة . فتدخل ابن الأغلب مرة اخرى وسار إليه في جيش كثيف وانتهت المعركة العنيفة التي قامت بهزيمة تمام ثم باستسلامه وطلب الأمان في مطلع سنة ١٨٤ . فأرسل مع باقي رؤوس الثورة الى حيث سجن في المطبق ببغداد[2] .

وأما ابن الأغلب فقد وضح للناس أنه يطمع في شيء من الولاية . وقد كان تمام قد جرب الوقيعة بينه وبين العكى فأرسل إليه بيتين من الشعر يقول فيهما :

---

(١) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٩٠ وابن الأثير ( سنة ١٨١ ) ج ٦ ص ١٥٤ — ١٥٥

(٢) انظر ابن خلدون ج٤ ص ٤١٩

وما كان ابراهيم من فضل طاعـة يرد عليـك الملـك لكن لتقتـلا
فلو كنت ذا عقل وعلم بكيـده لما كنت منه يا ابن عك لتقبلا [1]

فلما انتهى تمام وضحت أطماع الأغلبي الذي أصبح منـذ ذلك الوقت القوة الأولى في افريقية • وقد استغل قوته هذه أحسن الاستغلال ليؤسس ما عرف في التاريخ بدولة الاغالبة •

كان باقي أفريقية حتى أقصى المغرب قد عرف تطورات خطـيرة واسعة في تلك الفترة مابين سنة ١٧٠ و سنة ١٨٤ وهي تطورات أخرجته في الواقع عن نطاق الدولة العباسية وأعطته مصيره الخاص الذي سوف نبحثه فيما بعد ، في عرضنا للسياسة الخارجية ويكفي أن نذكر هنا لإتمام الصورة أن دولة للخوارج هي الدولة الرسمية كانت قد ظهرت واستقرت في المغرب الأوسط ودولة أخرى للعلويين الأدارسة كانت قد قامت في المغرب الأقصى إن لم نذكر بعض الامارات الصغيرة الأخرى أيضاً •وكان نفوذ بغداد ينتهي في افريقية ( تونس ) التي سوف تستقل بدورها أيضاً في ظل الأغالبـة •

**الـدولة الأغلبية** : يذكر ابن الأثير أن « أهل البلاد حملوا ابراهيم ابن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية افريقية » وتقول رواية اخرى أن صاحب البريد كتب الى الخليفة بحسن بلاء ابن الاغلب الذي عرف من هرثمة بن أعين وغيره اخلاص ابن الاغلب « وعقله ودينه وكفايته » وحب الناس له فعينه والياً على البلاد • والواقع أن الأغلبي أرفق طلبه للولاية بعرض مغر قدمه لبغداد كان كافياً لزحزحة العكى المستند إلى رضاعه والى تأييد جعفر البرمكي وهو أن ابن الاغلب عرض على الرشيد الاستغناء عن المعونة السنوية التي كانت تحـول من مصر الى

(١) ابن عذاري ـ البيان ج١ ص ٩٠

افريقية ومقدارها مائة ألف دينار وأن يدفع بالعكس ٤٠ ألف دينـار الى بيت المال[١] .

على أن أهم الاسباب في تعيين ابن الاغلب كانت دون شك رغبة الرشيد في إقامة سد قوي في وجه الدولة الادريسية التي بدأت الظهور في المغرب وضرورة وجود وال قوي الجند والنفوذ يستطيع الوقوف ضد توسعها إن لم يستطع القضاء عليها . وهكذا كتب الرشيد عهد ابن الاغلب في مطالع سنة ١٨٤ على افريقية بينما انتزع العكى نفسه منهـا انتزاعـاً[٢] .

وبدأ ابن الاغلب حكمه بعمل ندر من الولاة من قام به[٣] وهو يدل على التصميم البعيد في الحكم هو بناء مدينة له قرب القيروان . ولا شك أن مشروعه الأول لم يكن يطمح إلى أن تكون اكثر من حصن واسع يجمع قصره مع مسجد جامع ومساكن للحاشية ومعسكرات للجند يأمن معها التمردات التي تعودها الجند في القيروان وتونس وذلك على المثال الذي جعل المنصور يبني بغداد حين خاف الهاشمية وجعل المعتصم يبني سامراء حين أراد الخلاص من ضغط الجند في بغداد وربما كانت رغبة ابن الأغلب في ان يعيش حياته الخاصة بعيداً عن أهل القيروان من بين الدوافع لبناء المدينة .

---

(١) انظر ابن الأثير ج٦ ص ١٥٥ (حوادث سنة ١٨١)

(٢) يروي النويري ـ (نهاية الأرب (المخطوط) ج ٢١ ورقـة ١٠٤ ظهر ١٠٥ وجه ) أنه زيف رسالة بتجديد تعيينه فلما علم الرشيد غضب واستدعاه مع التوبيخ له .

(٣) قام به مثلا صالح بن علي العباسي في مصر حين دخلها واسس مدينة العسكر وقام به ابن طولون حين بنى القطائع .

بدأ ابن الأغلب البناء منذ السنة الأولى لحكمه سنة ١٨٤ وأتمه في السنة التالية وسمى المدينة بالعباسية[١] وإن سماها الناس باسم القصر القديم وكان من الحصافة السياسية بحيث حقق هدفه دون أن يثير ثائرة الجند عليه او ارتيابهم فقد احتمل شراسة أعمالهم وداراهم في الوقت الذي كان يشتري اعداداً واسعة من الرقيق السودان زعم أولاً أنه يريد استخدامهم في الصناعة تخفيفاً على الناس ثم جعلهم لحمل سلاح الجند كي يحملوا عنهم أثقالهم اكراماً لهم ثم استطاع ذات ليلة أن ينتقل إلى مدينته مع عبيده السودانيين وقد سبقه السلاح والعدد[٢] فإذا هو في حرس خاص له . وإذا بالجند دون سلاح .

وقد برهنت العباسية عن فائدتها فور انتهائها فقد احتمى بها ابن الأغلب من أول ثورة قامت عليه من الجند سنة ١٨٦/٨٠٢ ثم هزم الثوار بعد ذلك عند سبخة تونس ( شط الجريد ) أشنع هزيمة إذ فقدوا مع زعيمهم عشرة آلاف قتيل .

ثم برهنت مرة اخرى على قيمتها حين ثار على ابن الأغلب قائده الأول عمران بن مجالد الربيعي الذي اجتذب الكثير من القادة والانصار

---

(١) موقعها على مسيرة ثلاثة اميال جنوب القيروان وقد استقبل ابن الأغلب فيها سنة ١٨٥ رسل شارلمان الذين جاؤوا لنقل رفات القديس سيبرين الى فرنسا . وقد بنى الأغالبة سنة ٢٦٤ عاصمة ثانية على بعد ثمانية اميال من جنوب القيروان هي رقادة مالبثت ان فقدت مكانتها بانهيار الدولة الاغلبية .

(٢) أنظر ابن عذارى ــ البيان المغرب ج ١ ص ٩٣ والنويري ورقة ١٠٥ وجه .

إليه وغلب على معظم افريقية وعلى القيروان وحاول استعداء الفقهاء على سيده • واحتمى ابن الأغلب وراء أسوارمدينته وخندقها مدة الثورة التي استمرت عاماً طويلاً ولم يخلصه منها سوى وصول الأموال من قبل الرشيد لدفع مرتبات الجند[1] فبعث ابن الأغلب فنادى من كان من جند امير المؤمنين فليأت لأخذ عطائه ••• وتراكض الجند يتركون عمران الى ابن الأغلب ، فلما قل عدده هرب ودخل الأغلبي القيروان فقلع أبوابها وهدم سورها لئلا تعود للثورة ••• وحكم بعد ذلك حتى وفاته سنة ١٩٦/٨١٢ فلم تعرف افريقية ـ على حد قول ابن الرقيق المؤرخ ـ والياً اعدل ولا أحسن سياسة ولا أرفق بالرعية ولا أضبط للأمور منه ••• »[2] •

وقد بلغ من براعته أنه أقام ـ رغم تمثيله للخلافة العباسية ـ علاقات عادية وأحياناً علاقات من الود والتعاون مع دولة الخوارج الرسمية التي كان نفوذها يمتد عبر الصحراء الجنوبية حتى جبل نفوسة في طرابلس كما نجح في استمالة بعض أعوان ادريس العلوي حتى هدد دولته واضطره لطلب الموادعة والكف عنه[3] •

وقد عهد ابراهيم بن الأغلب قبل وفاته الى ابنه عبد الله بالولاية دون الرجوع الى بغداد إما لأنها كانت أعطته الحق الوراثي أو لانه استغل حصارها في فتنة الامين والمأمون فأخذ هذا الحق لنفسه • وكان

---

(١) انظر ابن الأثير ج٦ ص ١٥٦

(٢) نقل الجملة النويري ج٢ ورقة ١٠٦ وجه . كما ذكر مثل ذلك ابن عذارى ج١ ص ١١٦

(٣) ابن الأثير ج٦ ص ١٥٧ وابن خلدون و ج٦ ص ١١٩

**عبد الله** يحارب الخوارج في طرابلس فصالحهم على أن تكون المدينة والبحر له والبر من جبل نفوسة وما وراءه إليهم ثم جاء القيروان فعاش على جهود ابيه خمس سنوات ذلك انه أحدث بافريقية وجوهاً من الظلم شنيعة وشدد على الناس في المغارم واستخف بالفقهاء والصالحين الذين كانوا ينصحونه وطردهم • ولكنه توفي سنة ٢٠١ ليخلفه اخوه زيادة الله • وكانت الخلافة في بغداد على اضطرابها • وعلى البيعة لابراهيم بن المهدي أو للمأمون • وهذا ما مكن للأغالبة مكانهم من الملكية الوراثية التي لا ترتبط مع بغداد باكثر من رابطة المبلغ المالي السنوي والاعتراف بالولاء الاسمي الذي كانوا الحكام الشرعيين الوحيدين في افريقية والمغرب في أنظار الناس •

استمر عهد زيادة الله اثنتين وعشرين سنة ( ٢٠١ — ٢٢٣ ) ويعتبر في نظر المؤرخين أعظم وأفضل الأمراء الأغالبة • كاتب المأمون أولاً فجاءه التقليد منه وظل مخلصاً له فلم يمل مع ابراهيم بن المهدي فلما وصل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ شكر له ذلك [1] لكنه حين بعث يطلب منه الخطبة على منبره لعبد الله بن طاهر الذي ولي النصف الغربي من الخلافة كله سنة ٢١١ غضب زيادة الله وبعث مع رسول الخليفة كيساً به ألف دينار مضروبة باسماء بني ادريس العلويين بالمغرب ••• يهدده بالانضمام للادارسة ••• وسكوت المأمون بعدها عنه كان اعترافاً كاملاً باستقلال الأغالبة لكن قوة زيادة الله لا ترجع الى هذا الاعتراف بقدر ما ترجع الى انتصاره على الثورات المتتالية التي قام بها الجند العربي ضده وخاصة سنة ٢٠٨ ،

---

(١) انظر ابن الخطيب اعمال الاعلام القسم الثالث ص١٦ .

سنة ٢٠٩ وسنة ٢١٠ وكان من نتيجتها تحطيم القوى العربية في افريقية •

ولعل أهم ماقام به زيادة الله هو أولاً جهده العمراني فقد ترك في القيروان والعباسية وتونس وسوسةالكثير من الآثار والابنية من المساجد والقناطر والأربطة وخزانات الماء •

وأما الامر الثاني فهو غزو جزيرة صقلية والنزول فيها منذ سنة ٢١٢ ولم يكن السبب في ذلك الغزو محبة التوسع السياسي والغنائم والجهاد الديني والفتح فقط ولكن كان وراءه دافعان أساسيان آخران هما قمع الأعمال العدوانية التي يقوم بها الاسطول الرومي ضد الموانىء الافريقية ثم السيطرة على طرق التجارة البحرية مابين حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي • ويمكن أن يضاف الى ذلك رغبة زيادة الله في إشغال جنده وخاصة منهم البربر لئلا يشغبوا عليه بعد أن أخمد الثورات المختلفة التي قامت ضده •

وقد تولى الحكم بعد زيادة الله أخوه ابو عقال مدة ثلاث سنوات وقد أخذ الناس بالحسنى وقمع المظالم وزيادة ارزاق الجند والتودد الى الناس كما تابع بدوره عملية الغزو الصعب بصقلية • وأعقبه أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم ما بين سنتي ٢٢٦ و ٢٤٢ واستمر الحكم للاغالبة بعد ذلك حتى سنة ٢٩٦ حين هزم زيادة الله الاخير أمام أبي عبد الله الشيعي ، مؤسس الدولة الفاطمية وهرب الى مصر •

**ب ـ في مصر :** عرفت مصر في عصر الرشيد فترة حسنة من الاستقرار ولكنها مع ذلك لم تكمل حتى النهاية وبعد فترة هدوء نسبي استمرت حوالي خمس وثلاثين سنة لم يعكرها سوى حركة تمرد واحدة،

عرفت عهداً من الفوضى والتدمير وفقد الأمن لم تعرفه إلا في فترات قليلة من تاريخها • وقد استمر اكثر من خمس وعشرين سنة ولم ينته إلا مع انتهاء عهد المأمون •

والحركات التي قامت في مصر بعضها سياسي ناجم عن أطماع المتسلطين المحليين وبعض مالي ناجم عن الاهمال والظلم في الخراج وجبايته وقد أثرت أسباب هذه فيتلك في معظم الاحيان وزاد في حدتها ومآسيها •

١ ـ فأما الحركات السياسية فقد ظهرت مرتين الأولى أموية في عهد المهدي والثانية انفصالية خلال فتنة الأمين والمأمون •

ففي زمن المهدي سنة ١٦٧ خرج دحية بن مصعب ، حفيد مروان ابن الحكم الأموي « في صعيد مصر ونابذ ومنع الأموال ودعا إلى نفسه بالخلافة • فبلغ ذلك ابراهيم بن صالح ( والي مصر ) فتراخى عنه ولم يحفل بأمره حتى ملك عامة الصعيد فبلغ ذلك المهدي فسخط على ابراهيم وعزله عزلاً قبيحاً »[١] وارسل عليها موسى بن مصعب الذي أخذها بالجور والشدة والافقار وأرسل على دحية جيشاً من خمسة آلاف من أهل الديوان[٢] وقبل أن يقوم هذا الجيش بعمل حاسم كانت مشكلة موسى الادارية قد تعقدت بانتقاض أهل الحوف العرب عليه فلما خرج إليهم قتل على أيديهم ونجت بذلك حركة دحية الذي أسرع الناس فكاتبوه ودعوه الى دخول الفسطاط[٣] فلما قدم الفضل بن صالح

---

(١) الكندي ـ الولاة والقضاة ص١٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ص١٢٦ .
(٣) المصدر نفسه ص١٢٩ .

العباسي والياً على مصر سنة ١٦٩ . كانت « تضطرم لما كان من ثـورة أهل الحوف وخروج دحية » فأرسل إليه الفضل بجيش استطاع عند بلدة بويط ( جنوب أسيوط ) أن يقتل الفتح بـن الصلت صاحب أمر دحية وقائده . فانكسر دحية لمقتله « ومضى في طائفة معه الى طريـق الواحات فبعث الى أهلها يدعوهم إلى القيام معه وكانوا من المسالمـة والبربر يتدينون بالشراية ( أي من الخوارج ) فقالوا لا نقاتل إلا مع أهل دعوتنا فبعث إليهم دحية : إنا على مذهبكم . فخرجوا إليه وقاتلوا معه يوم الدير .. » وهي المعركة التي هزم فيها الجيش العباسي أمام دحية ولكن « أهل الواحات وجدوا عليه إيثاره العرب على الموالى وتقديمهم على البربر فقالوا هذا ظلم والاسلام واحد ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمان فامتنع دحية وقال : والله ما أرجو الجنة إلا بالرحم بيني وبين عثمان » فلما انصرفوا عنه عاد عليه الجيش العباسي فحاربه أشد الحرب حتى انهزم وأخذ أسيراً في أتون لشي الفخار فضربت عنقه[1] وصلب وأرسل رأسه الى الهادي .

وكانت الحركة السياسية الثانية عند ظهور النزاع الأخوي بـين الأمين والمأمون سنة ١٩٤ ــ ١٩٥ وقد اخذت الشكل الانفصالي . فقد كان في مصر جند من الخراسانية ميالون الى المأمون فلما خلعه الأمـين من ولاية العهد غضبوا وتزعمهم واحدمنهم هو السري بن الحكم الذي دخل مصر مع جند الليث بن الفضل والى مصر زمن الرشيد ( ١٨٢ ــ

(١) الكندي المصدر نفسه ص١٣٠ ـ ١٣١ وانظر اليعقوبي ج٢ ص٤٠٥ وهو يذكر أن جيشين قد هاجما دحية أحدهما بقيادة عباسية والاخر يقوده رجل من أهل الفيوم ( العرب ) اسمه عبد الله بن علي المرادي .

١٨٧أ ) ثم ارتفع شأنه بغضبه للمأمون • ولكن لا يبدو أن المأمون أقام معه الصلات اللازمة لأنه لم يكن يومذاك بالوجه المعروف • وجل مافهمه المأمون وأصحابه من الحركة هو أن عليهم ألا يهملوا ، في النزاع مع الأمين ، أمر مصر وأن فيها جماعة خراسانية يمكن الاعتماد على دعمها للقضية • وهكذا أسرع المأمون فكتب إلى وجوه القوم في مصر فأجابوه في السر وأرسل هرثمة بن أعين قائد المأمون الىعباد بن محمد بن حيان وكيل ضياعه في مصر فخلع مع الجند بيعة الأمين سنة ١٩٦ وطرد واليه جابر بن الأشعث وادخل البلد في طاعة المأمون •

وبغت الامين للضربة الاستراتيجية التي طوقه بها أخوه من خلفه في غرب الدولة فبعث إلى زعيم قبائل قيس في الحوف الشرقي ( شرق الدلتا ) فجعله والياً على مصر ليلقى بأسهم بينهم وهكذا تجندت هذه القبائل لقضية الامين وقاتلت والي المأمون ومؤيديه ••• ولكن حصار بغداد الطويل ثم مقتل الامين مع بعد المأمون أنسى الناس قضية الاخوين وحول القتال بين المتنفذين إلى نزاع على التسلط الذاتي في مصر •

وبرز في الحوف الشرقي عبد العزيز بن الوزير الجروي فتسلط عليه سنة ١٩٩ بينما سيطر في الفسطاط والصعيد السري بن الحكم الذي ولي مصر بمبايعة الجند له سنة ٢٠٠ ثم بأمر المأمون سنة ٢٠١ • اما الحوف الغربي ( غرب الدلتا ) فقد سيطرت فيه قبيلتا لخم وجذام ثم زاد المشكلة تعقيداً أن جاءت من الاندلس جالية واسعة من ١٥ الف لاجيء هم جماعة الربض [1] الاندلسيون فنزلوا بجوار الاسكندرية ثم مالبثوا أن سيطروا

---

(١) هم الذين طردهم الحكم بن هشام الاموي بعد موقعه الربض من

عليها وأقاموا فيها نوعاً من الجمهورية الصغيرة سنة ٢٠٠ تعاونوا فيها أولاً مع جماعة محلية من الصوفية ثم تركوهم وأستأثروا بالحكم بزعامة أبي حفص الكناني •

وتقسمت مصر ، على هذا الشكل بين أربع قوى متناحرة : ثلاث في الدلتا والرابعة تسيطر على الوادي • لكنها كانت جميعاً راغبة في الاستقلال بمصر أو بما تحت يدها منها على الاقل عن الخلافة العباسية• حتى السري بن الحكم الذي ولاه المأمون الأمر تسليماً منه بالامر الواقع لم يكن صادق الولاء لأنه انما والاه التماساً لشرعية الحكم • وقد انعكست أحداث بغداد ومرو سنة ٢٠٢ على مصر فلما بايع المأمون بولاية العهد لعلي الرضا وكتب إلى الآفاق بذلك بايع بعض الجند في مصر وامتنع آخرون ولما نصبت بغداد ابراهيم بن المهدي في الخلافة وجد هذا الخليفة نصيراً له في عبد العزيز الجروي وفي الكثيرين غيره كيداً بالسري بن الحكم ••• فلما مات الرضا وانخذل ابن المهدي وأمر المأمون بغسل المنابر التي بويع عليها للرضا عادت القوى في مصر الى خلافاتها الاولى وحروبها المتصلة •

وبالرغم من أن سنة ٢٠٥ شهدت غياب الزعيمين الكبيرين : السري والجروي إذ لقى الجروي مصرعه وهو يحاصر الاسكندرية ثم لحقه السري بالموت بعد ثلاثة أشهر فقد ورث النزاع ولداهما علي بن عبد العزيز وأبو نصر بن السري كل من موقعه هذا في الصعيد وغرب الدلتا وذاك في شرقيها وتهادنا بعد حروب دامية فلما مات أبو نصر وأعقبه أخوه

---

قرطبة سنة ١٩٨ هـ فاختاروا اللجوء الى مصر وجاؤوها في ٤٠ مركباً بينما بقي قسم منهم في المغرب .

عبيد الله بن السري سنة ٢٠٦ بقي الجروي على الهدنة ... لا سيما حين استطاع ابن السري هزيمة وال أرسله المأمون الى مصر وبالرغم من أن الخليفة عاد فأقر ابن السري والجروي كل منهما على مابيده سنة ٢٠٧ إلا إنه ظهر كأن مصر قد خرجت من أيدي الخلافة العباسية لاسيما حين هاجم ابن السري أرض الجروي وأخذ منه عاصمته تنيس فهرب الجروي إلى الفرما ثم العريش سنة ٢٠٩[١] ...

في تلك الاثناء ولم يكن على ابن السري إلا هزيمة الجروي هزيمة نهائية ثم أخذ الاسكندرية من أهل الربض لتصبح مصر كلهـــا ولاية خالصة له قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين والياً من قبل المأمون سنة ٢١٠ فانضم الجروي إلى جيش ابن طاهر وقدم له الأموال والمعونة . وبالرغم مما أعد ابن السري من السفن وعدة الحرب وما حضر من الخندق حول الفسطاط فقد هزم أسطوله في البحر لأن ابن الجروي الخبير بحرب البحر قاد المعركة . كما هزمه ابن طاهر عند الفسطاط في البرفي مطلع سنة ٢١١ . وطلب ابن السري الأمان فأعطى كتاب أمان بتوقيع المأمون وخرج من مصر ليموت في سامراء سنة ٢٥١ ويمكن اعتبار أسرة السري أول أسرة شبه مستقلة في مصر وقد كانت تمهيداً لظهور اسرة ابن طولون المقبلة .

أما جمهورية الاسكندرية فقد نزل عليها ابن طاهر سنة ٢١٢ وحاصر الاندلسيين فيها بضع عشرة ليلة ممـــا اضطرهم للخروج إليـــه بالأمان . وصالحهم على أن يتركوا الاسكندرية حيث أحبوا على ألا يخرجوا في مراكبهم أحداً من مصر ولا عبداً ولا آبقاً فإن فعلوا حلت دماؤهم ! وقد

---

(١) انظر في تفصيل هذه الأمور الكنـــدي ـ الـــولاة والقضاة ص ١٧٢ ـ ١٨٣ .

كاد يحرق مراكبهم لأنه اكتشف بعض المخالفة ثم سألوه الرد إلى شرطهم الأول فارتضاه ... وساروا من الاسكندرية الى كريت ففتحوها واستقروا بها ...

وعادت مصر بهذا الشكل ولاية عباسية .

٢ ـ أما الحركات النابعة من جذور مالية وبسبب التعسف في أمر الخراج فقد كان أصحابها حتى نهاية عهد المنصور هم القبط ثم تسلم أمرها العرب المسلمون النازلون في مصر منذ عهد المهدي . والواقع أن طرفي الدلتا من الشرق والغرب وهما الحوف الشرقي والحوف الغربي كانا قد أصبحا عربيين منذ زمن . إذ نزلت لخم وجذام في الغربي ثم أنزل ابن الحبحاب بطوناً من قيس في الشرقي سنة ١٠٩ هـ واشترط عليهم العمل بالزراعة .. ولما كانوا قد استقروا في عهد المهدي فقد ذاقوا عضة الخراج ومشاكله فقاموا خلال فترة خمسين سنة مابين عهدي المهدي والمأمون بخمس ثورات» :

حدث سنة ١٦٧ ان « تشدد موسى بن صعب والي المهدي في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما تقبل به ثم عاد موسى الى الرشوة في الاحكام وجعل خراجاً على أهل الاسواق والدواب .. » « واظهر الجند لموسى الكراهية والشنآن . وبعث عمالاً ( للخراج ) على الحوف فأخرجهم أهل الحوف ونابذوه وعقدت قيس واليمانية ( أي أهل الحوفين ) حلفاً فيما بينهم ... ( وعينوا والياً لهم ) وكلموا أهل الفسطاط من الجند وخوفوهم الله وذكروا لهم ما أتى موسى إليهم فأعطاهم الجند من أهل مصر العهود والمواثيق أنهم ينهزموا عنه إذا خرج إليهم فلا يقاتلون معه وتحالفوا هم وأهل الفسطاط على ذلك » في الوقت الذي كان فيه الصعيد قد ثار بزعامة دحية بن مصعب الأموي .

وقام هذا الحلف بين العرب المستقرين والجند العباسي بدوره إذ « خرج موسى بجند مصر كلهم ( نحو الدلتا ) وأقبل إليهم أهل الحوف يمنها وقيسها فانهزم أهل مصر بأجمعهم وأسلموا موسى بن صعب فقتل[1] « وبلغ المهدي مقتله فغضب الغضب الشديد وحلف على الانتقام ولكن الموت أعجله • وقد كتب إليه بعض الشعراء :

لو يعلم المهدي ماذا الذي يفعله موسى وأيوب
بأرض مصر حين حلا بها لم ينههم في النصح يعقوب

وكان يعقوب بن داوود كاتبه ينصح بعدم الموافقة على سياسة موسى وعمله •

وقدم الفضل بن صالح بن علي العباسي والياً على مصر سنة ١٦٩ « وهي تضطرم لما كان من أهل الحوف ولخروج دحية بن مصعب » فأرسل الجيوش ضد أهل الحوف في البر والنهر حتى خمدت الثورة • ولكن خمودها كان موقتاً لأنها مالبثت أن عادت سنة ١٧٨ اذ « كشف اسحق ( بن سليمان والي مصر ) أمر الخراج وزاد على المزارعين زيادة أجحف بهم فخرج عليه أهل الحوف وعسكروا • فبعث الجيوش لحربهم» فقتلوا جمعاً من أصحابه واستنجد بالرشيد « فعقد لهرثمة بن أعين في جيش عظيم » ما إن نزل الحوف حتى « لقيه أهله بالطاعة وأذعنوا باداء الخراج كله » •

ـ وخرج أهل الحوف كرة ثالثة سنة ١٨٦ على الليث بن الفضل

(١) انظر في تفصيل ذلك الكندي ـ الولاة والقضاة ص ١٢٥ ـ ١٢٧ •

الوالي لأنه « بعث بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم فانتقصوا من القصبة أصابع فتظلم الناس الى الليث فلم يسمع منهم فعسكروا وساروا إلى الفسطاط فلما لم تسفر معركتهم مع الليث عن نصر حاسم ، رجعوا إلى منازلهم ومنعوا الخراج ••• وذهب الوالي إلى بغداد يطلب جيشاً وذكر أنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش وكان بباب الرشيد رجل يدعى محفوظ بن سلمان فرفع الى الخليفة أنه يضمن جباية خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا • فولاه الرشيد الخراج••» لكن الهدوء لم يدم سوى سنوات معدودة •

ـ وعاد الحوف الى الثورة مرة رابعة سنة ١٩١ من ولاية الحسين ابن جميل وامتنعوا عن اداء الخراج وذهب بعضهم لقطع الطريق حول أيلة ( بين فلسطين والحجاز ) وعادت الخلافة مرة رابعة فأرسلت جيشاً ما إن نزل بلبيس حتى أذعن أهل الحوف بالخراج •••

وإذا غرقت مصر في الفوضى بين المتنفذين خلال فتنة الامين والمأمون اكثر من خمس عشرة سنة وشغلت بما قاست من المآسي خلال ذلك فانها حين انتظمت الامور على يد عبد الله بن طاهر بن الحسين عادت إلى الثورة لأن صاحب الخراج « صالح بن شيرزاد ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أسفل الارض ( الدلتا ) وعسكروا ••• » في مطالع سنة ٢١٤ ••• وقد كانت هذه الثورة أشد الثورات وأقساها واكثرها طولا في المدة وخطراً في النتائج رغم تقطعها وقتل زعمائها منذ السنة الاولى ••

(١) الكندي ـ الولاة والقضاة

وقد استمرت تلك الثورة ثلاث سنوات . وكانت تثور دوما في مطلع موسم الجباية والخراج خاصة من كل سنة وهزم المتمردون جيوش الولاة العباسيين واحدا بعد الآخر كما انهزموا مرات امامهم دون طائل . وقتل في الحروب المتقطعة جموع كثيرة ولكن الاستياء الكامن كان يفجر التمرد من جديد وكلما اخمد . ومنذ الايام الاولى شعر المأمون بخطر الثورة فأرسل عليها أخاه أبا اسحق ( المعتصم ) واليـاً على مصر ففاجأ أرض الثوار بجيش من الاتراك نزل بين أظهرهم وهزمهم وأسر زعيمي القيسية واليمانية : عبد الله بن حليس الهلالي وعبد السلام بن أبي الماضي فقيدهما ثم أقامهما للناس ثم ضرب أعناقهما وصلبهما في الفسطاط . ( أواخر سنة ٢١٤ ) ثم خرج الى العراق ومعه جمـع من الاسرى في حر وجهد شديد » لكن السنة التالية شهدت عودة بعض أهل الحـوف الغربي للتمرد وهزيمتهم . ثم شهدت سنة ٢١٦ ثورة « أسفل الارض كلها عربها وقبطها ... وأخرجوا العمال وخالفوا بالطاعـة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فبهم ... »[1] وثورة القبط هذه في تحالفها مـع المزارعين العرب هي أول ثورة لهم بعد هدوء نصف قرن .

فأرسل أبو إسحق ( المعتصم ) الوالي على مصر قائدة الافشين الذي سحق بؤر التمرد في الدلتا الواحدة بعد الاخرى . وضرب أعناق زعمائها وأسر الكثير من رجالها . ومع ذلك فإن الخليفة المأمون إدراكاً منه لأبعاد تلك الثورة وخطرها قرر المجيء بنفسه الى مصر . وترك جبهة الروم إليها في مطلع سنة ٢١٧ وسماها « بالحدث العظيم » وأدرك منذ وصل سببها . قال لصاحب الخراج عيسى بن منصور : « لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك . حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتموني

---

(1) الكندي ـ الولاة والقضاة ص١٩٠

الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلد ... »[1] ثم حل لواءه وأمره « بلبس البياض » ( بدل السواد ـ كأنما أضحى من الاعداء ) « عقوبة له » على حد قول المقريزي[2] .

ولكن هذا لم يمنع المأمون ـ الذي بقي خمسين يوماً في مصر ـ من أخذ الناس بأقسى الشدة فقتل وسبا وتتبع ( لا رؤوس الثورة فقط ولكن كل ) من يومى إليه بخلاف فقتله فقتل ناساً كثيراً ... »[3] أما القبط فكان عقابهم عنده أقسى وأشد إذ نزلوا على حكمه بعد هزيمتهم أمام الأفشين « فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والاطفال فبيعوا وسبى أكثرهم ... » وهم قبط البشرود وسخا والبيما ويعلق المقريزي على ذلك بقوله « ومن ذلك اليوم ذل القبط بمصر .. » ويروي اليعقوبي أن المأمون استفتى فقيهاً مالكياً يدعى الحارث بن مسكين في عمله «فقال: « ان كان خروجهم لظلم نالهم فلا تحل دماؤهم وأموالهم ... » فقال المأمون : « أنت تيس . ومالك أتيس منك ، هؤلاء كفار لهم ذمة ، إذا ظلموا تظلموا إلى الامام . وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم » وفي هذا اعتراف من المأمون بالظلم ولكنه ـ على قول المقريزي[4] ـ ينسب ذلك لعامل الخراج وجباته . فعزله وساق رؤساء الثورة القبطية إلى بغداد .

**جـ ـ في اليمن :** كان انتشار التشيع في اليمن نوعاً من المقاومة

(١) الكندي المصدر نفسه ص ١٩٢
(٢) المقريزي ـ الخطط ج١ ص ١٤٥
(٣) اليعقوبي ج٢ ص ٤٦٦
(٤) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٩٩ .

السلبية ورد الفعل على جور الولاة العباسيين • ولكن اليمنيين في مختلف بقاع اليمن على مايظهر ، لم يكتفوا بالموقف السلبي بل قاوموا بالسلاح ذلك الجور • فقد ثارت اليمن ضد واليها حماد البربري سنة ١٧٩ هـ مدة تسع سنين • وبالرغم من إلقاء القبض بعد ذلك على زعيم الثائرين الهيصم ابن عبد المجيد الهمداني فان هذه الثورة لم تهدأ إلا بعد عزل حماد •• ولكنها تركت مكانها لثورات أخرى ؛ واضطر المأمون لمشاورة وزيره الحسن بن سهل في أمرها فأشار عليه برجل من ولد زياد بن أبي سفيان هو محمد بن ابراهم الزيادي فولاه اليمن سنة ٢٠٤ فتوجه إليها وفتح منطقة تهامة واختط فيها مدينة ( زبيد ) سنة ٢٠٤ وجعلها حاضرته وعظم أمره مع دوام ملكه إلى سنة ٢٤٥ حتى أضحى كالملك المستقل لولا خطبته لبني العباس ، وحمله الخراج والهدايا اليهم • وقد صار الملك في أبنائه، ثم في مواليهم وموالي مواليهم من آل نجاح إلى سنة ٥٥٤ هـ ؛ وتعرف دولتهم جميعاً باسم الدولة الزيادية • وهي أولى الدول استقلالا باليمن•

وبالرغم من أن يعفر بن عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالي قام بعد ذلك سنة ٢٤٧ وقام من بعده أولاده وأحفاده بولايـة صنعاء ( منطقة النجود في اليمن ) وأسسوا الدولة اليعفرية بين ( ٢٤٧ — ٣٨٧ ) إلا انهم كانوا يخشون آل زياد ويرسلون لهم الخراج إلى زبيد كأنهم عمال لهم • ومثل ذلك موقف الأئمة الرسية الذين ظهروا في صعدة من عسير سنة ٢٨٠ وامتدت أيامهم إلى سنة ٧٠٠ هـ وتعاقب على الحكم منهم ( ١٧ ) إمامـاً •

د — **في الشام** : كان أهل الشام مايزالون عـلى موقفهم المعادي للعباسيين وإن اضطروا في كثير من الأحيان إلى إرسال وفود الطاعـة والترضية والولاء الظاهري إلى بغداد • وكان العباسيون بدورهم يعرفون

ذلك جيد المعرفة ويعاملون الشام تارة بالاهمال وتارة بالشدة العنيفة وثالثة بالمداراة تبعاً للظروف • وكانت تحركات الشام من الكثرة في هذه الفترة بحيث اجبرت الخلفاء على أن يتخيروا اليها اعظم رجال الدولة كجعفر البرمكي نفسه أو أقرب الناس رحماً إليهم كابراهيم بن المهدي أخو الرشيد وبعض أولاد المنصور أو أولاد صالح بن علي بل أزعجت أحياناً الخلفاء حتى اضطر الرشيد ذات مرة لأن يخرج إليها بنفسه • يذكر الطبري أنه حين ورد بغداد سنة ١٨٨ لم يبق بها وقال بعد ان امتدحها « ••• ولنعم الدار هي • ولكن اريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحب لشجرة اللعنة بني أمية مع مافيها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل ولولا ذلك ما فارقت بغداد ماحييت ولا خرجت عنها أبداً •••»[1] وهكذا تبادل العراق والشام الدور في العصر العباسي وصار الشاميون هم «أهل الشقاق والنفاق» بسبب انتقال الحكم منهم ولكن حركات الشام في هذه الفترة كانت مختلفة الأسباب فبعضها فتن قبلية بين قيس ويمن • وبعضها انتقاض أموي على بني العباس وبعضها أخيراً ثورة على الظلم أو غضب للعروبة • وليست هذه الأسباب بنت هذه الفترة التيندرس (١٥٨ ــ ٢١٨) ولا انتهت بانتهائها • لهذا فحركات الشام التي ظهرت فيها كانت حلقة من سلسلة سبق بعضها في زمن المنصور وسيتبعالباقي في زمن المعتصم والمتوكل ومن بعدهما •

فأما **العصبية القبلية** فيظهر أن العباسيين كانوا يغضون الطرف عن بقائها • وكان بعض ولاتهم يشجعها ، ويتحزب لأحد القبيلين على

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣١٧ (٧٠٦/٣) •

الآخر • وكان القيسيون غالباً حزب العباسيين وبعكسهم اليمانيون • ويستمر ذلك إلا إذا استشرت الفتنة • فيتدخل جند الخليفة لإقرار الأمن • وال واحد فقط هو ابراهيم بن المهدي ( ابن شكلة ) ــ وقد ولي دمشق لأخيه الرشيد مرتين : سنتين ثم أربع سنوات ــ كان يفخر بأنه الوحيد الذي نجا من أن ينبذ بلقب من تلك الألقاب التي اعتاد الشاميون أن ينبذوا بها ولاتهم فإن مال لقيس لقبه اليمانيون وإن مال لليمن لقبه القيسيون كما كان يفخر بأنه نجح في إقرار التوازن القبلي بين قيس ويمن بالشام ومعاملتهم بالتساوي التام إذ جعل جلوسهم في مجلسه حسب مراتبهم وبالتناوب مابين قيسي يتلوه يماني ثم قيسي وبتناوب التحول من يمين إلى شمال يوماً بعد يوم • وكان لا يقضي مصلحة لأحد الحيين إلا نادى في الحي الآخر هل من مصلحة لأحد منه تشبهها فيقضيها ؟ •• والسبب في هذا التوازن الميكانيكي المتعب في الارادة هو تزاحم الجماعتين الاقتصادي دون شك ونزاعهم على النزول والاستئثار بأحسن الأراضي • وليست العصبية القبلية سوى الشكل الظاهري لهذا النزاع والزحام • إنهم أعطوا الاسم التقليدي للواقع الاقتصادي الاجتماعي الجديد الذي كانوا يعيشونه وهو عملية التحول من الرعي إلى الزراعة والاستقرار في كتل عربية متساندة تحفظ قراباتها المتصلة في القرى المتجاورة التي نزلتها • وتداخل القبائل الشمالية والجنوبية في النزول بهذه القرى الشامية ورغبتهم في الحفاظ على جموعهم في كتل متقاربة وفي استملاك القرى الاخصب هو الذي كان يثير الفتن التي عرفها العهد الأموي والعهد العباسي الأول باسم العصبيات القبلية •

ومن أخطر الفتن العصبية بالشام فتنة دمشق سنة ١٧٦ التي دامت سنتين ••• تلتهما سنوات • وقد برزت فيها أحقاد التيمية ( المضرية )

على اليمانيين واستماتتهم في الدفاع عن استقرارهم وأراضيهم لأنهم كانوا الأقل ثروة وعدداً بينما كان اليمانيون يفخرون بأنهم « أهل الثروة والعدد والعز » كما يروي المؤرخ المدائني عنهم ، كما كانوا « أجمع داراً من قيس » أي اكثر جموعاً . ولا شك من أن ازمات الجدب والجفاف وقلة المطر بين سنة وسنة كانت تساهم في إثارة الفتن بين الحيين وتطلق قواهم للصدام فيما بينهم بسبب الضنك والغلاء والعطالة عن العمل ونجد أثر ذلك في فتنة سنة ١٧٦ هذه فإن أيام ابن معيوف، امير دمشق اليماني ، في تلك الفترة كانت كما يروي ابن عساكر « أيام بؤس وجدب وغلاء » وقال أهل دمشق في ذلك الأشعار ومنها :

ماكنت أحسب أن الخبز فاكهة حتى تربع في «الخضراء» معيوف[1]

والمؤرخ المدائني ، حباً منه في الإغراب ، يعزو سبب الفتنة الى النزاع على « بطيخة » ويروي أن العصبية ثارت بسبب رجل من بني القين ( القيسيين ) قاتله جماعة من لخم وجذام لأنه أخذ بعض البطيخ والقثاء من حائط ( حقل مسور ) لهم فقتل واحداً منهم وبالرغم من محاولات الصلح فقد غزا اليمانيون بعض القرى القيسية فقتلوا عدة مئات وهاجم القيسيون بالمقابل بعض القرى اليمانية فقتلوا مثل ذلك... وتوالت المعارك ... وفشل الوالي عبد الصمد بن علي الذي عينه الرشيد للشام في ايجاد مخرج من دوامة الثارات المتبادلة !

تزعم القيسيين المضرية في هذه الفترة « أحد فرسان العرب المشهورين » الذي تذكرنا أعماله المثيرة للاعجاب من فروسية وشجاعة

---

(١) الخضراء هو قصر معاوية بن ابي سفيان في دمشق وكان لصق الجامع الأموي على جداره الجنوبي . وقد اتخذه الولاة العباسيون مقرا للحكم .

وحكمة بكبار الفرسان المشهورين في الجاهلية وأصحاب المرؤات وهو :
ابو الهيذام عامر بن عمارة بن خريم المري وكان مسكنه في بصرى وله منزلة في دمشق . والرواة يعطونه بدوره سبباً شخصياً إذ يروون أنه كان مع أخيه في سجستان فقتل عامل الرشيد أخاه فعاد مغضباً وجمع الجموع للثورة...[1] وليس يبدو أن أبا الهيذام اشترك في الفتنة من أولها فقد حافظ الرجل على برودة أعصابه ـ حسب مايظهر من الأخبار ـ اكثر من سنة وإن كان خلالها يحرك القوى القيسية ويتزعمها .. ولكن خبر غضبه لمصرع أخيه قد يكون صحيحاً فقد رويت على لسانه بعض الأشعار التي يتحدث بذلك ومنها :

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا فإن بها مايدرك الطالب الوترا
ولكنني أشفي الفؤاد بغارة ألهب في قطري كتائبها جمرا

وعزل الرشيد عبد الصمد بن علي واستبدل به ابراهيم بن صالح ابن علي والناس « على ذلك الشر » ثم تداعوا الى الصلح فاصطلحوا وشخص ابراهيم الى بغداد بوفد ضخم يضم ١٢٠ رجلاً من أهل الشام

---

(١) انظر تفاصيل هذه الثورة في ترجمة أبي الهيذام لدى ابن عساكر ـ تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج ٨ الأوراق ١٩٥ وجه فيما بعد وفي تهذيب التاريخ ج٧ ص ١٧٦ ـ ١٩٣ ويختصرها ابن الأثير في حوادث سنة ١٧٦ (ج٦ ص ١٢٧ ـ ١٣٣ ومن الهام أن نلاحظ أن هذه الترجمة تعين على معرفة منازل القبائل العربية في غوطة دمشق ومنطقتها ونجد مثل ذلك في ترجمة مسلمة بن يعقوب . (تاريخ دمشق لابن عساكر ـ المخطوط ج١٦ الورقة ٢٣١ فما بعد) . كما ان الهام ان نلاحظ أن الرواية التي يرويها ابن عساكر نقلا عن المدائني تميل مع القيسيين ميلا كبيرا وتمجد بطولاتهم الخارقة وتذكر انتصارات ابي الهيذام الرائعة بالاعداد القليلة على العدد اليماني الكبير ولعلها الرواية القيسية لتلك الاحداث . فهي اذن تفتقر الى وجهة النظر اليمانية .

قيهم أبو الهيذام . وقد مال ابراهيم ، تحت تأثير كاتبه اليماني ، مع اليمانية وهيأ خطيباً منهم يخطب بين يدي الرشيد ويثيره على قيس غير أن الخطيب القيسي قاطعه يقول : إنما ما جئنا وافدين ولكنا أتيناك مذنبين فإن يعاقبنا أمير المؤمنين يعاقب مستحقين وان يعف فأهل لذلك. فأعجب به الرشيد وأثبته في صحابته ووصل الوفد وانصرفوا ...

غير أن الأمور لم تجر على النحو السلمي في الشام لأن الوالي ابراهيم بن صالح الوالي استخلف عليه ابنه اسحق الذي حمل بدوره ميل أبيه إلى اليمانية وكان كاتبه من كندة فأغضب القيسيين ثم حبس نفراً منهم وضرب أربعين من زعمائهم وحلق لحاهم ورؤوسهم فنفروا الى السلاح والى القتل والسلب والغارات ... أشهراً عديدة وكثر اللصوص والزواقيل . وفي هذه الفترة ـ على مايبدو ـ تحرك أبو الهيذام . جاءته امرأة قيسية قتل ابنها فألقت ثيابه بدمائه بين يديه فقال : انصرفي حتى انظر فلست أريد أمراً على ظلمة ... نأتي الامير ونرفع إليه دماءنا فإن نظر فيها وإلا فأمير المؤمنين ينظر . أو أرى رأيي ! وعرف اسحق ابن ابراهيم تحرك أبي الهيذام فأرسل إلى عامله على حوران أن يحمله الى دمشق فجاء به مع ابنه وجماعة من قومه فلم يأذن لهم اسحق وحجبهم فأثار ذلك أبا الهيذام ثم جاءه أن اليمانية أغاروا على قرية تلفياثا (تلفيتا) القيسية فركب بسلاحه الى قصر الأمير وطلب عزل الوالي المحلي وحلف لا يخلع سلاحه حتى يعزل فعزله اسحق وعاد فدبر مؤامرة ياتي بها اليمانية من أبواب دمشق على أبي الهيذام فيفتكون به ولكن الرجل انتصر على المهاجمين واحتل دمشق وأطلق كافة من به من المساجين من قيس ويمن . « فقامت اليمانية وكانوا « أجمع داراً من قيس قد ملأت كلب (اليمانية) البقاع والجولان ... » فاستنجدوا بعشائرهم واستنجد أبو الهيدام

بالمضرية • وقامت المعارك كرة أخرى •••

وبدا بوضوح أن الحرب القبلية انما كانت حرب إزاحة عن القرى والخصب وتأمين للاستقرار الجماعي في القرى الأخصب إذ قالت اليمانية: « نحن أهل الثروة والعدد والعز فتخرج مضر ( قيس ) من الشام فلا يدعو لهم داعية » وقال أبو الهيذام بدوره :

لولا الخليفة والاسلام ماتركت خيلي بأرض بني قحطان جوالا!

في هذه المرحلة الثانية كانت المعارك في دمشق وعند أبوابها وفي قرى الغوطة وحوران • وقد تناوب الطرفان الهدم والنهب والحرق والقتل لقرى بعضهم بعضاً : فخربت عدد من القرى اليمانية ( وكانت داريا أعظمها ومنها كفر سوسية،والاوزاع وزملكا وحجيرا وعربيل•••) أحرقها حمدون السلمى قائد ابي الهيذام كما أحرق قرية ابن معيوف اليماني امير دمشق السابق وقصوره في قرية عين ثرما • وخربت بالمقابل قرى القيسيين مثل بلاس ، وتلفثايا والقطيفة ودومة وبراق وبعض قرى حوران • على أن أبا الهيذام كان يحمي من يطلب حمايته من اليمانيين يضع لواءه أمام منازله فلا يقربه أحد ! وكلما تحرج الحال مع أحد الحيين أوقد النار يستدعي الرجال من البعيد : يوقد ابو الهيذام على جبل المانع ( عند الكسوة ) ليأتيه المدد من حوران والبلقاء ويوقف اليمانيون على جبل دير مران ( سفح قاسيون عند قبة السيار ) حتى لقد جاءت النجدات اليمانية من حمص وتحولت القبائل كلها جنودا وجيوشاً تقتتل وتصل الى عشرات الألوف ••• كل ذلك « وأبو الهيذام في أيام الفتنة داخل مدينة دمشق متغلباً عليها واسحق بن ابراهيم بن صالح خارج باب الجابية في قصر الحجاج •• » ويبدو أن البلد كان في معظمه قيسياً •

وتحركت بغداد فأرسل الرشيد لولاية الشام موسى بن يحيى بن خالد البرمكي ومعه جماعة كبيرة من القواد ورؤوس الكتاب منهم هرثمة ابن أعين ورجاء السندي وما أطلت طلائع الجيش العباسي مع السندي حتى حاولت اليمانية إثارته على أبي الهيذام الذي أرسل اليه وفداً لقيه عند مرج عذراء ( عدرا ) وأبلغه أنه على الطاعة . ودخل السندي دمشق قائلاً : لا أريد قتالك ولو أؤمر بذلك . وبعث أبو الهيذام إلى اهل دمشق يقول : اختاروا لأنفسكم إن شئتم خرجت حتى أرد السندي عنكم أو أموت وإن شئت تركتكم فلما عرف أنهم على الطاعة تجهز فخرج بعد أسبوع من دمشق في موكب ضخم يعدتسعة آلاف فارس...

وكانت المرحلة الثالثة للمعارك حين ثارت اليمانية أن يخرج ابو الهيذام سالماً ـ كما قالوا ـ بدمائهم وأموالهم فقال لهم السندي : ان أردتم قتاله لم أمنعكم فدونكموه ... وقدم موسى البرمكي بعد أيام فقبل دعوى اليمانية ثم خرج الى حوران في القواد وأشراف أهل الشام وأبو الهيذام يظهر ويختفي في حوران وطلبه موسى بالحاح شديد فلم يفلح في أخذه ودبر مؤامرة يتسور فيها عليه بعض الجند منزله في بصرى ففشلوا وعادت الجموع فاجتمعت إلى أبي الهيذام وهزمت بعض الجند العباسي عند مسرح بصرى . وفي عدد من المواقع الاخرى من حوران وأخيراً أخذ الرجل بحيلة : « احتال عليه ( الرشيد ) بأخ له كتب إليه فأرغبه » فترك أصحابه في ٢٠ رمضان سنة ١٧٧ ولحق بأخيه الذي « شد على أبي الهيذام فقيده وحمله الى الرشيد بالرقة ... فلما دخل عليه أنشده :

فأحسن أمير المؤمنين فإنه أبى الله إلا أن يكون لك الفضل...

فمن عليه الرشيد وأطلقه ليموت بعد ذلك بخمس سنوات سنة

١٨٣ تاركاً للقيسيين ملحمة طويلة من المفاخر ... ولكن العصبية القبلية لم تمت بل خمدت إلى حين لا سيما بعد أن حمل موسى البرمكي جماعات من رؤوس الفتنة إلى بغداد فرد الرشيد أمرهم إلى وزيره يحيى بن خالد البرمكي الذي عفا عنهم وأطلقهم فكانت تلك مناسبة يتحدث بها الشعراء بمناقب البرامكة :

قد هاجت الشام هيجاً    يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها    بخيله وجنوده . . .
فدانت الشام لما    أتى نسيج وحيده ...

ثم انفجرت المشكلة مرة اخرى سنة ١٨٠ ... كانت كل عناصرها ماتزال قائمة مستعرة . « فاغتم الرشيد بذلك » كما يقول الطبري « وعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا . فقال جعفر : بل أقيك بنفسي ! فشخص في جلة القواد والكراع والسلاح وجعل على شرطه ... وعلى حرسه ( بعض كبار القادة ) فأتاهم في حملة تأديبية واحدة فأصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم » على أن البرمكي الثاني اتخذ طريقة التجريد من السلاح وسيلة للخلاص من قتال الطرفين ولا شك أنه فرض على الناس ضريبة قاسية جمعها منهم « ... حتى لم يدع بها رمحاً ولا فرساً .. » !

ويعلق الطبري بقوله : « فعادوا إلى الامن والطمأنينة » وعاد الشعراء بدورهم يغنون للبرامكة حين عاد جعفر إلى بغداد عاهداً بولاية الشام إلى عيسى بن العكي ...

وأما الانتفاض على العباسيين فكان يعتمد في الغالب على أسطورة ( السفياني المنتظر ) ! وقد خرج هذا السفياني الموهوم مرات عديدة أهمها خروج علي بن عبد الله حفيد خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بأبي

العَميطَر سنة ١٩٥ وهو عالم رواية دعا لنفسه وتسمى بالخلافة وعمره تسعون سنة فيما يذكرون • وكان يقول : انا ابن شيخي صفين ( لأنه علوي من جهة الأم ) وأقبل أصحابه يدعون الناس في أسواق دمشق قائلين : قوموا بايعوا مهدي الله ![1]

استغل أبو العميطر دون شك انشغال الأمين بحرب أخيه ثم حصار بغداد وذلك القلق الذي وقعت فيه خلافة بني العباس في السنوات الاخيرة من القرن • والتف حوله اليمانيون فقاومه القيسيون في دمشق ففتك بهم • وحاصر الوالي العباسي سليمان بن أبي جعفر المنصور فانتهبه وسبا حريمه ولم يفلت منه إلا بعد اليأس • واحتل الخضراء ، فكان إذا خرج منها مشي في موكب بين يديه من ٥٠٠ رجل على رؤوسهم القلانس الشاميات وفي ايديهم المقارع ••• وقد استتب له الامر فترة من الوقت على مايبدو وأعانه الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية وكان قد تغلب على صيدا ••• كما أطاعه اليمانيون في البقاع وحوران والبلقاء ••• والسواحل وحمص • ولعل مما أعانه على ذلك نسبه وتقدمه في العمر وحسن سيرته وأن « الناس كانوا قد أخذوا عنه علماً كثيراً • » •

على أن الرجل وقع في دوامة العصبية القبلية • حين وقف القيسية

---

(١) نجد شيئاً من تفاصيل هذه الأحداث لدى ابن الأثير ج٦ ص٢٤٩ ـ ٢٥٠ ونجدها موسعة في المصدر الذي نقل عنه ابن الأثير وهو الترجمة الواسعة لدى ابن عساكر لأبي العميطر في ـ تاريخ دمشق ـ مخطوط الظاهرية ج١٢ الورقة ٢٢٣ وجه وما بعدها .

والعميطر على وزن سفرجل اسم الحرذون وقد لقب به من قبل القيسية دون شك .

يناهضونه ووجدوا في محمد بن صالح بن بيهس الكلابي وهو الفارس الشاعر زعيماً يمثل موقفهم السياسي الرافض[1] • فخرج أبو العميطر الى قرية حرجلة القيسية فقتل من ظفر بـه ونهب القرية وأحرقها ثـم جعل وأصحابه من اليمن يطلبون من في دمشق من القيسية فيقولون : ريح قيسى نشمها من هذه الدار فيضربونها بالنار أو يسمرون الأبواب على من فيها ممن رفض البيعة حتى هرب القيســية كافة من دمشق • وكتب أبو العميطر الى ابن بيهس يقــول : « ••• العجب كل العجب لتخلفك عن بيعة أمير المؤمنين وحجدانك نعم آبائه عليــك وأنت تعلم مكان حرمتك بقرية تلفياثا وإن عشيرتك بالغوطة كرش منثورة وأمير المؤمنين يخلف لك بالله لئن سمعت وأطعت ليبلغن بك غايــة الشرف وليولنيك ما خلف بابه ولئن تخلفت ••• ليبعثن إليك مالاقبل لك به من الزحوف التي تتلوها الحتوف ••• » •

ولكن ابن بيهس لم يجب على الكتاب واستطاع بالعكس أن يهزم جيشاً تذكر الرواية أنــه كان في اثنى عشر ألفاً طاردهم ابن بيهس حتى أبواب دمشق فقتل منهم ألفين وأسر ثلاثة آلاف ••• حلق رؤوسهـم ولحاهم واستحلفهم أن يصيروا إلى باب أبي العميطر فيصيحوا : نحن عتقاء ابن بيهس ! وضعف أبــو العميطر وحصر بدمشــق فكتب الى السواحل وحمص وبعلبك والبقاع فاجتمع إليه خلق عظيــم فاشتبك جيشه مع ابن بيهس مرتين فقد السفياني في الأولى ابنه قائــد الجيش القاسم الذي قطع رأسه وأرسل الى الأمين ثم فقد في الثانية مولاهوقائده

---

(١) كان ابوه صالح بن بيهس سفير الرشيد الى ايرين ملكة الروم في الفداء سنة ١٨٤ (انظر خليفة بن خياط التاريخ ج٢ ص ٤٩٢) •

أيضاً : المعتمر وانهزم أصحابه هزيمة منكرة أوهنته وأطمعت فيه قبائل قيس وذلك في معركة دامت أياماً من مطالع سنة ١٩٨ بين قريتـي شبعا وقرحتا • وبينما كان جيش ابي العميطر يهزم كانت مؤامرة أخرى تتم عليه هو نفسه في دمشق • إذ أن ابن بيهس مرض فجمع رؤساء بني نمير فعرض لهم أنه عليل وأن عليهم أن يبايعوا بعض بني مروان وأشار عليهم بمسلمة بن يعقوب حفيد عبـد الملك بن مروان فتسرع هؤلاء وجاؤوا بالبيعة لمسلمة وكانت أخبار بغداد ومقتل الأمين فيها وغرقها في الفوضى أخباراً مشجعة على المغامرة • وهكذا جمع مسلمة مواليه ودخل على السفياني أبي العميطر في الخضراء فقبض عليه وقيده وجلس مكانه •••

ولعب مسلمة لعبة بارعة في تدبر البيعة له من رؤساء بني أمية • بعث إليهم على لسان أبي العميطر يطلب الحضور فكلما دخل واحدمنهم وقفوا بالسيف على رأسه يقولون : بايع ••• وبايع النـاس ! ولبس مسلمة الثياب الحمر وجعل أعلامه حمراً وأدنى بالطبع بني نمير القيسية وأقطعهم ضياع المرج (شرق دمشق) وجعل لكل رجل من وجوه قيس منزلا بدمشق وأعطاهم الولايات ••• ولكن هـذا الحـل المتسرع أغضب فيما يظهر ابن بيهس الذي شفي من مرضه وحاول السيطرة على مسلمة ودمشق فأبوا عليه ذلك فسار بقواه من شبعا عليها وما كاديصلها حتى صاح الديدبان بالسلاح ••• واصطدمت القوتان على أبواب دمشق وخاف القيسية على أنفسهم من هذا الانقسام فاتفقـوا مع ابن بيهس وانحازوا له فاستطاع بالخيل والرجالة أن يحاصر البلد ثـم تسورها بالسلالم من الجنوب (باب كيسان) واستولى على دمشـق (١٠ محرم سنة ١٩٨) بينما كان مسلمة والسفياني معـاً يهربان بثياب النساء الى المـزة •••

كان ذلك بدء حكم قيسي استمر قائماً في دمشق عشر سنوات لم يعكره على ابن بيهس إلا حرب اليمانية له : حاربه أهل المزة وداريا وبيت لهيا .. ولئن صالحة أهل بيت لهيا فقد أقام الآخرون على حربه ثم استطاع اليمانيون أن يحرضوا بعض الأمويين على ادعاء الخلافة . وهو سعيد بن خالد العثماني وكان يسكن قرية الفديـن في حوران . فتسمى بالخليفة وتطلب القيسية وقتلهم واضطر ابن بيهس أن يرسل ابنه لمطاردته في حصنه فهرب من ارضه إلى البلقاء ومنها إلى الجنوب مهزوماً مرة بعد مرة رغم جموعه الكثيرة التي تفرقت بعد ذلك .

وبقي ابن بيهس يحكم دمشق حتى استقرت أمور المأمـون في العراق على ما يظهر فكاتبه « فولاه المأمون إمرة دمشق » فكان يحارب الثائرين باسم الخليفة العباسي وقد روي عنه شعر يقول فيه :

منعت بنـي أميـة مـا أرادت وقـد كانت تسمت بالخلافـة
أبدتهم مـن الشامـات قتـلا ولم يك لي بهم في ذاك رأفـة
أناضلهم عن المـأمـون إنـي على من خالف المأمون آفة [1]

وقد جاء عبد الله بن طاهر دمشق سنة ٢١٠ فأقره على ما يظهر في مكانه حتى إذا عاد إليها من مصر أخذ ابن بيهس معه الى العراق فمات بهـا[2] وسوف يظهر في الشـام ابن بيهس آخر لعـله ابنه أو مـن ولد أبيـه .

---

(١) انظر الصلاح الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج٣ ص ١٥٦

(٢) ابن الأثير ج٧ ص ٢٥٠ والصلاح الصفدي في المصدر السـابق يجعل وفاته سنة ٢١٠ أو قبلها ولا يبدو ذلك صحيحاً إذا كان رافق ابن طاهر في عودته الى العراق . ويذكر ان ابن طاهر حمله بالامان الى العراق وهو خطأ على ما يؤكد شعره .

- وأما الثورات على الظلم فقد كانت تأخذ شكل التمرد على النظام العام والسطو على الأمن وقطع الطريق عصابات عصابات • والواقع أن كثرة من كانوا يسمون في ذلك الوقت «بالزواقيل» «والمتلصصة»والمارقة كانت كثرة تسترعي النظر ولا تجد تفسيرها إلا في الفقر الاقتصادي وفي كثرة المظالم التي تخرج بالناس عن الطاعة وتدفعهم إلى التماس العيش بالنهب • ويظهر أن الاستياء العام أخذ هذا الشكل الانتقامي وكثر كثرة واسعة في أواخر عهد الرشيد وامتد في عهد الأمين والمأمون حتى مطالع عهد المعتصم حتى لقد اشترك فيه أيضاً بعض الذمة واذا كان قلق الرشيد من هذه الأمور قد أخرجه من بغداد إلى شمال الشام فإن المعتصم قد بدأ عهده بحملة على اللصوص وأزال بها قطع الطريق وكبس القرى في الجزيرة[1] وفي الشام الشمالي على الأغلب •

ومن أمثلة هذه الأعمال أن ابراهيم بن المهدي حين ولي دمشق (فيما بين سنة ١٨٥ ــ ١٩١ على الأغلب) أخبروه أن الآفة كانت في قطع الطريق في عمل دمشق من ثلاثة نفر : دعامة والنعمان وهما من موالي بني أمية ويحيى بن أرميا من يهود البلقاء (جنوب حوران) وأنهم لم يضعوا أيديهم في يد عامل قط • فكاتبهم ابراهيم فارعوى الاثنان وأبى الثالث أداء الجزية فقتل في معركة مع الجند ثم لم يقطع على أحد في عمل ابراهيم طريق[2] ••• وخرج في الشام سنة ١٩١ رجل يدعى ابو النداء فوجه الرشيد في طلب يحيى بن معاذ وعقد له على الشام فاستمرت فتنة الرجل سنة حتى أسر وأخذ الى الرشيد وهو بالرقة فقتله[3] ••

---

(١) ماري بن سليمان ــ اخبار البطاركة ص ٧٧
(٢) محمد كرد علي ــ خطط الشام ج١ ص ١٩٠
(٣) الطبري ج٨ ص ٣٧٤ ( ٣/٧٧٦ ) وص ٣٢٩ ( ٣/٧٣٢ ) •

ومن الأمثلة أيضاً الفتن التي قامت بدمشق بسبب القلة البلورية التي اغتصبها الأمين من الجامع الأموي • وكان فيما قيل يعجبه البلور فلما شعر الدمشقيون بذلك ثاروا وافتتن الناس وامتدت فتنتهم حتى قالوا : لا صلاة بعد القلة فصارت مثلا ! ولعل القضية لم تكن أكثر من مجرد دسيسة من أنصار المأمون في دمشق لإثارة الناس ضد الأمين • فلما ولى المأمون أرجع القلة الى مكانها •••

ومن هذا النوع من الفتن ثورات حمص العديدة فقد وثب أهل حمص ــ وهم يمانيون ــ بواليهم سنة ١٩٠ وطردوه لظلمه دون شك لكن خروج الرشيد تلك السنة الى الشمال ووصوله منبج بخيله ورجله جعل البلد يرسل وفداً إليه هناك يعطون بأيديهم ويسألون العفو ••• حتى إذا كانت سنة ١٩٤ اختلف الحمصيون مرة أخرى مع عاملهم اسحق ابن سليمان فانتقل عنهم الى سلمية • وعلم الخليفة الأمين فعزله واستعمل مكانه قائده عبد الله بن سعيد الحرسي الذي قاتل أهل حمص وضرب المدينة من نواحيها بالنار • حتى سألوا الأمان فأمنهم ولكن العودة إلى الجباية الظالمة ــ فيما يظهر ــ هاجتهم فأخذهم الوالي بالارهاب وضرب عدة من وجوههم ورؤوس الحركة فيهم[١] •

وزادت الفوضى في الشام المتروك لمصيره أيام فتنة الأمين والمأمون وبعدها • وبرز خلالها من العصاة المتغلبين عدد كبير من بينهم ابن السرج وابن أبي الجمل وابن ابي الصقر وغيرهم • ويبدو أن المأمون أدرك السر في فتن الشام وثوراته حين جاءه بنفسه فأصدر أمره سنة ٢١٥ باعادة

---

(١) ابن الأثير ج٦ ص ٢٢٧ •

تعديل الأراضي ووجه في ذلك الى رؤساء اهل الجزيرة والموصل والرقه، فاستعفوا من العمل وجلب بدلا منهم بعض مساح العراق والأهواز فأتموا التعديل ووضع كشف جديد للارض لا أملا فقط في منح الناس بعض العدالة ولكن في زيادة الخراج الوارد منها[1] وكان عبد الله بن طاهر قد سبق المأمون ، قبل سنوات فسار « يستقري الشام بلداً بلداً لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل وهدم الحصون وحيطان المدن وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً ونظر في مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج فلم يبق مخالف ولا خالع إلا خرج من قلعته وحصنه وعاد ابن طاهر الى دار السلام يحمل معه المتغلبين على الشام امثال ابن السرج وأصحابه .

وأما الثورة التي تمثل فيها غضب الشام والجزيرة لعروبة الدولة فهي ثورة نصر بن شبث العقيلي وقد ظهرت في الجزيرة لا في الشام ولعلها أخطر ثورة هددت العرش العباسي والتقت فيها آلام الشام مع النزعة الأموية والعصبية العربية في وقت معاً ...

وكان الشاميون يأخذون على بني العباس ( لا سيما زمن المأمون ) ميلهم مع الفرس حتى استوقف واحد من أهل الشام مرة المأمون وكلمه في ذلك قائلاً :

يا أمير المؤمنين : انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان . فقال : لقد اكثرت علي يا أخا أهل الشام . والله ما أنزلت قيساً من ظهور الخيل إلا وأرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما اليمن فوالله

---

(١) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ( التهذيب ) ج٤ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

ما أحببتها ولا أحبتني قط • وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيان وخروجه فتكون من أشياعه وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر • ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً ( من الخوارج ) اغرب ! فعل الله بك •••»[1]

ونصر بن شبث صاحب الثورة هذه المرة قيسي • وقد تزعم القيسية في شمال الشام والجزيرة الغربية خاصة وتذكر المصادر السريانية بجانبه ثائراً آخر اسمه عباس وتقول عنهما « وكان الثعبانان نصر والعباس يسودان المنطقة الغربية ( من الجزيرة ) كلها ويذيقون الناس العذاب وكانا يتحاضان على الشراب ويتنافسان في القدرة على احتماله •••»[2] على أن هذا لا يعني اكثر من أن العباس هو اكبر أو أهم اعوان نصر في الثورة •

ولئن كان نصر بن شبث عباسياً من أنصار الأمين فلقد ثار على الأمين والمأمون معاً سنة ١٩٨[3] ثم حارب المأمون ــ كما قال ــ « محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم » فتبعه من تبعه بهذا الهدف • فكانوا جميعاً من العرب يدل على ذلك قوله لمن جاءه يشترط عليه أن يطأ بساط المأمون ليعفو عنه : « ويلي عليه ! لم يقو على

---

(١) الطبري ج٨ ص ٦٥٢ (١١٤٢/٣)
(٢) انظر تاريخ ميخائيل السرياني (الكبير) بالفرنسية ترجة شابو ج٣ ص٣٨ وثمة تفاصيل كثيرة عن هذه الثورة نجدها في الصفحات ٢١ ــ٢٧ و٣٠ ، ٣٦ ــ ٣٨ ، ٤٦ ــ ٤٧ و ٥٢ و ٥٥
(٣) يذكر ابو زكريا الأزدي (تاريخ الموصل ص ٣٢٨) أن ابن شبث كان والياً على الجزيرة من قبل الأمين «فعزله بعبد الله بن سعيد وأنفذ إليه داوود بن عيسى فقتله نصر ...» سنة ١٩٨

اربعمائة ضفدع تحت جناحه ( يعني ثورة الزط ) فكيف يقوى على حلبة العرب ؟ » .

وتغلب نصر على بلدة كيسوم ( شمالي حلب قرب سميساط ) وفشا أمره مدة خمس سنوات وصار له ما بين سميساط الى الضفة الشرقية للفرات الى أرض الجزيرة وتبعه من بها من الاعراب .

وأتى نفر من الطالبيين الى ابن شبث فقالوا : قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم وأغلقت المغرب عنهم فلو بايعت خليفة كان أقوى لأمرك . قال من أي الناس ؟ قالوا : بعض آل علي قال : أبايع اولاد السوداوات فيقول : إنه خلقني ورزقني ؟! قالوا : فنبايع لبعض بني أمية . قال أولئك قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ... ولو سلم علي مدبر لأعداني إدباره . وإنما هواي في بني العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم ... »[1] .

وقد عهد المأمون إلى قائده طاهر بن الحسين بحرب ابن شبث فتحصن منه بكيسوم سنة ١٩٩ ولم يقبل دعوته الى الطاعة ولم يظفر طاهر منه بشيء حين لقيه في القتال المرير بل عاد إلى الرقة مغلولاً أو شبه المهزوم[2] وبقيت الجزيرة وشمال الشام في يد الثائر سنوات عديدة. صادر فيها أحياناً التجار وسيطر على طرق التجارة . لكنه عامل المسيحيين

---

(١) الأزدي ـ تاريخ الموصل ص ٣٣٤ وابن الأثير ج٦ ص ٣٠٨ .
(٢) أبن العديم ـ زبدة الحلب ج١ ص ٦٥ ـ ٦٦ وابن الأثير ج٦ ص ٢٩٨

في المنطقة ـ رغم مايذكرون من « طغيانه » ـ معاملة حسنة يقول المؤرخ السرياني إنه « كان يحب المسيحيين ويفرض أقسى الجزية على من يترك منهم دينه . ويقول : ليس لي عليكم إلا الجزية وكل امرىء بعد ذلك حرٌ في دينه . وهكذا ـ كما يقول المؤرخ نفسه ـ عاد الكثيرون من المساجد إلى الكنائس ... »

وكان في ثورة نصر شيء من السذاجة البدوية التي تمثلت من قبل في ثورات الخوارج بالجزيرة . ويظهر ان المأمون شعر بخطورة الأمر في المغرب كله فولى عليه عبد الله بن طاهر سنة ٢٠٧ فضيق هذا على نصر بن شبث ثم ضيق وحارب وفاوض ثلاث سنوات حتى لقد بعث المأمون إليه رجلا يقنعه بالحسنى أن يكف عن الثورة [١] حتى انتهى الأمر بأن قنع بقبول الصلح سنة ٢٠٩ هـ شريطة الأمان فكتب له « ... وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلاّ الله وضمانة لك في دينه وذمته الصفح عن سوالف جرائمك ومتقدمات جرائرك وانزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة ان أتيت وراجعت ان شاء الله ... »[٢] فسلم نصر بعد ثورة دامت اثنتي عشرة سنة وجيء به إلى بغداد سنة ٢٠١ هـ ( آذار سنة ٨٢٥ ) حيث وكل به المأمون الحفظة .

ويلفت النظر ماذكرته المصادر السريانية خاصة عن علاقة نصر بن شبث بالروم وهي ظلت غائبة عن المؤرخين العرب وتقول : « حين علم نصر الثائر أن المأمون ، ملك الطائيين ( العرب ) تهيأ للقدوم الى بغداد

---

(١) الطبري ج٨ ص ٥٩٨ ( ٣/١٠٦٧ ـ ٨ )
(٢) المصدر نفسه ٨ ص ٦٠٠ ( ٣/١٠٧٢ ـ ٣ ) .

دعا كاتبه وهو مسيحي متعلم وأملى عليه خطاباً للبطريق أما نويل كأنه يريد التحالف مع الروم . ولما علم الامبراطور ميخائيـل بذلك بعث رسله فوصلوا الى كيسوم فوجدوا نصراً قـد خرج إلى سروج وبلغه الخبر وهو بها فجمع أصحابه وأعلمهم الخبر وافتخر بقـدم رسل الروم . وغضب أنصاره وقالوا : أتريد أن تغضب الله وترتد ؟ إلى أن أوغروا صدره حقداً بهذا الحديث فأرسل من قتل رسل الروم ...»[1] ويبدو أن مبادرة نصر بالكتابة إلى الروم غير صحيحة ولو أنها كانت لعرف بها أصحابه من قبل ومنعوه منها . والأرجح أن امبراطور الروم أو قواده على الجبهة أرادوا الاتصال به واستغلال ثورته . ولعله مال الى التعاون معهم ثم استشار أصحابه وانتهى إلى رفض التعاون الذي يوقعـه في الشبهة دينياً وسياسياً فقرر قتلهم تعبيراً عن قطع كل جسر وكل احتمال لذلك التعاون . ولو أنه كان طلبهم بنفسه لاكتفى بصرفهم حيث جاؤوا. وبعد أن وقع نصر ، جمع عبد الله بن طاهر المتغلبة على مدن الشام أمثال: ابن السرج وابن ابي الجمل وابن ابي الصقر فحملهم وراءه الى بغداد ايضاً وتابع طريقه الى دمشق ليقضي على ابن بيهس على أن أصداء ثورة نصر بقيت أزماناً طويلة في نفوس الناس واحتفظت الملحمة الروميـة الشعبية بذكرى ثورته حتى اصبحت فصلا من فصولها لأنها وقعت في المنطقة نفسها ( سميساط ) التي تقع فيها أحداث البطل الرومي ...

**هـ ـ في السواد :** بالرغم من قرب هذه المنطقة من عاصمة الدولة فانها كانت في بعض السنوات من هذه الفترة مركز ثورة وشغب ولكن من قوم غريب عن العالم الاسلامي هو : الزط ( النور ) ويظهر انالزط اخلاط من الهنود يقدر عددهم بسبع وعشرين الفاً وصلوا لسبب لا نزاله

نجهله الى سواحل خليج البصرة • ويظهر من أخبار البلاذري[1] أن أصل الزط من منطقة السند • وانهم كانوا أهل مستنقعات يرعون فيها الجواميس فتنقلوا في بلاد كرمان وفارس وكور الأهواز ووصلوا أخيراً إلى بطائح العراق ، وسبب ترحلهم على قول المسعودي[2] هو مجاعة وغلاء حلت بهم في ناحية الهند • واسم ( الزط ) في العربية مشتق من اسمهم الهندي ( الجات ) وما يزال منهم هناك بقايا يعيشون في الحوض الأدنى المستنقعي من حوض السند • ولغتهم هناك مستعملة إلى اليوم •

ويبدو أن قدومهم إلى العراق سابق للفتح الاسلامي لأن البلاذري يشير إلى وجود جماعة من الزط ، في منطقة البصرة عند الفتح[3] ، قد جاء بهم الساسانيون ولقيهم الفاتحون فيما بين رامهرمز وأراجان فهم يذكرون أرضاً باسمهم هناك • وقد نقل معاوية ، أسراً عديدة من الزط، من البصرة إلى سورية سنة ٦٧٠ ثم أتى الحجاج ببعضهم (او سمح لهم) باستيطان منطقة البطائح ليستفيد منهم في استغلالها • ثم نقلهم الوليد ـ أو نقل بعضهم ـ ، وكذلك يزيد الثاني في النصف الأول من القرن الثامن إلى شمال سوريا الغربي فأقراهم في أنطاكية والمصيصة يعني على التخوم مع الروم • وكان في أنطاكية منذ عهد معاوية والوليد بن عبد الملك حي يسمى بحي الزط لأنهما انزلاهم وفي بوقا من عمل اللاذقية قوم من اولادهم[4] •

ويظهر أن مستواهم المعاشي كان واطئاً جداً لأنهم أخذوا يقومون

---

(١) البلاذري ص ٤٦١

(٢) التنبيه والاشراف ص ١٩٦ .

(٣) البلاذري ـ فتوح ص ٤٦٠

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٣ و ص ٤٦٣ .

يبعض أعمال اللصوصية الصغيرة « بأن يسألوا الشيء الطفيف ، ويصيبوا غرة من أهل السفينة فيتناولوا منها ما يمكنهم اختلاسه[1] » وقد زاد عددهم كما زاد فقرهم وعبثهم أيام المأمون حتى أصبحوا خطراً على المواصلات والأمن • ويفسر البلاذري ذلك بأنهم « غلبوا على البطيحة وتناسلوا بها ثم إنه ضوى إليهم قوم من أباق العبيد وموالي باهله وغيرهم فشجعوهم على قطع الطريق ومبارزة السلطان بالمعصية » وهذا يدل على أنهم كانوا إحدى الطبقات التي دفعها سوء الوضع المعاشي إلى التذمر ثم إلى الثورة • لهذا نجدهم حين ثاروا قد « احتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة » وسوف يثور الزنج ، تلك الطبقة الأخرى التي تشبه الزط في الشروط المعاشية، بمنطقة البطائح نفسها بعد حوالي نصف قرن مثل ثورة الزنج •

وقد انتهز الزط قيام الفتنة الاخوية بين الأمين والمأمون فاستولوا على طريق البصرة ومنعوا الميرة عن بغداد وفرضوا المكوس الجائرة على السفن التجارية • وكان على رئاستهم زعيم يسمى محمد بن عثمان وصاحب أمره رجل يقال له : **سملق** •

وقد عجزت جيوش المأمون ما بين سنة ٢٠٥ حتى وفاته عن قهرهم رغم ما بعث من قواد حتى ارسل المعتصم من بعده عجيف بن عنبسة فأحاط بهم وسد مسالك الانهار والقوت عليهم تسعة أشهر واضطرهم لطلب الامان ثم حملهم في السفن مطلع سنة ٢٢٠ فمر بهم في بغداد وكانت عدتهم مع النساء والصبيان سبعة وعشرين ألفاً والمقاتلة منهم اثنا

---

(١) البلاذري ص ٤٦٢ •

عشر ألفاً أيضا فاستعرضهم الخليفة في سفنهم على تعبئتهم وهم ينفخون في البوقات[1] ثم نقلوا في البر إلى (عين زربة) في آسيا الصغرى فأسرهم هناك الروم سنة ٢٤١ ونقلوهم الى اوروبا وعرفوا هناك باسم جيبسي[2] .

**و ـ في الموصل :** كانت الموصل رغم قربها من بغداد ـ العاصمة على علاقة سيئة مع الحكم العباسي منذ ثورتها الأولى عليه ونكبتها في تلك الثورة سنة ١٣٣ على الأقل وربما كان يشجعها على الثورة ما يقوم وراءها إلى الشمال من ثورات الخوارج وغيرهم في الجزيرة وارمينية واذربيجان . ويبدو أن خراج البلد كان ثقيلا عليها بينما تدمر الثورات حولها إنتاجها فكان يكسر عليها الخراج فلا يدفع في بعض السنوات . وقد تشكى أهل الموصل ذلك أكثر من مرة وجاء وفدهم سنة ١٧٥ الى يحيى بن خالد البرمكي فأجبرهم على تسوية تقوم على أساس مساحة الأرض[3] .

ويبدو أن هذه التسوية لم ترض الناس فانا نجد في السنة التالية سنة ١٧٧ تحالف قائد من قواد الموصل وفرسانها المعروفين وهو العطاف ابن سفيان الأزدي مع بعض القواد الآخرين ومع صعاليك البلد وأهله ضد الرشيد . وبالرغم من أن المصادر لا تشير الى سبب هذه الثورة

---

(١) انظر ابن الأثير ج٦ ص٤٤٤ و ٤٤٦ والطبري ج٩ ص ٨١٠ (٣/١١٦٧ ـ ١١٦٨) .

(٢) يرى المستشرق (دي غويا) ان الزطهم أصل (غجر او نور) أوروبا غير ان الراي لقي معارضة شديدة لا سيما من الفرنسي (بتايار) الذي يرجع وجود الزط في أوروبا الى ازمنة سحيقة .

(٣) ابو زكريا الأزدي ـ تاريخ الموصل ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧

إلا إن قيام فارس موصلي بها وتحالفه مع صعاليكها وتأييد البلد له تأييداً شاملا جعل الرشيد يحلف بأن يقتل من يلقاه من أهل الموصل وأن يهدم سورها • كل ذلك بالإضافة الى ما قام به العطاف من «جباية الخراج وحبس العمال» إنما يدل على أن قضية الخراج هي السبب في الحركة • وكان جيش العطاف أربعة آلاف فاستطاع «منع عمال هارون (الرشيد) من الجباية واستخرج هو المال •••» وأضحى هو «الغالب على الأمر كله وهو في يده •••»[1] واستمر الأمر على ذلك ثلاث سنين حتى شخص الرشيد سنة ١٨٠ بنفسه الى الموصل وكاد العطاف يكمن له ويهاجمه لولا أن رجاه شيوخ البلد ألا يفعل بينما كان الرشيد قد أقسم أن يقتل من يلقاه من أهلها ••• فذهب وفد منهم الى أبي يوسف القاضي يرجون أن يجد لهم مخرجاً فوجده : طلب إليهم أن يجهروا بالأذان في العشاء فلما فعلوا قال الرشيد : ما هذا ؟ قال ابو يوسف إنهم قوم مسلمون ومن أهل الصلاح وفيهم قراء القرآن ولايجوز قتلهم فقال الرشيد وما الحيلة في يميني ؟ قال : ادخل المدينة ليلا فلا يجب عليك قتل من لاترى •• وكان ذلك ثم أمر بهدم سور المدينة ونادى مناديه : من هدم ما يليه من السور فهو آمن ••• وهرب العطاف الى ارمينية بجنوده فلم يعف عنه الرشيد أبداً •• أما الموصل فطولبت بخراج السنوات السابقة وقهرت وظلمت بالعسف الشديد حتى جلا عن البلد كثير من أهله الى اذربيجان وخلت قرى كثيرة من سكانها فلم تعمر بعد ذلك[2] •

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٥
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٧

**ز ـ في خراسان :** لم تجن خراسان شيئاً من كل الخدمات التي قدمتها لبني العباس • فلقد ثارت ـ مع العرب الذين سكنوها ـ على بني أمية لتحقيق بعض الافكار الدينية والاصلاحات المالية والاجتماعية وقد هزم المنصور ثوراتها المنحرفة عن الدين فتحولت الى السر ، ثم فشلت في تحقيق الاصلاح المالي اذ لم يكن الولاة العباسيون أقل ظلماً للخراسانيين من اسلافهم الامويين • واخيراً فان الذي افاد من المساواة الاجتماعية مع العرب كانت الارستقراطية الايرانية وحدها دون جماهير الشعب • ولهذا سنرى خراسان تثور في هذه الفترة التي ندرسها (١٥٨ ـ ٢١٨) على الظلم ثم تحاول لعب دور جديد في الدولة الاسلامية يوم الفتنة الاخوية حتى اذا فشلت انتهى بها اليأس الاخير الى الانفصال التدريجي عن الدولة •

والواقع ان أكثر ولاة خراسان اهتموا بمصالحهم وثرائهم دون أماني الرعية • وبعضهم (كعبد الجبار بن عبد الرحمن والمسيب بن زهير) زادوا في الضرائب دون مبرر • ولعل الفضل بن سليمان الطوسي (٧٨٣ ـ ٧٨٧) والفضل بن يحيى البرمكي (٧٩٤ ـ ٧٩٥) هما الواليان الوحيدان اللذان سعيا لخير خراسان • ولعل اصلاحات الأخير من إزالة سيرة الجور وبناء الحياض والمساجد واحراق دفاتر البقايا وزيادة العطاء ، قللت الوارد من خراسان وأغضبت الرشيد ، كما يقول الجهشياري[1] •

وولى هارون بعد ذلك علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٨٠/٧٩٦ في مهمة محددة عهد إليه بها فيما يبدو ـ وترمى الى تدمير القواعدالتي

---

(١) الجهشياري ص ٢٢٨

بناها البرامكة هناك وتبديد الجيش الذي نظموه بالأعداد الضخمة وإفقار أنصارهم وقتل الاقوياء من الدهاقين الموالين لهم • فكان الوالي القاسي الظالم مدة عشر سنين (٧٩٦ ـ ٨٠٦م) حمل من أموال الناس إلى الرشيد «ألف بدرة مصمولة من ألوان الحرير فيها عشرة آلاف الف درهم[١] » فسر الرشيد بذلك وزاد علي في الحظوة عنده • فلما شكا كبراء خراسان من ظلمه وسوء سيرته فيهم لم يستمع لشكواهم[٢] ثم ثارت المنطقة عبثاً أيضاً : قاد ثورتها سنة ١٨٣ أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي ، أحد موالي الحريش بينما كان علي بن عيسى يحمل الهدايا للرشيد • فأعاده الخليفة الى خراسان للقاء الثائر الذي كان «قد غلب على بلده نسا وعلى ابيورد وطوس وسرخس ونيسابور وخربه وأفسد وكثفت جموعه وقوي أمره فخرج إليه علي بن عيسى بجيش قضى عليه سنة ١٨٦ وقتله وانتقم من أهله وذراريه بالسبي وحمل رأسه الى مرو[٣] • ولا يبعد أن تكون هذه الثورة على علاقة بالفضل البرمكي أو أن تكون عناصرها من أشياع بيته •

ويبدو أن هذه السياسة الإرهابية كانت من وحي الرشيد وتخطيطه لتدمير قواعد البرامكة في خراسان فرضي بها وأبقاها حتى بعد مصرع البرامكة ثم وسوس إليه بعض الوشاة أن علياً ينوي الثورة فمشى بنفسه إليه (سنة ١٨٩ هـ ـ ٨٠٤م) ولكن علياً قدم على الرشيد وعلى حاشيته «بالهدايا والأموال والطرف من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب

---

(١) الجهشياري ص ٢٢٨

(٢) الطبري ج٨ ص ٣١٥ (٣/٧٠٣ ـ ٤)

(٣) ابن ظافر الأزدي الدول المنقطعة ـ مخطوط المتحف البريطاني ورقة ١١١ وجه والطبري ج٨ ص ٢٧٠ وص٢٧٥ (٣/٦٤٩) و (٦٥١) •

والفضة والسلاح والدواب ، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم» فقنع الرشيد بولائه ولعله أبقاه خوفاً من أن يكون هناك في خراسان بعض الموالين للبرامكة فيتحركون للثأر لنكبتهم •

وأخيراً افتضح أمر علي سنة ٨٠٥م (١٩٠ هـ) بان ثارت خراسان مرة أخرى ••• ولكنها لم تكن ثورة برمكية ، وإنما كانت ثورة اجتماعية دينية ،مشت بها الطبقات المسحوقة وراء شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاد الثورة رافع بن الليث (حفيد نصر بن سيار) ،وبالرغم مما يروي الطبري[1] من أن الثورة كانت لسبب شخصي (هو إيقاع الحد الشرعي برافع) فإن بعض المؤرخين كالدينوري[2] يعزوها الى ظلم علي • « وتحامله على من في خراسان من العرب » وما من شك في ان ضيق الناس بظلم هذا الوالي هو الذي يفسر نجاح رافع وكثرة أنصاره حتى بلغ عددهم زهاء ٣٠ ألف رجل وأيدته بلاد الترك أيضاً : «كتب ــ مثلا ــ أهل نسف إلى رافع: يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل علي بن عيسى فوجه صاحب الشاش في أتراكه قائداً من قواده فأتوا عيسى بن علي فأحدقوا به وقتلوه (سنة١٩١) ولم يعرضوا لأصحابه[3] • وانتشرت الحركة بين أهالي فرغانه واشروسنة والصغانيان وبخارى وخوارزم والختل[4] فناصروا رافعاً في ثورته مما يبين انتشار التذمر من سياسة

---

(١) الطبري ج٨ ص ٣١٩ (٣/٧٠٧ ــ ٧٠٨)
(٢) الدينوري الاخبار الطوال ص ٣٩١
(٣) الطبري ج٨ ص ٣٢٣ (٣/٧١٢)
(٤) اليعقوبي ج٢ ص ٤٣٥

العباسيين ، كماأن بعض خصوم الدولة العباسيةمثل «حاكم الشاش والترك والتغزغز والخرلخي (القارلوق)وجنود التبيت ، أرسلوا نجدات لمساعدته حين استنصر بهم» وهكذا على ما يظهر بدأت ثورة رافع عربية ثم لحق بها الايرانيون والترك ، الناقمون المتذمرون فصارت ثورة اقليمية ثم أيدها أمراء الترك المجاورون فصارت ذات طابع دولي على نحو ما وظهر أن نوعاً من الحلف أو الجبهة الثائرة قد قام على اقصى الحدود الشمالية الشرقية للدولة يشترك فيه كافة الترك المعاهدين مع المجموعة العربية المستقرة هناك والسكان الايرانيين • والترك (المسلمين وغير المسلمين) ويبدو أن مقر رافع بن الليث وحلفه كان في «سمرقند» «حيث تحصن» وأن الرباط الجامع بين أصحابه هو ظلم والي خراسان فإن الرشيد حين أرسل هرثمة أمره «بالشخوص الى سمرقند ومحاولة ما قبل خامل (يقصد رافع) ومن كان على رأيه ممن أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كور ما وراء النهر وطخارستان بالدعاء الى الفيئة والمراجعة وبسط أمانات امير المؤمنين ••• إذ أجابهم الى طلبتهم •• وكفاهم ولاية من كرهوا ولايته وأمر بإنصافهم في حقوقهم وظلاماتهم ••• » •

واتخذ الرشيد تدابير عديدة ، فعزل علي بن عيسى وأرسله هرثمة مع اولاده وعماله بالقيود الى بغداد «فأظهر (الناس) السرور وانفسحت آمالهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم •••» واستصفى الرشيد أمواله فبلغت ثمانين مليونا من الدراهم» وكتب إليه في كتاب العزل : «خالفت عهدي ونبذت وراء ظهرك أمري حتى ظلمت الرعية وأسخطت الله وخليفته لسوء سيرتك» وأوصى القائد هرثمة بن أعين الذي خلف علياً على الولاية باستخراج أموال الخراج التي اغتصبها علي «وبانصاف المسلمين والمعاهدين منه ورد حقوقهم ومعاملتهم بالحسنى وأن يتقي الله

ويهتدي بكتابه ...»[1] إلا أن هذه التدابير جاءت متأخرة فلم تستطع القضاء على الثورة التي بلغ من خطرها أن قرر الرشيد المسير إليها بنفسه سنة ١٩٢ وكان في طريقه إليها حين توفي ...

كان هرثمة القائد، قبيل وفاة الرشيد قد هزم ابن الليث في واقعة فتح بعدها بلدة بخارى وأسر بشير بن الليث شقيق رافع فلما أدخلوه على الرشيد بطوس وهو مريض كشف الحوار الذي دار بينهما عن مدى حقد الرشيد ونقمته على الثائر ولعل لمرضه السرطاني آثراً في تأجيج تلك النقمة إذ قال حين استعطفه : والله لو لم يبق من أجلي إلا أن أحرك شفتي بكلمة لقلت :اقتلوه ثم أمر القصاب ألا يشحذ سكاكينه وأن يقطع اعضاءه فقطعه ٢٤ قطعة[2] .

ويبدو أن المأمون الذي كان يرافق أباه أراد تهدئة أبيه والثورة معاً إذ كتب «الى» أبناء أسد بن سامان وكانوا فيما يظهر من اكبر بيوت ما وراء النهر فأمرهم بمعونة هرثمة على رافع . ولكن هؤلاء الأبناء فضلوا المسعى السلمي وحملوا رافعاً على عقد صلح مع هرثمة أيدوه بمصاهرة بينهما[3] . ويقول النرشخي «وفرغ بال الرشيد من هذا الأمر» وقد كان يخشى أن يستولي رافع على كل خراسان وقد رأى المأمون أن هذا الأمر (أي الصلح) قد جاء في حينه تماماً» لأن التهدئة جاءت على ما يظهر لتعطي الرشيد بعض الراحة وهو على أبواب الوفاة . فما توفي حتى عادت الحرب كرة أخرى .

---

(١) الطبري ج٨ ص٣٢٧ (٣/٧١٦ ـ ٧١٧) وقد ذكر ان خزائن علي ابن عيسى حملت على ١٥٠٠ بعير .
(٢) الطبري ج٨ ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ (٣/٧٣٤)
(٣) النرشخي ـ تاريخ بخارى ص ١٠٥

وبالرغم من معونة الترك فإن رافعاً «تراجع الى سمرقند فتحصن بها ... ثم استعان رافع بجيغويه (التركي) الخرلخي وكان جيغويه هذا قد أسلم على يد المهدي فجعل يخادع هرثمة ويوهمه أنه معه ومعونته وهواه لرافع . ثم أظهر المعصية والخلع فقوي أمر رافع بمكانه وأحرق السواد بالنار وتبرأ من أهله ودعا لغير بني هاشم ...»[1] وكان هذا يعني أن الأمور قد تحرجت حرجاً شديداً دعا هرثمة إلى أن يشدد القتال حتى «أخذ بأكظامهم» سنة ١٩٣ ودخل حائط (سور) سمرقند فلجأ رافع الى المدينة الداخلة وراسل الترك فوافوه فصار هرثمة بين رافع والترك ... »[2] .

ويبدو أن دبلوماسية المأمون وعمل حاشيته مع وجهاء ما وراء النهر وبيوته الكبيرة قد فعلت فعلها وفي الوقت الذي كان يترضى أهل خراسان كان يفاوض رافعاً ويعمل لدى ملوك الترك حتى يتخلوا عن رافع وقد سحبوا جيوشهم سنة ١٩٤ فعلا بينما قنع رافع بحسن سيرة المأمون — على قول الطبري — فبعث يطلب الأمان منه وأسرع هرثمة فقبل أمانه وأخرجه مع أهله وأصحابه وقدم رافع على المأمون سنة ١٩٥ — وهرثمة مايزال في سمرقند — فأكرمه وعفا عنه . وهو عفو يجد تعليله دون شك في ماكان على المأمون ان يواجهه في تلك السنة من حرب أخيه ومزاحمتة على الخلافة . كان المأمون يتدبر سلم ولايته وما حوله ليتفرغ للمشكلة الكبرى[3] .

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٣٦

(٢) الطبري ج٨ ص ٣٧٣ (٣/٧٧٥) .

(٣) يذكر ابن الأثير ان هرثمة قتل رافع بن الليث وان ذلك كان سنة ١٩٥ (أنظر ج٦ ص ٢٠٩) .

ولعل أهم ما تمخضت عنه ثورة رافع بالنسبة لمستقبل خراسان التاريخي أنها فتحت الطريق لابناء أسد بسبب تعاونهم مع المأمون ليكونوا أمراء على مرو وسمرقند ثم ليكون ابناؤهم من بعدهم مؤسسي الدولة السامانية في خراسان اعتبارا من سنة ٢٥١ بمرسوم من الخليفة الواثق ٠

أما فيما بين ثورة رافع وأواسط عهد المأمون فقد عاشت خراسان تجربة ظنت معها أن الآمال التي فاتتها بعد الثورة العباسية قد عادت لتتحقق متأخرة ستين سنة ٠ وكانت مسيرة جيش طاهر بن الحسين الى بغداد تجديداً ، على نحوما ، لمسيرة قحطبة الطائي وحسب المأمون أن بإمكانه أن يدير الدولة كلها من أقصى شمالها الشرقي كما حسب الخراسانيون وخاصة منهم الايرانيون المسلمون أن بإمكانهم أن يأملوا في السيطرة على الدولة محل العرب ٠

على أن هذه التجربة التي جربتها خراسان مع المأمون لم تنجح وكانت نوعاً من السراب فما كاد يتم له أمر الخلافة حتى فرض الواقع الجغرافي والتكوين السياسي والاقتصادي للدولة نفسه عليه فانتقل إلى بغداد وقتل الفضل بن سهل ... فمهد ذلك لانفصال المنطقة جميعاً على يد الأسرة الطاهرية ٠ وبالرغم من ارتياب المأمون بهذه الأسرة فان أعماله هي التي وطدت أقدامها بخراسان ٠

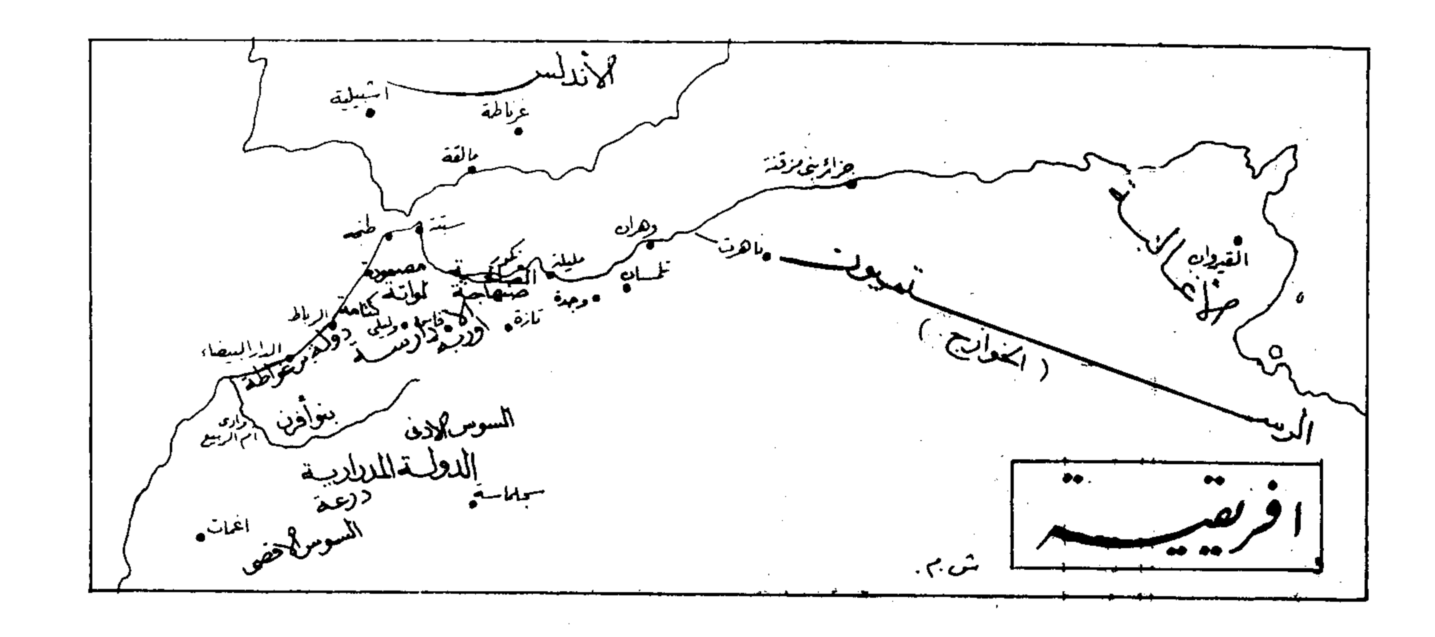
كان طاهر بن الحسين هو القائد الذي فتح للمأمون العراق وبغداد وقتل الأمين ٠ وقد كان معسكراً في الرقة ومخاصماً للحسن بن سهل والي العراق حين وصل المأمون بغداد ٠ فاستقدمه إليه وولاه المغرب أولا ثم ولاه الشرطة ببغداد ٠ ثم أعطاه سنة ٢٠٥ هـ ولاية خراسان والجبال

من حد حلوان . وقد أشـــار على المأمون بهذا وزيره أحمد بن أبي خالد وصديق طاهر وكان يعرف رغبته في الولاية لطموحه ، ولخوفه من أن يفتك به المأمون انتقاماً لأخيه . وقد علق المأمون على ذلك الاقتراح بقوله حسب رواية الطبري «هـــو والله خالـــع[1]» أو حسب رواية الفخري : «اني أخاف ان يغدر ويخلع[2]» وحاور وزيره في الأمر ولكن أحمد ضمن طاهراً (ويقال إنه قبض ثمن ذلك الضمان منه ثلاثة ملايين درهم[3] ، وحذر المأمون من ضعف غسان بن عباد ( ابن عم الفضل بن سهل ) والي خراسان . ويروي اليعقوبي[4] أن الوزير أحمد زور رسالة على لسان غسان يستعفي فيها من الولاية ، فأمضى المأمون المنصب إلى طاهر ، ولم يكتشف التزوير إلا فيما بعد ذلك .

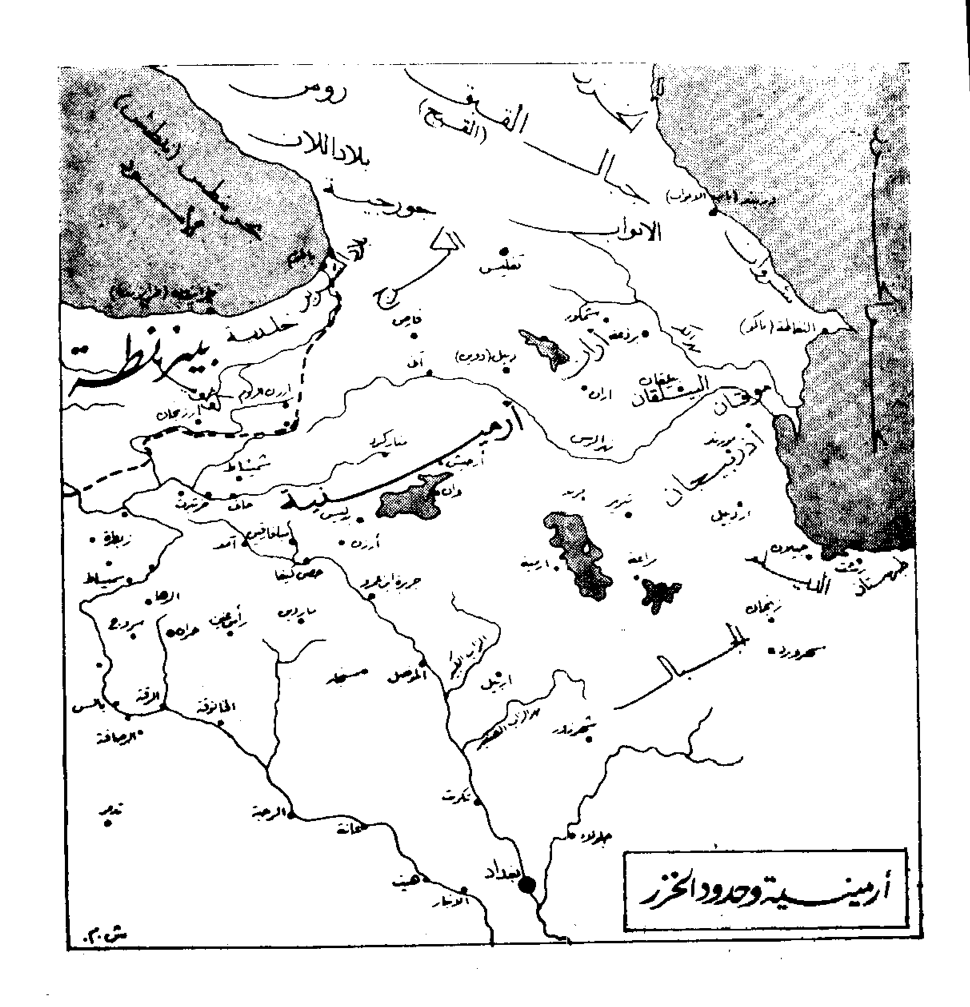
ثم كان ما حذره المأمون ،فقد ظهر التمرد في كتب طاهر أولا ، ثم تطور الأمر إلى الانفصال الظاهر ، فقطع طاهر بعد قليل (سنة ٢٠٧) الخطبة للمأمون ، وأنحى الخليفة باللائمة على وزيره وطالبه بالضمان.. فتوفي طاهر فجأة في خراسان بتدبير الوزير[5] . ولعل المأمون ـ على عادته السياسية مع العلويين أو مع الفضل بن سهل ـ أراد درء التهمة عن نفسه فولى طلحة بن طاهر مكان والده ، وولى أخاه عبد الله المغرب. فلما توفي طلحة سنة ٢١٣ حول المأمون عبد الله الى خراسان فثبت بذلك أقدام هذه الأسرة التي أسست أول إمارة شبه مستقلة في ايران .

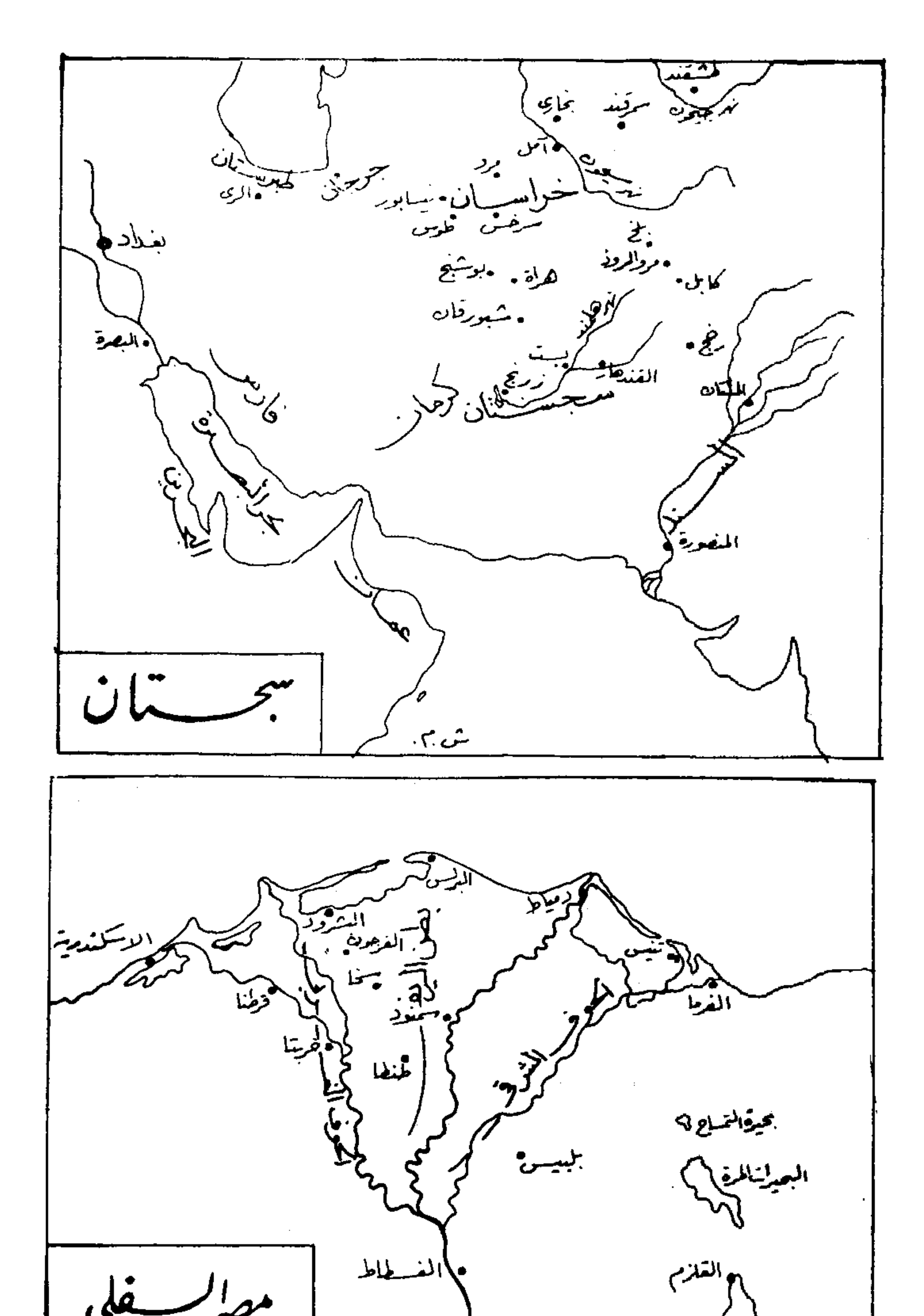
---

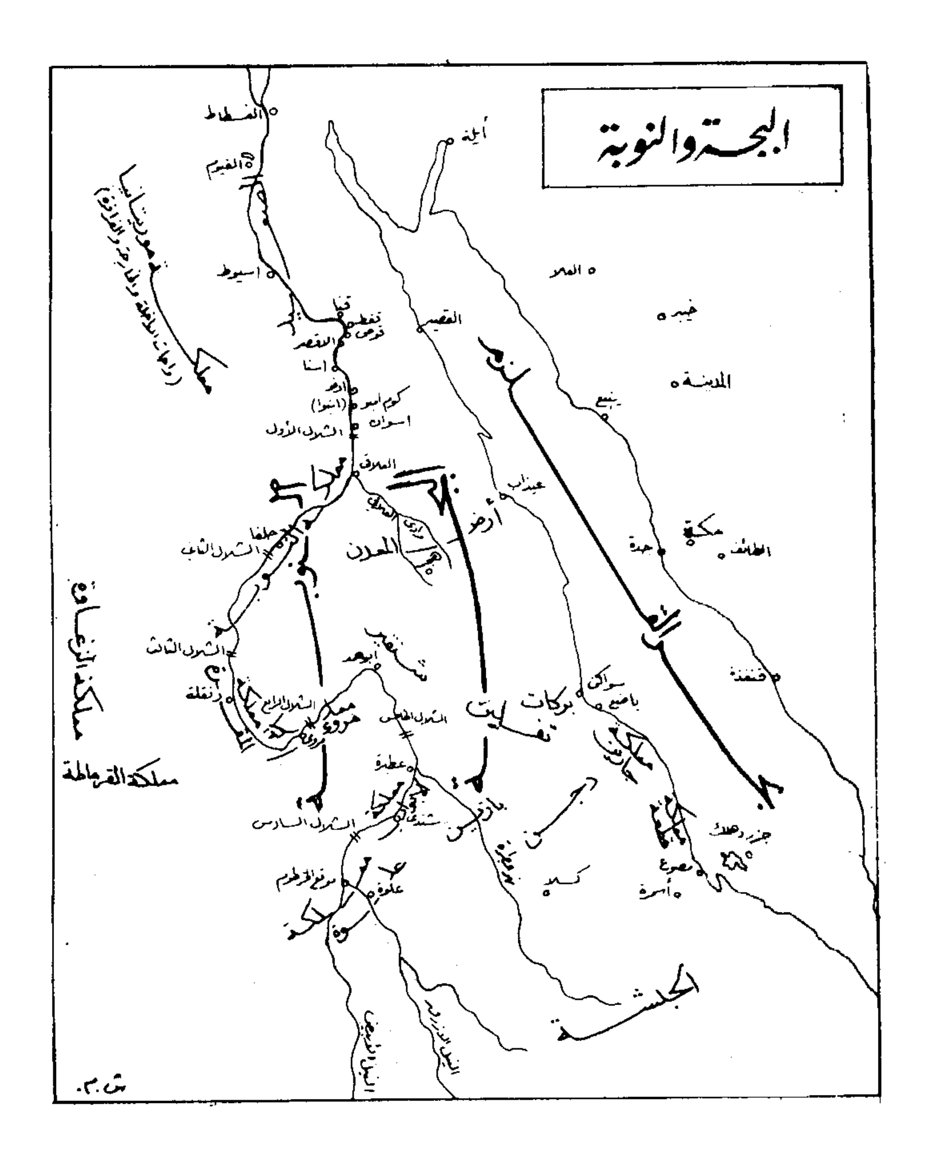
(١) الطبري ج٨ ص٥٧٩ (٣/١٠٤٢) .
(٢) الفخري ص ١٦٨
(٣) اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٧
(٤) اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٦ .
(٥) هناك روايات متعددة لموت طاهر (الطبري ج٨ ص ٥٩٤ ـ ٥٥٥) (اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٧) (الفخري ص ١٦٨) (ابن خلكان ج١ ص ٢٣٧) .



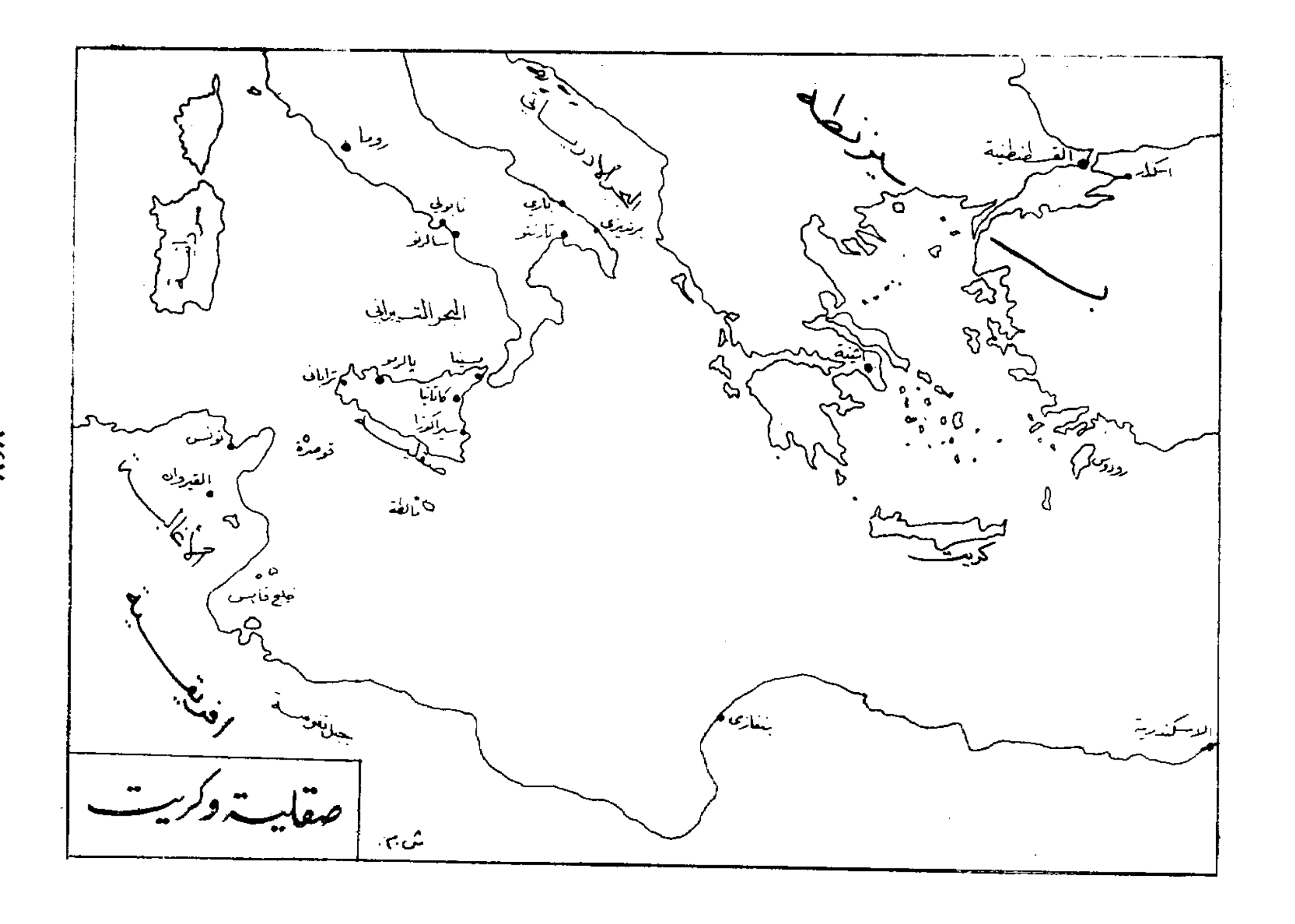
الأندلس
اشبيلية
غرناطة
مالقة
سبتة
طنجة
وهران
مليلة
تلمسان
وجدة
تازة
تاهرت
تميوت
( الخوارج )
القيروان
مصمودة
لواتة
صنهاجة
كتامة
الرباط
دولة الأدارسة
الدار البيضاء
برغواطة
بنوأفرن
السوس الأدنى
الدولة المدرارية
سجلماسة
درعة
أغمات
السوس الأقصى
افريقية
ش. م.


أرمينية وحدود الخزر
بيزنطة
أرمينية
أذربيجان
الجبال
روم
بلاد اللان
جورجية
الاتواب
تفليس
بحر نيطس (بنطس)
البيلقان
موقان
بغداد
الموصل
تكريت
الرحبة
عانة
الانبار
هيت
الرقة
الرها
حران
آمد
ميافارقين
تبريز
أرمية
أردبيل
برذعة
شمكور
خلاط
أرزن
أرزن الروم
زنجان
شهرزور
حلوان


سجستان
طشقند
سمرقند
بخارى
آمل
مرو
خراسان
نيسابور
جرجان
طبرستان
الري
بغداد
سرخس
طوس
بلخ
مرو الروذ
كابل
هراة
بوشنج
شبورقان
بست
زرنج
القندهار
سجستان
كرمان
الملتان
السند
المنصورة
البصرة
فارس
عمان
ش.م.
مصر السفلى
البرلس
دمياط
الاسكندرية
الفرجون
سخا
سمنود
تنيس
الفرما
طنطا
بحيرة التمساح
بلبيس
البحيرات المرة
القلزم
الفسطاط
ش.م.



البجة والنوبة
الفسطاط
الفيوم
أيلة
اسيوط
قفط
قوص
الاقصر
اسنا
اسوان
الشلال الأول
العلاقي
القصير
عيذاب
المدينة
ينبع
مكة
جدة
الطائف
خيبر
المعدن
الشلال الثاني
الشلال الثالث
دنقلة
الشلال الرابع
مروي
الشلال الخامس
ابو حمد
عطبرة
شندي
الشلال السادس
سواكن
باضع
بركات
كسلا
مصوع
أسمرة
علوة
الحبشة
مملكة الزغاوة
مملكة القرماطة
ش. ٣٠


صقلية وكريت
ش ٣٠
روما
نابولي
سالرنو
باري
برنديزي
تارنتو
البحر الادرياتي
البحر التيراني
بيزنطة
القسطنطينية
أثينة
كريت
رودوس
مسينا
بالرمو
ترابانى
كاتانيا
سيراكوزا
صقلية
قوصرة
تونس
القيروان
مالطة
الأغالبة
خليج قابس
افريقية
جبل نفوسة
بنغازي
الاسكندرية

# الفهرس

| الموضـــــوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضـــــوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضـــوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضـــوع | الصفحة |
|---|---|
| الأمـين ـ المـأمون | ٤٠٤ |
| **الفصل التاسع : مشاكل الحكم ـ ١ ـ ولاية العهد** | ٤١٥ـ٤٥٣ |
| ولايـة العهد ـ المهدي وولاية العهد | ٤١٥ |
| الهـادي وولايـة العهـد | ٤٢١ |
| الرشيد وولايـة العهـد | ٤٢٧ |
| خـلاف الأمين والمـأمون | ٤٢٨ |
| التطور الـدبلوماسي السـلمي | ٤٣٧ |
| طـور النزاع المسلح | ٤٤٣ |
| **الفصل العـاشر : مشاكل الحكم ـ ٢ ـ الوزارة** | ٤٥٤ـ٤٩٥ |
| وزار ةالمهدي والهادي ـ وزارة الرشيد وقضية البرامكة | ٤٥٤ |
| اسبـاب النكبة | ٤٦٢ |
| قصة العبـاسـة | ٤٦٤ |
| السبب الـديني | ٤٦٦ |
| السـبب المـالي | ٤٦٧ |
| السـبب الشـخصي | ٤٦٩ |
| السـبب السيـاسي | ٤٧١ |
| الوزارة بعـد البرامكـة | ٤٩٠ |
| **الفصل الحادي عشر : السياسة الداخلية** | ٤٩٦ـ٦٤٢ |
| السيـاسة الداخلية | ٤٩٦ |
| رسـالـة الصحـابـة | ٤٩٩ |
| السيـاسـة الادارية | ٥٠٨ |
| رئاسة الدولة والبلاط والحاشية | ٥٠٩ |
| الكتـاب والدواوين | ٥٢٨ |
| الـولاة ـ توزيـع السـلطة | ٥٤٨ |
| الـولاء هـو الاساس | ٥٤٩ |
| التقسيم الاداري وجهاز الادارة | ٥٥٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

# دولة بني العباس

## الجزء الثاني

الدكتور
شاكر مصطفى

الناشر
وكالة المطبوعات

# دولة بني العباس

## الجزء الثاني

الدكتور
شاكر مصطفى

الناشر
وكالة المطبوعات
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت



# مُقَدّمَــة

ما كان في خاطري أن يكون هذا الكتاب « دولة بني العباس » منذ وضعته إلا جزءاً واحداً متكاملا . أما وقد شاء الطبع والنشر أن يكون جزءين تسهيلا للقراءة والتناول فهذا هو الجزء الثاني من الكتاب ، يتمم سابقه ويلحق بأبحاثه . وقد شاء هذا التقسيم أن يكون ثبت المصادر والمراجع ، وثبت الاعلام ملحقين بهذا الجزء شاملين لمباحث الجزءين معاً . وإني لأرجو ، إن تيسرت لهذا الكتاب طبعة أخرى مقبلة ، أن تكون أكثر أناقة وكمالا بما يرفدها من نقد الزملاء الكرام .

والكمال لله من قبل ومن بعد .

**شاكر**

دمشق ١٩٧٤

# الفصل الأوّل

# السّياسة الدّينية

## الملامح العامة للسياسة الدينية العباسية

ليس المقصود من هذا العنوان بالطبع دراسة التيارات الدينية والفرق وآرائها وعلوم الدين والفقهاء وما الى ذلك في العصر العباسي الأول وإنما نريد فقط الى معرفة موقف الخلفاء والسياسة العباسية من تلك التيارات والفرق وبيان تصرفات الخلفاء وعمالهم تجاه كل أولئك وهي سياسة وتصرفات يجب أن نسجل مسبقاً أنها كانت الأمر الوحيد الباقي الى اليوم في المسلمين من ذلك العصر العباسي البعيد •

والفلك العام الذي كانت سياسة العباسيين الدينية تدور فيه ، في عصرهم الأول يمكن أن يتلخص في عدد من النقاط :

أ — اتبع العباسيون الأوائل في الحكم سياسة اسلامية مقابل السياسة العربية التي أخذ معظم الأمويين بها الناس • وكان هذا يعني أن الدين كان الدستور والمصدر للعمل السياسي والاداري وأن شعوب الدولة الاسلامية ، بما فيها العرب أضحت على مسافة واحدة ، أو أضحت متساوية القرب والبعد السياسي من الخلفاء • كما يعني في

الوقت نفسه أن أساس الرابطة الجامعة في الدولة قد تحول من الاشتراك في الأصل العربي مع الحكام الى الاشتراك في العقيـدة الواحدة مع المحكومين •

على أننا يجب أن نسرع الى القول بأن هذه السياسة الاسلامية لم تكن من ابتكار العباسيين وإن برزت على أيديهم ولكنها كانت قد فرضت نفسها منذ أواخر العهـد الأموي تحت ضغط عدد من الظروف «ولو لم تتغير الدولة (الأموية) لكان مقدراً ـ كما قال المستشرق جب ـ للتطور الذي بدأ في ظل الأمويين نحو إقامة نظم ملكية مركزية ونحو صهر العرب ذوي السيادة والتميز حتى ذلك العهد ، في نطاق الامـة الاسلامية عامة ، أن يستمر استمراراً طبيعياً إلا إن تغير الدولة أسرع بإنجاز ذلك التطور وجعل وجهته واضحة محددة [1]••» •

ب ـ حل العباسيون ، باستلامهم الخلافة ، محـل الأمويين في الصراع مع الفرق الدينية الأخرى الطامعة بالحكم • ولكنهم ـ دون الأمويين ـ كانوا أقوى موقفاً بسبب صلة القربى المباشرة التي تربطهم بصاحب الرسالة • وقد أدى ذلك الى عدد من النتائج الهامة لعل أبرزها بقاء هذا البيت في الحكم خمسة قرون وارتباطـه في نظـر الكثير من المتأخرين بنظام الكون نفسه •

حـ ـ أن السياسة العباسية الدينية لـم تكن نابعـة من منطلق عقائدي بقدر ما كانت ذات هدف سياسي • كان اصطناع الطابع الديني

(١) جب ـ دراسات في حضارة الاسلام (الترجمة العربية ـ بيروت ١٩٦٤) ص ١٣

احد الوسائل السياسية لدى الخلفاء العباسيين لدعم نظام الحكم • وضمان بقاء البيت العباسي على رأسه • كانت مظاهر الاعمال الدينية تستخدم كلها في هذا السبيل من نشر للاسلام وجهاد وحج واتخاذ ألقاب وبلورة لعقيدة رسمية سنية للدولة كما كانت تصب جميعاً في القناة السياسية •

د ــ وبالمقابل فإنه بالرغم من أن شعار العباسيين في الثورة إنما كان يتلخص في أمرين :

البيعة للرضا من آل محمد والعمل بكتاب الله وسنة نبيه فإن شيئاً أساسياً لم يتغير في سياسة العباسيين العملية عما كان في العهد الأموي سوى ما تم من ازدياد التعاون مع الشعوب غير العربية في المشرق ( الموالي من انباط العراق والشام والايرانيين والترك ) وهذا قد يعني أن العباسيين اعتبروا وصولهم للحكم تحقيقاً للشعار الأول كما اعتبروا قبولهم للشعوب الأخرى ونشر الاسلام بينها تحقيقاً للشعار الثاني • وكانت المظاهر الدينية ــ فيما عدا ذلك ــ هي التي تغطي الفجوة مابين واقع الحكم العباسي والاتهامات التي كان يرمي بها الحكم الأموي •

هـ ــ وأخيراً فقد وضع العباسيون عملياً نظرية سياسية سنية عباسية في الخلافة كانت نتيجة الواقع العملي والممارسة السياسية أكثر مما كانت نتيجة الفكر النظري والاستلهام الديني وتقوم هذه النظرية على أسس ستة :

١ ــ ابراز القرابة من الرسول والحق في إرثه كأساس للشرعية في

الحكم وقد أخذوا هذا المبدأ عن العلويين واستخدموه بدوره ضد العلويين •

٢ ــ القيام بأمر الدين كتطبيق عملي لتلك القرابة مقابل ماأخذوه على الامويين من إهمال كتاب الله وسنة رسوله •

٣ ــ تمثيل «الجماعة» الاسلامية في الحكم • وقد أخذوا هنا المبدأ عن الأمويين واستخدموه أيضاً ضد الأمويين انفسهم وضد غيرهم (من العلويين والخوارج) •

٥ ــ التعايش مع أهل الذمة كرعايا في الدولة الاسلامية باعتبارهم جماعات يعترف بها الاسلام ولكن ضمن حدود ذلك الاعتراف •

٦ ــ رفض الحركات المارقة والزنديقة ومحاربتها باعتبارها تهديداً للدين الاسلامي ولنظام حكمه (الخلافة) في وقت معاً • وإذا كانت النقاط الأربعة الأولى هي الوجه الايجابي لسياسة العباسيين الدينية فإن النقطتين الأخيرتين هما وجهها السلبي الدفاعي • وسوف نبحثهما على حدة في فصلين تاليين •

وقد كان لكل أساس من هذه الأسس شكله النظري الفكري ومجاله التطبيقي العملي في الحكم ولقد يختلط الشكل والتطبيق أو يسبق أحدهما الآخر لكن الخط العام في النظرية كلها إنما هو دعم الدين الاسلامي والدفاع عنه وجعل الخلافة هي الصورة السياسية له• أما أبرز الواضعين لهذه النظرية فهو دون شك أبو جعفر المنصور الذي أقام حدودها وخطوطها الأساسية ولم يضف عليها الخلفاء الذين جاؤوا من بعده الا بعض التفاصيل والتزيين والتأكيد • وسنبحث تباعاً اذن هذه الأسس :

**١ - القربى من الرسول وحق الارث:**

اعتبر العباسيون ان من البديهيات المسلمة أن تكون قيادة المسلمين بعد الرسول من أهل بيت الرسول . تلك هي الركيزة الأولى لنظريتهم في الخلافة وشعار «آل محمد» كان حصان طرواده الذي دخل العباسيون عن طريقه الى المنصب رافضين بصورة مسبقة الآراء الأخرى من خارجة وأموية أو سنية عامة وإذا كان هذا الشعار يعطيهم الشيء الكثير من الحرمة والقدسية المستخدمتين من صاحب الرسالة نفسه ومن الصفة الإلهية لرسالته فإنهم اختطفوا الكثير من الأسلحة العلوية الدينية وصعدوا صلة القرابة تلك ليجعلوا منها الأساس الشرعي المتين لأسرتهم وحقها في الرئاسة الأولى للمسلمين . والمحور الذي داروا حوله في هذا المجال هو إخراج العلويين من الحق في إرث الرسول وبالمقابل توكيد شرعية الحق العباسي دينياً والدفاع عنه .

وإذا لم يكن صعباً على العباسيين بعد أن وصلوا الى الخلافة وقتلوا مروان بن محمد ومزقوا الكتلة الأموية في الشام سحقاً وقتلا وهربا أن يؤكدوا شرعية حكمهم ضد أنصار الأسرة الأموية بالقوة والواقع الفعلي وباتهام بني أمية «بالظلم» «والباطل» واتباع الشيطان والاستئثار بالفيء ... الخ . فقد كان من الصعب جداً عليهم أن يفصلوا أنفسهم عن العلويين ويثبتوا أفضليتهم على هؤلاء وجدارتهم بحق الخلافة

(١) الطبري ج٨ ص ١٧٣ (٣/٥٢٩)
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٧ (٣/٥٣٤) .
(٣) ابن طيفور تاريخ بغداد ص ٣٠ .

دونهم لا لاشتراك هؤلاء معهم في القرابة مع صاحب الرسالة فقط ولكن أيضاً لسابقة هؤلاء في الجهاد ضد الأمويين لإثبات الحق العلوي وغياب بني العباس عن هذا الجهاد .

وبقدر ماكان مفاجئاً للناس أن يظهر «أبو العباس» كخليفة دون غيره من آل محمد كان صعباً على هذا الخليفة وأنصاره إبعاد الفرع الآخر من آل البيت عن المقام الأول في الدولة بشكل مقنع يرضى بـه الناس ويقطع في الوقت نفسـه دعـوى العلويين . وتكشف الخطبة الأولى لأبي العباس يوم خلافته وخطبة داوود بن علي معه أنالعباسيين لم يفرقوا بينهم وبين أولاد عمهم العلويين بل ادعوا أنهم إنما ثاروا لهم : «إنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهـم (الامويين) حقنـا والغضب لبني عمنـا ...»[1] .

وإذا لم ينازع العلويون أبا العباس في خلافته فلأنه لم يطل به العهد سوى أربع سنوات ولأن تشيع العباسية كان موصولا بتشيع العلوية لم ينفصلا بعد حتى تصور الكثيرون أن الذي جاء إنمـا هو الحكم «الهاشمي» وأخيراً لأن أبا العباس ظل على تألف قلوب العلويين وصلة الرحم فيهم بالصلات ولم يكن يستريب إلا بمحمد ذي النفس الزكية وأخيه ابراهيم ولكنه كان يضبط أمرهما عن طريق أبيهما عبد الله

---

(١) هذا هو نص الطبري (٨ص ٤٢٥ ـ ٣/٤٢٨ ـ ٢٩ الى ٣٣)لكن رواية البلاذري في انساب الاشراف تخالف النص في شيء هام بالنسبة للعلاقة العباسية العلوية الاولى هو قوله : « ... وخصنا بعم رسول الله ... ثم جعلنا ورثته وعصبته » . والنص لدى الطبري يقول : « وخصنا برحم رسول الله » ولا يرد فيه أنه جعلنا ورثته وعصبتة . انظر مخطوط انساب الأشراف (مخطوط الرباط رقم ٦٨ ج٣ ورقة ٣٩ ظهر) .

المحض وقد فعل ذلك اكثر من مرة حتى أخذ عليه العهد ألا يرى منهما شيئاً يكرهه ما كانا في الدنيا[1] ...

وقد عبر الشاعر السيد الحميري وهو علوي الهوى عن هذا الموقف الذي اختلط فيه الأمر العباسي بالعلوي قال :

دونكموها يا بني هاشم فجددوا من عهدها الدارسا
قد ساسها من قبلكم ساسة لم يتركوا رطباً ولا يابساً

وقال :

جزعت أمية من ولاية هاشم وبكت ، ومنهم قد بكى الاسلام!

فلما جاء المنصور وانتصر على عمه وغيره أيقن العلويون أنه لا أمل لهم في الخلافة مع استئثار ابناء عمهم فيها وإذا كان أبو جعفر ينصح أخاه أبا العباس بالتشدد مع آل أبي طالب فيأبى ذلك فقد كان طبيعياً أن ينفذ رأيه هذا والحكم في يده ، لذلك سجل المؤرخون «أن المنصور أول هاشمي أوقع الفرقة بين بني هاشم ... حتى قيل عباسي وطالبي ... »[2] ولعل السبب هو أن المنصور التمس شرعية الحكم من طريق الفقه الاسلامي فأعلن أن الخلافة إنما جاءت العباسيين لأنها حقهم الشرعي عن طريق العباس عم النبي ووارثه الوحيد حسب النصوص القرآنية مع ابنته فاطمة . وأصدق الشهود على هذا الموقف السياسي الجديد تلك المكاتبات التي دارت بين المنصور ومحمد ذي النفس الزكية

---

(١) الاصفهاني ــ مقاتل الطالبيين ص ١٧٧ .

(٢) انظر اليعقوبي ــ مشاكلة الناس لزمانهم ص٢٢ ــ ٢٣ والسيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .

عند ثورته فكلها تأكيد على حق العباس بالخلافة .

وحين قال الثائر العلوي : «إن ابانا علياً كان الوصي وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء» ؟ وإنا بنو أم رسول الله في الجاهلية وبنو بنته في الاسلام ... فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ومن السلف أولهم اسلاماً ...» أجابه المنصور « إنما جل فخرك بقرابة النساء لتضل بـه الحفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والأباء ولا كالعصبة والأولياء ....» : وأما قولك أنكم بنو رسول الله فإن الله تعالى يقول : ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنكم بنو ابنته وانها لقرابةقريبة ولكنها لاتحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الامامة فكيف تورث بها ؟ »[1] .

ويقول المنصور في كتاب آخر : «... ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليـه وسلم غيره (أبي العباس) فكان وارثه من عمومته ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده . فالسقاية سقايته . وميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلاوالعباس وارثه وموروثه . فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الأنبيـاء وطلبنا بثأركم فأدركنا من ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم ...» .

وما من شك في أن هذه المكاتبات لم تتردد بين الطرفين ولم تكتب

---

(١) البلاذري ـ انساب الأشراف ج ٣ الورقة ١١ وجه وظهـر .. وانظر الطبري ج٨ ص ٥٦٦ ـ ٥٧١ (٣/٢٠٨ ـ ٢١٦) .

لإقناع الخصم وإنما كتبت ونشرت في الناس بغرض دعائي يثبت به كل من الطرفين دعواه وبشكل شرعي ديني في الخلافة على أن أهم ما أورده المنصور إنما هو الحجة الفقهية التي تكشف أن العباس (العم) هو دون علي (ابن العم) الوارث الوحيد للرسول وللإمامة في المسلمين عند وفاة صاحب الرسالة .

وقد استعر الجدل النظري الفقهي على ما يظهر في تلك الفترة حول هذا الأمر بالذات « ... حتى كان زمان المهدي فردهم المهدي إلى إثبات الإمامة للعباس بن عبد المطلب وقال لهم : إن الامامة كانت للعباس عم النبي فإنه كان أولى الناس به وأقربهم إليه ثم من بعده عبد الله بن العباس ثم بعده علي بن عبد الله ثم من بعده محمد بن علي ثم من بعده ابراهيم بن محمد ثم أبو العباس ثم أبو جعفر ثم المهدي ثم مدها في ولد المهدي ...»[1] .

وهذا يعني أن العباسيين زمن أبي جعفر كانوا يقولون بإرث الكيسانية أي بالإمامة للعلويين حتى محمد بن الحنفية ثم بانتقال الامامة لمحمد بن علي ثم أولاده . «بهذا كان يقول علي بن عبد الله وولده الى أيام المهدي » ولكن المهدي أوجد خطاً جديداً في الدفاع العباسي إتباعا لرأي أبيه إذ ألغى الارث الكيساني كله ورد الإمامة مباشرة بعد الرسول وعن طريق الشرعية الفقهية الى العباس نفسه . وحول هذه النقطة بالذات قامت المشادة التي استمرت قروناً بعد ذلك بين البيتين العباسي والعلوي وكانت من أهم نقاط الاختلاف بين الفقه

---

(١) اخبار الدولة العباسية ـ لمؤلف مجهول(نشر الدوري والمطلبي). ص ١٦٥ (في المخطوطة الأصلية ورقة ٧٤ وجه) .

السني والشيعي وإنا لنجد أصداء هذه المشادة بعد نصف قرن من ظهورها لدى الخليفة المأمون نفسه يذكر ابن قتيبة الدينوري أن المأمون قال يوما لعلي بن موسى الرضى (الذي صار ولي عهده فترة من الوقت) بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من النبي صلى الله عليه وسلم وبقرابة فاطمة رضي الله عنهما فقال المأمون : إن لم يكن هاهنا شيء إلا القرابة ففي خلف رسول الله ... من أهل بيته من هو أقرب إليه من على ومن هو في القرابة مثله وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين وليس لعلي في هذا الأمر حق وهما حيان . وإذا كان الأمر على ذلك فإن علياً قد ابتزهما جميعاً وهما حيان صحيحان واستولى علي على ما لايجب له. فما أحار علي بن موسى نطقاً ...»[1]

ومع ذلك يذكر المؤرخون تحول المأمون الى الهوى العلوي ، منطقياً وعن طريق الفكر الجدلي لا عن ميل قلبي صادق مرتين الأولى حين أعطى ولاية العهد لعلي الرضا ولكنه سرعان ما تخلص منه سنة٢٠٢ والثانية سنة ٢١١ حين أظهر القول بخلق القرآن وتفضيل علي[2] ويحفظ لنا ابن عبد ربه محضرا كاملا لمجلس جدل عقده المأمون مع أربعين فقيها وملأه بالدفاع المنطقي عن فضل علي . وطريقة ايراد ذلك الجدل تكشف أنه موضوع ومن عمل فكر ساهر جدلي . على أنه لم يكن لهذا كله من أثر عملي فيتغيير السياسةالعباسية[3] زمن المأمون عما كانت عليه قبله .

---

(١) الدينوري ــ عيون الأخبار ج٢ ص١٤٠ ــ ١٤١ ويروي ابن عبد ربه في العقد الفريد (ج٥ ص١٠٢) الحادثة ذاتها .

(٢) الأزدي ــ تاريخ الموصل ص٣٧٣ .

(٣) في العقد الفريد (ج٥ ص١٩٥ــ١٠٢) فصل من عدة صفحات بعنوان : «احتجاج المأمون على الفقهاء في فضل علي» يورد فيهجدلا منطقياً تزعمه المأمون ضد الفقهاء الذين جمعهم واثبت لهم بالمنطق فضل علي ثم

وبالرغم من أن أصداء هذا الجدل الفقهي والنظري السياسي قد امتدت في الناس وانعكست في الفقه وعلم الكلام وكتب الادب والنسب وفي ولاء الناس فانا نكتفي بأن نذكر ملامحها في الشعر . صحافة تلك الأيام ، ووسيلة الاذاعة المتاحة للحزبين المتنافسين : وفي هذا المجال نقرأ لشعراء العباسيين الكثير مما كتب عن قناعة بهم أو زلفى إليهم أو بتأثير المال والجاه ومن ذلك : شعر مروان ابن ابي حفصة السياسي ( بعد العهد الاموي ومروان بن محمد وكان مختصاً في الأصل به ) يقول :

| | |
|---|---|
| يا ابن الذي ورث النبي محمداً | دون الأقارب من ذوي الأرحام |
| الوحي بين بني البنات وبينكم | قطع الخصام فلات حين خصام |
| ما للنساء مع الرجال فريضة | نزلت بذلك سورة الأنعام |
| أنى يكون وليس ذاك بكائن | لبني العموم وراثة الأعمام ؟ |

ويقول :

| | |
|---|---|
| هل تطمسون من السماء نجومها | بأكفكم أو تسترون هلالها ؟ |
| أو تجحدو نمقالة من ربكم | جبريل بلغها النبي فقالها |
| شهدت من الأنفال آخر آية | بتراثهم فأردتم إبطالها ! |

ثم جاءت بعد ذلك جوقة واسعة من الشعراء كلها ضربت على الوتر نفسه وكررته على أشكال وأنغام شتى . قال أبان بن عبد الحميد اللاحقي :

| | |
|---|---|
| نشدت بحق الله من كان مسلماً | أعم بما قد قلته العجم والعرب° |
| أعم رسول الله أقرب زلفة | إليه أم ابن العم في رتبة النسب ؟ |
| وأيهما أولى به وبعهده | ومن ذا له حق التراث بماوجب ؟ |

---

اورد ابن عبد ربه بعد ذلك خبر اعطاء ولاية العهد من قبل المأمون لعلي الرضى . ولعل هذه المناقشة ـ إن صحت ـ إنما كانت قبيل ولاية العهد هذه أو سنة ٢١١

فإن كـان عباس أحـق بتلكمُ          وكـان على بعد ذاك على سبب
فأبنـاء عبـاس هـمُ يرثونـه          كما العم لابن العم بالارث قد حجب!

وقال منصور النميري :

يا ابن الأئمـة من بعد النبي ويا ابـــن الأوصياء أقر الناس أو دفعوا
ان الخلافة كانت ارث والـدكم          من دون يتم وعنـد الله متسـع
لولا عدي وتيم لم تكن وصلت          إلـى أميـة تمريهـا وتـر تضع
ومـا لآل عـلي في إمـارتكم          ومـالهم أبـداً في إرثكم طمـع
يا أيها الناس لا تغرب حلومـكم          ولا تقدمكم إلـى اكنافها البدع
العم أولى من ابن العم فاستمعوا          قول النصيحة إن الحق مستمع !

ويقول ابن سكرة :

إن الخـلافة كانت ومـذ بدأت          مرسومـة بقىّ من آل عبـاس
إذا انقضى عمر هذا قـام ذا خلفاً          فلاحت الشمس وامتدت على الناس
فقل لمن يرتجيها غـيرهم سـفهاً          لو شئت روحت كرب الظن باليأس !

وقد ظل الجدل طويلا في ذلك ونسمع أصداءه بعد ٧٥سنة من عهد المهـدي في قصيدة تلقى أمـام الخليفة المتوكـل يقول أبو السمط صاحبها فيها :

ملـك الخليفـة جعفر          للـدين والدنيا سلامه
لـكم تـراث محمد          وبعدلكم تنفى الظـلامة
يرجـو التـراث بنـو البنـــات ومـالهم فيها قلامة
والصهر ليس بوارث          والبنت لا ترث الإمامـة
مـا للذيـن تنحـلوا          مـيراثكم إلا الندامـة
أخـذ الوراثة أهلهـا          فعـلام لومكم علامة ؟

قالوا فأمر المتوكل بإعطائه ثلاثة آلاف دينار نثرت على رأسه [1] .

وأمام المتوكل نفسه أنشد شاعره مروان بن يحيى معرضاً بالعلويين:

وخطبتموها وهي في غير أهلها     وطالبتموها حين صارت الى الأصل ؟

وقد أجاب العلويون على شعر بشعر وعلى حجة فقهية بحجة فقهية.

وقال شاعرهم رداً على شعر ابن أبي حفصة :

لم لا يكون وإن ذلك كائن     لبني العموم وراثة الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله     والعم متروك بغير سهام

ما للطليق (العباس) وللتراث وإنما     صلى الطليق مخافة الصمصام[2]

وإذا كانت قصائد الدفاع عن الحق العباسي وتأكيد شرعيته تأخذ شكل الاماديح المعتادة للحكام فان قصائد الإشادة بالعلويين ورجالهم وجهادهم كانت تشكل غنائيات رثائية حارة العاطفة وتستثير الدموع ومن ذلك مثلا أشعار السيد الحميري ودعبل الخزاعي التي امتلأت تنديداً بخلفاء العباسيين ومافعلوا بأولاد رسول الله من البغي وقد يلخص ذلك قول منصور النميري ( بعد تحوله عن بني العباس ) :

آل النبي ومن يحبهم     يتكامنون مخافة القتل

أمن النصارى واليهود وهم     من أمة التوحيد في أزل

وقول دعبل :

أضر بهم ارث النبي فأصبحوا     تساهم فيهم خيفة ومنون

دعتهم ذئاب من امية وانتحت     عليهم دراكاً أزمة وسنون

وعاثت بنو العباس في الدين عيثة     تحكم فيها ظالم وخؤون

وقول التنوخي :

وقطعتم بالبغي قوم محمد     ترائب أرحام له وقرائب ...

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٣٠ (٣/١٤٦٥ – ١٤٦٦)

(٢) يعطي العباس لقب الطليق لأنه حارب في بدر مع المشركين وأسر فافتدى نفسه .

وفي الوقت نفسه بينما كان أمل العلويين يتضـاءل في التغلب على القوة العباسية كانت اتهاماتهم للعباسيين تتركز في أنهم غاصبون للحق من جهة وطغاة منحرفون جبابرة من جهة أخرى يقول محمد ذو النفس الزكية : «أما بعد أيها الناس فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندا لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام • وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى • وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجـرين الأولين والأنصار المواسين•••»[1] ويرى المعلي بن محمد البصري أن العباسيين بدلوا حكم الله ونبذوا كتابه وحرفوا فرائضه ويضيف : اللهـم العن جبابرة زماننا واشياعهم واتباعهم وأحزابهم •••» •

وقد قابل الخلفاء العباسيون (منذ المنصور حتى الواثق) إصرار العلويين على مناهضتهم بالاضطهاد القاسي الرهيب دومـاً وبالتسامح أحياناً قليلة (كما في عهد المهـدي وبعض عهد المأمـون) ولكن ذلك الاضطهاد الذي ذهب بعدد من كبـار آل البيت سجناً وقتلا في فجائع معروفة كانت له نتيجتان هامتان : ازدياد التطرف الشيعي والغلو من جهة وازدياد التكتم والباطنية والحركات السرية في هذا المذهب من جهة أخرى وقد دفع العباسيون خاصة والمسلمون عامة ثمن هذه السياسة الدينية العباسية غالياً وأحياناً غالياً جـداً • لأن كثرة البطش دفعت العلويين في نوع من الدفاع الذاتي الى المغالاة في المذهب والى أن تصبح التقية أحدى الأسس فيه وأن يتبع في انتشاره أسلوب الدعوة في السر وأن يتخذ طريقه الى النفوس سرباً •••

---

(١) الطبري ج٧ ص٥٥٨ (١٩٧/٣) •

## ٢ ـ القيام بأمر الدين :

حاول العباسيون تصعيد تلك القربى التي يمتون بها الى الرسول وتدعيمها وتبرير دعواهم في «الارث» النبوي وتأكيد صحة تلك الدعوى وذلك في عدد من المنطلقات والأعمال :

**الأول :** اعتبار الخلافة مؤسسة دينية لا رئاسة دنيوية ٠ وإمامة روحية لا دست حكم فحسب وقد كان هذا يعني : أن الله هو الذي يختار الخليفة كما يعني أن سلطة الخليفة مستمدة بدورها من الله ٠ وإذا كان الاختيار الإلهي إنما عبر عن نفسه بتمكين العباسيين من الوصول الى الحكم ومن طرد الأمويين عنه فإن السلطة الخلافية علوية تتنزل من السماء ولا علاقة لها بالأرض وأهل الأرض ٠ يقول شاعرهم :

وما الناس احتوك بها ولكن حباك بنورها الملك الجليل
تراث محمد لكم وكنتم أصول الحق اذ نفى الأصول

«وتقديس» المنصب الخلافي ليس من فعل العباسيين أنفسهم ٠ وإذا تركنا جانباً ، وفي خلفيات الفكرة ذلك التيار القديم في الشرق الذي كان يعطي الحكام الصبغة الإلهية أو الحق الملكي المقدس سواء لدى الفراعنة أو البابليين أو الرومان أو الفرس أو الساسانيين الاخيريين ، ويجعلهم ، بحكم التراث مقبولي القدسية في الناس ، فإن «تقديس» الخلافة نفسها قد تعاون عليها قبل بني العباس كل من الأمويين والعلويين على السواء :

ـ فالأمويون منذ عهد عبد الملك لم يعد الخليفة عندهم خليفة رسول الله ولكن «خليفة الله» وظل الله في الأرض ، قام عبد الملك في

الكوفة حين أراد الشخوص إلى الشام بعد مقتل مصعب بن الزبير «فخطب الناس» فعظم عليهم حق السلطان وقال لهم هو ظل الله في الأرض وحثهم على الطاعة والجماعة وذكر ابن الزبير وخلافه وخروجه ... وحكم الله له (لعبد الملك) عليه ..»[1] وكتب الوليد بن يزيد سنة ١٢٥ إلى واليه يوسف بن عمر الثقفي في العراق والي نصر بن سيار يقول: «... ثم استخلف (الله) خلفاءه على منهاج نبوته حين قبض نبيه ... فتتابع خلفاء الله على ما أورثهم الله عليه من أمر أنبيائه واستخلفهم عليه منه لا يتعرض لحقهم أحد إلا صرعه الله ولا يفارق جماعتهم أحد إلا أمكنهم الله منه ... فبالخلافة أبقى الله من أبقى في الأرض من عباده وإليها صيره وبطاعة من ولاه إياها سعد من ألهمها ونصرها ... ولاصلاح إلا بالطاعة ... فمن أخذ بحظه منها كان لله ولياً ولأمره مطيعاً ومن تركها ... عصى ربه وخسر دنياه وآخرته ... فيما يحل الا بهم في الدنيا من الذلة والنقمة ...[2] ثم إن أمير المؤمنين لم يكن منذ استخلفه الله ...» .

ـ وأما العلويون فقد كانوا منذ عبد الله بن سبأ وغيره قد أدخلوا على الزعامة العلوية فكرتين من التقديس : الإمامة ووجود شيء من السر أو النور الإلهي في الإمام يرثه عنه الامام التالي له . وضمن هذا الإطار كان ما يسمى في تاريخ الدعوة العباسية بإرث الكيسانية ، وبالصحيفة الصفراء أو صحيفة العلم الباطن كما كانت تسمية محمد بن علي ثم ابنه ابراهيم «بالإمام» قبل خلافة أولاده .

وحين جاء العباسيون لم يفعلوا من جديد سوى أنهم دفعوا هذه

---

(١) البلاذري ــ انساب الاشراف ج٥ ص ٣٥٤
(٢) الطبري ج٧ ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ (١٧٥٨/٣ ــ ١٧٥٩)

الفكرة الى نهايتها وجعلوها من المسلمات السياسية المرتبطة بعرشهم كما وطدوا الإيمان بها بين الناس فلم تعد مجرد رأي لبعض الخلفاء ولا عقيدة لإحدى الفرق ولكن ركيزة نظام قائم . وقد بدأوا ذلك منذ لحظاتهم الأولى : يخطب أبو العباس يوم استخلافه فيقول :

« ... الحمد لله الذي اصطفى الأسلام ... وحضنا برحم رسول الله وقرابته ووضعنا من الاسلام واهله بالموضع الرفيع فقال عز من قائل إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ... الخ» ثم وقف داوود بن علي يقول : «.. رجع الحق الى نصابه في أهل بيت نبيكم» .. ثم دفع ابو جعفر الفكرة الى اقصاها فصار يخطب : «... إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وخازنه على فيئه أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه وقد جعلني الله عليه قفلا ... فارغبوا إلى الله وسلوه أن يوفقني للرشاد وأن يلهمني الرأفة بكم والاحسان إليكم ويفتحني لإعطائكم ...»[1] . فكأنما يريد أن يقول إن الخليفة آلة إلهية للحكم وواسطة تنفيذ بيد الله في الناس ...

ومنذ تلك الفترات الأولى أضحى الأمويون : « انصار الباطل » حسب وصف أبي جعفر و «حزب الشيطان» وأضحى مروان بن محمد «خليفة الشيطان» كما قال عبد الله بن علي «وعدو الرحمن» . بينما أضحى العباسيون هم «أنصار الدين وأضحى خليفتهم خليفة الله» «وأن هذا الأمر (الخلافة) فينا وليس بخارج عنا الى يوم القيامة» وأن الدوحة العباسية هي «الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء ..» .
وقد استخدمت فكرة الاختيار الإلهي للخليفة وقدسية مقام الدولة

(١) الطبري ج ٨ ص ٨٩ (٣/٤٢٦)

العباسية حتى ضد العلويين أنفسهم وضد ثوراتهم • وأكثر ما استخدمت ضدهم في الثورات الآية الكريمة : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض •••» كتب المنصور بذلك الى محمد ذي النفس الزكية كما أوصى بذلك ابنه المهدي وذكره بأن «••• السلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى ودين الله القيم •••» • وخطب المنصور أثناء ثورة ذي النفس الزكية فقال إنه : «•• لما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسداً منهم لنا وبغياً علينا بما فضلنا الله به عليهم واكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه ••• » !

وقد استخدم المنصور في خطبة له بمكة بعد بناء بغداد وهزيمة ذي النفس الزكية الآية الكريمة «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» ثم قال :

أمر مبرم • وقول عدل • وقضاء فصل • والحمد لله الذي أثلج حجته • وبعداً للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة عرضا والفيء إرثاً••• ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون •••»[1] وقد عبر عن هذه الفكرة نفسها الشاعر أبو الخير الناصبي بقوله :

أبى الله إلا ما ترون فما لكم غضاباً على الأقدار يا آل طالب ؟

فلما كانت أيام المهدي صار وصف «خليفة الله» هو الوصف الشائع على ألسنة الشعراء للعباسيين وإنك لتستطيع في الاماديح خاصة وفي الأهاجي المعاصرة أن تجد عشرات الدلائل على ذلك :

---

(١) الطبري ج٨ ص٩١ (٣/٤٢٩) .

يقول بشار في معرض هجاء المهدي نفسه :

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود !

ويقول ابن المولى في المهدي :

خليفة الله • عبد الله والده

وأمه حرة تنمى لأمجاد ...

ويقول مروان بن أبي حفصة :

فإن طليق الله من أنت مطلق

وإن قتيل الله من أنت قاتله !

ويقول عبد الملك بن صالح في الرشيد :

الله قلد هاروناً سياستنا

لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا

ويقول سلم الخاسر فيه :

بايع هارون إمام الهدى

لذى الحجى والخلق الفاضل !

ويقول الحسين بن الضحاك في المأمون :

فأنت خليفة الرحمن حقاً

جمعت سماحة وجمعت دينا

ويقول ابن أبي السمط فيه أيضاً :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا

بالدين والناس بالدنيا مشاغيل[1]

وقد تصاعد هذا التقديس للخلافة العباسية مع الأيام حتى صار

---

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٦٦٢ – ٣ (١١٥٨/٣)

من الاعتقاد الشائع ربط نظام الكون بها وحتى لقد أخاف الناس بذلك هولاكو المغول وخافوا غياب الشمس ودمار الأرض •

**الثاني** : اصطناع واتخاذ المظاهر الدعائية الدينية :

أ ـ فقد اتخذ العباسيون مع «ميراثهم» في الخلافة مع النبي بعض ما كان للنبي من لوازم مادية وهي : البردة والقضيب : هما الرداء الملكي وصولجان العرش • وكانت البردة هدية أبي سلمة للخلفاء العباسيين اشتراها فقدمها إليهم فكان الخليفة العباسي لا يخرج في موكبه الرسمي إلا بالبردة والقضيب • ولا سيما إن كان هذا الخروج للمظالم أو الصلاة أو الجهاد أو الأعياد وقد بلغ من إكبارها الديني أن كانت «هي الخلافة»[1] •

ب ـ وقد اتخذ العباسيون منذ الأيام الأولى لظهورهم ألقاباً دينية بجانب اسمائهم • بل اتخذوها قبل الخلافة أيضاً • فإن محمد ابن علي ثم ابنه إبراهيم كانا يدعيان من قبل انصارهما «بالامام» فلما جاء أبو العباس أعطى لقب «المهدي» من قبل بعض جماعته يقول سديف ابن ميمون مولى ابي العباس :

أنت مهدي هاشم وهداها كم أناس رجوك بعد إياس

ولعل أبا العباس لم يتخذ اللقب رسمياً فلم يشع اللقب ولعل أبا جعفر تردد في اتخاذ لقب لنفسه حتى إذا انتصر على محمد ذي النفس الزكية اتخذ لنفسه لقب «المنصور» محيياً بذلك ومستجلباً لنفسه به كل ما كان يحمل ذلك اللقب القديم من تهاويل دينية وأفكار تنبوئية وأسطورية وملاحمية منذ منصور اليمن الى المختار الثقفي الى منصور

---

(١) الطبري ج٨ ٤٨٢ (٣/٩١٧) •

خراسان الحارث بن سريج ••• ولم ينس في الوقت نفسه سلب أعدائه المبادرة إذ أخذ أيضاً لقب «المهدي» الذي سوف «يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً» فأعطاه هو نفسه لابنه وولي عهده ••• وقد كان محمد ذو النفس الزكية قد أخذ لنفسه هذا اللقب وجعله في مكاتباته مع المنصور[1] •••

ولقد يذكر بعض الكتاب أن الأمويين اتخذوا لأنفسهم ألقاباً •روي المسعودي ذلك نقلا عن «بعض المتأخرين ممن ينحرف عن الهاشميين الطالبيين منهم والعباسيين ويتحيز الى الأمويين ويقول بإمامتهم •••» ويضيف «أنه ذكر أنه كانت لمن ملك من بني أمية ألقاب كألقاب خلفاء العباسيين وذكر في ذلك روايتين : ••» وهكذا «يعطى معاوية لقب الناصر لحق الله ويزيد : المستنصر ••• ومروان المؤمن بالله •••وسليمان ابن عبد الملك بالمهدي والداعي الى الله ••• وعمر بن عبد العزيز المعصوم بالله ••• وهشام بن عبد الملك المنصور ومروان بن محمد بالقائم بحق الله[2] ••• ولكن هذه الألقاب مزيفة دون شك وقد رفضها المسعودي نفسه قائلا : «إن الكافة على خلافه • فلو كان الأمر على ما ذكر لظهر واشتهر ••• وجاء في الأخبار المنقولة القاطعة للعذر ••• فلما لم يذكره الجمهور من حملة الأخبار ونقلة السير والاثار ولا دونه مصنفو الكتب في التاريخ •• علم أن ذلك لا أصل له •••» •

واتخاذ العباسيين للألقاب «الدينية» إنما كان رمزاً لسياستهم الدينية ولهذا لم يحد العباسيون الأوائل في ألقابهم عن معنى واحد بعد المنصور فالمهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون بل وألقاب وليي

---

(١) الطبري ج٧ ص ٥٦٧ (٣/٣٠٩) •

(٢) المسعودي ـ التنبيه والاشراف ص ٢٨٩ــ٢٩١

العهد المؤتمن والناطق بالحق كلها أسرة واحـدة من الألقاب تنبع من مؤدى واحد يعني الهداية الدينية وحفظها ثم اضـاف العباسيون الى اللقب لفظ الجلالة رمزاً لهذا الانصراف الديني في معنى الخلافة : وهكذا بدأ المعتصم بالله سلسلة الألقاب المقرنة بكلمـة الله ••• وهي السلسلة التي لم تنته حتى المستعصم بالله بل عادت فالتصق بها خلفاء العباسيين في القاهرة حتى الفتح العثماني • وهذه الصفة الدينية كانت حين ضعف هؤلاء الخلفاء هي الشيء الوحيد الباقي لهم منذ اواخـر القرن الثالث يقول البيروني : (في مطالع القرن الرابع) : «••• والذي بقي في أيدي العباسية إنما هو أمر ديني اعتقـادي لا ملكي دنيوي كمثـل مالرأس الجالوت عند اليهود من أمر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دولة فالقائم من ولد العباس الآن إنما هو رئيس الاسلام عند أصحاب النجـوم لا ملك •••»[1] •

حـ ـ ادعاء حيازة «العلم السري» ، علم الغيب : «ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة» • وهذا العلم إنما كان في الأصل ـ على مايبدوـ نوعاً من التنبؤات الملحمية والرجم بالفلك والغيب وقد رأى المنصور أن الشيعة يدعون امتلاك أئمتهم «للعلم» المتوارث عن صاحب الرسالـة فأراد أن يعدل ذلك بادعاء موازله فادعى أن العباسيين ورثـوا العلم السري مكتوباً في دفاتر عن طريق أبي هاشم ، الذي أعطى ذلك العلم لمحمد بن علي بن عبد الله العباسي فانتقل منه الى أولاده • وكان المنصور يحفظ تلك الدفاتر في سفط عليه قفل عهد به الى مولاه حمـاد التركي واحتفظ بمفتاحه فإن احتاج الى شيء منه استدعى ذلك المولى بالسفط ثم أخرج المفتاح من كم قميصه • وحين ارتحل إلى مكة في الحجة التي

---

(١) البيروني ـ الآثار الباقية (طبعة سخاو) ص١٣٣

مات فيها ذكروا أنه استدعى ابنه المهدي فقال له : انظر هــذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ماكان وما هو كائن الى يوم القيامة فإن احزنك أمر فانظر في الدفتر الأكبر فإن اصبت فيه ما تريد وإلا فالثاني والثالث حتى بلغ سبعة فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل ...»[1] .

ولسنا ندري بعد ذلك ما الذي كان من أمر هذه الدفاتر التي يبدو أن الخلفاء أهملوها لعدم الحاجة إليها . ولعلها هي نفسها الكتاب الذي يرد ذكره في عهد المهدي وهو في طريقه الى الروم سـنة ١٦٣ ويسميه بعض رجال الحاشية (بكتاب الدولة) ويزعمون أنهم وجدوا فيــه أن سنوات خلافة المهدي عشر فزيفوا ورقة أخرى مكان الأولى وكتبوا فيها اربعين بدلا من عشرة[2] ... لكن هذا الكتاب أضحى بعد استقرار الدولة العباسية غير ذي موضوع فلسنا نعرف له أثراً .

د ــ العناية بأهل الحجاز وبالحرمين :

وبالرغم من أن هــذه العناية بالحجازيين لهــا وجهها الاداري السياسي لما في مدينتي الحجاز من آل البيت القابلين للتمرد ومن الأنصار ومن أولاد الصحابة ومن الفقهاء المشهورين فإن لهــا في الوقت نفسه جانبها الديني الدعائي السياسي أيضــاً باعتبار مكة والمدينــة ، بلدي الرسول ومطلع نور الاسلام . وقد اضطهد الحجاز أحيانا كثيرة أثنــاء العهد الأموي بسبب معارضته التي انتهت غالباً بالفواجع ( واقعة الحرة. وهزيمة ابن الزبير . وقصة أبي حمزة الخارجي ) على أن مــا خسره الحجازيون في السياسة كسبوه في العلم والدين فكانت المدينة حاضرة

---

(١) الطبري ج٨ ص١٠٣ (٣/٤٤٣-٤٤٤) .

(٢) الطبري ج٨ ص١٤٦ (٣/٤٩٦-٤٩٧) .

«أهل الحديث» ومنبع علوم الاسلام على يد عبد الله بن عباس وتلاميذه وقد تمثل علمها في مطالع العصر العباسي في جمهرة واسعة من العلماء يأتي في طليعتهم مالك بن أنس صاحب المذهب . كما لجأ أهل البيت عامة الى المدينة فأقاموا فيها مما حرمهم في الواقع المشاركة المباشرة في تقرير مصير العالم الاسلامي يوم بدأ هذا المصير معلقاً غامضاً بعد وصول الثورة العباسية الى الكوفة وقبل مبايعة أبي العباس وهزيمة الزاب (وهنا كانت محاولة ابي سلمة الخلال) ...

وتلقى الحجازيون نجاح أبي العباس في نوع من الانتظار لما سيكون . وكان جعفر الصادق وعبد الله المحض خاصة هما وجها الحجاز عند أبي العباس ثم أبي جعفر بينما كان محمد بن عبد الله (النفس الزكية) هو الروح السياسية التي تنتظر في المدينة . ولم يكن هذا الموقف بالذي يخفى على المنصور الذي وصف أهل الحجاز بأنهم «أسرع الناس الى الفتن وأضعفهم عنها» ولقد بايع الحجازيون لأبي العباس ثم للمنصور «مكرهين» بشهادة مالك بن أنس فقيه المدينة ولم يكن بإمكان العباسيين ـ ومواسم الحج سنوية يجتمع إليها العالم الاسلامي في الحجاز ـ أن يبطشوا بقسوة بأهل الحرمين دون أن يظهر ذلك متناقضاً أشد التناقض مع ما يحرصون عليه من السمعة الدينية وما يعلنونه من العمل بالاسلام وبالكتاب والسنة وما ينشدونه من الإبقاء على حرمة آل محمد (عباسيهم وعلويهم) لدى الناس لذلك كانوا مضطرين الى اصطناع سياسة خاصة من السخاء والتودد في هذا الاقليم الاسلامي دون باقي الاقاليم .

أبو جعفر هو الذي بدأ سياسة التودد وإظهار التعظيم للحرمين ثم درج عليها المهدي والرشيد خاصة : ولعله كان في خاطره أن يظهر

احترام البيت المالك الجديد للحرمين وأهلهما مقابل الاهمال بل والعدوان الأموي أحياناً عليهما . وأبرز ما تجلى ذلك في توسعة الحرمين والبر الزائد لأهلهما . فأما توسعة الحرمين فقد كانت ضرورية بسبب تزايد اعداد الداخلين في الاسلام من الشعوب المغلوبة حتى صار البيت الحرام أضيق من أن يتسع للاعداد المتكاثرة من الحجاج «... وشكا الناس ضيقه» كما قال اليعقوبي فانتهزها المنصور «... وكتب الى زياد بن عبيد الله الحارثي (والي الحجاز) أن يشتري المنازل التي تلي المسجد حتى يزيد فيه ضعفه فامتنع الناس من البيع» فاستشار الخليفة جعفرا الصادق ابن محمد فقال : سلهم . أهم نزلوا على البيت أم البيت نزل عليهم ؟ فلما قالوا : نزلنا عليه . قال : فإن للبيت فناءه . فكتب أبو جعفر بهدم المنازل التي تليه ... وأدخلت عامة دار الندوة فيه ( وهذا يعني أن هذه الندوة الجاهلية كانت ما تزال قائمة) حتى زاد فيه ضعفه وكانت الزيادة مما يلي دار الندوة وباب بني جمح ولم يكن مما يلي الصفا والوادي فكان البيت في جانبه وكان ابتداء الأمر به في سنة ١٣٨ وفرغ سنة ١٨٠ .. وبني (كذلك) مسجد الخيف بمنى وصيره على ما هو عليه من السعة ولم يكن بها قبل ذلك . وحج أبو جعفر سنة ١٤٠ لينظر ما زيد في المسجد الحرام ...»[1] وليراقب ما بلغه من بدء التحرك العلوي ! ...

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٣٦٩ وانظر الطبري ج ٧، ص ٥٠٠ (٣/١٢٥.١)
ويروي المقدسي البشاري في أحسن التقاسيم (ص٧٥) رواية أخرى عن سبب توسيع الكعبة وان الذي وجد الطريقة لشراء الدور هوابو حنيفة النعمان يقول : « وسمعت من بعض مشايخ القيروان ان المنصور حج فرأى صغر المسجد الحرام وشعثة وقلة معرفتهم بحرمته ورأى الأعرابي يطوف بالبيت على بعيره ويجاويه فساءه ذلك وعزم ...» وان اصحاب الدور حين رفضوا البيع غمه ذلك واحتجب ثلاثة أيام وقد فتش عنه أبو

وتابع المهدي السياسة نفسها فقد حج سنة ١٦٠ فذكر لـه حجبة الكعبة خوفهم من سقوطها لما عليها من الكسوة الكثيرة فأمـر أن يكشف ما عليها من كسى الخلفاء القديمة (وكانت كلها من متاع اليمن إلا كسوة هشام بن عبد الملك فكانت من الديباج الثخين الجيد) فكشفت حتى جردت الكعبة فطلى جدرانها كلها بالخلوق من المسك والعنبر ثم كساها القباطي والديباج والخز • ثم أمر المهدي بالعمليـة الثانية من التوسعة أي توسعة مسجد الرسول في المدينة فزاد فيه مثل ما كان عليه وصار ٣٠٠ ذراع في مائتين وحمل إليه عمد الرخام والفسيفساء والذهب ورفع سقفه والبس خارج القبر «الرخام» • «وأمر بنزع المقصورة التي في المسجد» • وأراد أن ينقص منبر الرسول فيعيده الى ما كان عليه ويلقي عنه ما زاده معاوية فيه ولكنه توقف عن ذلك بسبب نصيحة مالك بن أنس خوفاً من أن يتكسر المنبر القديم لنزع المسامير منه[1] •

وأخيراً كتب اسمه عليه بدلا من اسم الوليد بن عبـد الملك الباني الأول ولم يبرح المسجد حتى جرى التبديل امامه •

---

حنيفة «وهو حاج ليس لـه بعد ذكر ولا ظهر للناس فقهه» فتبرع لـه بايجاد الطريق الشرعي لاجبار أ صحاب الدور على بيعها وهكذا اشتهر ! وقد اخذنا برواية اليعقوبي وهو بغدادي واهملنا هذه الرواية لأنها مـن رواية بعض اهل القيروان البعيدين ولأن الخطأ فيها واضح : فلـم يحج المنصور قبل سنة ١٤٠ وكانت التوسعة قد بدات سنة ١٣٨ وتمت ثم إن أبا حنيفة لم يكن يومذاك خامل الذكر ولكنه كان اكبر الفقهاء وقد توفي سنة ١٥٠ بعد ١٢ سنة فقط من الفتوى . وقد تابعنـا رواية اليعقوبي الـذي يجعل جعفر بن محمد ( وليس غير الامام الصادق ) صاحـب الحيلة الشرعيـة .

(١) انظـر اليعقوبي ج٢ ص٣٩٥-٣٩٦ والطبري ج٨ ص١٣٣ وص ١٧٨ - ١٧٩ (١٨٣/٣ و ٥٣٥) والبلاذري - فتوح البلدان ص ٦

**ويبدو** أن الزيادة التي أحدثها المنصور في الكعبة جعلتها **في** جانب الفناء لا وسطه كما أنها لم تكف مع ذلك تكاثر المسلمين والحجاج المتزايد في تلك الفترة فاضطر المهدي لمعاودة الزيادة من جديد بعد ربع قرن من الاولى ويقولون إن المهدي «رأى الكعبة في شق من المسجد فكره ذلك وأحب أن تكون في وسط المسجد ودعا المهندسين وسألهم عن ذلك فعظموا فيه المؤونة فأبى إلا ذلك فشرعوا في عمله ...»[1] «اشترى من الناس دورهم وأحضر الصناع والمهندسين من كل بلد وكتب الى واضح مولاه وعامله على مصر في حمل الاموال الى مكة واتخاذ الآلات وما يحتاج إليه من الذهب والفسيفساء وسلاسل القناديل ...» فعلى الفسيفساء هناك في الاروقة اسماء صناعه من الشام ومصر . وحملت الأساطين العظام من الاسكندرية في البحر الى جدة وهي ٤٨٤ أسطوانة طول كل منها عشرة أذرع ... ووسع المسجد على الشكل الذي بقي عليه قروناً بعد ذلك في مساحة تعدل ١٢٠ ألف ذراع مربعة ... وجعل له ٢٣ باباً ... فكان المهدي آخر من زاد في المسجد الحرام »[2] كما بني المسعى بين الصفا والمروة . ويبدو أن هذا العمل بدأ سنة ١٦٤ فلم يتم حتى سنة ١٧٠ في آخر خلافة الهادي .

---

(١) العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٢٧٩

(٢) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٣٩٦ خاصة والطبري ج ٨ ص ١٦٥ وهو يذكر ان البناء بدأ سنة ١٦٧ ولكنا فضلنا متابعة اليعقوبي نفسه في كتابه الآخر البلدان من أن البناء بدأ سنة ١٦٤ . (انظر البلدان ـ طبعة دي غوية الملحقة بالاعلان النفيسة ص ٣١٥) وانظر كذلك المقدسي البشاري احسن التقاسيم ص ٧٣ و ص ٧٥ .

وبقي للرشيد بعد ذلك أيضاً شيء يصنعه في الحرم المكي : حفر بئر زمزم وتوسعتها وسقيا الناس • فقد ذكروا أن الناس نالهم في الحج سنة ١٩٠ عطش شديد وغارت زمزم حتى لم يوجد فيها من الماء الا القليل فحفرت عدة أذرع فزاد الماء يسيراً ، فكان أول ما حفر في زمزم ••• [١] وكانت زبيدة زوج الرشيد في ذلك الموسم فأمرت بمد قنوات من الرصاص طولها ١٢ ميلا أجرت فيها المياه من ينابيع وبساتين اسمها المشاش الى ثلاث برك في مكة فما زال يشرب منها الناس والحجاج قروناً بعد ذلك[٢] ويعرفونها باسم قناة زبيدة •

ويقول اليعقوبي في مكان آخر : «وكانت تريد أن تتقدم الرشيد في كل شيء من جد وهزل فأما الجد فالآثار الجميلة التي ليس في الاسلام مثلها فإنها حفرت عين المشاش ••• وأنفقت عليها ألف ألف وسبع مائة ألف دينار ثم اتخذت المصانع والسقايات والمتوضئات حول المسجد الحرام وبنت دور السبيل ومصانع بمنى وفي عرفات سقايات • وحفرت آباراً في منى على طريق مكة ووقفت على ذلك ضياعاً غلتها ثلاثون ألف دينار في السنة ••»[٣] •

أما المأمون فكانت آخر زيارة عرف فيها الحرمين هي سنة ١٨٦ يوم

---

(١) اليعقوبي — ج٢ ص ٤٢٩ •
(٢) اليعقوبي — البلدان ص ٣١٦ والمقدسي — احسن التقاسيم ص ٧٤ •
(٣) اليعقوبي — مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٦

علق عهده مع عهد أخيه في اسطوانـة من الفضة في الكعبة ولم يزرها بعد ذلك ولكنه عبر عن تقديسه لها حين قدم عليـه ملك التبت وأهداه صنماً لـه من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر فأرسله المأمون الى الكعبة يعرف الناس هداية الله لملك التبت»[1] وقد ضرب هذا الصنم دنانير فيما بعد من قبل والي المأمون .

وقد عني الخلفاء العباسيون بجانب ذلك بالطريـق الموصلة بين العراق والحرمين . وهي طريق المشرق كله الى الحج . ولعل هذه العناية إنما كانت أيضاً لأسباب عسكرية وسياسية كي تصبح الطريق متصلـة مترابطة ما بين مقر حكمهم في العراق ومنبع قدسيتهم في الأرض المقدسة القلقة الولاء . فإنا نرى أبا العباس أول من يعني بذلك ويبني القصور على الطريق من القادسية الى زبالة ثم جاء أبو جعفر فأقـام المنازل على الطريق . فلما استخلف المهدي أمر سنة ١٦١ ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان بناها أبو العباس وأمر بالزيـادة في قصور أبي العباس وترك منازل أبي جعفر على حالهـا . وأمـر باتخاذ المصانع في كل منهل وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع . وقد تولى لـه ذلك يقطين بن موسى ثم أخوه أبو موسـى واستمر العمل فيه حتى سنة ١٧١ وكان المهدي قد توفي قبل سنتين[2] بعد أن أضاف الى ذلك إقامة البريد من اليمن ومن مكة ومن المدينة الى الحضرة (بغداد) بغالا وإبلا قال الذهبي وهو أول من عمل البريـد من الحجاز

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٢ . وانظر بعد ذلك ص ٤٤٨ .
(٢) الطبري ج ٨ ص ١٣٦ (٣/٤٨٦)

الى العراق[١] .

وأما رعاية أهل الحرمين فقد كانت سياسة مقررة ترمي الى فك ارتباطهم بآل علي وضمان ولائهم لبني العباس ... والى الاشتهار في كل موسم حجّ بالبر والعطاء للأرض المقدسة بدأها المنصور سنة ١٤٠ بالحج ومنح عطاء كامل لأهل المدينة[٢] ولكن هذه السياسة سرعان ما مرت هي في مطلع أمرها بأزمة عنيفة قاسية يوم ثورة محمد ذي النفس الزكية سنة ١٤٥ التي انتهت بفاجعة اعادت الى اذهان الناس وقائع الأمويين معهم وبعملية إذلال للمدينة واضحة ثار لها حتى عبيد البلد ومواليه كما نجم عنها قطع الميرة السنوية عن الحجاز من مصر وقطع العطاء السنوي من الدولة ... ولهذا كانت علاقات المنصور مع الحجاز متسمة بالرعاية الحذرة يتقرب من فقهاء المدينة (مالك بن أنس وجعفر الصادق وأمثالهما) وكرر الحج . وأخذ في صحابته (حاشيته) بعض شخصيات الحجاز القبلية وتزوج من تلك القبائل وحين شكا إليه الناس سنة ١٥٣ قرصنة بعض بحارة (الكرك) وتهديدهم جدة أسرع بإرسال حملة بحرية تقمع عدوانهم[٣] فوراً من البصرة .

ثم جاء المهدي فدشن سياسة التسامح والبر على النطاق الأوسع في أهل الحجاز حين حج سنة ١٦٠ . ولعل أهم ما فعله أنه :

---

(١) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣ .
(٢) العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٢٧ .
(٣) الطبري ج ٨ ص ٣٣ و ٤٢ (٣/٣٥٩ و ٣٧٠) .

أ ـ أعاد العطاء الى أهل المدينة وأهل مكة وجلس بنفسه يعطيه بعد توقفه خمس عشرة سنة . واعاد تنظيم قوائمه ومبالغه . وبالرغم من أنه جعل أعلى العطاء لبني هاشم ثم لقريش ثم الأنصار ثم الموالي إلا أن نصيب كل رجل بعد ذلك كان مختلفاً . وقد أصاب القرشي عامة ٣٠٠ دينار و ٧ أثواب . أما فريضة الهذيلي فهي ١٥ ديناراً . وقد بلغ عدد من شملهم العطاء حوالي ٨٠ الفاً وزع عليهم من المال على ماذكر الطبري في مكة والمدينة مابلغ ثلاثين ألف ألف درهم حملت مع المهدي و ٣٠٠ ألف دينار جاءته من مصر و ٢٠٠ ألف جاءته من اليمن[1] . وفرق من الثياب ١٥٠ ألف ثوب[1] .

ب ـ أعاد العادة القديمة بتموين الحجاز بالحبوب من مصر والشام بعد قطعها .

حـ ـ اختار «٥٠٠ رجل من الأنصار ليكونوا معه حرساً له بالعراق وأنصاراً وأجرى عليهم سوى اعطياتهم أرزاقاً وأقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعة تعرف بهم» ولو لم يكن غريباً بعد هذا أن :

د ـ وافاه الحسن بن ابراهيم بن عبدالله المحض في مكة مستأمناً فأحسن المهدي صلته وجائزته وأقطعه مالا من الصوافي بالحجاز»[3] .

هـ ـ تزوج من رقية بنت عمرو العثمانية ، تقرباً من أهل الحجاز .

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٣٣ (٣/٤٨٣) .
(٢و٣) المصدر نفسه .

و ــ رد على أهل بيته وغيرهم قطائعهم التي كانت مقبوضة عليهم وذلك سنة ١٦٠ ثم رد ديوانه وديوان أهل بيته الى المدينة ونقلـه من دمشق إليها سنة ١٦٨[١] .

وقد عادت الأيام السود إلى الحجاز فترة قصيرة بوصول الهادي إلى الخلافة سنة ١٦٩ وبثورة الحسين بن علي في الحجاز تلك السنة . فقد تشدد الهادي من ناحية على العلويين وقسا أشد القسوة كما ثـار هؤلاء من جهتهم فانتهوا الى فاجعة فخ والي النكال سنة ١٧٠ . لكن الرشيد الذي كان قد تسلم الخلافة تلك السنة أراد فيما يظهر إزالـة تلك الآثار بسرعة والعودة لسياسة المهدي . وبعد أن أمر أحد ابناء عمـه بإقامة الحج في السنة ذاتها «بدالـه فخرج هو بنفسه ولحقه في الطريق وأقام الحج وأعطى أهل مكة والمدينة عطايا كثيرة وفرق فيهم أموالا ثم انصرف ...»[٢] ولا شك أنه كان يرمي بهذه الحركة الى فصل أهل الحجاز عن العلويين .

ثم حجت «الخيزران سنة ١٧٢ فقسمت بالمدينة أموالا واجازت بجوائز عظيمة خصت بها نفراً من قريش والأنصار ووجوه أهلها وزوجت أيتاماً وقسمت في النساء آنية من ذهب وفضة مملؤة من أنواع الطيب وكست كسوة كثيرة ووضعت لكل قبيلة مالا يعطون ...»[٣] .

ثم كرر الرشيد حجه مرات ولا شك أن حجاتـه كانت مواسـم للهبات والاعطيات .

ويذكرون مثلا أنه حج سنة ١٧٤ فبدأ بالمدينة فقسم في اهلها مالا

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٣٤ و ١٦٧ (٣/٤٨٤ و ٥٢٢) .
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٧ .
(٣) العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٩١ .

عظيماً . ولم يستطع دخول مكة تلك السنة لتفشي الوباء بها[1] .

أما السنة التي كانت أعياداً في الحجاز فهي تلك التي سموها سنة الأعطيات الثلاث سنة ١٨٦ حين جاء الرشيد لتعليق عهود أولاده في الكعبة . وصل المدينة فكان الناس يقدمون عليه ، فيعيطهم عطاء ثم يدخلون إلى محمد ( الأمين ) فيعطيهم عطاء ثانياً ثم إلى المأمون فيعطيهم عطاء ثالثاً . وشملت الأعطية النساء والرجال ثم صار الى مكة فأعطى أهلها فكانت الثلاثة أعطية ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار . وفرض في تلك السنة لخمس مائة من وجوه موالي المدينة ففرض لبعضهم في الشرف منهم يحيى بن مسكين وابن عثمان ومخراق مولى بني تميم وكان يقرىء القرآن بالمدينة ...»[2] .

وأعطى الرشيد في آخر حجة حجها سنة ١٨٨ لأهل المدينة نصف العطاء فكأن ذلك كان إيذاناً بخواتيم تلك السياسة لأن الخلفاء العباسيين انقطعوا بعد ذلك عن الحج وإن لم ينقطعوا عن العناية بأرض الحرمين من بعيد ... ولعلنا نشير الى أن السياسة الدينية كانت قد استنفدت اغراضها حوالي أواخر القرن فلم يعد ثمة مبرر للاستمرار فيها على الشكل الذي بدأت فيه .

د ـ **المظاهر الأخرى** : وثمة مظاهر أخرى اتخذتها السياسة الدينية العباسية وليس يعني ذلك أنها كانت نابعة من غرض سياسي فلقد يكون بعضها عن تقى وتدين ولكنه كان يخدم المركز السياسي للخلفاء ومن ذلك مثلا :

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٣٩ (٣/٦١٠) .

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٢٧٥ و ٣٦٣ ـ ٣٦٤ (٣/٦٥٢ ـ ٦٥٢ و ٧٦٤) واليعقوبي ج٢ ص ٤١٥ والعيون والحدائق ص ٢٩١ .

ــ خطب أبو العباس واقفاً وكان بنو أمية يخطبون قعوداً فناداه الناس يا ابن عم رسول الله أحييت سنة رسول الله[1] .

ــ قيل للمنصور هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله قال بقيت خصلة . أن أقعد في مصطبة وحولي أصحاب الحديث ... الدنسة ثيابهم . المشققة أرجلهم الطويلة شعورهم . برد الآفاق ونقلة الحديث ...»[2] .

ــ امر المهدي «بإخراج المقاصير من مساجد الجماعات وبتقصير المنابر وتصييرها على قدر منبر رسول الله[3]» .

ــ توسيع المهدي جامع البصرة فزيد في مقدمه وعن يمينه .. بسبب نمو هذه المدينة التجاري وتكاثر سكانها .

ــ ايهام الناس أن الحكم العباسي قدر مقدور مقرر من الله . وقد ظهر ذلك في أكثر من حلم ومن نبؤة ملحمية أشاعها العباسيون من ذلك أن المنصور ما إن سمع راهباً يقول إنه قرأ أن إنساناً اسمه مقلاصاً يبني مدينة في موقع بغداد حتى بادر فقال : انا والله مقلاص[4] . بهذا كنت اسمى وأنا صغير ، وذكر لأصحابه مرة أخرى حلماً نسوه كان حدثهم به أيام الأمويين بأن له الخلافة . وذكر المهدي حلماً رآه بأنه سيمحو اسم الوليد عن مسجد الرسول رجل من بني هاشم يسمى محمد بن عبد الله ابن محمد ... الخ وأن الرشيد رأى الرسول في المنام يقول له : ان هذا الأمر صائر إليك ... فاغز وحج ووسع على أهل الحرمين[5] .

---

(١) اليعقوبي ــ مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٢ .
(٢) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ .
(٣) العيون والحدائق ص ٢٧٣ . الطبري ج٨ ص ١٣٦ (٤٨٦/٣).
(٤) الطبري ج ٨ ص ٤٤ (٣٧٢/٣) .
(٥) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ .

ـ منع شتم العمرين (أبي بكر وعمر) والعقوبة على ذلك بالجلد، والتشهير . وقد تراجع المأمون عن ذلك لهواه العلوي فلما أمضى قاضية في بغداد بشر بن الوليد الكندي هذه العقوبة على رجل قرف بذلك ناقشه المأمون وأبان له أنه أخطأ من خمسة عشر وجهاً ... وعددها له[1] ثم حبسه في داره حتى مات .

ـ تبادل الرسائل مع الثوار من المسلمين قبل مقاتلتهم لتحل شرعاً دماؤهم . وهذا ما كان يسمح في الوقت للعباسيين بنشر وجهة نظرهم بشكل دعائي على الناس ونجد نماذج كثيرة من هذه الرسائل لدى الطبري وخليفة بن خياط . وهي رسائل تبادلها الخلفاء تارة مع العلويين (كما في ثورة النفس الزكية) أو مع الخوارج (كما في ثورة اليشكري والسجستاني) .

ـ أمر الرشيد بكتابة الصلاة على النبي في أعلى كتبه فكان أول من صنع ذلك كما أمر المأمون بتتويجها في الأعلى بسم الله الرحمن الرحيم «فكان أول من أثبتها على عنوانات كتب الخلفاء ..»[2] .

ـ كان الرشيد يتصدق من حرماله كل يوم بالف درهم بعد زكاته كما كان يصلي مائة ركعة الى أن فارق الدنيا ...[3] وقد أقام شعائر الحج في بعض السنين ماشياً من مكة الى منى الى عرفات ... كما حج في آخر حجاته ماشياً من الرقة الى مكة ...

ـ كان الرشيد أول من كتب على الاعلام السود بالبياض : لا إله إلا الله محمد رسول الله[4] .

---

(١) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٤٦٨ .

(٢) المصدر نفسه وانظر اليعقوبي ـ مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٦ وص ٣١ .

(٣) الطبري ج ٨ ص ٣٤٧ (٣/٧٤٠ ـ ٧٤١) وص ٢٦١ (٣/٦٣٨) .

(٤) اليعقوبي مشاكلة الناس ص ٢٥ .

ـ «بنى الرشيد الثغور مثل طرسوس وبنى دوراً للمرابطين فتشبه أهله وعماله وأصحابه وكتابه به فلم يبق أحد إلا بنى بمكة داراً وبالمدينة داراً وبطرسوس دارا تشبها به وعملا بمثل عمله وكان أكثرهم لذلك فعلا زوجته أم جعفر (زبيدة) بنت جعفر بن المنصور ...» التي «... بنت في الثغور دور السبيل وعملت البيمارستانات وحبست ضياعا على الثغور وعلى الفقراء والمساكن ما غلته لمائة ألف دينار ...»[1] .

ـ كان للواثق خوان من ذهب من أربع قطع يحمل كل قطعة عشرون رجلا وكل ما على الخوان من صحف وغضارة من ذهب فسأله ابن أبي دؤاد ألا يأكل عليه للنهي عنه فأمر أن يكسر ذلك ويضرب ويحمل الى بيت المال[2] .

ـ جاؤوا الى المتوكل بحربة كانت للنبي تسمى العنزة كان يمشي بها بين يديه في العيدين فأمر المتوكل بأن يحملها صاحب الشرطة بين يديه ومن ورائها حربة الخليفة[3] .

ـ أعاد المأمون الى أحفاد فاطمة ابنة النبي منطقة فدك ...

ويمكن أن نعدد الى هذا وذاك الكثير من التصرفات الدينية التي كانت تدخل دوماً في الرصيد السياسي للعباسيين من مثل تفقد أحوال الرعية ليلا والبكاء للنصائح من الوعاظ .. وغير ذلك .

**الثالث** : تأكيد الواجبات الدينية للمنصب الخلافي والقيام بها :

لما كانت الخلافة مؤسسة دينية ، وكان الله هو الذي يختار صاحبها فقد كان هذا الاختيار يوجب عليه بصورة طبيعية واجبات دينية محددة .

---

(١) اليعقوبي مشاكلة الناس ص ٢٦ .

(٢) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣٤٣ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢١٠ ـ ٢١١ (١٤٣٧/٣) .

وإنا لنلاحظ بسهولة أن الكثير من أعمال المهدي خاصة وأعمال الرشيد والمأمون والمعتصم إنما كانت مستوحاة من الموقف الديني السياسي للمنصب الخلافي • ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى ثلاثة أمور :

أ ــ نشر الدين الاسلامي : وبخاصة في مصر وايران وبين الترك وفي السند • وإنما دخلت هذه المناطق في الاسلام في العصر العباسي الأول وفي العصر الثاني • وقد تم هذا الانقلاب الديني بالتدريج ولكن بتصميم وبإصرار هادىء أيضاً • وقد ذكر المؤرخ ساويرس ابن المقفع أن الخليفة العباسي الأول أصدر قراراً «بأن كل من يصير على دينه ويصلي كصلاته يكون بغير جزية فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكر كثير من الاغنياء والفقراء دين المسيح •••»[1] وقد تم ذلك في مصر وايران على السواء،وتسجل الكتب التاريخية باستمرار اسلام شخصيات سريانية أو ايرانية أ وتركية من الخاصة أو من الأسر الكبرى كما تسجل انتقال جموع من الديلم مثلا أو من أهل طبرستان أو بعض أشراف بلخ الى الدين الاسلامي أو ورود جماعة للاسلام على يد الرشيد أو مجيء ملك أشروسنة أو ملك التبت للاسلام على يد المأمون •••

ولعل من الهام أن نذكر هنا أن كتلة السكان في الدولة الأموية كانت ــ فيما عدا العرب ــ مكونة في معظمها من أهل الذمة • وقد بدأ العصر العباسي وهؤلاء يشكلون الأكثرية الديمغرافية للسكان وانتهى وقد خسروا اكثريتهم وبدأوا يصبحون بالعكس هم الأقلية • ولعل فترة التوازن العددي الديني إنما مرت بلحظاتها الانقلابية الحرجة فيما بين عهدي الرشيد والمتوكل • فإن دخول الذميين في الاسلام بشكل متزايد في تلك الفترات قلب ميزان القوى وجعل الأكثرية العددية تنتهي

(١) ساويرس سير الأباء البطاركة ص ١٨٩ ــ ١٩٠ .

لمصلحة المسلمين ولا سيما في مصر والشام والمغرب بينما تأخر ذلك قرناً أو أكثر في ايران والجزيرة •

ب ــ الحج : وقد جعل له الخلفاء العباسيون مواكب سنوية منظمة تخرج من بغداد وصار يرئسه الخلفاء أحياناً كثيرة حتى لقد حضر الخلفاء الأوائل في السنوات الستين الأولى من العهد العباسي قرابة ثلث مواسم الحج (حج المنصور ست مرات • والمهدي مرتين والرشيد تسع مرات) فإن لم يقم الخليفة بالحج عهد به الى ولي عهده أو الى أحد أمراء البيت العباسي • وإنا لنجد في الحوليات التاريخية قوائم كاملة (ظل المؤرخون يتابعون تسجيلها قروناً بعد ذلك) بأمراء الحج هؤلاء كل سنة ولا نكاد نجد منهم من خارج البيت العباسي إلا النادر • وكان الرشيد إذا حج أخذ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاث مائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة[1] • وكان اضطراب هذه الشعيرة الدينية لسبب أو لآخر ، يزعج بغداد ويورث الخلفاء والناس بعض القلق • فكأنها أضحت من لوازم عمل الإمام الأساسية ولئن كان الرشيد آخر من حج من الخلفاء فإن استقرار الأمر للمأمون بعد اضطراب دام أكثر من عشر سنوات جعله يستغني فيما يظهر واستغنى الخلفاء من بعده عن الاستعانة بهذه الشعيرة الدينية في دعم العرش •

حـ ــ الجهاد : وقد نظمه العباسيون الأوائل بدورهم التنظيم الدوري ، ولا سيما ضد الروم ، وباشروه أحياناً كثيرة بأنفسهم حتى صار الجهاد من تقاليد العمل الخلافي : دفاعاً عن الجماعة الاسلامية مثله كمثل اقامة القضاء ونشر الدين والحج •••

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٤٧ نفسها .

ـ العناية بأمر المظالم والقضاء : وقد افتتح المهدي هذا التقليد بأن يجلس الخليفة بنفسه في مجلس خاص لسماع المظالم بحضور القضاة وقال : ادخلوا على القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم إلا حيـــاء منهم لكفى ! وبدهي أن هذا الجلوس كان رمزياً لا يستطيع أن يقوم بهالخليفة في كل الأقاليم ولا في كافة الأوقات ولكن المهدي أحيا به سنة الرسول حين كان يجلس للنظر في أمور الجماعة الاسلامية بنفســـه وقد ذكر عن الهادي وعن الرشيد جلوسهم بدورهم للمظالم على الطريقة نفسها كما ذكرت قصص عن عدالة الحكم فيها عدالة تناولت أحيانـــاً الخلفاء أنفسهم • كالذي كان من إعادة المهدي قرية اغتصبها وكيله الى صاحبها وإعادة قرى كانت لآل الزبير لم يقض لهم حتى عمر بن عبد العزيز بها •

ويذكر ابن أبي طاهر أن المأمون كان يقعد للمظالم في كل جمعة مرتين لا يمتنع منه أحد •

وأخيرا • لعلنا نقف وقفة قصيرة عنـــد سؤال يرد في هذا المجال هو : الى اي مدى كانت سياسة العباسيين الاوائل هؤلاء ذات المظهـــر الديني مطابقة لواقعهم العملي ؟ • او بشكل آخر من القول : الى أي مدى نجحوا في اقناع الناس أنهم صادقون فيها ؟

إن هذا السؤال وإن كان مجال بحثه انما هو في السياسة الادارية باعتبار ماينجم عنه من استياء أو رضى في مسيرة الجماعة الاسلاميـــة الا ان هذا لايمنع من أن نعرض هنا لجانبه السياسي ــ الديني فقط : فالواقع أن الخلفاء العباسيين وإن اخذوا حظهم الكامل من الدنيا فإنهم استطاعوا ان يتركوا في التاريخ مايحفظ عليهم إطار التقى والدين • معظم

الكتاب الذي سجلوا التاريخ العباسي كانوا من صنائع اولئك الخلفاء أو من المؤمنين بحقهم في الخلافة وقدسية مكانتهم ولذلك فإننا بالرغم مما حفظت عنهم الكتب الكثيرة من أمثال الأغاني والديارات ، ونشوار المحاضرة من قصص الخمرة والجواري واللهو الفاسق ، وما كشفت عنه الثورات من المظالم والبؤس وقسوة الخراج ، وما تطفح به الاخبار تارة بعد اخرى من انباء القتل والصلب والرؤوس المقطوعة وآلاف الجثث. نجد أن العمل الدعائي العباسي قد استطاع لحد كبير أن يغطي على كل أولئك بالاعمال الأخرى ذات الطابع الديني .

على ان العملية الدعائية وإن لم تهتم بها كثيرا الجماهير الكادحة التي كان مقياس الحكم الاسلامي لديها هو « العدل » والقسط في الخراج . ولا اهتمت بها جماهير أهل الذمة التي كانت تعتبر الحكم الاسلامي حكماً مفروضاً عليها بواقع القوة القائمة إلا ان الجماعات السياسية الاسلامية هي التي كانت تهتم بمناقشة السياسة الدينية للعباسيين وهي التي كانت تكشف الجانب السلبي القائم فيها . وهذه الجماعات هي ثلاث :

١ ــ العلويون : وطبيعي أن يكون موقفهم العداء لأن كثافة السياسة العباسية كانت موجهة ضدهم وضد حقهم في الحكم . ولهذا فإنهم لم يرفضوا تلك السياسة فقط ولكنهم ثاروا عليها باستمرار وثار عليها منهم خاصة الفرع الحسني ووصفوا الخلفاء العباسيين أوصافاً يلخصها قول محمد النفس الزكية : « هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ... بنى القبة الخضراء معانداً لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والانصار المواسين .

اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت ... »(1)

٢ ــ الخوارج وقدحاربوا بدورهم وفي كل مكان السياسة العباسية الدينية وثاروا عليها أعنف الثورات . وقد تمثل رأيهم خاصة ــ عدا ثورات افريقيا ــ في ثورتين قامتا معاً سنة ١٦٠ ضد المهدي إحداهما في خراسان ( ثورة يوسف البرم ) التي دعت للامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنكرت على المهدي « الحال التي هو بها والسيرة التي يسير عليها»(2) والثانية في الجزيرة (ثورة اليشكري) الذي حفظ لنا خليفة ابن خياط المؤرخ نص كتابه للمهدي قائلا فيه : « ... تركت الأمة تائهة مائجة . لا حدودها أقمت ولا حقوقها أديت . وشغلت بإمائك وتنوقت في بنائك مع إدمانك الصيد إذ تغدو ومعك البزاة والفهود والجنائب والكتائب فإذا انثنيت من صيدك ودخلت بهوك ... فتغذيت وغنيت فيمين الله ما أفحش هذا ممن يدعى خلافة الله . قد كانت أعاجم تنقم مما دون هذا ... وانت إذا خطبت كذبت وإذا عاهدت نكثت ... وقد زادني غيظاً أنك تسميت المهدي وأبعد من سماك ... ففي أي كتاب إذ تعدو وظيفة أو تنقص مساحة أو تصطفى بستاناً أو تبذخ في مركب أو ترمي في نزهة أو تفاوض عن جند أو تحبس عطاء أو تنسى من غزا أو تعاقب بالسوط سافكاً الدم ..؟ »(3) .

٣ ــ جماعة الفقهاء ورجال الدين:هؤلاء كانوا عن تقى ديني أو عن ميل علوي يندون أحياناً كثيرة بالخلفاء العباسيين وإذا كان رجل مثل

---

(1) انظر الطبري ج ٩ ص ١٣٥ ــ ١٣٩ (٣/١٣٤٣ ــ ١٣٥٠) .
(2) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٧ والطبري ج ٨ ص ١٢٤ (٣/٤٧٠) .
(3) الطبري ج ٧ ص ٥٥٨ (٣/١٩٧) .

سفيان الثوري قد وصل درجة الدخول الى المهدي وعدم السلام عليه بالخلافة في نوع من عدم الاعتراف بخلافته فإن كثيرين غـيره كانوا يقسون على الخلفاء ويأخذون عليهم تصرفاتهم المخالفة للدين ويقولون لهم مقالة عمرو بن عبيد للمنصور : « إنه ما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله وسنة نبيه ... إن وراء بابك نيراناً تأجج من الجور... وببابك ألف مظلمة أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق ... » وكان بعض الفقهاء يدفعون الخلفاء بمواعظهم الى البكاء . وقد ذكرت القصص بذلك اكثر من مرة عن الرشيد والمهدي والمأمون وغيرهم . وكان البكاء في الواقع اعترافاً بالتباين الواقع ما بين السياسة المعلنة ( أي الـواجب الديني ) والواقع العملي .

على ان الجماعة السنية في بغداد سجلت مرتين على الاقل في حركتين ثورتين رأيها في سياسة العباسيين ومباينتها للدين . وكان طبيعيا أن تشتبك الحركتان في المرتين مع التناقضات الطبقية بين الجماعات الميسورة أي الطبقات العليا من المجتمع المتحالفة عادة مع الحكام رغبة أو رهبة وبين الفقراء والطبقات المحرومة التي كانت تأخذ حركاتها شكل التمرد الطبقي أحياناً لا بسبب الطبقات الدنيا التي تنتمي جموعها اليها ( طبقات باعة الباقلاء والفعلة وأهل الحمامات وحمالي الأسواق وابناء الأرباض.. ممن كانوا يسمون بالطرارين يومذاك وبالشطار وبالعيارين والرعـاع والأوباش والعراة[1] ولكن بسبب الدوافع المادية والاقتصادية التي كانت تدفع هؤلاء للثورة ثم كان يأتي التدين ليعطي الحركات لباسهـا الشرعي من المبادىء السامية والدوافع العليا .

كانت الحركة الأولى سنة ٢٠١ في أعقاب مقتل الأمين وسقوط

---

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٤٤٨ (٣/٨٧٢) وقد كان هؤلاء قوام الدفاع عن بغداد في فتنة الأمين وحصار المأمون لها .

بغداد بيد جيش المأمون فقد نجم عن تلك الفوضى أن شعرت الجماعات الفقيرة بقوتها كما شعر المسؤولون أنفسهم بهذه القوة فاصطفوها ... وهكذا اجتذب هذه القوى اليه منصور بن المهدي الحاكم باسم المأمون. وانتشر من سموهم بالفساق والشطار في بغداد والكرخ «وكان السلطان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه » وآذوا الناس أذى شديدا : «وكانوا يجبون المارة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم.. وكان الناس منهم في بلاء عظيم ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا الى قطربل فانتهبوها علانية وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير ... وأدخلوها بغداد وجعلوا يبيعونها علانية وجاء أهلها فاستعدوا السلطان عليهم فلم يمكن أعداءهم عليهم ولم يرد عليهم شيئاً ..»

وعند ذلك «تجرد جماعة من المطوعة للنكير على الفساق ...» وتزعم ذلك اثنان : خالد الدريويش الذي قاتلهم فضربهم وحبسهم ثم رفعهم الى السلطان ، وأبو حاتم سهل بن سلامة الانصاري من أهل خراسان الذي أعلن شعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعلن أنه سيقاتل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان سلطاناً أو غير سلطان.. واضطر منصور بن المهدي ، الحاكم العباسي وعيسى بن محمد بن أبي خالد قائد الجيش الى القبول بهذا الرجل ومبايعته على ما يريد بالرغم من أن « عظم أصحابهما الشطار » مما كسرهما وحطم قواهما ...ولكن حركة الآمرين بالمعروف استمرت قائمة حتى وصل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ .

وإذا كانت هذه الحركة مشتبكة العناصر بسبب ما رافقها من جو سياسي مملوء بالفوضى إلا إنها كانت واضحة التمرد على أهمال السلطان للواجب الديني في الدفاع عن الجماعة الاسلامية .

أما الحركة الثانية سنة ٢٣١ فكانت اكثر وضوحاً وعنفاً وهي تلك التي قام بها أحمد بن نصر الخزاعي حفيد مالك بن الهيثم أحد نقباء الدعوة العباسية . وكان الرجل اعتماداً منه على تدينه العميق وعلى مكانة ابيه وجده في الدولة «يظهر المباينة لمن يقول بخلق القرآن» العقيدة الرسمية للدولة . «وكان يبسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة الواثق على من لا يقول بالخلق . وقد سمعه الناس ينعت الواثق بالخنزير أو الكافر ، وفشا ذلك من أمره فكان أهل الحديث والفقه يطيفون به ويحرضونه ... فإذا عرفنا الى هذا أن ابن نصر كان أحد البارزين في الحركة الأولى ببغداد ، حركة الأمر بالمعروف سنة ٢٠١ ـ سنة ٢٠٤ وعرفنا أنه كان ثمة تيار خلفي من أهل الدين وحماته كانوا يقفون للخلفاء العباسيين بالمرصاد وينددون بأعمالهم المخالفة للدين وإن لم يسجل المؤرخون ذلك التيار بوضوح . وقد أخذت حركة ابن نصر شكل التآمر ضد الدولة وانتهت بصاحبها الى الصلب[1] كما سوف نرى وبأصحابه وفيهم الكثير جداً من العامة الى السجون والتشتيت .

### ٣ ـ تمثيل الجماعة الاسلامية في الحكم :

فكرة «الجماعة» الاسلامية وضرورة اتباعها واعتبار ذلك من «السنة» التي وصفها الصحابة واتبعها المسلمون الأولون ليست بدورها فكرة عباسية . الأمويون هم أصحاب هذه الفلسفة السياسية . كتب مرة هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ الى يوسف بن عمر الثقفي عامله على الكوفة في أمر زيد بن علي بن الحسين يقول : «... والجماعة حبل الله

---

(١) خليفة بن خياط ـ التاريخ ج ٢

المتين ودين الله القويم وعروته الوثقي • واعلم أنك قائم على باب إلفة ، وداع إلى طاعة ، وحاض على جماعة ، ومشمر لدين الله فلا تستوحش لكثرتهم واجعل معقلك الذي تأوي إليه ••• الغضب لدينك والمحاماة عن الجماعة ومناصبة من أراد كسر هذا الباب الذي أمرهم الله بالدخول فيـــه ! •••»(١)

وكلمة «السـنة والجماعــة» لم تكن ، في تلــك الفترة من أوائل القرن الثاني ، واضحة المفهوم الحزبي أو الفكري ولكنها كانت تضــم مجموعة من الاتجاهات السياسية والدينية منها أولا أنصــار البيت الأموي من العرب والموالي ومنها العثمانية أهل الكف ، ومنها المرجئة أهل الاعتزال الأول ومنها بين هذا وذاك أهل الحديث ، وجمهور الفقهاء في الدين وأهل الورع ومن وراء هؤلاء وأولئــك جماهير الناس الذين كانوا يوالون الحكام رهبة أو رغبــة أو محبة أو فــراراً من المذاهب والانحياز •• والصفة التي تجمع هؤلاء جميعاً بعضهم الــى بعض هي الوقوف بجانب الخلفاء الأمويين سياسياً في الأزمات أو المهادنــة لهم والاحتفاظ بالرأي الديني في حيز الفكر وعدم نقله الى العمل الثوري • ومن تاريخ هذه الجماعة الواسعة صيغ في الواقع التــاريخ الاسلامي العام لأنهم ألفوا القاعدة العريضة للحكم الأموي في الشام أو الاندلس وللحكم العباسي من بعده سواء في بغداد أو في القاهرة •

ولعل الدافع الأعمق وراء تجمع «أهــل الســنة والجماعة» هو الحفاظ على وحدة الأمة الاسلامية ومبدأ الوحدة إنما كان ينطلق لديهم

---

(١) الطبري ج٧ ص ١٧٠ (٢/١٦٨٣ ــ ١٦٨٤) •

من ارتباط هذه الأمة بكتاب واحد هو كتاب الله وبسنة واحدة هي سنة نبيه التي صرف أهل الحديث ، في تلك الفترة (أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني ) همهم لتوطيدها بجمع أحاديث الرسول وترتيبها واستنباط الأحكام المشتركة منها ومن الإرتباط أخيراً بتشريع اسـلامي موحد نظمه الفقهاء وسرعان ما اعتبر أهل الفقه والحديث والسنة أن مبـدأ الاجماع ركن اساسي من أركانه وهذا المبدأ في الفقه هو الذي يقابل فكرة الجماعة في السياسة .

وإذا دخل العباسيون ميدان الحكم والسياسة معلنين العمل «بكتاب الله وسنة نبيه» فقد كانوا يحتاجون في الواقع ، وبسرعة الى تحويل ولاء «الجماعة» أي القاعدة الواسعة من الناس التي كانت تساند الامويين الى مساندة بيتهم الجديد . مشكلة تحويل «الولاء» كانت أولى مشاكلهم المباشرة . صحيح أنه كانت لهم قاعدتهم الشعبية في خراسان لكن هذا الاقليم ليس كل العالم الاسلامي ثم إن العلويين كانـوا يشاركونهم تلك القاعدة هناك . فلما انفصلت الشيعة العباسـية عن العلويـة أيام المنصور خاصة وكان العباسيون قبل ذلك قد غادروا خراسان إلى العراق والى غير رجعة ، فانفصلوا بذلك أيضاً عن قواعدهم الأولـى ثم زاد انفصالهم بمقتل أبي مسلم الخراساني ، كان واضحاً أنهم لا يستطيعون إقامة « خلافة » واسعة على قاعدة شعبية ضيقة جداً من أهـل كوفة العراق وإن كانوا يملكون القوة العسكرية الضاربة ولمـا كانت قوى التحالف أمامهم معروفة محدودة . ولما لم يكن باستطاعتهم تبني الفكر العلوي أو الاعتماد على أنصاره لانهم في ذلك الخاسرون ولا تبني الفكر الخارجي أو مداهنة رجاله لأنه يرفضهم ويثور عليهم ولا قبول المذاهب المارقة أو المتطرفة في ايران والسيطرة بها فكراً ورجالا على باقي العالم

الاسلامي لأن ذلك يلغي شرعية البيت العباسي من أساسها لهذا كله وجد العباسيون أنفسهم بصورة طبيعية أمام حل وحيد لا اختيار فيه هو التحالف مع أهل السنة والجماعة ! وبخاصة مع الجماعات القيادية في هؤلاء أي رجال الحديث والفقهاء وجماعة العثمانية والإرجاء وأهل الورع البارزين ... كان هؤلاء هم السند المتاح والقوى والوحيد .

وإذا كان العباسيون في طور الدعوة السرية قد تحالفوا مع مختلف الاتجاهات المناوئة للأمويين حتى مع الجماعات الملحدة (الخداشية والروائدية) فإنهم بعد نجاح الثورة لم يخوضوا أي تجربة تحالف مع أي جماعة أخرى وركبوا على الفوز تيار «السنة والجماعة» ليصبح هذا التيار بسرعة هو المذهب الرسمي للدولة العباسية . وقد كان الأمويون في أواخر سنواتهم قد تبنوا ، في الواقع ، سياسة اسلامية شاملة ، وبدأوا ربط جماعات اهل الحديث والفقه بهم كما بدأوا سياسة العقوبة على الالحاد . فلما غابوا وجد أهل السنة والجماعة بدورهم ، أنهم لم يصبحوا أيتاما لأن اليد العباسية ممتدة إليهم فلم يتأخروا كثيراً في التحالف التلقائي معها .

ولقد نلاحظ أن المنصور ، واضع الاساس الأول للسياسة العباسية بمختلف نواحيها ظل فترة قصيرة مرناً مع الجماعة الخراسانية حتى لقد تقبل «الراوندية» التي تعبده ولم يرفضها إلا حين وجد نفسه مهدداً منها بالقتل ولقد نجد أيضاً أنه ظل على علاقات طيبة مع رواد حركة الاعتزال الأوائل : عمرو بن عبيد ، رفيق دراسته القديم ، وواصل بن عطاء أبي المذهب . وهذه الحركة كانت في ذلك الوقت قد أخذت تنفصل بوضوح عن الجماعة والسنة لتشكل تياراً فكرياً خاصاً ضمن الفكر الاسلامي ولكنا قد نستطيع أن نعتبر هزيمة محمد ذي النفس الزكية وأخيه

ابراهيم هي الحد الفاصل لتردد المنصور • فإنه بعدها اتخذ اللقبين لــه ولابنه ومضى نهائياً على ما يبدو مع سياسته « السنة والجماعة » •

وهذه السياسة كانت تعبر عن نفسها بعدد من الوجوه والأشكال أهمهـــا :

التحالف مع الفقهاء وأهل الحديث والدين وتقريبهـــم والتقرب إليهـــم •

يقول المستشرق جب «إن الخلفاء العباسيين ــعلى خلاف الأمويين ــ أدركوا بوضوح أهمية الدور الذي كان الفقهاء قد لعبوه في مصاير الدولة فجعلوا التعاون بين دولتهم الجديدة وبين الفقهاء ركنا ركيناً في سياستهم •••

ويقول أيضاً «إن العباسيين» أخذوا ••• يرعون الفقهـــاء رعاية يكفلون بها حماية رسمية لمذهب سني • ولم يقتصروا على ذلك كله بل أخذوا يضعون المؤسسة الدينية تحت اشراف الدولة على أسس تذكرنا بتنظيم الزارادشتية في ظل الساسانيين»[1] •

والواقع أن المنصور استغل صلته السابقة بأهل الحديث والفقه والخبر ليجمعهم من حول العــرش العباسي • ولــم يكن هؤلاء ، في الواقع ، بعيدين في مواقعهم الفكرية عن هذا العرش ســوى أنهم في معظمهم كانوا يعانون مما يمكن أن يسمى أزمة ضمير ، كلما قامت ثورة علوية وانتهت بالمصير المحزن المعتاد • لأنهم كانوا لا يقدرون التقدير

---

(١) جب ــ دراسات في حضارة الاسلام (الترجمة العربية) ص ١٣ وص ١٤ •

العباسي نفسه ، الأسباب المتصلة بالحكم وبأمن الدولة والتي تدعو لمثل هذه الفجائع . وهذا ما يفسر ، في الواقع ، أن الكثيرين من الفقهاء خاصة كانوا يوصفون بالتشيع المعتدل ولكنهم في الوقت نفسه يتعاونون مع الحكم العباسي .

ويمكن أن نلاحظ في سيرة المنصور والمهدي والرشيد والمأمون خاصة كثرة اتصالهم برجال الدين والعلم وكثرة الأخبار التي تروي ماقال الخلفاء لهؤلاء وما قال هؤلاء للخلفاء وما كظم الأولون من الغيظ أو منحوا من الجوائز أو نثروا من الدمع وما بذل الآخرون من النصح أو الوعظ أو أعلنوا من الرفض والقطيعة ... إن حساب ذلك ، يدخل كله في الحصيلة السياسية للعباسيين ، تقديراً من الناس وإجلالا !

وكان الفقهاء بدورهم يمكن أن يقسموا ، بحسب مواقفهم السياسية الى ثلاث مجموعات :

ـ مجموعة معارضة تتراوح بين المعارضة العنيفة التي يمثلها فقهاء التيارات العلوية خاصة أو الخارجة (أمثال جابر الجعفي وزرارة بن أعين وعباد بن العوام الذي قاتل بجانب ابراهيم بن عبد الله المحض في البصرة) . وبين المعارضة الخفيفة التي توصف أحياناً بالميول العلوية المعتدلة كسفيان الثوري والأعمش وأبي حنيفة ومحمد بن هرمز ومحمد ابن غيلان ومطر الوراق وبشير الرحال الذين أيدوا ثورة محمد ذي النفس الزكية ومالك بن أنس الذي أيد ذا النفس الزكية ويحيى ولدي عبدالله وأمثال الحسن بن صالح الفقيه وابراهيم الخض ومسلمة بن كحيل وغيرهم ... ومن المعارضين كذلك فقهاء ظلوا على الميول الأموية كأبي عمر الزاهد الذي جمع الأحاديث في فضائل معاوية . والوليد بن مسلم الأموي وعوانة بن الحكم الكلبي .. وسعيد بن يحيى الأموي ...

ـ مجموعة محايدة هي على عدم التدخل وعلى الانصراف للشأن الديني المحض لا تهمها شؤون السياسة في كثير أو قليل من أمثال : ابن أبي ذئب فقيه الحجاز والليث بن سعيد فقيه مصر والأوزاعي فقيه الشام وعبد الرحمن بن زياد وعمرو بن عبيد المعتزلي ••• ولا تأبه هذه المجموعة أن تصفع برأيها الحكام وكثيراً ما كانت تخرجهم أو تبكيهم وبعضهم كان يدعى مع الإلحاح لولاية الإمارة (كالليث في مصر) أو القضاء (كأبي حنيفة وعمرو بن عبيد) والاوزاعي فيرفض ويصر على الرفض •

ـ ومجموعة ثالثة موالية كان أصحابها يتحولون بسرعة الى موظفين رسميين ويلون القضاء خاصة ويأتي في رأس هذه الجماعة أبو يوسف قاضي الرشيد والشيباني،وابو البختري ثم يحيى بن اكثم قاضي المأمون وكثيراً ما كان أفراد هذه المجموعة يوالون السلطة فيؤخذ عليهم صحبة السلطان أو يقدمون لها الفتاوى التي تريد (كما فعل أبو البختري القاضي في نقض أمان الرشيد ليحيى بن عبد الله العلوي) إلا إن قصصا عديدة تروي بالمقابل عن عناد رجال القضاء واصرارهم على رفض تعليمات الخلفاء وقبول هؤلاء لهذا العناد والإجازة عليه ! •••

وقد تعامل العباسيون واتصلوا برجال هذه المجموعات كافة على اختلاف مواقعهم منهم ما عدا المتطرفين في العلوية والخارجية ونستطيع أن نرى صورة من السياسة الدينية العباسية في بعض القصص المروية :

ـ يروي السيوطي قصة عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، وكان يطلب العلم مع أبي جعفر قبل الخلافة قال : «••• فلما وليهاوفدت

عليه . فقال : كيف سلطاني من سلطان بني أمية ؟ قلت : مـا رأيت في سلطانهم من الجوْر شيئاً إلا رأيته في سلطانك . فقال إنا لا نجد الأعوان. قلت : قال عمر بن عبد العزيز : إن السلطان بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها فإن كان براً أتوه ببرهم وإن كـان فاجراً أتوه بفجورهم فأطرق ...»[1] .

— ويروي قصة أخرى عن بعض الجمالين الذين أقاموا الدعوى على المنصور وهو بمكة عند قاضيهـا محمد بن عمران الطلحي فأمر كاتبه أن يكتب للخليفة يستدعيه فاستعفى . فأبى القاضي إلا أن يكتب الكتاب وإلا أن يحمله بنفسه . وقام المنصور يوم ذاك بحركة دعائية لها مغزاها الديني السياسي : إذ أعلن عن طريق حاجبه «إني دعيت الى مجلس الحكم فلا يقومن معي أحد » . ثم جاء فلم يقم له القاضي الذي دعا بالخصوم واستمع وقضى على الخليفة فلما فرغ قال المنصورجزاك الله عن دينك أحسن الجزاء قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار ! !

— ويروي ثالثة أن المنصور أمر قاضيه في البصرة سوار بن عبد الله أن يحكم ضد البينة التي ثبتت للقاضي فرفض فأرسل يقسم عليه أن يفعل فأصر على الرفض فلما جاءه الكتاب قال : ملأتها والله عدلا وصار قضاتي تردني إلى الحق ! ..

---

(١) انظر السيوطي — تاريخ الخلفاء (المطبعـة السلفية) ص ٢٦٨ وص ٢٦٦ ويروي ابن قتيبة (عيون الأخبار ج٢ ص ٣٣٧) قصة مماثلـة قال فيها عمرو بن عبيد للمنصور : ما عمل وراء بابك بشيء من كتـاب الله ولا سنة نبيه فقال أبو جعفر ما أصنع ؟ قد قلت لك خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني فقال عمرو : أدعني بعدلك ، تسخ أنفسنا بعونك ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق ...» .

ـ وقد عفا المنصور عن أهل البصرة لأن شفيعهم في العفو كان المبارك بن فضالة ... ويروون قصصاً مشابهة عن المهدي :

ـ يروي ابن كثير أن رجلا «دخل عليه يوماً ومعه نعل فقال : هذه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهديتها إليك . فقال هاتها . فناوله إياها فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم فلما انصرف الرجل قال المهدي : والله اني لأعلم أن رسول الله لم يـر هذه النعل فضلا عن أن يلبسها ولكني لو رددته لذهب يقول للناس : اهديت إليه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها علي . فتصدقه الناس لأن العامة تميل الى أمثالها . ومن شأنهم نصر الضعيف على القوي وإن كان ظالماً فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ورأينا هذا أرجح وأصلح»[1] .

ـ ويروي ابن كثير أيضا والطبري أن المهدي كان يحب الحمام فدخل عليه يوماً جماعة من المحدثين فيهم عتاب بن ابراهيم فحدثه بحديث عن الرسول يقول : (لاسبق إلا في خف أو نعل أو حافر) وزاد في ختام الحديث (أو جناح) فأمر له بعشرة آلاف درهم ولما خرج قال : الله إن قفاك لقفا كذاب على رسول الله ..

---

(۱) انظر مثلا بعض اخبار المهدي والرشيد والمامون عند ذكر وفاتهم لدى الطبري والسيوطي . وانظر فصل «مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك» في عيون الأخبار (ج٢ ص ٣٣٣ ـ ٣٤٣) ونجد مثل ذلك في سير الخلفاء في البداية والنهاية لابن كثير وفي كتاب حلية الأولياء وفي العقد الفريد لابن عبد ربه . فصل مقامات العباد عند الخلفاء (ج ٣ ص ١٥٨ ـ ١٦٨) .

ـ ويروى أن المهدي جلس للمظالم فجاءته رقعة تتهمه باغتصاب ضيعة وقبل الجلوس أمام القاضي والاحتكام إليه وحكم القاضي بإطلاقها إلى صاحبها وصدع الخليفة بالأمر[1] على الطريقة التي سبق أن رويت عن المنصـــور ...

ـ ويروى مثل ذلك كثير عن الرشيد خاصـــة وعن المأمون في قصص تفوت الحصر منها . مثلا ما ذكره السيوطي نقلا عن القاضي الفاضل من أنه لا يعلم لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع (الموطأ) من الإمام مالك وأضاف كانت أصول الموطأ بسماع الرشيد بخزانة المصريين (الفاطميين)[2] ...

ومنها أن الرشيد «أرسل الى مالك بن أنس في السنة التي حج فيها سنة ١٧٩ (والتي مات فيها مالك) ليأتيه ليسمع منه الحديث فقال مالك: إن العلم يؤتى . فسار الرشيد الـى منزل مالك فاستند معه الى الجدار فقال مالك يا أمير المؤمنين : من أجل الله تعالى أجل العلم فقام الرشيد وجلس بين يدي مالك وكلمه وسمع منه عـدة أحاديث عن رسول الله ... » وأرسل الى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يـدي الرشيد وحدثه فقال الرشيد بعد ذلـك يا مالـك تواضعنا لعلمك فانتفعنا بـه ... »[3] .

وقد ذكر ابن طيفور في تاريخ بغداد أن المأمون قال لقاضيه يحيى ابن اكثـم :

---

(١) انظر الفقه لدى الازدي ـ تاريخ الموصل ص ٢٥٦ .
(٢) السـيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٩٤ .
(٣) العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٩٨ .

«إن الرجل ليأتينا بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون درهماً أو نحوه فيقول : إن هذا كان للنبي (ص) أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو بعندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا اني بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل واكثر ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه فأستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من اهتم به فأصونه كصيانتي نفسي وإنما هو عود لم يفعل هوشيئاً ولا فضيلة تستوجب به المحبة إلا ما ذكر من مس رسول الله (ص) له ...

ولعل هذا النص يكشف الكثير من خط السياسة الدينية الممتد منذ زمن المهدي حتى المأمون ولعله يكفينا مؤونة الاستطراد في ذكر القصص الكثيرة مما يروى عن الرشيد أو عن المأمون وعن خشوعهما للنصيحة وتقبلهما ...

— تروي من خشوعهما للنصيحةوتقبلهما الزهادوأمرهما بالمعروف وإكرامهما لأهل الصلاح والتقوى وإقامتهما العدالة والمظالم ... فتلك القصص أضحت المنجم الذي غرفت منه كتب الأدب وكتب الوعظ وكتب الفقه والتاريخ والحكايات فملأت بصحيحه وبالمخترع منه ألوف الصفحات . ولقد أضحى اسم الرشيد خاصة كالمغناطيس الذي يجتذب الكثير من هذه القصص المتصلة بإرهاف الشعور الديني فهو المحور الذي يدور حوله منها الكثير . ونقرأ ذلك في سير هؤلاء الخلفاء لدى الطبري كما تقرأه في بعض كتب الوعظ لابن الجوزي . ونجده في صفحات طويلة من عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري[١] كما نجده في

---

(١) ابن طيفور تاريخ بغداد (بغداد في عصر الخلافة) ص ٤٠ .

العقد الفريد لابن عبد ربه وفي البيان والتبيين للجاحظ ونشوار المحاضرة للتنوخي .

وتعقد الفصول الخاصة أحياناً في بعض هذه الكتب لذكر أخبار الخلفاء مع رجال الدين والزهد . وسواء كانت تلك القصص صحيحة أم مخترعة فإنها تعبر عن واقع تاريخي عرفه الناس وتكشف عن طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين خلفاء بني العباس هؤلاء وبين طبقة الفقهاء على أننا لا بد أن نلاحظ أن هذه الجماعة الحاملة للعلم والدين لم تكن سهلة القياد أو على الأقل لم يكن كسب العباسيين لحبها ومعونتها سهلا وإذا كان بعضها على قبول الانضواء تحت الجناح العباسي فقد كان بعضها الآخر يفخر بشموسه وتأبيه على الدخول في مخططاتهم لكن كانت أجوبتهم الرافضة تدخل بدورها في حساب الساحة الدينية التي يتعمد الخلفاء أن يشتهروا بها . ونرى نموذج هذه الفئة في مثل سفيان الثوري الذي لقيه أبو جعفر في الطواف وسفيان لا يعرفه فضرب بيده على عاتقه وقال : أتعرفني ؟ قال : لا ولكنك قبضت علي قبضة جبار» . فلما تعارفا ومضى الحديث قال أبو جعفر : «ما يمنعك أن تأتينا ؟ قال : إن الله نهى عنكم فقال تعالى (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه فقال : ألقينا الحب الى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً ...»[1] .

والحقيقة أن الكثير من الفقهاء أبوا التقاط الحب الذي نثره لهم

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد (طبعة دار الكتب) ج٣ ص١٦٥ .

الخلفاء العباسيون وسجلت لهم المواقف السلبية والنقد الجريءوالقاسي أحياناً ضدهم . وكان الخلفاء يتقبلون ذلك من باب الاشتهار بقبول النصيحة ولأنهم يعرفون أنها لا تنتهي الى موقف ثوري عملي : كالذي كان من احتمال المنصور اتهام ابن أبي ذؤيب له بأنه « ظالم جائر » لأنه يعين معن بن زائدة الشيباني اليمن فيقتل ويأخذ الأموال فلا يغيره[١] والذي كان من عبد الله بن طاووس ومن عمرو بن عبيد مع المنصور أيضاً والذي كان من ابن السماك ومن أبي معاوية الضرير مع الرشيد[٢] ومن الأوزاعي أمام عبد الله بن علي حين أعلن لـه رأيـه في الحكم العباسي الجديد ورفض أن يفتي لـه باباحة دماء بني أمية[٣] ...

وإذا كان مشهوراً ضيق اصحاب السلطة بالنصائح القاسية فقد تعمد الخلفاء العباسيون أن يشتهروا بعكس ذلك . وكان بعض الوعاظ أو ذوي الجرأة يعرضون لهم في المواسم أو بعض المناسبات فيغلظون القول فيرفضون عقوبتهم . يذكر ابن قتيبة أن المنصور خطب فذكر الله فوثب رجل من اقصى المسجد فقال : أذكرك من تذكر . فقال المنصور: أنت والله ما أردت بها الله ولكن حاولت أن يقال : قام فعوقب فصبر . وأهون بقائلها لو هممت . فاهتبلها إذ عفـوت وإياكـم معشر الناس وأختها . فإن الموعظة علينا نزلت ...»[٤] ويذكرون مواقف كثيرةمماثلة

---

(١) الأزدي ــ تاريخ الموصل ص ١٧٦ ــ ١٧٧

(٢) انظر ذلك في المصدر السابق ج٣ ص ١٦٤ وابن كثير البداية ج١٠ ص٢١٥ و ٢١٧

(٣) ابن كثير ــ البداية والنهاية ج١٠ ص ١١٨ .

(٤) ابن قتيبة ــ عيون الأخبار ج٢ ص ٣٣٦ ــ ٧ وذكر ذلك ابن كثير ــ البداية والنهاية ج١٠ ص ١٢٣ والطبري ج ٨ ص ٩٠ (٣/٤٣٧) . كما ذكر الطبري في الصفحة ذاتها قصتين أخريين مشابهتين لها مع أبي توبة ومع رجل في بغداد .

مع المهدي لسفيان الثوري إذ أتى بـه بأمر الخليفة فلـم يسلم عليه بالخلافة والربيع قائم على رأسه بالسيف فأقبل عليـه المهدي وقال : تفر منا ... وقد قدرنا عليك فما تخشى أن نحكم فيك ؟ قال سفيان إن تحكم الآن في يحكم فيك مالك قدير يفرق بين الحق والبـاطل فقال الربيع ... أفأضرب عنقه ؟ فقال (المهدي) اسكته ويلك وهل يريد مثل هذا إلا أن أقتله . اكتبوا عهده على قضاء الكوفـة ... فهرب »[1] سفيان ، وما زال متوارياً حتى مات سنة ١٦١ كما يذكرون موقف المهدي من نبطي . قال لـه : اتق الله . فلما قال المهـدي نبطي وتدعو أمير المؤمنين لتقوى الله قال الرجل : ذلك أوكد للحجة عليـك أن يكون نبطي يدعوك لتقوى الله . وأطلق الرجل مع ذلك . وثمة مواقف من مثلها كثيرة متداولة للرشيد والمأمون في[2] الكتب والقصص .

على أنهم كانوا دوماً يخشون تمادي الناس في هـذا السبيل . فقد خطب أبو جعفر مرة يحذر الفقهاء قائلا : «أما بعد يا معشر الفقهاء فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم ما أخشن صدره وضاق بـه ذرعه وكنتم أحق الناس بالكف عن ألسنتكم وأولى بلزوم الطاعـة والمناصحة في اليسر والعلانية لما استخلفه الله عليكم ...» .

ويتصل بمواقف النصح القاسي هذه مواقف رفض التعاون . والسلبية . فكثيراً ما كان بعض الفقهاء المعروفـين يرفضون ولايـة

---

(١) الأزدي ــ تاريخ الموصل ص ٢٤١ .

(٢) انظر مثلا ابن عبد ربه ج٣ ص١٦٥ وص١٧٠ وانظر الطبري ج ٨ ص ١٨٠ ، والطبري (ج٨ ص ٣٥٤ ــ٥) قصة الرشيد مع عبد الله العمري و(ج٨ ص ٣٥٧) قصته مع رجل من النساك في الرقة .

القضاء ــ وهي عمل ديني اداري ــ للعباسيين فقد رفض القضاء الإمام الأوزاعي . وقال لعبد الله بن علي : إن اسلافك لم يكونوا يشقون على في ذلك وإني أحب أن تتم ما ابتدأوني بــه من الاحسان ورفضه مالك ابن أنس كما رفضه أبو حنيفة من المنصور كذلك حالفاً أنــه لا يصلح للقضاء ومضيفاً إي إن كنت صادقاً فلا يصح لك توليتي القضاء وإن كنت كاذباً فكيف تولي كاذباً القضاء ؟ ورفضه سفيان الثوري من المهدي وتوارى حتى مات ورفضه كذلك المنذر بن عبد الله كما رفض الليث بن سعد إمارة مصر كلها .

على اننا نلاحظ بصورة عامة أن مواقف الرفض هذه إنما كانت كثيرة ولسبب سياسي أحياناً في الفترة الأولى من العهد العباسي فلما استقر لبني العباس الأمر في عهد الرشيد وما بعده ظهر التعاون واضحاً بينهم وبين هذه الطبقة فلم يبق على الرفض إلا من كان يمنعه ورعه الديني من ولاية القضاء أو لزوم باب السلطان . أو كان على هوى سياسي علوي ... وهكذا بدأنا نرى مواكب الرشيد الى الحج تحوي مجموعة ممن يسمون «بالفقهاء» بجانب الأمراء والقواد ورجال الدولة[١] وقد شهدوا بهذه الصفة حفل تعليق بيعة الأمين والمأمون في الكعبة ! كما كانوا يشهدون مجالس الخليفة في بغداد .

وإذا كان بلاط الرشيد قد برز فيــه عــدد من الفقهاء المعروفين كالشيباني وأبي يوسف وكان مجلس الرشيد يتقبــل بدون انقطاع

---

(١) انظر مثلا خبر تعليق البيعة بولاية العهد في الكعبة لدى الطبري (ج٨) إذ يقــول : « ... وحج هارون ومعه ... وقــواده ووزراؤه وقضاتــه .... » .

زيارات أهل العلم والدين فان مجلس المأمون قد أضحى من تقاليده أن يضم هذه الجماعة العلمية شهوداً على أعماله اليومية أو أن يجمعها للجدل ويكون الخليفة بين المشاركين في المناقشة الدينية وكثيرا ما كان يطلبها بنفسه ويستقدم من أجلها الفقهاء والمحدثين ورجال العلم والفلسفة للجدل بين يديه[1] ... وقد ذكر ابن أبي طاهر أنه اختير من الفقهاء لمجالسة المأمون مائة رجل فما زال يختارهم طبقة طبقة حتى حصل منهم عشرة [2] .

وإذا سجل العصر العباسي الأول من اضطهاد لبعض رجال الفقه والدين فإنما كان ذلك ــ فيما عدا محنة ابن حنبل والسنة في عهد المأمون ــ بسبب آرائهم السياسية لا موقفهم الديني . وهكذا أصاب النفي والتعذيب والسجن أمثال أبي حنيفة الذي توفي في السجن سنة ١٥٠ وسفيان الثوري الذي توارى سنوات عن الأنظار . والأعمش وغيرهم . أما مالك بن أنس فبالرغم من أنه لم يقتل للفتوى التي أفتاها لأهل المدينة عند ثورة ذي النفس الزكية من «أنهم بايعوا (المنصور) مكرهين وليس على مكره يمين) وقد حماه مقامه الفقهي الديني الكبير . فإن هذا لم يمنع والي المدينة حين عرف أنه لا يرى (ثبات) أيمان البيعة للعباسيين من تجريده وضربه بالسياط ومد يده حتى انخلع كتفه ... وارتكب منه أمراً عظيماً فلم يزل مالك بعد ذلك الضرب في علو وارتفاع ...» [3] .

---

(١) انظر مثلا اليعقوبي ج٢ ص٤٦٨ في قصة بشر بن الوليد وقصة فدك وانظر العقد الفريد ج٥ص ١٩٥ ــ ١٠٢ ... الخ .

(٢) ابن ابي طاهر ــ تاريخ بغداد ص ٣٠ .

(٣) انظر العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٩٨ .

وخلاصة الامر في علاقة العباسيين بالفقهاء أن هؤلاء كانوا الأدوات التي لا محيد للعباسيين عن التعامل معها لتطبيق سياستهم الدينية •وقد تكون القصص التي تروى عن طبيعة هذه العلاقة حقيقية أو مزخرفة أو مخترعة من أساسها ولكنها إنما كانت تجري وتنشر عن عمد لاستخدامها في العمل الدعائي العباسي • وجانب كبير منها إنما قصد منه العباسيون ذلك لأن الفقهاء وهم أبواق الدعاية الموزعون في انحاء العالم الاسلامي وفي كل مسجد وعند كل سارية استطاعوا تدمير جانب كبير من السمعة الأموية فيجب أن يكون باستطاعتهم بالمقابل بناء جانب كبير من سمعة العباسيين وقد استخدمهم بنو العباس في ذلك أوسع الاستخدام •

أما مدى نجاحهم فلا شك أن العباسيين نجحوا في إذابة الجليد بينهم وبين طبقة الفقهاء • أولا ثم في نقل تلك الطبقة من معسكر العلويين المعارضين أو الأمويين بل من المراكز المحايدة إلى مراكز التأييد والاستخدام • وذلك اللون «الزيدي» الذي كان يلون الكثير من الفقهاء ــ غير العلويين ــ في أوائل عهد المنصور غاب تماماً ليحل محله اللون العباسي الخالص في عهد الرشيد ومن بعده •

ومجموعات الفقهاء وأهل العلم والحديث التي كانت تحضر يومياً مجالس الخليفة أو تذهب معه بالمئات الى الحج أو الجهاد أو تتولى له القضاء في مختلف الأمصار (ولدينا قوائم طويلة بأسمائها) كلها دلائل على ذلك النجاح العباسي في ايجاد طبقة رسمية من الفقهاء تعمل تحت جناح الدولة ولحسابها •

وتذخر كتب التاريخ والطبقات والتراجم[1] بأخبار هذه الطبقة وإذا كان منهم من استلم القضاء مثل محمد بن ابي ليلى وسوار بن عبد الله العنبري زمن المنصور وابي يوسف والشيباني وابي البختري زمن الرشيد وابن أبي دؤاد زمن المأمون فإن منهم من استعمل في بعض أمور الخراج كاسماعيل بن عياش وعبد الرحمن بن أبي الزند أو قام ببعض الادارة كعبد الله بن شبرمة • أو في ديوان الجند (كعبد الرحمن ابن سالم في مصر) • أو في بيت المال (مثل هشام بن ألفاز الجرشي الدمشقي) • وربما كان من آثار هذا التعاون ما وضعه بعض هؤلاء الفقهاء من الأحاديث على لسان الرسول بتعظيم بني العباس ونجد منها مجموعة في كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي بعنوان : الاحاديث المبشرة بخلافة بني العباس • ولعل أهم نجاح حققه الخلفاء العباسيون بنتيجة هذا التعاون مع الفقهاء والعلماء هو النقطة التالية :

**٤ ـ توطيد المذهب السني وصيرورته المذهب الرسمي :**

كان هذا التوطيد ، في الواقع نتيجة عمليات معقدة متعددة الوجوه تفاعلت منذ العصر الأموي واستمرت خلال العصر العباسي الأول كله قبل أن يصبح ذلك واقعاً تاريخياً واضحاً • وبينما كان العباسيون كسلطة حاكمة يبعدون المذاهب الاسلامية الأخرى عن مراكز القوة والنجاح لتلهو على الأطراف بانشاء بعض الدول الصغيرة أو يضربونها الضربة بعد الضربة بالقوة العسكرية في المناطق المركزية ،

---

(١) انظر في تاريخ اليعقوبي قوائم القضاة والفقهاء في عهود الخلفاء العباسيين الأوائل . ونجد قوائم اخرى لدى خليفة بن خياط (كتاب التاريخ لا الطبقات) ولدى وكيع القاضي في كتابه اخبار القضاة خاصة .

كان جيش آخر من الفقهاء ورجال العلم يعمل بدوره بتشجيع من الخلفاء وتحت جناحهم على منح المذهب السني مداه الجغرافي في الانتشار وصورته التشريعية في (الفقه) وأساسه الفكري من الفلسفة والمنطق في (علم الكلام) • وقد أنجزت المهمات الثلاث معا خلال القرن الأول من الحكم العباسي فكان ذلك أهم إنجاز بقي للمسلمين من تلك الحقبة كافة • وإذا كان المبرر الوحيد لوصول العباسيين الى السلطة هو البحث عن لون من ألوان الحكم يكون أقرب الى ما يقضي به الاسلام مما سار عليه بنو أمية فإن الصورة العملية للنظام الاسلامي الذي نعرف سياسياً واجتماعياً إنما صيغت في العهد العباسي • وما نعرفه اليوم من المذاهب الاسلامية في التراث الفقهي فإنما هو نتيجة التفسير الذي أعطاه الفكر العباسي للإسلام الأول • لقد عكسوا فيه مدى فهمهم في عصرهم لذلك الاسلام • وقد تجلى ذلك خاصة في أمرين : الفقه وعلم الكلام • وليس يهمنا في الأمرين هنا مسائلهما والمشاكل ولكن يهمنا تكون الفكر الفقهي والكلامي خلال تلك الحقبة العباسية الأولى :

أ ـ تبلور الفقه : الاسلام يرفض مبدئيا المفهوم الروماني ـ اليوناني بترك التشريع للدولة ويعتبره موضوعة إلهية • قد بين الله أسسها وحدودها في كتابه العزيز وعلى البشر استنباط الاحكام التطبيقية منه ومن السنة التي لا يمكن أن تتناقض معه • عملية الاستنباط هذه هي الفقه • والخليفة لا يشرع ولكن يطبق الشرع ولما كان الخلفاء العباسيون قد جعلوا سياستهم اسلامية فقد كان لا بد لهم في قيادة الجماعة الاسلامية ، من التوفيق ما بين مقتضيات السياسة والادارة العملية المتطورة وبين مقتضيات الشرع وبين حمل الأولى على

التطابق مع الثانية • ومن هنا قامت تلك العلاقة الواشحة بين خلفاء بني العباس والفقهاء ؛ ومن هنا كان خوف الخلفاء من هذا القطاع السياسي الديني الحر الذي يفقه علوم الدين •

وإعداد الفقه الاسلامي لم يكن من عمل العباسيين • كان هذا الفقه منذ العصر الأموي يتكون • وإنما دفعه بنو العباس خطوات واسعة الى التبلور وإلى أخذ الصيغة المكتوبة • بالاستناد الى ثلاثة أسس : كانت بدورها قد بدأت التوطد بجانب احكام الكتاب هي : الحديث والقياس والرأي أو ما يدعي بالاجتهاد • وإذا كان استنباط الاحكام بالرأي يفتح الباب واسعاً للاختلاف فإن هذا الاجتهاد قد أنجم من جهة أخرى بما سمي بالاجماع أي إجماع أو شبه إجماع الأحياء من المجتهدين في ما يمكن أن نطلق عليه اسم «السنة الحية» وهكذا انصرف الفقهاء في العصر العباسي الأول خاصة الى وضع تصانيف منهجية عامة في شؤون الفقه تستند بجانب الكتاب والسنة الى القياس والاجتهاد •

وقد شعر علماء الحديث والسنة بهذا التوطد الذي تم للمذهب زمن العباسيين يقول الذهبي : «••• في سنة ثلاث واربعين شرع علماء الاسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريج بمكة ومالك الموطأ في المدينة والأوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن وسفيان الثوري بالكوفة وصنف ابن اسحاق المغازي وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي • ثم بعد يسير ضعف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وابو يوسف وابن وهب وكثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية

واللغة والتاريخ وأيام الناس ...»[1] .

وتوزع الجماعات الاسلاميـــة في مختلف الاقاليـــم مع صعوبات الاتصال أدت الى بروز العديد من الفقهاء المحلـــيين في تلك الأقاليم والى ظهور مدارس فقهية عديدة بنتيجة ذلك لكل منها مذهبها الخاص المستند إلى مقدار ونوعية ما وردها من الحديث النبوي ومـــدى قوة المنطق القياسي وعمق النظر الاجتهادي .

وهكذا ظهر في الحجاز مالك بن أنس وفي الشام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي وفي العراق أبو حنيفة النعمان بن ثابت وفي مصر الليث ابن سعد ثم محمد بن ادريس الشـــافعي بعـــد ذلك . وبجانب هذه الاسماء المعروفة كان ثمة رعيل كبير لا يقل عنها قيمة وأثراً منه : ابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وعمرو بن عبيد المغزلي في البصرة ، ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى وسفيان بن سعيد الثوري في الكوفة . ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذؤيب (أو ذئب) في الحجاز وعبد الملك ابن جريج في مكة . وعبد الله بن لهيعة في مصر . وأبو البختري وهب ابن وهب وأبو يوسف يعقوب بن ابراهيم قاضي الرشـــيد في بغداد ومعمر بن راشد الأزدي في اليمن والوليد بن مسلم في الشام .

قادت هذه الجماعة وأمثالها الفكر الاسلامي الفقهي . وقد وضع بعض هؤلاء العلماء أسس مذاهبهم الفقهية : كتبوها أو كتبهـــا عنهم تلاميذهم لكن الخلفاء العباسيين طلبوا من بعضهم وضع هذه الكتب فقد طلب المنصور مثلا من مالك بن أنس وضع كتاب تسير عليه الدولة

---

(۱) انظر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ .

فكان ذلك أساس كتاب الموطأ وطلب الرشيد من أبـي يوسف وضع كتاب الخراج ...

وإذا كان مذهب الأوزاعي الشامي لم يعرف الانتشار إلا في الشام ولفترة محدودة فما من شك في أن موقف العباسيين السياسي من هذه البلاد قد أثر في عدم انتشار المذهب ثم في اندثاره . ولم يكن وضع مالك بن أنس ولا الحجاز بالذي يشبه الأوزاعي والشام فقد كان يمثل تراث المدينة الاسلامي ويمثل فقهاء المدينة السبعة الذين ظهروا في العهد الأموي ووضعوا أسس الفقه . وقد توفي مالـك سنة ١٧٩ عن أربع وثمانين سنة بعد ان انتشر ما أملاه على تلاميذه من كتاب (الموطأ) . ومع ذلك فلم يتح لمذهب مالك أن ينتشر فيما وراء الحجاز فلما حمل الى مصر لم يستقر بها طويلا وتلاحق على حمله من مصر إلى الاندلس خلال ذلك فقهاء عديدون لجأ المذهب معهم إلى أقصى المغرب الاسلامي بينما فقد أرضه في المشرق . ولم يتح في الوقت نفسه لمذهب الليث بن سعد أن ينتشر إلا بعض الانتشار في مصر ثم ما لبث أن تضاءل واندثر كما اندثر أيضا مذهب سفيان الثوري الذي ظهر في الكوفة فلم يبق له أثر بعد القرن الرابع ...

أما المذهب الذي اتصل أوثق الاتصال بالعباسيين فهو مذهب أبي حنيفة الذي يعرف بأنه المذهب العراقي وصاحبه هو الوحيد بين أصحاب المذاهب المشهورة الذي لم يكن عربي الأصل ولكن من موالي الكوفة ومع أن الرجل استغنى عن مناصب العباسيين وعاش متقشفاً يحتفظ بهواه ضد الحكام حتى مات في السجن سنة ١٥٠ في بغداد عن سبعين سنة ، ومع أن المنصور استدعاه لمناظرة جعفر الصادق إلا إنه لم يكن يميل في هواه ضد العلويين إن لم يكن معهم .

وإذا كان من مذهب مالك يعتمد بصورة أساسية على الحديث ، لأنه وارث مدرسة الحديث في المدينة . وكـــان مذهب سفيان الثوري يعتمد خاصة على الرأي والقياس معبراً بذلك عن قلق أهل الكـــوفة وتطلعهم السياسي فإن أبا حنيفة كان يمزج ما بين الطريقتين حتى ذمه أهل الحديث • ولكن مذهبه كان المذهب الملائم للتطور الاجتماعي الذي وصله المجتمع الاسلامي في القرن الثاني في العـــراق وايران • وقد كان تلامبذ أبي حنيفة على صـــلة وثقى بخلفـــاء بني العبـــاس وتولوا أهم مختلف المناصب وخاصة القضاء في مختلف الأمصار ولهذا فقد تبنى العباسيون الفقهاء القائلين به • وقد برز هذا الدعم واضحاً بصورة خاصة في عهد الرشيد حين عين يعقوب بن ابراهيم المعروف بابي يوسف قاضياً للقضاة وجعل لـــه أن يضع الكتاب الذي ينظم علاقـــات الدولة بالناس : كتاب الخراج • كما جعل لتلاميذه وامثاله ان يتسلموا المناصب المختلفة • وأبو يوسف هو التلميذ البـــارز لأبي حنيفة وقد تولي القضاء للمهدي والهادي والرشيد ولهذا فقد تألفت من حولـــه مدرسة فقهية كان من رجالها محمد بن الحسن الشيباني وأبو البختري وابن اكثم وزفر بن الهذيل « وقد تميزت خلال فترة طويلة من الزمن باهتمامها البالغ بالحياة العملية وعنايتها بحاجات الدولة مع السعي إلى ايجاد التسويات اللازمة لتجنب كـــل تناقض مع الشرع الاسلامي» ولعل من أهم الانجازات التي تمت في عهد الرشيد ووطـــدت المذهب الحنفي كمذهب عباسي أن كلا من قاضي القضاة أبي يوسف (توفي سنة ١٨٢) وتلميذه وزميله قاضي القضاة محمد بن الحسن الشيباني (توفي سنة ١٨٩) كتبا للدولة الكتابين اللذين ينظمان على أساس متين من الفقه الاسلامي سياستها الداخلية والخارجية • فإذا كان كتاب الخراج ينظم السياسة الداخلية فقد كتب الشيبانـــي (كتـــاب السير الكبير) وهذا

الاصطلاح كان يعني في ذلك الوقت احكام الجهاد والحرب وما يجوز فيها ولا يجوز وأحكام الصلح والموادعة والأمان والغنائم والأسرى • فكأنما وضعت الدولة العباسية بالكتابين ضوابط العمل والحكم الداخلي على أساس المذهب الذي اختارته •

وهكذا نشأ تحت رعاية العباسيين مذهب اسلامي «رسمي» على الأساس السني يطمح ، بدعم العباسيين أنفسهم ، إلى أن يكون مذهب الجماعة الاسلامية كلها • وقد انتشر بالفعل في العراق وما وراءه من ايران وخراسان ولكن هذا الدعم لم يكن يستطيع أن يمنع رسمياً أيضاً المذاهب الاخرى من الانتشار لان الخلفاء منفذون للشرع وليسوا بمشرعين •

ولم يرض العلويون والخوارج بالطبع عن هذا المذهب «الرسمي» ولذلك فقد عارضوه بمذاهب خاصة بهم وإذا تطور المذهب الإباضي الخارجي في البصرة خاصة إلا إنه كان يصدر آراءه مع فقهائه وأمواله الى افريقية والمغرب حيث قامت الدول الخارجية • أما العلويون فقد كان لا بد أن يظهر من آل البيت نفسه إمام يضع الأسس الفكرية والعملية للفقه العلوي • وإذا كانت المحاولة الأولى : الزيديه (أتباع زيد بن علي زين العابدين المتوفي) سنة ١٢٢ / ٧٤٠ محاولةمبكرة لاتفترق بوضوح عن المذهب السني ويمكن أن تكون وسطاً بين الفقه الحنفي والمالكي فقد عاصر أبا حنيفة ومالك عقل فقهي ممتاز من الأئمة هو جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٧ عن ٦٦ عاماً استطاع خلال ثلاثين سنة من الإمامة أن يعطي أفكاره إلى اكثر من اربعة آلاف رجل من أتباعه • وقد جمعها بعض هؤلاء في اكثر من اربع مائة كتاب تعرف لدى الشيعة بالأصول • وكان جعفر الصادق من غزارة العلم بحيث قال فيه المنصور يوم توفي : إنه ممن قال الله فيهم : «ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من

عبادنا ...» وابتعاده عن المطمح السياسي هــو الذي قربــه من بني العباس . وأهم ما تميز به مذهبه هو التسوية ما بين الحديث النبوي وأحاديث الأئمة من بعده في التشريع بسبب عصمة الأئمة ، ورفض القياس كوسيلة فقهية . وقد تكون بهذا الشكل المذهب الإمامي أو الجعفري في الفقه الاسلامي ولكن انتشــاره ظــل مرتبطاً بالمجموعة العلوية المناهضة للعباسيين أي ظل نوعاً من المعارضـــة السياسية التي يؤيدها الاختلاف الديني .

ومن جهة أخرى فإن انتشار المذهب الحنفي لم يرض كل طموح أصحاب الحديث وأهل السنة المتشدديــن . وبالرغــم من أن تطور المجتمع العباسي وخضوعه لمؤثرات ثقافية واجتماعية شتى كان من الممكن أن ينتهيا به الى النتيجة المنطقية وهي الانطلاق مع «الرأي» والتفكير العقلي إلى النهاية إلا إن الذي حدث كان بالعكس من ذلك . فقد ارتد رجال الحديث خاصة في نوع من الدفاع الذاتي عن الدين الى التمسك المتزايد بنصوص الأحاديث والسنن والى الارتيــاب الشديــد بعلوم الأوائل ورجالها[1] ... وهكذا نشأ في الجيل التالي لأبي حنيفة ومالك مذهبان آخران في الفقه السني انطلق من حيث الأسس على خطوات مالك الحجازي لا أبي حنيفة العراقي ولو أن أحدهمـــا فقط نشأ في الحجاز مقر مالك بينما الثاني في بغداد نفسها واستطاع صاحبا المذهبين

---

(١) بلغ هذا الاتجاه اقصاه في القرن الثالث خاصة الذي وضعت فيه كتب الحديث الستة المشهورة كلها أي : وضع الصحيحان : صحيح البخاري (المتوفي سنة ٢٥٦) ومســلم القشيري (سنة ٢٦١) والســـنن الأربعة : سنن ابي داوود (سنة ٢٧٥) والترمذي (سنة ٢٧٨) وابن ماجة (سنة ٢٧٥) والنسائي (سنة ٣٠٣) . وهي التي أضحت مصادر التشريع السـني .

رغم تأخرهما الزمني أن يأخذا لهما مكاناً في زحمة الأمكنـــة وصراع الأفـكـــار :

أولهما : محمد بن ادريس الشافعي (١٥٠ ـــ ٢٠٤/٧٦٧ ـــ ٨٢٠) الذي ولد سنة وفاة أبي حنيفة في فلسطين وجـــاء الحجاز وهـــو فطيم فتفقه على مالك في المدينة وعلى غيره وتورط في علاقاته بيحيى بن عبد الله العلوي (صاحب الثورة بالديلم) فبقي طول حياته بعيداً عن الحكم العباسي ورجاله وقد ناظر الشيباني أمام هارون الرشيد سنة ١٨٤ كما ناظر غيره في مناسبات اخرى ثم انصرف إلى نشر مذهبه الفقهي في الشام ثم في مصر حين استقر ومات • وتلاميذه هم الذين حملوا مذهبه فغزوا بـــه المشرق الاسلامي ، ونافسوا هناك المذهب الحنفي منافسة جدية في أواخر القـــرن الثالث الهجري حتى أزاحـــوه عن كثير من مراكزه مستندين في إزاحته على اعتناق السلطات له وعلى التيار الفكري الذي أسسه أبو الحسن الأشعري للوقوف في وجه المعتزلة والذي يستند إلى ظاهر النصوص القرآنية ومنطوق الحديث النبوي • ومذهب الشافعي في الواقع ، يتصل بهذه النقطة لأنه عرض في كتابه (الكتاب الأم) العرض المنهجي الرائع مذهباً فقهياً يستبعد الرأي ويعتمد الاعتماد الكلي على الحديث الذي يفسره بطريقة القياس والاستنتاج المنطقي وبنمط محدود من الاجتهاد في هذا النطاق نفسه • ولعل هذا كان من الاسباب الاساسية في القضاء على الاجتهاد المتطور وفي اتجاه الفقه الاسلامي بعد ذلـــك ضمن الدائرة المغلقة التي أقامها كبار الفقهاء الذين ظهـــروا في العصر العباسي الأول أنفسهم •

الثاني : أحمد بن حنبل (١٦٤ ـــ ٢٤١/ ٧٨٠ ـــ ٨٥٥) وهو بدوره عربي الأصل وقبيلته في مرو على الولاء لبني العباس • أخـــذ عن ابي

يوسف والشافعي ورحل حتى الى اليمن والشام والجزيرة بعد بغداد • وكانت عنايته الأساسية بالحديث وجمعه وحفظه ولهذا ظل يكره أن يعرف بالفقه وظل يفضل أن يحتفظ بصفة «المحدث» • وكان ذلك أساس كتابه (المسند) فقد رتبه على أساس السند لا الأبواب الفقهية وجمع فيه أربعين ألف حديث •

ويعلن ابن حنبل أن مصادر التشريع عنده بعد الكتاب والسنة فتاوي الصحابة ثم الاستصلاح ثم القياس • ويرفض كل رأي قاطع لا يتحدر بصورة ثابتة عن النصوص المقدسة كما يرفض كل تفسير للحديث يبتعد عن معناه الحرفي • وقد يسر كل التيسير في المعاملات المالية والعقود والشروط ـ وهي ما كان يحتاجه المجتمع العباسي في مطالع القرن الثالث ـ لأن الاصل فيها الاباحة وهذا يعني أنه فيما عدا ما وردت فيه النصوص لا تشدد ولا تعصب لدى ابن حنبل وإن عرف عن تلاميذه من بعده ذلك الاتهام •

غير أن المعركة الكبرى التي تزعمها ابن حنبل إنما كانت معركته ضد الاعتزال حين أضحى هذا المذهب بأمر المأمون وعمله المذهب الرسمي العباسي ولقد اضطهد ابن حنبل اشد الاضطهاد في ذلك فعذب، وضرب وأفتى المعتزلة بقتله وانتهى في السجن ولكن المذهب السني انتهى بالانتصار •

ب ـ علم الكلام : ذلك الجهد السني والشيعي على السواء في اقامة الفقه أي القانون الوضعي الدنيوي للجماعة الاسلامية بالاستناد الى الكتاب والسنة خاصة ، لم يكن يسير في الواقع بدون قاعدة نظرية فكرية أي بدون تأمل فكري في الدين والايمان • وهذا التفكير

النظري إنما بدأ بدوره منذ العهد الأموي[1] وكأن وراء ظهوره أسباب عديدة منها ما هو ناجم عن الأحداث السياسية ومنها ما يعود الى التأمل الفلسفي الخالص في الدين ومنها ما نقله المسلمون الجدد من مسائلهم الفكرية والدينية الأولى الى الاسلام ومنها ما كان جواباً على الاسئلة والريب والمشاكل التي يلقيها غير المسلمين ـ عن فضول أو مماحكة ـ على أصحاب الدين الجديد والمؤمنين به •

وبالرغم من أن اسم «علم الكلام» قد يحوي معنى خاصاً يأتيه من أن القرآن هو بدوره كلام الله ومن أن «كلمة الله» Logos ترد في مطلع الكتاب المقدس بقوله : «في البدء كان الكلمة» • ومن أن «الكلمــة» تختلط في الفلسفة القديمة والمسيحية مع كلمة العقل وتتضمن أحيانـا معنى العقل والحياة معاً • وبالرغم من كل ذلك فإننا متى قرأنـا في رسالة الحسن البصري الى الحجاج قوله : «إن الله لم يخلقهم (العباد) لأمر ثم حال بينهم وبينه ولم يكن أحد في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه •• وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة لــه •••»[2] ومتى قرأنا عن جدل جرى أمام عمر بن عبد العزيز بين اياس بن معاوية وغيلان الدمشقي يقول فيه الأول عن الثاني : «إن غيلان صاحب كلام وأنـا صاحب اختصار[3]» استطعنـا أن نستنتج بسهولـة أن علـم الكلام

---

(١) لنذكر مثلا على ذلك معبد الجهني المتوفي سنة ٨٠ والذي كان أول من تكلم بالقدر في الاسلام . ومسائله ثم تلميذه غيلان الدمشقي الذي هم عمر بن عبد العزيز لولا أنـه تاب فلما اسرف في الدعوة لفكرته أيـام هشام بن عبد الملك انتهى مصلوبا على باب دمشـق (٢/٤٣) انظـر الشهرستانـي الملل والنحل (طبع كيلاني) ج١ ص ٣٠ .

(٢) انظر الرسالة لدى ابن المرتضي ـ طبقات المعتزلة ص ١٩ .

(٣) انظر ابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق (بدران) ج٣ ص ١٧٨

الاسلامي لم يأخذ تلك المعاني الأول كلها لدى أهله ولا سيما في مطلع ظهوره ولكنه أخذ اسمه ومحتواه من الجدل والمنطق الدفاعي ومن الاهتمام بمطابقة الايمان للعقل وتفسير العقيدة على أساس المنطق الفكري والتأويل العقلي ولم يحمل هذا العلم في مطلعه اسماً خاصاً به وكان يدخل في الفقه في الدين «ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج علم الكلام وافردتها فناً من فنون العلم وسمتها باسم الكلام»[1] واصحاب علم الكلام ينطلقون من العقيدة إلى العقل بينما ينطلق الفلاسفة الاسلاميون عامة بالعكس من العقل الى العقيدة . وغرضهم ليس تقصي الحقيقة فالحقيقة قد تم وضعها وتثبيتها بالوحي ولكن الغرض هو فهم هذا الوحي وحدوده بالعقل .

وهدف أهل الكلام إذن دفاعي تفسيري يرمي الى إيجاد الحلول فالحقيقة قد تم وضعها وتثبيتها بالوحي ولكن الغرض هو فهم هذا والحديث ليسا في الأصل ببحثين منهجيين في العقيدة وليس من طبيعتهما إعطاء الجواب الحاسم على كل الاسئلة التي يثيرها الفكر المنطقي والموقف العقلي للمؤمنين .

وإذا كنا نستطيع أن نتابع بسهولة المسار التاريخي للفقه الاسلامي ونشأة مذاهبه فإن العرض التاريخي لنشأة علم الكلام ومسائلة أشد صعوبة . بسبب ضياع المساجلات والمناقشات الأولى التي قامت في العصر الأموي وسببت نشأته وكان من أقطابها الحسن البصري (توفي سنة ١١٠ هـ) .

وقد تابع المتكلمون جهودهم الفكرية في «فلسفة» مسائل الايمان في العصر العباسي . وفي اعطاء الغطاء الفكري لكافة الاختلافات في

(١) انظر الشهرستاني ـ الملل والنحل (طبعة الكيلاني) ج١ ص ٣٠

مذهب «الجماعة» • كانوا يخدمون ــ دون أن يقصدوا ــ أهـداف السياسة العباسية الدينية • وبالرغم من أن أهل «الحديث» قد شددوا النكير على علم الكلام واعتبروه بدعـة ، واعتبروا التسليم بمعطيات الكتاب والسنة أساس الايمان إلا إن ذلك لم يمنع «الكلام» من أن ينتشر ومن أن يضع أصحابه ما يمكن أن يسمى ، مع بعض التجوز ، أسس اللاهوت الاسلامي •

وقد برز علم الكلام اكثر ما برز في البصرة التي كانت في العهـد الأموي مركز غليان فكري واسع ، سواء في علوم الدين أو في الأدب فلما ظهرت بغداد انتقلت الديناميكية الفكرية إليها مع تكاثر الترجمـة للفلسفة والمنطق وعلوم الأوائل الي العربية • وتعقدت المناقشات النظرية في الدين وكثرت مسائلها كما كثرت بالتالي الآراء والحلول • وظهر من هذا وذاك مدرستان إحداهما في البصرة والأخرى في بغداد •

غير أن هذه المغامرة الفكرية المتزايدة التعقيد والمشاكـل بدأت بدورها ، ومنذ العصر الأموي أيضاً وأيضاً ، في الاختلاف وفي التوزع بين الاراء • وذلك طبيعي • وكان قد بدأ جماعة منها في الانفراد بأفكار اعتزلوا بها باقي أهل الكلام كما فعل واصل بن عطاء مع الحسن البصري • فظهر منهم من يسمون بالمعتزلة[1] • وقد سمحت الحرية الفكرية التي ناقش فيها هؤلاء بعض مسائل العقيدة بأن يشكلوا تياراً خاصاً مشتقاً

---

(۱) كان لأحمد أمين في الطبعة الأولى من كتابه فجر الاسلام رأي في تسمية المعتزلة تراجع عنده في الطبعات التالية يقول : (انظر فجر الاسلام ط ۱۰ ص ۲۸۹) : إن بعض من اسلم من اليهود هو الذي أطلق اسـم المعتزلة على هؤلاء الذين فارقوا جماعة المسلمين قياساً على ما عرفوه في تاريخهم الديني من اعتزال فريق من اليهود عن الجماعـة وتسميتهم «بالفيروشيم» وتعني المعتزلة .

من علم الكلام يمشي بجوازه ولكنه يتميز بالإكثار من استخدام المنطق والعقل والقبول بالنتائج المنطقية الناجمة عن كل اولئك . وليس يعني ذلك القول بحرية الفكر فالحقيقة المطلقة لم تكن رائدهم وإنما إعطاء العقيدة قفزة نوعية جديدة تربط ما بينها وبين العقل كما أنهم حين أتيح لهم أن يصبحوا الفكر الرسمي للدولة العباسية أصبحوا من أشد المتعصبين اضطهاداً للأفكار الأخرى . وقد استطاع المعتزلة بجهود رجال من أفذاذ الفكر الاسلامي من أمثال : ابي الهذيل العلاف (١٣٥ ــ ٢٢٦ هـ) والنظام تلميذه (المتوفي سنة ٢٣١) . والجعد بن درهم والجهم بن صفوان وبشر بن المعتمر (سنة ٢٢٦) وثمامة بن أشرس صاحب المأمون (المتوفي سنة ٢١٣ هـ) من أن يملأوا الفراغ الفلسفي في العقيدة الاسلامية الأولى بكافة الأفكار العقلية والمنطقية اللازمة لجعل تلك العقيدة ايمانية ــ عقلية في وقت معاً ... ولكنهم ظلوا على أي حال في نطاق الفكر السني العام ، فكر أهل السنة والجماعة وإن رفض زعماء هذا الفكر نفسه قبولهم أو التسليم بالنتائج والحلول العقلية التي توصلوا إليها . كما رفضهم الفلاسفة بدورهم لاختلافهم عنهم في الهدف وإن اتفقوا معهم في الوسيلة .

ويبدو أن المعتزلة كانوا يطمحون منذ ظهروا إلى أن يجعلوا من أفكارهم الدينية أفكار العالم الاسلامي كله أو أن تكون على الأقل مذهب علماء المسلمين عامة . والمؤرخون يذكرون أنهم بدأوا ذلك منذ العهد الأموي فقد كانت لهم صلتهم بيزيد (الثالث) بن الوليد (١٢٦ ــ ١٢٧ هـ) . وكان قد ثار مع سابقة من المعتزلة وغيرهم من أهل داريا والمزة من غوطة دمشق ... وكان يذهب الى قولهم ضد الخليفة الوليد وكان مروان بن محمد معتزلي الرأي أيضاً . والمعتزلة يفضلون يزيد

في الدين ـ فيما يذكر المسعودي ـ على عمر بن عبد العزيز[1] وتكشف خطبته التي ألقاها عقب بيعته وأنه إنما خرج «داعياً لكتاب الله وسنة نبيه لما هدمت معالم الهدى وظهر الجبار العنيد (يقصد الوليد بن يزيد)» وأن برنامجه كان برنامج الامام العادل الذي يطلبه أهل الاعتزال كما أن واصلا بن عطاء أقام تنظيماً دينياً معتزليا إذ أطلق من حلقته في البصرة دعاة ذهبوا إلى أقاليم متعددة من العالم الاسلامي يدافعون عن الاسلام ضد الدهرية والمانوية وما إليها : بعث عبد الله بن حارث الى المغرب فأجابه خلق كثير . وبعث الى خراسان حفص بن سالم فدخل ترمذ وناظر جهم بن صفوان حتى قطعه ... وبعث القاسم بن السعدي إلى اليمن وبعث أيوب الى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وعثمان الطويل الى أرمينية ...»[2] .

وقد ترك لنا صفوان الانصاري الشاعر المعتزلي قصيدة هامة تذكر دعاة واصل بن عطاء وتقول في وصف هذه الموجة من الدعاة : هيئة وأسفاراً ودعوة :

له خلف شعب الصين من كل شفرة
إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم
تهكم جبار ولا كيد ماكر

---

(١) انظر المسعودي مروج الذهب ج٢ ص٢٣٤ وص٢٣٩

(٢) أنظر كتاب ابن المرتضي المهدي اليمني ـ طبقات المعتزلة (هو جزء من كتابه المنية والأمل في شرح الملل والنحل) ط. بيروت سنة ١٩٦١ ص ٣٢ .

إذا قال مروا في الشقاء تطـاوعوا
وإن كان صيفاً لم يخف شهر ناخر !
وأوتاد أرض الله في كـل بلـدة
وموضع فتياها وعلم التشـاجر !
وأمـر بمعروف • وإنكـار منكر
وتحصين دين الله من كل كافـر
تراهم كان الطير فوق رؤوسهم
على عمة معروفـة في المعـاشر !
وسيماهم معروفـة في وجوههـم
وفي المشي حجاجاً وفوق الاباعر ![1]

وبالرغم من أن واصل بن عطاء كان على صلة مع شخصيات علوية كثيرة (عبد الله المحض وابنه محمد ، زيد بن علي زين العابدين ،ومحمد الباقر ،) ورغم تلمذته السابقة لأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلا إنه لم تعرف عنه الميول السياسية •••

فأين كان المعتزلة إذن من الدعوة العباسية وأين كان العباسيون الأوائل منها ؟

يفترض المستشرق نيبرك أن المعتزلة كانوا دعاة العباسيين ولكن هذه الفرصة لا تستند الى اكثر من بعض القرائـن التي لا تقطع بأمر ولعلنا بالعكس نستطيع بقرائن أقوى منها أن نجد علائق قوية ما بين المعتزلة الأوائل والزعماء العلويين بل إنا لنجد أن بعض هؤلاء المعتزلة

---

(١) الجاحظ ـ البيـان والتبيين ج١ ص ٢٥ ـ ٢٩ وقـد نقل القصيدة احمد أمين في ضحى الاسلام (ط/٧/ج٣ ص ٩٠ ـ ٩١) .

قد ارتبطوا بالحركة الزيدية في أيام المنصور كما أن بعضهم وقف في جانب ابراهيم بن عبد الله المحض يوم ثورته في البصرة وكان يتقصى له الأخبار ويرشده الى الاعداء • ومى ذلك فمن المجازفة أن نعزو الى المعتزلة رأياً سياسياً محدداً ولعلهم بالعكس كانوا على السلبية والحياد في هذه الناحية لانصرافهم الى العلم والعبادة والفكر • ولعل رأيهم بالمنزلة بين المنزلتين ليس شيئاً آخر عند التطبيق السياسي عن القول بالحياد بين المتخاصمين بل إن توزع رأيهم في الحكم على «الأحداث الأولى في الاسلام» دليل على أنهم لا يصدرون عن رأي سياسي محدد وأن السياسة لم تكن تهمهم وانما يهمهم الدين •

وهذا الحياد التقي هو الذي جعل المنصور ــ وهو من هو في عدم التهاون بأي أمر يمس الشأن السياسي للدولة ــ يحتفظ بالصداقة المتصلة الحميمة مع عمرو بن عبيد ، زعيم المعتزلة في عهده وجعله يتقبل منه أقسى النقد دون أن يحمل ذلك على اكثر من محمل النصيحة الدينية ! لقد كان المتكلمون ، والمعتزلة على رأسهم ــ هم الجناح الديناميكي الفعال بين جماهير أهل الحديث وحملة علوم الدين •

ولقد نظر المنصور والمهدي من بعده الى أهل الكلام والاعتزال بعين الرضى لأن هؤلاء إنما كانوا يدورون في إطار منطلقات ثلاثة تخدم كلها السياسة الدينية لبني العباس وتتفق مع وجهات نظر البيت الحاكم :

أ ــ الاسلام كما يفهمه أهل السنة والجماعة عامة لأن أهل الكلام والاعتزال هم في جملتهم وأساسهم من حملة الحديث وعلوم الدين •

ب ــ عدم الاهتمام بالأمور السياسية وبالتالي اهمال مشكلة

الإمامة[1] وهي المحور في الفكر العلوي فإن بحثوها وقفوا في معظمهم موقف الرفض من بعض المبادىء الشيعية فيها كالنص على إمامة علي وحصر الإمامة في بيت محدد أو يقول بعصمة الأئمة •

حـ ـ التصدي للأفكار والريب المعادية للاسلام التي تحملها أو تثيرها الجماعات الأخرى غير المسلمة • ضد الاسلام • وكـان الخلفاء يحتفظون بصداقة هؤلاء المتكلمين ضمن إطار سياستهم في التقرب من الفقهاء ومنعاً لهم مـن ان يميلوا بالاهمال المتمـادي الـى الجانب العلوي •

وعلى هذا الاساس نرى ان المهدي ، حين تفشت الزندقة وأراد حربها «أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الالحـاد»[2] وكان «أول خليفة يأمر الجدليين من أهـل البحث مـن المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين وأقاموا البراهن على المعاندين وأوضحوا الحق للشاكين[3] وقد ذكروا عن المهدي وأيضاً احترامه كأبيه لذكرى عمرو بن عبيد • فكان إذا حضر المحدث شبيب بن شيبة عنده قال : يا ابا معن ! حدثنا ، وزين مجلسنا بحديث عمرو بن عبيد •••» ولعله لهذه الاسباب اتهم بعض المؤرخين المهدي بالقدرية (وهو اسم آخر للاعتزال)

---

(١) قال النظام من المعتزلة بالنص في الامامة ومال الي التشيع ووقع في كبار الصحابة (انظر الشهرستاني ـ الملل والنحل ص ٥٧) وقال عمرو ابن عبيد والنظام وثمامة بقبول خلافة ابي بكر . وبعضهم رأى ان الإمامة غير واجبة وبعضهم رأى أنها في قريش . وهذا يعني ان هذه المسألة لم تكن اساسية في المذهب وتخضع للرأي .

(٢) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس ص ٢٤ والمسعودي ـ مروج

(٣) ابن المرتضى الزيدي ـ طبقات المعتزلة ص ١٢٢ .

وقد نفى التهمة عنه الخطيب البغدادي[١] ••• وجـاء الرشيد فكان الأمر في عهده مختلفاً : «كان يحيى بن خالـد البرمكي يحب الحكمة والكـلام والنظر ففي أيامه كثر المتكلمون وجادلوا وناظروا وصنفوا الكتب منهم هشام بن الحكم وضرار بن عمرو ومعمر بن عمر •••»[٢]

ويروي المسعودي أنه كان ليحيى البرمكي «مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الاسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل ••» وقد اجتمع في مجلسه مرة العلاف والنظام من المعتزلة والحكم وابن الهيثم من متكلمي الشيعة وأبو مالك الحضرمي مـن متكلمي الخوارج[٣] ويذكرون بالمقابل أن موقف الرشيد من أهل الكلام لم يكن هذا الموقف نفسه • يروي الجهشياري أن كلثوم بن عمرو العتابـي «كان يقول بالاعتزال فاتصل ذلك بالرشيد وكثر عليه في أمره فأمر فيه بأمر عظيـم فهرب الى اليمن فكان مقيماً بها ••» حتى احتال يحيى بن خالد فشفع له عند الرشيد وعاد[٤] • ويقول ابن المرتضى : إن الرشيد منع من الجدال في الدين وحبس أهل علم الكلام[٥] تحت تأثير قوم لم يعرفوا الكلام والمرء عدو ماجهل •••» ونسمع في العهد نفسه عن سجن بشر ابن المعتمر صاحب المعتزلة في البصرة بأمر الرشيد • وعن قطع يد عيسى الطبري الزاهد من قبل محمد بن سليمان العباسي والي البصرة[٦] •

---

(١) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ج٢ ص ٣٠١ .
(٢) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس ص ٢٥ .
(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨٣ .
(٤) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
(٥) ابن المرتضى ـ طبقات المعتزلة ص ٥٤ وص ٥٦ .
(٦) المصدر نفسه صفحات ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦

ويبدو أننا يجب أن نفرق في سياسة الرشيد الدينية ما بين الفترة البرمكية والفترة التالية لها فقد كان في الفترة الاولى يسمع الجدل ويقبل أهل الكلام في مجلسه[1] كما يجب أن نفرق ما بين المتكلمين والمعتزلة ذوي الميول العباسية أو الحيادية وبين ذوي الأهواء العلوية • فإذا كان الرشيد ديكره عامة الاعتزال والمعتزلة فقد كان يكره منهم خاصة ويضطهد أصحاب الآراء السياسية المناهضة ويظهر أن أهل الكلام عامة وقفوا موقف الانكار من نكبة البرامكة لسابق صلتهم معهم فأمر الرشيد عندئذ بمنع الجدل في الدين لمنع الجدل في السياسة خاصة وحبس أهل علم الكلام • ويبدو من فرضه بعض الاوضاع الخاصة على أهل الذمة أن تشدده في السياسة الدينية السنية قد بلغ أوجه في ختام حياته • ويقال إنه تراخى في سياسته ضد أهل الكلام حين فشل رجل محدث أرسله الى الهند للمناظرة في الدين أمام ملكها ثم نجح في المناظرة بعض علماء الكلام[2] •

حـ ـ الاعتزال والمحنة على أن العاصفة السياسية التي أصابت الدولة العباسية زمن الأمين والمأمون وامتدت اكثر من عشر سنوات (١٩٤ ـ ٢٠٤) أتت في أعقابها بانقلاب كبير في السياسة الدينية لهذه الأسرة • على يد المأمون تمثل في ثلاث نقاط : لعن الامويين • واعتبار علي أفضل الناس بعد رسول الله واعلان الاعتزال المذهب الرسمي للدولة ••• أعلن المأمون هذا الانقلاب ٢١٢ وقد عرفت الفترة التي دامها

(١) انظر مثلا ابن المرتضي ـ طبقات المعتزلة الصفحات ٤٢ ، ٥٦ ،

(٢) يروى ابن المرتضي لذلك قصتين متقاربتين في المؤدى العام (انظر طبقات المعتزلة ص ٥٥ ـ ٥٦ وص ٥٨ ـ ٥٩ •

الانقلاب لدى أهل السنة بالمحنة لما رافقها من اضطهاد وهزة دينيـــة عنيفــة :

أ ــ أما لعن الأمويين فلقد لا يكون فيه من خروج على الموقف الرسمي للبيت العباسي منذ انتصر هذا البيت • ولكن يقظة الهجوم العباسي على بني أمية وعلى معاوية بعد هجعـــة دامت اكثر من نصف قرن دليل على أن فريقاً من الناس قد جعلوا يقارنون بين البيتين ويفضلون بني أمية • ظهر ذلك لدى العامة حتى لقـــد كانـــوا يشغبوا وأثاروا القلاقل للمأمون والمعتضد والمطيع[1] كما ظهر لدى بعض العلماء •فقد جمع أبو عمر الزاهد أحاديث في فضائل معاوية كما وجد منهم من يدافع عن حق الأمويين في الخلافة كعلي بن أحمد الاندلسي[2] • وقصة اللعن جاءت متأخرة في عهد المأمون كما مرت عابرة أيضاً إذ يذكرون أن المأمون سنة ٢١١ (أو سنة ٢١٢) بعث فنادى : برئت الذمـــة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله •••[3]

ولقد عجب الناس من مبادرة المأمون هذه حتى حاروا في سببها وتنازعوا ويذكر المسعودي من بين الأسباب أن المأمون سمع حديثاً عن معاوية أنه رفض صلة رحم بني هاشم وطلب دفن ذكرهم فبعثه ذلك على أن أمر بالنداء ••• وعلى أي حال فيبدو أن المأمون تـــردد قبل ذلك

---

(١) انظر ابن ابي الحديد . شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٤٤٢ ومـــا بعدهـــا .

(٢) انظر ياقوت . معجم الادباء ج٥ ص ٨٦ و ج٧ ص ٢٩ .

(٣) المسعودي ــ مروج الذهب ج ٤ ص ٤٠ . السيوطي ــ تاريــخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

كثيراً في الأمر ذكر ابن أبي طاهر «أن المأمون كان هم بلعن معاويةوأن يكتب بذلك كتاباً يقرأ يوم الدار وجفل الناس فثناه عن ذلك يحيى بن اكثم وقال : يا أمير المؤمنين إن العامة لا تحتمل هذا وسيما أهل خراسان ولا تأمن أن تكون لهم نفرة . وإن كانت لم تدر ما عاقبتها . والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة ...» ثم ذكر المأمون اقتناعه بهذا لثمامة بن أشرس ، صديقه المعتزلي . فهون عليه أمر العامة وأنه لو وجه إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليه عشرين ألفاً منهم[1] .

ويبدو أن المأمون أقدم على النداء في النتيجة «وأنشئت الكتب إلى الآفاق بلعن معاوية على المنابر ... فأعظم الناس ذلك وأكبروه ...»[2] .

ب ـ وأما تفضيل الإمام علي بن ابي طالب فقضية تتناقض مع وجود البيت العباسي نفسه . ولعلها قضية فكرية سياسية معاً دخلت على المأمون عن طريق ميوله الكلامية وتأثير صديقه المعتزلي ثمامة بن أشرس من جهة كما كانت نتيجة موقف البيت العباسي المناوىء له من جهة أخرى . فالمأمون انعزل ما بين سنة ١٨٦ وسنة ٢٠٤ في خراسان وقد وقف البيت العباسي في بغداد ضده أولا مع الأمين سنة ١٩٥ ثم وقف ضده ثانية مع ابراهيم المهدي وجعله الخليفة سنة ٢٠٢ ثم وقف

(١) ابن أبي طاهر ـ تاريخ بغداد (بغداد في تاريخ الخلافة العباسية) ـ طبع بغداد سنة ١٩٦٨) ص ٥٠

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ج٤ ص٤١

ثالثة مع ابن عائشة سنة ٢١٠ بينما كان المأمون نفسه يتجه فكرياً وجهة أخرى إذ كان في أول خلافته «... يذهب مذاهب ملوك الفرس ويشتهي قراءة الكتب القديمة»[١] . ويبدو أنه كان يناقش في خراسان الموقف العلوي ويتأثر برأي ثمامة بن اشرس المعتزلي وكان أول نتائج تلك المناقشات والتأثير أنه استدعى إليه من مكة الامام علياً الرضى وجعله ولياً للعهد سنة ٢٠١ .

غير أن المأمون لم يستطع فيما يظهر أن يحتمل النتائج السياسية التي نجمت عن ذلك القرار فتحرك الى بغداد وتخلص على الطريق من الامام الرضى . كما طرح بعد أشهر من وصوله شعار الخضرة العلوي وعاد الى السواد العباسي ولكنه مع ذلك ، ورغم استقراره في الخلافة. لم يقبل القبول الحسن في بغداد . وقد قيل الكثير من الشعر في هجاء المأمون كقول ابن أبي نعيم :

ما أحسب الجور ينقضي      وعلى الأمة وال من آل عباس !

ويذكرون أنه كان يجد الرقاع بشتمه وتهديده في الطريق للدرجة التي أمر بسنع رفعها إليه كما كان يلعن أحياناً في مجالس الفقهاء حتى اضطر لمعاتبة بشر المريسي في ذلك[٢] أو يشتم ويسمع الشتم فيتجاهله من الخدم والعامة[٣] . ولعل السبب يعود الى احتفاظه بميله العلوي

(١) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٧ ـ ٢٨ ،
(٢) ابن أبي طاهر ـ تاريخ بغداد ص ٣٧ وص٥٣ .
(٣) انظر السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٢٠ وانظر المسعودي ج٤ ص ٢٢ .

والجهر به في بغداد . ذكروا أن السندي بن شاهك ( صاحب شرطة الرشيد في السابق) خرج من عنده مرة يصيح في الحاشية :

ـ خبر عجيب ! قالوا ما هو . قال سمعته اليوم قدم علي بن أبي طالب على العباس وما ظننت أني أعيش حتى أسمع عباسياً يقول هذا ؟ فقال الفضل بن الربيع تعجب من هذا ؟ هذا والله كان قول ابيه قبلـه ![1] .

وذكروا خبراً آخر أنه بعد أن دخل بغداد أمر قاضيه يحيى بن اكثم أن يجمع لـه وجوه الفقهاء وأهل العلم في بغـداد فاختار منهم أربعين رجلا وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفـاض في فنون الحديث والعلم فلما انقضى المجلس قال المأمون ليحيى كره ذلك المجلس طوائف من الناس : فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب ... وظنوا أنـه لا يجوز تفضيـل علي إلا بانتقـاص غيره من السلف . والله مـا استحل ... أن انتقص الحجـاج فكيف السلف الطيب ...»[2] وذكروا كذلك أن آل البيت العباسي عاتبـوه في بره الشديد لآل علي وأنه ولاهم واعطاهم فقال . لم يول أبو بكر ولا عمر ولا عثمان أحداً من بني هاشم فلما جاء علي ما ترك أحـدا حتى ولاه شيئاً فكانت هذه منة في اعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت ...[3] ونجد المأمون بالمقابل يأتي بالقاضي بشر بن الوليد الكندي قاضي بغداد أمام الفقهاء ، فيناقشه في حكم أصدره ضد رجل اتهم بشتم أبي بكر وعمر فحكم بضربه وإطافته على جمل وقال المأمون : لقد أخطأت بهذا

(١) ابن طيفور ـ تاريخ بغداد ص ٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٠ .
(٣) السـيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

خمس عشرة خطيئة وبعد أن عددها له أمر بــه فحبس بـداره حتى مات ...[1] .

ويحفظ لنا ابن عبد ربه محضر جلسة جادل فيها المأمون أربعين فقيهاً في فضل علي ويستغرق حديث المأمون فيها سبع صفحات[2] تشبه أن تكون من وضع بعض المتكلمين المتمرسين . وكل هذا يعني أن المشكلة كانت قائمة في نفس المأمون وقد انتهى سنة ٢١٢ بإعلانها على الناس مع لعن معاوية ، يقول السيوطي إنه أمر أن ينادي برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير وأن أفضل الخلق بعد النبي عليه السلام علي بن أبي طالب على أنه من الهام أن نسجل هنا أن هذا التفضيل العلوي بقي لدى المأمون في الحدود النظرية دون أن يتحول الى التطبيق السياسي بل كان المأمون يرفض نتائجه السياسية : ومن أدلة ذلك أنه لم يتهاون مع العلويين في الأمر السياسي أبداً . وقد بلغه عن عبد الله بن طاهر أنه «يميل الى ولد أبي طالب وكــذا كان أبوه وجده ... فدفع المأمون ذلك وأنكره..» فلما أكدوه لــه «دس رجلا الى ابن طاهر في هيئة النساك يظهر أنه يدعو للقاسم بن ابراهيم بن طباطبا العلوي ، ويتقرب الى بطانــة ابن طاهر ليعرف حقيقته ... فلما تبين له أنه على الولاء العباسي «عاد إلى المأمون فأخبره الخبر فاستبشر وقال : ذاك غرس يدي ...»[3] وعلى أي حال فإن المأمون مات وشيكاً بعد ذلك ولم يعهد بالخلافة لعلوي ولكن عهد بها الى أخيه المعتصم .

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٨ — ٤٦٩ .

(٢) ابن طيفور تاريخ بغداد ص ٧٩ — ٨٠ .

(٣) ابن عبد ربــه — العقد الفريد ج٥ ص ١٩٥ — ١٠٢ .

حـ ـ وأما القول بخلق القرآن فكانت هي المحنة الحقيقية . وقد نضجت فكرتها لدى المأمون بالتدريج أيضاً ولعلها ظلت رأيه الخاص عشر سنوات أو أكثر قبل أن يعلنه للناس ثم انتظر بعد ذلك ست سنوات أخرى قبل أن يفرضه فرضاً على الدولة كمذهب رسمي .

يقول اليعقوبي : إن المأمون كان يشتهي كملوك الفرس قراءة الكتب القديمة فلما قدم العراق اطرح ذلك وأظهر القول بالعدل والتوحيد وجالس المتكلمين والفقهاء والأدباء وأقدمهم من البلدان وأجري لهم الأرزاق فكثر المتكلمون في أيامه ووضع كل امرىء كتاباً ينصر قوله ويرد على من خالفه ...»[1] .

والواقع أن المأمون استطاع أن يشغل الناس في بغداد بالجدل الديني عن السياسة فتحولت العاصمة الى مركز غليان فكري زاد من نشاطه كثرة ما ترجم في تلك الفترة نفسها وبأمر الخليفة وبدعمه وماله من كتب الفلسفة وعلوم الأوائل على أيدي التراجمة من السريان كما سهل سبيل الوصول إلى الكتب وهي غالية الاقتناء بما وسع وأغنى به بيت الحكمة من الكتب الموضوعة والمترجمة للمطالعة والنظر ...[2] .

وأضاف المأمون الى ذلك كله أنه نظم مجالس اسبوعية يجلس فيها يوم الثلاثاء للفقهاء[3] ويطرح عليهم المسائل ويشترك في مناقشتها،

---

(١) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس ص ٢٨ .
(٢) من المعروف أن مؤسس بيت الحكمة أو خزانة الحكمة هو الرشيد في الغالب كما يظهر من نصوص ابن النديم والقفطي .
(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ١٩ ، السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣٢٧ .

أو يغري بعضهم ببعض ويجمع الأضداد في الفكر ليسمع الجدل ... فتارة بين إمامي وزيدي ، وتارة بين معتزلي وآخر وقد اختاروا له منذ دخل بغداد مائة فقيه لمجلسه[1] .

كان هذا يجري في الوقت الذي كانت فيه بعض الطوائف الأخرى غير الاسلامية ناشطة كل النشاط للوقوف فكرياً في وجه الاسلام وفي وجه تحول أتباعها الطوعي إليه لا عن طريق تجهيزهم بكافة المبادىء والاسلحة لمقاومته فقط ولكن عن طريق الهجوم أيضاً . كانت المانوية خاصة والنسطورية واليعقوبية تصارع بقوة لتحتفظ بأتباعها عن طريق الهجوم على الدعوة الاسلامية وكان دعاتها يبشرون التبشير النشيط بأفكارها مما جعل الموقف الاسلامي مضطراً بالضرورة لاستخدام «العقل» و «المنطق» والحجج الفلسفية في المعركة . وقد نستطيع لحد كبير أن نقول إنه لولا «الزندقة» وحركتها المعقدة الهجومية النشيطة لما كان الاعتزال أو على الأقل لما أخذ شكله العقلي المتطرف ولما حاول أن يصبح مذهب الدولة المفروض . لقد كان هو «جواب» الاسلام على حركات الزندقة أي على محاولات التشكيك والزيغ التي تعرض لها .

ويبدو أن المأمون كان خلال ذلك كله يفتش عن الموقف السياسي الديني العقلي الذي يحسم الأمر خاصة مع العقائد الأخرى ليفرضه مذهباً رسمياً على الناس . كما أنه من الناحية السياسية لم يكن

---

(1) انظر ابن طيفور ـ تاريخ بغداد الصفحات ١٥ ـ ١٦ ، ص ٣٠ ، ص ٣٥ ، ص ٤٠ وص ٤٢ .

بالراضي عن البيت العباسي الذي كان أهل السنة والحديث والجماعة قد التفوا حوله ولا يريد تسليم الأمور للبيت العلوي الذي التف الشيعة بمذاهبهم الفكرية إليه • فاختط الطريق الفكري السياسي بين الطرفين • ويذكر المسعودي[1] ، في هذا الصدد خبراً هاماً إذ يروي أن المأمون كان في مجلسه للمناظرة يوم الثلاثاء إذ استأذن في الدخول عليه رجل في ثياب بيض غلاظ مشمرة ليناظره • ودخل الرجل ونعله في يده وقال للمأمون : أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه • جلسته بإجماع الأمة أم بالمغالبة والقهر ؟ قال المأمون : لا بهذا ولا بهذا بل كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي أحمده المسلمون إما على رضى وإما على كره فعقد لي ولأخي معي ••• فلما صار الأمر إلي علمت أني احتاج الى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها على الرضى • ثم نظرت فرأيت أني متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الاسلام وانتقصت اطرافه وغلب الهرج والفتنة ••• فتعطلت احكام الله وانقطع الحج والجهاد ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم وانقطعت السبل ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ••• الى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضى به فأسلم الأمر إليه واكون كرجل من المسلمين[2] ••• فقال الرجل منصرفاً السلام عليكم ورحمة الله ! •••

وقد انتهى جدل المأمون كله ، من الناحية العملية الى أن يعلن سنة

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ١٩ ـ ٢١ ، وقد نقله السيوطي مختصرا في تاريخ الخلفاء ص ٣٢٧ .

(٢) يلاحظ أن النص يوضح واجبات الخليفة في نظر العصر وهي ست : إنفاذ احكام الله . الحج . الجهاد . سياسة الجماعة . امن السبل ودفع المظالم .

٢١٢ القول بخلق القرآن وأن يأخذ الناس بذلك بمعنى أن يصبح الاعتزال المذهب الرسمي للدولة •

وليست مشكلة خلق القرآن جديدة من ابتكار عهد المأمون فقد قال بها منذ أواخر العهد الأموي بدمشق الجعد بن درهم معلم مروان ابن محمد ثم طلب فهرب وقتله عليها في الكوفة خالد بن عبد الله القسري• وقال بها جهم بن صفوان الترمذي فقتله سالم بن أحوز في مرو سنة ١٢٨ وقال بها بشر المريسي أيام الرشيد وظل يدعو إليها أربعين سنة ويؤلف الكتب فلا يأبه أحد للأمر وقد تهدده الرشيد عليها بالقتل فتوارى مدة خلافته كما قال بها كذلك المرداد أبو موسى كبير المعتزلة في بغداد في عهد الرشيد وأثارها من بعده بشكل عنيف لفت إليها الأنظار حتى أضحت من أهم المسائل في مدرسة بغداد الاعتزالية وليست مشكلة خلق القرآن من جهة أخرى ايمانية ولا سياسية ولكنها بنت المنطق البحت ، وبنت المنطق الصوري ايضا • فإذا كان لا قديم إلا الله وكل ما عداه محدث وإذا كان القرآن محدثاً (لأنه لو كان قديماً لشارك الله تعالى في قدمه وهذا مرفوض) وإذا كان كل محدث مخلوقاً فالقرآن إذن مخلوق • ولكن هذه المسألة تحولت ، بأمر الخليفة المأمون وأخيه من بعده (والمعتصم) وابن أخيه (الواثق) لتصبح رمز الايمان بسبب ارتباطها بالتوحيد وعدم تعدد صفات الله • وتحولت الى موقف سياسي ــ ديني مزق الجماعة التي تطيف بالخلافة العباسة مدة تزيد على ١٦ سنة هي التي عرفت بالمحنة •

على أن هذه المحنة لم تبدأ بالاعلان المثلث الأطراف الذي تم سنة ٢١٢ بلعن معاوية وتفضيل علي على الصحابة كافة والقول بالاعتزال وخلق القرآن فقد نجمت عن ذلك الاعلان هزة دينية عنيفة صدمت

أهل السنة والجماعة والحديث والعامة ، في الوقت الذي كان أثر فقهاء السنة والشيعة الكبار قد بلغ الأوج وتأيد بظهور المذاهب الفقهية الكبرى تباعاً وكان بعض أصحابها المشهورين ما يزالون أحياء واسعي النفوذ مثل أحمد بن حنبل ... وقد سجل المسعودي والسيوطي تلك الهزة بقولهما : «.. فأعظم الناس ذلك وأكبروه .واضطربت العامة..» «... فاشمأزت النفوس منه وكاد البلد يفتتن»[1] وقد شعر المأمون بذلك فيما يظهر «وأشير عليه بترك ذلك فأعرض عما كان هم به» أو «لم يلتئم له من ذلك ما أراد فكف عنه ... الى سنة ثمان عشرة» ولعل أشد ما أثار الفقهاء والمحدثين أن المأمون قد انتصر للمذهب العقلي على المذهب النقلي الذي كان التقى وكان مرور الزمن قد فعلا فعلهما في استقراره بالنفوس ويبدو أن عدداً من الظروف شغل المأمون عن متابعة الأمر بالتنفيذ الفعلي ولكن إثارته شحذت ذلك العداء الذي كان يزداد باستمرار بين أصحاب المنحى النقلي من المحدثين وبين أصحاب المنحى العقلي من المتكلمين والمعتزلة خاصة ولم يلغ المأمون الامر وإن كان لم يتابع الالحاح بتنفيذه . وبداله سنة ٢١٥ أن يقوم بواجبات الإمامة في الجهاد فخرج منها في الجيش فلم يعدلها بعد ذلك لأنه شغل بحروب الروم وإخماد ثورة مصر وتدبير أمر الشام عن العودة . ثم نجده فجأة وهو في دمشق سنة ٢١٨ . يعود فيعلن أخذ الناس جميعاً بخلق القرآن ... وكان بينه وبين الموت يومذاك أشهر معدودة أربعة .

ويبدو أن فرض الاعتزال كمذهب رسمي عباسي على الناس كان

---

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج ٤ ص ٤٠ والسيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

يعتمل في صدر المأمون منذ زمن طويل وكان في حاشيته تياران :

أحدهما يمثله يحيى بن اكثم قاضي القضاة ويزيد بن هارون الواسطي لا يقول بفرض رأي على الناس وقد روي عن المأمون قوله : لولا مكان يزيد لأظهرت القول بخلق القرآن ...

والآخر يمثله ثمامة بن الأشرس واحمد بن أبي دؤاد وكان من المتشددين في رأيهما الاعتزالي لا يريان الايمان إلا من خلاله ولا يأبهان للعامة ومعارضتهم لأنهم أقل من أن يفهموا الدواعي الدينية والسياسية الداعية لإدخال العقل الجدلي على الايمان ..

وقد توفي يزيد بن هارون سنة ٢٠٦ ثم توفي ابن اكثم سنة ٢١٧ وتولى قضاء القضاة مكانه ابن أبي دؤاد فحمل المأمون على امتحان الناس بهذه المسألة رمزاً للايمان بالدين وللولاء للدولة .

وبالرغم من أن المأمون توفي بعد أربعة أشهر من اعلان الاعتزال إلا إن بقاء ابن أبي دؤاد في منصبه ست عشرة سنة بعد المأمون مدة أيام المعتصم والواثق ، جعل المحنة تدوم تلك المدة جميعاً معه ...

بدأت المحنة بأن أرسل المأمون وهو في دمشق الى والي بغداد اسحق بن ابراهيم بكتاب طويل حفظ الطبري وابن طيفور نصه وفيه أن على خليفة المسلمين حفظ الدين وأن الجمهور الأعظم من الرعية جاهل قاصر العقل ولهذا يخطيء في فهم التوحيد . ولا يفرق بين الله وبين ما خلق ثم جاء بالآيات القرآنية التي يفهم منها خلق القرآن : «إنا جعلناه قرآناً عربياً .» «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» .. ثم بين أن أناساً جادلوا بالباطل رفضوا ذلك ونسبوا أنفسهم الى السنة

وأنهم أهل الحق والدين والجماعة . فاستطالوا بذلك على الناس ومال قوم من أهل السمت إلى سيء آرائهم واولئك رؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد ... وانتهى بأن طلب الى الوالي أن يجمع من لديه من القضاة ويقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ويمتحنهم فيما يقولون. فمن لم يقل بخلق القرآن تلغى شهادته . وكتب المأمون بمثل هذا الكتاب الى مصر والكوفة .

ثم تلاحقت كتب المأمون : اختار أولا سبعة من كبار المحدثين في بغداد منهم ابن سعد (صاحب الطبقات الكبرى) فطلب إشخاصهم الى دمشق ولعله قدر أنهم قد يكونون رأس الفتنة وامتحنهم بنفسه فأقروا أمامه بما يرى . ثم عاد المأمون فألحق بذلك كتاباً ثالثا للتوسع في فرض الامتحان على جماهير المحدثين والقضاة والفقهاء ... وهنا بدأت المعارضة تظهر من الكثيرين الذين رفضوا أن يقولوا بقول المعتزلة. فأتى كتاب المأمون الرابع تفضح أحوالهم وما يرتكب بعضهم من المخازي ومنها الربا والإثراء الحرام والسرقة ويأمر بعرضهم على القتل فمن أبى حمل الى الخليفة فلحق به الى طرسوس ، فحمل إليه اثنان .. ولكن الموت أدرك المأمون قبل أن يصلا . ثم أدرك الموت أحد الاثنين وهو عائد الى بغداد فتركزت رئاسة المعارضة في الثاني وهو أحمد ابن حنبل ...

قصة المحنة بعد ذلك هي قصة اضطهاد ابن حنبل وأمثاله من قبل المعتصم ثم الواثق تحت تأثير القاضي ابن أبي دؤاد . فقد أوصى المأمون أخاه حين عهد إليه بالخلافة من بعده أن «يأخذ بسيرته في القرآن» وأن يطيع رأى القاضي ولم يكن المعتصم بذي علم . حتى إنه

«كان يكتب كتابة ضعيفة» كما قال الصولي فحمل أمر أخيه على العمياء.
«وأمر أن يعلموا حتى الصبيان ذلك» ...

وحبس ابن حنبل منذ وفاة المأمون ثم عقد له مجلس للمناظرة مع ابن أبي دؤاد سنة ٢٢٠ وقد دام المجلس ثلاثة أيام وهو مصر على الرفض فأمر المعتصم بضربه بالسياط حتى تعددت جراحاته وأعيد الى السجن . وكان ما جرى عليه نموذجاً لما جرى على أمثاله ... وإذا لم يقتل لزهده وضجيج الناس من أجله فقد قتل كثير من العلماء غيره . «وأباد والي مصر فقهاءها وعلماءها الى أن أجاب غالبهم بخلق القرآن»[1] وبعضهم هرب أو سجن .

ولم يستطع الواثق الذي ولي الخلافة سنة ٢٢٧ أن يغير من رأي ابن حنبل وقد واجه معارضاً آخر أشد خطراً وإن لم يكن أكثر علماً وحرمة من ابن حنبل هو :

أحمد بن نصر الخزاعي : حفيد أحد نقباء بني العباس . وكان للرجل رصيد واسع لدى العامة والناس منذ عمل في حركة الأمر بالمعروف في بغداد سنة ٢٠١ ـ ٢٠٤ كما كان له من دينه العميق ودالته ودالة أبيه وجده على الدولة ما سمح له بالجرأة على الواثق في قضية خلق القرآن جرأة بلغت حد التشبيه بالخنزير أو الكافر . وقد التف حوله بسبب جرأته أهل الحديث خاصة وأعداد كبيرة من المتدينين حتى أضحت حلقاته مركزاً من مراكز المقاومة الدينية الواضحة في بغداد . وسرعان

(١) ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢١٨ .

ما تحول هذا المركز الى المقاومة السياسية لأن الرجل كان يقول بالثورة على السلطان الجائر منذ أيامه الأولى • وقد تحرك في بغداد ضد المأمون ثم استتر سنوات طويلة زمن المعتصم فلما عاود الرفض للعقيدة الرسمية واعتبرها كفراً طالبه أصحابه بالعمل ضدها سلاحاً لا قولا • ولم يجد بدأ من الاجابة لا سيما بعد أن قصد القاضي أبا دؤاد في بعض الأمر فرده فانصرف ذاماً لـه وجعل يبسط عليه لسانه ويشهـد عليه (كالواثق) بالكفر »[1] •

وأخذت حركة ابن نصر شكل المؤامـرة على سلامـة الدولة • والثورة لخلع الواثق نفسه : هيئت لهـا البنـود والأعلام • ونظمت عناصر الثورة وحددت لها مراكز التجمع عند ضرب الطبل ساعة الصفر وجمعت لها مخازن الأسلحة • تولى ذلك أثنان من اتباع ابن نصر • ولكن اختلاف موعد البدء بالثورة كشف بعض الثائرين الذين انحازوا إلى ناحية صحراوية في خارج بغداد فأخذوا وأقروا على الحركة كلها ( شعبان سنة ٢٣١ ) وقبض على أحمد بن نصر فقيد مع الزعماء الآخرين وسيق الى سامراء مع أعلامه التي كانت خضراء فيهـا حمرة • وجلس الواثق للرجل مجلساً عاماً يحاكمه فيـه ابن أبي دؤاد • «ولم يناظره الواثق ــ كما يقول الطبري ــ في الشغب ولا فيما رفع إليه من ارادته الخروج عليه» ولكن سأله في خلق القرآن فأبى الإقرار به «وحضر قوم فشهدوا عليه بشهادات» ويقال إنـه أغلظ القول للواثـق أو اجترأ في الجواب له فشتمه الواثق ثم قام بنفسه فقتله • ونصب رأسه في بغداد وفي أذنه رقعة كتب فيها «هذا رأس الكافر المشرك الضـال أحمد بن نصر ••• أقر بالتشبية وتكلم بالكفر فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٢ •

ولعنه ...»[1] وأما أصحابه الكبار فأثقلت لهم القيــود «في حبوس الظلمة ومنعوا من أخذ الصدقات التي يعطاها أهل السجون ومنعوا من الزوار وهم نيف وعشرون رجلا» .

كانت هذه الحركة ، في الواقع ، قمة المقاومة العامة لمذهب خلق القرآن وقد تركت أثرها السيء العميق جداً في نفوس الناس لدرجة أن المتوكل فيما بعد حين هم بانزال رأسه شعر أن حركة عامية واسعة ستقوم للاحتفال به وبدفنه فأمر رغم سياسته السنية المخالفــة لخلق القرآن بإبقائه في مكانه[2] حتى أنزل سنة ٢٣٧ ... ومع ذلك فقدأخذ العامة يتمسحون بجنازته . وبالرغم من ذلك فإن الواثــق استمر في سياسته المعتزلية وبالغ بها حتى لقد أخذ بها العامة وأخذ بها الأسرى فمن أقربها فودى به ومن لم يقر بخلق القرآن ترك في الأسر ...

ولم تنته المحنة إلا بعد سنتين من خلافة المتوكل الذي لم يكن يحمل حماسة سابقيه ولا يؤمن بالاعتزال كله . فلما كانت سنة ٢٣٤ «نهى فيها عن القول بخلق القرآن وكتب بذلك إلى الآفــاق» وتنفس أهل السنة والحديث الصعداء بعد طول كبت وشدة . وبالرغم من ظلمه وعسفه فإن بعض الناس جعل الخلفاء ثلاثة : أبــا بكر وعمر بن عبد العزيز والمتوكل في إحياء السنة ... وما من شك في أن رفض الناس للاعتزال كان السبب الاساسي في عودة المتوكل والخلفاء من بعده عنه.

---

(١) انظر لدى الطبري ج٩ ص ١٣٥ ــ ١٣٩ تفاصيل ذلك (٣/١٣٤٣ ــ ١٣٥٠) وانظر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣٤١ واليعقوبي ج٢ ص٤٨٢
(٢) انظر تفصيل ذلــك لدى الطبــري ٩ ص ١٩٠ (٣/١٤١٢ ــ ١٤١٣) .

لقد اضطروا كي لا ينفصلوا عن الناس أن ينفصلوا عن المذهب . ويعودوا إلى السنة التي سبق لأسلافهم دعمها في الجماعة وإذا كانت محنة «الاعتزال» محاولة من العباسيين لزيادة تحكمهم في الدولة والقفز بالجماعة السنية الاسلامية خطوة أخرى نحو «عقلنة» الاسلام السني دينياً من جهة ونحو «دولنة» الأسلام السني سياسياً من جهــة أخرى وجعله من أعمال الدولة وفي إطار آرائها وتوجيهها فقد فشلت الخطوة في الناحيتين وخرج المذهب السني من المحنة أشد قوة وتغلغلا في الناس من ذي قبل وثبت أكثر فأكثر كمذهب رسمي عباسي ولكن بعد أن ترك الجدل المنطقي العقلي الكثير من آثاره فيه ولعــل أهم تلك الآثار أن الناس ازدادوا تعصباً للتقليد وتمسكاً بالحديث واعتماداً في الفقه عليه. كما أثبتت المحنة أن المذهب السني أضحى من عمق الجــذور والقوة بحيث لم يعد للمذاهب الأخرى وخاصة العلوية مجال النشاط ضده في المشرق فلجأت بعد ذلك إما الى السر والحركات السرية والباطنية وإما الى المغرب الاسلامي هرباً .

وأثبتت كتلة الفقهاء والمحدثين أخيراً أنها وإن كانت ربيبة الحكم العباسي وتدين لــه بالدعم والقوة إلا أنها سرعان ما أضحت هي القوة المؤثرة في الجماعات الاسلامية دون الخلفــاء الذين عزلهم «الاعتزال» وأبعدتهم أيام المحنة عن الناس فمشى النظام الديني الاسلامي بعد ذلك مستقلا لا يمثل الخليفة فيه أكثر من الرمز الديني دون أي سلطة فيه ولو نجحت عملية الاعتزال لتحولت الخلافة الى نظام يلعب في العقيدة الدينية ما يشبه الدور الذي لعبه اباطرة بيزنطــة في قيــادة العقيدة المسـيحيــة .

# الفصل الثاني

# السياسة مع الذمة

موقف العباسيين الأوائل من أهل الذمة يكاد يكون في جانب من من جوانبه الجزء المتمم لسياستهم الدينية ولكنه من ناحية اخرى صورة لعلاقتهم إدارة وسياسة وعملا مع جزء كبير من سكان الدولة الاسلامية يكاد يكون نصف السكان ٠ ومن هذا وذاك تأتي ضرورة بحث هذا الموقف في إطاره التاريخي كجزء من تاريخ بني العباس ٠

**الموقف من اهل الذمة ( النصارى واليهود والمجوس )(١)**

كان من تمام العمل الديني للخلفاء العباسيين الاوائل ان يقفوا الموقف الاسلامي اللازم من أصحاب الديانات والعقائد الأخرى المقبولة

(١) كتبت الابحاث الكثيرة في كتب التراث في تحديد علاقات النظام الاسلامي بالرعايا غير المسلمين ونجد تلك المباحث في كتب الخراج كما نجدها في كتب الفتوح وفي كتب الفقه والسير . وقد كتب ابو بكر الخلال كتاباً في «أحكام أهل الملل» ضاع اثره وكتب ابن قيّم الجوزية كتاباً في (أحكام اهل الذمة) طبع سنة ١٩٦١ في مجلدين (بتحقيق صبحي الصالح) ولكنها جميعاً مباحث فقهية نظرية وقد نجد لدى ابن القيم شيئاً من التطبيق التاريخي في بعض الفصول مثل فصله في المنع من استعمال اليهود والنصارى في شيء من ولايات المسلمين (ص٢٠٨ ــ ٢٣٦ من الجزء الاول) وقد كتب المستشرق ا. س. تريتون بالانكليزية كتاباً بعنوان أهل الذمة في الاسلام ترجمه حسن حبشي الى العربية وطبع في القاهرة سنة ١٩٤٧ ثم طبع ثانية سنة ١٩٦٧ ويبحث أحوال الذمة في مختلف العهود الاسلامية بشكل عام .

أو غير المقبولة من الاسلام • ذلكم هو الوجه الآخر السلبي للسياسة الدينية • وإذا كان تمييز أهل الذمة ، في بعض الأحيان والأزمات ، وكان رفض الزندقة ومحاربة المانوية نوعاً آخر من إثبات القيام بالواجبات الدينية للإمامة في نظر بني العباس فقد كان في الوقت نفسه صورة أخرى من صور الصراع في العصر العباسي الأول • وهو في هذه المرة ، مابين الاسلام والعرب من جهة وما بين باقي العقائد والأقوام من جهة اخرى •

أ ـ أهل الذمة : اصطلاح أهل الذمة لم يكن مقصور المعنى على الكتابيين من النصارى واليهود فقط ولكنه كان يشمل أيضاً بإجماع الفقهاء وفي نظر النظام الاسلامي اتباع المجوسية الزارادشتية دون تفريق بينها وبين فروعها ( من مزدكية ومانوية ) • وقد دخل هؤلاء في حكم الذمة منذ عهد عمر بن الخطاب لما روى عن الرسول من قوله : « سنوا فيهم سنة أهل الكتاب »[1] ومن أخذه الجزية من مجوس البحرين • وقد قبل المأمون في الذمة أيضاً فرقة الصابئة الحرانية عبدة النجوم ولكن كلمة الذمي كانت إنما في ذلك للنصراني واليهودي بصورة خاصة •

وأهمية الموقف السياسي العباسي من الذمة تأخذ أبعادها من الأعداد الواسعة جدا من أبناء هذه الملل المختلفة التي كانت تعيش في ظل النظام الاسلامي مع المسلمين ولعلنا لانعدو الوقع إن قلنا إنهم كانوا يشكلون في العصر العباسي الأول عامة اكثر من نصف السكان في الدولة ويشكلون اكثرية واضحة في ايران والجزيرة وفي مصر وإذا كان الجناح الغربي من الدولة يدين سكانه الأصليون بالنصرانية وكان الجناح الشرقي على

(١) انظر ابن قيم الجوزية ـ احكام أهل الذمة ج١ ص ١ـ٦ •

الزارادشتية . فقد كانت المذاهب هنا وهناك تتقسم الناس . فلأقباط[1] مصر مذهبهم اليعقوبي الخاص كما كان المذهب الملكاني موجوداً لديهم ولكنه كان هو الغالب في الشام ويليه الماروني بينما كانت المزدكية مسيطرة في شمال غرب ايران والمانوية تختلط مع الزارداشتية في خراسان وما وراء النهر . وكان اليهود موزعين في مختلف المدن الاسلامية من المشرق في خراسان الى اقصى المغرب .

اما العراق ، الذي اختاره العباسيون مقراً لهم والذي كان جغرافيا في وسط الدولة فقد كان في الوقت نفسه نقطة التقاء ونماذج هذه المذاهب كلها . وكان يتميز باحتوائه ما بين السواد حتى مناطق الجزيرة العليا على خليط ديني معقد تتعايش فيه مع الاسلام والنصرانية واليهودية رواسب العقائد الوثنية كالصابئة بنوعيها البطائحي ( القريب من النصرانية ) والحراني ( المتصل بالنجوم ) وتزاحم فيه المانوية الديانة الزارداشتية المجوسية كما تظهر على أرضه تلك الطوائف الخليطة بين النصرانية والمجوسية كالديصانية والمرقيونية ويستقر فيه تلك الجماعات النصرانية الشرقية المنشقة من نساطرة ويعاقبه[2] سريان وهي مذاهب لا هي بالراضية عن كنيستي بيزنطة أو روما ولا تلك الكنائس بالراضية عنها .

---

(١) اقباط مصر هم بدورهم يعاقبة وقد أخذوا اسمهم من اسم مؤسس المذهب يعقوب البرادعي (السروجي) وأصل الكلمة ياقوبيط باللاتينية اي يعقوبي وهم يقولون بالطبيعة الواحدة الإلهية للسيد المسيح (مونوفيستية) . اما المذهب الملكاني فهو المذهب البزنطي الرسمي الذي يقول منذ عهد هرقل بالمشيئة الواحدة . ويسمى ايضا بالمذهب الخلقيدوني (نسبة الى خلقيدونيا مكان اجتماع المجمع الذي قرر ذلك) وهم اليوم طائفة الروم الارثوذكس .

(٢) الكنيسة النسطورية تدعى خطأ بهذا الاسم وانما هي الكنيسة السريانية الشرقية او كنيسة الشرق ويعود وجودها الى ما قبل الراهب

وبالرغم من ان الموقف الفقهي الاسلامي هو الاساس في الموقف العباسي والموقف الاموي قبله من الذمة فلا شأن لنا ببحثه هنا من الناحية النظرية وبيان أحكام الدين في رعاية أهل الكتاب وجباية الجزية منهم ومنحهم حرية العبادة وحسن المعاملة وحفظهم في معابدهم وأموالهم ورهبانهم لقد حدد ابو يوسف في كتاب الخراج هذا الموقف الفقهي للعباسيين اذ قال للرشيد : « ... ينبغي أن تتقدم بالرفق بأهل الذمة والتفقد لهم حتى لا يظلموا أو لايؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ... »[1] . وإنما يهمنا من هذه المبادىء التطبيق العملي ...

التطبيق العملي وكيف ترجم العباسيون تلك الأحكام والأوامر الدينية من خلال الواقع الحياتي والظروف المتطورة إلى أعمال ومواقف تاريخية ساسوا فيها الناس . يهمنا اذن ماكان وليس مايجب أن يكون.

ب ـ الأسس العامة للموقف العباسي والذمي : وفي هذا المجال نجد مبدئياً أنه لولا الصبغة الاسلامية المتزايدة التي اتخذتها الخلافة العباسية خلال عصرها الأول لما كان بالامكان التمييز مابين موقف بني العباس وموقف بني أمية السابقين من الذمة . ولقد يكون الأمويون بذلوا اهتماماًأوسع للمناطق الغربيةالمتلئةبالمسيحيين بينمااهتم بنو العباس

---

نسطوروس الذي تنسب اليه بأكثر من قرنين ونصف القرن ولكنا جارينا التسمية الدارجة . أما اليعاقبة فهم أصحاب الكنيسة السريانيةالغربية. ويرفضون التسمية باليعاقبة (نسبة ليعقوب الرهاوي السروجي) نفسه ولكنا أيضا أخذنا بالمصطلح الدارج في تسميتهم وهم يدعون حاليا بالسريان الارثوذكس .

(١) أبو يوسف ، كتاب الخراج ص ٧١ .

بالمشرق الايراني المجوسي الاصل ولقد تكون عمليـــة التجــول الى الاسلام ازدادت في العصر العباسي عنها في العصر الأموي بسبب عوامل كثيرة منها تشجيع الخلفاء العباسيين • ولقد يكون هؤلاء الخلفاء اخيرا اكثر اهتماماً بالمظهر الاسلامي لسياستهم من الامويين • ولكن هـــذه الفروق رغم أهميتها لم تكن هي التي تصوغ وجدها الموقف العباسي من اهل الذمة •

والعوامل الأساسية التي كانت تصوغ ذلك الموقف إنما كانت حصيلة عناصر ثلاثة :

الأول : أن أعداد المسلمين ــ عدا العرب ــ وإن كانت تتكاثــر باستمرار إلا إنها لم تكن كثيرة طاغية • وكانت تتركز في المدن بصورة خاصة بينما كان الريف سواء في ايران أو العراق أو الجزائر أو الشام أو مصر يحوي كتلة السـكان المحافظة على دينها السابق • وكان السبق الحضاري لهذه المناطق يعطي أبناءها الأولين أن تكون لهم الصناعات والحرف وبأيديهم الاعمال الحياتية وأن تكون فيهم العلوم الأولى • وكانت الحاجة إلى الحرف والزراعة والى الاسس الحضارية في اقامـة الدولة تفرض على المسلمين الفاتحين ــ بالاضافــة إلى أوامر الدين الاسلامي برعاية الذميين ــ أن يقيموا بينهم وبين أهل الذمة التعايش السلمي المتعاون • وهذا بالضبط ماكان في كل مكان وما استقرت عليه السياسة الإسلامية منذ العهد الإموي واستمر عليه بنو العباس مــن بعد • وكانوا يشاركون في حياة المدن الاقتصادية عامة والاجتماعية والأدبية والعلمية وفي المهن المختلفة دون أي تمييز وكان منهم التاجــر والصراف والبزاز والمهنــدس والنخاس والعطــار وصاحب الاقطاع والجوهري بل احتكروا غالباً بعض الأعمال كالطب والتنجيم ودخلوا وظائف الدولة وبرزت منهم كفايات إداريــة في سلك الكتاب وعمال

الخراج واستقبلوا بالاحترام في بلاط الخلفاء كما اعترف لهم بقانونهم الديني ورؤسائهم الروحيين وإن كان هذا كله لم يمنع اجتماعياً من تعرضهم لبعض التحديات الناجمة من اعتزاز المسلمين بقوة الدولة وشعورهم بالتفوق السياسي والاجتماعي • على ان هذا الخط العام الثابت من التعايش الاخوي كان يضطرب أحيانا بفعل العاملين الآخرين التاليين :

الثاني : ضغط الاحداث على جبهة الروم : فإن بقاء الدولة البزنطية واتصالها الجغرافي والديني بمناطق المسيحيين في الجزيرة والشام ومصر وصلتها الروحية بهم جعل هؤلاء الذميين موضع الريبة من قبل النظام الاسلامي • وقد برهنت الأحداث التي استخدم فيها الروم هؤلاء النصارى كرأس جسر ومنطلق إلى الأراضي الاسلامية على صدق تلك الريبة • ولم يكن كذلك الموقف من المجوس الذين فقدوا منذ عهد الفتوح دولتهم نهائياً • وهكذا كان ضغط الاحداث على جبهة الروم ، وهي القريبة من العراق ، ينعكس أحياناً على موقف العباسيين من الذميين عامة ويتجلى في عدد من المضايقات التي لا تمس ، في أي حال ، دينهم أو أموالهم أو معابدهم أو نظامهم الكنسي وإنما تنصب خاصة على تمييزهم الطائفي عن المسلمين في اللباس والمعاملة ومنعهم من الجهر بالعبادة او إظهار الشعائر • أو بناء المزيد من المعابد • ومثال ذلك ماجرى في عهد الرشيد والمتوكل • ولما كان هذا العامل عارضا فإن تحول الأحداث الحربية مع الروم كان كفيلا دوما بالغاء هذه المضايقات بسرعة او تناسي تطبيقها والعودة الى خط التعايش الثابت الاول •

الثالث : ضغط رجال الدين وردود فعلهم ضد طغيان بعض الموظفين الذميين : فإن رعاية الخلفاء العباسيين للفقهاء والعلماء واضطرارهم السياسي والديني لسماع مواعظهم وتوجيهاتهم ـ سواء عن تدين أو مخافة تحرك العامة ـ كان من أسس السياسة العباسية • وكثيرا ماكانت

هذه المواعظ والتوجيهات تمس قضية الذمة واستخدامهم خاصة في الدولة وكانت الاستجابة لها غالباً ماتنصب على طرد الذميين من الوظائف أو مصادرة بعضهم بما أساؤوا استغلاله من المنصب • وهكذا نجد وراء كل تصرف من هذا النوع جرى في عهد المنصور والمهدي والمأمـون والمتوكل . موعظة من فقيه عالم أو شكوى محقة لامست موضع الإثارة الدينية من الخليفة • ولكن هذا التأثير كان بدوره عارضاً فما إن تهدأ الأمور بعد عاصفة التسريح والصرف من الأعمال حتى تعود عمليـة التعاون والتعايش المعتادة الدائمة الى سابق عهدها •••

ولعل من الهام أن نسجل قبل الانصراف الى سياسة العباسيين الذمية هذه الملاحظات الأربع :

الأولى : أن جميع الاجراءات التي كانت تتخذ ضد الذميين كانت تنصب على النصارى واليهود فقط دون المجوس ، وتصيبهم في بغداد والعراق خاصة دون باقي انحاء الدولة وندر أن كان يتفق تعميمها كما جرى في عهد المتوكل • أما المجوس فكان يأتي الاضطهاد لبعضهم مـن الاتهام بالزندقة • وكان يشمل أصحاب الوظائف منهم تحت هذا الشعار لا بسبب الريبة أو عدم الولاء أو التسلط والتعسف على المسلمين •وعلى أي حال فلم تبلغ الاضطهادات في أقسى أدوارها العنف الذي بلغته الحملة على الزنادقة والملحدين وأصحاب المجون بالرغم من أن التحدي النصراني، حسب رأي الجاحظ لم يكن ، من ناحية الخطر على العقيدة الاسلامية ، بأقل من التحدي المانوي •

وإذا اضطهد بعض المسيحيـين اضطهاداً قـاسياً فلم يكن ذلك لنصرانيتهم ولكن لاتهامهم بالزندقة وهذا مايفهم من إشارات المؤرخ دينيسوس التلمحري عن اضطهادات النصارى والمانوية من عبده الرقوس

في الجزيرة وما يفهم أيضاً من أقوال المؤرخ الآخر ميخائيل الكبير ( السوري ) البطريق الذي يجعل اضطهاد النصارى جزءاً من حركة اضطهاد الزندقة المانوية[1] .

الثانية : أن تلك الأزمات وأيام التوتر التي كانت تصيب النصارى واليهود من الذمة في العصر العباسي الأول لم تكن لا في نظر الخلفاء ولا في نظر رجال الدين عمليات هجومية انتقامية وإنما كانت في أساسها الأعمق عمليات دفاعية . وإذا كان الخلفاء والفقهاء يقومون بها فانما كانوا — من وجهة نظرهم — يقومون بجزء من واجبهم « الإمامي » والديني في الدفاع عن الاسلام وأرضه وأهله ومصالحه . وليس من قبيل الاعتذار عن تلك الأزمات أن نذكر هنا بالشهداء المسيحيين على أيدي الرومان الوثنيين . ولا بما قاساه الوثنيون على أيدي المسيحيين بعد ذلك حين تسلمت المسيحية الحكم في العالم الروماني ولا بما لقي المانويون والمزدكيون من الاضطهاد باسم الزندقة من قبل المذهب الزارادشتي الرسمي في العهد الساساني . تلك الاضطهادات التي لم يبلغها على أي حال ، ولا في جزءمنها ، موقف الاسلام العباسي من الذمة، كانت هي أساس التعامل بين الجماعات الدينية المتباينة في تلك العصور .

---

(١) كتب راهب سرياني من القرن الثامن الميلادي تاريخاً سريانياً من اربعة اقسام شرح في نهاية قسمه الرابع المصائب التي حلت بالسريان فيما بين سنتي ٧٦٧—٧٧٥ فيما بين النهرين وقد نسب الكتاب خطأ الى البطريق دنيس التلمحري من القرن التاسع ونشره الاب شابو في باريس سنة ١٨٩٥ كما نشر هو نفسه ايضا ، بعد ذلك تاريخ ميشيل السوري (من القرن الثاني عشر) بالسريانية والفرنسية سنة ١٨٩٩ و سنة ١٩١٠ . وفيه بعض الاخبار التاريخية عن نصاري الجزيرة اليعاقبة مع تاريخ الكنيسة .

الثالثة : أن الذميين لم يكونوا بدورهم سلبيين لاتجاه السياسة العباسية ولاتجاه الاسلام والمجتمع الاسلامي فأما مع نظام الحكم فقد امتدت مواقفهم مابين التعاون المطلق غالباً وبين العصيان المسلح أحياناً في بعض المناطق • وقد كان من العادي أن يرى بين رجال البلاط اكثر من موظف كبير ( طبيب أو منجم أو كاتب ) من أهل الذمة وأن يحضر بعضهم مجالس الخلفاء للعمل أو المناظرة العلمية ( أمام المهدي والرشيد والمأمون ) وأن يزور الجاثليق والبطريق قصر الخلافة بين آونة وأخرى • وأن يزينوا بعض البلدان وينصبوا الأقواس وينثروا الريحان ويقدموا الولائم والهدايا لمرور الخليفة[1] • كما كانت شفاعاتهم تقبل في الكثير من الأمور لأبناء نحلتهم • وقد يتولون للدولة الخراج عمالاً عليه أو يكون منهم الكتاب في الدواوين المختلفة ولا سيما في إيران والجزيرة والسواد ومصر •

وكانوا في فترات الأزمات والتوتر ينحنون للعاصفة الى أن تمر : يلبسون الغيار أو يضعون الزنار والشارات المميزة فترة قصيرة ثم ما يلبثون أن يصلوا إلى إلغاء القرار الاضطهادي • وقد جرى ذلك اكثر من مرة فإن لم يلغ رسمياً أهمل في التطبيق تدريجياً حتى يصبح حبراً على ورق ثم نسياً منسياً • ولو أن تلك القرارات المتكررة بطرد الذمة أو بإلزامهم بالتمييز عن المسلمين أو غير ذلك بقيت مرغمة التطبيق دائماً منذ صدرت أول مرة لما سمعنا بتكررها مرة بعد مرة على توالي عهود الخلفاء •

---

(١) كما جرى للمأمون في مصر بقرية (طاء النمل) مع مارية القبطية وللمتوكل مع مطران نصيبين حين أجتازها الى الشام •

وما من شك في أن تلك المضايقات كانت تحز في نفوس الذميين وتهدد الكثير منهم في وضعهم الاجتماعي أو مواردهم المالية أو مركزهم المعنوي ولكنا ندر جداً أن سمعنا تمرداً عليها أو تحدياً لها . أما ما سجل من العصيان المسلح سواء في بعض أحداث ايران أو الجزيرة أو بخاصة في مصر من قبل القبط فقد كانت أسبابه مالية خراجية دومـاً تتعلق بالتعسف في الجباية أو التزيـد فيها ، لا بأوامر التمييز والتضييـق الاجتماعي أو الديني . وقد سجل القبط خلال القرن الذي يمتد مابين سنة ١٠٧ و سنة ٢١٦ ثماني حركات من التمرد والثورة توالت :

أ ) ثلاث منها في العهد الأموي سنة ١٠٧ في الدلتا ، سنة ١٢١ في الوجه القبلي ، سنة ١٣٢ في سمنود .

ب ـ وخمسة منها في العهد العباسي سنة ١٣٥ في سمنود و سنة ١٥٠ في سخا و سنة ١٥٢ في بلهيب ، و سنة ٢١١ في الوجه القبلي وسنة ٢١٦ في الدلتا خاصة .

وهذه الثورات كافة إنما كان الباعث عليها العسف المالي . وهذا العسف كثيراً ماكان القائمون عليه من الموظفين الذمة أنفسهم .

وأما مع الاسلام والمجتمع الاسلامي فقد كان للنسطورية واليعقوبية ـ بجانب ماكان للمانوية والمزدكية ـ أجهزتها التبشيرية الناشطة . ونقرأ بوضوح في تاريخ بطاركة الكرسي النسطوري واليعقوبي جهود هؤلاء البطاركة ووفودهم التبشيرية المرسلة إلى أطراف الدولة العباسية[1] :

---

(١) انظر عمرو بن متى ، اخبار بطاركة كرسي المشرق (طبع روما سنة١٨٩٦) ص٧٣ وص٧٤ . وانظر كذلك ماري بن سليمان ، اخباربطاركة كرسي المشرق (طبع روما سنة ١٨٩٩) ص٧٣ وص٧٤ وقد كشف راهب نسطوري كتب سنة ٨٤٠ م (أي سنة ٢٢٨ هـ) تاريخ الكنيسة عن بعوث تبشيرية كانت ترسل الى جنوب الجزيرة العربية والى خراسان وما وراء

إلى شواطيء بحر الخزر ، وجنوب جزيرة العرب والى بلاد الترك والى الصين[1] في الدعوة لعقائدهم وذلك في عهود المنصور والمهدي والرشيد وبديهي أنه قوة الدولة الاسلامية في المركز كانت تدفع المبشرين الى الاطراف ولكن هذا لايعني أنهم كانوا لا يعملون على التبشير في كل مكان يستطيعونه من أراضي الدولة وفي كل فرصة أيضاً بل تعد هذه من أخصب وألمع الفترات في تاريخ الكنيسة النسطورية •

وإذا كان المسلمون يجادلون ويؤلفون في الرد على النصارى وعلى المانوية وغيرها فقد وضع النساطرة واليعاقبة بدورهم ، ردودهم على الاسلام أيضاً رسائل وكتباً كثيرها بالسريانية لأتباعهم • ومايزال بعض هذا الذي كتب محفوظاً في تراث هذه الفرق • وثمة رسالة يذكر البطريق طيماثاوس النسطوري ( الذي بقي علىكرسي الجاثليق ثلاثاً وأربعين سنة مابين عهدي المهدي والمأمون ) أنه بين فيها محاسن المسيحية للمهدي في مناقشة طويلة معه • وقد اعتمدها السريان وترجموها الى العربية فبقيت منها نسخ مخطوطة كثيرة[1] •

---

النهـر والى الصـين (طبع الكتاب بعنوان History of the Superiors بعناية W. Budge في لندن سنة ١٨٩٣) انظـر الادب السرياني ـ بالفرنسية ـ تأليف شابو ص ١١١ .

(١) يظهر اسم البطريق النسطوري حنان يشوع الثاني ( البطريق ما بين سنتي ٧٧٤ـ٧٧٩ في عهد المنصور) على النصب التذكاري السرياني الصيني الذي اقيم سنة ٧٨١ في سين غان فو . وهو يسجل إدخال المسيحية الى الصين . (انظر الادب السرياني ص ١٠٦ـ١٠٧) . وعليه بالصينية والسريانية اسماء ٧٦ مرسلا من المبشرين والنصب ما يزال قائماً الى اليوم .

(٢) طبعت هذه الرسالة مع رسائل اخرى في باريس سنة ١٩١٤ من قبل الاب Braum بالسريانية واللاتينية وهي موجودة بالعربية .

وهذه المناقشات إذا كانت تجري مع الخلفاء أنفسهم فلا شك أنها كانت تجري على نطاق أوسع في طبقات العلماء والشعب على مستويات مختلفة وهي إن دلت على شيء فعلى أن أهل الذمة اتخذوا جانب الهجوم الدفاعي في كثير من الأحيان . ومحاولاتهم الجدلية إن لم يكن هدفها كسب المسلمين فهدفها على الأقل عدم خسارة الاتباع .

الرابعة : هي أن حصيلة كل من السياسة العباسية تجاه الذمة والموقف الذمي تجاه النظام الاسلامي كانت في جانب الاسلام وتكاثر عدد المؤمنين به[1] وبالرغم من أنه لم تسجل حوادث أرغم فيها الناس على التحول الى الدين الاسلامي . لكن مختلف العوامل من جدل أو اجراءات تمييز أو رغبة بالخلاص من الخراج والجزية او طمع المكانة بالدولة أو اقتناع بالدين انتهت كلها بأن تنتقل كثير من الجماعات الذمية الى الاسلام . ولعل مما كان يزيد في نقمة الذميين وكنائسهم وكهانهم ويزيد في شعورهم بالغبن أنهم كانوا يخسرون باستمرار الأكثرية العددية لمصلحة الجانب الاسلامي . كما كانت عملية التحول تستتبع أحياناً كثيرة نوعاً من الظلم المالي الشديد في المناطق التي كان الخراج وكانت الجزية فيها ضريبة جماعية محددة على القرية أو المنطقة . فكان على الباقين في الدين القديم أن يدفعوا مع ضريبتهم ضرائب من أسلم منهم . أو من هرب من قريته وحقله أيضاً . وكان ذلك كثيراً مايحدث في مصر وفي

(١) لنلاحظ ان حركة التعريب اي شيوع اللغة العربية لحقت انتشار الاسلام ، وحلت اللغة العربية محل اللغات المحلية من قبطية وسريانية وبهلوية لكنها نجحت في ذلك في العصر العباسي الثاني لا الاول كما انها نجحت بكل مكان في الغاء اللغات الاخرى ما عدا ايران فبعد ان تعادلت معها لم تستطع الغاءها فعادت

الجزيرة وخراسان . وهكذا فإن الذميين كانوا في مطالع العصر العباسي هم الاكثرية الواضحة في ايران كلها وفي الجزيرة ومصر ولحد ما في الشام تحولوا في نهاية العصر إلى أن أصبحوا هم العدد الأقل المتناقص باستمرار بينما حافظت أرقام الجباية في الخراج والجزية وغيرها على أرقامها وكثيراً ما ارتفعت عن ذي قبل فكان ضيق الذميين ينبع اذن في وقت واحد من منبعين : نفسي ـ ديني ناجم عن خسارة الجماعة الدينية ونقصها . ومالي ـ اقتصادي ناجم عن زيادة نسبة الضرائب حتى الارهاق .

جـ ـ الذمة في عصر المنصور : يمكن القول إن الذميين من النصارى واليهود لم يأبهوا بانتقال الحكم من آل أمية إلى بني العباس ومن الشام إلى العراق . لقد يكون الذمة المجوس قد بنوا العديد من الآمال على هذا الانقلاب واعتبروا أنفسهم حلفاء للعهد الجديد فترة قصيرة من الوقت ثم مالبثوا ، حين تبينوا واقعه العربي الاسلامي أن ثاروا عليه ثورات مسلحة عديدة لكن طوائف النصارى لم تشترك فيه أبداً وبالتالي لم تنتظر منه شيئاً ولهذا فإن أبا العباس ماكان بالنسبة إليهم أكثر من خليفة جديد كغيره ... ويذكرون أنه لما ظهر في الكوفة عمد النجرانية ( نصارى نجران الذين أجلاهم عمر بن الخطاب إلى العراق ) إلى طريق أبي العباس فنثروا فيه الرياحين وهو منصرف إلى منزله من المسجد فأعجبه ذلك من فعلهم ... ولم يكن ذلك حباً في بني العباس ولكن كيداً بالوالي الأموي الذي أعاد عليهم الجزية القديمة بعد أن خفضها عمر بن عبد العزيز الى عشرها[1] وعرضوا الأمر على أبي العباس فجعل جزيتهم مائتي حلة فقط .

---

(١) كانت على عهد الرسول الفي حلة فخفضها عمر بن عبد العزيز الى مائتين فقط قيمتها ثمانية الاف درهم فاعادها يوسف بن عمر أيام الوليد بن يزيد الى ما كانت من قبل . (انظر الموضوع كله لدى البلاذري ـ فتوح البلدان ص٨٠ـ٨١) .

ويذكرون كذلك أن خلافاً جرى بين النساطرة في اختيار الجاثليق سنة ١٣٣ واستنصر أحدهم وهو المطران سورين بأمير المدائن المسمى أباناً . « حتى وكل بالناس يوم خميس الفصح وألزمهم بسيامته قهراً بالسلاح ... واستغاث الآباء الى السفاح وعرفوه الحال فضرب أباناً وردهم الى اختيارهم ( الحر ) ...»[1] . فأقالوا سورين واختاروا يعقوب الجنديسابوري بطريقاً آخر بدلاً منه بعد أقل من شهرين من تنصيبه !

هذان المثالان قد يكفيان لبيان الموقف العباسي المبدئي من الذمة . وقد جاء المنصور بسرعة بعد أبي العباس فأعطى هذا الموقف أبعاداً أخرى :

استخدم أبو جعفر أهل الذمة ويبدو أنه استخدمهم بشكل واسع : فكان منهم طبيبه النصراني : الخصيب[2] الذي توفي على يديه ابن السفاح وغيره فمات في السجن ، ثم استقدم المنصور من بعده جرجيس ابن بختيشوع من جنديسابور[3] حين أدركه ضعف في معدته بعد سنة ١٤٨ . وزاد مرضه بمعالجة الأطباء فشفي على يد جرجيس وأراد ابو جعفر مكافأته فأهداه بعض الجواري فأعادهن ثم بلغ من تكريمه أن أمر بإحضار الخمر له من قطربل « واكرمه كما يكرم أخص الأهل » . ثم مرض جرجيس سنة ١٥٢ فسمح له أبو جعفر أن يعود مع أكبر الرعاية الى بلده[4] بعد أن ترك عند أبي جعفر تلميذه عيسى بن شهلاثا ...

---

(١) انظر ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٩٦ .

(٢) الطبري ج٨ ص٨٦ (٣/٤٢٣) وانظر كذلك الأغاني ج١٣ ص٩٥ .

(٣) ابن العبري ص١٢٤ـ١٢٥ وانظر كذلك ماري بن سليمان ـ اخبار بطاركة كرسي المشرق ص ٦٨ـ٦٩ والقفطي ـ تاريخ الحكماء ص١٥٨ـ١٦٠ .

(٤) انظر ماري بن سليمان اخبار بطاركة كرسي المشرق ص ٦٧ .

وقد تدخل عيسى في مشاكل الطائفة النسطورية حتى صار أمرها بين يديه وجبى منها الأموال وتقاضى آباء الطائفة الخضوع له . ويبدو أنه هدد مرة مطران نصيبين إن امتنع عن دفع مارتبه عليه من المال وما طلبه من أدوات البيعة الثمينة عنده وكتب له : الست تعلم أن أمر الخليفة في يدي إن أردت أمرضته وإن أردت شفيته فاحتال المطران حتى أوصل الكتاب الى الربيع بن يونس الذي قرأ مافيه على أبي جعفر فأمر بمصادرة جميع مايملكه عيسى ونفاه مع زوجته الى الهند.. وكان حول بلاط المنصور أيضاً مطران نصيبين المدعو قوفريانوس الذي قربه الخليفة وابراهيم الطبيب الذي خلف عيسى والمطران اسحق اليعقوبي الذي ادعى معرفة الكيمياء له وسر الذهب[1] ونوبخت المنجم الفارسي المجوسي الذي كان يرافق الخليفة فلما ضعف أتى بولده بدلا عنه واستطال ابو جعفر اسم الولد بالفارسية فكناه بأبي سهل[2]... أما خارج القصر فيبدو أن الذميين كانوا كثيرين بين عمال الخراج وكان موسى اليهودي[3] أحد اثنين من هؤلاء العمال الذين عينهم المنصور في السواد . كما أوكل إلى الكثيرين منهم بأن يقبضوا مايجدونه لبني أمية ومنحهم حرية التحري والعسف في ذلك وفي غيره . ويبدو ان الصلة الطيبة بين مطران نصيبين والخليفة أعانته في أن يقيم سنة ١٤١ مذبح وهيكل الكنيسة الكبرى في البلد دون تحرج[4] .

---

(١) انظر ماري بن سليمان ـ اخبار ص ٦٩ وكتاب ترتون ـ أهل الذمة في الاسلام (الطبعة العربية ترجمة حبشي) ص ٨٧ .

(٢) ابن العبري ص ١٥ .

(٣) المبرد ـ الكامل ١ ص٧٩

(٤) انظر المجلد السابع من Corp. Serip. Chris. Or. المسمى Chronographié d'Elie de Nisibe , Lrris , 1884 , P. 128 .

ويبدو أن هذا التسامح الواسع من المنصور لم يكن ليجد أي اعتراض من الفقهاء ورجال الدين المسلمين والناس لولا أن بعض هؤلاء العمال الذميين أساؤوا استغلال وظائفهم « فظلموا وعسفوا وأخذوا الضياع وغصبوا الأموال وجاروا على المسلمين واتخذوا (تسامح الخليفة) سلماً لشهواتهم ... » كما يقول شبيب بن شيبة الـذي اجتمع إليه جماعة من المسلمين والمنصور في الحج فطلبوا إليه مخاطبة المنصور في أن يرفع عنهم المظالم ولا يمكن النصارى من ظلمهم وعسفهم في ضياعهم ويمنعهم من انتهاك حرماتهم وتحريهم لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبني أمية . ويضيف شبيب أنه طاف مع أبي جعفر فشبك أصابعه على أصابعه واستأذن ان يكلمه بما في نفسه وقال له : يا أمير المؤمنين إنهـا وصية الله . اليكم جاءت ... وإليكم تؤدى . إن دون أبوابك نيراناً تأجج من الظلم والجور لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه . يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين . ظلموهم . وعسفوهم ... ولن يقضوا عنك من الله شيئاً يوم القيامة . فقال المنصور : خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين . وقال ياربيع ( الربيع بن يونس ) اكتب إلى الأعمال فاصرف من بها من الذمة . ومن أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع استخدامه . فقال شبيب يا أمير المؤمنين . إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك ... ولكن .. كلما وليت رجـلا عزلت آخـر[1] .

ولعل هذا الامر إنما كان في حج ابي جعفر سنة ١٤٠ أو سنة ١٤٤ والجهشياري يضيف إليه أن المنصور قلد حماداً التركي تعديل السواد وأمره أن ينزل الأنبار ولا يدع أحداً من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال

(١) ابن قيم الجوزية ـ احكام اهل الذمة ج١ ص ٢١٤-٢١٥ .

المسلمين إلا قطع يده . فأخذ حماد ماهويه الواسطي (وهو مجوسي فيما يبدو كما أنه جد سليمان بن وهب ) فقطع يده !..[1] والخبران يدلان على توسع الدولة وعمالها في استخدام الذميين كما أن الأمر بإخراجهم من الأعمال كان مجرد تدبير عارض لأننا سوف نفاجأ بهم وقد كثروا « وقويت شوكتهم » في عهد المهدي من بعد !

ومن جهة أخرى فقد تدخل المنصور فيما كان قد امتنع عنه أخوه أبو العباس من أمر اختيار رؤساء الكنيسة : وكان الأمويون يفعلون ذلك في مصر خاصة والجزيرة وإنما كان يدفع أبا جعفر ويحرضه على ذلك من كان في حاشيته من النصارى . فقد تدخل في رئاسة الكنيسة اليعقوبية : عمل على تنصيب اسحق الرهاوي مطران حران بطريقاً سنة ١٣٨ أو سنة ١٣٩ وأرغم المطارنة والاساقفة على انتخابه لأنه كان قد أصبح أثيراً عند أبي جعفر بادعائه معرفة الكيمياء وتحويل المعادن إلى الذهب[2] . وأصدر الخليفة منشوراً الى البلدان بإقرار اسحق في منصبه وخلع عليه من أثواب الخزانة الخليفية الا إن أمره انكشف فقتل ورميت جثته في الفرات . وطلب المنصور من الاساقفة اختيار اثناسيوس ( الثالث ) الصيدلاني بطريقاً وأعانه بالجند اللازم لتأييده في منصبه فلما مات بعد عامين انشقت الكنيسة واستطاع أسقف بلدة دارا أن يشي بالمرشح الأقوى جورجيوس عند الخليفة من أنه يفخر أن اسم النبي محمد لم ولن يمر قط على لسانه . ومن أنه لا يأبه بطلب مرسوم التعيين من أبي جعفر في نوع من عدم الاعتراف بالحكم الاسلامي .

---

(١) الجهشياري ص ١٣٤ .

(٢) يعزو المؤرخ القبطي ساويرس (سير البطاركة ص٢٠٥) ذلك الى ان الاسقف اسحق كان دعا للمنصور ان يرزق بغلام فما تولى الخلافة حتى جعله بطريق انطاكية وسائر المشرق .

وحين اختاره جمهرة من الاساقفة سنة ١٤١ لم يطلب بالفعل منشور التعيين ووقفت السلطة العباسية في جانب اختيار خصمه حنا للبطركة فلما مات صار داوود أسقف دارا سنة ١٤٦ بطريقاً ... بتأييد السلطة. وصار للسريان بطريقان في وقت معاً . ويذكر أحد المؤرخين السريان أن احدى الكنائس كانت عند زيارته تغص بالجند والفرسان لا بالقسس ورجال الدين . وظل أعداؤه في السجن حتى عهد المهدي[1] وكان بين هؤلاء جيورجوس البطريق .

وتكرر الامر نفسه بالنسبة لجاثليق النساطرة . فقد كان عيسى ابن شهلاثا طبيب المنصور شماساً في تلك الكنيسة . وكان من أنصار سورين البطريق المطرود في عهد أبي العباس . فما زال عيسى وسورين وسرجيس طبيب صاحب الجيش في الحملة على البطريق يعقوب والتحريض على مطالبته بالأموال حتى سجن مرة وتشتت أمره وطالبه المنصور بزيادة الخراج ورد مايتعلق برؤساء البيع والكنائس الى عيسى ابن شهلاثا الذي عاملهم بالاستهانة . وحضر البطريق مع ٣٦ أسقفاً إليه فلم يأبه لهم « وكان يعطيهم يده ليقبلوها » ... فاشتكى هؤلاء الأمر إلى ابن الطباخ الكشكري صاحب بيت المال ( وهو بدوره نسطوري من كشكر ) فأنهاه إلى الخليفة وأخبره قصة الخلاف على كرسي البطركة فأمر المنصور بحبس يعقوب البطريق وسورين معاً ... وحبس الأول سنة ١٤٩ فبقي في السجن تسع سنوات ولم يستطع عيسى تهريب الثاني الذي قبض في المدائن فلم يزل سجيناً حتى مات .

---

(١) انظر الجزء الرابع من Corp. Serip. Chris. Or. Chroniea Minsra ويجمع ١٤ قطعة من تواريخ سريانية قديمة (فيها النص مع الترجمة الفرنسية) ص ٢٣٦ ، ٢٤٣–٢٤٧ . وانظر كذلك تريتون – أهل الذمة ص ٨٧ .

وفي هذه الفترة ـ فيما يظهر ـ « انبسطت أيدي العمال على النصارى . وتحول بعضهم إلى الاسلام . ».

وقسا عامل الحديثة ( حول الموصل ) على الذمة بالظلم المالي فلما قرر المطران شليمون الشكوى للخليفة قبض عليه وضربه بالسياط وحلق رأسه ولحيته ولكنه عاد فصالحه وأرضاه وأزال أسباب الظلم المالي عن البلد . ثم سعى قوم من النصارى هذا المطران نفسه لدى عيسى الطبيب بأنه أخذ حملين من أموال مروان بن محمد يوم معركة الزاب فاستقدمه الخليفة ووقع من ذلك في محنة أخرى . ثم اجتاز المنصور بمنطقه الموصل وأعجب بأهل الذمة وحسن صبرهم وإضافتهم المجتازين من المسلمين فرفع الخراج عنهم وأمر بمعونتهم لضعفهم .وقد جرأهم ذلك على ما يبدو فجاء الاساقفة ومنهم شليمون مع بطارقة اليعقوبية والملكية يطالبون بالافراج عن البطريق النسطوري يعقوب ويبدو أن شليمون تطاول في الحديث حتى أغاظ المنصور فأمر باعتقال الجميع ! ... ولم يفرج عنهم إلا بشفاعة ابراهيم الطبيب فيما بعد فأعيدوا إلى كراسيهم ... كما أفرج عن يعقوب بطريق النساطرة بعد أن انكشف للمنصور ـ في آخر أيامه ـ أمر عيسى الطبيب وتسلطه وسعيه بالبطريق الذي كان قد قضى في السجن إذ ذاك تسع سنوات[1]..

أما معاملة المنصور لعامة أهل الذمة فلم يكن فيها كما نلاحظ أي أثر للتعصب أو العسف وكانت تتسم بالعكس بأمائر الرفق . ومقابل ما يذكره بعض مؤرخي السريان من أن المنصور أخذ لبيت المال الباب الذهبي لكنيسة القيامة في القدس[2] نجد أنه لم يسمح لبعض المسلمين

---

(١) انظر تفاصيل هذا كله لدى ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٦٧ـ٦٩ .

(٢) انظر ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٧٠ .

باحتلال دير قديم نزلوه حول بغداد فلما طالب به النصارى وتمنع ساكنوه نقلوا عنه كرها بأمر المنصور[1] بل إنه لم يسمح لنفسه قبل ذلك باغتصاب ما وقع من أرض مدينة بغداد لبعض الأديرة فاشترى الموقع شراء من القس ! ... على أن سياسة الولاة كانت تختلف من بقعة الى أخرى . وإذا تركنا جانبا منطقة ايران وقد مرت بنا ثوراتها المحلية وجدنا ان بعض عمال المنصور في منطقة الجزيرة المتاخمة للروم ، تأثروا ـ على ما يبدو ـ بجو الحرب الانتقامية المتبادلة بين الدولتين واعتبروا الذميين أكثر قابلية للتواطؤ مع البيزنطيين بسبب وحدة الدين وقد يكونون لهذا السبب قد أنحوا ببعض تدابير الضغط والقسوة والتمييز على الذميين هناك . ونجد صدى ذلك في تلك الصفحات التي حفظها الكتاب المنسوب الى ديونيسوس التلمحري عن المصائب والنكبات التي قاساها اليعاقبة ما بين سنتي سنة ٧٦٧ و سنة ٧٧٥ (١٤٩ ـ ١٥٧) . والتفاصيل الكثيرة التي لا تنتهي هناك قد تتضمن الكثير من المبالغة ومن التحامل الديني[2] . لكن لا شك في أنها كانت في خطوطها الأولى صحيحة وتصور دمار المنطقة الاقتصادي في تلك الفترة . مع أسباب ذلك الدمار . وكاتبها الراهب المجهول كان يحذر أبناء جلدته وينصحهم بالصمود والتماسك لدرء النكبات .

ولم يكن الولاة المسلمون هم السبب في معظم تلك المصائب المدمرة

---

(١) عمرو بن متى ـ أخبار البطاركة ص ٦٩ـ٧٠ .

(٢) انظر الصفحات المتصلة بذلك (٣ حتى ٧٠) في الجزء الثاني من كتاب Corp. Serip. Christ. Or. الذي نشر فيه القسم الاخير الرابع من التاريخ المنسوب الى ديوليسيوس التلمحري . وهو ينتهي بسنة ٧٧٥ . وانظر كذلك تاريخ ميشيل السوري (بالفرنسية) ج٣ ص١٠٣ فما بعد ( ترجمة شابو عن السريانية ) .

ولكنه تعقيد المنطقة الديني والعنصري والسياسي واضطرابها في تلك الفترة . فقد عانت الجزيرة كلها الكثير من الآلام بسبب الثورات المحلية وبخاصة حركات الخوارج كما عانت أيضاً من فقد الأمن وتكاثر اللصوص وقطاع الطرق سواء من البدو أو من بعض المجموعات الكردية . بالإضافة الى الغارات التي كان يقوم بها الاقطاعيون المسيحيون المحليون بعضهم ضد بعض ولكل منهم عصابته المسلحة وقراه الجبلية المحصنة . وقد شكا الرشيد مما في المنطقة من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل وقرر المناخ بها في أواخر حياته ليقطع دابرهم[1] لكن الأمر استمر من بعده حتى جاء المعتصم فأزال ماكان استمر على بلاد الموصل وباجرمي من اللصوص وكبس القرى[2] . وإذا تعرض السكان للقتل والظلم الشديد وتعرضت القرى كما تعرضت التجارات وطرقها للتدمير والنهب فقد كان لا بد أن يصيب رشاش ذلك الأديرة والكنائس وما فيها من ذخائر وما تحمل أرضها من الثروة الزراعية . ثم كان ثقل الضرائب والارهاق في الجباية من الاسباب في ان يطفح الكيل ويهرب الكثير من الفلاحين إلى المدن . وكان يزيد في استيائهم أن الولاة أمروا بأن يقبض عليهم فيعادوا من حيث أتوا مرغمين وتدمغ ، منذ العهد الأموي ، اسماء قراهم على الرقاب والصدر والظهر والأيدي ... ويميزوا في اللباس كتدبير وقائي وقد هرب بعضهم إلى الروم عبر الحدود . واحتمل الآخرون آلامهم صابرين ناقمين بينما أجبر الولاة والخلفاء سكان المناطق الاستراتيجية على الحدود على الترحل الى داخل البلاد وأنزلوا محلهم تبعاً لمقتضيات الدفاع جماعات عربية وعسكرية مقاتلة .

---

(١) الطبري ج٨ ص٣١٧ (٧٠٦/٣) .
(٢) انظر ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧٧ .

ويذكر المؤرخ تيوفانوس أن المنصور عمد إلى هذا التدبير عقب عودته من تحصين الحدود الشمالية في سمالو وفرض على الذمة هناك قيوداً دفعتهم الى الهرب لبلاد الروم • ويقول بعض ذلك البلاذري أيضاً[1] •

وكان وضع الذميين في الشام أحسن حالا منه في الجزيرة • وقد كان لبطريق انطاكية مكانته الهامة كما أن اكثر من واحد من مطارنة دمشق اليعاقبة والنساطرة صاروا بطارقة في المدائن وبغداد في هذه الفترة • غير أن الريبة في علاقات الذميين بالروم كانت تبقي النظام الاسلامي على الحذر منهم ولا سيما في لبنان • وقد جاءت حادثة بندار في لبنان سنة ١٤٢/٧٥٩ لتؤكد عدم الولاء للدولة الاسلامية • فقد كانت ثورته مؤامرة ذات شقين : شطرها الرومي تمثل في نزول اسطول بيزنطي على طرابلس بينما كان شطرها الآخر الداخلي يتمثل في قيام بندار بالهجوم على بعلبك وقرى البقاع • بعد أن تسمى بالملك وأعلن العصيان • فلما انهزم وهرب مع الاسطول الرومي نزلت العقوبة بسكان الجبل الذي والوه وعاضدوه • فقتل صالح بن علي العباسي مقاتلتهم وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم الى قراهم •

وإذا كان السبب في الثورة إنما يعود الى الشكوى من عامل الخراج في بعلبك ومن قسوته فقد رافق قمعها تدبير آخر هو : إجلاء الجماعات المشبوهة عن المنطقة لئلا تكون مادة تمرد أو رأس جسر للروم وتوزيعها في بلاد الشام • وعملية الاجلاء هذه لم تتم على وجهها.

(١) يقول البلاذري (فتوح ص١٩٦) «... ثم نقل (المنصور) أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط ...» .

لأن الأمام الأوزاعي احتج عليها فكتب الى والي دمشق يحرمها في الشرع في رسالة طويلة أعطى فيها الوالي درساً في سياسة الذمة في الاسلام قال فيه : «... حكم الله أن لاتزر وازرة وزر أخرى وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال : من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ... في كلام طويل»[١] .

أما في مصر فنجد الصورة واضحة ـ رغم ما يشوبها من تحامل ـ لدى المؤرخ القبطي ساويرس ابن المقفع[٢] وهو يعتمد فيها على ما وقع له من وثائق الكنيسة القبطة في الكنائس والأديرة وتظهر أهمية أخباره إذا عرفنا أنها كانت تتصل في الواقع بالأكثرية العظمى من سكان مصر إذ ذاك فنحن إذا استثنينا الطبقة الحاكمة العربية والجند معها وبعض المسلمين في الأمصار ـ وجدنا كتلة السكان الأساسية في مطالع العصر العباسي من الأقباط الذمة . يقول المقريزي : «... ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد بن الحبحاب، مولى سلول ، قيساً بالحوف الشرقي : (من الدلتا) . فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار الاسلام بقرى مصر ونواحيها ..»[٣] .

ونستطيع أن نرى بوضوح لدى ابن المقفع أن الحكم العربي الأموي ساعد القبط على إحياء اللغة القبطية وطرد اللغة اليونانية كما

---

(١) انظر البلاذري ـ فتوح ص١٩٢ وانظر ابو عبيد بن سلام ـ كتاب الأموال ص ١٧٠ـ١٧١ وابن عساكر ـ تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج٥ ص٣٤١ .

(٢) كان ساويرس Severus أسقف بلدة الاشمونين في الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي وكتابه التاريخي بعنوان سير الآباء البطاركة طبع اكثر من مرة . وهو يتحدث عن الكنيسة القبطية وبطاركتها خاصة .

(٣) المقريزي ـ الخطط ج٢ ص٢٦١ .

ساعد الكنيسة القبطية ضد الكنيسة الملكانية (البيزنطية) فامتلكت بيعها . ولم يحرم القبط من حريتهم الدينية ومن بناء المعابد بل أعطاهم بالعكس المجال الواسع في حكم مصر وإدارة مرافقها كما جعل النظام المالي كله بأيديهم ورغم التدابير التي أمر بها عمر بن عبد العزيز فقد ظل الأقباط يسيطرون على الجهاز الحكومي حتى العهد العباسي . ولعل مما ضايقهم أن يعترف هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ للملكانيين بحق انتخاب بطريق لهم بعد أن اقاموا بلا بطريق منذ الفتح العربي (أي منذ ٧٧ سنة) . وأن يأمر يزيد بن عبد الملك قبل ذلك بكسر الصلبان والتماثيل ومحو الصور في الكنائس[١] وأن يتحول ٢٤ ألف قبطي الى الاسلام حوالي سنة ١٢٧ ــ ١٢٨ بسبب ترغيبهم باسقاط الجزية والخراج عنهم[٢] .

فلما كانت الثورة العباسية وهرب مروان بن محمد الى مصر بعد معركة الزاب قام جنده بالكثير من العبث في مصر وقتلوا جماعة من الأقباط وسبوا النساء وأحرقوا بعض الأديرة وهدموا بعض الكنائس وسجن البطريق القبطي والبطريق الملكاني حتى يدفعا ما فرض عليهما من المال وقد عجز الأول فبقي في السجن[٣] ... ويذكر ابن المقفع ان والي مصر كان يكره النصارى وقد صادر املاك الكنيسة وما فيها من آنية الذهب والفضة والواقع أنه كان يريد أن يستعين بذلك على تمويل المقاومة لبني العباس . ويبدو أن بعض الكنائس تمنعت عن تسليم ذخائرها فأتى مروان بن محمد على كافة كنائس طما بالهدم لم يستثن

---

(١) جرى الأمر نفسه في بيزنطية بعد إعلانه في الدولة الاسلامية بأربع سنوات (أي سنة ١٠٨ هـ/٧٢٦) وهي الحركة المعروفة باللاأيقونية .

(٢) انظر ساويرس ــ سير الآباء البطاركة ص ١١٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٥ و ص١٨٤ .

منها سوى واحدة (هي بيعة أبي مينا الشهيد) مقابل ثلاثةآلاف دينار • ولما عجز الاثرياء عن أن يجمعوا اكثر من ألفين حول ثلث الكنيسة الى مسجد • وتوسل إليه بعض التجار أن يرد إلى الملكانيين كنيسة (لومينا) في مريوط فردها وثار القبط نتيجة لذلك فيقصرالوالي نفسه[1] ووثب الأقباط على البطريق الملكاني قسطنطين وجروه الى خارج القصر وكادوا يفتكون به لولا أن ألقي الأساقفة عليه برانسهم •••وقد قامت في تلك السنة ثورة في رشيد هزمها ابن أبي نسعة قائد مروان وثورة في سمنود قادها قبطي يدعى «يحنس» فسحقت الثورة وقتل قائدها مع كثير من أصحابه[2] ولعل هذه الأمور كلها كانت السبب في سهولة استيلاء العباسيين على مصر وفي كشف الأقباط للجيش العباسي مخبأ مروان بن محمد في بعض كنائس بوصير[3] •

وقد استبشر الاقباط بالحكم الجديد وتعاون معه البطريق القبطي ميخائيل أول الأمر لا سيما حين أعفى العباسيون بعض الاقباط من الضرائب وخففوه عن بعضهم الآخر وقد دام ذلك حتى مطالع عهد المنصور إلا ان آمالهم سرعان ما خابت حين سار الولاة العباسيون سيرة السابقين من الأمويين فزادوا ــ مع ازدياد حاجة المنصور إلى المال ــ في إرهاق الاقباط بالضرائب الثقيلة في الوقت الذي أعلنوا فيه سنة ١٣٣

---

(١) انظر ساويرس ــ سير الآباء البطاركة ص١٨١ ، وص١٨٥ ، و ص٦ــ١٦٧ وانظر كذلك تريتون ــ اهل الذمة (بالعربية) ص٤٧ وص١٦٤

(٢) الكندي ــ كتاب الولاة والقضاة (طبعة بيروت١٩٠٨) ص ٩٤ و ص ٩٦ •

(٣) هناك بلدة باسم بوصير في وسط الدلتا قرب سمنود ويرجح الباحثون ان المقصود هو بلدة بوصير الأخرى الموجودة الآن في مديرية بني سويف في الصعيد .

إسقاط الجزية والخراج والكلف عن من يتحول إلى الاسلام فاندفع الكثير من الأغنياء والفقراء يسلمون[1] •

وإذا كان الاعفاء من الضرائب سبباً في التحول إلى الاسلام فقد كان ثقلها بالمقابل من أسباب الثورة لـدى القبط • سجلوا في هـذا المجال ثورات تزيد على العشرة خلال قرن ونيف •

ولقد كانت ثوراتهم منذ الثورة الأولى سـنة ١٠٧ حتى الأخيرة سنة ٢١٦ متصلة الاسباب بالعسف الضريبي والإرهاق المالي من جهـة وبشعورهم بالكثرة العددية والقوة في الريف المصري كلـه من جهة أخـرى •

وقد تكررت مثلا الثورة في سمنود (في قلب الدلتـا على فرع دمياط) سنة ١٣٦/٧٥٤ وخرج هناك أبو مينا القبطي فبعث إليه الوالي أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي بعبد الرحمن بن عتبةفقتله[2] وأنهى الثائرين • ولكن أبا عون نفسه عاد إثر خروج الأقبـاط مع المسلمين للصلاة كي يزيد النيل وزيادته بالفعـل «فأحسن السيرة في النصارى وعطف على كنائسهم وخفف عنهم الخراج»[3] ولكن سرعان ما عادت الضرائب بعده إلى عهدها الأسبق وتقاضاها المنصور ممن كان يهرب منها الى الرهبنة • وأمر بتحول مركز الوالي من العسكر إلى الفسطاط وأن يجعل الدواوين في كنائس القصر سنة ١٤٦ •

ويبدو أن الوالي يزيد بن حاتم ألح في الخراج والعسف فتشكلت

---

(١) انظر ساويرس ص ١٨٩ .

(٢) الكندي ــ الولاة والقضاة ص ١٠٢ وقد ولى أبو عون ولاية مصر مرتين الاولى في عهد أبي العباس بين سنة ١٣٣ــ سنة ١٣٥ ثم صرف عنها ليقود جيوش المغرب ثم اعيد إليها في عهد المنصور سنة ١٣٧ فبقي حتى سنة ١٤١ .

(٣) ساويرس ــ سير الآباء ص ٢٠٠ •

في الدلتا جماعات مساحة من القبط ما لبثت أن قامت بثورة عنيفة سنة ١٥٠ في بلدة سخا (في الدلتا جنوب كفر الشيخ) وطردت عمال الخراج وكان أمير هؤلاء العمال عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي . وصار الثائرون إلى شبراسنباط فقاتلوا هذا الأمير وانضم إليهم أهل بعض المناطق الأخرى (البشرود ، الأوسية ، البجوم) فعقد يزيد بن حاتم حين وصله الخبر لنصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان (ديوان الجيش) ووجوه أهل مصر (العرب) فخرجوا إليهم ...» ولكن هذه الحملة منيت بالهزيمة إذ «بيتهم القبط» في كمين فقتلوا عبد الجبار وخرج المهلبي بطعنتين وسقط قائد آخر في الجراح ... «وانصرف الجيش الى الفسطاط منهزمين» ... ولكن بعد أن «ألقى توبة الخولاني أحد القواد «النار في عسكر القبط ...»[1] ويبدو أن هذا الحريق أتى على قرى المنطقة فشتت الثورة ...

لكنها عادت فانفجرت في مكان آخر هو بلهيب سنة ١٥٦ فقد خرج فيها القبط أيضاً والوالي موسى بن علي بن رياح اللخمي فعقد لعبد الله ابن المهاجر الذي خرج في الجند وهزم القبط الثائرين[2] وهذه الاضطرابات المحلية المتعددة المواضع سوف تتكرر فيما بعد .

د ـ الذمة في عصر الرشيد : الصورة التي شهدناها في عصر المنصور تستمر قائمة بعده ، دون تغيير يذكر فيما بين عهد المهدي آخر أيام المعتصم والواثق . لا جديد فيها سوى ازدياد الرعاية لأهل الذمة مع ازدياد الطابع الاسلامي للدولة وعدم تدخل الخلفاء في شؤون الكنائس

---

(١) الكندي ـ الولاة ص ١١٦ـ١١٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ١١٩ .

إلا عند الخلاف • ضمن الطائفة وتوسع مجالات الجدل الديني بين الذمة والمسلمين •

أولا : استخدام الذميين في الدولة : يتكرر ذكر إخراج أهل الذمة من وظائف الدولة في عهد المهدي والرشيد والمأمون والواثق وهذا يعني على الأقل أن الباب كان مفتوحاً لهؤلاء باستمرار في الاعمال الحكومية وأن موجات إخراجهم إنما كانت ، في كل مرة عاصفة عابرة يدفع إليها في الغالب الطابع الاسلامي المتزايد الذي حاول الخلفاء أخذه منذ عهد المهدي خاصة والواقع أنا نشهد الذميين دون انقطاع في الأعمال المختلفة وخاصة في طبابة الخلفاء والتنجيم لهم وفي الخراج والكتابة : فقد كان تيوفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي رئيس منجمي المهدي[1] ثم صار قهرمان الرشيد بعد ذلك[2] واشتهر في بلاط المهدي أبو قريش عيسى الصيدلاني الذي يروون في سبب صلته مع البلاط قصة جعلته أثيراً ، دون علم كبير بالطب والصيدلة ، لدى الخيزران والمهدي إذ تنبأ والخيزران حامل أنها ستلد ملكاً فلما ولدت الهادي أغدقت على عيسى النعم والهبات ثم صار مقدماً على اكبر أطباء المهدي جيورجيس بن جبريل • وكان جورجيس هذا ثم ابنه من بعده أتباع أبي الأطباء : بختيشوع بن جورجيس الجند يسابوري الذي اتصل بالبلاط سنة ١٧١

(١) ابن العبري ص ١٢٧ وتيوخيل المذكور ماروني المذهب . وقد ترجم الالياذة والأوديسة من اليونانية الى السريانية .
(٢) انظر ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧٥ .
(٣) انظر القصة لدى ابن العبري (ص١٢٧ــ١٢٨) ولدى عمرو بن متى ــ اخبار البطاركة ص٧٠ ولدى ابن أبي أصيبعه في طبقات الأطباء (طبعة بيروت ١٩٦٥) ص٢١٥ــ٢١٦ .

ثم اتصل ابنه جبرائيل مع البرامكة منذ سنة ١٧٥ بتوصية منه . وقد نجح جبريل مرة في معالجة جارية أصابها شلل موقت في ذراعها فنال من الرشيد نصف مليون درهم[١] . وإذا كان بختيشوع نسطورياً فقد كان هناك أيضاً طبيب سرياني في قصر الخلافة هو يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني الذي ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة وخدم الرشيد ومن بعده الى أيام المتوكل وكان معظماً في بغداد جليل القدر ...»[٢] وإن كان ضيق الصدر وبينه وبين بختيشوع مداعبات كثيرة . وقد استقدم الرشيد الى قصره أيضاً صالح بن بهلة الطبيب الهندي . وبرصوما الزامر ومنكا الطبيب الهندي الآخر ... وكان من الذمة حول المأمون : عبد الله بن سهل بن نوبخت المجوسي . وما شاء الله اليهودي من المنجمين وسهل بن سابور الطبيب الاهوازي الكوسج الذي لم يكن يجيد حتى لفظ العربية . وجبريل الكحال ، وعيسى بن الحكم بالإضافة إلى جرجيس بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه . هذا إذا لم نذكر من اتخذهم الرشيد ثم المأمون في دار الحكمة للترجمة من علماء وتراجمة السريان والنساطرة من امثال : يوحنا بن ماسرجس (أو ماسرجويه) وأبي زيد حنين بن إسحاق العبادي وابنه اسحق وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقي ولم يكن ينقص هذه الجماعة الذمية في بغداد لا المال ولا الجاه ولا التكريم والنفوذ في الدولة .

كان بختيشوع يتناول شهرياً اثني عشر ألف درهم وكان ماسويه يأخذ ألف درهم مع صلة سنوية تبلغ عشرين ألفاً وكان راتب جبرائيل

---

(١) انظر ابن العبري ص ١٣٠-١٣١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ .

ابن بختيشوع الشهري عشرة آلاف درهم غير الهبات الدائمة والاقطاعات ....

وكان بجانب هؤلاء جماعة أخرى من مثلها لم تشتهر أسماؤها في الكتب وإن كانت مشهورة لدى الناس في ذلك الوقت لانهم من عمال الخراج وكتاب الدواوين . وفي أيديهم أعناق الناس وعلاقاتهم المالية مع الدولة . وقد روى ابن قيم الجوزية أن «أهل الذمة قويت شوكتهم في زمن المهدي» . حتى «اجتمع الناس الى بابه متظلمين من ظلم الذمة» وأنه «كان للمهدي في بعض ضياعه بالبصرة كاتب نصراني ظلم الناس حتى تظلموا منه الى سوار بن عبد الله القاضي وشهد الناس على النصراني فمضي الى المهدي فأخذ كتاباً منه يطلب الى القاضي التثبت من أمره» ولكن الرجل دخل على القاضي المسجد ومعه كتابه وجماعته وتحدي الخدم وسبهم ودفع كتاب القاضي حتى جلس على يمينه مما دعا هذا القاضي إلي أن يأمر بجره من رجله الي خارج المسجد ويحلف ألا يبرح حتى يؤدي للمسلمين حقوقهم . وقد خشي كاتب القاضي عاقبة ذلك من المهدي فقال له القاضي : أعـز أمر الله يعزك الله ![1] وكان عامل الخراج في أعمال الأهواز وكور دجلة وفارس وعامله في السواد حتى الأنبار من أهل الذمة في بعض الفترات . وقد كتب للمهدي يونس ابن أبي فروة وكان زنديقاً فطلب فاختفى حتي هلك واستكتب الرشيد ازدانقاذار على ديوان الخراج وكان ثنوياً[2] و«كانت زبيدة ، (زوجة الرشيد) تميل الى النصارى وتستخدمهم»[3] .

---

(١) ابن قيم الجوزية ــ أحكام أهل الذمة ج١ ص٢١٥ــ٢١٦ و ٢١٧ .
(٢) الجاحظ ــ رسائل (ط . هارون) ج٢ ص٢٠٢ــ٢٠٣ .
(٣) انظر ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧٣ .

ثم نعود في زمن المأمون لنرى أن كاتبه اسماعيل بن داود كان شعوبياً وكان يتهم بالثنوية[1] وكأن يعقوب الكاتب ووهب الكاتب كانا من النساطرة كما كان من الطائفة نفسها ابراهيم صاحب بيت المال[2] وقد بلغت أعداد الذميين في دواوين المأمون على الجيش والخراج أعداداً وفيرة تزيد في بغداد والسواد فقط على ٢٨٠٠ موظف عدا جماعة أخرى من العمال اليهود كانت تتولى بعض الجهات •كما نجد المسلمين يتظلمون الى المأمون في مصر من العمال الأقباط[3] • ومن الأخبار ذات المعنى أن قبطياً ثرياً في زمن المأمون يدعى بكام كان له حكم بورة فكان يقيم الشعائر للمسلمين فإذا كان يوم الجمعة لبس السواد وتقلد السيف وامتطى حصانه ومضى الى الجامع وبين يديه رجاله حتى إذا بلغ باب المسجد وقف وأنفذ رجلا مسلماً من قبله للصلاة بالناس ولا يجد مؤرخ هذا الخبر أي غرابة فيه[4] •

ثم نعود كرة ثالثة لنجد حسب رواية ابن قيم الجوزية : « أن المباشرين للأعمال من أهل الذمة قد كثروا في زمان المتوكل وزادوا على الحد وغلبوا على المسلمين لخدمة أمه وأهله وأقاربه وذلك في سنة ٢٣٥ فكانت الأعمال الكبائر كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي ••• وكانوا قد أوقعوا في نفس المتوكل من مباشري المسلمين ايضاً وأنهم بين مفرط وخائن • وعملوا عملا بأسماء المسلمين وأسماء بعض الذمة لينفوا التهمة وأوجبوا باسم كل واحد منهم مالا كثيراً • وعرض على المتوكل

(١) رسائل الجاحظ ج٢ ص٢٠٤ .
(٢) ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧٥ و ٧٧ .
(٣) ابن قيم الجوزية أحكام ج١ ص ٢١٩ و ٢١٨ .
(٤) ترتون ــ أهل الذمة ص ١٣١ .

فأغرى بهم وظن ما أوجبوا ذلك حقاً . وأن المال في جهاتهم كما أوجبوه ودخل سلمة بن سعيد النصراني على المتوكل وكان يأنس به ويحاضره فقال : يا أمير المؤمنين أنت في الصحاري والصيد وخلفك من يشرب في آنية الذهب والفضة ويملؤها ذهباً عوضاً عن الفاكهة ...» وذكر له جماعة من الموظفين المسلمين الأغنياء وأن أحدهم صاغ صوالجة وأكر (من أجل لعبه) من ثلاثين ألف دينار وأمير المؤمنين يضرب بكرة من جلود وصولجان من خشب . فأحضر المتوكل أولئك الكتاب والموظفين وصادرهم ... وكانت تلك سعاية من سلمة بن سعيد لتخلو أركان الدولة من الكتاب المسلمين ويتمكن هو ورهطه منها . وقد وصلت الشكوى من عامل خراج دمشق : سعيد بن عون النصراني الى باب المتوكل في سر من رأى[1] .

هذا الخط المتصل من تعاون الدولة العباسية مع الذمة أصيب بعدد من الأزمات الناجمة تارة عن تعسف الذميين وضغط الفقهاء ورجال الدين ضدهم وتارة عن حوادث الحدود البيزنطية :

فقد « اجتمع المسلمون إلى بعض الصالحين ( زمن المهدي ) وسألوه أن يعرفه قوة شوكة الذميين فامتنع الرجل عن عادته في حضور مجلس الخليفة ولما دعاه أبى فجاء المهدي إلى منزله فقص عليه :اجتماع الناس ببابه متظلمين من أهل الذمة وقال : لقد سلمت الأمانة التي خصك بها الله الى أهل الذمة دون المسلمين ... وهي أموال المسلمين وأماناتهم وأسرارهم وهذه النصيحة حجة عليك ثم أنشده فيما يقولون :

---

(١) ابن قيم الجوزية ـ احكام ج١ ص ٢١٩ـ٢٢١ .

بأبي وأمي ضاعت الاحلام أم ضاعت الأذهان والأفهام
من صد عن دين النبي محمد أله بأمر المسلمين قيام ؟
إلا تكن أسيافهم مشهورة فينا فتلك سيوفهم أقلام

فبادر المهدي فعين عمارة بن حمزة على أعمال الأهواز وقلد حماداً مولاه أعمال السواد وأمر أن لا يترك أحداً من الذمة يكتب لأحد من العمال وإن علم أن أحداً من المسلمين استكتب أحداً من النصارى قطعت يده ... فقطعت يد شاهويه وجماعة من الكتاب[1] ..

وتكررت الأزمة نفسها زمن الرشيد ولعلها كانت في أواخر حياته بعد سنة ١٩١ إذ « صرف الذمة عن أعمالهم واستعمل المسلمين عوضاً عنهم ... »[2] وذلك إثر هجمات الروم التدميرية على أرض الاسلام . وقد أفتاه العلماء في تلك التدابير وغيرها .

ثم تكررت الأزمة مرة ثالثة في عهد المأمون إذ ثار القبط في مصر، وضغط الروم على الجبهة «واتفق للذمة مجاهرة في بغداد بالبغي والفساد على الكسائي ، معلم المأمون فقرأ المأمون أمامه مرة : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فهو منهم» فقال الكسائي : ياأمير المؤمنين : أتقرأ كتاب الله ولا تعمل به . فأمر المأمون باحضار الذمة (وصرفهم) فكان عدد من صرف وسجن ألفين وثمان مائة . وبقي جماعة من اليهود منحازين إلى حماية بعض جهاته فخرج توقيعه بما نسخته : « أخبث الأمم اليهود . وأخبث اليهود السامرة وأخبث السامرة بنو فلان فليقطع ما بأسمائهم من ديوان الجيش والخراج إن شاء الله »[3] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٧ .
(٣) ابن الجوزية ج١ ص ٢١٩ .

على أن الأزمة الكبرى إنما كانت زمن المتوكل حين كثروا في الاعمال كبيرها وصغيرها واستطاع بعضهم أن يوقع بالكثير من الكتاب المسلمين كما تعسف بعضهم بكل مكان حتى وصــل مرة شيخ كبير من دمشق يتظلم من ابن عون النصراني الذي غصبه داره فاشتد غضب المتوكل للدرجة التي كتب بخطه تحت الرسالة التي حملهـا الشيخ : إلى ابن عون : «نفيت من العباس لئن خالفت فيما أمرت لأوجهن من يجيئني برأسك ...» . وكثر تظلم الناس من كتــاب أهل الذمــة وتتابعت الإغاثات وحج المتوكل فشوهد رجل يطوف بالبيت ويدعو عليه فأخذه الحرس فلما سأله المتوكل السبب قال : قد اكتنفت دولتك بكتاب من أهل الذمة احسنوا الاختيار لأنفسهم وأساؤوا الاختيار للمسلمين وأنت مسؤول عما اجترحوا ... «فبكى المتوكل إلى أن غشى عليه» . وخرج أمره سنة ٢٣٥ وفيه : «... قد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناسا لا رأي لهم ... يستعينون بأهل الذمة في أفعالهم ... ويسلطونهم على الرعية فيعسفونهم ... فأعظم ذلك وتبرأ الى الله منه ورأى أن يكتب إلــى عماله على الكور والأمصار وولاة الثغور والأجناد في ترك استعمالهم للذمة في شيء من أعمالهم وأمورهم والاشراك لهم في أماناتهم وماقلدهم أمير المؤمنين ... وجعل في المؤمنين الثقة في الدين والأمانة على إخوانهم المؤمنين ... ما أغنى عن الاستعانة بالمشركين بالله ... والله يعين أمير المؤمنين على نيته في تعزيز الاسلام ... فليعلم هذا من رأي أمير المؤمنين ولا يستعانن بأحد من المشركين وانزال أهل الذمة منازلهم التي انزلهم الله تعالى . فاقرأ كتاب أمير المؤمنين على أهل أعمالك وأشعه فيهم ولا يعلمن أمير المؤمنين أنك استعنت ولا أحد من عمالك وأعوانك بأحد من اهل الذمة في عمل والسلام»[1] ...

(١) انظر النص الكامل للكتاب لدى ابن قيم الجوزية ــ احكام ج١ ص ١٢٢ ــ ٢٢٤ .

ويبدو أن هذا الكتاب الذي وزع في كافة الأمصار قد نفذ اكثر من الأوامر السابقة من مثله بسبب تكاثر المسلمين في القرن الثالث عنهم في القرن الثاني وتوفر الأكفياء منهم للأعمال • ولعل هؤلاء أنفسهم كانوا وراء إصدار مثل هذا القرار أيام المتوكل ليتولوا الأعمال التي توارث شغلها الذميون بشكل تقليدي منذ العهد الأموي •

ثانيا : العلاقة مع المؤسسات الكنسية : بدأ المهدي عهده بداية طيبة مع بطاركة العراق إذ أخرج جيورجيوس بطريق اليعاقبة من السجن واعاده الى منصبه • ويبدو أن أسقف دارا (الذي أسقطه مؤرخو السريان من قائمة البطاركة) كان قد مات في عهد المنصور فخلت البطريركية لجيورجيس حتى مات في عهد الرشيد سنة ١٧٤/٧٩٠ • وخلا المنصب البطركي النسطوري أيضاً بموت صاحبه يعقوب سنة ١٥٧/٧٧٤ فسأل بعض النساطرة المهدي إجلاس جاثليق للطائفة واجتمع الأساقفة فاختلفوا بين راهب يدعى جورجيوس • كثير العلم وبين أسقف يدعى حنا ينشوع • فأحضر المهدي الاثنين عنده ودعاهما الى الاسلام • فأمسك الأول وتعلل الثاني بأنه لا يعرف العربية ••• وبعد فترة من المناقشة أمر المهدي باختيار حنا ينشوع الثاني والتنكيل بمن يخالفه[1] • ولكن هذا البطريق مات مسموماً بعد أربع سنوات فعمل أبو قريش عيسى الطبيب ، وأبو نوح الكاتب على اختيار البطريق طيماثاوس الذي أغرى بعض الأساقفة بالمال أيضاً • خداعاً منه[2] ، وقد

---

(١) أنظر ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٧١ ـ ٧٢ ، وانظر كذلك عمرو بن متى ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(٢) المصدران نفسهما ص ٧٢ وكذلك ص ٦٤ .

خالفه بعضهم ومنهم اسقف مرو وأسقف جند يسابور ونصبوا بطريقاً آخر ووقعت الخصومات بين الناس والضرب والحبس فلما حرم البطريق المخالفين له جاء أسقف مرو الى المهدي فأسلم على يديه وقلده المهدي بعض اعمال البصرة . وأقام مدة ثم خرج الى بلد الروم[1] . أماطيماثاوس فقد استمر على البطركة ثلاثاً وأربعين سنة مدة عهد المهـدي والهادي والرشيد والأمين ثم مات في عهد المأمون أواخر سنة ٢٠٦/٨٢٣ وكانت علاقاته مع هؤلاء جميعا كأحسن ما تكون العلاقة : يتردد على البلاط ويناقش الخلفاء في الدين . ويذكرون أنه كان يحظى بتكريم خاص من زبيدة وأن السبب في ذلك أنه استطاع إيجاد مخرج فقهي للرشيد في يمين بالطلاق حلفها عليها «وبهذا حظى عندها وعاونته على ساير أموره وما يحتاج إليها فيه وأعطته آلات الذهب والفضة والديباج وغيره ..»[2] ولم يتدخل الخلفاء لمنعه من أن يرسل بعوث التبشير إلى جنوب الجزيرة العربية وبلاد الخزر وملوك الترك والصين حتى قال مؤرخو النساطرة إنه لم يبق ملك إلا وكاتبه وجذبه الى الايمان وتلمذه ! ..» «ووردت عليه كتبهم ...»[3] ومنهم خاقان الترك . الذي تذكر أحدى رسائل البطريق أنه اعتنق المسيحية مع شعبه كله تقريبا حوالي سنة ٧٨٢ ـ ٧٨٣ .

ولم يكن البطريق اليعقوبي الذي اختير في عهد الرشيد سنة ١٧٧ ٧٩٣ وهو قيرياقوس التكريتي على مثل علاقة زميله مع الخلافة وإن

---

(١) ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص ٧٢ .

(٢) أنظر المصدر السابق ص ٧٣ وص ٧٥ والمخرج الذي وجده فيما قيل أنها تتنصر فيحل قتلها ثم تسلم فتحل للرشيد .

(٣) المصدر السابق ص ٧٣ وص ٧٤ .

حفظ له الخلفاء مكانته الدينية وذلك أنه كان فيما يبدو مشغولا بانقسامات طائفته وقد قضى مدته حتى موته سنة ٢٠٢/٨١٧ في نضال متصل مع الاساقفة والرهبان الذين عارضوا رغبته في الاتفاق مع بعض الطوائف الأرمنية ثم تلاه ديونيسيوس التلمحري ما بين سنتي سنة ٢٠٢ ــ ٢٣٠/٨١٨ ــ ٨٤٥ فقضى الكثير من وقته في محاولة الاستقرار في كرسيه وقد ظهر له خصوم استعانوا بالسلطة ضده كما استعان هو ضدهم بها وكان أمر منطقة العراق ثم أمر الجناح الغربي من العالم الاسلامي موكلا من قبل المأمون الى عبد الله بن طاهر فكان عليه أن يحل المشكلة • وقد اتفق أن كان مرة في كالينيكوس من أعمال انطاكية فاجتمعت على بابه آلاف النصارى من أنصار ديونيسيوس وأنصار خصمه الاسقف أفرام وأدخل عبد الله البطريق أولا ورجاله قبل الخصم الشاكي ورجاله وسأل البطريق عن الخبر فقال : إنهم يشاغبون عليه كما شاغبوا على أسلافه لاثارة الاضطراب في البلاد ثم أدخل عليم إفرام فسأله عن شأنه فقال : إنه هو البطريق الشرعي • فأرسل عبد الله الى قائد الجند أن يسأل الجموع الواقفة ببابه عن بطريقها الشرعي فصاحوا: لا بطريق سوى ديونيسيوس • فجرد عبد الله الأسقف افرام من لباس البطرقة وحرمه لبس شعارها أو حمل عصا الرعوية ، أو السفر في البلاد وأعاد ديونيسيوس الى كرسيه مع التبجيل •••

ولم يسكت افرام عن ذلك واستطاع أخوه سيمون أن يتذرع بوثيقة قديمة من الامام علي بن أبي طالب في بعض الأديرة وبنفوذ بعض المسؤولين في بغداد وببعض الشكايات من النصارى ضد ديونيسيوس وظلمه وأن يستصدر مرسوماً من قبل الخليفة المأمون بقبول افرام بطريقاً • وعاد سيمون بالمرسوم وجمع حشداً كثيفا من

الرهبان وعلى رأسهم اخوه افرام بلباسه الرسمي • وذهب إلى عبد الله ابن طاهر الذي استدعى ديونيسيوس •• ولكنه حين قرأ مرسوم المأمون سحب يده من الأمر واضطر ديونيسيوس أن يصرف الكثير من الجهود في بغداد ومن الرشاوي والوسائط لكي يحتفظ بالمنصب[1] •

ومن الملاحظ أن هذا النوع من التمزق الطائفي والقلق والصراع البطريقي شمل منذ مطالع القرن الثالث الهجري كلا من الطائفتين النسطورية واليعقوبية على السواء ووقعتا في الخلاف الشديد والضعف ولعل السبب إنما يرجع إلى شعورهما بالتناقص العددي لحساب الجانب الاسلامي ورغبتهما في القوة والدفاع عن العقيدة •

ويلاحظ الانشقاق نفسه في الطائفة اليهودية في تلك الفترة ذاتها فقد « اختلف اليهود وكان بينهم شقاق على الرئاسة (زمن المأمون) فإن يهود طبرية رأسوا عليهم رجلا اسمه داوود ويهود بابل رأسوا عليهم دانيال من العنايتيين وهم شيعة منهم استبدلوا بالسبت الأربعاء •ورفعوا دعواهم إلى المأمون فأبرز أمراً فحواه انه إذا اتفق عشرة رجال من أي مذهب كانوا ، على إقامة رئيس ساغ لهم ذلك سواء كانوا نصارى أو يهوداً أو مجوساً»[2] •

وقد طبق المأمون هذه القاعدة ، في الواقع ، مع النصارى أيضاً

---

(١) تريتون ــ أهل الذمة

(٢) الياس الدبس ــ تاريخ سورية (بيروت سنة ١٩٠٠) الجزء ٣ق المجلد الخامس ص ٣٤٧ .

فلم يتدخل في شؤون الكنيستين النسطورية واليعقوبية بشكل مباشر ولكن كبار الذميين من رجال البلاط هم الذين كانوا يمارسون نفوذهم عليهما لإمضاء آرائهم • ونرى أسماء : جبريل بن بختيشوع وميخائيل الطبيبين ، ويعقوب ووهب الكاتبين تتردد في أخبار اختيار البطاركة النسطوريين الثلاثة الذين تعاقبوا في عهد المأمون والمعتصم على منصب الجاثليق • وربما أثر المأمون في اختيار سبر يشوع للمنصب سنة ٢١٧ لأن الخليفة وأصحابه ومن كان في حاشيته من النصارى لقوا منه حين زاروا دمشق سنة ٢١٦ «أحسن الخدمة ، واعتقدوا فيه الجميل» بماقدم لهم من المعونة حين أصابهم فيضان نهر بردى[١] • لكن أسماء سلمويه الطبيب وأخيه ابراهيم صاحب بيت المال هي التي تظهر في اختيار البطريق التالي له : ابراهيم • فقد تدخلا لدى المعتصم حتى أمر بـرد المرشح المخالف في الطريق وتنصيبه[٢] • وجرى الأمر على النحو نفسه بالنسبة للبطريق التالي تاذاسيس الذي سأل بختيشوع الطبيب وعدد من وجوه الذميين معه الخليفة المتوكل في أمره « فأمر بتقليده سنة ٢٣٨ وسر النصارى بانعطاف المتوكل (بينما) اجتهد ابراهيم بن نوح (أحد كبار موظفي القصر الذمة) في إزالة المتوكل عن ذلك ولم يمكن» ثم ما لبث ابن نوح أن أقنع المتوكل بتغييره فلم يكن إلا شهر بعد تنصيبه حين تغير الخليفة على بختيشوع فاعتقله وصادره وعلى البطريق فبعث إلى بغداد بسجنه وحمله الى سامراء ••• ولم يكن ذلك عن اضطهاد ديني بحت ولكن أحد الاطباء المعروفين وهو سرجيس تحول عن المذهب النسطوري

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ إذ يقول : «... لما حصل (المأمون) بدمشق في وقت الغرق » .

(٢) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٩ — ٨٠ .

وأبلغ الخليفة أن الجاثليق «يكاتب ملك الروم ويدعو له ويرفع أخبار المملكة . وسأل المتوكل الجاثليق عن الحال فأنكرها وسامه اليمين فأبى ... وأشار من في الخدمة من الرؤساء بأن يحلف فلم يفعل».
وهكذا بقي في السجن ثلاث سنوات وستة أشهر ...

*

كانت الأزمة ضد النصارى قد بدأت إذ ذاك . وبلغ تضييق المتوكل عليهم أوجه وتخلل ذلك إيقاع من النصارى بعضهم في بعض .. حتى إذا هدأت العاصفة بعد سنوات وخرج المتوكل من العراق يقصد الشام قوبل من مطران نصيبين «بالرياحين وعقد القباب» فلما اجتاز تحتها استحسنها وحمل إليه المطران «جميع ما يحتاج إليه من الخيرات والفاكهة والشراب ... فاستقبله المتوكل في معسكره وأطلق له عشرة آلاف درهم وخف ما في قلبه على النصارى ...» . وفرق المطران المال على الحواشي فعظم ذلك عند المتوكل وأوصى الأمير والقاضي في نصيبين بقضاء حوائجه وسأل الفتح ابن خاقان كيف تكافئه فقال : إذا مات الجاثليق نجلسه لأنه «لايجوز في سنة النصارى إزاحته» . «فوصاه إذا مات تاذاسيس أن يبلغه ذلك ... وتعطف المتوكل على النصارى . وعمل على إطلاق تاذاسيس . واتفق موت يوحنا ابن ماسويه الطبيب وكان عزيزاً عليه فأمر بتبجيله وإكرامه في تجنيزه . فلما قالوا : إن القسس والرهبان مطرودون من سامراء أمر بردهم وإطلاق الجاثليق ولا يسامون من بعد الخروج من المدينة ...» : واستأذن الكتاب والمتطببون في انحدار الجاثليق إلى بغداد ... فوقع (المتوكل) إلى أمير بغداد بإدخاله بغداد مكرماً . وخرج من سر من رأى أحسن خروج وادخل بغداد أحسن دخول بالاكرام العظيم والتبجيل...»[1].

---

(١) المصدر السابق ص ٧٩ ــ ٨٠ .

ولما مات بعد سنة وعدة أشهر نصب سرجيس مطران نصيبين بدلا منه ... على الوعد الذي وعده المتوكل كما انتقل هـو بكرسيه إلى سامراء ليكون اقرب الى دار الخلافة ...

وإذا نظرنا من جهة أخرى إلى رعاية المعابد الكنسية وجدنا كما قال ترتون أنه من «الحقائق» الثابتة «أن الكنائس كانت تبنى بحرية وبموافقة السلطة وأحياناً بمساعدتها ... والمراجع النصرانية تخلو خلواً تاماً من الإشارة إلى منع أو هدم المعابد مما ينهض دليلا على عدم وقوع ذلك . وإذا خلينا الاشارة الوحيدة (إلى أمر عمر بن عبد العزيز وهو أمر مشكوك فيه) فليس هناك أي إشارة حتى سنة ١٥٠ أو سنة ١٧٠هـ الى صدور أمر بمنع استحداث الكنائس بل ان المتوكل كان أول من حرم إقامة بيعة جديدة بمقتضى مرسوم سنة ٢٣٥ ...»[١] .

والواقع أن أول أمر يتصل بهذا الموضوع إنما كان على ما يبدو سنة ١٦٢ والأمر الانتقامي الذي أصدره المهدي إثر الهجمات التدميرية التي قادها امبراطور بيزنطة ليو الرابع (لاون) في الأراضي الاسلامية منذ سنة ١٥٩ . يقول مؤرخ نسطوري إن «لاون أخرج (الى المهدي) بطريقين (أي قائدين) من الوجوه وكسروا عسكره وسبوهم فأغاظه ذلك فهدم البيع وسلبوا النواحي وأمر أن لا يقتني النصارى عبيداً» كما أمر بتهجير أعداد من اليعاقبة الى بلاد الروم ولا شك أن دوافع هذا الأمر كانت دفاعية أو كانت على الأقل وقائية تتصل باتهام نصارى الحدود لدى المهدي بممالأة الروم ومعونتهم . ولكن الأمر لم يطل فما

---

(١) ترتون ـ أهل الذمة في الاسلام (الترجمة العربية) ص ٥١ ـ٥٢ .

إن انتصرت جيوشه سنة ١٦٣ حتى «عاد فأزال ما النصاري فيه »[١]
ومن الواضح أن تدابير الهدم لم تتجاوز منطقة الحدود والثغور لأن لم تسمع عن تنفيذها في أي مكان آخر • ونسمع عن خبر آخر زمن الرشيد إذ أخبره حمدون بن علي أحد رجال البلاط «أن النصارى يعبدون عظام الموتى وهي في بيعهم فأمر بهدم البيع فهدم بيع البصرة والأبلة وغيرها (أي في منطقة السواد فقط) واجتمع النصارى الذين في خدمة الرشيد وعرفوه •••» أنه تكريم لأجساد الأشهاد والصالحين وليس بعبادة ••• «فتحقق ما قالوه وأمر بإعادة بناء البيع» ![٢] •

ولعلنا نلاحظ أن النصارى واليهود حين بنيت بغداد ثم بنيت سامراء بعدها قصدوا العاصمتين وسكنوهما وأنشأوا فيهما الكنائس والمعابد المختلفة العديدة • بل انتقل إليهما مقر الرؤساء الدينيين أحياناً • فصار للبطاركة مراكزهم فيهما ولرؤساء الجالوت اليهود مقراتهم مما يعني بوضوح عدم وجود أي خطر في هذا السبيل •

ولا ندري بالضبط متى كان انتقال مقر الرؤساء الدينيين المختلفين الى بغداد ولا شك أنه كان في وقت مبكر • ولئن ظل للمجوس والنساطرة مقراتهم التقليدية في المدائن ولليهود مقرهم العتيق في بابل فإن النساطرة واليهود على الأقل قد أقاموا مقرات جديدة في بغداد لرؤسائهم الروحيين وربما قام النساطرة خاصة بذلك في عهد المهدي نفسه وبتأثير أبي قريش الطبيب فنال بطريقهم المسمى بالجاثليق[٣] حق السكنى في بغداد وجعلها

---

(١) ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص ٧٤ .
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٧٥ .
(٣) الجاثليق هي تعريب كلمة كاثوليكوس ويستعملها الأرمن والنساطرة .

مقراً لكرسيه فقام من حوله حي للنصارى عرف بدار الروم وإن بقيت السيامة الدينية وحفلات التنصيب التقليدية بالمدائن . وإذا لم ينل بطريق اليعاقبة السريان هذا الحق وإن حاولوه مراراً فلذلك أسباب عديدة منها أن اكثرية نصارى العراق كانت من النساطرة فكان للجاثليق فيها سلطة روحية على سبع أبرشيات (مطرانيات) فيها البصرة والموصل ونصيبين وتكريت . ومنها أن نفوذ النساطرة كان أقوى في البلاط العباسي وفي الحكومة فكانوا يدسون على اليعاقبة ويعملون على منعهم من حق أقامة مقر بطريقي لهم ببغداد فبقي مقر بطريقهم في انطاكية وليس له في العراق اكثر من أبرشية في تكريت وبعض الأديرة في بغداد . ومنها أخيراً أن اليعاقبة كانوا متهمين بممالأة بيزنطة والميل مع الروم أحياناً . وكان هذا من أهم الأسباب في منعهم من إقامة ممثل مستقر في العاصمة العباسية .

وكان الولاة بدورهم يتصرفون في أمر بنـاء الكنـائس حسب اجتهادهم فإنا نرى والي مصر زمن الهادي وهو علي بن سليمان العباسي وكان قدرياً ، معتزلي الهوى يصر في ولايته التي استمرت حتى السنة الثانية من عهد الرشيد على «... هدم الكنائس المحدثة بمصر (بعد الفتح) فهدم كنيسة مريم ... وهدم كنائس مجرس قسطنطين . وبذل له (القبط) خمسون ألف دينار في تركها فامتنع ...»[1] .

على أن مجرد تسجيل هذه الحوادث دليل على أنها كانت تدابير محلية وعابرة ويظهر من أقوال مختلف المؤرخين النصارى بالعكس أن

---

(1) الكندي الولاة والقضاة ص ١٣١ والمقريزي (المخطط ج٢ ص ٤٩٣) يجعل هدم هذه الكنائس إثر ثورة سخا سنة ١٥٦ في زمن المنصور .

عملية بناء وتجديد البيع كانت عامة مباحة مستمرة • ونسمع في زمن المهدي نفسه أو بعده بقليل عن بناء دير للروم الشرقيين في بغداد ، وعن بناء دير سمالة بالقرب منها أيضاً[1] وقد جدد البطريق طيماثاوس في تلك الفترة نفسها دير كليلشوع واتخذه مقراً له في المدائن[2] • « وأخرجت زبيدة (اكراماً لطيماثاوس) توقيع الرشيد باعادة المستهدم من الدير وتوسيعه وعملت أعلام الشعانين وصلبان من ذهب وفضة وعاونت سرجيس مطران البصرة على بناء البيع بها • وعضدت جبريل الطبيب في خطابه (للرشيد) في ذلك »[3] •

وبالمقابل جاء موسى بن عيسى والياً على مصر من قبل الرشيد سنة ١٧٢ فأذن للنصارى في بنيان الكنائس التي هدمها علي بن سليمان فبنيت كلها إثر الفتوى التي أفتاها اكبر فقهاء مصر في ذلك الوقت :الليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة بأن عامة كنائس مصر بنيت زمن الصحابة والتابعين فلم يعترضوا على بنائها[4] • وقد جاء بطريق الملكانية في مصر الى بغداد يعالج بعض جواري الرشيد ونجح في العلاج فطلب من الخليفة استرداد بعض الكنائس التي كان القبط استولوا عليها من طائفته فأمر له بذلك[5] •

---

(١) انظر ياقوت الحموي ــ معجم البلدان ج٢ ص٦٦٢ وص٦٧٠ •
(٢) ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧٤ •
(٣) المصدر نفسه ص ٧٣ •
(٤) الكندي الولاة والقضاة ص ١٣٢ والمقريزي ــ الخطط ج ٢ ص ٤٩٣ •
(٥) المقريزي ــ الخطط ج٢ ص ٤٩٣ •

ولا شك أن سياسة الرشيد بقيت على هذه الأسس نفسها حتى وفاتــه •

وإن كانت أحداث جبهة الروم في أواخر حياته قد دفعتــه الى أن يأمر سنة ١٩١ «بهدم الكنائس في الثغور»[١] والى أن ينبــي مدينة الحدث من انقاض اثنتين منها ولعله اتخذ هذا التدبير عقوبة لما رأى من تعاون نصارى الحدود مع الروم •

وقد تابع الأمين سياسة أبيه في هذه الناحية ويروي أنه رأى حلماً يتبين فيه ظلم حمدون بن علي في المنع من بناء البيع فأصــدر منشوراً يسمح بها • وحدث سنة ١٩٨ ، بعــد مقتــل الأمين أن رأى ابراهيم القرشي والي حران بعض العمائر المستحدثة حول قصره فلما تبين أنها بيع حديثة البناء أمر ألا تغرب شمس يومه حتى تكون قد سويت جميعاً بالأرض • وسرعان ما قدم الفعلة وهدموا مذبح الكنيسـة الكاثوليكية ومذبح كنيسة تيوتوكوس وجزءاً من بيعة مارجرجس وكنائس أهــل خلقدونية (الملكانية) والنساطرة وكنيس اليهود • ولما أقبل الصباح الثاني ثاب الى رشده وأذن بإعادة تشييد ما هدمه بالتدريج وسرعان ما جددت البيع والكنائس •••»[٢] •

وقد خربت أثناء فتنة الامين والمأمــون ديارات كثيرة في وادي هبيب (النطرون) في مصر ثم أعيد ترميمها بعد سنوات قلائل • وترد

---

(١) الطبري ج٨ ص ٣٢٤ (٣/٧١٣) •

(٢) ترتون ــ اهل الذمة (بالعربيــة) ص٤٩ نقلا عــن ابن العبري (بالسـريانية ــ الترجمة الفرنسية ص١٢٩) •

عدة أخبار تتصل ببناء عدد من الكنائس في مصر زمن المأمون : فقد قام بعض حجابه ببناء كنيسة العذراء بناحيـة القنطرة وحصـل أثناذ من الفراشين على إذن ببناء كنيسة على جبل المقطم لأن كنائس القلعة شديدة البعد وبنى أحد الأثرياء عدة كنائس رائعة الجمال في بلدته بورة[١] ••• الخ كما بنى الطبيب بختيشوع بن جبرائيل الدير الذي دفن فيه أبوه وهو دير مارجرجس في المدائن وجمع له رهباناً وأجرى عليه الجرايات والنفقات[٢] •

وحين تولى عبد الله بن طاهر الجانب الغربي من الخلافة للمأمون: قدم عليه وفدمن العرب منحران والرها وسميساط يسألونه هدم الكنائس التي استحدثت في السنوات العشر الأخيرة (أثناء فتنة الأمين والمأمون وبعدها) فرفض سؤالهم قائلا إن هؤلاء النصارى المساكين لم يستحدثوا عشر الكنائس التي هدمت أو خربت ••• ويذكرون أنـه مر في بيت المقدس عائداً إلى بغداد فشكا إليه المسلمون زيادة النصارى في قبـة كنيسة القيامة حتى جاوزت قبة الصخرة وأمر ابن طاهر بسجن توماس البطريق حتى تنجلي الحقيقة ولكنه أطلق من السجن بحيلة منطقية قيل إن بعض المسلمين جاء الى سجنه فعلمه إياها[٣] •

وفي عهد المعتصم جدد بعض البطاركة عدداً من البيع : كتجديد (سبريشوع) أبنية مارفثيون الدير القديم بجانب بغداد وبنـاء بيت الأشهاد والأروقة وبعض الأديرة القديمة الأخرى • أما الخليفة نفسه

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ .
(٢) القفطي ـ أخبار الحكماء ص ١٤٢ .
(٣) ترتون ـ اهل الذمة ص ٥٠ ـ ٥١ .

«فابتاع من السكان النصارى في سر من رأى ذلك الموضع والخرابات المتصلة بالمطيرة»[1] وبنى عليها العاصمة الجديدة للخلافة .

ولما جاءت العاصفة مع المتوكل «... أمر (سنة ٢٣٩) بهدم كل البيَع المحدثة في الاسلام»[2] ويذكرون نتيجة لذلك أنه «... جد في هدم البيع والدير بسر من رأى . وهدم دير بدورقنة (المقر البطريقي) وأقطعه لمحمد بن جميل ، صاحب الشرطة ، ليبنيه منزلا ... وهدم عدة بيع وأعمار منها دير مارقرياقوس بالأنبار وفيه يعمل الشعانين ..وهيكل ماريونان ...»[3] ولا شك أن هذا الأمر الذي كان الأول من نوعه في الاسلام لم يستمر طويلا كما لم ينفذ التنفيذ الدقيق وما هي إلا سنوات حتى عاد الخليفة نفسه فأهمل تطبيقه .

أما المجوس في ايران وخراسان فلم يكن التدخل في شؤونهم الدينية ولا في معابدهم وبنائها موضوع بحث أو تفكير لدى العباسيين، وكانوا ، رغم خسارتهم المستمرة في الاتباع ، يتابعون حياتهم الدينية المعتادة وتنظيماتهم الكهنوتية على الرسم الذي اعتادوه دوماً . ولهم رؤساؤهم والكهان وبيوت النار التي يتعهدون . وإذا أصدر عمر بن عبد العزيز مرة كتابه الى عماله بأن لا يهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار ...»[4] فإن الخلفاء العباسيين لم يكونوا بحاجة الى إصدار هذا الأمر بالنسبة لبيوت النار

---

(١) ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص ٧٧ .
(٢) الطبري ج٩ ص١٩٦ (١٤١٩/٣).
(٣) ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص ٧٩ .
(٤) الطبري ج٦ ص ٥٧٢ (١٣٧١/٢) .

على الأقل لأنهم تركوها لحرية الناس المطلقة • يحدثون من هذه البيوت ويجددون ما يشاؤونه • حتى إننا لنجدها في القرن الرابع الهجري ماتزال تملأ البلاد والقرى في الجناح الشرقي من الخلافة الاسلامية : ونقرألدى ابن حوقل : «أن بيوت نيران (فارس) كثيرة • ويعجز علمها من سوى الديوان إذ ليس من بلد ولا ناحية ولا رستاق إلا وبها عدد كثير من بيوت النيران • غير أن المشاهير التي يفضلونها على غيرها في التعظم منها بيت نار الكاريان ••• وبيت نار بجرة وبه تحلف المجوس فيالمبالغة بأيمانهم • وبيت نار عند بركة جور ••• حدثني من قرأ عليه بالفهلوية أنه أنفق عليه ثلاثـون ألف ألف درهـم ••• وبيت ••• نار في قرية السوكان يرى ••• من شيراز ••• وبيت • وبيت »[1] • وكانتالموارد المالية لهذه البيوت من الضخامة بحيث أن بيت نار المدائن ، جنـوب بغداد « كانت النفقة عليه تضعف على خراج فارس »[2] • وخراجفارس في تلك الفترة كان حسب ما ذكر قدامة بن جعفر حوالي : أربعة وعشرين ألف ألف درهم •••[3] •

ثالثا : العلاقة مع عامة الذمة : بالرغم من الصور القائمة التي تعطى أحيانا كثيرة سـواء في التواريخ المسيحية القديمـة أو الدراسـات الاستشراقية لأوضاع الذمة تحت الحكم الاسلامي عامة • فإن التدقيق في أوضاعهم ، في العصر العباسي الأول خاصة يكشف عن صورةمغايرة تماماً • فيها من التعايش والرعاية اكثر بكثير مما فيهـا من عواصف

---

(١) انظر ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٢٤٢ •
(٢) انظر ابن رستة الاعلاق النفيسة ص ١٨٦ •
(٣) انظر قدامة بن جعفر (القطعة المنشورة مع كتـاب المسالـك والممالك لابن خرداذبه ) ص ٢٤٩ •

التضييق الطارىء • أما الاضطهاد فلم يعرفه الذميون أبداً من العباسيين. وإذا كان من الطبيعي في المجتمعات القائمة على أساس الدين ــ كما هو الحال في الحكم العباسي الاسلامي ــ ان تكون القيمة هي القيمة الدينية فلاينظر أهل الدين الحاكم الى أصحاب الأديان المخالفة إلامن خلال نظرة الاستعلاء فإن هذه النظرة كانت ، في العصر العباسي الأول ، في أبسط وأهون صورها • وإذا كانت كتلة كبيرة من السكان بصورة عامة هي من أهل الذمة فإن هذه الكتلة كانت في الواقع تتابع حياتهـا العادية المألوفة في ظل العباسيين الكبار بدون أي عائق جدي : تصلى • وتبني المعابد وتتبع الرؤساء الروحيين وتدفع لهم الأموال وتخرج مواكبها في الأعياد سواء في العراق أو الجزيرة أو مصر وتحمل شعاراتها الدينيةأمام كافة المسلمين دون مانع • وربما كان المجتمع الايراني المجوسي في هذه الناحية اكثر حرية واستقرارا وأقل تعرضاً للعواصف المضادة لأنه كان الى حد ما مجتمعاً متجانساً ، ومعظمه ايراني وعلـى المجوسية فالعرب المسلمون فيه والمسيحيون على السواء أقلية لا تفرض نفسها والتغلغل الاسلامي كان يجري على هون وبطء فيه بدون إثارة أو تحد لأحد •

أما المجتمع العباسي في العراق والجزيرة والشـام ومصر فكان الصراع بين العقائد والأجناس فيه اكثر حدة ووضوحاً • ومع ذلكفلم يكن المسلمونيرون فيالشعائرالدينية التي يقوم بها الذميون أمامهمنوعاً من التحدي للاسلام ولا يتعالون عليهم إلا في بعض أحـوال التنافس والخصومة • بل كان النصارى من الذمة خاصةيحتكرون المناصبوالمهن الهامة ويتمتعون بكافة آلاء الحياة بل يحظون بنوع من التعظيم فيقلوب

العوام ، بشهادة الجاحظ الذي كتب يفسر ذلك قائلا :[1]«...ومما عظمهم في قلوب العوام وحببهم إلى الطغام أن منهم كتـاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف ، والعطارين والصيارفة . ولا تجد اليهودي إلا صباغاً أو دباغاً أو حجامـاً أو قصاباً أو شعابـاً (يصلح الشعب أي الصدع) ...» ونحن لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى وأن فيهم ملكا قائماً وأن دماءهم أنظف وأن صناعتهم أحسن ... فأما الملك والصناعة والهيئة فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية والخيل العتاق واتخذوا الجوقات وضربوا بالصوالجة وتحدقوا المديني ولبسوا الملحم والمطبقة (من الملابس الفاخرة) واتخذوا الشاكرية (الحـرس) وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي . واكتنوا بذلك أجمع ولـم يبق إلا أن يتسموا بمحمد ويكتنوا بأبي القاسم فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير وعقدها آخرون دون ثيابهم وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم ومالهم لا يفعلون ذلك واكثر منه وقضاتنا أو عامتهم يرون أن دم الجاثليق والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعباس وحمزة ...» وهذه الصورة الحياتيـة الحيـة التي يقدمها الجاحظ لم تكن مقصورة على الكبراء بل شملت في تسامحهـا حتى الجواري وقد كانت بعضهن تحمل صليبها في بلاط الخلفاء فلا تمنع . يروي الطبري «أن المهدي دخل بعض دوره يوماً فإذا جارية له نصرانية وإذا صليب من ذهب معلق في (صدرها) فاستحسنه فمد يـده فأخذه فولولت على الصليب فقال المهدي في ذلك :

---

(١) الجاحظ ـ ثلاث رسائل (نشر يوشع فنكل ـ القاهـرة سنة ١٣٤٤) ص ١٧ ـ ١٨ .

يوم نازعتها الصليب فقالت ويح نفسي : أما تحل الصليبا[1]

ويذكرون عن الهادي أنه أمر مرة بكسر تابـوت بعض الأشهاد المسيحيين ورميه في الماء ثم عاد عن ذلك تكريماً له • أما في عهد الرشيد فقد كان من المعتاد أن يخرج النصـارى في موكب كبير وبين أيديهم الصليب في أعياد الفصح على الأقل ، ولكن دون رايات[2] وكانت زبيدة «تميل إلى النصارى وتستخدمهم وعملت اعلام الشـعانين وصلبان من ذهب وفضة ••• »[3] وبالاضافة الى هـذا فقد كـان بعض المسلمين يحتفظون ، وربما كان ذلك بحكم التقاليد والايمان بالغيبيات بكثير من التكريم لبعض البطارقة ورجال الدين الذميين • ويذكر بعض مؤرخي السريان أن مارقرياقوس البطريق كان مسافراً سنة ١٨٦ بالسفينة على نهر دجلة نحو الشمال فطلب بعض النصارى من أهل الموصل الى صاحب السفينة التوقف • وأعطوه مبلغاً من المال وأقبلت حشودهم وحشـود المسلمين معهم تتملى من طلعته وبركته[4] • كما صدق الناس أن صلاة الأسقف مسيس كانت السبب في زيادة النيل حوالي سنة ١٤٠ مما دفع الوالي أبا عون إلى احسان السيرة في الأقباط[5] وكانت النذور أحياناً تأتي بعض البيع والأديرة من بعض المسلمين • بل نجد بعد قليل من

---

(١) الطبري ج٨ ص ١٨٥ (٣/٥٤٢) .

(٢) انظر ترتون ـ اهل الذمة (الترجمة) ص ١١٦ وكتاب التاريـخ المنسـوب الى ديونيسيوس التلمحري الجزء ٢ ص ٣ .

(٣) ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٧٣ .
Aosonymus Syriac Chronicle t. II, P. 3

(٤) ترتون ـ أهل الذمة (الترجمة) ص١٧٤ نقلا عن المؤرخ السرياني توماس مارغـا .

(٥) ساويرس ـ سير البطاركة ص٢٠٠ وقد خفف عنهم الوالي ابو عون الخراج أيضا لذلك .

أواخر هذا العصر الذي ندرسه أن ابن طولون في مرضه الأخير يطلب الى الناس الدعاء له فيأتي المسلمون ويأتي اليهود والنصارى ، معتزلين عن المسلمين ، عند مسجد محمود بجبل المقطم ، ثم يحضرون في اليوم الثالث مع النساء والصبيان يدعون له[1] .. ولم يذكر المؤرخون مرة أن أحد الذمة اضطهد أو هضم حقه أو منع العدالة أو أبيح ماله أو منع من ممارسة شعائره الدينية لمجرد اعتقاده بغير الاسلام . وإذا كانت المناقشة الفقهية قد تناولت مثلا جواز الأكل عند الذمي أو تعظيمه لمكانه العلمي أو حضور احتفالاته الدينية أو ضرورة محاكمته طبقاً لقواعد دينه فلدينا من الأمثلة على ذلك الكثير :

آ ـ يروي أبو زكريا الأزدي في تاريخ الموصل أن قوماً من بني مالك في نواحي الموصل قطعوا على قوم من النصارى هناك الطريق ونهبوا مالهم فخرج إليهم السيد بن أنس الأزدي والي الموصل بالجيش وقد قبلوا « رد البر بأعداله والمال بخواتيمه » فرفض إلا تسليمه مع من أخذه . فأتوه بالجميع وكانوا مائة فضرب أعناقهم جميعاً وصلبهم مكانهم وهدد لئن زال من الخشب ( خشب الصلب ) واحدة ليعودن إليهم[2] ..

ب ـ يذكر المقريزي قصة مارية القبطية العجوز صاحبة قرية طاء النمل التي جاوزها المأمون بموكبه فلم يقف بها استهانة بشأنها فخرجت إليه مارية تصيح متظلمة فوقف وكان لا يمشي أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له أن القبطية تتظلم أنه لم يقف بقريتها وأن القبط سوف يعيرونها بذلك وبكت فقبل المأمون دعوتها . وجاء ولدها

---

(١) الكندي ـ الولاة والقضاة ص ٢٣١ .
(٢) أبو زكريا الأزدي ـ تاريخ الموصل ص ٣٦٧ .

بما يحتاج مطبخ الخليفة من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة .. وكان مع المأمون أخوه المعتصم والقضاة يحيى بن أكثم وابن أبي داؤود فأحضرت لكل واحد منهم من الاكرام ما استعظمه فلما أصبحوا للرحيل جاءتهم بعشر وصائف يحملن الأطباق . وحسب المأمون أنها « هدية الريف الكامخ » فإذا في كل طبق كيس من الذهب[1] . وقريب من هذا الخبر ما ذكروا من دعوة الطبيب بختيشوع للمتوكل بطلب من الخليفة نفسه[2] .

جـ ـ ودخل يعقوب الكندي مرة ـ وهو يهودي ـ الى حضرة المأمون وجلس مجلساً فوق مجلس أحد كبار المسلمين فلما قال له هذا : لماذا تجلس وأنت اليهودي فو قما يجلس علماء الملة ؟ أجاب : لأني أعرف ما تعرف ولكنك لا تعرف ما أعرف[3] .. ولم ينكر أحد على الكندي الفيلسوف الطبيب ذلك .

د ـ ولما مرض الطبيب سلمويه « .. عاده المعتصم وبكى عنده .. ولما مات قال المعتصم سألحق به لأنه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي وامتنع عن الأكل في ذلك اليوم وأمر باحضار جنازته الى الدار (دار الخلافة) وأن يصلى عليها بالشمع والبخور على رأي النصارى ففعل ذلك وهو يراهم .. »[4] .

---

(١) المقريزي ـ الخطط ج١ ص٨١ (ج١ ص١٤٦ من طبعة بيروت )
(٢) انظر خبر ذلك لدى ابن العبري ص١٤٤ .
(٣) انظر المقري ـ نفح الطيب ج١ ص ٢٥٢ .
(٤) ابن العبري ص ١٤٠ .

هـ ــ « .. وكان الطيفوري النصراني الكاتب (لدى المتوكل) يحسد حنيناً (ابن اسحق) ويعاديه . واجتمعا يوماً في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل بين يدي الصورة فقال حنين لصاحب البيت : لم تضيع الزيت فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ وإنما هي صور . فقال الطيفوري : إن لم يستحقوا الاكرام فابصق عليهم فبصق فأشهد عليه الطيفور ورفعه الى المتوكل فسأله إباحة الحكم عليه لديانة النصرانية (وبحسب العقيدة) فبعث الى الجاثليق والأساقفة وسئلوا عن ذلك فأوجبوا حرم حنين فحرم وقطع زناره وانصرف الى داره .. ومات من ليلته فجأة وقيل إنه سقى نفسه سماً ..»[1]

وإذا شئنا أن نعرف الشروط الاقتصادية التي عاشها الذميون في ذلك العصر فلعل من الممكن أن نرى حدودها الدنيا والعليا من خلال صورتين :

الأولى : ذكرها مؤرخ سرياني فقال : إنه في أيام عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية والي مصر سنة ١٥٢ كان سكان تنيس ــ كما شاهدهم المؤرخ ــ يعيشون في فقر مدقع وسألهم فقالوا إن سبب هذه المتربة البالغة هي أن المياه تحيط بنا من كل ناحية ولا زراعة لنا . ولا مواشي . وأما الماء الذي نشرب فوارد من مكان ناء وقلما نستطيع شربه إلا بدفع درهم لكل أربع جرار .. وهم يتاجرون بالكتان يغزله نساؤهم وينسجونه ويؤجرهم أصحاب المال نصف درهم كل يوم .

---

(١) ابن العبري ص ١٤٥ .

ولا يفي ذلك بطعام العائلة . وعليهم خمسة دنانير من الضريبة على كل دار . يدفعونها مرغمين وتحت طائلة السجن . ويرهنون أولادهم من أجلها وبناتهم وغالباً ما يستمر هذا الرهن لأنهم يطالبون بدفع خراج السنة التالية قبل أن يستطيعوا تحرير أولئك الأولاد والزوجات[1] .. وهكذا يبقى هؤلاء رهائن دائمين .

أما الثانية : فنقرؤها لدى القفطي في تاريخ الحكماء عن جبرائيل ابن بختيشوع . ونرى في الثبت الذي سجل فيه جبرائيل بيده أرزاقه ورسومه وصلاته أنه وصله خلال خدمته للرشيد والبرامكة ـ فيما عدا الصلات وريع الاقطاعات والهدايا وغيرها تسعة وثمانون مليون درهم تقريباً . وقد جعل المأمون نفسه وصياً في وصيته التي بلغت ٧٠٠ ألف دينار[2] .

وكان ابنه بختيشوع ، في زمن المتوكل ، في الغاية من الرفاه فلما نكب وجدوا لديه أربعة آلاف سروال من الحرير الدبيقي وحملوا الى دار الخلافة الكثير من أرزاقه وباعوا الكثير وبقي بعد ذلك حطب وفحم ونبيذ فاشتراه أحدهم بستة آلاف دينار ثم باع منه باثنتي عشر ألفاً فلما حسده بعض الناس لدى الخليفة بذل فيما بقي في يده ستة آلاف دينار أخرى ثم باعه بضعف ذلك المبلغ[3] . ونسرع الى القول إن هاتين

---

(١) التاريخ المنسوب الى ديونيسيوس التلمخري ـ (الترجمة الانكليزية) ج٢ ص١٧ .

(٢) القفطي ـ تاريخ الحكماء ص ١٤٢ـ١٤٣ وهناك تفصيلات هذه الأرزاق الضخمة .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٣ـ١٠٤ .

الصورتين لم تكونا خاصتين بالذميين ولكنهما صورة للطبقية التي كانت سائدة في ذلك العصر . وقد كان بين المسلمين من هم أشـد فقراً من جماعة تنيس كما كان بين رجال الدولة الكبار من هم في مثل ثراء آل بختيشوع ورفاههم ولكن الصورتين تثبتان على الأقل مشاركة الذميين في التكون الطبقي للمجتمع العباسي وفي الفقر والغنى على السواء ، ومشاركتهم للمسلمين في كافة المستويات .

ولقد كانت الضرائب المفروضة عليهم أكثر أحياناً من الضرائب المفروضة على العرب المسلمين ولكنها في الواقع لم تكن أكثر مما كان مفروضاً عليهم في العهد البيزنطي أو الساساني ، بالإضافة الى أن تملك المسلمين بعد القرن الأول للارض الخراجية لم يكن يحولها الى أرض عشرية ولكن يبقى عليها خراجها الأول ويستوي في شدته وفي خفضه عند ذلك المسلم والذمي . كما أن الطرق العنيفة في الجباية لم تكن من ابتكار الحكم العربي الاسلامي ولكنها هي نفسها الطرق الموروثة من قبل وكثيراً ما كانت أحكام الاسلام وأوامره تتدخل لتخفف من قسوة تلك الطرق . ولدينا بالإضافة الى ما نعرف من تلك الأحكام في هذا الصدد نص ثمين وجد على بعض أوراق البردى[١] وهو أمر صدر باللغة اليونانية ، في مطالع القرن الثاني الهجري ، الى عمال الخراج في مصر يقول :

« .. خوفاً من الله وحفظاً للعدالة والحق في توزيع المبلغ المفروض عليهم .. ورتب ناظراً يعاونه أربعة من البارزين في كورتك لمساعدتهم

---

(١) ورقة البردى هذه فسد قسم منها وهي موجودة مع مجموعة أوراق البردى اليونانية في المتحف البريطاني وقد نشر محتواها في :
Greek Papyrus in the Br. Mus. Vol IV, No 1345

في جمع الضريبة .. ( وأبلغنا تفاصيل الجباية ) .. ولا تجعلنا نعرف أنك حابيت أو ظلمت أحداً في جمعها . فإذا وجدت ( أن بعض العمال ) عاملوا أحداً باللين الزائد بسبب المحاباة أو أثقل عليه غاية الاثقال لكراهيتهم له فإنا سنقتص منهم في أشخاصهم وأملاكهم تنفيذاً للشرع .. وتجب معاملة الجميع بالعدل وأخذ المفروض من كل منهم بقدر طاقته .. »[1] .

على أن إساءة استغلال السلطة كانت من سمات الكثير من العمال وكان يتعرض لها المسلمون والذميون على السواء بدليل أن ثورات مصر سنة ١٦٨ وسنة ١٧٨ وسنة ١٨٦ وسنة ١٩١ إنما قام بها عرب مسلمون بنتيجة التذمر من جباية الخراج !

وأخيراً لم يكن الذميون يعيشون في انفصال عن المجتمع الاسلامي بل كانوا مندمجين فيه كل الاندماج وإذا لم نذكر قصص الأديرة وحياة اللهو ، وقصص مجالس العلماء وحياة الجد ، وروابط الحياة اليومية فيكفي أن نذكر شهادة الجاحظ المعاصر للمأمون والمتوكل إذ يقول في رسالة يمكن أن تعتبر وثيقة من وثائق العصر يقول فيها : إن في النصارى : « .. متكلمين وأطباء ومنجمين وعندهم عقلاء وفلاسفة وحكماء .. وأن منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة وأنهم اتخذوا البراذين والخيل واتخذوا الشاكرية ( البغال يركبها الخدم ) وتسموا بالحسن والحسين وعلي واكتنوا . وترك كثير منهم عقد الزنانير وامتنع كثير من كبرائهم من عطاء الجزية ... »[2] .

---

(١) انظر ترتون ــ أهل الذمة ص ١٦٣ــ١٦٤ .
(٢) الجاحظ ــ ثلاث رسائل (رسالة الرد على النصارى) .

وهذا كله إنما يعني أن التعصب الديني لم يكن هو الأساس في العلاقة مابين النظام العباسي ، في ذلك الوقت ، وبين أهل الذمة ، وإنما كان التعايش والرعاية هما الأساس ولعل خير ما يشهد على ذلك رسالة معاصرة ماتزال محفوظة بين رسائل البطريق النسطوري طيماثاوس وزعها بالسريانية على أتباعه في العراق وايران يشيد فيها برعاية السلطات الاسلامية للدين المسيحي ولرجـال الديـن ومساعدتهم الكنائس والبيـع[1] .

وننتقل إلى مناقشة الصورة الأخرى صورة الاضطهاد والقيود وهي صورة قد يساء فهمها إذا لم تقرن بأسبابها . وهي أسباب سياسية أو إدارية أو دفاعية لم يكن للتعصب الديني من مكان فيها أو كان أحياناً آخر تلك الأسباب أو لحق بها فيما بعد . ولعل استعراض تلك الأحداث التي سجلت التمييز والاضطهاد يكشف أبعادها ويعطي النماذج الواقعية للسياسة الدينية العباسية مع الذمة أكثر مما تكشفه الأحكام العامة ولدينا في هذا الصعيد خمس قضايا :

هنالك أولا قضية الصابئة ـ الحرانية : يقول مؤرخ نسطوري : « .. وتناول الحرانيون (الصابئة) رجلا ، على رسمهم (أي طريقتهم) ليجعلونه قرباناً ويقطعون رأسه فأفلت . وخبر الرشيد بحالهم فأمر بقتلهم واستيصالهم وتفرقوا في البلاد .. »[2] ولا نعرف كم قتل من

---

(٢) لهذا البطريق حوالي مائتي رسالة بقي منها حوالي الستين وقد طبع منها براون Braun الجزء الاول بالسريانية والفرنسية في باريس سنة ١٩١٤ . ومعظمها موجه الى سرجيوس أسقف عيلام .

(٣) ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص٧٥ وفي النص غلطتـا إعراب تركناهما على حالهما حفاظاً على النص .

هؤلاء الحرانيين وكم شرد والأرجح أنهم عادوا الى بلدهم بعد ذلك لأن المأمون مر بحران سنة ٢١٥ في طريقه الى جبهة الروم فوجدهم هناك . يقول ابن النديم : تلقاه الناس يدعون له فوجد بينهم جماعة بأقبية وشعور طويلة ووفرات مسترسلة . فسألهم : من أنتم من الذمة ؟ نصارى أم يهود أم مجوس ، قالوا : لا ، قال : أفلكم كتاب أم نبي ، فجمجموا في القول ، قال : أنتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي . وأنتم حلال دمكم ولا ذمة لكم ! قالوا نحن نؤدي الجزية ، قال : لستم من أهلها ، فاختاروا أحد أمرين : إما الاسلام أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه . وقد أنظرتكم حتى أرجع من سفرتي هذه . وإلا أمرت بقتلكم » وتسامح المأمون ها هنا واضح حين لم يجبرهم على الاسلام فقط ولكن قبل منهم اعتناق أي دين آخر من أديان الذمة « ورحل يريد بلد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتنصر كثير منهم . وأسلم منهم طائفة . وبقي منهم شرذمة بحالهم وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى جاءهم شيخ فقيه حراني فحملوا إليه مالا عظيماً من بيت مالهم أحدثوه منذ أيام الرشيد لهذه الغاية أعدوه للنوائب . فقال لهم : قولوا إنكم الصابئة ! فهذا اسم دين مذكور في القرآن . فانتحلوه فلما توفي المأمون في بلد الروم ارتد كثير ممن تنصر . أما من أسلم فلم يستطع ولكن كثيراً منهم ظلوا يتزوجون من الحرانيات ويجعلون بناتهم على المذهب لحفظه .. وظلوا على ذلك قروناً[1] .

وهناك ثانياً قضية النصارى العرب وهي تتعلق بثلاث مجموعات عربية مسيحية :

---

(١) انظر ابن النديم الفهرست ص٣٢٠–٣٢١ وانظر هناك أيضاً حكاية الرأس عندهم .

مجموعة النجرانية : أهل نجران الذين استقر قسم كبير منهم في الكوفة وبعضهم بالشام وكانوا ملزمين بخراج قدره مائتا حلة (ثوب) فكان صاحب النجرانية يبعث رسله فيجبي منهم كل سنة المال لذلك . وقد تضاءل عددهم بالاسلام فلما مر الرشيد بالكوفة يريد الحج رفعوا إليه في أمرهم وشكوا تعنت العمال إياهم فكتب لهم كتاباً بالمائتي حلة .. وأمر أن يعفوا من معاملة العمال (أي الزيادات التي تدفع أجوراً للجباة) وأن يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة (أي يدفعون مباشرة ببغداد) .

مجموعة تنوخ : وهي تلك الأخلاط من العرب التي كانت تنزل منذ ما قبل الاسلام في حاضر قنسرين ــ أي الريف البدوي في منطقة حلب ــ وقد أقام بعضهم على النصرانية حتى العصر العباسي . ويذكر المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير ، البطريق ، أن المهدي هاله حين مر بحلب كثرة من بها من النصارى من تنوخ الذين نيفوا على اثني عشر ألفاً فخيرهم بين الموت والاسلام فأسلم بعضهم وأما الآخرون الذين تمسكوا بدينهم وكانوا سبعة آلاف فقد قتلهم عن آخرهم[1] .. وهذا الخبر الذي لم يذكره مؤرخ آخر على هذا الشكل يخلط فيما يبدو بين عدد من الأخبار : فقد بعث المهدي حين نزل حلب سنة ١٦٣ بعبد الجبار المحتسب فجمع له الزنادقة فقتل جماعة منهم . كما كان في حلب

---

(٢) البلاذري ــ فتوح البلدان ص٨٠ــ٨١ .
(٣) انظر تاريخ ميشيل السوري (الترجمة الفرنسية) :
Michel le Syrien, Chroniques
( Trad, Lamglois, venise, 1865, P. 262 ) ; ( Trad. Chabot, paris vol II, P. 478 - 480 ) .

وحران منذ عهـد المنصور جماعة مـن الراوندية[1] . ولعـل بعض المسيحيين من تنوخ ومن هؤلاء الراوندية قتلوا في تلك الحملة على الزندقة . ولعل المهدي نقم علـى التنوخيين بجانب أن منهم بعـض الزنادقة أنهم قبل سنة من ذلك قد آووا ثائراً خارجياً ( هو عبد السلام ابن هاشم) دوخ جيوش المهدي في الجزيرة ثم هرب الى قنسرين فقتل فيها سنة ١٦٢[2] ولعل المهدي الى هذا وذاك خشي من الزندقة اضطراب ولائهم للدولة وميلهم الى الروم وهم في منطقة الثغور والعواصم فحاول تطبيق السنة العمرية عليهم بأن يخيرهم بين الاسلام أو القتل لأنهم من العرب . وهكذا « .. أسلم ــ كما يقول البلاذري ــ على يده جماعة من أهل ذلك الحاضر .. فكتب على أيديهم بالخضرة قنسرين ..»[3] لكن أحداً من المؤرخين لم يذكر أنه رافق ذلك الاسلام قتل . ومن الصعب أن تجري مثل هذه المذبحة ولم يجر مثلها في الاسلام منذ حروب الردة ثم أن تمر في صمت فلا يذكرها أحد . ولا شك أن أولئك النصارى اعتصموا من المهدي بالعهد الذي أخذوه من أبي عبيدة . وهكذا فالذين قتلوا إذن ــ وهم من الزنادقة ، وقد قتلوا على أي حال بعد مغادرة المهدي لحلب ووصوله دابق ــ لا علاقة لهم بالذين أسلموا من حاضر قنسرين وحلب ولكن المؤرخ السرياني ربط بـين القتل والاسلام وجعل العملية الأولى سبباً للثانية .

مجموعة تغلب : وهي قبائل العرب في الجزيرة . كانت هناك

---

(١) انظر الطبري ج٨ ص١٤٨ (٤٩٩/٣) وابن العديم زبدة الحلب ج١ ص٥٩ــ٦٠ والأزدي ــ تاريخ الموصل .

(٢) ابن العديم ــ زبدة الحلب ج١ ص٦٠ والطبري ج٨ ص ١٤٢ (٤٩٢/٣) .

(٣) البلاذري ــ فتوح ص١٧٢ .

وعلى النصرانية قبل الاسلام ثم أنفت عند الفتح من دفع الجزية أو ترك دينها فقبل منها عمر بن الخطاب دفع الصدقات مضاعفة .. وكان وضعهم الخاص مشكلة واجهها الإمام علي كما واجهها عمر بن عبد العزيز ولكنهم مع ذلك ظلوا دوماً يتمتعون بذلك الامتياز واستمروا على ذلك حتى عهد الرشيد الذي ضاق بكثرة معونتهم للخوارج في الجزيرة ، كما اتهمهم بممالأة الروم فأراد نقض العهد القديم وفي نفسه كما قيل أن يقتل رجالهم ويسبي ذراريهم[1] . كان ذلك حوالي سنة ١٨٨ فيما يبدو وقاضي قضاته هو الشيباني فاستشاره في الطريقة لنقض العهد فقال : لا سبيل الى ذلك . قال الرشيد : لقد صالحهم عمر على ألا يغمسوا أولادهم في المعمودية وقد فعلوا فخرجوا بذلك على العهد ونقضوه . وقال الشيباني لقد علم ذلك الصحابة والتابعون فلم يمنعوهم منه ولم يجدوا أن ينقضوا العهد معهم لأجله « قد كشفت لك العلم ورأيك أعلى » ! ولم يستطع الرشيد أن يفعل شيئاً[2] .

وهناك ثالثاً : قضية أقباط مصر : وقد كانوا قد انتقضوا أكثر من مرة حتى أواخر عهد المنصور ثم تقضت فترة نصف قرن لم تسمع لهم فيها حركة . حل محلهم في الثورات ضد الظروف المالية السيئة وضد قسوة الخراج أثناء ذلك ، العرب المسلمون الذين توطنوا في الدلتا (بمنطقة الحوف) :

---

(١) قتل بنو تغلب عامل صدقات الرشيد روح بن صالح سنة ١٧٠ فنكل بها أخوه حاتم بن صالح في السنة التالية . فخرجت تغلب من طاعة الخلافة بعد ذلك سنة ١٧٧ معالوليدبن طريف الشاري الخارجي الذي تحققت ثورته سنة ١٧٩ .

(٢) راجع ترجمة الشيباني محمد بن الحسن في تاريخ بغداد وغيره . وانظر مقدمة السير الكبير (طبع جامعة القاهرة سنة ١٩٥٨ ) لأبي زهرة .

ـ تشدد الوالي موسى بن صعب في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما تقبل به سنة ١٦٨ فثاروا ضده •

ـ وزاد اسحق بن سليمان على المزارعين زيادة أجحف بها فخرج عليه أهل الحوف سنة ١٧٨ •

ـ وبعث الليث بن الفضل بمساح بمسحون الأراضي سنة ١٨٦ فانتقصوا من القصبة أصابع ولم يسمع الوالي تظلم الناس فخرج عليه أهل الحوف وامتنعوا من الخراج[1] •

ـ وخرجوا كذلك في ولاية الحسين بن جميل سنة ١٩١ ثم سنة ١٩٨ ثم اتصلت الحروب بين المتنفذين في الدلتا وفي الصعيد : الجردي والسري • بشكل دمر اقتصاد البلد وأنهكه قلقاً واضطراباً ولم ينه موتهما سنة ٢٠٥ الأمر لأن الفترة الداخلية والحروب استمرت حتى وصل مصر عبد الله بن طاهر والياً من قبل المأمون سنة ٢١١ فلما تركها زاد صالح بن شيرزاد في الخراج فانتقض أسفل الأرض (أي الدلتا) من جديد سنة ٢١٤ ••

ثم في سنة ٢١٦ « انتقضت أسفل الأرض كلها عربها وقبطها •• وأخرجوا العمال (عمال الخراج) وخالفوا الطاعة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم ••» ولما عجز قواد المأمون ومنهم الأفشين عن إخماد الثورة ترك الخليفة جبهة الروم وجاء مصر سنة ٢١٦ وأدرك فوراً سبب الثورة فعزل واليه عيسى بن منصور وحل لواءه وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك • حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد ••» •

ولكن هذا لم يمنع المأمون من البطش الشديد فما ظفر قائده

---

(١) انظر من هذه الثورات : الكندي ـ كتاب الولاة والقضاة الصفحات بالترتيب ١٢٥ ـ ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٨٥ .

الأقشين بالقبط في منطقة البشرود الثائرة حتى : «•• حكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال فبيعوا وسبى أكثرهم » ولم تكن عقوبة العرب أقل قسوة فقد قتل زعيمهم الفهري في سخا « وتتبع ( المأمون ) كل من يومي إليه بخلاف فقتله • فقتل ناساً كثيراً ••»[1] •

على أن هذه الضربة للقبط كانت من القسوة بحيث كانت لها ثلاث نتائج أشار إليها المقريزي بوضوح إذ قال :

ـ « •• ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر وخذل شوكتهم فلم يعد أحد منهم يقدر على الخروج ولا القيام على السلطان » أي انتهت ثورات القبط •

ـ « وغلب المسلمون على القرى » أي انقلب الميزان العددي للمسلمين ذلك أن موجات التحول إلى الاسلام التي كانت تأتي في أعقاب الثورات حولت الميزان لمصلحة المسلمين •

ـ « •• فعاد القبط من بعد ذلك الى كيد الاسلام وأهله بإعمال الحيلة واستعمال المكر وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج »[2] •

وهناك رابعاً : قضية نصارى الجزيرة العربية والحدود الرومية : وآلام الجزيرة في تلك الفترة كانت كثيرة : فقد تناهبها سوء الأوضاع السياسية ، بسبب الثورات الخارجية العديدة وخاصة زمن الرشيد ،

---

(١) إنظر المصدر السابق ص ١٩٠ و ص١٩٢ •
(٢) المقريزي ـ الخطط ـ ج١ ص٧٩ ، وج٢ ص ٤٩٤ •

والثورات الأرمنية ، والتهديد الرومي المستمر على الأطراف ، مع سوء الأحوال الاقتصادية والمالية بسبب تعطل الانتاج باضطراب الأمن والانقطاع المتكرر لطرق التجارة ، وهرب الفلاحين من الريف وقسوة الخراج وعمال الخراج . وليس ثمة ما يؤكد أن الشدائد التي عرفتها منطقة الجزيرة في أيام المنصور لم تستمر على حالها في عهد خلفائه . وكان ثمة سبب يحول دون العناية العباسية بهذه المنطقة هو فقد الثقة بينهم وبينها . فإذا كان سكانها وهم في الجملة مسيحيون يعاقبة وأرمن ونساطرة وملكانية على استعداد مسبق لمعاداة الدولة الاسلامية وعدم الوقوف بجانبها بسبب التباين الديني فقد كانت الدولة من جهتها لها أسبابها في الريبة بهؤلاء السكان المتهمين لديها بعدم الولاء وبالاتصال مع الروم وحدث أن كان الرشيد مرة في الرها ، فجاءه وفد من المسلمين يتهم النصارى بأنهم ضالعون مع الروم .. وأن امبراطور بيزنطة يأتي كل سنة للصلاة في كنائس الرها . وسألوا الخليفة أن يرسم بهدم الكنيسة الكبرى ويمنع الضرب بالناقوس غير أن يحيى (البرمكي) نصح مولاه بعدم الاستجابة لذلك فلم يفعل[1] .

ولعل الأوضاع السيئة مع التمزق الطائفي والتنوع العرقي في المنطقة هو الذي أطلع فيها ، في هذه الفترة ، عدداً من المتنبئين منهم :

آ ــ انطونيوس الشهيد الذي كانت تزعم الأقاويل الشعبية أنه هو نفسه أبو روح ابن عم هارون الرشيد وأنه تنصر بعد الاسلام فصلبه هارون وله عندهم قصة « طويلة عجيبة ما سمعناها ــ كما يقول البيروني ــ ولا قرأناها أو مثلها في الأخبار والتواريخ .. على أن

---

(١) انظر ترتون ــ أهل الذمة ص١١٦ وانظر التاريخ السرياني المنسوب للتلمحري ج٢ ص٣٥ .

النصارى قوم سماعون مصدقون لمثل ذلك وخاصة ما يتعلق بدياناتهم غير ناظرين من جميع الجهات في تصحح الأخبار ..»[١] ولا شك أن انطونيوس أراد تقوية الشعور الديني أمام تحول الكثيرين الى الاسلام ، كما لا شك أن الخرافة الشعبية أرادت الانتقام لهـذا نفسه بجعل انطونيوس ابن عم الرشيد وجعله يتنصر .. حتى درجة الاستشهاد .

ب ـ جنا بربري وقد كانت حركته شعبية فلاحية تبعه فيهـا الكثيرون من أهل القرى مما هدد الاقطاعيات الواسعة التي يملكها الاقطاعيون المسيحيون والكنيسة على السواء . وهذا ما دعا هؤلاء الى الاتفاق مع السلطات العباسية للقضاء عليه .

جـ ـ مارمارته الذي جعل يبشر ، في عهد المأمون ، بالخـلاص وادعى القدرة على شفاء المرضى وقـد عادت الكنيسة بالتحالف مع المتنفذين ومع السلطة العباسية فحاربته حتى القتل .

هذه الحركات كانت ، في واقعها تعبيراً عن الرفض للواقع الأليم لكن تدخل السلطات العباسية إنما كان محدوداً بالتعاون مع الكنيسة من جهة ، ومع المتنفذين المسيحيين من جهة أخرى . المرة الوحيدة التي سجل فيها ما يمكن أن يسمى بالتضييق إنما كان في عهد الرشيد ، عند أواخره ، حين أمر الخليفة ـ وهو يحارب الروم ـ بمنع ضرب الناقوس في ملطية (من الثغور) ومنع سير الجنازات بالمواكب وعدم الصلبان إلا في الكنائس . وأسباب ذلك واضحة في ارتفاع حمى الحرب في الجبهة وفي ضرورات الدفاع وضمان سلامة العمليات العسكرية .

---

(١) انظر البيروني ـ الآثار الباقية (ط. سخاو سنة ١٩٢٣) ص٢٩٢

خامساً : قضية قرارات التضييق على الذمة. يذكر المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير بطريق اليعاقبة أن اضطهاد أهل الذمة إنما بدأ مع بداية عهد المهدي وأن عدداً من البيع قد هدم وأن رقيق النصارى قد صودر أو بيع ومنعوا من اقتناء الرقيق[1] .. وقد كان ذلك فيما رأينا في السنوات الأولى من حكمه حين دمر الروم حصون ومدن الثغور وسبوا ونهبوا فيها ما يشاؤون فلما كانت السنة السادسة من حكمه وردهم على أعقابهم أمر فألغي ذلك القرار . وننتظر بعد قرار المهدي أكثر من ثلاثين سنة لنسمع عن قرار آخر هو الذي أصدره الرشيد والحرب مع الروم في أوجها وتدميرهم يتناول كل شيء في الثغور وإذ ذاك « كتب ( الخليفة ) الى : السندي بن شاهك ( صاحب شرطة بغداد) يأمره بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ..»[2] .

وقد ترجم هذا الأمر عملياً بأن يلبسوا العمائم بلون عسلي وأن تكون القلانس مضربة مخططة وأن يعقدوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ وأن يتخذوا في سروجهم في موضع القرابيس كرتين من الخشب مثل الرمانة وأن يجعلوا شراك نعالهم متينة وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ..»[3] . ويبدو أن بعض هذه المظاهر كانت من عادات

---

(١) انظر الجزء ١١ من C.S. Ch. O.
بعنوان Chroniques de Michel le Syrien
(وهو الجزء الثالث من الترجمة الفرنسية التي نشرها Chabot لهذا التاريخ) ص٤٧٨ـ٤٨٠ .

(٢) الطبري ج٨ ص ٣٢٤ (٣/٧١٣) .

(٣) أبو يوسف ـ الخراج ص ٧٢ . ولنلاحظ أن أبا يوسف توفي

السكان القديمة وقد أراد الحكام المسلمون إبقاءهم عليها فلا يتشبهوا بملابس العرب ليميزوا بها عن هؤلاء . ويبدو أن هذا الأمر لم ينفذ إلا وقتاً قصيراً إذ يروي مؤرخ نسطوري قصة إلغائه فيقول إن : « جبريل ابن بختيشوع الطبيب دخل بطيلسان مصبوغ على الرشيد فأنكر ذلك عليه فقال : أنا أحد الذمة ولا يجوز أن أخالف زيهم فاستحسن ذلك من قوله ورفع ذلك عن النصارى ..»[1] .

وتمر بعد ذلك خمس وأربعون سنة أخرى تقريباً لنرى أمراً جديداً يصدر من المتوكل فيه أقسى ما عرفه الذميون حتى ذلك الوقت من التضييق . كتب الى عماله في الآفاق كتاباً جاء فيه : « .. قد رأى أمير المؤمنين أن يحمل أهل الذمة جميعاً بحضرته ( في بغداد ) أو في نواحي أعماله أقربها وأبعدها ، بأخصهم وأخسهم على تصيير طيالستهم التي يلبسونها ، من لبسها من تجارهم وكتابهم وكبيرهم وصغيرهم على ألوان الثياب العسلية .. ومن يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم أخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ .. شبراً تماماً تلقاء صدره ومن وراء ظهره . وأن يؤخذ الجميع منهم من قلانسهم بتركيب أزرة عليها تخالف ألوانها ألوان القلانس (وظاهرة غير مخفية) وكذلك في

---

قبل صدور أمر الرشيد بتسع سنوات . وقول أبي يوسف « أن يؤخذوا بلبس ..» قد يعني أن يبقوا على ملابسهم القديمة فلا يتشبهوا بالملابس العربية التي أضحت سمة المسلمين . ويبدو أن لبس الكساء العسلي كان من ملابس الناس المتداولة في المنطقة العربية (العراق ، الشام ، مصر) قبل الاسلام واستمر موجوداً فيهم . وقد وقف مرة أحد ولاة مصر (وهو مسروق الذي وليها للرشيد بين سنة ١٧٧ وسنة ١٨٤ ينادي الذمة : أين أصحاب الأكسية العسلية) .

(١) ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص٧٣ .

سروجهم باتخاذ ركب خشب لها ونصب أكر على قرابيسها تكون ناتئة عنها (بارزة) •• وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير والكساتيج مكان المناطق •• وأن توعز الى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين •• وتحذرهم ادهاناً وميلا وتتقدم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد أو تهوين الى غيره ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم ••»[1]. ويقول ابن قيم الجوزية[2] إضافة لذلك أن المتوكل أفرد للذمة من يحتسب عليهم • وأمر ألا يستخدموا مسلماً في حوائجهم وتفرد لهم حمامات خاصة خدمها ذمة وتطبق عليهم الجزية •• وقد زاد على هذا الأمر بعد ذلك ـ فيما يبدو ـ فأخذوا « بهدم بيعهم التي أحدثت (بعد الاسلام) وبأخذ العشر من منازلهم • وإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً • وأمر (المتوكل) أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين • ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين •• ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليباً وأن يشمعلوا في الطريق ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين ••»[3] ويبدو أن اليهود أخذوا في ذلك الوقت بلبس الغيار (أي اللباس المغاير) بلون أسود كما

---

(١) نجد نص هذا الكتاب لدى الطبري ج٩ ص١٧٢–١٧٤ (٣/١٣٩٠–١٣٩٤) .

(٢) ابن قيم الجوزية احكام اهل الذمة ج١ ص٢٢٢ ـ ونجد لديه حتى ص٢٢٤ نص رسالة المتوكل .

(٣) انظر الطبري ج٩ ص١٧٢ (٣/١٣٨٩–١٣٩٠) . وانظر ما تذكره المصادر المسيحية عن هذه التدابير نفسها لدى ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص٧٩ ولدى عمرو بن متى ـ اخبار البطاركة ص ٧١ .

أن المتوكل عاد بعد أربع سنوات « فأمر (في مطالع سنة ٢٣٩) بأخذ أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين على الأقبية والدراريع ثم أمر أيضاً بالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغـال والحمير دون الخيـل والبراذين »(١) .

وليست هذه التدابير بتدابير اضطهاد ولكنهـا تدابير تمييز وتضييق لم تتناول أبداً حرية المعتقد وكان القصد منها تحويل أهل الذمة ضمن الدولـة الاسلامية الى رعايا من الدرجة الثانية وهذه الحركة قد تكون جاءت في الفترة التي أضحى فيها عدد المسلمين يزيد في الكثرة على عدد الذميين من الرعايا بعد قرنين من الدخول البطيء في الاسلام . ولكنها على أي حال ليست بحركة تعصب ديني وإنما هي عمليات دفاعية لحد كبير . يتبين ذلك عند البحث في أسبابها . وقد سجل أمر المتوكل نفسه هذه الأسباب ، فيما يشبه حيثيات القرارات المعاصرة وأسبابها الموجبة ، فأورد في المقدمة أربعة أسباب مجملة نجد أسبابها الموضحة فيما ذكره المؤرخون من الأخبار . قال :

ـ إن الله لم يجعل للمسلمين « .. في دينهم التقاطع والتدابر . ولا الحمية ولا التكبر . ولا الخيانة ولا الغدر . ولا التباغي ولا التظالم» .. وترجمة هذه الأمور من خلال الواقع التاريخي أن المتوكل نقم على الذميين :

آ ـ التقاطع والتدابر أو الدس على زملائهم الموظفين المسلمين وقد ذكر المؤرخون أنهم « كانوا قد أوقعوا في نفس المتوكل من مباشري

---

(١) الطبري ج٩ ص١٩٦ (١٤١٩/٣) .

المسلمين شيئاً وأنهم بين مفرط وخائن وعملوا عملا (أي وشاية) بأسماء المسلمين ــ وأسماء بعض الذمة لينفوا التهمة ــ وأوجبوا باسم كـل واحد منهم مالا كثيراً وعرض على المتوكل فأغري بهم وظن ما أوجبوا من ذلك حقاً وأن المال في جهتهم كما أوجبوه • ودخل مسلمة بن سعيد النصراني على المتوكل وكان يأنس به ويحاضره فقال : يا أمير المؤمنين أنت في الصحاري والصيد وخلفك معادن الذهب والفضة ومن يشرب في آنية الذهب والفضة يملؤها ذهباً بدل الفاكهة ••» فقال عند من ؟ فقال عند الحسين بن مخلد • وأحمد بن اسرائيل • وموسى بن عبد الملك • وميمون بن هارون • ومحمد بن موسى ــ وكل واحد من هؤلاء اسمه ثابت في العمل (الوشاية) المقدم ذكره المرفوع للمتوكل ــ فقال المتوكل : ما تقول في عبيد الله بن يحيى ؟ فسكت فقال : بحياتي عليك قل ما عندك • قال : لقد صاغ صوالجة وأكر من ٣٠ ألف دينار وأمير المؤمنين يضرب بكرة من جلود وصولجان من خشب •• » فالتفت المتوكل الى الفتح بن خاقان وقال : « ابعث فأحضر هؤلاء وضيق عليهم •• » فلما عرف باقي الكتاب المسلمين بالأمر وعاتبوا مسلمة بن سعيد • قال : قلت ما قلت على سكر ولم أقصد وأخذوا خطه بذلك ثم قدموه للمتوكل وقالوا : « هذا قصده أن يخلو أركان دولة أمير المؤمنين من الكتاب المسلمين ويتمكن هو ورهطه منها ••»[1] •

ب ــ فأما الحمية والتكبر : فقد ذكر المؤرخون أيضاً « أن المباشرين للأعمال ( من أهل الذمة ) كثروا في زمان المتوكل وزادوا على الحد وغلبوا على المسلمين لخدمة أمه وأهله وأقاربه وذلك سنة ٢٣٥ فكانت الأعمال الكبائر كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي ••»[2] ويبدو

(١) ابن قيم الجوزية ــ أحكام أهل الذمة ج١ ص٢١٩ــ٢٢١ •
(٢) ابن قيم الجوزية ــ أحكام أهل الذمة ج١ ص ٢٢٢ •

أنهم لهذا تكبروا وأخذتهم الحمية والتعصب . وطلب المتوكل من طبيبه بختيشوع ـ وربما كان ذلك عن قصد معين ـ أن يدعوه فرأى عنده من البذخ والترف ما لم يره عند غيره « فحقد عليه ونكبه بعد أيام يسيرة ...»[1] ويذكر مؤرخ مسيحي آخر أن المتوكل « تغير على بختيشوع لأجل ما كان يستعمله من مكايدته وقبض عليه واعتقله ...»[2] .

جـ ـ وأما الخيانة والغدر فيبدو أن المتوكل اقتنع باتصال أهل الذمة النصارى بالروم . يقول المؤرخ النسطوري ابن سليمان : « ... وكان يسر من رأى طبيب اسمه سرجيس لخصومة جرت بينه وبين بعض المتطببين خرج عن النسطورية واعتقد مذهب آريوس وقصد الجاثليق وكذب بأنه يكاتب ملك الروم ويدعو له ويرفع أخبار المملكة ( الاسلامية ) فأحضره المتوكل وسأله عن الحال فأنكرها واساسه اليمين فأبى خوفاً لئلا يخالف كتاب الشريعة ... واشار من في الخدمة من الرؤساء عليه بأن يخلف فلم يفعل وصبر على الحبس مدة ثلاث سنين وستة أشهر ... وبلغ كل شرير من النصارى ما يريده ...»[3] .

ويبدو بوضوح أن تحسس المتوكل بالمشكلة مع الروم كان حاداً واضحاً في تلك الفترة من خلافته فإن أحداث تلك الجبهة معهم كانت تؤرقه . وكان الروم قد اتبعوا منذ ثورة بابك طريقة جديدة مع المسلمين هي التوسع في التجسس والتسلل بواسطة الاعوان إلى داخل الاراضي العباسية وإثارة القلاقل فيها أو الضرب في بعض النقاط غير المنتظرة ومن ذلك تحريضهم الأرمن على الثورة سنة ٢٣٧ وقد كلفت المتوكل الكثير

---

(١) ابن العبري ص ١٤٤ .
(٢) ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص ٧٩ .
(٣) المصدر نفسه .

من الجهد والمال حتى استطاع إخمادها والقبض على بطريق الأرمن: بقراط بن آشوط والمجيء به إلى سر من رأى . ثم هجوم الروم في السنة التالية سنة ٢٣٨ بثلاث مائة مركب دمرت دمياط ، في مصر ونهبت وأحرقت وسبت مايزيد على ٦٠٠ امرأة ..[١]

ويتبين تأثير هذه الأحداث على المتوكل من قصته مع حنين بن إسحق الرأس عيني اليعقوبي . وهو من كبار التراجمة وقد اشتهر حتى استدعاه المتوكل وأقطعه الاقطاعات السني وقرر له جارياً (راتباً) جيداً . ولكن حذره الشديد من أن يكون أحد جواسيس الروم المرسلين لسمه جعله يمتحنه امتحاناً هدده فيه بالقتل إن لم يصف للمتوكل سماً يقتل به بعض اعدائه . فلما امتنع حبسه سنة ثم عاوده فامتنع أيضاً رغم إحضار السيف والنطع .. وعند ذلك «اطمأن المتوكل ثم تبسم له وقال : إنما أردنا امتحانك والطمأنينة إليك ... وأمر بالخلع فأفيضت عليه » وأعطاه المال الجزيل ...[٢]

د ـ وأما التباغي والتظالم : فيبدو أن العمال الذميين زادوا في التسلط وفي اضطهاد الناس وظلمهم زيادة وصلت أسماع المتوكل . وأنهيت إليه منها الكثير من الشكاوى . فتارة رجل شيخ يأتيه من الشام يتظلم العامل النصراني الذي اغتصب بيته . وتارة يقبض على رجل في مكة يدعو على المتوكل فلما سأله عن السبب قال : سلطت اهل الذمة على المسلمين فظلموهم مما جعل المتوكل يرتجف أحياناً غضباً ويبكي أحياناً أخرى أحر البكاء[٣] .

---

(١) ابن العبري ص ١٤٢و١٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٤ـ١٤٥ .
(٣) انظر ابن قيم الجوزية ـ احكام اهل الذمة ج١ ص٢٢١ .

ولا بد بالطبع من أن نضيف إلى هـذه الأسباب بالمقابل أسباباً أخرى منها :

هـ ـ الحلف الذي عاد فقام بقوة بين السلطة العباسية وأهل الدين من السنيين بعد انحسار موجة المعتزلة وإلغاء القول بخلق القرآن • فإن انتصار المذهب السني التقليدي ومعاودته السيطرة على الخلافة العباسية وإبعاد المعتزلة عن مراكز النفوذ أعطى الفقهاء والمحدثين مدداً كبيراً من القوة أبعدوا معهعلم الكلام وأهل الجدل عنالدولة واستتبع ذلك بالتالي إبعاد الطرف الآخر من المجادلة وهم أصحاب العقائد الأخرى الذيـن كان جدلهم ومايبعثونه من الأسئلة والأفكار والريب هو السبب في نشوء علم الكلام • وبمعنى آخر : غير الفقهاء السنيون بعد الانتصار عـلى المعتزلة ، طريقة المعاملة التي كانت متبعة حتى مطلع عهد المتوكل مـع الذمة وهي طريقةالحوار والجدل بالتي هي أحسن • وقد كان المسلمون قد بلغوا من الكثرة وكان الفقهاء والمحدثون قد بلغوا من القوة المبلغ الذي فرضوا معه الطريقة الأخرى • طريقة التضييق والتمييز أي إعـادة غير المسلمين الى الدرجة الثانية في سلم الرعايا ليكون ذلك نوعاً مـن الضغط عليهم ، وشكلا من اشكال الاعتزاز بالدين الاسلامي والفخر به والارتفاع به عن أن يكون موضع جدل وأخذ وعطاء •• إن نص كتاب المتوكل يقول ذلك : « ••• فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامة وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم بائنون على الأديان بشرائعهم الزاكية وأحكامهم المرضية الطاهرة وبراهينهم المنيرة وبتطهير الله دينهم بما أحل وحرم فيه لهم وعليهم ••• قضاء من الله عزوجل في اعزاز دينه حتماً ، ومشيئته منه في إظهار حقه ماضية ••• » ومبعث هذا كله : « أن الله اصطفى الاسلام فرضيه لنفسه ••• وحاطه بالنصر وأظهره عـلى

الأديان مبرءاً من الشبهات مخصوصاً من الشرائع في طهرها وأفضلها ومن الاحكام بأعدلها واقنعها ... » ..

ثم أضاف الكتاب « قوله عز وجل : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم اكملت لكم دينكم » إ [1] إنها اذن محاولة من السلطة العباسية لمنع جدل الذمة مع المسلمين بعد أن أوقفت جدل المسلمين معهم لإسكات أهل الكلام بإقصاء المعتزلة . هي نوع من الهدنة بفصل أصحاب الاديان الأخرى عن أهل الاسلام .

ولا بد ان نضيف هنا أن نصر الفقهاء ، وأهل الحديث السنيين وسيطرتهم على البلاط العباسي لم يصب علماء المعتزلة وأهل الذمة وحدهم بالإبعاد والأذى ولكن أصاب أيضاً الشيعة . ويكفي أن نذكر عبوراً هنا أن المتوكل أمر بهدم قبر الحسين في كربلاء سنة ٢٣٦ وان يبذر ويسقى موضعه وأن يمنع الناس من إتيانه ... بمعنى أن ردة الفعل السنية لم تصب الذميين فقط ولكنها أصابت حتى بعض فرق المسلمين .

ولعل من أهم الاسلحة التي استخدمتها المجموعة المحيطة بالمتوكل من الفقهاء ورجال الدين وأهل الحديث ضد أهل الذمة أنهم ربطوا أيضاً ما بينهم وبين الزندقة . يكشف تلك الخطة كلمات الجاحظ في رسالته المعروفة بالرد على النصارى إذ يقول : « ... فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ماصار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا شيء من كتب الثنوية والديصانية والمرقونية والعليائية ولما عرفوا غير كتاب الله وسنة نبيه ... » ويقول أيضاً « ... ودينهم يضاهي الزندقة ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية ... إنا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من

---

(١) الطبري ج٨ ص١٧٢-١٧٣ (٣/ ١٣٩٠-١٣٩١) .

النصارى . ألا ترى أكثر من قتل في الزندقة ممن كان ينتحل الاسلام ويظهره هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى ؟... » . وهذا لا يعني أن المسلمين شعروا بأن المسيحية أضحت تشكل تحدياً أو خطراً على الدين الأسلامي ولكن يعنى أنهم أرادوا استخدام كافة الأسلحة ضدها ، لا سيما وهي في عصر المتوكل أضعف بكثير مما كانت عليه في عهد المنصور بانفضاض الاعداد الكثيرة من الناس عنها .

و ـ وأخيراً لا شك في ان التحاسد بين جماعات الكتاب من الذمة والمسلمين في زحامهم على النفوذ في الدولة قد لعب دوره في هذه العملية كلها . وكما استطاع بعض الذميين منهم إيغار صدر المتوكل مرة على بعض كتابة المسلمين عمل الآخرون بدورهم ، مستعينين بالعاطفة الدينية على تغيير المتوكل بدورة على الذميين : دفاعاً وتقارض ضربات .

وعلى أي حال فمن الضروري أن نسجل هنا عدداً من الملاحظات حول أوامر المتوكل في الذمة : .

١ ـ فهي لم تكن قرارات اضطهاد ولكنها قرارات تمييز وتضييق. إنها لم تمنع الذميين من حرية العبادة أبداً ولم يضطهدوا أي نوع من الاضطهاد ولم يرغموا على غير دينهم ولم تهدم إلا بعض بيعهم المستحدثة ولم يخرجوا من كافة الأعمال ولكن من تلك التي يتحكمون فيها بالمسلمين . ولم يلحقوا بأي إهانة ولكن فرض عليهم التمييز باللباس والمركوب ليعرفوا ضمن المجتمع الاسلامي وليقف جدلهم اليومي الدائم مع المسلمين .

٢ ـ أن هذه القرارات لم تكن صارمة التطبيق إلا في بغداد والعراق ، وكانت حدتها تخف كلما ابتعدت عن المركز . كما ان السلطات العباسية والولاة في الأقاليم لم يتشددوا فيها إلا في الأيام الأولى من

صدورها ثم كانت حدتها تخف مع الأيام وتطبيقها يلغى في الواقع العملي .

٢ ـ وبعد هذا وذاك كله فقد تراجع المتوكل نفسه عن تدابيره بعد أقل من أربع سنوات من صدورها : استقبل بالزهور والرياحين والقباب المعقودة من قبل مطران نصيبين أثناء مروره بها الى الشام « فخف ما في قلبه على النصارى » كما يقول مؤرخ نصراني ثم « تعطف على النصارى ( بعد عودته الى سرمن رأى ) ورجع لهم وعمل على اطلاق ( بطريقهم السجين ) تاذاسيس واتفق موت يوحنا ابن ماسويه (الطبيب) وكان عزيزاً عليه وعلى أصحابه فأمر بتبجيله وإكرامه في تجنيزه .. وأمر بإطلاق الجاثليق » ورده الى سر من رأى مع القسس ثم سمح بانحداره الى بغداد فدخلها أحسن دخول بالاكرام العظيم والتبجيل ..»[1] ولعل هذا كان حوالي سنة ٢٤٠ هـ . فلم تدم الأزمة إذن أكثر من أربع الى خمس سنوات . ويذكر البلاذري أن المتوكل خفض الجزية سنة ٢٤٦ هـ عن السامريين اليهود في بيت ماما قرب نابلس حين شكوا إليه ضعفهم وعجزهم عن أدائه فجعل الجزية ثلاثة دنانير بدلا من خمسة[2] .

رابعا : الجدل الديني مع أهل الذمة في عصر الرشيد :

يقول المستشرق آلارد : « رغم هذه الصعوبات التي كانت تصل أحياناً درجة الكره والاضطهاد فإنا نستطيع القول إن المسيحيين في بغداد كانوا يتمتعون تحت الحكم العباسي بأوضاع أكثر ارتياحاً واطمئناناً بكثير من أوضاع بعض الفرق الاسلامية وخاصة من الشيعة .. وأحد

---

(١) ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٨٠ .
(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ١٨٧ .

الأدلة على هذا الجو المسالم نسبياً تلك الوفرة في أدب الجدل ( الذي قام بينهم وبين الاسلام ) : إنك لا تتناقش مع عدو متحفز لتدميرك »[1]

ولعل من نوادر أحداث التاريخ في سعة الصدر الدينية ، تلك المناقشات الجذلية التي كان يوسع لها الخلفاء من وقتهم ويفسحون لها في بلاطهم • يذكر المؤرخون النصارى عن المهدي أنه في مطالع عهده استقدم المرشحين لكرسي البطريقية وناقشهما في الدين وسألهما : عن عصا موسى من أي خشب صنعت ؟ وعن عصا هارون •• ثم عرض عليهما الاسلام •• ولم يتأثر لرفضهما دعوته بل اختار أحدهما بطريقاً[2] وفي التراث الأدبي السرياني الذي تركه طيماثاوس بطريق النساطرة في تلك الفترة رسالة مطولة نشرها بالسريانية على رجال كنيسة في العراق وخراسان وما وراء النهر يروي فيها المناقشة التي دارت بينه وبين الخليفة المهدي في المسيحية والجدل فيها • وقد صارت هذه الرسالة فيما بعد مادة تعليم وتوجيه للنساطرة واليعاقبة على السواء • وترجمت الى العربية ومنها نسخ عديدة مخطوطة وهي مديح في الديانة المسيحية مطول ومعلل في شكل مناقشة[3] وقد كتب مؤرخ نسطوري يقول : «••وكان (طيماثاوس) مكرماً عند الخلفاء والملوك لكثرة علمه •• وحسن أجوبته

---

(١) عرض المستشرق آلارد M. Allard الى بحث هذه النقطة في مقال كتبه بمناسبة مرور الف ومائتي عام على انشاء بغداد . ونشر في مجلة Arábica, Tome Ix, Oct . 1962, Volúme specil, p.p. 375 - 388. وقد درس البحث قبل ذلك مواقع الأديرة والبيع في طبغرافية بغداد . وكلمته المذكورة هنا من الصفحة ٣٨٢ .

(٢) ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧٠ــ٧١ .

(٣) انظر الرسالة في الجزء الأول من رسائل طيماثاوس التي نشرها بالفرنسية Braun في باريس سنة ١٩١٤ .

عن المسائل التي كانوا يرمون عليه ويصادرونه بها في الدين والاعتقاد وغير ذلك . وكان الخليفة الهادي في أكثر الأيام يستدعي به إليه ويحاوره في الدين ويبحث معه ويناظره في أشياء كثيرة ويطرح عليه كثيراً من المسائل المشكلات .. وكان يجيب عن جميعها بأجوبة قاطعة ومسكتة .. وكذلك كان يتأتى له مع هارون الرشيد لما تولى الخلافة ، ومن جملة ما جرى له معه ذات يوم عند انقضاء المجلس قال له يا أبا النصارى : أجبني باختصار : أي الأديان عند الله الحق ؟ فقال : الدين الذي شرائعه ووصاياه تشاكل أفعال الله في خلقه . فأمسك عنه . فلما انفض المجلس قال الرشيد .. لو قال النصرانية لأسأت إليه ولو قال الاسلام لطالبته في الانتقال إليه ولكنه أجاب جواباً كلياً لا دفع فيه وأضمر في نفسه دينه .. »[1] .

ويروي الخطيب البغدادي قصة تصور أحسن التصوير ذلك الجو الديني المفتوح الحر الذي كان يجري فيه الجدل بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة وهي قصة ذكرها أبو الهذيل العلاف عن يهودي قطع عامة المتكلمين في البصرة فلم ينتصر عليه أحد ثم جاءه العلاف ، وهو بعد فتى ، فجادله اليهودي فلم يتمكن منه وانقطع اليهودي فقام فأسر في أذنه شتيمة له ولمن علمه . فلم يثر أبو الهذيل ولكنه وقف بين الحاضرين فقال : أليس قد وقفتم على مسألة إياي وعلى جوابي إياه ؟ أليس عليه أن يرد جوابي ؟ قالوا نعم قال : فإنه لما سارني شتمني بالشتم الذي يوجب الحد وشتم من علمني وإنما قدر (وظن) أني أثب بـه فيدعي أنا واثبناه وشغبنا عليه وقد عرفتكم شأنه بعد انقطاعه .. فأخذته الأيدي بالنعال

---

(١) عمرو بن متى ـ اخبار البطاركة ص ٦٥ .

فخرج هارباً من البصرة وقد كان له بها دين كثير فتركه وخرج هارباً لما لحقه من الانقطاع ..»[1] .

وإذا كان معروفاً أن الجدل الكلامي بلغ أوجه في عهد المأمون فإن أهل الذمة كان لهم منه النصيب الأوفى . ونشهد «حبيب بن بهريز مطران الموصل يفسر للمأمون عدة كتب» كما يقوم بمثل ذلك الحجاج ابن مطر[2] وأيوب بن القاسم الرومي ويوحنا بن البطريق ، وكثيرون آخرون . ويستقدم المأمون يزدانبحت ، رئيس المانويةمن الرأي بعد أن أمنه ليجادله فيقطعه المتكلمون فيقول له المأمون أسلم يا يزدانبخت فلولا ما أعطيناك من الأمان لكان لنا ولك شأن فيقول : نصيحتك مقبولة ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم .. ويقبل المأمون منه ذلك بل يوكل به حفظة خوفا عليه من الغوغاء[3] . ولعلنا لا نحتاج الى التذكير بالمجالس العلمية المختلفة التي كان يعقدها للجدل ويكفي أن نذكر أنه قد بلغ من اهتمام المأمون بالجدل مع المانوية والنصرانية أنه لما وضع كتاباً في الرد على الأولى وضع كتاباً في « الرد على النصارى »[4] .

وإذا كان الناس على دين ملوكهم ـ كما يقولون ـ فقد شارك الكثير من علماء المسلمين في الجدل مع الذميين على مختلف المستويات ونستطيع القول إن معظم ما كتب علماء الكلام والمعتزلة من الآراء وما أثاروه من المسائل والجدل فإنما هو أجوبة على المسائل أكثر مما هو مبادهة فكرية في ركوب مسائل اللاهوت وإنما هو ردود على ما يثيره

---

(١) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ج٣ ص ٣٦٧ـ٣٦٨ .
(٢) ابن النديم ـ الفهرست ص ٢٤٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .
(٤) ابن المرتضى ـ طبقات المعتزلة ص ١٢٣ .

الخصوم من الذميين أكثر مما هو تطوع للجدل • وقد كتبوا في ذلك ومن هؤلاء أبو عيسى الدراق (المتوفى سنة ٨٦١) الذي كتب كتاباً في الرد على الثلاثة فرق من النصارى ، والجاحظ (سنة ٨٦٨) الـذي كتب : كتاج حجج النصارى على المسلمين ثم اتبعه بكتاب الرد على النصارى ، وأبو جعفر الاسكافي (المتوفى سنة ٢٤٠/٨٥٥) ألف كتاباً في الرد على النصارى بقيت لنا منه بعض المقتطفات في الموضوع نفسه أبو عمـرو حفص الفرد • كما كتب الفيلسوف الكندي كتاباً أيضاً ضد التثليث •

ولم يكن الجدل والرد بالطبع من جانب واحد فإن الذميين بدورهم كانوا يكتبون ويهاجمون ويجادلون • وقد كانوا بدأوا الكتابة منذ العهد الأموي • فإن يوحنا الدمشقي المعروف بيوحنا فم الذهب والذي كان من أكبر مفكري المسيحية وتوفي في مطلـع العصر العباسي ترك بين مؤلفاته : محاورة في رد مزاعم المناويين في شكل محاورة بين مسـيحي ومانوي كما ترك مناقشة على الأسلوب نفسه ما بين مسلم ومسيحي[1] وقد كتب بعض الناس الى الجاحظ في أيام المعتصم ، يستنجدون بمعرفته وبيانه على المسائل التي يثيرها النصارى فكتب رسالته في الرد عـلى النصارى قائلا في أولها : « أما بعد فقد قرأت كتابكم وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم وما دخل في قلوب أحداثكم وضعفائكم من اللبس والذي خفتموه على جواباتكم من العجز وماسألتم من إقرارهم بالمسائل ومن حسن معونتهم بالجواب ••»[2] • ويبـدو أن النصارى

---

(١) انظر الياس الدبس — تاريخ سورية ج٣ من المجلد الخامس ص ٢٧٠ •

(١) انظر الجاحظ — ثلاث رسائل (نشر يوشع فنكل — المطبعة السلفية بالقاهرة سنة١٣٤٤) ص ١٠ ومابعد (رسالة الرد على النصارى)

كانوا أكثر جدلا للمسلمين من اليهود والمجوس إذ أن الجاحظ يضيف قوله : « .. على أن هـذه الأمة لم تبتل باليهـود ولا المجـوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا والضعيف بالاسناد مـن روايتنا والمتشابه مـن آي كتابنا ثم يخلـون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين .. ومن البلاء أن كل انسان من المسلمين يرى أنـه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد .. » [1] .

ثم يضيف الجاحظ أيضاً :« وبعد فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار الى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شيء من كتب المثانية والديصانية والمرقونية والفلانية .. فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغنيائنا فمن قبلهم كان أولها .. » . وقد اشتهر في هذه الفترة العباسية خاصة ثلاثة أسماء من الفرق النصـرانية الثلاثة : طيماثاوس البطريق النسطوري المتوفي سنة ٢٠٢/٨٢٣ وثيودوروس أبو قرة اسقف حران الملكاني المتوفى سنة ٢٠٩/٨٣٠ وأبو راعطة أسـقف تكريت اليعقوبي المتوفى سنة ٢٢٠/٨٤٠ وكل واحد من هؤلاء كتب عدداً من الكتب الدينية بالعربية . كمـا أن كتبهم التي كتبوها بالسـريانية أو اليونانية ترجمت على ما يظهر في عهد مبكر الى العربية بدورها ، وأبو قرة كان ذا نشاط واسع وقد ناقش المسلمين واليهود على السـواء ، والنساطرة واليعاقبة أيضاً . وزار كاثوليك الأرمن وبطريق الاسكندرية في ذلك ونجد بين كتبه كتاب التثليث ووحدة الإله ، وكتاب في الـرد على من يزعمون بأن كلام الله مخلوق . وبين كتب أبي راعطة ثمة عناوين

(١) المصدر السابق ص١٩ـ٢٠ .

عديدة تكشف بعض المواضيع الجدلية مثل كتاب رسالة في التثليث ، كتاب في التجسد .. الخ . أما رسائل طيماثاوس فتزيد على المائتين . والستون الباقية منها كلها في الدفاع عن المسيحية والمذهب النسطوري خاصة . وقد قام بالعمل نفسه في الشام أسقف صيدا في أواخر القرن الثامن (الثاني الهجري) . فقد كتب دفاعاً عن الدين المسيحي اقترحه عليه أحد أصدقائه المسلمين . ومازال مكتبة الفاتيكان تحتفظ بمخطوطة من هذه الرسالة[1] .

ونستطيع القول إن الأعمال الفكرية الأساسية لأهل الذمة إنما كانت موجهة في العصر العباسي الأول بجانب الطب والترجمة الى التأليف الديني .

ويتحصل من هذا البحث كله أن صورة «الاضطهاد» التي تعزى في العادة الى العصر العباسي الأول هو صورة زائفة . وإذا كان تكاثر المسلمين العددي ووجود الحكم في أيدي الخلفاء المسلمين قد جعل معاملة المسلمين لأهل الذمة تقسو في بعض الأحيان دون أن تصل في أي وقت من الأوقات درجة الاضطهاد وحجز الحرية الدينية فإن فرط الحساسية الذمية بالمقابل جعل مؤرخي الذمة والمستشرقين يبالغون في تقدير القيود الاجتماعية ، والمظالم المالية التي كان يتعرض لهاالذميون . وكان الخلفاء بين إلحاح الحاجة الى كفايات أهل الذمة من جهة وإلحاح الفقهاء والمحدثين والمتدينين برفضهم من المجتمع الاسلامي يوجحون

---

(١) انظر الدبس ــ تاريخ سورية ج٣ ص٢٧٠ .

الأولى دوماً على الثانية وإذا سايروا في بعض الأحايين داعي المتدينين ...
الداعي السياسي في مكافحة الروم فإن الذميين بدورهم لم يدخـروا
وسعاً في استخدام أقصى الحرية الدينية الممنوحة لهم للجدل مع المسلمين
والتأليف ضدهم وللاتصال أحياناً مع الروم وللاستفادة من كل الامتيازات
المتاحة ضمن الجماعة الاسلامية •

# الفصل الثالث

# المشاكل والحركات الدّينية

عرف العصر العباسي الأول ولا سيما في فترة استقراره عدداً من المشاكل والحركات الدينية وكان بعض هذه الحركات نتيجة للتطور الاجتماعي والفكري والسياسي في الدولة الاسلامية كالزندقة ، كما كان بعضها بقية من الحركات الايرانية التي قامت بنتيجة الدعوة المسلمية (كالمقنعية) أو يقظة الأديان الأولى (كالبابكية) •

## ١ ـ مشكلة الزندقة :

لعله من الضروري أن ننبه الى ما اتخذته هذه الظاهرة ـ بجانب معناها الديني ـ من طابع سياسي في هذه الفترة • فالذي يظهر من دراسة هذه الحركة أنها كانت ، في نظر أصحاب الخلافة أيضاً ، حركة خطرة على الحكم العباسي وليس فقط على الدين الاسلامي • وقد كان الموقف الصلب الوحيد الذي اتخذه العباسيون الأوائل من العقائد الأخرى هو موقفهم منها بسبب ما عرفوه من محاربتها للدين الاسلامي من جهة ومن ارتباطها من جهة أخرى بحركة أشمل وذات معنى سياسي بعيد يهدد الحكم العربي الاسلامي هي الشعوبية • وإذا كانت مكافحة العباسيين للثورات الدينية جزءاً من مشاكلهم السياسية الداخلية فإن مكافحتهم للزندقة كانت بدورها

جزءاً من صميم سياستهم الدينية ويمكن اعتباره الى حد كبير متمماً لها • ويشكل الجانب السلبي الدفاعي منها كما كان في الوقت نفسه عملا سياسياً لا يختلف عن مكافحة الثورات المهددة للدولة •

أ ـ **الشعوبية** : بالرغم من أن الزندقة أخذت شكل حركة قائمة بذاتها في العصر العباسي الأول فإنها كانت على علاقات واشجة مشتركة ـ حتى ليمكن أن تعد أحد الفروع الظاهرة ـ لحركة أوسع منها وأبعد في الجذور واكثر تعدداً في الوجوه عرفها المؤرخون والكتاب العرب في ذلك العهد باسم الشعوبية • وهذه الحركة تشكل الإطار العام الذي تحركت ضمنه أعمال الزنادقة حتى تكاد لا تفهم بدونه •

فقد حكم العرب وانساح معهم الاسلام على مجموعات قومية متعددة وطوائف دينية قديمة التكوين والأفكار • وإذا استطاعت الدولة العربية الاسلامية أن تقوم وتستمر بقوة العرب والعقيدة الاسلامية فإن تلك المجموعات والطوائف المحكومة كانت أبعد ما تكون عن موقف الرضى المستسلم للعرب كحكام مسيطرين وللإسلام كدين يهدم ما توارثته تلك الطوائف وأقامته حالا على حال من النحل والعقائد • بل كانت بالعكس ـ ولو أرضاها العدل الاسلامي أحياناً كثيرة ـ تشكل تحت جناح الجماعة الاسلامية المتكاثرة بالمسلمين الجدد ، طبقة واسعة نشيطة من الجماعات والأفكار المناهضة لتلك الجماعة دينياً خاصة واجتماعياً وسياسياً أيضاً • وبالرغم من أن تلك المجموعات والطوائف كانت تخسر باستمرار من أتباعها جماعات تدخل الاسلام وتصبح موالي للدين والدولة الجديدين إلا انها لأسباب عدة ، منها هذه الخسارة نفسها ، كانت تزداد نقمة على النظام العربي والعقيدة الاسلامية • كما كانت في الوقت نفسه تطلق في نوع من الدفاع عن

النفس أفكارها المناوئة والهجومية ، حتى عن طريق هؤلاء الموالي أنفسهم ، في الجو الاسلامي العربي • كان ثمة صراع واضح طبيعي بين الطرفين فيه التصفية وتنازع البقاء • وإذا كانت بعض تلك الأفكار هي مما حمله المسلمون الجدد معهم من عقائدهم الأولى الى الاسلام من المشكلات والجدل الفكري وأمجاد التاريخ ورواسب الماضي بأنواعها فإن بعضها الآخر إنما كان يطلق لإرباك المسلم وبث الريبة عنده في عقيدته بشكل أو بآخر ، أو للانتقاص من الدين الاسلامي كله ومن العرب الذين حملوه للناس •

هذ االموقف الممتد ما بين الحسد الى النقمة والحقد الى العداء الصامت أو الناشط الفعال هو الذي أفرز لدى الشعوب غير العربية ما سماه المؤرخون والكتاب القدماء بالشعوبية • وإذا كان الاسم يعود في الغالب الى الآية الكريمة : «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» وإذا كان قد صيغ واستعمل على الأغلب في العصر العباسي الأول فإن العرب كانوا يفهمون منه أنه حركة الشعوب الأخرى ضدهم وضد سلطانهم القائم المستند الى الاسلام وإذا كان بعض الشعوبيين لا يطلبون إما عن يأس أو عن تقى وتدين إلا المساواة بالعرب ما دام الاسلام قد سوى بينهم • وهم «أهل التسوية» فإن بعضهم الآخر ، كان يدس على العرب والدين الاسلامي ويفضل الشعوب والديانات الأخرى عليهما ويظهر مفاخرها ومحاسنها ••• ويدخل في هؤلاء بالطبع الجماعات غير المسلمة التي كانت يتظاهر أو تحرض ، أو تغذي مختلف الأفكار المناوئة كما تسجل وتنشر مختلف الدسائس والمثالب •••

وما من شك في أن عوامل معقدة عديدة قد كونت تلك الحركة الشعوبية • ومن التبسيط اعطاؤها اسم حركة أو نسبتها الى شعب

بذاته او دين محدد أو جماعة معينة ولكنها تيار جمع تحت هذا الاسم الحركات والجهود التي قامت بها عدة شعوب وعدة طوائف دينية وعدة نوازع اجتماعية ومادية لأسباب بعضها ديني ولكن بعضها الآخر اقتصادي أو سياسي . بهدف إلغاء التناقض أوالتسلط أو الغبن الاجتماعي والاقتصادي والديني والسياسي التي تشعر به تلك الشعوب والطوائف تجاه العرب الحاكمين والدين الاسلامي الذي يحملون . وقد تركزت تلك الحركات والجهود في إثبات وجود الأديان والثقافات والمفاخر القديمة لهذه الشعوب كتابة وكلاماً وعملا والانتقاص بالمقابل من العرب وإرباك الاسلام بوضعه أمام المشاكل الدينية القديمة والجدلية . وهكذا ظهرت الشعوبية في إطار اجتماعي ضد القيم التي حملها العرب الصحراويون والمسلمون كما ظهرت في شكل أدبي فأقامت الصراع ضمن هذا الجو ، في فترة كانت فيها علوم العربية من اللغة والنحو والأدب والشعر العربي وعلوم الدين من الحديث والفقه تدون وتنظم وأخذت الشكل الديني في مجموعة من التحديات للعقيدة الاسلامية بعضها تشمل المظاهر ولكن بعضها كان يمس جوهر العقيدة وأركانها الكبرى في التوحيد والنبوة كما لم تعدم الشعوبية أخيراً الوسيلة للظهور أيضاً بشكل سياسي في حركات ايران وخراسان وفي أعمال الكتاب وعمال الخراج في الدولة نفسها .

وإذا كان العامل الديني في الشعوبية مفهوم الدوافع بسبب صراع الاسلام للأديان الأخرى ، وكان العامل السياسي بدوره مفهوماً بسبب فقد الايرانيين وغيرهم للملك والدولة فلعله من الضروري أن نكشف العامل الاقتصادي ـ الاجتماعي فيها .

ولأن التميز العربي عرقياً وسياسياً وعسكرياً ودينياً كان يرتبط

بمصالح اقتصادية وامتيازات ومنافع احتكرها في الدولة في أول الأمر على الأقل العرب فقد كان للشعوبية بدورها جذورها ومواقفها الاقتصادية • إنها لم تنبع فقط من مجرد المنافسة القومية وحب المجد والفخر بالماضي وهي دوافع غنائية ورومانسية تالية ولكن من المزاحمة على المكاسب المادية وعلى «العطاء» وغنيمة الحكم واستغلال الطبقات الدنيا في المجتمع • كانت الشعوبية صدى فكرياً ــ قومياً لمزاحمة اقتصادية مادية عنيفة •

وإذا نحن مشينا خطوة أخرى في هذا المجال وجدنا أن العامل الاقتصادي الاجتماعي في شعوبية الجماعات غير العربية الموجودة في العراق وايران والجزيرة انما يرجع بصورة خاصة إلى ذلك التناقض العنيف الذي حدث في السواد خاصة إثر استقرار القبائل العربية فيه وتحول شيوخها إلى طبقة ارستقراطية اقطاعية تملك الأرضين المختلفة وتستغل الطبقة الزراعية المؤلفة من (النبط) السكان الاصليين بدياناتهم الأولى وتقاليدهم • وإذا جعل الكثير من هؤلاء يهربون من الأرض ويتجمعون في المدن (واسط • البصرة • الكوفة) كما جعلوا يهربون من ريف الجزيرة الى المدن (كالرها) تخلصا من الاستغلال والضرائب[1] ويفعلون مثل ذلك في مصر وفي خراسان ويسلمون في كل الاحوال ويصبحون من الموالي أو لا يسلمون ، وإذا حاول الولاة العرب كالحجاج منعهم من تلك الهجرة المدمرة للانتاج بشتى الوسائل ومنها أن ينقش على يد كل رجل اسم قريته ويعاد اليها[2] فقد كان هذا كله

---

(١) انظر ديونيسيوس التلمحري ج١ ص ١٠ ( بالفرنسية )
Chronique de Denys de Tell - Mahré ( éd. J. B. Chabot ) Vol. I, p 10 .
(٢) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ج ١

سبباً في ايجاد نقمة لا بد أن تعبر عن نفسها سواء بالتحاق اعداد من هؤلاء الموالي بالثورات وكثيراً ما جرى ذلك ، أو بتبني كل فكرة مناوئة للحكم العربي وللدين الذي يحمله ... أي الشعوبية .

وإذا تركزت الشعوبية جغرافياً في العراق خاصة فلأن تنوع الشعوب واللغات كان فيه كثيراً وتعدد النحل الدينية كان اكثر ولأن عقدة الطرق التجارية العالمية (من بحرية وبرية) إنما كانت تمتد على محور البصرة ـ الكوفة بغداد ، ولأن التراث القديم هناك عريق جداً ولأن مركز الدولة انتقل مع العباسيين إلى العراق فانتقل إليه بانتقال هذا المركز ، معظم العلماء واجتمع إليه نشاط الحركة الثقافية والدينية سواء العربية الاسلامية منها أو علوم الأوائل من الاغريق والفرس والهند ، كما تكاثر فيه السكان اخيراً كثرة كبيرة وهكذا كانت المنطقة الممتدة ما بين بغداد إلى الكوفة إلى البصرة هي المكان الجغرافي المختار للصراع بين عناصر القوة العربية الاسلامية والقوى الأخرى .

وإذا عبرت الشعوبية عن موقفها المعادي للعرب والاسلام بطرق وأشكال شتى منها الثقافي ومنها الاجتماعي ـ الاقتصادي ومنها الديني والسياسي كما وقف لها الحكام العرب والمسلمون بالمقابل يجيبونها على موقف بموقف وعلى هجوم بهجوم فالذي يهمنا منها هنا هو الشكل الديني . وهو الجانب الأخطر من الحركة الشعوبيةالذي عرف بالزندقة. وقد تميز هذا الجانب حتى كان يشكل لوحده حركة قائمة بذاتها تعمل على هدم الدين الاسلامي من الداخل بالتشكيك في أركانه وقيمه الفكرية والخلقية وتفسيخها بالتحلل والانحراف والمجون ، بيتما اختصت الحركات الشعوبية الباقية بالتحرك في الميدان الثقافي والاجتماعي والسياسي أي بتهديم الاسلام من الخارج حتى كادت تعتبر في نظر

الكثيرين حركة ثقافية اجتماعيـة سياسيـة • وليس السبب اختلاف الحركتين في التكوين الهدف فهما تنبعان من جذور واحدة مشتركـة وترميان لهدف واحد مشترك أيضا ولكن الاختلاف بينهما انمـا هو في ميدان العمل فقط وفي نوعه ولعل أهم ما يكشف ارتباطهما العميق أن العرب والاسلام كانا في تلـك الفترة صورتين لحقيقـة واحدة • فالزندقة التي تعمل على تهديد وتهديم الدين الاسلامي ، إنما كان عملها يؤدي في الوقت نفسه إلى ضرب الأسس التي يقوم عليها الحكم العربي والدولة الاسلامية وهو هدف الشعوبية وبالمقابل فإن العمل الشعوبي الثقافي والاجتماعي والسياسي ضد العرب أو ضدهم تميزهم إنما كان يسعى في نهاية المطاف إلى سلب الدين الاسلامي عماده السياسي مما يجعله بدوره متمماً لعمل الزنادقة • وإنا لنلاحظ بسهولة أن كثيرا من الشعوبيين كانوا في الوقت نفسه من الزنادقة الذين يزرعون الشكوك في الدين وبالمقابل فإن جمهرة الزنادقـة الواسعـة كانت بدورهـا من الجماعة الشعوبيـة •

ب ـ **حركة الزندقة** : يبدو من الدراسات العديدة التي تمت[١] أن كلمة زنديق فارسية الأصل ، جاءت من كلمة زنده أو زنديك وتعني من يعمل بالتأويل (والزند هو تأويل كتاب آفستا المقدس لزارادشت) • وقد انتشر استعمال الكلمة تحت ظل الساسانيين قبل الاسلام للدلالـة على المانويين الذين طوردوا وقتلوا مع صاحبهم ماني وحرم مذهبهم من

---

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة زندقة . ويبدو أنه يجب التخلي عن راي بيفان القائل بأن أصل الكلمة سرياني من «زديق» أو صديق أو ان أصلها اغريقي ... وقد ضربنا صفحاً عن استعراض تفاسير اللغويين العرب للكلمة .

كسرى انو شروان لأنهم حرفوا الزند وأتوا بتأويل جديد يخالف المذهب الزارادشتي الرسمي • وبقيت الكلمة المستعملة ، في المعنى نفسه بين حمراء الموالي في الحيرة والكوفة في العهد الاسلامي بدليل أنها فسرت على الشكل نفسه ــ فيما يروي الطبري ــ من قبل الخليفة المهدي حين قال لابنه ، عقب قتل بعض الزنادقة : «يا بني إذا صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة ــ يعني اصحاب ماني ــ فانها فرقة تدعو الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل بالآخرة ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : احدهما النور والآخر الظلمة • ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى بداية النور[1] •••» •

على أن الكلمة لم تحتفظ على الاستعمال بهذا المعنى وحده فقد انضافت اليها معان أخرى بالتدريج زادت في تنوع استعمالها ايضا وفي تشتت معناها الدقيق في ذلك العصر حتى اصبحت الزندقة مرادفة أحيانا للتظرف كما اضحت في الوقت نفسه تهمة ادارية سياسية جزاؤها القتل•• و لذا يعني أنها عرفت تطورا واسعا ما بين أواخر العصر الاموي حتى أواخر العصر العباسي الأول •

والواقع أن الكلمة إستعيرت منذ مطالع القرن الثاني من الاستعمال

---

(١) الطبري ج٨ ص ٢٢٠ (٣/٥٨٨) ويلاحظ ان ابن النديم يطلق اسم الزندقة أيضاً على المانوية كما أن الخياط في الانتصار يعطيها المعنى نفسه وكذلك ابن قتيبة في المعارف .

المانوي واطلقت على أعمال التحلل من الواجبات الدينية الاسلامية أو على الأسباب التي تفلسف العقيدة . فقد رمي الوليد بن يزيد سنة ١١٩ بالزندقة بسبب المجون والشرب واللذات كما رمي بها في الوقت نفسه الجعد بن درهم الذي قتل سنة ١٢٥/٧٤٢ في الكوفة بتهمة الزندقة وهي ليست هنا القول بالمانوية ولكن بآراء غريبة في القدر وخلق القرآن وحرية الارادة ومنذ هذا الوقت ترافق بشكل واضح في الكلمة معنيان : المانوي والإلحادي . واختلط استعمالها لبقايا المانويين في العراق وغيره مع استعمالها للخارجين على الآراء الاسلامية السائدة على السواء[1] . ولما كان هذا الخروج متعدد الألوان والصور فقد وصفت بالزندقة ألوان من الاعمال والآراء تمتد ما بين الاستخفاف بالدين حتى الكفر المطلق والتعطيل ويدخل في ذلك نقد بعض الصحابة أو تأويل بعض الآيات تأويلا مخالفا أو إنكار النبوات ...

وإذا كان الاستخفاف بالدين قد ينجم عن المجون والتظرف لا عن قلة الدين فإن التأويل نفسه قد يأتي عن فرط التفكير العقلي في الدين كما أن بامكان السلطة أن تدخل من تشاء من المعارضين والمناهضين للنظام العام في نطاق الزنادقة عن طريق اتهامهم بحمل آراء دينية خطرة على ذلك النظام وأسسه . وهذا بالضبط ما آل إليه معنى الكلمة في نهاية القرن الثاني الهجري إذا أضحت على كثرة الاستعمال ، تشمل كل هذه

---

(١) تعمدنا هنا أن لا نتابع معاني الكلمة واستعمالها وراء العصر العباسي الأول لأنه ليس من بحثنا فقد أصبحت فيما بعد تطلق على المزدكية أيضاً وعلى الدهرية المنكرين لوجود الله ، وللنبوات . واحياناً على غلاة الشيعة او على أصحاب البدع ، اي صارت بمعنى الملحد المنكر للاعتقاد الديني السائد .

الأنواع من التمرد معاً سواء على الأمور الدينية العادية أو على الدين كله أو على سياسة الامام ، المسؤول عن حفظ الدين وحمايته والذي تختلط لديه حمايته الدين مع مصلحة الدولة • وبعد أن كانت الزندقة في الأصل اسم فرقة ثم اصطلاحاً للدلالة على الجدل الكلامي النظري المنحرف أضحت في النهاية مصطلحاً إدارياً سياسياً ثم مصطلحاً دينياً •

وكانت المانوية وأصحابها الزنادقة[1] موجودة في العراق وخراسان وبلاد الترك خلال العهد الأموي والعصر العباسي الأول كما كان يرافقها في الوجود الديني فرق أخرى مشتقة منها كالديصانية ومذاهب أخرى مسيحية للسريان كالنسطورية واليعقوبية في العراق والجزيرة ومذاهب من نوع ثالث تمزج ما بين المانوية والمسيحية كالمرقيونية والماهانية • بينما كانت المزدكية تنتشر خاصة في المناطق الجبلية من شمال غربي ايران ويحمل أصحابها هناك اسم الخرمية والمحمرة أما الزارادشتية ، دين الساسانيين الرسمي ، فقد ظل العقيدة السائدة في مختلف انحاء ايران وله معابده وكهانه وكان من أسباب تعايشه وتعايش أصحابه مع الاسلام أن الحكم العربي اعتبر اتباع زارادشت ، من ناحية المعاملة المالية ، من أهل الكتاب •••

ومع أن الاسلام كان يعزو هذه الفرق ويحول اتباعها الى جماهير من الموالي ولا سيما في العراق إلا إن أصحاب هذه المذاهب ظلوا

---

(١) انظر تفصيل ذلك لدى ابن النديم الفهرست ص٣٣٤والاقدمون كانوا يسمون هذا المذهب باسم المنانية . ولعلنا نلاحظ هنا أن الزندقة فقدت المعنى المانوي فيما بعد العصر العباسي الأول واضحت تستعمل للمزدكية (في محاكمة بابك) وتستعمل بمعنى الكفر والالحاد ورفض الاسلام وبهذا المعنى استعملت في كتب الفقهاء وفي محاكمات بعض الصوفية (كالحلاج) .

متماسكين • وكان للمانوية خاصة تنظيمهم الديني ولهم البيع ولهم رؤساؤهم الذين يتعاقبون على الرئاسة ومركزهم الأقدس في بابل • ومن هؤلاء الرؤساء مهر الذي عاصر الوليد بن عبد الملك ووالي العراق خالد بن عبد الله القسري وفي عهده انقسمت المانوية الى فرقتين أيضاً ••••

وقد ظل تنظيمهم قائما في العهد العباسي فكان من رؤسائهم أبو هلال الديحوري زمن المنصور ، ثم جاء أبو سعيد رحا بعد ذلك • وتسلم الرئاسة زمن المأمون في فرقة منهم ، أبو علي رجاء يزدان بخت الذي ناظره المتكلمون في مجلس الخليفة ، وأبو علي سعيد الذي خلفه كاتبه نصر بن هرمزد السمرقندي أيام المعتصم ••

ولم تكن المانوية واضحة برؤسائها ولكنها كانت كذلك في تكوينها فقد كانت ذات منهج فكري متماسك وكتب متداولة وقضايا دينية وسياسية واجتماعية وفكرية ودعاة مبشرين لهم نشاط فكري بدليل تلك الانقسامات التي عرفتها المانوية أيام الأمويين ثم في عهد المنصور والرشيد[1] كما كان بعض اتباعها يعملون في أجهزة الدولة الاسلامية ولكنهم يبذلون مالهم ودنياهم العريضة للعقيدة التي كان من مبادئها الزهد والورع كما كان منها أيضاً انتقاص الانبياء ورميهم بالكذب والزعم بأن الشياطين هي التي تكلمت بألسنتهم • ولعل أخطر ما في المانوية أنهم كانوا يأخذون من المسلمين المظهر الاسلامي تماماً كما

---

(١) ظهر منها بعد عهد عبد الملك وبعد قصة المهرية والمقلاصية منشق آخر زمن المنصور هو بزرمهر ألف فرقة خاصة به كما ظهر في عهد المأمون انشقاق آخر تزعمه يزدانبخت ... الخ .

كانوا قد أخذوا من قبل في المسيحيين المظاهر المسيحية[1] . وقد كتبوا الكثير من كتبهم بالسريانية كما كتبوا بعد ذلك باللغة العربية .

ولعله من الهام جداً أن نلاحظ أن تهمة الزندقة ومكافحة الزندقة لم تتجها أبداً إلى المجوسية أي الزارادشتية المنتشرة في ايران وإنما الى المانوية المشتقة منها ، بصورة خاصة وإن شملت أحيانا المزدكية ، وهي الفرع الآخر من الزارادشتية . وإذا توضح المزدكيون حين أخذت تمرداتهم الشكل السياسي (في حركة سنباذ ثم بابك) بل كوفح الزرادشتيون أنفسهم أيضاً في حركاتهم السياسية (أيام بهافريد وأشناس والمقنع واسحق الترك) فإن المانوية قد كوفحت لذاتها باسم الزندقة وبدون أن تقوم بأي حركة سياسية . وربما اعتبر الحكم العربي الاسلامي كلا من المجوسية خاصة والمزدكية ديانات محلية أو قومية ، لا خطر منها لأنها لا تدعو لمذاهبها ولأن أتباعها يتركون صفوفها بالتدريج الى الاسلام أما المانوية فيبدو أنها كانت تعتبر نفسها ديانة عالمية من جهة وتبشيرية من جهة أخرى ، كما تدعو من جهة ثالثة الى مبادىء في الزهد مقبولة في أجواء الناس إذ ذاك ومن هنا فهي تشكل بؤرة منافسة ومزاحمة للاسلام لا سيما وهي تبيح لأتباعها الجهر بأي دين من الأديان (الاسلامية أو المسيحية أو المجوسية خاصة) وإبطان العقيدة الأصلية في

---

(١) كان قد تفرغ قبل الأسلام من المانوية فرع جمع بينها وبين النصرانية في مذهب عرف بالبولسية وقد انتشر هذا المذهب في نصارى العراق والجزيرة والشام في العهد الاموي كما أن دعاته وصلوا عبر البلقان الى جنوب فرنسا ونشروا دعوتهم هناك وكانت لهم حركتهم المعروفة بالكاتارية أو الالبيجنسية . وقد قضى عليهم بالحرب والقتل في مطالع القرن الثالث عشر للميلاد .

السرائر . وقد كانت هذه التقية هي التي تصدم وجدان السواد الأعظم من المسلمين المؤمنين بوحدانية الله .

ولم تكن الطوائف المسيحية بدورها في العراق والجزيرة والشام ومصر أقل تنظيماً ونشاطاً فكرياً من الزندقة المانوية وإن كانت أقل اشتراكاً في الحركة الشعوبية الواسعة وبالتالي في حركةالزندقة نفسها . ولكن الفلسفة المسيحية ، والجدل اللاهوتي بين مختلف فرق النصرانية لم يمتنع عن التسرب عن طرق شتى الى المناقشات الجدلية الاسلامية . ولعل أوائل المتهمين بالزندقة في العهد الاموي كانوا أكثر تأثراً بالجدليات المسيحية منهم بالأفكار الدينية الايرانية .

ولا علاقة للثورة العباسية الأولى بالعملية الشعوبية ومقاومتها ولا بالزندقة ومكافحتها إلا في الظلال البعيدة المتصلة بمن لحق بتلك الثورة يوم كانت بعد دعوة سرية في خراسان من أصحاب العقائد المختلفة . وقد كانت دعوة العباسيين سياسية بصورة أساسية لا تهتم في كثير أو قليل بالجدل الديني ولا بالكلام في القدر والتوحيد ولا بغيره. ويروي البلاذري أن أبا جعفر (المنصور) أيام الدعوة عاد من بعض رحلاته في البصرة الى دار والده في الحميمة وأخذ يتكلم في القدر ومسائل الكلام مما سمع في تلك المدينة في مجالس المتكلمين وكان يغشاها ويتصل بأصحابها . فلما سمعه أبوه محمد بن علي العباسي ، وهو عقل الدعوة المنظم ، منعه من ذلك ولم تحمل دعوته ، تحت تأثيره أي لون ديني واضح .

ومن جهة أخرى فإن الحركة الشعوبية ومعها الزندقة إنما بدأت طلائعها في العهد الأموي وإذا كانت الدعوة الشعوبية ، في ذلك العهد ، قد حملت شعار «التسوية» بين العرب وغيرهم لأنها لا تجرؤ على أن

تطلب اكثر من ذلك فإن حركة التفلسف الديني التي دخلت الزندقة عن طريقها الى الاسلام كانت على المستوى المحدود نفسه . ومعبد الجهني المتوفي سنة ٨٠ كان أبرز تطلعات الفكر الاسلامي للجدل الديني متأثراً فيما يقولون ــ بنصراني من أساورة العراق اسمه أبو يونس سنسويه الاسواري ثم كان مقتل غيلان الدمشقي لكلامه في القدر بعد ذلك ، بأمر هشام بن عبد الملك ، رمزاً آخر لعدم الرضى الذي قابل به المسلمون في تلك الفترات ، هذا الجدل .

لكن الاسلام ، كنظام حكم ، وكثقافة ، وكمجتمع كان إذ ذاك يتبلور ويأخذ ملامحه الخاصة المميزة عبر مراحل كثيرة من الصراع لم تخل أحياناً كثيرة من الدماء أيضاً فكان طبيعياً أن يعيش الاسلام كعقيدة، الصراع نفسه . لا سيما أن الفكر الديني الاسلامي كان مضطراً مع تعقد الحياة ، للإجابة على كافة الحاجات الفكرية والمسائل الجدلية التي قد تثور سواء من اعدائه أو من المؤمنين به .

والواقع أنه بالرغم من التراث المأثور عن الصحابة بمنع الجدل فإن المناقشة الدينية قد ظهرت وتوسعت منذ أواخر القرن الأول الهجري بل يعدون عمر بن عبد العزيز أول المتكلمين من السنة[1] . وقد حفظ عنه كثير من وقائع الجدل مع مختلف الفرق . والجدل الديني متى مس بعض العقائد المستقرة أو نقل بعض المعضلات من الطوائف والمذاهب غير الاسلامية أو أظهر صاحبه التهاون في رعاية بعض الحرمات كان جديراً أن يتعرض للاتهام بنقص الدين . وهذا ما استعار له الناس في تلك

---

(١) انظر البغدادي ـ الفرق بين الفرق (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة المدني بالقاهرة) ص ٣٦٣ وهو يذكر أيضاً أن له رسالة بليغة في الرد على القدرية .

للسنوات الثلاثين من مطالع القرن الهجري الثاني اسم : الزندقة • ولو استعرضنا من وصف بها إذ ذاك لوجدنا مصداق ذلك واضحاً في حالات :

ـ غيلان الدمشقي الذي قال له خالد بن اللحلاح : ويحك يا غيلان ••• صرت قدرياً زنديقاً ![1] وانتهى الأمر بغيلان أن صلب على باب دمشق بعد قطع يديه ورجليه بأمر هشام بن عبد الملك • لقوله بالقدر وحرية الارادة • وقد أفتى بقتله الأوزاعي كما اعتبر رجاء بن حياة قتله خيراً من قتل ألفين من الروم ••• مع أنه كان من الائمة المفتنين وله رسائل في ألفي ورقة[2] •••

ـ الجعد بن درهم الذي قال بالجبر وبخلق القرآن ••• وقد شهد عليه بالكفر جماعة عند الخليفة هشام فأخرجه من الشام الى العراق وسجنه عند واليه خالد القسري (المتهم بدوره بالزندقة) ثم طلب اليه قتله • قالوا فضحى به خالد يوم عيد الأضحى ••• وابن النديم يعد ابن درهم من اتباع ماني[3] كما اتهم أنه أخذ عن الصائبة في حران وعن بعض اليهود ولكن ذلك لم يكن فيما يبدو إلا لتبرير قتله •

ـ الخليفة الوليد بن يزيد : وقد اتهم بالزندقة وهو ولي للعهد بسبب اتخاذه الشراب والمجون • قال له الخليفة هشام : ويحك يا وليد والله ما أدري أعلى الاسلام أنت أم لا • ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته

---

(١) الذهبي ـ تاريخ الاسلام ج٣ ص ١٤٧ .

(٢) ابن حجر ـ لسان الميزان ج٤ ص ٤٢٤ وانظر كذلك تاريخ الذهبي ج٤ ص ٢٩٠ وابن النديم ـ الفهرس ص ١٧١ .

(٣) انظر ابن النديم ـ الفهرس ص ٣٣٨ وانظر ابن حجر لسان الميزان ج٢ ص ١٠٥ ولنذكر أن الجعد هو مولى مروان بن محمد وإليه صار ينسب في زمن العباسيين لتشويه سمعته فيقال : مروان الجعدي .

غير متحاش ولا معتز به » وقد عرض به شاعر من موالي المدينة حين حج مسلمة بن هشام بن عبد الملك سنة ١١٩ وكان يكنى أبا شاكر فقال الشاعر :

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجرد بأرسانها ليس بزنديق ولا كافر

ــ ابو وهب عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني وهو مربي الوليد ابن يزيد اتهم بالزندقة للسبب نفسه حتى قال الوليد :

لقد قذفوا أبا وهب بأمر كبير بل يزيد على الكبير

ــ أبو حمزة الصوفي ، وكان حلولياً «فنسبوه الى الزندقة وقالوا حلولي زنديق وبيع فرسه بالمناداة على باب الجامع : هذا فرس الزنديق »[1] .

ــ خالد بن عبد الله القسري والي العراق وقد اتهم بالزندقة لا لأن أمه نصرانية فقط بل لأنه كان يعني ــ كما قال ابن النديم ــ بالمانوية[2] «وزعموا أنه حمل (مهرا) رئيس المانوية على بغلة وختمه بخاتم فضة وخلع عليه ثياب وشي» ، وربما كان ذلك لأسباب ادارية .

ــ مروان بن محمد فقد ذكر ابن النديم أنه كان زنديقا وقد يكون هذا الاتهام عباسياً وغير ذي موضوع[3] .

(١) ابن الجوزي ــ تكبيس ابليس (نشر باسم نقد العلم والعلماء أو ... من قبل الخانجي ــ القاهرة سنة ١٣٤٠) ص ١٨٠ .
(٢) ابن النديم ــ الفهرس ص ٣٣٤ وص ٣٣٧ ــ ٣٣٨ .
(٣) المصدر نفسه .

وهكذا كان القدرية والجبرية على السواء والمجان واصحاب الفكر الحلولي يتهمون بالزندقة في أواخر العهد الأموي لكنهم لم يكونوا يكافحون كجماعة ولكن كأفراد ولم يكن النظام الأموي ينظر إليهم كحركة منظمة خطرة علي النظام وإن كان قد قتل بعضهم بسبب سياسي وإن كان خلفاء بني أمية المتأخرون قد وجدوا من واجبهم استئصال الناشزين عن العقيدة العامة فإنهم لم يعتبروا ذلك سياسة دائمة أو واجباً لا محيد عنه من واجبات الامام واتهام اثنين من الخلفاء بالزندقة واثنين على الأقل من مربي الخلفاء بها أيضاً دليل علي عدم الاهتمام الرسمي باتخاذ موقف سياسي محدد من هذا التيار .

وقد ورث العباسيون ، فيما ورثوا عن بني أمية ، تيار الشعوبية والزندقة وإذا كانت الانظار متجهة زمن الأمويين الي الشام وزنادقته فإن هذه الانظار اتجهت في ظل العباسيين الي العراق الذي اجتمعت إليه مختلف ألوان النشاط في الدولة . وليس مفاجئاً أن نجد هناك أن من عرفوا بالزندقة في مطالع العصر العباسي كانوا كلهم من المخضرمين الذين بدأوا نشاطهم الفكري المزندق منذ العهد الأموي . فإن ابن المقفع وبشار ابن برد وحماد عجرد ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان وعبد الله بن معاوية ويونس بن أبي فروة وصالح بن عبد القدوس ولنذكر ان الجعد هو مربي مروان وعبد الكريم ابن أبي العوجاء ويحيي بن زياد وغيرهم ممن ألصقت الكتب بهم صفة الزندقة وروت أخبارهم عرفوا جميعاً أواخر الحكم الأموي وقتلوا أو ماتوا قبل أن يأتي عهد الرشيد أو في مطالعه . على أن المفاجيء في الأمر ان تأخذ الزندقة في تلك الفترة بالذات شكل الموجة الواسعة وأن يكثر عدد الزنادقة أو المتهمين بهذا الميل كثرة واضحة . مما دعا الخلافة لاتخاذ موقف الجلاد .

والواقع أنا يجب أن نفتش عن تفسير ذلك في أمور ثلاثة :

الأول : هو نفسه السبب الذي أطلق ثورات ايران المختلفة في عهد المنصور ونعني : خيبة الامال التي كانت الثورة العباسية قد أطلقتها في نفوس الايرانيين • وبينما كان الجواب على هذه الخيبة مسلحاً في بعض نواحي ايران ، كان الجواب عليها هجمة دينية من الزندقة في العراق حيث لا مجال مع قوة الخلافة العسكرية للثورة المسلحة لا سيما وأن التنظيمات الدينية المانوية خاصة كانت قائمة ناشطة متصلة الأسباب ما بين مركزها في بابل وبين اتباعها ومعابدهم في خراسان وما وراء النهر ومثلها المزدكية •

الثاني : جهود العباسيين لنشر الاسلام في إيران فقد اثارت هذه الجهود رجال الأديان الأخرى والأجهزة الدينية التي يتبعونها وخاصة منها المانوية القوية في العراق والتي كانت ترى البساط يسحب من تحتها والموارد تقل على معابدها وهذا ما دفع رئاستها في بابل الى مقابلة الهجوم الاسلامي الديني بهجوم دينامكي من مثله • إنها إذن عملية مقاومة منظمة من جماعة دينية معينة • وضمن هذا الاطار الدفاعي الهجومي ترجمت كتب المانوية من الفهلوية الى العربية ونشرت بين الناس • وبدأنا نسمع عن جدل تبشيري يقوم به الدعاة الزنادقة لمذهبهم يقول بشار بن برد لصاحبه حماد عجرد :

يا ابن بهني رأس علي ثقيل ... واحتمال الرأسين أمر جليل
فادع غيري الى عبادة ربين ... فإني بواحد مشغول !

ونسمع عن محاورات ومناظرات يجريها الزنادقة مع المسلمين • وهي ليست معركة كلامية جدلية مجردة فقط ولكنها تبشيرية من الطرفين ولهذا فإنها تستمر ما يزيد على القرن وتملأ العصر العباسي الأول كله

جدلا دينياً وتكون أحد الأسباب الأساسية في مسائل علم الكلام • وفي تعميق البحث التوحيدي الاسلامي وفي اعطـاء المذهب السني الكثير من ملامحه المقررة اليوم •

ولم تغفل كما لم ترض الخلافة العباسية بالطبع عن هذا النشاط الذي يستفيد من الحرية الدينية في ظل الاسلام للهجوم عليه • وكره الأتقياء من رجال السنة والحديث والفقه خاصـة أن يستطيع الزنادقة بالجدل وضع المانوية وغيرها من الأفكار الدينية المشركة على قـدم المساواة مع الاسلام • وهذا ما يفسر الموقف الهجومي المكافح الذي اتخذته الخلافة الاسلامية زمن المهدي ضد هذا التيار •

الثالث ــ أن التكاثر السكاني من جهة وانصباب الأموال من مختلف انحاء الدولة على العراق من جهة أخرى وما نجم عن ذلك من تباين طبقي شديد فيه الرفاهية الاقتصادية والترف الواسع وفيه الفقر المدقع والجوع • وازدياد النشاط التجاري والرحلة والاطلاع لدى أهل المنطقة واجتماع الافكار المتباينة إليهم تحت جاذبيـة البلاط العباسي والمال كل ذلك كان يشكل التربة الخصبة لنمو أفكار الريب والزندقة والمجون والتحلل في القيم والعقائد • وقد أفادت المانوية كل الفائدة من تلك الفرصة •

ولعلنا نضيف هنا الى عناصر المعركة أموراً أخرى :

١ ــ أن نشاط المانوية والمزدكية كان يهدد بدوره أيضاً المذهب الزارادشتي في ايران وخراسان وهو المذهب الرسمي الساساني القديم وهذا ما جعل انصار هذا المذهب ومعظمهم من الدهاقين والمرازبة (أصحاب الاقطاعيات الزراعية والدينية) ينضمون الى جانب السلطة العباسية في

كفاح المانوية والمزدكية حفاظا على مصالحهم ، ولنلاحظ أن الأسرة البرمكية وأنصارها الذين جندوا لها نصف مليون في خراسان كانوا من هذه الطبقات . ومثلها أسرة بني سهل ... واتهام البرامكة بالزندقة بعد سقوطهم وقول القائل :

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالاحاديث عن مزدك

لا يعني اكثر من صلتهم المصلحية القديمة مع الإسلام باعتبارهم كانوا سدنة بيت النار !

٢ ـ أن الزندقة ابتدعت أسلوباً ذكيا للوقوف في وجه الاسلام هو أسلوب الظرف والمجون والاستهتار بالقيم والسخر من التزمت والتقليد ومن بعض حدود الإيمان . وإذا نبع هذا الاسلوب في الأصل من التقية ومن خوف المجابهة المباشرة مع السلطة الاسلامية فإنه بالمقابل قد نجح في اجتذاب الناس لا سيما وقد توافقت ذلك مع تكاثر الأموال في العراق واستقرار دولة بني العباس وميل طبقات واسعة من المجتمع الى حياة اللهو والشراب والمتعة بالحياة ، وهكذا غالباً ما تقترن في هذا العصر كلمة الزندقة مع المجون . كما أضحى الاستهتار بالدين واظهار الزندقة نوعاً من التظرف الاجتماعي المحبب يقول شاعر :

تزندق معلناً ليقول قوم إذا ذكروه : زنديق ظريف ! !

ويقول آخر :

يا ابن زياد أبا جعفر اظهرت ديناً غير ما تخفي
مزندق الظاهر باللفظ في باطن اسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنني أردت أن توسم بالظرف ! !

واختلط الأمر فدخل في زمرة الزنادقة جماعات الظرفاء والمجان ..

بجانب الزنادقة الأصليين وانضم الى هؤلاء وأولئك فئات من أبناء العقائد الأخرى كما وجد في الوقت نفسه زنادقة يبطنون الكفر ويظهرون الاسلام في اسلوب آخر من اساليب الدس والدعوة المانوية المتسترة بالتقى ٠

وهكذا جمعت مجموعة الزنادقة أربع طبقات[1] طبقة المجان الذين يصلون في الاستهتار درجة المساس بالدين ولكنهم مسلمون ٠ وطبقة تتبع أديان المجوسية وخاصة المانوية ولكنها تظهر الاسلام تقية أو رغبة وطبقة مثلها ولكنها لا تتظاهر بالاسلام ٠ وطبقة أخيرة من اتباع بعض الطوائف المسيحية أو بعض المذاهب الفلسفية الدهرية على أن المجموعة كلها كانت تلتقي في هدف واحد هو: الوقوف في وجه الاسلام أو على الأقل نزع الهالة القدسية التي نسجها المؤمنون حوله ٠

٣ ـ كانت كتلة الزنادقة عموماً سواء في رؤوسها أو في الجموع التابعة لتلك الرؤوس من الايرانيين وذلك طبيعي ٠ على أننا نجد في أطراف الكتلة من الجانبين خاصة : جانب الاستهتار وجانب الإلحاد المطلق أفراداً معدودين من العرب أو من السريان المسيحيين ٠ اتهم بالزندقة مثلا بعض الهاشميين (الحسين بن عبد الله العباسي ، عبد الله ابن معاوية الطالبي، يعقوب بن الفضل المطلبي٠٠ ) وبعض العرب الآخرين مثل ابن أبي العوجاء وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز وكان شاعرا يفرط في الشراب ويقول إذا مسه السكر ما يمس الدين ولكن زندقتهم كانت تظرفاً ومجوناً وقد عبر عن ذلك آدم نفسه حين أخذه المهدي فضربه

---

(١) لاحظ احمد امين (ضحى الاسلام ج١ ص١٥٤) هذه الطبقات ولكنه اعتبرها معاني لكلمة زندقة لاجماعات فيها .

ثلاث مائة سوط على أن يقر بالزندقة فقال : والله ما أشركت بالله طرفة عين ومتى رأيت قرشياً تزندق ؟ ولكنه طرب غلبني . أنا فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجون[1] ...

ونجد على الطرف الآخر الإلحادي جماعة من مثقفي النصارى الذين تأثروا بالتيار العام أو تأثروا خاصة بالمانوية وكتبها . وقد أشار الجاحظ إلى أن الزنادقة أثروا في قوم من الصوفية والنصارى فكانوا يرفضون الذبائح ويبغضون إراقة الدم ويزهدون في أكل اللحوم ... كما يشير هو نفسه إلى أن « الزندقة فشت في النصارى »[2] . وإلى الزنادقة «الذين يسمون الدهرية لا يقولون بنبوة ولا كتاب» ولقاء الزندقة المانوية بالنصرانية إنما كان في المذهب البولسي المعروف وأما الدهرية فزندقتها إنما جاءت متأخرة على ما يظهر بعد انتشار ترجمات الكتب الفلسفية اليونانية .

وقد سهل على المانوية أن تكون مركز الحركة في الزندقة أنها كانت مرنة الافكار وتحوي الكثير من المبادىء التي تلتقي تارة مع الاسلام وأخرى مع النصرانية وثالثة مع الدهرية كما يجد فيها الزارادشتيون والمزدكيون أنفسهم يقول ابن النديم : «وكانوا يرخصون لأهل المذهب والداخلين فيه أشياء محظورة في الدين ...» .

٤ ــ لم تستنكف المانوية ــ وذلك من البراعة في العداء ــ عن التعاون مع الدولة العباسية . عداؤها الديني لم يصل درجة المقاطعة لنظام الحكم الاسلامي . وإذا استثنينا فترة عهدي المهدي والهادي التي لم تدم اكثر من عشر سنوات فإنا نجد التعاون دائماً قائماً بين اتباع

---

(١) الاغاني ج١٤ ص ٦٠ ــ ٦١ .

(٢) انظر الجاحظ ــ الحيوان ج٤ ص١٣٦ ــ ١٣٧ وثلاث رسائل ص ١٧ .

المانوية والحكام المسلمين منذ العهد الأموي ونجد بين رجال المنصور : مطيع بن اياس ويحيى بن زياد والكاتب يزيد بن الفيض وقد ألقي القبض عليه زمن المهدي لمانويته . وبين رجال عيسى بن علي العباسي ابن المقفع الذي قتله المنصور ( بحجة الزندقة ولكن لسبب سياسي ) وخصيب النصراني طبيب المنصور كان زنديقاً[1] ويزدان بن باذان الكاتب وأحد كبار الرجال في البلاط عند الهادي كان زنديقاً وقتل . وحمادعجرد كان مربي الامين ...

كما نجد بالمقابل كما قال ابن النديم ان رؤساء المانوية «كانوا يخالطون السلاطين ويؤاكلونهم » ويدعون إلى المناظرة في مجالسهم فيلبون ويتقبلون الصلات والهدايا منهم .

ولعل من الأمثلة الواضحة جداً في التعاون والعلاقة الطيبة بين رجال الدولة الاسلامية والمانويين ـ اذا لم نذكر المجوس وغيرهم ـ مثال ابن المقفع الذي عمل للأمويين وللعباسيين وكان على علاقة أخوية مع عبد الحميد الكاتب حتى لقد حاول أن يفديه بنفسه كما كان يرفد إخوانه الكتاب وهم مسلمون بالمال عند الحاجة ويتوسع عليهم[2] ونعرف من كلام الجاحظ أن الرشيد والمأمون استكتبا الكتاب المجوس في ديوان الخراج وغيره[3] .

وقد نتج من هذا وذاك أن الزنادقة المانوية وهم جزء من طبقة الموظفين الايرانيين حملوا معهم وربما حملوا أكثر منهم تيار الشعوبية

---

(١) الطبري ج٨ ص ٨٦ . (٣/

(٢) انظر الجهشياري الوزراء والكتاب ص ١١٧ ومحاضرة الأدباء ج ١ ص ٢٩ .

(٣) الجاحظ ـ رسائل (نشر هارون) ج٢ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

ضمن الجهاز الحكومي العباسي ؛ وكان منهم الكثير من صغار الكتاب.
وهي الطبقة التي زاد نفوذها زيادة بالغة وسريعة في ظل العباسيين لأن الخلفاء اكثروا من استخدامهم من جهة ولأن الوزراء رؤساء الجهاز الحكومي كانوا من الفرس .

ونستطيع أن نعرف الوضع الفكري والسياسي لهذه الطبقة من خلال رسالة مشهورة للجاحظ في ذم أخلاق الكتاب ؛ وقد كتب عنهم أيضاً : «.. إن الناشيء منهم متى روى لبزرجمهر أمثاله ولأزدشير عهده وصنير كتاب مزدك معدن علمه ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ..توهم أنه صار الفاروق الأكبر في التدبير ... وأنه وأنه و....فيكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه والقضاء عليه بتناقضه ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار وتهجين من نقل الآثار ... ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة ازدشير بابكان وتدبير أنوشروان ... فإن حذر العيون رجع ... بمحكم القرآن الى المنسوخ ونفى ما لا يدرك بالعيان ... لا يرتضى من الكتب إلا المنطق ... هذا هو المشهور من أفعالهم والموصوف من أخلاقهم ... »[1] .

وهؤلاء الكتاب ــ وهم بين الشعوبية والزندقة ــ كانوا يشكلون طبقة واسعة تبذل جهودها ــ دون أن تصطدم الاصطدام المباشر بالنظام الديني ــ لسيطرة تقاليد البلاط الفارسي في الدولة العباسية ولبعث البناء الاجتماعي الفارسي القديم بكل ما يحويه من مراتب طبقية متمايزة ولكي تحل روح الثقافة الفارسية محل ما خلقته التقاليد العربية[2] ... والاسلام في النظام العام .

---

(١) الجاحظ ــ الحيوان ج١ ص ٢٨ وانظر كذلك رسائل الجاحظ (نشر هارون ــ القاهرة ١٩٦٤) ج٢ ص ١٩١ ــ ١٩٤ .
(٢) جب ــ دراسات اسلامية (ترجمة عباس وإخوانه) ص ١٦ .

٥ ـ استخدمت الزندقة في الدعوة والنشر أساليب شتى من بينها مثلا أنها :

م ـ استخدمت الشعر والأدب العربي وهي خير الوسائل المتاحة في ذلك الزمن لإذاعة الأفكار وهذا يعني أن المانوية بدأت مبكرة في اتقان العربية والشعر العربي في سبيل الدعوة والجدل والنشر . وكان من أسباب نجاحها أن ظهر في جانبها جماعة من أبرز شعراء وكتاب العصر ، فأبو نواس ملأ الدنيا غزلا بالخمر وسخرا ممن يخوف بالنار أو بيوم الحشر والحساب في مثل قوله :

يا ناظراً في الدين ما الأمر ... لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي ... تذكر إلا الموت والقبر !

وقوله ...

ورأيت اتياني اللذاذة والهوى ... وتعجلا من طيب هذي الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل ... علمي به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه ... في جنة من مات أو في النار !

وقوله ...

وقائل هل تريد الحج ؟ قلت له
نعم إذا فنيت لذات بغداذ

وقوله ...

يا من يلوم على حمراء صافية
صر في الجنان ودعني اسكن النار !

ومثل أبي نواس كان من قبله بشار بن برد القائل :

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة منذ كانت النار

والقائل :

ابليس افضل من ابيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الاشرار
ابليس من نار وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النار ...

ومثل هذا وذاك كان قول .. .مطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس وابراهيم بن سيابة وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز فكان شعرهم هو الصحف السيارة أو ما يشبهها .

ب ـ واستخدم الزنادقة الرواية الأدبية والدينية والأسلوب الأدبي الرفيع في الكتابة والترجمة . يذكر البيروني أن ابن المقفع دس في باب برزوريه من كليلة ودمنة أفكار المانوية . وقد ساعده اسلوبه الأدبي الرفيع كل المساعدة في نشر ما يريد من الفكر . كما ساعدت الرواية حماداً الراوية بل إن بعضا ممن اتهم بالزندقة كان معروفاً برواية الحديث فزيف الأحاديث على النبي . وحين قدم عبدالكريم بن أبي العوجاء للقتل عند والي البصرة أيام المنصور قال ـ فيما يروون ـ لئن قتلتموني لقد والله وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال واحلل الحرام .والله لقد فطرتكم في يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم ... فضربت عنقه[1] وصلب جسده .

حـ ـ وكان من اساليب النشر أيضا أن يؤلف الزنادقة الكتب في المذهب ، بالعربية ، ومن ذلك ـ حسب قول اليعقوبي ـ «... ما كان ابن المقفع ترجمه من كتب ماني الثنوي وكتب ابن ديصان الثنوي وغيرهما وما وضعه ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع ابن إياس وملأوا به الأرض من كتب الملحدين وكثرت الزنادقة وفشت كتبهم في الناس[2] ...» . وينسب المسعودي الى حماد عجرد رسائل كثيرة في المانوية كما يروي ابو نواس أن حماداً كان إماماً من ائمتهم وله شعر مزاوج بيتين بيتين (رباعيات) يقرؤون به في صلاتهم[3] ويذكر ابن

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٨ (٣٧٦/٣) .
(٢) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس ص ٢٤ .
(٣) الاغاني ج ١٣ ص ٧٤ .

النديم : عدة رجال يتهمون بالمانوية مثل : ابن أبي العوجاء ، صالح بن عبد القدوس ، ابن الاعدي الحريزي ، ابن طالوت ... ثم يضيف قائلا: «ولهؤلاء كتب مصنفة في نصرة الاثنين (المذهب الثنوي) ومذاهب أهلها وقد نقضوا كتباً كثيرة صنفها المتكلمون في ذلك[1] ويروون عن المهدي أنه قال : ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع ...»[2] وهو متهم بمعارضة القرآن ومثله كذلك ابن ابي العوجاء وقد كتب أبان اللاحقي كتاب مزدك وصالح بن عبد القدوس كتاب الشكوك ... الخ هذا إذا لم نذكر كتب ابن الراوندي التي جاءت فيما بعد بعد العصر العباسي الأول ، بقليل ، وفي عناوينها ما يكفي دليلا على عنفها : كتاب التاج في الرد على الموحدين وكتاب بعث الحكمة في تقوية القول بالاثنين وكتاب الدافع في الرد على القرآن وكتاب الفريد في الرد على الأنبياء وكتاب فضائح المعتزلة ...

وكان المانوية فيما يبدو يتأنقون في كتبهم : ورقاً وكتابة وزينة ليكون ذلك من أسباب جاذبيتها يقول الجاحظ انها كانت «... اجود ماتكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ويستجاد له الخط »[3] ليكون ذلك من أسباب الاحتفاظ بها . مع أنها لا أدب ولا فلسفة ولا خبر « وجل ما فيها ذكر النوروالظلمة وتسافد العفاريت والتهويل بعمود الصبح ..» ويبدو من بعض الأخبار التي سنراها أيامالمهدي أنالزنادقة استطاعوا في الواقع أن يجتذبوا بعض المسلمين الى مذاهبهم ونجحوا

---

(١) ابن النديم ص ٣٣٨ .

(٢) امالي المرتضى ج ١ ص ١٣٤ وابن خلكان ج٢ ص ١٥١ (طبعة احسان عباس) .

(٣) الجاحظ ــ الحيوان ج ١ ص ٢٩ .

في التسرب لدرجة أنه كان من بين هؤلاء المفتونين بعض العرب وبعض أبناء كبار الدولة وبعض الهاشميين أيضاً وايضاً •

ح ـ **قصة المكافحة** : أخذت مكافحة الزندقة في العصر العباسي الأول شكلين :

الأول : الشكل الثقافي الفكري : حجة بحجة • فقد وقف رجال الدين والفقهاء وأهل الحديث والإتقياء من الزندقة موقف الكره والتنديد والوعظ والتحريض للسلطات • ولكن هذا الموقف لم يكن له كبير جدوى عملية في قمع الزندقة والوقوف أمام السيل الواسع من الريب والمسائل الدينية التي كان الزنادقة يثيرونها ، من خلال تراثهم الفكري وفلسفاتهم السابقة • ولهذا فقد وقف أهل الكلام لهذا التيار بوسائلهم الأولى أولا ثم بالمنطق المترجم والفلسفات المقتبسة • وكثير من مسائل المتكلمين إنما هي في الأصل أجوبة أو ردود على ريب الزنادقة وجدلهم • وقد كون المتكلمون نوعاً من الجند المتطوعة للدفاع عن الدين بالفكر والمنطق والعقل وكنا نجدهم في حلقات المساجد على الجدل العنيف كما يستدعون الى مجالس الخلفاء للمناظرة أو يرسلون في ذلك الى الآفاق • ولم يكتفوا بهذا كله بل ألفوا الكتب في الرد على الزندقة وأصحابها متطوعين لذلك أو بدعوة من الخلفاء • فقد كتب واصل بن عطاء كتاب الألف وفيه ألف مسألة من الرد على المانوية[1] ويقع في اكثر من اثني عشر جزءاً • ولأبي الهذيل العلاف ستون كتاباً في الرد على المخالفين في دقيق الكلام وجليله»[2] ••• وكان النظام قد طالع كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة •••»[3] ونقل عنه تلاميذه

---

(١) ابن المرتضى ـ طبقات المعتزلة ص ٣٥ •

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ •

(٣) الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ٥٣ ـ ٥٤ •

ردوده كما كتب زميل له كان يناظره أشد المناظرة هو ابو عبد الله الحسين ابن النجار كتاب الرد على الملحدين[1] وكتب محمد بن شجاع الثلجي وهو الذي وطد فقه ابي حنيفة واحتج له بالعلل والحديث كتاب الرد على المشبهة ... وكتب أبو الربيع محمد بن الليث كاتب يحيى البرمكي كتاب الرد على الزنادقة .

وكتب أبو محمد هشام بن الحكم زمن الرشيد كتاب الرد على الزنادقة والرد على أصحاب الاثنين ثم اشترك الخليفة المأمون نفسه في المعركة بكتاب على المانوية[2] كما كتب أيضاً أحمد بن حنبل ، في أيام المأمون كتاب الرد على الزنادقة والجهمية . وكتب القاسم بن ابراهيم الحسني في أيام المتوكل كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ... بعد قرن من غياب ابن المقفع .ولا نمتد الى ما بعد العصر العباسي الأول لنجد أن المعركة الجدلية ستظل قائمة ومقابل ابن الراوندي نجد كتب ابي بكر الرازي في الرد على المانوية والمبادىء الثنوية وأبي محمد النوبختي وابي علي محمد الجبائي في الرد على اصحاب التناسخ والخرمية ...

على أن حدة الصدام بين الطرفين اذا تصاعدت خلال النصف الاول من العصر العباسي وبلغت أوجها حين استعانت السلطة رسمياً بألسنة وأدمغة المتكلمين أيام المهدي عادت فهدأت وأخذت شكل الجدل الطويل الأمد والتعايش بين الأفكار ولهذا لم يكن من الغريب حين وصل رجال الكلام الأساسيون : المعتزلة الى السيطرة على الخلفاء أن يكون همهم

---

(١) ابن النديم ـ الفهرست ص ١٧٩ .
(٢) أنظر ابن المرتضي ـ طبقات المعتزلة ص ١٢٣ .

الأول ابناء دينهم من أهل السنة والجماعة والحديث لا الزنادقة والملحدين الذين كان قد مضى زمن اضطهادهم منذ عهد طويل كما كان المتكلمون في الوقت نفسه قد يئسوا من إمكان إزالة نحلهم وأفكارهم المرعبة بالجدل والمنطق ...

الثاني هو الشكل الحكومي الرسمي : وهو ما يهمنا هنا بحثه . وفي هذا المجال يمكن أن تتبين في سياسة العباسيين مع الزنادقة مراحل ثلاثاً :

الأولى امتدت ما بين مطلع الدولة مع ابي العباس واستغرقت عهد المنصور كله وجانباً من أيام المهدي أيضاً امتد حتى سنة ١٦٦ أو سنة ١٦٧ .

الثانية : فترة لم تدم اكثر من سبع سنوات (١٦٣ ــ ١٧٠)صارت فيها مكافحة الزنادقة سياسة يومية وشغلا رئيساً للدولة .

الثالثة : تمتد مابين مطلع عهد الرشيد سنة ١٧٠ حتى نهاية عهد الواثق بعد نصف قرن ونيف . وفيها عادت السياسة العباسية الى عهدها الأول ولكن معنى الزندقة والمكافحة دخل في نهاية هذه الفترة منزلقاً ضيقاً ، أيام المحنة والاعتزال ، حين حاول المأمون في أشهره الأخيرة ثم المعتصم والواثق من بعده أن يجعلوا تهمة الكفر شاملة كافة الناس إلا المعتزلة ..

في المرحلة الأولى لم يختلف موقف العباسيين الأولين من الزنادقة عن موقف الأمويين . وإذا لم يكن لأبي العباس من سياسة معروفة في هذه الناحية فإن صاحب تلك الفترة وهو المنصور كان في الواقع استمراراً لعهد هشام بن عبد الملك ولقد نستطيع أن نعطيه ميولا كلامية[1] ، أو تتبين في سياسته الرغبة في التلبس بلبوس الدين ولكن

---

(١) ابن المرتضى ( في طبقات المعتزلة ص ١٢٢ ) يعد المنصور من المعتزلة كما يعد ابنه المهدي .

دوافعه في هذا كله إنما كانت سياسية ولذلك فإن الأحداث التي سجلت بينه وبين الزنادقة كانت كلها ذات طابع سياسي واضح .

وإذا كان الموقف النموذجي للدعوة العباسية من الفرق المغايرة للاسلام إنما ظهر في طريقة تصرفها مع حركة خداش ثم مع حركة بهافريد فإن الموقف المماثل والذي يمثل أبا جعفر المنصور في هذا المجال هو : موقفه من الراوندية : فقد وصل بها الأمر درجة تأليه أبي جعفر وقبل منها ذلك قائلا : يدخلهم الله النار في طاعتنا أحب الـي من ان يدخلهم الجنة بمعصيتنا ! ...[1] . فالميزان ما هو الدين اذن ولكنه الطاعة !

وهكذا فقد استخدم المنصور زنادقة المانوية في دولته كتاباً وعمالا للخراج وأطباء في البلاد . يذكرون أن خصيباً النصراني طبيبه الخاص كان « يظهر النصرانية وهو زنديق معطل لا يبالي من قتل ..»[2] وأن يزيد بن الفيض كاتبه كان مانوياً . وقد أقر بذلك ــ فيما ذكر ــ حين قبض عليه المهدي فيما بعد سنة ١٦٧ فهرب من السجن[3] . ولم يعف عنه الرشيد فيما بعد وكان من مقربي البلاط عند المنصور صالح بن عبد القدوس ومطيع بن إياس وهما من كبار المتهمين . ولم يكن المنصور يأبه للزندقة والمجون أن يكثرا بل أهمه مرة أن يستخدم سمعتهم السيئة في تحطيم سمعة ابن أخيه أبي العباس لئلا يطالب بالخلافة . ذكر الطبري أن أبا جعفر وجه مع محمد بن أبي العباس بالزنادقة والمجان فكان فيهم حماد عجرد فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون وإنما أراد بذلك أن يبغضه للناس ...»[4] .

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٠٧ (١٣٢/٣) .
(٢) الطبري ج ٨ ص ٨٦ (٤٢٣/٣) .
(٣) الطبري ج ٨ ص ١٦٥ (٥٢٠/٣) .
(٤) الطبري ج ٨ ص ٨٦ (٤٢٢/٣) .

وقد قتل والي البصرة عبد الكريم بن أبي العوجاء على الزندقة فلم يكن هم المنصور لماذا قتل ؟ ولكن كيف يقتل وهو لا يدري ؟ قال : «يقدم على رجل يقتله من غير أن يطلع على رأيي فيه ولا ينتظر أمري ..» فلما قال له أحد أقربائه إنما قتل الرجل على الزندقة ولئن عزلت (الوالي) ليذهبن بالثناء والذكر ولترجعن القالة من العامة عليك» ! خاف ذلك وعاد عن عزله[1] .

وجيء الى المنصور برجل من الشام هو محمد بن سعيد الشامي المصلوب قالوا : « إنه من الزنادقة ... الذين وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس .. وكان يدعو للالحاد والزندقة ...» وكل ما أهم أبا جعفر منه أنه من عرب الأردن والشام الذين لا بد من تأديبهم فقتله على الزندقة[2] مصلوباً سنة ١٥٠ .

هذا في الوقت الذي كان فيه أهل السنة والجماعة عامة يرفضون حتى الكلام في القدر وقد كان الفقيه المعروف ثور بن يزيد الكلاعي يحدث بذلك في حمص بالشام فثار عليه سكان المدينة وأخرجوه منفياً من مدينتهم وأحرقوا داره سنة ١٥٠[3] .

والمشكلة الكبيرة الوحيدة التي سجل فيها وقوف المنصور ضد

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٨ (٣/٣٧٦ – ٣٧٧) .

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٧٦ وابن حجر ، تهذيب ج ٩ ص ١٨٦ وانظر الصلاح الصفدي الوافي ج٣ ص٩٥ وقد عرفه المؤرخون بالمصلوب وجعلوه تارة الدمشقي وتارة القرشي وثالثة الطبري وذلك حسب قول الصفدي كي لا يعرف ! ...

(٣) ابن عساكر . تاريخ دمشق (التهذيب) ج ٣ ص ٣٨٤ .

الزندقة هي قصة ابن المقفع ولكن ما من أحد من المؤرخين صدق أن مقتل هذا الرجل كان غضباً للدين وحده • ومن المعروف أن ابن المقفع عمل واشتهر وأصبح من الكتاب البارزين في أواخر العهد الأموي ثم في أوائل العصر العباسي وهو ما يزال على دينه الأول لم يتركه حتى في الليلة التي أزمع فيها على الاسلام لأنه ــ على حد قوله ــ «كره أن يبيت على غير دين» • وهذا الدين هو المانوية في الغالب ، أو على الأقل هو المجوسية الزارادشتية • وحين غير دينه بدل اسمه من روزبــة بن داذويه الى عبدالله وأعطي ابنه اسم محمد أيضاً •

وثقافة ابن المقفع لا تكشف عنها بلاغته الممتازة فقط ولكن الكتب التي ألفها أو ترجمها أيضاً والتي دخلت التراث العربي فهي جزء منه الى اليوم مثل كليلة ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير كمـا تكشف (رسالة الصحابة) التي كتبها عن بصر سياسي اداري نافذ وعن اطلاع واسع على أمور الدولة يجعل من تلك الرسالة وثيقة من وثائق عهـد المنصــور •

وقد عمل ابن المقفع أولا لدى يزيد بن هبيرة والي العراق في آخر العهد الأموي ثم لدى أخيه داود ثم اتصل بعيسى بن علي بن عبد الله العباسي ، عم أبي العباس والمنصور ، فصار كاتباً عنده وأسلم على يديه وقد طلب منه عيسى أن يكتب أماناً لأخيه عبد الله بن علي بعد فشل ثورته يوقعه الخليفة المنصور فلا يجد فيه منفذاً لنقض ولا حيلة لقتل عبد الله • وأفرط ابن المقفع في التحوط لهذا الأمان للدرجة التي أحفظت المنصور ••• فأوعز بقتله • فقتله والي البصرة سنة ١٤٢ أو سنة ١٤٣ أو سنة ١٤٥ وهو بعد في حوالي الاربعين ••• والجاحظ يكشف سبباً آخر لمصرعه هو إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن علي بالمنصور ففطن له •••

فقتل[1] والنتيجة واحدة هي أن سبب القتل لا علاقة له بالزندقة ولكنه في الأصل سياسي وإنما استخدم المنصور تهمة الزندقة ستاراً للقتل .

ويبدو أن مصرع ابن المقفع كان ذا أصداء بعيدة في العصر كله ، لفارسيته وبلاغته وأخلاقه الكريمة ولأنه من طبقة الكتاب التي تمسك الدولة في تلك الفترة ولأنه اخيرا قتل مظلوماً !

وهذا هو السبب في التأكيد المتصل ، على زندقته مع تمادي مرور السنوات الطويلة على مقتله ولقد كان الرجل مجوسياً أو مانوياً لا يخفي عقيدته ولقد يكون قد ساهم ــ أيام مجوسيته أو مانويته ــ في النشاط الديني لجماعته وساهم بقلمه وماله وليس في ذلك عليه من مأخذ ولم يكن ذلك محرماً في عصره عليه أو على غيره ومع ذلك نجد أنه يتهم مع الأيام بأنه «رأس الزندقة» ونجد أنه يظهر بعد قرن من مقتله من يؤلف كتاباً في «الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع»[2] .

وإذا صدقنا ما في الكتاب كان ابن المقفع مانوياً ولكن ثمة الكثير من الشك[3] حول النصوص التي أوردها صاحبه على لسان ابن المقفع

---

(١) الجاحظ ــ ثلاث رسائل ص ٤٧

(٢) نشرت هذا الكتاب مؤسسة كايتاني سنة ١٩٢٧ بتحقيق المستشرق ميكائيل غويدي بعنوان : « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله للقاسم بن ابراهيم عليه من الله افضل الصلاة والتسليم » . وصاحب الكتاب علوي النسب ويعرف باسم قاسم الرسي توفي سنة ٢٤٦ من نسل اسماعيل الديباج الحسني .

(٣) يقبل المستشرق غابرييلي الكتاب ويستنتج منه زندقة ابن المقفع

كما أن التهمة التي تلصق بابن المقفع من أنــه عارض القرآن يبدو أنها تستند الى كتاب الدرة اليتيمة وهو قسمان وضع ابن المقفع في الأول حكماً منقولة عن حكماء كل أمة مذكورة وفي الثاني شيئاً من الديانات « وقد تهوس فيه »[1] ... ولا شيء غير ذلك .

ويبدو أن لجوء الكثير من الزنادقة ، بعد ابن المقفع ، الى بلاغته وكتبه وحفظ الكتاب الفرس لأدبه ، وما في ذلك الأدب من آراء عقلية قريبة من الفكر المانوي الزارادشتي ثم اتصال المعركة ضد الزندقة من قبل رجال السنة والشيعة وأهل الدين واهل الكلام سنوات طويلة جداً، كل ذلك جعل من ابن المقفع زعيماً من زعماء الصراع ولو بعد موته . وأعطى المنصور دون أن يدري أو يريد التغطية اللازمة لمقتله . وهي التغطية التي خشي أن يفقدها عند العامة يوم قتل ابن أبي العوجاء .

في المرحلة الثانية : يذكرون ان المنصور أوصى ابنه المهدي بين ما أوصاه في وصيته الأخيرة قال :

« ... ودين الله القيم فاحفظه وحطه وصنه و... وأوقع بالملحدين فيه واقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنــه بالعقــاب لهم والمثلات بهــم ...»[2] .

---

وإن لم يعتبرها السبب في قتله بينما يرفض احمد أمين نسبة الكتاب نفسه الى قاسم الرسي ونسبة ما فيه من الكلام الى ابن المقفع (انظر ضحى الاسلام ج١ ص٢٢٣ فما بعد) .

(١) انظر الباقلاني ــ اعجاز القرآن (على هامش الاتقان للسيوطي) ج١ ص٤٩ــ٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٣١٨) .

(٢) الطبري ج٨ ص١٠٥ (٣/٤٤٧)

ويبدو ـ بصرف النظر عن صحة الوصية ـ أن المهدي لم يكن بحاجة إليها كي يتخذ موقفه الصارم القاسي من الزندقة، وهو الموقف الذي طبع العصر العباسي الأول بميزة خاصة لم تفارقه بعد ذلك ولقد كان من أسباب تلك الحرب التي أعلنها المهدي على الزندقة :

أ ـ ما اقتنع المهدي نفسه به وحاول إقناع الناس أيضا به من أنه «مهدي» الله وأنه الذي جاء يملؤها عدلا كما ملئت جوراً . ولم يظهر الطابع الاسلامي في واجبات الخليفة في عهد أحد من الخلفاء بعد العهد الراشد وباستثناء عهد عمر بن عبد العزيز ، كما ظهرت في عهد المهدي الذي اعتبر نفسه مسؤولا عن الاسلام ونشره ودعمه بالحج والجهاد والدعوة ومسؤولا أكثر من ذلك عن حمايته فمكافحة الزندقة إذن جزء من سياسته الكلية ينسجم كل الانسجام معها ، ومتمم لها . وقد رمز المهدي نفسه الى مهمته الدينية هذه حين قال لابنه : «... اني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين »[1].

ب ـ تزايد النقمة العامة على انتشار المجون والزندقة . العلنية وضيق أهل الدين من مختلف الفرق الدينية بذلك . واحتدام المقاومة الدينية والاجتماعية والثقافية لهذا التيار المهدد . يقول المسعودي : ان المهدي أمعن في قتل الملحدين لظهورهم في أيامه واعلانهم باعتقادهم في خلافته ...» .

حـ ـ نشاط المانوية خاصة ، دفاعاً عن نفسها ، لمكافحة الغزو

---

(١) الطبري ج٨ ص٢٢٠ (٣/٥٨٨)

الاسلامي الذي ينسل منها أتباعها ويحولهم الى الاسلام . إن ردود الفعل كانت — على ما يبدو — واسعة خطرة حتى على الدولة نفسها .
وإذا كان تقلص أنصار الزندقة عامة بالاسلام يضعف من قوة نظامها الديني فإنه كان يحرم جماعة هذا النظام من موارد خطيرة يمكن أن نعرف فكرة عنها . إذا عرفنا أن بيوت النار كانت حتى في نهاية القرن الثالث الهجري (أي بعد قرن ونصف من الفترة التي نتكلم عنها) «كثيرة جداً ويعجز علمها من سوى الديوان إذ ليس من بلد ولا ناحية ولا رستاق إلا وبها عدد كثير من بيوت النيران» وبعضها بلغت تكاليف بنائه كما هو منقوش على بابه ثلاثين مليون درهم[1] وكانت نفقة بيت النار في المدائن بالعراق «ضعف خراج فارس» أي كورة فارس كلها مرتين[2] وإذا لم تكن هذه البيوت كلها للمانوية وكان الكثير منها للمجوسية والمزدكية فلا شك على أي حال في أنها تشكل نسبة واضحة منها .

فلم يكن غريبا إذن أن يجد انتشار الاسلام مقاومة فعالة نشيطة من قبل مؤسسات الزندقة وكهانها وأن تكون هذه المقاومة من القوة بحيث يحتاج الرد عليها الى دعم حكومي والى قوة السلطة لحرمانها على الأقل من حرية الحركة ومن الهجوم العلني لا سيما بعد أن «كثرت الزنادقة — على قول اليعقوبي — وفشت كتبهم في الناس .. .وملأوا الأرض من كتب الملحدين ...»[3] وبعد «... ما انتشر على ما روي المسعودي — من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن

(١) انظر ابن حوقل — صورة الارض ص٢٤٢
(٢) انظر ابن رسته — الاعلاق النفيسة ص ١٨٦
(٣) اليعقوبي — مشاكلة الناس ص٢٤

المقفع وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية ومـا صنف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقيونية فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس ...»[1] .

وعلى أي حال فقد اجتمعت أسباب عدة لتجعل من المهدي ، في تلك الفترة ، صاحب المعركة مع الزنادقة . وهو لم يبدأها منذ أول عهده وأول أخبارها تطل علينا منذ سنة ١٦٣ في قتل المهدي لابن وزيره أبي عبيد الله بن معاوية وفي قتله الزنادقة بمنطقة حلب[2] وهذا يعني أن المهدي ما انتهى الى قراره إلا بعد سنوات على الأقل من حكمه قد تكون خمساً . ويبدو أيضاً أنه في الفترة الأولى مـا بين سنة ١٦٣ ــ ١٦٧ اكتفى بالملاحقة العادية التي يقوم بها المحتسبون في المدن المختلفة ومنهم عبد الجبار المحتسب الذي يرافق المهدي الى حلب . لكن هذه الملاحقة لم تكن من الاصرار بحيث تجعل عهده يختلف في كثير أو قليل عن عهد ابيه المنصور في ذلك ، وأهم ما نعرفه من مطاردة الزندقة في هذه الفترة الأولى هي ما يروون من أن المهدي لما نزل حلب سنة ١٦٣ بعث عبد الجبار المحتسب لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة .. فأتاه بهم وهو بدابق فقتل جماعة منهـم وصلبهم وأتى بكتب من كتبهم . فقطعت بالسكاكين ...»[3] .

فهل هؤلاء الزنادقة هم بقية تلك الشيعة الراوندية التي كانت

---

(١) المسعودي ج٢ ص٤٠١
(٢) الطبري ج٨ ص١٤٨ (٣/٤٩٩)
(٣) الطبري ــ المصدر نفسه .

تحاول أن تظهر سنة ١٤١ وأتى على ذكرها بعض المؤرخين[١] أم هم جماعة الصابئة الذين سوف يلتقي بهم المأمون بعد فترة من الوقت في حران ؟ أم هم جماعات أخرى ؟

وتغير الأمر منذ سنة ١٦٧ إذ بلغت حرب الزنادقة أوجها واستمرت بعد ذلك أربع سنوات استغرقت مابقي من عهد المهـدي مع أيام ابنه الهادي . وفي هذه الفترة تغير موقف المهدي نفسه من هذه الحرب وإن كنا لا ندري بالضبط السبب الذي دعا إلى ذلك التغيير ، «وجد المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم »[٢] .

أولا : انشأ المهدي دائرة تعنى بالبحث عن الزنادقة والقبض عليهم بكل مكان ومحاكمتهم أي تحول الأمر الاداري الذي كان أصدره الى نوع من الإضافة على النظام الاداري للدولة إذ أوجد «ديواناً» خاصاً مركزياً لحرب الزنادقة جعله أحد أجهزة الدولة الاساسية بمعنى أنه اعتبر هذا العمل جزءاً أساسيا من مهام النظـام الاسلامي وأعمال الخليفة : كالامن والمظالم والقضاء .

وأقام على رأس الديوان موظفاً سمي بصاحب الزنادقة أو عريف الزنادقة وقد توالى على الرئاسة فيه خلال ثلاث سنوات رؤساء ــ فيما وصلنا ــ على الأقل هم : عمر الكلواذي[٣] أول من تولى هذا العمل

---

(١) انظر ابن العديم ــ زبدة الحلب ج١ ص٥٩ وابو زكريا الازدي ــ تاريخ الموصل ص ١٧٣

(٢) الطبري ج٨ ص١٦٥ (٣/٥٢٠)

(٣) الطبري ج٨ ص١٥٦ (٣/٥٢٠)

عقب إحداثه سنة ١٦٧ فلما مات في السنة التالية . خلفه فيه حمدويه محمد بن عيسى الميساني الذي وجه همه ــ على ما يظهر ــ لاستئصال زنادقة بغداد بالذات . ثم نزل مع المهدي الى البصرة فضرب هناك بشار ابن برد ضرب التلف[1] وجاء بعد ذلك صاحب ثالث للزنادقة اسمه عبد الجبار يأتي ذكره مع بشار أيضا[2] وعلى أي حال فقد كان عمل هذا الديوان يجري تحت الاشراف المباشر من الخليفة الذي كان كثيرا مـا يتولى المكافحة بنفسه ، في أي مكان حل فيه : سواء في العاصمة بغداد أو في البصرة أو مكة أو حلب. وكان من المفترض على ما يبدو أن يكون المحتسبون ، حيثما وجدوا ، ممثلين لصاحب الزنادقة في مدنهم ورجال الشرط معهم بينما يعمل صاحب الخبر ( وهو المكلف بمراقبة الاحوال العامة من قبل الخليفة) على كشف الزنادقـة وأعمالهم وحركاتهم .. ويخضع من يقبض عليه بالتهمة الى نوع من المحاكمة حتى إذا أقر أو ثبتت عليه الزندقة بالامتحان أو بالشهادة عرضت عليه التوبة فإن أبي كان القتل هو الجزاء ...

ثانياً : وأنشأ المهدي بالمقابل هيئة علمية لمناظرة الزنادقة وتأليف الكتب في الرد عليهم وكشف مراميهم . ويذكر المؤرخون أن المهدي أمر بكتابة اسماء الفرق الزائفة عن الدين من «أصحاب الأهواء» ليعرفوا في الناس ويتصيدهم القصاص من كل جهة[3] كما جاء بالمتكلمين فأمرهم أن يضعوا الكتب على أهل الإلحاد وكان أول خليفة أمر بـذلك[4]

---

(١) الطبري ج٨ ص١٦٧ (٣/٥٢٢)
(٢) الأغاني ج٣ ص٧٣
(٣) الكشي ــ الرجال ص٢٢٧
(٤) اليعقوبي ــ مشاكلة الناس ص٢٤ والمسعودي ــ مروج الذهب ج٢ ص٤٠١ .

لازالة الشبهات التي روج لها المانوية والشكاك .

كان من حصاد هذه المعركة خلال أيام المهدي أن قتل الكثيرون . وأن عادت الزندقة دون شك إلى مواقعها . وانحسرت موجة الدعوة لها والجدل مع أصحابها أو على الأقل التظاهر بأمرها . في اقليم العراق خاصة . وإذا كنا واثقين من أن المهدي كتب الى الولاة في الأمصار بمطاردة ما يطارده هو من الزندقة . وإذا ترشحت لنا أخبار عن زنادقة قبضوا بمكة أو بالشام والجزيرة بجانب زنادقة بغداد والكوفةوالبصرة فمن المشكوك به جداً أن يكون المهدي قد طبق أوامره في ايران بالشدة التي نفذها فيها بالعراق ولعلها لم تطبق هناك أصلا . فإنا لم نسمع عن عقوبة على الزندقة جرت هناك والاسباب في ذلك واضحة هي أن الزارادشتية لم تكن موضوع الاضطهاد كما أنها كانت تنظر بعين الرضى الى مكافحة المانوية . وأصحابها هم زنادقة في نظرها أيضا . عدا أن المانوية لا تشكل خطراً على الاسلام في ايران .

ولا بد هنا من تسجيل أمر هام آخر هو أن المكافحة للزندقة شملت «الأشخاص» ولم تشمل المؤسسة الدينية نفسها بكهانها ومعابدها فلم نسمع عن قتل رئيس المانوية أو اضطهاد كهانها أو هدم معابدها مع أنهم في متناول أيدي السلطة العباسية سواء في بابل بجانب بغداد أو في محددين لهم صفة محددة دعت الى أن يتناولهم العقاب والمطاردة الى مجزرة دموية واسعة دون شك ولكنها كانت محصورة فيأشخاص محددين لهم صفة محددة دعت الى أن يتناولهم العقاب والمطاردة والصلب هم على التحديد : من يظهرون الاسلام ويبطنون الزندقة ويعملون على نشرها ونصرتها . على حساب العقيدة الاسلامية .

وما من شك ، من جهة ثالثة في أن بعض من قبض وعوقب لم تظلمه التهمة ولكنا نجد أن ثمة جماعة أخرى إنما لفقت عليها . فقتلت لأسباب لا علاقة لها بالدين وحمايته . وقد عملت على الايقاع بها عوامل فيها العداء الشخصي وفيها الميول العلوية .

وهكذا فيما بين صدق التهمة والكذب فيها كان من قتلى الزندقة ايام المهدي مثلا :

ـ عبد الله ابن وزير المهدي معاوية بن عبيد الله ، ويقولون : إن الربيع بن يونس نقم على الوزير إبعاده عن الخليفة ولما لم يجد من مطعن عليه أوغر صدر المهدي على ابنه المعروف بالزندقة واتهمه ببعض حرم المهدي فصرف الخليفة وزيره سنة ١٦٣(١) وجعله على ديوان الرسائل وهرب الابن فما زال مطارداً حتى سعي به رجل يعرف بابن شبابة سنة ١٦٦ فقبض عليه وسيق الى المهدي . وجيء بأبيه فسأله المهدي : ألست قلت إنك علمته القرآن ؟ فإذا به لا يحسن قراءة الآيات وتقول رواية الجهشياري إنه قرأ بدلا من ذلك : «تباركت وعالموك بعظم الخلق !» «فلما سئل أزنديق أنت قال نعم وممن يعتقد الزندقة قوم يرون ... أن التقية غير جائزة وقد دل هذا على أنه منهم» فقال المهدي لأبيه : قم فتقرب الى الله بدمه ... وعجز الشيخ بالطبع . وقتل الابن رغم طلبه التوبة ... ثم مازال الربيع بن يونس يعمل حتى أبعد الأب سنة ١٦٨عن

---

(١) انظر تفصيل القصة لدى الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ١٥١ـ١٥٤ ولدى الطبري ج٨ ص١٣٨ـ١٣٩ (٣/٤٨٩ـ٤٩٠) وهو يسميه تارة عبد الله وتارة بمحمد (انظر ج٨ ص١٦٣ من الطبري ). وانظر كذلك القصة في الاغاني واليعقوبي (ج٢ ص٤٠٠) يسمي الابن باسم صالح.

ديوان الرسائل بأن فاجأه بعرض بعض الأوراق على المهدي فقال : يا أمير المؤمنين إني لا آمنه عليك وقد قتلت ابنه ! ! والعنصر الشخصي في القضية واضح سواء من ناحية المهدي أو من ناحية الربيع ولكنها في الوقت نفسه تكشف مدى تأثر بعض أبناء الدولة بأفكار الزندقة •

ـ وكان منهم صالح بن عبد القدوس الشاعر العصري • وقد جيء به الى المهدي بالتهمة وحاكمه بأن شعره ظاهره فيه الحكمة والفضيلة وباطنه فيه الثنوية والزندقة وقد طلب صالح التوبة • فقبل منه التوبة ولكنه قبل أن يخرج سأله : ألست أنت القائل :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه ؟

قال : بلى ! قال فكذلك أنت لا تدع أخلاقك حتى تموت وأمر بقتله[1] •••

ـ وأما مطيع بن إياس فقد اتهم بالزندقة منذ عهد المنصور «رفع صاحب الخبر الى المنصور أنه زنديق وأنه يعاشر جعفراً ابن الخليفة ويوشك أن يفسد دينه •••» وتدخل المهدي في الأمر قال : أما الزندقة فليس من أهلها ولكنه خبيث الدين فاسق مستحل للمحارم • وبعث إليه فهدده فقط ليرجع عن إباحيته وولاه عملا في البصرة • ذلك أن المهدي كما ذكر صاحب الاغاني كان «يشكر له قيامه في الخطباء ووضعه

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤ـ٢٧٥ ، وانظر كذلك الاغاني ج٣ ص٤٦ فما بعد والجاحظ ـ البيان والتبين ج١ ص٢٠٦ والخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج٩ ص٣٠٣ .

الحديث لأبيه (المنصور) في أنه المهدي» ! ! ولم يقربه المهدي بعد ذلك بالمطاردة ثم يتبين في زمن الرشيد بعد ذلك وباعتراف بنت مطيع نفسه أنه كان يؤلف كتب الزندقة ويدرسها لابنته وقالت : هـذا دين علمنيه أبي ! ... وقد ثبت عنه !»[1]

ـ وأما بشار بن برد فقد ضج منه المحدثون ورجال الدين في البصرة ومن شعره الاباحي فلم يزد المهدي على أن منعه من الغزل . ثم جاء الخليفة البصرة فقبض عليه وسلمه الى صاحب الزنادقة فما زال يضربه ضرب التلف حتى قضى ... والسبب لم يكن الزندقة التي اشتهر بها الشاعر ولكن ببيتين من الهجاء المقذع في الخليفة أوصلهما يعقوب بن داوود إليه ! ...

وهذه الأمثلة تكفي لبيان الاسلوب الذي طبقت فيه مكافحة الزنادقة على بعض الأسماء البارزة وقد نضيف إليها مثال :

ـ علي بن صالح بن حي الذي تعتبره بعض الروايات رأساً في الزندقة وكان ذنبه أنه علوي الهوى .

ولن نعرض لأمثلة أخرى من مثل يزيد بن الفيض ، كاتب المنصور، الذي أقر بالزندقة سنة ١٦٧ ثم فر من السجن ولأبي عيسى الوراق الذي اتهم بسبب علويته ولمجموعة داوود بن روح ابن حاتم واسماعيل بن سليمان ومحمد بن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفور الذين أقروا بالزندقة فاستتابهم المهدي وخلى سبيلهم وبعث بداوود بن روح الى أبيه

---

(١) الأغاني ـ ج١٢ ص٨٥ وص ٩٦

والي البصرة كي يؤدبه[1] ... ولا نعرض كذلك لزندقة آدم حفيد عمر ابن عبد العزيز وابراهيم بن سيابة الشاعرين اللذين كانت زندقتهما خلاعة ومجوناً وتظرفاً دون جذور . وإنما نقف عند مثال خاص غريب هو :

ـ زندقة بعض الهاشميين : فقد قبض المهدي على أحد أبناء داوود ابن علي العباس كما قبض على يعقوب بن الفضل أحد أحفاد الحارث ابن عبد المطلب . وأقر كل منهما بالزندقة فلم يتمالك المهدي أن يقول لكل منهما : لو كشفت السماوات وكان الامر كما تقول كنت حقيقاً أن تغضب لمحمد . ولولا محمد صلى الله عليه وسلم من كنت ؟ هل كنت إلا إنساناً من الناس ؟ أما والله لولا أني جعلت الله عهداً إذا ولاني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ولقتلتك ! ... وسجن المهدي الاثنين . بعد أن أقسم على ابنه الهادي إن هو ولي الأمر من بعده ألا ينتظر منهما ساعة واحدة وقد توفي العباسي في السجن . أما يعقوب المطلبي فـ إن وصل الهادي من جرجان ، بعد وفاة أبيه حتى أرسل من ألقى عليه لحافاً وأقعد عليه الرجال حتى خنقه ... وبقية الحكاية غريب إذ أن زوجة يعقوب وابنته حملتا أيضا الى المهدي فجاءتا بالخضاب والكحل والسرور وأقرتا بالزندقة كما أقرت الابنة أنها حامل من أبيها فلما اشتدت عليها ربطة بنت أبي العباس بالتنديد قالت إنها كانت مكرهة .. وقد ماتت الاثنتان من الرعب[2] وقد يدل هذا على مدى ما استطاعت المانوية ـ التي تحل الزواج بالبنات ـ النفوذ إليه من طبقات الناس إذ ذاك ومدى نشاطها في الدعوة !

---

(١) الطبري ج٨ ص١٦٠ (٣/٥١٧)
(٢) الطبري ج٨ ص١٩٠–١٩١ (٣/٥٣٩–٥٥١)

ولم تنته أيام الشدة على الزنادقة بوفاة المهدي فإن الهادي تابعها
كانت السنة التي حكمها استمراراً لعهد أبيه الذي كان أوصاه : «يا بني
، صار إليك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة فإنها فرقة تدعو الناس إلى
هر حسن كاجتناب الفواحش والزهد ... ثم تخرجها الى عبادة
ين ... فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها الى الله
شريك له فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل
سحاب الاثنين» وقد «اشتد الهادي في طلب الزنادقة فقتل منهم جماعة
كان ممن قتل : يزدان بن باذان» كاتب أحد رجال البلاط علي بن
طين . سمعوه يقول وقد نظر الى الناس في الحج يهرولون : كأنهم
ر تدوس في البيدر فبعث أحد الشعراء الى الخليفة يقول :

| | |
|---|---|
| أيا أمين الله في خلقه | ووارث الكعبة والمنبر |
| ماذا ترى في رجل كافر | يشبه الكعبة بالبيدر |
| ويجعل الناس إذا ماسعوا | حمراً تدوس البر والدوسر؟ |

فقتله الهادي وصلبه في الحجيج بسكة[1] ...

وقال الهادي بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن
ست لأقتلن هذه الفرق كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف . ويقال إنه
ر ان يهيأ له ألف جذع (خشبة صلب) فقال : هذا في شهر كذا ...
ات بعد شهرين ![2] .

وأما المرحلة الثالثة بعد ذلك : فقد بدأت مع بدء عهد الرشيد الذي

---

(١) الطبري ج٨ ص١٩٠ (٣/٥٤٩)
(٢) الطبري ج٨ ص٢٢٠ (٣/٥٨٨)

سلم الأمور كلها ، حين استخلف ، ليحي بن خالد البرمكي • ولم تكن ملاحقة الزنادقة من هموم يحيى ولا من خطته السياسية • فتراخت القبضة الشديدة التي كانت تمسك بهذه القضية وإن ظل أثر السنوات الأربع السابقة (١٦٦ ــ ١٧٠) واضحاً في أذهان الناس زمناً طويـلا بعد ذلك وظلت تهمة الزندقة إحدى التهم التي تؤدي الى القتل لا سيما إن كان السبب في الاتهام بها سياسياً •••

لم يكن باستطاعة الرشيد أن يعود فجأة عن ملاحقة الزنادقة فقد أصبح ذلك مطلباً شعبياً اسلامياً يقوم من ورائه رجال الدين بالتأييـد والتشجيع ولهذا جاء الامان الذي أعلنـه الرشيد سـنة ١٧٠ بمناسبة خلافته لمن كان هارباً أو مستخفياً من أعداء الدولة وهو يستثنى نفراً من الزنادقة منهم يونس بن ابي فروة الذي اختفى في الكوفة حتى هلـك ويزيد بن الفيض[١] • وإذا كان يزيد قد هرب من السجن فان ابن أبي فروة كتب فيما يذكرون رسالة في مثالب العرب وعيوب الاسلام وأرسلها الى امبراطور الروم •••

ثم تقضت السنوات بعد ذلك وضعفت الملاحقة ولم نعد نسمع عن «قتل» على الزندقة وإن كنا نسمع عن سجن أحياناً عليها كالذي من أمر حماد عجرد وسجنه وأمر أبي نواس وسجنه معه ، وأمر القبض على ابنه مطيع بن إياس واتهام ابان بن عبد الحميد اللاحقي الشاعر بالثنوية وقد ترجم كتاب مزدك إلى العربيـة وسيرة ازدشير وسيرة أنوشـروان • وكتاب الصيام والاعتكاف ••• ولكنه لم يقتل •

---

(١) الطبري ج٨ ص٢٣٤ (٦٠٤/٣) وانظر رسائل الجاحظ (نشـر هارون) ج٢ ص ٢٠٢

وبالرغم من أن هذه الاتهامات كانت في مجموعها كيدية ، وكانت بين الشعراء خاصة فإنها هي الظواهر الوحيدة لمكافحة الزندقة خلال فترة الرشيد وقد انتهى في أسوأ الأحوال بالسجن ... ثم العفو . ويلفت النظر منها فقط حادثان :

الأول : اتهام البرامكة ــ بعد النكبة ــ بالزندقة لتفسير الغموض الذي أحاط بأسباب النكبة ومن الواضح أنه اتهام سياســي . وبرمك كان في الأصل من ارستقراطية المجوس الزارادشتيين ، وهي الجماعة التي لم تدخل في مفهوم الزندقة ولا اشتركت بها إن لم تفرح بها . وقد جرت القافية الأصمعي فاتهمهم بالمزدكية أيضاً إذ قال :

| | |
|---|---|
| اذا ذكــر الشرك في مجلس | أضاءت وجــوه بني برمك |
| وإن تليــت عندهــم آيــة | أتوا بالأحاديث عن مزدك ! |

وما من شك في أن البرامكة ايرانيون ولكنهم كانوا ، في الواقع قد أسلموا أحسن الاسلام حتى لم يجد أخصامهم مما يكشف زندقتهم سوى ادخال مجامر البخور الى الكعبة لتشبه في ذلك بيوت النار[1] . ولو كانوا على المجوسية لما استطاعوا الاحتفاظ بسرهم جيلين ولانكشفت منه اشياء أخرى . وقد شملت تهمة الزندقة كذلك بعض أنصار البرامكة فدفعوا ثمن علاقتهم الودية بهؤلاء لا ثمن زندقتهم ومن هؤلاء أنس بن أبي شيخ الذي أتى به الرشيد صباح قتل جعفر البرمكي فدار بينه وبينه كلام فأخرج الرشيد سيفاً من تحت فراشه وأمر أن تضرب بــه عنقه . وقالوا إن صاحب الخبر قد أبلغ الرشيد أن ابن ابي شيخ على الزندقة فقتله لذلك[2] ...

---

(١) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ٢٥٤ .
(٢) الطبري ج٨ ص ٢٩٧ (٣/٦٨١) .

الثاني : مصرع عمرو بن محمد العمركي : فقـد خرجت المحمرة بجرجان فكتب علي بن عيسى بن ماهان أن الـذي هيج ذلـك هو العمركي • وأنه زنديق فأمر الرشيد بقتله فقتل بمرو سنة ١٨٠ •

ولم يكن تراخي المكافحة تعني التنازل عن المبدأ الذي أصبح منذ ذلك الوقت صفة سياسية ملازمة للحكم العباسي • فإن الرشيد اعتبر كفاح الزندقة بدوره جزءاً من مهام الامام وقـد سجل في الكتاب الذى أذاعه على الناس بمناسبة تعليق البيعة لأولياء العهد في الكعبة سنة ١٨٦ قال إن من جملة ما أخذ عليه العهد فيه : «••• الجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا ••• وقطع طمع ••• كل منافق ومارق وأهل الأهواء الضالة المضلة ••• وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعيم وأعداء دينه من الضرب بين الأمـة والسعي بالفسـاد في الأرض والدعـاء الى البدع والضلالة ••• »[1] وبالرغم من ذلك فإن ظهور أمثال أبي نواس والحسين الخليع وسلم الخاسر وابن مناذر ، شعراء المجون والإباحية والدهريـة وملازمة بعضهم للبلاط دليل على أن مكافحة الزنادقة قد توقفت عمليـاً وإن بقيت كمبدأ نظري في السياسة العباسية •

ولعل عهد المأمون أن يكون الدليل الآخر على هذا التوقف فقد تحول الموقف العباسي الرسمي على يديه من القتل الـى المجاورة مع الزنادقة ومن الاستئصال الى الجدل بالتي هـي أحسن علـى طريقته الكلامية • يروون أنه استقدم للمناظرة رئيس المذهب المانوي « يزدان بخت من الري بعد أن أمنه ، وكان فصيحاً لسنا فقطعه المتكلمون فقال له المأمون : أسلم يايزدانبخت فلولا ما أعطيناك ايـاه من الأمان لكان

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٨٤ ـ٢٨٥ (٣/٦٦٤ ـ ٦٦٥) •

لنا ولك شأن فقال له يزدانبخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون : اجل . وكان أنزله بناحية المخرم (من بغداد) ووكل به حفظة خوفا عليه من الغوغاء ! ....

وهذه المعاملة التي تصل درجة الحفظ من الغوغاء تختلف بوضوح عن موقف المهدي . إنها على الأقل تعتبر المانوية عقيدة جديرة بالجدل على قدم المساواة مع العقائد ، الأخرى . وقد حرص المأمون أن يؤلف هو نفسه كتاباً في الرد عليها . على أن هذا لم يكن يعني مع ذلك أن السلطة كانت تغضي إن وقع لها بعض الزنادقة ممن يظهر الاسلام ويخفى المانوية فإن هذا النوع من الازدواج الديني الذي كان القصد منه خدعة المسلمين وفتنتهم عن الدين ظل محارباً مرفوضاً . وقد ابتكر المأمون طريقة عملية للامتحان في هذه الناحية فقد بلغه وجود بؤرة من الزندقة قوامها «عشرة من أهل البصرة يذهبون الى قول ماني ويقولون بالنور والظلمة فأمر بحملهم إليه بعد أن سموا واحداً واحداً فكان يدعوهم رجلا رجلا ويسألهم عن دينهم فيخبرونه بالاسلام فيمتحنهم بأن يظهر لهم صورة ماني ويأمرهم أن يتفلوا عليها ويتبرأوا منها . ويأمرهم بذبح طائر ماء وهو الدرج وقد أبوا ذلك . فقتلهم »[1] .

على أن المأمون كان قد شغل عن ملاحظة الزنادقة بملاحقة أمل آخر هو جمع كافة المسلمين على مذهب . وحين قرر حملهم جميعا بالقوة عليه وأضحى من لا يقول به مشركا في نظره وبدأ الاضطهاد ... توفي .

ثم جاءت بعد ذلك ، في عهد المعتصم ، المحاكمة الكبرى في تاريخ الزندقة : محاكمة الأفشين ، قائد جيوش المعتصم فقد كرست تلك المحاكمة

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج٢ ص ٢٤٩ .

استخدام الزندقة كتهمة سياسية ومصطلح اداري سياسي . كما سحبت المصطلح فأطلقته على المجوسية « الدين الأبيض » الذي كان يعتنقه الأفشين من قبل . وكشفت أخيرا أن كثيرا من المظاهر والشكليات الدينية الزارادشتية أو غيرها كان ينتقل مع أصحابه إلى الاسلام أو يظل معمولا به بعد التحول إليه .

وأهم من هذا أن المحاكمة كرست استخدام تهمة الزندقة كمصطلح إداري سياسي للفصل في الخصومات الدينية والأدبية والسياسية . وللخلاص من الخصوم . وإذا كان مفهوماً أن يتهم بعض أصحاب الميول العلوية بالزندقة من امثال ابي عيسى الوراق وابن أبي العوجاء وسلم الخاسر فإنا نجد أن حميداً بن سعيد كان وجهاً من وجوه المعتزلة فخالف احمد بن أبي دؤاد في بعض مذهبه فأغرى المعتصم بأنه شعوبي زنديق[1] ..

وكانت حصيلة المكافحة للزندقة في النهاية أمرين زيادة توطيد واستقرار المذهب السني وسلطة رجال الدين والحديث في الجماعة الاسلامية الواسعة من خلال إرهاب الزنادقة وغيرهم .ثم تحول المذاهب الاسلامية المختلفة والعقائد المناوئة للاسلام جميعاً الى العمل السري وترك العلنية ولم ترجع الزندقة بعد ذلك الى الجهر بل غلغلت في بعض الحركات الشيعية . أما في التراث الفكري فقد تركت المعركة عدداً واسعاً من الكتب في الرد على المخالفين للعقيدة الرسمية كما تركت ضمن كتب الكلام والفقه والأدب وداوين الشعراء والتاريخ بقايا الكثير من مسائلها وأفكارها ومنشوراتها الأدبية والشعرية وأخبارها ...

---

(١) الأغاني ج١ ص ١٧ .

## ٢ ـ الحركات الدينية الايرانيــة :

لعل الزندقة إنما أخذت تلك الأبعاد والشأن التاريخي في العصر العباسي الأول لأنها اصطنعت اسلوب النشاط الخفي والتسرب السري والجدل والدعوة ونشر المجون واستهدفت بإصرار تأليب المسلمين أنفسهم على دينهم أو على الأقل تشكيكهم فيه • على أن ثمة حركات أخرى لم تكن أقل شأناً من الناحية التاريخية وقد اصطنعت أسلوبــاً آخر هو الثورة والســلاح واستهدفت الخلاص من الدين الاسلامي والاحتفاظ بأديانها الأولى لنفسها في مناطقها • والفارق بين الزندقة وهذه الحركات أن الأولى ذات طبيعة هجومية وتستهدف المسلمين بأسلوب التسلل أما الثانية فدفاعية وتستهدف حفظ عقائدها باستخدام القوة المسلحة •

وإذا كان أسلوب التسلل الزندقي قد بدأ منذ أواخر العهد الأموي واستمر الى ما بعــد العصر العباســي الأول فقــد جرب الايرانيون (الزادشتيون منهم والمانويون والمزدكيون) أسلوب الثورة المسلحة ايضاً حتى قبل طلوع العصر العباسي وجربــوه خلال عهــد المنصور خاصة وفشلت حركاتهم بمختلف الاسماء التي تسمت بها ومختلف التجديدات العقائدية التي أدخلت عليها وكان آخرها بعد حركتي سنباذ واستاذ سيز سنة ١٥٠ حركة المقنع • وهذه التجديدات إنما كان السبب فيها نوع من اليقظة الدينية السياسية أصاب العقائد الايرانية والايرانيين إثر اهتزاز الحكم الأموي ثم سقوطه ونجاح الثورة العباسية بعد ان انطلقت من أرض ايرانية وأعان عليها جهود بعض الايرانيين ••

وقد كان من حق حركة المقنع التي قامت بين سنة ١٥٩ ـــ ١٦٣ أن تأخذ مكانها في عهد المهدي لأنها تقع من الناحية الزمنية في إطاره ولكنا

ألحقناها بعصر المنصور لأنها كانت ختاماً مؤقتاً لتلك السلسلة من الحركات « الملحدة » أو من حركات العقائد الايرانية التي دمغت مطالع العصر العباسي وقد جاءت من بعدها فترة من الهدنة الثورية ظهرت فيها بعض الحركات الصغرى • أما الكبرى فلم تظهر إلا بعد نصف قرن تقريباً • أما الحركات الصغرى فهي التي عرفت باسم الخرمية وأما الحركة الكبرى فهي التي حملت اسم بابك الخزمي •

**ا ـ الخرميـة (المحمرة) :**

كانت كلمة « الخرمية » هي التسمية التي عرف بها أتباع مزدك ولكن الناس كانوا قد اصطلحوا على تسميتهم «بالمحمرة» كما كانوا يعرفونهم أيضاً باللقطة[1] • وإذا كان اسم خرم آتياً من معنى الكلمة بالفارسية وهو اللذة ، لأنهم مأمورون باتباع اللذات والشهوات والمشاركة في المال والحرم والأهل فإن اسم المحمرة قد يكون في الأصل من استعمال ملابس الحمـرة •

وكان غرب ايران وغربها الشـمالي (على سفوح جبال زاغروس وجبال البورز) هي أعشاش الخرمية في مثلث جرجـان الأهواز تبريز كانوا يملأون «نواحي الجبال فيما بين اذربيجان وارمينية وبلاد الديلم الى همذان ودينور ••• وفيما بين اصفهان وبلاد الأهواز»[2] كما كانت لهم مناطق جرجان • وقد تابعوا بدورهم سلسلة حركاتهـم بعدد من الثورات التي امتدت ما بين عهد المهدي حتى عهد المعتصم •

ـ ثار المحمرة سنة ١٦٢ في جرجان • شجعتهم دون شك ثورة المقنع وإن كانت في أواخرها آنذاك كمـا شجعتهم ثـورة يوسف البرم في

---

(١)و(٢) انظر ابن النديم ـ الفهرست ص ٣٤٣ •

سجستان . تزعم الثورة رجل يحمل اسماً مسلماً هو عبد القهار وقد لا يكون الاسم دليلا على اسلامه ولكن على التأثير الثقافي العربي في المنطقة أو على رجل ارتد لدين آبائه . واستطاع عبد القهار أن يسيطر على الاقليم كله مما يكشف مدى الاستعداد الكامن في الاقليم للثورة . وهو استعداد ديني من جهة ولكنه دون شك اقتصادي من جهة أخرى وقد يكون استهدف الخلاص من الخراج والجزية . وانهزم والي جرجان المهلهل بن صفوان أمام الثائرين الذين قتلوا بشراً كثيراً من المسلمين وسيطروا على المنطقة ... ولعل من أدلة تشبع هذه المنطقة بالتذمر أن جماعة خرمية أخرى كانت قد ثارت بدورها بعد أن التفت حول زعيم ادعى انه ابن أبي مسلم ويسميه أتباعه أبا غرة . وكانوا بقية الجماعة الخرمية المسلمية بعد سحق حركاتها الأولى فالتقت الثورتان وتحالفتا وسارت المقاتلة منهما إلى الري .

وأمر المهدي واليه على طبرستان عمر بن العلاء أن يتحرك لإيقافهم واستطاع الجيش العباسي هزيمة الثائرين وقتل عبد القهار وأصحابه سنة ١٦٢[1] وبقي ابن العلاء والياً على جرجان سنة ريثما أقر النظام فيها وتتبع جذور الثورة بالمطاردة ثم أعيد الى طبرستان[2] . التي كانت طلائع الثورة قد بدأت فيها بدورها سنة ١٦٤ .

ـ وانتقلت الحركة الثورية بعد ذلك إلى أصفهان سنة ١٦٧ والتحق بالثورة أعداد من الفقراء والمعدمين مما يدل على الطابع الاشتراكي الذي اتخذته في هذه المنطقة والآمال التي وعدت بها المحرومين ولكن القوى

---

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ١٤٣ (٣/٤٩٣) .
(٢) الطبري ج ٨ ص ١٤٨ (٣/٥٠٠) .

العباسية استطاعت ان تقضي بسهولة عليهم لافتقارهم الى السلاح والقيادة والقوت .

ـ وعادت الثورة كرة أخرى الى جرجان بعد هموده عشرين سنة فثارت المحمرة[1] هناك سنة ١٨٠ « وكتب علي بن عيسى بن ماهان ـ وكان جديد الوصول الى ولاية خراسان ـ إن الذي هيج ذلك عليه هو عمرو بن محمد العمركي . واسم الرجل يدل على إسلامه . وإذا لم تكن تهمته سياسية بغية التخلص منه فإنه يكشف عن ظاهرة عرفت لدى بعض الايرانيين في تلك الفترة وهي الارتداد عن الاسلام الى دين الآباء . وعلى أي حال فقد «أمر الرشيد بقتله فقتل بمرو» على أن وقوعه في أيدي الوالي العباسي لا يعني أن الجيش قد انتصر نصراً حاسماً على الثورة أو استطاع إخمادها بقتل من اتهم بزعامتها فقد عمت في السنة التالية البلاد سنة ١٨٢ و«غلبت المحمرة على جرجان»[1] كما يقول الطبري ... ولعل لهذه الثورة العارمة علاقة بقضية الفضل البرمكي الذي كان والي خراسان كلها قبل ذلك وبالركائز التي أقامها لنفسه ولأسرته هناك وبالجيش الذي نظمه في حوالي نصف مليون رجل ثم جاء ابن ماهان ـ بالاتفاق مع الرشيد ـ يدمر كل ذلك ويفرقه . ويبدو أن الوالي الجديد استطاع في النهاية أن يسيطر على الموقف في جرجان كما في غيرها . وينهي الثورة النهاية التي عرفتها ثورتها السابقة سنة ١٦٠ ـ ١٦٢ .

ويظهر أن اندحار هذه الثورات المتتالية وهزيمة ثورات طبرستان معها قد دعا المحمرة إلى إعادة النظر في وضعهم والعمل الجدي في اتجاهين :

---

(١) الطبري ج٨ ص ٢٦٦ (٣/٦٤٥) .
(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٦٨ (٣/ ٦٤٦) .

الأول : تجديد الفكر المزدكي بالعودة الى منابعه وإحياء مبادئـه الأولى وكان الرمز الدال على ذلك أن الناس ـ والمؤرخين معهم ـ لن يستعملوا لهذه الجماعة اسم المحمرة بعد الآن ولكنهم سيستعملون لهم الاسم القديم التقليدي : الخرمية •

الثاني : بذل جهد دعائي منظم ـ وربما وضع له جماعته وتنظيمه في السر ـ ليس للوقوف فقط في وجه التسرب الاسلامي الى الخرمية وكسبه أتباعها ولكن لإعادة من أسلم من هؤلاء الى دين آبائه الأولين • عملية الصراع كانت قد بدت واضحة عنيفة •

ـ واظهرت أولى نتائج هذه الاتجاهات الجديدة في اذربيجان • هناك «تحرك الخرمية» سنة ١٩٢ مستغلين ثورة رافع بن الليث العارمة في خراسان ويبدو أن الحركة كانت من الخطر بحيث «وجه إليهم الرشيد (مع القائد) عبد الله بن مالك بعشرة آلاف فارس» استطاع الرجل أن يأسر ويسبي وأن يوافي الرشيد في بلدة قرماسين فأمر بقتل الأساري وبيع السبي[1] •

لكن نصر الرشيد في هذه المرة كان نصراً موقتاً عابراً لأن خمائر الثورة الجديدة وأبعادها كانت أوسع بكثير من أن يمحوها قتل الأسرى وبيع السبي • فقد تسلم الحركـة بعد عشر سنوات بابـك الخرمي

**ب ـ البابكية (٢٠١ ـ ٢٢٢) :**

«تضمن تقريب بني العباس للارستقراطية الايرانية ، ابقاء الوضع الطبقي في ايران كما كان عليه • فلم يعمل العباسيون شيئاً يذكر لتخفيف الضغط الاقتصادي والاجتماعي على جماهير الايرانيين» وقـد قويت

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٣٩ (٣/٧٣٢) •

واستعادت الخرمية ديناميكيتها ونشاطها بسبب الطـابع الشعبي الذي اتخذته والآمال بالعيش الرخي المشترك التي تبعثها في الناس ولهذا بينما كانت الطبقات الارستقراطية الايرانية ــ والمجوسية الزارادشتية خاصة منها ــ تتحالف مع الحكم العباسي وتتعاون معه عـاد الايرانيون الى المبادىء الخرمية ينشرونها بينهم حتى صارت رمز وعي الامة الايرانيـة للتخلص من الحكم العباسي وبالرغم من ان العباسيين استهدفوا خلق جو من التفاهم والتعاون بين العرب والموالي ــ ولا سيما الفرس ــ لاعتقادهم (بنتيجة درس الامويين) ان الاستقـرار لايتـم الا بتعاون مختلف عناصر الدولة الا انهم لم ينجحوا في خلق ذلك الجو على مدى أبعد من التعاون مع الطبقات العليا ، ولعل فشلهم السياسي جاء نتيجة الخطأ في تقدير حقيقة الاوضاع الدينية السياسية في ايران كما نتج عن اضطراب سياستهم هناك وقسوة سياستهم المالية الخراجية وعن التيارات التي اثاروها وعن طموح الايرانيين انفسهم بنتيجة عمـل الجماعـات الدينية ورجال المعابد خاصة وهذا مايفسر لنا استمرار الحركات الدينية ــ السياسية في المناطق الايرانية مدة العصر العباسـي الاول ، حتى اذا تشكلت الامارات الايرانية الاولى خمـدت تلك الحركـات وانتهى امرهـا •

ولعل الحركة البابكية كانت اخطر تلك الحركات[1] ، الدينية في الظاهر ، السياسية في الواقع ، التي عرفتهـا ايران منـذ قيام الدولة العباسية • فهي ، وان اشبهت الحركات السابقة ، في أسسها الفكريـة الدينية ، الا انها تتميز عنها باتساعها ، وطول امرها ، وتنظيم دعايتها ،

---

(١) في دائرة المعارف الاسلامية مقالتان هامتان حول بابك والخرمية في المادتين •

وخططها ، وبراعة القيادة فيها واتصالها السياسي بغير الفـرس اتصالا واسعاً إذ اشترك فيها عدد كبير من الشعوب المجاورة لمنطقة الجبال : كالكرد والأرمن والروم وغيرهم من الشعوب الصغيرة في مـا وراء القفقاس وكان اشتراكهم الفعلي دليلا على الاتفاق المبيت والشعور القوي بالمصلحة المشتركة . وأهم من كل أولئك أنها استهدفت إقامة نظام خرمي ديني سياسي اقتصادي بالاستناد الى المبادىء المزدكية وبـدأت تنفيذ ذلك النظام .

تنسب البابكية الى (بابـك) وصاحبها هـذا غامض النسب . والدينوري يشير الى ذلك ويضيف قوله : «... الذي صح عندنا وثبت انه كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت ابي مسلم الخراساني هـذه التي ينتسب اليها الفاطمية من الخرمية[1]» وإن كان ابن النديم يجعله ابن بائع دهن من أهل المدائن سكن في اذربيجان وهوى أم بابك وفضحمعها ثم تزوجها فلما قتل نشأ ابنه نشأة فقيرة وكان يرعى البقر ويسوس الدواب ويضرب الطنبور حتى بلغ الثامنة عشرة .

وحركة بابك حركة خرمية . ومعظم المؤرخين (كالطبري وابن النديم وابن الجوزي والبغدادي وغيرهم .. ) متفقون في ذلك وفي أنها تجديد للحركة الخرمية السابقة وابن النديم مع بعض المؤلفين يقول إن الخرمية صنفان : الخرمية الأولـين ويسمون المحمرة (جماعـة سنباذ والمقنع) ... والخرمية البابكية[2] . ولكن بابك ليس بالمؤسس لها ،

---

(١) الدينوري ـ الاخبار الطوال ص ٤٠٢ واسـم بابـك يلفظ في الاصل : بابان .

(٢) ابن النديم ـ الفهرست ص ٣٤٢ .

فقد كان للخرمية في منطقة الجبال منظمات وزعماء قبله ــ على ما يظهر ــ ونسمع من ابن النديم والمسعودي بزعيمين للخرميــة هناك قبل بابك هما جاويدان بن سهل ، استاذ بابك ومربيه في شبابه وابــو عمران . وأنهما كانا في حرب مستمرة «ليتوحد أحدهما بالرياسة» وقد اصيب الاول مرة فمات من جراحه ، بينما قتل الثاني في المعركة . واعلنت زوجة جاويدان ــ وكانت تتعشق بابك ــ ان زوجها قال لها قبل وفاته :اموت هذه الليلة وان روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك مع روحه» فصدق الاتباع قولها ورضوا ببابك زعيما لهم [1] . وهكذا فان بابك الذي تزوج أيضاً امرأة جاويدان ، لم يوجد في الحركة شيئاً ولكنه وجدها قائمة فمنحها عبقريته في الحرب والتنظيم والدهاء السياسي . وقد عرف انصاره باسمه كما عرفوا (بالمحمرة) لانهــم «صبغوا الثياب بالحمرة في ايامه وكانت شعارهم» ولكنهم في افكارهم ، بالطبع ، من الخرمية (المزدكيــة) .

ولم تحفظ لنا المصادر نصوصاً أصلية عن برنامج بابك السياسي أو مبادئه الفكرية ــ وكل ما نعرفه عنه فإنما هو من خلال ما أخذه الناس عليه وانتقدوه عنده من الأفكار والأعمال . على أن النتف والإشارات النقدية الجدلية الباقية تكشف عدداً من النقاط في مبادىء تلك الجماعة وتؤكد أن بابك كان يستند في ثورته الى برنامج متكامل ديني واجتماعي ــ اقتصادي وسياسي ولعلنا نستطيع تلخيصه في نقاط ثلاث بما يلي :

١ ــ الايمان بالحلول والتناسخ حتى ادعى بابك الالوهية .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٤٣ ــ ٣٤٤ ويصف ابن النديم هنا حفل تنصيب بابك في الزعامة وزواجه من أرملة شيخه جاويدان .

٣ ـ المشاعية المزدكية في المال والحرم لئلا تبقى بين الناس أسباب للخلاف والتنازع • وقد تجلى الجانب التطبيقي لذلك في تحرير الارض مصدر الثروة وتحرير المرأة • وإذا كان تحرير المرأة قد أدى منطقياً الى نوع من الاباحية يقول المقدسي انه شهدها منهم بنفسه[١] فإن تحرير الارض استهدف هدم النظام القائم على الطبقية (من ملاكين كبار ورؤساء دين وجيوش مرتزقة) ليبدل به نظام آخر لا طبقي يلغى فيه الامتلاك والاستبداد وتباح المشاركة •

ولما كان اغلب البابكية من الفلاحين فقد حاولوا حل مشكلة الاراضي بانتزاعها من الاقطاعيين الكبار وتوزيعها عليهم (كحركةالفلاحين ايام لوثر في المانيا) والطبري يذكر عن المازيار (صاحب بابك) انه «أمر أكَرَة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب اموالهم»[٢] ويذكر عن قائد آخر للمازيار اسمه (سرخاستان) أنه قبض حين حوصر على٢٦٠ شاباً من أولاد القواد أصحاب الأراضي وبعث الى الأكرة المختارين من الدهاقين فقتلوهم و ••• قال لهم : إني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمتهم ••• صيروا الى الجس فاقتلوا أرباب الضياع قبل ذلك ثم حوزوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم ••• فجبن القوم وخافوا وحذروا •••»[٣] •

---

(١) ذكر البلعمي وهو المؤرخ الذي ترجم الطبري الى الفارسية ولخصه ان بابك نسخ او الغى الزواج الشرعي وملكية الأرض وكان يقول: إن خالق المسكونة قسم الاشياء بين الناس بالعدل والقسط ولم يعط احدا اكثر من غيره فلا بد من نظام يتساوى فيه عدد النساء ومساحة الأرض التي يملكها كل شخص ...» انظر بندلي جوزي ـ الحركات الفكرية ص ٩٨ ـ ٩٩) •

(٢) المصدر نفسه ج٩ ص ٨٦ ـ ٨٧ (٣/١٢٧٨) •

(٣) الطبري ج ٩ ص ٨١ (٣/١٢٦٩) •

٣ ـ على ان بابك استهدف من وراء هذه الثورة غاية سياسية هي التخلص من السلطان العربي والدين الاسلامي وإقامة دولة خرمية ونظام سياسي مزدكي إيراني يتبين ذلك من كلام جاويدان عنه في وصيته : «... سيبلغ بنفسه وبكم (أي بالخرمية) أمراً لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد وانه يملك الارض ويرد المزدكيــة ويعز بــه ذليلكم .. ويرتفع وضيعكم»[١] وقد أجمع ابن الجوزي والمقريزي والمسعودي والذهبي على تبيان هذه الغاية السياسية عند بابك .

ويروي الطبري أن ابنه أرســل إليه كتاباً مــع رسولين ينصحه بالاستسلام فلم يفض بابك الكتاب ولكنه قتل أحد الرسولين بعد أن علق في عنقه الكتاب المختوم وقال للرسول الآخر : إذهب وقل لذاك (يعني ابنه) لو أنك لحقت . واتبعت دعوتك حتى يجيئك الأمر يوماً كنت ابني . قد كنت باسم هذه الرياسة وحيثا كنت أو ذكرت كنت ملكاً . ولكنك من جنس لا خير فيه . تعيش يوماً واحداً وأنت رئيس خير ، أو تعيش أربعين سنة وأنت عبد ذليل ؟..[٢] .

ولعل مما يؤكد مخطط بابك السياسي ضد العرب ودولتهم وضد المسلمين ما ذكره الطبري أيضاً من أنه وجد لدى بابك ، حين هزم وأسر ، حوالي ٨ آلاف من العرب والدهاقين ونسائهم وأولادهم[٣] ومن أنــه حين دخلوا به أسيراً على الأفشين أمر ألا يتركوا عربياً يدخل بين الصفين

---

(١) ابن النديم ـ الفهرست .

(٢) انظر الطبري ج٩ ص٥٠ (١٢٢٧/٣) حيث يقول : وكان قد صار إلى الافشين نساء كثر وصبيان ذكروا أن بابك كان أسرهم وانهم احرار من العرب والدهاقين ...» وانظر الطبري أيضاً (ج٩ ص ٥٥) حيث يقول : «... واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستة مائة انسان ...» .

«اللذين يمر بينهما من الجنود فرقاً أن يقتله انسان ممن قتل اولياءه ..
ويمكن ان نضيف الى ذلك ان الخرمية كانت تتسامح مع الاديان الاخرى كل التسامح وتكره الدماء فاذا هي حاربت سلطة الاسلام والمسلمين فلأن بابك ــ كما قال ــ كما قال ابن النديم ــ هو الذي (جدد فيها) وأحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ...»وإنما كان ذلك لغرض سياسي اكثر مما هو ديني . أما قول (بندلي جوزى) من ان «غرض البابكية لم يكن مقاومة الاسلام وذويه ولا مقاومة العرب كأمة فاتحة مغتصبة (كما كانت الحال في أكثر الثورات السابقة في في بلاد العجم) بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تئن تحته الطبقات السفلى في جميع الامم التي كانت تؤلف يومئذ دولة بني العباس حتى الامة العربية» .. ، فقول يشير الى جانب من المشكلة ، قد يكون الجانب الهام العميق منها ، ولكنه لايفسر كل شيء فيها . وهو لايفسر بصورة خاصة اشتراك عدد كبير من الارستقراطيين بها أو اشتراك الشعوب المسيحية المجاورة كالأرمن والروم أو اشتراك الأكراد .

كان مركز بابك الذي بدأ منه الثورة سنة ٢٠١ في(البذ) أو (البدين) وهي بلد في اذربيجان غربي نهر الرس يرى (ياقوت) انها كانت مهد المزدكية ، منذ محنة مزدك . اذ لجأ اليها بعض اصحابه ، ودعوا فيها لرأيه . ولكن بابك تجاوز بالدعوة اذربيجان جنوباً الى همدان واصبهان وما سبذان وبلاد الاكراد ، ويظهر أن ذلك كان في أواخر عهد المأمون ، وفي سنة ٢١٨ بالذات ، وتجاوزت الحركة هذه المناطق شرقاً أيضاً الى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم ، وحتى الى خراسان .

---

(١) بندي جوزي ــ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (طبعة الروائع ــ بيروت) ص ٩٠ ــ ٩١ .

ويبدو من بعض الأدلة ان التهيئة للثورة قد بدأ قبل اعلانها بزمن بعيد وربما أعلنت باتفاق مسبق مع الروم أيضاً لكن التهيئـة الحقيقية كانت في إعداد الجماهير في اذربيجان لها وجمهرة اتباع بابك كانوا من الاكرة . لكننا نجد لاول مرة في هذه الحركة اشتراك بعض الارستقراطية الايرانية فيها مع العامة ، كالمازيار (اصبهبذ طبرستان) ومنكجور الفرغاني (خليفة الافشين على اذربيجان) والافشين ايضاً القائد العباسي ، ويمكن انّ نأخذ فكرة عن اتباع بابك وعددهم من ان عدد فرسانه كان عشرين الفاً ـ على مايذكرون ـ وابو منصور البغدادي يذكر اجتماع (٣٠٠) الف شخص معه ويقدرهم المسعودي بمائتي الف ولا شـك ان بعض المتلصصة قد انضم اليـه .

وقد سعى بابك ، الى هذا ، في استمالة الاقليات العنصرية التي حوله ، فدخل (عصمة) الكردي صاحب مرند ، وامراء بعض الاكراد في همدان وكرمنشاه ، في طاعته دون إكراه أو مساومة[1] . ولم ينجح في استمالة الارمن الا فئة منهم (من مقاطعة سيونيا) وثق روابطه معها ، بالزواج من ابنة اميرها . أما باقي الآرمن فقد آثروا الحياد والاستفادة من ضعف النفوذ العباسي عندهم في بناء إماراتهم الداخلية .

مع الروم مما أعطى ثورته الطابع الدولي .

أما العلاقة الخارجية الهامة التي عقدها الثائر الخرمي فإنما كانت

ويظهر ان بابك اتصل بالبيزنطيين قبل الثورة . فالمصادر الرومية تشير الى مفاوضات سرية بينه وبين الروم[2] بدأت منذ عهد ميخائيل

---

(١) اليعقوبي ـ ج٢ ص ٤٧٣ وقد احتال بعض القواد العباسيين على صاحب مرند فأسره وحمله الى المعتصم .

(٢) انظر بندى جوزى ـ من تاريخ الحركات الفكرية ص.٨ وهـو يستند في ذلك الى المؤرخ البيزنطي تيوفانوس (ج٣ ص ١١٢) والى ميخائيل السرياني (ج٣ ص ٥٢) والى كتاب العرب والروم لفازيلييف ص ٣٣ .

الثاني (٨٢٠ ـ ٨٢٩) مؤسس الأسرة العمورية ثم خلفة تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢) ولا شك أنه كان يهم هذين الامبراطوريين دعم مكانتهما ومكانة اسرتهما الجديدة بتدمير الخلافة العباسية عن طريق لا يكلفهما الكثير على أن دعم الروم للثورة الخرمية في مراحلها الأخيرة أمر مؤكـد فإن بعض اصحاب بابك حارب سنة ٢١٦ هـ مع الجيوش البيزنطية تحت قيادة الايراني الهارب الى بيزنطة (تيوفوب)[١] • وقد هرب بعض اتباع بابك من العباسيين الى بلاد الروم • فحاربوا معهم المسلمين وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة[٢] • ولمـا ضيق المسلمون على بابك حاول تحريض بزنطة للهجوم على الحدود الاسلامية ذاكراً ان ملك العرب قد وجه عساكره كلها ضده حتى وجه خياطه وطباخه ••[٣] كما انه حين مزقت جيوشه ، قبض عليه بعض أمراء الأرمن وهو في الطريق الى بلاد الروم حيث التجأ الناجون من اصحابه وجنده •

ولعل هذا كله يفسر لنا طول عهد الثورة البابكية التي بدأت سنة ٢٠١ وهزمت حتى سنة ٢١٨ أربع حملات كبرى للمأمون[٤] • حتى دخل في نفوس القواد والناس شيء من استفحال امر بابك ، واضطر المعتصم ان يطوف برأسه على مدن خراسان لازالة ذلك الاثر المزيج من الاعجاب والبطولة والرهبة ، فيما بعد • لهذا قوبل نبأ أسره بالتهليل والتكبير لدى الناس في بغداد وعمهم الفرح ويضيف المسعودي : قائلا «••• ثم

(١) بندلي جوزى ـ الحركات الفكرية ص ٨٢ •
(٢) الطبري ج٩ ص ٥٦ (٣/١٢٣٥) •
(٣) انظر تفصيلاتها لدى الطبري واليعقوبي •
(٤) الطبري ج ٩ ص ٥٦ (١٢٣٤ ـ ١٢٣٥) •

حمل الرأس (رأس بابك) الى خراسان يطاف به كل مدينـــة من مدنها وكورها لما كان من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها ... »[1] .

ولا شك ان ظروف المأمون الداخلية (من ثورات الشـــام ومصر والعراق واليمن ..) والخارجية (من حروب مع البيزنطيين) اعانت بابك على النجاح العسكري في وجه المأمون الذي لم يتفرغ لحربـــه إلا بعد أربع سنوات من ثورته سنة ٢٠٤ . يضاف الى هذا عـــدم ولاء بعض الولاة في اذربيجان (كحاتم بن هرثمة العربي الذي «كاتب بابك والخرمية ــ حين سمع بمقتل ابيه هرثمة بن أعين ــ وهون عندهم أمر المسلمين»[2] وعدم اخلاص بعض قواد المأمون إن صح ما يفهم من اليعقوبي مثل محمد ابن البعيث الذي انحاز الى بابك وعلي هشام الذي كشف المأمون خياته فقتله سنة ٢١٦ .

واخيراً فان بابك واصحابه كانوا قد انتشروا في مناطق جبلية صعبة هم ادرى بها واعرف بالخطط فيها . وكانوا يحاصرون العبـــاسيين في المضائق منها . وكان بابك ماهراً في قطع خطوط التموين على اعدائه فأقحط سنة ٢٢٠ عسكر الافشين حين نهب قافلتين من قوافل الميرة[3]. كما خرب حصون اذربيجان فأضعف بذلك مراكز الدفاع العباسي .

وتظهر شدة فتك بابك من الاعداد الضخمة التي يذكرها المؤرخون لضحاياه واسراه فالطبري يقدر عدد قتلاه في عشرين ســـنة بمائتي الف

---

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج٤ ص ٥٦ .
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٦٢ .
(٣) الطبري ج٩ ص ١٦ (١١٧٨/٣) .

وخمسة وخمسين الفاً وخمسمائة[1] انسان وعدد الاسيرات من المسلمات اللواتي استنقذن منه (٧٦٠٠) اسيرة • ويزيد المسعودي احصاء القتلى الى (٥٠٠) الف ويضيف «وقيل اكثر من ذلك وان الاحصاء لايحيط به كثرة»[2] ولعل التقدير الاقل اقرب للصحة • على أن ضخامة الارقام — وإن لعبت بها المبالغة — تدل على قوة بابك وعلى مدى رهبة الناس لتلك القوة وما ذحل على وهمهم فيها ، وعلى مقدار ما كلف الدولة العباسية من جهد ودماء •

وقد بدأ انهيار بابك منذ وصل المعتصم الى الخلافة سنة ٢١٨ ويظهر من سلسلة التدابير التي اتخذها الخليفة مقدار خطر الخرمية وقوتهم اذ ذاك :

اولا — تمكن والي الجبال اسحق بن ابراهيم من تمزيق الخرمية في منطقة همدان سنة ٢١٨ هـ فانحصر أمرهم في اذربيجان •

ذلك أن الدعوة الخرمية كانت قد بلغت من القـوة حد الدعوة العلنية للمذهب • ويسجل الطبري في أخبار سنة ٢١٨ خبر «دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان واصبهان وماسبذان ومهراجا نقذق في دين الخرمية» ولسنا ندري هل كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا والأرجح أنهم من المجوس الزارادشتية الذين انتقلوا الى الخرمية البابكية ••• «••• وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان» أي ان تحولهم الديني رافقه تحول ثوري يرفد ثورة بابك في الشمال بثورة مماثلة في الجنوب ليس

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٥٥ — ٥٦ (١٢٣٣/٣) •
(٢) المسعودي : التنبية والاشراف ص ٣٠٥ •

بينها وبين بغداد كبير أمر وبلغ خطرهم أقصاه حين قطعوا الطريق بين بغداد والمشرق وعرضوا لحجاج خراسان فقتلوا جماعة منهم وهزموهم وأخافوا السبيل وعند ذلك اضطر المعتصم أمام هذا الخطر القريب أن يوجه إليهم العساكر بعد العساكر الى ان عقد لاسحق بن ابراهيم على الجبال فما هو إلا شهر حتى استطاع تشتيت المتمردين الذين تركوا في عمل همذان ستين (أو مائة) ألف قتيل وهرب باقيهم الى بلاد الروم[1] ٠ ولا شك ان هؤلاء إنما هزموا لأن جمهرتهم في هذه الثورة كانت كجمهرتهم في الثورة السابقة سنة ١٦٧ قبل خمسين سنة من الطبقات الفقيرة والمحرومة التي أثارتها الآمال في مبادىء وثورة بابك ولكن انهزامهم أسهم لا في تضييق رقعة الثورة البابكية جغرافياً ولكن في التأثير المعنوي على أصحابها بضرب آمالهم في التوسع على مناطق ايران وما وراءها ٠ وكان ذلك هو خطوة النصر الأولى التي سجلها المعتصم ٠ ولم يكن السبب في قسوتها الدموية الشديدة قربها الجغرافي من بغداد بقدر ما كان حقد هذه العاصمة ورعبها من الثورة البابكية الاصلية ٠

ثانياً ــ اهتم المعتصم (أو الافشين) ببناء الحصون التي خربها بابك بين زنجان واردبيل وبذلك صار للعباسيين جبهة يتحصنون بها امام الخرمية ٠

ثالثاً ــ عين المعتصم لحربهم اعظم قواده : الافشين (حيدر بن كاوس) سنة ٢٢٠ هـ وكان الخليفة ــ على ما يظهر من مراقبة الاخبار ــ يشاركه في وضع الخطط بما عرف عن المعتصم من خبرة في الحرب لا

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٦٧ (١١٦٥/٣) و ٩ ص ٨ (١١٦٦/٣) وهو يذكر أن الأسرى وردت على المعتصم في السنة الثالثة وان القتلى كانوا نحوا مائة ألف عدا النساء والصبيان .

سيما في المناطق الجبلية . وسجل الافشين أول انتصار على بابك في معركة محدودة في تلك السنة نفسها سنة ٢٢٠ .

رابعاً ــ وجه الخليفة كل جهده وماله للحرب : قيل انه بعث للافشين سنة ٢٢٣هـ بثلاثين مليون درهم عطاء للجند والنفقات ، وكان يجزيه كل يوم يركب فيه عشرة الاف درهم ، وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة الاف ، عدا الارزاق والانزال والمعاون[١] .

خامساً ــ نظمت مواصلات الجيش : فكانت الميرة تصل آمنة الى الافشين في شعاب الجبال بانتظام . ورتب البريد اليه في خيل مضمرة ومحطات ، فكانت الرسائل تذهب فيما بين اذربيجان وسامراء في اربعة ايام . كما استعمل الحمام الزاجل لاول مرة ، في هذه الحرب[٢] .

سادساً ــ احكمت خطة القتال التي يفصلها الطبري في صفحات طويلة مثيرة[٣] : فقد أمر المعتصم بجعل الجيش فرقاً متناوبة : يعسكر بعضهم ويبقى الآخرون على ظهور الخيل ، مخافة البيات ويقام الخفراء على رؤوس الجبال ويلوحون بالاعلام السود إن شعروا بأمر مريب . ونظم التجسس على بابك فكان من نتائجه اغتيال طرخان أحد كبار القواد عند بابك في القرية التي يشتو فيها عند بلدة المراغة[٤] وإن لم يكن بابك اقل تنظيماً لجواسيسه واستخداماً لهم . وكان يرسلهم أحياناً

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٥٤ (٣/١٢٣٢ ــ٣) وص٢٩ (٣/١١٩٥) .
(٢) الطبري ج ٣ ص ٥٢ (٣/١٢٢٩) وانظر المسعودي ــ مروج الذهب ج ٤ ص ٥٦ .
(٣) انظر الطبري ج٩ ص ٢٣ وص ٢٩ ــ ٥١ (٣/١١٨٧ ــ ١٢٢٨) .
(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٨ (/١١٩٣ ــ ١١٩٤) .

للمرور بجيش الافشين حتى ليراهم المحاربون او يرسلهم ببعض الهدايا الى الأفشين نفسه لينظروا أمر معسكره وخنادقه ورجاله[1] .

ثم أن الافشين كان لا يمشي لخصمه الا في حـذر وبطء (فبعد معركة «ارتق» سنة ٢٢٠ هـ مشى الى بابك في «البذ» واقام على حصاره سنتين حتى ضج الناس) وكان الى هذا يحتفر الخنادق حول معسكره ، اذا عسكر ، ويبني الاسوار ويضع الكمناء ، وأخيرا زحف الافشين على عاصمة بابك بعد أن أسر ابنه ورفض أماناً بعثه اليـه المعتصم فأخذها الافشين في ١١ يوماً (٩ـ٢٠ رمضان ٢٢٢هـ ٢٦ آب ٨٣٧) ودمرت مع قصور بابك الأربعة فيها ولكن بابك نفسه تمكن من الهرب الى ارمينية فكتب الافشين الى بطارقتها بسد الطرق عليه . وقد سلمه احدهم (سهل ابن سنباط ) للافشين ( في ١٠ شوال سنة ٢٢٢ ـ ١٦ ايلول سـنة ٨٣٧) وكوفيء بمليون درهم ، ومنطقة ذهب مرصعة بالجوهر ، وبتاج البطرقة وبإسقاط الخراج عنه[2] .

ولما حمل بابك الى سامراء (في ٣ صفر سنة ٢٢٣ ـ٤ كانون الثاني سنة ٨٣٨) لم يصبر المعتصم عن معرفته ليلة وصل ، فزاره وزيره أحمد ابن أبي داؤد متنكراً ووصفه له ، فما اكتفى حتى جاءه بدوره[3] . وقتل بابك في اليوم الثاني وصلب ونجد لدى الطبري والمسعودي تفصيلا

---

(١) الطبري ج ٩ الصفحـات ١٣ ، ١٤ ، ٣١ ، ٣٣ (٣/الصفحـات ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٩٨ ـ ١٢٠٠ ـ ١٢٠١) .

(٢) الطبري ج٩ ص٥٤ (٣/١٢٣٢) وانظر المسعودي ـ مروج الذهب ج٤ ص٥٦ ويقول أبو زكريا الأزدي (تاريخ الموصل ص٤٢٥) إنه كوفي يلقب بطريق انطاكية . وترك له خراج عشرين سنة واعطي مليون درهم ..

(٣) الطبري ج٩ ص٥٢ (٣/١٢٢٩)

لخبر أسرة مع الوصف المسهب لحفل إدخاله على المعتصم ثم قتله وقتل أخيه في الوقت نفسه[1] .

وقد يكون من كمال صورة الثورة البابكيـة أن نضيف إليها في النهاية بعض الملاحظات :

١ ــ فقد خسر بابك فرصتين كان من الممكن أن تمنعا ثورته من الانهيار الأولى داخلية هي تلك الثورة الجنوبية التي قامت في أصبهان وهمذان سنة ٢١٨ وليس يبدو أن بابك اهتم باغتنام تلك الفرصة التي عرضت له فيدعمها بالتأييد والتنسيق . ولعل انهيارها السريع منعـه من ذلك . وأما الفرصة الثانية فخارجية ذلك أن بابك استنجد ، حين ضاق عليه الحصار ، بالروم «وكتب الى توفيل بن مخائيل يعلمه أن ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته عليه حتى وجه خياطه وطباخه ــ يعني القائد ايتاخ ــ ولم يبق على بابه أحد» وهكذا جاء الروم في مائة الف باتجاه ارمينية ودخلوا باتجاه أطرافها الغربية وفتحوا بلـدة زبطـرة فقتلوا رجالها وسبوا الذرارى والنساء وأحرقوا البلد ثم مضى الامبراطور من فوره إلى ملطية فأغار عليها وعلى حصون للمسلمين وسبا ألف امرأةومثل بمن وقع في يده سملا وجوعاً وصلماً .. ولكن هذه النجدة الضاغطة جاءت متأخرة عن موعدها لأن ثائر البد كان قد انهار وأسر فلم يفده ذلك شيئا بل حرض المعتصم على التحرك لفتح عمورية المشهور .

٢ ــ لم يلجأ بابك في ثورته الى الاعمال الانتقامية من المسلمين ، أسر وسجن الكثيرين بالآلاف وقتل بعض الزعماء ولكنه اصطنع مبادئه

---

(١) انظر الطبري ج٩ ص٥٢ــ٥٤ (١٢٢٩ــ١٢٣٢) والمسعودي مروج الذهب ج٤ ص٥٤ــ٥٦

الدينية في التسامح والرفق • ويذكر الطبري ان أسرى بابك من النساء والصبيان لهم حظيرة كبيرة واسكنوا فيها حين انهزم ••• فلما جيء به أسيراً إلى الأفشين ونظر الأسرى إليه «لطموا وجوههم وصاحوا وبكوا حتى ارتفعت اصواتهم فقال لهم الأفشين : انتم بالأمس تقولون أسرنا وانتم الآن تبكون عليه •عليكم لعنة الله •قالوا : كان يحسن الينا ••»(١)

٣ ــ ومن الطريف الذي يستوقف النظر أن بابك كان يسمي المسلمين «يهوداً» ويتحدث عنهم على هذا الأساس(١) اشترك في الحرب ضد بابك جماعة من المطوعة لعبوا دورهم الهام في المعركة الأخيرة ضد حصن البد بزعامة صاحبهم جعفر بن دينار المعروف بالخياط • ويلفت النظر في هؤلاء المطوعة أنهم كانوا من مطوعة البصرة لا غيرها • وقد وجهم المعتصم مدداً للأفشين فكانوا اكثر الجند حماسة للحرب واندفاعاً في طليعة الصفوف الى سور البد وأبوابها • وإذا تذكرنا أن ثورة الزط في البطائح والخرمية في أذربيجان وارمينية في وقت واحد وامتدادهما السنين الطويلة من مطالع القرن الثالث (منذ سنة ٢٠١ حتى سنة ٢١٨) قد يكون عطل المصالح التجارية للبصرة خاصة ؛ ادركنا أن نقمة هذه المدينة قد تكون اكثر من غيرها على هؤلاء الثائرين فلما انهارت حركة الزط سنة ٢١٩ ولم يبق سوى الخرمية كان أهل البصرة أحرى الناس بالنقمة الشديدة عليها وكان شكلها الإلحادي أحسن مبرر يدفع كل تقي للقيام بالجهاد ضدها •

٤ ــ كان تعاون بابك مع الروم تعاوناً غير متكافيء • فأقصي

---

(١) الطبري ج ٩ص٥٠(٣/١٢٢٧ــ١٢٢٨)

(٢) الطبري ج٩ الصفحات ٢٩و٥٠ (٣/١١٩٥و١٢٢٦) وتلك التسمية لم يكن المقصود منها الاهانة ولكنها نتيجة النظر الى الدين الاسلامي عنده كامتداد لليهودية .

ما قدمه الروم إليه هو الضغط العسكري السياسي على الجبهة العربية الاسلامية بينما كانت الخرمية تدخل ضمن القوى العسكرية البيزنطية • وجموع كثيرة من هؤلاء كانت تهرب من المناطق التي يحتلها الجيش العباسي لتلتحق بالروم وتدخل في قواهم العسكرية ويبدو أن الذي لعب دوره الواسع في هذا التقارب الواسع هو قائد رومي من أصل فارسي نشأ وتربى في القسطنطينية واشتهر باسمه اليوناني (تيوفوبوس) وقد جعله الامبراطور قائد هذه الجماعات اللاجئة لما يجمعه بها من رابطة الأصل واللغة • وقد كان قد أصهر الى الأسرة الامبراطورية وحظى عندها بمكانة أهله لأن يأخذ لقب البطريق ، وهي من أرفع رتب الجيش البيزنطي • وقد شعر الخرمية الهاربون بقوتهم الذاتية إذ أصبح عددهم على رأي بعض الروايات التاريخية ١٥ ألفاً فحاولوا تنصيب تيوفوب امبراطوراً فلم يستجب لهم وترتب على هذه المحاولة توزيعهم على ثغور الامبراطورية فرقاً متفرقة تعد كل واحدة منها الفين من المقاتلة • وقد كانوا بجانب الامبراطور في حملته على زبطرة ربيع سنة ٨٣٠ وكان لهم أثرهم في تدميرها[١] •

٥ ــ عاصرت حركة بابك حركة مماثلة لها في عدد من الوجوه قام بها أتباع بولس السميساطي في الاناضول • ولسنا نستطيع إثبات وجود صلة بين الحركتين إلا إن توافقهما الزمني قد تسمح بافتراض تقارب ممكن ــ كما يقول كاهن ــ منها في الظروف الاجتماعية والبيئة الفكرية مما يستحق البحث والاستقصاء[٢] •

---

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى

(٢) انظر كلود كاهن ــ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية (بالفرنسية) المجلد الأول (الترجمة العربية ــ بدر الدين القاسم ص١١٦)

٦ ـ وأخيرا فإن حركة بابك قد هزت دون شك من قوى الدولة العباسية وأضعفتها. وإذا كانت هزيمتها ترجع الى أخذها الطابع الايراني المحدود وحصرها في الجبال وتوجيه كل القوى العباسية من عسكرية ومالية ضدها وتخلى الارمن والكرد والعرب الناقمين، عنها في النهاية فإن هذه الهزيمة لم تستأصل الحركة . ولكنها أبقتها في حالة الكمون والانكماش بعد عملية التوسع الديناميكي البابكي . وقد بقي لها الكثير من الاتباع الذين عرفهم الجغرافيون والمؤرخون في القرن الرابع ثم في القرن الخامس . وأشاروا الى مواضعهم ومذاهبهم في الفكر والحياة وسموهم بالمحمرة . كما تناقلت القصص الشعبية الايرانية الكثيرة مآثر بابك عبر القرون .

ح ـ قضية طبرستان :

طبرستان هي تلك المنطقة الجبلية الممتدة جنوب قزوين ما بين جرجان واذربيجان وكانت ـ كما قال اليعقوبي ـ « بلداً منفردا له مملكة جليلة ولم يزل ملكه يسمى الاصبهبذ ... وهو بلد كثير الحصون منيع بالأودية كثير البرد سقيع نقيع ... وأهله أشراف العجم . أبناء ملوكهم وهم احسن قوم وجوهاً ...» وكان مقر امرائها بلدة سارية .. والبلد « كثير المياه والثمار والأشجار الجليلة العظيمة . والغالب عليها الغياض وكثرة الأشجار واكثر ابنيتها الخشب والقصب ... وسطوحهم مسنمة بالقراميد» . وفي البلد «يعمل الفرش الطبري والأكسية الطبرية » «وليس بجميع الأرض أكسية تبلغ قيمة أكسيتهم ومطارفهم ولديهم أصناف من الثياب الابريسم والأكسية الصوف العجيبة ..» « وخراج البلد أربعة آلاف ألف درهم ..»[1] .

---

(١) النصوص مزيج مأخوذ عن اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ وعن ابن حوقل ـ صورة الأرض ص٣٢٣ـ٣٢٤

وقضية طبرستان هي نموذج المشاكل المختلطة بين الصبغة الدينية والشكل السياسي فجذورها مشتركة بين الطرفين ووجهها الديني لا ينفصل عن وجهها السياسي والاقليمي وقد ورث المهدي هذه المشكلة عن عهد أبيه ولكنه كان هو نفسه بدوره أحد صانعيها والعاملين عليها أثناء ولايته للعهد وإقامته بالري (١٤٠ ــ ١٥١) • وإذا كانت سياسة المهدي القائمة على تأكيد «مهدويته» والاسراع في إسلام المناطق غير المسلمة من دولته مع تعصب أهل طبرستان لدينهم السابق والولاء لملوكهم المقهورين قد أدى كله إلى تهيئة الثورة ، إلا إن السبب المباشر فيها إنما كان تلك السياسة المالية العباسية التي أخذ بها الناس والي طبرستان عبد الحميد مضروب وجبى بها الضرائب اجتمعت على إقامة الثورة كل القوى المحلية في طبرستان : الأمراء والدهاقين والشعب على السواء • وقبل الأمير «وندا هرمز» أن يتزعم الحركة بعد أن عاهده الأمراء المحليون الآخرون ومنهم الاصبهبذ شيروين والمصحفان واش على التعاون معه فيها •••

وانفجرت الثورة سنة ١٦٤ ــ ٧٨٠ في مذبحة كان من ضحاياها الوالي عبد الحميد نفسه كما كان منهم كذلك النساء الايرانيات اللاتي تزوجن من العرب المسلمين مما يكشف مدى الحقد المحلي في الحركة التي استمرت سنتين على الأقل وكلفت الخلافة غالياً من الدماء والنفقات، والهزائم وقتل القواد (مثل سلم الفرغاني ، وفراشة مولى المهدي) قبل أن تهدأ بعض الهدوء تحت ضغط القوى العسكرية الاسلامية الكثيفة التي وصلت •

ثم عادت الثورة كرة أخرى أشد وأقوى سنة ١٦٧ ــ ٧٨٣ في جرجان وطبرستان فاضطر المهدي لأن يوجه جيشاً كثيفاً من الجند في جهاز لم يجهز ــ فيما ذكر أحد بمثله على حد قول الطبري وعهد به الى

ابنه ، وولي عهده الهادي وأرسل معه أقوى قواده: يزيد بن مزيد الشيباني . كما نظم له صاحب رسائله وديوان جنده وحجابته وحرسه وشرطه وجعل على كل وظيفة رجلا من ابرز رجال البلاط العباسي[1] واتبع الهادي طريقة تألف قلوب بعض الامراء المحليين من جهة والضرب العسكري العباسي من جهة أخرى وهكذا : استطاع مثلا أن يجمع حوله بعض الأمراء ويدخلهم في الاسلام مثل بهرام بن فيروز ولو كان اسلام هؤلاء هو الأسلام الظاهري الذي استهدف فيه الامراء حفظ نفوذهم السياسي في مقاطعاتهم مع عدم التفريط بالدين الأبيض ، دين النار والنور للدين الذي كانوا يدعونه بالأسود بسبب لون الملابس العباسية السوداء وفي الوقت نفسه قاد يزيد الشيباني معارك عنيفة ضد هرمز انتهت بحصاره وهزيمته في معركة حامية جرح فيها هو نفسه واشترط قبل أن يستسلم أن تبقى عليه مملكته في طبرستان ويتعهد بانهاء الثورة وحفظ الحاميات العباسية . ويؤدي الجزية السنوية ... كان ذلك في أواخر سنة ١٦٨ على ما يظهر في الوقت الذي علم فيه الهادي تحول ابيه عنه ورغبته في اعطاء ولاية العهد للرشيد فتلكأ في المسير الى بغداد أو في إرسال هرمز إليها فلما جاءه في مطلع السنة التالية موت ابيه واستخلافه كان (ونداد) ضمن موكبه الذي دخل به بغداد ...

ولكن حادثاً جرى في طبرستان أثار الهادي كل الإثارة هو مقتل بهرام فيروز الأمير الذي أسلم على يده وكان قاتله هو الأمير وندا سفران شقيق هرمز وكاد الهادي يقتل به هرمز لولا أن أقنعه هذا بأن غرض سفران من تلك الجريمة هو دفع الهادي الى قتله ليخلص له الملك .

---

(١) انظر اسماءهم لدى الطبري ج٨ ص١٦٤ (٥١٩/٣) .

ويبدو أن ما في نفس الهادي ضد أخيه الرشيد في ذلك الوقت جعله يقبل مثل هذا التعليل بل جعله اكثر من ذلك يقبل اقتراح هرمـز بأن يرسله الهادي الى طبرستان فيأتيه برأس أخيه القاتل ...

وسار هرمز بالفعل ولكنه لم يعد ... ولا أرسل رأس أخيه إذ ما كاد يصل بلاده حتى أوعز الى أخيه سفران بالاختفاء ، وتوفي الهادي وشيكاً فانتهت المشكلة التي لم يهتم بها الرشيد كثيراً لا سيما وقد تسلم أمور طبرستان وجبايتها ولاة أقوياء مع الحاميات في المـدن والسفوح الجبلية لم يعد ملوك المنطقة المحليون يشكلون عليهم خطراً كبيرا فأقروا في ممالكهم . وتسلم وندا هرمز عرشه ولما مات خلفه ابنه قارن .

وقد راض هؤلاء الملوك انفسهم على الانقياد لأي سلطة عباسية قائمة بدليل أنهم في فترة النزاع بين الأمين والمأمون قبلوا أوامر الأمين أولا مع أنهم أقرب للمأمون وقد مشى علي بن عيسى بن ماهان بجيش الأمين الى الري « .. فأنفذ الكتب الى ملوك الديلم وجبال طبرستان وما والاها من الملوك يعدهم الصلات والجوائز وأهدى إليهم التيجان والأسورة والسيوف المحلاة بالذهب وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان ويمنعوا من أراد الوصول الى طاهر ( بن الحسين والمأمون ) من المدد فأجابوه الى ذلك ...»[1] ولعلهم استغلوا الحرب الأخوية وما تلاها من اضطراب في انحاء الخلافة العباسية كلها فانقطوا عن الخضوع للمأمون ولعله لهذا السبب ولى المأمون على طبرستان عبـد الله بن خرداذبه . ويبدو أنه كان من تعليماته إخضاع هذه الممالك المحلية فإنه افتتح سنة ٢٠١ والمأمون مايزال في خراسان ، إمارة اللازر والشيرز من بلاد الديلم وأنزل شهريار بن شروين أسيراً من جبال طبرستان وأسر أبا ليلى ملك

---

(١) الطبري ج٨ ص٤٠٨ (٣/٨٢٠) .

الديلم بغير عهد كما أسر المازيار بن قارن بن وندا هرمز واشخصه إلــى المأمون ••• وأقر في المنطقة كلها على ما يبدو الحكم العباسي من جديد وقد تفاءل الناس بذلك الفتح ايما تفاؤل وقال الشاعر سلام الخاسر :

إنا لنأمل فتح الروم والصين     بمن أدال لنا من ملك شيرين !!

على أن بعض هؤلاء الملوك أعيدوا الى بلادهم بعــد أن استوثق الخليفة منهم على ما يظهر ونراهم في سنة ٢١٠ في طبرستان : فأما شهريار ابن شروين فيموت تلك السنة وأما المازيار بن قارن فينازع سابور بــن شهريار ملكه ثم يأسره ويقتله[1] • ويصبح المازيار الاصبهبذ الأوحد في الجبال كلها ••• حتى يثور سنة ٢٢٤ ويحارب الحاميــات العباسية في السفوح والأمصار الطبرية •

---

(١) يروى اليعقوبي (ج٢ ص٤٧٦) كيف قدم المازيار على المأمون فملكه على مدينتين من طبرستان فلما خرج لاستلامهما خرج عمه كأنــه يتلقاه مع أنه كان مغتاظاً كل الغيظ منه وكان مع المازيار مولى من مواليه قال له إن عمك لم يخرج في هذه الهيئة إلا ليفتك به واعطاه حربة يضعها بصدره حين ينفرد به فقتلعمهو استلم البلاد وكتب للمأمون ان عمــه كان مخالفا . .

# الفصل الرّابع

# العلاقات الخارجيّة

## ١ـ مَعَ الشرقِ وَمَعَ الرّوم

وطدت الدولة العباسية في هـذه الفترة (١٥٨ ـ ٢١٨) أوليتها العالمية بين دول الأرض سواء بوضعها الجغرافي الاستراتيجي الذيجعلها في المركز من هذه الدول جميعاً وعلى صلة مباشرة بها كلهـا عن طريق البر أو البحر ، أم بقوتها العسكرية التي لم تكن تعدلها قوة عـالمية أخرى ، أم بسعتها التي لم تكن تقاربها سوى امبراطورية الصين المعزولة في الطرف الأقصى من الشرق • ويمكن أن نلاحظ بوضوح في السياسة العباسية الخارجية ملاحظات خمساً :

أ ـ ممارسة العباسيين سياسة الدولة الأقوى دوماً • ومحاولاتهم سواء مع الدول الكبرى كالروم أو الصغيرة كبعض دول الترك فرض النفوذ بالقوة العسكرية • لا يلجأون الى غيرها إلا عند تعذر نجاحها على أنهم كانوا في الأحوال كلها يستخدمون الوسائل الدبلوماسية من سفراء ومكاتبات وفود بجانب استخدام الجيوش •

ب ـ جمعت في العهد العباسي الأول ونظمت وسجلت ، لأول مرة في التاريخ ، قواعد القانون الدولي على الأسـاس الاسلامـي • كان المسلمون منذ الفتح ينظمون ذلك حسب أوامر الدين ونصوص العهود والهدنة مع البلاد المفتوحة وكانت تلك القواعد تدخل في كتب الفقـه

الاسلامي ولكن الحاجة السياسية على ما يظهر جعلت الفقهاء يفردون لها كتباً خاصة سميت «بكتب السير» أي أحكام الجهاد والحرب والصلح والموادعة والأمان ومعاملة الأسرى ... وقد كتب في ذلك الامام الأوزاعي (المتوفي سنة ١٥٧) (كتاب السير) على أساس مذهبه الفقهي فرد عليه أبو يوسف قاضي قضاة الرشيد بكتاب (الرد على سير الأوزاعي) على اساس المذهب الحنفي ثم كتب محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي يوسف كتاب السير الصغير ثم أتبعه بكتاب السير الكبير الذي أضحى منهاج الدولة العباسية ، من الناحية النظرية الفقهية على الأقل في أحكام الجهاد والحرب والعلاقات الدولية المختلفة . كما كتب الامام زفر كتاباً ثالثاً في السير وضمن الامام الشافعي كتابه الأم دراسة السير أيضاً فكانت كلها أول توطيد منظم عرفه العالم للقانون الدولي .

وقد أشار فازيلييف إشارة عامة إلى هذا حين كتب انه « وجدت في حوادث الشرق الحربية في القرن التاسع وقائع وعادات تعد مكونة لما نسميه اليوم القانون الدولي ... »[1] .

حـ ـ استطاعت الدولة العباسية أن تسترد بسرعة وبجهود المنصور مركزها العالمي الذي سبق أن احتلته الدولة العربية الأموية وأن تفرض من جديد ماكان فرضه الأمويون زمن عبد الملك والوليد من «السلم» المرتبط بهم وعلى طريقتهم بين دار الاسلام ودار الحرب والذي يمكن أن نسميه ، بالسلم الاسلامي Pax Islamicus مقابل ما يسميه المؤرخون قديماً بالسلم الروماني . وقد تحقق هذا السلم العالمي على يد الدولة الاسلامية كرة أخرى في عهد المهدي ـ الرشيد خاصة فكان خلفاء بني العباس هم أسياده وضامنوه ومنظموه في العالم . وإذا كانت نتائجه

---

(١) فازيلييف ـ العرب والروم (الترجمة العربية) ص ١٨

السياسية قد ذهبت فإن نتائجه الثقافية والاقتصادية كانت هي الأبقى إذ لم يكن مجرد سيطرة سياسية ونفوذ عسكري تفرضهما القوة العباسية ولكنه ساعد لحد كبير على استقرار الدين الاسلامي وتوطد الثقافة العربية وآلاء الحضارة الاسلامية في آفاق جديدة كثيرة : في الهند خاصة وفي تركستان وما وراء النهر وارمينية وفي كريت وصقلية بل وفي الصين أيضاً . وفي ظل هذا السلم الاسلامي نفسه ارتبط العالم كله ولأول مرة بخطوط التبادل التجاري العالمية التي أمسك العرب المسلمون بزمامها ما بين أقصى المشرق وأقصى الغرب سواء عن طريق البحار الدافئة من جنوب شرقي آسيا أو طريق الجبال والصحارى العالية البرية عبر ممر زنجاريا مما جعل التاجر رمز الحضارة العربية وجعل بغداد سرة الدنيا .

ء ـ لم يكن العصر العباسي الأول عصر تجميد الفتوح أو توقيفها والمحافظة على المواقع . إن هذه الملاحظة التي قد يوحي بها الموقف العباسي على جبهة الروم لا تصح عند التعميم والواقع أن العباسيين الذين قد يكونون ثبتوا جبهة الأناضول عند مواقع معينة لم يفعلوا ذلك في المواقع الأخرى في الهند وفي تركستان خاصة . وكان انصرافهم الى الشرق والى قلب آسيا ناجحاً وهاماً وإن كان في الوقت نفسه سبباً في إهمالهم مناطق البحر المتوسط والمغرب وخسارتهم فيها .

هـ ـ امتزاج أمور العلاقات الخارجية في كثير من الأحيان وفي كثير من أقاليم الأطراف مع الثورات وحركات التمرد على الحدود سواء في الهند أو آسيا الوسطى أو أرمينية أو الأناضول أو افريقية . كانت هذه الثورات غالباً ما تتصل مع القوى الخارجية وراءها أو كانت مناسبات نشوبها غالباً ما تستغل من قبل تلك القوى .

و ــ لم ينجم عن العمليات العسكرية أو الدبلوماسية العباسية رغم كثرتها وقوتها في هذا العصر العباسي الذهبي أي توسع أرضي في مساحة الدولة بالقياس الى العهد الاموي • وما كسبه العباسيون من الأرض في آسيا الوسطى وبلاد الترك تركوا مقابله في افريقيا والمغرب • وانتهت فترة الاستقرار والتألق العباسي ، والدولة في الواقع أصغر رقعة مما كانت في عهد أبي العباس والمنصور •

في ضوء هذه الملاحظات العامة يمكن أن نقسم علاقات العباسيين الخارجية حسب الجهات الجغرافية الى قطاع الشرق وتشمل المشرق كله بما في ذلك الروم وقطاع الغرب وتشمل البحر الأبيض المتوسط وما وراءه حتى بلاد الاندلس والفرنجة •

ونقسم قطاع الشرق إلى جبهتين جبهة المشرق والشمال ثم جبهة الروم •

**١ ــ العلاقات مع الشرق والشمال ( قطاع الهند،الصين، تركستان الخزر ) :**

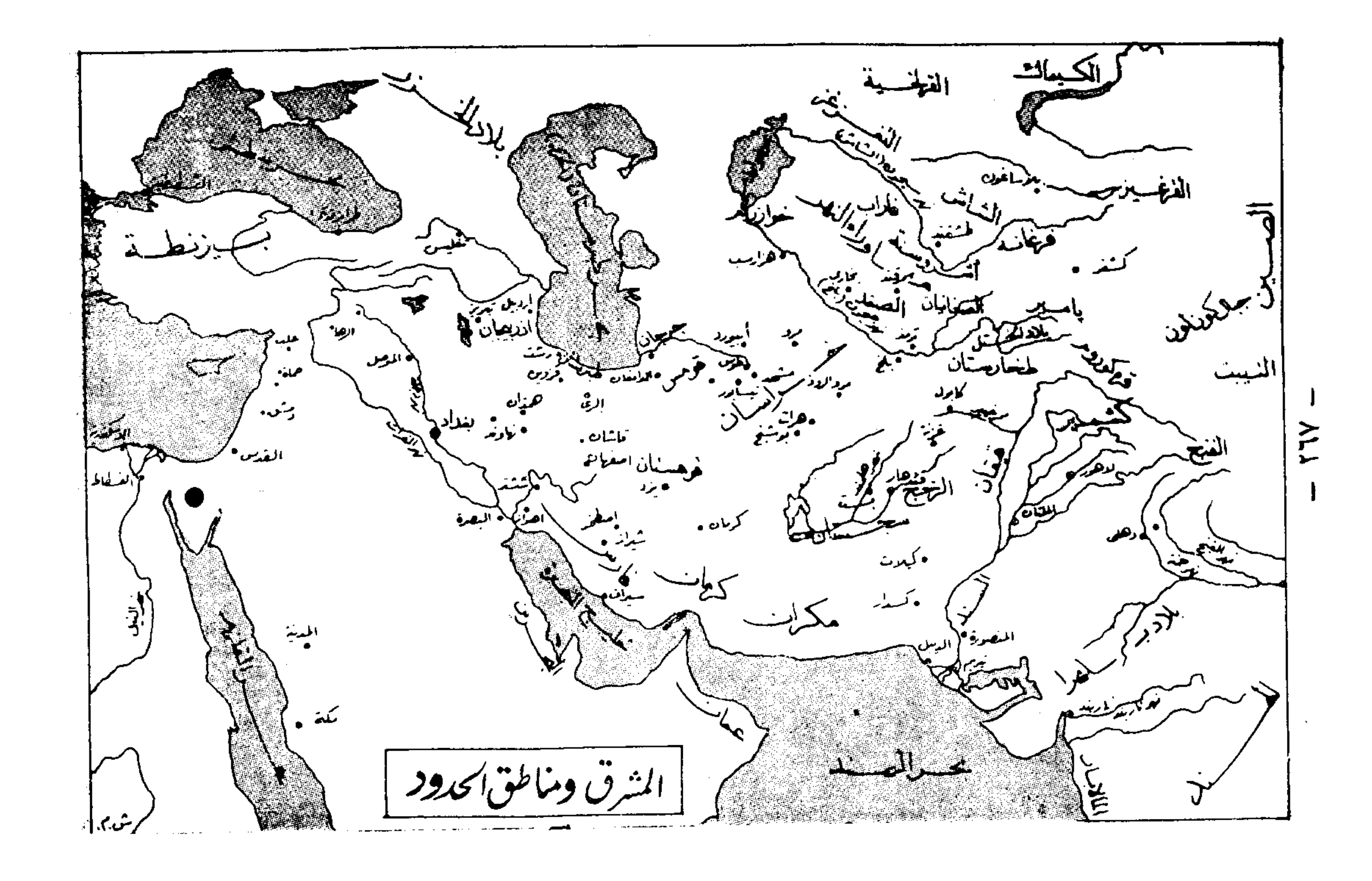
تبدو المصادر شحيحة كل الشح في ذكر العلاقات العباسية الخارجية عامة مع هذه الأمم ولا سيما مع الهند والصين • وأوضح ماهو معروف منها :

أولا : فيما يتعلق بالهند مثلا : أن المهدي تابع سياسه أبيه المنصور في منطقة السند وقد تحركت جماعات الزط هناك تؤيدهم دون شك الممالك الهندية وراءهم فهاجموا الحاميات الاسلامية في مواقعها المتقدمة على حوض نهر السند الأدنى حيث تقوم المنصورية على دلتا النهروبدل

المهدي اكثر من ثمانية ولاة على تلك المنطقة[1] وكانت عنايتـه موجهة خاصة الى نشر الاسلام . وبينما صادفت هذه العناية الكثير من التوفيق كان السلطان العباسي على الحدود يضعف لأن القـوى العباسية على الحدود وقعت ضحية النزاع القبلي القيسي اليماني الذي أخـذ يظهر بشكله الشرس هناك بين المتوطنين العرب . وكان انشغال الولاة بالقضاء على هذه الفتن سبباً في تحرك الأمراء الهنادكة على الحدود واستعادتهم الأراضي والبلاد التي خسروها وضمها إلى إماراتهم وانحسـار التوسع الأقليمي الذي حققه هشام التغلبي كما كان سبباً في تحـرك الجماعات الهندية بتحريض من تلك الامارات دون شك ، للثورة على المسلمين . يدل على ذلك أن تلك الجموع السندية من قبائل الميد والزط (الجات) التي هاجر الكثير من أعدادها الى منطقة الأهواز والبصرة منذ ما قبل الاسلام والتي انضم بعضها للجيش الاسلامي في فتوحه حوالي سنة٩٠هـ ـ ٧٠٨ م بسبب ماكانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومات البرهمية باعتبارهم منبوذين محرم عليهم ركوب الدواب أو ارتداء غالي الثياب أو أن يمتهنوا من الحرف إلا أحقرها ، هؤلاء أنفسهم تحركوا ضد الوالي

---

(١) استعمل المهدي على السند : روح بن حاتم المهلبي فقدمهـا والزط قد تحركوا بها . فلم يقم إلا يسيرا . وولى نصر بن محمد بـن الأشعث الخزاعي . ثم ضمت السند الى محمد بن سليمان بن عليالهاشمي ثم استعمل عليها عبد الملك بن شهاب المسمعي (أقل من عشرين يوما) وردت السند الى نصر بن محمد الخزاعي ثم استعمل المهدي عليها الزبير بـن العباس ولم يبلغ البلد فاستعمل فصيح بن عمرو التغلبي وكانت العصبية بالسند أول ما وقعت فاستعمل الليث بن طريف مولاه فقدم المنصورة فأقام بها شهرا والزط قد كثروا فجرد عليهم السـيف وافناهم .. ( اليعقوبي ج٢ ص٣٩٨) .



المشرق ومناطق الحدود
بحر الهند
مكران
كرمان
خراسان
بيزنطة
الكيماك
القرلخية
الفرغيز
الصين
التبت
كشمير
طخارستان
فرغانة
الشاش
خوارزم
بغداد
البصرة
القدس
المدينة
مكة
الرى
قاشان
كرمان
سيراف
كابول
المنصورة
الديبل
المولتان
بلخ
عمان

الاسلامي مما دعا المهدي الى تهيئة حملة بحرية تأديبية الى تلك الحدود •
ويبدو أن هؤلاء الزط مع بعض القوى الهندية الأخرى كانوا يشكلون
قوات للقرصنة كان تهدد خطوط التجارة العربية أيضاً • بعد ان كانوا
في عهد المنصور يهددون البصرة نفسها ويهاجمونها • وهكذا ارسل
المهدي الى البصرة برجل من رجاله هو محرز بن ابراهيم ليشرف هناك
على إعداد اسطول بحري يقمع التجاوز الهندي على الأطراف الاسلامية
وعلى البحر العربي المحيط • ويبدو أن بؤرة ذلك التجاوز وتلك القرصنة
كانت بلدة ناربد لأن الحملة التي أعدت في البصرة اتجهت رأساً إليها •
وكانت الحملة من القوة وكثرة المقاتلين بحيث توحي بأهمية ما عهد به
إليها من المهام • اجتمع للحملة عشرة آلاف مقاتل • وجههم المهدي في
البحر بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي • وقد فرض فيها لألفين من
أهل البصرة من الأجناد جعل على قيادتهم غسان بن عبد الملك نفسه
وأرسل ألفاً آخرين من مطوعة أهل البصرة بأموالهم يقودهم المنذر بن
محمد الجارودي ووجود هذه الجماعة البصرية الواسعة ولا سيما من
المطوعة بأموالهم في الحملة حتى أضحوا يشكلون ثلثها يكشف في الواقع
الدوافع الاقتصادية ـ التجارية الكامنة وراءها • وقد أشخص المهدي
معهم ١٥٠٠ من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات وعليهم عبدالواحد
ابن عبد الملك • و ٧٠٠ من مقاتلة أهل الشام (وهو أمر جديد في السياسة
العباسية كان بدأه المنصور باستخدام مجاهدة الشام في الحرب ضد
الروم) يقودهم يزيد بن الحباب المذحجي وأضاف الى كل أولئك أربعة
آلاف من الاسواريين والسيابجة وهم من الجماعات الهندية التي تجمعت
قبل العهد الاسلامي وأثناءه في جنوب العراق (ومنهم الزط) •

ونزلت الحملة سنة ١٦٠ مدينة ناربد فضربت عليها الحصار في

اليوم الثاني لنزولها • ونصبت عليها المجانيق وجميع الآلـة • وكانت الهجمة مفاجئة لدرجة أن المدينة سقطت عنـوة في يومين ودخلت خيل المسلمين عليها من كل ناحية والتجأ أهلها الى معبدهم البد • فأشعلت فيه النيران والنفط حتى احترق بمن فيه وأبيدت المقاومة تمامـاً • وكانت خسائر المسلمين بضعة وعشرين رجلا • ولكن خاتمة هذه الحملة لم تكن كأولها في النجاح إذ أصاب أفرادها بعض الوباء في الأفواه فمات نحو من ألف رجل منها • وهاج البحر ــ بسبب الرياح الموسمية دون شك ــ فأقامت الحملة حتى هدأ ثم أبحرت الـى بعض سواحـل فارس (بحر حمران) فعادت الأنواء فعصفت بالمراكب ليلا فكسرتها وغرق من غرق ونجا الباقون حتى قدموا والي البصرة ببعض الغنائم والسبي • ومن هذا السبي بنت ملك ناربد[1] ••• ولم تبق الحملة في الهند سوى عشرين يومـاً •

أما حركة الزط نفسها فكان يكفي أن يذهب الليث بن طريف مولى المهدي الى المنصورة في السند ليقضي على جموعهم في شهر واحد • ولما تكررت حركتهم سنة ١٦٥ بعث المهدي بجيش من البصرة الى الليث أنهى تلك الحركة • ويبدو أن هذا الوالي ظل في السـند سنين طويلة استطاع فيها بالشدة والقوة أن يقضي على تعصبات القبائل العربية من جهة وعلى اطماع الإمارات المجاورة من جهة أخرى • غير أن هذه الولاية أضحت عبئاً على الدولة اعتباراً من سنة ١٧٠ بدلا من أن تكون درع

(١) انظر اليعقوبي ج٢ ص٣٩٨ والطبري ج٨ ص ١١٦–١١٧ ثم ص ١٢٨ (٣/٤٦٠–١ ثم ص ٤٧٦) .

الحدوذ فقد توالى عليها عشرة ولاة على الأقل[1] قبل أن تؤول الى داوود بن يزيد بن حاتم المهلبي سنة ١٨٤ الذي أوفد لحكمها أخاه المغيرة ابن يزيد نائباً عنه على العادة التي بدأت تتفشى في تلك الفترة لدى كبار رجال الدولة ـ وإذا بالقبائل العربية في السند تطالب المغيرة بقسمة البلاد بين أحيائها الثلاثة لأن العصبية النزارية اليمنية كانت قد مزقت العرب هناك بين قريش وربيعة وقيس . ولم يستطع المغيرة السيطرة على الموقف إلا بعد أن وصلته النجدات وجاء داوود نفسه من بغداد فحاصر المنصورة عشرين يوماً استسلم بعدها الثائرون ... ثم لم يزل يحارب بقية المواقع الثائرة عدة شهور ويفتحها في سائر مدن السند ويخرب ويقتل حتى استقامت له البلاد ، على مضض وإنهاك ...

ولم تحاول الإمارات الهندية ـ فيما يظهر ـ أو لم تستطع استغلال هذه الفرصة لأنها كانت منذ زمن بعيد قد تآلفت مع الواقع القائم ورضيت التعايش مع الحكم الاسلامي في السند ، الذي كان يتحول الى نوع من الولاية الوراثية مكرراً في المشرق القصة نفسها التي كانت تتم

---

(١) يعطينا اليعقوبي قائمة طويلة باسماء الولاة الذين تعاقبوا على السند ايام الرشيد : ( كان عليها منذ عهد المهدي الليث مولى المنصور ثم استعمل الرشيد سالماً اليونسي مكانه ، ثم اسحق بن سليمان الهاشمي ثم طيفور بن عبد الله بن منصور الحميري وفي عهده بدات العصبية اليمانية النزارية . ثم جابر بن الأشعث الطائي . ثم سعيد بن سلم بن قتيبة الذي وجه اخاه كثير بن سلم فأساء السيرة . ثم عيسى بن جعفر ابن المنصور فبعث إليها محمداً بن عدي الثعلبي الذي ضرب القبائل ببعضها وخرج من المنصورة يريد الملتان فلقيه اهلها فقاتلوه وهزموه ونهبوا مامعه من السلاح . وفر مهزوماً حتى صار الى المنصورة . فولى الرشيد عبد الرحمن .. ثم ولى أيوب بن جعفر بن سليمان ثم ولى داوود بن يزيد المهلبي بسنة١٨٤ .. ) ( انظر اليعقوبي ج٢ ص٤٠٩) .

في الوقت نفسه في افريقيا والمغرب وعلى أيدي رجال من بني المهلب ثم من غيرهم (كالأغالبة) .

فقد ولي داوود بن يزيد السند عشرين سنة ثم ورثها عنه ابنه بشر في خلافة المأمون ولم ينزع عنها إلا لأنه «عصى وخالف»[1] فوجه إليه المأمون غسان بن عباد من أهل سواد الكوفة فجاء به بالامان الى بغداد وأخذ الولاية بعد ذلك موسى بن يحيى البرمكي حتى مات سنة ٢٢١ فورثها من بعده ابنه عمران ...

ولا تسجل هذه الفترة منذ أيام المهدي حتى أيام المعتصم من عمل عدائي على الحدود الهندية سوى ماكان من أمر الملك المدعو باله والذي يصفة البلاذري بأنه « ملك الشرقي » ويبدو أن أمراء الامارات الهندية كانوا قد اعتادوا الحضور بعسكرهم لتقديم الولاء والمعونة العسكرية للولاة المسلمين . يقول البلاذري «... وكان باله هذا (قد) التوى على غسان (بن عباد) وكتب إليه في حضور عسكره فيمن حضره من الملوك فأبى ذلك» فلما ولي الأمر موسى البرمكي قبض على هذا الملك وقتله بعد أن بذل له خمس مائة ألف درهم على أن يستبقيه فأبى[2]...

وثمة عمل آخر قام به مولى من موالي أسرة عربية في الهند اسمه الفضل بن ماهان مولي بني سامة فقد استطاع افتتاح منطقة هندية ساحلية اسمها سندان وغلب عليها أيام المأمون وبعث إليه بفيل ، وكاتبه وبذل الولاء ودعا له في مسجد جامع بناه في تلك المنطقة التي قد يكون جعل منها مرفأ تجارياً للتجارة الاسلامية . ثم مات الفضل بن ماهانفورثه

---

(١) البلاذري - فتوح ص ٥٤٤

(٢) المصدر ذاته .

على الامارة ابن له اسمه محمد استطاع ان يقوم مقام ابيه وقد أقـام لنفسه اسطولا في البحر من سبعين بارجة ومشى به إلى «ميد» الهند فقتل منهم خلقاً كثيراً وافتتح مدينة اسمها فالي ... ولعل السبب في هذه الاعمال التأديبية هو المنافسة التجارية والقرصنة[1] .. ولكنه حين عاد الى سندان وجد أخاه ماهان بن الفضل قد غلب على البلد وقد كاتب الخليفة المعتصم . وأهدى إليه ساجاً لم ير مثله عظماً وطولا الهند (وهم الشعب والجيش دون شك) في أمر أخيه المتغلب فمالـوا على (الفضل) فقتلوه وصلبوه ...

لكن قصة هذه الإمارة انتهت بسرعة بعد ذلك اذ استردها الأمراء الهنود وغلبوا على سندان[2] ولكنهم لـم يمسوا المسجد والجاليـة الاسلامية ... تركوه للمسلمين يجتمعون فيه ويدعون للخليفة ، الذي كانت سمعته دون شك هي التي حمتهم ...

وعلى أي حال فإن علاقات أخرى من الود والتسامح والتعاون في المصالح كانت تسود شيئا فشيئا منذ عهد الرشيد بين المسلمين والهند . وإذا لم يظهر هذا بشكل واضح مع الإمارات الشمالية إلا متأخراً مع توقف التوسع الاقليمي العربي فإنه على مايبدو قد ظهر مبكرا مع مملكة الدكن وساحل الملبار ومملكة سرنديب حيث تسود العلاقات المصالح التجارية المتبادلة والتعاون السلمي .

---

(٣) يـذكر المسـعودي ( مروج ) « ولهـم ( أي للميـد بـوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى ارض الهند والصـين وجدة والقلزم وغيرها كالشواني في بحر الروم .. » .
البلاذري ـ فتوح ص ٥٤٥

والباحثون يذكرون أن ساحل الملبار ومملكة الدكن في ظل أسرة راشتراكوتا في القرن الثامن الميلادي (الثاني ـ الثالث الهجري) قامت بينها وبين العرب علاقات اقتصادية قوية وكان تجارهم يفدون إلى بلاد الدكن فيقابلون بالحفاوة والترحيب[1] • وكانوا يأخذون منها خشب الساج لبناء السفن كما يتمتعون فيها بالحرية الدينية وينشئون الجاليات المقيمة ولا سيما في ميناء «كولم تلي» •

ونسمع الأصداء المقابلة لهذه العلاقات لدى المسلمين في بعض القصص العربي أو الأخبار ذات الطابع الأدبي • ويروي ابن عبد ربه في العقد الفريد[2] خبر قدوم وفد على الرشيد يحمل إليه الهدايا من أحد ملوك الهند وأن الخليفة لم تعجبه منه إلا الكلاب السيورية أما بقية الهدايا فكانت عادية في نظره • وقد أمر بحسن وفادة السفراء وحسن جائزتهم • ولقد يضعف من الرواية أن نرى فيها الرشيد يأمر الأتراك في حرسه فيصطفوا صفين لاستقبال الوفد ولم يكن اصطناع الاتراك شائعاً في عصره •

على أن العلاقة القوية الواضحة تماماً هي العلاقة الحضارية فبالإضافة إلى وجود عدد من أهل السند والهند بين كبار رجال الدولة العباسية مثل: السندي بن شاهك مولى المنصور وصاحب شرطة الرشيد (وهو الذي قتل جعفر البرمكي) ثم ابنه ابراهيم وكان من كبار القضاة ، والسندي ابن يحيى الحرشي حاكم اليمامة والبحرين وعمان وغيرهم فإن الرشيد بعد المنصور استدعى الأطباء من الهند بعد أن شفاه الطبيب الهندي منكه

---

(1) انظر كتاب
Ishwari Prasada , History of Medieval India (Allahabad 1925) PP 30, 31

(2) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج٢ ص٢٠٣

من مرضه[1] وقد أورد ابن أبي أصيبعة ثبتاً بأسماء الأطبـــاء والصيادلة الهنود الذي نزحوا الى بغداد بعلومهم وكتبهم ••• ونقلت عن الهند في هذا العصر العباسي نفسه بعض كتب الفلك (السند هند) والحساب وبعض الفلسفة والأدب •

وقد سجل ابن المرتضـــى اليمني خبراً رواه في صورتين مؤداهما واحد وهو أن ملك الهند أرسل يطلب من الرشيد عالماً مسلماً لمناظرة علمائه في الدين وكان الرشيد قد منع الكلام وحبس أهله فأرسل إليه محدثاً فخسر المناظرة وكتب ملك الهند بذلك الى بغداد فغضب الرشيد وقال : أما لهذا الدين من يدافع عنه وأتوه بعلماء الكلام واستطاع صبي منهم أن يجيب على المسألة التي فاتت المحدث فوجهه أو وجه عالماً آخر الى الهند ••• لكن الفيلسوف الهندي حين علم أن القادم من المتكلمين دس إليه من سمه •••

والقصة لو أنهـــا تروى لدعم موقف المتكلمين إلا إنها من ناحية أخرى قد تكشف وجود العلاقة الكلامية الجدلية بين فلاســـفة الهند ومتكلمي الاسلام في تلك الفترة وأنهم كانوا يتناقشـــون وأن بعض المسلمين كانوا يستدعون من العراق بعض الرجال خاصـــة للمناظرة والدعوة للاسلام[2] !

ومن الهام أن نسجل أن هذا التأثير الحضـــاري لم يكن وحيد الطرف ، ومن جانب واحد فمقابل ما أخذه العرب عن الهند من المعطيات الحضارية تأثرت الهند نفسها في دياناتها خاصة بالاســـلام لا عن طريق

---

(١) انظر خبر هـــذا الطبيب وقدومـــه في الطـــبري ج٨ ص٣٥٢ (٣/٧٤٧ـ٧٤٨)

(٢) انظر ابن المرتضى طبقات المعتزلة ص٥٤ـ٥٥ وص٥٨ـ٥٩

دخول الكثيرين من حوض السند في الدين ولكن أيضاً في إصلاح الديانة الهندوكية فتحت تأثير الاسلام والفتوح الاسلامية والتجارب الفكرية والصوفية الاسلامية ظهر لهذه الديانة مصلحون ومجددون أدخلوا بعض أفكار الاسلام إليها ومن أبرز هؤلاء سانكارا Sancara (٧٨٨ ـ ٨٢٠) الذي أعاد تصميم الديانة الهندوكية على ضوء التصوف الاسلامي الناشيء إذ ذاك وسميت حركته ألفيداتية ، ومثلها حركة البهاكتية الدرافيدية التي تأثرت بالتوحد الاسلامي .

ثانياً : وعلاقات العباسيين بالصين لم تتحرك في الناحية السياسية على الأقل خطوات هامة خلال عصر الرشيد . أباطرة الصين استمروا على سياستهم الانكماشية فيما يظهر فترة طويلة ، أفادت الدولة العباسية والمسلمين في توطيد النفوذ العباسي والتبشير بالاسلام في مناطق تركستان وإثبات الحضارة العربية هناك وأما عن الطريق البحرية الممتدة من البصرة الى الصين فإن المقاطعة الاقتصادية التي فرضها الصينيون بعد نهب كانتون وتدميرها على الأجانب استمرت فترة تزيد على ثلث قرن ولم تفتح للتجارة من جديد إلا سنة ٧٩٢ (سنة ١٧٥) في ظل عهد الرشيد .

وليس من شك في أن الحركة البحرية التجارية لم تنقطع عبر المحيط الهندي مع الصين خلال فترة المقاطعة ولكنها كانت تجري بالواسطة ، وبشكل غير مباشر وكانت مراكب الصين تأتي بالبضائع للمبادلة حتى مضيق سنغافورة حيث توافيها المراكب الاسلامية وغيرها . ويظهر من بعض الأخبار الصينية أن عدة محاولات قد بذلت لإعادة فتح

---

(١) جورج فضلو حوراني ـ العرب والملاحة ص ٢٠٠

ميناء كانتون المغلق للأجانب من التجار . وتتحدث تلك الأخبار عن وفود وسفارات ترددت ما بين أباطرة تانغ وبني العباس . ولا تشير المصادر العربية أبداً الى شيء من تلك الوفود ولكن المصادر الصينية هي التي تذكر ثلاثة وفود على الأقل - أرسلها (هان - مي - مو - ميني) أي أمير المؤمنين (آلون) أي هارون الرشيد الى الصين . وقد وصل سنة ٧٩٨ - ١٨٣[1] .

ولقد يكون بعض هذه الوفود وفود تجار ليس لهم المعنى السياسي وهم يحملون الهدايا الى بلاط الامبراطور ابن السماء لعله يفتح لهم أبواب التجارة المغلقة أو يفتح لهم مواني جديدة أخرى ، ولعلهم يوطدون بتلك الصلات ، وباسم الدولة الاسلامية الكبرى ، مراكزهم التجارية ويؤمنون على أموالهم وأرواحهم هناك لكن من المحتمل أيضاً أن يكون بعضها وفوداً سياسية أو سفارات رسمية قامت بتلك المهمة لمصلحة التجارة المتبادلة وقضايا الحدود التركية .

وعلى أي حال فما كاد ميناء كانتون يفتح من جديد للتجار المسلمين حتى تكاثرت أعدادهم هناك تكاثراً واضحاً سريعاً . ولا شك ان الامبراطور الصيني قد أخذ بعين الاعتبار كثرتها من جهة والدولة العربية العظمى التي تنتمي إليها حين أفرد لها مكاناً خاصاً من المدينة وأمر فعين لها قاضياً مسلما وإماماً للصلاة كما سمح لها ببناء المساجد ... وهي امتيازات تكشف ، بجانب الأهمية التجارية ، المكانة السياسية التي أخذتها

---

(١) درست هذه العلاقات من قبل بعض الباحثين ومنهم الالماني برتشنايدر في كتابه بحوث في العصور الوسطى ج١ ص٢٦٤ فمابعد (انظر الدوري - العصر العباسي الاول) .

الجماعات التجاريــة الاسلامية هناك في تلك الفترة[1]. وقد بلغ من اعتداد هذه الجماعات بنفسها وبمكانتها حد الزعــم بأن سعد بن أبي وقاص مدفون لديها هناك ! ... وقد يكشف عن كثرة عدد هذه الجالية وعن كثافة العلاقات التجارية التي كانت تقوم بين الصين والبلاد الاسلامية أن كارثة الهجوم الثوري على مدينة خانفو (كانتون) سنة ٢٦٤ ــ ٨٧٨ ذبح فيها من الأجانب المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وحدهم مايزيد على ١٢٠ ألف نسمة !

ثالثاً : أما علاقات العباسيين مع الترك فقد ورث المهدي الجبهــة التركية والمنطقة الخراسانية المقابلة لها هادئتين . كانت آخر الحركات في خراسان قد تلاشت منذ سنة ١٥١ . فقد ثار فيها سنة ١٥٠ أستاذسيز وشملت ثورته جميع أنحائها حتى منطقة سجستان وهراة ثــم سحقت الثورة في السنة التالية . واستغل الخوارج تلك المناسبة فتحركوا في سجستان ويبدو ان المنطقة الشرقية منها كانت تتمتــع باستقلال ذاتي وعليها أمير منها يدعى رتبيل فأعانتهم أيضاً فأرسل المنصور سنة ١٥١ إليهم قائده معن بن زائدة الشيباني فاستطاع إعادة النظام إلى الاقليم كله في

---

(١) يرجع أول مسجد شيد في الصين (مسجد سنغ غنفر) إذا صدقنا نقشاً حجرياً فيه الى السنة الأولى من حكم الامبراطور تعين باو أي الى سنة ٧٤٢ ( وهي السنة الاخيرة من عهد هشام بن عبد الملك ) قبل قيام الدولة العباسية بثماني سنوات ولعل النقش كتب في وقت متأخر ولعل بناء المسجد يرجع الى مابعد ذلك بقرن أو بعض القرن . (راجع دائــرة المعارف الاسلامية ــ مادة الصين ) وأول صيني ــ تركي شهدته عاصمة الخلافة الاسلامية كان يبغو الذي وصل دمشق سنة ٩١/٧١٠ وبقــى فيها حتى مات الوليد بن عبد الملك . والطبري يدعوه جبغويه (الطبري ج٦ ص٤٥٩/٢ــ١٢٢٤) .

أشهر معدودة ولكن بالطغيان الاداري والظلم المالي وأعاد إلى الولاء الإرغامي ملك سجستان الشرقية : رتبيل ثم دفع حياته ثمناً لتلك التهدئة الإرهابية إذ اغتيل في ظروف غامضة • على أن المنطقة عرفت على أي حال بعض السنوات الهادئة حتى جاء عهد المهدي •

وسرعان ما تفجرت المنطقة كلها من جديد : ثار المقنع سنة ١٥٩ وارثاً ثورة استاذسيز المسحوقة في خراسان وثــار يوسف البرم وارثاً ثورة الخوارج في سجستان • ويبدو أن ملوك الشرق التركي قد استغلوا المناسبة لمعونة الثوار ولعل بعضهم أسرف في ذلك فتحرك للثورة أيضاً مثل بلاد السغد وفرغانة وفي الوقت الذي كان المهدي يحارب فيه البرم في سجستان والمقنع في خراسان أرسل قائده أحمد بن أسد الى فرغانة حتى دخل كاشان ، المدينة التي ينزلها الملك[1] فأقر النفوذ العباسي فيها فلما سحقت في وقت متقارب ثورة سجستان سنة ١٦٢ وثورة المقنع سنة ١٦٢ أو سنة ١٦٣ عاد ملوك المناطق التركية المجاورة إلى تقديم الولاء مرغمين لدولة المهدي • وقد عبر اليعقوبي عن ذلك الموقف حين لخص في نص مقتضب علاقات المهدي بملوك الشرق كافة وخضوعهم له • وهو خضوع انقياد ربما كان من أسبابه انتصاراته القويــة على الروم وقوة وجوده العسكري في مناطق ما وراء النهر • يقول : «إن المهدي أرسل رسولا الى الملوك يدعوهم إلى طاعته فأجاب اكثرهم الــى الدعوة» • ومن جملتهم :

ــ ملك كابل شاه ويقال له حنحل (وكابول هي عاصمة الأفغان الحاليــة) •

---

(١) الطبري ج٧ ص٤٦٣ــ٤٦٤ (٣/٧٩ــ٨٠) .

ـ وملك طبرستان الاصبهذ وهو وندا (أو بنداد أو وندداد) هرمز

ـ وملك الصغد الأخشيد ( وهو لقب والصغد مجموعة تركية ) •

ـ وملك طخارستان شروين[1] ( وهو اسم الملك ) •

ـ وملك باميان الشير (وباميان منطقة في غرب كابول) •

ـ وملك فرغانة فرنزان (وفرغانة منطقة تركية على الحوض الأعلى من نهر سيحون) •

ـ وملك اسروشنة الأفشين (واسروشنة منطقة تركية على الحوض الأوسط من سيحون) •

ـ وملك الخرلخية جيفويه (والخزلخية أو القارلوق حلوا محل التركش على الحوض الأدنى من سيحون • وأما جيفونه فهي تحريف في الكتب العربية للقب بيفو ويعني الملك عندهم ) •

ـ وملك سجستان : رتبيل (في أقصى شرقي ايران) •

ـ وملك الترك : طرخان (وهو لقب) •

وملك التبت : جهورن •

ـ وملك السند : الراي •

ـ وملك الصين : بغبور (وهو لقب ويعني ابن السماء تعين‌تزو) •

ـ وملك الهند : وابراج ، وهوفور •

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص

(٢) قد يكون المقصود لدى اليعقوبي هو شروين الملك الذي عرفناه في هذه الفترة في طبرستان وفي هذه الحالة فقد يكون اسم طخارسنان مصحفاً عن سرخاستان أما إذا كان المقصود منطقة طخارستان وهي جزء من الأفغان الحالية فيكون شروين هذا ملكاً آخر غير الذي مر معنا في طبرستـــان .

ـ وملك التغزغز : خاقان[1] (والتغزغز) هي قبيلة السلاجقة فيما بعد ) • وواضح أن هؤلاء الملوك إن كاف بعضهم من الحكام المحليين قد قدم الطاعة للمهدي فإن الآخرين كملك الصين والسند والهند لم يعتبروا الرسول اكثر من ساع لإقامة العلاقات الطيبة • ولكن إرساله من قبل المهدي يعبر عن رغبته في إتمام الهالة « المهدوية » التي اصطنعها له أبوه من قبل ليجعل منه مهدي العالم •

وجاء الهادي فولى في خراسان خاله : الغطريف بن عطاء[2]، «••• وكانت هادئة الأمور ساكنة والملوك في الطاعة فظهر منه أمور قبيحة وضعف شديد فاضطربت البلاد وتحرك جماعة من الطالبيين وصاروا الى ملوك النواحي (الأتراك والايرانيون) فقبلوهم ووعدوهم بالنصر والمعونة •••»[3] على أن هذا الحلف الطالبي ـ التركي الايراني لم ينجح لمطاردة الهادي للعلويين بشدة ولأنه توفي بسرعة •

ولم يتحرك ملوك الترك في السنوات الأولى من عهد الرشيد لكنا نجد تحرك التغزغز في الطالقان (على الحوض الأسفل من نهر سيحون) حوالي سنة ١٧٧ فأرسل الرشيد إلى خراسان بالفضل بن يحيى البرمكي «••• وقد زحف صاحب الترك في خلق عظيم ولقي عسكر الفضل

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص٣٩٧

(٢) كان الغطريف وهو اخو الخيزران « غلاماً لرجل من اهل جرش (في الأردن) فأعتقه وكان يؤاجر نفسه بنظر الكروم فبعث (المهدي) الى عامله على جرش في حمله فوجده في كرم وعليه جبة صوف فكساه وحياه وحمله الى المهدي فرفع منزله » ثم ولاه على اليمن ثم على خراسان ( انظر اليعقوبي ج٢ ص٣٩٩) •

(٣) اليعقوبي ج٢ ص٤٠٤

والتحمت بينهما الحرب ...» ويبدو أن الفضل سجل النصر على الترك في معركتين إذ ان احد الشعراء يقول في ذلك :

للفضل يوم الطالقان وقبلـه
يوم أناخ بـه على خاقـان .

ما مثـل يوميه اللذين تواليا
في غزوتـين توالتـا يومين !

ويبدو أن خاقان التـرك «ضرب في وجهه» في المعركـة الثانية « فاستنام واستباح الفضل عسكره وغنم أمواله »[1] وعقب ذلك على ما يظهر حضر سنة ١٧٨ عند الفضـل بن يحيى صاحب أشروسنة يقدم الولاء وكان ممتنعاً قبل ذلك[2] .

على أن أخطر ما تعرضت له الحدود العباسية ــ التركية هو ذلك الخلف التركي ــ الخراساني الذي ظهر يوم ثورة رافـع بن الليث في خراسان . فقد استطاع رافع سنة ١٩٣ أن «يستميل أهل الشاش وفرغانة وأهل خجندة وأشروسنة والصغانيان وبخارى وخوارزم وختل وغيرها من كوربلخ وطخارستان والسغد[3] وما وراء النهر والترك والخرلخي والتغزغز وجنود التبت وغيرهم واستضربهم على قتـال السلطان وقتال المسلمين وصار الى بسمرقند وتحصن بها ...»[4] حيث حاصره هرثمة

---

(١) المصدر نفسـه ج٢ ص٤٠٧
(٢) ابن الأثير ج٦ ص١٤٥
(٣) يسجل الطبري ان صاحب الشـاش بالاتفاق مع رافع بعث فقتل له عيسى بن علي سنة ١٩١ (ج٨ ص٣٢٣)
(٤) اليعقوبي ج٢ ص٤٣٥ــ٤٣٦ وانظر الطبري ج٨ ص٣٧٣

ابن أعين ، بعد أن خرق السور الأول للمدينة ولا شك أن هذا الحلف إنما قام على أساس الكره المشترك للتسلط العباسي • وهو الكره الكامن الذي كان ينتظر دوماً مثل هذه المناسبات الاضطرابية ليظهر • وقد لعب جيغويه الخرلخي دور الرياء والنفاق ضد العباسيين بجانب رافع رغم أنه كان قد أسلم على يد المهدي ••• ثم كشف عن تحالفه الكامل مع رافع ••• ولكن انهيار ثورة رافع فكك هذا الحلف كله • وأعاد ملوك الترك إلى الطاعة •••

ولم يتصل نفوذ الأمين بجهة الترك لأنها كانت من حصة أخيه المأمون الذي تمركز في خراسان واتبع هناك أو في بغداد بعد ذلك سياسة اسلام الترك • يقول البلاذري : «كان يكتب الى عماله في خراسان بغزو من لم يسلم من الأتراك واجزال العطاء لمن أسلم وإذا ورد ملوك الترك بابه بالغ في تشريفهم وأدر عليهم الأرزاق[1] •••

ويقول اليعقوبي إن خراسان استقامت للمأمون «ولم تبق ناحية من نواحي خراسان يخاف خلافها» «••• وأعطى ملوكها جميعاً الطاعة» بل أسلم بعضهم مثل ملك التبت الذي « ••• قدم على المأمون بصنم له من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر • فأرسله المأمون الى الكعبة يعرف الناس هداية الله لملك التبت •••»[2] •

ومن هؤلاء الذين وردوا عليه مسلمين : «كاوس التركي ملك أشروسنة» • جاء مدينة السلام وأظهر الاسلام وملكه المأمون على بلاده ثم ملك ابنه حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين ! ••• ويحدثنا البلاذري

---

(١) البلاذري ــ فتوح البلدان ص٥٢٧ــ٥٢٩
(٢) اليعقوبي ج٢ ص٤٥٢

عن المؤامرات الداخلية التركيـة التي انتهت بحيدر ثم من بعده بأبيه الى المأمون والاسلام والجيش الذي قاده أحمد بن أبي خالد الأحول فأناخ به على بلد أشروسنة ودخلها قبل أن تصل نجدات الترك الى كاوس الذي لم يجد بدأ من الاستسلام والقدوم الى دار السـلام والاسلام ... ويضيف البلاذري قائلا : «... ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل (سيرة المأمون) حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفراعنة والاشروسنة وأهل الشاش وغيرهم وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام على من هناك وصار أهـل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك . وأغزى عبد الله بن طاهر ابنه طاهر بلاد الغوزيـة (الغز أو التغزغز) ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبلـه ...» على أن سياسة المعتصم الظافرة على هذه الجهة كانت لها أسبابها كمـا كانت لها نتائجها المعاكسة في قلب بغداد وعلى منصب الخلافة نفسه .

وتبقى في النهاية : قضية سجستان إمارة الحـدود المستقلة ما بين خراسان والهند . ويلخص لنا البلاذري علاقاتهـا في عصر الرشيد مع الخلفاء العباسيين تلخيصاً لا ينقصه إلا أن نذكر بأن الجماعات العربية التي توطنت بها كانت في غالبها على المذهب الخارجي وقد ثارت بها اكثر من مرة ثورات خطيرة قادها مرة يوسف البرم سنة ١٦٠ ومرة الحصين الثعلبي سنة ١٧٥ وكان آخرها بزعامة حمزة بن أترك سـنة ١٧٩ الذي استمر في تحريك الجماعات العربية والجماعات التي أسلمت من السكان مع السكان الزارادشتيين أنفسهم والمناطق المجاورة لهم حتى ما بعد سنة ١٩٤ . أما السكان الأصليون وأميرهم المحلي الذي يحمل لقب رتبيل فيقول البلاذري : «... ولم يزل عمال المهدي والرشيد يقبضون الإتاوة من رتبيل سجستان على قدر قوتهم وضعفهم ويولون عمالهم النواحي

التي قد غلب عليها الاسلام . ولما كان المأمون بخراسان أديت إليه الإتاوة مضعفة . وفتح كابل وأظهر ملكها الاسلام والطاعة وأدخلها عامله واتصل إليها البريد فبعث إليه منها باهليلج غض . ثم استقامت بعد ذلك حيناً ...»[1] .

رابعاً : أما الخزر في الشمال فظلت علاقاتهم مع العباسيين على الهدوء الحذر منذ هجومهم الواسع سنة ١٤٥ ـ ١٤٧ أيام المنصور ثم انسحابهم الى مواقعهم وراء القفقاس . وانصرف ولاة ارمينية منطقة الحدود المجاورة لهم ، الى سياسة تشبه سياسة العمال العباسيين في مناطق ما وراء النهر . غير ان مهمة هؤلاء الولاة كانت أصعب لا من ناحية الأعمال الحربية ولكن من حيث تعذر كسب السكان في الإمارات «الحاجزة» ومن الشعوب الصغيرة على الحدود للدين الاسلامي . فهؤلاء كانوا في جمهرتهم على المسيحية وبعض منهم على اليهودية مما جعل انتشار الاسلام فيهم محدوداً وجعل ولاءهم باستمرار قلقاً والريبة في علاقاتهم مع بيزنطة ومع الخزر قائمة على الدوام .

ولما كانت علاقة أرمينية بالخزر شبيهة بعلاقة خراسان مع ما وراء النهر وأرض الترك ، فقد اتبعت في تلك السياسة نفسها التي اتبعت في هذه . وهكذا فإنه حين ثارت بعض هذه الإمارات الأرمنية عقب وفاة المهدي ، إضطر الولاة العباسيون الذين عينهم الرشيد لأن يوجدوا لأنفسهم أولا ركائز مطمئنة في المنطقه بالعودة الى سياسة التوطين العربي : بجانب سياسة العصا الغليظة مع امراء الحدود ومع الثائرين في البلاد (وكان بين هؤلاء جموع من السكان المحليين وجموع من الخوارج) .

---

(١) البلاذري ـ فتوح ص٤٩٥

أ ـ بدأت سياسة التوطين منذ مطالع عهد الرشيد : نقل الوالي يوسف بن راشد السلمي جماعة من النزارية وكان الغالب على ارمينية اليمانية فكثرت النزارية أيام يوسف • ثم ولي يزيد بن مزيد الشيباني فنقل إليها ربيعة من كل ناحية حتى أصبحوا فيها هم الكثرة الغالبة وقد ذكر اليعقوبي أنهم كانوا كذلك في عهده (أواخر القرن الثالث) • وتولى عليها عبد الكبير من ولد زيد بن الخطاب وكان منزله حران فصار إليها في جماعة من أهل ديار مضر ••

ب ـ واتبع الولاة سياسة القمع والشدة وهكذا :

أخمد خزيمة بن خازم ثورات ارمينية في أول عهد الرشيد حتى هدأت فلما كان بعد سنوات ولي البلاد الفضل بن يحيى البرمكي ،بسبب تحرك هجومي أو تعطيل للقوافل التجارية قام به أهل حمزين فسار الفضل بنفسه إليهم وتوجه إلى ناحية الباب والابواب ولكنه فشل أمام قلعة حمزين فانصرف لا يلوي على شيء حتى أتى العراق •••

وانتقض أهل أرمينية بعد ذلك ولا سيما في الموقع الذي يسمى قلعة الكلاب بسبب الخراج ، كما ثار أهل البيلقان ثم انتفضوا وثاروا كرة أخرى فوضع فيهم السيف ، في الحالين ، يحيى الحرشي وأهل خراسان[1] • ثم كانت الانتفاضة الثالثة فقام التحالف بين الثوار في المنطقة وبين الخزر •

ويبدو أن الخلافة في بغداد كانت ترقب في حذر شديد هذه التحركات • وقد حاول جعفر البرمكي أن يحصل على مسالمة الخزر أو هدنتهم أو على التحالف معهم بالزواج السياسي على الطريقة الساسانية

---

(١) انظر تفصيل ذلك لدى اليعقوبي ج٢ ص٤٢٦-٤٢٧

القديمة وطريقة المنصور • وقد بعث بالفعل فطلب ابنة ملك الخزر للزواج وقبل الملك ذلك • ولكن المشروع فشل كرة أخرى كما فشل مشروع المنصور قبله بالموت السريع • إذ ماتت العروس في الطريق (ببلدة بردعة) فرجع من كان معها من الطراخنة الى أبيها فأخبروه أن ابنته قتلت غيلة فحنق لذلك • والطبري يجعل من هذا الأمر سبباً في الهجوم الواسع العنيف الذي خرج به الخزر كما قال — من باب الأبواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا — فيما ذكر — اكثر من مائة ألف • وانتهكوا أمراً عظيماً لم يسمع في الاسلام بمثله[1] •••

ويقدم اليعقوبي[2] سبباً آخر للهجوم هو أن سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي والي الرشيد «تعبث بالبطارقة فخالف عليه أهل الباب والأبواب ووثبوا بعامله النجم بن هاشم فقتله سعيد (ضرب عنقه بفأس)، فوثب ابنه حيون بن النجم فقتل عامل سعيد (الجديد) على الباب والأبواب وكشف رأسه للمعصية وكتب إلى خاقان ملك الخزر فزحف ••• في خلق عظيم فأغار على المسلمين فقتل وسبى خلقاً عظيماً وسار حتى أتى جسر الكر وسبى خلقاً من المسلمين وقتل عالماً وحرق البلاد وقتل النساء والصبيان •••» •

وقول اليعقوبي يكشف أن سبب الهجوم الخزري هو «تعبث» الوالي بالبطارقة وثورة أهل الباب والأبواب وهي الممر الأساسي للتجارة مع الشمال الخزري • وقد يكون السبب في ذلك هو العدوان على

---

(١) الطبري ج٨ ص٢٦٩—٢٧٠ (٣/٦٤٧—٦٤٨)
(٢) اليعقوبي ج٢ ص٤٢٧—٤٢٨ ولا ينسى الطبري هذا السبب ولكن النسخة المطبوعة تجعل اسم النجم : المنجم •

العملاء التجاريين للخزر ( البطارقة ) وفرض الضرائب الباهظة عليهم أو محاولة احتكار بعض التجارات • وقتل الوالي لعامله النجم قد يعني أن النجم لم يكن موافقاً على التدابير المالية ــ التجاريــة ولا على قمع المحتجين عليها • وابنــه الذي كشف رأسه للمعصية واستعدى الخزر على المسلمين إنما جاءهم من ناحية مصالحهم التجارية المهددة التي ذهب أبوه ضحية الدفاع عنها فخرجــوا لحمايتهــا ••• وإذا صح ما ذكره المسعودي من تهور الخزر في عهد الرشيد فقــد يكون لهــذا التهور المستجد والانقلاب الديني في الخزر علاقته الممكنة مــع هذا الهجوم المفاجيء ، ومع سعته وعنفه خاصة •

وقد استمرت العملية الهجومية التخريبية سبعين يوماً حتى وصلت النجدات العباسية • ولم يكن هدوء الحالة بالسرعة التي ذكرها الطبري أي بوصول الجيوش بقيادة خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد • «فأخرجا الخزر وسدت الثلمة » ! فإن خبر اليعقوبي يكشف تفصيلات أخرى تبين أن الرشيد غير عدداً من الولاة قبل أن ينجح في «سد الثلمة» المذكورة وهذا يعني أن فترة من الوقت قد تبلغ عدة سنوات انقضت قبل النجاح في اعادة الأمور الى نصابها في ولاية الحدود هذه ولقد كانت الحالــة العامة لأرمينية في هذه الفترة قابلة للانفجار لأسباب عديدة • وقد لخص البلاذري أحسن التلخيص موقف الأرمن خلال عهد المهــدي والرشيد حتى المتوكل بقوله : بعد أن عدد الولاة الذي تعاقبوا على أرمينية : «••• ولم يزل بطارقة أرمينية مقيمين في بلادهم يحمي كل واحد منهم ناحية • فإذا قدم الثغر عامل من عمالــه داروه • فإن رأوا منــه عفة

وحرامة . وكان في قوة وعدة أدوا إليه الخراج وأذعنوا له بالطاعة وإلا اغتمزوا فيه-واستخفوا بأمره ...»[1] .

والواقع أن معركة (بغرقاند) سنة ٧٧٢ ـ ١٥٥ في أواخر عهد المنصور على قسوتها لم تحطم الارستقراطية المحلية المتحالفة والمتعاونة مع الكهنوت . وبالرغم من أن الكثير من الأرمن تخلوا عن أسرة ماميكونيان حتى إن أمير (فاسبوراكان) قتل ولدي موشائيل اللذين هربا إليه لتخلص من عواقب لجوئهما وادعى أن أباهما كان سبب الكارثة التي حلت بالأرمن بينما تزوجت ابنة موشائيل من امير مانيزكرد المسلم اسحق بن اسماعيل ابن شعيب[2] الذي طمع في الوصول إلى حكم المنطقة من خلال الزواج إلا إن امراء الاسرة الأخرى : بغرتوني Bagratouni ظلوا أقوياء . وقد استطاع اثنان منهما أن يحققا بعض السمعة والثروة عن طريق مهاجمة الجند الاسلامي ومن هؤلاء آشوط حفيد آشوط الأعمى القديم[3] .

وظلت المنطقة باستمرار بين جذب المقاومة المحلية وشد العمال العباسيين الذين ربما اضافوا في عهد المهدي والهادي الى القسوة في جمع الضرائب محاولة نشر الاسلام . وتذكر بعض الأخبار الأرمنية ان خازم

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٤٧

(٢) تذكره المصادر الأرمنية باسم شهاب فقط Jehap وهو مولى بني امية .

(٣) انظر فارطان ـ التاريخ العام ( المقتطفات الفرنسية ) ص ١١٠ وآشوط هذا هو : ابن آرت ـ نرسه ابن فاساك بن آشوط الذي سجل سنة ٧٥٠ من قبل امير اسرةماميكونيان المسمى غريفوار . وقد جاء اسم آشوط في البلاذري (طبعة المنجد ص٢٤٨) على انه بن حمزة بن جاجق بطريق البسفرجان .

(وهو خزيمة بن خازم) والي أرمينية حوالي سنة ٧٨٥ (أي في عهد الهادي) حاول إرغام بعض امراء ارمينية وجورجيا على الاسلام وقتل ثلاثة منهم في ذلك ويبدو أن السبب في القتل لم يكن الدين ولكن لأن «خزيمة كان أشد (الولاة) ولاية ــ كما يقول البلاذري وهو الذي سن المساحة بديل والنشوى ولم يكن قبل ذلك ...» ولقد يكون هؤلاء الأمراء إنما قاوموا ــ بسبب أملاكهم الواسعة ــ في فرض الخراج على أساس المساحة ثم أنهم ثاروا بالفعل مدة أيام الهادي فكان عقابهم القتل ثم عزت الأخبار الأرمنية ذلك الى الدين لأن عملية التحول الديني كانت في ذلك الوقت قائمة ... وهكذا كانت المنطقة مستعدة للتمرد عند أي بادرة من بوادر الضعف في الحكم العربي ولقد حاول الرشيد بعد الهجمة الخزرية أن يتلافى مضاعفاتها وما قد يكون لها من العواقب المشابهة لعواقب الهجمة السابقة زمن المنصور . فأرسل النجدات والعمال للتهدئة الداخلية لا سيما وقد أثار الغزو الخزري الثورة بالفعل في منطقة شروان . الممتدة بين باكو (النفاطة) وباب الأبواب على شواطىء بحر الخــزر .

أرسل الرشيد أولا عاملين (نصر بن حبيب المهلبي وعلي بن عيسى ابن ماهان) قبل أن يستقر أمره على إرسال يزيد بن مزيد الشيباني فكانت مهمة هذا القائد ، في المرحلة الأولى من التهدئة والدفـاع ، على ثلاث خطوات نراها لدى اليعقوبي :

«أن يلائم النــاس ويصلح البلد» وأن يوحـد الصف العربي «فساوى بين النزارية واليمانية» وأن يطمئن السكان المحليين «فكتب الى أبناء الملوك والبطارقة يبسط آمالهم»[1] ... فاستوى البلد .

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص٤٧٢

لكن هذه السياسة المهادنة لم تدم طويلا بسبب موت ابن مزيد ، في بردعة مقر الولاية سنة ١٨٥ـ٨٠١ فجاء خازم بن خزيمة[١] من بعده بسياسة جديدة معاكسة : «... فأخذ البطارقة وأبناء الملوك فضرب أعناقهم وسار فيهم أسوأ سيرة . فعادت الثورة من جديد إذ انتقضت جورجيا والصنارية»[٢] وسحقوا الجيش الأول الذي أرسل ضدهم ثم استطاع الجيش الثاني أن ينتصر وأن يجبرهم على الجلاء من مواطنهم إلى أواسط المنطقة في تفليس . وهو تدبير اداري يقصد الى حرمان الارستقراطية الاقطاعية من أملاكها ومن الاتصال بالروم أو بالخزر . وكان هذا التدبير من السياسة المألوفة في ذلك العصر .

على أن الأرمن الصنارية ما لبثوا على ما يبدو أن استفادوا من ضعف الوالي الجديد الذي أعقب خزيمة فثاروا كرة أخرى ليعود العمال العرب إلى قتالهم ! ..

وإذا كان الخطر الخزري قد توقف الآن فإن المنطقة نفسها أضحت خطرة المصير وكان قائد الحركات المتكررة من التمرد هو آشوط الذي تذكر له المصادر الأرمينية عدداً من أعمال المقاومة وتذكر أنه استطاع احتلال بعض البقاع الأرمينية وفرض سلطانه فيها وزيادة ثروته بسبب كثرة الغنائم وبناء بلدة كاماكس (أني) واتخاذها مقراً لحكمه وأسرته[٣]

---

(١) ولي خزيمة بن خازم أرمينية مرتين الاولى في مطالع عهد الرشيد سنة ١٧٠ وبقي سنة ونيفاً والثانية في اواخر عهده (انظر اليعقوبي ج٢ ص ٤٢٦ و ص٤٢٨) .

(٢) يذكر اليعقوبي (٢/٢٤٧) انها جرجان وهو خطأ بالطبع من النساخ لأن جرجان في الشرق الجنوبي من بحر الخزر ولا علاقة لها بأرمينية . وقد اتبع عمال المهدي ثم الهادي سياسة العنف في أرمينية .

(٣) انظر فارتان ــ التاريخ العام (المقتطفات الفرنسية) ص ١١١ــ ١١٢ وآني (كاماكس) هذه ليست هي آني الموجودة في أعالي الفرات .

وقد استفاد آشوط والبطارقة الآخرون من أيام الفتنة بين الأمين والمأمون «فعاشت أرمينية في سلام ــ كما يقول المؤرخ الأرمني ــ وبدأ أمراؤنا يصبحون أقوياء كل واحد منهم في موضعه ...»(١) بل أدى ذلك إلى ايجاد دولة حاجزة تقوم بين الخزر وبين الدولة الاسلامية إذ «منح الخليفة لآشوط حكم منطقة جورجيا فاستلمها وأرسل إليه امبراطور بيزنطة لقب تشريف»(٢) ويبدو أن ذلك كان زمن الأمين وامتد حتى آخر عهد المأمون لأن حكم آشوط هذا دام ما بين سنة ٨٠٩ الى سنة ٨٣٣ (١٩٣ ــ ٢١٧ هـ) .

وقد ظهر التعاون واضحاً في هذه الفترة ما بين جورجيا وبيزنطة لا سيما في عهد الامبراطور ليو الخامس الأرمني (٨١٣ ــ ٨٢٠) بينما تضاءلت بالعكس سيطرة الخلافة العباسية على أرمينية . يقول البلاذري: « ... ووليهم خالد بن يزيد بن مزيد في خلافة المأمون فقبل هداياهم وخلطهم بنفسه فأفسدهم ذلك من فعله وجرأهم على من بعده من عمال المأمون ثم ولى المعتصم بالله الحسن بن علي الباذ عيسى المعروف بالمأموني ، الثغر ، فأهمل بطارقته وأحراره ولان لهم حتى ازدادوا فساداً على السلطان وكلباً على من يليهم من الرعية ... (ووثبوا في كل ناحية) ثم ولي ارمينية عمال كانوا يقبلون من أهلها العفو ويرضون من خراجها بالميسور ...»(٣) .

وهكذا أصبحت منطقة أرمينية لمن غلب : ثار فيها ابن شعيب وغلب

---

(٢) المصدر السابق ص ١١٣

(٣) المصدر الساق نفسه ولقب التشريف المذكور وهو Curopalate كان يحمله جده آشوط الأعمى .

(٤) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٢١٨

مع ابنه عبد الله على ما تحت يده من منطقة دوين ومانزكرد وثارالقيسية بالاتفاق مع الأرمن الصنارية وثاروالى تفليس العربي • وتعقدت الأمور في أرمينية حين ثار فيما حولها بابك الخرمي بينما كانـت إمارة أشوط تمتد ما بين البحر الأسود وسفوح القفقاس وتفليس • ثم استطاع أمراء من أسرة ماميكونيان أن يدمروا إمارة ابن شعيب وجيشه ويأخذوا منه بلدة دوين[1] كما لجأ أحد أمراء هذه الأسرة نفسها هارباً من امبراطور بيزنطة الى المأمون الذي اكرمه غاية الاكرام ومنحه راتبـاً يومياً قدره ١٣٠٦ دراهم وأهداه الهدايا الكثيرة المستمرة[2] ••• قبـل أن يعود فيهرب إلى بلاد الروم ••

ومقابل هذا الذي تفصله المصادر الأرمينيـة يعطينـا اليعقوبي تفاصيل الصورة الأخرى من الناحية الاسلامية[3] • ونرى فيها اسماء وأعمال الولاة الذين توالوا على المنطقة زمن المأمون وصـدام بعضهم ببعض أو ثورة بعضهم على السلطة المركزية كما نجد تعقد الأمر بسبب مجاورة المنطقة لثورة بابك وانعكاساتهـا فيها والاصطدامـات بسبب العصبية أو المعتقد الديني والاتفاق مع الصنارية الأرمن ضد الدولة • وهكذا كانت قصة أرمينية والحدود مع الخزر هي قصة الانتفاضات

---

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى فارطان ص١١٤ـ١١٥

(٢) فارطان ص١١٤ ويشير اليعقوبي (ج٢ ص٤٦٤) الى القائد علي ابن يحيى الارمني من قبل خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني اثناء المعـارك التي قادها بعض القيسية بالاتفاق مع الارمن الصنارية ضد الدولة وأسر مع علي جماعة اخرى ووجه بهم خالد الى المأمون «فصيرهم في ناحية اخيه ابي اسحق المعتصم وضمهم اليه وفرض لهم •• » •

(٣) انظر التفاصيل التي يقدمها اليعقوبي لحالة ارمينية في عهدالمأمون في التاريخ ج٢ ص٤٦١ـ٤٦٤ •

من الارستقراطية الأقطاعية الأرمينية والعربية وإخمادها وممالأةالسكان الأرمن لمختلف الثائرين وقيام الدول المحلية الحاجزة • وتلك هي تماماً القصة على جبهة خراسان التركية • بمعنى أن الهجوم الاسلامي على الخزر للانتقام أو للفتح لم يرد في مخططات الرشيد كما لم يخطر في بال الخلفاء من بعده ولم يكن ممكناً أن يخطر • وبالمقابل فإن الهجمات الخزرية انتهت بعد ذلك فلم تتكرر ولعل السبب في توقفها النهائي هو اعتماد الجيش الخزري على الخوارزميين المسلمين الذين اشترطوا على «البك» قائد الجيش أن لا يدخلوا في أي حرب تقع مع المسلمين ، ثم ظهور الإمارة السلافية الروسية في موسكو وتهديدها للدولة الخزرية واخيراً انفصام الحلف الخزري ـ البيزنطي بسقوط الاسرة الايسورية في بيزنطة خلال عهد الرشيد نفسه سنة ٨٠٢ (١٨٦ هـ) •

## ٢ ـ العلاقات مع الشمال الغربي ( جبهة الروم )

لعل أهم وأقسى أشكال العلاقات الخارجية التي عاشها العباسيون الاوائل إنما كانت علاقاتهم مع الروم • وكانت جبهة الروم هي الجبهة التي أخذت من وقت وجهد ومال ودماء الدولة العباسية اكثر بكثير مما أخذت أي جبهة أخرى • ولهذا ولأنها ظلت كذلك عدة قرون فإنا نجد من الضروري الوقوف عندها بعض الوقوف • وندرس منها : الجانب البزنطي من جهة ونظام الدفاع العربي من الجهة الأخرى • كما ندرس العمليات الحربية التي تمت على أيدي الخلفاء العباسيين ثم معنى هذه العمليات وتنائجها وأخيراً العلاقات الحضارية بين الطرفين •

**البيزنطيون :** تتابع على عرش القسطنطينيـــة في فترة الاستقرار العباسي بقية الاسرة الايسورية : ليو الرابع الخزري (٧٧٥ م ٧٨٠ م) وقسطنطينالسادس (٧٨٠ـ٧٩٧) وقد كانت أمه ايريني وصية عليه ثم

سملت عينيه واستأثرت بالتاج خمس سنوات (٧٩٧ ـ ٨٠٢) واضطرب عهد الايسوريين بعدها : غصبها العرش اولا نقفور (٨٠٢ ـ ٨١١) ثم جاء ستوراكيوس فميخائيل الاول رانغاب (٨١١ ـ ٨١٣) ثم ليو الخامس الارمني (٨١٣ ـ ٨٢٠) ووصلت الى السدة الامبراطورية بعد ذلك الاسرة العمورية (الفريجية) فكان منها ميخائيل الثاني الاعجمي (٨٢٠ ـ ٨٢٩) ثم تيوفيلوس (٨٢٩ ـ ٨٤٢) وفي عهده انتقل العرش العباسي الى المعتصم ..

وقد تأثرت علاقات الدولة العباسية والبيزنطية بتعاقب الخلفاء والاباطرة المختلفين على عرشي الدولتين . ولكنه تأثر محدود .والوصف الاساسي الذي يمكن أن يعطى لتلك العلاقات انها كانت علاقات عدائية دوماً واستعراضها لا يزيد عن أن يكون سجلا رائعاً ، وإن يكن متشابهاً تشابهاً يصل درجة الملل لحملات حربية سنوية تحرث حرثا عوانا متمادياً منطقة الحدود التي يتراوح عرضها بين ٢٠٠و٥٠٠ كم والتي تمتد الى الغرب من خط يصل منابع الفرات بخليج الاسكندرونة . وقد كانت هذه الحدود مملوءة لدى الجانبين العربي والرومي بالمدن ـ الحصون .

فأما على الجانب الرومي فقد كان البيزنطيون قد نظموا دفاعهم تنظيماً يعود في أسسه الى عهد حروبهم مع الساسانيين وهو تقسيم الجبهة من جهتهم الى مجموعة مقاطعات عسكرية الادارة تدعى تيما . (أو بالاصطلاح العربي : بند أو عمل) وقد تطور هذا النظام منذ عهد جستنيان وهرقل ، ومن خلال تجارب الحروب الأليمة مع العرب الأمويين حتى بلغ درجة الإحكام في عهد الاباطرة الايسوريين في القرن الثامن . ويقوم نظام البنود على توطين فرق الجند للدفاع في مراكز محصنة وجعل القائد العسكري هو رأس السلطة المدنية . وهكذا كانت جبهة الروم


الجزيرة والحدود مع الروم
بيزنطة
القسطنطينية
بافلاغونية
أماسية
انقرة
غلاطية
عمورية
قيسارية
سيواس
توقات
أرزنجان
قاليقلا
ملطية
طرندة
حصن زياد
خرتبرت
شمشاط
ملازكرد
خلاط
وان
بدليس
آمد
ميافارقين
أرزن
حصن كيفا
جزيرة ابن عمر
الموصل
سنجار
ماردين
نصيبين
رأس عين
حران
الرها
سروج
سميساط
منبج
بالس
الرقة
الخانوقة
الرافقة
صفين
حلب
قنسرين
انطاكية
اللاذقية
حماة
حمص
طرابلس
بعلبك
بيروت
دمشق
تدمر
الرحبة
عانة
هيت
الأنبار
بغداد
سامراء
تكريت
اربل
شهرزور
حلوان
تفليس
اللان
جبال القبق
الأبواب
أرمينية
نهر الرس
دبيل (دوين)
قبرص
طرسوس
أذنة
المصيصة
عين زربة
سلوقية
قونية
مرعش
الحدث
زبطرة
حصن منصور
الفرات
دجلة
الزاب

مقسمة لديهم الى أربعة بنود أو أعمال ــ حسب اصطلاح ابن خرداذبه ــ بند أرمينية (ويقابل الثغور الجزرية) وبند الأناضول (ويقابل الثغور الشامية) وبند الاوبسيكيون وهو يمتد حول بحر مرمرة لحماية العاصمة القسطنطينية وبند بحري أطلق عليه اسم (القبرصي ــ كبيرايوت) وكان يشمل الشاطىء الجنوبي من آسيا الصغرى والجزر القريبة منه • وقد جعل الايسوريون لكل بند أقساماً فرعية خشية من طموح القواد ، وزيادة في إحكام الدفاع ضد الهجمات العربية فلما جاء أباطرة الاسرة العمورية اقتطعوا مما بين بندي ارمينية والأناضول منطقة الممرات الجبلية وجعلوها ولاية حدود[1] ••• وكان قائد البند البزنطي يحمل لقب استراتيج •

**نظام الدفاع العربي** : أما على الجانب العربي فقد كانت الحصون التي تقابل العدو مقابلة مباشرة تدعى بالثغور • وهي تقسم في ذلك العصر ، ومنذ العهد الأموي ، الى مجموعتين :

أ ــ الثغور الشامية (مقابل عمل الأناضول لحد كبير) وتشمل مابين طرطوس الى الهارونية من المدن الحصون بما في ذلك أذنة • المصيصة • عين زربة • سيس • أي الحصون القائمة في حوض نهري سيحان وجيحان مقابل جبال طوروس من جهة الشرق •

ب ــ الثغور الجزرية (مقابل عمل أرمينية) وهي حصون تمتد على

---

(١) كتب ابن خرداذبه كتابه المسالك والممالك في اواسط القرن التاسع الميلادي (سنة ٢٣٢ هـ/٨٤٦ م) اي في عهد الواثق والمتوكل وهو يقسم الجهة الرومية مع العرب الى تسعة أعمال هي: القبادق . سلوقية . خلدية . الارميناق . البقلار . خرسيون . الناطلوس . ترقسيس . الابسيق .

منطقة أوسع بكثير من الأولى وتتوزع في أحواض منابع الفرات منذ مرعش ودابق من جهة الغرب الى حاني وشميشاط حتى منازكرد من جهة الشرق • ويدخل فيها حصون : الحدث • زبطيرة • سميساط • حصن الروم • ملاطية • حصن زياد • خرتبرت • وربما فصلت ثغور شميشاط وحاني وما بعدها في مجموعة ثالثة لوحدها ودعيت بالثغور البكرية(نسبة الى ديار بكر) كما يطلق اسم الثغور البحرية على سواحل الشام كلها وسواحل مصر •

وكانت منطقة شمال الشام ، من حول مدينة حلب ، تدعى بالعواصم •• وتمتد من انطاكية وبلدة باياس على خليج الاسكندرونة حتى بلاد عين طاب ، ومنبج وبالس والرافقة من جهة الفرات ، وهي منطقة جبال اللكام وما وراءها حتى الفرات • وقد سميت بالعواصم ــ كمايقول قدامة بن جعفر ــ «لأنها تعصم الثغر وتمده في أوقات النفير»[1] ومركز العواصم منبج في الداخل وانطاكية في الساحل وربما اختصت الأولى بثغور الجزيرة والثانية بثغور الشام أو اشتركنا في ذلك •

والبلد الذي يمكن ان يعتبر جغرافياً مركز توزع الثغور والعواصم

---

(١) قدامة بن جعفر نبذ من كتاب الخراج (ملحق بابن خرداذبة) ص٢٥٣ : ٥ ويلاحظ أن قدامة يجعل الثغور أنواعاً ثلاثة : برية تقابل العدو من جهة البر وبحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر . ومنها مايجتمع فيه الأمران وتقع المغازي من أهله في البر والبحر ويضيف قوله : «والثغور البحرية على الاطلاق سواحل الشام ومصر كلها والمجتمع فيه الأمران غزو البر والبحر : الثغور المعروفة بالشامية . . » .

هو منطقة دلوك فمنبها والى الشرق والشمال ثغور الجزيرة ومنها الى الغرب ثغور الشام ومنها والى الجنوب العواصم •

ولعله يجب أن نضيف الى ذلك بعض الملامح الأخرى في الجبهة فقد كان ثمة أيضاً :

أ ــ الأربطة (جمع رباط) وهي المواقع المحصنة ، كأنها الأديرة ، يرابط فيها المجاهدون وتشحن بالذخيرة وتشبه مراكز المراقبة ومخافر الحدود • وقد يقوم بعضها في المناطق البرية بين الثغور ولكن معظمها إنما نشأ وتطور على السواحل الشامية مابين طرسوس حتى أقصى جنوب فلسطين وكان الروم يعتبرون هذه السواحل ، بسبب قوتهم البحرية ، مواقع للغزو والهجوم فأقيم نظام الأربطة عليها منذ العهد الأموي • وكان المرابطون فيها من المتطوعين للجهاد وتقطعهم الدولة الأرض من حولها يحرثونها ويستثمرونها مقابل الحراسة والرقابة للغارات المفاجئة • وقد كان يلتحق ببعض هذه الأربطة أحياناً بعض الشيوخ المتدينين طلباً للجهاد كما يلتحق بها أحياناً بعض من تطردهم الظروف السياسية من ميدان الحكم (ومنهم بعض أمراء البيت العباسي) ثم تحولت هذه الأربطة بالتدريج الى مراكز لبعض المتصوفة ونمت فيها بعض فرقهم من بعد •

وقد تصبح هذه الأربطة مراكز فداء وتبادل أسرى • وقد ترك لنا المقدسي البشاري صورة من صور هذا الفداء وطريقته رآها في الساحل الجنوبي من فلسطين ووصف اتصال الأربطة بعضها ببعض يقول : «••• فيقع بها النفير وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع ، كل ثلاثة بمائة دينار وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم في الرسالات ويحمل إليهم أصناف الأطعمة وقد ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم • فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وإن

كان نهار دخنوا • ومن كل رباط الى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيها أقوام • فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ونودي الى ذلك الرباط • وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق • ثم يكون الفداء : فرجل يشتري رجلا وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشتري ما معهم • ورباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء : غزة • ميماس • عسقلان • حوز ••• يافا ، أرسوف •••»[1] •

ب ــ المنارة والمناظر : وإذا كان النص الذي أورده المقدسي قد كشف معنى المنارة ودورها وعملها في الشواطىء فقد كان ثمة معها أيضاً في مناطق الجبال مايسمى بالمناظر (جمع منظرة) أو بالمرقب وهي المواقع في رؤوس الجبال يوضع فيه الرقباء لمراقبة العدو والاشراف على الطرق والدروب •

حـ ــ الضواحي وهي مناطق الحدود التييتركها الطرفانالمتحاربان خالية وينقلون السكان منها •

ء ــ المسالح وهي المواقع المحصنة التي يوضع فيها السلاح خاصة والرجال احتياطاً للطوارىء •

هـ ــ المطامير (ج • مطمورة) وهي كهوف أرضيــة في جنــوب الاناضول ووسطه تحت الحصون أو قربها كان يلجــأ إليها الناس من ويلات الحرب وقد اشتهر أمرها في العصر العباسي حتى سمي الاقليم بالمطامير أو ذات المطامير • وما تزال هذه الصفة واضحة في المنطقة إلى اليوم هذ ه‍الثغور والعواصم والأربطة والمنائر والمنــاظر والضواحي

---

(١) المقدسي ــ احسن التقاسيم ص ١٧٧ .

والمسالح كانت مناظر النظام الدفاعي العباسي وأدواته وتشكل فيما بينها نظاماً دفاعياً ــ هجومياً متكاملا تجري في إطاره عمليات الغزو والجهاد والدفــاع •

**العمليات الحربية :** كانت جبهة الروم تسخن أو تبرد وتهــدأ تبعاً للظروف المتقلبة في كل من العاصمتين : بغداد من جهة والقسطنطينية من الجهة الأخرى • ونستطيع أن نأخذ فكرة عن حركة المد والجزر الحربي المتمادية عليها من خلال الغزوات والعمليات الحربية التي حققها الخلفاء واحداً بعد الآخر • على أننا يجب أن نقرر أن الجهاد العباسي ضد الروم قد بلغ ذروته في هذه الفترة من العهدالعباسي ما بين خلافة المهدي وخلافة المعتصم • وإذا كانت فترة توطيد الدولة في عهد المنصور لم تشهد أعمالا حربية واسعة على الجبهة الرومية فإن دبيب الوهن قد دب في القــوى العباسية في عهد كل من الواثق والمتوكل • وكانت آخر التألقات الجهادية على تلك الجبهة ، أعمال المعتصم •

آ ــ غزوات المهدي : يمكن لحد كبير القول إن المهدي هو الذي وضع لجبهة الروم ذلك التقليد في الغزو السنوي وفي الحملات الدورية الوقائية وإذا كان استقرار الدولة قد سمح له أن يتابع سنة أبيه في أيامه الأخيرة في الهجوم الوقائي على الروم فإنه هو أول من اتبع خطة التوفيق والتوازن ما بين تصعيد الحرب معهم الى الدرجة القصوى والمحافظــة في الوقت نفسه على المواقع والحدود فلا يترتب على الغزوات احتلال لمواقع جديدة أو عمليات تؤدي لتطويق العاصمــة أو إلغــاء الوجود البيزنطي • وإذا كانت خطة المنصور في النصف الثاني من خلافته هي خطة الترقب والحذر والإجابة على الضربات الرومية بالدفاع والتحصين وبالهجوم في بعض الأحيان ولا سيما في السنوات الأخيرة ، فإن المهدي جعل من الغزو السنوي عملية جهاد تقليدية تدعم «مهدويته» وتؤكــد

فقط تمسكه بركن من أركان الدين لا بد لإمام المسلمين وراعيهم من القيام به . وهكذا بينما تتكرر في حوليات المؤرخين أيام المنصور قولهم: «لم يكن للمسلمين صائفة هذا العام» أو «لم يدربوا (أي يدخلوا الدروب في جبال الروم)» أو «لم يكن غزو» نجد أنهم في زمن المهدي يكررون في السنوات العشر كلها (عدا سنتي الهدنة) كلمة غزا أو أغزي . ومع ذلك لم يترتب على هذا الغزو المتكرر اكثر مما ترتب على تربص المنصور المتكرر من نتائج . ولقد غزا المهدي كثيراً وقام بحملات حربية هامة جداً على الجبهة الرومية ولكنه في الوقت نفسه بنى وأحكم بناء معظم حصون الحدود والثغور مما يوحي بوضوح أنها كانت في نظره ، هي النهاية لا البداية .

وأوجد المهدي تقليدا جديدا آخر في الحرب مع الروم هي الخروج بنفسه إلى تلك الحرب . والبقاء على مقربة من الجبهة في أثنائها . لم يكن ذلك من التقاليد الأموية وإذا كان الروم يتبعونه باستمرار ويباشرون حروب العرب وغيرهم بأنفسهم فلأن معظمهم كانوا من القواد العسكريين . أما العباسيون الجدد في الدولة فلم يقد الحروب منهم أبو العباس ولئن قادها أبو جعفر وهو ولي للعهد فإنه لم يقدها مباشرة وهو خليفة ولم يخرج خاصة لحرب الروم . والمهدي هو أول من فعل ذلك واتبعه من بعده ابنه الرشيد وحفيداه المأمون والمعتصم ثم الواثق ... ثم أغلق الخلفاء العباسيون على أنفسهم أبواب القصور في بغداد وسامراء ... الى أن دخل عليهم هولاكو تلك القصور[1] .

---

(١) باشر بعض الخلفاء في القرن السادس والسابع الهجريين بعض الحروب ولكن ضد خصومهم ولحفظ سلطانهم السياسي المحلي وليس ضد الروم ولا ضد الصليبيين .

وظهر في عهد المهدي تقليد ثالث هي إنفاذ «موالي» الخلفاء على قيادة الجيوش ضد الروم • وإذا استعمل المنصـــور أول من استعمل مواليه ، في الحرب والإدارة ، فقد كان لجبهة الروم مكانها الخاص ــ على ما يظهر ــ عنده فظل قوادها من العرب ، وأحياناً كثيرة من العباسيين وأما المهدي فأدخل عليها قيادات «الموالي» من مواليه أمثـال الحسن الوصيف والربيع بن يونس الحاجب •

مهد المهدي لأعماله العسكرية على جبهة الروم بعملية من التهديد ذكرها بعض مؤرخي الأرمن إذ أرسل الى الامبراطور البزنطي مكوكين من حب الخردل الأسود مع كتاب يقول فيه إنه سيرسل جيشاً بعدد هذا الحب الذي يراه[1] •

ثم كانت أولى غزوات المهدي ــ فيمـا يبـدو ــ عملية انتقامية لهجوم رومي أجاب عليه بهجومين اثنين • فقد أرسل جيشه سنة ١٥٩ ــ ٧٧٦ بقيادة صغير مولاه جواباً على حملة الامبراطور ليو الرابع الخزري ضد سميساط التي سبي فيها خلقـاً كثيراً • فاستنقذ صغير المسلمين وأرسل المهدي في الوقت نفسه صائفة أوغلت مقدمتهـا بقيادة مولاه الحسن الوصيف ومعه جماعة من قواد أهل خراسان ، حتى بلغت أنقره أما كتلة الجيش فسارت مع العباس بن محمد ففتحت مدينة للروم (في أقليم المطامير) ومطمورة أخرى وانصرفوا سالمين • وأما المهدي نفسه فقد كان معسكراً خلال ذلك في مكان يعرف بالبردان[1] بظاهر بغداد •

وقامت في سنوات ١٦٠ ــ ١٦١ الغـزوات التقليديـة ومشاريع

---

(1) انظر كتاب التاريخ العام لفاردان الأرمني ( الترجمة الفرنسية بعنوان الحكم العربي في ارمينية ــ نشر مويلدرمانز ، باريس ١٩٢٧ ) ص ١١٠ •

(1) اليعقوبي ج٢ ص٤٠٢ والطبري ج٨ ص١١٦ (٤٥٩/٣) •

الغزوات التي لم تنفذ تولاها خاصة ثمامة بن الوليد العبسي • والذي غزا سنة ١٦٠ ثم خسر الصائفة في السنة التالية بسبب إهماله أمام هجمة من ٨٠ ألف مقاتل • فقد نزل دابق «وجاشت الروم وهـو مغتر فأتت طلائعه وعيونه بذلك فلم يحفل بما جاؤوا به وخرج الـى الروم وعليها ميخائيل (الامبراطور) بسرعان الناس فأصيب من المسلمين عدة ••وكان عيسى بن علي مرابطا بحصن مرعش يومئذ[1] • فحاصره الروم ويبدو أنهم خربوا منطقته ! وانسحب الروم حين وصلت النجـدات الاسلامية ولكن هذه النجدات دحرت حين تعقبتهم فلم تستطع استخلاص السبي الذي أخذوه وفي جملتـه الكثير من اليعاقبة النصـارى الذين جرى تهجيرهم عن الحدود إلى الأراضي البزنطية • كما يبدو في الوقت نفسه أن تحرك الأسطول العربي ، من الشام لاتمام غزو الروم • في السنتين المتواليتين سنة ١٦٠ و ١٦١ بقيادة الغمر بن العباس الخثعمي كما فعل المنصور من قبل في الغزوة البحرية سنة ١٥٧ لم تفد المسلمين شيئاً كثيرا فقد قام الروم في سنة ١٦٢ بتخريب «الحدث» وسورها في غارة جديدة •

ومن هنا تأتي أهمية الغزوات الانتقاميةالتي تمت سنة ١٦٢ ـ٧٧٩ فقد تحركت على محورين : محور ارمينية الشمالي مشت عليـه حملة يقودها يزيد بن أسيد السلمي إلـى باب قاليقلا (تيودوسبوليس) فغنم وفتح ثلاثة حصون وأصاب سبياً كثيراً وأسرى •••

ومحور الحدث ـ أدرولية اتجه عليه الحسن بن قحطبة في ثلاثين ألف مرتزق من أهل خراسان والموصل والشام وأمداد اليمن عدا المطوعة

(١) انظر الطبري ج٨ صفحات ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ وانظر اليعقوبي ايضا ج٢ ص ٤٠٢ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٠٠

من العراق والحجاز فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم من غير أن يفتح حصناً أو يلقى جماعة . حتى بلغ العين المعدنية الحارة (الحمة) في أدرولية واستحم بها (ويقال إنه وصل الحمة لوضح كان ببدنه) ثم قفل بالناس سالمين وقد ثقلت وطأة هذه الحملة على الروم لما نجم عنها من الدمار حتى أعطوا الحسن لقب «التنين» وحتى ــ كما قال الطبري ــ صوروه في كنائسهم ليعرفه الناس ... أما أهم ما جرى بالنسبة للجبهة الاسلامية فهو أن الحسن اقترح على المهدي ضرورة بناء ثغري الحدث وطرسوس . وقد بنى الثغر الأول سنة ١٧٥ وتأخر بناء الثاني الى سنة ١٧١ ــ ٧٨٥ في عهد الرشيد على يد فرج بن سليم الخادم .

وتهيأ المهدي للغزو في السنة التالية سنة ١٦٣ــ٧٨٠ . لم يخرج له ابنه الفتى هارون فقط ولكن خرج هو بنفسه أيضاً إليه مع عدد من أهل بيته عن طريق الموصل ، «وقطع (أي فرض) البعوث على جميع الأجناد من أهل خراسان وغيرهم» . وعسكر المهدي بالبردان نحو شهرين ثم أرسل ابنه ، هارون في الجيش ومعه يحيى البرمكي والربيع ابن يونس بعد أن شيعه مسافة بعيدة حتى قطع الدروب الى الروم وارتاد موقع (الحدث) التي سوف تبنى باسم المهدية أو المحمدية وأتم جيش هارون الطريق الى بلدة البستان (آرابيسوس) ثم إلى قلعة «سمالو» التي سقطت بعد حصار ثمان وثلاثين ليلة وضرب بالمجانيق وعطش وجوع أصاب من فيها وقتل وجراحات كانت في المسلمين . واشترط أهلها عند التسليم ألا يقتلوا ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك . ووفى لهم هارون بما عاهد إلا الترحيل فقد رحلوا الى بغداد نفسها وأنزلوا هناك في حي خاص بهم على باب الشماسية ! وبيع من فضل البقاء في المدينة مع الأسرى ...

وقد حاول الروم الإجابة على غزوة هارون بالنفوذ الى الثغور عند موقع طرسوس ثم اضطروا للتراجع في انتظار غزوة أخرى قادها في اتجاه الحدث سنة ١٦٤ ميخائيل البطريق ـ فيما ذكر ـ في نحو من تسعين ألفاً . فيهم طازاذ الأرمني البطريق ... وكانت الحدث في تلك الأثناء قيد البناء والتحول الى ثغر حربي ولم يجرؤ قائد الصائفة تلك السنة وهو عبد الكبير بن عبد الحميد (من ولد زيد بن الخطاب) ان يأمر بالقتال أمام ضخامة الجيش الرومي وتذكر المصادر البزنطية أنه هزم بسرعة فبلغ الغضب من المهدي الدرجة التي كاد يأمر معها بقتله ثم اكتفى بحبسه في المطبق[1] وتأهب لحملة كبرى انتقامية سنة ١٦٥ـ٧٨٢ كانت أهم الحملات التي تمت في عهده .

وبينما كانت اعمال بناء (الحدث) تتم وتسمى بالمهدية ويعظم كما قال اليعقوبي ارتفاق أهل الثغور بها وبمن نزلها من الجند ، جمع المهدي لهذه الحملة قرابة مائة الف جندي وحمل لها من المال حوالي المائتي ألف دينار ومن الورق (أي الفضة) ٢٢ مليوناً تقريباً . وحشد لها من كبار القواد عدداً على رأسهم يزيد بن مزيد الشيباني ، وضم إليه الربيع بن يونس[2] .. ومشت الحملة في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٦٥ ( أواخر شباط سنة ٧٨٢) فأوغلت في بلاد الروم على شكل سهم من مناطق البستان وقيسارية الى مناطق انقرة ثم إلى نيقوميديا ، الولاية المشرفة على البوسفور وبحر مرمرة ، فوقفت عند بلدة خرسوبوليس (اسكدار) والطريق الى القسطنطينية مفتوح ...

---

(١) الطبري ج٨ ص ١٤٤ـ١٤٦ (٣/٤٩٤ـ٤٩٦) .
(٢) الطبري ج٨ ص ١٥٢ـ١٥٣ (٣/٥٠٣ـ٥٠٥) .

افتتح الجيش الاسلامي على الطريق حصناً هو حصن ماجدةولقيته فرق الفرسان البزنطية بقيادة (نقيطا ــ نيكيتــاس) قومس القوامسة فسقط مثخناً بالجراح أمام يزيد الشيباني ، ثم هزم الدمستق ، صاحب المسالح في الولاية المتصلة بالعاصمة فلم يكن أمام الروم سوى الصلح كان على العرش الامبراطوري يومذاك الامبراطورة ايرين (أوغسطةامرأة اليون) وصية على ابنها قسطنطين السادس (٧٨٠ ــ ٧٩٧) وهذه أول مرةمنذ خمسين سنة[1] يصل فيها الجيش الاسلامي مشارف القسطنطينية ويهددها فجرت بينهــا وبين هارون الرســل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية • فعرض الجيش الاسلامي شروطه :

ــ تسعون أو سبعون ألف دينار من الجزية السنوية « تؤدى في نيسان الأول وحزيران من كل سنة » •

ــ تسليم مالدى الروم من أسرى المسلمين جميعاً •

ــ تمتد الهدنة ثلاث سنوات •

ــ تقيم بيزنطة الاسواق على طريق عودة الجيش الاسلامي وتقدم له الأدلاء «وذلك أنه دخل مدخلا صعباً مخوفاً على المسلمين» •

ويتلمس المؤرخون الغربيون الأعذار لبيزنطة في هذا الصلح المذل فيذكرون تارة أنها كانت مشغولة في تلك السنة بثورة في جزيرة صقلية وتارة أن بعض قواد الروم (تاتزيت) قد انحاز للمسلمين كيداً بالامبراطورة وحزبها وتارة ثالثة أن النزاع العقائدي بين أنصار الأيقونات وأخصامهم كان قد مزق بيزنطة ••• على أنه ما كان لمثل هذه الأمور التي كانت دوماً موجودة في بيزنطة أن تفعل شيئاً لولا قوة الجيش الاسلامي نفسه وقادته

(١) كان آخر هجوم اسلامي وصل هذه المنطقة في عهد سليمان بن عبد الملك (سنة ٩٦ــ٩٩/٧١٥ــ٧١٧) •

وكان حصاد تلك الموقعة بالنسبة إليهم حسب قائمــة الطبري : ٥٦٤٣ أسيراً قتل منهم ألفان ونيفاً و ٢٠ ألف دابة بأدواتها وذبح ١٠ آلاف رأس من البقر والغنم .. أما الغنائم فقد بلغت من الكثرة أن بيـع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم والدرع بدرهم و٢٠ سيفاً بدرهم !! مع أن عدد المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف[١] .

ولم يكن بإمكان الجيش العباسي أن يتقدم لحصار القسطنطينية وفتحها بعد ذلك لأنه لم يكن يملك القوة البحرية التي لابد منها لحصار تلك المدينة ولأن الجند العباسي كان ، في هذه الغارة البعيدة الخطوط قد أنهك كما كان مهدداً كل التهديد بأن تقطع عليـه طرق العودة وأن تنصب فيها الكمائن والهجمات الجانبية اثناء الانسحاب .

ولقد يكون الصراع الحزبي في البلاط مابين جماعة الرشيد وجماعة الهادي ولدي الخليفة ، قـد لعب بعض الدور في المبالغة بهـذا النصر وتضخيم أثره وغنائمه ولكن التواريخ البيزنطية بدورها لم تستطع أن تنقص من ذلك الأثر أو تنكر بعض الوقائع الأساسية فيه ومنها ــ وهو أهمها ــ وصول الجيش الى كريسو بوليس ــ على أنـه ما من شك بالمقابل في أن حزب الرشيد قد استغل أحسن الاستغلال هذا النصر أو لعله تعمد أن يكون النصر على هذا النحو من العمل الحربي الاستعراضي المليء بالمغامرة لكي يستغله فيما بعد في معركة الحصول على ولاية العهد لهارون . وقد نجح في ذلك وإذا نال المحاربون غنائمهم ونالت الدولة العباسية المجد والجزية التي وصلت مع المحاربين ورسل الروم في مطلع

---

(١) راجع تفاصيل الحملة لدى الطبري ج٨ ص١٥٢-١٥٣ ثم ص١٥٤ (٣/٥٠٤-٥٠٦) .

سنة ١٦٦ فإن هارون قد نال من تلك الحملة ولاية العهد الثانية ولقب الرشيد سنة ١٦٦ • وتبارى الشعراء في المديح والاشادة والغناء •

ولم تهدأ الجبهة ثلاث سنوات[1] لأن الروم نقضوا الهدنة قبل أربعة أشهر من انقضائها سنة ١٦٨ ولعلها إنما كانت مناوشة على الحدود أجاب عليها والي الجزيرة علي بن سليمان بإرسال بعض قواده : يزيد بن بدو البطال في سرية الى الروم فغنموا وظفروا •••

ولم يطل عهد الهادي لكي يشهد اكثر من حملة واحدة سنة ١٦٩ إذ «أقبلت الروم مع بطريقها الى الحدث فهرب الوالي والجند وأهل الأسواق فدخلها العدو •••» ناهباً مدمراً • وقد أجاب معيوف بن يحيى الحجوري قائد الثغور على ذلك بدخول أرض الروم حتى مدينة أشنة والسبي والنهب فيها •••

ب ـ **غزوات الرشيد** :بالرغم من أن «جهاد» الرشيد على جبهة الروم يعتبر أحد الدعائم التي تعطي سمعته الألق وتمنح عصره البهاء ، فإن هذا «الجهاد» لم يظهر بصورة واضحة إلا في السنوات الست الأخيرة من حكمه ، بعد النكبة البرمكية بحيث يمكن أن نقسم علاقاته مع الروم إلى فترتين :

١ ـ فترة الهدوء النسبي الذي امتد ما بين (١٧٠ ـ ١٨٠ هـ) ـ

---

(١) يذكر اليعقوبي (ج٢ ص٤٠٢) غزوات قام بها تمامة بن الوليد سنة ١٦٦ والفضل بن صالح سنة ١٦٧ ومحمد بن ابراهيم سنة ١٦٨ ولعلهم إنما سموا للقيادات في الثغور في تلك السنين احتياطاً للطوارىء وخوفاً من نقض الهدنة ولكنهم لم يباشروا الحرب .

(٧٨٦ ــ ٨٠٣م) ولم تحدث فيه سوى غزوتين هامتين •

٢ ــ فترة الصدام الحربي الذي استمر منذ (١٨٧هـ ــ٨٠٣م)حتى ما بعد عهد الرشيد وليس معنى هذا التقسيم أن الحـــرب انقطعت في السنوات السبع عشرة الاولى من عهد الرشيد • انهـــا كانت مستمرة ولكنها كانت محلية الأثر والحدود ، تعتمد على المناوشـــة لا الفتح ، والسمعة التي نالها الرشيد في أواخر عهده انسحبت على جميع أيامه ، والمؤرخون يرددون أنه كان يغزو سنة ويحج سنة • وبصرف النظر عن هذه الكلمة التي أريد بها الدعاية لتقاه ولقيامه بالفرائض الدينية ، فإن تتبع أعمال الرشيد ، حتى في أيام حربه ولحظات انتصاره ، لاتبين أنه أضاف خطاً جديداً الى سياسة أبيه وجده من قبل ، تجـــاه الروم وهي سياسة الدفاع عن الحدود ، وتحصينها والانتقام لكل عدوان عليها ! والقيام بالغزوات الوقائية بين فترة وأخرى • وهكذا فإنا لانكاد نعثر على هدف لتلك الحروب سوى تأكيـــد قوة الدولة الاسلامية •

وبالرغم من أن الغزو لم ينقطع فلم يكن «الفتح» واستصفاءمملكة الروم ضمن الخطة العباسية ، ولم ينجم عن الغزوات أي تغيير يذكر في الحدود أو في موقف الطرفين • كما لم تعد على الرشيد بأي ربح مادي لأنها كانت تكبد الدولة الاسلامية ، كما تكبد البيزنطيين ، الكثير من الخسائر في الجند والمال • ولعل مما يثبت هدفهـــا الوقائي أن القيادة العباسية لم تفكر في استغلال الظروف الحرجة التي مرت بها دولةبيزنطة، في تلك الفترة ، وحين كان الجيش العباســـي ينتصر بل ويـــدق أبواب القسطنطينية كان يكتفي بأخذ الجزية ، ثم كان يعود ليبني بأمر الرشيد «الثغور» ويحصن «العواصم» ، أي يثبت بأيديه الحدود القديمة •

أ ــ وفي الفترة الهادئة الاولى من أيام الرشيد عني الخليفة :

أولا : بتنظيم الحدود مع الروم وتحصينها • فمنذ تولى الخلافة سنة ١٧٠ فصل الثغور الشامية عن الثغور الجزرية الى منطقتين عسكريتين مميزتين وسمى الشامية منها بالعواصم • وجعل عاصمتها منبج • وبذل الجهد في تعزيز العواصم وإعمارها وخاصةمنها (طرسوس) التي ظلت منذ عهد المنصور ميدان الحرب والتي يمر منها أحد الطريقين المؤديين من الأناضول الى سورية • وواضح من هذا أن الرشيد كان يقصد الى ايجاد وحدة عسكرية قوية تضمن الدفاع عن الحدود فلا تكلفه عناء التفكير الدائم بالجبهةالرومية او باتخاذ تدابير الغزووالإرغام عليها •

ثانيا : بايجاد قوة بحرية • فالبلاذري[1] يذكر أن هارون «•• اقام من الصناعة ما لم يقم قبله وقسم الأموال في الثغور والسواحل» ويظهر من الأعمال البحرية التي ظهرت في خلافته ، ومن تفكيره بفتح قناة السويس التي ثناه عنها جعفر البرمكي قائلا له : « أتريد أن يتخطف الروم الحجاج عن عرفات» يظهر أن الرشيد بذل ، دون غيره من خلفاء بني العباس جهداً بحرياً محدودا للاستفادة من إشراف الدولة العباسية على البحرين التجاريين الوحيدين إذ ذاك المتوسط والهندي ولكن لم يستطع الرشيد أن يصل في أسطوله البحري إلى الدرجة التي تجعله يتوازى مع قواته البرية • فظل الجيش العباسي قوة برية فقط • ولعل الرشيد كان

---

(١) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ١٩٣ (طبعة المنجد) .

من جانبه أيضاً لا يؤمن بنجاح هذه المحاولة في تحويل الدولة العباسية الى دولة بحرية ، فكانت كلمة واحدة من جعفر كافية لاثارة مخاوفه على حجاج عرفات من قراصنة الروم !

ثالثا : بالمحافظة على «استمرارية» الحملات الدورية على جبهة الروم سنة بعد سنة ولكن دون تغير في المواقع • وإنا لنرى من القواد في الثغور عدداً قاموا بالغزوات الصائفة الدورية بين سنتي ١٧٠ ــ ١٨٦/٧٨٦ ــ ٨٠٢ ــ ولقد تختلف قائمة أسمائهم لدى الطبري وابن الأثير عنها لدى اليعقوبي[1] • ومنهم سليمان بن عبد الله البكائي ، واسحق بن سليمان بن علي ، ومحمد بن ابراهيم ، وعبد الملك بن صالح العباسي وابناه عبد الرحمن والفضل ، وعبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي ، ومعاوية بن زفر بن عاصم ••• ومنهم من ورث القيادة عنه ابنه ومنهم من قد وصل في بعض الغزاة الى انقرة أو أفسوس كعبد الملك ابن صالح سنة ١٨١ و ١٨٢ أو فتح بعض الحصون وكان آخر القواد في هذه الفترة القاسم بن الرشيد الذي أعطاه أبوه ولاية العهد الثالثةولقبه بالمؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم وأشخصه الى منبج فأنزله إياها بما انضم إليه من القواد والجند وأغزاه الصائفة في العام التالي سنة ١٨٧ و«وهبه ــ على قول الطبري ــ لله وجعله قرباناً له ووسيلة» وكان ذلك بعد أشهر فقط من نكبة البرامكة •

رابعاً : بالتفوق العسكري العربي في البر وبدفع الروم للجزية السنوية • ويعزو الباحثون الضعف البزنطي إذ ذاك الى الصراع الداخلي

---

(١) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٣٤١ والطبري وابن الأثير في خواتيم السنوات المذكورة .

حول الحركة اللاأيقونية وينسون العامل الايجابي المتعلق باستقرار وقوة الجيش العباسي • وقد «اضطر حكام القسطنطينية ـ حكامها جميعا بلا استثناء تقريبا ـ أن يؤدوا في تلك المدة (ومنذ أيام المهدي) قدراً كبيراً من الذهب جزية لخلفاء بغداد فمثلا نرى قسطنطين الخامس من أقدر حكام البيت الايسوري مضطرا عام ٧٧٢ الى دفع مبلغ ضخم تأميناً لحدوده الشرقية وكان اشتغاله باللاأيقونية والبلغاروالفرنجة بايطاليا حائلا دون التفرغ لتركيز قوته في الشرق ثم تجددت هذه الجزيات زمن ايرين سنة ٧٨١ حين تحرك الجيش الاسلامي عبر الأناضول إلى البوسفور وشاهد عام سنة ٧٩٨ تدفق الذهب من جديد نحو بغداد بعد أن بلغت جيوش المسلمين مدينة أفسوس كذلك أجبر نقفور خليفة ايرين على دفع الجزية بعد عام ٨٠٦ حين بلغت جيوش هارون الرشيد الكبيرةالعدد مدينة هرقلة الواقعة قبالة القسطنطينية ••»[1] •

ولعل أبرز أعمال الرشيد الحربية في هذه الفترة الهادئة الأولى هي :

انتقامه سنة ١٧٤ هـ سنة ٧٩٠ م من الروم الذين أسروا بعض الجند العباسي المسافر في البحر من مصر إلى سورية فتحرك أسطول عربي من مصر الى قبرص ومنها الى سواحل آسيا الصغرى الجنوبية والتقى في خليج (آضاليا) مع اسطول الروم فهزمه وأسر أمير البحر البيزنطي •

ويلفت النظر خبر غزوة شاتية قام بها سليمان بن راشد سنة ١٧٨

---

(١) ارشيبالدلويس ـ القوى البحرية ص١٧١ـ١٧٢ على انهرقلة واقعة في اقليم المطامير من قبادوكيا وليس قبالة القسطنطينة .

وكان يرافقه البيد بطريق صقلية[1] مما يوحي بأن ثورة الصقليين على بيزنطة قد أدت الى وصول بطريقهم الى بغداد والى اشتراكه في بعض الحملات ضد الروم •

وبالرغم من أن فداء للأسرى بين (العربوالروم) قد تم سنة ١٨١هـ ٧٩٧م بجانب البحر على نهر اللامس قرب طرسوس وقد تولاه القاسم ابن الرشيد فافتدى من المسلمين ٣٧٠٠ أسير[2] في مهرجان كبير ففي هذه السنة نفسها غزا الرشيد بيزنطة بنفسه • فسار الامبراطورقسطنطين السادس إلى لقائه ولكن أم الامبراطور (ايريني) التي كانت تطمع بالعرش ، خافت أن ينتصر ابنها على المسلمين فيقوى مركزه • فتآمرت عليه مع قائدها (استوراكيوس) الذي أشاع ان العباسيين قد تراجعوا فعاد قسطنطين الى العاصمة • وبينما كانت أمه تخلعه وتسمل عينيه وتتوج نفسها بدلا منه ، كان الرشيد يوغل في الأناضول ويفتح حصن الصفصاف عنوة سنة ١٨١[3] ، ويصل قائده عبد الملك بن صالح حتى أنقرة ويفتتح (مطمورة)[4] ويرفض طلب (ايرين) للصلح فتستمر الحرب سنتين حتى إذا هاجم الخزر أرمينيا سنة ١٨٤ قبلت الجزية من ايريني مقابل المهادنة !

ب ــ الفترة الساخنة : على أن الانقلاب الذي قام به القائد نقفور

(١) الطبري ج٨ ص ٢٦٠ (٣/٦٣٧) والبيد هذا هو إلبيديوس الذي ثار على بيزنطة ثم فر من صقلية الى العرب حيث لقي من الترحيب ما لا يلقاه امبراطور روماني .

(٢) ابن الأثير ٦ ص ١٥٩ .

(٣) وقد قال شاعر الرشيد مروان بن أبي حفصة في ذلك (الطبري ج٨ ص ٢٦٨) :

ان أمير المؤمنين المصطفى ... قد ترك الصفصاف قاعا صفصفا

(٤) الطبري ج٨ ص٢٦٨ (٣/٦٤٦) .

في القسطنطينية ضد ايريني سنة ١٨٧هـ ٨٠٣ م ، جر الـى انقلاب في العلاقات الهادئة مع العباسيين وبوصوله الى العرش بدأت الفترةالساخنة على الحدود العربية • وأصاب العمليات الحربيـة تصعيد خطير مهدد للطرفين • فنقفور كان محاربا عنيداً وبعض المصادر الرومية تروي أنه عربي الأصل من آل جفنة الغساسنة ، كما وصف من قبل بعض مؤرخي الروم بأنه ذو عقلية عربية •

وقد اتفق أن رافق هذا التطور على الجانب البزنطي تطور آخر يقابله على الجانب العربي ، وهو تطور كان يمس الرشيد نفسه وسمعته ونظامه • ذلك أنه نكب البرامكة في تلك السنة سنة ١٨٧ • وقد نجم عن تلك النكبة نوع من الهزة في الجهاز الاداري للدولـة وفي صدور الناس • وكان الجهاد ضد الروم احد السبل التي بدا للرشيد أنهيستطيع أن يثبت فيها اختلافه في السياسة والادارة وفي القيام بواجب الدين والمسلمين عن البرامكة وهكذا كان التصعيد الحربيعلى الجبهة العربية الرومية انعكاسا للأحداث الداخلية التي جرت في كل من العاصمتين في وقت واحد تقريباً •

وكما أن الانقلاب الرومي كان أسبق في الزمن من نكبة البرامكة التي جاءت بعده بشهرين تقريباً (تشرين الثاني سنة ٨٠٢ الى كانونالثاني سنة ٨٠٣) فإن الروم هم الذين بدأوا بدورهم النقض والتصعيد •

بدأت الأحداث حين نقض نقفور ماكانت الامبراطورة المخلوعة قد اعتادت دفعه من الجزية السنوية للعباسيين ، وذلك بغية كسب الصيت والسمعة لانقلابه • ولكن الثورة الداخليـة التي قامت ضـده (ثورة باردانس) منعته من أن يقف للفرقة العباسية التي تحركت لإرغامه والتي

عين لقيادتها تلك السنة القاسم بن الرشيد ، كأمير للعواصم ، فحاصر الجيش العباسي حصن قره (كوروم) وبعض الحصون الاخرى واتجه من قلقيلة الى هرقلة لكن قلة الزاد والمؤونة جعلته يرضى بالتراجع مقابل اطلاق سراح ٣٢٠ أسيراً مسلماً والتعهد من الروم بدفع الجزية السنوية المعتادة .

على أن نقفور ، تخلص من الثورة بسرعة ، وأبلغ الرشيد ، قطع الجزية في رسالة يذكر المؤرخون أنها جاءت بهذا النص[١] :

«من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب

«أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ واقامت نفسها مقام البيدق فجعلت اليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكنه ضعف النساء وحمقهن . فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك . وإلا فالسيف بيننا وبينك» .

ويقال إن الرشيد حين تلا الكتاب غضب أشد الغضب ودعا بدواة فكتب على ظهر الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ماتراه دون أن تسمعه والسلام» .

ونص الكتابين لايرد في المصادر الرومية . وأولهما خليق أن يكون من إنشاء بعض كتاب العباسيين بما فيه من قوة السبك كما أن من

---

(١) الطبري ج٨ ص٣٠٧-٣٠٨ (٣/٦٩٥-٦٦٩) .

المستبعد أن يتنزل الرشيد إلى درك الشتيمة ، حتى في أوج الغضب ، لا سيما وهو يخاطب امبراطوراً لدولة مجاورة . وليس ببعيد أن يكون الكتاب والجواب قد سجلا بمعانيهما لا بنصوصهما الأصلية وعلى أي حال فهذه الحادثة كانت نقطة انقلاب الرشيد من دور المهادنة للروم إلى دور الصدام الحربي الذي استمر منذ سنة ١٨٧ هـ حتى نهاية عهده . وكان المحرض الرئيسي فيه وجود نقفور على عرش بيزنطة ونقضه مرة بعد مرة حدود الصلح مع العباسيين .

وقد تقدم الرشيد في ربيع الثاني سنة ١٨٨ (نيسان ٨٠٤م) إلى هرقلة واحتلت بعض فرقه عدة حصون كما أخذت مقدمته أنقرة . وهزم نقفور حين حاول أن يصده وجرح ثلاث جراحات في المعارك وانهزم تاركاً في الميادين اكثر من أربعين ألف قتيل . وكان بين ما غنمه المحاربون المسلمون أربعة آلاف دابة[1] ...

ويظهر أن الرشيد تأخر في الغزو طول الصيف فقبل مهادنة نقفور على الجزية وألا يبني الروم الحصون المهدومة . ومقدار الجزية دينار عن كل ذي حلم من الروم سوى نقفور وابنه .

على أن الرشيد ماكاد يرجع حتى استغل نقفور فترة الشتاء فنقض الهدنة أول نقض له واضطر الخليفة لأن يعود فيقمعه . ويتفق معه في هذه المرة ، على تبادل الأسرى «فلم يبق بأرض الروم ـ على قول الطبري ـ مسلم إلا فودي به[1]» ولعل ذلك كان أواخر سنة ١٨٨ . وفي سنة ١٨٩ هـ (سنة ٨٠٥ م) لم يجرؤ أحد من حاشية الرشيد

---

(١) الطبري ج٨ ص٣١٣ (٣/٧٠١) .

ان يبلغه أن نقفور استغل ما على أيـدي الخليفـة من شؤون ايران ومشاكلها لينقض الصلح وشروطه ، مرة ثانية • حتى وقف شاعر ينشد الرشيد :

نقض الذي عاهدتـه نقفور
وعليه دائـرة البـوار تدور

أبشر أمير المؤمنـين فإنـه
نصر أتـاك بـه الإله كبير !

وعرف أمير المؤمنين أن نقفور يبني الحصون في أنقرةوالصفصاف ودبسة وأنه أرسل جيشاً هاجم طرطوس ، وخرب (عين زربـة) وكنيسة السوداء وأسر الكثير ولكن حامية المصيصة هاجمت الجيش البيزنطي واستردت معظم الأسرى والاسلاب •

وثارت حفيظة الرشيد فسار في رجب سنة ١٩٠ هـ (حزيران٨٠٦م) بجيش ضخم يقدره الطبري «بمائة وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى الأتباع وسوى المتطوعة وسوى من لاديوان له •••» وقد اشتركت في الجيش فرق من مختلف انحاء الامبراطورية العباسية • ويمكن أن نعتبر هذه الحملة أوسع حملات الرشيد ضد بيزنطة وان لم تكن أعظمها فتحاً وذكراً • ولعل الرشيد قصد الى العمل الدعائي حين اتخذ لنفسه ، في تلك الحملة قلنسوة كان يلبسها وقد كتب عليها : غاز حاج !

عبر الجيش الحدود في ١١ حزيران سنة ٨٠٦ فاحتل بعد شهر من الحصار حصن هرقلة وسباها وأخربهـا وانتشر في منطقـة (المطامير) الأناضولية يفتح حصون (الصقالبة ، دبسة ، الصفصاف ، مقلوبية ،

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٢٠ (٧٠٩/٣) .

سنان ، صملة ، ذي الكلاع ،) وبينما كان داوود بن عيسى يطوف سائحاً في أرض الروم للتخريب مع سبعين ألفاً كان شراحبيل بن معن بن زائدة ويزيد بن مخلد يفتحان الحصون بعضها وراء بعض وكان الغزو البحري في الوقت نفسه يقوم بدوره . ولم يستطع نقفور أن يصنع شيئا لرد غزوة الرشيد لأن البلغار كانوا يهددون على الطرف الآخر من بيزنطة العاصمة نفسها . فأرسل يطلب الصلح . وقبل الخليفة أن يرجع عنه مقابل ثلاثمائة ألف دينار . وأن يدفع جزية شخصية عنه قدرها أربعة دنانير سنوياً وعن ابنه ديناران كما يدفع أهل الذمة في المملكة الاسلامية . يريد الرشيد بذلك أن يأخذ عليه الاعتراف بأنه داخل في ذمة الخليفة . واشترط الرشيد الى ذلك أن لا يبني حصناً على الحدود وأن يبني بعض الحصون ( صملة ، سنان ذي الكلاع ) ليسلمها سالمة إلى جند الخلافة[1].

لم يكن الرشيد خلال ذلك بغافل عن خطر الروم في البحر وعن أثر الضغط البحري عليهم ولهذا فانه في الوقت الذي أرسل فيه سنة ١٨٩ منشورا إلى ثابت بن نصر الخزاعي أمير الثغور الشامية وباقي عمال الشام باطلاق التنبيه في البلاد بالرحيل الى لبنان وبلاد الساحل لتشتد قوة أمرائه نراه ولى ( حميد بن معيوف ) سواحل البحر المتوسط، أي سواحل الشام ومصر . فغزا بالاسطول الذي جمعه بثغورها جزيرة قبرص سنة ٨٠٦ غزوة مدمرة سبى بها ستة عشر ألفاً بينهم أسقف الجزيرة وقدم بهم ( الرافقة ) على الفرات ولكنهم أعيدوا إلى ديارهم

---

(١)يروي الطبري أن نقفور ارسل عقب الصلح يطلب افتداء خطيبة ابنه التي أسرت في هرقلة . ويورد نص كتابه . واستجابة هارون لطلبه وتسيير الفتاة مع هدايا الطيب والديباج ... ( الطبري ج ٨ ص ٣٢١ ) .

(٢) محمد كرد علي ــ خطط الشام ج ١ ص ٦٨

في صلح سنة ٨٠٧ وطلب الرشيد إلى اتباعه الاغالبة في تونس أن يقودوا حملة بحرية تخريبية وصلت الى جزر البلوبونيز ( اليونان ) وخربت عددا من الموانىء والشواطىء ...

ولم تقف المعركة بعد ذلك فقد غزا حميد في السنة التالية جزيــرة رودوس كما غزا قبرص التي نقضت العهد . بينما تجددت الحرب على الحدود البرية بنقض جديد من نقفور لم يستطع الرشيد قمعه بالشـــدة الأولى لما كان على يديه من ثورة خراسان فبقيت حالة الحرب قائمــة ولكنها مقصورة على المناوشات الموضعية دون كبير جدوى أو نجاح. وقد حاول الرشيد في هذه الفترة تنظيمها بشكل دفاعي .

وبعد أن غزا يزيد مخلد الهبيري أرض الروم سنة ١٩١ من عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضيق ( في كمين ) فقتلوه على مرحلتين مــن طرسوس في خمسين رجلا وسلم الباقون . مضى الرشيد بنفسه الى درب الحدث وعهد الى هرثمة بن آلمين بغزو الصائفة تلك السنة وضم اليه ثلاثين ألفا من جند خراسان ومعه مسرور الخادم للنفقات ولجميـــع الأمور خلا القيادة ، وعين قائدا للحدث ( عبدالله بن مالك) وآخر لمرعش ( سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي ) وثالثا لطرسوس ( محمد بن يزيد بن مزيد الشيباني ) . لكنه قبل أن يعود الى الرقة عرف أن الروم أغاروا على مرعش وأصابوا من المسلمين !

ويبدو أن هذه الأحداث الحربية مع البيزنطيين هي التي دفعــت الرشيد إلى أن يأمر في تلك الأيام بهدم الكنائس في الثغور وبأن يكتب الى السندي بن شاهن صاحب شرطته في مدينة السلام يأمره بأخذ أهل الذمة فيها بمخالفة هيئة المسلمين في اللباس والركوب ..

وتخمد الجبهة سنة ١٩٢ إلا من غزوة فتحت فيها بعض المطاميــر

ومن جسر الفداء الذي جرى في البدندون. ثم يغيب شبح كل من الرشيد ونقفور معاً في وقتين متقاربين سنة ١٩٣ ـ سنة ١٩٥ يموت الاول في طوس في طريقه إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الثائر عليه ، بينما يقتل نقفور على الجبهة الاخرى الغربية مع البلغار مع ابنه ويشرب ملكهم الخمر في قحفه جمجمته دون أن يستطيع الاستفادة طويلا من هدوء الجبهة العربية ـ الرومية ولم يكن ذلك بسبب القتال الاخوي بين الامين والمأمون فقط ولا بسبب الثورات التي قامت في مناطق المواجهة العربية البيزنطية وغيرها ولكن أيضا بسبب الاضطراب الداخلي الذي غرقت فيه بيزنطة نفسها أيضا والثورات في أرضها المتاخمة للعرب وتقلب الاباطرة السريع عليها مدة تزيد على عشر سنوات حتى استقر بعد سنة ٨٢٠ ( ٢٠٥ هـ ) على العرش الامبراطور ميخائيل الثاني الأمي ( ٨٢٠ ـ ٨٢٧ ) مؤسس الأسرة العمورية .

جـ ـ غزوات المأمون : قضى هذا الخليفة معظم سني حكمه دون اتصال دائم مع البيزنطيين . فقد كان بينه وبينهم دوماً ( عازل ) من الثوار : نصر بن شبث ثم القائد عمرو ، ( الذي يسميه الروم ـ فيما يرجح فازيلييف ـ تيوفوب ) في الجبهة الشامية . وبابك الخرمي في جبهة أرمينية . هذا إلى أن الخليفة كان أول الأمر بعيدا عن بغداد ، في خراسان أي بعيدا عن الخطر البيزنطي المباشر . وأن الروم كانوا ، في تلك الفترة ، مشغولين بما عليهم من البلغار في البلقان ومن المسلمين الأغالبة في صقلية .

بدأ اهتمام المأمون بجبهة الروم والأناضول ـ فيما يبدو ـ حوالي سنة ٢٠٥ أو قبلها بقليل حين برز على تلك الجبهة قائد بيزنطي طموح هو توماس الصقلبي .فان هذا القائد ثار على ميخائيل الثاني الذي تسلم العرش الامبراطوري تلك السنة ويبدو أنه أراد أن يحمي ظهره

من هجوم عربي عليه إذا هو مشى الى القسطنطينية فاستعرض عضلاته في هجوم قوي عنيف على ثغور الشام لم تعبر مثله قوة رومية جبال طوروس منذ أضحى الشام أقليما عربيا ــ على حد قول المؤرخ بيوري ــ وقد حقق هذا الهجوم أغراضه اذ أرسل المأمون وفدا من قبله التقى بتوماس وخرج من اللقاء باتفاق يعتقد المؤرخون البزنطيون والباحثون أنه وقع بين المأمون و بين توماس جوابا على تفاهم الروم مع بابك الخزمي وان كانت المصادر العربية لاتذكر شيئا من ذلك .. وهدأت الجبهة سنوات حتى انهارت ثورة توماس سنة ٨٢٢ ثم قتل في السنة التالية ثم بدأ الهجوم الرومي سنة ٨٢٥ (٢١٠ هـ) بتدمير زبطرة وقبل ان تتحرك الجيوش الاسلامية للرد جاء وفد ملك الروم يطلب الصلح فلم يجد المأمون وبينما كان البناؤون يعيدون بناء زبطرة كان عمال الثغور يسوحون بأمر من المأمون في بلاد الروم ويكثرون فيها القتل والتخريب والظفر ولو أن قائدا من قوادهم ( يقظان بن عبد الأعلى بن أحمد السلمي ) أصيب . كان الروم يريدون من الصلح إعادة بناء ما خربته ثورة توماس من الأناضول ولهذا لم تلجأ قواتهم الى الغارات الانتقامية ولكن الى السكوت لاسيما وأنها كانت منصرفة الى مدافعة البلغار من جهة شمال البلقان والى الحرب في صقلية من جهة اخرى ...

ثم افتتحت الغزوات المأمونية فجأة في المحرم من سنة ٢١٥ هـ ( آذار سنة ٨٣٠ ) ويبدو أن ذلك كان نتيجة الهجوم التدميري الذي شنه الروم على انطاكية سنة ٢١٣ هـ ( سنة ٨٢٨ م )[1] انتقاما منها لموقفها

---

(١) لم تذكر هذا الهجوم المصادر العربية ولكن ذكره البطريق ميخائيل السرياني ( الكبير ) في تاريخه . انظر الترجمة الفرنسية التي قام بها الأب شابو

Chronique de Michel le Syrien, ( éd. Chabot) Vol III, p.101

المعادي لبيزنطة دينيا وسياسيا والذي عبرت عنه حين توج بطريقها البطريق ايوب الثائر توماس الصقلبي امبراطورا • وهو تتويج لم يكن رأى المأمون في الغالب غائبا عنه ولا يمكن أن يكون تم بدون علمه وإشارته [١] •

وأعد المأمون لحرب الروم عدة كبيرة وخرج لتلك الحرب بنفسه وجيوشهوقواده وقد ظهر إذ ذاك كأن المأمون يريد أن يعطي شيئا من همه وجهده إلى الجناح الغربي من المملكة ، وقد كان منتقضا عليه في مصر والشام وعلى الحدود البيزنطية وربما شجعه احتلال أهل الربض الأندلسيون لجزيرة كريت سنة ٢١٣ أيضا فخرج من بغداد ثم لم يعد ، ليستقر فيها ، أبدا !

اتخذ طريقه أولا الى الجزيرة ، ويتصل وصوله الى حران بأول ذكر للصائبة في الاسلام إذ اكتشفهم المأمون فيها ، وكانوا بقية من الديانة البابلية القديمة الممتزجة بالفلسفة الهلينستية ، فاختاروا لأنفسهم اسم (الصائبة) لوجوده في القرآن الكريم وأصبحوا من أهل الذمة[٢] •

---

(١) انظر بيوري ، واوستروغوروسكي

Bury. A His. of the Eas. Rom. Emp. p 88

Ostrogorwoski, His. of the Byz. State (Trans. Hussey) p. 182

(٢) هؤلاء الصابئة كانوا بقايا فرقة وثنية تعبد النجوم وتقول بالثنوية الإلهية وهم غير الصابئة (المندبين) الذين هم طائفة يهودية نصرانية كانت تسكن الأغوار حول البصرة ولا تزال لهم في العراق الى اليوم بقية تعرف باسم ( الصبة ) وتعمل جمهرتها في صياغة الفضة .

وغزا المأمون الصائفة بنفسه سنة ٢١٥ ، وفتح عـدة حصون ، كان إهمال الحدود وقيام الثورات عليها ، قد أوقعاها في أيدي البيزنطيين ( مثل حصن صملة أو شمال وسندس وقره ، وماجدة وسنان ) ، وبلغ الغزو قلب الأناضول ومنطقة المطامير .

وقد تابع المأمون بعد ذلك طريقه إلى دمشق ثم إلى مصر يريد أن يتعرف عن قرب الى السر في اضطرابها الدائم . غير أن غارة انتقاميـة بزنطية أعادته من جديد الى الأناضول . فقد قاد الامبراطور تيوفيل بن مخائيـل جيشا كبيرا نفـذ به الى طرطوس ثم الى المصيصة في قلـب «العواصم» العربية . وأثخن فيها القتل ـ على قول المؤرخين ـ وأسر ٢٥ ألفاً من المسلمين ودخل القسطنطينية بعد ذلك في استقبال باذخ وموكب لم تشهده العاصمة البزنطية منذ عهد بعيد وقد أسهب مؤرخو الروم[١] في وصفه !

ويظهر أن المأمون كان لا يزال يذكر ما قاسى أبوه في أواخر عهده من نقفور ، وما يقاسي هو ، من تآمر البزنطيين عليه مع بابك ومع كل ثائر عليه في الحدود ونقضهم الصلح معه ، فتبلورت في رأسه لأول مرة خطة « فتح » منظم ، مالبثت أن توضحت شيئا فشيئا .

عاد المأمون في جمادى الأولى سنة ٢١٦ إلى جبهة الروم ففتح هرقلة وأتبعها بفتح اثني عشر حصناً[٢] أو ثلاثين حصناً ـ على قول الطبري ـ عدا المطامير المحصنة فلما أرسل تيوفيل يسأل المأمون «أن

---

(١) يراجع في ذلك كتاب العرب والروم لفازيلييف .
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٦٥ والطبري ج٨ ص ٦٢٥ ( ٣/١١٠٤ ) .

يقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير (المصادر الرومية تجعلهم ٢٥ ألفاً) وأن يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ويكف عن الحرب خمس سنين ٠٠ » رفض المأمون استلام الكتاب أول الأمر بحجة أن ملك الروم بدأ فيه باسمه ، وقال المأمون : لا أقرأ له كتاباً يبدأ فيه باسمه ، فلما أعاد الرومي الكتاب بادئاً باسم عبد الله (المأمون) ملك العرب رفض المأمون الموادعة كلها ولو أنه لم يسيء لقاء السفير الذي حملها إليه وهو (جان) أو يوحنا النحوي ، أحد علماء بيزنطة الذين يعرفهم المأمون حق المعرفة ٠

وانصرف المأمون في الشتاء إلى مصر لتهدئة الثورة التي قام بها الفلاحون في أدنى الأرض (الدلتا) من عرب وقبط ٠ وعاد من جديد سنة ٢١٧ (٨٣٢) ومعه أخوه أبو إسحق (الذي سنعرفه باسم المعتصم) وابنه العباس ، فافتتح حصن لؤلؤة وأمر ببناء بلدة (الطوانة) وتبينت خطته بأنها خطة فتح لا خطة غزو حين عزم على فتح عمورية ( مسقط رأس البيت المالك ) وفتح القسطنطينية وتوطين العرب البدو في منطقة الأناضول بلداً بلداً مع سير الفتوح ٠٠ « وقال أوجه إلى العرب فاتى بهم من البوادي ثم أنزلهم كل مدينة أفتحها حتى أضرب القسطنطينية[1] ٠٠» ٠

وأرسل امبراطور الروم إليه يجدد طلب الصلح وقال في كتابه : « وقد كنت كتبت إليك داعياً الى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة ٠ فإن أبيت فإني لخائض إليك غمارها ٠٠» ٠ ولم يكن جنوح تيوفيل الرومي

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٩٦ والطبري ٨ ص ٦٢٥

الى الصلح نتيجة رغبة في السلام ولكنه كان يريد أن يوجه موارده وقواه لاسترداد صقلية من المسلمين الذين بدأوا احتلالها . وكان هذا الاحتلال يغلق باب المتوسط الغربي على بيزنطة ويلغي وجودها هناك .

وكان لابد أن يرفض المأمون مثل هذا الصلح المشوب بالتهديد ، لا سيما وأن نجاح الأعوام الثلاثة الماضية قد شجعه على العزوف عن انهاء القتال الرابح فأجابه بتهديد أشد منه وختم كتابه بقوله : « .. غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجّة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنفية فإن أبيت ففدية توجب ذمة .. وإن تركت ففي تعيين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ[1] .. » .

وواضح من هذا الكتاب ، ومن السور الذي بناه المأمون على مدينة الطوانة وجعله ثلاثة فراسخ ، ومن استقدامه القوات الى العواصم من العراق والشام ومصر ، أن المأمون كان على عزم تنفيذ خطة واسعة للخلاص من الدولة البزنطية جميعاً .. غير أن الأجل أعجله قبل أن يتحول بخطته إلى التنفيذ فمات بالحمى سنة ٢١٨ (٨٣٣م) قلى نهر البدندون بجوار طرطوس ودفن فيها . وجمع أخوه ( أبو إسحق ) الجند الذي بايع له حسب وصية المأمون وقفل عائداً إلى بغداد .

**معنى الحروب مع الروم وميزاتها ونتائجها** : يمكن ان نجمل

---

(١) انظر الكتابين لدى الطبري ج٨ ص ٦٢٩ - ٦٣٠ ( ٣/١١٠٩-١١١١ ) . ولعلنا نشير الى ما يؤكده الكتابان من اتصال المصالح الاقتصادية بين الطرفين ومن حركة المتاجر وأمن الطرق واتصال المرافق . وهو ما يكشف الجذور الاقتصادية لتلك الحروب .

علاقات العرب الحربية مع الروم في الفترة العباسية التي ندرسها ، في مجموعة من الملاحظات العامة :

**أولا :** إن الحروب كانت مستديمة إلا في الأحوال التي تضطرب فيها الأحوال الداخلية في إحدى الدولتين . وكانت المبادهة فيها تأتي من الطرفين على السواء . وهذا يعني أن حالة العداء كانت هي الأساس في العلاقة بين الطرفين ومن قبل كل من الطرفين . فلم يكن موقف أباطرة الروم بأكثر مسالمة من موقف العباسيين . وإذا كان في هذا الغداء بعض العنصر الديني فإنه لم يكن دينياً كله ، ومن الجانبين . ولكنه كان اقتصادياً أيضاً في أعماقه ويرتبط بالتنافس على خطوط التجارة العالمية عبر الأناضول وبحاجة منطقة العراق المرتبطة بالخليج العربي والمحيط الهندي الى ذلك الامتداد البري الذي تسير عليه الطرق المتوجهة الى أوربا والى ضمان سيطرتها عليه . كما كان العداء سياسياً أيضاً يرتبط بدفع الخطر عن العاصمتين المتقابلتين لكل من الطرفين بغداد والقسطنطينية وبضمان الأمن كما يرتبط بطلب النفوذ والسيادة الدولية لهما .

**ثانيا :** أدى استمرار الحرب الى وضع نظام دائم لها فكانت الغارات تجري في الربيع وفي الصيف وفي الشتاء أما غزو الربيع فيبدأ في وسط مايس حين تقوى الخيل وتسمن من مراعي الربيع . ويدوم الغزو ثلاثين يوماً (حتى أواسط حزيران) . وفي هذه الأثناء تجد الخيل من مراعي الروم ربيعاً ثانياً لها . ثم يستريح العرب وتستريح خيولهم شهراً حتى أواسط تموز وتبدأ حين ذلك حملة الصيف وتدوم ستين يوماً . أما حملة الشتاء فلا تكون إلا في حالات الضرورة القصوى ولم يكونوا على أي حال يمعنون فيها في التوغل ، بأرض العدو . وكانوا يحرصون على ألا تدوم أكثر من عشرين يوماً، يحمل فيها الجند على خيولهم المؤونة

الضرورية لهذه الأسابيع الثلاثة • ويكون الغزو عادة في آخر شباط والنصف الأول من آذار •

**ثالثاً :** لم يتغير خط الحدود العربي ـ الرومي بنتيجة تلك الحروب كلها • وقد كان خلال العصر العباسي كله عبارة عن سلسلة من المواقع المحصنة تبدأ من طرطوس على البحر المتوسط ثم تذهب شرقاً إلى أذنة على نهر سيحان ( وهي ساروس قديماً ) والمصيصة ( مبسوسة ) على ضفتي جيحان ( برماموس قديماً ) ثم إلى الشمال الشرقي حتى مرعش ( غير بعيد من جرمانيكا القديمة ) بعد أن يمر في غرب اللكام الشمالي بحصن الهارونية الذي بناه هارون الرشيد• ثم تمتد سلسلة الحصون في شمال شرقي مرعش غير بعيد منها حتى ( الحدث ) التي يختلف الجغرافيون في تحديد موقعها المضبوط • وفي شمال شرقي هذا البلد تقع ملاطية أهم الحصون في شمال الجبهة ، وعلى نهر الفرات الأعلى • وعندها تنحرف الحدود فيسير خط الحصون شرقاً إلى حصن زياد وخرتبرت وحاني حتى بحيرة وان • ويتبع هذه الثغور من ورائها : العواصم • ما بين انطاكية على الساحل الشامي حتى البلدة الصغيرة على سيف الصحراء عند ضفة الفرات اليمنى بالس ( بارباليسوس القديمة ) وحتى مدينة أبعد قليلاً نحو الشمال في منطقة زراعية هامة هي منبج ، ثم حتى مدينة أبعد شمالاً هي سميساط •

وتجاه هذا الخط الاسلامي من الحصون كان يقوم في الأرض البيزنطية : اعتباراً من الجنوب الغربي أقليم أو عمل كيليكيا • ثم عمل قبادوقيا ( القبادق ) وفيها أقليم المطامير أو ذات المطامير ( حسب التسمية العربية ) ثم عمل خلدة والارميناق وخرسيون ( مقابل ملاطية ) وعمل الناطلوس ( وفيه عمورية ) ومن الشمال عمل أرمينية تجاه الحصون الجزيرية •

ولم يكن ميدان الحروب هو هذه الحصون فقط وما بينها ولكنه كان يتناول المنطقة كلها وراء هذه الحصون وخاصة من ناحية الأناضول ويتجه الميدان عمقاً نحو الغرب حتى يصل أحياناً مشارف القسطنطينية . ولعله ما من منطقة في الدنيا ــ بما في ذلك حوض الرين والمارن ــ عرفت من المعارك الساحقة وسقيت من الدماء البشرية واحتملت من سنابك الخيل وتبودلت بين أطراف النزاع وذاقت من مآسي الحرب وويلاتها ومن القتل والنهب والهتك والهدم والاستعباد قروناً طويلة تزيد على العشرة ، كهذه المنطقة من الأرض .

**رابعاً** : اتبع الخلفاء العباسيون ، في هذه الفترة كافة ، السنة التي اتبعها المنصور في العناية بتحصين مناطق الحدود وبناء المدن المسورة والقلاع الحصينة فيها . كان ذلك أساس النظام الدفاعي . وقد عنى به المهدي والرشيد والمأمون ثم المعتصم على السواء وإذا كان هذا العمل الذي أضحى سياسة مستمرة ، يحمل على الجزم ( مع بعض الدلائل الأخرى ) بأن العباسيين كانوا يعتبرون خط الحدود نهاية لا ابتداء ومكان استقرار وحماية ، لا نقطة انطلاق وهجوم فإن هذه السياسة نفسها قد استغرقت الكثير من الجهد والمال وأنشأت لا مدناً عسكرية البناء والطابع فقط ولكن مجتمعات عسكرية أيضاً سوف يكون لها مع الأيام طابعها الخاص المميز . وكان يزيد من الجهود ومن النفقات قسوة الظروف الطبيعية من ثلوج الشتاء وسيوله الجبلية وأمطاره الكاسحة من جهة حتى ليذكرون أن البرد قطع أيدي الناس وأرجلهم في حملة سنة ١٧٥ وأنهم بنوا سور الحدث سنة ١٦٢ من اللبن فلما جاء الشتاء انصدع وتشعث ولم يحتمل الامطار والثلوج فأعادوا بناءه كرة أخرى . كما كان يزيد من الجهود والنفقات أن الزلازل كانت تضرب المنطقة من آن لآخر كما حدث للمصيصة سنة ١٨٧ حين زلزلت فانهدم بعض سورها

ونصب ماؤهم ساعة من الليل ويزيد من الجهود والنفقات أخيراً أن كلاً من الطرفين كان يهدم بانتظام حصون الطرف الآخر كلما ظفر بها ..

وهكذا بنيت طرسوس من ثغور الشام إذ غزا الحسن بن قحطبة الطائي بلد الروم سنة ١٦٢ فأخبر المهدي بمكان طرسوس الاستراتيجي وأنها الآن خراب فأمر ببنائها ، لكن البناء لم يتم إلا على يد خادم الرشيد سليمان الذي بناها بسورين[1] وخندق وخمسة أبواب و ٨٧ برجاً مابين سنتي ١٧٠-١٧٢ وشحنها الرشيد أول الأمر بثمانية آلاف من المقاتلة على رواية المسعودي وزاد في إعطائهم فاستقروا وبعضهم من أهل خراسان وبعض من المصيصة وانطاكية ، وقد نمت طرسوس حتى أضحت من أكبر المراكز لا العسكرية فقط ولكن العلمية أيضاً في القرن الثالث والرابع .

وبنيت أذنة في عهد المنصور سنة ١٤١ أو سنة ٧٦٠/١٤٢ ثم أعيد بناء قصرها وحصنها وشحنت بالمقاتلة من أهل خراسان وغيرهم على زيادة في العطاء بأمر الأمين .

وبنيت المصيصة ، منذ أيام المنصور أيضاً سنة ١٣٩ . عمرها جبريل ابن يحيى البجلي الخراساني بعد أن كانت الزلازل شعثت سورها فبنى السور والجامع وأسكن الناس وسماها المعمورة وفرض لأهلها الاعطيات والقطائع وزاد المهدي في عدد المقاتلة فيها ألفين كما زاد في عطاء بعض الجند . ونمت فيها صناعة الفرو ، وعيدان السروج والحديد المحزوز لكراسي الحديد واللجم والمهاميز ، على قول ابن العديم[2] .

---

(١) اليعقوبي – ج٢ ص ٤١٠ .

(٢) ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط آيا صوفيا) ورقة ١٣٨ ظهر .

وبنيت كفربيا : في زمن المهدي ثم غير الرشيد في بنائها وحصنها بخندق ثم عمل المأمون على تنظيمها وأبطل ضريبة من الغلال على منازلها وأمر فجعل لها سور ورفع فلم يتم وأتمه من بعده المعتصم .

وبنيت الهارونة كذلك : بدىء في بنائها زمن المهدي أو أمر الرشيد ببنائها سنة ١٨٣/٧٩٩ وجعل لها سورين وأبواباً من الحديد وشحنت بالمقاتلة والمطوعة وحملت اسم هارون الرشيد .

وبنيت عين زربة سنة ١٨٠ وحصنت وندب إليها جيش من أهل خراسان أقطعوا فيها المنازل .

وأما ثغور الجزيرة ، فقد كان الروم قد خربوها في زمن مروان بن محمد . خربوا مرعش والحدث وزبطرة وجاء العباسيون وكان عليهم إعادة بناء هذه المنطقة من الثغور والحصون وهكذا :

بنى المنصور مرعش المخربة . بناها له صالح بن علي العباسي وندب الناس إليها على زيادة العطاء فتكاثروا ثم زاد المهدي في شحنتها وفي قوى أهلها .

وبنيت الحدث التي كانت بدورها مخربة ، وقد نبه الحسن بن قحطبة الطائي قائد المهدي الى موقعها الاستراتيجي الهام سنة ١٦١ والى موقع طرسوس وطلب بناءهما فأمر المهدي بتقديم بناء الحدث .. وقد قام بالبناء سليمان بن علي العباسي الذي توفي سنة اتتهى من بنائها سنة ١٦٩ وسميت باسم المحمدية والمهدية . وفرضت لها الحامية اللازمة ( حوالي ٤ آلاف ) من أهل الشام والجزيرة وخراسان في أربعين ديناراً من العطاء لكل مجاهد ، وأقطعوا المساكن وأعطى كل امرىء ٣٠٠ درهم .

وقد تشعث سور المدينة بالثلوج وكثرة المطر ونزل بها الروم سنة ١٦٩ فأمر الهادي بإرسال بعث إليها وقد مات قبل إرساله فأنفذه الرشيد وأعاد بناء المدينة وتحصينها وشحنها بالمقاتلة ومنح الاقطاع .

وبنيت زبطرة المخربة أيضاً . بناها المنصور أولاً فخربها الروم كرة أخرى فبناها الرشيد على يد محمد بن ابراهيم وشحنها بالمقاتلين ، فلما كانت خلافة المأمون عاد الروم فشعثوا السور والبلد فأمر الخليفة بترميمه وتحصينه فعاد الروم أيضاً زمن المعتصم فقتلوا الرجال فيها وسبوا النساء وأخربوا البلد مما كان سبباً في معركة عمورية المعروفة .

وبنيت ملاطية : خربها الروم سنة ١٣٣ فلما كانت سنة ١٣٩ كتب المنصور إلى ابن عمه صالح بن علي يأمره ببنائها وتحصينها ثم أرسل في السنة التالية عبد الوهاب ابن أخيه ابراهيم الإمام والياً على الجزيرة وثغورها ومعه الحسن بن قحطبة في جنود خراسان البالغين سبعين ألفاً وأقيمت المدينة في ستة أشهر بسورها ومسجدها ومنازلها جميعاً . وبنى لها مسلحة على ثلاثين ميلا منها ومسلحة أخرى على بعض روافد الفرات . وأسكن المنصور فيها أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة على زيادة عشرة دنانير في عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار لكل منهم . ووضع فيها شحنتها من السلاح وأقطع الجند المزارع وبنى حصناً قريباً من البلد ( حصن قلوذية ) ... وهذه العناية الواسعة إنما كان سببها أن ملاطية هي الثغر الأول والأهم في المنطقة كلها وهي نقطة التقاء وتقاطع الطرق التجارية والعسكرية بين الجزيرة والعراق من جهة وآسيا الصغرى والقسطنطينية من الجهة الاخرى وقد ظلت كذلك عدة قرون .

وبنى حصن منصور .. ولم يكن المنصور هو الذي بناه ولكنه

ينسب إلى منصور بن جعونة العامري القائد الذي تولى حكمه وبناءه وترميمه زمن مروان بن محمد • وكان على البلد سور وخندق وثلاثة أبواب • وقد جدد الرشيد بناء الحصن وأحكمه وشحنه بالرجال في أيام أبيه المهدي ••

وبنى المأمون كذلك حصن الطوانة • أمر ابنه العباس ببنائها سنة ٢١٨/٨٣٣ وبدأ ببنائها ميلا في ميل وجعل سورها على ٣ فراسخ بأربعة أبواب وبنى على كل باب حصنا • وفرض لها من أجناد الشام أربعة آلاف رجل جعل للفارس منهم مائة درهم وللراجل أربعين ••

واستعراض هذه الأبنية المتعددة يعني أن ثغور الشام وثغور الجزيرة تجاه الروم كانت قد بدىء ببنائها زمن المنصور وكانت قد بنيت كلها وحصنت تمام التحصين حتى أواسط عهد الرشيد لتكون حصون الحدود النهائية مع الروم • أما شحن هذه الحصون بالمقاتلة فكان يجري بوسائل كثيرة من الاغراء المادي منها زيادة العطاء ومنح المعونة وبناء البيوت ومنح الاقطاع الزراعي هذا عدا من كان يردها من المتطوعين للجهاد احتسابا وقربى لله •

**خامساً** ـ كان ارتفاع خراج جند الحدود ( أي منطقة الحدود ) تافهاً إذا قورن بنفقات الدفاع عنه • فقد كان بالغ خراج الثغور الشمالية، بما فيها طرطوس وأدنة والمصيصة وعين زربة والهارونية وبلاد أخرى يبلغ حسب الوثائق العربية الرسمية مائة ألف دينار • تنفق على المشاريع العامة وأجور الجواسيس والبريد ومسالك الدروب في الجبال ومخاضات الأنهر والحصون الخ ••• بينما كانت نفقات الشواتي والصوائف براً وبحراً تبلغ مائتي الف وثلاثمائة ألف دينار أحياناً • وكان خراج ثغور

الجزيرة وتشمل مرعش والحدث وملاطية وبلاداً أخرى (٧٠) ألف دينار وينفق عليها (٤٠) ألفاً وتخصص الثلاثون ألفاً الباقية لعطاء الجند • ويزاد عليها كل سنة بين ١٢٠ إلى ١٧٠ ألف دينار هذا عدا النفقات الطارئة للحملات المفاجئة وهي تتناسب مع شأن الحملة • وربما كانت هذه النفقات الدفاعية تافهة اذا قيست بجملة وارادات الخراج في عهد الرشيد أو المأمون وقد بلغت — حسب ابحاث كريمر ودي سلان وغيرهما — قرابة (٣٥) مليون دينار •

**سادساً** — لم تكن قيمة منطقة الثغور والعواصم لدى الخلفاء العباسيين الأوائل ، في هذه الفترة ، قيمة اقتصادية كبيرة ولكنها كانت أيضا قيمة سياسية ودينية معاً تتصل بأمر الجهاد والرغبة في الاشتهار بـه • وقد بلغ من قيمتها من الناحيتين أن كان الخلفاء يباشرون الحرب على هذه الجبهة بأنفسهم ويخرجون إلى المنطقة على رأس الجيوش المحاربة • قام بذلك المهدي ثم الرشيد — وليا للعهد وخليفة — إذ «كان يغزو سنة ويحج أخرى » كما قام به المأمون حتى لقد توفي في بعض غزوه في طرسوس • ثم قام من بعد ذلك المعتصم والواثق •

وكثيراً ما كان ولاة العهود أو أمراء البيت العباسي هم الذين يتولون إمارة الجزيرة والثغور والعواصم وقلما يعهد بأمرها لغيرهم : تولاها أولا المنصور وهو ولي للعهد ثم تولاها عبد الله بن علي ( أكبر أمراء العباسيين والطامع في الخلافة ) ثم جعلت لصالح بن علي ، أخيه زمن المنصور فلما غضب عليه جعلها لعبد الوهاب بن ابراهيم الامام سنة ١٤٠ ثم للعباس بن محمد ، أخيه سنة ١٤٢ حتى عزله وغرمه مالا سنة ١٦٣ ••• وقد عزل الرشيد في مطلع خلافته الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها منطقة ادارية عسكرية واحدة وسماها بالعواصم

سنة ١٧١ كما ولى الرشيد عليها عبد الملك بن صالح العباسي وكان مقره منبج • وقد زاره هناك فلما عزله فترة عاد فأعاده أيضا اليها حتى سجنه بعد ذلك سنة ١٨٧ وكان الرشيد في سنة ١٨٦ قد بايع لابنه القاسم بولاية العهد الثالثة وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم وأشخصه الى منبج فأنزله إياها بما انضم إليه من القواد والجند • وأغزاه الصائفة في العام التالي و « •• وهبه لله وجعله قرباناً ووسيلة » • وفي عهد المأمون ولى الخليفة ابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم سنة ٢١٣ في حين ولى أخاه اسحق ( المعتصم ) بلاد الشام ومصر •••

**سابعاً** ـ في هذه الفترة من أوج الحكم العباسي تنظمت أو على الاقل كثرت عمليات الفداء وتبادل الاسرى بالاتفاق ما بين العرب والروم ويعرف هذا لدى المؤرخين المسلمين بالأفدية ولعل أول فداء من نوعه بين الطرفين إنما كان سنة ١٣٩ في عهد المنصور لكن تلك البادرة الأولى ظلت مدة طويلة مجرد حادث عابر فريد حتى جاء أول فداء بعدها زمن المهدي على يد القائد المعروف بالنقاش الانطاكي فلما جاء عهد الرشيد كان أول فداء فيه سنة ١٨١ على يد عياض بن سنان أمير الثغور الشامية ثم كان الفداء المشهور على يد القاسم بن الرشيد سنة١٨٩ وكان امبراطور الروم هو نقفور وجرى الفداء باللامس ، على جانب البحر بينه وبين طرسوس ١٢ فرسخا وحضره ثلاثون ألفاً من المرتزقة مع القائد أبي سليمان فرج الخادم متولي طرسوس وخلق كثير من أهل الثغور وغيرهم من العلماء والأعيان • وكان عدد الأسرى ٣٧٠٠ وقيل أكثر ••»[1] ويسمى

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ١٥٩ وانظر ايضاً المسعودي التنبيه والاشراف ص ١٦٠ ـ ١٦٦ ( وابو سليم عند المسعودي وهو فرج نفسه ) ويبدو أن ابن الاثير يخلط ما بين فدائي سنة ١٨١ وسنة ١٨٩ ويجعلهما واحدا . والمسعودي اقرب للعهد وأصح تاريخاً لان ابن الاثير يحدد وجود نقفور على امبراطورية الروم وإنما اغتصب نقفور الحكم سنة ٨٠٢ اي سنة ١٨٧

المسعودي هذا الفداء فداء أبي سليم ، ويقول إنه فودي فيه لكل أسير كان بأرض الروم من ذكر أو أنثى فيما ظهر ، وقد دامت عملية الفداء اثنى عشر يوماً • وكان حفلا مشهوداً « حضره ــ على قول المسعودي ــ من أهل الثغور وأهل العواصم وغيرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف قد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء » • وكانت قوى المسلمين ومراكب الروم على السواء في أحسن وأكمل الزي والعدة •• وقد استمرت هذه العادة واستقرت في العهود التالية بعد ذلك فجرى فداء ثالث زمن الرشيد ، بعد السابق ، سنة ١٩٢ ( افتدى فيه ٢٥٠٠ أسير في سبعة أيام ) وفداء آخر زمن الامين سنة ١٩٤ على يد القائد ثابت بن نصر ثم فداء آخر زمن المأمون سنة ٢٠١ على يد ثابت أيضا • وفداء كان في زمن الواثق سنة ٢٣١ ومثله في زمن المتوكل سنة ٢٤٧ ••• وقد عد المسعودي من الأفدية المعروفة المشهورة حتى عهده سنة ٣٣٥ ثمانية عشر فداء • ويبدو أنه قد أضحى لعملية الأفدية مع الأيام نظام مقرر يقف فيه الطرفان على ضفتي نهر ويعبر الأسير الجسر فيلاقيه عليه الأسير من الطرف الآخر وينادي المنادون بالاسماء أو يجري الفداء في الأربطة على السواحل بالشراء والتبادل السلمي والاتفاق المسبق •

**ثامنــاً** ــ لم يكن لحروب العرب مع الروم من خطــة منظمة أو هدف واضح معين ، يظهر ذلك في استقرائها ومن أنها كانت تنتهي دوماً دون أن تغير موقف الطرفين • وغالباً ما كان الخليفة يكتفي منها بالجزية• وكل ما يمكن أن يظهر منها ، أنها أثبتت تفوق العرب الحربي من جهة وقصر نظر قوادهم في عدم متابعة الضغط على بيزنطة وعــدم استغلال ظروفها الحرجة من جهة أخرى • ويعني هذا بصورة خاصة أن حروب العباسيين للروم حتى في فترات أوجهم لم تكن حروباً تقصد الى التوسع

والفتوح ولكنها كانت غزوات متبادلة من الطرفين لتثبيت المراكز • ولم تكن ذات طبيعة دفاعية بقدر ما كانت حمـلات إرهاب وإثبات قوة • وحروبا وقائية ولم تكن نتائجها على أي حال كسب الاراضي والحصون التي كان يتبادل الطرفان على الجانبين احتلالها وتخريبها ثم بناءها بشكل دوري ــ ولكن السلب وتدمير القوى المعادية • ولقد يـذكرون أن مشروعاً لفتح القسطنطينية مر في خاطر البرامكة[1] ، كما يذكرون أن المأمون ــ حسب رواية اليعقوبي ــ استعد سنة ٢١٨ ، سنة موته لحصار عمورية وقال : أوجه الى العرب فآتي بهم من البوادي ثم أنزلهم كـل مدينة أفتحها حتى أخرب القسطنطينية •• « فأتاه رسول ملك الروم يدعوه إلى الصلح والمهادنة ودفع الأسرى الذين قبله فلم يقبل •••»[2] ولقد يذكرون ــ فيما بعد ــ في أيام الواثق أن أسطولا عربياً كبيرا بني في عدة سنين واتجه سنة ٨٤٢ لحصار القسطنطينة ففشل ••• وكـان المعتصم قبل ذلك قد فكر في غزوها إثر انتصاره في عمورية[3] ••• لقد يذكر بعض المؤرخين هذا كله ولكنها كانت وظلت مشاريع سياسيةومجرد آمال لم تتحول الى التحقيق لأن السياسة العامة للدولة العباسية لم تكن تقتضي تحقيقها •

**تاسعاً** ــ كانت الجزى تدفع في الغالب من الروم للعرب•والمؤلفون الغربيون لا يريدون الاعتراف بهذا ، فإن رانسيمان يقول : « ••• وربما كان الخليفة يعتبر هذا المبلغ ( مبلغ الجزية السنوية ) جزية اذا أراد ،

---

(١) ذكر ذلك غودفروا ديمومبين في مقال نشره في مجلة بيزانسيوم ( العدد ٢٤ ص ٢٧١ ــ ٢ ) •

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢ ( ٢ ص ٤٩٦ طبعة بيروت ) •

(٣) المسعودي ج ٢ ص ٣٥٤

ولكنه لم يكن في الواقع إلا استثمارا حكيما للمال !٠٠ » وقد اتفق أن دفع العرب للروم بعض المال ٠ والعرب ، بدورهم ، يعدون ذلك من باب الزكاة (وهو سهم المؤلفة قلوبهم ) ٠

**عاشرا** ـ كان كل من الطرفين يسعى لإضعاف خصمه بتقوية الثورات الناشئة في أرضه : فإن الروم استغلوا ثورة نصر بن شبث العقيلي وصاحبه عمرو ( نيوفوب حسب ما يسمونه ) فكاتبوا نصرا أو كان هو الذي كاتبهم فبعثوا اليه الرسول في كيسوم ٠ وافتخر هو بقدومهم ، على ماتروي المصادر الرومية ٠ ولكن أنصاره نصحوه بعدم الاتفاق مع « الكفار » فقتل الرسل ٠ ويظهر من عطف تلك المصادر على نصر وخاصة من رواية ميشيل السوري ، عن معاملته الحسنة للنصارى ، أن علاقته بالروم ــ وهو على حدودهم ــ كانت أمرا واقعا ولكننا لا نعرف مداها ٠

واستغل الروم كذلك ثورة بابك فكانت بينهم وبينه مفاوضات سرية وتعاون حربي ٠ وكان الهاربون من أصحاب الخرمي يلجؤون إلى أرض بيزنطة دوماً ٠

وبالمقابل فان العباسيين أعانوا ثورة من أهم الثورات على القسطنطينية هي ثورة توماس ( سنة ٨٢٠ ــ ٨٢٣ ) التي كانت ذات نتائج سياسية واجتماعية ودينية عميقة في الامبراطورية البيزنطية ٠ عاش توماس هارباً في بلاد المسلمين خمساً وعشرين سنة ٠ وميشيل السوري يقول : إنه كان يدعي فيها أنه ابن قسطنطين الخامس ٠ وان هارون كان يكرمه كأنه ابن الامبراطور ٠ ثم عاد الى الأناضول يقود الثورة في زمن المأمون ٠ وقد لاحظ ( فازيلييف ) انه جرى بين توماس الثائر والعرب « حلف حقيقي » ( أضحى بعد تتويج توماس امبراطوراً من قبل بطريق أنطاكية

أيوب ) حلفاً شرعياً . فكان في جيش توماس فرق عربية تحارب معه . وقد أسر بعضها عند هزيمته . كما كانت هي نفسها من أسباب انفضاض قلوب الروم عنه . وهكذا على قول فازيلييف « انهزم الخليفة في شخص توماس » وانصرف بعد ذلك لمشاكله الداخلية . لكن الثورة كانت قد أضعفت الامبراطورية بشكل تسنى معه للعرب ، من جهة أخرى ، أن يقتطعوا منها كريت وصقلية .

**احد عشر** ــ وجد لدى الطرفين أناس من الطرف الآخر يدلونهم على ثغرات الدفاع ومواطن ضعفه . فقد ذكر المؤرخون أنه التحق بالعرب قائد أو دليل يدعى ( منويل ) كما ذكر بارتولد وجود ( معلم ) عربي لتدريب الجند كان يدل الروم على مواطن الضعف في الجيش العربي ، ثم ترك الروم حين أساؤوا اليه والتحق بالبلغار يدلهم على البيزنطيين .

**ثاني عشر** ــ أسبغت الحروب الرومية بهاء خاصاً على عصر الرشيد خاصة . والصلح الذي أقره مع بيزنطة سنة ١٨١ وأضحت الامبراطورة ايريني تدفع بموجبه ، مبلغاً من المال تؤديه في شهري نيسان ومايس من كل سنة ، ودام ذلك حتى سنة ١٨٧ ، هذا الصلح فسر من قبل ( بكلر ) على ان هارون الرشيد أضحى « سيد الامبراطورية الرومانية » ولكن فازيلييف الذي يعتبر ذلك فكرة خاطئة نسي ، على ما يظهر ، ان نقفور دفع ، بعد ايريني ، الجزية الشخصية للرشيد عنه ، وعن ابنه .

**العلاقات الحضارية مع الروم :** ونعود بعد هذا كله فنذكر انا إذا قرأنا مؤرخي العرب والروم ووصفهم المعارك على وتيرة جافة : عدد القتلى وعدد الاسرى وما هلك من سكان وأبيد من محاصيل وخرب من حصون .. فانا قد لا نرى لأول وهلة إلا الجانب القاتم والسلبي من

علاقات بيزنطة بالدولة الاسلامية • والواقع أنه يوجد شيء غير ذلك ، هو ما كان يتبع المعارك من علاقات غير مقصودة ، بين الشعبين وما تتركه تلك العلاقات من أثر في تطورهما الداخلي ، سواء في تبادل الافكار والعادات والاخلاق أو في التبادل الاقتصادي :

فمن الشيق أن نلاحظ ان علاقة العرب والروم ــ فيما عدا الحرب ــ لم تتميز قط بصفة الخصومة والحقد ، بل كانت أقرب الى الحياد على المستوى العلمي والتجاري والحضاري بصورةعامة • كانت الصلات ــ فيما عدا فترات الحرب ــ قائمة دائمة وذلك « ينسجم انسجاماً مطلقاً مع عقلية القرون الوسطى » وقد نستطيع أن نرى الجانب الآخر ، السلمي والودي ، للعلاقات من خلال عدد من نواحي الصلات بين الطرفين :

أولا : التبادل العلمي والثقافي : فإن المسلمين لم ينسوا أثناء غاراتهم على الروم وخاصة زمن الرشيد والمأمون أن يحاولوا الحصول على كتب العلوم المختلفة من أنقرة وعمورية وغيرها • يذكر القفطي في أخبار الحكماء أن الرشيد « ولى ( يوحنا بن ماسويه ) ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعموريةوسائر بلاد الروم حين افتتحهاالمسلمون وسبوا سبيها ووضعه أمينا على الترجمة ورتب له كتاباً حذاقاً يكتبون بين يديه ... »[1] •

وروى ابن النديم في الفهرست أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات • وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله

---

(١) القفطي ــ أخبار الحكماء ص ٣٨٠

الأذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم : الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل . وقد قيل إن يوحنا ابن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم ..»[1] .

ويذكر ابن نباتة في سرح العيون عند الكلام عن سهل بن هارون : أن المأمون « ... جعله كاتبا على خزائن الحكمة . وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد . فأرسلها إليه واغتبط بها المأمون . وجعل سهل بن هارون خازنا لها » . ويروى كذلك أن المأمون أرسل إلى صقلية في طلب الكتب اليونانية ...

ويبدو أن الخلفاء لم يكتفوا باستحضار الكتب ولكنهم استحضروا العلماء . وإذا كانوا يذكرون عن أبي جعفر المنصور أنه استحضر بعض علماء الطب من الهند لأنه كان ممعوداً فان المأمون كان يطلب العلم من معدنه وللعلم وحده . وقد ذكروا عنه أنه أرسل رسالة شخصية الى تيوفيل امبراطور الروم يطلب فيه السماح للعالم الرياضي (ليو) بزيارة بغداد ولو لوقت محدود وقال إنه يعتبر ذلك عملا وديا ويعرض في مقابل ذلك الصلح الدائم وألفي قطعة ذهبية . إلا إن الامبراطور رفض العرض ومنح ليو وظيفة في إحدى الكنائس ومرتباً دائماً ... ومقابل ذلك يروي صاحب الأغاني أن رسول ملك الروم قدم الى الرشيد فسأل عن

---

(١) ابن النديم ـ الفهرست ص ٢٤٣

أبي العتاهية الشاعر وأنشد شيئا من شعره وكان الرسول يجيد العربية فلما مضى الرسول الى القسطنطينية ذكر هذا الشاعر للامبراطور ويبدو أنه شاقه منه شعر الزهد الذي اشتهر به والذي يرفد الفكر الرهباني والديري فرد الامبراطور رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبي العتاهية ويأخذ فيه رهائن من أراد . وألح في ذلك وكلم الرشيد الشاعر في ذلك فاستعفى منه وأباه ... »[1] .

ويظهر أن هذا النوع من الصلات والوفود الثقافية لم ينقطع وإنا لنجد ، في الفترة التالية لعصر الرشيد ، أن الواثق قد بعث بعثة علمية الى بلاد الروم برئاسة محمد بن موسى المنجم لزيارة الكهف قرب بلدة أفسوس الذي يقال إنه لا يزال يحتفظ بأجساد الشباب السبعة أهل الكهف ، الذين استشهدوا أيام ديوقليسيان وذلك باذن خاص من الامبراطور ميخائيل الثالث ، وهناك البعثة الاخرى التي قامت بأمر الواثق أيضا ( المأمون الصغير ) تطوف في آسيا الصغرى برئاسة المترجم سلام الذي كان يعرف عدة لغات لاكتشاف السور الذي أقامه الاسكندر دون قوم يأجوج ومأجوج ... وقد غابت البعثة في رحلتها ٢٨ شهراً قدم سلام على أثرها الى الخليفة تقريرا وافيا عنها كما يروي ابن خرداذبه والمقدسي ويافوت . ونال على ذلك مع أفراد بعثته الجزيل من العطايا[2] .

ثانيا : إن عرض العلاقات العباسية ــ البيزنطية قد لا يكون كاملا إن لم ترافقه صورة ، مهما تكن مختصرة ، عن تكنية هذه العلاقات

---

(١) الاغاني ج ٤ ص ١٠٥
(٢) ابن خرداذبة ــ المسالك والممالك ص١٠٦ــ١٠٧ ، ١١٠ــ١١١
المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٥٢

وطرائق اتصال الدول بعضها ببعض : بالرسائل والسفراء وتنظيم السلم والحرب والأفدية والمعاهدات وهو ما يسمى عادة بالعلاقات الدبلوماسية ونجد بالفعل كما قال أحد المؤرخين أن في حوادث الشرق الحربية في القرن التاسع وقائع وعادات تعتبر مؤسسة لما نسميه اليوم بالقانون الدولي وما كتب عنه في تلك الفترة لدى العرب من الكتب مثل كتاب السير الكبير للشيباني يمكن أن يعد من الكتب الأولى الباحثة في هذا النوع من الحقوق الدولية والصلات الدولية في تلك الفترة إنما كانت تتم بالواسطة وبشكل غير مباشر . لم يكن من المألوف بين الدولة الاسلامية والدول المعاصرة لها أن تجري الاتصالات عن طريق اجتماع الخلفاء بالملوك المجاورين . هذه الطريقة التي كانت معروفة في أوروبا ، في تلك القرون ، لم يتبعها ملوك الشرق عامة ، ولا الخلفاء المسلمون وأقصى درجات الاتصال المباشر التي وصلوا إليها هي :

١ ــ إرسال السفراء والوفود أو استقبالها في مهمات محددة : حربية أو سياسية أو عسكرية . وقد عرف العرب هذه الطريقة منذ العهد الجاهلي واتبعوها في العهد الاموي . ولم يعدل عنها العباسيون بل استقبلوا ومنذ سنواتهم الأولى سفراء الروم والفرنجة وغيرهم . يذكر الطبري وابن الفراء ( في كتابه رسل الملوك ) قصة قدوم بطريق من الروم إلى المنصور في بغداد فأمر الخليفة أن يطاف به فيها ــ وهي العاصمة الجديدة ــ ليرى فخامة عمرانها[1] .ومثل ذلك استقبال المنصور والرشيد من بعد لوفود ملك الفرنجة .

---

(١) الطبري ج ٨ والفراء ــ رسل الملوك ص ٣٩ ويذكر ان المنصور اتبع نصيحة هذا البطريق فأخرج الاسواق وأصحابها من بغداد .

ومن السفارات المشهورة سفارة يوحنا النحوي الذي وفد الى بغداد يعلنها بارتقاء تيوفيل العرش الامبراطوري حاملا معه الهدايا الثمينة وقد رووا أنه ينثر الذهب كالرمال ويهب كل زائر له في مقر ضيافته الهبات السخية • ويذكرون أن رسولا من ملك الروم وصل المعتصم إثر إيقاع الروم بزبطرة فلم يقبل الخليفة لقاءه وأخره في موقع قريب من عمورية حتى افتتحها •

وقد كانت السفارات تجري في تدبير أمور الفداء • يذكر الطبري في أخبار سنة ٢٣١/٨٤٦ أن رسول ميخائيل بن تيوفيل ملك الروم وصل الواثق بالله يسأله أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين ، كما يذكر سنة ٢٤١ « أن تذوره صاحبة الروم أم ميخائيل وجهت رجلا يقال له جورجس بن فرناقس يطلب الفدى لمن في أرض الروم من المسلمين وكان المسلمون قد قاربوا عشرين ألفا ••• » وقد أوفد المتوكل سنة ٢٤٦/٨٦٠ نصرا بن الأزهر الشيعي إلى ملك الروم في أمر الفداء فاستقبله وبين يديه ثلاثة من التراجمة ••• وكان السفراء عامة من الطرفين يحرصون على أن يظهروا في أبهى وأضخم مظهر كما كانوا يختارون من اكبر شخصيات الدولة الدينية أو السياسية •

وكانت تؤمن لهم وسائل النقل اللازمة كما تضمن لهم وسائل الأمن والسلامة وقد يحملون رسائل رسمية ولكنهم كانوا يعتمدون على علمهم وبراعتهم في انجاح المهمات التي يسفرون فيها وكانت السفارات تجري أحيانا في أعقاب الحروب وتعمل على توقيع الهدنات •ومن ذلك مايذكرون من أن هارون بلغ في عهد أبيه المهدي مشارف القسطنطينية سنة ١٦٥/٧٨١ فجرت بينه وبين أغسطة ـ وهي رينى ( ايرين ) امرأة اليون ••• ـ الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية • فقبل ذلك

منها هارون • وشرط عليها الوفاء بما أعطت له وأن تقيم الأدلاء والاسواق في طريقه وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فأجابته الـى ما سأل «•• وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين وسلمت الاسرى ••»
أما السفارات إلى العواصم فقد كان بقاؤها فيهـا قـد يطول أشهراً في الضيافة وكانت بيزنطة تحتفظ في مراسمها بمكان الصدارة دوماً للسفراء• ونجد في نظام المراسم الذي وضعه قسطنطين البورفيري صيغا ودية لحد كبير معدة لاستقبال سفراء بغداد والقاهرة ومن المراسيم التي وضعهـا أن يجلس « الاصدقاء العرب » في مرتبة أعلى من الاصدقاء الافرنج •

٢ ـ المراسلات الكتابية : وكانت هذه هـي الوسيلة الأسهل والأكثر شيوعاً في ضبط العلاقات وقد حفظ لنا الطبري خاصة وكتـب التاريخ الاخرى الكثير من صور هذه المراسلات التي نقلت نصوصها دون شك عن الوثائق الرسمية لديوان الرسائل في قصـر الخلافـة • وكان بعض هذه الرسائل يتحول إلى صكوك معاهدات بما يحمل مـن شروط وعهود •

ومن نماذج تلك الرسائل ما تبادله الرشيد ونقفور من المكاتبات عند نقض الروم العهد سنة ١٨٧/٨٠٣ واللهجة الملتهبة التي صيغت بها تلك الرسائل لم تكن اللهجة المألوفة في الخطابات الدبلوماسية الأخـرى التي نجد فيها ألواناً من اللين والشدة يمتزج بعضها ببعض • ومن ذلك ما تبادله المأمون مع تيوفيل بن ميشيل من الرسـائل سنة ٢٩٦/٨٣١ ويذكرون أن العادة كانت أن يبدأ كتاب ملك الروم باسم الخليفة فبـدأ الامبراطور تيوفيل بنفسه فلما ورد الكتاب إلى المأمون لم يقرأه وسار الى الحرب فجاء كتاب تيوفيل مرة أخرى سنة ٢١٧ على القاعدة • ويروى الطبري نصه ومنه : أما بعد فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما

في الرأي مما عاد بالضر عليهما •• وقد كنت كتبت إليك داعيا الى المسالمة راغبا في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ••• فان أبيت ••• فاني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها ••• وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة ••• » •

وقد أجابه المأمون : « •• أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الاسرى ورفع القتل والقتال • فلولا ما رجعت إليه من إعمال التؤدة والأخذ بالخطر في تقليب الفكرة •• لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس و ••• هم أظمأ الى موارد المنايا منكم إلى موارد السلامة •• غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة ••• » ثم خيره بين الاسلام والجزية •

ثالثاً : تبادل الطرفان التأثير الحضاري على نطاق واسع • وقد لاحظ فازيلييف ان ثمة شبها في أوجه النشاط في أكثر من جهة ، بين المأمون وبين تيوفيل ( سنة ٨٢٩ ــ ٨٤٢ ) ، الذي ظل معاصرا له أربع سنوات : فالاثنان اهتما بالمسائل الدينية وأثاروا المعارضة بالتجديد في الدين ( واهتم المأمون خاصة بفرض مذهب ديني رسمي للدولة كالأباطرة ) ، وكلاهما اهتم بالشعر وازدهرت في عهده العلوم والبناء ، وجعل لنفسه حلقة من العلماء الذين كان منهم ليو الرياضي ويوحنا النحوي • ولم يكن القصر الصيفي الذي بناه الامبراطور الرومي سوى محاكاة لقصر من قصور الخليفة بسبب تعلقه بالثقافة والفن العربيين •

على أن تيوفيل إنما كان يقلد ، في الواقع هارون الرشيد • كان يعتبره مثله الأعلى في الحكام وكان يطوف مثله أحياء العاصمة متصلا بالفقراء مستمعا إلى شكاوى الضعفاء متفقدا أحوال الرعية • فلم يصبح

محببا الى قلوبها فقط ولكن نسجت من حوله الاساطير والحكايات بدوره كالرشيد • ويعتبر عهد تيوفيل العهد الذي بلغ فيه التأثير الاسلامي على العالم البزنطي ذروة قوته ووضوحه[1] •

رابعاً : أثرت الحروب العربية ـ البيزنطية في الأدب الشعبي في كلا البلدين • فقد خلقت نموذجاً لبطل قومي أسطوري له قوة خارقة وأعمال عجيبة • من ذلك : محارب عربي اسمه عبد الله البطال قد يكون استشهد في معركة اكرونيون بآسيا الصغرى سنة ٧٤٠ • ولكنه أصبح فيما بعد ، النموذج الحي التاريخي للبطل القومي التركي ( سيد بطال غازي ) ولا يزال قبره في احدى القرى جنوبي اسكي شهر ( دوريلا يوم قديماً ) • وظهرت بالمقابل ملحمة للبطولة البيزنطية تصور أعمال البطل القومي اليوناني ، وقد نسجت حول شخصية : ( ديجينيس اكريتاس ) وهو شخص حقيقي قتل في إحدى المعارك مع العرب سنة ٧٨٨ على ما يظهر ، وكان قبره غير بعيد من سميساط • وهذه الملحمة هي ما يسمى بالاغنيات الشعبية الأكريتاسية وتصور خاصة حروب القرن التاسع بين بيزنطة والعرب ، لاسيما معركة عمورية (زمن المعتصم سنة ٨٣٨م ٢٢٣هـ) وهي مصدر غني للعلاقات الثقافية بين بيزنطة والعرب عدا أنها تصور الحروب بينهما • وقد تمخضت الابحاث التي تمت حولها ، عن مسألة غاية في الأهمية هي الارتباط الوثيق بين ألف ليلة وليلة وبين شعر البطولة اليوناني ، وملحمة سيد بطال التركية ( وأصلها عربي وانما دخلت دائرة الشعر التركي بعد نقلها للتركية ) •

---

(١) انظر :

Ostrogorowski, G: Hist. of the Byz. State (trans) p. 183 , 184

Bury, A Hist. of the Eastern Rom. Emp. , p.p. 121-122

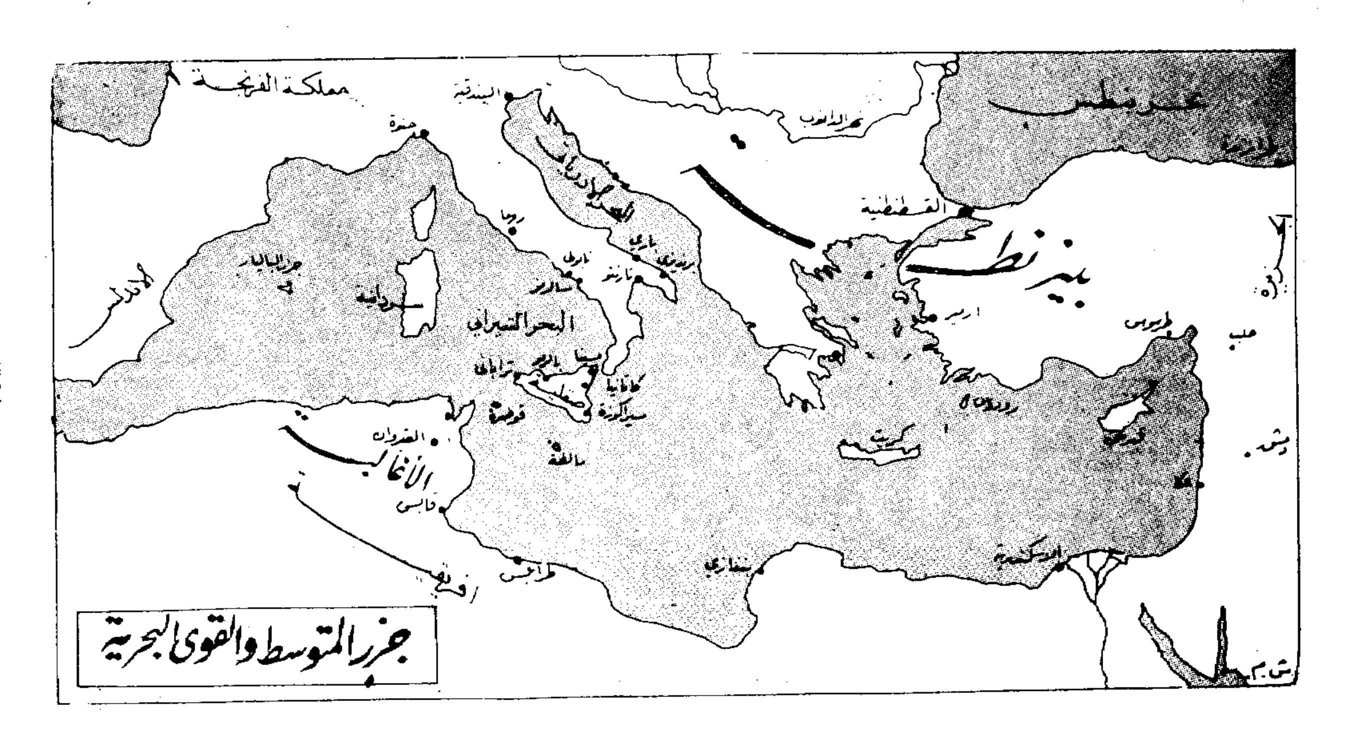
# الفصل الخامس

# العلاقات الخارجية

## ٢- في البحر المتوسط والغرب

### ١ ــ القوى البحرية العباسية في المتوسط

**أ ــ العباسيون والبحر المتوسط :** نظرت الخلافة العباسية الى البحر المتوسط على أنه الحدود التي تقف عندها لا مجال النشاط التجاري والعسكري والسياسي الذي يجب أن تغزوه • ابتلعتها آسيا والشؤون القارية فاهتمت بالسيادة على البر تاركة السيادة على البحر للروم• وصارت شواطىء الشام ومصر بالنسبة الى بغداد نهايات وحدوداً ينبغي حمايتها لا ثغوراً وأبواباً للانطلاق منها الى ما وراء البحر والسيادة على مائه وتسخيره للتجارة والسياسة الاسلامية وقد كان عصر الأمويين عصر التعرف الى البحر والتعامل معه ولكن ظهور العباسيين أوقف هذا التطور البحري فجأة فلم تستطع الدولة الاسلامية أن تفعل ما فعلته الامبراطورية الرومانية في السيطرة على الشواطىء الغربية خاصة والشمالية وفرض نفوذها عليها •


جزر المتوسط والقوى البحرية
مملكة الفرنجة
البندقية
جنوة
بيزنطة
القسطنطينية
البحر التيراني
سردانية
الأندلس
الأغالبة
القيروان
قابس
قوصرة
مالطة
الإسكندرية

.والعناية البحرية الكبرى إنما صرفتها الدولة العباسية لخليج البصرة وعمان وللمحيط الهندي • وكان نشاطها هناك نشاطاً تجارياً واسعاً وقلما رافقه نشاط عسكري أو ارتبط به عمل سياسي إلا في بعض الظروف المتصلة إما بعمان أو بحر القلزم أحياناً أو بحوض نهر السند الاسلامي •

كالذي كان من توجه خازم بن خزيمة في خليج البصرة لقمع خوارج عمان أيام أبي العباس سنة ١٣٤ والحملة البحرية التي أرسلها المنصور لرد حملات القرصان الكرك عن جدة والحملة البحرية الأخرى التي قادها عمرو بن جمل في البوارج الى ( نارند ) في الهند بأمر المنصور والحملة البحرية الثانية التي سيرها المهدي بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي الى هذه المدينة نفسها وانتصرت ثم نكبتها الأوبئة والعواصف في العودة • وكان منطلق هذه الحملات العسكرية هو نفسه الميناء التجاري الأول للعراق في تلك الفترة : ميناء البصرة • ولم يكن في المحيط الهندي على أي حال — فيما عدا القرصان — من دولة أو قوة بحرية أخرى تقف في وجه النفوذ البحري العربي فكان المحيط الهندي ، في الواقع ، بحراً عربياً خالصاً للمراكب الاسلامية وتسبح في ظلها المراكب الهندية وغيرها •

ويبدو أن متابعة بيزنطة لسياسة الرقابة التجارية على البحر المتوسط ، بعد قيام العباسيين كما تابعتها أيام الأمويين وإغلاقها غربي البحر المتوسط في وجه التاجر المسلم وحصرها مرور التجارة الشرقية اللازمة لبيزنطة خاصة ولبلاد الغرب عامة عبر ثغر طرابزون على البحر الأسود[1] ، وهي التجارة المستوردة بواسطة التجار العرب في بلاد فارس

(١) ارشيبالدلويس — القوى البحرية (الترجمة العربية) ص١٧٥

والعراق كل ذلك بجانب حقد العباسيين على الشام الأموي قد جعل بني العباس يواصلون إجراءات الدولة الأموية الخاصة بالرقابة التجارية وتقييد حركة التنقل وحصر مرور التجارة تحت أعينهم بالعراق • وثمة خبر يذكر أن المنصور طمر القناة التي كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر ( القلزم ) سنة ١٤٥/٧٦٢[١] • وهذا الاجراء وإن كان السبب فيه إيقاف وصول الميرة من مصر الى الحجاز الثائر مع محمد ذي النفس الزكية وحصاره الاقتصادي إلا إنه كان من نتائجه أيضاً ـ أو من دوافعه ـ حصر وتحويل تجارة المحيط الهندي من طريق بحر القلزم نهائياً إلى طريق العراق •

أما في البحر المتوسط فلم يكن بالإمكان أن يبذل العباسيون أي نشاط فيه دون أن تكون له مضاعفات أو مقدمات وذيول سياسية وعسكرية بجانب النتائج الاقتصادية المترتبة على ذلك ، لا مع بيزنطة فحسب ولكن مع كثرة الدول الناشطة على أطرافه • وإذا كان حوضه الشرقي بيد العباسيين في الشرق والجنوب ، وبأيدي الروم في الشمال ، فإن حوضه الغربي كان مشتركاً بين : الروم أنفسهم في ايطاليا وصقلية ، وبين الفرنجة في الشواطىء الشمالية وبين عرب الاندلس الأمويين في شواطىء إيبريا ، أما في المغرب وافريقيا فقد كان الشاطىء للعباسيين بالاسم وسرعان ما تظهر فيه ومنذ عهد الرشيد نفسه قواه المحلية المنفصلة لتمارس سياساتها الخاصة (ثار المغرب واستقل على يد الأدارسة سنة

---

ورانسيمان ـ الحضارةالبيزنطية (الترجمة العربية ـ جاويد ـ القاهرة ١٩٦١) ص ١٩٨

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٣ التعليق رقم ٦٨ نقلا عن ويل •

٧٨٨ وتلقى الأغالبة الاعتراف الفعلي من بغداد بحكمهم لأفريقية سنة ١٨٤/٨٠٠) •

وبالرغم من أن الطابع العام لعلاقة العباسيين بالبحر المتوسط كان الاهمال والانصراف عن تنمية القوى البحرية إلا إن هذا لا يعني أنه لم يكن في المتوسط ، فيسواحل الشام ومصر أسطول عباسي كما لا يعني أنه لم تقم عمليات حربية هامة في العصر العباسي الأول بين هذا الأسطول والروم • لكن الملاحظتين الأساسيتين في هذا الصدد هما :

أ ــ أن اهتمام الروم بأسطولهم وباستغلاله التجاري والعسكري في المتوسط كان في تلك الفترة ــ وهي فترة الأوج في الحكم العباسي ــ أكثر وأقوى بكثير من اهتمام العباسيين أنفسهم وهذا ما ترك السيطرة على الحوض الشرقي خاصة منه بأيدي الروم فترة لا تقل عن ثلاثة أرباع القرن أي ما بين سنة ٧٥٢ حتى سنة ٨٢٧ •

ولم تكن عظمة العباسيين في القوى البرية تتناسب مع قواهم وأعمالهم البحرية المحدودة ، وظل للروم السيطرة على صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر الباليار كما تحكموا في المضايق ذات القيمة الحربية الهامة على طرق التجارة العالمية •

ب ــ أن العمليات الحربية البرية لم تكن تتوافق وتترافق مع العمليات البحرية • ولم يسجل العباسيون إلا محاولات محدودة للتنسيق والتعاون بين جيوشهم البرية في الثغور وأسطولهم البحري على الشواطىء والجزر •

جـ ـ خسرت الدولة البيزنطية حوالي نهاية هذه الفترة[1] جزيرتين من الجزر الثلاث الأكبر والأهم في المتوسط ٠ خسرت صقلية وكريت وقد أخذهما المسلمون في هذه الفترة ، ولكن لم يكن ذلك بجهد العباسيين ولا بأسطولهم وإنما بقوى إفريقية وأندلسية ٠ وقد نستطيع حسبان هذه القوى الافريقية والأندلسية لمصلحة العباسيين ولكنها ليست بتخطيط وتمويل بغداد ولم تكن تعمل لحسابها وإذا كان من نتيجة خسارة بيزنطة للجزيرتين زوال سيطرتها البحرية عن المتوسط فإن خلفاء بغداد لم يكونوا المستفيدين من ذلك ، ولكن القوى الجديدة التي نشأت في مصر (ابن طولون) وافريقيا (الأغالبة) والمغرب (الأدارسة)٠ والأدلة على إهمال العباسيين للبحر كثيرة ومن أهمها مثلاً :

أنه انتشرت في تلك الفترة إقامة «الأربطة» لا على سواحل الشام فقط ولكن على سواحل افريقيا إتقاء للغارات البيزنطية ، وقد بلغ من قوة الروم البحرية أن بعضهم اقترح على الرشيد فتح قناةالسويس لوصل البحر المتوسط بالأحمر فمنعه من ذلك نصيحة جعفر البرمكي الذي قال له : كان يتخطف الروم الناس من المسجد الحرام وتصل مراكبهم الى الحجاز[2] ٠ وكان أسطول الروم يقوم بدورات تفتيشية على السواحل الاسلامية وقد يتصيدون مراكب وتجارات المسلمين ٠ يقول ابن الأثير : « وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة ( صقلية ) وتذب

---

(١) نزل المسلمون كريت وصقلية في سنة واحدة هي سنة ٢١٢/ ٨٢٧ وكان ذلك مؤذنا بانتهاء السيطرة البحرية البيزنطيةعلى البحر المتوسط وهي السيطرة التي نالتها عقب هزيمة الاسطول الأموي في شمال قبرص سنة ١٢٩/٧٤٧

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب وقد نقله السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦

عنها وربما طارقوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم..»[1] ! ويعزو بعض المؤرخين استمرار وجود العواصم العربية : الفسطاط ، القيروان ، فاس ، قرطبة في الداخل إلى قوة الروم البحرية[2] .

**ب ـ الغزوات العباسية في البحر المتوسط** : وعلى أي حال فإن العباسيين قاموا بعدة عمليات عسكرية بحرية وهي وإن لم يكن لها تألق وانتصارات الجيوش البرية إلا إنها كانت نوعاً من إثبات الوجود في البحر المتوسط وكان الذي يقوم بها هو في الغالب أسطول الشاطىء الشامي وربما أعانه الأسطول المرابط في سواحل مصر . ولعل أول ما سجل من الانتباه العباسي للبحر أمران دفع إليهما الاضطرار والحاجة الملحة :

فقد أمر أبو العباس سنة ١٣٦ بتجهيز حملة بحرية ـ برية لغزو إفريقية وعهد بتنظيم الحملة البحرية إلى المثنى بن زياد الخثعمي الذي وصل الاسكندرية في شوال من تلك السنة لتجهيز المراكب ـ ويقال إن مروان ابن محمد حين انهزم أمر بإحراق الاسطول المصري ـ لكن وفاة أبي العباس السريعة أوقفت المشروع كله . ولم يهتم أبو جعفر به لما كان على يديه من المشاغل الداخلية والثورات في المشرق ومع ذلك فإنهم يذكرون أن المنصور سمع وهو في الحج سنة ١٥٣ أن الكرك (وهم من مناطق السند) كانوا يغيرون في نوع من القرصنة على جدة ويهددون شواطئها وأنهم أغاروا عليها سنة ١٥١ ، فجهز فور عودته من الحج جيشاً في البحر ، أطلقه وراءهم من البصرة قبل أن يغادرها إلى بغداد[3] .

---

(١) انظر ابن الأثير ج٥ ص ٤٥٦ (حوادث سنة ١٣٥) .
(٢) انظر ارشيبالدلويس ـ القوى البحرية ص ١٦٢
(٣) الطبري ج٨ ص٣٣ و٤٢ (٣/ ٣٥٩ و ٣٧٠)

أما أول حملة بحرية حقيقية سجلت للعباسيين فهي :

١ ـ حملة سنة ١٥٧/٧٧٣ على شواطىء آسيا الجنوبية وكانت جزءاً من العمليات الحربية التي قادها المنصور في أواخر عهده ضد الروم . كانت الحملة برية ـ بحرية وقد قادها ثمامة بن وقاص وتسميه المراجع البيزنطية ( باناكيس ) الذي توغل شمالاً في أقليم القبادق ، وقد أمر الامبراطور قسطنطين الخامس فاستطاعت الجيوش البرية مع الأسطول الرومي أن تقطع خط الرجعة على ثمامة إذ احتلت مدينة سيس وحاصرت قواته البرية وحرمته الاتصال بالأسطول العربي . ولئن استطاع الافلات من التطويق إلا إن الحملة البرية فشلت بينما يسجل البيزنطيون خبر نجاح الأسطول العربي في الهجوم على قبرص وأسر حاكمها البيزنطي[١] .

٢ ـ ثم كانت حملتان أخريان سنة ١٦٠ و سنة ١٦١ قادهما في بحر الشام الغمر بن العباس الخثعمي . ولكن الخليفة المهدي اعتمد في نزال الروم على الجيوش البرية ولهذا كان البحر هادئاً بقدر ما كانت العمليات الحربية البرية حامية في الثغور وفي قلب آسيا الصغرى . ويجب أن ننتظر عهد الرشيد لنرى بعض التحول في هذا الهدوء .

٣ ـ ولم تكن المبادرة بالهجوم في عهد الرشيد من العرب ولكن الروم الذين كانت تقوم خططهم في ذلك الوقت على فرض الرقابة على الشواطىء العربية والإغارة المفاجئة عليها ، استطاعوا أن يأسروا سنة ١٧٤/٧٩٠ بعض السفن الاسلامية وهي في طريقها من مصر الى الشام ،

---

(١) ارشيبالدلويس ـ ص١٦٠

فأغار الأسطول الاسلامي على كريت وقبرص في تلك السنة نفسها مما يحمل على الظن بأن الروم كانوا يراقبون مشروع حملة بحرية اسلامية عليهم وقد حاولوا اجهاض المشروع بالهجوم على قسم من السفن المعدة له • ونزلت القوات العربية في الجزيرة ولم ينفع القبرصيين وصول قسم من الأسطول البيزنطي بأمر الامبراطورة ايرين لنجدتهم فقد هزم هذا الاسطول ، قرب خليج أضالية ، وأسر المسلمون قائده فجاء أمر بغداد بقتله • ويبدو أن والي الثغور يومذاك وهو عبد الملك بن صالح العباسي أراد نقض الصلح والعهد القديم المعطى لأهل قبرص • وكانت قبرص منذ عهد معاوية تدفع الجزية السنوية للعرب والروم معاً ، وقد زاد هشام بن عبد الملك في جزيتها ألف دينار فألغاها أبو جعفر المنصور[1] قائلاً : نحن أحق من أنصفهم ولم نتكثر بظلمهم ! وقد قرر عبد الملك فيما يظهر إجلاء أهل قبرص عنها • وإحلال المسلمين محلهم ولكنه أراد في نوع من الموقف الأخلاقي ـ الديني النادر المثال ، أن يأخذ من فقهاء عصره الفتوى في ذلك بحجة أنه « ما وفى لنا أهل قبرص قط » و « لم يزالوا يغشون أهل الاسلام ويناصحون أعداء الله الروم ••» • وهكذا كتب إلى الامام الأوزاعي ، والليث بن سعد ، ومالك ابن أنس ، وسفيان بن عيينة ، واسماعيل بن عياش ، ويحيى بن حمزة وإلى اسحق الفزاري ، ومخلد بن الحسين كتباً حفظ لنا البلاذري أجوبتهم عليها كمشكلة فقهية سياسية •• لكن مشروع الإجلاء لم يتم •

٤ ـ ويبدو أن ضعف العباسيين البحري ظل يغري بيزنطة باستخدام قبرص في الهجوم على السواحل الشامية ولهذا فقد تنبه الرشيد إلى

---

(١) كان عبد الملك بن مروان قد زادها ألف دينار من قبل وألغى ذلك عمر بن عبد العزيز (البلاذري ـ فتوح البلدان ج ١ ص١٨٣) .

خطرها يوم حملته الكبرى على الروم سنة ١٩٠ فعهد إلى حميد بن معيوف الهمداني حسب رواية الطبري بأن يلي « سواحل بحر الشام إلى مصر » فجهز حملة بحرية ــ برية قوية ونزل قبرص سنة ٨٠٦/١٩٠ بينما كان الرشيد يهاجم الأناضول بأضخم حملة عباسية يومذاك « فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً فأقدمهم الرافقة فتولى بيعهم أبو البختري القاضي، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار ..»[1] ويكمل البلاذري خبر الطبري بقوله عن أهل قبرص : «.. ثم إنهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسر منهم فردوا ..»[2] .

٦ ــ ويمكن أن نعد في إطار الحملات العباسية غزوة أسطول الأغالبة لسواحل اليونان ( البلوبونيز ) سنة ٨٠٦ ولا شك انها إنما كانت بإيعاز من الرشيد لاحكام الطوق على بيزنطة .

٧ ــ وفي السنة التالية سنة ٨٠٧/١٩١ قامت حملة على جزيرة رودوس بأمر الرشيد وعادت محملة بالأسرى والغنائم ..

٨ ــ كما غزا اقريطش ( كريت ) قائد الرشيد : حميد بن معيوف ففتح بعضها .

وتنقطع أخبار العباسيين البحرية بعد هذا فترة طويلة كما كانت منقطعة من قبل فترة طويلة فلا نجد أي خبر عن عملية عباسية بحرية . والخبر التالي الذي جرى في زمن المأمون وكان من نتائجه كسب

(١) الطبري ج٨ ص ٣٢٠ (٧٠٩/٣) وص٣٢٢(٧١١/٣)
(٢) البلاذري ــ فتوح ج١ ص١٨٣ .

جزيرتي اقريطش وصقلية للمسلمين إنما قام به الأندلسيون والأغالبة • وكان هو الكسب الحقيقي من الأملاك البيزنطية •

والواقع أ نهذه الأعمال العسكرية البحرية التي اقتصرت على الهجوم على قبرص وعلى المنطقة المجاورة للثغور كانت أعمالاً محدودة المدى والنتائج • وبالرغم من أن الجبهة البرية في الأناضول كانت هي الجبهة الرئيسية والأهم فإن حصيلة العمليات العسكرية عليها بدورها لم تكن شيئاً مذكوراً أمام النتائج الخطيرة التي نجمت عن العمليات التي قامت بها القوى الاسلامية الأخرى في بقية نواحي البحر المتوسط •

### ٢ ـ القوى البحرية الاسلامية في المتوسط

**١) ـ الصراع البحري :** لئن سمح نصر بيزنطة البحري على الأمويين سنة ٧٤٧ • ثم الانصراف القاري العباسي من بعده ، بأن يصبح البيزنطيون هم أسياد الأسطول الأول والأقوى في البحر المتوسط وبأن يطبقوا نظام الرقابة الشديدة على تجارته ، فإن هذه السيادة لم تكن خالصة تماماً في الواقع • لأن القوى الاسلامية في هذا البحر تمزقت فقط ولكنها لم تمحق • وبينما اتخذت مصر والشام من جهة وافريقية والمغرب من جهة أخرى ، والأندلس من جهة ثالثة ، كل منها طريقها الخاص في العمل البحري التجاري والعسكري فإن مجموعات أخرى ، إسلامية ، حرة الارتباط ، صغيرة الأعداد ، خفيفة الحركة قد أخذت تظهر وتقوى وتعمل في طول هذا البحر وعرضه • وكانت تعمل خاصة ضد الشواطىء البيزنطية والفرنجية الممتدة من الأناضول حتى صقلية وايطاليا وجنوب فرنسا وضد مئات الجزر عند تلك الشواطىء •

لا تتحدث المصادر العربية عن هذه القوى التي تصفها المصادر

البيزنطية واللاتينية « بالقرصنة » والتي يجب أن تفهم مواقفها ودوافعها ، فقد كانت عناصرها مكونة من مصدرين :

أ ـ من المتطوعين المجاهدين الذين كانوا يتطوعون للغزو بدافع ديني .

ب ـ من البحارة المسلمين الذين حرمتهم الأساطيل البزنطية ورقابتها القاسية في البحر ، فرص العمل التجاري ، فتحولوا الى الهجوم الانتقامي وإلى القرصنة[1] وإلى عمليات التهريب الناشطة .

وكانت مكامن هذه الجماعات ، التي تعمل لحسابها الخاص ، متعددة وتمتد على كافة شواطىء المتوسط الجنوبية خاصة . وقد كان يقابلها أيضاً من الجانب البيزنطي والأوروبي جماعات من القراصنة النصارى الذين يعملون بدورهم ضد الشواطىء الاسلامية المختلفة وقد نسبت بعض أعمالهم للمسلمين أيضاً .

وإذا اكتفت الأساطيل المختلفة الأندلسية ، والأغلبية العباسية والفرنجية بأن تعمل كل منها محلياً وفي مناطقها من حوض المتوسط الشرقي والغربي فإن الأسطول البيزنطي كان يمثل الأسطول الأقوى في هذا البحر ويعمل على شواطىء واسعة لا تعكر سيادته سوى أعمال الجماعات البحرية الحرة التي بلغ من كثرتها وقوتها أن هددت أمن البحر

---

(١) سبب هذا الاحتكار البيزنطي أيضا هجرة كثير من المسيحيين من سورية و فلسطين الى قبرص والأناضول سنة٨١٣ (انظر ارشيبالدلويس ـ القوى البحرية ص١٧٩) .

المتوسط وعطلت في النصف الثاني من القرن الثامن خاصة وفي مطـالع القرن التاسع الكثير من تجارته ومواصلاته .

وجاءت ثورة توماس الصقلبي سنة ٨٢٠ ــ ٨٢٣ فأصابت القوة البحرية البيزنطية بضربة قاسية إذ خرجت هذه القوة منها عرجاء تماماً وقد أتت الحرب الأهلية على أساطيلها في الولايات وشتت شملها(١) . فكان يكفي لقوة منظمة ناشطة أن تكشـف الانهيار البيزنطي البحري وتكسب المكاسب الهامة على حسابه . وهذا بالضبط ما تم سنة ٨٢٧ في أهم موقعين من مواقع المتوسط الجزرية : كريت وصقلية ، انتقم فيهما النفوذ الاسلامي البحري لهزيمة قبرص سنة ٧٤٧ ونتائجها إذ كسر عملياً نظام الرقابة التجاري ــ العسكري الذي فرضته بيزنطة مدة تزيد على ثلاثة أرباع القرن تحكمت خلالها بتوجيه طرق التجارة الدولية عبر الموانىء والبحار والممرات التي تخضع لها كما غيرت خلالها الوسطاء التجاريين في المتوسط ، فأبعدت أهل الشام ومصر وافريقية ، وجعلت التجارة احتكاراً لرعايا بيزنطة بصورة خاصة والبلاد الخاضعة لها في ايطاليا وعلى البحر الأسود .

على أن الانتصار الاسلامي في كريت وصقلية لم ينجم عنه تحول التجارة البحرية تحولاً كاملاً في الثغور والطرق والوسطاء إلى المسلمين ولكن تقاسم النفوذ التجاري بينهم وبين تجار المدن الايطالية ( البندقية ، أمالفي ، باري ) في المناطق التي انحسر عنها النفوذ التجاري ــ السياسي البيزنطي ، وكثر الوسطاء خاصة وأصحاب السفن من هذه المدن بجانب

---

(١) ارشيبالدلويس ــ القوى البحرية ص ١٦٩ .

اليونان البيزنطيين والعرب المسلمين • وبينما بدأت بيزنطة تتحول إلى نوع من السلبية الاقتصادية والركود التجاري ، ظهر النشاط التجاري والسياسي في موانىء مصر خاصة وفي افريقيا مما نجم عنه ظهور الدول المنقطعة في الاقليمين ( الطولونية والأغلبية والأدريسية ) •

**ب ــ فتح كريت :** لعل فتح هذه الجزيرة من قبل المسلمين كان أكثر المغامرات طرافة وشأناً بين مغامرات الأساطيل الحرة في المتوسط في ذلك الحين • فقد قام بهذا الفتح جماعة أندلسية مطرودة من قبل الحكام المسلمين في غرب المتوسط ثم من شرقه على السواء • وقد بدأت قصتها بالثورة المعروفة في الأندلس باسم ثورة أهل الربض إذ ثارت في قرطبة سنة ٨٠٥ ثم في طليطلة سنة٨٠٧ هذه الجماعة من سكان الأرباض فلما قمع الحكم الأول الأموي تلك الفتن بأساليب البطش الشديد انبعثت الثورة من جديد سنة ٨١٣ في قرطبة فلما تمكن الحكم منهم قرر أن يدمر الحي الثائر • واعطى سكانه مهلة ثلاثة أيام للنجاة بأنفسهم والخروج من الاندلس كله أو يصلب ! ونزل أهل الربض في المراكب فبعض استقر في فاس من المغرب ومنهم من واصل السير في البحر حتى إذا وصلوا الاسكندرية نزلوا في جوارها سنة ١٩٩/٨١٤ ولم يكن مسموحا لأهل الاندلس النزول في الأرض العباسية ولكنهم كانوا ١٥ ألفاً من اللاجئين عدا النساء والأطفال وكان الحكم العباسي مهتزاً في مصر قد غلب على شرق الدلتا ( أسفل الأرض ) منها عبد العزيز بن الجروي وغلب على ماوراء ذلك حتى الصعيد عبيد الله بن السرى واختصم الاثنان فلم يلق الاندلسيون معارضة في نزولهم ثم استطاعوا بعد قليل سنة ٢٠٤/٨١٨ دخول الاسكندرية والاستيلاء عليها بزعامة أبى حفص عمر ابن شعيب ( أو عيسى ) البلوطي لأنها مع أعمالها حتى بحيرة مريوط كانت خاضعة لسيطرة قبلية بدوية من قبيلتي لخم وجذام •

ولما قرر المأمون إنهاء الاضطراب في الأجزاء الغربية من الخلافة سنة ٢١٠/٨٢٥ وأرسل عليها عبد الله بن طاهر بن الحسين واستطاع هذا القائد أن يلغي الاستقلال الذي أعلنه ابن السرى في مصر ويعيدها الى التبعية العباسية مال على هؤلاء الاندلسيين فهزمهم ثم خيرهم بين القتل أو الرحيل « فسألوه الأمان على أن يرحلوا الى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الاسلام » . ولا شك أنهم كانوا قد شكلوا إذ ذاك قوة بحرية تجارية واستخدموا اسطول المراكب الذي قدموا فيه ، في التعرف الى الحوض الشرقي للمتوسط . واختار هؤلاء الإندلسيون جزيرة كريت لا لموقعها الاستراتيجي التجاري الهام فقط على مدخل بحر ايجة وسعتها وخيراتها ولكن لأن الاسطول البزنطي كان في ذلك الوقت أضعف من ان يحمي أي شاطيء للروم أيضاً . وقد أرسلوا سنة ٨٢٦ حملة من عشرين سفينة إلى كريت فعادت إليهم بكثير من الغنائم والأسرى وتعرفت إلى دخائل الجزيرة ومواقعها ...

تحرك الاندلسيون في أسطول من أربعين سفينة ونزلوا فجأة خليج سودا في كريت سنة ٨٢٧ وأذن لهم أبو حفص في أن يعملوا أيديهم في النهب والبطش على الفور اثني عشر يوماً وفتحوا حصناً من حصونها جعلوه رأس جسر للفتح ولما لم يكن لهم من موئل يعودون إليه فقد بدأ أبو حفص في بناء حاضرة لاستقرار هذه الجموع معه في موضع بلد قديم على الشاطيء الشمالي للجزيرة عرفت باسم كنديا أو تشانداكس Chandia, Chandax (وهي تحريف كلمة خندق بسبب الخندق العميق الذي حفر حول المدينة ) كما بدأ في الوقت نفسه سلسلة غارات عنيفة على انحاء الجزيرة أخضع خلالها ٢٩ بلداً من بلادها وخرب حصونها

ويستظهر فازيلييف من بعض الأخبار أنه لم يكن في الجزيرة من حامية حربية قوية • وقد ازداد هؤلاء الاندلسيون قوة حين لحق بهم بعض الاندلسيين الآخرين وحين زادوا في بناء المراكب وغزوا الجزيرة المجاورة حتى أرهبوها ونشأت بذلك دولة أبي حفص الذي عرفه التاريخ البيزنطي باسم Apocapso !

ويعزو مؤرخو البيزنطيات هذا الفتح إلى ضعف بيزنطة وإلى ما كان يكنه سكان كريت للنظام البزنطي من كراهية بسبب الظلم الضرائبي والاداري وبسبب الهرطقة المتعلقة باللا أيقونية وما من شك في أنه يجب أن يضاف إلى ذلك شجاعة هذه الجماعة التي كررت في كريت ماكان فعله طارق بن زياد من مغامرة الفتح لأنها وإن لم يكن مؤكداً أنها أحرقت السفن وراءها فإن طريق العودة كان على أي حال مسدودا في الواقع عليها في الشرق العباسي أو الغرب الأموي على السواء ويقولون إن أبا حفص استطاع عند احراق السفن تهدئة قومه الخائفين بامتداح الأرض وغناها وجمال نسائها •

وتروي المصادر الرومية القصص الخيالية حول ذلك الفتح الذي استرق به العرب المسلمون سكان تسع وعشرين بلداً وغزوا فيه الجزر حول كريث عشرات الغزوات •

ولم يخف على اباطرة بيزنطة وقوادها مدى الخسارة والخطر السياسي والعسكري والتجاري في سقوط كريت بيد المسلمين ولكن الحملات البحرية التي أرسلها الامبراطور ميخائيل الثاني بقيادة فوتينوس بعد أشهر من وصول العرب ثم بقيادة دميانوس مع أمداد جديدة بعد ذلك ثم بقيادة كراتيروس مع سبعين سفينة فشلت كلها وأجلاها العرب

بالقتال العنيف الى البحر • وبينما هرب الأول جرح الثاني وقتل الثالث[1] •••

ولجأ الفاتحون إلى الهجوم المعاكس فقاموا عقب وفاة الامبراطور ميخائيل مباشرة بحملة بحرية خربت ونهبت شواطيء ايونيا وكاريا وجبل لاتروس ويبدو أن هذه الحملات أضحت تقليداً لدى الحكام الاسلاميين في كريت الذي اتخذوها مركز انطلاق الى البر اليوناني حيث يبدو من بعض النقوش الكوفية التي وجدت في أثينة أن العرب استوطنوا حيناً من الوقت تلك الجهات[2] وكانوا في أواسط القرن العاشر يهددون سواحل بحر ايجه كلها بما قادوه من هجمات واسعةتناولت جزر الأرخبيل اليوناني حتى خلت من سكانها خلواً يكاد يكون تاماً وقد ظلت جزيرة كريت في الحكم العربي نحو قرن ونصف من الزمان حتى استردهانقفور فوقاس سنة ٩٦١ م •

**جـ ـ فتح صقلية** : وقد كان فتحها متواقتاً مع فتح كريت • وإذا كانت المقدمات الاولى لاحتلالها لم تنجح ، منذ محاولة معاوية فتحها سنة ٦٥٢ ثم محاولته الاخرى سنة ٦٦٩ ثم المحاولات التي كانت بعده وخاصة سنة ٧٠٠ وسنة ٧٥٢ اذا كانت كلها لم تنجح فإن وصول الأغالبة الى الحكم في المغرب الأدنى وتوطد دولتهم في تونس (منذ عهد الرشيد)

---

(١) انظر قصة الفتح لدى فازيلييف ـ العرب والروم ص ٥٣ وما بعد ، ابراهيم العدوي ـ الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ١٠٧

Bury. A Hist. of the Eastern Roman Empire ( London 1912 ) pp. 287-291 .

(٢) فيليب حتى ـ العرب(الترجمة العربية) ج٢ ص٥٤٢ـ٥٤٣ (الطبعة الرابعة بيروت١٩٦٥) .

تجاه صقلية ، جعل هذه الجزيرة مطمع توسعهم البحري •

وتتميز افريقية والمغرب عن غيرهما مما دخل في حوزة الاسلام من أقطار البحر المتوسط بأن النشاط البحري جزء لا يتجزأ من حياتهما وكيانهما الاقتصادي والاجتماعي • وسكان هذا الشريط الساحلي العامر لا يستغنون عن البحر وتجارته ولهذا كانوا من أنشط الشعوب البحرية منذ العهد الفينيقي ثم أيام الرومان والبزنطيين • وقد غلبت طبيعة البلاد البحرية على المسلمين • فأنشأوا ميناء تونس بعد اختطاطهم القيروان في الداخل • وما كاد المغرب يبدأ التخلص من قبضة المشرق بعض الشيء بقيام الأغالبة حتى عاد أهله إلى نشاطهم البحري بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط • وهكذا لم يكن فتح صقلية مصادفة او استمراراً لسياسة الفتوح الاسلامية بقدر ما كان محاولة من المغرب لاستعادة مركزه في البحر المتوسط في نطاق اسلامي •• وبعد أن كان هذا الشاطيء العامر خاضعاً قبل الاسلام للشواطيء الأوروبية المقابلة له على هذا البحر نراه الآن يتجه الى السيادة عليها بعد الاسلام[1] •

كان من دلائل هذا الاتجاه التوسعي نحو الشمال تكاثر الغزوات البحرية الأغلبية على صقلية وجنوب ايطاليا في مطالع القرن التاسع ( أواخر الثاني الهجري ) • وهي غزوات تقوم في أساسها ودوافعها المنافسة التجارية •

وكان الأغالبة في افريقية ( تونس ) قد زادوا من قوة اسطولهم

---

(١) حسين مؤنس ــ المسلمون في البحر المتوسط ( بحث في المجلة التاريخية المصرية ــ العدد الأول من المجلد الرابع ــ مايو سنة ١٩٥١ ) .

البحرية للدرجة التي استطاعوا معها منذ سنة ٨٠٥ ( في عهد الرشيد ، وحين قام بحملته المشهورة على الاناضول ) ان يقوموا بغارة بحرية على جزر البيلوبونيز غرضها معونة الرشيد على الأرجح • ولعل هذا كان السبب في أن يعقد بطريق صقلية ( البيزنطي ) مع ابراهيم بن الأغلب في السنة نفسها سنة ٨٠٥ ثم أن يعقد ابنه صلحاً عسكرياً تجارياً لمدة عشر سنوات جدد سنة ١٩٨/٨١٣ لعشر سنوات أخرى على يد أبي العباس عبد الله بن ابراهيم •

ويبدو أن تلك الاتفاقية لم تكن قوية الأثر فيما وراء المصالح المتبادلة المتعلقة بصقلية نفسها ذلك أنها « لم تمنع عرب شمالي افريقيا ( الأغالبة ) من القيام[1] بغارات ــ ولو فاشلة ــ على سردينية سنة ٨١٢ و سنة ٨١٣ » وقد كانت الغارة الأخيرة هي السبب في تجديد اتفاق الصلح بطلب من الأغالبة هذه المرة لأنهم خسروا فيها مائة سفينة أغرقتها لهم العواصف قرب سردينية •••

وما إن ولي الحكم زيادة الله بن الأغلب حتى عادت الغارات إلى شكلها الدوري المعتاد على صقلية منذ سنة ٨٢٠ فغنموا منها تلك السنة الغنائم العظيمة بقيادة محمد بن عبد الله الأغلبي ( ابن عم الأمير ) ثم كانت سردينية هي الهدف في العام التالي ••• ولم يكن في عزم الأغالبة تحويل الغزوات إلى فتح لولا أن تطور الأحداث الداخلية في الجزيرة أعطاهم الفرصة المناسبة سنة ٨٢٧ •

فقد ثار زعيم الاسطول اوفيميوس Euphemios على بطريق الجزيرة

---

(١) ارشيبالدلويس ــ القوى البحرية ص ١٦٥ .

والامبراطور البزنطي ميخائيل الثاني سنة ٨٢٦ لأسباب قد يكون من بينها طموحه • فلما انهزم فر إلى القيروان يعرض على زيادة الله الأغلبي مشروع فتح الجزيرة على ان يكون تابعاً له بعد الفتح يحكمها ويؤدي الجزية • وعرض الامير المشروع على (الجماعة) ، وهم مجلس شوراه فلم يرضوه ويبدو أن الاتفاقية التجارية العسكرية كانت قد جددت مرة ثالثة فلم يرض معظمهم بنقضها • لاسيما والجزيرة معروفة المناعة ولكن المصاعب الداخلية التي كان يعاني منها الحكم الأغلبي ومشورة القاضي المسموع الكلمة ابي عبد الله أسد بن الفرات بن سنان ( وهو في الأصل من الجند الخراسانية ومن مواليد حران شمال سورية ) دفعت الأمير الأغلبي الى قبول المشروع لا سيما بعد أن عرف ان ثورة توماس الصقلبي قد اهلكت بيزنطة ودمرت اسطولها ، وبعد أن تواترت الأنباء بظفر أهل الربض الأندلسيين في النزول بجزيرة كريت •• وقد قدم اوفيميوس ( ويدعوه العرب فيمه ) نفسه دليلا في الجزيرة كما أعلن أن رجاله في مرفأ ( مزارا ) ينتظرون ! ••

وهكذا تقرر الفتح • واجتمع له من الجند الاسلامي ٧٠٠ فارس و ١٠ آلاف راجل على مائة سفينة وأعطيت القيادة لأسد بن الفرات نفسه • وسار أسطوله بجانب أسطول ايفيميوس ( في ١٤ حزيران سنة ٨٢٧/ ١٥ ربيع الاول سنة ٢١٢ ) ونزلت الحملة بعد ثلاثة أيام من ثغر مزارة على الساحل الغربي • وقد خشي أسد بن الفرات الغدر من صاحبه فرأى أن يعمل منفرداً • وطلب من ايفيميوس أن يميز جنده عن جند بيزنطة بعلامة فارقة وبدأ التهيؤ لمقابلة القوات الرومية التي هرعت لحربه من بالرمو فلقيها على الطريق إليه •

وقد انتصر أسد في موقعة ( بلاطة[1] ) رغم تفوق الجيش البزنطي في العدد والعدة ثم ألقى الحصار على ( سرقوصة ) عشرة أشهر ولم يأبه للمجاعة التي حلت بجنده ، ولا للثورة التي قامت فيهم تريد العودة ، فأخمدها . ولا لمكائد الروم وتواطؤ اوفيميوس في النهاية معهم ، ولكنه توفي بالطاعون مع عدد من جنده ، واختار الجيش لقيادته ( محمد بن ابي الجواري ) ولكنه كان مهدداً بالامداد العدوة التي وصلت من القسطنطينية والبندقية للجزيرة . وبالرغم من ان ايفيميوس الذي كان رائدهم في العمل ، قد هلك بمؤامرة بيزنطية[2] . ( ويعتبره المؤرخ الايطالي جابوتو بطلا قومياً ) فإن الغزاة العرب على قلتهم بقوا يدافعون ويهاجمون عند الشاطيء الجنوبي من الجزيرة وحول مرفأ مزارة بالذات مدة سنتين . وقد منعهم من العودة ان القوات البيزنطية لم تكن أقوى منهم وأن الاسطول البيزنطي كان قد أغرق السفن الاسلامية وقطع طريق العودة . وظل الامر على ذلك ، حتى اتفق أن اجتمع سنة ٨٣٠

---

(١) على اسم السهل الذي جرت به . والمؤرخون يعزون اسم السهل الى أسم القائد البيزنطي في هذه المعركة . ويراجع في هذا البحث كله كتاب (العرب والروم) لفازيلييف . وكتاب غزوات العرب لشكيب ارسلان . واول الكتابين واسع المصادر عميق البحث ترجم الى العربية قسم منه . كما يراجع كتاب المسلمون في صقلية من تأليف مارتينو مورينو .

(٢) بعض المؤرخين الايطاليين مثل جابوتو يعتبره بطلا صقليا قوميا وبعضهم يعتبره خائنا . وقد قتل في مؤامرة إذ استدعاه بعض سكان بلدة (ياني) وهي محاصرة ليسلموه البلد فذهب إليهم في حرس قليل وتلقاه في المقابلة اثنان اخوان كانا من أصدقائه وبينما كان أحدهما يعانقه بقوة طعنه الثاني بخنجره في ظهره .. وحمل رأسه المقطوع في موكب ظفر الى داخل المدينة التي اشتدت معنوياتها فلم تستسلم للمحاصرين حتى وصل جيش بيزنطي انقذها .

اسطول أندلسي يقوده الاصبع بن وكيل ( الملقب بالفرغلوس ) مع اسطول اغلبي قادم في ٣٠٠ سفينة حربية مشحونة لنجدة الغزاة ، فاتفقا على العمل المشترك ونجح المسلمون اثر ذلك في فتح بالرمو سنة ٨٣١ (٢١٦هـ) في الزاوية الشمالية الغربية من الجزيرة بالرغم من أن الوباء عاد فانتشر في الجند الاسلامي ومن أن بعض الجند الاندلسي عاد الى بلاده . وكان فتح بالرمو سنة ٨٣١ أمراً هاماً أعطى العرب قاعدة بحرية قوية ــ كما قال فازيلييف ــ يمكن الاعتماد عليها في فتح سائر الجزيرة. ولعل هذا النصر كان من أسباب إقدام الامبراطور تيوفيل رغم انتصاره في طرسوس والمصيصة على مصالحة المأمون تلك السنة .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الفتح بعد كوارث مختلفة لم يستطع أن يستغلها امبراطور بيزنطة لانشغاله بحملات المأمون في الشرق وحملات المعتصم من بعده وثبتت اقدام العرب في صقلية بصعوبة خلال حرب عنيفة سجال دامت أربع سنين ( ٨٢٧ ــ ٨٣١ ) مشوا فيها بسرعة من الغرب الى الشرق ثم استقروا في بالرمو . ليبدأوا بعد ذلك المرحلة الثانية من الفتح لشرق وجنوب الجزيرة وقلبها . وهي المرحلة الأطول والأصعب فقد استولوا في السنين العشرة التالية على اقليم غني في غرب صقلية ، وأسسوا هناك أولى مستعمراتهم ( واديمزارة ) . التي استولت مع بالرمو على التجارة وطرقها في الحوض الأوسط للمتوسط وهيأت انهيار النفوذ السياسي والتجاري البيزنطي فيه .

ثم استطاع العرب بعد ذلك أخذ ( مسينا ) في الشرق سنة ٨٤٢ ( سنة ٢٢٩ ) ثم فتحوا حصن البيزنطيين الحصين ياني سنة ٨٥٩ (٢٤٥هـ) ثم سقطت بأيديهم أخيراً سرقوصة بعد نضال عنيف ( مايس سنة ٨٧٨ ) دمر المدينة كلها في عهد باسيل المقدوني ( ٨٦٧ ــ ٨٨٦ ) وانتهى بذلك

فتح الجزيرة ••• بعد أن دام ٥٨ سنة ! لكن كان العرب قد جاوزوها ، قبل ذلك بزمن ، فأغاروا على كالابريا وغيرها من البر الايطالي وضموها مع صقلية الى الأملاك الافريقية ثم لم تبق في أيديهم بعد ذلك إلا ثلاثاً وسبعين سنه !

## ٣ ـ العلاقات مع الجنوب ( جنوب مصر وحوض النيل )

لعلنا قبل الانتقال الى الحوض الغربي من البحر المتوسط والى الغرب تتجه بالنظر الى قطاع مجهول مهمل هذه منطقة النوبة وما يجاورها في جنوب مصر • وإذا كان جنوب الدولة الاسلامية في الشرق ينتهي بالبحار ( الهندي والعربي والأحمر ) وجنوبها في الغرب تضرب الصحراء الكبرى سداً عريضاً بينه وبين ماوراءه من أرض السودان في غرب افريقيا ووسطها فإن المنطقة الممتدة مابين البحر الاحمر الى حوض النيل اعتبارا من منطقة أسوان والشلال الاول كانت القطاع الجنوبي الوحيد الذي تتجاور فيه قوى الاسلام فتصطدم او تتهادن مع قوى أخرى غير مسلمة •

وهذا القطاع يمتد مابين ساحل البحر الاحمر الغربي المقابل لمكة والمدينة وعسير حتى حوض النيل • وقد نستطيع تحديده الجغرافي بحصره فيما بين عيذاب ومصوع على البحر وبين أسوان وعلوة (جنوب الخرطوم) على النيل • وعلاقة هذه المنطقة بالعرب واسعة وسابقة للاسلام ، ولعلنا نذكر بهجرة المسلمين الأولى الى الحبشة • ولم تستمر العلاقة قائمة فقط بعد الفتح الاسلامي ولكنها ازدوجت أيضا إذ أصبح اتصال الحكم العربي بالمنطقة ثنائي الجهة : يأتي عبر البحر الأحمر كما يأتي عن طريق وادي النيل من مصر • ويمكن ان نقسم هذه البقاع إلى منطقتين :

. **الأولى** : فيما بين الوادي والبحر الاحمر وسكانها من قبائل البجة ( الأبشا )[١] ولكن عددا من البطون العربية ( وبعضها من ربيعة ) انتقل إلى مناطق البجة في العهد الاسلامي وتوطن بساحل الزنج أي المناطق الساحلية كما توغل أحيانا في داخل المنطقة بسبب مافيها من الموارد ذات القيمة الاقتصادية • فالمناطق الواسعة التي تسكنها البجة عرفها التاريخ الاسلامي باسم أرض المعدن وكانت فيها مناجم الذهب ( التبر ) والزمرد • كما كانت الطرق الموصلة بين موانىء البحر الأحمر ووادي النيل وخاصة ما بين عيذاب وقوص قطعة من طرق التجارة العالمية الموصلة ما بين المحيط الهندي والبحر المتوسط يسلكها تجار الهند واليمن والحبشة[٢] كما كانت طريق الحجاج ولم يعقد العرب المسلمون أي اتفاق مع قبائل البجة واعتبروها قبائل وثنية غير جديرة بأي تحالف سياسي •

لكن يبدو أن الأمويين اهتموا بمنطقة المعدن اهتماما واضحا لا بسبب ذهبها فقط ولكن لأن مجموعات عربية من المناوئين للأمويين هربت ، بعد الثورات الزبيرية والعلوية والخارجية ، من الحجاز أو من مناطق عمان والعراق الى ساحل الزنج[٣] • وجعلت تقوم مع التجارة ببعض القرصنة وقد أرسل عبد الملك بن مروان قوة عسكرية الى هذا

---

(١) كلمة بجة اصلها من اللغة المصرية القديمة ( ابشا ) وتعني البدو سكان الصحراء وهم بضم الباء وفتح الجيم .

(٢) انظر المقريزي ـ الخطط ج ١ ص ٣٥٦ ( طبعة بيروت ) .

(٣) يعود الى هذا العهد وصول أسرة ومجموعة الفنج أقرباء الامويين الى برالزنج من عمان وهي الاسرة التي سوف يكون لها دورها في تاريخ السودان وارتيريا حتى مطالع العصر الحديث .

الساحل تضمن ولاءه وأمنه سنة ٧٥هـ • عرفت باسم «شام» أي أهل الشام وتولى الحكم فيه أمراء أمويون أقاموا المدن واشتغل عـدد من الشاميين منها بتجارة التوابل والريش والمعادن والعاج كما قاموا بالإدارة الحكوميــة وتحصيل الضرائب من السكان ومــن التجار ••• وهذا بالطبع[1] ما يفسر هرب بعض الأمويين ، الى ما سمته المصادر بالحبشة يوم طاردهم العباسيون •••

وقد أسلم البجة بعد أن فتح عبد الله بن أبي سرح سنة ٣١هـ أعالي الصعيد ولكنه كان «إسلام تكليف ضبطوا فيه بعض شرائط الاسلام»[2] واحتفظوا بالكثير من وثنيتهم الأولى كما احتفظوا بزعاماتهم التقليدية التي يسميها الجغرافيون العرب «الممالك» ومنها البجة في الشمال ثـم جارين وتفلين ثم قطعة ودجن وبازين •••

ويبدو أن تكاثر العرب في دخول أرض البجة وغلبتهم على أرزاقهم دفع هؤلاء الى مهاجمة مصر العليا في مطالع القرن الثاني للهجرة (عهد هشام بن عبد الملك) حتى عقد عبيد الله بن الحبحاب والي خراج مصر معهم معاهدة نظمت علاقتهم بالأرض الاسلامية لأول مرة وقد وافقوا فيها على تقديم ٣٠٠ من الجمال إتاوة سنوية وأن لا يقبلوا الآبقين من الرقيق في بلادهم ويمنحوا المسلمين حق العبور والأمان لديهم •

وقد حافظ البجة على هذه العلاقة السلمية مع الإتاوة حين قـام العهد العباسي واحتفظ العباسيون ، بعد الأمويين لهذه الممالك باستقلالها

---

(١) انظر الشاطر بصيلي عبد الجليل ــ تاريخ وحضارات السودان ( القاهرة ١٩٧٢ ) ص ٢٢٠ وقد استخلص هذه المعلومات من مخطوطات نشرها بعض المستشرقين مثل كتاب الزنوج ( نشره تشيرولي ) ومخطوط (ورنر) ومخطوط قاضي فسمايو .

(٢) ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٥٥

وزعاماتها • بعد أن وصلت قوات عباسية قامت في المنطقة بالدور الذي قامت به من قبل القوات الشامية • ويبدو أن ذلك كان في عهد المنصور وفي حوالي سنة ١٥٣ لأننا نسمع عن حملة بحرية أرسلها من البصرة لمقاومة القرصنة على السواحل الغربية للبحر الاحمر تلك السنة[1] لمقاومة عمليات القرصنة التي تعرضت لها جدة قبل ذلك •

ولا نسمع بعد ذلك عن حركة في أرض البجة • حتى إذا كانت فتنة الأمين والمأمون واضطراب الأمر في مصر خاصة وغلب عليها المتغلبون بدا لأهل المنطقة أن يقطعوا علاقتهم الاسمية بوالي مصر وبالدولة الاسلامية فانتهزوا فرصة مرور حاكم قفط ابراهيم بأرضهم الى الحج سنة ٢٠٤ فقتلوه ولا شك أن وراء القتل محاولة للسيطرة على الطرق التجارية حاولها ذلك الحاكم فلقى فيها مصرعه لأن ابن حوقل يقول إن البجة عللت قتله بقولها : «••• لمعرفته بديارنا ومقارنا ومظان مياهنا ولسنا نأمنه» ! ويضيف أن (محا) ملك البجة غلب على رأيه أمام أولئك الذين دبروا المؤامرة على ابراهيم القفطي واتفقوا على إتاهته (في الأراضي الصحراوية) فمات عطشا ومن كان معه على أن ابنه الذي هرب به بعض البجة الى ادفو بالحيلة أبلغ أهله في قفط بالواقعة • ولما جاء (محا) يمتار على عادته الدائمة من قفط • أنزلوه مع ثلاثين رجلاً في بعض بيعهم وأتوا عليهم أجمعين •• واتصل ذلك بالبجة فساروا إليهم •• فهرب بعض أهل قفط مغربين بينما فتح المهاجمون البلد وسبوا منه سبع مائة نسمة وقتلوا خلقاً واسعاً • وكان بقفط رجل من آل الحسن له مكانته فقصد البجة فرد بعض السبى ••• » •

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٢ ( ٣/ ٣٧٠ ) •
(٢) انظر ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٥٦ ــ ٥٧ •

« وانحدر أهل قفط إلى مصر والسلطان ببعض شأنه مشغول[1]. فأقاموا يرمغون بمصر سبع سنين .. » وأخيراً قصدوا رجلا في الحوف ذا يسار وخير وجهاد يعرف بحكم النابغي فاستجاروا به واشترط أن يأتوه بكتاب من قاضي وشيوخ البلد ففعلوا وسار معهم ٢١٢ حتى ورد قفط في ألف رجل من قومه نصفهم من الفرسان واتخذ مقامه في موقع متقدم من بلاد البجة وبقي يغزوهم ثلاث سنوات حتى استرد سبى قفط عن آخره وأعيدت أسوار قفط وأسوان وقوص كما كانت من قبل[1] .

وجاء المأمون مصر سنة ٢١٦ ويبدو أنه أراد تهدئة الحدود الجنوبية أيضاً فأرسل مولاه عبد الله بن الجهم والياً على أسوان فكانت له معهم وقائع ثم طلبوا الهدنة فعقد مع كنون بن عبد العزيز عظيم البجة عقد أمان سنة ٢١٦/٨٣١ جدد فيه المعاهدة الأولى التي كانت عقدتها الدولة الاسلامية معهم قبل قرن كامل ، أيام عبد الله بن الحبحاب ، وإذا اعترف العقد الجديد للبجة بأن حدهم الشمالي يبدأ من منتهى حد أسوان والجنوبي مابين جزر دهلك وميناء باضع الا انه جعل المنطقة كلها من أملاك امير المؤمنين باعترافهم ويبقى ملكها عليهـا كما نص العقد على اعتراف آخر يقول : « ... وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين» وهذا لايعني التبعية السياسية فقط ولكن يعني أن العقد قد أملي إملاء على البجة ومن مركز القوة واشترط العقد ألا يهدم البجة شيئاً من

---

(١) هي خصومة السري بن الحكم الذي ملك الصعيد مع عبد العزيز ابن الجروي الذي ملك الوجه البحري . وقد قتل عبد العزيز ثم مات السري سنة ٢٠٥ ومات أبو نصر بن السري سنة ٢٠٦ وظلت الخصومة والحروب بين علي بن الجروي وعبيد الله بن السري قائمة في الدلتا حتى وصلت جيوش المأمون سنة ٢١١ .

(٢) انظر ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٥٧ .

المساجد التي بناها المسلمون في هجر وغيرها من مدن المنطقة « طولاً وعرضاً فإن فعلتم شيئاً من ذلك فلا عهد لكم ولا ذمــة » كما اشترط للحجاج حق المرور الآمن الى الحجاز ولعمال الصدقات ( الزكاة ) حق الدخول الى ارض البجة لجمعها من المسلمين ومقابل ذلك خفضت الاتاوة السنوية المفروضة على البجة فصارت ، رمزية الى حد ما : مائة جمل أو ثلاثمائة دينار[1] ( ويقال أربع مائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى ) أيهما اختار المسلمون • ولعل تساهل المأمون في هذا الاتاوة كان الغرض منه منع البجة من التحالف مع ملوك النوبة في وادي النيل ضــد الدولة الاسلاميــة •

غير أن هذه الاتفاقية لم تعش طويلاً فما جاءعهد المتوكل سنة ٢٣٢ حتى نقضت •••

المنطقة الثانية : ممالك النوبة[2] وهي على وادي النيل • حدها الشمالي يبدأ عند بيعة قرب جزيرة فيلة هي « آخر حد الاسلام وأول حد النوبة»[3] وكان الوادي قد دخل المسيحية على المذهب اليعقوبي منذ

---

(١) انظر نص الأمان لدى المقريزي ــ الخطط ( ط . بولاق ) ج ١ ص ١٧٣ ومابعدها ( ج ١ ص ٣٤٤ من طبعة بيروت ) ويذكر النص أن العقد ترجم حرفاً حرفاً من قبل زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله بن اسماعيل القرشي وهذا يعني أن ملك البجة لم يكن يعرف العربية وأن بعض العرب المقيمين في المنطقة كانوا بالعكس يجيدون لغة البجة .

(٢) النوبة كلمة مأخوذة في الغالب من اسم مدينة نوب ــ تا عاصمة الكوشيين التي يرد اسمها في النقوش الفرعونية المتأخـرة حوالي القرن الثامن ق.م ( وتسـمى حاليا بلدة كريمة في مديرية دنقلة شمال السودان ) اما النوبيون فأخذوا هذا الاسم في آخر القرن الثالث الميلادي حين هاجروا أيام الامبراطور ديوقليسيان من الواحات الغربية الى تلك المناطق من وادي النيل .

(٣) ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٥٦ .

القرن السادس الميلادي كما قامت فيه ممالك عدة أما ثروته فلا تقـوم على الزراعة فقط ولكن على التجارة وقد كان ممراً تجارياً هاماً لاستيراد الرقيق وبعض البضائع النادرة كالعاج وريش النعام وغير ذلك . وقد عقد المسلمون بعد فتح مصر هدنة سياسية وتجارية مع ملك النوبة سنة ٣١/٦٥٢ عرفت بالبقط[1] وقبل سنتين من ذلك كانت مملكتا النوبة والمقرة ( التي في جنوبها ) قد توحدتا في مملكة واحدة تضم عدداً من الزعامات المحلية . فلما جاء العهد العباسي سنة ٧٥٠ كان قرياقس الملك في دنقلة يسيطر على حوالي ١٣ زعيماً محلياً حتى مملكة الأبواب في الجنوب[2] ويبدو أن ملوك النوبة كانوا يمنعون أي اتصال بين بلادهم وبين الدولة الاسلامية وهذا لم يجعل أخبارهم نادرة فقط ولكن سمح لهم بالمحافظة على نصرانيتهم قروناً طويلة وكانت المراكب الاسلامية لاتجاوز الشلال الأول ( الجندل ) ولا يسمح لأحد أن ينزل منهـا الى باذن والي البلد النوبي الـذي كان « لا يطلق لأحـد الصعود ( في النيل ) إلى مولاه ( الملك بدنقلة ) لا لمسلم ولا لغيره[3] .. »

ومع ذلك فإن هذا لم يمنع قيام صلات اقتصادية واشجة بين السكان المتجاورين في أرض الاسلام وارض النوبة « وكان لبعض أهل أسوان أراض وضياع في أرض النوبة » اشتروها من فلاحيها وأراد ملك النوبة منعهم من استثمارها وملكها فادعى أنها من أملاكه وأن فلاحيها ليسوا اكثر من عبيد له فيها وشكا مندوبه ذلك إلى المأمون حين جاء مصر وجاءه

---

(١) ربما كانت الكلمة آتية من الكلمة اللاتينية Pactum ومعناها عقد أو اتفاق .

(٢) انظر الشاطر بصيلي ـ تاريخ وحضارات السودان ص ٨٧ .

(٣) انظر المقريزي ـ الخطط ج ١ ص ٣٣٦ .

الوفد النوبي الى الفسطاط فرد الأمر الى حاكم أسوان ، وخشي الملاكون أن يفقدوا إملاكهم فعلموا أولئك الفلاحين أن ينكروا أنهم عبيد وأن يذكروا أن علاقتهم بالملك كعلاقة الرعايا المسلمين بالخليفة ... وهكذا بالطبع ردت الدعوى[1] .

وهذه القصة نفسها تكشف أمراً آخر هو تأثر النوبة المجاورين لبلد الاسلام بالحكم الاسلامي ونوع نظامه وديمقراطيته والمساواة الانسانية فيه . فإن انكار اولئك النوبيين أنهم عبيد للملك وتحولهم إلى رعايا أدى كما يشهد المقريزي إلى أن ينقسم النوبة منذ ذلك الوقت قسمين : احرارهم الذين يجاورون المسلمين وعبيد في أرض النوبة . على أن الدولة النوبية وملوكها حافظوا بالمقابل على هدتهم التي هادنوا عليها المسلمين ولم تتبدل ...

ولم تتبدل العلاقات السلمية التي قامت في العهد الاموي مع النوبة بمجيء العباسيين فلما كانت خلافة المهدي بدا له على مايظهر أن يمارس نوعاً من الضغط عليهم لسبب قد يكون ناشئاً عن الحماسة الدينية في عهده « فأمر بالزام النوبة في كل سنة ثلاث مائة رأس ( من الرقيق ) وستين رأساً وزرافة على أن يعطوا قمحاً وخل خمر وثياباً وفرشاً أو قيمته ..»[2] .

ويذكر البلاذري أنه قد « وجد في الديوان بمصر ــ أن النوبة اعترضوا على هذه المطالبة « وادعوا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة . ورفعوا أن هذا البقط هو مما يأخذون من رقيق أعدائهم فإذا لم يجدوا منه شيئاً عادوا على اولادهم فأعطوهم منهم فيه بهذه العدة . فأمر

---

(١) انظر المقريزي ــ الخطط ج ١ ص ٣٤٨ ــ ٣٤٩ .
(٢) البلاذري ــ فتوح ص ٢٨١ .

( المهدي ) أن يحملوا في ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة ...»[1] .

وظل هذا العهد الجديد هو العهد المرعي حتى عهد المتوكل . وقد سأل عنه الناس والعارفين فيما يروى المقريزي - عبد الله بن طاهر قائد المأمون سنة ٢١١ واستخرجه من محفوظات الديوان بالفسطاط ولم يكن موجوداً - على ما يظهر - في محفوظات « ديوان الحضرة » ببغداد[2] .

الواحات : ولعل مما يتمم الصورة أن نضيف أخيراً فقرة أخرى حول منطقة ثالثة مجاورة هي منطقة الواحات في مصر : ( الخارجة والداخلة والفرافرة ) .

وقد كانت تعرف في تلك الفترات باسم مملكة موريتانيا . وكان مركزها الجغرافي ذا شأن استراتيجي هام في المواصلات لأنها تسيطر على الطرق الصحراوية التي يسلكها التجار ورجال الدين ما بين الاسكندرية وبلاد النوبة . وقد كان الحكم فيها ، منذ الفتح العربي ، حوالى سنة ٦٤٠ - فيما يروون - قد آل إلى أسرة مسلمة عرفت بآل عبدون (والاسم يوحي بأنه اسم متأخر العهد قليلا عن ذلك )[3] وإن كان معظم السكان من القبط النصارى . وكانت موارد هذه المملكة الخراج والجزية .

---

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٨١ .

(٢) المقريزي - الخطط ( ط . بيروت ) ج ١ ص ٣٥٤ وانظر البلاذري - فتوح ص ٢٨١ .

(٣) صيغة فعلون ندر أن وجدت في المشرق العربي . وقد وجد منها اسم حمدون في القرن الثالث وهو جد الحمدانيين أما في المغرب فوجدت واستعملت كثيرا مثل زيدون وخلدون وعبدون . ولعل الواو والنون في النهاية مقتبسة عن لغة الاندلس اذ تعني هذه الزيادة في الكلمة الكبر والعظم .

« ولا يمد آل عبدون وخدمهم أيديهم في شيء من الجباية سوى الخراج والجزية من النصارى وليس بجميع الواحات يهودي واحد ..»[1] .

وسيرة آل عبدون كانت أحسن السير مع التجار والعابرين أيضاً كما كانت لهم القصور والضياع الواسعة هناك . ويخيم الغموض على نوع العلاقة بينهم وبين الولاة في مصر ولعلهم كانوا يؤدون لهم بعض الدخل السنوي . وقد ورد خبر جاء عرضاً لدى احد المؤرخين أثناء الحديث عن ثورة دحية بن مصعب الأموي ويتبين منه أن أهل الواحات كانوا « من المسالمة والبربر » ، وأنهم كانوا من الخوارج وعلى مذهب الشراة وأنهم حين استجار بهم دحية اشترطوا لمعونتــه ان يكون على مذهبهم وحاربوا بجانبه على هذا الأساس ثم تركوه حين تبين لهم تفضيله العرب على الموالى والبربر مع أن الاسلام سوى بين الجميع .

وفي هذا ما يوحي ان الواحات كانت بؤرة خارجيــة مستقلة في الصحراء قليلة التعامل مع ولاة مصر والنظام العباسي فيها أو لعلها كانت أقرب إلى المقاطعة منها إلى التعامل .

ولكن علاقتهم مع النوبة كانت علاقة حروب وغارات متصلة سببها دون شك العلاقات الاقتصادية التجارية وقد استمرت على العداء إلى أن عقد الطرفان هدنة ربما كان موعدها في أواخر العصر العباسي الأول . على أن رعاية آل عبدون للقبط لم تمنع من عملهم على نشر الاسلام في الواحات بشكل بطيء تدريجي حتى أضحى فيها في أواسط القرن الثالث الهجري خمس بلدان إسلامية فيها ١٥ منبراً . ويبدو أن ابن طولون ، في تلك الفترة ، اختصم مع حكام الواحات أو أن هؤلاء جاروا على التجار أو أن مخاطر الرمال السافيات أضرت كثيراً بالقوافل التجارية

---

(١) انظر في تفصيل أمــر الواحــات . ابن حوقــل صورة الأرض ص ١٤٤ – ١٤٦ .

فأمر ابن طولون بألا يسلك تلك الطرق الصحراوية أحد •• وهكذا تضاءلت قيمتها بعد ذلك حتى عادت واحات معزولة •

**٤ ــ العلاقات مع المغرب :**

في أقصى الحوض الغربي للبحر المتوسط كانت هنــاك دويلات الخوارج في المغرب العربي ، وإمارة الأندلس الأموية ، ومملكة الفرنجة الكارولنجيــة •

١ ــ فأما **المغرب العربي** فلم تكن اموره ، منذ أواخر العهد الأموي ، بالتي تسير السير الهادىء أو المرتبط بعاصمة الدولة • وقــد جاء الانقلاب العبــاسي ليعطي تلك البقاع فرصتها في تأكيــد التمزق السياسي بها والاستقلالية المحلية لاسيما وأن الاسلام فيها كان يصطبغ أكثر فأكثر بالصبغة الخــارجية الثــائرة • وعلى المذهبين الاباضي أو الصفري المطاردين في المشرق • بينما كان العباسيون أنفسهم مشــغولين بما على أيديهم من مشاكل هذا المشرق وثوراته فلا طاقة لهــم بارسال قواهم او مد نفوذهم إلى أقصى المغرب • وهذا ماسمح لهذا المغرب أن يشهد تطورات خطيرة ، في عهد العباسيين الأوائل جعلته غريباً تمام الغربة عن بغداد • وبينما كانت خوارج منطقة طرابلس وافريقية يشكلون جبهة الصدام مع العباسيين وكان صقر قريش يقطع الاندلس وراء البحر كان عدد من الدول الاسلامية الصغيرة يكون حاجزاً فيما بين النفوذ العباسي والأموي يزيد في صعوبة الاتصال العباسي بالاندلس • كما يزيــد في إثبات العجز العباسي أمام المغرب • وإذا كان اهمال البحر المتوســط ووقوف النفوذ العباسي دون حوضه الغربي خاصة هو ما يميز سياسة بغداد البحرية فقد كان يقابل ذلك في المغرب الأقصى إهمال ذلك البر كله من جبال الأطلس ( مابين أواسط الجزائر الحالية حتى المحيط ) :

ومن الهام أن نلاحظ أن تلك الدول الناشئة هناك كانت تمثل آمال كافة المذاهب السياسية الاساسية والجماعات المضطهدة في المشرق من أموية وعلويين وخوارج • وهذه الدول هي :

**دولة برغـواطة :** فمنذ أواخر العهد الأموي سنة ١٢٢ كان ميسرة الخارجي الصفري قد ثار فيما بين طنجة والسوس وتسمى بالخلافة ولكنه هزم ثم قتله اتباعه ونزلوا بزعامة أحدهم ( طريف بن ملوك ) في الأرض الممتدة مابين الرباط والدا رالبيضاء حتى مصب وادي أم الربيع، على ساحل المحيط • واستطاع طريف أن يستميل الناس بزهده وبالجهل والسحر حتى قدموه عليهم وأصبحت شاله ( وهي في ضواحي الرباط اليوم ) عاصمة هذه الدولة التي عرفت بدولة برغواطة ( ولعله تحريف لكلمة برباطي لأن طريفاً كان من وادي برباط بالاندلس ) •

وقد ظلت هذه الدولة في أولاد طريف واحفاده حتى قضى عليها المرابطون في القرن الخامس • لكنها خلال صراعها مع الأدارسة أخرجت دعوة دينية زعمت أنها قد أوحي بها إلى صالح بن طريف « صالح المؤمنين » وأنه المهدي[1] وسوف يعود ويقتل الدجال •• وفي الدعوة بعض التحريف للاسلام : من ابتكار آيات قرآنية وتغيير للاحكام المتصلة بالمحارم والمحرمات وتعدد الزوجات ولهذا عرفت بزندقة برغواطة وكانوا يقرؤون القرآن بالبربرية •

**الدولة الصـالحية :** وقد عاصرت بدورها الدولة السابقة ومؤسسها

---

(١) انظر في ذلك : البكري ــ المسالك والممالك ص ١٣٨ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٧ ــ ٢٠٩ وابن عذارى ــ البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ والاستبصار لمؤلف مجهول ص ١٩٧ . ( وهو يجعل طريفاً يهودي الأصل ).

صالح بن منصور الحميري إنما أقامها منذ أيام الوليد بن عبد الملك في جزء من منطقة الريف المغربي الحالية بين قبائل غمـــاره وصنهاجة التي دخلت الاسلام على يديه • وقد أسس سعيد بن ادريس حفيـــد صالح عاصمة لهذه الدويلة في مدينة ( نكور ) على بعد قليل من الشاطيء وجعل ميناءها مقابلا لمرفأ مالقة الاندلسي •• وقد بقيت هذه الدولة في أحفاد الحميري حتى سنة ٤١٠ أيضا •

**الدولة المدرارية :** وقد أقامها الخوارج الصفرية في البلدة التي أنشأوها سنة ١٤٠/٣٤٧ وسموها سجلماسة ( تافيلالت الحالية ) على سيف الصحراء بالمغرب وكان اختيار الموقع موفقاً لا لتوفر الماء فيه فقط ولكن لقيامه على مطلع الطريق إلى بلاد السودان الغربي ومنطقة غانة • وحين استقرحكم البلد في يد ابي القاسم سمغون بن واسول المكناسي ، البربري الأصل ، الاندلسي المولد والذي كان حداداً في بعض ارباض قرطبة ويلقب بالمدرار ، أعطى الحكم لأولاده وأحفاده واستطاع هؤلاء بسياستهم الاقتصادية المفتوحة لقوافل التجار ورعايتهم لها أن يجعلوا بلدهم مركز التبادل التجاري بين سائر بلاد الاندلس والمغرب من جهة وبلاد غانة من جهة اخرى • في الملح والقطن خاصة والذهب ويجعلوا موارده أي مبلغ ضرائبه ٤٠٠الف دينار أي مايعادل نصف ارتفاع المغرب كله[1] ••

وقد تبعت هذه الدولة الفاطميين في أواخر أمرها فلما طرد محمد ابن الفتح أحد أصحاب المذهب المالكي أسرتها وأقام فيها خلافة لنفسه وتلقب بالشاكر لله سنة ٣٤٢ قضى الفاطميون على الدولة كلها سنة ٣٤٧/ ٩٥٨[2] •

(١) ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٩٧ •

(٢) البكري ــ المسالك والممالك ص ١٥١ •

**الدولة الرستمية :** وهي خارجية بدورها . أقامها عبد الرحمن ابن رستم بن بهرام ، في المغرب الأوسط . ويروون أن بهرام هذا كان مولى لعثمان بن عفان ويصوغ له الكتاب نسباً يصله بملوك بني ساسان[1] وقد أضحى من فقهاء وزعماء الخوارج الاباضية في افريقية وشارك في النضال ضد العباسيين اثناء ثورة ابي الخطاب في طرابلس وصار والياً على القيروان فلما قدم ابن الاشعث مع الجيش العباسي سنة ١٤٤/٧٦١ انهزم عبد الرحمن فاراً الى المغرب الأوسط . ولما فشلت محاولاته في العودة إلى افريقية بعد سنة ١٥١ استقر في منطقة تاهرت فبويع بالخلافة سنة ١٦٠ ثم اختط المدينة سنة ١٦١/٧٧٧[2] في بقعة جبلة مليئة بالأحراج ، وفي موقع دفاعي زراعي معاً تسكنه قبائل العتر الاباضية وسرعان ماتكاثر البناء في المدينة والازدهار مع تجمع الخوارج الاباضية اليها وذيوع اسم عبد الرحمن بالعدل والحسنى . ويبدو من بعض الأخبار أنه كان على اتصال مع إباضية المشرق وكان يسعى نظرياً على الأقل إلى تحريرهم من الحكم العباسي واجتذابهم إلى دولته المستقلة في المغرب فانا نسمع خبراً عن إرسال إباضية البصرة ثلاثة أحمال من المال إليه[3] فلما توفى سنة ١٦٨ ( في آخر أيام المهدي ) استفاد ابنه عبد الوهاب من سمعته فاختاره مجلس الشورى للخلافة . وإذا انقسم الاباضية بسبب هذا الاختيار الوراثي ما بين ( نكارية )

---

(١) انظر مثلا البكري ـ المصدر السابق ص ٦٧ ، وابن عذارى ـ البيان المغرب ج ١ ص ١٩٦ وابن خلدون ج ٦ ص ١٢١ .

(٢) يجعل ابن خلدون بناء تاهرت سنة ١٤٤ ( ج ٦ ص ١٢٣ ) ويظهر ان ابن عذارى أصح خبرا وقد اتبعناه .

(٣) الشماطي ـ كتاب السير ( سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ) ـ طبع حجر ـ القاهرة ) ص ١٤٠ .

ينكرون الوراثة ووهبية يقبلونها وهرب النكارية فاعتصموا بجبل نفوسة في طرابلس • واضطر عبد الوهاب لأن يستقر في هذا الجبل سبع سنوات وأن يحارب الأغالبة العباسية ليقروا نفوذه في الصحراء الداخلية الواسعة • وقد خلف عبد الوهاب حين مات سنة ١٨٨ ( زمن الرشيد ) سنة ٨٠٤ ابنه أفلح ••• وتكرر مرة اخرى انفصال جماعة ترفض هذه الوراثة كما تكرر الهرب إلى جبل نفوسة وتكررت الهزيمة للمنشقين ولكن ••• في سنة ٢٢١/٨٣٦ ••• وتوالي أحفاد عبد الرحمن الرستمي بعد موت أفلح سنة ٢٣٨/٨٥٢ حتى قضى الفاطميون على هذه الإمارة الخارجية سنة ٢٩٦/٩٠٨ بعد أن كانت قد استقطبت الخوارج من الصفرية والإباضية على السواء في افريقية كما انضوى إليها بعض المعتزلة الهاربين من المشرق وكانوا يعرفون بالواصلية ( نسبة لواصل بن عطاء ) بسبب مابين مذهبهم والمذهب الإباضي من بعض التقارب الفكري[1] •

وقد كان الرستميون على علاقة وطيدة قوية مع الدولة المدرارية ( الخارجية الصفرية ) وهي علاقة تجارية سياسيةمذهبية زاد فيهاالمصاهرة التي ربطت ما بين الأسرتين وقد كانت سيطرة الرستميين على الجزء الأكبر من الطرق الصحراويةالتجارية في افريقيةوالمغرب سبباًفي ممارستهم نوعاً من السيادة على المدراريين الذين بدوا وكأنهم الأتباع للرستميين•

**الدولة الادريسية :** وهي أهم هذه الدول المغربية وآخرها ظهوراً • إذ بدأت سنة ١٧٢/٧٨٨ كما أنها احتلت جغرافياً مركزاً متوسطاً بينها جميعاً في فاس • وتميزت عن غيرها بأنها كانت الدولة العلوية الأولى

---

(١) انظر عبد الرحمن بدوي ــ التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ٢٠٤ ــ ٢١٠ .

والوحيدة وكان تأسيسها نتيجة أحداث شرقية في الدرجة الاولى لا مغربية. وبقيامها كملت للمغرب الاسلامي معرفة ألوان النظم السياسية التي تقول بها الفرق الاسلامية الاساسية كلها فقد صار فيه دول تمثل المذهب السني للجماعتين الاموية والعباسية ( الأموي في الأندلس والعباسي للأغالبة في إفريقية ) وأخرى تمثل المذهب الخارجي بفرعيه الإباضي والصفري ( في سجلماسة وتاهرت ) ودولة للمذهب العلوي ( هي للأدارسة ) بل ودولة تمثل المذاهب المنحرفة عن الاسلام ( في برغواطة ) . وقد بنت كل دولة لنفسها ، في المغرب عاصمة فزرع المغرب عواصم : بني الأغالبة بلدة ( العباسية ) لهم بجانب القيروان سنة ١٨٥ وبنوا ميناء سوسة معها ثم بنوا بلدة رقادة عاصمة أخيرة لهم منذ سنة ٢٦٣ وبنى الرستميون تاهرت والمدراريون سجلماسة والصالحيون ( نكور ) وجماعة برغواطة بلدة شالة ...

وتأسيس الدولة الادريسية يعود في جذوره الأولى إلى هزيمة محمد ذي النفس الزكية أمام المنصور في مكة سنة ١٤٥ ثم هزيمة أخيه ابراهيم بعد شهرين أو أقل في باخمري . فقد عمل الاخوة الباقون لمحمد مع اولاده على التوزع في العالم الاسلامي ثم قام اثنان من الاخوة هما ادريس ويحيى فأعانا ابن أخيهما الحسين بن علي بن الحسن في ثورته التي قام بها سنة ١٦٩ فلم تدم سوى ١١ يوماً وانتهت بفاجعة جديدة في ( فخ ) ليست أقل من كربلاء وباخمرى نكالا وألماً .

وفر يحيى وفر ادريس . هرب الأول إلى طبرستان والديلم أما الثاني فركب الى مصر في الستر يرعاه مولى عاقل شجاع اسمه راشد . ويبدو أن صاحب البريد هناك وهو واضح مولى صالح بن المنصور رق لهما ، أو كان على الهوى الشيعي فساعدهما على الفرار إلى المغرب .

يقال أنه حملهما على البريد[1] حتى نزلا في القيروان . وزاد الهاربان في التستر بأن جعل ادريس من نفسه خادماً عند راشد ، وغرب الاثنان حتى نزلا بلدة وليلى قرب موقع فاس ، عند زعيم قبائل أوربة هناك.واستطاع ادريس أن يستميل هناك مع هذه القبائل ، جموعاً أخرى من زناتـة ( لواتة . نفزة . مكناسة . زواوة .. الخ ) فبايعوه بالإمامة فإذا هو على رأس جيش يستطيع أن يغزو مناطق المغرب الوسطى حتى المحيط الاطلسي ( مناطق تامسنا حتى تادلا ) في سنة ١٧٢ ثم المناطق الشرقية سنة١٧٣ حتى دخل تلمسان فأضحت معظم القبائل البربرية الأساسية مـع كتلة بلاد المغرب الأقصى في يده ...

وإذا مات ادريس سريعاً بمؤامرة عباسية سنة١٧٥ فإن راشداً مولاه استطاع أن يبقي البيت العلوي الادريسي قائما إذ جمعه حول طفل ولد لادريس من إحدى جواريه بعد شهر من وفاة الأب وحمل الطفل أيضاً اسم ادريس ... وأدار راشد الإمارة بينما كان الطفل يكبر وبالرغـم من أن راشداً قتل بدوره في مؤامرة عباسية اخرى سنة ١٨٦ فإن إدريس الصغير وجد من يكفله ويحفظ ملكه في شخص أبي خالد بن يزيـد العبدي[2] وجدد له البيعة سنة ١٨٧ من قبائل البربر كافة ! ووفدت على الإمارة الجموع من افريقية والاندلس فرساناً للحرب وجماعات للإقامة.

والملاحظة الهامـة في قيام هذه الـدولة وتكوينها أنها كانت دولـة حضرية مدنية زراعية وقد تمثل طابعها الحضري في عاصمتها فاس التي

---

(١) البكري ـ المسالك والممالك ص ١١٩ ويروي مثل ذلك ابن الأثير وابن خلدون . وقد جوزي واضح على تلك المعونة بالقتل من قبل الهادي .

(٢) البكري ـ المصدر السابق ص ١٢٢ .

ماتزال إلى اليوم بين أعظم مدن المغرب تراثاً وحضارة وذلك على خلاف الدولتين الخارجيتين في تاهرت وسجلماسة فهما بدويتان صحراويتـــان تجاريتان وقد اندثرت منذ القرن الخامس خاصة عواصم هاتين الدولتين وضاع أثرهما في التاريخ .

ثم إن دولة الادارسة وإن كانت علوية إلا انها في الواقع ، لم تكن شيعية بالمعنى الكامل للكلمة . وقد نستطيع أن ندعوها زيدية أي أنها ابنة أقرب المذاهب إلى المذهب السني .

وقد فتحها طابعها هذا للهاربين من عباسية المشرق وأموية الاندلس على السواء وجل هؤلاء من العرب مما مهد الى تطعيم الطابع البربري للدولة بطابع عربي أيضاً . وقد تمثل الطابعان في فاس نفسها التي كانت، في الواقع ، وما تزال من المدن التــوائم إذ تتألف من قسمين : مدينـــة شرقية[1] هي فاس الأولى وقد أسسها إدريس الأب سنة ١٧٢ بالقرب من مقره في ( وليلى ) وقد بقيت قرية ذات طابع بربري ولم تنشط وتكبر خاصة وتأخذ اسم عدوة الأندلسيين إلا منذ نزلها قسم من جماعة الربض الثائرة الذين طردهم الحكم الثاني من ارباض قرطبة، ( وفتح القسم الآخر منهم كريت ) سنة ٢٠٢ .

مدينة غربية بناها ادريس الثاني منذ سنة ١٩٢ وسميت بالعالية أو

---

(١) بحث ليفي بروفنسال مشكلة تاريخ بناء فاس وبين أنها بنيت اولا في الشرق سنة ١٧٢ على يد ادريس الاول ثم بنى قسمها الثاني سنة ١٩٢ واتى على ذلك بالادلة التاريخية الكافية . وكان المؤرخون من قبل يعتبرون سنة ١٩٢ موعد بنائها ( انظر البحث في كتاب الاسلام في المغرب والاندلس – ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي – القاهرة ١٩٥٨ ص ١ – ٥٠ ) .

بعدوة القرويين وأنزل فيها الجماعات العربية التي التحقت به وبإمارته . وأطلق على المدينتين معاً اللتين يفصل بينهما نهر ( وادي بوخرب ) اسم فاس ولو ان لكل من المدينتين سورها وأبوابها وسكانها . وتأسيس هذه الحاضرة إنما كان يعني استقرار الحكم الادريسي في المغرب .

ونلفت النظر أن الاقليم الذي استطاعت الإمارة الادريسية العلوية أن تنجح فيه إنما كان في الأصل قاعدة للخوارج ومهداً للحركة الخارجية. وبين الحركتين عداء وتباين قديمان أما كيف انقلب خوارج المغرب الأقصى من مناصرة ( ميسرة ) الصفرى وجماعته إلى مناصرة ادريس العلوي فلذلك أسباب تتراوح ما بين السياسة والدين[1] تنطلق من اشتراك الطرفين في العداء للخلافة المركزية سواء كانت أموية أو عباسية ومن أن الخوارج أنفسهم لم يتمسكوا بمبدئهم الجمهوري حين سنحت لهم فرصة تطبيقه في الحكم فتحولت اماماتهم إلى الوراثة المغلفة بالبيعة بالإضافة إلى أن تناصر الخوارج فيما بينهم سمح لرجل مثل ادريس الأول بعيد الهمة بأن يستفيد من نسبه النبوي ومن النكبات التي اصابت آل البيت في اجتذاب العطف وإقامة نظام مالبث حين فرض الأمن أن اجتذب القوى الأخرى التي ملت الفوضى والتناحر .

وقد استكمل ادريس الثاني اسباب ملكه بسك النقود وفرض النفوذ السياسي على دول الخوارج المجاورة وفتح بلاد البربر المصامدة ( بينه وبين طنجة ) واخضاع قبائل نفزة بتلمسان فلما مات سنة ٢١٣ كانت دولة الأدارسة قد استقرت تماماً بجهوده .

وخلفه ابنه محمد فوزع حكم البلاد على إخوته البالغين الثمانية

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ــ تاريخ المغرب العربي ص ٤٠٧ .

وقبل أن يتوفى سنة ٢٢١ كان أخوه عمر قد توسع في بلاد الريف على املاك إخوته واستقر فيها فكان جد الأسرة التي سوف تظهر في جنوب الأندلس إثر انهيار الخلافة فيها باسم بني حمود .

وتعاقب على إمارة فاس بعد محمد اثنان من أبنائه واستمرت الدولة الادريسية قائمة حتى قضي عليها سنة ٣٧٥/٩٨٥ .

وقد كانت هذه الدول المغربية كافة على علاقات طيبة بالأمويين في الأندلس بالرغم من أنها تدين جميعاً بمذاهب تخالف المذهب السني هناك ومن توفر فرص الصدام والتناحر ، ولم يكن ذلك بسبب التقائها جميعاً في العداء للعباسيين وفي التساند لضمان الانفصال عنهم ولكن أيضاً بسبب المصالح التجارية الواحدة التي كانت تربط المغرب بالأندلس واذا كانت علاقة الادارسة خاصة كدولة كبيرة بالأمويين الاندلسيين علاقة جوار ومسالمة وتبادل مصالح فإن علاقات الدول الصغرى الأخرى كانت أوثق واكثر اقترابا .

وبعض هذه الدول ، كالدولة الصالحية مثلاً ودولة برغواطة ، كانت اشد صلة مع الأمويين من غيرها لخوفها من الأدارسة من جهة ولأن أصحاب الأندلس بدورهم كانوا يخشون وقوعها في أيدي أصحاب فاس . وقد بلغ من تعاون الصالحيين مع الأندلس أن عبر أحد ملوكهم البحر لمعونة الثائرين على الامير الأموي فقتل مع أصحابه كافة في هذه النجدة .

واما دولة برغواطة فقد كان من تقاليدها التي يوصى بها الأمير السابق خلفه أن يوالي الأمويين ولم يكن هؤلاء بدورهم يجدون غضاضة في قبول هذه التبعية من برغواطة رغم « زندقتها » لأن ذلك يمنع بشكل أو بآخر التوسع الادريسي .

وأما الدولة الرستمية فكانت لا تقل قرباً عن الدولة الصالحية مع الأمويين • لأنها وجدت فيهم السند الذي يدعمها وهي جغرافياً بين دولتين قويتين : الأغلبية والادريسية • وقدتجلى التقارب بصورة واضحة عند تولي عبد الرحمن الثاني عرش الإمارة في قرطبة إذ أرسل الرستمي أولاده للتهنئة • واستمرت علاقات الصداقة وتبادل الهدايا والوفود والتهاني والود الشبيه بالولاء قائمة بين الطرفين بعد ذلك للدرجة التي دعت ابن عذارى الى أن يكتب : « أن صاحب تاهرت لايقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته الا عن رأيه ( رأي امير الأندلس ) وأمره »[1] وقد هاجر بعض امراء تاهرت إلىقرطبة فتلقاهم امراؤهااحسن اللقاء وأعطوهم المناصب الرفيعة في الدولة •

ولم يكن هذا الود سياسياً فحسب ولكنه كان يقوم على أساس اقتصادي متين إذ أن الرستميين كانوا يبعثون بالمنتجات الزراعية وعروض التجارة إلى قرطبة كما يزودون الجيش الأموي بحاجته من مرتزقة الجند البربر •••

والسؤال الرئيسي الأخير الآن : ماذا كان نوع العلاقة مابين هذا المغرب بدوله وبين الخلافة العباسية ؟

لقد وصل العباسيون إلى الحكم والمغرب كله مربوط بعاصمة واحدة موجودة في طرفه الشرقي ، في افريقية ، هي القيروان وانتهى القرن الثاني للهجرة وللمغرب ، في الواقع ، اربعقيروانات هي معالقيروان نفسها : تاهرت وفاس وسجلماسة وتعمل كل منها في منطقتها على تحقيق أهداف القيروان الأولى : أي على نشر الاسلام في افريقية والمغرب وعلى تعريبها الثقافي وعلى إقامة النظام السياسي فيها • وقد اختصت الاولى

---

(١) ابن عذارى ــ البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨ .

بافريقية بينما عملت الثانية في شرقي الصحراء الكبرى وفي المغرب الاوسط وعملت فاس على ذلك في المغرب الاقصى كما عملت سجلماسة على الأهداف نفسها في المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى وفيما وراءها •

وقد ساد نوع من التعايش السلمي بين هذه الانظمة الاسلامية المتباينة التي ظهرت في تلك الأقاليم برغم الولاءات السياسية والمذهبية المتعددة التي كانت ترتبط بها • وهي ولاءات ومذاهب مستوردة كلها من المشرق • ولعل آخرها وروداً وانتشاراً في الاندلس والمغرب هو المذهب المالكي السني الذي لقي نجاحاً واسعاً هناك منذ أواخر القرن الثاني بينما كان مذهب أبو حنيفة يلقى في الوقت نفسه نجاحاً مشابهاً في افريقية بعد أن قدم مع الجند الخراساني إلى القيروان •

وبالرغم من أن ظاهر العلاقة بين المشرق والمغرب عامة ، وهو الظاهر السياسي ، كان يوحي بالانفصال والإنقسام السياسي وظهور مايسمى بالحركات الاستقلالية فإن العوامل الحضارية ( من إسلام وثقافة عربية وتمازج سكاني مع العرب وتقاليد ونظم مشرقية ) كانت في تلك الفترة ذاتها تعمل بالعكس على نسج وحدة أعمق وأكثر توطداً ما بين المشرق والمغرب • وإذا فشلت خلافة بغداد في حفظ وحدة العالم الاسلامي مع تلك المناطق وفي مد نفوذها السياسي إلى ماوراء القيروان فإن الاسلام واللغة العربية والحضارة الاسلامية عامة كانت في الواقع تنجح بالمقابل وبشكل منقطع النظير في مد نفوذها النهائي الباقي وإعطاء المغرب ميزته العربية الاسلامية إلى اليوم •

ولعل الفضل في هذا النجاح انما يرجع الى ذلك التعايش السلمي الذي قام في افريقية والمغرب بين مختلف الأنظمة ، في تلك الفترة وهو تعايش قد يرجع في أساسه إلى أربعة امور :

الأول ــ توازن القوى بين الأنظمة الثلاثة الأساسية : الأغالبة • الرستمي • الادريسي •

الثاني ــ انقطاع أمل العباسيين في إمكان استعادة المغرب بعد انقطاع أملهم قبل ذلك في الأندلس •

الثالث ــ السياسة المتزنة التي سار عليها الأغالبة ، الذين أضحوا يمثلون الخلافة العباسية في القيروان • وتعاملهم بصورة عامة على اساس المصالح المتبادلة وعدم الطمع مع الأنظمة الأخرى • وهذا ماترك للتيار الحضاري أن يأخذ مداه في التأثير •

الرابع ــ قيام تلك الانظمة جغرافياً مابين دولتين إسلاميتين طامعتين بها على الجانبين : خلافة بني العباس من جهة ودولة امراء الاندلس الامويين من جهة أخرى •

على أن هذا لا يعني أن العباسيين سلموا بسهولة بالأمر الواقع أو أن الأغالبة وهم أعوانهم لم يحاولوا بعض المحاولات العدوانية ضد الدول المغربية ولكنا يجب أن نسجل أن هذه المحاولات لم تجاوز في أقصى أشكالها حد التآمر الاغتيالي ، ولم تصل درجة حشد القوى العسكرية والقتال الأخوي •

فأما العباسيون فإنهم منذ عهد الرشيد ، وبالضبط منذ سنة ١٨٤ فضلوا القبول بقيام نوع من الدولة التابعة على باب المغرب تهتم محلياً بكافة شؤونه مقابل أمرين : حفظ مظاهر الولاء للخلافة بالخطبة والسكة وما اليها ودفع مبلغ معين من الخراج السنوي لخزانة الخلفاء في بغداد • على هذا الأساس قام ابراهيم بن الأغلب وأسرته من بعده • وإذا كانت سياسته وسياسة أسرته مع المغرب يمكن أن تحسب ضمن حساب السياسة العباسية فإن الأغالبة قاموا ( أو يقال إنهم قاموا ) بعدد من الأعمال التي

كانت تلتقي فيها مصلحتهم مع مصلحة العباسيين وقد توجهت خاصة ضد الأدارسة في عهدهم الأول التأسيسي :

أولها : اغتيال ادريس بن عبد الله مؤسس الدولة الادريسية • إذ يذكر المؤرخون أن نجاح ادريس السريع في جمع الانصار وفتح الارضين بالمغرب قد أثار الذعر والقلق في نفس الرشيد الذي خشي على مصير المغرب كله ومصر وبعضهم يذكر أن ادريس عزم على ذلك[1] واستشار الرشيد يحيى البرمكي بعد أن سمع أن ادريس « فتح تلمسان وهي باب افريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار وقد عزمت أن أبعث جيشاً عظيماً لقتاله » ويقولون إن البرمكي نصح بإيفاد رجل داهية يغتاله واختاروا لهذا الأمر سليمان بن جرير المعروف بالشماخ • وقد وصل المغرب ومازال يتقرب إلى إدريس حتى صار من خاصته ثم نهز غرة فأعطاه سماً « شمه أو وضعه في ضرسه ) ثم لاذ بالفرار ولحقوه فأدركوه وجرحوه ولكنه استطاع الوصول إلى القيروان ومنها إلى بغداد ••

ومن المحتمل ألا تكون قصة التآمر والسم صحيحة تمام الصحة بالشكل الذي رويت به أو على الأقل قد لايكون نسيجها الأولى قد تم في بغداد • ولعلها من النوع الدعائي الذي يريد تمجيد الرشيد وبيان يده الطولى التي تصيب من المشرق أقصى المغرب • وأيا كان الامر فإن إدريس قتل في الواقع وكان المستفيد الأول من قتله هم العباسيون • وقد لا تكون مؤامرة اغتياله قد تجاوزت القيروان ( وثمة أخبار قد يفهم منها ذلك ) ولكن قتله على يد العباسيين يكمل لدى الناس وفي أذهانهم سلسلة مقاتل الطالبيين عامة وإخوته خاصة على يد خلفاء بغداد •

---

(١) ذكر ذلك صاحب روض القرطاس ( انظر مانشره ليفي بروفنسال من هذا الكتاب في : Extraits des Historiens Arabes P. 18

الثانية : مقتل راشد مولى ادريس : ويذكر المؤرخون أن إبراهيم ابن الأغلب ما إن تسلم افريقية للعباسيين سنة ١٨٤ حتى كان أول همه الخلاص من الادارسة وكان ادريس الصغير لا يصل إلى العاشرة ومدبر الأمر هو راشد مولى أبيه فلم يزل الأغلبي يدس إلى البربر ويبعث إليهم بالأموال ويستميلهم حتى قتلوا راشداً وأرسلوا إليه برأسه سنة ١٨٦ وفي ذلك يقول إبراهيم مخاطباً الرشيد[1] .

ألم ترني أهلكت بالكيد راشداً     واني لأخرى لابن ادريس راصد؟

وبالرغم من أن الأخبار تورد هذه المؤامرة التي قد تكون صحيحة إن إنه من المحتمل أيضاً أن يكون راشد قد قتل في تنافس داخلي بين أنصار إدريس الطفل . ولعلهم نافسوه على مكانه أو خشوا من طغيانه واستلامه الأمر دون ادريس وقد يدل على ذلك تجديد هؤلاء الاتباع البيعة للطفل بعد عشرين يوماً من مقتل راشد .

الثالثة : ان ابن الأغلب حين عظمت قوة ادريس الثاني وخشي زحفه نحو الشرق استمال اليه كبير زعماء قبائل أوربة : أبا ليلى اسحق ابن محمود الأوربي وهو الذي احتضن وساعد ادريس الأول فما تبين ادريس الثاني ميول اسحق لابن الأغلب حتى قتله ( أواخر سنة ١٩٢ ) .

الرابعة : ان ابن الأغلب أيضاً وأيضاً نجح في استمالة واحد من أكبر أعوان ادريس الثاني هو بهلول بن عبد الواحد الزناتي زعيم مطغرة فخرج على الامام مما اضطر الادريسي إلى أن يستعطف الأغلبي ويسأله الكف

---

(١) ادعى تدبير المؤامرة ايضا محمد بن مقاتل العكي وقد كذبه الأغلبي بقوله :

وتاه أخو « عك » بمهلك راشد     وقد كنت فيه ساهرا وهو راقد!

عن التآمر عليه وعقد المصالحة معه[1] • وبالرغم من أن التآمر غير مستبعد إلا إنه قد يكون الزعيم الزناتي إنما اتصل بالأغلبي بعد الثورة لتأييده •

وعلى أي حال فإن الأغالبة مع تمادي انقطاعهم عن التأثير العباسي، لاسيما بعد انتهاء عهد الرشيد واضطراب خلافة بغداد بين الأمين والمأمون سنين طويلة • أخذوا يميلون إلى توطيد علاقات حسن الجوار مع الأدارسة • يقول ابن خلدون ان الأغالبة عجزوا عن مدافعة الأدارسة « ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير بالغض من إدريس والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس بما هو أوهن من خيوط العنكبوت ••• »

ولعل هذا كله يعني أن خلافة بغداد كانت تنتهي عملياً عند برقة وأن السياسة الخارجية العباسية فيما وراء ذلك كانت منوطة عملياً بأغالبة القيروان •

**ب ـ مع إمارة الأندلس :**

إذا كانت علاقات بني العباس بالمغرب قد انحصرت بالتآمر فقط فإن علاقاتهم مع إمارة الاندلس انحصرت في تبادل رسائل الشتيمة فمنذ انقطع أمل المنصور في إدخال الأندلس ضمن إطار الدولة العباسية انقطع مابين تلك الأرض وبين بغداد من علائق مباشرة • وكانت نظرة بغداد إليها تمر عبر بلاد الفرنجة تارة وعبر ولاية افريقية والمغرب تارة أخرى •

---

(١) انظر ابن الاثير حوادث سنة ١٨١ وابن خلدون ج٤ ص ١٤ و ج ٦ ص ١١٩ وينسبون إلى ادريس قوله لبهلول :

| | |
|---|---|
| اضلك ابراهيم من بعد داره | فأصبحت منقادا بغير قياد |
| كانك لم تسمع بمكر ابن اغلب | عدا غزا بالسيف كل بلاد |

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤ .

وقد ذكر ابن الأثير خبراً لا ندري مدى صحته يقول : « إن عبد الرحمن ( الداخل ) صاحب الاندلس أظهر سنة ١٦٣ التجهز للخروج إلى الشام بزعمه لمحو الدولة العباسية وأخذ ثأره منها . فعصى عليه سليمان ابن يقظان والحسين بن يحيى الانصاري بسرقسطة واشتد امرهما فترك ماكان عزم عليه ..»(١)

ويبدو أن هذا المشروع نفسه أو مشروع آخر مقابل له نجهل كنهه وأحداثه حاول فيه المهدي النفوذ إلى الاندلس ثم كشفه عبد الرحمن ، كان السبب في أن يرسل عبد الرحمن الداخل ( وقد توفي سنة ١٧٢ في عهد الرشيد ) كتاباً إلى المهدي العباسي نفسه يندد بالعباسيين ويفضح مثالبهم أو لعله يهدد بنشرها . يقول الطبري : إن هشاماً الكلبي ( وهو مؤرخ نسابة معروف ) كان على الفقر ثم رآه بعض أصحابه يوماً وهو على بغلة شقراء من بغال الخلافة وعليه آيات النعمة فسأله : أنى لك هذا فروى له أن المهدي استدعاه يوماً وليس عنده أحد فأدناه ثم أعطاه كتاباً وقال : لا يمنعك مافيه مما تستفظعه أن تقرأه . وقرأ هشام بعض الكتاب فاستفظعه وألقاه من يده ولعن كاتبه . فقال الخليفة : قد كنت قلت لك إن استفظعته فلا تلقه . اقرأه بحقي عليك حتى تأتي على آخره . ويقول هشام : « فقرأته فإذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلباً عجيباً لم يبق له فيه شيئاً . فقلت يا أمير المؤمنين: من هذا الملعون الكذاب؟ قال: هذا صاحب الأندلس . قلت : فالثلب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آبائه وأمهاته . ثم اندرأت اذكر مثالبهم فسر بذلك وقال أقسمت عليك لما أمليت مثالبهم كلها على كاتب ... ودعا بكاتب من كتاب السر فأمر فجلس ناحية وأمرني فصرت إليه فصدر الكاتب من المهدي جواباً وأمليت عليه مثالبهم فأكثرت

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٦٢ .

فلم أبق شيئا حتى فرغت من الكتاب ثم عرضته فليه فأظهر السرور . ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم وجعل في خريطة ودفع إلى صاحب البريد وأمر بتعجيله إلى الاندلس ...»[1] ونال هشام على ذلك البغلة وعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .

ولم يكن صاحب الأندلس ليبادر إلى ثلب العباسيين ومكاتبة المهدي لولا أن أثاره أمر : قد يكون من نوع التآمر عليه أو يكون نتيجة لعلاقة المنصور بالفرنجة وهجومهم على أطراف الأندلس الشمالية وقد أجاب المهدي على ثلب كتابي بثلب من مثله وعلى التهديد بالفضائح بتهديد آخر من نوعه وكان هشام أقدر من يعرف ذلك أو يخترعه وعلى أي حال فقد كان هذا النوع من الرسائل الهجائية هو العلاقة الوحيدة التي نعرف بين بغداد وقرطبة في تلك الفترة ...

**جـ ـ الغرب ( العلاقات مع الفرنجة ) :**

كان اتجاه الامبراطورية العباسية إلى الشرق واموره مضعفاً لها في الغرب ( كالذي كان في افريقية والمغرب ) صارفاً لها عن مناوأة اصحاب الاندلس او اقامة العلاقات مع اوروبا الاقطاعية بصورة عامة . غير أن الباحثين الفرنسيين خاصة يذكرون خبر صلات ( واسعة او ضيقة ) بين الرشيد وشارلمان تجعلها فرنسا حجة ودليلا على قدم وعمق نفوذها في الشرق ولعله لهذا السبب ولأنها مشكلة تاريخية غامضة فإننا يجب أن نبحثها بالتفصيل ، محاولين الاجابة على سؤالين : هل حدثت تلك العلاقات أولاً ؟ واذا حدثت فما مداها وما معناها ؟

آ ـ مصادر الموضوع قسمان :

---

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ( ٣/٥٢٨ ـ ٥٢٩ ) .

١ ) القديمة : ليس في المصادر الاسلامية ولا البيزنطية أي ذكر الصلة بين الرشيد وشارلمان وتنفرد المصادر اللاتينية وهي مصدران :

ايجينهارد : ( حياة شارلمان ) Eginhard : Vita Caroli

سان غال : ( الحوليات الملكية الفرنجية )

St. Gall : Annales Regni Francorum

والاول صديق لشارلمان ومولى له • اما الثاني فراهب كتب كتابه بعد نصف قرن من عصر الامبراطور الفرنجي •

٢ ) الحديثة : بحث المسألة كثيرون اهمهم :

بكلر[١] وهو يقبل وجود العلاقات ويبني بحثه لا على الأدلة المادية التاريخية ولكن على الاستنتاج الفكري •

بريهية Brehier وهو يؤيدها ويستنتج منها نتائج مبنية على التخمين لا على التدقيق العلمي •

جورانسون[٢] وهو ينقدها نقداً علمياً ويقبل وجودها ولكن يتحفظ في تحديد نتائجها كثيراً •

رانسيمان[٣] ويقبل وجود العلاقات ولكنه يعتبر نظرية حماية شارلمان لفلسطين اسطورة •

شميدت[٤] وهو يبحث تلك العلائق ومداها في مجلة « الاسلام » الألمانية •

---

(١) Buckler : Harun al-Rashid and Charles the Great. P.P. 170-8

(٢) Joranson : the Alleged Frankish Protectorate in Palestine P.P. 241-6

(٣) S. Runciman : Charlemagne and the Palestine ( E.H.R. Oct. 1935 ) P.P. 606

(٤) F.F.Schmidt . Karl der grosse und Harun al - Rashid Der Islam, Vol III P.P. 409-11

بارتولد Barthold وهو ينفي هذه العلاقات بدليل سكوت المصادر المختلفة عنها .

كلاتيكلوس وبحثه في مجلة ( سيريا ) يحمل عنوان ( خرافة علاقة الافرنج بالعرب ) .

مجيد خدوري[1] وعبد العزيز الدوري[2] وهما يبحثانها بروح علمية عميقة تميل لنفيها .

ب ـ **العلاقات** ( حسب رواية المصدرين اللاتينيين ) تقسم إلى ثلاثة أقسام .

١ ـ **العلاقات مع الرشيد** : ارسل شارلمان وفدين الى الرشيد (سنة ٧٩٧م ـ و ٨٠٢م ) فأجاب الخليفة بإرسال وفدين ( سنة ٨٠١ و ٨٠٧ م)،

ففي سنة ٧٩٧ بدأ شارلمان العلاقات بإرسال وفد من اثنين (لا تنفريد وسيغسموند ) يصحبهما يهودي اسمه اسحق للترجمة . وقضى الوفد في مهمته ثلاث سنوات . توفي أثناءها المثلان الاساسيان ، ورجع اسحق وحده مع فيل سنة ٨٠٢ م .

وفي سنة ٨٠١ ( اي قبل عودة اسحق ) وصل وفد اسلامي عن طريق بيزا إلى بلاط شارلمان ، كان يتألف من اثنين : احدهما فارسي ، يمثل الخليفة ـ فيما قيل ـ ، وثانيهما من المغرب ، عن ابراهيم الأغلب ، وأخبرا شارلمان برجوع اسحق ، مع فيل وهدايا .

وفي سنة ٨٠٢ أرسل شارلمان وفده الثاني . ولا يذكر ( ساغال )

---

(١) مجيد خدوري : العلاقات الدبلوماسية بين الرشيد وشارلمان ص ٢٣ ومابعدها .

(٢) الدوري : **العصر العباسي الاول** ص ١٤٩ ومابعدها وقد اعتمدنا كثيرا هذه الدراسة .

مهمة **الوفد** ، ولكن إيجينهارد يذكر سفره بهبات لكنيسة القيامة ، وذهابه الى الرشيد « وحين عرض السفراء رغبات سيدهم على الرشيد اجابها وفضلاً عن ذلك اوكل ( أي الخليفة ) اليه ( لشارلمان ) أمر الأماكن المقدسة » ورجع الوفد سنة ٨٠٦ • وفي اوائل السنة التالية وصل بلاط الفرنجة رسول عن الخليفة ، يدعى عبد الله ، ومعه هدايا نفيسة : (صيوان ملون بديع واقمشة حريريةوعطور وبلسم وساعة مائية عجيبة واوان نحاسية ) •

٢ ــ **العلاقات مع بطريق القدس** : أرسل شارلمان سنة ٧٩٩ م رسلا الى بطريق القدس • فأجاب البطارقة بأربع سفارات على الأقل ( سنة ٧٩٩ و ٨٠٠ و ٨٠٧ ) •

ففي سنة ٧٩٧ بدأ بطريق القدس فبعث بهدايا رمزية مع أحد الرهبان • فلما عاد الراهب بعث معه شارلمان قسيساً ( يدعى زكريا ) ، يحمل هبات الى الاراضي المقدسة • وعاد هذا القسيس في نهاية سنة ٨٠٠م يصحبه راهبان عن بطريق القدس يحملان لشارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ، ومفاتيح مدينة القدس ورايته •

ووصل سنة ٨٠٣ م من بطريق القدس جرجيس راهبان ، ظلت مهمتهما غير معروفة ، ولسنا نجد ذكراً لرد شارلمان على رسالتهما • وفي سنة ٨٠٧ وصل راهبان آخران •••

٣ ــ **العلاقات مع المامون** : ويذكر بكلر أن تلك السفارات التي بدأت بسفارة بيبان القصير الى المنصور سنة ٧٦٥ ( سنة ١٤٧ ) « انتهت بسفارة أخيرة أرسلها الخليفة المأمون إلى لويس التقى سنة ٨٣١ ( سنة ٢١٦ ) » ختاماً لعلاقات دامت سبعين سنة • ويأخذ بكلر خبر هذه السفارة الأخيرة عن الأخبار الملكية لسان غال •••

**ج ـ اسباب العلاقات ونتائجها :**

ظاهر أمر هذه العلاقات لا يدل على اكثر من فتح صلات ودية بين شارلمان من جهة وبين الرشيد والمشرفين على الأماكن المقدسة من جهة اخرى . على أن بعض المؤرخين الذين تناولوها ، وجدوا لها أسباباً ومعاني سياسية ودينية واسعة :

١ً ـ رغبة شارلمان في فتح الأندلس وضمان التأييد المعنوي للخليفة ضدهم ، وهم أعداؤه .

٢ً ـ عداء شارلمان لبيزنطة ( عدوة الخليفة ) ونزاعه معها ، حول وراثة تاج الامبراطورية الرومانية .

٣ً ـ رغبة البابا ( حليف شارلمان ) في تقوية صلاته مع بطارقة الاسكندرونة وانطاكية والقدس ، ليقفوا بجانبه ، في نزاعه مع بيزنطة .

٤ً ـ رغبة شارلمان في تسهيل أمر الحج الى الاماكن المقدسة ، وفي تكوين نفوذ معنوي له فيها .

٥ً ـ رغبة الخليفة في القضاء على النفوذ المعنوي لبيزنطة بين مسيحيي الشرق ، بتقوية صلاتهم بالغرب .

ويرى بكلر ان الوفد الاول للخليفة هو الوفد الهام . وبالرغم من أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غير معلومة . فهو يرى أن نجاح المهمة يوحي بأنها كانت لواحدة او لأكثر من هذه الغايات الثلاث : أما تحديد وضع شارلمان كحام للمصالح العباسية في الأندلس . وفي غرب المتوسط او عقد حلف مع الرشيد ، للتعاون المتبادل ، ضد الأندلس وبيزنطة ، او فتح الطريق للحجاج اللاتين ، لزيارة الأماكن المقدسة وحمايتهم من ظلم الارثوذكس .

ويمضي بكلر في تخمينه ، فيعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة ،

ولكنه يقول : إن سوء العلاقة بين الرشيد ونقفور استوجبت وضع تقييدات على المسيحيين ، ولذلك توسط شارلمان في الموضوع . وينتهي من بحثه بأن يرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ، ضمن سيادة الخليفة العباسي ، بدليل ما أرسله بطريق القدس من مفاتيح المدينة والراية ! ... وهذا المنصب لايتطلب ( في زعم بكلر ) حضور شارلمان الى القدس ، بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له .وكذلك عين شارلمان « امير استيلاء » على الأندلس ( ويستند بكلر في هذا التعيين الى تفسير الماوردي لهذا النوع من الامارة ) .

على ان بعض الباحثين لايبالغون في التخمين هذه المبالغة :(فبهريهيه) يرى ان اجابة مطالب شارلمان ( حسب طلب الوفد الأول ) وإرسال مفاتيح الكنيسة والراية ، معناه الحماية الفرنجية للأماكن المقدسة . كما أن فازيلييف يقول : « صار لشارلمان ، بإذن الخليفة ، حق حماية المسيحيين والحجاج ( في الاراضي المقدسة ) ، وحق انشاء كنائس وخانات في فلسطين » .

**د ــ ونصل اخيرا الى مناقشة الأمر كله مصادره وموضوعه :**

اولاً ــ نقد المصادر :

١ ــ يقول هالفن محقق كتاب ايجنهارد ( ويؤيده جورانسون ) إنه لا يمكن الوثوق بمعلومات ذلك المؤرخ الذي كان همه تفخيم اسم سيده عدا ما في كتابه من اخطاء كثيرة وخلط بين السفارات من الخليفة ومن البطريق ( وقد بين ذلك جورانسون ) .

٢ ــ يشهد كل من رانسيمان وجورانسون ، ان الراهب (سانت غال) من كتاب الأساطير . هذا الى أنه مقتضب ، لا يساعد على تعيين الصلات بوضوح ، ويرى رانسيمان ان نظرية حماية شارلمان لفلسطين اسطورة

اخترعها هذا المؤرخ الاسطوري ، بعد وفاة شارلمان بخمسين سنة ، إذ جمع المعلومات عن الهدايا التـي أرسلها الخليفة والبطريـق ، مـع معلومات إيجنهارد المضطربة ، ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين ، وارسل اليه وارداتها •

٣ ــ يعتبر بارتولد تخريف ( سانت غال ) مع سكوت المصـادر الشرقية ( العربية والبيزنطية ) دليلاً كافياً لنفي وجـود العلاقات بين الطرفـين •

ثانياً ــ نقد الموضوع :

لم نكن في حاجة لمناقشة تلك العلاقات ، لو لم يحملها الكتـاب المعنى السياسي • ولهذا نتوجه الى نقد هذا المعنى فيها :

١ ــ قد تكون ظروف شارلمان قد اضطرته لانشاء تلك الصلات ولكن هل كان وضع الرشيد يقتضي اقامـة صلات من هـذا النوع السياسي ؟

الذي نعرفه عن الرشيد أنه كان منتصراً على بيزنطة ، في تلـك الفترة ، وقد أجبر الامبراطورة ايريني سنة ٧٩٨ م على دفع الجزية له ، سنة بعد أخرى • ثم لا دليل على أن مسيحيي الشام كانوا مضطهدين • أو كانوا خطراً على الدولة في عهده ، ليحميهم شارلمان • واذا كان ثمة من حماية مزعومة لامبراطور الفرنجة ، فقد ينفيها أن الرشيد إنما «اضطهد» النصارى ــ إن كان ثمة اضطهاد ــ في أخريات عهـده ، أي بعـد تلك الوفود والصلات الفرنجية المزعومة ، لا قبلها • وأخيراً كيف يفـكر الرشيد في استرجاع الاندلس وهو يتخلى عن تونس ؟ وكيف يتآمر مع ملك مسيحي ضدها ، وهو المتدين الكثير الحج والصلاة والصدقات ؟ وكيف يعين شارلمان على فتحها ، وهو يعلم أن حكمها سيؤول لذلـك الامبراطور الفرنجي وليس له ؟

٢ ــ نرى من الجهة الاولى أن شارلمان كان على صلات حسنة ( في هذه الفترة بالذات ) مع بيزنطة • ففي سنة ٧٩٨ م أرسلت ايريني الى شارلمان وفداً للمفاوضة في عقد حلف ، واقترحت عليه الزواج • ولعلها سلمت له ــ كما يقول بكلر ــ بلقب الامبراطور •• بل كان سفراء شارلمان سنة ٨٠٢ موجودين في القسطنطينية ويفاوضون في أمر الزواج ، حين جرى الانقلاب الذي أقصى الامبراطورة التقية الرهيبة عن العرش ، فما معنى وفوده إذن عند الرشيد ؟

٣ ــ يرى بارتولد ــ فيمايتعلق بأخبار الصلات ــ أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الهدية (الفيل) مع إسحق اليهودي ، بينما أرسل سفراءه مقدماً بأيد فارغة •• ويرى أن إسحق قد لا يكون أكثر من واحد من التجار اليهود ، المتاجرين بين الشرق والغرب •

ثالثاً ــ نقد النتائج :

يلاحظ أن قضية ( حماية الاماكن المقدسة ) وما يتعلق بهذا الأمر من نتائج إنما هو ابن التخمينات والظنون التي بدأت من (ايجينهارد) القديم ، ولعلها لن تنتهي عند (بكلر) :

١ ــ يرى بارتولد ان المصدرين اللاتينيين القديمين يصرحان : ان غاية الوفد الاول كانت الحصول على (فيل) • وليس هناك مايدل على وصول ذلك الوفد للرشيد ، أو مفاوضته ، بأي شأن سياسي • أو اتصاله بشارلمان نفسه منذ غادر بلاده •

٢ ــ ليس لدينا أي خبر يدل على أنه حدثت مفاوضات، أيا كانت، بين وفد الرشيد وبين شارلمان • حتى أنه ليس ثمة تاريخ يذكر عودته •

٣ ــ ليس ثمة مصدر يذكر مهمة الوفد الثاني الفرنجي • ويرى جورانسون ان (ايجينهارد) إنما أضاف من عنده خبر الهبات لكنيسة القيامة ، وقبول الرشيد لمطالب شارلمان ••• الخ وهو مؤرخ لا يوثق به• كما انه يخلط بين هذه السفارة وبين إرسال زكريا بالهبات لكنيسة القيامة

سنة ٧٩٩ م ثم إنه لا يعرف طلبات الوفد ، بينما كان أمر ( الحمايـة ) تخميناً من عنده ، ولا قيمة له •

٤ ـ يعتمد بكلر على المنطق ويقول ان هذه المفاوضات يجب أن ترى بمنظار الدبلوماسية الاسلامية ويعين ـ من عنده ـ شارلمان امير استيلاء على الاندلس ، وواليا على القدس ، يتوكل عنه الخليفة نفسه !• وذلك تخريف • ويعتمد على ( الماوردي ) في تفسير امارة الاستيلاء • وينسى ان هذا الكاتب ( الذي توفي سنة ١٠٥٨/٤٥٠ ) يفسرها بأنهـا « تعقد عن اضطرار ••• » وان صاحبها يتقلد « احكام الدين » ولم يكن الرشيد مضطراً ، وليس شارلمان بالذي يعهد اليه تصريف أمور المسلمين عدا أن هذا التفريق بين نوعي الإمارة إنما ظهر لاحقاً في القرن الثالث الهجري وما بعده ولم يعرفه عهد الرشيد أبداً •

٥ ـ أرسل شارلمان صدقات وهبات إلى فلسطين ، فاستعملت في تعمير بعض الكنائس • وأنشأ منزلا للحجاج باسمه ، كما أنشأ مكتبة • وهذا أمر بديهي من امبراطور يدعي السلطة على العالم المسيحي • ولكن جورانسون يتساءل فيما إذا كان ذلك يكفي للبرهنة على وجود (حماية) خاصة له في البلاد ، أو أنه يمكن أن يفسر على هذا النحو ؟ خاصة وان ايجنهارد يذكر أن شارلمان « خطب ود الملوك وراء البحار ، لأنه أراد ، بالدرجة الأولى ، تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون في ممالكهم» وهذا لا يقتصر على الرشيد !

٦ ـ أما تقديم المفاتيح والراية ، من قبل بطريق القدس ، فـلا يمكن أن يعطي معنى سياسياً معيناً • لا سيما ورواة الخبر لا يعلقون عليه أهمية سياسية ، بل يتفقون على أنه كان من بـاب الدعـاء والتبريك ( Benedictionis causa ) « فاعطاؤه المعنى السياسي تحميل للمصادر ماليس فيهـا » •

٧ ـ أمـا خبر سفارة الخليفة المأمون إلى لويس التقـى سنة ٢١٦/٨٣١ ••• فاذا كان خبر هذه السفارة صحيحا بدوره فقد يعني تحريض الدولة الفرنجية ضد بيزنطة في ايطاليا في الوقت الذي بدأ فيه المأمون حربها في الاناضول • على أن مما يضعف التعليل والخبر نفسـه أنه كان ثمة قوة شبه عباسية هي الأغالبة وتعمل ضد بيزنطة في قطاعها العربي ولم يستنجد بها المأمون أو يحركها محرضا أو منسقا للقوى وقد كان بامكانها القيام بدور اكبر خطرا بكثير من الفرنج !

ويظهر لنا ، بعد كل هذا ، ان وجود الصلات بين شارلمان والرشيد أمر قليل الاحتمال • ولكنها إن حوت ــ في حال وجودها ــ شيئا مـن المعنى السياسي ، فليس أكثر من التعاطف البعيد ، وقد لا تحمله مطلقاً • وقد لا تكون أكثر من مجرد صلات تجارية ، قوامها أولئك التجـار العالميون ، من اليهود الذين كانوا صلة الوصل بين الغرب والشـرق ، في تلك الفترة • ولعلهم من اليهود (الرادانية) الذين كتب ابن خرداذبة[1] انهم كانوا يحسنون عدداً من اللغات ، ويتاجرون بين فرنسا والأقطـار الاسلامية والصين • وقد يكونون كلفوا ( أو لم يكلفوا ) من شارلمان بحمل فيل ، وبعض البضائع الشرقية إليه • أو ربما كان الوافدون عليـه تجاراً ادعوا أنهم سفراء ، لتسهيل مصالحهم في بلاده ، كعادة بعض تجار تلك الأوقات (في الصين مثلا) •

وربما كان الاحتمال الأقرب الذي يفسر هذه الصلات والسفارات جميعا أنها لم تكن مع الرشيد والمأمون ولكنها إن وجدت قط فبين أغالبة افريقية ولاة الرشيد وبين شارلمان وخلفائه •

---

(١) انظر ابن خرداذبه ــ المسالك والممالك ( ط . دي غوية ــ بريل ١٨٨٩ ) ص ١٥٣ ــ ١٥٤

والواقع ان الأغالبة كانوا بسبب تجارتهم مع إمارات ايطاليا وجنوب فرنسا والحوض العربي للمتوسط ، وأطماعهم ثم هجومهم على صقلية في حاجة الى مثل تلك العلاقات مع دولة مسيحية كبيرة تناهض مثلهم بيزنطة المحتكرة للبحر المتوسط وللتجارة فيه والسيطرة على جزره ومعابره وبصورة خاصة على صقلية وجنوب ايطاليا . وقد كان شارلمان في زحام شديد قوي مع البيزنطيين في ايطاليا بالذات وقد بنى أسطولا في البحر المتوسط ومد نفوذه إلى جزر الباليار وسردينية وجنوب ايطاليا وحاول السيطرة على البندقية وايستريا ودالماسيا كجزء من خطته للسيطرة على مصادر الثروة التجارية التي حرمت منها بلاده بسبب بيزنطة حتى ظفر منها سنة ٨١٢ بجانب الاعتراف بتاجه الامبراطوري بحرية التجار الفرنجة في داخل الامبراطورية البيزنطية أيضا ولكن هذا البند من الاتفاق لم ينفذ أبدا وظلت المشكلة الاقتصادية قائمة في وجه خلفاء شارلمان .

ويتبين من هذا أن شارلمان وخلفاءه كانوا في حاجة الى حليف قوي ذي صلة مباشرة بالمناطق والموانىء والأراضي التي يزاحمون عليها بيزنطة . وكان هذا الحليف في الواقع هو الأغالبة . وثمة خبر أورده إيجينهارد نفسه يذكر أن وفدا من أمير تونس الأغلبي سافر الى بلاط شارلمان عن طريق بيزا سنة ٨٠١[١] . كما بعث الفرنجة فأخذوا بعد سنوات رفاة بعض القديسين من افريقية . وهذا يعني أن الصلات بين الطرفين ليست مجرد افتراض نظري ولكنها كانت قائمة فعلا ... فإذا تذكرنا الى هذا أن الأغالبة ، ولاة عباسيون على أي حال ، يحكمون باسم خليفة بغداد وقد كانوا ، ولا سيما في ذلك الوقت من أيام شارلمان

---

(١) انظر ارشيبالد لويس - القوى البحرية ص٢٠٤ ( تعليق ٨١ نقلا عن Eiginhard in M T H Script I, 190 )

والرشيد ، حديثي عهد بالولاية وبالتسمية من قبل الرشيد فهـم لهـذا شديدو الحرص على أن يبرز اسمه بجانب اسمائهم وعلى أن يتكلموا باسمه في كل مجال ولا سيما في مجال ملكي واسع لدى الفرنجة •

ثم إذا تذكرنا الى هذا وذاك شيئا آخر هو أن الطريق الذي ذكر أن الوفد الناقل للفيل اتبعه هو : طريق البر من مصر الى افريقية ومن هناك وضع في سفينة أبحرت به الى ثغر لوني ، حيث أنزل ليتم طريقه الى بلاط شارلمان ، أي أنه أبحر من أرض الأغالبة • كما أنه عاد في العودة عن طريق تونس • والسفارة التي غادرت عاصمة شارلمان (اكس لاشابيل) سنة ٨٠٢ أفلتت كما يقال من الوقوع في أسر بعض الاساطيل البيزنطية وهي عائدة سنة ٨٠٦ مما جعلها تسرع للوصـول الـى ميناء تريفيزو الايطالي • وهذا مما يشير بدوره الى أن عـودة الوفد كانت أيضا عن طريق افريقية (تونس) •

وإذا تذكرنا الى هذا وذاك أيضا أن وصول سفير من الرشيد أو الى الرشيد أو وفد يحمل الهدايا الضخمة (كالفيل وغيره) لايمكن أن يمر في صمت أثناء عبوره بلاد الأغالبة ولا بد أن يحتفوا به بشكل من الأشكال ••• إذا تذكرنا كل أولئك بات من الأرجح أن تلـك الوفود والسفارات إن وصل بعضها بلاط شارلمان رسميا وتكلم باسـم الرشيد فإنما صاحبه هم الأغالبة ••• مع بقاء الاحتمال الدائـم في أن لا تكون هذه الوفود والسفارات اكثر من جماعة من التجار يزودهم بلاط شارلمان أو الأغالبة بتوصيات أو بهدايا أو احتياجات ينقلونها بينهم بعد أن يأتوا بها من الشرق أو من بغداد وعلى أي حال فإن السفارات والوفود بين شارلمان والأغالبة كانت ، في الأرجح ، أوثق صلة مما تذكره المصادر كما

كانت اكثر احتمالا للمعنى السياسي وقبولا لموضوع تبادل الهدايا مما يمكن أن يعزى منها لبلاط بغداد والرشيد .

ويبقى بعد هذا أمر المصادر اللاتينية وقد كان طبيعيا من خلال رغبتها في تفخيم سيدها شارلمان أن تنقل السفارات والهدايا من اسم الأغلبي الى اسم مولاه ، سيد العصر في وقته : الرشيد .



# الفصل السادس

## عصر المعتصم

٢١٨ – ٢٤٧ هـ ٨٣٣ – ٨٦١ م

### فترة القلق

اعتاد المؤرخون أن ينهوا العصر العباسي الاول ، بموت الخليفة الواثق سنة ٢٣٢هـ ولعله من الاصح ان ينتهي بمقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ فان عهد هذا الخليفة كان تتمة في نواحية السياسيةخاصة، وفي النواحي الفكرية والاجتماعية ، للعصر الذهبي الاول • واذا كانت فترة القلق ، في دولة بني العباس ، قد بدأت في زمن المعتصم ، فإنها لم تتضح ، بمثل القوة التي وضحت فيها في عهد المتوكل • فقد كانعهده «عهد حسن ونضارة» وعهد نضال وقلق معاً • وقد حاول المتوكل ان يقاوم عبثاً عوامل الضعف في الدولة ، وانتهى الأمر بمقتله • على يد الأتراك • وهو حادث يصح أن يعتبر بدءاً لعهد جديد ، امتدت فيه أيدي خدم الدولة ، الى أكبر رأس فيها • فبدأ بها ما يسمى عادة بعهد النفوذ التركي • هذا الى ان تجزؤ الدولة الى ولايات مستقلة انما بدأ بعد مصرع المتوكل بسنوات معدودة فعهده اذن ، يجب أن يختم عهد القوة ، لا أن يعتبر مطلع عهد الضعف (الثاني) •

ويمكن أن نلمح القلق في هذه الفترة من التاريخ العباسي (٢١٨ – ٢٤٧) في مسلك الخلفاء السياسي • فبعد أن استندت دولة المنصور

والرشيد الى ركنين من العرب والفرس ، عاد المعتصم وخلفاؤه يجربون عصبية جديدة • ويضطرب احدهم (المتوكـل) بين العرب والترك مدة حكمه • وبعد ان قام المنصور والرشيد ببغداد ، عاد المعتصم يبني عاصمة جديدة ، وغـدا المتوكـل يفتش عن عاصمة أخرى ، حتى استقر في المتوكلية • وبعد أن اعلنت الدولة الاعتزال مذهباً رسمياً لها ، عن غير فهم سوى تقليد المأمون رجع المتوكل الى المذهب السني ، وعاقب المعتزلة بالجلد • وبكلمة واحدة ظهر بوضوح ان دولة بني العباس تزحزحت عن موطن القمة في الاستقرار السياسي • وبدأ عهـد الاضطراب تمهيداً للضعف والتجزؤ •

على أنه لا بد أن نذكر ان قمة الخط البياني للقوة السياسية ، لا تتفق في التاريخ ، عادة ، مع قمة التقدم الحضاري • وان هذا التقدم يتأخر في العادة ، ويبلغ اوجه في العهود التي يأخـذ فيهـا السلطان السياسي ، في الاضمحلال • وهكذا نجد ان فترة القلق التي ندرسهـا (والقرن الذي تلاهـا والذي نسميه بالعصر التركي) كانت في الناحية الحضارية فترة النضج والقوة • ففيها في الحياة الفكريـة برز الجاحظ (في الكتابة) وابن ماسويه (في الطب) وابـو معشر البلخي (في النجوم) وابن خرداذبة (في الجغرافيا) وابن قتيبة والطبري (في التاريخ) وابـو تمام والبحتري (في الشعر) وابن حنبل والترمذي والبخاري والسجستاني (في الحديث والفقه) وخلف البزاز (القارىء) وفيها ظهـر اول فيلسوف عربي : يعقوب الكندي •

ونجد في الحياة الاجتماعية لأول مرة خمود العصبيـات القومية والدينية ، وظهور ما نستطيع أن نسميه : المجتمـع الاسلامي (لا لأنه منقسم على أساس ديني ، ولكن لأن رابطته هي رابطة الدين) وانقسام

هذا المجتمع على اساس المال الى طبقتين : خاصة مسيطرة وعامة مستغلة كادحـة .

وتتضح ، منذ هذه الفترة ، ميزة هذا المجتمع الاقتصادية في أنـه مجتمع تجاري (لا سيما في العراق) حتى ليمكن ــ على حد قول متز ــ أن نعد «التاجر رمز الحضارة العباسية» .

وأخيراً فأهم الآثار العمرانية التي بقيت لنا من العصر العباسي ، كانت آثار هذه الفترة . وهي تلك القصور والبرك والجداول والشوارع التي تمتد على مسافة ٣٤ كيلو مترا حول دجلة والتي ندعوها سامراء .

**١ ــ الخلفـاء :**

توالى في هذه الفترة خلفاء ثلاثة : المعتصم ثم ابنه الواثق ثم ابنه الثاني المتوكل .

**المعتصم بالله**

**١٧ رجب سنة ٢١٨ ــ ١٩ ربيع الاول سنة ٢٢٧ هـ**
**٨ آب سنة ٨٣٣ ــ ٦ كانون الثاني سنة ٨٤٢ م**

**ابو اسحق محمد بن هارون الرشيد**

**نشاته وصفاته :** هو ابن الرشيد من جارية لـه تركية من الصـغد ومن مولدات الكوفة اسمها (ماردة) (أو مارية على رواية المسعودي)ولد سنة ١٧٨[١] وليس لدينا شيء عنه في صغره . ويظهر انه كان مهمل التربية .

(١) يذكر المسعودي (ج٤ ص ٤٦ و٦٤) أن المعتصم ولـد في الشهر الثامن من سنة ثمانية ومائة وهو ثامن الخلفاء العباسيين والثامن من ولد العباس . وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وتوفي وعمره ثمـان

وما قدر له ابوه (وله من الاولاد مثله اثنا عشر) أن يلي في يوم من الأيام عرش بني العباس . فنشأ محمد امياً لا يكتب ــ على قول بعض المؤرخين ــ أو كان «ضعيف الكتابة» ــ على قول ابن خلكان وابن كثير[1] ــ ولكن المصادر تجمع بالمقابل على وصفه بجمال الهيئة ، وبالقوة التي لم تعرف لغيره . «كان يصارع الاسود . ويحمل ألف رطل ويمشي به خطوات» وكان يلوي العمود الحديد حتى يصير طوقا . ويشد على الدينار بأصبعه السباتة والوسطى فيمحو كتابته[2]» ويمتدحه المؤرخون على أنه رجل حرب «قيل انه لم يكن في بني العباس قبله أشجع منه ولا أتم تيقظاً في الحرب ولا أشد قوة[3]» . وتتضح هذه الصفة فيه متى ذكرنا بعد قليل أعماله الحربية . على أننا لا نعلم أين تمرس بالحروب ؟ ولا الذي كان من شأنه يوم الفتنة بين أخويه ؟ ونعثر على اسمه في اخماد ثورة حرورية سنة ٢٠٢ هـ ثم يبرز اسمه فجأة في أواخر عهد المأمون ، أخيه ، حين يعينه لولاية الشام ومصر سنة ٢١٣ هـ ثم يأخذه للغزو على الجبهة البيزنطية .

**بيعته :** وتدرك المأمون وفدة الحمى في طرطوس ، ولم يكن قد عقد لأحد بعد ولاية عهده . فيستدعي أخاه أبا اسحق ، ويعهد اليه بالخلافة من بعده ، دون ابنه العباس ، الذي كان موجودا معه في الغزو ، والذي كان محبوباً من الجند ، ولا سيما من العرب ، على ما يفهم من الطبري وغيره .

---

وثلاثون سنة وقد ولي الخلافة سنة ثمان عشرة وفتح ثمانية فتوح وبرجه العقرب وهو الثامن وله ثماني بنين وثمان بنات ولهذا اسماه بعض المؤرخين المثمن (انظر السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤) .

(١) انظر ابن كثير ــ البداية والنهاية ج١٠ ص ٢٩٥ .

(٢) الأربلي خلاصة الذهب المسبوك (طبعة المثنى ــ بغداد دون تاريخ ص ٢٢٢ ) .

وتتساءل عن السبب الذي حدا بالمأمون لترك ابنه والعهد لأخيه . ولعله وجد الخلافة العباسية مهددة من بابك الخرمي ، ومن ثورات مصر ومن الزط ، وهجمات بيزنطة ، فاختار للموقف أخاه المتمرس بالحروب . وربما كانت وصيته له تلقي ضوءا على هذه النقطة . فهو يقول له : «... وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم ، فلا تغفل عنهم في كل وقت ، والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة ، واكتفة بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة . فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك واوليائك . واعمل في ذلك مقدم النية ، راجياً ثواب الله عليه» .

وأما العباس فقد أسرع ــ حسب بعض الروايات ــ لمبايعة عمه ولما شغب الجند أسكتهم «وكلمهم بكلام استحمقوه وشتموه وبايعوا لأبي اسحق[1]» .

وبعض الأخبار تذكر ان العباس تردد ، ويظهر ان حزم المعتصم هو الذي حسم ذلك التردد ، وقمع شغب الجند . ولعل هذا أصح إذا عرفنا ان العباس بن المأمون دبر مؤامرة ، فيما بعد مع القائد العربي عجيف بن عنبسة ، للاستيلاء على العرش ، بعد وقعة عمورية . ولكن المؤامرة افتضحت ، فمنع المعتصم الماء عن العباس حتى مات . ولحق به عجيف[2] .

وعلى أي حال ، ما كادت تتم البيعة في الجبهة للمعتصم بالله ، حتى أسرع الى بغداد ــ حسب وصية أخيه ــ ليشرف على قاعدة ملكه بنفسه .

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٧١ .
(٢) الطبري ج ١٩ ص ٧١ ــ ٧٩ .

**سياسته :** يمكن ان نلاحظ في سياسة المعتصم انعكاس ظروفه الخاصة لحد كبير :

آ ـ فقد كان تركي الام ، عسكري الهوى ، وهذا ما جعله يعتمد على اخواله في الجيش ، ويغالي في جمعهم اليه وشرائهم من ايدي مواليهم . فأوجد لنفسه عصبية جديدة تحكمت ـ كما سنرى ـ بمصير الدولة العباسية . يروي المسعودي أنه «... اجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده» ولم يكن همه منهم إلا الجهد العسكري على ما يظهر بدليل أنه «كان قد اصطنع (قبلهم أيضا) قوما من حوف مصر وهم عرب (على طرفي الدلتا) حوف اليمن (في الغرب) وحوف قيس (في الشرق) فسماهم : المغاربة (لأن مصر في غرب العراق) ..» غير أنه كان اكثر اعتمادا على الترك خاصة وقد «استمد رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الاشروسنية فكثر جيشه ...»[1] .

ويظهر ان المعتصم شعر بخطئه في استعمال الترك ، ورأى إخفاقه في تسيير أمور الدولة ، فشكا ذلك لأحد خلصائه ، ذات يوم ، قال له : ـ فيما يروي الطبري «في قلبي أمر ، أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة ... نظرت الى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا . واصطنعت أنا أربعة لم يفلح احد منهم» فأجابه جليسه بعد أن استأمن «نظر أخوك الى الاصول فاستعملها

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ٥٣ ولا شك أن رقم الآلاف الأربعة رقم متواضع وقد يكون خاطئا ان فهمنا منه تعداد الأتراك في الجيش كله . ولعل المسعودي إنما يقصد عددهم في حرس الخليفة وحده بدليل ما يذكر من لباسهم ..

فأنجبت . واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب ...[1]» .

ب ــ كان سريع الانفعال والعاطفة . وهذا ما يفسر قسوته في التعصب لما يريد «كان اذا غضب لايبالي من قتل او ما فعل» ــ على ماقال الطبري[2] ــ ويفسر أيضا مايصفه به وزيره احمد بن ابي داوود من «لين الجانب وجميل العشرة» ومن هذا المنبع أتى اضطهاده القاسي لمن لايقول بخلق القرآن واهتزازه لعمل المروءة ، لا فرق في ذلك بين استجابته لصيحة «وامعتصماه» التي أطلقتها امرأة عربية في جبهة بيزنطة فدفعته إلى مابعد عمورية او معونته بنفسه ، مرة في يوم مطير لشيخ ضعيف ، غرق حماره في الوحل ، وعليه حمل من الشوك والشيح[3] ! والاكثار من الصدقة. وقد ذكر عنه قاضية ابن أبي دؤاد أنه تصدق عن طريقه وبيـده وبسببه بقيمة مائة مليون درهم[4] .

جـ ــ تبع وصية اخيه المأمون بحرفيتها ، وقلد أعماله . ولما كان قليل البضاعة من العلم[5] فقد كان أقل تسامحاً من اخيه سواء مع العلويين او مع غير المعتزلة . ولقد سمح لنفسه ان يضرب الامام احمد بن حنبل بالسياط[6] ويسجنه لأنه امتنع عن القول بخلق القرآن . وانمـا كان المعتصم يفعل ذلك تقليداً لا عن قناعة .

د ــ تمييز المعتصم بحبه للعمران وللعمارة واحياء الموات وكان

---

(١) الطبري ج٩ ص ١٢٢ (١٣٢٧/٣) .
(٢) الطبري ج١١ ص ٧ .
(٣) المسـعودي ــ مروج الذهب ج ٢ ص ٥١ .
(٤) الطبري ج ٩ ص ١٢٣ (١٣٢٩/٣) .
(٥) يروي ابن خلكان ان المعتصم قال مرة عن نفسـه وعـن وزيره (وزيره الثاني أحمد بن عمار) «خليفة امي ووزير عامي» . انظر الفخري ص ١٩٠ والقلقشندي مآثر الإنافة ج١ ص٢١٨ــ٢١٩ .
(٦) المسـعودي ــ مروج الذهب ج٢ ص ٥٢ .

يقول : «ان فيها اموراً محمودة من عمران الأرض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش «ويقول لوزيره محمد بن عبد الملك» اذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة احد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه[1]» واعطى أهل الشاش الفي درهم لكري نهر لهم اندفن في صدر الاسلام[2] . على أنه «لم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة على الحرب» .

هـ ـ كان المعتصم قائداً ممتازا في الحرب ، قمع الفتن التي قضى أخوه عهده كله دون أن يتمكن من إخمادها ، وأرهب جبهة الروم ، غير أنه كان قصير النظر في السياسة ، قصراً شاركه فيه أولاده بعده . والاعمال والسنن التي حسبها سبيل قوة الدولة كانت هي نفسها عوامل تدميرها . فقد بنى عاصمة جديدة ليخلص من عصبيات وضغط العاصمة الاولى ، فوقع كالسجين في مدينته الجديدة ، لأن معظم سكانها كانوا من الجند ! .. وكذلك وقع خلفاؤه ، صرعى لهم . واصطنع عصبية جديدة من الترك يقوى بها ونسي ـ وأنى له مع أميته أن يعلم ـ أنه لا ثقافة لهؤلاء ولا ولاء . وان همهم الكسب . ثم إنه باصطناعهم ، يوهن ما توطد من علائق بين دولة بني العباس وبين جناحيها في إيران وفي جزيرة العرب ، وهنا خطيرا ويتركها دو نسند ، إلا من خليط من الأجناد لا جذور لهم في أرض أو كيان . وإذا لم تظهر خطيئات سياسية له ، فلأن حزبه كان يعصمه . واذا كان خلفاؤه هم الذين يحملون الوزر بسوء تصرفهم بعده وعدم تنبههم للمصير ، فقد دفعوا ودفعت الدولة معهم ، الثمن ، ولم يكن مضى على وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ غير عشرين سنة !

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج٤ ص ٤٧ .
(٢) الطبري ج ٩ ص ١٢١ (١٣٢٦/٣) .

## الواثق بالله

(١٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧–٢٤ ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ)
(٦ كانون الثاني سنة ٨٤٢ – ١١ آب سنة ٨٤٧ م)

**نشاته وصفاته :**

نشأته وصفاته : هو ابن المعتصم من ام ولد رومية تدعى قراطيس. ولد سنة ١٩٦ ويظهر أنه نشأ في قصور الخلافة في بغداد (او خارجها ؟) فشارك في العلم والأدب ، أو أنه عني به حين آلت الخلافة الى أبيه . فقد رووا عنه أنه كان لا يبارى في الثقافة حتى سمي «المأمون الاصغر» كما يقول السيوطي . ولكن علمه كان في علوم العرب وفي رواية الشعر لا يخلط بها شيئا بينما كان المأمون قد مزج بذلك علوم الأوائل[1] على أن الواثق كان يطلب التأليف في بعض المواضيع (ألف له حنين بن اسحق كتاب المسائل الطبيعية) ويعقد مجالس المناظرة في قصره ويسأل عن اقوال الحكماء (حسب رواية المسعودي)[2] ويقول الشعر ويجزل العطاء للشعراء ويحب الموسيقى حتى إنه صنع مائة صوت . كما يحب المجون . ولاه أبوه العهد ، فبايعه الناس في سامراء ليلة وفاة المعتصم .

---

(١) السيوطي – تاريخ الخلفاء ص ٣٤٣ .
(٢) انظر المسعودي – مروج الذهب ج ٤ ص ٧٧ حتى ٨٤ فلديه تفاصيل بعض المجالس .

**سياسته :**

آ ـ الواثق «نكرة من نكرات السياسة» والادارة[1] كان حكمه فترة ركود واهمال سياسي ، سمحت لتلك العناصر التركية الغريبة ، التي جمعها ابوه في الجيش ، أن تشعر بشأنها وتتدخل في سياسة الدولة . واذا كان المعتصم قد قصر فعالية الترك على النواحي العسكرية ، فان الواثق لم يقم بفعالية عسكرية تذكر . ولم يحاول أن يوقف عناصر الجيش الغريبة عند حدها الحربي . بل نراه يفتح لها الطريق الى جهاز الحكم ، بتعيين كبار قواد الترك في الادارة . يقول السيوطي «اظن انه اول خليفة استخلف سلطاناً» فقد اعطى ، منذ ولي الخلافة : اشناس التركي، غرب الدولة «من بابه إلى آخر عمل المغرب» على قول اليعقوبي[2] . «واعطى قائده ايتاخ كور دجلة (وفارس) والسند» اي أنه قسم الدولة بين اثنين من الترك . لأحدهما المشرق ، وللآخر المغرب . فولى كل منهما الولاة من قبله ، وبقيا في سامراء .

ويظهر ضعف الواثق أيضاً من إثباته آل طاهر ودولتهم في خراسان. ومن تغلب القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ، ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير عليه ، حتى «قلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه» كما يرى

---

(١) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٣ ويتفق معه في ذلك بعض المستشرقين كميور ، و(زترشتين) في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٧٩ وثمة من المؤرخين من يذكر انه منح اشناس أو جعله سلطانا ، انظر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٣٤٠) وليس بالثابت استعمال لقب السلطان لاشناس الذي لم يسبقه في الواقع احد في تولي هذا المنصب حتى من أولاد الخلفاء .

المسعودي»[1] . فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ولا يعقب عليهما فيما رأيـاه ...» .

وقد أضاف الواثق إلم خطيئاته أنه أكثر مـن مصـادرة كبار الموظفين لديه فترك ذلك آثاراً سيئة جدا في الجهاز الاداري وفي الاستقرار المالي ، للدولة ، إذ صارت المصادرة سنة لمن خلفه ، وموردا من موارد الخزينة والخلافة ، كلما دعت الى ذلك حاجة أو طمـع ، وفتحت الباب للدسائس ، وللإثراء غير المشروع من الشعب ، ولعدم إخلاص كبـار الموظفين ، للخليفة وللعمل ، على السواء .

يروي الطبري[2] أنه في سنة ٢٢٩ «حبس (الواثق) الكتاب وألزمهم أموالا عظيمة ، وأخذ من أحمد بن اسرائيل ثمانين الف دينار بعد أن ضربه ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ ٤٠٠ الف دينار ومن الحسن بن وهب ١٤ الف دينار ومن ابراهيم بن رياح وكاتبه ١٠٠ الف دينار ومن احمد ابن الخصيب وكتابه الف الف دينار ومن نجاح ٦٠ الف دينار ومن أبي الوزير ٤٠ الف دينار ...» .

وإذا كانت كثرة الاموال المصادرة تدل على شيء ، فعلى مقدار الإهمال الإداري الذي سبقها ، والذي سمح لجماعة الكتاب أن يكونوا من الثراء الغريب بحيث يملك بعضهم مليون دينار للمصادرة !

ولعل ضعف الواثق ، وقلة إدراكه السياسي ، مسؤولان عن خيطئة خطيرة في الدولة ، هي أنه امتنع عن تعيين ولي عهد له . فقال حين توفي «لا أتقلد اموركم حياً وميتاً» وفتح بذلك للترك ، باب التدخل في أعلى مراحل السلطة : وهي اختيار الخليفة . وسرعان ما استغلوا ذلك .فكانت

---

(١) المسعودي ج٤ ص ٦٦ .

(٢) الطبري ج ١٩ ص ١٢٥ و ١٢٨ (٣/١٣٣١ و ١٣٣٥) .

لهم يد كبرى في ايصال المتوكل للخلافة ... وتلك سابقة دفعت ثمنها الخلافة غالياً جداً .

ب ـ تعصب الواثق مثل أبيه وعمه للاعتزال . واراد ان يجعله عن قناعة وتصميم المذهب الرسمي للدولة . فلم يكتف بإقراره في عاصمة ملكه ، ولكنه كتب إلى الآفاق بامتحان القضاة والناس فيه . ولا تقبل شهادة من لايقول بالتوحيد . وأمر ـ على ما يذكر الطبري[1] واليعقوبي ـ بألا يقبل فداء اسير مسلم لدى الروم سنة ٢٣١ قبل أن يقر بخلق القرآن ، وبأ ن الله لايرى في الآخرة . وقد أثار ذلك كله خواطر المتدينين والناس حتى قامت ضد الواثق مؤامرة في بغداد لخلعه ، وهي المؤامرة التي بيتها أصحاب الحديث ومن ينكر القول بخلق القرآن . وقد قادها أحمد بن نصر الخزاعي[2] في السر . ولكنها اكتشفت قبل أن تتحول الى التنفيذ سنة ٢٣١ هـ . فقبض على زعيمها وبعض أنصاره وحملوا إلى سامراء . وعقد الواثق مجلساً عاماً للمحاكمة ، حضره قاضي قضاته أحمد بن أبي دؤاد وحكم على أحمد بن نصر بالكفر فقتله الواثق بيده ثم صلب وتتبع أصحابه بالمطاردة والسجن الشديد .

على أن هذه المؤامرة وطريقة الحكم على زعيمها ، تدل على أن الاعتزال لم يكن مقبولا من الشعب العباسي رغم عمل ثلاثة خلفاء متعاقبين ، مدة ثلاث عشرة سنة ، على نشره ودعمه ، واخذ الناس به . ولعل هذا ما يفسر السهولة التي لقيها المتوكل في ضرب هذا المذهب ، فيما بعد . ويفسر نظرة جمهرة الناس الى فترة الاعتزال على أنها ، فترة « محنة » .

---

(١) الطبري ج١٩ ص ١٤٢ واليعقوبي ج٢ ص ٤٨٢ .
(٢) الطبري ج ٩ ص ١٣٥ فما بعد (١٣٤٣/٣ فما بعد) وابن الاثير ج٧ ص ١٤ (حوادث سنة ٢٣١) .

جـ ــ واخيراً فقد كان الواثق عطوفاً • اكرم الامويين ورد على بعضهم اموالهم • كما احسن إلى العلويين إحساناً لم يدانه فيه احد من بني العباس • فإن الخطيب البغدادي والسيوطي يذكر ان قول يحيى بن اكثم انه «ما أحسن احد الي آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق»[1] «ما مات وفيهم فقير» واكرم أهل بيته • و «فرق في أهل الحرمين اموالا لاتحصى حتى إنه لم يوجد بالحرمين في ايامه سائل»[3] • وحتى خرجوا يندبونه ويبكون حين مات • بل إنه أعطى فقراء الكرخ مليون درهم معونة لإصلاح منازلهم التي احترقت في أيامه • وأعطى المال لأهل فرغانة لسد بثق وحفر نهر هنـاك • وفرق على قوم مـن التجار اموالا جمة لتشجيعهم «وأسقط ما كان يؤخذ ممن يرد في بحر الصيني من العشر»[3] «وكان مالا عظيما» •

وقد توفي الواثق في مرض عضال لم يتركه على العرش اكثر من خمس سنين وتسعة اشهر (آخر ذي الحجة سنة ٢٣٢) •

## المتوكل على الله

(٢٤ ذي الحجة سنة ٢٣٢ ــ ٣ شوال سنة ٢٤٧هـ)

(١١ آب سنة ٨٤٧ ــ ١٠ كانون الأول سنة ٨٦١ م)

**نشاته :** هو جعفر بن المعتصم من ام ولد يقال لها شجاع (تركية او خوارزمية او رومية) ولد سنة ٢٠٦ هـ وقد تربت امه منذ حداثتها ، في

---

(١) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ .

(٢) ابن الاثير جـ٧ ص ٣١ .

(٣) اليعقوبي جـ٢ ص ٤٨٣ والطبري جـ٩ ص ١٥٠ (١٣٦٣/٣) وانظر ابن الأثير جـ٧ ص ٣١ .

بيت المعتصم (خارج بغداد ؟) وربته بنفسها .. واول ما يظهر اسم جعفر سنة ٢٢٧ هـ اذ ولاه اخوه امارة الحج . ولكنه انحرف بعد ذلك عنه ، اثر حلم سمع الواثق ان جعفر رآه ، وفسره له بعض خاصتــه ، بأنه الخلافة[1] . ويظهر ان جعفر قد اظهر شيئا من الطمع بها ، لصغر سن ابن اخيه محمد، فحبسه أخوه : وضيق عليه ، حتى يئس منها ، لاسيما وقد مالأرجال الدولة أخاه ضده ، وانحرفوا عنه .

**بيعتــه :** على أن شغور سدة الخلافة ، دون ولي عهد شرعي مسمى، سمح ــ على ما يظهر ــ للأتراك بالتدخل . فاليعقوبي يذكر ان أول من بايع (المتوكل) هو (سيما) التركي ، المعــروف بالدمشقي . و(وصيف) التركي ...) وركب الى دار العامة من ساعته . وأمــر بإعطاء الجند عطاءهم لثمانية أشهر . «واتتقى له أحمد بن أبي دؤاد لقبه (المتوكل على الله) في اليوم التالي . وقد كاد يلقب بالمنتصر بالله . ولنا هنا أن نخمن ائتمار الترك فيما بينهم ،واتفاقهم على اختيار جعفر للخلافة . وتأييدهم له ، حتى جاءه ــ كما يقول اليعقوبي ــ فسلم عليه بالخلافة اولاد سبعة خلفاء مجتمعين .

**سياسته :** يطالعنا في المتوكل شخصية قوية حازمــة ولكن في لين وإحسان ، تذكرنا بالمنصور تارة وبالرشيد تارة اخرى . ولكنــه رغم محاولاته السياسية البارعة لم يستطع ان يتغلب على عوامل الضعف في الدولة . فسقط في النهاية ضحية لها . وأبرز ما تميز به عهده :

آ ــ للمتوكل سياسة دينية خالف فيها اباه وعمه : وبالرغم من أنه لم يكن شديد التدين ، إلا أنه كان بادي التعصب لإسلاميته ، وللمذهب

---

(١) الطبري ج٩ ص ١٥٥ (٣/١٣٧٠) .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٤ .

السني خاصة[1] . بدأ عهده بأن أمر بترك الجدل ، والاعتزال ،والرجوع إلى «التسليم والتقليد»[2] ــ كما قال المسعودي ــ وأمر الشيوخ المحدثين بالتحدث وإظهار السنة والجماعة «وأطلق من كان ألقي في السجون لعدم قولهم بخلق القرآن» وقد حمد الناس له هذه الخطوة ، وبالغوا في الثناء عليه حتى عدوه ثالث خلفاء ثلاثة في هذا الباب : ابي بكر يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رده للمظالم ، والمتوكل في إحياء السنة[3] .

غير أن تعصبه السني أدى به الى اضطهاد العلويين . ضرب بالسياط رجلا شتم ابا بكر وعمر وعائشة وحفصة حتى الموت[4] . وأمر سنة ٢٣٦ هـ بهدم قبر الحسين بن علي ، وما حوله من الدور ، وان يحرث ويبذر ، ويسقى موضع قبره ، ويمنع الناس من اتيانه[5] .. وكان ذلك . وقرب بالمقابل جماعة اشتهروا ببغض آل علي ، فكانوا ــ على رأي ابن الأثير ــ[6] يخوفونه من العلويين ، ويشيرون بإبعادهم .. فجلبت عليه هذه السياسة سخط الكثير من الناس و «غطت هذهالسيئة جميع حسناته » وقد بلغ في هذه الناحية الحد الذي جعله ينثر الدنانير

---

(١) يذكر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦) أنه كان شافعي المذهب وانه اول من تمذهب من الخلفاء .

(٢) المسعودي ٤ ص ٨٦ .

(٣) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦ .

(٤) هجاه من اجل ذلك الشعراء وكتب شتمه علىجدران بغداد وقال شاعر :

أسفوا علىأن لا يكونوا شاركوا في قتله فتتبعوه رميما

(٥) الطبري ج٩ ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ (١٤٢٤ ــ ١٤٢٦) .

(٦) ابن الاثير ج٧ ص ٥٥ و ٥٦ وانظر الطبري ٩ ص ١٨٥ (١٤٠٧/٣)

ويعطي ولاية البحرين واليمامة لشاعر (هو ابن أبـي السمط) أنشده قصيدة في مدافعة حق العلويين بالخلافة[1] •

ويبدو أن المتوكل أراد أن ينتهي مرة واحدة من مشكلة العلويين ومراقبتهم فقرر أن يجعلهم في مركز تجمع لهم يراقبهم فيه على ألا يكون فيهم هناك زعيم مرموق • ويبدو أيضا أنه اختار أولا تجميعهم في العراق تحت عيون وعند آذان أصحاب بريده الأقربين • وكتب بذلـك الى الآفاق والى مصر • يقول الكندي إن أمرا ورد منه سنة ٢٣٥ بإخراج الطالبيين من مصر الى العراق وفرض فيهم الأموال ليتحملوا بها فأعطي كل واحد منهم ثلاثين دينارا والمرأة خمسة عشر دينارا وفرقت فيهم الثياب ثم خرجوا (رجب سنة ٢٣٦) فقدموا العراق •••» ولكن المتوكل كان قد بدل رأيه وخشي أن يكون العراق مجال اتصال أوسع لهم بكافة من يرد إليه من أنحاء الأرض فاختار تحويلهم الى موطن مقدس منعزل: المدينة• فأمروا فورا بالخروج إليها (شوال سنة ٢٣٦) على أنه في الوقت نفسه ماكاد يسمع أن علي بن محمد (الامام الهادي) هو البارز هناك وأنهم ينادونه بالامام حتى استقدمه الى سامراء لإقامة إجبارية فيها منذ سنة ٢٣٣ وحتى موته ! ••

وقد تناول المتوكل بتعصبه الديني اهل الذمة فأمرهم سنة ٢٣٥هـ بلبس الطيالسة العسلية ، ومخالفة ألبسة المسلمين ، على رؤوسهم واوساطهم ، وبركوبهم البغال والحمير بسروج خشبية ، دون الخيل والبرازين • وان يسمروا على ابواب دورهم خشباً فيها صورة الشياطين•

---

(١) الطبري ج٩ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ (٣/١٤٦٥ ـ ١٤٦٦) •

(٢) الطبري ج٩ ص١٧١ فما بعد • وابن الاثير ج٧ ص ٥٢ (حوادث سنة ٢٣٥) •

ونهي ان يستعان بهم في الدواوين ، واعمال السلطات[1] ، التي تجري احكامهم فيها على المسلمين . ثم امر ان تهدم الكنائس والبيع المحدثة للنصارى ، وان يمنعوا من العمارة !

ب ـ قاوم نفوذ الوزراء في الدولة وحاول القضاء على مساوىء الكتاب ومظالمهم بالمصادرة والنكبات وليس أكثر من الأمثلة على ذلك[2]: كنكبة ابن الزيات التي بدأ بها عهده ، وابي داود ، ومحمد بن الفضل ، وابن الوزير ، ومحمد ابن اسحق ، والحسين بن اسماعيل ، ونجاح بن سلمة الكاتب وغيرهم . حتى لقد أضحت المصادرة نوعاً من الضريبة على كبار الموظفين . وقد كان يدفع المتوكل إليها كثرة نفقاته مع قلة الموارد . وقد وجد عنده[3] حين قتل أربعة ملايين دينار وسبعة ملايين درهم عدا ٤ آلاف جارية وما لم يحص من الثياب والسلاح والقصور والآلة ..

جـ ـ كان المتوكل كثير الولع بالعمران . أنفق على بناء القصور في سامراء والمتوكلية ما يمكن أن ينسب معه إلى التبذير الشديد . وكان اذا عرض له مشروع فيه بعض العمران أو إحياء الموات أو صلاح أمر الناس قبله . فقد حاول شق فرع من دجلة إلى المناطق العالية من سامراء هو (الجعفري) ولكن كان مأساة هندسية فاشلة . وقد جعل سنة ٢٤١ كورة سميساط عشرية وكانت خراجية ليوسع على المحاربين هناك . وحاول تأخير الموعد لجباية الخراج إلى ما بعد نضج الزرع وهي مشكلة

---

(١) الكندي ـ الولاة والقضاة .

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ و ٤٨٨ و ٤٨٩ والطبري ج ٩ ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٤ ـ ٢١٧ وابن الاثير ج ٧ ص ٣٩ وما بعد .

(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ١٢٢ .

قائمة منذ العهد الأموي ولكن مقتله حال دو نتنفيذ ذلك الاصلاح .
د ـ حاول التقرب من العامة بالبذل الشديد ، حتى أنفق ما في بيت المال في الصلات والعمارة ، وباللين والأنس حتى كان يعاون الحطاب في الطريق . يذكر السيوطي أنه قال ليزيد المهلبي : «إن الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني ..»[1] ويقول المسعودي : «لا يعلم أحد متقدم في جد ولا هزل إلا وقد حظي في دولة (المتوكل) ووصل إليه نصيب وافر من ماله» وكان هو نفسه منهمكا في الملذات والشراب» وله أربعة آلاف سرية ... وقيل «إنه لم تكن النفقات في عصر من الاعصار ولا وقت من الاوقات مثلها أيام المتوكل»[2] . وبالرغم من ان الناس حمدوا سياسته السخية العطوف حتى كتب المسعودي وغيره عن إيامه أنها كانت «في حسنها ونضارتها ورفاهة العيش فيها ورخص أسعارها وحمد الخاص والعام لها ، أيام سراء» مع «استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل» فكأنها كما قال بعضهم « اماني الحب وأيام الشباب » برغم هذا فان عمل المتوكل لم يكن اكثر من تدبير موقت فاشل ، لايقاف تدهور الدولة السياسي .

هـ ـ ولعل اهم ما حاوله المتوكل هو القضاء على نفوذ الترك . فقد ورثهم مع العرش . وهم يسيطرون على الجيش والادارة معا . فقتل بعضهم (كإيتاخ القائد) ثم تقرب من العامة ليتخلص منهم . كما تقرب من العرب ليتعصبوا له . وسعى لتفريق صفوف الترك . وحاول نقل عاصمة ملكه من سامراء الى دمشق ثم عاد الى سامراء ، فبنى بجوارها بلدة له ، سميت المتوكلية ... ولكن مساعيه اخفقت كلها لان الاتراك

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٥٢ .
(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ج٤ ص ١٢٣ وص ١٢٢ .

رغم اختلافهم كانوا يشعرون بمصلحتهم المشتركة وكانت هذه المصلحة تجمعهم • وقد ساعدهم الخليفة في امر ولاية العهد ، وانقسام العائلة المالكة على نفسها ، فانتهى الأمر بائتمار ابنه معهم على قتله •

مصرعه : ائتمر الأتراك لقتل المتوكل اول مرة سنة ٢٤٣ وهو في دمشق • ولكنه نجا بيقظة قائده بغا الكبير ، والفتح بن خاقان[1] ثم دبروا المؤامرة الثانية ، مع ابنه المنتصر ، الذي كان يخشى أن يحول أبوه ولاية العهد إلى أخيه المعتز فاتفق مع بعض قواد الترك مثل بغا الصغير وباغر على التخلص من أبيه • ونجحت المؤامرة • وقتل مع المتوكل فيها صاحبه الفتح بن خاقان (٤ شوال سنة ٢٤٧ ـ ١١ كانون الأول سنة ٨٦١) وكاد يذهب معهما الشاعر البحتري • وبدأ بذلك اليوم عهد الفوضى التركية •

* * *

(١) انظر المسعودي ج٤ ص ١٢٢ وانظر ج٤ ص ٨٦ .

(٢) يفصل المسعودي (ج٤ ص ١١٧ ثم ص ١١٨ ـ ١٢٢) قصة الاغتيال الفاشل ثم قصة الاغتيال الذي تم بعد ذلك .

# الفصل التاسع عشر

## الترك وسامراء

ابرز ما يلاحظ داخلياً في فترة القلق (٢١٨ ـ ٢٤٧) التي ندرسها اضطراب الدولة بعنصر جديد : هو الترك ، أقيمت من أجله ، عاصمة جديدة • ثم انحطاط الجهاز الاداري في الدولة انحطاطاً عاماً • وأخيرا ظهور بعض الحركات الثورية التي كانت أشبه بتصفية للثورات الدينية والسياسية السابقة ، في العهدين الماضيين وإذا كانت المشاكل الادارية والثورات استمراراً وتطورا طبيعيا للعصر السابق فإن الجديد الذي طرأ على الدولة العباسية هو ظهور عصبية جديدة فيها أخرجتها عن خط سيرها الأول • وقد عبر هذا الانحراف الجديد عن نفسه بخروج الخلفاء عن عاصمتهم التقليدية إلى مركز ملك جديد •

### ١ ـ الاتراك عنصر جديد :

**أ ـ قبل المعتصم :** لعل تلك المنطقة البدوية ، المحصورة بين هضبة بامير ، وبحر الخزر ، وبين اطراف آرال ، وخراسان ، والتي ندعوها اليوم تركستان • وكان المسلمون يدعون بعضا منها باسم (ما وراء النهر) لعلها من المناطق القليلة في العالم ، التي كان أثرها في التاريخ واضحا كل الوضوح • (وأهم منها في ذلك جزيرة العرب ، ومثلها بوادي منغوليا وأطراف البحر البلطي) • وأول ما اتصل المسلمون بتلك المنطقة ايام فتوح الوليد بن عبد الملك ، وقائده قتيبة بن مسلم الباهلي • على ان

انتشار الاسلام في تركستان لايدل إلا على قليل من النشاط في الدعوة. وقد قاومه الامويون احياناً على ما يظهر في اواخر عهدهم (عدا عمر بن عبد العزيز) كما قاومه السكان الترك انفسهم ، واتسمت مقاومتهم بكثير من ضروب العنف والعناد ـ كما يقول آرنولد[1] ـ حتى انه لم يجرأ المسلمون على الظهور أعواماً طوالا في المساجد . والاماكن العامة دون سلاح . وحتى حرم على غيرهم حمله . ولم يكن بد من ان تقام العيون على حديثي العهد بالاسلام . كما حاول المسلمون احيانا تألف قلوب الترك ، بالمال ، ليحضروا صلاة الجمعة في المساجد . وسمحوا لهم حسب ما يروي النرشخي في اخبار بخارى بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلا من العربية ليستطيعوا فهمه في سهولة ويسر[2] . يقول النرشخي : إن قتيبة «... كان يأمر بمناد كل يوم جمعة يقول بأن كل من يأتي لصلاة الجمعة اعطيه درهمين . وكان أهل بخارى في أول الاسلام يقرؤون القرآن في الصلاة بالفارسية ولم يكونوا يستطيعون تعلم العربية ..» .

على ان جمهور الناس (رغم جهود ابن عبد العزيز وهشام) لم يدخلوا في الاسلام باعداد وفيرة حتى عهد المعتصم ، حين ظهرت العلاقات الوثيقة بين بغداد وما وراء النهر . فهاجر الترك افواجاً لينضموا الى جند الخليفة . وليس يعني هذا ان المعتصم كان اول من استجلبهم او استعملهم فاننا نجد اشارات الى وجود اتراك في الجيش العباسي قبل المعتصم بكثير . وإن لنجد ذكر بعض الأتراك حتى في الجند الاسلامي ، منذ

---

(١) النرشخي ـ تاريخ بخارى ص٧٤ وقد نقله آرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ٢٤٣ .

(٢) انظر ياقوت ـ معجم البلدان ج٣ ص ٢٥٦ والبلاذري ـ فتوح ص ٥٠٧ والطبري ج٥ ص ٢٩٨ (١٧٠/٢) .

العصر الأموي : فإن عبيد الله بن زياد أتى من بخاري بألفين كلهم جيد الرمي بالنشاب وأسكنهم سكة بالبصرة وفرض لهم العطاء وقد سميت السكة باسم سكة النجارية[1] وقد دخل الاتراك كذلك في حرس الخلافة ونجد ذكرهم منذ عهد عبد الملك بن مروان حين أرسلهم لإخماد فتنة الحارث بن عبد الرحمن الدمشقي الذي ادعى النبوة بالقدس[2] ومن المعروف ان قتيبة بن مسلم ألزم أهل بخارى أن يمدوه بقوة تتراوح بين ألف وألفي رجل • كما أن نصر بن سيار سار في ما وراء النهر سنة ١٢١ بجيش كثيف من عشرين ألف من أهل بخارى وسمرقند وكش ونسف • وقد يكون بعض هؤلاء من الترك ••

أما في العهد العباسي فثمة نص أورده الثعالبي[3] يقول : إن أول من اتخذ الاتراك من الخلفاء المنصور : اتخذ حماداً ثم اتخذ المهدي مباركا ثم اقتدى بهما الخلفاء وسائر الناس •••» • وحماد التركي لدى المنصور كان المؤتمن الوحيد على السفط الذي وضع فيه الخليفة علمه ودفاتره واسرار دولته فكان مفتاحه مع حماد • ثم يروي الطبري في حوادث سنة ١٧٠ ان طرسوس عمرت على يد ابي مسلم فرج الخادم التركي • ولكن لا شك ان عدد الاتراك لم يكن وفيراً • كما ان استخدامهم كان عن طريق الصدفة ، لا طبق سياسة مرسومة • ويبدو أنهم كانوا في عهد الأمين يكونون مجموعة واضحة في الجيش يدافعون معه عن بغداد إذ يقول الشاعر الخريمي (إسحاق بن حسان) :

---

(١) انظر ابن كثير ــ البداية والنهاية ٩ ص ٢٧ •
(٢) الثعالبي ــ لطائف المعارف ص ٢٠ •

بل هل رأيت السيوف مصلتة ... أشهرها في الاسواق شاهرها
والخيل تستن في أزقتها ... بالترك مسنونة خناجرها[1]

وكانوا أيضا كذلك في جند المأمون ويروي الجاحظ أنه رأى في بعض غزوات المأمون سماطي جند في جنبتي الطريق بقرب المنزل مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون وقد انتصف النهار واشتد الحر . فورد عليهم ... وجميع تلك الأخلاط من الجند قد رموا بنفوسهم الى الأرض...»[2] ولعلنا نضيف أن طولون الذي أسس ابنه الدولة الطولونية كان حوالي سنة ٢٠٠ بين المماليك الذين أرسلهم ابن اسد الصمامي احد عمال المأمون في خراسان فألحقه المأمون بحاشيته حتى صار رئيس الحرس ولقبه أمير الستر وبقي في منصبه حتى عهد المعتصم ... وقد كان ذلك فيما يبدو نتيجة اهتمام المأمون باسلام ما وراء النهر . فقد روى البلاذري أنه « كان يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر . ويوجه رسله فيفرضون (أي يجندون ويمنحون الفريضة والراتب) لمن رغب في الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم»[3] وأشرك فرسانهم في الحرس الخليفي ...

**ب ــ أيام المعتصم** : على أن الجديد الذي أدخله المعتصم في

---

(١) انظر القصيدة الطويلة التي تقع في ١٣٥ بيتاً حول حصار بغداد لدى الطبري (ج٨ ص ٤٤٨ ــ ٣/٤٥٤ ــ ٨٧٣ حتى ٨٨٠ .

(٢) الجاحظ ــ رسائل الجاحظ (فضائل الاتراك) ج١ ص ٦١ .

(٣) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٥٢٨ ــ ٥٢٩ .

موضوع تجنيد الاتراك هو أنه ــ في الذي يرويه المسعودي[1] ــ هو الذي «آثر من استحدث من غلمان الاتراك على المتقدمين من اوليائه ونصحائه وغالى في جمعهم حوله» أي جعل تقريبهم وتجنيدهم سياسة له كما اقتصر في الاعتماد عليهم وحدهم دون غيرهم من الجند •

ويظهر من بعض أخبار اليعقوبي والطبري ان المعتصم استخدم الاتراك قبل الخلافة • فالطبري يذكر في اخبار سنة ٢٠٢ خروج مهدي ابن حلوان الحروري وتوجه ابو اسحق بن الرشيد لاخمادثورته «••ومع ابي اسحق غلمان له اتراك» ويقدر اليعقوبي عدد غلمانه الاتراك زمن أخيه المأمون بزهاء ثلاثة آلاف غلام[2] • ويذكر الكندي (في الولاة والقضاة) انه لما ذهب إلى مصر كان معه أربعة آلاف غلام تركي •••» وربما كان لأمه التركية «أثر في تعرفه على هذه الجماعة الجديدة ، كما كان لحسن هيئات هؤلاء الغلمان وجمال صورهم وقاماتهم وشجاعتهم الساذجة أثر في تحببهم الى قلب المعتصم •

فلما أفضت الخلافة إليه ألح في طلبهم واشترى من كان في بغداد من رقيق الناس ، وكان عبد الله بن طاهر يرسل إليه سنويا الفي غلام تركي كجزء من خراج خراسان • كما أنه كان يشجع الاتراك ، في آسيا الوسطى ، على الانخراط في جيشه • فترك قسم منهم بلاده (كما يذكر بارتولد) وانضموا إليه • وكان إلى هذا كله يبعث الى فرغانه وسمرقند والنواحي في شرائهم ويبذل فيهم الأموال ••• ويظهر ان عامتهم كانوا من فرغانه وأشروسنة والصغد والشاش • وقد تجمع منهم لدى المعتصم،

---

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٠٧ .
(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان (طبعة دي غويه ــ ليدن سنة ١٨٩٢؟) ص ٢٥٦ .

في رواية (غيبون) المؤرخ خمسون الفا . وربما كانوا اكثر من ذلك[1]
إذا صدقنا قول علي بن الجهم في مدح المعتصم :

أمامي منهم سبعون ألفـا　　　من الأتراك مسرعة السهام

وقد جعل المعتصم كل هؤلاء الاتراك في جيشه وفرسانه . وألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية والحلية . وأبانهم بالزي عن باقي جنوده وأفرد لهم بعد هذا ، قطائع خاصة في عاصمته الجديدة : سامراء .وذهب في تمييزهم لدرجة ان «اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهن ـ كما يقول اليعقوبي ـ ومنعهم من أن يتزوجوا أو يصهروا إلى احد من المولدين ، إلى ان ينشأ لهم الولد ، فيتزوج بعضهم من بعض ، وأجرى لجواري الاتراك ارزاقاً قائمة . وأثبت أسماءهن في الدواوين . فلم يكن احد منهم يقدر ان يطلق امرأته ولا يفارقها»[2] .

ولفهم السبب في هذه السياسة المعتصمية ، نرجع بالعهد إلى المأمون ، فنجد ان هذا الخليفة خيب أمل الخراسانيين بنكبته لبني سهل، وتركه مرو ، وقضى على آخر إمكانيات التعاون بين العباسيين والفرس. هذا إلى ان العرب ، وهم أنصار الأمين ، ظلوا على الهامش في عهده ، فلما صارت الخلافة للمعتصم ،التف قسم من العرب حول العباس بن المأمون ، فوجد المعتصم ان يلجأ إلى ذلك العنصر الجديد ، الذي يحبه، كحل وحيد ، فيجعل منه الركن العسكري للدولة . لا سيما والدولة

---

(١) ناقشنا خطأ المسعودي حين يقدرهم قبل مسير المعتصم الى سامراء بأربعة آلاف .
(انظر المسعودي ج٤ ص٥٣) .
(٢) اليعقوبي البلدان ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

مهددة بثورة بابك ، وبخطر البيزنطيين على الحدود ، وبتذمر أهل الشام ومصر ، واضطرابات الزط في السواد • وكان بروز هذا العنصر الجديد ضربة سياسية عنيفة للعرب وقوادهم ظهر استياؤهم منها في تلك المؤامرة الفاشلة التي ذهب ضحيتها العباس بن المأمون وعجيف بن عنبسة معا •

ولتقدير هذا الاتجاه الجديد في الدولة نذكر ان الترك كانوا إذ ذاك شعباً بدوياً ، ميزته الوحيدة شجاعته العسكرية • فهو لا يفهم الأسس المعنوية للدولة العباسية ، ولا خبرة له بالإدارة ، وليس له أي ثقافة • ويجب ان نلاحظ الفرق بين هؤلاء الاتراك ، وبين الفرس الذين اشتركوا في الحكم العباسي • فقد كان الايرانيون أمة متحضرة ، ذات أنظمة وتقاليد وأدب وتراث قديم ، ساعد العباسيين في الحكم • أما الاتراك فكانوا ، كما سماهم الجاحظ[1] «بدو العجم» وقد بين أنهم «لا يميلون إلى صناعة أو زراعة أو ثقافة» ••• والحق ان تأثير الاتراك كان «دوماً بربرياً لحد ما — كما ذكر براون[2] — وندر أن شجع البحث الفكري الحر أو الثقافة الحرة» فتسلطهم على الخلافة العباسية كان تهديداً مباشرا لمؤسساتها ونظمها وثقافتها •

على ان الاخطار البعيدة التي نجمت عن تقريب الترك ، لم تظهر بوضوح زمن المعتصم ، ولو انه شعر الخيبة في مشروعة • وسبب ذلك أنه إنما استعمل الترك في الجيش فقط • وكان لهم من اعماله العسكرية الواسعة ، ومن قوته ، ما شغلهم عن مد الايدي إلى سياسة الدولة • فلم تلمع اسماؤهم في غير الجيش • يقول شاعر الزط (يوم ثورة الزط) :

---

(١) براون تاريخ الادب الفارسي ج١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٢) الجاحظ : مناقب الترك ص ٤٣ .

فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم
من ( يازمان ) ومن ( بلج ) ومن ( نوز )
ومن ( شناس ) و ( افشين ) ومن ( فرج )
المعلمين بديباج وإبريز

غير ان الخطيئة الحقيقية كانت خطيئة الواثق ، الذي فوض إليهم إدارة الدولة ، وجمع لهم مابين القوتين الإدارية والسياسية ،وأرسلهم إلى قلب الجزيرة العربية ، لضرب الثوار العرب .

**ح : صراع المتوكل مع الاتراك :** فلما جاء المتوكل بدأ النضال معهم . وكانت خلافته نوعاً من الصراع الصامت ، الخفي حيناً ، والصريح أحياناً ، ضد الترك . وبالرغم من انهم اختاروه للخلافة ، إلا انا نلاحظ ان اشتراك كبار رجال الإدارة معهم ، في ذلك ــ كما يذكر الطبري ــ (كابن أبي داؤد وابن الزيات وعمر بن فرج الكاتب الخ...) قلل من خطر التجربة ، ولكنه سجل لهم بادرة خطرة . ولم يمنع من اصطدام خليفة قوي ، كالمتوكل بنفوذهم المتعاظم : كجماعة مسلحة .

وقد مشى المتوكل في مقاومته للترك بخطى بطيئة : بدأ بإيتاخ . وكان اليه الجيش والمغاربة والاتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة ، أي إليه تصريف الدولة ، وكان لا يتردد عن إظهار غروره بذلك . فدبر له الخليفة من حسن له الحج[1] . وحول المتوكل ، في غيابه ، الحجابة إلى وصيف التركي . ثم دبر له مؤامرة ، والي بغداد ، فسجنه عند رجوعه . ومات في السجن بعد أشهر . وكانت بغداد أنسب مكان

---

(١) يذكر اليعقوبي أن إيتاخ كان دبر مؤامرة على المتوكل ففشلت فطلب الاذن له بالحج (ج٣ ص ٤٨٥) . وقارن مع الطبري ج٩ ص ١٦٦ ــ ١٦٧ (١٣٨٣/٣) .

المؤامرة عليه لبغض أهلها للترك ، ولبعد إيتاخ فيها عن أنصاره «ولو لم يؤخذ ببغداد ــ بشهادة الطبري ــ ما قدروا على أخذه ولو دخل سامراء فأراد بأصحابه قتل جميع من خالفه أمكنه ذلك[1] » .

ثم حاول المتوكل تغيير عاصمته ، إلى دمشق ، ففشل ــ كما سنرى ــ فعاد إلى سامراء . وأمر ببناء مدينة خاصة له ، شمال سامراء . واستمر يدبر ضد الترك .قال المسعودي : «وجفا الموالي من الاتراك واطرحهم وحط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم»[2] وقد خطا خطوة عملية في ذلك بأن أدخل فرقة عربية في الجيش ، إذ ضم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان «نحواً من اثني عشر الفاً من العرب ، ومن الصعاليك ، وغيرهم برسم المعتز . وكان في حجره» و«أخذ يجيل الآراء في استئصالهم (الترك)» وحاول تشتيت زعمائهم فقبض أملاك (وصيف) وأقطعها للفتح بن خاقان . وعزم على الفتك بوصيف وبغا . وحسب انه قد نجا منهم في البلد الذي ابتناه ، وانتقل إليه . ولكن الترك استغلوا خلافه مع ابنه المنتصر فعاجلوه وقتلوه . وسجلوا بذلك أول نصر مادي رسمي لهم على كرسي الخلافة العباسي .

ومنذ مقتل المتوكل ، أخذ الترك يلعبون في الدولة العباسية ، ذلك الدور لعبه الحرس البريتوري في روما من قبل ، والانكشارية في السلطنة العثمانية من بعد . ولهذا يمكن ان نعتبر تفاقم نفوذ الأتراك مبدأ انحلال الدولة اذ أنه بالرغم مما أخمد من نزاع العرب والفرس ، والعلويين

---

(٢) الطبري ج٩ ص ١٦٩ (١٣٨٥/٣) .
(١) المسعودي التنبيه والاشراف ص ٣١٢ .

والعباسيين ، فإنه أضعف سلطة المركز في الدولة ، وذهب بهيبة الخلافة ، في امبراطوريتها الواسعة : فظهرت الدول الصغيرة في الولايات •

ولعل من أهم النتائج المباشرة التي ترتبت على عمل المعتصم ، بادخال الاتراك في الدولة ، مشكلة البحث عن عاصمة جديدة سواء في زمن المعتصم ، أو في زمن المتوكل •

**٢ ـ عاصمة جديدة (سامراء) :**

قصة سامراء من أغرب وأمتع قصص المدن في التاريخ : هي قصة أرض قفر تضحي في سنوات معدودة اكبر مدينة في العالم وعاصمةلاكبر امبراطورية : تنمو نموا لم يعرفه التاريخ إلا في بعض مدن العالم الجديد (تحت ضغط بعض الظروف الصناعية في القرن الماضي) ثم تنطفيء فجأة بعد نصف قرن فيعود الهدوء والعناكب الى المكان ويقفر كأنما حلمت البيد حلماً هناك ••• وانقضى الحلم •

**ا ـ سبب البناء :** ولم يكن قد انقضى على بناء بغداد قرن واحد ، حين برزت لخاطر المعتصم فكرة بناء مدينة جديدة ، لا عن حاجة في بني العباس الى عاصمة ، ولكن لأن اتجاهاً جديداً (تركيـاً) كان يبرعم في الدولة : فالحل الذي وجده المعتصم لجهاز الحكم ، في اصطناع الاتراك ، أدى به إلى حل آخر هو الانفراد بهم في مكان خاص جديد • ولعلنا نذكر أن المعتصم لم يكن أول خلفاء العباسيين تفكيرا في الخروج من بغداد فبعد أن كانت للمهدي عاصمته (الرصافة) منذ أيام المنصور حاول الرشيد

---

(١) الفخري ص ٢١٠ .

اكثر من مرة الخلاص من بغداد ••• أما أسباب المعتصم فكانت مختلفة:

آ ـ فقد ضاقت بغداد بالجنود الجدد • يقول ابن قتيبة صاحب عيون الأخبار : «ان المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجمعت على المعتصم» ويروي مثل ذلك الفخري[1] •

ب ـ وزاد في الوقت نفسه ادلال الترك بمكانتهم وسوء معاملتهم للناس • ويروي الطبري[2] انهم كانوا « عجماً جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة ويطؤون الصبي ••• حتى ضج منهم الناس • فكان يثب عليهم الغوغاء ، فيقتلون بعضاً ، ويضربون بعضا • وتذهب دماؤهم هدراً •••» وقد شكا البغداديون مر الشكوى من ذلك • حتى كانوا يلقون المعتصم بها في الطريق •

جـ ـ وسخط الناس الى هذا ، على المعتصم لتقريبه الترك • فغدا الخليفة يخشى أهل بغداد • قال مرة لاحمد بن أبي خالد : اني اتخوف ان يصيح بي هؤلاء الحربية (سكان الحي الشمالي الغربي من بغداد) فيقتلوا غلماني[3] ••» •

د ـ وسخط جند بغداد على منافسيهم الجدد • فاستراب المعتصم منهم • وقال ، في الذي يرويه الفخري «••• اطلبوا لي موضعاً أخرج إليه • وابني فيه مدينة واعسكر به • فإن رابني من عسكر بغداد حادث، كنت بنجوة • وكنت قادراً على أن آتيهم في البر وفي الماء» •

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٨ (٣/ ١١٨١) واليعقوبي ـ البلدان ص ٢٥٦ .

(٢) وانظر الطبري ٩ ص ١٧ (٣/ ١١٧٩) وتقرأ أحياناً كلمة الحزمية (وهو خطأ) بدلا من الحربية .

(٣) الفخري ـ ص ٢١٠ .

**ب ـ مكان المدينــة :** وهكذا تقرر التفتيش عن مقر خلافي جديد: فأراد المعتصم أولا البناء بالشماسية • (شمالي رصافة بغداد) ثم تركها لضيق المكان ، وقربه من بغـداد • واقترح الفضـل بن مروان البناء بالبردان • فلم يستحسنه المعتصم ، ثم قدر مكاناً آخر عند باحمشا • ثم عزم على ان يقيم عاصمته على نهر القاطول ، ويكون البناء عليه حتى نهر دجلة • وبدأت بالفعل أعمال البناء • «وكان هناك قريــة يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر ••• فبنى (المعتصم) هناك قصراً وبنى الناس وانتقلوا من مدينة السلام»[1]» واختطت الأسواق • وارتفعت الجدران • ولكن الخليفة أمر بالتـوقف عن العمـل لصعوبة الأرض وضيقها ••• وخرج يتقرى موضعاً جديداً إلى الشمال ، فوجد الموضع المنشود في سامراء على بعد ١٣٠ كم رأسـاً من شمال بغداد ، و ١٧٥ كم من دجلة • على الضفة الشرقية منه •

وقد اثبتت حفريات الاثري هرزفيلد ، في بعض أطراف سامراء ، ان هذا المكان مأهول منذ العصر الحجري الحديث • فقد وجد فيـه فخاريات تعود إلى «عصر حلفا» (٥٠٠٠ ــ ٤٥٠٠ ق•م) ويظهر أنه استمر مأهولا بعد ذلك • وكان له شأنه أحياناً • فاسم الموضع يمر في العصر الروماني ، كما يمر في مطلع العصر الاسلامي • وحين وصله المعتصم لم يكن به سوى دير لبعض الرهبان[2] فلما استحسنه وعزم على البناء فيه

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج٤ ص٥٣ وقد أزري بعض العيارين على المعتصم انتقاله هذا فقال :

أيا ساكن القاطول بين الجرامقة   تركت ببغداد الكباش البطارقة

(٢) يروى انهم حادثوه وتنبأوا له ببناء في ذلك الموضع (مروج ٤ ص٥٣)

اشترى الدير بأربعة آلاف دينار وبنى في مكانه نفسه على ما يظهر من قول اليعقوبي (دار العامة) أي قصر الخلافة ومن حوله تلك المدينة .

واسم سامراء قديم دون شك . وليست الجملة التي تذكرها بعض الكتب ، كاسم لمدينة المعتصم (سرور من رأى) او (سر من رأى) او (ساء من رأى) فيما بعد .. ليست هذه الجملة بالاصل الذي نحت عنه اسم سامراء . ولكنها جملة اشتقها الناس إذ ذاك ، من اسم الموضع . ولم تجر عادة العرب ولا غيرهم بتسمية المدن بجملة . والمسعودي يذكر ان سبب التسمية يرجع الى سام بن نوح الذي بنى البلدة فنسبت إليه وسميت (سام راه) بالفارسية ..وقد لا نستفيد من هذه القصة الاسطورية سوى ان الموضع قديم السكنى وقديم الاسم أيضاً . والمستشرق (وايل) أشار إلى ورود اسم حصن فارسي : قلعة سومرى في موضع سامراء بمناسبة تقهقر جيوش الرومان أثر مقتل جوليان سنة ٣٦٣ م . ويؤيد هذا نص ذكره حمد الله المستوفي (٧٤٠ هـ — ١٣٤٠ م) وقال فيه ان سابور ذا الاكتاف (+ ١٧٩ م) هو منشيء مدينة سامراء .

وقدم البناء في الموضع ، ووجود حصن قديم فيه ، يعلل لنا سبب اختيار المعتصم له : فالواقع ان المكان المختار مرتفع عن دجلة . فهو آمن من الفيضان . وارتفاعه هذا ، مع احاطة الماء بـه ، يجعله مكاناً حصيناً من الوجهة الحربية[1] . عدا أنـه ممكن الري والسقيا بالجداول التي تتفرع عن دجلة ، قبيل وصوله إليه . ويضاف إلى هذا قربه من بغداد . وعدم خروج مركز الخلافة من العراق .

---

(١) هو نفسه النهروان الذي كان تحصن به سنة ٣٨ الخوارج أول ظهورهم في عهد علي بن ابي طالب .

ح ـ **تخطيط سامراء :** شرع المعتصم بتخطيط عاصمته سنة ٢٢١ هـ فكتب «في إشخاص الفعلة والبنائين وأهل المهن ، من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات» كما يقول اليعقوبي[1] • فوضع أساس قصره • ووزع القطائع على جنده • وعين اماكن الاسواق والبساتين الخ ••• ويلاحظ في البنـــاء :

أولا ــ ان المعتصم لم يؤكد على بنـــاء الأسوار للمدينـــة ولا الحصون • وذلك لاطمئنانه ، وثبوت أركان الدولة العباسية • وانمـــا توجه بكل همه ، إلى العمارة ، وتعيين قطائع الجند والأسواق •

ثانيا ــ اهتم المعتصم بفصل الجيش وداوين الدولة عن السكان • كما اهتم بفصل فرق الجيش بعضها عن بعض ويتوسط كل فرقة قائدها • فجعل للاتراك قطائع خاصة • وقطائـــع أخرى لغلمانـــه من خراسان (الاشروسنية ؟) • وقطائع لأهل الحوف العرب وهم من عرفوا في جيش المعتصم باسم المغاربـــة • ويضيف المسعودي[2] انـــه «جاور الاتراك بالفراغنة والأشروسنية وغيرهم من مدن خراسان (لعله يقصد مما وراء النهر) كل على قدر قربهم منهم في بلادهم • ولكن يظهر ان هـــذا غير واقع • فقد ظهر في الآثار[3] والاخبار على السواء ، أن المعتصم أقطع اشناس وأصحابه في آخر البناء من الشمال ، في الموضع المعروف بالكرخ (كرخ سامراء) وأقطع آخرين فوق ذلك وسماه الـــدور • بينما أقطع

---

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٥٨ •
(٢) المسعودي ج ٤ ص ٥٤ •
(٣) لا يزال (سور اشناس) قائماً هنـــاك مـــن اللبن بعلو خمسة أمتـــار •

الافشين الاشروسني في آخر البناء جنوباً • وسمي الموضع المطيرة • وأقطع أصحابه الاشروسنية والمضمومين إليه مواضع خولة • وقد آلت الدار بعد مصرع الافشين إلى وصيف التركي • وصيرت قطائع الاتراك جميعاً والفراغنة والعجم بعيدة من الاسواق والزحام، في شوارع واسعة، ودروب طوال ، ليس معهم في قطائعهم ودورهم أحد من الناس ،يختلط بهم ، من تاجر ولا غيره[1] •

أما معسكرات الجيش الكبرى وثكناته واصطبلاتـه ، فقد جعلها إلى جنوب المدينة • وعلى الضفة الغربية من دجلة • ولعله اختار المكان لاتساعه ، ولوقوعه على طريق بغداد • وكان نهر الاسحاقي يغمر المنطقة بالماء ، فيتوفر المرعى الاصطناعي للخيل • وقد كانت الثكنات تتسع لربع مليون جندي • وأما الاصطبلات فتقدر خيولها بحوالي ١٦٠ الف حصان •

ثالثاً ــ عناية المعتصم بعمران البلد الاقتصادي :

فأما في الزراعة : فقد اهتم بزراعة القسم الغربي من دجلة • تجاه المدينة • فحفر الترع فيه وشق هناك نهر الاسحاقي • (الذي كان يروي في الوقت نفسه منطقة الاصطبلات) وحمل إليه الغروس من كافةالبلدان• وشجع قواده ورجاله على المساهمة في الزرع • فأعطي كل قائد عمارة ناحية • وعمل على استقدام المهرة ، في الزرع والنخيل والغرس بهندسة المياه ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الارض • وزكت الأثمار والزروع لاستراحة الارض الوف السنين ، فبلغت غلة عمارات نهر

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٥٨ ــ ٢٦٣ .

الاسحاقي ، وما عليه من قرى ... اربعمائة الف دينار في السنة[1]» .

وأما في الصناعة : فقد حرص على أن تكـون عاصمتـه مجمعاً للصناعات المعروفة . فاستقدم ـ حسب رواية اليعقوبي ـ من كل بلد، من يعمل عملا من الأعمال ، او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع ... وفي حملة الرخام وفرشه ، فأقيمت في اللاذقيـة وغيرهـا دور صناعة الرخام . وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها . وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر . وحمـل من الكوفـة من يعمل الأدهان . ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة[2] .. » .

وأما في التجارة : «فوسع صفوف الاسواق . وجعل كل تجارة منفردة . وكل قوم على حدتهم ، على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد. وعمل شارعاً على دجلة (شارع الخليج) جعلـه رصيفاً ومرسـى لسفن التجارة ، التي ترد من بغداد وواسط .. وسائر السواد والبصرة والابلة والاهواز وما يتصل بذلك . ومن الموصل وبعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك[3] .

د ـ عني الخليفة بتخطيط المدينة وتقسيمها تقسيما ( عسكريا ـ اجتماعياً معاً ) يتناسب مع كونها معسكرا أولا ومركزا حضريا ثانيا . فجاء مخططها ممتدا على ضفة دجلة الغربية زهاء أربعة فراسخ ( ١٩كم ) ، ويدل التخطيط على براعة فائقة في الهندسة ، وعلى كثير من الابتكار ،

---

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٦٣ ص٢٦٤ .
(٢) المصدر نفسـه .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨ ، ٢٦٠ و ٢٦٣ وص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ .

يتجلى في شق عدة شواوع متوازية ، على طول النهر ، يتصل بعضها بعض بدروب عدة عن يمين ويسار ، وفي توزيع الابنية العامة والأسواق والمتاجر والمساجد والمساكن والأرصفة وغيرها • وأهم شوارع المدينة بعد شارع الخليج ، الذي على دجلة ، ذلك الشارع الآخر الموازي له ، والذي عرف أولا بشارع السريجة ، ثم سمي الشارع الأعظم • وكان يمتد في عهد المعتصم (١٩) كم من الجنوب إلى الشمال بعرض (٢٠٠) ذراع • ويوازيه شارع آخر اسمه شارع أبي أحمد ، في شرقه • ثم شارعان آخران في الشرق أيضا : شارع الحير وشارع برغامش التركي • وقد سمى لنا ياقوت في معجمه سبعة عشر قصرا بناها المعتصم والمتوكل في سامراء • ويقول بارتولد : ان هذه القصور كانت نموذجا للقصور ، التي بنيت فيما بعد ، في البلاد الواقعة بين بخارى شرقا ، وقرطبة غربا • ومن أهم تلك القصور ( دار العامة ) وهو بيت الخلافة • وقصر الجوسق على دجلة • وقصر لؤلؤة ( وهو السجن السياسي ) بجانبه • ثم قصر الهاروني الذي بناه الواثق • هذا إلى ما أقيم في سامراء من حائر الحير ( السور ) • ومن المسجد الجامع ، ومن حلبات السباق الثلاث •

د ـ **مراحل البناء :** وقد تطورت سامراء تطورا كبيرا بعد عهد المعتصم ، في زمن المتوكل خاصة • مما يحملنا على تقسيم بنائها إلى مرحلتين :

آ ـ مرحلة المعتصم وقد وضعت فيها كل أسس المدينة وأبنيتها الاولى • ويظهر أن الناس لم يكونوا واثقين من المدينة ، أول الأمر • فيذكر اليعقوبي انهم كانوا يسمونها ( العسكر ) فلما كان عهد الواثق جدد الناس البناء ، وأحكموه وأتقنوه ، لما علموا انها قد صارت مدينة عامرة •

ب ـ مرحلة المتوكل وهي مرحلة العمران الحقيقية . يقول ياقوت في معجمه : « ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى ، من الابنية الجليلة. مثل ما بناه المتوكل . فمن ذلك : القصر المعروف بالعروس ، أنفق عليه ثلاثين الف ألف درهم . والقصر المختار ( ٥ ملايين ) والوحيد ( مليونين ) والجعفري المحدث ( ١٠ ملايين ) والغريب ( ١٠ ) والشيدان ( ١٠ ) والبرج ( ١٠ ) والصبيح ( ٥ ) والمليح ( ٥ ) وقصر بستان الإيتاخية ( ١٠ ) والتل علوه وسفله ( ٥ ) والجوسق ( ½ ) والمسجد الجامع[1] ( ١٥ ) وبركوان للمعتز ( ٢٠ ) والقلائد ( ١٫٢٥ ) وجعل فيها أبنية بمائة ألف دينار ( ٢٫٥ ) والفرد على دجلة الخ ... هذا عدا حير الوحوش العظيم ، وعدا البركة الكبرى ( بركة البحتري ) أمامه . على ان كل هذا الإنفاق والعمران ، كان على ما يظهر ، في السنوات العشر الأولى من حكمه ، قبل أن تختمر في ذهنه فكرة الهرب من سامراء إلى بلد آخر ... وهكذا كانت دمشق هي الحل الموقت قبل أن يقرر بناء بلد جديد لم يعمر أكثر من سنة واحدة . وهو :

**هـ ـ عاصمة المتوكل ( المتوكلية ) :**

**أ ـ البحث عن عاصمة ثالثة ( دمشق ) :** عاد المتوكل بسبب بغض الترك والريبة منهم ، يفتش عن ملجأ ومهرب منهم ، أي عادت

(١) لكي تكون فكرة عن ضخامة هذا المسجد نشير الى انه يبلغ ٢٤٠ م × ١٥٨ م ويستفرق صحنه الداخلي مساحة ٤٤ الفم٢ (بينما ساحة كنيسة القديس بطرس بروما لاتزيد عن ١٥ الف م٢ وصحن ايا صوفيا في استامبول عن ٦٩٠٠م٢) وفي هذا دلالة كافية ليس فقط على عظمة المسجد ولكن على كثرة سكان سامراء في ذلك الوقت . واهم ظاهرة بنائية فيه مئذنته الملوية المشهورة وقد رفعها لترى عن بعد فراسخ ولسماع الآذان منها . ويرى المستشرقون انها بنيت على طراز «الزقرات» البابلية القديمة .

مشكلة البحث عن عاصمة جديدة إلى الوجود • ولقد كان للمعتصم عصبية تركية فبنى لها بؤرة • أما المتوكل فكان في سبيل البحث عن عصبيته ، وعن عاصمته معاً • أما مقامه في سامراء ، التي بنيت للترك ، فيجعله في قلق دائم ، إن لم يجعله تحت النفوذ التركي • ولذلك اختار العرب عصبية له ، مبدئيا • ولعل بروز النفوذ الفارسي في بغداد ، حوّله عن التفكير بالعودة اليها • فاختار ترك العراق كله ، الى الشام ، واتخاذ دمشق عاصمة له كانت هي الحل عنده • واليعقوبي[1] يعلل ذلك بحسن جوها وبأنه « ••• وصف له برد هوائها وكان محرورا ••• » ولكن التعليل الحقيقي يمكن أن يستمد من سياسته المناوئة للترك والفرس ، وللعلويين ، وللاعتزال : فدمشق عربية ، بعيدة عن التأثيرين الفارسي والتركي • وهي إلى هذا تتعصب ، كالمتوكل ، للسنة ، وتبغض مثله في ذلك الوقت ، العلويين •

وكتب المتوكل « إلى محمد بن أحمد بن مدبر ، يأمره باتخاذ القصور واعداد المنازل وكتب في إصلاح الطريق وإقامة المنازل والمرافد •• » وسار من سر من رأى أواخر سنة ٢٤٣ فوصل دمشق أوائل سنة ٢٤٤ ( قضى في الطريق ثلاثة أشهر ) وأقام في القصور الدمشقية ، وفي داريا خاصة • ثمانية وثلاثين يوما ، أنشده فيها البحتري أبياتا فيها معنى ، ومنها :

| | |
|---|---|
| قد رحلنا عن العراق | وعن قطبها النكد |
| حبذا العيش في دمشـ | ـق إذا ليلها برد |
| سفر جددت لنا اللهو | أسبابه الجدد |
| عزم الله للخليفة فيه | على الرشد ••• |

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩١

ولكن سرعان ما تبين للمتوكل خطأ هذا الحل السلبي في الهرب : إذ ترك العراق شاغرة لشغب الجند التركي ، عدا ان الاتراك ائمتروا بـه في الشام أيضا ، أي أنه لم يتخلص منهم ، فادعى انه « استوبأ البلد » وذلك « ان الهواء فيها بارد وندي . والماء ثقيل والريح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل . وهي كثيرة البراغيث »[1] وغلت فيها الاسعار « وحال الثلج بين السابلة والميرة »[2] وهذه مبررات وذرائع التمست دون شك ، لتخفي السبب الحقيقي . فواقع الحال ان المتوكل لم ينزل بدمشق نفسها ولكن بينها وبين داريا في جنوبها « على ساعة من المدينة في أعلى[3] الارض » كما يقول المسعودي ( وقد ذكر ذلك البحتري في شعره ) يشرف على المدينة والغوطة ويذكرون برودة الهواء واكتناف الثلج للبلد ، مع ان المتوكل نزل بين صفر وربيع الثاني ( مايس وتموز ) أي في وسط الصيف !

والسبب الحقيقي هو أن دمشق ، التي كانت لا تزال تحمل الطابع والذكريات الاموية ، كانت بعيدة عن أولئك الذين كانت تثور ريبهم منها ، من العباسيين ، والذين كانوا يتمركزون في بغداد ، وقد يتآمرون فيها . كما أن دمشق عاجزة عن أن تراقب تلك القوى التركية المشاغبة في سامراء . ولعل المتوكل لم يجد ، في مدينة الأمويين ، الترحاب الذي يجعله يأمل بتكوين عصبية له فيها ، تسانده وتدفع عنه : وتكون من القوة بحيث تقف معه للمتنافسين في العراق ، من فرس وترك خاصة . إن ما « استوبأه » المتوكل في البلد لم يكن « الجو الطبيعي » ولكن « الجو السياسي » .

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢١٠ ( ٣/١٤٣٦ ) .
(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٨٥ ( حوادث سنة ٢٤٤ ) .
(٣) المسعودي ج٤ ص ١١٥

**ب ـ بناء المتوكلية :** وعلى أي حال فقد تحمل المتوكل من جديد الى سامراء . ولكنه حين وصلها ، لجأ إلى حل آخر مشتق من الأول . فأمر سنة ٣٤٥ ببناء ( الجعفرية ) شمالي سامراء ... وعرف الناس انه يهرب من الترك ، بل انهم أشاعوا أنه اعتزم الفتك بهم . اما المتوكل فأعلن انه يريد ـ على حد قول اليعقوبي ـ « بناء مدينة تنسب إليه ، ويكون له بها الذكر »[1] وقال حين تم البناء « الآن علمت انـي ملك . إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها » . ومن الواضح ان المتوكل إنما يعني بهذا استقلاله وخلاصه من ضغط الترك !

أمر المتوكل « محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين باختيار موضع لمدينته ، فوقع اختيارهم على موضع يقال الماحوزة » على ثلاثة فراسخ ( ١٥ كم ) من شمالي سامراء يمد إليه الماء ، من نهر يشق إليه من دجلة . وقدرت نفقات البناء بما في ذلك حفر النهر[2] بألف ألف وخمسمائة ألف دينار . فطاب المتوكل نفساً ورضي به . وهكذا أقيمت « المتوكلية » أو « الخاصة المتوكلية » ( يرد الاسم في قصائد البحتري وفي الطبري على هذا النحو . واليعقوبي يذكر أن المتوكل سماها الجعفرية ) « وجمع القراء ( في المكان ) فقرأوا وحضر أصحاب الملاهي

---

(١) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٦٦

(٢) يفهم من الطبري ان تكاليف بناء المتوكلية كانت فيما قيل أكثر من مليوني دينار . أما ياقوت فيجعل هذا الرقم لحفر النهر وحده ، وقد أخذنا بما يفهم من اليعقوبي لانه معاصر ، ولأنه يذكر في موضع ثان من كتابه البلدان أن تكاليف حفر النهر بلغت « شبيهاً بالف الف دينار » . بينما يجعل الطبري تقدير نفقات النهر مائتي الف دينار وقد تولاه ابن يعقوب النصراني كاتب بغا التركي .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ ( ١٤٣٨/٣ ـ ١٤٣٩ ) .

فوهب لهم ألفي ألفي درهم ... » استمر البناء سنة وبعض السنة ، كان المتوكل خلالها يشرف بنفسه على البناء . وتم بذلك بناء قصور الجعفري الفخمة ، وقصر لؤلؤة الذي لم ير أعلى منه ، وعدة قصور أخرى ابتكر فيها المتوكل مخططا خاصا في البناء ( على هيئة الحرب ) عرف باسم الحيري . واتبعه الناس من بعده . كما بنى المسجد الجامع المعروف بجامع أبي دلف ، مع ملويته .

ولتسهيل المواصلات بين المتوكلية وسامراء شق بينهما شارع أعظم يتصل بالشارع الأعظم من سامراء بطول ثلاثة فراسخ ( ١٥ كم ) « وجعلت الأسواق في موضع معتزل . وجعل في كل مربعة وناحية سوقاً » واتصل البناء من المتوكلية الى الكرخ بشمالي سامراء ، على طرفي الشارع الأعظم » ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع لا عمارة فيه . فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ ( ٣٤ كم ) ، وانتقل المتوكل الى بلده الجديد في مطلع سنة ٢٤٧ هـ ونقل اليها الدواوين ، ديوان الخراج والضياع والزمام والجند والشاكرية وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد وجميع الدواوين ... »[١] .

إلا أن النهر ( الجعفري ) لم يتم أمره . وكان « مأساة هندسية فاشلة » كما يقول الدكتور الدوري اذ كان حفره صعبا جدا اشتغل به اثنا عشر الف عامل[٢] وانفق عليه مليون دينار ، ولكن « لم يجر الماء فيه إلا جريا ضعيفا »[٣] ولعل فشل هذا المشروع كان من أسباب هجر البلدة وشيكا .

---

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٦٧

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ ( ١٤٣٩/٣ ) .

(٣) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٦٧

اتفق المتوكل على أعماله العمرانية ، التي كان مولعاً بها • مبالغ باهظة ( الجعفري ٥٠ مليون درهم والبهو ٢٥ مليون واللؤلؤة خمسة ملايين ) وقد فصل ياقوت ما أنفقه المتوكل فبلغ مجموع ذلك مائتين وتسعين مليون درهم أي ١٢ مليون دينار تقريباً ( كان الدينار في عهد المتوكل بخمسة وعشرين درهماً ) ويقول المسعودي : « قيل أنه لم تكن النفقات في عصر من العصور مثلها في ايام المتوكل » •

ولنلاحظ ان هذه النفقات الباهظة تدل على مقدار ثروة الدولة إذ ذاك • كما ان انفاقها كان من العوامل التي أضعفت مركز الخلفاء المقبلين وجعلتهم آلات بيد الاتراك •

ولم يهنأ المتوكل اكثر من تسعة أشهر وثلاثة ايام في مدينته ، ثم قتل • وجاء ابنه المنتصر وأمر الناس جميعاً بالانتقال عن « الماحوزة » وان يهدموا المنازل ، ويحملوا النقض الى سر من رأى • فانتقل الناس••• وخربت قصور الجعفري ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة[1] •••

وعاد الرونق إلى سامراء من جديد التي بلغ اتساعها ( ٣٤ كم في الطول ومابين ٣ ــ ٤ كم في العرض ) حوالي ١٦٧ كم٢ • واذا أضفنا اليها المعسكرات ( ٥ كم٢ ) دون البساتين والقصور في غربي دجلة ، بلغ ذلك مرة ونصف المرة من مساحة القاهرة الحالية مع مصر الجديدة ، وقرابة اربع مرات من مساحة بغداد الحالية او دمشق • ولم يكن بالغريب بعد ، ومع هذه السعة وذلك العمران حتى ان يقول ياقوت عنها انها « صارت أعظم بلاد الله » وأن يحكم القزويني وياقوت معاً بأنه « ولم يكن من الأرض أحسن ولا أجمل ولا اعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها » •

---

(١) اليعقوبي ــ البلدان ص٢٦٧

# الفصل الثامن

## مشاكل الحكم

تبدأ هذه المشاكل في البلاط نفسه ، وتظهر بعده في مختلف نواحي الادارة والحكم . ومعظمها لم يكن بدعاً . ولا جديداً على الدولة . وقد جرى مثله في مختلف عهود الخلفاء العباسيين السابقين ، ولكن فتوة الدولة إذ ذاك قضت عليه وعلى مضاعفاته ، بينما مهدت الظروف الآن ــ بالمقابل ــ لتلك المشاكل كي تهدم الدولة .

ويجب ان نلاحظ أن معظم المشاكل والمساوىء ــ في الفترة التي ندرسها ــ ظلت في حدود القصور الخلافية ومن أمور السياسة العليا . بمعنى أنها لم تتنزل ، وتفتضح لدى الناس جميعاً ، وفي الحياة العامة . فعهد المعتصم والواثق يعدان من العصر العباسي الذهبي ، وأيام المتوكل ــ كما وصفها المسعودي ــ كانت أحسن أيام وأنضرها ، من استقامة الملك وشمول الناس بالعدل ، على أن عصر المتوكل نفسه هذا يجب أن يعتبر فترة الانتقال بين العهود الذهبية ودور الاضمحلال والتجزؤ . ومقتله يجب أن يعتبر خاتمة عصر وبدء عصر .

**١ ــ ولاية العهد :**

بقيت هذه المشكلة قائمة دون نظام رسمي يحددها حتى ولا في العرف وإذا كان من الملاحظ أنه غالباً ما توالى الأخوة على العرش العباسي . فلم يكن الأمر على ذلك دوماً فقد تولاها مرة وبشكل آلي ابن الخليفة المتوفى وهو الواثق .

بدأت الفترة هذه بعهد من المأمون ــ في مرضه الأخير ــ لأخيه أبي اسحق المعتصم • وقد تأخر المأمون كثيراً جداً في اتخاذ قرار بشأن هذه المشكلة التي لا شك أنه كان يعاني من عقدها : منذ كان ولياً للعهد مع إخوته ثم بعد خلافته في قضية علي الرضا •• ولهذا صمت عنها حتى ما قبل صمته الأخير • وبالرغم من أنه كان ذا ولد هو العباس ، وكان هذا الولد شاباً ، ويقاتل معه في حربه مع الروم بجهة طرسوس فانه لم يعينه لولاية العهد بعده وهو دليل ــ بعد أدلة أخرى ــ على أن فكرة الوراثة العمودية لم تكن قد استقرت بعد في تقاليد الاسرة العباسية أو أن المأمون على الاقل لم يكن يؤمن بها إن لم يكن يشك أيضاً في أحقية البيت العباسي كله في الحكم • وقد عدل المأمون عن ابنه لأخيه وربما وجد فيه المحارب المناسب الذي يستطيع في تلك الظروف التي مات فيها المأمون أن ينقذ الدولة من ثورات بابك والزط المديدتين وأن يسحق الهجوم الرومي •

على أن تصور الناس لوراثة العرش كان على أساس الوراثة النبوية المباشرة • يدل على ذلك أنه لما بويع أبو اسحق المعتصم في معسكرات الجند عند طرسوس ، ذكر الطبري « أن الناس كانوا قد اشفقوا من منازعة العباس بن المأمون له في الخلافة ••» وذكر « أن الجند شغبوا •• فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة • فأرسل أبو اسحق الى العباس فأحضره ، فبايعه ثم خرج ( العباس ) الى الجند فقال : ما هذا الحب البارد ؟ قد بايعت عمي وسلمت الخلافة اليه • فسكن الجند •• » « وسلم الناس من الاشفاق »[1] •

---

(١) الطبري ج٨ ص٦٦٨ (٣/١١٦٤)

غير أن هذا الزاهد بالخلافة الآن سيعود لطلبها بالتآمر بعد خمس سنوات .

كان المعتصم سنة ٢٢٣ على حرب الروم في غزوة عمورية المعروفة وقد آلم قواده العرب ماكان من ميله الى جنده الترك واعتماده عليهم وإطلاقه أيديهم في النفقات بينما هو يقتر على قواده العرب . واجتمع في الجبهة عجيف بن عنبسة ، العربي ، بالعباس بن عبد الله المأمون فشكا عجيف عدم إطلاق يده في النفقات كما تطلق يد الأفشين . واستخفاف المعتصم بأمره وأفعاله ولام العباس على ما كان من بيعته لعمه « وتفريطه وشجعه على أن يتلافى ما كان .. فقبل العباس ذلك » . ودبر الاثنان أول محاولة انقلاب عسكري في التاريخ العباسي . لم يدبرا ثورة متمردة تزحف كعبد الله بن علي أو أعواناً يبايعون بالخلافة كالذي كان من ابراهيم بن المهدي ، أو أقليماً يثورون به ويزحفون بجنده فعل المأمون بخراسان ولكنهما دبرا انقلاباً عسكرياً ، في الجبهة ، يقتل فيه المعتصم ويقتل معه الأفشين وأشناس والترك الآخرون ويتولى قياداتهم من اتفقوا معه على ذلك من خاصة هؤلاء أنفسهم . أرسل العباس في مهمة الاتفاق مع القواد المقبلين رجلاً ذا عقل ومداراة من خاصته يعرف بالحارث السمرقندي فاستطاع أخذ البيعة من بعض خاصة المعتصم ضد المعتصم ومن بعض خاصة الأفشين ضده ومن خاصة أشناس وغيره وضمنوا ذلك جميعاً ..

وأبى العباس تنفيذ المؤامرة قبل المسير الى عمورية قائلا : لا أفسد هذه الغزاة ثم أبى ذلك عقب الفتح منتظراً عودة المعتصم لاغتياله في بعض الدروب الجبلية من الثغور . ولكن عجيفاً تعجل في بعض التصرفات فانكشف الأمر للمعتصم ، وجيء بالحارث إليه فاعترف .. وكان القادة الذين اعترف عليهم من الكثرة بحيث لم يصدق المعتصم الخبر . ولكنه

أخذ العباس بالملاينة والملاطفة فاعترف بدوره •• فبادر المعتصم فاعتقل الرؤوس الكبرى • ودفع بالعباس إلى الأفشين ودفع عجيفاً إلى ايتاخ وجعل مع كل قائد من قواده واحداً من المتآمرين •• إلا واحداً قتله هو الشاه بن سهل • ولم يصل أي واحد من هؤلاء المعتقلين إلى مشارف العراق • ماتوا كلهم على الطريق : بعضهم عطشاً وبعضهم طرح في بئر فطمت عليه وبعض أتى عليه الارهاق وبعض انتحر ••

أما العباس نفسه فجوعوه ثم أطعموه الكثير ثم منعوا عنه الماء وأدرجوه في مسح فمات بمنبج وأطلق عليه المعتصم اسم «اللعين» رسمياً وقد تسبب العباس في حبس إخوته الآخرين من أولاد المأمون وهم المعروفون باسم أمهم سندس • دفعهم المعتصم الى ايتاخ فحبسهم في سرداب داره وماتوا بعد ذلك[1] •• وانتهت بهذا قصة الثورة العربية الأخيرة ضد التغلغل التركي وضد سرقة الأتراك للحكم العباسي من أهله •

ويوم توفى المعتصم آلت الخلافة بشكل آلي عادي الى ابنه هارون الواثق • لا نعرف أن أباه عهد إليه بالأمر ولقد يكون عهد في اللحظة الأخيرة • ولا نعرف موقف إخوته منه وكانوا ستة• هو أكبرهم • فان أي خبر لم يرو عنهم • وكل مانعرف أنه بويع دون ولاية عهد رسمية سابقة فلم يثر على بيعته أي اعتراض كأنما اعتبر الناس من البديهي أن يلي الابن أباه • وذهب من سامراء موفد خاص في الليلة نفسها الى بغداد فأخذ له البيعة من القادة والوجوه والناس هناك •

وإذا لم تقم مشكلة لاستخلاف الواثق ولكن هذا الخليفة مات تاركاً مشكلة • إذ رفض أن يعهد بالأمر لأحد ، وقيل له في البيعة لابنه

---

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى الطبري ج٩ ص٧١-٧٩ (٣/١٢٥٦-١٢٦٧) • وانظر اليعقوبي ص٤٧٦

فقال : « لا يراني الله أتقلدها حياً وميتاً .. »[1] . فاجتمع في دار الخليفة شبه مؤتمر يضم كبار الدولة قوامه قاضي القضاة ابن أبي داؤود ، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبي خالد ، وعمر بن فرج من رؤساء الكتاب ، ووصيف وإيتاخ ( وسيما الدمشقي دون شك ) من قواد الترك ، وأرادوا البيعة لابن الواثق محمد . ولكنهم عدلوا عنه لصغر سنه .. « ألبسوه بالفعل دراعة وقلنسوة .. فإذا هو قصير » تقتحمه العين فقال وصيف : أما تتقون الله ؟ تولون مثل هذا ، الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة؟[2] فعدلوا عنه إلى المتوكل . وألبسه قاضي القضاة الملابس وسلم عليه بالخلافة[3] !

وكان الأتراك سيما ووصيف أول المبايعين . وحيرة أعضاء هـذا المؤتمر تدل على الأقل على أن قضية ولاية العهد كانت ، في عرف الناس على الأقل ، في هذه المرة ، من حق الأصلح لا من حـق الرحم والابـن البكر . لعب الهوى التركي في تحويلها الى هذا الاتجاه محطماً بذلك كافة الجهود التي بذلهـا أمثال المنصـور والرشيد لتدعيم قواعـد الارث النبوي .

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص٤٨٣

(٢) الطبري ج٩ ص١٥٤ (١٣٦٨/٣)

(٣) ذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان ـ النسـخة المخطوطة في آياصوفيا الجزء الاول ورقة ٩١وجه) أن المتوكل كان قادماً إلى قصرالواثق يعوده في مرضه فلما سمع النواح وهو في الدهليز عرف موته ولكنه سمع ابن الزيات والقائد إيتاخ يأتمران به يقول الأول نقتله في التنور ويقولالثاني بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يظهر عليه اثر القتل . فبينما هم كذلك إذ جاءهم ابن أبي دؤاد فمنعه الخدم من الدخول فدافعهم ودخـل

واستخلف المتوكل فعاد الى دعم هذه القواعد من جديد • لكن هذه المشكلة ذاتها كانت بين الأسباب التي أودت به ومن قبل ابنه نفسه• ودراسة تلك الاسباب تلقي ضوءاً على السياسة العامة ، ودسائس البلاط في تلك الآونة : فقد أمر المتوكل سنة ٢٣٤ « ان يسلم الناس على ابنه محمد بالأمرة ويدعى له على المنابر » وفي سنة٢٣٥(٨٥٠م) نظم ولاية العهد ـــ على سنة الرشيد ـــ لأولاده الثلاثة : محمد وسماه بالمنتصر وأبي عبد الله (واسمه محمد أو الزبير أو طلحة) ولقبه المعتز وابراهيم ولقبه المؤيد • وعقد لكل واحد منهم لواءين : أحدهما أسود : وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل[1] أي الولاية • وقسم الامبراطورية بينهم أعمالاً ثلاثة : فكان للمنتصر من عريش مصر الى حيث يبلغ سلطان العباسيين من المغرب ، مع الجزيرة العربية والثغور الشامية والعواصم والسواد والأهواز والسند ومستغلات سامراء ومنطقة الجبال وصدقات العرب بالبصرة • وكان للمعتز كور خراسان وفارس • وللمؤيد أربعة من أجناد الشام فقط (ومشق وحمص والاردن وفلسطين) • (ويضيف اليعقوبي[2] أرمينيا وأذربيجان بينما يجعلها الطبري في حصة المعتز)•• كل هذا وأولياء العهود صغار : أكبرهم المنتصر في الثالثة عشرة ، والمؤيد حدث ، والمعتز طفل • ولذلك عين المتوكل لكل

---

وتكلم معهما في حديث يقول المتوكل إني لم أعقله لشدة اشتغال فكري بمصيري ثم خرج الى بعض الخدم ينادونني فما شككت اني داخل لمبايعة ولد الواثق وينفذ في ما قد قرر فلقيني ابن أبي دؤاد فقبل يدي ثم أجلسني وسلم علي بالخلافة وجاء ابن الزيات وإيتاخ ففعلا مثله .. وكانا هما المنظوران عند الناس لاختيار الخليفة . وبقي في نفسي ما قرراه علي فقتلتهما بما اعتزما به على قتلي .

(١) المصدر نفسه ص١٧٦ (٣/١٣٩٥) فمابعدها .

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٧

منهم كاتباً يشرف على ولاياته . « وكتب كتاب العهد من أربع نسخ احتفظ بواحدة منها وأعطى لكل ولد واحدة ، وأحضر وجوه الناس من كل بلد إلى سامراء فأعطاهم على البيعة الجوائز وأعطى الجند لعشرة أشهر ووجه الخطباء ليخطبوا بذلك .. »[١] .

ويظهر أن المتوكل ، بسبب من حبه لجاريته قبيحة ، أم المعتز ، أخذ يؤثر هذا الفتى فضم إليه سنة ٢٤٠ هـ خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق ، ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم . مع أن ابنه محمداً كان عنده (قبل ذلك) في أفضل منزلة وقد زاد مرة في أعماله زيادة واسعة وخلع عليه سبعة أيام في كل يوم سبع خلع وعقد له ألوية كثيرة ..»[٢] .

وما كاد المنتصر يبلغ مبلغ الرجال حتى ظهر بينه وبين أبيه اختلاف في الميول واستغله رجال البلاط استغلالاً بشعاً فقد وجد على أبيه :

آ ـ أنه يسخر في مجلس طربه من علي بن أبي طالب ويسب العلويين فكان هذا من الأسباب التي استحل بها المنتصر قتل المتوكل[٣] .

ب ـ انه يؤثر أخاه المعتز عليه « وزاد في اغرائه » ان دسائس الحاشية (من أمثال الفتح بن خاقان والوزير بن عبيد الله بن يحيى)

---

(١) انظر الطبري ج٩ ص١٨٠ (٣/١٤٠٢) واليعقوبي ج٢ ص٤٨٧

(٢) اليعقوبي ج٢ ص٤٨٧

(٣) ابن الأثير ج٧ ص ٥٥ (حوادث سنة ٢٣٦)

استطاعــت أن تبعده مرتين عن الصلاة بالناس ، في أيــام مشهودة ، وتقدم عليه المعتز[1] .

جـ ــ ان المتوكل كان ــ فيما يذكرون ــ يشتم ابنه ويحتقره . وربما بلغ كره الأب لابنه ، وخوفه من دسائسه ، أن فكر بالفتك به . ويرجع ذلك دون شك الى اشتراك المنتصر في دسائس البلاط ، واعلانه الخلاف لأبيه وتشنيعه عليه . يقول صاحب الفخري : «.. وكان كــل منهما يكره الآخر ويؤذيه» ، وبلغ الأمر بالمتوكل ، قبل مقتله بيوم ، أن جعل «يشتم ابنه المنتصر مرة ، ومرة يسقيه فوق طاقته ومرة يأمر بصفعه ومرة يتهدده بالقتل ..»[2] .

د ــ وأخيرا أعلن المتوكل خلع ابنه ، في مجلس من مجالس شربه ، في الأيام الأخيرة من حياته . ذكر الطبري أن المتوكل ، في ذلك المجلس حلف على الفتح بن خاقان أن يلطم المنتصر ثم قال المتوكل لمن حضر : اشهدوا جميعاً أني خلعت «المستعجل» . ثم التفت إليه فقال : ســميتك المنتصر فسماك الناس لحمقك : المنتظر . ثم صرت الآن المستعجل . فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل عندي مما تفعله بي فقال : اسقوه ..»[3] واللقب الذي خلعه المتوكل على ابنه: استهزاء به يكشف أنه كــان يعلم رغبة ابنه في التخلص منــه فسبقه بالخلع ..

وفي هذه الفترة نفسها كانت علاقات المتوكل مع الأتراك تسير من سيء لأسوأ ، والطبري يذكر ان (وصيفاً) حقد لما علم بمصادرة ضياعه واقطاعها للفتح بن خاقان «واستقر عنده الذي أمر به في أمره ..»[4]

---

(١) انظر تفصيل ذلك لدى الطبري ج٩ ص٢٢٢ـ٢٢٤ (٣/١٤٥٢ ـ ١٤٥٥) .

(٢) الطبري ج٩ ص٢٢٥ (٣/١٤٥٧)

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الطبري ج٩ ص٢٢٢ (٣/١٤٥٢)

وان « (بغا) الصغير توحش من المتوكل •• وان (اوتامش) غلام الواثق كان مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك»[1] ويذكر الطبري نقلاً عن بعض الرواة : ان المتوكل عزم على أن يقتل وصيفاً وبغا وغيرهما من قواد الأتراك مع ابنه المنتصر •• وحدد لذلك يوماً كان موعده ، بعد مقتله بيومين[2] •

وهكذا اتفقت نقمة الأتراك مع نقمة ولي العهد على المتوكل • وتوافق وقت خلع الابن مع الوقت الذي تقرر فيه الفتك • فالتقى الطرفان ليكون منهما حلف ومؤامرة • إذ بينما كان الأتراك يتداولون في الخلاص من المتوكل ، كان المنتصر يقوي مركزه بينهم • « فكان – كما يقول المسعودي – يجتذب قلوبهم •• وكان اوتامش يساعده في ذلك فكان لايبعد المتوكل أحداً من الأتراك إلا اجتذبه إلى (المنتصر) • فاستمال قلوب الأتراك وكثيراً من الفراعنة والأشروسنية ••»[3] •

ويبدو أن مؤامرة المنتصر على أبيه كانت تنظم قبل قصة الخلع والتحقير التي تعزى للمتوكل في حق ابنه بكثير ولقد نستطيع القول إن ما ذكر من صفع المنتصر وشتمه في حضرة أبيه إنما كان شائعة أشيعت وتبريراً أمام الناس للمؤامرة التي لم تغب أخبارها حتى عن المتوكل وعن حاشيته • وإذا سمى المتوكل ابنه لذلك «بالمستعجل» فان الطبري يذكر «إن المنتصر كان شاور في قتل أبيه جماعة من الفقهاء وأعلمهم بمذاهبه وحكى عنه أموراً قبيحة – يقول الطبري – كرهت ذكرها في الكتاب

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ج٤ ص١٢١
(٢) الطبري ج٩ ص٢٢٥ (١٤٥٦/٣)
(٣) المسعودي ج٤ ص١٢١

فأشاروا عليه بقتله ..»[1] ويذكر كذلك أن امرأة من نساء الأتراك ألقت رقعة تخبر ما عزم عليه القوم فوصلت الرقعة الى الفتح بن خاقان كما وصله خبر آخر بالمعنى نفسه من كاتبه فاتفق رأي الحاشية « على كتمان الأمر على المتوكل لئلا ينغصوا عليه يومه وهان عليهم أمر القوم ووثقوا بأن ذلك لا يجسر عليه أحد ولا يقدر ..»[2] . لكن المنتصر جسر عليه . وقد اعترف أحد أعوانه ، وشهود ليلة القتل ، بأن المنتصر « كان قد واعد الأتراك على قتل المتوكل قبل انصرافه إذا ثمل من النبيذ ..»[3] .

ويبدو بالمقابل أن مؤامرة أخرى قد تكون حقيقية أو وهمية ، كان المتوكل يدبرها لقتل ابنه . ومصدر الخبر هو أعوان المنتصر وهذا ما يشكك فيه ويجعله من جملة دعايات التبرير لمقتل المتوكل . ولعله شائعة أو خبر مدسوس أوصله الأتراك الى المنتصر ليزيدوا من حقده على أبيه ويدفعوه للاقدام النهائي على قتله. ويقول صاحب الخبر « .. وكان اتصل بنا الخبر أن عبيد الله بن يحيى ( كبير رجال البلاط لدى المتوكل) قد أعد للمنتصر قوماً في طريقه ليغتالوه عند انصرافه..» فلما قامت الضجة « وقع في نفسي .. أنهم على اغتيال المنتصر » .. وهكذا كان التآمر سجالا بين الطرفين وكانت نتيجة الصراع التآمري رهينة بمن يسبق الى الضربة الاولى . وسبقت الضربة من الأتراك وولي العهد وقتل المتوكل . وكانت هذه المرة الأولى في تاريخ الخلافة الاسلامية التي يتآمر فيها ولي العهد الإبن ، على أبيه ، والخدم في الدولة ، على سيدهم .

---

(١) الطبري ج٩ ص٢٢٨ (٣/١٤٦٢)
(٢) الطبري ج٩ ص ٢٥٢ (٣/١٣٦٢)
(٣) المصدر ذاته ص ١٦٥ (٣/١٤٧٢)

**وقد قتل مع المتوكل كبير رجاله الفتح بن خاقان فأذاع المنتصر أن** الفتح قتل أباه فقتله به !

**٢ ـ الوزارة :**

يظهر من تتبع أمر الوزارة في العهد العباسي أنها ما استقرت مرة • وأنها لم تكن مؤسسة رسمية ، وجزءاً محترم المكانة من نظام الحكم ، بقدر ما كانت عملاً شخصياً سواء بالنسبة للخليفة ، أو بالنسبة لمن يتولاها • ولهذا ظل تصادم السلطات بين الوزير والخليفة ، واستمرت النكبات • لكنا نلاحظ في هذه الفترة الأخيرة من العصر العباسي الأول بعض التدهور في تقاليد الوزارة ، حتى وليها أناس لا معرفة لهم ولا ثقافة ولا إدارة • وقد نستطيع ان نلاحظ إلى هذا ، أن سلطة الوزارة في نهاية هذه الفترة قد تحددت ، وضعفت ، نتيجة لتعاظم النفوذ التركي ، ولكنها على أي حال لم تحد عن التقليد الذي وضعه منذ البدء كل من أبي سلمة الخلال وأبي العباس السفاح في تسلط الوزير على كل شيء من جهة وفي نكبته على تسلطه الواسع من الجهة الأخرى •

وزر للمعتصم أولاً كاتب كان له قبل الخلافة ، هو الفضل بن مروان • أخذ البيعة في بغداد للمعتصم و «غلب عليه كثيراً» فرد أموره كلها إليه وكان قد «حل من قلبه المحل الذي لم يكن أحد يطمع في ملاحظته فضلاً عن منازعته ، ولا في الاعتراض في أمره ونهيه وإرادته وحكمه » حسب الكلمات التي يذكرها الطبري[1] •• ولكن المعتصم

---

(١) الطبري ج٩ ص٢٠ـ٢١ (١١٨٤/٣ـ١١٨٥)

لم يكن يعتبره مع ذلك أكثر من منفذ لأوامره وبينما « استقل (الفضل) بالأمور • وحملته الدالة ، وحركته الحرمة على خلافه (أي خلاف المعتصم) في بعض ما كان يأمر به ، ومنعه ما كان يحتاج إليه من الأموال في مهم أموره » كان المعتصم من جهته ، يتغير عليه ويسمع كلام الوشاة فيه وتتكرر في الفضل المأساة الوزارية المعروفة من نكبة وسجن ونفي له ولأصحابه وأهل بيته ، ومن مصادرة أموال هائلة جمعها يقول عنها المعتصم : « ما كنت أعلم أن في الدنيا من له هذا المال »[1] ولم يكن الفضل بالذي يستحق الوزارة التي بقي فيها سنتين تقريباً (رجب سنة ٢١٨ — رجب أو صفر سنة ٢٢٠ هـ) فقد كان «عامياً لا علم عنده ولا معرفة»[2] أو على الأصح ، كما قال ابن النديم وابن خلكان[3] « قليل المعرفة بالعلم ، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء» ولكن تصرفاته ، مع الناس، كانت سيئة ، وجهله بالأمور كان واضحاً حتى قال فيه بعض الشعراء :

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر
فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم
أبادهم التقييد والأسر والقتل ! ••

---

(١) مسكويه — تجارب الأمم ج٦ ص٤٧٩ ، والعيون والحدائق ج٣ ص٣٨٤ وتبلغ هذه الأموال عشرة ملايين دينار .

(٢) الفخري ص٢١٢ .

(٣) ابن خلكان ج٤ ص ٤٥ (طبعة عباس) وابن النديم — الفهرست ص ١٢٧

أما الوزير الثاني للمعتصم أحمد بن عمار فكان طحاناً في الأصل ، من أهل المذار .. ثم انتقل إلى البصرة ، ثم إلى بغداد ، وكانت ميزته الوحيدة ثراؤه إذ كان يخرج في الصدقة مائة دينار كل يوم !.. وكان جاهلاً بآداب الوزارة ، حتى قال فيه شاعر :

سبحان ربي الخالق الباري صرت وزيرا يا ابن عمار ؟
وكنت طحاناً على بغلة بغير دكان ولا دار ..
كفرت بالمقدار ان لم تكن قد جزت في ذا كل مقدار

وكانت قلة ثقافته سبباً في صرفه من الخدمة . وتلاه محمد بن عبد الملك الزيات وتطنب المصادر في امتداح ثقافته وعقله . يقول الجهشياري: « .. برع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابة وشعراً وأدباً وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك .. فنهض بأعباء الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من اضرابه ..»(١) ولعل ما يفسر لنا بقاءه في الوزارة بقية أيام المعتصم ، ومدة عهد الواثق ، حتى مطلع خلافة المتوكل . ولا شك أن استبقاء الواثق له ، رغم سخطه عليه وهو أمير ، وقسمه بالحج والعتق والصدقة . إن ولي الخلافة ، ليقتلنه شر قتلة بل وانسياقه معه ومع أحمد بن أبي داؤد المعتزلي حتى « كان لا يصدر إلا عن رأيهما وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه » يدل على مقدرة ابن الزيات وعلى اتزان الواثق في وقت معاً . ولقد قال له الخليفة : « والله ماأبقيتك إلا خوفا من خلو الدولة من مثلك . وسأكفر عن يميني فاني أجد

---

(١) الجهشياري ــ نصوص ضائعة (جمع كوركيس عواد) ص٦٤ ، وقد نقل ذلك الفخري ص ٢١٢

عن المال عوضاً ، ولا أجد عن مثلك عوضاً »[1] .

ويروون عن الواثق أنه قال : « إن السلطان الى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد الى السلطان ..»[2] .

وورث المتوكل ، مع الخلافة والأتراك ، وزارة الزيات . ولكنه كان يحقد عليه لسوء معاملته له ، في حياة أخيه . وكان ابن الزيات «جباراً ، متكبراً ، فظاً ، غليظ القلب ..» كما يقول عنه صاحب الفخري و «شديد القسوة قليل الرحمة جباها للناس ، كثير الاستخفاف بهم لا يعرف له احسان إلى أحد ..» كما يقول اليعقوبي[3] . فلم يبقه المتوكل غير أربعين يوماً . ثم نكبه وصادر أمواله . وعذبه في تنور من حديد ، مساميره إلى الداخل ، كان ابن الزيات صنعه لتعذيب غيره « فلم ير إلا شامت به فرح بنكبته»[4] .

ولا شك أنا نستطيع أن نعد ابن الزيات خاتمة تلك السلسلة الذهبية من الوزراء ، الذين توالوا في العصر العباسي الاول . وندر أن أطلعت العصور التالية أمثالهم .

واستكتب المتوكل ، بعد ابن الزيات ، أحمد بن خالد المعروف بأبي الوزير ، دون تسميته بالوزارة . ثم نكبه ، وأخذ منه مائتي ألف

---

(١) الفخري ص ٢١٤
(٢) التنوخي ـ نشوار المحاضرة ج٨ ص ١٥
(٣) اليعقوبي ج٢ ص٤٨٤ ، الفخري ص١٩٠
(٤) ينفرد ابن النديم بخبر يقول إن ابن الزيات كان زنديقاً ( انظر الفهرست ص٣٣٨) .

دينار • ثم الجرجرائي : أبا جعفر محمد بن الفضل ، وهو شيخ يمتاز بظرفه وغنائه • فلم تلبث السعايات أن أبعدته • وقال المتوكل : قد ضجرت من المشايخ ، أريد حدثاً أستوزره•• فأشير عليه بعبيد الله بن يحيى ابن خاقان «وكان حسن الخط له معرفة بالحساب والاستيفاء إلا أنه كان مخلطاً وكان مجدوداً وكانت سعادته وكرمه أيضاً يستران كثيراً من عيوبه ••»[1] وبقي على وزارة المتوكل حتى مقتل هذا الخليفة • ولكن منصب الوزارة كان فقد رونقه وسلطاته بتسلط الأتراك عليه وتسييره حسب أهوائهم ونوازعهم •

يقول التنوخي في نشوار المحاضرة : «•• جعل المتوكل الكتب باسم وصيف التركي وانتصب منصب الوزارة وإن كان لم يسم بها فاختار من الكتاب عبيد الله بن يحيى بن خاقان • وصار أمره يقوى ، فكان يعرض الأعمال عليه كما كان الوزراء يعرضونها وليس هو يعد قديراً لها • وأثبت المتوكل اسمه •• ثم أمر له الخليفة بعد زمن بالوزارة ثم خوطب بها وكان وزيراً أميراً ••»[2] •

وقد لعب هذا الوزير عبيد الله بن خاقان ، مع النديم : الفتح بن خاقان دورهما الخطر في مقتل المتوكل حين وسعا شقة الخلاف بينه وبين المنتصر وشجعاه على إبعاده وتقريب المعتز••فكان ذلك السبب في مصرعه ثم مصرع الفتح بن خاقان نفسه من بعده •

**٣ ــ الكتاب والمصادرات :**

وظهرت في هذه الفترة (٢١٨ــ٢٤٧هـ) ظاهرة في السياسة المالية

---

(١) الفخري ص ٢٠٦ــ٢٠٧

(٢) التنوخي ــ نشوار المحاضرة ج٨ ص١١ــ١٣

لها معناها في الجهاز الاداري • فقد سن الواثق ، لمن بعده ، مصادرة الكتاب (وهم رؤساء الدواوين) بغية الحصول على المال ، حتى أصبحت المصادرة مورداً من موارد بيت المال • وهذا يدل على تفشي الرشوة والظلم والاختلاس ، في الجهاز الأداري للدولة ، ووصوله للدرجة التي لا يصح السكوت عنها ، والتي لا تعالج إلا بنكبة الكاتب • وفي تكرر المصادرات فيمابعد ، اعتراف وإقرار بأعمال الكتاب السيئة• وفي صيرورة المصادرة مورداً للخزينة ومصدراً يرجع إليه عند الحاجة إقرار بأنها أصبحت شبه ضريبة على الكتاب •

يقول الطبري وينقل عنه ابن الأثير « •• فمن ذلك ماكان من حبس الواثق بالله الكتاب والزامهم أموالاً عظيمة ، أخذ من اسحق بن يحيى بن معاذ (٨٠) الف دينار ، ومن احمد بن اسرائيل (٨٠) الف دينار ومن سليمان بن وهب كاتب ايتاخ (٤٠٠) الف دينار ومن الحسن ابن وهب (١٤) الف دينار ومن احمد بن الخصيب وكتابه الف الف ومن ابراهيم بن رياح وكتابه (١٠٠) الف ومن نجاح (٦٠) ألفاً ومن أبي الوزير صلحاً (١٦٠) الف دينار ، وذلك سوى ما أخذه من العمال بسبب عمالاتهم» ممايبلغ مجموعه الفي الف دينار[1] هذا إلى مليون ونصف المليون من الدراهم صادرها الوزير ابن الزيات من ابراهيم بن العباس العامل على الأهواز •• وغيرها كثير !

وزادت المصادرات زمن المتوكل حتى لنستطيع أن نعد منها (١٤) مصادرة كبرى فيما ذكر اليعقوبي والطبري : من ذلك مصادرة ابن

(١) انظر الطبري ج٩ ص١٢٥ (٣/١٣٣١)

الزيات (٩٠ الف دينار) وعمر بن فرج الرخجي الكاتب ، وأخيه محمد صاحب مصر ، والفضل بن مروان ، وعلي بن عيسى ، وابي الوزير ، وإيتاخ ، ونجاح بن سلمة .. والسلسلة طويلة بعد ذلك .. وسخط مرة على كتابه ، جملة ، فصادرهم . كما كانت المصادرة تلحق أحياناً عمال المصادرات . فقد أخذ «أحمد بن محمد بن مدبر عمال (علي عيسى) على طساسيج السواد ، فصالحهم على أموال غظيمة» .

وخير مثل لدوافع المتوكل في بعض هذه المصادرات ، إن لم يكن في كلها ، مايذكره الطبري[1] قائلاً «.. لما عزم المتوكل على بناء الجعفري ، قال له نجاح ، وكان في الندماء : يا أمير المؤمنين ! أسمي لك قوماً ، تدفعهم إلي ، حتى استخرج لك منهم أموالا تبني بها مدينتك . فانه يلزمك من الأموال مايعظم قدره . قال : سمهم . فرفع رقعة يذكر فيها : موسى بن عبد الملك (صاحب ديوان الخراج) والحسن بن مخلد (صاحب ديوان الضياع) وجعفر المعلوف (مستخرج ديوان الخراج) وغيرهم نحواً من عشرين رجلا فوقع ذلك من المتوكل موقعاً أعجبه» ولم ينج هؤلاء من النكبة إلا بسبب عداء الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، لنجاح . فانه أحضر موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلف ، وأخبرهما الخبر ، ودفعهما الى أن يكتبا لأمير المؤمنين رقعة يقبلان فيها على أنفسهما بألفي ألف دينار! .. وكان ذلك . واستطاعا بهذا الشكل أن يأخذا الإذن بمصادرة أموال نجاح جزاء وفاقاً فاستخرجا منه ، للمتوكل دوماً مائة وأربعين ألف دينار ومن كاتبه اسحق خمسين ولم ينجه ذلك من التعذيب حتى الموت سنة ٢٤٥ هـ .

---

(١) انظر الطبري ج٩ ص١٦٠ ، ١٦٢ وص ٢١٤-٢١٥

(٢) الطبري ج١٩ ص ٢١٤-٢١٧ (٣/١٤٤-١٧٤)

ويمكن أن نعرف ضخامة قيمة المصادرات من تلك الارقام التي ذكرت فيها • ومن أمثلة أخرى : فابراهيم بن الجنيد دفع سنة ٢٣٣ هـ مبلغ (٧٠) ألف دينار وأبو الوزير ستين ألف دينار ، وحمل بدر ودراهم وحلي • وأخذ له ، من متاع مصر ، اثنين وستين سفطاً ، واثنين وثلاثين غلاماً ، وصولج سعدون بن علي على ٤٠ ألف دينار • وصولح ابنا أخيه على نيف وثلاثين ألف دينار • واسحق بن سعد على ٥٠ ألف دينار • وأخذ المتوكل من أحمد بن أبي داؤد لما غضب على ابنه (١٢٠) الف دينار وجواهر بقيمة ٤٠ ألف دينار • وصولح بعد ذلك على ١٦ ألف ألف درهم ، وبيع كل ضيعة لهم • وصودر عمر بن فرج على عشرة آلاف ألف درهم •

وإذا كان لإنفاق المتوكل أثره في هذه المصادرات ، فلا شـك أن لسوء استغلال الكتاب بالمقابل ، أثره أيضاً • ولعـل الخلفـاء اعتبروا المصادرة وسيلة لاسترداد ما استلبه الموظفون من أموال الدولة والناس ، بطرق غير مشروعة على نهج عمر بن الخطاب الذي شرع المقاسمة في مثل هذه الحال[١] •



---

(١) في المسعودي (ج٤ ص٦٦) قصة جديرة بالقراءة ، يتحدث فيه أحد الاعراب الى الشاعر أبي تمام عن رجال دولة الواثق واحداً واحداً . ولعلها تعطينا صدى عن رأي العامة في أصحاب الحكومة إذ ذاك .

# الفصل التاسع

# مشاكل الرعية

شهدت هذه الفترة (٢١٨ـ٢٤٧) نهاية عهد الثورات العقـدية تقريباً وبداية انتقاض الأقاليم في ثورات محلية أقليمية لا تدل على أكثر من ضعف الدولة المركزية • وكانت خلافة المعتصم فترة تصفية الثورات التي تميز بها العصر العباسي الأول والعصر الأموي قبله أيضاً من خارجية وعلوية وثورات دينية إيرانية كما اتضحت بالمقابل في زمن الواثق صفة الفتن المحلية التي ستمهد لانفصال أقاليم الدولة ولتحولها الى الحكم الذاتي •

**١ ـ ثورات العقائد :**

ونقصد بها ثورات إيران الدينية ـ السياسية ، وثورات العلويين ، والخوارج • وقد أخذت كلها الطابع الشخصي • قادها أفراد تمثلت بهم بعض الأفكار ، وانتهت بانتهائهم •

**أولا : الثورات الايرانية :**

إن **ثورة بابك** التي ورثها المعتصم عن أخيه المأمون ، وحشد لها سنوات عدة كل قوته حتى أخمدها لم تنته بنهاية بابك على خشبة الصلب وقد كان لها ذيل ثوري عرف باسم :

**أ ــ ثورة المازيار :** لأنها ابنة ثورة بابك فقد كان لها أسسها نفسها : قادها المازيار (أو ماهيزديار على قول البلاذري[1]) وهو ابن (قارن) ابن (ونداهرز) من نسل الأمراء القارنيين الذي كان لهم حكم طبرستان في الزمن الاسلامي ، والساساني قبله . وقد نشب بينه وبين أمير آخر في المنطقة ، اسمه شهريار بن شيرويه ، نزاع التجأ على أثره ، المازيار إلى المأمون . وأسلم على يديه . فلما مات شهريار سنة ٢١٠ هـ رجع المازيار ، واسترد الجبل وحكمه . وقد ولاه إياه المأمون بعد أن سماه محمداً ، وضم إليه بعض البقاع حوله ، وجعل له ــ كما يقول البلاذري[2] ــ مرتبة : الأصبهبذ . وهو اللقب القديم لأمراء طبرستان . واستمر الأصبهبذ هادىء الحال والأطماع أربع عشرة سنة .. حتى سنة ٢٢٤ .

وفهم من الطبري أن طبرستان كانت تابعة لأقليم خراسان . بمعنى أن المازيار كان تابعاً لبني طاهر . ولكنه كان يكرههم . فكان لا

---

(١) البلاذري ص ٤١٦

(٢) انظر البلاذري ــ فتوح البلدان ص٤١٦ . وقد ذكر مينورسكي في دائرة المعارف الاسلامية (مادة «مازيار» ج٣ ص٤٣٥ــ٣٤٦) أن المأمون سمح له باتخاذ لقب الأمراء القديم ويروي الطبري (ج٩ص١٠٠) أن المأمون كان يكتب للمازيار بلقب : «أصبهبذ اصبهبذان» .. «مولى أمير المؤمنين» .

يحمل إليهم الخراج رغم كتابة المعتصم له بذلك . كان يرسل إلى بغداد ثم سامراء حتى إذا وافى همذان جاء عمال ابن طاهر فأخذوه .. استمر ذلك سنين طويلة حتى تفاقم الأمر . والمؤرخون يجعلون من هذه النقطة ، سبب ثورته : فيذكرون أن الأفشين كان يطمع بخراسان . وكان يسمع من المعتصم أحياناً كلاماً يدل على عزمه بعزل آل طاهر عنها . فكاتب المازيار سراً . وشجعه على الخلاف ، أملاً في ألا يستطيع الطاهريون اخماد ثورته . فيندب الأفشين لذلك فتكون خراسان له ويقضي بالمناسبة على آل طاهر[1] . وهكذا قطع المازيار حتى الخراج وأعلن العصيان في جباله المنيعة . وأخذ الرهائن من الناس فحبسهم في برج الأصبهبذ ليضمن تأييدهم .. وجمع أموال الخراج بشكل عاجل ليضمن بيده الأموال .

ولكن أمر المازيار والأفشين كان ، على مايظهر ، أعمق من هذه الظواهر البسيطة : فالمازيار كان سطحي الاسلام . وهو في الواقع خرمي ، من ذلك المذهب الذي أضحى يمثل ثورة الوعي الايراني — الديني ضد السلطان العباسي ، وضد المجتمع الاسلامي الذي أقامه الخلفاء . ويتفق المسعودي[2] والبلاذري[3] والبغدادي[4] على اتهامه بالخرمية « وأنه كفر وغدر » . وينقل مينورسكي عن ابن اسفنديار أنه « كان يمجد مزدك وبابك والمجوس الآخرين الذين أرادوا محو الاسلام » .

وأما علاقته بالأفشين فقد أقر المازيار على نفسه وعلى صاحبه بان

---

(١) الطبري ج٩ ص٦٠–٨١ وص١٠٥ (١٢٦٨/٣–١٢٦٩) و (١٣٠٥/٣)

(٢) المسعودي ج٤ ص٦١

(٣) البلاذري ص٤١٦

(٤) الفرق بين الفرق ص٢٥٢

الأفشين كاتبه يعرض عليه النصرة و « أنه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس » كما يقول المسعودي[1] .

وتدل أعمال المازيار ، بعد الثورة ، على نزعته المشاعية المزدكية :
« أمر أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب أموالهم .. » وقال لأصحابه « إني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمهم .. فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم ، قبل ذلك . ثم حوزوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم»[2] وكان لهذا العمل ، بجانب معناه الديني والاقتصادي، معنى سياسي أيضاً . فقسم كبير من الملاكين كانوا من العرب ، أو مواليهم ، كما يقول مينورسكي وتشهد نصوص الطبري « وهواهم مع العرب والمسودة »[3] ولذلك جمع عامله على (سارية) مرة وكان من أهم أعوانه ، مائتين وستين من أبناء القواد ، وسلمهم للفلاحين على أنهم خطرون . وأشار عليهم بقتلهم فقتلوا . وأمر أصحاب المسالح ( أي النقاط العسكرية ) بإحضار أهل الخنادق من «الأبناء والعرب» ووجوه العرب في المناطق المختلفة فكبلهم بالحديد وحبسهم ووكل بهم الرجال في حبسهم[4] ويظهر أن أكثرهم كان من أهل المدن لأن الريف بقي لفلاحيه وإلى تملكه الاقطاعيون . كما يظهر أن عددهم زاد على «عشرين

(١) المسعودي ج٤ ص٦١
(٢) الطبري ج٩ ص٩١(٣/١٣٦٩) و ص٨٦-٨٧(٣/١٢٧٨)
(٣) الطبري ج٩ ص٨٦ (٣/١٢٧٨)
(٤) المصدر نفسه ص٨٤ (٣/١٢٧٣-١٢٧٥)
(٥) انظر المصدر نفسه ص٨٥ وص٨٦ وص٩٠ (٣/١٢٧٦ ، ١٢٧٨، ١٢٨٤)

ألفاً» وهو الرقم الذي ذكره المازيار نفسه وفيهم الملاكون كما أن فيهم « التجار والصناع » .

فالثورة سياسية دينية معاً . أو هي سياسية ، واتخذت الخرمية مبدأ لتضم إليها الطبقةالعاملةالفقيرة ، من الايرانيين، وقد تعاون المعتصم ، مع عبد الله بن طاهر على إخمادها ، بالتطويق من كل جانب . فهاجم حسن ابن الحسين (عم عبد الله) وقائد آخر طبرستان من الشرق . وأرسل المعتصم قوات أخرى ، عليها محمد بن ابراهيم ، من الغرب . كما بعث بمنصور بن حسن من الري في الجنوب. وبجيش آخر في جانبه .. وأدرك المازيار أنه مطوق وأنه قد «أحدقت به الخيل من كل جانب» . وكان على مايبدو ينتظر أن يفاوضه المعتصم أو يساومه فلما لم يفعل . بعث المازيار الى «أصحاب المدن» المعتقلين عنده يقول إنما حبستكم ليبعث الي هذا الرجل (يعني المعتصم) فيكم فلم يفعل وقد بلغني أن الحجاج غضب على صاحب السند في امرأة أسرت من المسلمين فغزا السند حتى استنقذها وهذا الرجل لا يكترث بعشرين ألفاً ولا يبعث إلي يسأل فيكم فأدوا إلي خراج سنتين وأخلي سبيلكم . وكان المازيار يرجو من هذا العرض ــ كما قال الطبري ــ « أن يلقي الشر بين أصحاب الخراج ومن لا خراج عليه من التجار والصناع»[1] ولكنهم كانوا من الإملاق بحيث لم يستطيعوا دفع أي مبلغ .. وقتل العديد من الرهائن في أمكنة متفرقة قبل أن يمل المازيار حبسهم فيطلقهم حين رأى تفرق أصحابه عنه ..[2] .

---

(١) الطبري ج٩ ص ٨٥-٨٦ ( ٣/١٢٧٦-١٢٧٨ )
(٢) الطبري ج٩ ص٩٠ (٣/١٢٨٣-١٢٨٤)

والواقع أنه بينما كانت الجيوش العباسية تزحف ، بدأت الخيانات في صفوف المازيار ، اتفق حرس السور في بلدة سارية مع أصحاب الحسن بن الحسين الظاهري فأدخلوهم من ثغرة فيه فسقطت المدينة وأسر صاحبها من قبل بعض أعوانه أنفسهم فقتل ، وكاتب الحسن الطاهري قارن بن شهريار وهو من قواد المازيار وابن أخيه ووعده أن يملكه على جبال أبيه وجده فاحتال قارن على شقيق المازيار عبد الله حتى قيده مع قواده وجاء به الى الحسن عربون وفاء واستنجاز للوعد ، وأما قوهيار الشقيق الآخر للمازيار فأطلق عامل طبرستان القديم من السجن ليطلب له الأمان من القائد العباسي مقابل أن يسلمه المازيار نفسه ويجعل له جبال أبيه وجده ، وتمت المؤامرة على المازيار : قاده أخوه الى غياض منقطعة وأوقعه بيد الحسن أسيراً وهو يحسب أنه ذاهب للمفاوضة بالأمان[1] بينما كان ابن عمه أيضاً يكتب بدخائل أمره وقواته للحسن ، وأخذت الأموال التي يحملها الرجل وكان فيها حق من الجوهر كبير ثمنه ١٨ مليون درهم ومائة ألف دينار تقريباً وحوالي ٣٥ قطعةزمرد وياقوت أحمر وتاج وسيف من الذهب عدا ألوان الثياب[2] ، أرسل إلى سامراء ، حيث توفي ، تحت السياط الأربعمائة والخمسين التي ذاقها ، وصلب بجانب بابك سنة ٢٢٥ هـ ،

أما قوهيار فلم ينعم بالملك لأن بعض غلمان أخيه قتلوه وقد حرضهم على ذلك ابن عمه : شهريار بن المصمغان الذي كان يطمع بالملك ولكن

---

(١) انظر في المصدر نفسه تفاصيل هذه المؤامرات ج٩ ص٧٨ــ٩٠ (١٢٨٩/٣ــ١٢٨٤)

وانظر كذلك البلاذري ــ فتوح البلدان ص٤١٦ــ٤١٧

(٢) انظر الطبري ج٩ ص٩٨ (١٢٩٦/٣) وص٩٦ (١٢٩٢/٣ــ٩٣)

طبرستان كانت قد فتحت كلها «سهلها وجبلها فتولاها عبد الله بن طاهر ثم ابنه طاهر من بعده»[1] .

## ب ـ قضية الافشين :

كانت أحدى القضايا الكبرى في زمن المعتصم . ولقد تكون في حقيقتها قضية سياسية ، سببها اصطدام نفوذ الأفشين المتعاظم بدسائس البلاط ، ولكنها ألبست الثوب الديني . وفي تفاصيلها اضطراب وروايات على ألوان .. وأوسع أخبارها ما يرويه الطبري[2] ونستخلص منه : ان التهم التي وجهت للافشين كانت عديدة . وأنها لم تكن بنت أيام محدودة ، ولكنها شكوك تراكمت حتى أقنعت المعتصم بخيانة قائده الأعظم .

والأفشين لقب كان يلقب به أمراء أشروسنة قبل الاسلام . وكان الأفشين قائد المعتصم آخر هؤلاء الأمراء . ويبدو من أخباره أنه كان واسع الثقافة ، جيد الاطلاع على الدين الاسلامي واللغة العربية حسن الاستفادة من الفلسفة والمنطق ولا تنقصه المعلومات الطبية فكان يحفظ دفاتر للأدوية عنده باللغة الأشروسنية[3] هذا بالإضافة الى الثقافة العسكرية ، وقد دخل هو بعد أبيه في خدمة المأمون ثم في خدمة المعتصم[4] وبرز اسمه بقوة بعد هزيمته لبابك ، وبعد واقعة عمورية ، فأضحى القائد الأول في الدولة . ويظهر أن ذلك أثار فيه الأعجمية . ولم

---

(١) البلاذري ـ فتوح ص ٤١٧

(٢) الطبري ج٩

(٣) انظر ابن العبري ـ مختصر تاريخ الدول ص ١٤٠ـ١٤١

(٤) انظر تفصيل قصة إسلامه وإسلام أبيه وفتح أشروسنة لدى البلاذري ـ فتوح ص ٥٢٨ ـ ٥٢٩ وقد ألمنا بها .

يكن في ميوله وفي نشأته التركية ـ الايرانية أقل ارتباطا بدينـة الأول (البوذي أو الشاماني) ولا عطفاً على اهل بلده من الرجلين اللذين صحباه ـ كما قال براون Browne في نهايته المحزنة : المازيار وبابـك وأخبار محاكمة تكشف أن الرجل كان واعيا كل الوعي محاولة التوفيق التـي يعيشها ويقوم بها ما بين وضعه السابق كأمير مؤله في شعب معين ووضعه الجديد كمسلم وقائد حربي في دولة غريبة عنه وعن بلاده وقومه وحججه وإجاباته المنطقية لم تكشف عدم ولائه للدولة وعدم ايمانه بالاسـلام فقط ولكن كشفت بالمقابل خصومه والأساس السياسي الذي تقوم عليه تهمته وإن لم يعلن ذلك الاساس ابدا .

وأول ما انكشف من أمر الافشين ، ما أخبر به عبد الله بن طاهر ، من أنه في الايام الاخيرة من حربه لبابك ، كان لا تأتي الافشين هديـة ولا تجتمع عنده كمية من الدنانير ، إلا أرسلها إلى موطنه ، في أشروسنة . فأمر المعتصم ابن طاهر بتقصي الامردوما[1] .

ثم انكشفت صلة الافشين بالمازيار الثائر . وقبض ابن طاهر على بعض رسائله إليه واعترف الاثنان أمام المعتصم أن شقيق بابك كان يكاتب شقيق المازيار ويحرضه باسم بابك على الثورة لإعادة الدين الأبيض إلى ماكان عليه في عهد العجم[2] .. وابن العبري يعزو السبب في القبض على

---

(١) الطبري ج٩ ص ١٠٤ ـ ١٠٥ (٣/١٣٠٤)

(٢) هناك فيما يتعلق بدين الافشـين السابـق مشكلة . فأهل أشروسنة ، وهم من الترك الذين دخلوا الثقافة الايرانية كانوا في كثيرمنهم على الشامانية أو البوذية . وتدل الأصنام ذات الجواهر التي وجدت لدى الافشين على أنه كان مثل قومه . وأما هذا النوع من الرسائل فيشير إن

الافشين إلى هذه المراسلات[1] ثم ثار منكجور الفرغاني سنة ٢٢٥ هـ خال ولد الافشين ، ووالي اذربيجان . وذلك ان المعتصم طالبه بأموال عظيمة ، كتب صاحب البريد انه وجدها من ثروة بابك واحتجزها لنفسه، في بلدة بابك (البذ) فلم يعترف بها . فعزله الخليفة فثار . وطلب المعتصم من الافشين ، إحضار هذا العامل الثائر فبعث بجيش إليه . ولكن المعتصم عرف ان منكجور انما خلع (الطاعة) بأمر الافشين .وإنما وجه الجيش الآخر مددا له . ويرى اليعقوبي أن هذا هو أول سبب للقبض عليه[2] .

ويبدو أن المعتصم اتخذ ، قبل انكشاف الافشين واعتقاله خطوة أطاع فيها نصيحة قاضية ابن ابي دؤاد في الحد من نفوذ الافشين والاحتياط من تزايد قوته العسكرية وذلك بقسمة الجيش شطرين : نصف مع الافشين ونصف مع القائد أشناس[3]. وبالرغم من از الدينوري
نصف مع الافشين ونصف مع القائد أشناس[3]. وبالرغم من أن الدينوري
فإنها كانت نصيحة ذهبية وفي مصلحة الدولة وقد عمل بها المعتصم فوجد الافشين منه وطال حزنه واشتد حقده» فإذا لم يكن ذلك لأنه قلل من إمكانيته وقوته في الانتقاض على الدولة فلأنه على الأقل أزاحه عن المركز العسكري الأول والقيادة العليا فيها وجعل اشناس عديلا في

---

صح إلى انه من اهل الدين الأبيض اي الخرمية المحمرة أو على الأقل من الزارادشتين . وبالرغم من ان هذا غير بعيد بسبب التأثير الايراني فيما وراء النهر إلا إنه لا ينسجم مع الأدلة التي قدمت لدى المعتصم لادانة الافشين بعدم الولاء للاسلام ولو كان مزدكياً لأعلنت التهمة ضده خلال محاكمته .

(١) ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ص ١٤٠٥ .

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٧٧ .

(٣) الدينوري ــ الاخبار الطوال ص ٤٠٥ .

ذلـك ... ولما افتضحت بعض الأمور أحس الافشين تغيـر المعتصم عليه ، فهم بالهرب ، عن طريق أرمينية ، فلم يتمكن . وفكر بعمل وليمة للمعتصم وقواده ، يسممهم بها ، ثم يهرب إلى أشروسنة عن طريق أرمينية والخزر ، ويستميل الخزر على أهل الاسلام ... فاستغرق تدبير ذلك زمنا[1] كانت دسائس البلاط خلاله تقوم بدورها وتترك أثرها في ذلك كله . ولئن انفرد الدينوري[2] برد نكبة الافشين إلى وشـايات أحمد ابن أبي داؤد فحسب (ولم يذكر موضوعها) وإلى تحريضه المعتصم عليه فقد يعني ذلك أن هذه الأمور ساهمت في نكبته ، ولكنها لم تكن السبب الرئيسي حتى إذا جاء بعض قواد الافشين الى المعتصم فكشف له عن تدابيره للهرب ومشاريعه للمستقبل بعث إليه من فوره فما جاء القصر حتى أخذ وسجن في حبس مرتفع فيه (ذي القعدة سـنة ٢٢٥) وبعث المعتصم في الاحتيال للقبض على ابنه الحسن في خراسان واستطاع ابن طاهر أن يأخذه بعد أن أوهمه بتعيينه لبعض الاعمال[3] .

ويظهر ان المعتصم كان يتخوف أمر الافشين ومقتله . ويخشى أن

---

(١) انظر الطبري ج٩ ص١٠٥ ــ ١٠٦ (١٣٠٦/٣ ــ ٧) وقد تكون هذه الامور من التقولات ، التي شاعت فيما بعد . فان ذكرها لايرد عند محاكمة الافشين ، تمهيدا لقتله . ولعلها لا تعطينا اكثر من صورة من الجو السيء الذي بدات تعرف به الحاشية اذ ذاك .

(٢) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦ وهو يذكر أن ابن أبي دؤاد قال للمعتصم ، إن المنصور استشار أنصح الناس عنده في أمر أبي مسلم فأجابه بالآية الكريمة «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» فقال المنصور لناصحه حسبك ... وعلق المعتصم على الحكاية قائلا : وانت أيضاً حسبك !

(٣) الطبري ج٩ ص ١٠٦ ــ ١٠٧ (١٣٠٧/٣ ــ ١٣٠٨) .

يتسرب الشك إلى نفوس القواد الآخرين • لهـذا فهو يعقـد محكمة لمناظرته ، يرأسها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات • وعضواها أحمد ابن داؤد القاضي واسحق بن ابراهيم صاحب الشرطة : وقصـة جلسة المحاكمة لا يفهم منها سوى انها مجموعـة من التهـم ، تجمعت لدى المعتصم ، ودلته على ان الافشين غير صحيح الاسلام • وانه كان يسعى للقضاء على سلطان العرب والمسلمين • وتتلخص هذه التهم في :

آ ـ ان الافشين جلد ألف جلـدة إمامـا ومؤذنا بنيا مسجدا في اشروسنة •

ب ـ وجد عنده كتاب محلى بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر بالله ووجدت بعض الاصنام المزينة بالجوهر •

جـ ـ انه يأكل المخنوقة • لأنها أرطب لحما ، في رأيه من المذبوحة• ويقطع شاة سوداء كل اربعاء بالسيف ، ويمشي بين نصفيها • ويأكـل لحمهـا •

د ـ لم يختتن •

هـ ـ يكتب إليه أهل أشروسنة «إلى إله الآلهة من عبده فلان» •

و ـ اعترف الافشين لاحد الموابذة قائلا «اني دخلت لهؤلاء القوم (يعني العرب والمسلمين) في كل شيء أكرهه ، حتى أكلت لهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل • غير اني إلى هذه الغاية •••» •

ز ـ كتب أخو الافشين (خاش) إلى أخي المازيار (قوهيار) انـه لم يكن ينصر هذا «الدين الابيض» غيري وغيرك ، وغير بابـك ، فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه • ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبقى حمقه إلا أن دلاه فيه ••• فإن خالفت ، لم يكن للقوم من يرمونك بـه غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة العرب ، والمغاربة ، والاتراك • والعربي بمنزلة الكلب

اطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (المغاربة) إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (الأتراك) فإنما هي ساعة حتى تنفذ سامهم وتجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرين •• ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم[1] •••

وقد رد الافشين هذه التهم عن نفسه بقوة • وهاجم الشهود الذين شهدوا عليه ببعضها :

آ ـ اعترف الافشين بالتهمة الاولى وعللها بأن المؤذن والإمام حولا دار أصنام إلى مسجد خلافا للاتفاق الجاري مع ملوك الصغد •

ب ـ اعترف بالكتاب والاصنام • ولكنه قال إنه مما ورثته عن أبي ، وليس بي حاجة لجواهره فأبيعها • وفي الكتاب آداب الملوك ، التي أصبحت فيما بعد كفراً • وكنت أستمتع بالأدب وأدع الكفر •

جـ ـ ينفي التهمة ويهاجم الموبذ الذي شهد عليه • ويقول : إنه غير مسلم لتصح شهادته على مسلم • ويلتفت إليه ، فيوبخه على قلة وفائه • وينفي أن يكون باستطاعته الاطلاع على أعمال الافشين ، في بيته :

د ـ لا ينفي ذلك ولكنه يعلله بأنه خاف على نفسه الاختتان • وأنه لم يعلم أن في تركه خروجا على الإسلام •

هـ ـ لا ينفي هذه التهمة التي شهد عليه بها المرزبان بن تركش

---

(١) انظر تفاصيل هذه التهم والمحاكمة لدى الطبري ج٩ ص ١٠٧ ـ ١١٠ (٣/١٣٠٨ ـ ١٣١٣) . ولنلاحظ ان هذا الكتاب لا يهاجم الاجناس من عرب ومغاربة وترك (والافشين تركي) ولكنه يهاجم فرق الجيش التي كان يتألف منها الجيش العباسي اذ ذاك .

(احد ملوك الصغد) • ولكنه قال : كانت هذه عادة القوم لأبي ، وجدي ولي ، قبل أن أدخل الاسلام • فكرهت أن أضع نفسي دونهم ، فتفسد طاعتهم •

و ، ز ـ ينفي التهمة (و) ، ويقول في الاخيرة : ان المازيار يعترف ، على أخيه وأخي ، بتهمة لا تلزمني •

ويتضح من مجموع المحاكمة أن إسلام الأفشين كان سطحيا •وأن كره العرب وحكمهم ، كان أساس التفكير السياسي لديه ، ويذكر ابن خلكان أنه «كان يحسد أبا دلف العجلي (ولعله أشد الحسد) على العربية والشجاعة» حتى دبر له مكيدة كاد يقتله فيها لولا إسراع ابن أبي دؤاد في إنقاذه[1] ولعله لهذا فكر في التحالف مع الجماعات الايرانية الثائرة وأصحاب الدين الخرمي منها المتمردين • وهذا هو التفسير الوحيد للكتاب الذي يذكر في المحاكمة أنه أرسل من أخي الأفشين إلى أخي المازيار • ونص الكتاب على الشكل ورد فيه متهافت لا يثبت للنقد • فلم يكن الأفشين بالايراني ليهاجم الاتراك • وما كان ليهاجمهم وهو تركي الأصل منهم •

ثم إنه لم يكن على الدين الابيض والخرمية لينصرها مع أولئك ويفيدها •.ولا كان من الحمق أخيرا بحيث يستهين تلك الاستهانة بجيوش الدولة العباسية وهو يعرفها حق المعرفة •

ولعل قضية الأفشين تستبين على وجها إن نحن نقلناها من المستوى

---

(١) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج١ ص ٨٢ (طبعة عباس) انظر تفاصيل القصة هناك .

الديني الذي وضعت فيه الى المستوى السياسي الذي نبعت في الأصل منه ، فالأفشين أمير تركي ، إمارته المتوارثة موجودة قائمة • ولم يكن في الأصل خرمي الدين بدليل ما وجد لديه من الأصنام المذهبة المحلاة بالجوهر وليس في ديانات إيران من اصنام وتماثيل وأما الكتب المزوقة التي وجدت عنده فذكروا أن فيها الكفر ولم يذكروا أنها من كتب المجوس أو مزدك المعروفة جيدا للناس يومذاك • وبين «الأشـياء الكثيرة من الكتب» التي حملوها من منزله وجدوا كتابا واحـدا فقط من كتب المجوس سماه الطبري باسمه زراوه[1] ••

إذن فللرجل إمارته وأهله ودينه التي لا علاقة لها بالايرانيين ومن هنا فقد كان يعمل لنفسه : كانت قيادته لجيوش المسلمين مغامرة كبرى كسب فيها الكثير • فلما اصطلح عليه غروره من جهة ووشايات الحاسدين من جهة أخرى واحس تغير المعتصم أخذ يجمع أمواله في بلاده ويهيء نفسه للهرب إليها • وكان مشروعه واضحا كل الوضوح في ذهنه ، يعمل على تقوية الثورات الايرانية الخرمية لتكون مع أصحابها سدا وحاجزا سياسيا عسكريا منيعا بين جيـوش العباسيين وبين بلاده ويستقل بتلك البلاد •ولعل الكتب التي ترددت بينه وبين المازيار بشكل غير مبـاشر إنما كان هذا موضوعها : التحالف لتقوم الخرمية في أرض العجم فترتاح اشروسنة وما وراء النهر من السيطرة العربية والتغلغـل الاسلامي فيها وينسحب العرب والاسلام من هناك فيخلو الميدان كي يقيم الأفشين هناك نظامه الخاص • وقد كانت خطته في هذه الناحية من الوضوح بحيث كان فيها مكان للخزر أيضا يمر ببلادهم وهو هارب فيتحالف معهم ويستميلهم

---

(١) الطبري ج٩ ص ١١٤ (١٣١٨/٣) •

على أهل الاسلام لتكون الجبهة مثلثة تمتد مما وراء النهر الى طبرستان والجبال الى الخزر فلا يستطيع آل طاهر في خراسان دفع هذا الطوق الخانق عنهم كما لا يستطيع خلفاء بغداد أمام خطر الخزر والدولة الطبرستانية المتحالفة معهم أن ينجدوا جماعة خراسان • ولعل جانبا من مخطط الافشين قد انهار بانهيار ثورة المازيار فأراد التعويض عنها بثورة منكجور ، شقيق زوجته والتمكين له هناك •

ومن الأرجح أن المعتصم وأصحابه قد أدركوا هذا المخطط الواسع ولعلهم قدروا أنه ليس من مصلحة الدولة إقامة محاكمة للأفشين على أساسه ما دام إمكان الاتهام الديني موجودا وذلك لئلا تتشجع الكثير من الرؤوس الخراسانية أو التركية وهي تملأ الجيش والولايات على التفكير بمثله ولا يقوم به خاصة لا ابناء طاهر في خراسان ولا قواد الجيش الكبار كأشناس وسيما وايتاخ وامثالهم في سامراء •

على أي حال ، فقد رد الافشين إلى سجن بني خصيصا له بعد المحاكمة ، في قصر الجوسق ، مرتفعا شبيها بالمنارذ • جعل له في وسطها ، قدر مجلسه ، والحراس عليه • وقدأماته المعتصم جوعا ، إذ أمر بسنع الطعام عنه إلا القليل ، فكان يدفع اليه ، في كل يوم ، رغيف خبز[1] ، حتى مات (شعبان سنة ٢٢٦ هـ شباط سنة ٨٥١) فهل خشي المعتصم قتله ؟ أم تورع عن ذلك ؟ لنلاحظ أنه أعطى المصير نفسه للعباس بن المأمون وللقواد الذين تآمروا معه ضده • على أن جثة الأفشين أخرجت بعد ذلك فصلبت ليراها الناس و«أحضرت أصنام زعموا كما قال

---

(١) المصدر نفسه .

المسعودي ــ أنها كانت حملت إليه فألقيت عليه وأضرمت النار فأتت على الجميع ..»[1] ثم طرح الرماد في دجله ! .

**ثانياً : ثورات العلويين :**

لم تعرف هذه الفترة (٢١٨ ــ ٢٤٧ هـ) من ثــورات العلويين ، سوى ثورة واحدة ، جرت في أوائلها ، وكانت تحمل صفات الثــورات العلوية الأولى . بينما كانت الدعوة العلوية تأخذ مجاري سرية أخرى سيتمخض عنها ، في العصر العباسي الثاني ، حركات انقلابيــة خطرة : ففي سنة ٢١٩ هـ ثار بعض الزيدية الجارودية[2] وهم « الذين يرون ان الإمامة شورى ، في ولد الحسن والحسين . فمن خرج منهــم شاهراً سيفه ، يدعو إلى سبيل ربه ، وكان عالما عارفا ، فهو الأمام»[3] والامام الذي ثار بهم هذه المرة هو : محمد بن القاسم (ابن علي بن عمر بن علي ابن الحسن بن علي بن أبي طالب) وكان زاهدا يسكن الكوفة ، ويظهر انه كان متأثرا ببعض رأي المعتزلة ، في القول بالعدل والتوحيد[4]. وقد هرب خوف بطش المعتصم ، إلى خراسان .

وتنقل في كورها ، كمرو ، وسرخس ، وابيورد ، والطالقان ، داعيا

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٤ ص ٦٢ وانظر الطبري في الصفحة السابقة .

(٢) الزيدية ينسبون الى قولهم بامامة زيد بن علي وهم فرق عديدة منها الجارودية المنسوبة الى زياد بن المنذر من غلاة الشيعة وكان يعرف بأبي الجارود ويدعى الانتساب الى زيد . وقد توفي سنة ١٠٥ .

(٣) الاشعري : مقالات الاسلاميين ج١ ص ٦٧ .

(٤) انظر الاصبهاني مقاتل الطالبيين ص٥٧٨

إلى الرضا من آل محمد . فتبعه خلق كثير . ولكنه لم يكن أهلا لتنظيم الدعوة ، فلم تكن حركته خطرة . واستطاع عبد الله بن طاهر بعد وقعات عديدة معه أن يهزمه مع أصحابه . وكان هاربا ليلتجيء عند بعض انصاره حين كشف أمره فاستطاع أن يقبض عليه ، في الطالقان ، ويبعث به إلى السجن بسامراء ... وكان ذلك آخر العهد به .. قالوا إنه هرب وجعل لمن يدل عليه مائة ألف درهم فلم يعرف له خبر . وقالوا إنه سم . أما أصحابه فظلوا يؤمنون بحياته ، وعودته المقبلة ، وانتظاره . وقد عرف المسعودي المؤرخ خلقا كثيرا من هؤلاء الزيدية المنتظرين لظهور محمد ابن القاسم في أواسط القرن الرابع الهجري المؤمنين أنه المهدي المنتظر واكثرهم بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان[1] .. ويعلق المسعودي على ذلك قائلا: «وقول هؤلاء في محمد ابن القاسم نحو من قول رافضة الكيسانية في محمد بن الحنفية ونحو من قول الواقفية في موسى بن جعفر وهم المطورة . بهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة ...» ...

وهدأت الحركة الزيدية بعد ابن القاسم فمضى عهد المعتصم والواثق بعد ذلك دون حركة علوية . فلما جاء المتوكل بمعاملته السيئة للعلويين قامت عليه عدة ثورات صغرى قاد معظمها الزيدية فمنهم من سجن ومنهم من قتل[2] وقد ذكر الطبري من هؤلاء الثائرين يحيى بن عمر[3] ..

---

(1) انظر المسعودي ـ مروج الذهب ج٤ ص ٢٥٢ ـ ٥٣ وانظر الطبري ٩ ص ٧ـ٨ (٣/١١٦٥ ـ ٢٦٦

(٢) الاصبهاني ـ مقاتل الطالبيين ص ٦٠٠ وما بعدها .

(٣) الطبري ج٩ ص ١٨٢ (١٤٠٤) على أن الطبري يعود بعد ذلك (ج٩ ص ٢٦٦) فيناقض الخبر عنه بجمع الجموع ويشير الى ان سجن

أما الجماعة الإمامية فظلت على عهدها المسالم أيضا • وقد استراب المتوكل بعلي بن محمد (الإمام الهادي) فجاء من المدينة الى سامراء فأنزله فيها تحت رقابته خوفا منه ومن اولئك الذين يقولون إنه الامام•ويقولون إنه استراب به كرة أخرى في سامراء إذ قيل له إن في منزله سلاحا وكتبا من شيعته فلما فاجأه الجند وجدوه يصلي ولا شيء عنده ! فأكرمه المتوكل رغم بغضه للعلويين وأمره بهدم قبر الحسين وأن يحرث ويبذر ويسقى ويمنع الناس من إتيانه •••

وليس يعني هذا السكوت أن الحركة العلوية انتهت ولكنه كان يعني ما هو أخطر بكثير : أنها أخذت سبيلها في السر سربا • وبدأت تيارات وأفكار ومطامح شتى تدخل إلى فرق الشيعة المختلفة وتلبس اللبوس العلوي وإذا تمخضت هذه الفترة الهادئة عن ثورة زيدية قادها سنة ٢٥٠ الحسن بن زيد العلوي (حفيد الإمام زيد) فقامت على أثرها الدولة العلوية في طبرستان فإن الفرق الشيعية الأخرى قد تمخضت عن حركات أعمق سرا وفلسفة وأطول بكثير عمراً • ففي تلك الفترة ، أيام علي الهادي ظهر محمد بن نصير النميري الذي أسس المذهب النصيري القائل بالغلو وتأليه الائمة فما تزال شيعتة قائمة الى اليوم وفيها أيضا تكونت النواة الأولى للمذهب الفاطمي الباطني (السبعي) والمذهب القرمطي التي لعبت اخطر الأدوار في التاريخ الاسلامي •

**ثالثاً : ثورات الخوارج :**

إذا تركنا جانبا دولتي الخوارج اللتين ظهرتا منذ عهد المنصور

---

يحيى كان لخلاف مع المسؤولين عن الطالبيين ، وقد خرج يحيى هنا بالفعل بعد ذلك سنة ٢٥٠ في الكوفة ثائرا او قتل .

والرشيد في افريقية وفي عمان ، فإنا لا نكاد نجد لهم حركة هامة بعد عهد المأمون ...

فأما مباءتهم الكبيرة التقليدية في الجزيرة فقد سجلت ثورة ضعيفة أخيرة : يقول اليعقوبي «خرج محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة ، وابو سعيد محمد بن يوسف بها . فخرج إليه مع الجند ، ومحمد بن عمرو في ثلاث مائة أو أربع مائة من الخوارج . فصار إلى سنجار . ثم انهزم الى ناحية الموصل ، فتبعه ابو سعيد فأسره . وأدخله نصيبين على بقرة . وحمله إلى الواثق . فكتب إليه : ماينبغي أن يقتل . فإنه لن يخرج خارجي ما دام حيا . فلم يزل محبوسا أيام الواثق[1] .

وأما في سجستان ونواحي هراة فقد كان الخوارج يفقدون بالتدريج سيطرتهم على بقاعها المختلفة ويتحولون الى ما يشبه الجزر السياسية المحاصرة في بعض البلاد أو الحصون وذلك تحت ضغط المطوعة من جهة والولاة العباسيين من جهة ثانية والقوة الثالثة النامية مع أولاد الصفار من جهة ثالثة . وقد قضى على الجزر الخارجية واحدة واحدة . وبقي منها الى حوالي سنة ٢٦٠ نظام خارجي يقوده قائد يدعى عبد الرحمن ظل يتسمى بالإمامة ثلاثين سنة في هراة حتى قتله يعقوب الصفار وأرسل رأسه على سنان رمح الى الخليفة الموفق في سامراء رجاء أن يشفع له هذا العمل بقبول الخليفة فتحه لخراسان وإزالة بني طاهر منها[2] .

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٣ .

(٢) انظر الطبري ٩ص٥٠٧ (١٨٨١/٣ - ١٨٨٢) والعيون والحدائق (ج٤/١) ص ٧١ - ٧٢ .

وإذا لم ينجح الخوارج في إقامة دولة لهم بسجستان فقد نجح آل الصفار في ذلك وحققوا بالفعل استقلالا محليا ذاتيا تتهيأ أسبابـه قبل ذلك بأكثر من نصف قرن في تلك المنطقة لا سيما وقد سبقهم الى ذلك آل طاهر بالاستقلال الذاتي في خراسان ...

**٢ ـ ثورات الاقليم :**

وهي ثورات أقليمية محدودة . دفع إليها الظلم أحيانا ، وشجع عليها ضعف المركز ، أو الحقد على العصبية التركية . وقـد كانت تمهيـدا للحركات الانفصالية القريبة . ويمكن أن تحصر اماكن هذه الثـورات تقريبا فيما بين ارمينية إلى الشام ، إلى الحجاز ونجد ، وامتـد بعضها لشمالي افريقية . وقد كان معظمها في عهد الواثق .

**اولا ـ ثورات ارمينية :**

يظهر أن وعورة تلك المنطقة الجبلية التي تمتد ما بين الموصل إلى أطراف قزوين من جهة ، والبحر الاسود من جهة أخـرى ، كان يسمح بكثير من الاضطراب لأخلاط السكان التي كانت تملؤها : فهناك عناصر فارسية هزمت يوم هزم بابك ، وعناصر كردية وأرمينية ، ضعيفة الولاء للدولة ، وبعضها (كالأرمن) كان قسم منهم يسكن أرض بيزنطة ، كما سكنت المنطقة عناصر عربية من بني ربيعة ، وتغلب ، وشيبان خاصة ، وكان معظمهم خارجيا . وهذا ما يفسر لحد ما تكرار الحركات الثورية هناك وتعقدها .

ونستطيع أن نفهم أحداث المنطقة إذا تذكرنا أنه كان ثمة فيها ، كما

في معظم مناطق التخوم في الدولة العباسية سلطتان قائمتان دوما : سلطة الوالي العباسي وسلطة الأمراء (البطارقة) المحليين • وإذا كان الولاة العباسيون قائمة طويلة تتبدل الاسماء فيها حسب الظروف باستمرار فإن الأمراء المحليين كانوا يشكلون أسرا حاكمة تتوارث الحكم • وإذا كان للوالي الاسلامي عماله الذين يهتمون بجمع الخراج كما يهتم هو بإقرار الأمن وطرق التجارة وحماية المسلمين والحرية الدينية فإن الآخرين كانوا نوعا من السلطات الاقطاعية التي تملك مع الكنيسة الأرمنية التي يرأسها الكاثوليكوس (الجاثليق) معظم الأراضي • وقد دخل مع هؤلاء الاقطاعيين القدماء نزلاء جدد من العرب أقطعت لهم الأراضي بدورهم وأصبحوا في معظمهم اقطاعية زراعية جديدة وإن اشتغل بعضهم بالتجارة وقد استطاع بعض هؤلاء النزلاء العرب أن يتوطنوا في البلاد للدرجة التي تزوجوا منها وبرز منهم كذلك أسر حاكمة «وراثية» في بعض المناطق ، تحت ظل الوالي الاسلامي أحيانا أو على الكره منه أحيانا أخرى •

وأبرز الأسر الأرمنية المحلية كانت أسرة بغرتوني Bagratouni (أو البقارطة) وكان لها فرعان واحد يحكم في منطقة جورجيا وله بعض الاستقلال والآخر في منطقة ارمينية وهو اكثر اتصالا من الناحية الجغرافية (الأرض) والسياسية (الحكم) مع العباسيين وأما الأسرة الأخرى التي كانت تزاحمها أشد المزاحمة حتى مطالع العهد العباسي وهي أسرة المامیقون (أو أسرة ماميكونيان) فإنا سوف نرى أفولها في هذه الفترة الأخيرة من العصر العباسي الأول وغياب آخر ممثل لها عن أرمينية • وليس ثمة عدا هذا سوى أسر صغيرة محدودة الاقطاع والجاه مثل أسرة أرزروني بطارقة منطقة فاسبوراكان (ويسميها العرب البسفرجان) ثم أمراء

سيسكان (ويسميها العرب السيسجان) وأما من الأمراء العرب المحليين فكان هناك خاصة : اسرة شعيب (مولى الأمويين) في منطقة جرزان ٠

وإذا شهدت الفترة الماضية ، في عصر المنصور ، سحق القوى الاقطاعية الأرمنية في معظمها في معركة بغريفاند سنة ٧٧٢ التي تحالفت فيها الاسرتان الكبريان : الماميكوني والبقارطة وقتل كبيراهما فيها فإن الفترة الأخيرة من العصر العباسي الأول سوف تشهد بجانب غياب الماميكونيين صعود نجم البقارطة وتحولهم تحولا متقطع ولكنه مستمر الى أسرة مالكة ، رغم العداء الدائم بينهم وبين العباسيين وربما بسبب هذا العداء نفسه وقد كادت هذه الأسرة تسحق أكثر من مرة سواء بحسد الامراء الآخرين أو تحت السنابك العباسية ولكنها خرجت من أزماتها ، أكثر قوة وعرفت لاسيما بعد عهد أميرها آشوط المعروف بالجزار عهدا من التألق والسمعة جعل الخليفة العباسي يمنح زعيمها أولا لقب امير الأمراء ثم لقب ملك ٠ وقد دعم مركزها السياسي والعسكري وقوف الكنيسة الأرمنية دينيا بجانبها وكان مقر الكنيسة في أملاك هذه الأسرة في بلدة دوين (دبيل) ٠٠

وقصة العلاقات العباسية الارمنية في هذه الفترة هي لحد كبير قصة ظهور مملكة آرمنية على الحدود الاسلامية المتصلة بالخزر من جهة وبالروم من جهة أخرى بزعامة الفرع الارمني من البقارطة ، ولكنها تؤدي الإتاوة السنوية لخلفاء سامراء وبغداد ٠٠٠ ولعله مما يفيد أن نبدأ القصة من الجانب العربي ومن عهد المأمون ٠ فقد كانت ثورة بابك في الجبال واذربيجان فرصة لعدد من العرب كي يثوروا ولأمراء ارمينية كي يوطدوا مراكزهم ٠

ثار فيها أولا على المأمون رافضا بيعته عبد الملك بن الجحاف

السلمي وحاصر واليه حتى حل المشكلة وال جديد أعطى عبد الملك الأمان . ثم تمرد حاتم بن هرثمة وكان واليا للمأمون فلما سمع قتله لأبيه هرثمة بن أعين خلع وكاتب البطارقة ووجوه ارمينية وكاتب بابك والخرمية وهون أمر المسلمين عندهم .. وهزم أكثر من جيش أرسله المأمون ضده ، ثم عصى سوادة بن عبد الحميد الحجافي (من أسرة شعيب) ... وعصى غيره ... وكاد الأمر يستتب مرة لمحمد بن حميد الطوسي لولا أن بابك ظفر به في بعض المضائق فقتله وعادت أرمينية الى الفوضى سنة ٢١٤ ... حتى عين المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وكاد الرجل مرة أخرى يضبط الأمور بالرغم من أن عددا من الثائرين كانوا قد تحالفوا مع الأرمن (الصنارية) لولا أنه خلطهم بنفسه فأفسدهم[١] . وجرأهم ...

وفشل والي المأمون ثم المعتصم من بعده وهو الحسن بن علي الباذغيسي (ويعرف بالمأموني) في إقرار السلام في المنطقة لأنه أهمل البطارقة ووجوه العرب ولان لهم فازدادوا كلبا على من يليهم من الرعية وفسادا .. وجعل المعتصم ولاية أرمينية من حصة الأفشين ولكن الولاة الذين أنابهم عنه فيها (محمد بن سليمان) الازدي السمرقندي ، ثم محمد ابن خالد تجار خذاه ثم علي بن الحسين بن سباع القيسي) فشلوا جميعا في تهدئتها .. فوثب الأرمن ببعضهم واستضعف الناس بعضهم الآخر للدرجة التي سموا بها القيسي : اليتيم . ثم إنهم اتفقوا عليه وتجمعوا من حصونهم فحاصروه في مركز الولاية : برذعة[٢] .

---

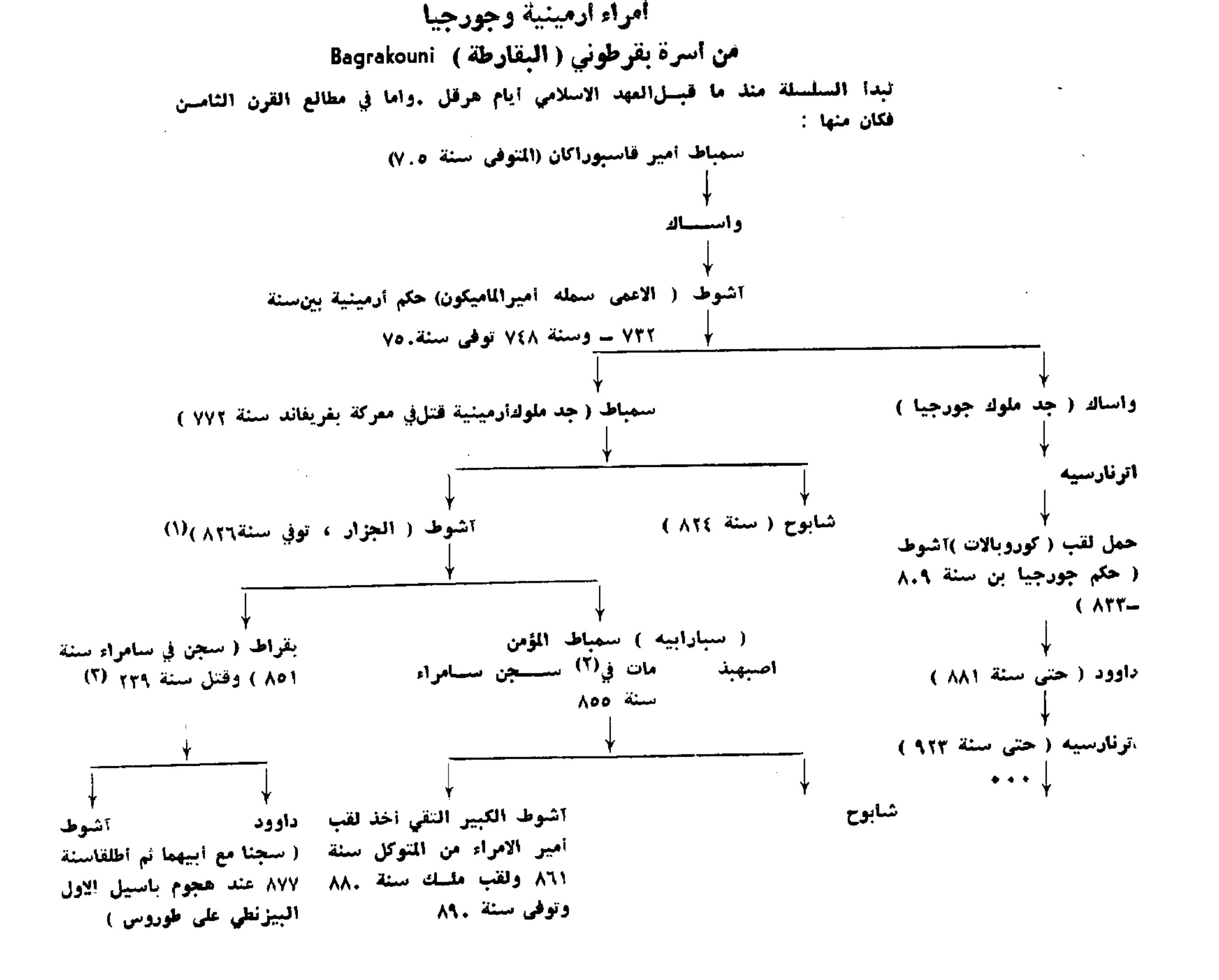
(١) انظر في تفاصيل هذا كله اليعقوبي ج٢ ص ٤٦١ ـ ٤٦٤ والبلاذري فتوح ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

(٢) انظر فارطان ـ تاريخ الحكم العربي في ارمينية (بالفرنسية) ص ١١٨ وقد اعتمدنا عليه وعلى غيره في تنظيم شجرة أسرة البقارطة .

## أمراء أرمينية وجورجيا

### من أسرة بقرطوني ( البقارطة ) Bagrakouni

تبدأ السلسلة منذ ما قبل العهد الاسلامي أيام هرقل .واما في مطالع القرن الثامن فكان منها :



لكن هؤلاء المتغلبين والأمراء لم يكونوا يحاربون السلطة العباسية فقط ولكن كانوا يقتتلون فيما بينهم أيضا : عربا مع عرب أحيانا وعربا ضد أرمن أحيانا أخرى • ومن أبرز الاصطدامات تلك التي وقعت ما بين سوادة الجحافي وبين الأخوين الارمنيين آشوط الجزار وشابوح زمن المأمون حوالي سنة ٨٢٣ــ٨٢٤ وقتل فيها الأخير(١) •

ثم انتفضت أرمينية كرة ثالثة ، زمن الواثق : تحرك بها ــ على قول

---

(١) انظر التفاصيل لدى اليعقوبي ج٢ ص ٤٧٥ ويذكر البلاذري (فتوح ص٢٤٨) أن سهل بن سنباط البطريق وثب بعامل الافشين على أرمينية فنجابحشاشة نفسه وقتل كاتبه . وقد سمعنا قبل ذلك في ثورة بابك باسم سهل بن سنباط هذا وانه هو الذي قبض على بابك في ارمينية سنة ٨٣٧ وسلمه إلى الأفشين وكوفىء على ذلك بتاج البطرقة ومليون درهم . لم يرد في التواريخ الأرمنية اسم هذا والى أي عائلة ينتسب بين البطارقة . واقرب الاسماء الى هذا الاسم هو شابوح فهلهو ياترى الأمير شابوح شقيق سمباط الكبير ؟

← (١) تذكر المصادر الارمنية ان العرب هم الذين لقبوا آشوط بن سمباط هذا باسم مساكر Msaker وقالوا إنها تعني السفاح أو الذباح لكثرة ما قتل من العرب ولم نجد كلمة عربية قريبة منها في اللفظ وتحمل هذا المعنى فاخترنا ترجمتها بكلمة الجزار .

(٢) هذا اللقب الذي حمله سمباط وهو لقب سبارابيه هو في الأصل اللقب الفارسي الطبرستاني اصبهبذ . وتحرفة المصادر الأرمنية على هذا الشكل .

(٣) يبدو انه قتل في سامراء سنة ٢٣٩ فهو صاحب الصنارية الذي ذكر الطبري (ج٩ ص ١٩٦) انه قتل هذه السنة ولعل السبب هو محاولة الضغط على الثورة التي عادت فبرزت ، أرمينية بعد الضربات الساحقة التي وجهها إليها بغا .

اليعقوبي[1] ــ قوم من العرب والبطارقة (الارمن) والمتغلبين «وتغلب ملوك الجبال والباب والابواب ، على ما يليهم .وضعف أمر السلطان ..»
وقد وجه الواثق خالد بن يزيد بن مزيد اليهم فاستطاعت هيبته أن ترد إلى الطاعة معظم المنطقة . إلا أن وفاته عادت بالبلد «إلى أقبح أحواله» فتولى الأمر ابنه محمد . واستطاع ان يضرب ويحبس ، ويحرق الدور في نصيبين ، التي كانت على ما يظهر من أهم مراكز الثورة . وهزم صاحبها اسحق بن اسماعيل الأموي ، ففر إلى تفليس . فلحقه ولحق الأرمن الصنارية بالقتال حتى هدأت البلاد ...

غير أن الاضطراب عاد على أشده ، في عهد المتوكل . وتزعم الارمن بقراط بن آشوط الجزار الذي «كان يقال له بطريق البطارقة» وعزم على الانفصال . فأرسل إليه المتوكل سنة ٢٣٤ يوسف بن محمد المروزي فكاتب البطارقة . فأجابه بعضهم . وخرج إليه بقراط نفسه بالامان . فحمله ، مع ابنه داوود وآشوط ، إلى المتوكل ويظهر أن القائد العباسي خالف بهذا شرط الامان كما أخطأ بعض عماله فنهب ديرا تعظمه الأرمن يعرف بدير الاقداح فكان ذلك سبب ثورة شاملة إذ اجتمع البطارقة مع سمباط شقيق بقراط ، وهاجموا ذلك القائد في الشتاء الثقيل والثلوج وقد فرق اصحابه في القرى فقتلوه واحتووا على ما كان في عسكره[2] . وأما من معه فقد أمروهم أن ينجوا إذا شاؤوا عراة حفاة . فمات اكثرهم من البرد وسقطت أصابع قوم منهم ...

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨١ .
(٢) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٢٤٨ واليعقوبي ج٢ ٤٨٩ وانظر الطبري ج٩ ــ ١٨٧ (٣/١٤٠٨ــ١٠) .

وقد كانت هذه الثورة من أعظم وأخطر الثورات التي عرفتها أرمينية ضد الحكم العباسي بسبب شمولها للمنطقة كلها واتفاق كلمة الأمراء الأرمن كافة عليها ، واجتماع بعض القوى العربية أيضا معهم ، وهذا ما يوحي بأن الثورة لا تحمل الطابع الديني أو العنصري وأن جذورها في الواقع اقتصادية مادية قد مست بضرائبها كافة السكان . ويبدو أن تبذير المتوكل في النفقات جعله يلح في طلب الأموال والخراج من الولاة مما أثار في ارمينية حفيظة الناس ودعا الى تمرد بقراط بن آشوط فلما أرسل إلى سامراء أفلتت سلسلة التذمر والاستياء لدى الجميع .. وقد وافق الأمراء الأرمن على الثورة موسى بن زرارة وهو صهر بقراط . وأنذر سوادة الجحافي يوسف والي المتوكل بما يدبر له فلم يأبه فقتل في الثلوج وقتل أمراء الأرمن كافة من لديهم من أصحابه في يوم واحد ...

وعند هذا الحد اضطر المتوكل أن يعقد لأعظم قواده : بغا الكبير على أرمينية سنة ٢٣٧ ـ ٨٥١ فسار بالجند العباسي الكثيف إليها . فأتاه بالأمان أولا بعض الثائرين .. كموسى بن زرارة (صاحب بدليس) وآشوط بن حمزة[١] (صاحب الباق) فحملا إلى المتوكل ، وقتلا . بينما فتح بغا معقل البطارقة من آل بقرطوني وقتل منهم ثلاثين الفا . وسبى منهم خلقا كبيرا باعهم في أرمينية ثم أسر بالحيلة سمباط[٢] شقيق بقراط

---

(١) هكذا يسمى في المصادر العربيةوأصل الاسم آشوط بن حمزاسب وهو أمير أسرة ارزروني .

(٢) هو المعروف باسم سمباط المعترف أو المؤمن وكان يحمل لقب سبارابيه اي الاصبهبذ وقد مات في سجن سامراء سنة ٨٥٥ وابنه هو الذي ولي الإمارة بعده وعرف باسم آشوط الكبير لأنه أول من حمل لقب الملكية من هذه الأسرة .

فألحقه بالسجناء ••• أما اسحق بن اسماعيل في تفليس ، فرفض المجيء بالأمان ، فحاصره بغا ، ورماه بالمجانيق والحريق ، حتى مات من أصحابه حوالي خمسين وقتله ، وبعث برأسه ، إلى سامراء • كانت مسيرة بغا في ارمينية مجزرة واسعة إذا انتهت قوافل أسراها في أسواق النحاسة فقد سيق امراؤها في القيود حتى سامراء • ولم يستدع المتوكل جيشه من أرمينية بعد ذلك إلا حين اضطره الى ذلك هجوم بيزنطي جاء على الثغور وفتنة واسعة دبرها الروم هناك •ولهذا يظهر المتوكل في التواريخ الأرمينية في صورة نيرون الفترة العربية[1] •

على أن الهاربين من زعماء المنطقة حاولوا تحويل المشكلة الى قضية دولية ، ولعلهم أعطوها شكل الصراع الديني من أجل ذلك فقد كتبوا الى صاحب الروم ، والى صاحب الخزر والى صاحب الصقالبة (روسيا)• ويبدو أن نوعا من العون قد تلقوه بنتيجة هذه المكاتبات وإن كنا لا نعلم بالضبط ماذا كانت مواقف هذه القوى المختلفة منها • على أننا نجد الثائرين قد استعادوا حركتهم رغم ذلك «واجتمعوا في خلق عظيم» لاشك أن بغا الكبير أخذته الخشية منه حتى كتب يطلب النجدة من المتوكل • ولعلهم اضطروه الى بعض التراجع قبل أن تصل النجدة بقيادة محمد بن خالد بن يزيد الشيباني الذي جعل كفة الجند العباسي هي الراجحة فسكن المتحركون ولم يلقهم الشيباني بالقمع ولكن حدد لهم الأمان[2] •

---

(١) يقدمه خاصة توماس ارزروني المؤرخ الارمني من القرن العاشر في أشد الالوان ظلمة وقسوة ويستلهم في تصويره صورة يزجرد الثاني ملك الفرس كما صورها المؤرخ البزنطي إليزه في القرن الخامس . (انظر فارطان – تاريخ الحكم العربي ص ١٢٢ بالفرنسية) .

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٩٠ .

فهدأت المنطقة وبنى فيها بغا مدينة كانت مخربة اسمها شمكور فأسكنها قوما خرجوا إليه من الخزر مستأمنين راغبين في الاسلام ونقل إليهاالتجار من بلدة براعة وسماها المتوكلية[1] ..

ثم انسحب بغا سنة ٢٤١ ــ ٨٥٥ وأضحى محمد بن خالــد هو الوالي فيها فاستطاع قيادتها في هدوء حتى إذا وليها من بعده علي بن يحيى خطا خطوة هامة في طريق التسوية مع البطارقة زعماء الأرمن إذ اتفق مع الخليفة المتوكــل فأطلق بعض الأمــراء الأسرى ومنح الأمير آشوط بن سمباط سنة ٢٤٧ــ٨٦١ لقب أمير الأمــراء في أرمينية ! واستطاع هذا الأمير الذي حمل لدى مؤرخي بلاده لقب الكبير والتقى أن يجتذب رعاياه والأمراء المحليين الآخرين فيخضعوا لــه وأن يحسن علاقته مع الخلافة بمداومة الاتاوة وحسن العمل حتى لبى الخليفة المعتمد طلب هؤلاء الأمراء أنفسهم فمنحه سنة ٢٧٣ ــ ٨٨٥ لقب ملك ونال مثل هذا التكريم من امبراطور الروم وعقد معه حلفا[2] .. وقامت بهــذا الشكل مملكة ارمينيا التي توالى عليها أولاده بعد موته سنة ٢٧٨ ــ ٨٩٠

وقد ساعد هذه المملكة الأرمنية على النمو الواسع وعلى أن تبلغ درجة كبيرة من الثراء والرخاء أنها قامت بدور العازل بين دولتين كبيرتين (العباسية والبيزنطية) وكانت طريق التجارة العالمية القادمة من العــراق وفارس وممرها الوحيد الى الميناء البيزنطي : طرابزون ميناء التبــادل الوحيد مع بيزنطة الذي كان يحتكر وحده وبأمــر القسطنطينية تجارة المشرق مع بيزنطة والغرب .

---

(١) البلاذري ــ فتوح ص ٢٤٠ .
(٢) انظر الموسوعة الاسلامية مادة ارمينية ج١ ص ٦٤٥ ــ ٦٤٦ ــ من الترجمة العربية .

## ثانياً ــ في أذربيجان

يبدو أن كثرة ظهور الثوار في المنطقة الشرقية من الدولــة ما بين سجستان وخراسان الى أرمينية شجعت بعض المغامرين علــى أن يجربوا حظوظهم أيضا • ولذلك نجد أن السلسلة تتصل أحيانا ببعض الحلقات الغريبة التي ما جاء بها الى المجال السياسي سوى المغامرة ومن هذا النوع ثورة من يسمى بمحمد بن البعيث في اذربيجان وإنما نذكرها كنموذج لأمثالها من حركات المغامرة •

والرجل في الأصل أديب شاعر بالفارسية له أخبار واحاديث ــفيما يذكر الطبري ــ لكنه لا يملك من الخلفية السياسية سوى الشجاعة والمغامرة وكان أبوه صعلوكا من صعاليك رجل يدعى الوجناء بن الرواد يملك قلعة حصينة بأذربيجان تدعى شاهي ويتبعها تبريز فأخذها ابن البعيث من صاحبها وامتنع بها فلما قامت ثورة بابك صالحه وصار يستضيف رجاله إن مروا به حتى إذا أنسواله قبض مــرة على زعيــم منهم فأرسله الى المعتصم(١) يرجو عنده الزلفى • وتوسعت دائرة سلطانه فصارت بلدة مرند وحصنها مركزا له •

وقد شهد ابن البعيث انهيار بابك بجواره ثم شهد انهيار ثورة في اذربيجان نفسها سنة ٢٢٤ قام بها منكجور شقيق زوجة الأفشين بدعم خفي من الافشين نفسه وكان في المنطقة من الصعاليك ما يكفي في العدد لدعم منكجور ــ ولكن أصحابه أسلموه للقائد العباسي الذي جاء له• ولهذا لم يكن ابن البعيث ليفكر في التمرد بعد أن رأى الى الرؤوس الكبيرة تطير • ولكنه اصطدم مع عامل اذربيجان : حمدويه بن علي ثم اقتتلا فقبض عليه وحمله الى باب المتوكل سنة ٢٣٤ وقد استطاع ابن البعيث عند الخليفة أن يتهم العامل بسرقة الأموال وأن يتسبب بضربه

(١) انظر الطبري ج٩ ص ١٢ (١١٧٢/٣) •

وأخذه بالأموال وإلقائه في السجن بدلا منه ... لكنه هو نفسه وضع في نوع من الإقامة الجبرية بسامراء . واختفى بعد شهور وإذا به يظهر في بلدة مرند ...» «وجمع إليه من كان بناحيته من الصعاليك وبعضهم من ربيعة وغيرها حتى بقوا نحـوا من الفين ومائتي رجـل .. وأظهر المعصية والخلاف . فأطلق الخليفة حمدويه من السجن لقتاله . ولكنه قتل وهو يحاصره ثم وجه اليه المتوكل جيشا آخر ، فلم يفز ، حتى حاربه بغا الصغير المعروف بالشرابي ،فاستنزل أصحابه أولا بما حمل لهم من الأمان حتى دلوا أنفسهم بالحبال من الحصن ثم استطاع أسره ، وحمله إلى سامراء ... وطافوا به هناك على الجمال . وقد أنقذه من النطع ، عند المتوكل شعره وأدبه ويقال إن المعتز ابن المتوكل شفع فيه ولكنه مات في السجن في السنة نفسها سنة ٢٣٥ بينما أدخل أولاده في فرق الشاكرية وجعلت لهم الانزال ..

**ثالثاً ــ ثورات الشام :**

استمرت الشام مهملة من بني العباس ، متروكة لعصبياتها الذابحة ، ولأملها بالسفياني المنتظر . فكثرت ثوراتها ، لا سيما في حمص ودمشق وقنسرين واشتركت بها على نطاق واسع المجموعات البدوية غير أننا نلاحظ أنه بجانب ثورة بعض المجموعات المسيحية في لبنان التي قد يكون لها اتصال ببيزنطة ، فإن بعض المسيحيين في الداخـل وبحمص خاصة يشاركون السكان الآخرين ثورتهم . ويتابعون العمل معهم ، رغم مايلقيهم من أذى شديد . وهذا يدل على أن بعض الثورات في الشـام ، كانت نتيجة سوء السياسة العباسية ، وظلم الولاة . ويظهر من ارسال المتوكل، صاحب ديوان الخراج سنة ٢٤٠ هـ (أي سنة الثـورات الكبيرة) إلى

---

(٢) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٦ وانظر الطبري ج٩ ص١٦٤ ــ ١٦٦ ثم ص ١٧٠ ــ ١٧١ (٣/١٣٧٩ــ١٣٨٢ ثم ٣/١٣٨٧ــ١٣٨٩ ) .

الشام ، «لتعديل ارض دمشق والاردن ، وتحميل كل أرض ما تستحقه»[1] ، ان سوء توزيع الضريبة والخراج كان يساهم في إضرام النقمة على بني العباس . «وأن البلد كان يحتاج أن يعدل» كما قالوا في عاصمة الخلافة .

على أن كلمة «الأموية» هي العقدة التي يمكن أن تلخص موقف الشام والتي كانت تجتمع فيها وتلتقي من حولها كالنواة كافة المشاكل المالية الخراجية والاقتصادية والسياسية . وقد كانت هذه الأموية ماتزال حية عنيفة الحقد ، بعيدة الأمل في وقت معا رغم مرور قرن واكثر على سقوط الأمويين . وقد ترك لنا ابن العديم صورة معبرة عن موقف الشام في قصة فتى شاعر أموي أو من مولى الأمويين كان يدعى الفرخ . قال : «لما أراد المتوكل الخروج من الشام الى العراق (في العودة) أحب أن يجعل طريقه على البرية لينظر الى آثار بني أمية ومصانعهم (قصورهم الصحراوية) وكان في طريقة دير يعرف بدير حنينا (بين بالس والرصافة قرب حلب) . فلما أزمع على ذلك اتصل خبره ببعض موالي بني أمية فقال : والله لأنغصن عليه نزهته بأبيات أجيزها . ثم تقدمه إلى الدير فجعل لصاحب الدير جعلا على أن يدعه يكتب في صدر الهيكل أبياتا فأذن له فكتب :

أيا منزلا بالدير أصبح ثاويا تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم تقطنك بيض نواعم ولم تتبختر في فنائك حور !
وأبناء أملاك عباشم سادة صغيرهم عند الأنام كبير ..

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٩٤٠ وصاحب الديوان هذا هو احمد بن محمد وكان كتاب الديوان يخافون منه فاحتالوا لإرساله بأن قالوا إنه لا يقوم بالتعديل إلا من ولى ديوان الخراج ..

إذا نزعوا تيجانهم فضراغـــم وإن لبســـوا تيجانهم فبدور
ليالي هشام بالرصافـــة قاطنا وفيك ابنه يا دير وهو أمير
رويدك إن اليوم يعقبـــه غد وإن حروف الدائرات تدور
لعل زمانا جار يوما عليهـــم لهم بالذي تهوى النفوس يحور
فيفرج مرتاد • ويأمن خائف ويطلق من ذل الوثاق أسير ••

فلما قرأ المتوكل بكى بكاء شديدا وقال : والله ماكتب هذا إلا رجل من بني أمية يريد أن ينغص علي ما أنا فيه • فمن أتاني به فله ديته• فطلب فأتى به فإذا هو رجل من بني أمية من أهل دمشق يعرف بالفرخ فأمر المتوكل بقتله •• وبهدم الموضع فهدم الحايط ••[1]» وفي البيتين الأخيرين إشارة الى آمال الأمويين من جهة وما لايزال يرهقهم بالخوف والسجن من العباسيين من جهة أخرى •

ولهذا لم يكن غريبا لا أن تتعدد الثورات ولا أن تجد بسرعة من يلبي نداءها • وأهم الحركات :

ـ **ثورات دمشق وجنوب الشام** : وعناصر الثورة والنقمة كانت تقليدية ما تزال على حالها ، لا العوامل المثيرة فيها تغيرت ولا الناس ملوا الثورة • ولم تترك زيارة المأمون لدمشق مرتين أي أثر في الناس مع أنه أول خليفة عباسي يطرقها وقد حاول قدر طاقته أن يزيل عاملا أساسيا من عوامل تذمرها وهو تفاوت الخراج وظلمه • فما مضت عشر سنوات على خروج المأمون منها (وكان قد توفي) حتى وجدت الشام نفسها أمام ثورتين لا واحدة من ثوراتها التقليدية • سرعان ما ارتبطت إحداهما بالأخرى :

---

(١) ابن العديم ـ بغية الطلب ج٨ (مخطوط احمد الثالث) الورقة ٢٥٥ وجه حتى ٢٥٦ وجه وقد اختصرنا بعض الأبيات والحكاية .

ـ ثورة في دمشق على أميرها الجديد • أبي المغيث موسى بن ابراهيم الرافعي الذي عينه المتوكل عليها سنة ٢٢٦ «فخرجت عليه قيس لكونه صلب منهم خمسة عشر رجلا • وأخذوا خيل الدولة من المرج •• فوجه إليهم أبو المغيث جيشا فهزموه ثم استفحل شرهم وعظم جمعهم وزحفوا على دمشق فحاصروا الأمير فيها»[١] وكان الثائرون على قول ابن عساكر هم من أهل الغوطة والمرج : كفر بطنا وجسرين وسقبا وقرى جرش • وأما الذي تزعم الحركة فالزعيم القيسي : ابن بيهس •

وأما الثورة الأخرى ففي الجنوب : قامت في الأردن والغور حتى الرملة في قلب فلسطين • والمنطقة سهول زراعية وقرى وحراثون والغالب على سكانها ـ بما فيهم دمشق ـ أهل اليمن وبها ـ كما في الغوطة بدمشق ـ قوم من قيس في حوران والجولان مركزهم بصرى ومنهم جماعة فيما بين عمان وأريحا والغور • وبعض المواقع مثل بيسان والرملة وسهول طبرية أخلاط من الناس عرب وعجم ـ على ما يقول اليعقوبي ـ ويقصد بهم السكان الاصليين الذين كانوا يسمون بالنبط • وخراج جند الأردن إذ ذاك يبلغ سوى الضياع مائة ألف دينار بينما يبلغ خراج دمشق ثلاث مائة ألف وخراج فلسطين مثله[٢] •

ويلفت النظر في هذه المنطقة التي كانت ذات يوم مكمن الامام في الدعوة العباسية أن فيها مدينة أخذت في العصر العباسي الأول وما بعده طابعا ثقافيا واضحا هي طبرية • وقد كان الأشعريون يومذاك هم الغالبون

---

(١) الذهبي ـ العبر ج١ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ وانظر ابن الأثير ج ٦ ص ٥٢٨ . وأبو المغيث يذكر باسم الرافقي في بعض المصادر .
(٢) اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧ .

عليها • وقد مر بها المسعودي بعد قرن من هذا الزمان فوجد فيها كتبا نقل عنها وجماعة ناقشها في الإمامة والفقه والعلم •••

في هذه المنطقة إذن ثار قبيل موت المعتصم بسنة سنة ٢٢٦ ـ ٨٤١ ثائر من أخطر ما عرفت الشام من ثوار عرف بأبي حرب تميم اللخمي • والرجل يماني من أهل الغور قيل إنه خلع الطاعــة لسبب شخصي إذ ضرب بعض الجند زوجته في غيابه فغضب وقتل الجندي ثم هرب ثائرا• لكن تصرفه بعد ذلك يوحي بأن الرجل كان يصدر عن عقيدة معينة نذر لها نفســه وأراد أن يكون جنديها المجهول فجعل على وجهه برقعا لئلا يعرف حتى عرف بالمبرقع (هل هو تقليد المقنع ؟) وما من شــك في أن الرجل اتصل بذلك المركز العلمي عنده في طبرية أو أخذ بعض الأفكار فيه قبل أن يثور لأنه كان قد لجأ الى جبل من جبال الاردن • وطلبــه السلطان فلم يعرف له خبر فكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعا فيراه الرائي فيأتيه ، فيذكره ويحرضه « على الأمر بالمعروف والنهي عــن المنكر » ويذكــر الســلطان وما يأتي الــى الناس «فيعيبه» وتوجه بدعوته الى الفلاحين والفقراء •••

ويظهر أن ظلم العباسيين وإهمالهم للمنطقة سمحا لدعوة أبي حرب بالتوسع منذ سنة ٦٢٩ على أنه توسع كان يحمل طابعا «فلاحيا» خاصا إذ «استجاب له قوم من الحراثين وأهل القرى» وكان يزعم أنه أموي فقالوا : «هذا هو السفياني» ! ولما كثر جمعه من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية •

وهنا التقت ثورة أبي حرب بالثورة الأخرى التي كانت قائمة في دمشق فقد استجاب لأبي حرب اثنان من زعماء اليمانيــة من أهلها ثم

استجاب له وتحالف معه كذلك ابن بيهس زعيم القيسية الذي يبدو أنه «كان مطاعا في أهل اليمن» أيضا[1] .

« واتصل الخبر بالمعتصم وهو عليل علته التي مات فيها . وقد مات مابين المحرم وربيع الأول سنة ٢٢٧ ـ تشرين الثاني كانون الأول سنة ٨٤١» وخشى امتداد الثورة أيضا الى الشمال فبعث بالقائد رجاء بن أيوب الحضاري ولديه أوامر محددة للقيام بحملة تأديبية تبدأ بدمشق ثم الأردن لتنتهي في برقة[2] ... فقد كانت لها هناك ثورتها أيضا . ووصل رجاء يدرس الوضع ومعه زهاء ألف من الجند . وكان طبيعيا أن يختار ضرب دمشق أولا ولكنه فيما يظهر تردد طويلا قبل أن يتخذ قراره ولعله كان يخشى تدخل المبرقع ضده .. فقد استخبر عنه «فوجده في عالم من الناس .. كان في زهاء مائة ألف» !

واتفق في هذه الفترة أن مات المعتصم بعد علة دامت شهرين ونصف الشهر بينما كان رجاء الحضاري ينزل بدير مران (على سفح قاسيون)[3] وكان ابن بيهس وأصحابه من اهل الغوطة مسكرين في مرج راهط .

---

(١) يذكر الطبري ان ابن بيهس كان من رؤساء اليمانية وكان مطاعاً فيهم وهو سهو في الإملاء لان الرجل زعيم القيسية وبني كلاب . ( انظر الطبري ج ٩ ص ١١٦ ) .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٠ .

(٣) في المصادر بعض الخطأ وقد حاولنا في السرد الذي قدمنا إصلاحه واعطاءه الترتيب المنطقي : يذكر الطبري ( ١٧٧/٩ ) أن المعتصم ارسل ، وهو عليل علة الموت ، رجاء الحضاري لإخماد الثورة . وانه انتصر على الثورتين وعاد اليه ويذكر اليعقوبي وابن الأثير ان ثورة ابن بيهس القيسية إنما كانت بعد موت المعتصم . وقد حاولنا تنظيم الأمر استنادا الى التوقيت من خلال الوقائع . ولعل خبر الطبري يستقيم إذا جعلنا عودة الحضاري الى الواثق بدل المعتصم .

ودعاهم رجاء الى الطاعة فأبوا الا أن يعزل أبو المغيث فلجأ الى الحيلة : واعدهم يوما معينا للحرب عند دومة (وربما في مرج عذراء شمال شرق دمشق) ثم مضى قبل يوم من ذلك الموعد فباغتهم عند (كفر بطنا) في الغوطة وقد تفرقت جموعهم وسار بعضهم إلى دومة وبعضهم في حوائجه فهزمهم ثم صنع السيف في كفر بطنا وسقبا وجسرين وقتل منها نحو ألف وخمس مائة مقابل ثلاث مائة قتيل من جنده .. ويبدو أن اليمانين اشتركوا في هذه الحرب مع القيسيين فإن الطبري يذكر مقتل الرئيسين الدمشقيين اليمانين منهم . كما يبدو أن ابن بيهس تمكن اولا من الهرب كما ذكر ابن الاثير ثم وقع في الأسر[1] .. (حوالي جمادى الأولى أو الثانية حتى رجب سنة ٢٢٧).

وانصرف رجاء بعد ذلك الى المبرقع في الاردن وكان الرجل في جبال الأردن قد صار في زهاء مائة ألف . فكره رجاء مواقعته وعسكر بحذائه وطاوله» . وامضى الصيف ينتظر[2] . وجاءه رسول من الواثق يستحثه فما كان منه إلا أن حبسه عنده لا يعود ... «حتى كان أول

---

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٠ والطبري ج ٩ ص ١١٨ (١٣٢٢/٣) وابن الأثير ج ٦ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣ ورواية ابن الاثير مأخوذة عن ابن عساكر باختصار شديد وأما الطبري فيذكر أن خسائر الثائرين بدمشق كانت خمسة آلاف .

(٢) عبارة الطبري «أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم» تعني دون شك مطلع الخريف وعند ذلك يكون قمع الثورة في مطلع سنة ٢٢٨ لا في سنة ٢٢٧ أما ان شئنا أن نفهم من النص انه أول انصراف الفلاحين للعمل وهي أيام الحصاد فتكون الواقعة بين مطلع الصيف أي في مايس حزيران سنة ٨٤١ أو في شعبان من سنة ٢٢٧ .

عمارة الناس الأرضين وحراثتهم» (مطالع تشرين الأول سنة ٨٤١ ــ محرم سنة ٢٢٨) «وانصرف من كان من الحراثين مع ابي حرب الى الحراثة وأرباب الارضين الى أرضيهم وبقي أبو حرب في نفر زهاء ألف أو ألفين ...» .

عند ذلك وجد رجاء فرصة القتال الرابح . فناجزه الحرب فلما التقى العسكران قال رجاء : ما أرى في عسكره رجلا له فروسية غيره وسيظهر لأصحابه ما عنده من الرجلة فلا تعجلوا عليه ... وهجم أبو حرب على عسكر رجاء فأفسحوا له حتى خرق الصفوف الى ما وراءها ثم عاد وكرر ذلك مرة أخرى فلما كانت الثالثة اطبقوا عليه فأخذوه عن دابته .. ثم هاجموا أصحابه وقتلوا منهم الكثير .. يقول الطبري «قتل نحو عشرين ألفا» وهي مبالغة جسيمة إن لم تكن تضمن من قتل من قبل ومن بعد في الحملات الانتقامية التي وقعت دون شك على القرى بعد ذلك .

وتقول رواية الطبري إن رجاء قدم على الخليفة بالأسيرين : ابن بيهس المبرقع فألقيا معا في حبس المطبق بسامراء وتقول الرواية إن الخليفة لام قائده على تأخره وحبس رسوله فقال «وجهتني في ألف إلى مائة ألف فكرهت أن أعاجله فأهلك ويهلك من معي فتمهلت حتى خف من معه ووجدت فرصة .. فجئتك بالرجل أسيرا ! ومضى رجاء الحضاري بعد ذلك الى برقة يكمل المهمة التأديبية .. ولكن كوامن الثورة ظلت باقية كالجذور الملونة بأرض الشام لم تمضى عشر سنوات ونيف حتى أثبتت نباتا جديدا .

ففي سنة ٢٤٠ ، عاد أهل دمشق فوثبوا بأمير المتوكل عليها : وهو سالم بن حامد فقتلوه على باب قصر الخضراء مقر الحكم في يوم جمعة والسبب أنه «سيء السيرة . كثير التعدي والظلم والجور والغشم

والعتو والأذية» ـ حسب ألفاظ ابن عساكر ـ • وكان المتوكل قد ولى سالما ، وهو من العرب «فخرج من العراق في أربعة آلاف فارس وراجل من قومه وغيرهم حتى إذا صار بدمشق وملكها أذل قوما بها كان بين (قومه) وبينهم طائلة ودماء (ثارات) في أول أيام بني العباس وآخر أيام بني أمية وكان لبني بيهس ، ولجماعة من قريش دمشق ، وسائر العرب (من اليمن) قوة وعدة ونجدة وكلمة مقبولة «فلم يطيقوا ماأخذهم به من العدوان فقتلوه «وقتلوا من قدروا عليه من أصحابه • وسلطوا الموالي على رحالهم وأموالهم فنهبوها • وبلغ ذلك المتوكل فغضب وقال: من للشام وليكن في صولة الحجاج ؟ فقيل له أفريدون التركي «وهوغلام من الأتراك الذي كانوا في حرس المتوكل ••• شجاع ، سفاك الدماء» فدعا به وعقد له علم دمشق وولاه عليها • فسار إليها في سبعة آلاف فارس وثلاث آلاف راجل • وأطلق له المتوكل القتل بدمشق يوما إلى ارتفاع النهار وإباحة النهب ثلاثة أيام •• ونزل أفريدون في بيت لهيا ، (على مدخل دمشق الشرقي) وهي قرية يمانية •• ولكنه لم يدخل البلد لأن بغلته رفسته صباح دخولها فقتل «وصار حديثا ومثلا» في الشام «وانصرف العسكر راجعا الى العراق»[1] •

ولسنا ندري ما الذي تم بعد ذلك • سوى أن نجد المتوكل نفسه يترحل ثلاث سنوات إلى دمشق برجاله وحاشيته لعلها أن تكون العاصمة وكان هذا الاختيار من المفارقات الغريبة التي لا يمكن أن تستمر • وبالرغم من أن المتوكل نزل قصر المأمون بين داريا ودمشق وبنى قصرا لنفسه إلا إنه ترحل فجأة كما جاء فجأة •• وكأن المشروع كان نزهة عابرة

---

(١) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ( التهذيب ) ج ٦ ص ٤٧ ـ ٤٨ .

فكان ثاني وآخر خليفة عباسي رأته دمشق التي عادت بعده الى ديدنها القديم وسوف تثور كما تثور مثلها الأردن بعد سنوات ..

**ثورات حمص على عمالها :** سنة ٢٤٠ ثم سنة ٢٤١ وسنة ٢٥٠ والسنين التالية حتى حملت اسم الكوفة الصغرى لكثرة بوائقها وخروجها في رفض الظلم ولقي أهل حمص مر العذاب من صلب وهدم وقتل وجلد وتشريد في ذلك حتى لنستطيع أن نعد هذه السنوات في تاريخ حمص سنوات النضال والمأساة السوداء .

«ومدينة حمص ــ في ذلك الوقت ــ من أوسع مدن الشام ... وأهل حمص جميعا ــ يمن من طي وكندة وحمير وكلب وهمدان وغيرهم. وهي «كثيرة الزرع والضرع ولها مياه وأشجار» .. وجميع طرق حمص من اسواقها وسككها مفروشة بالحجارة مبلطة .. وبها بيعة بعضها مسجد الجامع وشطرها للنصارى فيه هيكلهم ومذبحهم وبيعتهم من أعظم بيع الشام ..» «وخراج حمص القانون القائم يبلغ سوى الضياع مائتي ألف وعشرين ألف دينار ..»(١) وقد ترتفع الى ٣٤٠ ألف دينار .

وتاريخ حمص في الثورة على العباسيين طويل . وقد سبق أن عرفت منهم القتل والصلب في عهد المنصور والرشيد والأمين فثوراتها في عهد المتوكل هي تتمة السلسلة التي سوف تستمر حلقاتها أيضا في عهود الخلفاء القادمين بعده .

والحادث الذي أثار حمص كان ممكنا أن يمضي دون أثر لولا

---

(١) النصوص مزيج من ابن حوقل ــ صورة الارض ١٦٢ــ١٦٣ ، ومن اليعقوبي ــ البلدان ص ٣٢٤ وابن خرداذبه ــ المسالك ص ٧٦ .

أن التذمر فيها كان على حوافي الانفجار : فقد قتل عامل المعونة[1] أبو المغيث موسى بن ابراهيم الرافعي بعض رؤساء البلد فوثب أهل حمص به (جمادى الآخرة سنة ٢٤٠ تشرين الثاني سنة ٨٥٤) وقتلوا جماعة من أصحابه ثم أخرجوه وأخرجوا عامل الخراج من مدينتهم . وهذا يعني أن القضية كانت تتعلق بالخلاف والقسوة في الضرائب .

وقد وجه المتوكل إليهم رسالة حملها بعض رجاله تقول : إن أمير المؤمنين قد أبدلكم رجلا مكان رجل فإن سمعوا فول عليهم محمد بن عبدويه كرادس الانباري . وإن أبوا فأقم مكانك لأرسل اليك الخيل لحربهم .. فلما رضي الحمصيون بالوالي الجديد وأطاعوا «فعل فيهم الأعاجيب»[2] على قول الطبري .

وكان هذا سببا في وثوبهم في السنة التالية (في موعد الثورة السابقة) على ابن عبدويه ويظهر أنه شمل بظلمه وقسوته كافة عناصر السكان في البلد مما أقام بين أهلها في هذه المرة حلفا على الثورة فلما تحرك السكان العرب «اعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص فكتب بذلك الى المتوكل» الذي أمره بالمقاومة وأمده بجند من راتبة دمشق مع عاملها ومن جند الرملة ... وكانت عقوبة المدينة قاسية انصبت على رؤساء المدينة وعلى النصارى : جاء الأمر بالقبض على ثلاثة من الرؤساء يضربون بالسياط ضرب التلف ثم يصلبون على أبوابهم ويأخذ عشرين

---

(٢) يطلق اسم عامل المعونة أحياناً على من يوزع الأموال على المقاتلين عند انتدابهم للحرب كما يطلق أحياناً أخرى على من يجمع الضرائب ( المعاون ) التي تفرض لعون السلطان على الحرب . وكان السجن من أعمال هذا العامل الذي قد يشبه في ذلك قائد الشرطة . انظر :
DOZY , Sup. aux Dictionnaires Arabes Val II, P. 192

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٩٧ ( ١٤٢١/٣ ) .

آخرين بعد ضربهم ثلاث مائة سوط ، فيساقون بالحديد الى سامراء .
كما جاء الأمر بتخريب ما في حمص من البيع والكنائس وإدخال البيعة الكبرى في المسجد الجامع وإجلاء النصارى عن المدينة خلال ثلاثة أيام ...

ونفذت الأوامر الخليفية ولكن لم يصل سامراء من الرؤساء سوى سبعة مع رأس رجل ثامن مات في الطريق . فضربوا حتى الموت ثم صلبوا بينما كان على باب حمص مصلوبون آخرون منهم أحد رؤوس الثورة : عبد الملك بن اسحق بن عمارة الذي صلبت جثته على حصن تل العباس ![1] ..

اما ابن عبدويه والجند والوالي الجديد فقد أخذوا على هذه الأفاعيل منح المتوكل بعشرات ألوف الدراهم كما منحوا الخلع ..

على أن هذه التدابير الساحقة لم تمنع ولعلها بالعكس زادت في النقمة فما مضت سبع سنوات عليها حتى تحركت المدينة تناضل من جديد . كان عليها عامل اسمه كيدر بن عبيد الله فأخرجه أهلها سنة ٢٤٨ فوجه إليهم الخليفة المستعين وهو في أول أيام خلافته أحد امراء منطقة طبرستان : الفضل بن قارن شقيق المازيار وجاء بالجيش فمكر بأهل حمص حتى أخذ البلد والناس ثم قتل منهم الخلق الكثير وحمل مائة من أعيانهم الى سامراء[2] ... ليلاقوا دون شك مصير أصحابهم الذين سبقوا قبل سنوات ... بينما كان سور المدينة يهدم وحجارة طرقاتها تقلع ...

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ( ٣/١٤٢٢ ـ ١٤٢٤ ) .
(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١١٩ ( حوادث سنة ٢٤٨ ) والطبري ج ٩ ص ٢٥٩ ( ٣/١٥٠٨ ) .

واتنقمت حمص بسرعة من الأمير الطبري استنجدت بأحياء كلب وأقامت حلفا مع زعيمها عطيف بن نعمة ووثبوا بابن فارن «فتحصن منهم بقصر خالد بن يزيد بن معاوية وقد كان جده فحاصروه . وغاله من كان معه وأسلمه فأخذوه وذبحوه وصلبوه على باب الرستن» «ونهبوا ماله ونساءه» وأعادوا رصف الطرق ... ولكنهم «خافوا عامل دمشق فزحفوا إليه وهو نوشري بن طاجيل التركي . فوجه إليهم بعسكر من البابكية وغيرهم فهزموهم وانصرفوا الى حمص» ظافرين ..

غير أن المستعين أرسل عليهم بالقائد «موسى بن بغا الكبير في ستة آلاف من الموالي» ولم يكن بالمدينة سور يحميها فخرج أهل حمص والبدو معهم لمنازلته قبل وصوله في السهل الممتد بينها وبين الرستن «وفيهم خلق من نصارى المدينة ويهودها» متضامنين معهم وتزعم الحملة «رجل يقال له دابر العفار في خلق عظيم من كلب .. ولكنهم هزموا في المعركة .. فلحقهم موسى وكانت المدينة بعد ذلك هي الضحية الكبرى .. دخلها «عنوة وأباحها ثلاثة أيام فأنتهبت وطرحت النار في منازلها وانتهبت أموال التجار » وقتل من الناس مقتلة عظيمة وأسر جماعة من رؤساء أهلها بينما لحق عطيف بن نعمه بالبدو والبادية ...

هل ماتت الثورة بهذه الضربة الساحقة ؟ ماتت في الواقع الى حين لأننا سوف نشهد حمص بعد سنوات قليلة سنة ٢٦٦ تقتل من جديد عاملها موسى الكرخي ، قبل ان ينقطع ارتباطها بالعراق ويتصل بمصر وتصبح جزءاً من دولة ابن طولون . أما بادية حمص فلم تهدأ واتصلت

---

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٦ .

(٤) انظر الطبري ج ٩ ص ٢٧٦ ( ٣/١٥٣٣ – ٤ ) والبلاذري – فتوح ص ١٥٩ ، واليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٦ – ٤٩٧ .

ثورتها بمنطقة أخرى في شمال الشام تحركت إثر همود الثورة بحمص وما كانت من قبل من التمرد من قليل أو كثير هي:

**المعرة**: ولم تكن في ذلك الوقت اكثر من « مدينة قديمة خراب ، ـ على قول اليعقوبي ـ » وسوف تكون بعد فترة قريبة « مدينة كثيرة الخير والسعة من التين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم والأزربة[1] ..» وأهلها من تنوخ نزلوها قبل الاسلام كما يقول البلاذري وقد اضطربت هذه القبائل بسبب نجهله حوالي الوقت الذي ثارت حمص سنة ٢٥٠ « ووثب بالمعرة ... يوسف بن ابراهيم التنوخي المعروف بالقصيص . فجمع جموعاً من تنوخ وصار الى مدينة قنسرين فتحصن بها فلم يزل بها حتى قدم محمد المولد ، مولى الخليفة المستعين ويكشف نص تاريخي نقله ابن العديم المؤرخ الحلبي ان لهذه الثورة علاقة برفض المنطقة الشمالية من الشام تحت تأثير من فيها من العباسيين وهم بنو صالح بن عبد الله ، بيعة المعتز وميلهم الى الخليفة المستعين وكان الاثنان في فتنة هي نسخة مصغرة عن فتنة الامين والمأمون كما يكشف أنه كان ثمة ثائررئيسي هو محمد بن خالد أطلقت عليه سامراء قائدين من قوادها فانتهبوا أمواله وضياعه ، وأحدهما هو محمد ( أو أحمد المولد ) الذي مضى بعد حلب الى قنسرين ثم الى حمص وقتل في طريقه خلقاً كثيراً ...

وانهزم مأام المولد زعما ءحمص وبدوها وهما المؤمل وعطيف الكلبي ثم استسلما بالامان وبايعا المعتز لكن استطاع المولد بعد إقامة أيام بحمص أن يقبض على عطيف فيضرب عنقه صبراً ويوجه رأسه الى

---

(١) انظر اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٢٤ ثم ابن حوقل ـ صورة الارض ص ١٦٤ .

سامراء ••• ثم يعود الى الشمال فيحارب المدن مدينة مدينه ويأخذ منها البيعة للمعتز وكانت حلب ومنبج وانطاكيــة آخر المــدن استسلاما للبيعة[1] •• أما القصيص الثائر بالمعرة فقد استطاع الهرب وصار الى الجبل الأسود فلما اجتمعت قبائل كلب على المولدوهزمته وقتلت خلقا عظيما من أصحابه وانصرف بهزيمته الى حلب عاد القصيص الى قنسرين ••

وجاءت أوامر الخليفة بعزل المولد وتعيين ابي الساج الاشروسني ولم يكن بإمكانه أن يحكم منطقة تنوخ وهي على العداء له ولنظامــه فكتب الى القصيص يعطيه الأمان ثم صير إليــه الطريــق والبذرقة (أي حراسة قوافل المسافرين والتجار وأمن الطريق) ثم ولاه اللاذقيــة ونحوها[2] •• وصار الرجل من سيوف السلطان !

ـ ولم تكن مناطق الشام الأخرى ، في هذه الفترة أقل نقمة وثورة وإن تكن الاسباب الخلفية لثوراتها مختلفة بعض الاختلاف •

فقد تحرك **المردة** هناك في جبل لبنان تحركا يذكــر باضطراباتهم السابقة قبل حوالي القرن ولعلها كانت للأسباب نفسها ، أو لعلها كانت بتحريض من الروم الذين كانوا في تلــك الفترة بالذات يلحــون على السواحل الشامية بالضرب ، وقد ضربوا قبل سنوات انطاكيــة مرات عديدة حتى بني المعتصم حصنا لمينائها وسوف يضربون بعد سنوات ايضا دمياط ضربة فاجعة • فليس غريبا إذن تكون للروم يد في حركة الجبل

---

(1) انظر النص لدى ابن العديم ــ بغية الطلب ( مخطوطات احمــد الثالث ) ج ٢ الورقة ١٦٤ ظهر الورقة ١٦٥ وجه وهو يسمى القائد باسم احمد وليس محمد وينقل عن تاريخ ضائع للمؤرخ ابي جعفر ابن الازهر أن احمد المولد جاء الى ••••••

(2) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٧ وانظر للاضافة ــ ابن العديم **بغية** الطلب ج ١ ص ٧٣ •

إن لم تكن اليد الأولى هي يد الخراج الظالم والجزية ، والولاة الأظلم.
وهكذا نجد سنة ٢٣١ وحولها عددا من الحروب تقوم مـا بين الأمير هانيء ، ولعله عامل بعلبك ، وبين المردة ينتصر فيها عليهم ويمنحه الناس لقب الغضنفر ابي الاهوال[١] . وقد بلغ خبره الى خاقان التركي خادم الرشيد وكان في الأصل من ناشئة الثغر كما كان قد انسحب من الحياة العامة ، مع خدمه ومواليه ، إلى ثغر طرسوس للجهاد منذ زمن وحضر هذه السنة نفسها إلى الواثق في نفر من وجوه أهل طرسوس لشكوى صاحب المظالم عندهم .. ويبدو أن خاقان كان معجبا بفعال هانيء فكتب كتابا يشكره على جهاده ويخبره أنـه أبلغ حسن عملـه الـى مسامع الخليفة ...

ونكاد نرى أن سيرة الشام في هـذه الفترة الثالثـة من العصر العباسي الأول كانت نسخة من سيرتها في السابق الماضي من أيام ونكاد نقول إنها نسخة مكرورة لولا حرمة الثـورة والاحتـرام الذي ينبغي لحقوق وعواطف المظلومين والمضطهدين ..

**رابعاً ـ ثورات الاعراب في البادية العربية (في الحجاز واليمامة) :**

وهذه بادرة جديدة في الدولة تدل على ضعف هيبة الحكم في النفوس دلالتها على إهماله الناس . كما انها تسجل بدء ذلك الدور الهام الذي لعبه البدو في شؤون الدولة العباسية وافريقية الشمالية منذ هذه الفترة حتى سقوط العباسيين . ولعل السبب العميق وراء هذه الظاهرة من التحرك البدوي هو التكاثر الديموغرافي وزيادة عدد أبناء البادية مما ... كان لا بد معه من تحرك مجموعاتهم الـى الفتن الناهبة أو

---

(١) محمد كرد علي ـ خطط لشام ج ١ ص ١٩٣ .

الهجرة . والواقع أن الجزيرة العربية بعد هجرة المجموعات العربية التي رافقت الفتح العربي وما بعده حتى نهاية القرن الأول الهجري سوف تشهد منذ أوائل القرن الثالث تحرك مجموعات بدوية جديدة سوف تتجه اتجاهات شتى أول الأمر نحو العراق والجزيرة ثم تتجه كتلتها الكبرى نحو الغرب فيما يعرفه التاريخ باسم : تغريبة بني هلال . منذ هذه الفترة حتى سقوطها : فقبل خلافة الواثق بفترة طويلة كانت بطون قيس وبنو سليم خاصة ، يفرضون نفوذهم على ما حول المدينة ، ويأخذون من الأسواق ما يريدون بالسعر الذي أحبوا . ثم اعتدوا على بني كنانة وباهلة . ومزقوا حملة بعثها عليهم عامل المدينة . وشعروا بقوتهم ، قطعوا طريق الحج بين الحرمين . وبايعوا بالخلافة رجلا منهم يدعى عزيزة بن قطاب الخفافي .. فارسل الواثق سنة ٢٣٠ بغا الكبير إليهم في الشاكرية[1] والاتراك والمغاربة . فهزمهم وصلبهم على الشجر . ثم دعاهم للأمان فأجابوه . وأبقى لديه منهم زهاء الف من الرهائن في الاغلال ، عرفوا بالشر والفساد فسجنهم ، وكان بنو هلال قد أعانوا بني سليم ، فدعاهم بغا الى الهدوء فاجابوه ، وأخذ منهم زهاء (٣٠٠) رجلا سجنهم في المدينة مع السجناء الاخرين في دار معروفة ليزيد بن معاوية . ولما نقبوا

---

(١) الشاكري الاجير والمستخدم والحارس معرب جاكر الفارسية ولعله أطلق على فرق الحرس الخاصة في العصر العباسي وثمة خبر يورده ابن العديم عن برمك جد البرامكة انه قدم دمشق على هشام بن عبد الملك في ٤٠٠ من الشاكرية وقد يدل الخبر على أن هذا النوع من الحرس الخاص وجد منذ العصر الاموي ولكن بشكل غير رسمي وإنما صار فرقة من الجيش الرسمي وأخذ تسميته في العصر العباسي . ويبدو أن هذا الحرس كان يركب البراذين وقد أعطى اسمه الى أحسن أنواعها فصارت تدعى بالشاكرية أيضاً .

وحاولوا الهرب ، فتك بهم أهل المدينة[1] وقتلوهم أجمعين ومن بينهم عزيزة نفسه • ومن الطريف أن عبيد المدينة وسودانها اشتركوا سواء في المعارك الأولى مع بني سليم أو في هذه الفتكة الأخيرة بجانب أسيادهم •

وفي سنة ٢٣١ تغلبت فزارة وبنو مروة على فدك • فبعث إليهم بغا بحملة • فزعوا منها الى الشام • ثم جاءته جموع من بطون غطفان وفزارة واشجع وثعلبة ، فاستحلفهم الا يتخلفوا عنه متى دعاهم • ثم اخمد حركة بني كلاب وحبس منهم في المدينة نحوا من الف وثلاثمائة رجل •• فلما دعا الذين استحلفهم لم يجد منهم احدا لأنهم تفرقوا مهاجرين ••• ولم يلحق منهم بأحد !

وفي تلك السنة نفسها ، شكا الشاعر عمارة • حفيد جرير الخطفي، للخليفة الواثق من بني نمير وفسادهم في البادية ، واغارتهم على اليمامة، وما جاورها • فسير الواثق اليهم بغا نفسه من المدينة فانتصر عليهم سنة ٢٣٢ بعد معارك عنيفة هزم في بعضها وكاد يقضي فيها • ولما قدم بعضهم بالامان ، قيدهم وضربهم بالسياط بين ٤٠٠ و ٥٠٠ جلدة • وأقام حين وصلته النجدات بتتبعهم في البوادي حتى جاءه بعض ساداتهم يطلبون الأمان فبسطهم وآنسهم ولكنه أبقى منهم حوالي (٨٠٠) رجل ، ساقهم من مساجين المدينة ، مثقلين بالحديد الى سامراء[2] •

**خامساً ـ ثورات برقة :**

كانت حدود الدولة العباسية قد تقلصت منذ عهد الرشيد في

---

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى الطبري ج ٩ ص ١٢٩ ـ ١٣٥ ( ١٣٣٦ ـ ١٣٤٣ ) ولدى اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٠ •

(٢) انظر تفاصيل الحملة لدى الطبري ج ٩ ص ١٤٦ ـ ١٥٠ ( ١٣٥٨/٣ ـ ١٣٦٣ ) •

افريقية فلم يعد نفوذ بغداد وحكمها المركزي يجاوز منطقة برقة بالرغم من بقاء اسم الخليفة يصدح على منابر افريقية • كان الأغالبة قد أقاموا ، برضى الرشيد وبمنشور منه الدولة الحاجزة بين الأراضي العباسية وأرض الخوارج والأدارسة والأمويين في المغرب والاندلس •

وكانت برقة فيما يبدو «عملا» (أو ولاية) صغيرة مستقلة[1] عن ولاية مصر في الشرق استقلالها عن طرابلس التي كانت تتبع أصحاب القيروان في الغرب غير أن مركزها الجغرافي جعلها همزة الوصل ما بين المشرق ، بعد مصر ، وبين المغرب فهي ممر التجارات الاسلامية كما أنها معبر الجيوش ، وهي طريق الحجاج كما هي طريق العلماء والتيارات الثقافية الاسلامية ولهذا كان «فيها ــ على قول ابن حوقل ــ من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع طلابا لما فيها من التجارة وعابرين عليها مشرقين ومغربين وذلك أنها تنفرد بالتجارة بالقطران (الذي لا مثيل له) والجلود •• والتمور • ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب •• وأسعارها في اكثر الأوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية ••» • كما أن «وجوه أموالها جمة»[2] •

واما سكانها فكانوا من بعض قبائل البربر لأنها «أول منازل البربر» ومعهم اقوام من العرب من الأزد ولخم وجذام (اليمن) ومن غسان وتجيب

---

(١) كان يزيد بن حاتم والي مصر سنة ١٤٨ أيام المنصور أول من ضم برقة الى عمل مصر في تلك السنة ( انظر الكندي ــ الولاة والقضاة ص ١١٦ ) ولكنها عادت فانفصلت بعد ذلك وربما كان انفصالها أيام فتنة الأمين والمأمون •

(٢) ابن حوقل ــ صورة الارض ص ٦٩ •

موزعين جميعا على جبليها الشرقي والغربي ـ على حد قول اليعقوبي ـ وفي أقاليمها • كما كان فيها حول المدن أرباض يسكنها أخلاط من الناس وأكثرهم جند قدم قد صار لهم الأولاد والاعقاب وفيها في بعض المرافىء قوم من أبناء الروم القدم أيضا[1] ويعرف أهل برقة في فسطاط مصر من بين أهل المغرب ، بحمرة ثيابهم •• فأرضها حمراء خلوقية التربة ثياب أهلها أبدا محمرة »[2] •

«ومدينة برقة في مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة» « وهي مدينة وسط ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية» ••• ولم يكن عليها فيما يظهر سور حتى نهاية العصر العباسي الأول إذ أمر المتوكل ببناء السور وله أبواب حديد وخندق • وأبرز آلاء الخلفاء والأمراء الذين تولوا عليها أنهم بنوا البرك العظام على طريق الأودية ليشرب أهل المدينة من مياه الأمطار المتجمعة فيها[3] والمدينة «برية بحرية جبلية» • وفي المنطقة عدة بلدان أخرى برنيق وهي على الساحل «ولها ميناء عجيب في الاتقان والجودة تحوز فيه المراكب» ومدينة أجداية «على صحصاح من حجر • بناؤها بالطين والأجر وبعضها بالحجارة •• ويطيف بها من أحياء البربر خلق كثير • ولها زرع بالبخس •• وواليها القائم بما عليها من وجوه الأموال وصدقات بربرها وخراج زروعهم وتعشير خضرهم وبساتينهم هو أميرها وصاحب صلاتها وله من وراء ما يقبضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان ••• وهي

---

(١) اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٣٤ وقد آثرنا نقل وصفها عن الجغرافيين القدامى لأنه وصف شهود .

(٢) ابن حوقل ص ٦٩ .

(٣) انظر اليعقوبي وابن حوقل معاً في المصدرين المذكورين .

أيضا قريبة من البحر المغربي وشقة الصوف ..» وهناك أوجلـة ، في الصحراء ولها «غلات من التمر جسيمة» وهناك سرت «ولها سور صالح كالمنيع .. ومزارع .. ولها من وجوه الأموال والغلات والصدقات في سائمة الابل والغنم ما يزيد على حال أجدابية ...» وهي المركز الجمركي العباسي الأكبر وإليها جميع مجاري الأمـر .. «فيما ورد وصـدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه واعتبار السجلات والمناشير بمواجب ما على الأمتعة وتصفحها خوف الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بأفريقية ودخلها أوفر من دخل اجدابية لما ذكرت ...»[1] .

أما خراج برقة للدولة فهو «قانون قائم كان الرشيد وجه بمولى له يقال له بشار فوزع خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار على كل ضيعة شيء معلوم سوى الأعشار والصدقـات والجوالي ومبلغها .. خمسة عشر ألف دينار ربما زاد وربما نقص . والأعشار للمواضع التي لا زيتون بها ولا شجر ولا قرى مقراة ...»[2] وقد ذكر الجهشياري في قائمة عن موارد الدولة أيام الرشيد أن خراج برقة مليون درهم وهو رقم يقارب رقم اليعقوبي وإن كان بينهما بعض الفرق باعتبـار أن ثمن الدينار هو في ذلك الوقت ٢٢ درهما . ولعل رقم اليعقوبي هو الأصح

---

(١) هذه النصوص من ابن حوقل ــ صورة الارض ص ٧٠ ــ ٧١ ومن الهام أن نلاحظ ما ورد فيها متعلقاً بموارد الحكومـة : الصدقـات ( الزكاة ) . خراج الزرع . عشر الخضار . لوازم ( ضرائب ) على القوافل . وبرد في النص كذلك وجود «سجلات» و «مناشير» أي بيانات جمركية رسمية تنتقل مع البضاعة وتسجل وتجري مراقبتها . . .

(٢) اليعقوبي ــ البلدان ص٣٤٤ ــ ٣٤٥ ولنذكر للمقارنة أن خراج مصر كان قرابة مليوني دينار .

لأن التعامل في غرب الدولة الاسلامية كان بالدينار ولعل رقم الجهشياري كان تقريبيا فقد أشار اليعقوبي الى أن الرقم ربما زاد وربما نقص •

أما من الناحية السياسية فقد قضت برقة ، بعد الفتح الاسلامي ، دهرا طويلا من الهدوء السياسي استمر حتى مطالع القرن الثالث الهجري وعهد المأمون على الأقل • يقــول البلاذري «كان اهل برقــة يبعثون بخراجهم الى والي مصر من غير أن يأتيهــم حاث أو مستحث • فكانوا أخصب قوم بالمغرب • ولم يدخلها فتنة» ثم روي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال «لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها ••»[1] •

غير أن هذا المنزل «المسالم» «المعزول» الهادىء ما لبث ، في أعقاب فتنة الأمين والمأمون ، وما قام في دلتا مصر ما بين أواخر القــرن الثاني ومطالع القرن الثالث من الفتن و الحركات ، أن أصابته العدوى بدوره • وقامت فيه الفتنة والعصيان على المأمون حوالي سنة ٢١٤ • ولسنا ندري السبب في ذلك هل كان سياسيا يتعلق بحركة عربيــة ، أو خارجية أو استقلالية أم كان اقتصاديا ماليا يتعلق بالخراج وأمواله ــ وهو الأرجح ــ • وكل ما نعلمه أن «أهل برقة» «خالفوا» وتزعم الثورة مسلم بن نصر بن الأعور فأمر المأمون أخاه أبا اسحق (المعتصم) وكانت البلاد في ولايته أن يرسل عليهم قائده الأفشين ووصل الرجل بجيشه عبر الدلتا المصرية التي لم تكن قد هدأت بعد ففتح البلد ــ على حد قول اليعقوبي ــ وأسر صاحب الثورة وانصرف عائدا الى مصر سنة ٢١٦[2] •• بعد

---

(١) البلاذري ــ فتوح ص ٢٦٤ •
(٢) اليعقوبي ــ التاريخ ج ٢ ص ٤٦٥ •

أن ولي على البلد والي مصر السابق نفسه ، عبدويه بن جبلة وكان قد اصطحبه معه إليها[1] .

ولكن البلد لم يعد ، من بعد، الى هدوئه التقليدي فقد عادت إليه الثورة مرة أخرى بعد عشر سنوات ونيف يوم اتفقت كلمة بعض البربر ، في برقة ، مع قوم من قريش، من بني أسيد بن أبي العيص[2] فوثبوا بعاملهم محمد بن عبدويه بن جبلة ... وإذا كانت هذه الثورة بنت الثورة الأولى أو تتمة لها أو تتصل بها ببعض السبب فلقد يدل اتفاق كلمة البربر والعرب والوثوب بالعامل – وهو على الخراج – على أن الأسباب متصلة بهذا الخراج .

وقد عهد الواثق الى قائده رجاء بن أيوب الحضاري ، يوم أرسله في حملة تأديبية الى الشام وفلسطين ، أن ينهي حملته هذه في ليبيا فصار بعد ان انتهى من الشام الى مصر ونزل الجيزة سنة ٢٢٨ ولكنه ما كاد يتوجه الى برقة حتى هرب من كان فيها من الثائرين . وظفر بجماعة منهم فعاد بهم الى سجون المتوكل ...

لكن برقة فيما بين هذا وذاك فقدت استقلالها الاداري فما كادت دولة ابن طولون تظهر في مصر منذ سنة ٢٥٤ حتى كانت برقة بعض امتداداتها .

(١) انظر الكندي – الولاة والقضاة ص ١٩٠ .
(٢) اليعقوبي – ج ٢ ص ٤٨٠ .

# الفصل العاشر

# العلاقات الخارجية

ظلت العلاقات الخارجية في أواخر العصر العباسي الأول على عهدها السابق وعلى إطارها الذي كانت عليه في عصر الرشيد . غير أن تطور الأحوال الداخلية نحو القلق وضعف المركز جعل معظم مناطق الحدود أميل الى الهدوء كما جعل الحروب عليها دفاعية في الغالب وأقام في النهاية عليها أو مهد لأن يقوم عليها مجموعة من الدول الحاجزة ذات الاستقلال الذاتي تشكل مناطق انتقال بين أراضي النفوذ العباسي الخاصة وبين ما وراءها من «دار الحرب» ...

ولما كانت العلاقات والأحداث الأساسية إنما جرت في هذه الفترة مع الروم فقد نستطيع لذلك أن نقسم الموضوع قسمين نرى فيهما أولا العلاقات مع كافة الأمم على مختلف الحدود وما طرأ عليها من تطورات ثم نقف بصورة خاصة عند العلاقات مع الروم .

**١ ــ العلاقات مع الأمم المختلفة :**

وتتضمن النظر في قطاع الهند والشرق الصيني والمحيط الهندي ، ثم في ممالك الترك والخزر ثم جبهة البجة والنوبة في جنوب مصر ثم صراع القوى البحرية في البحر المتوسط وأخيرا العلاقة مع دول الحوض الغربي لهذا البحر .

### أ ـ قطاع الهند والمحيط الهندي والشرق الصيني :

قصة الحدود مع الهند في هذه الفترة هي قصة تحول ولاية السند الاسلامية إلى إمارات وراثية مستقلة لبعض المتنفذين في ذلك الثغر . صحيح أنها كانت قد تحولت منذ عهد الرشيد الى نـوع من الولاية الوراثية . وبعد أن توارثها أثنان من بيت المهلب ورثها أثنان من الأسرة البرمكية وقد تولى أولهما موسى بن يحيى في عهد المعتصم سنة ٢٢١ فاستخلف ابنه عمران على الثغر وكتب إليه المعتصم بالولاية ... لكن ضعف السلطة المركزية أنهى السيرة الأولى التي سارها ولاة العباسيين جميعا خلال القرن العباسي الأول لتبدأ بدلا منها سيرة جديدة يظهر فيها، في السند ، نوع من «الراجات» والمهراجات العرب المسلمين الذين يقيمون ولاياتهم على الأسس التي تقوم عليها الامارات الهندية الاخرى المتنوعة والكثيرة من حولهم .

آخر الأمراء على الطريقة القوية التي بدأت في الغياب هو عمران بن موسى البرمكي فقد «أ ـ خرج الى القيقان ـ وهـم زط ـ فقاتلهم وغلبهم وبنى مدينة سماها البيضاء وأسكنها الجند» .

ب ـ «ثم أتى المنصورة وصار منها الى قندابيل وهي مدينة على جبل وفيها متغلب يقال له محمد بن الخليل فقاتله وفتحها وحمل رؤساءها الى مقعدار» .

حـ ـ «ثم غزا الميد (وهم شعب آخر من منبوذي الهند) وقتل منهم ثلاثة آلاف وسكر سكرا يعرف بسكر الميد ..» .

ء ـ «وعسكر عمران على نهر الرور ثم نادى بالزط الذين بحضرته فأتوه فختم أيديهم وأخذ الجزية منهم وأمرهم بأن يكون مع كل رجل منهم إذا اعترض عليه كلب فبلغ الكلب خمسين درهما ..» .

هـ ـ «ثم غزا الميد ومعه وجوه الزط • فحفر من البحر نهرا أجراه في بطيحتهم حتى ملح ماؤها وشن الغارات عليهم •••»[1] •

ولا شك أن هذه الأعمال إنما كانت أعمالا تأديبيـــة تقصـــد الى عقوبتهم على أعمال القرصنة البحرية ضد التجار العرب • في خليج البصرة والمحيط الهندي •

على أن العصبيات القبلية التي ثارت بين النزارية واليمانية ذهبت بعمران ضحية لها • إذ مال الرجل إلى اليمانية فزحف إليه عمر بن عبد العزيز الهباري فقتله وهو غار سنة ٢٤٠ وكتب الى الخليفة المتوكل معلنا ولاءه •• فكافأه باعطائه ولاية السند ••

ومنذ ذلك الوقت بدأ تاريخ آخر للمنطقة التي توزعت ما بين ثلاثة إمارات إسلامية مستقلة من حولها كذلك امارات صغرى •••

فإن أولاد عمر الهباري لم يحالفهم التوفيق في تأمين أحوال البلاد وما لبثوا أن دب الخلاف بينهم وبين رجالهم من قريش حتى اقتصر سلطانهم على ولاية المنصورة نفسها وكانت أرضها محصورة ما بين منطقة الرور وشاطىء البحر في حين حكم اقليم الملتان منذ سنة ٢٧٩ أسرة قرشية أخرى من بني معنه (أو بني سامة) بقيت حتى انتزع الحكم منها الاسماعيليون الشيعة في القرن الرابع •

وإذا لم تستطع القوة العباسية أن تكسب شيئا على الجبهة الهندية في هذه الفترة وانتهت بالعكس من الضعف الى تكوين إمارات صغرى متناحرة فإن الدين الاسلامي كدين كسب مقاطعة هندية هي العسيفان بين كشمير والملتان وكابل • وقصة إسلام ملكها تشبه القصص التي تروى

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٥٤٤ •

منذ عهد إبراهيم الخليل عن الأصنام التي لا تستطيع أن تفعل شيئا فيكفر بها الوثني • وملك العسيفان حين رأى ابنه يموت بدلا من أن يشفى بعد أن دعا كهانه الاصنام ، هدم المعبد والأصنام وقتل السدنة وأسلم •• يقول البلاذري «وكان ذلك في زمن المعتصم»[1] ••

ونأتي الى الطريق البحري نحو الهند وهو ما كان يدعى بحرالبصرة ثم الخليج الاخضر والبحر الهندي[2] فنجد أن هذه البحار قد عرفت فترة أمن وهدوء من القراصنة على ما يبدو بعد تلك الهجمة الواسعة التي عرفتها في عهد المنصور ما بين سنتي ١٤١ وسنة ١٥٣ • وأن لا تقدم الحوليات أي خبر في هذا المجال قد يعني أن الاساطيل التجارية كانت بصورة عامة تنطلق آمنة مطمئنة • على أن أخبار القرصنة تعود للظهور كرة أخرى ، أيام المعتصم والواثق ••• ولقد نجد تفسير ذلك إذا تذكرنا أن فتنة الأمين والمأمون التي شلت بغداد والسلطة المركزية فيها بالحصار والحروب في منطقة السواد خمس سنوات قد تركت دون شك آثارها السيئة على تجارة البصرة ثم أعقب ذلك مباشرة ثورة الزط التي هددت ممرات التجارة في البر والنهر نحو بغداد عشرين سنة ولم يكن ثمة من يمنع الثغر ، أو يحمى التجارة بشكل جدي ولهذا بدأت التجارة التي هددت اكثر من ربع قرن في التحول بالتدريج إلى مرفأ آخر أكثر أمنا هو سيراف على الساحل الايراني جنوب شيراز •

---

(١) البلاذري ــ فتوح ص ٥٤٥ •

(٢) يستعمل المؤرخ خليفة بن خياط الاسم الأول لتسميته للخليج العربي ويستعمل ابن رسته الاسمين الثاني والثالث لتسميته المحيط الهندي ( انظر تاريخ خليفة ص ٥١٧ ، ٥٢٠ وغيرها ، وانظر ابن رسته ــ الاعلاق النفيسة ص ٨٤ وص ٨٦ وص ٨٧ ) •

وكان هذا المرفأ أكثر عمقا وقابلية لاستقبال السفن الكبيرة الواردة من الصين ، وهذا ما أضاف إليه ميزة أخرى إذ لم تكن تلك المراكب تستطيع وصول البصرة من قبل فكانت تفرغ حمولتها في الأبلة ... وهكذا صارت سيراف بسرعة المرفأ الأول في بحر البصرة . ويحدثنا تاجر معاصر اسمه سليمان أن البضائع كانت تشحن عامة في السفن الصغيرة من البصرة وغيرها إلى سيراف ليجري نقلها هناك في المراكب الكبيرة[1] والمنسوجات الغالية من التيل والقطن والصوف والسجاجيد الصغيرة والمصنوعات المعدنية وخام الحديد وسبائك الذهب والفضة.. ونمت سيراف فيما بعد نموا انعكس في تلك الأوصاف التي وصفها الجغرافيون العرب لدورها المترفة ذات الطوابق من خشب الساج ومراكبها وبضائعها المكدسة ...

على أن ضعف الحركة التجارية سمح لجماعات القرصنة باصطياد المراكب الصغيرة على ما يظهر ومعظمها من مراكب البصرة وجرأهم على التوسع في اعمالهم ويبدو أنه المراكب كانت في العادة ـ وهي تجارية ـ تحمل معها بعض الجند المدربين على رمي النار الاغريقية يقول المقدسي : «ولا بد في كل مركب من مقاتلة ونفاطة»[2] ولعل هذه العادة إنما اتخذت منذ هدد القراصنة توسع التجارة زمن المنصور ولكن هذه الحراسة

---

(١) هو مؤلف مجهول ترك لنا كتاب « أخبار الصين والهند » وقد نشر مرتين آخرهما بالعربية والفرنسية ( باريس سنة ١٩٤٨ ) ( ترجمة سوفاجيه ) ، انظر الاقسام ١١ و ١٣ حتى ١٦ منه :

Relation de la Chine et de l'Inde

وانظر كذلك ـ حوراني ـ العرب والملاحة ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٢) المقدسي البشاري ـ أحسن التقاسيم ص ١٢ ( طبعة دي غويه ١٩٠٦ ) .

الذاتية ضعفت دون شك مع ضعف الحركة التجارية بالإضافة الى ما قد يكون لدى الشعوب العاملة بالقرصنة وهي الميد والكيرك والزط من تكاثر عددي وفقر يلجئانهم الى اللصوصية في البحر والى الجرأة فيها.. كل ذلك قد أسهم دون شك في اضعاف البصرة بحريا لحساب سيراف من جهة وفي السماح بعودة القراصنة الى تهديد طرق البحر من جهة أخرى في مطالع القرن الثالث الهجري ، والى أن يهاجموا ببوارجهم مراكب البصرة اكثر مما يهاجموا مراكب سيراف الكبيرة ...

ونسمع منذ سنة ٢١٠/٨٢٥ في عهد المأمون بدء سلسلة الحملات البحرية ضد القرصنة : نسمع أن قوة بحرية كبيرة أرسلت تلك السنة من البصرة لتأديب قراصنة جزيرة البحرين الذين كانوا يغيرون على السفن القادمة من الهند والصين[١] .

ونسمع في سنة ٢١٣ أيضا «بعزل محمد بن عباد بن عباد عن البحر وجعله إلى غسان بن عباد ..»[٢] مما قد يعني بدء العناية ببحر البصرة والاتجاه لدعمه ثم يأتي بعد سنوات سنة ٢٢٥ خبر مماثل عن عزل أحمد ابن عبيد الله العنبري[٣] عن بحر البصرة أيضا في عهد المعتصم وربما أعيد تعيينه مرة أخرى لأننا نراه يغزو ذلك البحر في السنة التالية سنة ٢٢٦[٤] وهذا الغزو معروف الاتجاه : فإما الى الجزر التي يلجأ إليها القراصنة في خليج البصرة وإما الى مساكنهم الأولى في غرب نهر السند ..

ويبدو أنه كان في الهدفين معا وأما نتائجه فقد أورد المسعودي

---

(١) حوراني ــ العرب والملاحة ص ٢٠١

(٢) خليفة بن خياط ــ التاريخ ج ٢ ص ٥١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥١٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥١٨ .

نتيجة حملات المعتصم في البحر بقوله إنه «أسر البوارج وهي مراكب الهند وكان فيها منهم عسكر عظيم قد غلبوا على ساحل فارس وعمان وناحية البصرة ..»[1] وهي صورة تبين الى أي مدى بلغت قوة هؤلاء القراصنة وعلى أي المناطق كانوا يسطون حتى كانوا يسطون على البصرة نفسها أيضا ... ثم تتكرر الأخبار كثيرا في عهد الواثق على الوتيرة نفسها ويقوم قائد بحري اسمه ابراهيم بن هاشم بغزو بحر البصرة بأمر من واليها أحمد بن رباح ثلاث مرات في ثلاث سنوات متوالية : ما بين سنة ٢٢٨ وسنة ٢٣٠ ويبلغ في الغزوة الأخيرة أداني بلاد سرشت (غرب حوض السند) فيحرق بعض قراها ويصيب سبيا ..[2] .

ولا شك أن حمى القرصنة وتوسعها هما اللذان كانا السبب في هذه الحملات المتتالية المتوسعة يدل على ذلك أن الناس في البصرة بلغ من حماستهم لتأمين الطريق أن كان يخرج منهم المتطوعة مع المقاتلين . ولدينا خبر عن كسر مراكب هؤلاء المطوعة سنة ٢٣١ في بحر البصرة بين جنابة وسينيز وقد أصيب في هذا الحادث ناس منهم[3] وهذه الاحداث كانت دون شك وراء القرار الذي أصدره الواثق في تلك السنة سنة ٢٣١ ، حسب رواية الطبري واليعقوبي بترك جباية أعشار السفن الواردة في بحر الصين[4] لقد كان الخليفة يريد الاسهام في التخفيف من أزمة البصرة وتجارها بفتح أبواب التشجيع لهم والتعويض عن خسائرهم المحتملة بالقرصنة ...

---

(١) المسعودي ـ التنبيه والاشراف ص ٣٠٧ . وخليفة بن خياط ج ٢ ص ٥١٨ و ٥١٩ .
(٢) خليفة بن خياط ـ التاريخ ج ١ ص ٥٢٠ .
(٣) الطبري ج ٩ ص ١٥٠ ( ٣/١٣٦٣ ) واليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٨ .

ولا شك أنه كان لهذا التبرير أثره في دعم البصرة وتجارتها لكنا لا ندري متى توقفت الاعمال التأديبية في البحـــر ولا مدى نجاحها في ايقاف عدوان القراصنة ... فالمؤرخ ابن الخياط البصري الذي حفظ لنا هذه الأخبار ينهي تاريخه سنة ٢٣٢ .. على أن ما رواه التاجرسليمان المعاصر له والذي ترك لنا كتاب أخبار الصين والهند يكشف أن القرصنة ظلت قائمة وإن كانت قـــد اصبحت «أمور البحر مستقيمة مع كثرة اختلاف التجار الى الهند والصين» على حد قول التاجر الآخر ابي زيد السيرافي[1] سنة ٨٥١/٢٣٦ .. وهذا يعني أنه كان على السفن الهابطة في بحر البصرة والخليج الأخضر محاذرة القراصنة الذي كانوا يأوون إلى الشعاب المختلفة على السواحل سواء في هذه المناطق أو بعدها في خليجي كنش وكاثيوار ثم سواحـــل المالابار وحتى جزيـــرة سرنديب (سيلان) وأن يحرضوا بين الآونة والأخرى سلطان المناطق الاسلامية وغيرها لمكافحتها ...

وأما العلاقة مع الصين فإن ما تركه الجغرافيون المعاصرون كابن خرداذبة والتجار كسليمان وغيرهما من وصف مفصل للطريق البحري يدل على أن الطريق أضحى مطروقا معروفا ولكنا نجهل إن كان قد عبرته علاقات سياسية بين الخلفاء وابناء السماء . لقد كان العرب المسلمون قد وصلوا منذ زمن طويل ميناء خانفو (كانتون) وكانت منهـــم هناك جالية واسعة ويبدو أنهم تخطوه وعرفوا المناطق في شماله وابن خرداذبة يذكر الموانىء التي وراءه نحو الشمال مما قد يعني وصول التجار المسلمين إليها حتى كوريا . على أن مركزهم الأكبر بقي في خانفو حيث كان لهم المسجد والقاضي والرعاية . ويصف سليمان التاجر في أخبار الصين والهند تنظيم

---

(١) حوراني ــ العرب والملاحة ص ٢٢٤ .

التجارة الدقيق لدى الصينيين فيقول : «•• وإذا دخـل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم وصيروه في البيوت (مستودعات الجمرك) وضمنوا الدرك الى ستة أشهر الى أن يدخل آخرالبحريين ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ويسلم الباقي الى التجار وما احتاج إليه السلطان أخذه بأغلى الثمن وعجله ولم يظلم فيه ••»[1] وكان ثمة مفتش صيني للتجارة البحرية يسجل التجار اسماءهم عنـده ويفحص لاستيفاء الضرائب ما يقدمون من بيانات عن بضائعهم النادرة ••• ورحلة التجارة إلى الصين كانت تقتضي من صاحبها عاما ونصف العام على الأقل تبدأ في العادة من البصرة أو سيراف في خريف السنة لتعود في ربيع السنة الثالثة بعدها[2] لأن الطريق كان يقتضي ستة أشهر في الذهاب ومثلها في الاياب •••

ومع هذا البعد الشاسع فقد أمكن أن يتجمع في كانتون ، في وقت واحد ، سنة ٨٧٨/٢٦٤ أكثر بكثير من ١٢٠ ألف رجل من المسـلمين واليهود والنصارى والمجوس (الفرس) • والتاجر أبو زيد السيرافي هو الذي أورد هذا الرقم وذكر أنه معروف على وجه الدقة لأن الصينيين كانوا يحصون الأجانب لجباية الضريبة منهم • وقد انتهى وجود هـذه الجماعة تلك السنة نهايـة عنيفة في مجزرة دمويـة حين حاصر الثائر الصيني هوانغ ـ تشاوHueng Ch'Aoمدينة كانتون وأعمل فيها النهب والسلب وقتل فضلا عن الصينيين ذلك العدد الضخم من الأجانب وبقي من هؤلاء بعد ذلك بقية ظلمها بالمصادرة والتعدي على الاموال والمتاع••

---

(١) انظر أخبار الصين والهند ـ القسمين ١٢ و٣٤ وانظر حوراني ـ العرب والملاحة ص ٢١٧ .

(٣) حوراني ـ العرب والملاحة ص ٢٢١ .

في الوقت الذي كان فيه الوباء يأخذ على الطرف الآخر ، العربي ، **من** الطريق أي في سيراف وعمان ، جماعة واسعة من الربابنة والأدلاء[1] •• وإذا كانت هذه المصائب قد ألحقت بالخط التجاري البحري أفدح الخسائر وتكشفت الارقام الواسعة للعاملين عليه وبالتالي مدى النشاط الحيوي للتجارة العباسية وسعة العلاقات التي أقامتها مع أقصى الأرض، إلا إنه لا يبدو في الوقت نفسه أن تلك المجزرة في الصين قد أثارت أي ردود فعل لدى السلطات العباسية التي كانت في تلك الفترة مشغولة كل الشغل بمجزرة أخرى هي ثورة الزنج في البصرة ، الرأس الثاني للطريق •••

**ب ـ العلاقات مع الترك والخزر :**

ساهمت عوامل عدة في جعل العلاقات مع الجبهة العريضة التي يحتلها الاتراك في أقصى الشرق الشمالي الدولة الاسلامية مختلفة عن أي علاقات أخرى مع شعوب الحدود الاسلامية • وبدلا من ذلك العداء العنيف الذي كان يميز العلاقات معهم قبل قرن (في عهد نصر بن سيار حتى المنصور) حلت منذ مطالع القرن الثالث علاقات الصداقة والود والترابط المتزايد التي دفعت بخط العداء بعيدا جدا الى الشرق ليقع لا بين الاتراك الغربيين وبلد الاسلام كما كان من قبل ولكن بين الأتراك الشرقيين والغربيين ••• بالرغم من أن الغربيين لم يكونوا قد اعتنقوا نهائيا وفي كثرتهم الكاثرة الاسلام •

ولعل أهم العوامل التي أدت الى ذلك هي :

أولا انسحاب الصين النهائي من تلك المناطق وتغلغل التاجر المسلم

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

والعالم المسلم والمطوعة للجهاد بدلا منها فيها مما نجم عنه انتشارالاسلام بين الترك الانتشار السلمي الحثيث •

ثانيا : عناية العباسيين بخراسان وارتكاز المأمون خاصة ، في انطلاقته الى الخلافة ، على هذه المنطقة وحاجته الى استقرارها مما دعا بصورة طبيعية الى العناية بالممالك التركية الخطرة المجاورة لها وقد برزت هذه العناية خاصة في ولاية آل طاهر •

ثالثا : وربما كان أهم من كل أولئك عملية التجنيد • وتحويل القوى التركية المضادة الى قوى مرتزقة في خدمة الدولة الاسلامية • وقد توسع المأمون في هذه السياسة وإن لم يكن هو الذي ابتدأها فكان «يوجه رسله فيفرضون — كما قال البلاذري — لمن رغب في الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم » [1]

رابعا : انتهاء الثورات الخارجية أو الدينية الايرانية أو ثورات المغامرين في خراسان وما وراء النهر وبدء الاستقرار وإذا كان قد نجم عن هذه العوامل ان أصبح عدد من أمراء الترك الكبار يرون في البلاط العباسي في خدمة الخلفاء كالأفشين وماوند السجستاني وأن أصبح عدد من غلمان الترك أسياد القوة العسكرية العباسية مثل إيتاخ وأشناس وبغا واستطاعوا بصفتهم العسكرية أن يسيطروا على منصب الخلافة نفسه حتى قتلوا المتوكل وحتى كان المؤتمر الثلاثي الذي عين الخليفة المستعين سنة ٢٤٨ مؤلفاً من ثلاثة من الأتراك هم : بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش •• إذا كان ذلك وما أعقبه من النتائج هو حصيلة تلك السياسة بالنسبة

(١) البلاذري — فتوح البلدان ص ٥٢٨—٥٢٩

للدولة العباسية فإن حصيلته بالنسبة للاتراك كانت أمرا آخـر مختلفاً جـداً :

ـ تراخت العنجهيات والعصبيات الملكية لدى أمراء الترك فكانوا يتركون بلادهم ليردوا باب الخليفة العباسي • وإذا كان هذا قد بدأ على نحو محدود زمن المأمون فقد توسع جدا أيام المعتصم حتى قال الصولي: «إنه لم يجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعها بباب المعتصم • ولا ظفر ملك قط كظفره • أسر ملك أذربيجان وملك طبرستان وملك استيسان وملك الشياصح وملك فرغانة وملك طخارستان وملك كابل •• »[1] وهذا يعني التسليم بالتبعية السياسية نهائيا للخليفة الاسلامي •

ـ سحبت من بلاد الترك القوى التي يمكن أن تحارب المسلمين وجندت لتحارب بالعكس معهم وقد توسع المعتصم في ذلـك « •• حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفراغنة والاشروسنية وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ••»[2] •

ـ «غلب الاسلام على من هناك (بتركستان) وصار أهل تلك البلاد (في حماسهم للدين الجديد) يغزون مَنْ وراءهم من الترك • وأغزى عبد الله بن طاهر (والي خراسان) ابنه طاهر بلاد الغوزية (أي الغز) ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله ••»[3] والهام من هذا الأمر أن قوام قوى الغزو لم تكن الجيوش الرسمية أي جيوش الدولـة ولكن المرابطين والمطوعة الذين كانوا يفدون للغزو وجهاد الاتراك الشرقيين احتسابا لوجه الله •••

وهكذا صار الترك في هذه الفترة بالذات ، وبسرعة ، أحد العناصر

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٣٣٧
(٢) البلاذري ـ فتوح ص٥٢٩
(٣) البلاذري ـ فتوح ٥٢٩

الاساسية في مجموعة الشعوب الاسلامية • غزاهم الاسلام دينا وغزوه جندا وسياسة في دورة من التأثير العميق المتبادل • ولعل ما أوصل هذا الخط إلى نهايته وساعد على نجاحه الكامل :

ـ تمكن الجماعات التركية التي دخلت أرض الاسلام من أن تصل بسرعة وسهولة الى قمة المجتمع الاسلامي •

ـ استقرار خراسان وما وراء النهر في تلك الفترة والسياسة التي اتبعها آل طاهر ، ولاة المنطقة المتتالون فيها : فقد انتهبت الثورات الدينية الايرانية - أو الخارجية ، أو ثورات الاستياء والتذمر فيها ، وصرف آل طاهر همهم إلى زيادة الانتاج الزراعي وانفقوا الأموال الطائلة بالملايين في تنظيم الري ووضع القوانين الفقهية له • وكسبوا ولاء الطبقات الفقيرة بالرعاية ونشر الثقافة العربية الاسلامية مما أوجد في البلاد نوعا من النهضة الثقافية الاسلامية الواسعة تركزت خاصة في ثالوث : نيسابور بخارى سمرقند • وكان من النتائج المباشرة لهذه النهضة أن شهد العالم الاسلامي ، في نهاية القرن الثالث ، طبقة كاملة هامة من ألمع علماء الاسلام ترد عليه مما وراء النهر : فيها البخاري ، والترمذي ، والفرغاني والبلخي والسمرقندي ، معلمة للدين لا متعلمة ! وكتب التراجم تغص من اسمائهم بالمئات كما تغص المكتبة العربية بمؤلفاتهم •

ونستطيع القول إن هذه الفترة من العصر العباسي كانت الفترة الانقلابية الكبرى في تاريخ علاقات الترك لا بالعباسيين فحسب ولكن بالاسلام أيضا •

**أما الخزر** فقد انتهت عملياتهم العدوانية ضد المسلمين منذ عصر الرشيد • ولكن يبدو أنهم ظلوا يحتفظون ، على أي حال ، بموقف العداء السلبي ، أو على الأقل لم يحاولوا كسر الجليد الحقدي بينهم وبين المنطقة الاسلامية ولهذا ورد اسم الخزر مرتين في مشاريع ضد الدولة العباسية :

ورد مرة في خاطر الأفشين أن يمر ببلادهم وهو هارب فيتحالف معهم لغزو بلاد الاسلام كما ورد مرة أخرى في مخطط الأرمن الثائرين ضد الدولة حين سحقت مقاومتهم على يد بغا الكبير فكاتبوا الخزر كما كاتبوا الصقالبة والروم • ولكن لم يقيض لأي من المشروعين أن يتحول الى عمل عدواني راهن ونجد بالعكس أن بعض الغلمان الخزر يبرزون في جيوش العباسيين وأن بعض الخزر الذين انفتحوا للإسلام يقدمون سنة ٢٤٠ على بغا وهو في أرمينيــة يرجون الاستقرار في الأرض الاسلامية فيبنى له مدينة ، يسكنونها مع بعض الجماعات الأخرى باسم المتوكلية •

ولم يمض على ذلك سوى سنوات حتى نشأت دولة أرمينية محلية لتكون نوعا من الحاجز الصدامي بين الدولة الاسلامية والخزر •

**جـ ـ العلاقات مع البجة والنوبة (جنوب مصر)**

كان المأمون قد أنهى ، قبل موته ، مشاكل الحدود مع البجة باتفاقية هدنة وأمان تحدد علاقات تلك المنطقة وملكها مع الدولة الاسلامية • غير أن هذه الاتفاقية لم تعش طويلا • فما جاء عهد المتوكل سنة ٢٣٢ حتى نقضت ذلك أن تطورات كثيرة في المنطقة دفعت البجة الى التمرد • فامتنعت عن أداء الإتاوة السنوية سنين متوالية • بل خرجت من بلادها فقتلت في مناطق التخوم حيث توجد مصانـع سبك الذهب «عددا من المسلمين العاملين في تلك المصانع وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم وذكروا أن المعدن لهم في بلادهم وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها» «وأوحش ذلك جميع من يعمل في المعادن من المسلمين فانصرفوا عنها خوفا على أنفسهم وذراريهم فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن •••»[1] وفتحوا

---

(١) انظر ابن خلدون ـ العبر ج٢ ص٢٢٧

سنة ٢٣٢ نفسها بلدة انبوا (كوم امبو) وسبوا مافيها وقتلوا ماشاء لهم القتل[1] .

وكتب عامل بريد مصر بذلك الى المتوكل فاشتد انكاره وشاور في الأمر فأفهمه العارفون أن البلاد مفاوز وصحاري بعيدة وأرض قفر وجبال وعرة ولا بد في حربها من الميرة الكثيرة فإن طالت المدة على الجند فيها هلكوا . فأمسك الخليفة بينما كان أمر البجة يتزايد وجرأتهم على المسلمين تشتد حتى خاف أهل الصعيد كله منهم ...

أما السبب في انتقاض البجة فلا شك أنه سبب اقتصادي كشفه ابن حوقل : إذ «اتفق في تلك الفترة أن آلافا كثيرة من العرب تركت أرض اليمامة هاربة من جور الأخيضر محمد بن يوسف الحسني الذي تغلب هناك فنزلت أرض المعدن» وغلبت على من كان بها في شمالها خاصة «وتكامل بالعلاقي (وهو وادي تصفية الذهب) قبائل ربيعة ومضروهم جميع أهل اليمامة في سنة ٢٣٨[2]» مع بطون أخرى من اليمن أيضا . وفي الوقت نفسه كان والي أسوان عبيد (أو عبد الله) بن الجهم مولى المأمون قد أراد الانتقام لتدمير انبوا فركب النيل إلى ما وراء اسوان سنة ٢٣٢ نفسها ثم دخل أرض البجة واثخن فيهم قتلا وسبيا واسترد ما سبوا ولكن جنده الذين «عاينوا آثار بعض المناجم أو بعض المسابك التي كانت في المنطقة للروم» طمعوا في ذهبها فعادوا في تلك السنة نفسها إليها . ولا شك أن الضغط السكاني العربي القادم من الشرق والشمال يزاحم البجة على أرزاق منطقتهم قد أثارهم ودفعهم إلى العدوان . ولا شك أن خصومات كثيرة قامت بينهم وبين العرب الوافدين دفعتهم الى التكاثر عليهم وطردهم ..

---

(١) ابن حوقل ـ صورة الارض ص ٥٧
(٢) المصدر نفسه ص٥٨

ولم يكن بإمكان الخليفة المتوكل أن يقف مكتوف الأيـــدي بعد انقطاع الخمس عنه وطرد العرب المسلمين من رعاياه وتهديد جنوب مصر كلها من قبل هذه القبائل ويروي ابن حوقل أن بعض العرب كتب له أن رجلا من البجة شتم الرسول ••• ولعلها كانت نوعا من الإثارة فقد كان لدى المتوكل من الأسباب ما يدفعه للتحرك فاختار رجلا من القواد يعرف بمحمد بن عبد الله القمي من ولد أبي موسى الأشعري(١) • وولاه سنة ٢٣٨ القلزم ومعاون تلك الكور مـــا بين قفط حتى شمال أرض المعدن وطريق الحجاج الى الحجاز •

وجاء محمد القمي في ألف رجل نصفهم من الفرسان وأطلق له في مصر عشرة آلاف دينار «فوجه الى القلزم فحمل في البحر سبعة مراكب موفرة بالدقيق والزيت والتمر والسويق والشعير وأمر قوما من أصحابه أن يلجوا بها في البحر حتى يوافوه في ساحل •• أرض البجـــة (عند عيذاب) ••»(٢) •

وانضم الى القمي حين وصل العلاقي «ثلاثة آلاف من ربيعة ومضر واليمن من كل بطن ألف» بعد أن كان انضم إليه في مصر بأمر المتوكل بعض الجند والشاكرية وبعض المطوعة فصار جيشه في حوالـــي سبعة آلاف(٣) بين فارس وراجل • دخل بهم أرض البجة من وادي العلاقي

---

(١) انظر البلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٨٢ . وابن حوقل (ص٥٨) يذكر أن القمي كان في السجن مطالباً ببعض الدماء فأطلقه المتوكل لهـــذا الجهاد .

(٢) يذكر الطبري تفاصيل تلك الحملة ج٩ ص٢٠٣ـ٢٠٦ (١٤٢٨/٣ ـ١٤٣٣) كما يذكره ابن حوقل (ص٥٧ـ٥٩) .

(٣) يذكر ابن خلدون (ج٢ ص٢٢٨) أن جيشه بلغ عشرين ألفاً وقد فضلنا الرواية الأقل بسبب صعوبة تموين الآلاف العشرين في تلك المناطـق الجرداء وصعوبة حركتها .

وأوغل إيغالا كبيرا حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذهب وصار الى حصونهم وقلاعهم» والى «قلعة ملك البجة»[1] وعاصمته : هجر في أقاصي الوادي البعيدة .

ويذكر ابن حوقل أن ملك البجة كان يدعى علي بابا وأنه كان في مائتي ألف معهم ثمانون ألف نجيب . ولا شك أن الرقم مبالغ فيه وأنه يعكس الخوف الذي أصاب جنود القمي أكثر مما يصور الواقع لأنه حين «عاين ذلك المسلمون هالهم وعظم عليهم» ويبدو أن علي بابا أقام خطته على أساس مطاولة الجندالاسلامي وتركه دون قتال مدة طويلة كي تنفذ مؤنه . فجعل يحاوره من مختلف الجهات ويناوشه دون قتال . وعسكر القمي يشجع أصحابه ورمي حول عسكره حسكا من الحديد[2] جعله سورا لجنده . «ولما توهم عظيم البجة أن أزواده نفذت وجمع جيشه للحرب وصلت القمي ميرة المراكب فتقوى بها وأصحابه . فلما بدأ القتال . احتال حيلة بارعة إذ رفع على الأسنة في الصباح المبكر كتبا في طوامير كتان بالذهب وجعلها بخط جليل ونادى : هذه كتب أمير المؤمنين . فلما رأت البجة ذلك وهم صافون للحرب استطرفته وتحللت من المصاف وقصدته وكان القمي قد حمل البنود على الفوالج والطبول فلما التفت البجة بالطوامير ضربت الطبول الزنجية فاضطربت صفوفهم فحمل عليهم وقد التفت جمالهم وشردت فهلك بتلك الغرة عامتهم ووطئتهم الجمال فقتل وأسر وسبي ...» ويروي البلاذري وابن خلدون ان الحيلة كانت بتعليق الأجراس على الخيل فلما سمعت إبل البجة أصواتها تقطعت

---

(1) ابن خلدون ج٢ ص٢٢٩ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٨٢

(2) ذكر ابن حوقل أن بقية ذلك الحسك موجود في أسوان ، في عهده مع خزانة القمي ولعله نقل هناك للذكرى . انظر ص ٥٨

بالبجويين في الأودية والجبال» وكانت النتيجة هزيمة البجة فأما ملكها علي بابا فيروي البلاذري أنه قتل وقام بالملك من بعده ابن أخته «على قاعدتهم في توارث العرش فطلب الهدنة وأبى المتوكل ذلك عليه إلا أن يطأ بساطه في سامراء .. وأما ابن حوقل فيذكر أن علي بابا استقر على ربوة وحلف ألا يزول أو تنقلع الربوة فأخذ أسيرا (أو استسلم بالأمان) وقدم به القمي الى أسوان مع الغنائم التي غنم فباع ذلك وكان مبلغه خمسين ألف أوقية تبراً ..»[1] وكان ذلك سنة ٢٤١ وكان في الغنائم تاج الملك ومتاعه وخراج السنوات الأربع التي امتنع فيها عن دفع الاتاوة ...

ويبدو أن ملك البجة كان قد تحالف مع ملك النوبة ، على وادي النيل ، ضد المسلمين لأن القمي بعث إلى هذا الملك واسمه يركي فأتاه طائعا الى أسوان فانحدر بالملكين الى العراق فوصل سامراء أواخر سنة ٢٤١ ويروي ابن حوقل أن المتوكل أمر فنودي على الملكين للبيع في السوق . فاوقفا عند باب العامة مع قوم من البجة نحو من سبعين غلاما على الإبل بالرجال ومعهم الحراب وعليها رؤوس قتلاهم ، فبلغ ملك البجة سبعة دنانير وملك النوبة تسعة فأجرى المتوكل لكل منهما راتبا يوميا بمقدار ثمنه وخلع عليهما وصولح الاثنان على أداء الإتاوة (من البجة) والبقط (وهو مثل الجزية) من النوبة بمعنى أن معاهدة المأمون مع البجة جدد العمل بها من جديد كما جدد العمل بالبقط . وعهد المتوكل بولاية

---

(١) انظر البلاذري – فتوح ص ٢٨٢ وابن حوقل (ص٥٨) وهو يجعل المعركة وانحدار الملكين الى العراق في سنة ٢٣٨ . وقد آثرنا مع المنطق التاريخي رواية ابن خلدون (ج٣ ص٢٢٨–٢٢٩) وهو يروي أيضاً أن علي بابا استخلف على البجة أثناء زيارته للعراق ابنه لعيس .

المنطقة الى سعد الايتاخي فولى عليها القمى نفسه فارتد إليها والملكان معه .

غير أن هذا الوالي قتل سنة ٢٤٥ من قبل بعض أصحابه «فزال منذ ذلك أمر السلطان العباسي في العلاقى وهلك المتوكل (سنة ٢٤٧) فعادت البجة «... فضبطت أطرافها (بلادها وحدودها) والاسلام في بعضها مريض ..» ولم يعد التجار يجاوزون في التوغل في تلك الأرض المناطق الشمالية يحملون إليها الصوف والقطن والحيوان من الرقيق والابل حتى استطاع بعض العرب المسلمين إقامة ممالك لهم في داخلها من بعد .

أما العلاقات مع **النوبة** فقد كان ينظمها منذ عهد المهدي البقط القديم الذي تم تجديده على يده وقد كشف عنه عبد الله بن طاهر . حين جاء مصر واليا سنة ٢١٠ من قبل المأمون ، ليحكم بموجبه معهم ووجد نسخته في الديوان بالفسطاط[1] . على أنه يبدو من الأخبار أن الإتاوة كانت تعتبر رمز خضوع وولاء سياسي وأن تأخر النوبة في تقديم الإتاوة السنوية كان يؤدي الى شن الغارة عليهم ومنع إخراج المؤن إليهم .ويذكر المقريزي ان ابن ملك النوبة أيام المعتصم أنكر على أبيه بذله الطاعة للدولة الاسلامية واستعجزه فيما يدفع من الخراج السنوي فأرسله يزور تلك الدولة قبل أن يقرر الطاعة أو العصيان ويقول الخبر إن هذا الابن المسمى فيرقي بن الملك زكريا بن بحنس زار الخليفة المعتصم رسولا من قبل أبيه فكانت البلاد تزين لـه وبهره ما لقي من عظمة الخلافة ومالها وما أهداه الخليفة له وخيره المعتصم أن يطلب ما يشاء فطلب إطلاق المساجين فكبر في عين الخليفة ووهبه الدار التي نزلها بالعراق وأمر ببناء دار له في كل منزل على طريقه تصبح دارا لرسل النوبة وأجرى لـه في ديوان مصر

---

(١) المقريزي ــ الخطط (ط بيروت) ج١ ص٣٥٤

سبعمائة دينار وخلعا ومركوبا . وجعل دفع البقط كل ثلاث سنوات وكتب لهم كتابا بذلك . وأمضى له طلبات عديدة أخرى[1] .

ويظهر أن هذا الوفد النوبي كان مهمته الاساسية أو الظاهرة حل الخلاف حول دفع البقط كل ثلاث سنوات او كل سنة فقد أشار البلاذري المؤرخ الذي كان يعاصر المعتصم والمتوكل الى ذلك بقوله : «... وقد ادعوا به حديثا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة وأنهم كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهدي فرفعوا إليه (الاعتراض) فأمر أن يؤخذ منهم كل ثلاث سنوات بقط سنة ... ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت في ديوان الحضرة (في سامراء) ووجد في الديوان بمصر ..»[2] .

على أنه يبدو من جهة أخرى أن النوبة لم يكونوا خالصي الولاء المدولة الاسلامية وإن سادت علاقاتهم طابع الهدوء والسلام معها . ويبدو أنهم حاولوا الاتفاق اكثر من مرة مع البجة ضدها أو حاول هؤلاء الاتفاق معهم فكان النوبة يتخذون من البجة كبش صدام لكنهم لايجهرون للإسلام بالعداء ولعل أول محاولة نعرفها من هذا النوع كانت أيام تحرك البجة في عهد المأمون سنة ٢١٢ ــ سنة ٢١٦ ثم كانت المحاولة الثانية في عهد المتوكل بين سنة ٢٣٢ ــ سنة ٢٤١ ولهذا ما إن انتصر محمد القمي على البجة وأسر ملكهم حتى بعث إلى ملك النوبة يستقدمه إليه . ولم يجد هذا الملك محيصا من المسير الى أسوان . ومن تلبية طلب المتوكل بالمسير الى سامراء . وتتضح مؤامرته مع البجة لا من تصرف القمي معه ولكن من تصرف المتوكل الذي عرضه للبيع عند باب العامة مع صاحبه البجوي فبلغ ثمنه تسعة دنانير . ولم يكن هذا التصرف من الخليفةسوى

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٢٨١

محاولة أخيرة في إذلال الرجل وإرهابه لأن المتوكل عاد فخلع عليه الخلع وأجرى له الجراية اليومية مدة مقامه • وجدد الرجل الاعتراف بالبقط قبل أن يعود إلى قاعدة ملكه ••

## د ـ صراع القوى البحرية في المتوسط

كان عهد جديد قد بدأ في تاريخ البحر المتوسط منذ أوائل القرن الثالث بنزول الأغالبة في صقلية وسقوط كريت بين المسلمين سنة ٢١٢ وإذا كان من أولى نتائج تلك الأحداث كسر رقابة بيزنطة على تجارة هذا البحر وإلغاء السيطرة المطلقة للبيزنطيين عليه فقد كان من تلك النتائج أيضا إجبارهم على توجيه قواهم البحرية إلى بحر اليونان وبحار صقلية بدلا من استخدامها ضد العباسيين في الشرق • ومقابل ذلك فان بني العباس تنبهوا بسبب عوامل عديدة إلى ضرورة العناية بالقوى البحرية في حوض المتوسط الشرقي أي في سواحل الشام ومصر لا نتيجة ما أعطاهم النجاح الاسلامي الكريتي ـ الصقلي من تشجيع ولكن نتيجة عدد من الضربات التأديبية التي وجهها البيزنطيون الى اثنين على الأقل من أهم المدن الساحلية الاسلامية في الشام ومصر وهما : انطاكيةودمياط ••• ولكن هذه العناية العباسية مع ذلك ظلت محدودة نسبيا لأن الطابع القاري الآسيوي لخلافة بغداد كان قد غلب عليها تماما منذ تغلب المأمون على العرش • وبالرغم من المشاريع التي خطرت في بال هذا الخليفة آخر حياته، وفي بال المعتصم ثم المتوكل بضرب القسطنطينية فانهم جميعا كانوا يفكرون بريا وليس في مخططاتهم مكان للبحر ، عدا المكان المحدود الذي خصصه له المعتصم • كما انهم جميعا لم يحاولوا الاستفادة من تينك الاستطالتين البحريتين الهامتين اللتين كانتا على أي حال تابعتين لهم من الناحية الاسمية وهما كريت وصقلية الأغالبة كان يخطب لهم على

منابرهما ، وهما رأس جسر متقدم جدا لتطويق الامبراطورية البيزنطية بحرا ومن الجنوب والغرب ، وتحاربان بيزنطة ولكن بمبادرتهما الذاتية لا بأوامر ولا بتدخل من خلافة بغداد التي كانت ــ إلا فيما ندر ــ تقف موقف المتفرج البعيد • بل لقد كتبت قوى أخرى اسلامية من ايطاليا لبني العباس فلم يجد هؤلاء الوقت للرد عليها !

وعلى أي حال فإن صراع القوى البحرية خلال معظم القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي كان ، رغم خبرة بيزنطة وسعة أسطولها وقوته صراعا بين قوتين متكافئتين تتنازعان السيطرة على طرق التجارة ومواقع النفوذ في هذا البحر • البيزنطية والاسلامية ، وإذا تركنا جانبا القوى البحرية الايطالية والقوى الفرنجية والاندلسية وهي بعيدة عن ميدان الصراع الذي يهمنا وهو الحوض الشرقي للمتوسط • فإن ذلك التكافؤ الذي استمر أقل قليلا من قرن لم يتحول في مرة من المرات لمصلحة القوى البحرية الاسلامية لا بسبب العجز في القوى ولكن نتيجة عدم التنسيق• كانت القوى البحرية العباسية تمتد من الناحية النظرية من صقلية إلى كريت والشام ومصر • ولكنها من الناحية العملية كانت مكونة من ثلاث قوى منفصل بعضها عن بعض وقلما تعاونت أو اتفقت مشاريعها في العمل وضرباتها في الزمن وفي المواقع الاستراتيجية الأساسية • ولم يفكر العباسيون لحظة في أخذ المبادرة لجمعها ولتنسيقها لأن البحر المتوسط لم يكن ضمن الدولة بالنسبة إليهم كما كان لدى الأمويين ولكن على نهاية حدودها •••

وقد كانت القوى البحرية العباسية في الشام ومصر ، أضعف القوى الثلاث وربما زاد في ضعفها أن الحصار الاقتصادي البزنطي حرم تجار الشام ومصر من الحركة البحرية في حوض المتوسط الشرقي ومن الوصول

الى الحوض الغربي • وقد أصدر ليو الخامس امبراطور بيزنطة (بين سنتي ٨١٣ ـ ٨٢٠) قرارا «يحذر رعاياه ولا سيما البنادقة من الاتجار مع الشام ومصر •• ويحتمل وجود محاولات مشابهة لوقف التعامل التجاري المحظور بين جزر بحر ايجه وشواطىء آسيا الصغرى وبين مصر وسورية»[١] •

ومن المحتمل أن يكون السبب في هذا الأمر ، بجانب معناه الاقتصادي هو رغبة ليو الخامس في معاقبة انصار توماس الصقلبي الثائر الأيقوني الذي يبدو أنه هيأ ثورته وجمع رجاله من العرب والفرس والأرمن والكرج اثناء وجوده في الشام ما بين سنتي ٨٠٣ ـ ٨١٣ كما اتفق ، بعد الثورة مع السلطات الاسلامية (أو على حد قول بيوري مع المأمون) وأقام معها معاهدة تحالف كان من نتيجتها أن أمدته بالعون وتم تتويجه امبراطورا لبيزنطة على يد البطريق أيوب بطريق انطاكية برضى الخليفة نفسه[٢] ولا شك أن البطريق وهو يتوجه كان يرمي الى رفض الهرطقة اللاأيقونية التي تسير عليها سياسة ليو الخامس وسياسة من خلفه من بعده وهو ميخائيل الثاني العموري •

وبالرغم من أن المصادر العربية لا تتحدث عن معونة المسلمين لتوماس الصقلبي فيبدو أن ولاة الشام ومصر وجهوا قواهم البحرية لمعونته معونة سلبية أو استغلال شغل الدولة به وتمرد أساطيلها عليها • ووقوفها بجانبه «للقيام بإجراءات انتقامية» ضد الحصار الاقتصادي الذي فرضه • وقد تسبب عن هذا الحصار «هجرة كثير من المسيحيين من

---

(١) ارشيبالد لويس ـ القوى البحرية ص ١٧٩ (الترجمة العربية) •

(٢) انظر

Bury, A. His. of the east. Rom. Emp. p, 88

الشام وفلسطين الى قبرص والأناضول في سنة ٨١٣ » وما بعدها[1] لا سيما بعد أن تحولت ثورة توماس إلى ثورة «بروليتارية» فلاحية ـ تماما كثورة بابك المعاصرة لها ـ وأعلن الرجل نفسه مدافعا عن الفقراء والمظلومين حتى «رفع العبد يده في وجه سيده وخرج الجندي على طاعة قائده» ...

وقد ألح البيزنطيون في الهجمات على انطاكية بين سنتي ٢١٣ ـ ٢٢٦/٨٢٨ ـ ٨٤١ ونهبوا هذه المدينة[2] ودمروا سكانها لموقفها المعادي دينيا (في الأيقونية) وسياسيا (في تتويج توماس) ضد بيزنطة حتى لقد أمر المعتصم إثر الهجوم ونهب التجار في الميناء وأسر الناس ببناء حصن بمنطقة الميناء المسماة سلوقية[3] ويبدو أن هذه الهجمات ، أقنعت خليفة سامراء بضرورة وجود قوة بحرية تحمي الشواطىء الشامية والمصرية وتتعاون في الوقت نفسه إن لم يكن مباشرة فبشكل غير مباشر مع اسطولي كريت وصقلية الناجحين في غزو القسطنطينية ... وهكذا أمر المعتصم اثر عودته من فتح عمورية سنة ٢٢٣/٨٣٨ ببناء السفن في الشام . ويبدو أن مراكز بناء هذه السفن كانت ثلاثا : دمياط ، وصور وطرسوس . وإذا كانت دمياط قديمة في الصناعة فإن هشام بن عبد الملك هو الذي نقلها في الشام من عكا الى صور «واتخذ بها فندقا ومستغلا. ثم توسع الاهتمام يوم أمر المتوكل بعد ذلك بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة[4] سنة ٢٤٧/٨٦٢ وأما طرسوس فنعرف

---

(١) ارشيبالد لويس ـ القوى البحرية ص ١٧٩

(٢) انظر تاريخ ميخائيل السرياني (الكبير) بالفرنسية (ترجمة شابو) ج٣ ص ١٠١

(٣) المرجع السابق نفسه وقد ذكر البلاذري ـ فتوح ص ١٩٨

(٤) البلاذري ـ فتوح ص١٤٠ و ص١٩٣

بناء السفن بها مما سيكون لأساطيلها من شأن حربي عما قريب •

وكانت أولى نتائج هذه العملية بعد أربع سنوات من العمل تحرك أسطول اسلامي سنة ٨٤٢/٢٢٧ مكون من ٤٠٠ سفينة الى بحر ايجه يقوده قائد عربي يعرف بأبي دينار[١] ••• على أن الخليفة المعتصم والامبراطور البيزنطي تيوفيل كلاهما توفيا معا في شهر واحد من تلك السنة بينما كانت القسطنطينية تأخذ أهبتها لمواجهة العاصفة المنتظرة ودفعها وهي لم تعرف مثلها منذ قرن وعشر سنوات كان الاسطول الاسلامي نفسه يصطدم بالعواصف فتشتت شمله عند رأس كيبربوت ( خلدونية ) فلم يعد منه الى الشام سوى سبع سفن[٢] •

ولم يأبه الواثق بعد هذه المأساة البحرية بمعاودة البناء والعمل لأنه لم يكن يحمل مشاريع أخرى غير مشاريع ابيه وبعيدة عن الحرب في الأناضول أو البحر • حتى إذا جاء المتوكل بعده جاءت ضربة فاجعة لتفتح عينيه من جديد على البحر وكانت أقسى وأعنف ما شهدت الموانىء الشامية المصرية منذ العهد الأموي من ضربات وهي : تدمير دمياط سنة ٨٥٣/٢٣٨ : وكان هذا البلد هو دار الصناعة للاسطول الذي يشكل قوة كريت البحرية • والذي بث الرعب في بحر ايجه وهدد المواصلات التجارية والعسكرية لبزنطة • كما كانت كريت تعتمد في المؤن اللازمة وفي التسلح على دمياط والاسكندرية • فأراد البيزنطيون قطع

---

(١) يحيط الغموض باسم أبي دينار هذا وقد ظن بعض الباحثين انه قد يكون جعفر بن دينار الخياط والي طرسوس ولكن جعفرا قد جاء طرسوس والصائفة في وقت لاحق متأخر سنة ٢٤٧ كما كان واليا على اليمن ايام الواثق •

(٢) انظر Bury, A. Hist. of the East R. E. P 274 Vasilier, Byzancel et les Arabes, I, 192-193 .

كريت عن منابع قوتها البحرية وتموينها ولعل الخطة البيزنطية كانت تتضمن خطوة تالية هي الهجوم على كريت بعد عزلها وقطع اتصالها مع مصر .

على أن هجوم دمياط كان يعكس بما رافقه من قسوة همجية وتدمير مدى الحقد الذي ملأ قلب البيزنطيين على كريت . فقد جمعوا للحملة ثلاث مائة سفينة تشكل ثلاثة اساطيل ، وهي قوة ندر أن جمعتها بيزنطة لهجمة واحدة منذ الفتح العربي . وقد كلف اثنان منهما على مايبدو بمراقبة سواحل الشام وببعض الاعمال الحربية في بحر ايجه حول كريت ونزل الثالث في ٨٥ سفينة تحمل كل منها خمسة آلاف محارب[١] على دمياط . قاد الهجوم قائد دعته المصادر العربية ابن قطونا[٢] وتسميه المصادر البيزنطية نيقيتاتوس[٣] ودخل الروم البلد (في ٢٢ مايس سنة ٨٥٣) فلم يجد بها أحدا من الجند المدافعين لأن صاحب المعونة بالفسطاط كان قد استدعاهم لحفل عيد الأضحى ...

وبالرغم من أن السكان قاوموا ببطولة قبل أن يهجروا المدينة هاربين إلا ان الجند البيزنطي انزل الدمار والحريق بالمدينة وفيها الكثير من الأخصاص القصبية « واحتملوا سلاحا كان فيها . لأبي حفص صاحب

---

(١) يذكر الطبري(٩ص ١٩٣-٣/١٤١٧) أن قوادالاساطيل الثلاثةهم: «عرفا وابن قطونا وامردناقه وهم كانوا الرؤساء في البحر مع كل واحد منهم مائة مركب ..» ويقول اليعقوبي ان قائد الهجوم يدعى قطوباريس .

(٢) هذه رواية اليعقوبي واحدى روايات الطبري الا انه يذكر رواية أخرى تجعل عدد المراكب ١٠٠ في كل منها مابين ٥٠-١٠٠ محارب . انظر الطبري ج٩ ص٩١٤ (٣/١٤١٦) وانظر اليعقوبي ج٢ ص٤٨٨

(٣) انظر فازيلييف ـ العرب والروم ص١٨٩ (تعليق١) وانظر اسد رستم ـ الروم ج١ ص ٣٣٥

اقريطش نحوا من ألف قناة وآلتها ••• وأخذوا من الأمتعــة والقند والكتان ما كان عبيء ليحمل الى العراق ••• وقتلوا من أمكن قتله من الرجال وسبوا من المسلمات والقبطيات واليهوديات نحوا من ٦٠٠ امرأة (منهن ١٢٥ مسلمة)[١] وأحرقوا خزانة القلوع (أشرعة السفن) ومسجد الجامع وأحرقوا كنائس» ••• وقد «غرق في بحيرة دميــاط من النساء والصبيان اكثر مما سباه الروم ••• ثم رحل الروم» بعــد يومين من التدمير وقد أوقروا « الشلنديات » بالمتاع والأموال والنساء •

وانتقلت الحملة إثر ذلك الى تنيس فلــم يستطيعوا الاقتراب منها لكثرة كثبان الرمل وضحالة الماء حولها فهاجموا مرساها أشتوم (على اربعة فراسخ منها) وكان له سور وبابان من الحديد كان المعتصم أمر بعملها له فخربوه وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرادات وأخذوا بابيه الحديد ••• ثم توجهوا لبلادهم لم يعرض لهم أحد ••• »[٢] •

ويبدو أنهم كرروا الهجوم كرة أخرى في السنة التالية سنة ٢٣٩ / ٨٥٤ على ما يروي المقريزي : « جاؤوا في نحو مــائتي مركب فأقاموا يعبثون في السواحل شهرا وهم يقتلون ويأسرون » فلم يحصلوا على[٣] نجاح آخر كالأول •• ثم انتظروا خمس سنوات أخرى ليعاودوا الهجوم

---

(٤) انما ذكرنا الرقم للدلالة على نسبة المسلمين والقبط بين السكان واليعقوبي يذكر انهن ١٨٢٠ مسلمة وألف من القبط ومائة يهودية والمبالغة في ارقامه واضحة لان سفن الاسطول لا تحمل فوق الجند والبضائــع المنهوبة هذا العدد .

(٥) تفصيل الهجوم كله لدى الطبري ج٩ ص١٩٣–١٩٥ (٣/١٤١٧–١٤١٩) .

(١) المقريزي ـ الخطط ص٣٧٧

ولكن على الفرما[1] (بلوزيوم) في هذه المرة ... ولم يكن الاسطول بالقوة الأولى فكانت هجمة عابرة ... ويرى المؤرخ فازيليف أن كان لهذه الهجمات الرومية أثرها البعيد في نمو البحرية العربية إذ دفعت إلى التفكر الجدي في إنشاء اسطول بمصر[2] وهو يتابع في ذلك رأي المقريزي الذي يذكر أنه « أنشىء من حينئذ الاسطول بمصر»[3] ويضيف فازيلييف أنه «صبح أمر البحر اكبر الأمور شأنا إذ بنوا السفن الحربية وجعلوا للبحارة مثل عطاء الجند وأنزلوا الأمراء الرمـــاة في الاسطول .. حتى اضحى الانخراط فيه من دواعي الاحترام . وهذا هو نفسه الأسطول الذي سيكون له اكبر الشأن في النصف الثاني من القرن الرابع ـ العاشر، أيام الفواطم خاصة» ويظهر أن في هذا الرأي بعض المبالغة فإن العباسيين حين احتاجوا بعد حوالي عشرين سنة (سنة ٨٧٧) الى حملة بحرية أمروا ببناء السفن في مصر والشام مما يدل على عدم وجودها وبذلك أنشىء الاسطول الطولوني وقد احرقت مراكز هذه الصناعة في ثورة سنة ٣٢٣ وهرب الثوار بعد ذلك بالاسطول الى برقة ... وأما الفاطميون فإنهم أعادوا انشاء الاسطول من جديد .. وعلى أي حال فقد كانت النتيجة المباشرة لمأساة دمياط تحصين سواحل مصر وغيرها والأمر ببناء اسطول قالوا : «أمر المتوكل بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحـــل وشحنها بالمقاتلة » وإذا كان البلاذري يذكر أن ذلك كان سنة ٢٤٧/٨٦٢ فيظهر أن الأمر كان قبل ذلك بسنوات لأنا نجد الأسطول الشامي أو الطرسوسي

---

(١) الكندي ـ الولاة والقضاة ص٢٠٣

(٢) فازيلييف ـ العرب والروم (بالفرنسية) ج١ ص٣١٧ والترجمة العربية ص ١٩٢

(٣) المقريزي ـ الخطط ج١ ص ٣٧٨

يشارك القوى البرية المحاربة سنة ٢٤٦ في الهجوم على الروم إذ يقوم عشرون مركبا يقودها الفضل بن قارن (شقيق المازيار اصبهبذ طبرستان وهو الذي قتل بحمص بعد أربع سنوات) فيهاجم القاعدة البحرية البزنطية الأناضولية في أضالية ( حصن انطاكية )[1] ...

ويبدو أن العناية بالأسطول العباسي تركزت بعد ذلك في سواحل الشام وفي ثغر طرسوس لأن مصر استقلت بنفسها مع ابن طولون الذي اصبح له سياسته وأسطوله . أما الأسطول الشـامي الطرسوسي فسوف يغير على جزيرة ايوبيا في بحر ايجه سنة ٢٥٩/٨٧٣ وربما كانت معه في هذا الهجوم سفن كريتية وذلك قبل أن يقع الشام وتقع طرسوس نفسها في يد ابن طولون ويصبح الأسطول فيها جميعا بيد مصر والطولونيين .

وإذا انتقلنا بعد هذا إلى كريت وجدناها اكثر اعداء بيزنطة خطرا وتصميما في تلك الفترة ولعل سقوط كريت هو الذي جعل بيزنطة تخسر صقلية بعدها . وقد حاولت بيزنطة عبثا إما استرداد الجزيـرة أو على الأقل كف عاديتها وهجماتها فلم تفلح لا في هذه ولا في تلك .

أرسلت عليها كراتيراس حاكم اقليم كبير هايوت العسكري على رأس ٧٠ سفينة ففشل وأجاب مسلمو كريت على هذه الهجمة بغارات عديدة على مختلف الجزر والسواحل حتـى أصابوا سنة ٢٢٤/٨٣٩ نصرا باهرا دمروا فيه الاسطول البزنطي قرب جزيرة تاسوس.واستطاعوا بمؤامراتهم الناجحة أن يشلوا مسيرة اسطول ضخم جمعته بيزنطة في العاصمة وعينت لـه القائد تيوكسيتـوس . فلم يبحر الاسطول من موانيـه ...

---

(١) الطبري ج٩ ص٢١٩ (١٤٤٩/٣)

واستمرت كريت في غاراتها في أنحاء بحر ايجه كما اشتركت في الاعمال البحرية في ايطاليا والبحر الأدرياتي دون أن تستطيع بيزنطة إيقاف فعاليتها القوية إلى أن قررت بيزنطة ضرب كريت في دمياط ... لكن حتى هذه الضربة لم تؤثر على كريت في شيء ... على أن هذا النشاط الواسع الناجح كان في الواقع ضائعا لأنه اقتصر على الهجوم الدفاعي ولم يكن لها لا اتساع الأرض ولا كثرة الرجال والموارد والصناعات التي تسمح لها بالمقاومة الطويلة يضاف إلى ذلك أنها لم تنسق أعمالها مع القوى الاسلامية الأخرى . ولم تقبل في حرصها على استقلالها الذاتي أن تكون على أي علاقة سوى الشكل الظاهري في الخطبة مع بني العباس الذين كانوا بدورهم على أي حال مشغولين بمشاكلهم الداخلية عن التفكير بمصير البحر المتوسط .

ولعل صقلية وقوى الأغالبة فيها كانت أبعد أثرا في انهاك القوى البزنطية وزعزعتها بحريا في هذه الفترة . فإن نزول بني الأغلب في تلك الجزيرة جعلهم ، مرغمين جزءا من تلك القوى المتعددة التي تلعب بمصير ايطاليا في الوقت الذي أجبر فيه بيزنطة على تحويل اسطولها الشرقي الى الغرب .

واستطاع الأغالبة تحقيق انتصارين أحدهما استراتيجي باحتلال جزيرة قوصره وهي منتصف الطريق البحري إلى صقلية والثاني سياسي بكسب صداقة نابولي والتحالف معها حتى استطاعوا بمعونة اسطولها احتلال مسينا سنة ٢٢٨/٨٤٣ المسيطرة على المضيق بين ايطاليا وصقلية[١] .

---

(١) ارشيبالد لويس ـ القوى البحرية ص٢١٣

وتدعم مركز الأغالبة ، معنويا على الأقل ، اثناء ذلك ، بانتصارات اسلامية تحققت على الأرض الايطالية بشكل متتابع سريع أوقعت البحر الادرياتي كله تحت رحمة الاساطيل الاسلامية :

- حقق الانتصار الأول مسلمو كريت حين استطاعوا الاستيلاء على مدينة تارانت بجنوب ايطاليا سنة ٢١٩/٨٣٤ .

- ثم قاموا هم أنفسهم مع بعض القوى الافريقيـة بفتح مدينة برنديزي سنة ٢٢٣/٨٣٨ وبتحطيم أسطول البندقية الذي جاء لنجدتها مع أنه كان يضم ستين قطعة حربية .

- ثم وقعت مدينة باري ، في يد بعض الجنود المسلمين الذين كانوا يعملون في خدمة بعض الدوقات فاستولوا عليها سنة ٢٢٩/٨٤١ مـع الأراضي المجاورة لها وسرعان ما أصبحت ماالتقت هذه البلدان بعضها مع بعض تحت زعامة قائد أغلبي يدعى مفرج بن سليمان فأضـاف إليها فتح مدن أوترنت وكالياري وغيرها حتى أضحى جنوب ايطاليا (شـبه جزيرة كالابريا) كله في يده فأعلن استقلاله ... وتأسست بذلك دولة اسلامية قادها مفرج حتى قتل ثم تسلمها قائـد آخر من بعـده يدعى سودان ... وقد دامت هذه الدولة اكثر من ثلاثين عاما ... والمهم في الأمر أنها اعتبرت نفسها ولاية عباسية . وبعثت الـى سامـراء تطلب الاعتراف بها .

وقد ذكر البلاذري هذه الدولة . ونقرأ لديه من خبرها ما يقول فيه : « وبالمغرب أرض تعرف بالأرض الكبيرة (ايطاليا) وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوما (في البحر) أو أقل من ذلك قليلا واكثر قليلا . وبها مدينة على شاطيء البحر تدعى باره (باري) وكان أهلهـا نصارى وليسوا بروم (يقصد كاثوليك) . غزاهـا حبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها .

ثم غزاها حلفون البربري ويقال إنه مولى لربيعة ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله (الواقع أن ذلك تم في آخر خلافة المعتصم) .وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصنا واستولى عليها وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحية ويوليه إياها ليخرج من حدا لمتغلبين وبني مسجدا جامعا . ثم إن أصحابه شغبوا عليه فقتلوه . وقام بعده سودان فوجه رسوله الى امير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقدا وكتاب ولاية . فتوفي (المتوكل) قبل أن ينصرف رسوله إليه وتوفي المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر وقام المستعين بالله أحمد ابن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين بأن يعقد له على ناحية . فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولي الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين فعقد له وأنفذه ...»[1] وبهذا الشكل ولدت ولاية عباسية جديدة في الساحل الايطالي الشرقي على مدخل البحر الادرياتي هي ولاية باري ! ...

على أن ملاحظة المواقع المتعددة التي اخذت تتوضع فيها رؤوس الجسور الاسلامية عبر البحر ، في ايطاليا تكشف طابعها الاقتصادي التجاري وأنها مراكز ومنافذ تجارية غايتها كسر طوق الحصار البحري البزنطي المفروض على البحر المتوسط الشرقي .. ورؤوس الجسور الاسلامية هذه كانت تتوزع مع وجود المسلمين في صقلية ، على البحر الأدرياتي والإيوني والتيراني على السواء إلا إنها كانت اكثر سيطرة على

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٧٧

مدخل البحر الأدرياتي مما مكن باري وبرنديزي والأساطيل الاسلامية الأخرى من توجيه الغارات على موانيء هذا البحر ومن احراز عدد من الانتصارات على اساطيل البندقية خاصة • ولم ينج البحر التيراني (الشاطىء الغربي الايطالي) من السيطرة البحرية الاسلامية التي حاولت تهديد نابولي ونزلت أرض البابا في روما •

غير أن هذا النشاط البحري المتنامي أصابه بعض الركود نتيجة الخلاف بين مسلمي كريت والقوى الأغلبية وهذا ما شجع — على ما يظهر — بيزنطة على قيادة حملة واسعة سنة ٢٤٥/٨٥٩ قوامها ٣٠٠ سفينة (شلندية) تسترد بها المواقع الصقلية المفقودة ولكن الاسطول العربي دمر مائة من هذه السفن على الساحل وألجأ البقية للفرار في هزيمة ما عرفت بيزنطة منذ زمن طويل أشنع منها[١] • وبينما استطاع الأغالبة استكمال فتح صقلية تدريجيا استمرت القوى البحريةالاسلامية والبزنطية في توازن مستمر وصدام مستمر معا حتى أواخر القرنالثالث

**هـ ـ العلاقة مع دول الحوض الغربي للبحر المتوسط**

كان ذلك الحوض غير موجود بالنسبة لخلفاء سامراء • ولولا أن عليه الأغالبة من جهة والأمويين من جهة أخرى لما وجدنا لدولة من دوله ذكرا في البلاط العباسي •

وإذا كان الرشيد قد سلم افريقية لبني الأغلب مقابل خراج معلوم واسم يذكر في الخطبة والسكة رمزا للولاء فنحن واثقون من أن هذا الخراج انقطع وشيكا ولعله انقطع منذ فتنة الأمين والمأمون فإن الرقم المتعلق به لا يظهر في قوائم الخراج التي حفظها لنا قدامة بن جعفر في

---

(١) انظر بعض التفاصيل لدى ابن الاثير ج ٧ص ٦٣ ( حوادث سنة ٢٣٧ )

كتاب الخراج ولا ابن خرداذبة في المسالك والممالك . وقد سجل الأول قائمة تعود إلى عهد المأمون والمعتصم وكتب الثاني كتابه حوالي سنة٢٣٢ بين عهدي الواثق والمتوكل . وما ندري إن كان انقطاع الخراج قد لحقه قطع الخطبة أم لم يلحقه والأرجح أن الأغالبة أبقوا عليها رمزا لموقفهم السني من جهة واعتزازا بالشرعية من جهة أخرى مقابل دولتي الخوارج والأدارسة المجاورتين .

ولعل الخبر الذي يكشف نوع العلاقة التي كانت بينهم وبين الخلافة العباسية أن التقليد بالإمارة وصل الى زيادة الله بن الأغلب من قبل المأمون إثر وفاة أبيه ابراهيم سنة ٢٠١ ويبدو أن ابراهيم بن المهدي حين استخلف في بغداد بعث إليه يطلب ولاءه فأبى . فلما دخل المأمون بغداد وخلصت له الخلافة شكر له ذلك[1] ثم قلد المأمون ولاية الشام ومصر والمغرب لقائده عبد الله بن طاهر فكتب الى زيادة الله بالدعاء لابن طاهر على منابر افريقية فغضب زيادة الله غضبا شديدا وبعث مع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس[2] . واكتفى المأمون بهذا التهديد فأمسك . وهكذا كانت علاقة افريقية بسامراء مجرد كلمة شكلية تسبك على الدرهم أو تقال على المنبر ولا شيء وراء ذلك .. ويبدو أن العلاقات فترت بينهم وبين سامراء في عهد المعتصم ولعل السبب فيها انقطاع الخراج أو تلكؤ الخلفاء في إرسال مناشير التعيين .

وطبيعي أن **الاندلس** لم تعد منذ زمن طويل من هموم بني العباس ومع ذلك فقد كانت بالنسبة إليهم جرحا ناغرا على ما يظهر يدل على ذلك

---

(١) ابن الخطيب ــ أعمال الاعلام (القسم الثالث) ص ١٦

(٢) ابن خلدون ــ العبر ج٤ ص٤٢٢ ــ وابن الخطيب المصدر السابق ص ١٧

أن مشروعا لغز الاندلس قد خطر في بال المعتصم لمجرد أن فكر في اولئك الأمرين هناك يروي الصولي فيما نقل السيوطي[1] عنه قوله : «٠٠ وكان المعتصم قبل موته قد عزم على المسير الى أقصى المغرب ليملك البلادالتي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأموي عليها ٠ فروى الصولي قال : قال لي المعتصم : إن بني أميــة ملكوا وما لأحد منا ملك ٠ وملكنا نحن ولهم بالاندلس هذا الأموي ٠ فقدر ما نحتاج إليه لمحاربته ٠وشرع في ذلك ٠ فاشتدت عليه علته ومات ٠٠٠» ومات معه آخر مشروع مر في خاطر عباسي للوصول إلى الاندلس ٠٠٠

ويبدو أن الروم كانوا يدركون مدى الحقد العباسي على أمويي الاندلس وقد حاولوا في عهد المعتصم بالذات اللعب بهذه الورقة ٠٠٠ لا سيما حين توالت عليهم الهزائم قبل عمورية وبعدها ٠ ففي تلك الفترة كانوا قد هزموا أمام مسلمي كريت مرات في بحر ايجــه وفي الأراضي الايطالية حيث استطاع المسلمون احتلال عدد من المدن منذ سنة ٢١٩ وهزموا مرات أمام القوى البحرية والبرية الأغلبية في صقليــة وجنوب إيطاليا وبخاصة بعد أن تسلم ولاية تلك البقاع ابراهيم بن عبد الله الأغلبي سنة ٢٢١/٨٣٤ واستسلم لــه عدد من الحصون الصقليــة بينمــا رد الاسطول الرومي إلى القسطنطينية مهزوما هزيمة شنيعة ووصف ابن الأثير ذلك بأنه « كان فتحا عظيما »[2] وفرض نفوذ أسطوله في ذلك البحر كله مهددا بذلك الطرق الحيوية للتجارة البزنطية التقليدية مع أوروبا ٠

ويبدو أن تراكم الهزائم على الامبراطــور البيزنطي جعله يكتب ويرسل السفارات المتعددة في وقت واحد الى لويس التقى ملك الفرنجة

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٣٧

(٢) ابن الأثير ج٧ ص ٤٩٤ (حوادث سنة ٢٢٣)

والي البندقية والى عبد الرحمن الثاني في قرطبة سنة ٢٢٥/٨٣٩ ومع الوفود الهدايا الامبراطورية • وبعض المصادر تفسر هذه الوفود على أنها استنجاد بهؤلاء الملوك بعد هزيمة عمورية التي أصيب امبراطور الروم علي أثرها بالحمى الشديد حسب رواية المصادر الرومية[1] ويبدو أن هذا الهزيمة وإن كانت بين الأسباب فإنها لم تكن السبب الأساسي فهذا السبب هو في الأرجح محاولة إقامة تحالف من دول غرب المتوسط البحرية ضد التوسع الاسلامي الكريتي ـ الأغلبي في قلب البحر المتوسط • صحيح أن هدف هذا التحالف هو مقاومة «العباسيين» ولكن ليس عباسيي الشرق وليس خلافة سامراء التي قد يكون من المبالغة أن تتصور إمكان وصول «جيوش» الفرنجة والبندقية والاندلس لحربها ولكن هذه الاستطالة البحرية العباسية التي ظهرت في أهم جزيرتين استراتيجيتين في وسط البحر المتوسط وهددت النظام التجاري الوطيد الذي تعبت بيزنطة قرونا في إقامته بينها وبين أوروبا وبين الشرق • ولا ننسى أن كريت والأغالبة أصحاب صقلية ودولة باري الثالثة التي نشأت قبل هذا الاستنجاد بسنوات معدودة إنما ترتبط برابطة الولاء والتبعية مع خلفاء بني العباس •

ولا شك أن الوفود الثلاثة والرسائل الثلاثة معا لم تتحدث بحديث واحد مع دوق البندقية ولويس فرنسا وأموي الأندلس • فإذا كان الحديث مع البندقية تجاريا ومن عل وقد دفعت ثمنه فيما بعد هزيمة بحرية منكرة ذهب لها فيها ستون سفينة[2] وكان الحديث مع لويس التقي تجاريا ـ سياسيا ـ مسيحيا معا وقد طلب فيه تيوفيل الروم

---

(١) انظر فازيلييف ـ العرب والروم ص ١٥٧

(٢) انظر خبر هذه الهزيمة لدى فازيلييف ـ العرب والروم ص ١٦١ ـ ١٦٢ •

«الهجوم على أملاك العرب في افريقية لشغل انتبـاه المعتصـم وتفريق جموعه ...»[1] « وعقد سلم وحلف أبديين » ضد المسلمين فإن الحديث مع عبد الرحمن الثاني كان على وجه آخر مختلف بالطبع . يثير حساسية ذلك الأموي ضد العباسيين وعملائهم الاغالبـة وهي حساسية بلغ من إرهافها أن الأمير الأغلبي محمد بن الأغلب ويلقب بأبي العباس بنى مدينة بالقرب من تاهرت ، في لب المغرب ، سماهـا العباسية سنة ٢٧/٨٤٢ فقام الامام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب (إمام الاباضيـة) باحراقها بتدميرها فكافأه عبد الرحمن بمائة ألف درهم[2] ...

ونستطيع أن نعرف مضمون الرسالة البيزنطية من خلال الجواب الذي بعث به عبد الرحمن الى تيوفيل مع موفده الخاص يحيى بن الحكم الغزال ، الشاعر العالم الذي حمل مع الجواب الهدايا . ورسالة تيوفيل تؤكد الصداقة القديمة بين أباطرة بيزنطة والأمويين . واتفاق المصالح الحالية باعتبار أن العباسيين واتباعهم هم العدو المشترك وتعرض التحالف ضدهم وتحرض الامير الاموي على استرداد عرشـه ممن قتلوا آباءه وظلموا الناس لا سيما وان دولتهم توشك أن تنقض . ويعـد الأمير بالعون الصادق إن هو حاول ذلك . ويذكر بأن الربضيين (أصحاب كريت) المطرودين من الأندلس لفتنهم قد أصبحوا رعايا الخليفة العباسي . كما

---

(١) اورد ذلك فازيلييف (ص ١٦٣) نقلا عن مصادر بيزنطية وعلى اي حال فان لويس رغم وعوده بالمعونة لم يقم بها لانه توفي سنة ٨٤٠ .

(٢) انظر ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٩ وابن الأثير ج٦ ص ٥١٩ وهو يجعل بناءها سنة ٢٣٩ .

(٣) نشر هذه الجواب ليفي بروفنسـال في مقالة ترجمت مع غيرها من المقالات الى العربية في كتاب بعنوان : الاسلام في المغرب والاندلس ـ (ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ـ القاهرة ١٩٥٦ ) .

يحرض الأمير الأندلسي على مكافحة الأغالبة ويهون من شأنهم ويشير الى وجود الشقاق بينهم وبين العباسيين ٠٠٠

وكان رد الأمير الأموي أنه قبل الصداقة ولكنه رفض في حـذر ودبلوماسية واضحة قضية التحالف ضد مسلمين آخرين ٠ وكشف في الرد عن عدم انقطاع رغبته في استرداد عرش أجداده في المشرق ويطلب من الله العون لأن النقمة سوف تنزل بالعباسيين من المغرب وعلى يد الأمويين أنفسهم ويصف أهل كريت بأنهم ليسوا جميعا من الربض ولكنهم السفلة والسواد والفساق والأباق ٠ وفي الوقت الذي يعتذر فيـه عن تأديبهم لا يجد غرابة في ارتباطهم بالعباسيين ولكن يبدي استغرابه أن لا يستطيع الامبراطور البيزنطي إخراجهم من بلده ويرجو أن يقـدم العون على إخراجهم إذا استطاع استرداد ملك أجداده ٠٠٠ غير أن الرسالة لا تذكر شيئا عن الوعد الذي تذكر بعض المصـادر أن الأموي وعـده بإرسال الاسطول الأموي عند الانتهاء من المشاغل الداخلية ٠٠٠ وهذا الوعد ، ــولو صح قولا ــ فإنه على اي حال لم ينفذ ٠٠٠ وبقـي الأمويون والحوض الغربي للمتوسط في معـزل عن العباسيين وعـن احداث المشرق !

### ٢ ــ العلاقات مع الروم

كانت العلاقات الخارجية الاساسية والأهم في هذه الفترة التي تلت عصر الرشيد والمأمون مقصورة على الروم ٠ ولم يكن فيها جديد ٠ فهي فصول أخرى من قضية الحدود ، التي ستمتد قرنين آخرين دون طائل٠ وبالرغم من أن الرشيد قضى سنواته الأخيرة على جبهة الروم وكذلك فعل المأمون حتى مات في تلك الجبهة وبالرغم من أن المعتصم بعدهما قاد

(١) الطبري ج ١١ ص ٥٢ .

جيوشه حتى عمورية في قلب الأناضول فإنه لم يكن لكافة تلك الأعمال من غد ولا نتائج جديدة وبقيت الجبهة على حالها الذي استقرت عليه منذ العصر الأموي قبل قرن ونيف .

عاصر هذه الفترة من آباطرة بيزنطة الامبراطور تيوفيل (٨٢٩ ــ ٨٤١ م) وخلفه من بعده ابنه ميخائيل الثالث (السكير) وكان عمره ست سنين فقامت بالوصاية عليه امه تيودورا حتى سنة ٨٥٦ م ثم تسلط على الامبراطور منذ سنة ٨٦٢ م عمه بارداس الذي حمل لقب قيصر ووكيل للامبراطور وولي العهد حتى قتل سنة ٨٦٩ م ..

**ا ــ في عهد المعتصم :**

بدأت سنوات المعتصم الاولى (منذ سنة ٨٣٣ م الى سنة ٨٣٧ م) بهدوء على الجبهة البيزنطية ، دون صلح رسمي . فا ن ابا اسحق ــ كما نعلم ــ بويع بالخلافة في تلك الجبهة نفسها . وعاد مسرعا الى بغداد ، بعد أن امر بجمع الجيش والعودة ، وطي الخطة الحكيمة ، التي كان وضعها أخوه المأمون ، لدرء الروم . اذ أمر بهدم ما بدىء ببنائه من الحصون ، وصرف من كان المأمون أسكنه هناك ، إلى بلادهم .

وسبب الهدوء يرجع الى انشغال الطرفين بما لديهما من مشاكل : فالمعتصم كان عليه التخلص من بابك ومن الزط ، أولا عن شماله وجنوبه وتيوفيل كان مشغولا بحرب صقلية الفاشلة . ولهذا ما كاد امبراطور بيزنطة ينتصر مؤقتا انتصاره الهام سنة ٢٢٢/٨٣٧ م تحت اسوار قصريانة في صقلية ، على عبد السلام بن عبد الوهاب قائد بني الاغلب ، ويأسره ، حتى التفت للجبهة الشرقية . فاتصل ببابك ، أو أن بابك هو الذي اتصل به ، لما اشتد عليه الحصار . فكتب يحرضه على غزو العرب ، ليخف الحصار عليه ، قائلا انه لم يبق على باب الخليفة أحد ، ولا قوة ، لأنه

وجه كل جيوشه ضد الخرمية ، حتى انه اشرك فيها طاهيه ، وحائك ملابسه[1] • (ويستغل بابك هنا لقبي القائدين جعفر الطباخ وايتاخ الخياط) وتظاهر بابك ــ في قول فازيلييف ــ بانه مسيحي ووعد باعتناق المسيحية[2] من قبل اتباعه من بعد •

مشى تيوفيل في نيف وسبعين الفا من الجند وثلاثين ألفا من الاتباع، بينهم البرغر (البلغار) والصقالبة ، وغيرهم ، وبينهم فرقة من اصحاب بابك الفرس والاكراد ، الذين هربوا من مواقعة اسحق بن ابراهيم (في منطقة همذان ) ويسمى العرب رئيسهم (برسيس)[3] ولعله في الاصل نرسيس ويسمى في بعض المصادر (نصرا) أيضا • وربما كان هو نفسه تيوفوب ــ في رأي فازيلييف ــ ••• اتجه امبراطور الروم بجيشه الى أعالي الفرات ليفتح الطريق ــ فيما يظهر بينه وبين بابك للاتصال به ولم ينس أن يرسل الى أمراء ارمينية يطالبهم بالإتاوة • ثم هاجم الروم حصن زبطرة[4] الحصين • وهو من ثغور الجزيرة الهامة • « وتميز أكراد نصر بفظائعهم في البلدة ، ووحشيتهم • فاحرقت المدينة ، وقتل الذكور من أهلها (أو أتى عليهم بالسمل والجدع والصلم) • وأسر النساء والاطفال • وشمل القتل المسيحيين أيضا • ثم تركت سميساط رمادا •

---

(١) الطبري ج٩ ص ٥٦ (٣/١٢٣٤) .

(٢) فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٢٤ وانظر كذلك
Bury, A. Hist. of the East. Rom. Emp. P 259.

(٣)انظر الطبري ج٩ ص ٥٦ (٣/١٢٣٥) وانظر فازيلييف ــ العرب والروم (بالعربية) ص ١١٤ .

(٤) «اختلف العلماء طويلا في تعيين مكانها . ولكنه تحدد اليوم تحديدا جازماً في موقع بلدة (فيران شهر) الحالية على نهر سلطان صو ــ جنوب غرب ملاطية» فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٢٥ .

(ونهبت بعض أراضي ارمينية أيضا) ولم تلاق ملاطية نفس المصير ، لأنها فتحت أبوابها ، واطلقت اسرى الروم فيها»[1] • ولا شك أن هذه العملية الانتقامية الرهيبة إنما كانت السبب فيها فشل الحملة الضخمة في تأدية مهمتها • فقد وصلت أعلى الجزيرة متأخرة ••• كان بابك إذ ذاك قد انهزم وهرب ثم أسر فانصب الانتقام على أهل الثغور الجزرية التي وقعت تحت يد الجيش الضخم ليرجع على الأقل بالظفر والغنائم لا صفر اليدين بينما كان بابك نفسه يقبع في الأسر • وفي الوقت الذي كان فيه الامبراطور يعود خوف هجوم عربي عليه ، ليستقبل في القسطنطينية استقبالا رائعا ويبني قصرا وقناة لتخليد نصره ••• كان الهاربون من زبطرة يصلون سامراء[2] بالانباء المروعة • فاهتز الخليفة ، واهتز الناس ، لأنبائهم • ودخل الخليفة المعزول ، ابراهيم بن المهدي على المعتصم ، فأنشده بعض ماحرضه • ورويت له قصيدة استفزته • فأمر بعمامة الغزاة ، فاعتم بها ونادى لساعته ، «بالنفير» وبالاستعداد للحرب • على انه لم يكن يستطيعها قبل ان ينتهي لا من امر التعبية ــ كما قال الطبري ــ[3] ولكن من أمر الشتاء في الواقع فلم يكن ممكنا قيادة حملة ضخمة والشتاء على الابواب كما ان بابك نفسه لم يقع في الأسر بعد وإن كان قد هزم[4] • وهكذا لم يبعث المعتصم على الفور بغير نجدة

---

(١) فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٢٧ .

(٢) الفخري ص ٢٠٩ يذكر القصة المشهورة : وامعتصماه ! التي هزت المعتصم .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٥٦ وهو يضع زبطرة في أخبار سنة ٢٢٣ وكذلك يفعل اليعقوبي (ج٢ ص ٤٧٥) .

(٤) ثمة مشكلة توقيت تتعلق بحملة زبطرة وحملة المعتصم الجوابية على عمورية . فمعظم المصادر العربية تضع الحملتين إحداهما وراء الأخرى مباشرة وتجعل زبطرة في سنة ٢٢٣ للايحاء بردة الفعل السريعة والمباشرة

لأهل زبطرة ، بقيادة عجيف بن عنبسة استطاعت ان ترد اليها الهاربين من اهلها ، وتطمئنهم وإن مزقها البزنطيون[1] ، لقلتهـا • وقـد قبض الأفشين في تلك الفترة على بابك فبقي لديه[2] في معسكره بالجبال قرابة أربعة أشهر انسحبت خلالها الجيوش العباسية وأعيدت تعبئتها ، للحملة الانتقامية التي توجهت الى عمورية في نيسان من السنة التالية سنة ٨٣٨ ،

---

لدى المعتصم والواقع كما يتبين من التوقيت أن بينهما ثمانيـة أشهر على الأقل وإن لم يكن اكثر لأن بينهما شتاء كاملا . وبالرغم من أن المصادر لم تذكر موعد هجوم زبطرة الا إن التوقيت يكشفها على الشكل التالي :

هزم بابك في البذ في ٢٦ آب سنة ٨٣٧ ( ٢٠ رمضان سنة ٢٢٢ ) . استلمه الأفشين أسيرا في ١٦ ايلول سنة ٨٣٧ (١٠ شوال) . وصل بابك سامراء في ٤ كانون الثاني سنة ٨٣٨ (٣ صفر سنة ٢٢٣) . خرج المعتصم لحرب عمورية في أول نيسان سنة ٨٣٨ (٦ جمادى الأولى سنة ٢٢٣) وبدأ الحرب في أواخر تموز سنة ٨٣٨ (شعبان سنة ٢٢٣) . ولما كانت الأشهر بين ايلول سنة ٨٣٧ ونيسان سنة ٨٣٨ هي أشهر الشتاء والثلج في تلك الجبال ولا تحتمل الحروب ولا سيما الحملات الضخمة فلا بد أن زبطرة كانت في أيلول سنة ٨٣٧ في ارجح التوقيت .

(١) تسهب المصادر العربية في ذكر فظائع حملة تيوفيل هـذه : الطبري ج٩ ص ٥٥ ، ٥٦ المسعودي ج١٤ ابن العبري ص ٢٤٢ .

(٢) يرى فازيلييف ان خبر زبطرة وصل قبيل هزيمة بابك . ويرى مثل ذلك «بروك» في مجموعة كامبردج . وربما كان هذا غير صحيح إذ يفهم من الطبري قوله : «.. واتفق من لطف الله تعالى أن المعتصم ظفر ببابك الخرمي عند ورود الخبر بخروج ملك الروم» ان سقوط بابك سابق لوقعة زبطرة حتما . ولعل خبرها وصل في الفترة ما بين هزيمـة بابـك ، وبين القبض عليه ، ووقوعه في الأسر أو وصل بعد أسره بقليـل . ولكن قدوم الشتاء حال دون التحرك المباشر الفوري . ولنلاحظ أن الاخبار عن زبطرة لا تذكر أي شيء عن وجود شتاء وثلج في وقتها وهذا يعني انها لا يمكن أن تكون وقعت بعد ايلول سنة٨٣٧ حتى نيسان سنة ٨٣٨ .

بعد شتاء ثقيل من الانتظار أمضاه المعتصم ــ على ما يبدو ــ «معسكرا بموضع يعرف بالعيون غربي دجلة»[١] وتتبين لهفة الخليفة وسرعته في المسير ، من خروجه المبكر في الحملة ولم تكن من عادة الحملات ، لاسيما الكبرى الخروج في نيسان ومن رفضه قبــول توقيت المنجمين للخروج وكانوا يتنبأون بالفشل إن خرجت في هذا الموعد وينصحون بالانتظار حتى مطلع الخريف «ونضج التين والعنب»[٢] • ويروي الطبري في سبب استهداف عمورية بالذات ، «ان المعتصم سأل : أي حصون الروم أمنع وأقوى ؟ فقيل له عمورية ! فانه لم يقصدها مسلم ، منذ ظهور الاسلام • وهي عين المسيحية وابنائها • وهي عندهم أشرف من القسطنطينية!»[٣] • وقد يفهم من الخبر ان المعتصم قرر قصد عمورية ، وهو في سامراء • وقد يكون هذا صحيحا لكن من المحتمل ان هذا القرار تم خلال الحملة ،كما يستنتج من الفخري • ويظهر ان اختيار عمورية كان لأنها مسقط رأس الأسرة المالكة البيزنطية • وهي إذ ذاك ، « في أزهر أيامها •• والراجح أن ميخائيل الثاني قد رفعها إلى أسقفية رئيسية مستقلة • ثــم رفعت بعد المعركة إلى مطرانية تمجيدا لضحاياها •••» وكانت ذات «حصن قوي ، وسور عليه أربعة وأربعون برجا»[٤] والمصادر الرومية تزعم أن زبطرة مسقط رأس المعتصم أيضا لايجاد التقابل بين فتحي زبطرة وعمورية •

وقد مشى المعتصم في جيش متجهز ــ كمــا يقول الطبري ــ[٥]

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٢) هذا ما ردده بيت ابي تمام المشهور في فتح عمورية :

عشرون الفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

(٣) الطبري ٩ ص ٥٧ (٣/١٢٣٦) .

(٤) فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٤٤ .

(٥) انظر الطبري ج ٩ ص ٥٧ (٣/١٢٣٦) .

«جهازا لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الادم والبغال والروايا والقرب (والجواشن ، والزرديات) وآلة الحديد والنفط ...» وأما عدد الجيش فكان ضخما فالمكثر يقول خمسمائة الف والمقل مائتي الف[1] ويبدو أنه كان يحوي بجانب العرب والترك والمغاربة (عرب مصر) فرقة من الأرمن يقودها إما بقراط بطريق البطارقة أو أمير البسفرجان (الفاسبوراكان) حسب الروايات البيزنطية .

وكان قد أمر المعتصم أن يكتب على الألوية والتروس اسم عمورية .

وعند سبسطية (سروج) قسم المعتصم جيشه إلى فرقتين : بعث أولاهما بقيادة الافشين ، عن طريق الحدث ، إلى أنقره . وسار بالثانية فبعث (٢٢ رجب — ٩ حزيران قسما آخر منها ، مع أشناس من الدرب ، ثم تبعه الباقي بعد يومين ليلتقي الجميع عند أنقرة . وعلم المعتصم من المخبرين والجواسيس — وكانوا يستخدمون استخداما واسعا لدى الطرفين — أن الامبراطور بعد أن كمن له شهرا ذهب لمفاجأة الأفشين وبالرغم من أن الخليفة فشل في ايصال الخبر لقائده . فقد اصطدم الافشين بامبراطور بيزنطة عند (دزمون) وهزمه (٢٥ شعبان — ٢٢ تموز) في الضباب والمطر الكثيف وشاع أن الأمبراطور فقد والواقع أنه هرب إذ بلغه ائتمار الفرس والموجودين معه ، ومحاولتهم تنصيبهم تيوفوب

---

(١) انظر المصدر السابق والمسعودي ج٤ ١٤ — ١٥ والمصادر السريانية (ميخائيل السرياني — ج٣ ص ٩٥) تجعل مع المعتصم خمسين الفا ومع الافشين ثلاثة وثلاثين الفا معهم التجار والباعة وأتباع الجيش ومعهم خمسون ألف بغل . . .

امبراطورا . أو بلغه خبر مؤامرة في القسطنطينية إذ بلغها أنه مات[1] ، وهذه هي على الأقل الأعذار التي تقدمها المصادر البيزنطية والأجنبية لهزيمة الامبراطور الرومي وارتداده ، بدل متابعة الدفاع ، الى العاصمة أو إلى مدينة دوريليوم أو نيقية القريبة منها ، بعد أن ركـز جيشه في عمورية ، بقيادة خاله ياطس حاكم اناتوليا وحشد معها جمهرة من كبار القـادة .

وقد دمرت جيوش المعتصم انقرة التي كانت أخليت ، حين وردت أخبار معركة الأفشين . ثم جاء الأفشين نفسه وتوجهت القوى العباسية الى عمورية في ثلاثة أقسام ، تخرب وتحرق القرى في الطريـق حتى إذا وافتها بعد عشرة أيام ضربت الحصار عليها .

ويذكر المؤرخون هنا أن هزيمة امبراطور الروم الأولى تركت في نفسه أبلغ الأثر «وانكسرت شجاعته ونسي حملته الظافرة في العام الماضي وبعث الى المعتصم رسلا أمرهم بالشرح وبذل الوعود المذلة ...»[2] وادعى تيوفيل «أن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمري (وقد يكون هذا صحيحا لحد ما) وأنا أبنيها بمالي ورجالي وأرد من أخـذ من أهلها وأخلي جملة في بلد الروم من الأسارى وأبعث إليكم بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب الأباطرة ...»[3] (ويقصد جماعة المحمرة والاكراد في جيشه بالطبع) . ولكن المعتصم «هزيء بهذا العرض واتهم الروم بالجبن»

---

(1) يفترض فازيلييف من عنده أن الثورة التي اوشكت على الظهور في القسطنطينية هي ثورة الفرس جماعة تيوفوب (انظـر العـرب والروم ص ١٤٢ ) .

(2) فازيلييف ـ العرب والروم ص ١٤٣ .

(3) اليعقوبي ج٢

ثم لم يأذن لرسول الروم في العودة الى الامبراطـور حتى تـم فتح عمورية[1] .

بدأ حصار عمورية في أول آب سنة ٨٣٨ ومات الالاف من الناس في الأيام الثلاثة الأولى من المعركة وكان ممكنا أن تستمر طويلا لولا أن أسيرا عربيا كان قد تنصر لدى الروم دل المعتصم على جانب ضعيف في السور فركز الهجوم عليه حتى انهار وانهارت معه قوى المدافعين ... فاستسلم قائد الحامية ياطس وأعوانه[2] وفتحت البلدة (١٦ رمضان سنة ٢٢٣ آب ٨٣٨ ) وفي الطبري والمسعودي تفاصيل الانتقام الرهيب فيهـا لزبطرة[3] . وقد كانت الغنائم من الوفرة بحيث أمر المعتصم ـ حسب رواية الطبري ـ لكثرة السبي والغنائم ، «ان لا ينادي على السبي إلا ثلاثة اصوات ليتروج البيع ... وكان ينادي على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة والمتاع الكثير جملة واحدة» واحتجز المعتصم البارزين من الأسرى بعد ذلك ثم أمر بقتل الباقين وهم حوالي ستة آلاف ثم هدمت أسوار عمورية وأبوابها ...

ويبدو أن امبراطور بيزنطة حاول انقاذ المدينة أو معونـة جيشه

---

(١) انظر فازيلييف ـ العرب والروم ص ١٤٣ والطبري ج ٩ ص٦٩ (١٢٥٤/٣) .

(٢) يذكر فازيلييف (ص ١٤٩) أن العرب اتبعوا في دخول المدينة خطة الغدر وانه بينمـا كان القائد المدافع عن الموضع المثلم من السور يفاوض المعتصم دخل الجنود العرب المغاربة والأتراك الى المدينة . وإنما كان ذلك القائد يحاول إنقاذ ما يمكن انقاذه في قضية خاسرة سلفا : «ومكروا ومكر الله . . . » .

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ٦٨ ـ ٧٠ (١٢٥٢/٣ ـ ١٢٥٥) ؛ المسعودي ج ٤

بالأسطول الحربي ، فبعث بحملة بحرية إلى انطاكية ــ على ما يذكر ميخائيل السرياني ــ نزلت ميناء سلوقية ، ونهبت التجار ، وأسرت ركب الاسطول وفرت • ولكنها كانت ضربة جانبية لا قيمة كبيرة لها ولم تترك في المعركة أي أثر •

ولقد أشفق الامبراطور الرومي بالعكس أن يذهب المعتصم بأسراه الكبار والكثيرين ، وفيهم من هو من أصحاب الامبراطور أو من أقربائه أو من خاصته أو من كبار قواده فأراد قبل أن يبرح ميدان المعركة أن يصفي الأمر مع الخليفة لا بالحرب التي لم يعد يستطيعها ولكن بالمال • ويذكرون أنه أرسل الى المعسكر الاسلامي «بوفد عليه البطريق باسيل فعرض على المعتصم مائتي قنطار فداء لأسرى عمورية وخص منهم بعض أقربائه وخاصته • ولكن الخليفة رفض العرض ذاكرا أن نفقات الجند في الحملة بلغت ألف قنطار واشترط تسليم نصر الكردي الذي تنصرودخل في خدمة الروم هو ومنويل»[1] ••• وفشل مشروع الفداء الفوري •

وكان من النتائج المباشرة للفتح أن قرر المعتصم المسير الى القسطنطينية «والنزول على خليجها والحيلة في فتحها برا وبحرا» بمعنى أن المشروع الذي كان وضعه المأمون ، وانطوى بموته السريع قد استيقظ الآن في رأس المعتصم ، وأصبح مشروعه هو أيضا • ولكن لم يقيض له أن يتحول إلى التنفيذ لأنه اكتشف مؤامرة في الجيش للتخلص منه ومن أتراكه وتولية العباس ابن أخيه المأمون ••• وهذا هو على الأقل العذر الذي يقدمه المسعودي تبريرا لعدم متابعة المعتصم الطريق الذي كان مفتوحا أمامه حتى القسطنطينية • والواقع أنه كان في الأصل قد

صمم على إنهاء الحملة عند عمورية لأنه إنما اكتشف تلك المؤامرة وهو عائد بالفعل ونكل بأصحابها أبشع التنكيل على طريق العـودة ذاتها .
ولكنه أدرك بعد عمورية ــ وهو المحارب المجرب ــ أن جيشه البري لن ينفعه كثيرا في أخذ مدينة لا بد في أخذها من أسطول بحري لا يملكه في ظروفه القائمة وأن المشروع الذي نبت في خاطره إثر النصر قد يسبب له كارثة عسكرية هو في غنى عنها مع طول خطوط مواصلاتـه ونضوب التموين . فلا بد من تأجيل المشروع في تلك السنة على الأقـل ليحكم الاستعداد له . وربما استطعنا على ضوء هذا الواقع فهم الأمر الذيأمره إذ ذاك ببناء الاسطول في الشام ومصر . وهو الاسطول الذي لم ينفعه شيئا لأنه حين انتهى بناؤه بعد أربع سنوات توفي المعتصم نفسه وصاحبه تيوفيل في شهر واحد معا بينما أكلت العواصف السفن الأربعمائة التي بنيت ، في أول مشروع حربي قامت به .

وما من شك بالمقابل في أن تيوفيل خشي أن يتابع المعتصم الطريق وإذا لم تأته عيونه بأخبار النوايا التي ينويها الخليفة فلقد كان ممكنا أن يقدر بنفسه ولنفسه الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها امبراطوريته لو جرى ذلك لا سيما وأن القوى الامبراطورية المهزومة لم تكن من القوة في تلك الفترة بحيث تحمي العاصمة المهددة . وثمة احتمال كبير في أن يستطيع المعتصم تجنيد أسطول كريت ، وهي عباسية بالاسم ، وأسطول الأغالبة أيضا في جبهة واحدة ضده ومن هنا فإن تيوفيل وضع الخطـة المقابلة فما إن أدار المعتصم ظهره للعودة بعد أن مشى مرحلة في الطريق الامبراطورية نحو القسطنطينية (وهي مسيرة كان الغرض منها التأكد من أن الروم لن يلحقوا بالجيش العائد فيضربوا مؤخرته وجوانبه) حتى قرر إثارة القوى البحرية الأخرى في المتوسط ضد القوى الاغلبيةوالكريتية. أما العباسية في المشرق فكان هو المتكفل بها . وعلى هذا الأساس أرسل

بوفوده الى دوق البندقيـة وملك الفرنج وأمير الانـدلس ليقيم جبهة تحالف تجاري سياسي ، أو جبهة متوسطية بحرية تظل بيزنطة أول وأهم المستفيدين منها .

وإذا لم يتحول انتصار عمورية الى مشروع لإنهاء الدولة البيزنطية فإنه أيضا لم يتحول إلى فتح . أي أن المعتصم لم يفكر ـ وهنا نقطـة التساؤل الأساسية ـ في الاحتفاظ بالمناطق التي دخلها . لقـد يكون شعراء ومؤرخو تلك الفترة أعطوا ذلك النصر اسم الفتح ولكن ثمـة فارقا أساسيا بين «فتوح» العهد الأموي وهذه الحملة التي لـم يفكر المعتصم في استغلالها لتوسيع الدولة . لقد أعادها برأيه وعمله ورغم كل الدماء التي بذلت فيها والجهود والأموال التي انفقت من أجلها الى مجرد «عملية حدود» وهكذا تقلصت من الناحية الواقعيـة لتصبح هجومـا دفاعيا محدود الغرض والأثر او بكلمة أخرى حملة تأديبية كبيرة ! وما من شك في أن عملية عمورية تصبح لهذا واحدة من أندر المواقف الكاشفة لمدى الطموح العباسي في هذا المجال .

وكل ما نجم عن عمورية في الجانب العربي هو الأسرى[1] والغنائم ومجموعة من قصائد الشعراء . وأما على الجانب البيزنطي فيذكرون أن الامبراطور بلغ من تأثير الكارثة فيه أن مرض واشتد مرضه وأصابتـه حمى شديدة أكثر من أجلها من شرب الماء البارد فأصابه زحار أدى فيما بعد الى موته ... هذا على الأقل ما كان يروى في القرن العاشر[2] بعد قرن من عمورية .

---

(١) قتل أسرى عمورية الباقون فيما بعد في ٨ آذار سنة ٨٤٥وصاروا عند الروم يعرفون باسم «شهداء عمورية الاثنين والاربعين» .

(٢) فازيلييف ـ العرب والروم ص ١٥٧ .

ومع ذلك فقد استبدت قصة عمورية بالخيال الشعبي ، لا في القرن التاسع وحده ، ولكن في القرون التالية • وبقي ذكرها فيما عرفه الروم باسم «الملحمة العربية» • كما حفظ البيزنطيون قصص المدافعين باسم «اخبار شهداء عمورية الـ ٤٢» وسجلت اسماء الذين اسلموها بعنوان « الخونة الذين سلموا عمورية » أما أصداء النصر بالمقابل لدى العرب فكانت قوية لدرجة أصبح معها اسم المعتصم نموذجا دائما للمروءة والدفاع المشرف عبر القرون • على أن الغزوات بين العرب وبيزنطة عادت فورا الى سابق عهدها ، بعد عمورية ، من هجمات محلية محدودة وعمليات محدودة •

ـ وشهدت سنة ٢٢٤/٨٣٩ هجوم أبي سعيد محمد بن يوسف أمير الشام والجزيرة مع بشير أمير المصيصة مرة بعد مرة على أرض الروم • وقد أتيح لهما في إحدى هذه الغزوات أن يتمما انتصار عمورية بالظفر بصاحب قصة زبطرة ••• وهو تيوفوب أو نصر • كان على الثغور وتعقب بشيرا في بعض حملته ففاجأه أبو سعيد وهزمه وذبح الخرمية الذي كانوا معه عن آخرهم وقتل نصر نفسه فوضع الملح في رأسه وأرسله الى المعتصم مع رؤوس أصحابه(١) وقد تسربت قصة هذا الرجل الى ملحمة سيد بطال الشعبية والتي نرى فيها اسماء بشير وبابك ••

ـ غير أن الروم عادوا في السنة التالية سنة ٢٢٥/٨٤٠ ـ ٨٤١ فتعقبوا أبا سعيد واستطاعوا هزيمته هزيمة احتلوا على أثرها عدة ثغور : الحدث ومرعش وأرض ملطية • وأرسل الروم عقب ذلك وفدا يطلب

---

(١) ذكر ذلك ميخائيل السرياني ـ ج ٣ ص ٩٦ وانظر فازيلييف ص ١٥٦ •

المهادنة فتقبله المعتصم لما كان على يديه من الثورات الداخلية . وبعض المؤرخين المعاصرين يتصور أنه قد جرى اثناء هذه الزيارة بعض التبادل للأسرى ...

وهدأت الجبهة بعد ذلك واستمر هدوءها حتى عهد الواثق ...

**ب ـ في عهد الواثق :**

إذ نحن استثنينا الحملة البحرية الفاشلة التي قام بها أبو دينار في مطلع عهد الواثق والمأساة التي انتهى بها الاسطول ، ثم غزوة شتوية فاشلة بدورها قام بها في أواخر عهده أحمد بن سعيد حفيد قتيبة الباهلي فمات من البرد مائتا انسان وغرق مثلهم في النهر وأسر مثلهم بيد الروم ، فإنا نستطيع أن نعد فترة خلافة الواثق فترة هدنة طويلة استمرت سنتين قبله ثم استمرت خمس سنوات بعده . وقد توجت هذه الهدنة بعمل سلمي انساني له معناه الكبير بالنسبة للعلاقات العربية ـ الرومية في هذه الفترة وإن لم يكن بالجديد وهو فداء الأسرى . ولئن سبق اكثر من فداء قبله فهذا أول فداء كامل لكافة من لدى العرب والروم من الاسرى . ونحن نسميه على منهج المؤرخين القدامى فداء وهو في الواقع تبادل أسرى . وقد كان لدى كل من المسلمين والروم من الدواعي ما يدفعه لقبول مثل هذا العرض الذي لم يكن القصد منه الفداء نفسه بقدر ماكان القصد منه تهدئة الجبهة نفسها وإبداء حسن النية فيها فالروم كانوا في غمرة الانشغال والفشل المستمر أمام عرب صقلية وكريت معا ، والواثق كان في تلك الفترة نفسها يواجه الأزمات الداخلية الخطيرة التي أثارها فساد الإدارة حوله وسوء سمعتها بالرشوة ، بجانب تسلط الجند الترك على الدولة واستئثارهم بحكمها في المشرق والمغرب ، عدا ما أثاره اصرار الواثق على قضية خلق القرآن من رد فعل سني عنيف فبدا الواثق وكأن

الجهاد والروم هم آخر همومه . ولهذا ما إن جاءه العرض بفداء الأسرى من قبل الروم حتى قبله واتخذت له من المظاهر والمراسم ما جعله حدثا تاريخيا بارزا على الجبهة الرومية[1] .

وصل رسول ملك الروم الى سامراء بهذا العرض سنة ٢٣٠/٨٤٥ فأرسل الواثق معه احمد بن أبي قحطبة رسولا من عنده الى البلاط البيزنطي ليعلم بالضبط عدد من بأيديهم من اسرى المسلمين ، وتبين أن العدد يبلغ أربعة آلاف وثلاث مائة واثنين وستين انسانا ...[2] وتقرر الفداء وحدد مكانه على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس وزمانه في عاشوراء سنة ٢٣١ منتصف ايلول سنة ٨٤٥ وبينما كلف بعض البطارقة والقادة من الجانب الرومي عهد الواثق برئاسة العملية الى خاقان الخادم، خادم الرشيد المرابط في الثغور . وجرى الفداء بحضور قوة عربية كبيرة بلغ عددها أربعة آلاف وعقدت هدنة أربعين يوما لاتمام الفداء في أمان.. ويبدو أن الأسرى العرب كانوا اكثر عددا من أسرى الروم لأن الواثق وجه الى الأسواق يبتاع الرقيق الرومي وأخرج من قصره النساء الروميات العجائز حتى استوفى العدة المطلوبة . وكان بين الاسرى رجل من أكابر طرسوس أمضى في الأسر ثلاثين عاما وكان بين المفتدين أسرى زبطرة

---

(١) نجد تفاصيل هذا الفداء ودقائق الطريقة التي تم بها لدى الطبري ج ٩ ص ١٤٢ - ١٤٦ (١٣٣٩/٣ ، ١٣٥١ - ١٣٥٦) كما نجد قائمة كاملة بالأفدية التي جرت في الاسلام حسب ما تحقق لدى المسعودي وذلك في كتابة : التنبيه والاشراف ص ١٦٠ - ١٦٦ .

(٢) الرقم الذي يذكره فازيلييف (ص ١٧٦) هو ٣٠٠٠ رجل و ٥٠٠ امراة وولد اما اليعقوبي فيجعل العدد ٥٠٠ رجل و ٧٠٠ امراة فقط (ص ٤٨٢) والرقم الذي ذكرناه مأخوذ عن الطبري والمسعودي يتفقان فيه . ويذكر الطبري أن عدد النساء والأولاد كانت ثمان مائة .

وعمورية من الجانبين وكانت مفاجأة الفداء التي فرضها الواثق امتحان من يفتدي بخلق القرآن أمام لجنة من القضاة ، فمن قال به افتدوه ومن رفض ردوه لأنه زائغ عن الدين لا يجوز فداؤه ، كأنما أضحت العقيدة المعتزلية لا عقيدة رسمية فحسب ولكن دليل الرعوية ورمز المواطنة في بلد الاسلام ، وقد رفض بعض الأسرى بالفعل أن يقولوا بخلق القرآن فردوا الى الأسر والطريف في الأمر أن المسلمين افتدوا في الوقت نفسه أيضا مائة أو اكثر من أهل ذمة المسلمين(١) ، وهو أمر يدل على تغلب روح المواطنة في نظرة المسلمين الى هؤلاء على التعصب الديني وهو ما حرم منه اولئك الذين رفضوا الاعتزال ...

جـ ـ في خلافة المتوكل : ولا يأتي عهد المتوكل في سنواته الأولى بجديد على الجبهة الرومية حتى سنة ٢٣٦/٨٥١ ... ففي تلك السنة والسنتين التاليتين برز على الجبهة محارب استرعى الأنظار بجرأته وبالصوائف الثلاث التي قادها ضد الروم تلك السنوات هو : علي بن يحيى الارمني بينما كانت صقلية من جهة وكريت خاصة من جهة أخرى تكيل الضربات والهزائم للجيش الرومي وللاسطول ... و لايبدو أن الروم اهتموا بهزائمهم البرية أمام علي بن يحى قدر اهتمامهم بهزائمهم البحرية أمام كريت كما لا يبدو أنهم أرادوا جواب سامراء بقدر ما أرادوا ضرب المعين الحيوي لكريت حين خططوا ونفذوا ضربتهم البحرية القاسية في دمياط سنة ٢٣٨/٨٥٣ ، لقد ضربوا بدمياط دار صناعة كريت ومصدر تغذيتها بالسلاح ومركز تزويدها بالمؤن ، ولكن الضربة في الواقع انعكست في معناها السياسي والعسكري على الواثق وعلى

---

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٤٣ (١٣٥٥/٣) .

العباسيين • ولقد آذت أصحاب كريت فعلا ولكن أذيتها المعنوية الكبيرة إنما أصابت سامراء وصاحبها المتوكل • ومن الغريب أن هذا الخليفة لم يجب على هذه الفتكة الهجومية بغير بعض التدابير الدفاعية وقد أورد المستشرق غروهمان نص وثيقة بردية يرجع تاريخها الى سنة ٢٤١ تعطي فكرة عن تهديد الروم لسواحل مصر في تلك الفترة وشدة اهتمام الولاة بدفعهم وما عاناه المصريون في ذلك •

ولقد عاد الروم سنة ٢٤٠/٨٥٥ فهاجموا فجأة مدينة عين زربة فأسروا قبائل الزط التي زرعها العرب هناك قبل خمس عشرة سنة • أخذوهم بنسائهم وأطفالهم ودوابهم عبر الأرض البيزنطية فوضعوهم على الطرف الثاني من التخوم في اقصى البلقان • وقد تتساءل عن السبب في هذا التصرف الذي حملت به بيزنطة على عاتقها مثل هذا العبء ويبدو أننا نجد التفسير إذا تذكرنا ما كان يقوم به هؤلاء الزط أنفسهم في السواد من نهب وسلب وعدوان • ولعلهم مارسوا مثل ذلك ضد الأراضي والاقطاعيات المعروفة للقواد الروم • أو لعل العرب استخدموهم في التجسس والتخريب في أرض العدو • فوجودهم في الحالين ضار كثير الأذى والطريقة المثلى استخدامهم لمصلحة بيزنطة ضد شعوب أخرى •• ويبدو أن هذه العملية السكانية المحدود قد تركت أثرها الاثنوغرافي في أوروبا فما يزال فيها إلى اليوم شعب من الغجر يعتقدون أن اجدادهم هم هؤلاء الزط ••• المنقولون بالعصا من حدود لحدود •

ولم يكن لهذا الأمر أي شأن لدى العباسيين بدليل أنهم اتفقوا في تلك السنة نفسها سنة ٢٤٠/٨٥٥ على إقامة فداء جديد يكرس حدود الجبهة وهدؤها • وكانت مبادرة الفداء في هذه المرة أيضا من قبل امبراطورة الروم تيودورا • أرسلت رسلا الى الخليفة بالهدايا فأرسل المتوكل نصر بن الأزهر الشيعي الى بلاط القسطنطينية لينظر في عدد الأسرى

والشروط . وقد ترك لنا هذا السفير صورة كاملة جميلة لمراسم استقباله وتقريرا طريفا عما جرى له في مقابلة الامبراطور بعد أن ذهب إليه ثلاث مرات في الأفدية الثلاثة المتتالية التي جرت في هذه الفترة[1] . ويذكر ابن الأزهر أن عدد أسرى المسلمين لدى الروم كان عشرين ألفا وهو لا شك رقم غريب مبالغ به لا سيما بعد فترة الهدوء الطويل التي سبقت مشروع الفداء الجديد وتظهر المبالغة فيه إذا قورن بأعداد الفداء التي اعقبت زبطرة وعمورية والتي لم تتجاوز كثيرا أربعة آلاف كما تظهر إذا عرفنا أن عدد من فودي بهم فعليا إنما كان فقط ــ ٧٨٥ ــ رجلا و ١٢٥ امرأة حسب قول الطبري[2] . ويبدو أن الرقم الأصح هو ألفان لا عشرون وإنما ارتفع الرقم لتبرير الحكاية الأخرى التي قد يكون أساسها صحيحا وقد يكون ذهب ضحيتها عدة مئات من الأسرى ولكنها بالرقم الكبير الذي تورده قد تكون لعبت بها المبالغة . والحكاية هي أن تيودورا ــ تحت تأثير الخصي المسيطر على العرش في عهدها ويسميه الطبري قنقلا (ويقصد تيوكتيست المعروف يومئذ بنفوذه الواسع) قد عرضت بعد خروج نصر من القسطنطينية على الاسارى لديها التنصر فمن رفض قتلته . وهكذا قتلت اثني عشر ألفا[3] ...

وعلى أي حال فقد جرى الفداء سنة ٢٤٠/٨٥٥ في المكان نفسه

---

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ٢١٩ ــ ٢٢١ (٣/١٤٤٩ ــ ١٤٥١) .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٠٣ (٣/١٤٢٨) والمسعودي يذكر رقمين آخرين هما ٢٢٠٠ رجل و ١٠٠ امرأة ولكن المقريزي الذي ينقل عنه يكتب ٢٠٠ رجل و ١٠٠ امرأة وهو الرقم الذي يظهر في بعض طبعات مروج الذهب للمسعودي .

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ٢٠٢ (٣/١٤٢٧) .

الذي جرى فيه الفداء السابق وبالمراسم نفسها ولكن ••• دون امتحان طبعا بقضية خلق القرآن • وبإجراءات احتياطية أقل صرامة وعقدت من أجله هدنة استمرت وقتا أطول امتد عدة أشهر ( من تشرين الثاني سنة ٨٥٥ حتى آذار سنة ٨٥٦) • واستمرت عملية الفداء هذه المرة سبعة أيام يذكر المسعودي أن فيها قد تم افتداء المائة ذمي •••

غير أن الهجمات المتبادلة عادت بسرعة ، بعد الفداء • إلى الجبهة ولم يكن السبب فيها هذه المرة عسكريا أو سياسيا ولكنه كان ناجما عن أزمة من التعصب الديني الداخلي في بيزنطة ، اجتاحتها ونجم عنها ، هرب جماعة البيالقة (البوليسيين ، وهم فرقة مسيحية خاصة كانت تؤدي اجل الخدمات للروم على الجبهة) من جانب الروم لجانب العرب، بسبب محاولة الحكومة البيزنطية اعادتهم الى الارثوذكسية واضطهادهـم ، وشنقهم الآلاف • فادى ذلك الى «هدم الحدود الشرقية البيزنطية» بينما بنى البوليسيون مدينتين في منطقة سيواس الجبلية (على حدود ارمينيـة) وجعلوا بعد اليوم ، يساعدون المسلمين ضد الروم[1] وقد كان ممكنا أن يكونوا أكثر معونة للمسلمين وأشد خطرا لولا الخلافات الداخلية العباسية •

وقد نجم عن هرب البيالقة الى العرب أن قام الروم بهجوم عنيف على الجبهة العربية ، على اثر الصائفة التقليدية التي قام بها علي بن يحيى الأرمني سنة ٢٤١/٨٥٦ فاخترقوها على شكل سهم وصل بهم عبر أرض سميساط حتى قرب آمد ثم اتجهوا شمالا نحو الأرض التي نزلها البيالقة فأحرقوا القرى وأسروا في الحملة عشرة آلاف أسير ثم قفلوا عائدين•••

---

(١) فازيلييف ـ العرب والروم ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .

وكان قد برز على الجبهة اسم قائد آخر هو عمر بن عبد الله الأقطع فلحق بهم ولكنه لم يدركهم[1] ...

وارتفعت حرارة الجبهة في شتاء تلك السنة وفي الصوائف التالية بالرغم من أن المتوكل كان مشغولا عمليا بمناورة الاتراك عنده ومحاولة الهرب من سيطرتهم : تارة الى دمشق وتارة الى عاصمة أخرى . وكان على الجبهة من جهة ابن يحيى وابن الاقطع والبيالقة ، ومن الجهةالأخرى امبراطور الروم الشاب وعمه المتسلط على العرش .

وبالرغم من أن أحداث صقلية وسقوط قصريانة في تلك الفترة قد أثرت على الروم واضطرتهم للتفرغ لها ولتهيئة أسطول كبير أرسلوه فعلا لاستردادها فلا يبدو أن ذلك هو الذي دعاهم إلى طلب تبادل الفداء في تلك السنة . هذه الطريقة المستحدثة في طلب الهدنة بشكل غير مباشر عن طريق تبادل الأسرى فرغت بسرعة من معناها الودي السلمي وأصبحت فيما يظهر مجرد إجراء حربي عادي أو تقليدي للتخلص من عبث الأسرى . وهذا على الأقل ما يفسر تحرك الامبراطور نفسه مع عمه لقتال العرب في الوقت الذي كان فيه رسوله في سامراء يفاوض للفداء ويجيبه عليه المتوكل بإرسال رسوله المعروف نصر بن الأزهر . وقد يكون من الأسباب الدافعة للامبراطور في الهجوم رغبته في كسب نصر سريع على الجبهة العربية يسنده ويسند عمه في موقفهما الداخلي دينيا وسياسيا بعد أن بلغ الامبراطور رشده وسلم مقاليد الأمور لهذا العم وقد تحرك الاثنان في مطلع صيف سنة ٨٥٩ وقبل أن يصل رسول المتوكل إليهما في هجمة مفاجئة مع الجيش ، وصلا بها حتى منابع الفرات . ويبدو أن الروم قتلوا في هذه الهجمة الكثير وخربوا من القرى الكثير وعادوا بخمس مائة

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٠٧ (٣/١٤٣٤) .

أسير ... وسجل الامبراطور نصره في نقوش نقشها على أسوار أنقرة التي رممها فورا خوفا من هجمة انتقامية على منوال هجمة عمورية وثار في خيال الجند أن تلك الحملات إن هي إلا انتقام رائع لخزي عمورية[1] فغنتها الأناشيد على قلة شأنها ، في الوقت الذي كان فيه الاسطول الرومي يعود كرة ثالثة الى مصر فيهاجم دمياط والفرما سنة ٢٤٥ (حزيران تموز سنة ٨٥٩) ...

وبالرغم من هذه الهالة التي أحيطت بها غزوة ميخائيل الشاب الأولى هذه فإن بعض المصادر الرومية تتحدث عن فشله أمام سميساط • ولئن كان هذا الخبر ــ كما يرى فازيلييف ــ من أعمال الدعاية ضده فإن قائد الجبهة العربي علي بن يحيى قد غزا الصائفة فعلا هذه السنة وقد استطاع شراذمة الحامية في حصن لؤلؤة وكانت متمردة على الامبراطور فاستلم منها الحصن وقائده الذي يسميه الطبري لغثيط ( ولوغوتيت لقب عسكري) ويذكر أنه أرسل الى المتوكل الذي حوله الى الفتح بن خاقان فعرض عليه الاسلام وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين[2] •

ويظهر أن مشكلة لؤلؤة هذه جعلت هذا الملك ، وإن استقبل رسول المتوكل عنده : نصرا بن الأزهر ، «يتغافل عنه نحوا من أربعة أشهر»[3] لكن شعوره بفشل حملته من جهة ورغبته في الخلاص من الاسرى عنده وفي تخليص هذا اللوغوتيت دعته في نهاية الأشهر الأربعة الى استدعاء نصر إليه ومفاوضته في قضية الفداء •

(١) فازيلييف ــ العرب والروم ص ٢٠٧ وانظر كذلك التعليق في الصفحة نفسها .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٨ (/١٤٤٨) .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٢٠ (٣/١٤٥٠) .

«وكان الأسرى في أيدي الروم اكثر من ألفين منهم عشرون امرأة معهن عشرة من الصبيان» فاتفق على الفداء ، الذي تم في مكان الأفدية ذاته سنة ٢٤٦/٨٦٠ وأطلق العرب للروم اكثر من ألف أسير ..

على أن هذا الفداء الذي لم يكن يحمل أي معنى سياسي لم يعقب بالطبع أي هدنة وما كادت عمليته التقاليدية تنتهي حتى تحرك الامبراطور الشاب لقتال العرب على الطريقة السنوية المعهودة على أنه لم يتنبه ، إلى الورطة التي أوقع نفسه بها في هذا الهجوم السريع خاصة إلا حين ورد عليه خبر من القسطنطينية يبلغه أن الروس الصقالبة قد ظهروا فجأة ولأول مرة أمام أسوارها يحاصرونها ، وإذا ارتد الامبراطور الى عاصمته ليدافع عنها فإنه ترك جيشه لضربات الجيش الاسلامي ، وقد انتهز القادة المسلمون دون شك وجود الخطر الروسي على أبواب بيزنطة فقادوا ضد الجبهة الرومية هجوما رباعيا إن يكن ينبىء عن تخطيط معين فإنه لم ينبىء عن أي قوة تحركت ثلاثة جيوش اسلامية غازية في البر على ثلاثة محاور يقودها ابن الأقطع وابن يحيى وبلكاجور التركي وتحرك البيالقة أيضا بجيش رابع في الشمال بينما تحرك أسطول عربي صغير بقيادة الفضل بن قارن[1] (شقيق اصبهبذ طبرستان) نحو الساحل الجنوبي للاناضول ، ومن الغريب أن هذه الجيوش اكتفت بسبب قصر النظر السياسي بالغنائم : عاد عمر بن الاقطع من صائفته بسبعة آلاف أسير وابن يحيى بخمسة آلاف مع بعض البهائم،وقرباص البيالقة بخمسة آلاف . وكانت غزوة بلكاجور «موفقة» بينما ضرب ابن قارن ميناء أنطاكية (أضالية)[2] ... وكان ذلك كله في الصيف سنة ٢٤٦ تموز سنة ٨٦١ .

---

(١) الفضل هو نفسه الذي قتل فيما بعد في حمص سنة ٢٥٠ .
(٢) انظر الطبري ج ٩ ص ٢١٩ (٣/١٤٤٩) .

على أن هذا الهجوم بقي دون غد أيضا ••• ولم يتكرر حتى في السنة التالية سنة ٨٦١ التي قتل في نهايتها المتوكل ••• وبالرغم من أن ابنه المستنصر أراد أن يغطي على جريمة قتله لأبيه بالجهاد وأمر وصيفا قائده التركي بمباشرة القتال على الثغور أربع سنوات واعطاه جيشا من عشرة آلاف مع عدة الحرب إلا إنه لم يمتع بالخلافة غير ستة أشهر ••• وتلا موته وقائع خطيرة في جبهة الروم هزت الناس هزا :. استطاع ابن الاقطع أن ينفذ الى الشمال فيحتل ميناء (أميسوس (سمسون) على البحر الأسود ولكنه بعد هذا التألق وقع في كمين فقتل (٣ ايلول سنة ٨٦٣) ونهض علي بن يحيى حين سمع الخبر لقتال الروم مع أهل ميافارقين وجوارها فقتل بدوره بعد شهر (١٨ تشرين الأول سنة ٨٦٣) مع اربع مائة من أصحابه ••• واهتزت بغداد والناس جميعا أعنف الاهتزاز لهذه الفاجعة المزدوجة التي اختطفت في شهرين متتالين «نابين من أنياب المسلمين» كما قيل وأعظم قائدين مجاهدين على الجبهة • وأقبل العامة يثورون واندفع المطوعة من كل ناحية في الجبال والأهواز والعراق والشام يتطوعون للجهاد ولكنها كانت ثورة فارغة وغثاء أجوى ••• وكان مصرع القائدين الرائعين في واقعه رمزا لوهن دولة بني العباس الوهن النهائي لا في الداخل فحسب ولكن على الجبهة الخارجية أيضا •



## واخـــيرا

فهذه معالم من دولة بني العباس • ولئن كانت لهم بعدها «خلافة» استمرت أربعة قرون أخرى فإنه لم يكن لهم بعدها «دولة» حتى سحق الخلافة السيل المغولي سنة ٦٥٦/١٢٥٨ • وقد اقتصرت هذه المعالم على المدى السياسي فأما في آفاق الحضارة الواسعة فلذلك قصة أخرى لا تتم المعالم بدونها ولعلها هي الأهم والأبقى •

وإذا أنشأ العرب المسلمون منذ أواسط القـــرن السابع الميلادي (الأول الهجري) دولة عظمى كانت دولة العالم الأولى والكبرى والوحيدة التي تنظم السلم والحرب وتسيطر على الفكر والفن والانتاج والتجارة والمال والمستوى المتقدم والمتطور من الحياة ما بين قلب آسيا الصغرى في التيبت حتى أمواج المحيط الأطلسي وظلماته ، فقد تقاسم الأمويون والعباسيون حكم هذه الدولة : تولاها الأولون أقل قليلا من قرن وتولاها الآخرون اكثر قليلا مـــن قرن وارثين بذلـــك أمجـــاد وآلام ومهمات الامبراطوريتين الرومانية (بما فيها البيزنطية) والفارســـية (حتى آخـــر الساسانيين) في العالم المتمدن • ومتابعين قيادة الحضارة الانسانية خطوات جديدة في مسيرتها الطويلة • وإذا كان عهد الأولين اكثر ألقا وعظمـــة في الميدان السياسي فقد كان عهـــد الآخرين اكثر انتاجـــا في الميدان الحضاري • ثم انتهت قصة الدولة الكبرى في أواسط القـــرن الثالث الهجري (٩ م •) لتبدأ بدلا منها قصة الدول المتعددة التي تتابع السير بالحضارة والفكر قرونا أخرى ضمن الإطار الاسلامي الأوسع الذي طبع المنطقة كلها بطابعه الواضح العميق الخالد منذ ذلك الوقت الى اليوم •

ولو استعرضنا الوضع السياسي للدولة العباسية في نهاية عصرها الأول وقارنا ذلك الوضع بايام مطلعها أو أواخر أيام بني أمية لوجدنا أن خلفاء بني العباس قد تسلموا من الناحية السياسية امبراطورية اسلامية واحدة تشمل المسلمين كافة ثم انتهى العصر العباسي الأول وهناك خلافة عباسية في بغداد ولكن هناك أيضا : إمارة أموية اندلسية ودولة علوية ادريسية في المغرب ودولة خارجية رستمية معها وثلاثتهم خارج النفوذ العباسي • وهناك على أطراف المنطقة التي يشملها نفوذ بني العباس : الدولة الأغلبية في افريقية ودولة بني عبدون في الواحات • وإذا تركنا مملكتي النوبة والبجة فإنا سنجد أن مصر سوف تستقل بعد سنوات (منذ سنة ٢٥٥ هـ) • وتقوم فيها دولها الخاصة مع الطولونيين وهناك إمامة علوية (زيدية في اليمن وأخرى خارجية في عمان وإمارات اسلامية شتى في السند ودولة بني الصفار في سجستان ودولة آل طاهر فيخراسان إذا لم نذكر الدول التركية وراء خراسان ودولة علوية مستقلة فيطبرستان (منذ سنة ٢٥٠) ودولة أرمينية للبقارطة في أرمينية) •••

ولعل النص الطريف الذي أورده ابن العديم نقلا عن ابي الفوارس ابن الخازن ، المؤرخ المعاصر لنهاية دولة بني العباس في أواسط القرن الثالث يعطي صورة اكثر واقعية عن تفكك تلك الدولة حوالي سنة ٢٧٢ التي سموها في أيامها سنة الافتتاح : يقول : «قال (الخليفة) الموفق لصاعد يعني ابن مخلد ذي الرياستين (وهو المسيطر على الدولة) : هذه السنة يعني سنة اثنتين وسبعين ومائتينهي سنة الانغلاق لا سنةالافتتاح• مصر وساير الشامات في يد خمارويه بن طولون • والجزيرة مع اسحق لافضل فيها عنه • وقنسرين والعواصم مع ابي الساج • وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد • وطخارستان وبلخ وسمرقند في يد

داوود بن هاشم بن كيجور . ونيسابور في يد رافع ــ وسجستان وكرمان والسند وفارس واصفهان في يــد عمرو بن الليث ... وذكــر البلاد بأسرها وأسمى من هي في يده وقال : ليس في الدنيا (لنــا) غير سقي الفرات !»[1] .

ومع ذلك فإن الحكم على العصر العباسي من خلال السياسةوحدها حكم ظالم لأن إنتاجه الحقيقي ومجده الحقيقي إنما هما في إنشاء ودعم وتكوين وبلورة الحضارة الاسلامية والثقافة العربية الاسلاميــة التي ما يزال العرب المسلمون ــ وغيرهم من الشعوب الاسلامية ــ يعيشون حتى اليوم على آلائها .

وكما بقي في ذاكرة البشرية أسماء عدد من أسياد الدنيا في فتراتها المختلفة واسماء عدد من المدن العالمية وعــدد من رواد الفكر الانساني وبناة الحضارة فقد بقي من عهد الدولــة العباسية كدولة عظمى أسماء الرشيد وبغداد وابن سينا والرازي والخوارزمي والكندي وابن الهيثم والمتنبي وهم حصيلة ما قدم العرب ــ بعد الرسالة المحمدية ــ من خير الى سوق الانسانية .

---

(١) ابن العديم ــ بغية الطلب مخطوط احمد الثالث ج٥ ورقة ٣٠٣ ظهر ٣٠٤ وجــه .

# المصادر والمراجع العربية المختارة

## ١ ـ المصادر العربية الاولى


١ ـ ابن الأبار ابو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي (٦٥٨هـ/١٢٦٠)

١ ـ الحلة السيراء ( تحقيق الدكتور حسين مؤنس ) القاهرة ١٩٦٣ ( جزءان ) .

٢ ـ الاتليدي محمد دياب المصري ( فرغ من تأليفه سنة ١١٠٠ هـ )

٢ ـ اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس . مخطوط المتحف البريطاني رقم ٣١٤٥ Or وط . البابي الثانية القاهرة سنة ١٩٥١

٣ ـ ابن الأثير عز الدين علي بن احمد بن محمد الجزري الشيباني ( ٦٣٠هـ/١٢٣٣ ) .

٣ ـ الكامل الأجزاء ٤ ـ ٧ ( ط . بيروت نقلا عن تورنبرغ ١٩٦٥ ) .

٤ ـ اللباب في معرفة الانساب ( القاهرة ١٣٥٧/١٣٦٩ ) .

٥ ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة ١٢٨٠ـ١٢٨٦).

٤ ـ الاربلي ابو محمد عبد الرحمن سنبط قنيتو ( سنة ٧١٧ هـ ).

٦ ـ خلاصة الذهب المسبوك ( مطبعة الروم الارثوذكس ـ القدس ١٨٥ وط . بغداد ـ المثنى دون تاريخ ) .

٥ ـ الاربلي ابو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (٦٩٣/١٢٩٣).

٧ ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة ـ النجف ١٣٨٥

٦ ـ الأزدي ابو زكريا يزيد بن محمد بن أياس ( سنة ٣٣٤/٩٥٤ ).

٨ ـ تاريخ الموصل ( تحقيق علي حبيبة ) القاهرة ١٩٦٧

٧ ـ ابن الازرق احمد بن يوسف الفارقي ( المتوفى بعد سنة ٥٧٦/١١٨٠ ) .

٩ ـ تاريخ ميافارقين مخطوط المتحف البريطاني رقم ٥٨٠٣ OR

٨ ـ الاسفرايني ابو المظفر طاهر بن محمد (سنة ٤٧١/١٠٧٨) .

١٠ ـ التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية من فرق الهالكين ( ط. الكوثري ـ القاهرة ١٩٥٥ ) .

٩ ـ الأشعري القمي سعد بن عبد الله بن أبي خلف ( سنة ٣٠١ هـ )
١١ ـ المقالات والفرق ( صححه محمد جواد مشكور ـ مطبعة حيدري ، طهران ١٩٣٦ ) .
١٠ ـ الأشعري أبو الحسن علي بن اسماعيل بن ابراهيم ( سنة ٣٢٤ هـ ) .
١٢ ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين (استامبول ١٩٢٩)
١١ ـ الاصبهاني أبو الفرج (٣٥٦/٩٦٧ )
١٣ ـ مقاتل الطالبيين ( تحقيق احمد صقر ـ دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٩ ) .
١٤ ـ الأغاني ( ط . دار الكتب ـ القاهرة ١٩٢٥ ـ ١٩٧١ ) اجزاء متفرقة .
١٢ ـ الاصطخري أبو القاسم ابراهيم ( القرن الرابع )
١٥ ـ مسالك الممالك ( المجلد الاول ـ ط . ليدن ١٨٧٠ ـ ١٨٩٣ ) .
١٣ ـ ابن اصفنديار بهاء الدين محمد بن الحسن البوشنجي ( سنة ٦٢٥/١٢٢٨ ) .
١٦ ـ تاريخ طبرستان ( تحقيق عباس إقبال ـ طهران ١٩٤٢ ) جزءان والطبعة الانكليزية المختصرة ـ لندن ١٩٠٥
١٤ ـ الأصفهاني ـ حمزة بن الحسن ( توفي قبل سنة ٣٦٠هـ ) .
١٧ ـ تاريخ سني ملوك الارض والانبياء (ط . بيروت ١٩٦١) .
١٥ ـ ابن أبي أصيبعة موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم الخزرجي ( ٦٦٨/١٢٧٠ ) .
١٨ ـ كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء ( القاهرة ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠) و (ط . بيروت ١٩٦٥) .
١٦ ـ ابن اعثم الكوفي ( سنة ٣١٤/٩٢٦) .
١٩ ـ كتاب الفتوح ـ الجزء الثاني فقط مخطوط احمد الثالث رقم ٢٩٥٦ ( ترجمته الفارسية ـ طبع بومباي سنة ١٣٠٠ ) .
١٧ ـ الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب ( سنة ٤٣٠ هـ ) .
٢٠ ـ التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ( ط . القاهرة ١٩٤٧ ) .
١٨ ـ البغدادي الخطيب ابو بكر أحمد بن علي ( ٤٦٣/١٠٧٠ ) .

٢١ ـ تاريخ بغداد ( اجزاء متعددة من ١٤ جـزءا ) . ط. القاهرة ١٩٣١/١٣٤٩

**١٩ ـ** البغدادي ابو منصور عبد القاهر بن طاهر الأشعري (سنة٤٢٩)

٢٢ ـ الفرق بين الفرق ( القاهرة ١٩٢٤ ) وهـو اختصار الرسـفي .

**٢٠ ـ** ابن البطريـق سـعيد ( افتيشيوس أو يوتيخا ) ( سـنة ٩٢٩/٣١١ ) .

٣٢ ـ التاريخ المجموع على التحقيق والتصـديق ( بيروت ١٩٠٩ ) .

**٢١ ـ** البكري ابو عبيد الله بن عبد العزيز ( ١٠٩٧/٤٨٧ ) .

٢٤ ـ كتاب المغرب في ذكر بـلاد افريقية والمغـرب ( ط. دي سلان ـ باريس ١٩١١ ) .

**٢٢ ـ** البلاذري احمد بن يحيى بن جابر ( ٨٩٢/٢٧٩ ) .

٢٥ ـ فتوح البلدان (تحقيق صلاح الدين المنجد) القاهرة ١٩٥٦

٢٦ ـ انساب الأشراف مخطوط السليمانية ( رئيس الكتاب ) استامبول رقم ٥٩٧ ـ ٥٩٨ مجلدان .

٢٧ ـ انساب الأشراف الجزء الاول ( تحقيق محمد حميد الله ـ القاهرة ١٩٥٩ ) .

٢٨ ـ انساب الأشراف الجزء الرابع ( القسم الثاني ) نشـر شلوسنجر القدس ١٩٣٨

٢٩ ـ انساب الأشراف الجزء الخامس ( نشر غوتين ) القدس ١٩٣٦

**٢٣ ـ** البلوي ابو محمد عبد الله ( من القرن الرابع الهجري ) .

٣٠ ـ سيرة احمـد بن طولون ( نشـر محمد كرد عـلي ـ دمشق ١٣٥٨ ) .

**٢٤ ـ** البياسي يوسف بن محمد بن ابراهيم الانصاري ( ١٢٥٦/٥٦٤ )

٣١ ـ الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام مخطوط دار الكتب ـ القاهرة رقم ٣٩٩ تاريخ .

**٢٥ ـ** البيروني ابو الريحان محمد بن احمد

٣٢ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية ( ليبزيغ ١٨٧٨ ـ ٩ ) اعادت الطبع مكتبة المثنى ـ بغداد .

٣٣ ـ تحقيق ما للهند من مقولة ( ليبزيغ ١٨٨٧ ) .

٢٦ ــ ابن تغري بردي جمال الدين يوسف الاتابكي (١٤٩٦/٨٧٤) .
٣٤ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ( الجزء الثاني والثالث ــ طبعة دار الكتب ) .
٢٧ ــ التنوخي ابو علي المحسن بن علي بن محمد ( ٩٩٤/٣٨٤ ) .
٣٥ ــ جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ج ١ ( القاهرة ١٩٢١ ــ وغليوث ) .
٣٦ ــ نشوار المحاضرة ج٨ ( دمشق ١٩٣٠ ــ المجمع العلمي العربي ) .
٣٧ ــ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ( ٤ أجزاء ) نشر عبود الشالجي بيروت ١٩٧١ ــ ١٩٧٢
٣٨ ــ المستجاد من فعلات الأجداد تحقيق كرد علي ( دمشق ١٩٥٠ ) .
٢٨ ــ الثعالبي ابو منصور عبد الملك بن محمد ( سنة ٤٢٩ ) .
٣٩ ــ لطائف المعارف ( ط. ليدن ١٨٦٨ ) .
٢٩ ــ الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر ( ٨٦٩/٢٥٥ )
٤٠ ــ التاج في أخلاق الملوك ( القاهرة ١٩١٤/١٣٣٢ ) و ( ط. بيروت ١٩٦٨ ) .
٤١ ــ البيان والتبيين ٤ أجزاء ( ط. بيروت ١٩٦٨ وط . القاهرة سنة ١٣٢٣ ) .
٤٢ ــ آثار الجاحظ ( رسائل جمعها عمر ابو النصر ــ بيروت ١٩٦٩ ) .
٤٣ ــ رسائل الجاحظ ( دار النهضة ــ بيروت ١٩٧٢ ) .
٤٤ ــ كتاب التبصر بالتجارة ( الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٩٣٥/١٣٥٤ ) .
٤٥ ــ المحاسن والأضداد ( ط . ليدن ١٨٩٨ ) .
٣٠ ــ الجهشياري ابو عبد الله محمد بن عبدوس ( ٣٣١ هـ ) .
٤٦ ــ الوزراء والكتاب ( ط . القاهرة ١٩٣٨ ) .
٣١ ــ ابن الجوزي ابو الفرج عبد الرحمن ( ١٢٠١/٥٩٧ ) .
٤٧ ــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ( ج٥ ــ ٧ ) ط . حيدر آباد ١٣٥٧ ــ ١٣٥٩ .
٤٨ ــ مناقب بغداد ( ط. بغداد ١٣٢٤ ) .
٣٢ ــ ابن أبي الحديد عز الدين أبو حامد عبد الحميد (١٢٥٧/٦٥٥).

٤٩ ـ شرح نهج البلاغة ( ط . القاهرة ١٣٢٩ البابي الحلبي ) ٤ مجلدات .
٣٣ ـ ابن حزم ابو محمد علي بن أحمد الظاهري (سنة٤٥٦/١٠٦٣).
٥٠ ـ كتاب الفصل في الملل والنحل ( القاهرة ١٣١٧ـ١٣٢٠ ).
٣٤ ـ الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي ( ٤٦٣/١٠٧٠ ) .
٥١ ـ تاريخ بغداد ١٤ مجلدا . الجزء الاول خاصة وأجزاء متفرقة منه ( القاهرة ١٩٣١ ) .
٣٥ ـ ابن الخطيب لسان الدين محمد الوزير (سنة٧٧٦/١٣٧٤) .
٥٢ ـ كتاب أعمال الاعلام (طبعةبروفنسال ـ بيروت١٩٥٦).
٥٣ ـ كتاب أعمال الأعلام القسم الثالث ( تحقيق العبادي والكتاني ) الدار البيضاء ١٩٦٤ .
٣٦ ـ ابن حمدون ابو المعالي محمد بن الحسن ( سنة ٥٦٢/١١٦٦ ).
٥٤ ـ التذكرة ـ الجزء الثاني عشر فقط ـ مخطوط احمد الثالث ـ استامبول رقم ٢٩٤٨
٥٥ ـ تذكرة ابن حمدون (جزء منها) ط. القاهرة ١٩٢٧ .
٣٧ ـ ابن حوقل ابو القاسم محمد بن علي البغدادي الموصلي ( القرن الرابـــع ) .
٥٦ ـ صورة الأرض (نشر دار الحياة ـ بيروت ) .
٣٨ ـ ابن خرداذبة ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله ( القرن الرابع ) .
٥٧ ـ المسالك والممالك ( المجلد السادس من المكتبة الجغرافية ـ ليدن ١٨٨٩ ) .
٣٩ ـ الحسني تاج الدين محمد بن حمزة بن زهرة (بعد سنة٧٥٣).
٥٨ ـ غاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار ( المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٦٣ ) .
٤٠ ـ الحنفي أبو محمد عثمان بن عبد الله العراقي ( حوالي سنة ٥٠٠/١١٠٧ ) .
٥٩ ـ الفرق المفترقة بين أهل الزيغ والزندقة ( تحقيق بشار قوتلواي ـ انقرة ١٩٦١ ) .
٤١ ـ ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ( ٨٠٨/١٤٠٥ ) .
٦٠ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ المجلد الثالث ـ بيروت ١٩٦٦
٦١ ـ المقدمة ط . بولاق سنة ١٣٢٠ وطبعات أخرى .
٤٢ ـ ابن خلكان شمس الدين ابو العباس أحمد بن ابراهيم .

٦٢ ـ وفيات الاعيان ( ط احسان عباس ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ١٩٧٢ ) ٨ اجزاء .

٤٣ ـ خليفة بن خياط ابو عمرو المعروف بشباب العصفري ( سنة ٢٤٠ ) .

٦٣ ـ كتاب الطبقات ـ تحقيق اكرم ضياء العمري ـ بغداد ١٩٦٧

٦٤ ـ تاريخ خليفة بن خياط ـ تحقيق العمري ـ بغداد ١٩٦٧ ( جزءان ) .

٤٤ ـ الخوانساري الميرزا محمد باقر الموسوي ( القرن ١٢ هـ ) .

٦٥ ـ روضات الجنات في احوال العلماء السادات ( ط . طهران على الحجر سنة ١٣٤٧ ) .

٤٥ ـ الدميري كمال الدين ابو البقاء محمد بن موسى ( ١٤٠٥/٨٠٨ )

٦٦ ـ حياة الحيوان الكبرى ( بولاق ١٣٢٤ ) .

٤٦ ـ الدينوري احمد بن داوود أبو حنيفة (٨٩٥/٢٨٢) .

٦٧ ـ الأخبار الطوال ( ط . عامر ـ الشيال ـ القاهرة ١٩٦٠ )

٤٧ ـ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد ( سنة ١٣٤٧/٧٤٨ ) .

٦٨ ـ مختصر تاريخ دول الاسلام ( حيدرآباد ١٩١٨/١٣٣٨ ).

٦٩ ـ تاريخ الاسلام ( الأجزاء الستة الاولى ) ـ القاهرة ١٣٦٧ فما بعد .

٧٠ ـ سير اعلام النبلاء ( ٣ اجزاء مطبوعة ) القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ .

٤٨ ـ الرازي فخر الدين محمد بن عمر التميمي البكري ( سنة ٦٠٦/ ١٢٠٩ ) .

٧١ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (القاهرة ١٩٣٨ ـ تحقيق سامي النشار ) .

٤٩ ـ ابن رسته ابو علي أحمد بن عمر ( سنة ٩٧١/٣٦٠ ) .

٧٢ ـ الاعلاق النفيسة (ليدن ١٨٩١ ـ اعادة طبع مكتبة المثنى بغداد ) .

٥٠ ـ الرسغي عبد الرزاق بن ابي بكر بن خلف ( بعد سنة ٦٤٧ ) .

٧٣ ـ مختصر الفرق بين الفرق (ط . الهلال ـ القاهرة ١٩٢٤).

٥١ ـ الروذراوري ابو شجاع محمد بن الحسين الوزير (سنة٤٨٨).

٧٤ ـ ذيل تجارب الامم ـ ط . القاهرة ١٩١٦

٥٢ ــ الزبيري ــ ابو عبد الله مصعب بن عبد الله ( سنة ٢٣٦ ) .
٧٥ ــ كتاب نسب قريش ــ القاهرة ١٩٥٣
٥٣ ــ ابن الساعي ( منسوب إليه ) .
٧٦ ــ مختصر اخبار الخلفاء (المطبعةالاميرية ــ القاهرة ١٣٩٠)
٥٤ ــ سبط ابن الجوزي يوسف بن قز أوغلو ( سنة ١٢٥٦/٦٥٤ ).
٧٧ ــ تذكرة الخواص ( المطبعة العلمية ، النجف ١٣٦٩ ) .
٥٥ ــ ابن سعد ابو عبد الله محمد كاتب الواقدي ( سنة ٨٤٥/٢٣٠)
٧٨ ــ الطبقات الكبرى (ط . سخاو ــ ليدن ١٩٠٥ ــ ١٩٢١)
٥٦ ــ ابن سلام أبو عبيد القاسم بن سلام .
٧٩ ــ كتاب الاموال ( القاهرة ١٣٥٣ ) .
٥٧ ــ ابن سليمان ــ ماري ( نهاية القرن السابع هـ ) .
٨٠ ــ اخبار بطاركة كرسي المشرق . ( رومية ١٨٩٩ ) .
٥٨ ــ السيوطي عبد الرحمن بن ابي بكر جمال الدين (١٦٠٥/٩١١).
٨١ ــ تاريخ الخلفاء ( ط . القاهرة ١٣٥١ ) .
٥٩ ــ الشابشتي أبو الحسن علي بن محمد ( سنة ٩٩٨/٣٨٨ ) .
٨٢ ــ كتاب الديارات . تحقيق كوركيس عواد (الطبعة الثانية بغداد سنة ١٩٦٦ ) .
٦٠ ــ ابن شاكر محمد الكتبي الداراني ( سنة ٧٦٤ ).
٨٣ ــ فوات الوفيات ٣ اجزاء القاهرة ١٩٤٧ .
٦١ ــ ابن شداد عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم ( سنة ٦٨٤ ) .
٨٤ ــ الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ( قسم الجزيرة) مخطوط البودليان (اكسفوردرقم٣٣٣ مارش).
٨٥ ــ الاعلاق الخطيرة نفسه ( قسم حلب ) (تحقيق سورديل) ــ دمشق ١٩٥٣
٨٦ ــ الاعلاق الخطيرة نفسه ( قسم دمشق وقسم فلسطين ــ جزءان ) تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٦ و١٩٦٣
٦٢ ــ ابن شهراشوب ابو جعفر محمد بن علي المازندراني ( ٥٨٨/ ١١٩٢ ) .
٨٧ ــ مناقب آل ابي طالب المطبعة العلمية ــ قم ( دون تاريخ).
٨٨ ــ معالم العلماء (ط. عباس اقبال ــ طهران ١٣٩٤/١٣٥٣) و ( ط . النجف ١٩٦١ ) .

٦٣ ـ الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (سنة٥٤٨/١١٥٣)
٨٩ ـ كتاب الملل والنحل ( ط. محمد سيد كيلاني ـ القاهرة ١٩٦١ وعلى هامش ابن حزم ـ القاهرة ١٣٤٧ ) .
٦٤ ـ الصابيء هلال بن ابراهيم بن هلال ( سنة ٤٤٧/١٠٥٥ ) .
٩٠ ـ رسوم دار الخلافة ( بغداد ١٩٦٤ ) .
٩١ ـ تحفة الامراء بتاريخ الوزراء ـ بيروت ١٩٠٤ ( نشرة أمدروز ) .
٦٥ ـ ابن الصباغ : علي بن محمد بن أحمد المالكي ( سنة ٨٥٥ هـ ) .
٩٢ ـ كتاب الفصول المهمة في معرفة الأئمة ـ مخطوط المكتبة الاهلية في باريس رقم ٥٨٣٢ .
٦٦ ـ الشيخ الصدوق ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي ( ٣٨١/٩٩١ ) .
٩٣ ـ الأمالي ( ط. طهران ١٣٨٠ هـ ) .
٦٧ ـ الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك الدمشقي ( سنة ٧٤٧ ).
٩٤ ـ الوافي بالوفيات ( ٨ اجزاء مطبوعة حتى الآن . تحقيق ريتر وغيره ـ طبع استامبول ودمشق الطبعة الثانية ١٩٦١ ـ ١٩٧٠ ) .
٩٥ ـ الوافي بالوفيات مخطوط مصور للاجزاء المختلفة في مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق .
٦٨ ـ الصولي : ابو بكر محمد بن يحيى ( ٣٣٥/٩٤٦ ) .
٩٦ ـ أخبار الراضي والمتقي ( من كتاب الاوراق ) أو تاريخ الدولة العباسية ( نشر هيوارثدن ـ القاهرة ١٩٣٦ ).
٦٩ ـ ابن الصيرفي أبو القاسم علي بن منجب المصري ( بعد سنة ٥٥٠ أو سنة ٥٤٢ ) .
٩٧ ـ الاشارة إلى من نال الوزارة ( طبع القاهرة ١٩٢٤ ) .
٧٠ ـ ابن طاهر أبو الفضل أحمد بن طاهر المعروف بابن طيفور (سنة ٢٨٠هـ) .
٩٨ ـ بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ( جزء من تاريخ ابن طاهر ، ط . بغداد ١٩٦٨ ) .
٧١ ـ الطبرسي أبو علي الفضل بن الحسن ( سنة ٥٤٨/١١٥٣ ) .
٩٩ ـ اعلام الورى بأعلام الهدى ( مطبعة حيدري ـ طهران ١٣٣٨ ) .
٧٢ ـ الطبري ابو جعفر محمد بن جرير ( ٣١٠/٩٢٢ ) .

١٠٠ ـ تاريخ الرسل والملوك ١٠ اجزاء ( طبعة محمد ابو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦٧ وما بعد ) وطبعة ليدن .
٧٣ ـ ابن الطقطقي . محمد بن علي بن طباطبا ( ٧٠٥ هـ )
١٠١ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية(القاهرة ١٩٢٧ ) .
٧٤ ـ ابن طولون شمس الدين محمد بن علي ( ١٠٤٦/٩٥٣ ) .
١٠٢ ـ الأئمة الاثنا عشر ( تحقيق صلاح الدين المنجد ـ ط . صادر ـ بيروت ١٩٥٨ ) .
٧٥ ـ ابن ظافر أبو الحسن علي بن ابن منصور الخزرجي الاسدي ( سنة ١٢١٧/٦١٣ ) .
١٠٣ ـ كتاب اخبار الدول المنقطعة ـ مخطوط المتحف البريطاني رقم ٣٦٨٥ .
٧٦ ـ ابن عبد الحكم ابو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري (٢٧٦/ ٨٨٩ ) .
١٠٤ ـ فتوح مصر والمغرب القاهرة ١٩٦١ وطبعة ماسية ـ القاهرة ١٩١٤ في جزءين .
٧٧ ـ ابن عبد ربه شهاب الدين احمد ( سنة ٣٤٩/٩٤٠ ) .
١٠٥ ـ العقد الفريد ٧ أجزاء ( ط . دار الكتب . القاهرة) .
٧٨ ـ ابن العبري ابو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي ( سنة ١٢٨٥/٦٨٥ ) .
١٠٦ ـ تاريخ مختصر الدول . ط . بيروت ١٩٥٨
٧٩ ـ ابن العديم كمال الدين عمر من آل ابي جرادة (سنة ٦٦٠/ ١٢٦٤) .
١٠٧ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ٣ اجزاء ( نشر المعهد الفرنسي ـ تحقيق سامي الدهان ـ دمشق ١٩٥٤ـ١٩٥٦
١٠٨ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ٨ اجزاء مخطوطة مكتبة احمد الثالث استامبول رقم ٢٩٢٠
١٠٩ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ١ جزء آخر مخطوط مكتبة فيض الله رقم ١٤٠٤
١١٠ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ١ جزء آخر مخطوط مكتبة اياصوفيا رقم ٣٠٣٦

٨٠ ـ ابن عذارى أبو عبد الله محمد المراكشي ( توفي أواخر القرن السابع ) .
١١١ ـ البيان المغرب في حلي المغرب ط. دوزي ( ليدن ١٨٤٨ ١٨٥١ ) وط. باريس سنة ١٩٣٠
٨١ ـ عريب بن سعيد القرطبي ( ٦٧٦/٣٣٦ )
١١٢ ـ صلة تاريخ الطبري ط . بيروت ١٨٩٠ وط . القاهرة ١٣٠٢
٨٢ ـ ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ( سنة ١١٧٦/٥٧٢ ) .
١١٣ ـ تاريخ مدينة دمشق مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٣٣٦٧ حتى رقم ٣٣٨٣ عام. ورقم ٣٤٥٠ ( ١٩ جزءا)
١١٤ ـ تهذيب تاريخ دمشق ( بدران ـ طبع دمشق ١٣٣٣ ـ ١٣٤٥ ) .
٨٣ ـ عمرو بن متى ( القرن الثامن الهجري ) .
١١٥ ـ اخبار بطاركة كرسي المشرق ( من كتاب المجدل ـ رومية ١٨٩٦ ) .
٨٤ ـ ابن عنبة أبو الياس أحمد بن علي ( سنة ٨٢٨ ) .
١١٦ ـ عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ( النجف ـ المطبعة الحيدرية ١٩٦١ ) .
٨٥ ـ غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء ( سنة ١٠٨٧/٤٨٠ ) .
١١٧ ـ الهفوات النادرة ( تحقيق الأشتر ـ طبع المجمع العلمي بدمشق ١٩٦٧ ) .
٨٦ ـ أبو الفداء الملك اسماعيل بن عماد الدين علي صاحب حماة ( ١٣٣١/٧٣٢ ) .
١١٨ ـ المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء ( القاهرة ١٣١٥ ) .
٨٧ ـ الفراء أبو يعلي الحنبلي ( سنة ٤٥٦ ) .
١١٩ ـ الاحكام السلطانية ( القاهرة ١٩٣٨ ) .
٨٨ ـ ابن الفراء .
١٢٠ ـ رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ( تحقيق صلاح الدين المنجد ـ القاهرة ١٩٤٧ ) .
٨٩ ـ ابن الفقيه الهمذاني : ابو بكر احمد بن محمد ( القرن الرابع ) .
١٢١ ـ البلدان ( ط. ليدن ١٨٨٥ ) .

٩٠ ـ ابن قتيبة ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦/٨٨٩).
١٢٢ ـ الامامة والسياسة (القاهرة مطبعة النيل).
١٢٣ ـ المعارف (القاهرة ١٣٥٣).
١٢٤ ـ عيون الاخبار (القاهرة ١٣٤٣ ـ ١٣٤٨) ٤ أجزاء.
٩١ ـ قدامة بن جعفر ابو الفرج الكاتب البغدادي (٣٣٧ هـ).
١٢٥ ـ كتاب الخراج وصنعة الكتابة (ليدن ١٨٨٩) (قسم من الكتاب).
١٢٦ ـ كتاب الخراج نفسه بقيته الموجودة ـ النصف الثاني منه مخطوط المكتبة الاهلية في باريس رقم ٥٩٠٧.
٩٢ ـ القزويني زكريا بن محمد بن محمود.
١٢٧ ـ آثار البلاد واخبار العباد بيروت ١٩٦٠.
٩٣ ـ القلقشندي ابو العباس احمد (٨٢١/١٤١٨).
١٢٨ ـ صبح الأعشى في صناعة الانشاء (بعض الأجزاء منه) طبعة دار الكتب.
١٢٩ ـ مآثر الانافة في معالم الخلافة الكويت ١٩٦٤، ٣ اجزاء.
٩٤ ـ القفطي الوزير جمال الدين (سنة ٦٤٧/١٢٤٩).
١٣٠ ـ اخبار العلماء باخبار الحكماء (مختصر الزوزني ـ ليبزيغ ١٣٢٠).
٩٥ ـ ابن القوطية ابو بكر محمد بن عبد العزيز (القرن الثالث).
١٣١ ـ تاريخ افتتاح الاندلس (ط. مجريط ١٨٦٨ وبيروت ١٩٥٨).
٩٦ ـ ابن قيم الجوزية (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أبي بكر (سنة ٧٥١).
١٣٢ ـ احكام أهل الذمة (تحقيق صبحي الصالح) دمشق ١٩٦١ مجلدان.
٩٧ ـ ابن كثير ابو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي (٧٧٤)
١٣٣ ـ البداية والنهاية، الاجزاء ٧ ـ ١٢ (القاهرة ١٩٣٢).
٩٨ ـ الكشي الطوسي أبو عمرو محمد بن عمر (من القرن الرابع).
١٣٤ ـ معرفة اخبار الرجال (النجف ١٩٦٤).
٩٩ ـ الكليني: محمد بن يعقوب (٣٢٩/٩٣٩).
١٣٥ ـ أصول الكافي (الروضة من الكافي) ط. مكتبة الصدوق ـ طهران ١٣٨١/١٩٦١ ـ ٢

١٠٠ ـ الكندي ابو عمر محمد بن يوسف ( ٣٥٠/٩٦١ ) .
١٣٦ ـ كتاب الامراء والولاة وكتاب القضاة ( ط . ليدن ١٩١٧)
١٠١ ـ الماوردي ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب .
١٣٧ ـ الاحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨) .
١٠٢ ـ المبرد محمد بن يزيد بن عبد الاكبر ( سنة ٢٨٥ هـ ) .
١٣٨ ـ الكامل ( القاهرة ١٩٥٦ ) .
١٠٣ ـ مجهول ( من القرن الثالث أو الرابع ) .
١٣٩ ـ اخبار العباس وولده ( نشره عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي بعنوان اخبار الدولة العباسية ـ بيروت ١٩٧١ ) .
١٠٤ ـ مجهول ( من القرن الخامس ) .
١٤٠ ـ تاريخ سستان ( بالفارسية ـ ط . طهران ١٣١٤ ) .
١٠٥ ـ مجهول ( من القرن السابع أو الخامس ) .
١٤١ ـ تاريخ الخلفاء ( لعله مختصر اخبار العباس وولده مع زيادات ) ( نشر غرياز نيويج ـ موسكو ١٩٦٧ ) .
١٠٦ ـ مجهول ( من القرن الثالث ) .
١٤٢ ـ اخبار مجموعة في فتح الاندلس وامرائها ( تحقيق الكنترا ـ مدريد ١٨٦٧ ) .
١٠٧ ـ مجهول ( من القرن السابع ) .
١٣٤ ـ كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق الجزء الثالث ( نشر دي غويه ـ ليدن ١٨٧١ ) .
١٤٤ ـ كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق الجزء الرابع ـ ١ ( تحقيق نبيلة عبد المنعم داوود ـ النجف ١٩٧٢ ) .
١٠٨ ـ ابن المرتضى المهدي لدين الله احمد بن يحيى ( ٣٢٥/٩٣٦ ) .
١٤٥ ـ طبقات المعتزلة ( بيروت ١٩٦١ ) .
١٠٩ ـ المسعودي ابو الحسن علي بن الحسين بن علي ( سنة ٣٤٦/ ٩٥٦ ) .
١٤٦ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ( ط . بلا ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ١٩٧٣ ) ٤ اجزاء وطبعة القاهرة ١٩٣٨ .
١٤٧ ـ التنبيه والاشراف ( القاهرة ١٩٣٨ )
١٤٨ ـ كتاب اثبات الوصية (طبع المطبعة المرتضوية ـ النجف) .
١١٠ ـ مسكويه ابو علي احمد بن محمد ( سنة ٤٢١ ) .

١٤٩ ـ تجارب الامم الجزء الاول والثاني ( نشر آمدروز ـ القاهرة ١٩١٤ ـ ١٩١٥ ) .

ـ تجارب الامم جزء ملحق بكتاب العيون والحدائق (نشر دي غويه ـ ليدن ١٨٧١) .

**١١١** ـ الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري ( ٤١٣/ ١٠٢٢ ) .

١٥٠ ـ الفصول المختارة من العيون والمحاسن ( جزاءن ) ط .

١٥٨ ـ الارشاد ( ط . اصبهان ١٣٦٤ ) .

**١١٢** ـ المقدسي شمس الدين ابو عبد الله محمد البشاري ( سنة ٩٩٧/٣٨٧ ) .

١٥٢ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ( ليدن ١٩٠٦ ) .

**١١٣** ـ المقدسي المطهر بن طاهر ( القرن الرابع ) .

١٥٣ ـ البدء والتاريخ ( ط . باريس ١٨٩٩ ـ ١٩٠٦ ) .

وينسب الكتاب الى ابي زيد البلخي ( ٩٤٢/٣٢٢ ) .

**١١٤** ـ المقري احمد بن محمد التلمساني ( سنة ١٠٤١ هـ ) .

١٥٤ ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (القاهرة ١٩٤٩) ١٠ اجزاء .

**١١٥** ـ المقريزي تقي الدين احمد بن علي ( ١٤٤١/٨٤٥ ) .

١٥٥ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ( ط . بيروت ١٩٦٢ وط . القاهرة ١٣٢٦ ) .

١٥٦ ـ المقفى مخطوط المكتبة الاهلية في باريس رقم ٢١٤٤

١٥٧ ـ المقفي مخطوط المكتبة السليمية باستامبول رقم ٤٩٦

١٥٨ ـ المقفى مخطوط ليدن رقم ١٣٦٦ .

١٥٩ ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم ـ النجف ١٩٦٦ ( ط . محمد بحر العلوم ـ الحيدرية ) .

١٦٠ ـ شذور العقود في ذكر النقود ( نشرة بعنوان النقود الاسلامية محمد بحر العلوم ـ النجف ١٩٦٧ ) .

١٦١ ـ اتعاظ الحنفا في اخبار الأئمة الفاطميين الحنفا ( تحقيق الشيال ـ القاهرة ١٩٦٧ ) .

١٦٢ ـ الكشف والاعراب عما بديار مصر من الأعراب ـ القاهرة.

**١١٦** ـ ابن المقفع ، ساويرس .

١٦٣ ـ سير الآباء البطاركة تحقيق E vettes طبع باريس ١٩٠٧.

١١٧ ــ ابن المقفع عبد الله ( سنة ١٤٢ او سنة ١٤٣/ ٧٦٠ أو ٧٦١).
١٦٤ ــ رسالة الصحابة ( ضمن كتاب رسائل البلغاء ــ نشر محمد كرد علي ــ القاهرة ١٩٤٦ ) .
١٥٦ ــ الأدب الكبير ( نشر احمد زكي باشا ــ القاهرة ١٩١٢).
١٦٦ ــ الأدب الصغير ( نشر احمد زكي باشا القاهرة ١٩١١ ).
١١٨ ــ النجاشي احمد بن علي الأهوازي ( سنة ٤٥٠ ) .
١٦٧ ــ كتاب الرجال ( ط . بومبي ١٩١٧ ) .
١١٩ ــ ابن النديم محمد بن اسحق ( سنة ٣٨٣/٩٩٣ ــ ولعله توفي بعد سنة ٤٠٠ ) .
١٦٨ ــ الفهرست ( ط. فلوجل ــ هاله ١٨٧٢ ــ اعادة طبــع خياط ــ بيروت ) .
١٢٠ ــ النرشخي ابو بكر محمد بن جعفر ( القرن الرابع أوالخامس)
١٦٩ ــ تاريخ بخارى ( معرب عن الفارسية بقلم امين عبدالمجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي ــ القاهرة ١٩٦٥ ) .
١٢١ ــ النوبختي ابو محمد الحسن بن موسى (سنة ٣٠٠) .
١٧٠ ــ كتاب فرق الشيعة ( النجف ١٩٥٩ ) .
١٢٢ ــ النويري أحمد بن عبد الوهاب (سنة٧٣٣) .
١٧١ ــ نهاية الأرب الجزء ٢٠ مخطوط أياصوفيا ــ استامبول رقم ٣٥٢٣
١٧٢ ــ نهاية الأرب الجزء ٢٢ مخطوط دار الكتب بالقــاهرة رقم ١٨٦٦٨
١٧٣ ــ نهاية الأرب الجزء ٢٣ مخطوط دار الكتب أيضا رقم ٦٩٩ تاريخ تيمور .
١٢٣ ــ وكيع القاضي محمد بن خلف بن حيان ( سنة ٣٠٦ ) .
١٧٤ ــ أخبار القضاة ( القاهرة ١٩٧٤ ) ٣ أجزاء .
١٢٤ ــ اليافعي عبد الله بن اسعد ( سنة ٧٦٨ هـ ) .
١٧٥ ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ( حيدر آباد ١٣٢٧ــ١٣٢٩)
١٢٥ ــ ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ( سنة ٦٢٧/١٢٣٠ ) .
١٧٦ ــ معجم البلدان ( ط. ليبزيغ ١٨٦٦ ــ ١٨٧٣ . وطبعة بيروت ١٩٦٢ ) .
١٧٧ ــ ارشاد الاريب (معجم الادباء) (ط. ليدن ١٩٠٧ ــ ١٩٣١ ) وطبعة القاهرة ــ مرغليوث ) .

١٢٦ ـ يحيى بن آدم القرشي ( سنة ٢٠٣ ) .
١٧٨ ـ كتاب الخراج ( ليدن ١٨٩٥ والقاهرة ـ المطبعة السلفية ١٣٤٧ ) .
١٢٧ ـ اليعقوبي احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن واضح ( سنة ٨٩٥/٢٨٢ ) .
١٧٩ ـ تاريخ اليعقوبي ( بيروت ١٩٦٠ ـ جزءان وطبعة النجف ١٩٣٩ ـ ٣ اجزاء ) .
١٨٠ ـ كتاب البلدان ( النجف ١٩٣٩ وطبعة القاهرة ١٩٣٧ ) .
١٨١ ـ مشاكلة الناس لزمانهم ( تحقيق وليم ملورد ـ بيروت ١٩٦٢ ) .
١٢٨ ـ أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم قاضي الرشيد ( سنة ١٩٢/ ٨٠٧ ) .
١٨٢ ـ كتاب الخراج ( المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ ) .

## ٢ ـ المراجع العربية الحديثة والمترجمة . :

١ ـ أحمد ، محمد حلمي
١ ـ الخلافة والدولة في العصر العباسي ـ القاهرة ٩١٥٩
٢ ـ فجر الاسلام طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٣٦
٣ ـ ضحى الاسلام طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٣٦
٤ ـ ظهر الاسلام .
٥ ـ المهدية والمهدوية ـ القاهرة ١٩٥٣
٣ ـ أحمد محمود حسن
٦ ـ الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٨ ، وبالاشتراك مع أحمد ابراهيم الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي ـ القاهرة ١٩٦٦
٤ ـ ارسلان ، شكيب
٧ ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا ـ بيروت١٩٦٦
٥ ـ آرنولد ، توماس
٨ ـ الدعوة الى الاسلام ( ترجمة حسن ابراهيم حسن ) الطبعة الثانية ١٩٦٤
٩ ـ الخلافة ، ترجمة جميل معلى ، دمشق ١٩٤٨
١٠ ـ تراث الاسلام ( مع جمهرة من المستشرقين ) معرب ـ القاهرة ١٩٤٧

٦ ـ امير علي ، سيد
١١ ـ مختصر تاريخ العرب ، والتمدن الاسلامي، ترجمةرياض رأفة ، ط . القاهرة .
٧ ـ بارتولـد . ف
١٢ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر ـ القاهرة ١٩٥٢
١٣ ـ تاريخ الترك في آسيا الوسطى ترجمة احمد السعيد ـ القاهرة ١٩٥٨
٨ ـ الباروني ، ابو الربيع سليمان بن عبد الله
١٤ ـ مختصر تاريخ الإباضية ـ تونس ١٩٣٨
٩ ـ الباشا ، محمود حسن
١٥ ـ الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق ـ القاهرة ١٩٥٧
١٠ ـ برانق ، محمد احمد
١٦ ـ الوزراء العباسيون ـ القاهرة دون تاريخ .
١١ ـ بروكلمان كارل
١٧ ـ تاريخ الأمم والشعوب الاسلامية ( ترجمة منير البعلبكي بيروت ١٩٤٨ ) .
١٢ ـ ترتون
١٨ ـ أهل الذمة في الاسلام ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٤٩
١٣ ـ ثابت ، نعمـان
١٩ ـ الجندية في الدولة العباسية ـ بغداد ١٩٥٦
١٤ ـ جوزي ، بندلي
٢٠ ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ـ القدس ١٩٢٨ وبيروت دون تاريخ .
١٥ ـ الجومرد ، عبد الجبار .
٢١ ـ هارون الرشيد ( جزءان ) ـ بيروت ١٩٥٦
٢٢ ـ المنصور بيروت ١٩٦٣
١٦ ـ حتي ، فيليب
٢٣ ـ تاريخ العرب (مطول) ٣ اجزاء ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٩٦٥

١٧ ـ حسن ، ابراهيم
٢٤ ـ تاريخ الاسلام السياسي ٤ اجزاء الطبعة الخامسة ـ القاهرة ١٩٦٧
حسن ابراهيم ( وبالاشتراك مع علي ابراهيم حسن )
٢٥ ـ النظم الاسلامية القاهرة ١٩٣٨
١٨ ـ الحسني ، علي الجزائري
٢٦ ـ تاريخ سورية الاقتصادي دمشق ١٣٤٢
١٩ ـ حوراني ، جورج فضلو
٢٧ ـ العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٥٨
٢٠ ـ حي الصيني ، بدر الدين
٢٨ ـ العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠
٢١ ـ الحسيني ، محمد جابر عبد العال
٢٩ ـ حركات الشيعة المتطرفين ( الطبعة الثانية ) القاهرة ١٩٦٧
٢٢ ـ خدابخش ، صلاح الدين
٣٠ ـ حضارة الاسلام ترجمة علي حسن خربوطلي ـ بيروت ١٩٧١
٢٣ ـ الدبس ، المطران يوسف
٣١ ـ تاريخ سورية ، ١٠ اجزاء بيروت ، ١٩٠٠
٢٤ ـ الدوري ، عبد العزيز
٣٢ ـ العصر العباسي الأول ـ بغداد ١٩٤٥
٣٣ ـ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ـ بغداد ١٩٤٩ ـ بيروت ١٩٦٠
٣٤ ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة ـ بغداد ( مطبعة السريان ) ١٩٤٥
٣٥ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ـ بيروت١٩٦٩
٣٦ ـ الجذور التاريخية للشعوبية ـ بيروت ١٩٦٠
٣٧ ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ـ بغداد ١٩٤٨
٢٥ ـ دينيث ، دانيال
٣٨ ـ الجزية والاسلام ترجمة فوزي فهيم جاد الله ، بيروت ١٩٦٠

٢٦ ــ رستم ، أسد
٣٩ ــ الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم مع العرب ( جزءان ) بيروت ١٩٥٦
٢٧ ــ الرفاعي ، أحمد فريد
٤٠ ــ عصر المأمون ، ( جزءان ) القاهرة ١٩٢٧
٢٨ ــ رودنسون ، مكسيم
٤١ ــ الاسلام والرأسمالية ــ ترجمة نزيه الحكيم ، بيروت ١٩٦٨
٢٩ ــ الريس ، محمد ضياء الدين
٤٢ ــ الخراج في الدولة الاسلامية ــ القاهرة ١٩٥٧
٣٠ ــ زامباور
٤٣ ــ معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ــ القاهرة ١٩٥١
٣١ ــ الزرو ، خليل داوود
٤٤ ــ الحياة العلمية في الشام ــ بيروت ١٩٧١
٣٢ ــ زيدان ، جرجي
٤٥ ــ تاريخ التمدن الاسلامي خمسة أجزاء ــ الطبعة السادسة ، القاهرة ١٩٥٩
٣٣ ــ سالم ، عبد العزيز
٤٦ ــ المغرب الكبير ( العصر الاسلامي ) ، القاهرة ١٩٦٦
٣٤ ــ سوسة أحمد
٤٧ ــ ري سامراء ــ بغداد ١٩٤٨
٣٥ ــ سيديو
٤٨ ــ تاريخ العرب العام ( مترجم ) ــ القاهرة
٣٦ ــ شلبي ، أحمد
٤٩ ــ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية الجزء الثالث خاصة الطبعة الرابعة ــ القاهرة
٣٧ ــ الصالح ، صالح
٥٠ ــ النظم الاسلامية ، بيروت ١٩٦٨
٣٨ ــ طرخان ، ابراهيم علي
٥١ ــ المسلمون في اوروبا في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦

٣٩ ـ عبـاس ، احسـان
٥٢ ـ العرب في صقلية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨
٤٠ ـ عبد الحميد ، سعد زغلول
٥٣ ـ تاريخ المغرب العربي ـ القاهرة ١٩٦٠.
٤١ ـ عثمان ، فتحي
٥٤ ـ الحدود الاسلامية البيزنطية ٣ اجزاء القاهرة ١٩٦٦
٤٢ ـ العدوي ابراهيم احمد
٥٥ ـ المسلمون والجرمان ـ الاسلام في غرب المتوسـط ـ القـاهرة ١٩٦٠.
٥٦ ـ قوات البحرية العربية في مياه المتوسط ـ القاهرة ١٩٦٣
٥٧ ـ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ـ القاهرة ١٩٥٠.
٥٨ ـ الأمويون والبيزنطيون ـ القاهرة ١٩٥٣
٥٩ ـ السفارات الاسلامية الى اوروبا في العصور الوسطى القاهرة ١٩٦٠.
٤٣ ـ العلي ، صالح احمد
٦٠ ـ التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية في البصـرة ، بغداد ١٩٥٣
٦١ ـ استيطان العرب في خراسان ، مجلة كليـة الآداب بجامعة بغداد ١٩٥٩
٦٢ـ بغداد في عهد المنصور ، مؤتمر المـدن الأسلاميـة ، اكسفورد ١٩٦٥
٤٤ ـ عمر فوزي فاروق
٦٣ ـ طبيعة الدعوة العباسية ـ بيروت ١٩٧٠
٦٤ ـ العباسيون الأوائل الجزء الاول ـ بيروت ١٩٧٠
٦٥ ـ العباسيون الاوائل الجزء الثاني بيروت ١٩٧٣
٤٥ ـ غرونباوم ج . ا .
٦٦ ـ حضارة الاسلام ترجمة عبد العزيز جاويد ( الألف كتاب ) ـ القاهرة
٤٦ ـ فـازيلييف
٦٧ ـ العرب والروم ترجمة عبد الهادي شعيرة ـ القاهرة ١٩٥٤

٤٧ ــ فامبري ارمينيوس
٦٨ ــ تاريخ بخارى ( ترجمة السادانى ــ الخشاب )
القاهرة ١٩٥٦
٤٨ ــ فان فلوتن
٦٩ ــ السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ( ترجمة
حسن ابراهيم حسن ) الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦
٤٩ ــ فيصل ، شكري
٧٠ ــ المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ــ بيروت ١٩٦٦
٧١ ــ حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ــ بيروت ١٩٦٧
٥٠ ــ فيلهاوزن ، يوليوس
٧٢ ــ تاريخ الدولة العربية ترجمة محمد عبد الهادي ابو
ريدة ( الطبعة الثانية ــ القاهرة سنة ١٩٦٨ )
٧٣ ــ الخوارج والشيعة ــ ترجمة عبد الرحمن بدوي ،
القاهرة ١٩٦٨
٥١ ــ فيلبي ، جون
٧٤ ــ هارون الرشيد ( مترجم )
٥٢ ــ كاشف ، سيدة اسماعيل
٧٥ ــ مصر في فجر الاسلام ــ القاهرة ١٩٤٧
٥٣ ــ كاهن ، كلود
٧٦ ــ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ترجمة بدر الدين
القاسم المجلد الأول ــ بيروت ١٩٧٢
٥٤ ــ كتابجي ، زكريا
٧٧ ــ الترك في مؤلفات الجاحظ ، بيروت ١٩٧٢
٥٥ ــ كرد علي محمد
٧٨ ــ خطط الشام الاجزاء ١ ، ٢ ، دمشق ١٩٢٢
٧٩ ــ الادارة الاسلامية في عز العرب ــ القاهرة ١٩٣٤
٨٠ ــ رسائل البلغاء ط . القاهرة ١٩١٣ و ط . القاهرة
١٩٥٧
٨١ ــ امراء البيان ــ القاهرة ١٩٣٧
٥٦ ــ كريستنسن
٨٢ ــ ايران في عهد الساسانيين ( ترجمة يحيى الخشاب ،
القاهرة ١٩٥٧ )

٥٧ ـ كريمر
٨٣ ـ الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية ترجمة مصطفى بدر ، القاهرة
٥٨ ـ لسترانج ، غي
٨٤ ـ بلدان الخلافة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٥٤
٨٥ ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ترجمة بشير فرنسيس بغداد ١٩٣٦
٥٩ ـ لويس ، ارشيبالد
٨٦ ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، مترجم ، القاهرة ١٩٦٠.
٦٠ ـ لين بول ، استانلي
٨٧ ـ طبقات سلاطين الاسلام ( مترجم عن الفارسية ) بغداد ١٩٦٨
٦١ ـ مؤنس ، حسين
٨٨ ـ فتوح العرب للمغرب القاهرة ١٩٤٧
٦٢ ـ متز ، آدم
٩٨ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (جزءان) ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة ، ١٩٤٠
٦٣ ـ المدني ، احمد توفيق
٩٠ ـ المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، الجزائر ـ صقلية ١٩٦٩
٦٤ ـ مورينو ، مارتينو ماريو
٩١ ـ المسلمون في صقلية ـ بيروت ١٩٥٧
٦٥ ـ المنجد ، صلاح الدين
٩٢ ـ المنتقى من دراسات المستشرقين ـ القاهرة ١٩٥٥
٦٦ ـ النجار ، محمد الطيب
٩٣ ـ الموالي في العصر الأموي ـ القاهرة ١٩٤٩
٦٧ ـ هل ، يوسف
٩٤ ـ الحضارة العربية ترجمة ابراهيم احمد العدوي ( الألف كتاب ) القاهرة ١٩٥٦

٦٨ ـ فلهاوزن ، يوليوس
٩٥ ـ تاريخ الدولة العربية ( ترجمة ابو ريدة ، مؤنس )
ط . الألف كتاب القاهرة ١٩٥٨

٦٩ ـ اليوزبكي ، توفيق سلطان
٩٦ ـ الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية ـ بغداد ١٩٦٩

٧٠ ـ دائرة المعارف الاسلامية
٩٧ ـ الترجمة العربية ( ١٤ مجلدا ) مواد مختلفة منها .

* *

## ٣ — مراجع باللغات الاجنبية


1 — **Bagdad :** Volume spécial publié a' l'occasion du mille deux centiéme anniversaire de la fondation, Leyden 1962 .

2 — **Barthold, W.**

2 — Turkestan down to the Mongol invasion ( 2 = me ed, London 1928 ) .

3 — **Bouvat**

3 — Les Barmécides d'aprés les auteurs arabes et persans. Paris 1909, 1912.

4 — **Buchler,**

4 — Harun al Rashid and Charles the great, Massachusetts, 1931.

5 — **Brooks,** E. W. . chabot et guidi.

5 — Chronica Minora ( Tome IV du Corp. Scrip. Chris. Or. ) texte et traduction française, Paris 1907.

6 — **Cahen, Claude,**

6 — Points de vue sur la Revolution Abbaside, R. H. 1963.

7 — **Chabot, J. B.**

7 — Littérature Cyriaque, Paris 1934.

8 — **Dennett, D. C.**

8 — Marwan Ibn Muhammad, Harvard University 1939.

9 — **Frye, R. N.**

9 — The Role of Abu Muslim, Mus. world, 37, 1947.

10 — The Abbaside Conspiracy, Imdo - Iranica, III, 1952-1953.

10 — **Ghévond.**

11 — Histoire des Guerres et des conquétes des Arabes en Arménie. ( Tr. française d'aprés la russe ) par Chahnazarian, Paris 1856.

11 — **Gibb, H. A. R.**

12 — The Arab Conquests in Cental Asia, London 1923.

13 — Studies on the Civilization of Islam, London 1962.

12 — **Gibb and Kramers,**

14 — Shorter Encyc, of Islam, ( Brill 1916 ) .

**13 — Graber, O.,**

15 — Umayyad Palace and the Abbassi de Revolution. Stu. Isl. 1963.

**14 — Heyd**

16 — Histoire du Commerce du Levant ( 2 vols. ) 2-me éd. - Paris 1936.

**15 — Khuda Bukhsh, S.**

17 — Contri butions ta the Study of islamic Civilization. ( 2 vols. ) Calcutta, 1929-1930.

**16 — Lane - Pool, Stanley,**

18 — Mohammadan Dynasties, London 1893 ( rep. in Beyrouth ).

**17 — Loekkegaard, F.**

19 — Islamic Taxation in the Classical période, Copenhagen 1930.

**18 — Mihel le Syrien**

20 — Chronique de M. le S. ( Trad Fran. en 3 vole. par. J. B. Chabot ) Paris 1909-1910.

**19 — Muyldermans, J.**

21 — La Domination Arabe en Arménie, ( extrait de l' His, Univ. de Vardan ) Paris 1927.

**20 — De Nisibe, Elie**

22 — Chronographie d' Elie de Nisibe, ( Texte et trad. fran.) Ire Partie par Brooks 2=me Partie Par Chabot, Paris 1900-1902 ( Tome VII et VIII du Corp. Scrip. Chris. Or. )

**21 — Sadighi, Gh. H.,**

23 — Les Mouvements Religieux Iraniens du II° and IIIeme siécle de l' Hégire, Paris 1938.

**22 — Sha'ban, M. Abdelhay**

24 — The Social and Political Background of the Abbasid Revolution Harvard, 1960.

**23 — Sourdel, Dominique**

25 — Le Vezirat Abbaside de 749 à 936 ( 132 à 324 de l' Hégire ) Damas, 1959-1960 ( 2 vols ).

**24 — De Tell Mahré, Denys ( attribué à )**

26 — Chronicon Anonymum Pseudo-Dionysianum ( Tome I et II du Corp. Scrip. Chris. Or. ) Publié Par J. B. Chabot ( Trad. latine ) Paris, 1895.

## استدراكات

طبع الجزء الأول خاصة من هذا الكتاب في دمشق خلال حرب تشرين ١٩٧٣ وما أعقبها ، وكان لا بد في هذه الظروف الاستثنائية من أن يتسرب بعض الاضطراب الى الرقابة الواجبة على طباعته ، وهكذا اسقطت عند الطبع فقرات هامة ، في بعض المواضيع منه وجدنا أن لا مناص من استدراكها في هذه الصفحات التالية ، معتذرين عن ذلك بجانب اعتذارنا عن الأخطاء المطبعيه الكثيرة التي أفردناها للتصحيح في أوراق منفصله .

## الاستدراك الاول

يضاف الى الصفحة ٥١ فيما بين الفقرة الأولى منها والثانية الأسطر التالية :

ومن الضروري ها هنا أن نتناول بالتحليل السريع هذه « العصبية » التي تصور على أنها مجرد عاطفة قبلية عمياء وظاهرة بدوية تحيي عصبيات الجاهلية الأولى ، والواقع أنها ، في الأعماق ، مشكلة اقتصادية معاشية نجمت عن نزول القبائل العربية واستيطانها للأراضي المفتوحة سواء في الشام أو في خراسان أو في مصر أو الأندلس وعن الزحام فيما بينها على المناطق الأشد خصباً واحتجازها لذوي قرباها . فقد كانت الجموع النازحة من الجزيرة نتيجة الفيض الديموغرافي ( السكاني ) والتطوع في الجيوش تفضل عند الاستيطان ، في أي مكان ، منازل القبائل العربية ذات القربى أو الجوار السابق معها فعرب الجنوب يجتذبون أمثالهم ليقووا بهم وعرب الشمال من قيس يفضلون بدورهم النزول قرب أصحابهم . ولا تستوي الأرضون في الخصب ولهذا يتزاحمون على

المنازل الأكثر خصباً ويتعصب بعضهم لبعض عند النزاع أثناء هذا الانتقال من الطور البدوي في الحياة الى الطور الزراعي • وكان ميل الخلفاء الى قبيل دون آخر يعني توفر الرزق الأوفى والأرض لذلك القبيل • وإنما أخذ هذا النزاع القبلي شكله الحاد في الشام لأن الزحام فيها لم يكن على الأرض وحدها ولكن على القيادات أيضاً والولاية ووظائف الدولة والبروز في البلاط ••• مما كان يجعل الدولة باستمرار تعتمد على قسم من العرب لا على كل العرب •

فلما جاء مروان وحاول الخلاص من هذا الانقسام وعبر عن ذلك بالغاء الشكل القبلي للجيش شعر الطرفان بالخسارة وبضياع المصالح التي كانوا يؤمنونها عن طريق التعصب القبلي •

## الاستدراك الثاني

ومكانه في الصفحة ١٧٥ فيما بين الفقرة ٢ و ٣ :

على أن البنى الاجتماعية قد تطورت تدريجياً خلال العصر العباسي الأول حتى إذا شارف نهايته وجدنا شيئاً كثيراً من التباين قد ظهر ما بين المجتمع الأموي الأخير والمجتمع العباسي في أواسط القرن الثالث • فالارستقراطية الاقطاعية الآحادية العنصر وشبه المغفلة التي كانت قوام الحكم الأموي أضحت متعددة العناصر منفتحة لكل متمول ومغامر بدخول مختلف الأقوام في الاسلام وأخذها مكانها ضمن نطاقه • والفروق الطبقية ازدادت وضوحاً مما نجم عنه ظهور طبقات من المعدمين واسعة العدد في المدن خاصة ، في الوقت الذي ازدادت فيه أعدادالأرقاء من جميع الأجناس من هذه المدن كما كان بعضهم يستخدم في الزراعة بأعداد واسعة في الريف • واتسعت بجانب الطبقة الاقطاعية ـــ العسكرية طبقة البورجوازية التجارية وشكلت القمم العليا منها طبقة مالية غنية جداً

لم تكن أقل تأثيراً من الاقطاعية العسكرية في توجيه سياسة الدولة من جهة وفي تعميق الهوة الاجتماعية بين الطبقات العليا الموسرة والطبقات الدنيا المحرومة من جهة أخرى •

وقد عبرت هذه التناقضات عن نفسها في عدد من الثورات والانتفاضات والأفكار الاجتماعية الثورية والتنظيمات السرية • ولئن ارتدى بعضها الرداء الديني فان بعضها الآخر لم يخف شكله الطبقي أو الطائفي أو العنصري والقومي •

## الاستدراك الثالث

ومكانه في الصفحة ٢٧٠ بعد الفقرة الثانية التي تنتهي بكلمة : أو قليل منها •

الرابعة : أن استعراض اسماء القواد والزعماء في هذه الثورات يبين أنها أسماء ايرانية خالصة تقريبا ( به آفريد ، سنباذ ، أستاذسيز ، بابك ••• الخ ) كما ان مراقبة الأخبار التي ذكرت عن أنصارها تكشف بالمقابل أنه لم يكن بينهم جماعات من الطبقة الارستقراطية وأن الذي كان يستجيب للثوار هم الجماهير الدنيا والعامة • وهذا وذاك انما يعنيان على الأقل أن هذه الجماهير قد استشعرت في مواقف الطبقات الايرانية العليا المتحالفة مع النظام الاسلامي والمتعاونة معه نوعاً من التخلي عنها فأطلعت من بينها الجماعات والحركات التي تعبر عن رفضها لذلك النظام الذي تعاديه ويعاديها دينياً والمتحكم سياسياً في شؤونها بالرغم منها والمرهق لها مالياً ــ بالاتفاق مع الموابذة والجهابذة والدهاقين والمرازبة ــ بالضرائب والذي ما ينفك يجتذب أنصارها الى جانبه باعتناق الاسلام • وهكذا فهي لحد كبير حركات طبقية اكثر بكثير منها حركات قوميـــة •

# الاستدراك الرابع

ومكانه في الصفحة ٢٧١ بعد الفقرةالثانية المنتهية بكلمة : اشتراكية النساء •

وإذا تذكرنا حركةخداش المبكرة سنة ١١٦ ثم حركة بهافريدسنة١٢٩ وتستر الدعوة العباسية على الحركتين وقبولها لهما قبل أن يفتضح علناً أمر مخالفتهمـا لعمود الدين الاسلامي أمكننا أن نتصور أن الدعـاة العباسيين استثاروا وجندوا لمصلحة الدعـوة في خراسان تلك الأفكار الدينية بين الناس • وإذا حملت حركتهم اسم « الهاشمية » فان فرعاً هاماً منها قد اندفع الى التطرف وحمل اسم « الراوندية » ويبدو أن بعض الدعاة من قرية راوند ( ومنهم عبد الله الراوندي أحد الدعاة السبعين ) هم الذين قالوا أو كانوا أول من قال ببعض الآراء المتطرفة ومنها رفع الإمام الى مقام النبوة أو الألوهية والاعتقاد بأنه عالـم بكل أمـر وله « العلم الإلهي » • وإذا لم يعرف عن العباسيين ادعاء النبوة أو ما هو أعلى منها فانا نعرف أن المنصور كان يدعي معرفة « العلم الإلهي » وأن لديه صحفه التي كانت تمثل « ارث الكيسانية » الحقيقي المادي •

ومن الصعب وضع الراوندية وحركتها في إطار واضح لا بسبب تعدد فرقها ولكن أيضاً بسبب تطور أفكارها ودعوتها وإضافة الكثير اليها مع مرور الأيام ومع تطور الأحداث في العصر العباسي الأول • على أننا نستطيع مع ذلك أن نسجل حولها الملاحظات التالية :

١ ) هي في الأصل حركة شيعية عباسية ولكنها مغالية • وقداشتقت من الشيعة الهاشمية ويسميهم ابن النديم « أبناء الدولة العباسية »[١]

---

(٢) ابن النديم ـ الفهرست ص ٢٠٤ ( ط • فلوجل ) •

وقد مشت الحركة في دروب الغلو درجة بعد درجة مفترقة ، عنـد كل إضافة فكرية جديدة إليها ، الى فروع متعددة متناثرة .

٢ ) احتفظت بالولاء العباسي بعد قيام العباسيين ولكن معظم فروعها إنما تعلقت بأبي مسلم وذكرى أبي مسلم . وتغيرت أفكارها وآراؤها من بعد نتيجة للظروف .

٣ ) تساهل العباسيون أيام الدعوة ثم بعد قيام الدولة مع هـذه الفرقة الداعية لهم . لم يتبرأوا منها إلا حين أضحى السكوت عنها اتهاماً للعباسيين بالكفر . وهكذا تبرأ محمد الامام من خداش بعد هزيمته . وسحق أبو مسلم ثورة أبي اسحق الراوندي بعد سيطرته على خراسان وتوطد أمره فيها . ثم سحق الثورة الأخرى التي قام بها ثائر آخر اسمه أبو خالد وألجأه الى الفرار الى ما وراء النهر بعـد أن تقبل حركته في خراسان ورضي بها . وتسامح أبو جعفر مع الراوندية فلم يقتلهم الا حين هدده هجومهم على قصره بالقتل .

٤ ) بلغت الراوندية أوج نشاطها وحركتها ما بين أواخر العهـد الأموي حتى أواخر عهد المهدي ثم اضمحل شأنها بالتدريج بعد ذلك مع توطد الصفة الدينية للخلفاء العباسيين واستقرار الدولة في أيديهم . لـم يعد للأفكار الراوندية من وظيفـة تقوم بها فاندمـج أنصارها – على ما يظهر – في الفرق الشيعية الغالية الأخرى واقتصر نشاط الباقين على الفكر الراوندي ، في مجال الفكر الفلسفي التشيعي والتأليف فيه .

٥ ) ظل المركز الرئيسي للتحرك الراوندي في خراسان ، حيث قامت الدعوة العباسية الأولى وإذا لم يظهر لها من أثر أو من أثر واضـح في العراق – فيما عدا بغداد – فيبدو أن ...

## الاستدراك الخامس

ومكانه في الصفحة ٤٣٤ بعد الفقرة الثانية التي تنتهي بكلمة : بدلا منه .

ولا بد لنا من الاشارة أخيراً هاهنا الى أمر خطير هو صلة هـذه المشكلة العهدية مع المشكلة البرمكية . فالذي يبدو من التدقيق في الكتاب الذي أصدره الرشيد ووزعه على الناس عقب البيعة في الكعبة لولديه ، وقبيل أسبوع واحد من مصارع البرامكة أن قضية العهد والكعبة والايمان كلها إنما كانت « لحسم كيد أعداء النعم » البرامكة الذين كانوا يتآمرون للايقاع بين الأخوين ولسلبهما ــ كما يقول الكتاب نفسه ــ حقهما في الخلافة.وربما كان البرامكة يعملون لمصلحةعبدالملك ابن صالح العباسي كما سوف نرى عند بحث المشكلة البرمكية .

## الاستدراك السادس

ومكانه في الصفحة ٤٨٦ بعد المقطع الأول في منتصف الصفحة :

حادي عشر : ويلاحظ بجانب هـذا كله أن الرشيد سبق نكبته للبرامكة بتنظيم قضية ولاية العهد لولديه الأمين والمأمون ، ونجد سواء في نصوص الوثائق المتعلقة بذلك أو في توقيت الأحداث وتواليها نوعاً من العلاقة الأكيدة بين الحادثين تكشف أبعاد النكبة وتلقي الضوء الحقيقي عليها وعلى الطريقة التي كانالمتآمرون من البرامكة مع عبدالملك ابن صالح العباسي يدبرونها لسحب العرش من تحت الرشيد أو أولاده:

فقد كتب الرشيد الى العمال في الآفاق كتاباً بتوطيد ولاية العهد للأخوين الأمين والمأمون وطلب الى العمال « قراءته على الناس وإفهامهم إياه وإثباته في الديوان ولدى قواد أمير المؤمنين ... » . وفي الكتاب

المؤرخ لست ليال بقين من المحرم سنة ١٨٧ نص هام يقول : « ... ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ... ولعبد الله من بعده يعمل فكره ورأيه ونظره ورؤيته فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية والجمع للكلمة واللم للشعث والدفع للشتات والفرقة والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها بانتقاص حقهما . ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على مافيه الخيرة لهما ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وائتلاف أهوائهما وصلاح ذات بينهما وتحصينهما من كيد أعداء النعم ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما . فعزم أمير المؤمنين على الشخوص بهما الى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع والطاعة والانفاذ لأمره ... والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع إلفتهما ومودتهما ومؤازرتهما ومكاتفتهما ... والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة ومسر لها . وكل منافق ومارق وأهل الأهواء الضالة المضلة من تكيد بكيد توقعه بينهما ... وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض والدعاء الى البدع والضلالة ... نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته ... وذبا عن سلطان الله الذي قدره ... »[1] .

وهذه الوثيقة لا تكشف فقط عن مخاوف الرشيد القديمة وتفكيره الدائم في صيانة العرش له ولأولاده ولكن تكشف أيضاً الأمر

---

(١) انظر النص الكامل لدى الطبري ج ٨ ص ٢٨٤ – ٢٨٥ ( ٣/٦٦٤ – ٦٦٥ ) وانظر ص ٢٨٦ .

الأهم وهو وجود « جماعة » معينة وصفها الرشيد ثلاث مرات بأنها « أعداء النعم » كما وصفها بأنها من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق و « من أهل الأهواء الضالة المضلة » وأشار الى أن هؤلاء أعداء المسلمين وأن بعضهم يظهر العداوة وبعضهم يبطنها . كما ذكر أن هؤلاء كانوا يكيدون ويحسدون ويمكرون ويبغون ويسعون بالفساد بين الولدين . وأنه كان لهم « آمال » و « فرص » يرجون ادراكها وانتهازها من الولدين لانتقاص حقهما .. » .

وهذا كله يعني أن الرشيد كان مدركاً أن ثمة مؤامرة كاملة تدبر وأنها تستهدف ازاحة الأخوين معا لمصلحة مرشح مكتوم لا شك أن الرشيد عرف من يكون .

وفي الوثيقة الى هذا وذلك ربط ما بين « كيد أعداء النعم » وبين الخطوات التي اتخذها الرشيد لمقاومتهم وهي الخطوات التي بدأت بمسير الرشيد بولديه الى الكعبة والبيعة الموثقة لهما هناك في بيت الله المعظم وإشهاد تلك الجماعة الواسعة التي صحبها الرشيد معه عامداً الى الحج من أهل بيته ومن البرامكة ومن القضاة والقواد والناس وأخيراً إشهاد الرعية جميعاً في كل مكان وذلك بنية « قطع طمع كل عدو مظهر للعداوة أو مسر لها » وبغية إضفاء الطابع الديني والجماعي معا لا على مراسم العهد وحدها فقط ولكن على ما سوف يتلوها من أعمال ... لا شك أن منها الفتك باعداء النعم هؤلاء . وقد ألمح الرشيد في الوثيقة نفسها الى أنه « كان يستخير الله ويسأله العزيمة في أمر الله وحقه ... » لتخلص من هؤلاء الذين تكشف الوثيقة نفسها أنهم كانوا كابوس الرشيد وهاجسه المرعب .

ويستبين أمر هذه العزيمة من التوالي الزمني للأحداث : فقد علقت العهود في الكعبة في موسم الحج سنة ١٨٦ ( حوالي عيد الأضحى العاشر

من ذي الحجة ) ثم أرسلت الكتب الى العمال ( بنص الوثيقة الذي ذكرنا بعضه ) في ٢٣ من المحرم سنة ١٨٧ أي بعد شهر ونصف من الحج هي مسافة طريق العودة من الحج مابين الحجاز والعراق • ثم قتل جعفر البرمكي وبدأت النكبة بعد سبعة أيام من ذلك في أول ليلة من صفر سنة ١٨٧ وهذا التوالي الزمني يرجح وجود العلاقة الأكيدة بين الحادثين •

ولم يكن الشق الآخر من أصحاب المؤامرة المفترضة وهو عبدالملك ابن صالح العباسي بالبعيد في ذلك الوقت نفسه لا عن ظنون الرشيد ولا عن رقابته فان الطبري يورد في هذا الصدد خبرا نقله عن زيد بن علي بن الحسين العلوي يقول أن عبد الله بن مالك صاحب شرطة الرشيد دخل عليه لما حبس عبد الملك ( اثر نكبة البرامكة ) يقول له : لا ! والله العظيم يا أمير المؤمنين ما علمت عبد الملك إلا ناصحاً فعلام حبسته ؟ قال : ويحك بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ابني هذين ( يعني الأمين والمأمون[1] ••• ) ونستطيع أن نضيف الى هذا خبرين آخرين أوردهما الطبري أيضاً :

الأول : أن الرشيد قبيل القبض على عبد الملك فاتحه فيما بلغه عنه من قبل ابنه ومولاه ثم قال : أما أمرك فقد وضح ! ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضي الله فيك • ثم دخل عبد الملك عليه في مجلس آخر وسلم فلم يرد عليه السلام فلما طالبه برد التحية ( وهو فرض ) قال الرشيد : السلام عليك اقتداء بالسنة • ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك :

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٠٥ ( ٣/٦٩٢ ) •

أريد حياته ويريد قتلي ... ( البيت )[1] .

الثاني : سؤال الرشيد ليحيى بن خالد البرمكي وهو في السجن عن عبد الملك بن صالح الذي ـ كما قال ـ « أراد الخروج ومنازعتي في الملك . وقد علمت ذلك . فأعلمني ما عندك ... » .

وإذا أضفنا الى هـذا في النهاية أن الرشيد نفسه كان مريضاً بالسرطان . وكان يداري علته ويخفيها ويحملها في جلده صابراً مكابراً ، وضح التسلسل المنطقي كله للنكبة : فقد كان الرشيد يرى شبكة واسعة من « أعداء النعم » البرامكة وعبد الملك العباسي . الأوائل « أهل الكفر والنفاق والعداوة المستترة والمكر والبغي والدعاء الى البدعة والضلالة والأخير صاحب الغل والشقاق والحسد والمكر المنافق المارق وصاحب الأهواء الضالة المضلة . وكان الطرفان يكيدان ـ بالاتفاق فيما بينهما على الأرجح ـ ويسعيان بالفساد بين الأخوين ويعللان الآمال « بفرصة يرجون إدراكها منهما بانتقاص حقهما » ولا شك أن هذه الفرصة المنتظرة هي موت الرشيد الوشيك ( بالمرض أو بالقتل ) ثم ضرب الأخوين أحدهما بالآخر لإزاحة الاثنين وتولية عبد الملك بدلا منهما . وكان جواب الرشيد على هذه المخططات التآمرية أنه نظم أولاً ولاية العهد للولدين وربطهما بمقدسات المسلمين في الكعبة ثم بالشرعية العامة عن طريق البيعة أمام القضاة والشهود والناس وفي الأمصار ولدى القواد . ثم ضرب ضربته بعد ذلك بالشكل المفاجىء العنيف ليقطع الطريق على كل ردة فعل ويقطع « طمع كل عدو » وأعطى هذه الضربة صورة الجهاد باعتبارها « ذباً عن سلطان الله الذي قدره ... » .

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٠٤ ( ٣/ ٦٩٠ ) والبيت معروف يقول :

أريد حياته ويريـد قتلي      عذيرك من خليلك من مراد

ولعلل للمفاجأة وللعنف تفسيرهما أيضاً فانه لم يكن ليغيب بكل تأكيد عن خاطر الرشيد ، على أي حال ، أن أخاه وأباه قد قتلا في مؤامرات بلاطية كان هو نفسه مع والد البرامكة ضالعين فيها • ولم يكن ليغيب عنه سعة نفوذ البرامكة وكثرة أعوانهم المخلصين ومن حقه إذن أن يخشى الوقوع بدوره ضحية لمؤامرات من مثلها أو اغتيالات قد تدبر ضده • هذا الى أن مرضه المميت من شأنه أن يعطي تصرفاته صفــة القسوة والانتقام الرهيب المتطرف • وهذا كله مما يفسر أنه ضرب ضربته وهو خارج بغداد ، في الأنبار ، ويفسر السرعة المفاجئة فيها ويفسر أخيراً هربه الدائم من بغداد الذي نذكره في البند التالي •

ثاني عشر : فثمة أمر هام ••••



# كشاف الأعلام

## للجزء الأول

## ـ ب ـ

## ت

## ث



## ج

## ح

## خ

## د

## ز

## س

## ق

ك

ل



م

## ن

## — هـ —

— و —



— ي —

ت



ث



ج

ح

## خ

## ش

## غ

## ن

## و



## هـ

## ي



# الفهرس

**الفصل الأول :**



**الفصل الثاني :**

**الفصل الخامس :**

**الفصل التاسع :**



**الفصل العاشر :**

* * *



# تصويـــب

## الجزء الثاني من دولة بني العباس

مرة اخرى نضطر آسفين الى تصويب بعض الأخطاء المطبعية التي لم يكن مناص من أن تتسرب الى الكتاب في جزئه الثاني ايضاً وليس بالامكان التغاضي عنها. ونرجو ان تصحح قبل القراءة ولم نسجل على اي حـال سوى الهام منها .

| الصفحة | السطر | الخطـأ | التصويب |
|---|---|---|---|
| ٨ | بين ٧ و ٨ | تنقص الفقرة التالية : | ٤ ـ توطيـد المذهب السنـي وتبنيه كمذهب رسمي للجماعة الاسلامية لمقابلـة الاتجاهـين الفكريين العلـوي والخارجـي بمذهب فكري متكامل . |
| ٩ | ٢ | من اهل الرسول | من حق أهل الرسول |
| ٩ | ٦ | ٦ المستخدمتين | المستمدتين |
| ١١ | ١٤ | الحكم من | الحكم عن |
| ١٢ | ١٦ | وارثة وموروثة | وارثه ومورثه |
| ١٢ | ١٨ | فأدركنا من ما | فأدركنا منه ما . . . |
| ١٦ | ٥ | من دون يتم | من دون تيم |
| ١٦ | ٨ | ولا تقدمكم | ولا تقدكم |
| ١٦ | ١٠ | يصحح بيت الشعر كما يلي | إن الخلافة مذ كانت ومذبدات موسومة بفتى من آل عباس |
| ١٩ | ١١ | الناس اجبتوك | الناس اجتبوك |
| ٢١ | ٥ | وحضنا | وخصنا |
| ٢٦ | ٤ | المقرنة | المقرونة |
| ٢٨ | ٥ | بدأ | بـدا |

| الصفحة | السطر | الخطأ | التصويب |
|---|---|---|---|
| ٣٠ | ٥ هامش | المنصور قبل | المنصور وهو خليفة قبل |
| ٣٤ | ١١ | يتقرب | تقرب |
| ٣٥ | ١٤ | ولو لم يكن | ولم يكن |
| ٣٨ | ١٣ | اسمه مقلاصا | اسمه مقلاص |
| ٤١ | ٢١ | المتوكل | المعتصم |
| ٤٨ | ١٠ | وعرفنا | عرفنا |
| ٤٨ | ١٧ | وصفها | وضعهـا |
| ٥٢ | ٢ | سياسته | سياسة |
| ٥٣ | ١٤ | الجمض | الجعفى |
| ٥٣ | ٢٠ | الخض | الخفى |
| ٥٤ | ٥ | تخرجهم | تحرجهم |
| ٥٦ | السطر الأخير | الله إن | والله إني لأعلم أن |
| ٥٨ | ١٢ و ١٣ | | تحذف الكلمات المكـررة حتى كلمة : للنصيحة |
| ٦٥ | ١ | وتذخر | وتزخر |
| ٦٧ | ١ | الواشحة | الواشجة |
| ٦٧ | ١٠ | انجم | الجم |
| ٦٧ | قبل الآخر | ضعف | صنف |
| ٦٨ | ١١ | المغزلي | المعتزلي |
| ٧٠ | ١ | وإذا كان من مذهب | وإذا كان مذهب |
| ٧٢ | ١٦ | انطلق | انطلقا |
| ٧٥ | ١ | وكأن | وكان |
| ٧٦ | ١٣ | السطر مكرر ويكتب بدلاً عنها | العقلية ضمن إطار الاسلام لمختلف القضايا التي يثيرها الايمان لأن القرآن . . . |
| ٨٠ | ٧ | كان | كأن |
| ٨٠ | ١٨ | الفرصة | الفرضية |
| ٨١ | ٣ | ومى ذلك | ومع ذلك |
| ٨١ | ٦ | السياسي عن | السياسي غير |

| الصفحة | السطر | الخطأ | التصويب |
|---|---|---|---|
| ٨٢ | ٣ | او يقول | أو القول |
| ٨٢ | ١٢ | البراهن | البراهين |
| ٨٥ | ٧ | كانوا يشغبوا | كانوا يشغبون |
| ٩٧ | ١ | كتابة خفيفة | كتابة ضعيفة |
| ١٠٢ | ١٤ | إنما في ذلك للنصراني | إنما تستعمل في ذلك العصر النصراني |
| ١٠٣ | ٨ | ونماذج | وتمازج |
| ١٠٤ | ٩ و١٠ | التطبيق العطبي التطبيق العملي | مكررة ولذلك تحذف وتتصل الجملة |
| ١٠٧ | الأخير | عبدة الرقوس | عبدة الرؤوس |
| ١٠٩ | قبل الأخير | مرغمة التطبيق | مرعية التطبيق |
| ١١١ | ٣ | وبديهي انه | وبدهي أن |
| ١١١ | ٦ | بل تعد هذه | بل تعد هذه الفترة |
| ١١٣ | ١ | فان الذميين كانوا | فان الذميين الذين كانوا |
| ١١٩ | ٦ | من النصارى | من النصارى بهذا |
| ١٣٥ | ١٤ و١٦ | حنا ينشوع | حنا نيشوع |
| ١٣٧ | ١٢ | وشال البطريق | وسال البطريق |
| ١٣٧ | ١٣ | ادخل عليم افرام | ادخل عليه أفرام |
| ١٤٢ | ٢ | لأن لم تسمع | لأنا لم نسمع |
| ١٤٣ | ١٣ | اي خطر | اي حظر |
| ١٤٣ | ٨ | لهم بغداد | لهم في بغداد |
| ١٤٨ | ١٥ | الصور القائمة | الصُبور القائمة |
| ١٤٩ | ٣ | تكون القيمة هي | تكون القيمة الأولى هي |
| ١٦٦ | قبل الأخير | الصلبان | رفع الصلبان |
| ١٦٨ | قبل الأخير | من قلانسهم | في قلانسهم |
| ١٧٣ | ١٢ | وأساسه | وأسامه |
| ١٧٣ | ٧ | الاقطاث | الاقطاع |
| ١٧٩ | ١٨ | مسألة اياي | مسالته إياي |
| ١٨١ | ٤ | كتاج | كتاب |

| الصفحة | السطر | الخطأ | التصويب |
|---|---|---|---|
| ١٨١ | ٦ | المقتطفات في | المقتطفات وكتب في |
| ١٨٢ | قبل الأخير | وكتاب في | وكتاباً في |
| ١٨٨ | ٤ | البغن | الغبن |
| ١٩١ | ٢ | التكوين الهدف | التكوين والهدف |
| ١٩٣ | ٧ | مغبنان | معتيان |
| ١٩٣ | الأخير | اذا أضحت | إذ أضحت |
| ١٩٤ | قبل الأخير | كان يعزو | كان يغزو |
| ٢٠١ | ١٧ | عبد القدوس ولنذكر | عبد القدوس والجعد بن درهم ولنذكر |
| ٢٠٩ | ١٩ | اسكن النار | اسكن النارا |
| ٢١٣ | ٨ | بكتاب على | بكتاب الرد على |
| ٢١٤ | ١١ | سبع سنوات (١٦٣ ــ | اربع سنوات ( ١٦٧ ــ |
| ٢٢٣ | قبل الأخير | سنوات رؤساء | سنوات ثلاثة رؤساء |
| ٢٢٤ | ١٧ | الزائفة | الزائغـة |
| ٢٢٥ | الأول | الشكاك ... | يضاف بعد هذه الكلمة ما يلي : كما اهتم الشيعة بالرد عليهم وقد كتب أبو محمد هشام بن الحكم الكوفي مولى شيبان وهو من أصحاب جعفر الصادق ومن متكلمي الشيعة ( سنة ١٩٠ و سنة ٢٠٠ ) كتاباً في الرد على الزنادقة وكتاباً في الرد على أصحاب الاثنين . |
| ٢٢٥ | ١٨ | السطر مكرر | يحذف السطر ويكتب بدلا عنه: بجانب بغداد أو في خراسان وما وراء النهر ولم تشمل المكافحة المانويين وإلا انتهت .... |
| ٢٢٧ | الاول | بعرض | يعرض |

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٢٢٧ | ٥ | العصري | البصري |
| ٢٢٩ | ٩ | جعلت الله عهداً | جعلت لله عهداً |
| ٢٢٩ | ١٧ | وربطة | وبطـة |
| ٢٣١ | ١٦ | كالذي من أمر | كالذي كان من أمر |
| ٢٣١ | ١٧ | ابنه | ابنــة |
| ٢٣٢ | ٣ | انتهى | انتهت |
| ٢٣٢ | ٨ | تفرح بها | تفرح بمكافحتها |
| ٢٣٣ | ١٧ | المجاورة | المحاورة |
| ٢٣٤ | ١٧ | ملاحظة | ملاحقــة |
| ٢٣٥ | ١٨ | من الكبت | من الكتب |
| ٢٤٤ | ١٥ | الى الجس | إلى الحبس |
| ٢٤٥ | ١٢ | وحيثا | وحيثما |
| ٢٤٧ | ١٧و١٨ | مكانهما غير صحيح | يوضع السطر١٧ بعد السطر١٨ |
| ٢٥٣ | قبل الأخير في الهامش | بطريق | بطريق البطارقة انطاكية |
| ٢٥٥ | ٢ | والصبيان لهم | والصبيان جعلت لهم |
| ٢٥٦ | قبل الأخير | منها | بينهمـا |
| ٢٥٦ | الهامش ١ | ينقصه اسم المرجع | Bury صفحات ٢٣١ ، ٢٥٣ ـ ٢٥٤ |
| ٢٥٨ | ١٣ | المصحفان | المصمفان |
| ٢٦٠ | ٨ | الجبلية لم | الجبلية ولم |
| ٢٦٠ | ١٨ | فانقطوا | فانقطعوا |
| ٢٦١ | ٣ | سلام | سلم |
| ٢٦٦ | قبل الأخير | منبوذين محرم | منبوذين محرما |
| ٢٧٢ | ٦ | وطولا الهند | وطولا وكاتب الهند |
| ٢٧٤ | ١٣ | والقصة لو | والقصة ولو |
| ٢٧٥ | ٧ | بالتوجد | بالتوحيد |
| ٢٧٦ | ٦ | وصل سنة | وصل احدها سنة |
| ٢٧٩ | ٩ | الخزلخية | الخرلخية |

| الصفحة | السطر | الخطأ | التصويب |
| --- | --- | --- | --- |
| ٢٧٩ | ١٠ | جيفونة | جيفونية |
| ٢٧٩ | ١١ | بيفو | يبغو |
| ٢٨٠ | ١٠ | (الاتراكوالايرانيون) | ( الاتراك والايرانيين ) |
| ٢٨٤ | ٧ | ازمينية منطقة | ارمينية في منطقة |
| ٢٨٧ | ٧ | تهور ... التهور | تهود ... التهود |
| ٢٨٨ | ١ | وحرامة | وصرامة |
| ٢٨٨ | ٨ | حلت بالآــمن | حلت بالأرمن |
| ٣٠٠ | ١ | مناظر | عناصر |
| ٣٠١ | ١١ | مع الروم هي | مع الروم هو |
| ٣٠٤ | ٨ | الثغرالأولسنة١٧٥ | الثغر ألاول سنة ٧٨٥/١٦٨ |
| ٣٠٨ | السطر الأخير | ( ١٧٠ ــ ١٨٠ ) | ( ١٧٠ ــ ١٨٦ هـ ) |
| ٣١٩ | ١٣ | بن آلمين ... الصانفة | بن أعين ... الصائفة |
| ٣١٩ | ٢١ | شاهن | شاهك |
| ٣٢٠ | ١٢ | العمودية | العمورية |
| ٣٢١ | ١٠ | فلم يجد | فلم يجبه |
| ٣٢٥ | ١٥ | قلى نهر | على نهر |
| ٣٣٠ | ٤ | الهارونة | الهارونية |
| ٣٣٧ | ١٤ | بيزنطة دوماً | بيزنطة دوماً وقد شكلوا لديهم فرقة حربية حاربت بجانب الروم . |
| ٣٤٥ | ١٠ | موار المنايا | موارد المنايا |
| ٣٤٥ | ١٥ | وإثاروا المعارضة | وإثارا المعارضة |
| ٣٦٩ | ٧ | مهمل هذه | مهمل هو |
| ٣٧٣ | ٢ | يرمفون | يرفعون |
| ٣٧٦ | ١١و١٢ | ولم تتبدل ... ولم تتبدل | تحذف إحدى الجملتين |
| ٣٨٢ | الأخير | وإذا انقسم | وقد انقسم |
| ٣٨٧ | ٥ | ونلفت النظر | ويلفت النظر |
| ٣٨٧ | ١٢ | تناصر | تناحـر |

| الصفحة | السطر | الخطأ | التصويب |
|---|---|---|---|
| ٣٩٣ | ٩ | إن انه | الا انه |
| ٣٩٦ | الأول | عرضته فليه | عرضته عليه |
| ٤١٢ | ١٥ | في طرطوس | في طرسوس |
| ٤١٩ | ٣ | الواثق إلم | الواثق الى |
| ٤١٩ | ١٨ | خيطئة | خطيئة |
| ٤٢١ | ٤ | طالب ما احسن | طالب مثل ما احسن |
| ٤٢٣ | ٣ | بالتحدث | بالتحديث |
| ٤٢٨ | عنوان الفصل | الفصل التاسع عشر | الفصل السابع |
| ٤٣٠ | ٣ | سكة النجارية | سكة البخارية |
| ٤٤٩ | ١ | الفي الفي | الفي الف |
| ٤٥٢ | ١٥ | النبوية | البنوية |
| ٤٥٥ | الأخير | النبوي | البنوي |
| ٤٥٩ | ١٢ | الفراعنة | الفراغنة |
| ٤٦٣ | ١٢ | ولعل ما يفسر | ولعل هذا ما يفسر |
| ٤٦٧ | ١٧ | مخلف | مخلد |
| ٤٧٦ | ٤ | محاكمة | محاكمته |
| ٤٧٧ | ١٣ | السطر مكرر | يحذف ويكتب بدلا منه ما يلي : يعزو هذه النصيحة الى حقد القاضي على الأفشين لكلام بلغه عنه فانها .... |
| ٤٧٩ | ٢٠ | فأبقى | فأبى |
| ٤٨٠ | ٣ | سامهم ... آخرين | سهامهم ... آخرين |
| ٤٨١ | ١٣ | على الشكل ورد | على الشكل الذي ورد |
| ٤٨١ | السطر الأخير | على وجها | على وجهها |
| ٤٨٦ | ٢ | فجاء من المدينة | فجاء به من المدينة |
| ٤٨٦ | ٦ | وامره بهدم | وامر بهدم |
| ٤٩٠ | ٧ | تحولا متقطع | تحولا متقطعا |
| ٤٩٦ | ٤ | اسواق النحاسة | اسواق النخاسة |
| ٤٩٦ | السطر الأخير | ولكن حدد | ولكن جدد |
| ٤٩٧ | ٣ | بلدة برعة | بلدة بردعة |

| الصفحة | السطر | الخطأ | |
|---|---|---|---|
| ٤٩٩ | ١٩ | رغم ما يلقيهم | رغم ما يلقيهم ذلك |
| ٥٠١ | ٣ | وان حروف | وان صروف |
| ٥٠٣ | ١٦ | سنة ٦٢٩ | سنة ٢٢٦ |
| ٥٠٥ | ٥ | ثم صنع السيف | ثم وضع السيف |
| ٥٠٦ | ١٥ | بيهس المبرقع | بهيس والمبرقع |
| ٥٠٦ | ٢١ | ابنتت نياتاً | انبتت نباتا |
| ٥٠٧ | ١٧ | سوى ان نجد | سوي أنا نجد |
| ٥٠٧ | ١٨ | يترحل ثلاث | يترحل بعد ثلاث |
| ٥١٢ | ٢ | التمرد من قليل | التمرد في قليل |
| ٥١٢ | ٨ | حمص سنة | فيه حمص سنة |
| ٥١٥ | ٥و٦ | منذ هذه الفترة حتى سقوطها | جملة زائدة . تحذف |
| ٥١٨ | ١٣ | اخرى برنيق | اخرى منها برنيق |
| ٥١٨ | ١٤ | اجداية | اجدابية |
| ٥٢٦ | ١٤ | يبدو انه المراكب | يبدو أن المراكب |
| ٥٢٩ | الاول | لهذا التبرير | لهذا التدبير |
| ٥٣٣ | ١٣ | وحقر ملوكهم | وحضر ملوكهم |
| ٥٤٤ | الأخير | فرضه | فرضته |
| ٥٦٢ | ٣ | السبب فيها فشل الحملة | السبب في فشل هذه الحملة |
| ٥٦٥ | الأخير | تنصيبهم | تنصيب |
| ٥٧١ | ١٥ | فوضح الملح | فوضع الملح |
| ٥٧٥ | ١٧ | المخدود | المحدودة |
| ٥٧٩ | ١١ | شراذمة | شراء ذمة |
| ٥٨١ | ١٥ | غشاء أجوى | غشاء احوى |
| ٥٨٢ | ٩ | آسيا الصغرى | آسيا |